عباس محمود العقاد

إسلاميات

دار المعارف

إسْلاميَّات

● الطبعة الأولى ١٩٦٩ دار الشعب.
● الطبعة الثانية ١٩٨٥ دار المعارف.

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج.م.ع.

مَطْلَعُ النُّور

عَبْقَرِيَّةُ مُحَمَّد

عَبْقَرِيَّةُ الصِّدِّيق

عَبْقَرِيَّةُ عُمَر

عَبْقَرِيَّةُ عَلِيّ

عَبْقَرِيَّةُ خَالِد

الحُسَيْن أبُو الشُّهَدَاء

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاء

مَطْلَعُ النُّور

أو

طَوَالِعُ البَعْثَةِ المُحَمَّدِيَّة

مقدمة المقدمات

مطلع النور عنوان هذه الصفحات

ومدار البحث فيها على البعثة النبوية – بعثة محمد عليه السلام – وما تقدمها من أحوال العالم، وأحوال جزيرة العرب، وأحوال الأسرة الهاشمية، وأحوال أبويه الشريفين.

ويدور البحث فيها على نوعين من المقدمات:

مقدمات تمهد لنتائجها وتفضى إليها.

ومقدمات تأتى النتائج بعدها كأنها رد فعل لها، وعلاج لأسبابها وعواقبها.

مقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الموت، فهو نتيجته وعقباه على الشرعة المعهودة فى طبائع الأشياء.

ومقدمات من قبيل الداء يأتى بعده الدواء، فليس هو بنتيجة له إلا على معنى واحد، وهو لحاق الدواء بالداء، وظهور الشفاء بعد الحاجة إليه.

مقدمات تتحقق بها قوانين الطبيعة.

ومقدمات تتحقق بها عناية الله.

ولا سيما حين تأتى الحاجة إلى الشفاء من غير المريض، بل تأتى على الرغم منه وعلى خلاف ما يرجوه ويبتغيه.

كيف نشأ التوحيد بعد التباس الوحدانية بالشرك واختلاط الأديان بين الآلهة والأوثان؟

كيف نشأت ديانة الإنسانية بعد ديانات العصبية والأثرة القومية؟

كيف نشأت نبوة الهداية بعد نبوة الوقاية والقيادة؟

كيف أصبحت المعجزة تابعة للإيمان بعد أن كان الإيمان تابعاً للمعجزة؟..

كيف ظهر الإسلام بعد عبادات لا تمهد له ولا يبقى عليها؟

مقدمات لم تكن واحدة منها ممهدة لنتائجها، وإن مهدت لها خطوة فى الطريق فقد تنكص بها بعد ذلك خطوات وخطوات.

وهذه هى المقدمات التى لا تأتى بعدها النتائج الصالحة إلا بعناية من الله واتجاه بقوانين الكون وعوامله إلى حيث يشاء.

فليست الجاهلية مقدمة الإسلام.

وليس الفساد فى العالم سببًا للصلاح.

وليست قريش ولا جزيرة العرب ولا دولة القياصرة ولا أبهة الأكاسرة هى التى بعثت محمداً لينكر العصبية على قريش، ويعلم العرب تسفيه التراث الموروث من الآباء والأجداد، ويثل العروش التى قام عليها الطغاة وتأله عليها الجبابرة من دون الله.

هؤلاء جميعاً كانوا ضحية البعثة المحمدية.

وهؤلاء جميعاً كانوا مريضها الذى شفى على يديها بغير شعور منه بالمرض وبغير سعى منه إلى الشفاء.

وتلك هى المقدمات ونتائجها كما تتجه بها عناية الله.

رسول يوحى إليه فيصنع الأعاجيب.

ذلك ما يقوله المؤمنون بعناية الله.

فإذا استطاع المنكرون أن يقولوا غير ذلك فليقولوه وليفسروه. فلا تفسير له عندهم إلا أن الفساد يصلح الفساد، وأن الداء يشفى الداء، وأن الأسباب تمضى فى طريقها فتختلف بها الطريق وتذهب إلى حيث لا يفضى الذهاب..

جاء محمد بدين الإنسانية فى أمة العصبية.

جاء ينكر كل إله غير الواحد الأحد فى عالم يؤمن بكل إله غير الواحد الأحد، أو يؤمن به كأنه صنم من الأصنام يتعدد فى كل بيعة وكل مقام.

أمحمد وحده يقدر على ذلك؟

أمحمد يقدر عليه بعناية من الله؟

أدنى القولين إلى عقل العاقل أدناهما إلى الإيمان، وأنآهما عن الصواب أنآهما عن الله.

ولولا تدبير من الله لما ادخرت جزيرة العرب لهذه الرسالة، لتخرج بالتاريخ الإنسانى كله إلى عالم جديد.

* * *

وسنرى فيما يلى من هذه الصفحات كيف تتناقض النتائج والمقدمات فلا تستقيم إلا بمقدمة واحدة، وهى رسالة النبوة وعناية الله.

وسنبدأ بالمقدمات من طوالع الغيب فى تأويل المتأولين إلى وقائع الحس والعيان فى أحوال العالم، وأحوال الجزيرة، وأحوال الأسرة، وأحوال البيت الذى طلع منه نور النبوة؛ وبزغ منه فجر التاريخ الجديد فى كل ما حوله، وتحققت به عناية الله.

ونرجو فى نهاية المطاف أن نبلغ بها نتيجة النتائج كما تتفق عليها نظرة الفكر وبديهة الإيمان.

وعلى بركة الله..

الطوالع والنبوءات

على بركة الله نمضى فى سرد المقدمات التى سبقت البعثة المحمدية بنوعيها:
مقدمات ترتبط بما تلاها من الحوادث ارتباط الأسباب بالمسببات.

ومقدمات لا ترتبط بما تلاها هذا الارتباط، بل لعلها تناقضها وتؤدى إلى خلافها! وإنما ترتبط بها ارتباط الداء بدوائه والعلة بما يزيلها، فليست النتائج هنا وليدة المقدمات، بل هى العلاج الذى يزيلها، والآية الإلهية التى تحول الأسباب الطبيعية إلى طريق الحكمة الأبدية التى تنكشف أوائلها من خواتيمها، خلافاً للعرف الشائع من دلالة الأوائل على الخواتيم..

ورائدنا فى متابعة هذه المقدمات بنوعيها أن ننظر فى الآيات الكونية والمعانى التاريخية، لأنها - ولا شك - عنوان إرادة الله المتصرف فى الكون كله، ولأنها - على هذا - مفتوحة الصفحات لكل ناظر ومتأمل يعمل بفريضة الإسلام الكبرى وهى التفكير فى ملك الله والنظر بالعقل فى حقائق السموات والأرضين.

رائدنا فى البحث عن مقدمات الدعوة النبوية أن إرادة الله ظاهرة فى ملكه وآيات خلقه، وأن الناس مطالبون بالنظر فى هذه الإرادة قبل النظر فى المعجزات والخوارق التى لا تأتى فى كل حين ولا تخص المؤمنين دون سائر المصدقين بالحس والعيان.

وسؤالنا عن كل معجزة لا يدور على إمكانها أو استحالتها؛ فليست المعجزات بالقياس إلى قدرة الله خالق الكون إلا كالمألوفات التى تجرى بها العادات فى كل يوم، فإذا كانت الموجودات مخلوقة بخصائصها فالذى خلقها وخلق خصائصها يملك تغييرها وتبديلها ويأتى بالمعجزات كما يأتى بالمنظور المطرد من النواميس والعادات، وعقيدتنا فى ذلك عقيدة الإمام الغزالى رضى الله عنه حيث قال غير مرة: إن الحوادث تجرى عند حصول الأسباب، ولا تجرى بحصول تلك الأسباب، فليست خصائص المادة من فعلها

ولا إرادتها، ولكن المادة وخصائصها جميعاً من فعل الحكمة الإلهية التى تسخر كل شىء بمقدار.

فنحن لا نسأل: هل المعجزة ممكنة أو غير ممكنة، فإن العقل الذى يقول إن المادة لا توجد إلا هكذا أضيق من العقول التى تصدق كل شىء بغير بحث ولا برهان.

ولكننا نسأل: هل المعجزة لازمة أو غير لازمة؟.. وهل كان لها أثر مشهود فى الإقناع بالدعوة كما ينبغى لكل معجزة، أو كانت فى تاريخ الدعوة عملا بغير أثر ولغير ضرورة؟

ذلك أن الله جل وعلا يضع قوانين الطبيعة لحكمة ويخرقها لحكمة، وتعالى الله عن العبث فى غير معنى. فلا يكون خرق القوانين، وخلق المعجزات لغير قصد يعلمه شهود المعجزة التى تخالف مألوفهم، ومجرى العادات أمامهم كل يوم.

وقد أشرنا إلى ذلك فى كتابنا عن «عبقرية محمد» حين قلنا: «إن علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج إليها الأمة، وهى أسباب تتمهد لظهورها، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها، فإذا تجمعت هذه العلامات فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟.. وإذا تعذر عليها أن تتجمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟.. وقد خلق محمد ابن عبد الله ليكون رسولا مبشراً بدين، وإلا فلأى شىء خلق؟.. ولأى عمل من أعمال الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات؟.. لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن لكان تاجراً أميناً ناجحًا موثوقًا به فى سوق التجار والشراة، ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال، ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد.. فالذى أعده له زمانه، وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية دون سواها، وما من أحد قد أعد فى هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد».

وقلنا عن بشائر الرسالة المحمدية: إن المؤرخين «يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية: يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه» وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث أو ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته، ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة

وتفسير الجهالة، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام؟..

«لا موضع هنا لاختلاف».

«فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة أو كان ثبوت الإسلام متوقفاً عليها، لأن الذين شهدوا العلامة المزعومة يوم الميلاد لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها، ولا عرفوا أنها علامة على شىء أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة، ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخوا إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة لم يشهدوا بشارة واحدة منها، ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه. وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها. فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره، ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين، يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار المنكرين. أما العلامة التى لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها فهى علامة الكون أو علامة التاريخ.

قالت حوادث الكون: «لقد كانت الدنيا فى حاجة إلى رسالة، وقالت حقائق التاريخ: لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة. ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ».

* * *

على هذا المحك البسيط نعرض أخبار الخوارق والمألوفات فى تاريخ الدعوات النبوية، وينبغى أن نقرر فى هذا المقام - لأنه مقامه الذى يذكر فيه - أن المؤرخ المسلم الذى يكتفى بالآيات الكونية إنما يختار هذا الطريق لأنه طريق واضح المعالم أمامه وأمام الناظرين الذين يعملون بهداية الإسلام فى تدبر الآيات والبحث عن حقائق الموجودات، ولكنه لو شاء لوجد لديه ذخيرة من الطوالع والنبوءات التى يعتمد أتباع الأديان المختلفة على أمثالها، وقد يعز عليهم أن يجدوا أمثالها فى المصادر التى يؤمنون بها ولا يشكون، فلا يعتمد المؤرخ المسلم على الآيات الكونية لقلة الطوالع والنبوءات التى يثوب إليها - لو شاء - كما يثوب غيره، وإنما يعتمدها توثيقًا للبينة وإيثارًا لأفضل الحسنيين فى مقام المقابلة بين المتشابهات.

ومن الحسن أن نأتى على أمثلة من الطوالع والنبوءات التى وجد فيها بعض المؤرخين المسلمين شواهد على ظهور النبى عليه السلام مكتوبة قبل أوان ظهوره بعشرات القرون. ونلاحظ أن هؤلاء المؤرخين، أو أكثرهم، من فضلاء الهند وفارس والأمم الشرقية التى تتكلم غير العربية، وسر ذلك أنهم ورثوا فى بلادهم طوالع الديانات السابقة، ولم يشاءوا أن تكون هذه الطوالع مزايا خاصة تنفرد بها تلك الديانات ويعجزون هم عن الإتيان بنظائرها التى تقابلها فى كفة الديانة الإسلامية، فهم يتوخون إلزام الحجة بالدليل المماثل ولا يعيبهم فعلا أن يجدوا ذلك الدليل مساويًا أو راجحًا فى الدلالة على أدلة المتقدمين من أبناء الملل الغابرين..

ونحن نورد هنا بعض الأمثلة التى يستدعيها المقام ولا يجوز إهمالها فى تمهيد يحيط بجميع الشواهد والمقدمات ولو على سبيل الإجمال.

من هذه الكتب كتاب باللغة الإنجليزية ألفه «مولانا عبد الحق فديارتى» وسماه «محمد فى الأسفار الدينية العالمية» واستفاد فى مقارناته بمعرفته للفارسية والهندية والعبرية وبعض اللغات الأوربية، ولم يقنع فيه بكتب التوراة والإنجيل، بل عمم البحث فى كتب فارس والهند وبابل القديمة. وكانت له فى بعض أقواله توفيقات تضارع أقوى ماورد من نظائرها فى شواهد المتدينين كافة، ولا نذكر أننا اطلعنا على شاهد أقوى منها فى روايات الأقدمين أو المحدثين من أتباع الديانات الأولى أو الديانات الكتابية.

يقول الأستاذ عبد الحق: إن اسم الرسول العربى «أحمد» مكتوب بلفظه العربى فى السامافيدا Sama Vida من كتب البراهمة، وقد ورد فى الفقرة السادسة والفقرة الثامنة من الجزء الثانى ونصها أن «أحمد تلقى الشريعة من ربه وهى مملوءة بالحكمة وقد قبست منه النور كما يقبس من الشمس»..

ولا يخفى المؤرخ وجوه الاعتراض التى قد تأتى من جانب المفسرين البرهميين، بل ينقل عن أحدهم «سينا أشاريا» Syna Acharya أنه وقف عند كلمة «أحمد» فالتمس لها معنى هنديًا وركب منها ثلاثة مقاطع وهى «أهم» و «آت» و «هى».. وحاول أن يجعلها تفيد «أننى وحدى تلقيت الحكمة من أبى». قال الأستاذ عبد الحق مافحواه إن العبارة منسوبة إلى البرهمى «فاتزا كانفا» Kanva من أسرة كانفا، ولا يصدق عليه القول بأنه هو وحده تلقى الحكمة من أبيه.

ويزيد الأستاذ عبد الحق على ذلك أن وصف الكعبة المعظمة ثابت فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يسميها الكتاب بيت الملائكة ويذكر من أوصافه أنه ذو جوانب ثمانية وذو أبواب تسعة.

والمؤلف يفسر الأبواب التسعة بالأبواب المؤدية إلى الكعبة وهى باب إبراهيم، وباب الوداع، وباب الصفا، وباب على، وباب عباس، وباب النبى وباب السلام، وباب الزيارة وباب حرم، ويسرد أسماء الجوانب الثمانية حيث ملتقى الجبال، وهى فى قوله: جبل خليج، وجبل قعيقعان، وجبل هندى، وجبل لعلع، وجبل كدا، وجبل أبى حديد، وجبل أبى قبيس وجبل عمر.

ويضرب المؤلف صفحًا عن تفسير البرهميين لمعنى البيت هنا بأنه جسم الإنسان ومنافذه، ولا يذكره لأنه - على مايظهر - يخالف وصف القداسة الروحية فى البرهمية، ولا يأتى بتفسير للجوانب الثمانية عند تفسيره للأبواب بذلك المعنى.

وفى مواضع كثيرة من الكتب البرهمية يرى المؤلف أن النبى محمدًا مذكور بوصفه الذى يعنى الحمد الكثير والسمعة البعيدة، ومن أسمائه الوصفية اسم سشرافا Sushrava الذى ورد فى كتاب الأثارفا فيدا Atharva Vida حيث يشار إلى حرب أهل مكة وهزيمة «العشرين والستين ألفًا مع تسعة وتسعين»، وهم على تقدير المؤلف عدة أهل مكة وزعماء القبائل الكبار ووكلائهم الصغار، كما كانوا يوم قاتلوا النبى صلوات الله وسلامه عليه.

وللمؤلف صبر طويل على توفيق هذه العلامات وأشباهها يستخرج منها الطالع بعد الطالع، والنبوءة إلى جانب النبوءة، مما يغنى المثل عليه عن استقصاء جميع موافقاته وعلاماته.

وكذلك صنع بكتب زردشت التى اشتهرت باسم الكتب المجوسية فاستخرج من كتاب زاندافستا Zend Avesta نبوءة عن رسول يوصف بأنه رحمة للعالمين «سوشيانت» Soeshyant ويتصدى له عدو يسمى بالفارسية القديمة أبا لهب Angra Mainyu، ويدعو إلى إله واحد لم يكن له كفوًا أحد (هيج جيز باونمار) وليس له أول ولا آخر ولا ضريع ولا قريع، ولا صاحب ولا أب ولا أم ولا صاحبة، ولا ولد ولا ابن، ولا مسكن ولا جسد ولا شكل ولا لون ولا رائحة.

«جز آخاز وانجام وانباز ودشمن ومانند ويار وبدر ومادر وزن وفرزند وحاى سوى وتن آسا وتنانى ورنك وبوى است»

وهذه هى جملة الصفات التى يوصف بها الله سبحانه فى الإسلام: أحد صمد، وليس كمثله شيء، لم يلد ولم يولد، ولم يكن له كفوًا أحد، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا.

ويشفع ذلك بمقتبسات كثيرة من كتب الزردشتية، تنبئ عن دعوة الحق التى يجىء بها النبى الموعود وفيها إشارة إلى البادية العربية، ويترجم نبذة منها إلى اللغة الإنجليزية معناها بغير تصرف «أن أمة زردشت حين ينبذون دينهم يتضعضعون وينهض رجل فى بلاد العرب يهزم أتباعه فارس، ويخضع الفرس المتكبرين، وبعد عبادة النار فى هياكلهم يولون وجوههم نحو كعبة إبراهيم التى تطهرت من الأصنام، ويومئذ يصبحون وهم أتباع للنبى رحمة للعالمين وسادة لفارس ومديان وطوس وبلخ، وهى الأماكن المقدسة للزردشتيين ومن جاورهم، وأن نبيهم ليكونن فصيحًا يتحدث بالمعجزات»[1].

وقد أشار المؤلف بعد الديانات الآسيوية الكبرى إلى فقرات من كتب العهد القديم والعهد الجديد فقال: إن النبى عليه السلام هو المقصود بما جاء فى الإصحاح الثالث والثلاثين من سفر التثنية: «جاء الرب من سيناء وأشرق لهم من سعير وتلألأ من جبل فاران وأتى من ربوات القدس ومن يمينه نار شريعة لهم».

وجاء بالنص العبرى كما يلى:

«ويومر يهوه مسينائى به وزارح مسعير لامو هو فيع مهر باران واتا مر ببوث قودش ميميفو ايش داث لا مو».

فترجمه هكذا: «وقال إن الرب جاء من سيناء ونهض من سعير لهم وسطع من جبل فاران وجاء مع عشرة آلاف قديس، وخرج من يمينه نار شريعة لهم».

وقال إن الشواهد القديمة جميعًا تنبئ عن وجود فاران فى مكة، وقد قال المؤرخ جيروم واللاهوتى يوسبيوس Eusebius «إن فاران بلد عند بلاد العرب على مسيرة ثلاثة أيام إلى الشرق من أيلة».

---

(١) صفحة ٤٧ من كتاب Mohammed in World Scriptures

ونقل عن ترجمة التوراة السامرية التى صدرت فى سنة ١٨٥١، أن إسماعيل «سكن برية فاران بالحجاز، وأخذت له أمه امرأة من أرض مصر» ثم قال إن سفر العدد من العهد القديم يفرق بين سيناء وفاران، إذ جاء فيه أن بنى إسرائيل ارتحلوا «من برية سيناء، فحلت السحابة فى برية فاران»... ولم يسكن أبناء إسماعيل قط فى غرب سيناء فيقال إن جبل فاران واقع إلى غربها. وفى الإصحاح الثالث من كتاب حبقوق أن «الله جاء من تيمان والقدوس من جبل فاران» فهو إذن إلى الجنوب حيث تقع تيمان بموضعها الذ ى تقع فيه اليمن مرادفتها بالعربية. ولم يحدث قط أن نبيًّا سار بقيادته عشرة آلاف قديس غير النبى محمد عليه السلام. وقوديش تترجم بقديس فى رأى المؤلف الذى يناقش ترجمتها بالملائكة فى الترجمات الأخيرة. كذلك لم يحدث قط أن نبيًّا غيره جاء بشريعة بعد موسى الكليم، فقول موسى الكليم «إن نبيًّا مثلى سيقيم لكم الرب إلهكم من إخوتكم أبناء إبراهيم » يصدق على النبى العربى صاحب الشريعة ولا يصدق على نبى من أبناء إبراهيم تقدمه فى الزمن، ويرجح المؤلف أن المدينة التى تعلم فيها موسى عليه السلام فى صحبة يثرون – أى شعيب – لم تكن هى مديان الأولى التى تخربت بالزلزال كما جاء فى القرآن الكريم، ولكنها كانت «مدينة» الحجاز التى سميت يثرب على اسم يثرب، ومما يعزز ذلك أن بطليموس الجغرافى يقول بوجود موضعين باسم مديان، وإن كان قد أخطأ على رأى المؤلف فى تعيين الموضعين. وقد جاء فى سفر التكوين أن مديان بن إبراهيم الذى سميت مديان الأولى باسمه كان له أخ اسمه عفار، وهو الذى يقول نوبل Knoble شارح التوراة إن ذريته كانت تنزل فى عهد البعثة الإسلامية إلى جوار يثرب، ولعل موسى تلقى اسمه فى ذلك الجوار. إذ كانت تسميته العربية أرجح من تسميته المصرية أو العبرية، فإن ابنة فرعون لا تسميه بالعبرية ولا يسميه بها من يريد خلاصه من مصير المولودين العبريين، وصحيح أن كلمة ميسو Mesu بالمصرية معناها الطفل كما يقول بعض الشراح المحدثين، ولكن اليهود لا يرتضون لنبيهم ومخرجهم من أرض مصر اسما مستعارًا من المصريين.

* * *

ومن الجماعات التى عنيت عناية خاصة بهذه النبوءات جماعة الأحمدية الهندية التى ترجمت القرآن الكريم إلى اللغة الإنجليزية. فإنها أفردت للنبوءات والطوالع عن ظهور محمد عليه السلام بحثًا مسهبًا فى مقدمة الترجمة، شرحت فيه بعض ماتقدم شرحًا

مستفيضًا، وزادت عليه أن نبوءة موسى الكليم تشتمل على ثلاثة أجزاء: وهى التجلى من سيناء وقد حصل فى زمانه، والتجلى من سعير أو جبل أشعر وقد تجلى فى زمن السيد المسيح، لأن هذا الجبل – على قول الجماعة الأحمدية – واقع حيث يقيم أبناء يعقوب الذين اشتهروا بعد ذلك بأبناء أشعر، وأما التجلى الثالث فمن أرض فاران وهى أرض التلال التى بين المدينة ومكة، وقد جاء فى كتاب فصل الخطاب أن الأطفال يحيون الحجاج فى تلك الأرض بالرياحين من «برية فاران».. وقد أصبح أبناء إسماعيل أمة كبيرة كما جاء فى وعد إبراهيم فلا يسعهم شريط من الأرض على تخوم كنعان، ولا وجه لإنكار مقامهم حيث أقام العرب المنتسبون إلى إسماعيل ولا باعث لهم على انتحال هذا النسب والرجوع به إلى جارية مطرودة من بيت سيدها. وقد جاء فى التوراة أسماء ذرية إسماعيل الذين عاشوا فى بلاد العرب، وأولهم نبايوت أو نبات أبو قبائل قريش، الذى يقرر الشارح كاتربكارى Katripikari أنه أقام بذريته بين فلسطين وينبع ميناء يثرب، ويقرر بطليموس وبلينى أن أبناء قدور، وهو قيدار الابن الثانى لإسماعيل – قد سكنوا الحجاز، ويضيف المؤرخ اليهودى يوسفيوس إليهم أبناء أدبيل الابن الثالث فى ترتيب العهد القديم، ولا حاجة إلى البحث الطويل عن مقام أبناء دومة وتيماء وقدامة وأكثر أخواتهم الباقين، فإن الأماكن التى تنسب إليهم لا تزال معروفة بأسمائها إلى الآن، ومن نبوءة أشعيا التى سبقت مولد السيد المسيح بسبعمائة سنة يظهر جليًا أن أبناء إسماعيل كانوا يقيمون بالحجاز، ففى هذه النبوءة يقول النبى أشعيا من الإصحاح الحادى والعشرين «وحى من جهة بلاد العرب تبيتين ياقوافل الددانيين. هاتوا ماء لملاقاة العطشان يا سكان أرض تيماء.. وافوا الهارب بخبزه فإنهم من أمام السيوف قد هربوا. من أمام السيف المسلول، ومن أمام القوس المشدودة، ومن أمام شدة الحرب. فإنه هكذا قال لى السيد فى مدة سنة كسنة الأجير يفنى كل مجده قيدار».

ويعود المترجمون من الجماعة الأحدية فيفسرون هزيمة قيدار بهزيمة المكيين فى وقعة بدر، وهى الهزيمة التى حلت بهم بعد هجرة النبى إلى المدينة بنحو سنة كسنة الأجير.

* * *

ويقرنون هذه النبوءة بنبوءة أخرى من الإصحاح الخامس فى سفر أشعيا يقول فيها: «ويرفع راية للأمم من بعيد ويصفر لهم من أقصى الأرض فإذا هم بالعجلة يأتون.. ليس

فيهم رازح ولا عاثر، لا ينعسون ولا ينامون ولا تنحل حزم أحقائهم ولا تنقطع سيور أحذيتهم. سهامهم مسنونة وجميع قسيهم ممدودة. حوافر خيلهم كأنها الصوان وبكراتهم كالزوبعة..»

وهذه نبوءة عن رسول يأتى من غير أرض فلسطين لم تصدق على أحد غير رسول الإسلام.

وتلحق بهذه النبوءة أخرى من الإصحاح الثامن من سفر أشعيا جاء فيها أن الرب أنذره أن لا يسلك فى طريق هذا الشعب قائلا: «لا تقولوا فتنة لكل ما يقول له هذا الشعب فتنة ولا تخافوا خوفه ولا ترهبوا. قدسوا رب الجنود فهو خوفكم وهو رهبتكم، ويكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثرة لبيتى إسرائيل وفخًّا وشركا لسكان أورشليم فيعثر بها كثيرون ويسقطون فينكسرون ويعلقون فيلقطون.. صرَّ الشهادة. اختم الشريعة بتلاميذى. فاصطبر للرب الساتر وجهه عن بيت يعقوب وانتظر»

فهذه النبوءة عن الرسول الذى يختم الشريعة تصدق على نبى الإسلام ولا تصدق على رسول جاء قبله ولا بعده.

وتلحق بهذه النبوءة أيضا نبوءة من الأصحاح التاسع عشر فى سفر أشعيا يذكر فيها إيمان مصر بالرسول المنتظر «وفى ذلك اليوم يكون مذبح للرب فى وسط أرض مصر وعمود للرب عند تخمها، فيكون علامة وشهادة لرب الجنود فى أرض مصر لأنهم يصرخون إلى الرب بسبب المضايقين فيرسل لهم مخلصا ومحاميا وينقذهم، فيعرف الرب فى مصر، ويعرف المصريون الرب فى ذلك اليوم ويقدمون ذبيحة وتقدمة وينذرون للرب نذرا ويوفون به، ويضرب الرب مصر ضاربا فشافيا، فيرجعون إلى الرب فيستجيب لهم ويشفيهم. فى ذلك اليوم تكون سكة من مصر إلى أشور فيجىء الأشوريون إلى مصر والمصريون إلى أشور ويعبد المصريون مع الأشوريين. فى ذلك اليوم يكون إسرائيل ثلثا لمصر ولأشور بركة فى الأرض. بها يبارك رب الجنود قائلا: مبارك شعبى مصر وعمل يدى أشور وميراثى إسرائيل».

فالذى حدث من قدوم أهل العراق إلى مصر وذهاب أهل مصر إلى العراق إنما حدث فى ظل الدعوة الإسلامية، ولم تتوحد العبادة بينهم قبل تلك الدعوة، وإن النبوءة ستتم

غدا على غير ما يهواه بنو إسرائيل إذ تكون البركة لمصر وأشور ولا تكون إسرائيل إلا لاحقة بكلتا الأمتين.

* * *

ثم ينتقلون بالنبوءات إلى سفر دانيال حيث جاء فى الإصحاح الثانى: «أنت أيها الملك كنت تنظر وإذا بتمثال عظيم. هذا التمثال العظيم البهى جدًّا وقف قبالتك ومنظره هائل. رأس هذا التمثال من ذهب جيد، وصدره وذراعاه من فضه، وبطنه وفخذاه من نحاس، وساقاه من حديد، وقدماه بعضها من حديد والبعض من خزف. كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا، وصارت كعصافة البيدر فى الصيف، فحملتها الريح، فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها»..

* * *

ويلى ذلك تفسير النبى دانيال لهذا الحلم إذ يقول: «أنت أيها الملك ملك ملوك لأن إله السموات أعطاك مملكة واقتدارا وسلطانا وفخرا، وحيثما يسكن بنو البشر ووحوش البر وطيور السماء دفعها ليدك وسلطك عليها جميعها، فأنت هذا الرأس من ذهب، وبعدك تقوم مملكة أخرى أصغر منك ومملكة ثالثة أخرى من نحاس فتتسلط على كل الأرض وتكون مملكة رابعة صلبة كالحديد، لأن الحديد يدق ويسحق كل شيء، وكالحديد الذى يكسر تسحق وتكسر كل هؤلاء وبما رأيت القدمين والأصابع بعضهامن خزف والبعض من حديد فالمملكة تكون منقسمة وتكون فيها قوة كالحديد من حيث إنك رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين وأصابع القدمين بعضها من حديد وبعضها من خزف فبعض المملكة يكون قويا والبعض قصما، وبما رأيت الحديد مختلطا بخزف الطين فإنهم يختلطون بنسل الناس ولكن لا يتلاصق هذا بذاك كما أن الحديد لا يختلط بالخزف، وفى أيام هؤلاء الملوك يقيم إله السموات مملكة لن تنقرض أبدا وملكها لا يترك لشعب آخر وتسحق وتفنى كل هذه الممالك وهى تثبت إلى الأبد، لأنك رأيت أنه قد قطع حجر من جبل لا بيدين، فسحق الحديد والنحاس والخزف والفضة والذهب.. الله العظيم قد عرف الملك ما سيأتى بعد هذا. الحلم حق وتعبيره يقين»..

وتعود الجماعة الأحمدية إلى التاريخ لتستمد منه التعليق على تعبير النبى دانيال لتلك الرؤيا، فمن كلام النبى دانيال يفهم أن الرأس الذهبى هو ملك بابل، وأن الصدر والذراعين من الفضة تعبر عن مملكة فارس وميدية التى ارتفعت بعد دولة بابل، وأن الرجلين من النحاس تعبران عن الدولة الإغريقية فى ظل الإسكندر، لقيامها بعد زوال حكم الفارسيين والميديين، وأن القدمين من الحديد تعبران عن الدولة الرومانية التى ارتفعت بعد ذهاب ملك الإسكندر، وتقول الرؤيا عن هذه الدولة الأخيرة إن قدما من قدميها خزف والأخرى حديد، وهو وصف يشير إلى جزء من الدولة فى القارة الأوربية وجزء منها فى القارة الآسيوية، فالقدم الحديد هى سيطرة الأمة الواحدة والعقيدة الواحدة وهذه السيطرة تستولى على أقطار شاسعة وموارد غزيرة ولكنها تنطوى على الضعف الكامن من جراء التفكك بين أوصال الشعوب، والرؤيا صريحة فى وشك انحلال الدولة الرومانية فى السنوات الأخيرة لهذا السبب، وتستطرد من ثم إلى أمور أهم وأخطر إذ تقول: «إنك كنت تنظر إلى أن قطع حجر بغير يدين فضرب التمثال على قدميه اللتين من حديد وخزف فسحقهما. فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة والذهب معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف فحملتها الريح فلم يوجد لها مكان. أما الحجر الذى ضرب التمثال فصار جبلا كبيرا وملأ الأرض كلها..»

* * *

تقول الجماعة: «فهذه نبوءة بظهور الإسلام. فقد اصطدم الإسلام فى صدر الدعوة بدولة الرومان ثم بدولة فارس، وكانت دولة الرومان يومئذ قد بسطت سلطانها على ملك الإغريق الإسكندرى فبلغت من المنعة غايتها، وكانت دولة فارس قد بسطت سلطانها على بابل، ثم ضربتها قوة الإسلام فانسحق حينئذ الحديد والخزف والنحاس والفضة معا وصارت كعصافة البيدر فى الصيف، وهكذا ينبئ ترتيب الحوادث وتعبيرها فى رؤيا دانيال أنباء لا ريب فى معناه.. إذ كلنا نعلم أن بابل خلفتها فارس وميدية وأن سطوة فارس وميدية كسرتها سطوة الإسكندر، وأن ملك الإسكندر خلفته الدولة الرومانية التى أقامت من عاصمتها القسطنطينية أركان مملكة أوربية آسيوية، ثم انهزمت هذه المملكة وأدال منها الفتح الإسلامى وغزوات النبى والصحابة».

ـ وهذا الحجر الذى جاء فى رؤيا دانيال يذكره أشعيا والحوارى متى، ففى الأصحاح

الثامن من سفر أشعيا أنه «يكون مقدسا وحجر صدمة وصخرة عثر لكل من بيتي إسرائيل وفخا، وشركا لسكان أورشليم، ويعثر بهما كثيرون ويسقطون ويعلقون فيلقطون»

وفي الإصحاح الحادي والعشرين من إنجيل متى يقول: «لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره، ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه»

كذلك يذكره المزمور الثامن عشر بعد المائة إذ يقول: «إن الحجر الذى رفضه البناءون قد أصبح عقد البناء وركن الزاوية».

* * *

ويتبين من كلام السيد المسيح فى الأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى المتقدم ذكره أن هذه النبوءة تنبئ عن زمن غير زمن السيد المسيح، إذ يقول عليه السلام: «أما قرأتم قط فى الكتب أن الحجر الذى يرفضه البناءون قد صار رأس الزاوية. فمن قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا».

ثم تفضى النبوءة – نبوءة النبى دانيال – إلى عقباها؛ فيصبح الحجر جبلا عظيما ويملأ الأرض كلها. فإن هذا هو الذى حدث بعد انتشار الدعوة المحمدية. فإن الرسول الكريم وصحابته هزموا قيصر وكسرى وأصبح المسلمون سادة للعالم المعمور كله فى ذلك العصر، وصار الحجر جبلا عظيما فظل زمام العالم فى أيدى أتباع محمد ألف سنة.

ثم تتم نبوءات العهد القديم بنبوءات العهد الجديد، ويستشهد جماعة الأحمدية بالأصحاح الحادى والعشرين من إنجيل متى من حيث يقول السيد المسيح: «اسمعوا مثلا آخر. كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلمه إلى كرامين وسافر ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا ثم أرسل إليهم ابنه أخيرا قائلا إنهم يهابون ابنى. فأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه، فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه؛ فمتى جاء صاحب الكرم فماذا يفعل بأولئك الكرامين؟.. قالوا له إنه يهلك أولئك الأردياء هلاكا رديئا

ويسلم الكرم الى كرامين آخرين يعطونه الأثمار فى أوقاتها.. قال لهم يسوع: أما قرأتم قط فى الكتب أن الحجر الذى رفضه البناءون قد صار رأس الزاوية؟... من قبل الرب كان هذا وهو عجيب فى أعيننا.. لذلك أقول لكم إن ملكوت الله ينزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره؛ ومن سقط على هذا الحجر يترضض ومن سقط هو عليه يسحقه. ولما سمع الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلم عليهم؛ وإذا كانوا يريدون أن يمسكوه خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبى»

* * *

هذا المثل يبحثه كتاب المقدمة لترجمة القرآن فيقولون إن السيد المسيح قد لخص به تاريخ الأنبياء والرسل أجمعين. فالكرم هو الدنيا والكرامون العاملون فيه هم الجنس البشرى الكادح فى دنياه؛ والثمرات التى يريد صاحب الكرم أن يحصلها هى ثمرات الفضيلة والخير والتقوى؛ والخدم الموفدون من صاحب الكرم إلى الكرامين هم الرسل والأنبياء؛ ولما جاءهم السيد المسيح بعد إعراضهم عن الرسل والأنبياء فغدروا به وأنكروه وعوقبوا بتسليم الكرم إلى كرامين آخرين ونزع ملكوت الله منهم لتعطاه الأمة الأخرى الموعودة بالبركة مع أمة إسحاق؛ وهى أمة إسماعيل ونبيها العظيم محمد عليه السلام؛ وهو الذى يصدق عليه وعلى قومه أنهم كانوا الحجر المرفوض فأصبح هذا الحجر زاوية البناء من سقط عليه رضه ومن أصيب به فهو كذلك مرضوض.

وتتلو هذه النبوءة فى إنجيل متى نبوءة متممة من الإنجيل نفسه حيث جاء فى الأصحاح الثالث والعشرين منه خطابا لنبى إسرائيل «هو ذا بيتكم يترك لكم خرابا، لأنى أقول لكم إنكم لا تروننى من الآن حتى تقولوا مبارك الآتى باسم الرب».

وفى الأصحاح الأول من إنجيل يوحنا نبأ يحيى المغتسل أو يوحنا المعمدان مع الكهنة واللاويين «إذ سألوه: من أنت؟ فاعترف ولم ينكر. وقال إنى لست أنا المسيح. فسألوه: إذن ماذا؟.. أأنت إيليا؟.. فقال لا.. قالوا: أأنت النبى؟.. فأجاب: لا.. فقالوا له: من أنت لنعطى جوابًا للذين أرسلونا؟.. ماذا تقول عن نفسك؟.. قال: أنا صوت صارخ فى البرية؛ قوّموا طريق الرب كما قال أشعيا النبى»

ويعقب أصحاب المقدمة للترجمة القرآنية على هذه النبوءات فيقولون إنها كانت ثلاثا

فى عصر الميلاد المسيحى كما هو واضح من الأسئلة والأجوبة: نبوءة عن عودة إيليا، ونبوءة عن مولد السيد المسيح، ونبوءة عن نبى موعود غير إيليا والسيد المسيح.

ولقد أعلن السيد المسيح كما جاء فى الأصحاح الحادى عشر من إنجيل متى: «إن جميع الأنبياء والناموس إلى يوحنا تنبئوا، وإن أردتم أن تقبلوا فهذا - أى يحيى المغتسل - هو إيليا المزمع أن يأتى».

* * *

وواضح من الأصحاح الأول من إنجيل لوقا أن الملك بشر زكريا بأن امرأته ستلد له ولدًا وتسميه يوحنا.. «وإنه يكون عظيمًا أمام الرب لا يشرب خمرًا ولا مسكرًا، ويمتلئ من بطن أمه بالروح القدس، ويرد كثيرين من بنى إسرائيل إلى الرب إلههم، ويتقدم أمامه بروح إيليا وقوته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء».

وفى الأصحاح التاسع من إنجيل مرقس يقول السيد المسيح: «إن إيليا أيضًا قد أتى وعملوا به كل ما أرادوا كما هو مكتوب عنه».

ويتكرر ذلك فى إنجيل متى إذ يقول: «إن إيليا قد جاء ولم يعرفوه بل عملوا به كل ما أرادوا».

فالنبى إيليا قد أذن فى عصر الميلاد، وقد جاء فيه المسيح أيضًا ثم بقى ذلك النبى الموعود. ولم يظهر بعد السيد المسيح نبى صدقت عليه الصفات الموعودة غير محمد عليه السلام، وكلام السيد المسيح فى الأصحاح السادس عشر من إنجيل يوحنا يبين للتلاميذ «أنه خير لكم أن أنطلق لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزى، ولكن إن ذهبت أرسله إليكم، ومتى جاء ذاك يبكت العالم على خطيئة وعلى بر وعلى دينونة. فأما على خطيئة فلأنهم لا يؤمنون بى، وأما على بر فلأنى ذاهب إلى أبى ولا ترونى أيضًا، وأما على دينونة فلأن رئيس هذا العالم قد دين، وأن لدى أمورًا كثيرة أقولها لكم ولكن لا تستطيعون أن تحتملوها الآن، وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى الحق جميعه، لأنه لا يتكلم من نفسه بل كل ما يسمع يتكلم به ويخبركم بأمور آتية، وذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم، وكل ما للأب فهو لى. لهذا قلت إنه يأخذ مما لى ويخبركم وبعد قليل لا تبصروننى..».

وقد جاء نبى الإسلام ممجدًا للسيد المسيح يسميه روح الله ويجدد رسالته لأنها رسالة الله.

وبعد تأويلات شتى من قبيل ما تقدم تختتم الجماعة الأحمدية بحثها بالإشارة إلى ما جاء فى الأصحاح الثالث من أعمال الرسل الذى ينبئ عن تتابع النبوءات من صمويل إلى السيد المسيح بظهور نبى كموسى الكليم صاحب شريعة يحقق الوعد لأبناء إبراهيم ويبارك جميع قبائل الأرض، ويكون هذا النبى من إخوة بنى إسرائيل لا منهم، فهو من ذرية إسماعيل لا من ذرية إسحاق.

* * *

إن أبناء الهند وأبناء فارس - كما قدمنا - قد توفروا على هذا الدأب فى استخراج خفايا الكلمات والحروف والمقابلة بين المضامين والتأويلات واتمام أجزاء منها بأجزاء متفرقة فى شتى المصادر والروايات؛ ولكنهم لم ينفردوا بالبحث فى هذه النبوءات وهذه الطوالع خاصة وجاراهم فيها الباحثون من سائر الأمم واجتمعت فى كتاب «فتح الملك العلام فى بشائر دين الإسلام»[1] متفرقات لم ترد فيما أسلفناه من البحوث الهندية، أو وردت عن منهج غير منهجها، نلخص بعضه فيما يلى ولا نستقصيه لأنه يقع فى أكثر من مائتين وستين صفحة.

يعتمد المؤلفان على الأصحاح الخامس والعشرين من سفر التكوين إذ جاء فيه أن أبناء إسماعيل سكنوا «من حويلة إلى شور التى أمام مصر حينما تجيء نحو أشور» فهم إذن سكان الحجاز لأن الحجاز هو الأرض التى بين شور وحويلة إذ كانت حويلة فى اليمن كما جاء فى الأصحاح العاشر «أن يقطان ولد الموداد، وشالف، وحضرموت، ويارح، وهدورام، وأوزال، ودقلة، وعوبال، وأبيمايل، وشبا، وأوفير، وحويلة، ويوباب - جميع هؤلاء بنو يقطان» سكان الأرض اليمانية.

ويعتمدان كذلك على وعد إبراهيم الخليل فى سفر التكوين «لأنه بإسحاق يدعى لك نسل وابن الجارية أيضًا سأجعله أمة لأنه نسلك».. وإنما شرط الوعد لأبناء إسحاق

---

(١) لمؤلفيه الأستاذين أحمد ترجمان ومحمد حبيب.

باتباع وصايا الرب وألّا يعبدوا إلها غيره وإلا فهم يبيدون سريعًا عن الأرض الجيدة كما جاء فى الأصحاح الحادى عشر من سفر التثنية.
وقد عبد القوم أربابًا غير الله واتخذوا الأصنام والأوثان كما جاء فى مواضع كثيرة من كتب العهد القديم.

* * *

ومما اعتمد عليه المؤلفان رؤيا النبى دانيال.

وفى الأصحاح التاسع منها يقول: «سبعون أسبوعًا مقضية على شعبك وعلى مدينتك المقدسة لتكميل المعصية وتتميم الخطايا ولكفارة الإثم وليؤتى بالبر الأبدى ولختم الرؤيا والنبوة ولمسح قدوس القديسين، فاعلم وافهم أنه من خروج الأمر لتجديد أورشليم وبنائها إلى المسيح الرئيس سبعة أسابيع واثنان وستون أسبوعًا يعود ويبنى سوق وخليج فى ضيق الأزمنة، وبعد اثنين وستين أسبوعًا يقطع المسيح. وشعب رئيس آت يخرج المدينة والقدس وانتهاؤه بغمارة، وإلى النهاية حرب وخراب.. وعلى جناح الأرجاس».

وهذه الخاتمة هى التى تتم كما جاء فى سفر أشعيا «على يد شعب بعيد من أقصى الأرض» أو كما جاء فى سفر التثنية «إن الرب يجلب أمة من بعيد من أقصى الأرض.. ثم يردهم إلى مصر فى سفن».

وقد تم ذلك حين استدعى الرومان حاكم بريطانيا الكبرى ومعه جيش نكل باليهود وحمل طائفة منهم أسرى إلى مصر وطائفة إلى رومة من طريق البحر سنة ١٣٢. فلم تنته حرب الرومان سنة ٧٠ ميلادية بل جاءت بعدها تلك الحرب التالية مصدقة لنبوءة الدمار على يد القادم من بعيد ونبوءة النقل على السفن إلى الديار المصرية وما وراءها.

يقول المؤلفان - ويعتمدان فى ذلك على إجماع الشراح - إن اليوم من أسابيع دانيال سنة. وإننا إذا أضفنا أربعمائة وتسعين سنة إلى ١٣٢ فتلك سنة ٦٢٢ التى هاجر فيها النبى عليه السلام إلى مدينة يثرب، وبعد أربع عشرة سنة دخل جيش الإسلام القدس الشريف وبنى المسجد الأقصى فى مكان الهيكل، وكان الفرس قد ملكوا فلسطين أربع عشرة سنة أباحوا فيها لليهود إقامة شعائرهم ثم عاد الرومان وتلاهم المسلمون. فكانت

السنون التى مضت بعد الهجرة النبوية مقابلة لتلك السنين التى ارتفع فيها الحجر عن اليهود، على عهد الدولة الفارسية..

* * *

هذه العلامات إنما هى نماذج لأضعاف أضعافها لم نحصرها لأنها تستغرق مئات الصفحات ولا يلزمنا حصرها جميعًا لأن الأمثلة المتقدمة تكفى للتعريف بها، وإن لم تجمعها بحذافيرها. ونحن أمام هذه البحوث المستفيضة نتوخى فيها الحد الوسط بين الفضول وهو جمع هذه البحوث كلها فى هذه الرسالة التى لا تتوقف على العلم ببحوث العلامات والطوالع جميعًا وبين النقص وهو إهمال هذه البحوث كل الاهمال فى رسالة تدور على بيان مقدمات النبوة الإسلامية وعلى الآراء المختلفة فى شرح ما سبقها من هذه المقدمات، ومهما يكن من رأى القارئ فى هذا العصر فالرأى الذى رآه الناس منذ ألوف السنين ولا يزالون يرونه لابد أن يكون له مكانه التاريخى ودلالته النفسية فى هذا السياق.

ولسنا هنا بصدد الإسهاب والتفصيل فى نقد الأساليب التى يعتمدها الباحثون فى حل الرموز أو خلق هذه الرموز على الأصح فى بعض الأحيان، ولكننا نوجز فنقصر التعقيب على مقطع الآراء الذى لا يطول عليه خلاف بين المنصفين، فكل من راجع العلامات النبوية فى كتب الديانات من أقدمها قبل موسى وعيسى ومحمد عليه السلام إلى يومنا هذا يرى ولاشك أن العلامات التى لخصناها هنا من أقواها وأوضحها وأقلها اعتسافًا واستكراها للألفاظ والتركيب على غير معانيها، وإنما ننظر إليها على كل احتمال مفروض فلا نرى أنها تغنى عن الدلائل الكونية ولا نعلم أن قيام الدعوة المحمدية قد اعتمد عليها عند أحد من المسلمين الأولين أو عند أحد من الذين دانوا بالإسلام فى الزمن الحديث.

* * *

فإذا فرضنا أن التخريج صحيح فى كل ما أورده الباحثون المتقدمون وغيرهم فإن هذه العلامات لم تنفع أحدًا من الذين كانوا يقرءون التوراة فى عهد الدعوة المحمدية ولم نعلم لهم موقفًا من الدعوة غير اللجاجة والمكابرة والاشتداد فى الإنكار على نحو

لم نعلمه من الجاهليين والذين لم يطلعوا على حرف من كتب العهد القديم، وإذا قدرنا أن هذه العلامات لم ترد قط فى كتاب سابق للدعوة المحمدية لم يكن ذلك مما يضير هذه الدعوة أو يصدها عن طريقها أو يسلبها وسيلة من وسائل الإقناع والذيوع التى اعتمدت عليها.

هذا على تقدير الصحة والصواب فى كل تخريج وفى كل علامة مذكورة مشروحة، فأما على غير هذا التقدير فلا حاجة بنا إذن إلى تعقيب طويل أو قصير..

ولا ندع الكلام على النبوءات الغيبية حتى نقرر فيها الرأى الذى يسلمه المنصفون، ولا يجرؤ أحد على انكاره باسم العلم أو باسم المنطق أو باسم القياس الصحيح.

فما من أحد يجرؤ على أن يقول – باسم العلم – إن الإلهام بالغيب مستحيل. لأنه إذا جزم باستحالته وجب عليه قبل ذلك أن يجزم بأمور كثيرة لا يستطيع عالم أمين أن يقررها معتمدًا على حجة أو سند قويم..

يجب على العالم الذى يجزم باستحالة الإلهام بالغيب أن يقرر لنا أنه عرف حقيقة الزمن وعرف – من ثم – حقيقة المستقبل، ويجب عليه مع ذلك أن يقرر تجريد الكون من عنصر العقل غير عقل الإنسان والحيوان.

فما هى حقيقة الزمن؟.. هل هو موجود فى الماضى والحاضر والمستقبل أو هو يوجد لحظة واحدة ثم يزول؟.. وما هى هذه اللحظة الواحدة؟ وما مدى إحاطتها بالبعيد والقريب من الأمكنة الشاسعة فى هذه الأكوان؟ وهل المستقبل موجود الآن أو هو عدم يوجد لحظة بعد لحظة؟ وكيف يوجد العدم بعد أن لم يكن له وجود؟..

إن العالم الذى يجزم فى قول من هذه الأقوال باسم العلم يدعى على العلم كذبًا وينم على عقل ضيق لا يصلح للنظر فى هذه الآفاق.

فإذا كنا لا ننفى وجود المستقبل نفيًا مقطوعًا به مستندًا إلى حجة أو بينة فالغيب غير مستحيل والعلم به لا يدخل فى باب الممنوعات أو غير المعقولات..

* * *

وإذا كان عنصر العقل فى هذه الأكوان أكبر من أن يحصره رأس الإنسان وحده،

فانتقال المعرفة منه إلى عقل الإنسان جائز جدًّا أو جائز على الأقل كجواز الانتقال بين الأفكار على تباعد الأمكنة والعقول. ولا ندعى أن هذا الانتقال الفكرى بين عقول الناس قد ثبت فى هذا الزمن ثبوتًا قاطعًا فى جميع التجارب والمحاولات. فإلى هذا الانتقال - المسمى بالتلباثية - يصيب ويخطئ، ويكفى أنه لم يبطل كل البطلان باعتراف الملحدين والماديين إلى جانب المتدينين والمؤمنين.

فإذا كان وجود المستقبل لم يبطل، فكيف يبطل العلم بما جرى فيه؟.. إنه قد يبطل إذا تحقق بالبينة أن عنصر العقل وراء عقل الإنسان مستحيل، فإذا كان وجود هذا العقل الأكبر لم يمتنع ولم يدخل فى باب المستحيلات فكل دعوى هنا للجزم بإنكار الغيب وإنكار العلم به أو الإيحاء به إلى إنسان من الناس فإنما هى دعوى تهجم على الواقع ولا يكفى أن يقال فيها إنها تهجم على الغيوب والمجهولات.

فليكن رأينا إذن فى تخريجات الباحثين عن الطوالع والعلامات ما يكون، فإن هذا الرأى لا يبطل الإيمان بالغيب إلا على لسان مجازف يخبط بالقول حيث يجهل المدى الذى يخوض فيه. وإنما نقبل تلك التخريجات أو لا نقبلها لأن الباحثين فيها أصابوا أو أخطئوا فى التخريج والتأويل، وإنما نقبلها أو لا نقبلها كرة أخرى لأن قيام الدعوات النبوية متوقف عليها بل ماض فى سبيله على اختلاف هذه العلامات.

أما الأنباء بما فى الغيب بمشيئة العالم به والقادر عليه فلا يمنعه علم ولا منطق ولا تجربة قاطعة من تجارب العيان.

مقدمات النبوة

والآن، وقد أقررنا الطوالع والعلامات فى قرارها الذى يسهل الاتفاق عليه، نطرق الأبواب الواسعة التى تتفتح أمامنا للبحث فى مقدمات النبوة الإسلامية، وهى أبواب البحث فى الحوادث التاريخية والآيات الكونية. وليس أثبت منها فى مقام الكلام على النبوة الإسلامية بصفة خاصة بين سائر النبوءات.

تاريخ العالم كله - قبيل عصر الدعوة الإسلامية - هو تاريخ هذه المقدمات حول بلاد العرب وفى صميم الجزيرة العربية من أجوافها إلى أطرافها.

فلم يكن للعالم كله فى تلك الفترة حالة لا توصف بالسوء ولا يقال فيها بالإجمال إنها حالة فساد وانحلال.

فلا حالة للعلم ولا للسياسة ولا للأخلاق ولا للمرافق العامة لا توصف بتلك الصفة ولا تغلب فيها السيئات كل الغلب على الحسنات.

وإذا نظرنا إلى الأحوال فى جملتها وجدنا أنها هى الأحوال التى تنادى فى كل مكان بالحاجة إلى الدعوة الدينية.

إن ظاهرة واحدة كانت تلف تلك الظواهر جميعًا فى طياتها، وهى فقدان الثقة بكل شىء، ولا معنى لذلك فى كلمة موجزة إلا أن الثقة هى المطلوبة، وأن الإيمان هو دواء هذا الداء الذى استشرى فى كل مكان.

ونبدأ بالأديان الكبرى التى شاعت فى العالم المعمور قبيل الدعوة المحمدية، وهى على حسب قدمها: المجوسية واليهودية والمسيحية.

المجوسية

فلم يكن اتباع دين من هذه الأديان على استقرار فى عقيدتهم أو على ثقة بأخبارهم وأئمتهم، وأولها وأشدها اضطرابًا ديانة الدولة الفارسية أو دياناتها المتعددة التى تشملها الثنوية أى الإيمان برب للنور ورب للظلام وعالم للخير وعالم للشر فى كون واحد.

فقد كانت هذه المجوسية تستعصى على الدعاة المصلحين من أيام الوثنية الآرية الأولى التى اشترك فيها الهنود والفارسيون، وقد عمل «زرادشت» جهده لتطهيرها من الوثنية، وإخلائها من شعائر الهياكل والمحاريب الخفية فلم يتيسر له من ذلك غير القليل، وجاء بعده مصلحون من أتباعه مزجوا الفلك بالتنجيم بالخرافة بالعبادة فى نحلة واحدة، ولم يعرف الناس عنهم على البعد إلى عصر الميلاد المسيحى إلا أنهم رصدة للكواكب طلعة للخفايا والغيوب من وراء حجاب الظلام.

وقام «مانى» الذى تنسب إليه المانوية فى القرن الثالث للميلاد فأراد أن يغلق باب الوثنية فى الشرق ويرجع إلى ثنوية قريبة من ثنوية «زرادشت» وتوحيد الفلسفة العقلية، فحول قومه من الكتابة البهلوية إلى الكتابة الآرامية أو السامية، وكاد أن يفلح فى إقناع ولاة الأمر بآرائه فى الإصلاح والتنزيه لو لم تفسدهم عليه دسائس الكهان والوزراء، فقضى فى السجن وقيل إنهم سلخوا جلده وعلقوه مصلوبًا لسباع الطير..

ثم كانت الطامة الكبرى فى عهد قباذ أبى كسرى أنوشروان الذى حضر بعثة النبى وتلقى رسالته بالسخط والوعيد..

ففى عهد قباذ هذا ظهر «مزدك» داعية الإباحة والفوضى فى الأموال والأعراض، ولم يتزحزح هذا الداعية خطوة واحدة من الثنوية إلى التوحيد، أو ما يشبه التوحيد، وقال كما قال «مانى» من قبله: إن العالم كله فى قبضة إله النور وإله الظلام، غير أنه زاد عليه «أن النور يفعل بالقصد والاختيار وأن الظلمة تفعل على الخبط والاتفاق، وأن النور عالم حساس والظلمة جاهلة عمياء. وأن المزاج كان على الاتفاق والخبط لا بالقصد والاختيار، وكذلك الخلاص إنما يقع بالاتفاق دون الاختيار».

وزعم مزدك هذا أنه جاء ليبطل الخلاف بين العقائد والأمم وينهاهم عن المباغضة والقتال، وأنه لما كان أكثر ذلك إنما يقع بسبب النساء والأموال، فقد أحل النساء وأباح الأموال، وجعل الناس شركة فيها كاشتراكهم فى الماء والنار والكلأ، ورد القوى الكونية إلى أربع هى: التمييز، والفهم، والحفظ، والسرور، وكل منها يعمل بسبعة من الوزراء يتبع الوزير منهم اثنا عشر روحانيون.. وكل إنسان اجتمعت له أسرار الأربعة والسبعة والاثنى عشر صار ربانيا فى العالم السفلى وارتفع عنه التكليف، وأن ملك الملوك فى العالم العلوى إنما يدبر بالحروف التى مجموعها الاسم الأعظم، ومن تصور من تلك الحروف شيئاً انفتح له السر الأكبر ومن حرم ذلك بقى فى عمى الجهل والنسيان والبلادة والغم فى مقابلة القوى الأربع الروحانية»[1].

ويقال عن مزدك هذا إنه كان عظيم الدهاء خبيراً بفنون الإقناع والإغراء، وأنه بلغ من سلطانه على قباذ أنه أقنعه ببذل زوجته لمن يشتهيها ليعلم الناس الصدق فى إيمانه ويقتدوا به فى ترك التباغض والملاحاة على الأعراض والعروض فأوشك قباذ أن يفعل ما أوحاه إليه لولا أن علم ولى عهد كسرى فدخل عليه باكيًا متضرعًا يتوسل إليه ألا يذله هذا الإذلال ويبتذل أمه أمام الناس هذا الابتذال، ثم تمالأت عصبة ولى العهد فقتلوه، وتعقبوا شيعته بالقمع والتشريد.

وعلى الرغم من تتابع المصلحين الذين اجتهدوا غاية اجتهادهم فى تطهير الديانة المجوسية من الوثنية والمراسم الهيكلية لم تزل عقيدتهم جميعًا فى الأرواح والشياطين حائلا بينهم وبين التوحيد بل حائلا بينهم وبين الثنوية على بساطتها الأولى، فإن موالاة الأرواح ومحاذرة الشياطين تسوقانهم إلى ضروب من العبادة والزلفى لطوائف شتى من الأرباب الصغار عدا الإلهين الأقدمين إله النور، وإله الظلام، ولا يزال المجوس إلى اليوم يبدءون صلاتهم بعد منتصف الليل ويقضون ساعات الصلاة الأولى فى تلاوة الأناشيد التى يسترضون بها شياطين الظلام، قبل انبثاق النور الأعظم عند الصباح.

---

(١) الشهرستانى فى الملل والنحل.

اليهودية والمسيحية

أما اليهودية فقد كان قيام المسيحية فى معقلها الأكبر إيذانًا حيًّا بنفادها وانتهائها إلى الغاية من الجمود والضيق. إذ كانت المسيحية فى الواقع حركة إصلاح واسع فى جميع العقائد اليهودية التى جمدت على النصوص والمراسم وتحولت من الدين إلى نقيض الدين، ولا شىء يناقض الدين كما ناقضته تلك الأنانية القومية التى حسبت الإله المعبود ملكًا لها دون سائر عباده يبيح لها فى سائر الأقوام ما لا يباح فى شريعة ولا قسطاس مستقيم.

وفى عصر الميلاد نفسه ظهر من حكماء اليهود من أحس الحاجة إلى إصلاح عقائد قومه وشعائرهم، فاختار فيلون الحكيم أسلوب التعبير الرمزى لتفسير مسائل الكتاب التى لا تقبلها الحكمة، وكان مما يلفت النظر فى هذا الصدد أنه رجع إلى قصة إبراهيم وسارة وهاجر فعبرها على أسلوبه تعبير الرموز، لأن المسلك الذى نسب فيها إلى إبراهيم لا يعقل من خليل الرحمن. فعنده أن سارة هى الحكمة الإلهية وأن هاجر هى الدربة الدنيوية، وأن زواج الخليل من سارة لم يثمر فى أول الأمر لأنه لم ينضج له قبل التمرس بحقائق الحياة، وقد كان هذا أسلوب الفلسفة الذى أدخله بولس الرسول فى أسلوبه الدينى فقال فى رسالة غلاطية: «إنه مكتوب أنه كان لإبراهيم ابنان: واحد من الجارية، والآخر من الحرة. لكن الذى من الجارية ولد حسب الجسد، وأما الذى من الحرة فبالموعد. وكل ذلك رمز. لأن هاتين هما العهدان أحدهما من جبل سيناء الوالد للعبودية الذى هو هاجر. لأن هاجر جبل سيناء فى العربية، ولكنه يقابل أورشليم الحاضرة فإنها مستعبدة مع بنيها وأما أورشليم العليا التى هى أمنا جميعًا فهى حرة...»

وهذه ثورة على تفسير موعد إبراهيم بأسلوب العصبية والأنانية تلفت النظر فيما نحن بصدده وتومئ إلى ما يأتى بعدها فى الزمن المتطاول. ثم سرى الإصلاح المسيحى مسراه فمضى معه من اليهود من صلح له وبقى الجامدون على شر مما كانوا عليه قبل الدعوة المسيحية، وجنى العناد والإصرار على الباطل جنايته المعهودة فذهبت ريح الكهانة والمراسم الهيكلية وتفرقت مراجع الديانة مع كل مجمع وكل معبد وكل طائفة

ذات مذهب فى التوارة أو التلمود أو تقاليد الأخبار والربانيين وكان من آثار هدم الهيكل سنة سبعين للميلاد أن أشياعه فقدوا وحدة المراسم بعد أن فقدوا وحدة العقيدة والروح؛ فلم يأت عصر البعثة المحمدية حتى استفحل الخطب بينهم من جراء تفسيراتهم الكثيرة فنهضت بينهم طلائع الطائفة التى عرفت بعد ذلك بطائفة القرائين وأنكرت كل رأى غير النصوص والحروف فى الكتب المنسوبة إلى موسى الكليم، فكان خوف التفرق سبيل النكسة إلى أيام العصبية والأنانية القومية ولم يكن سبيلا إلى الحرية والتجديد. ومما يلفت النظر مرة أخرى أن إصلاح هذا الجمود الجديد إنما أتى من قبل البلاد الإسلامية، على يد سعديا المصرى وابن ميمون الأندلسى، وأن حكماء اليهود فى القرن الثالث للهجرة لم يكن لهم مذهب فى تنزيه الإله غير مذهب علماء الكلام من المسلمين..

وكذلك كان يهود العالم فى عصر البعثة المحمدية: بين أشتات يذهب كل منها مذهبه على حسب المجمع أو المعبد الذى ينتمى إليه، وبين شراذم متعنتين فى الجمود على الحروف والنصوص يرجعون بهذه النكسة إلى الداء الذى قامت المسيحية لإصلاحه قبل بضعة قرون.

فتلك حاجة جديدة إلى إصلاح جديد.

محنة المسيحية

وقد جاء الإسلام والمسيحية منتشرة فى بلاد الدولة الرومانية شرقاً وغرباً يدين بها ملوكها ورؤساؤها ومعظم رعاياها، وكان هؤلاء الملوك والرؤساء قبل تنصرهم يضطهدون المسيحين ويعذبونهم ولا يتورعون عن لون من ألوان العذاب يصبونه عليهم، فكانت محنة عظيمة صبر لها المسيحيون الأولون صبر المؤمنين الصادقين، ولكن هؤلاء الملوك والرؤساء كانت محنتهم للمسيحية بعد تنصرهم أشد عليها من محنة الاضطهاد والتعذيب، لأنهم لم يكفوا عن الظلم وزادوا عليه عبث السياسة بالعقائد والآراء، فدسوا مطامعهم بين المختلفين على تفسير المسيحية الأولى وفرقوهم شيعًا متباغضة متنافرة يرمى بعضها بعضًا بالكفر والضلالة، وينشب بينها الجدل فلا تتفق على قول حتى تتفتح أمامها مذاهب

الخلاف على أقوال، ولم يكن خلاف المذاهب يومئذ كخلاف المذاهب فى العصر الحاضر يسمح بوجهات النظر ولا يستلزم طرد المخالفين جميعًا من حظيرة الدين، بل كان بحث الآباء الأولين فى سبيل الوصول إلى أركان العقيدة وتقرير ما يسمى بالمسيحية وما لا يحسب منها وإنما يحسب من الكفر والضلالة. فلم تبق نحلة من النحل الكثيرة إلا حكمت على مناقضيها بالمروق والهرطقة، وتعددت هذه النحل بين الأريوسية والنسطورية واليعقوبية والملكية على تباعد الأقوال فى الطبيعة الإلهية ومنزلة الأقانيم الثلاثة منها، ويأتى النزاع بين الكنيستين الشرقية والغربية فيقضى على البقية الباقية من الثقة والطمأنينة ولا يدع ركنا من أركان العقيدة بمبعدة من الجدل والاتهام، فلا جرم يتردد على الألسنة، ويدون فى كتب التاريخ يومئذ أن القوم جميعًا قد استحقوا العقاب الإلهى وأن أبناء إسماعيل قد جاءوا من الصحراء بأمر الله عقاباً للظالمين والمارقين.

ويستطيع القارئ أن يترجم هذه البلبلة بحوادث السياسة ومنازعات العروش فلا يرى من حوادثها يومئذ إلا زعازع من هذا القبيل على عروش الدول والإمارات وأولها عرش الأكاسرة وعرش القياصرة رؤساء أكبر الدول فى ذلك الحين، فلم يكن بين الملوك الخمسة أو الستة الذين تعاقبوا على عرش فارس أو عرش بيزنطية من مات حتف أنفه، أو مات مستقرًّا على عرشه، ولم يكن منهم أحد كان له حق واضح فى السلطان حين وثب عليه، ويتقلب العرش بين الغاصبين فيفزع من كان آمنا ويأمن من كان مهددًا أو مشرداً فى البلاد مع اختلاف الحظوة والنقمة بين الأنصار والخصوم. فلما تمادى الأمر على ذلك عامًا بعد عام لم يبق من يأمن على نفسه وماله فى زمن أنصار ولا زمن خصوم، وعم الخوف أقرب الناس إلى السلطان وأبعدهم منه على حد سواء.

وتمت المحنة الكبرى بالقتال الدائم بين الدولتين، فإذا بالبلد الواحد ينقلب فى الحكم بين سيادة الفرس وسيادة الروم فلا تهدأ له حال فى نظام ولا فى سلام ولا فى معاش يأمن الناس على مرافقه ومسالكه بين ميادين القتال، وبطل الأمان كما بطل الإيمان، فلا خلاصة لهذه الأحوال جميعًا غير خلاصة واحدة هى ضياع الثقة بكل منظور ومستور، فلا أمان من السياسة ولا من الدين ولا من الأخلاق ولا من الواقع ولا من الغيب..

* * *

هذه أحوال العالم وهذه هى مقدمات الدعوة الإسلامية من تلك الأحوال: مقدمات لا تأتى بنتائجها على وتيرة الداء الذى يتبعه الفناء، ولكنها مقدمات العناية الإلهية التى تدبر الدواء للداء المستحكم على غير انتظار، وبغير حسبان..

عالم إذا صح أن يقال عنه إنه كان ينتظر شيئًا من وراء الغيب فإنما كان ينتظر عناية من الله.

الجزيرة العربية

قبل البعثة المحمدية

كان فى الجزيرة العربية مجوس ويهود ونصارى، وعرف أبناء الجزيرة هذه الأديان من طريق القدوة الفردية فى رحلاتهم ومبادلاتهم مع الأمم التى تحيط ببلادهم، كما عرفوها من طريق الدعوة العامة التى يعززها سلطان الرؤساء على نحو ما حدث فى أرض غسان والحيرة ونجران.

ويقول ابن قتيبة إن المجوسية كانت معروفة فى قبائل تميم ومنهم زرارة ابن عدُس وابنه حاجب، وقد تزوج ابنته ثم ندم.. ويروى أنها كانت شائعة بين قبائل البحرين عامة على مقربة من فارس، وأن لقيط بن زرارة - كما جاء فى ابن الأثير - تزوج بنته دختنوس وسماها بهذا الاسم الفارسى ومات عنها فقال وهو يجود بنفسه:

يا ليت شعْرى عنك دُختنَوس إذا أتاها الخبر المرموس
أتحلق القرون أو تميس لا، بل تميس أنها عُروس

والأغلب على الظن أن المجوسية شاعت فى هذه القبائل لأنها كانت سهلة هينة عليهم لا تكلفهم بناء الهياكل ولا نحت الأصنام، ولا ينكرون فى عبادتها للنار شيئًا لأن إشعال النيران للقرى والاستسقاء وإشهار الحلف لم تكن مجهولة فى البادية العربية، ولعلهم سبقوها إلى عبادة بعض الكواكب لأنهم كانوا أحوج إلى رصد الأنواء والاهتداء بالنجم فى سفر الليل حتى جعلوا له اسما خاصًا من السُّرى والإدلاج وغيرهما من الرحلة فى سائر أوقات الظلام.

ولعل أحدًا منهم لم يكن يلتفت إلى مجوسية المجوس إلا حين يحدث الزواج بالمحارم التى لا يحلها عامة العرب، فأما فيما عدا ذلك فقد كانت مراسم الدين عادات كغيرها من عادات البداوة فى الأعراس والمآتم وتعظيم الأسلاف والأرواح، لا ينكرها المجوسى ولا اليهودى ولا النصرانى من عرب الجاهلية..

وإذا كان عرب البحرين قد عرفوا المجوسية فقد عرفوا الصابئين الذين كانوا يقيمون على مقربة من بلادهم، ولكنهم لم يقتدوا بهم فى عقيدتهم لكثرة قيودها وأشراطها وكتمان الصابئين ما كانوا يؤمنون به مخالفًا لمن حولهم، وقد كانوا يخالفون كل دين فى أشياء ويحالفونه فى أشياء، ويجنحون إلى العزلة والاعتكاف فلا يصل إلى أسرارهم إلا من تعمد البحث عنها والنفاذ إليها من طلاب المعرفة والمتنسكين والمتحنفين، والظاهر من أصول كتابتهم النبطية أن الصلة بينهم وبين نبط الحجاز الشمالى عن طريق العراق والعقبة كانت أوثق وأقرب من صلاتهم بسكان البحرين والشواطئ اليمانية، ولهذا وجد فيهم من ينتمى إلى جد يسمونه كاظم بن تارح يزعمون أنه أخو إبراهيم الخليل، وكيفما كانت علاقة العرب بموطن الصابئة فلم توجد بين العرب قبيلة كبيرة تدين بملة الصابئة كما دانت تميم بالمجوسية. لأن هذه الملة الصابئية بطبيعتها لا تنتقل إلى طائفة كبيرة بعيدة من موطنها على موارد الماء، وإنما ينتقل إليها فرد أو أفراد يفضلون عقيدتها على العقائد الوثنية من حولها، ولا يخفى شأن الارتباط بالمكان فى العقيدة الصابئية، فإن اشتراط القرب من الماء فريضة من فرائضهم العامة، واسمهم الأول فى أصله مأخوذ من (سبح) لا من (سبأ) التى ينتمى إليها بعض قبائل اليمن ولا من (صبأ) بمعنى ارتد عن الدين، وذلك أرجح الآراء فيما قيل عن أصول هذه الأسماء..

وكانت اليهودية أعم انتشارًا فى الجزيرة العربية من المجوسية. لأن المجوسية بقيت محصورة فى عشائر من العرب من سكان بين البحرين، ولكن اليهود كانوا يهاجرون بجملة قبائلهم من أرض كنعان كلما أصابهم القمع والتشريد من فاتح جديد، وقد هاجر بنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل جملة واحدة إلى يثرب على رواية الأغانى «بعد أن ظهرت الروم على بنى إسرائيل جميعًا بالشام»

قال صاحب الأغانى: «لما قدم بنو النضير وقريظة وبهدل المدينة، نزلوا الغابة فوجدوها وبيئة فكرهوها وبعثوا رائدا أمروه أن يلتمس لهم منزلا سواها، فخرج حتى أتى العالية – وهى بطحان ومهزور – واديان من حرة على تلاع أرض عذيَّة – بها مياه عذبة تنبت حر الشجر، فرجع إليهم فقال: قد وجدت لكم بلدًا طيبًا نزهًا إلى حرة يصب فيها واديان على تلاع عذية ومدرة طيبة فى متأخر الحرة، فتحول القوم إليها من منزلهم ذلك، فنزل بنو النضير ومن معهم على بطحان، وكانت لهم إبل نواعم فاتخذوها أموالا، ونزلت

قريظة وبهدل ومن معهم على مهزور، فكانت لهم تلاعة وما سقى من بعاث وسموات، فكان ممن يسكن المدينة. حتى نزلها الأوس والخزرج، من قبائل بنى إسرائيل بنو عكرمة وبنو ثعلبة وبنو محمر وبنو زعورا وبنو قينقاع وبنو زيد وبنو النضير وبنو قريظة وبنو بهدل وبنو عوف وبنو الفصيص، فكان يسكن يثرب جماعة من أبناء اليهود فيهم الشرف والثروة والعز على سائر اليهود.. وكان هناك معهم من غير بنى إسرائيل بطون من العرب، منهم بنو الحرمان: حى من اليمن، وبنو مرثد: حى من بلى، وبنو نيف: حى من بلى أيضًا، وبنو معاوية: حى من بنى سليم ثم من بنى الحارث بن بهثة، وبنو الشطبة: حى من غسان».

ولم ينزل اليهود بغير المدن، والقرى التى تحميهم فيها الآطام والأبنية، فنزلوا تيماء وفدك وخيبر واشتغلوا بالتجارة والصناعة فى المدن وزرعوا الأرض حولها للمرعى والاتجار بمحاصيلها، واختاروا من التجارة أيسرها على غير المحاربين لأنهم لم يقدروا على حراسة القوافل الكبيرة التى كانت تحمل أحيانًا – كما جاء فى الطبرى – على أكثر من ألفى جمل، فاستغلوا المال وشاركوا فى قروض الربا والوساطات ولم ينسوا قط أنهم غرباء فى بلد غريب، واجتنبوا المزاحمة فى التجارة فلم يكن لهم شأن بمكة دون سائر المدن لأنها كانت مستقلة بالتجارة على طريقها فى أيدى قريش، ولكن يقال فى روايات غير حاسمة إن بطونًا من نمير وكنانة وكندة وبنى الحارث عرفت اليهودية من جوارها لطريق المدن التى سكنها اليهود.

وموضع النظر الكثير ما يقال عن دخول اليهودية إلى اليمن وقيام دولة يهودية فيها بإمرة ذرعة المكنى بذى نواس، فلا خلاف فى وجود اليهود بين عرب الجنوب من أهل اليمن، ولكن الخلاف فى تاريخ دخول اليهودية تلك البلاد ووسيلة دخولها، لأن المعهود فى بنى إسرائيل المتأخرين أنهم كانوا لا يدعون أحدًا إلى دخول دينهم لإيثارهم أنفسهم بوعد إبراهيم الخليل وحصر هذا الوعد فى ذرية إسحاق بن يعقوب، وقد حدث فى عهد هركانوس الأول المكابى أنه أغار على الأدوميين وأكرههم على التهود فتهودوا وقامت منهم دولة هيرود حليفة الرومان، وكان ذلك فى أواخر القرن الثانى قبل الميلاد حين ضعف إيمان اليهود برجعة الدولة الدنيوية إلى أرض الموعد، وكان تدبيرًا حربيًّا سياسيًّا دعت إليه الرغبة فى تأمين الطريق ومحالفة الرومان لدرء الخطر من ناحية فارس وحلفائها من

جانب الصحراء. فإذا كان اليهود قد أكرهوا قبائل اليمن على التهود فمن أين لهم القوة التى تضارع قوة المكابيين فى الشام وفلسطين؟.. وإذا كانوا قد هودوا تلك القبائل بالتبشير والإقناع فكيف قبلوا أن يشركوا معهم أناسًا من المطرودين المحرومين فى وعد إبراهيم الخليل؟..

إن الاحتمال الراجح بين هذه النقائص أن اليهود وصلوا إلى اليمن مهاجرين متفرقين، وربما بدأت هذه الهجرة من أيام السبى البابلى لقرب بابل من طريق البحرين إلى اليمن، فإن لم تكن موغلة هذا الإيغال فى القدم فقد يكون مبدؤها عند تشتيت اليهود فى أوائل القرن الثانى للميلاد، ثم استمرت نحو ثلثمائة سنة إلى أواخر الدولة الحميرية، ثم وجد اليهود الحميريون أنفسهم معرضين لخطر واحد أمام تحالف الحبشة والروم ونصارى اليمن بنجران وغير نجران. فعقدوا الحلف المقابل لهذا الحلف بينهم وبين فارس وأعوانها من عرب الشواطئ الشرقية.

ومن المعلوم أن الدولة الفارسية كانت تنازع الحبشة والروم فى أرض اليمن، وكانت ترحب فى بلادها باليهود بعد انقلابهم على الدولة الرومانية واشتهارهم بمعاداتها وموالاة أعدائها، وكانت ترحب بالنصارى الذين اضطهدهم الرومان الوثنيون، ولم تزل ترحب بعد ذلك بالنصارى من أتباع المذاهب التى وقع عليها التحريم والتشريد بعد تنصر العواهل الشرقيين فى القسطنطينية، ولم تقبل نصارى الحيرة إلا لعلمها بمنافستهم لنصارى غسان من أتباع الرومان وانتمائهم إلى مذهب النسطوريين.

فالدولة الحميرية على عهد ذى نواس لم تكن دولة يهودية يقبلها اليهود ويدخلونها معهم فى عداد شعب الله المختار، ولكنها كانت تحالف اليهود وتعمل على الاشتهار بمحالفتهم لإقناع فارس بولائها فى النزاع بينها وبين الحبشة والروم، واشتهرت من ثمة بالتهود لأنها أيدت اليهود وتنكرت للنصارى حذرًا من معاونتهم - خفية أو جهرة - لشركائهم فى العقيدة أبناء الحبشة، ولو كان اليهود هم القوة التى قامت عليها دولة حمير لما صاروا إلى القلة التى غمرتها الكثرة العربية فى القرن الخامس للميلاد.

وأيا كان تاريخ اليهودية فى اليمن وفى بلاد العرب عامة فإنها لم تكن ذات رسالة دينية أو روحية للصلاح والإصلاح، ولم تكن يهودية معترفًا بها بين بنى إسرائيل فى غير الجزيرة

العربية، وقد نقل الدكتور إسرائيل ولفنسون صاحب كتاب «تاريخ اليهود فى بلاد العرب» رأيًا فيهم ليهود دمشق وحلب رواه جريتز Graetz فقال: «إنهم كانوا ينكرون وجود يهود فى الجزيرة العربية ويقولون إن الذين يعتبرون أنفسهم من اليهود فى جهات خيبر ليسوا يهودًا حقًّا إذ لم يحافظوا على الديانة الإلهية التوحيدية ولم يخضعوا لقوانين التلمود خضوعًا تامًّا، وإن العالم شير كان يعتقد أن اليهودية فى بلاد العرب كانت لها صبغة خاصة فقد كانت يهودية فى أساسها ولكنها غير خاضعة لكل ما يعرف بالقانون التلمودى».

ولا يمنع هذا أن يكون ليهود يثرب رأى فى أنفسهم غير رأى إخوانهم الدمشقيين والحلبيين، فقد رأى أوليرى O'leary فى كتابه عن بلاد العرب قبل محمد «أن بنى النضير وبنى قريظة كانوا يسمون أنفسهم بالكاهنيين ويزعمون من ثم أنهم من نسل هارون، وأما ياقوت فإنه يقول إن يهود يثرب عرب تهودوا. وقد يخطر لنا أن بنى قينقاع كانوا من عرب الشمال الأدوميين أو أشباههم الذين هاجروا إلى بلاد العرب بعد هدم الهيكل سنة سبعين أو بعد تشريد اليهود على عهدها دريان سنة مائة واثنتين وثلاثين».

على أن الصبغة اليهودية التى بقيت مع يهود يثرب فى معيشتهم وصناعاتهم ومعاملاتهم ومعرفة بعضهم بالكتب العبرية القديمة ولياذهم بالآطام – أدل عليهم من تقديرات المؤرخين على الفرض والتخمين، وما أشبه قينقاع أن ترجع فى أصلها إلى كوهنكا!.. وما أبعد اسم النضير من أسماء العرب الأقدمين!.. لقد قيل إنهم بطن من بطون جذام أبناء عم اللخميين، فهل كان فى جذام من يعرف العبرية كما عرفها يهود يثرب؟ وهل كان فى وسعهم أن ينشئوا المدرسة العبرية التى ظلت إلى عصر الدعوة المحمدية يسميها العرب بيت المدارس ويسميها اليهود «بيت هام مدراس».

وقد كان يحسب لهؤلاء اليهود أثر فى مقدمات الدعوة الدينية، أو مقدمات النهضة القومية الإنسانية بعبارة أخرى لو أنهم أفادوا العرب من حولهم دروسًا فى التفكير والأخلاق تكشف لهم عن سخف الجاهلية وتهئ ضمائرهم لما هو أصح منها وأقرب إلى التقدم والهداية. هذا أو تكون حياتهم بين العرب قدوة صالحة يقتدون بها فى معاملاتهم وعلاقة بعضهم ببعض فى السلم والحرب والمحالفة والمخالفة.

ولكنهم لم يصنعوا هذا ولا ذاك وصنعوا فى أكثر الأحيان نقيض هذا وذاك. لأنهم لم

يكترثوا لأمر المتهودين من قبائل العرب إلا لينتفعوا بولائهم وحراستهم لتجارتهم فى الطريق. فلم يكن بين الجاهليين المتهودين والجاهليين الوثنيين فرق فى العادات والأخلاق إلا أن يكون فرق الشجاعة والرجولة فى جانب الوثنيين يمتازون به على الذين تعودوا اللياذ بالآطام والتعلق فى حربهم وسلمهم بذرائع المساومة والنفاق.

وقد كان يهود يثرب قدوة سيئة فى كل علاقة بينهم وبين العرب أو بينهم وبين أنفسهم فى جوار المدينة. فقد كانت سياستهم مع قبائل العرب قائمة على الإيقاع بينها وإثارة الأحقاد فى المتخاصمين منهم كلما جنحوا إلى النسيان وتعاهدوا على الصلح والأمان. ولزم اليهودَ أنفسهم داؤهم القديم من الشقاق والمشاكسة حيثما اجتمعوا فى مكان واحد. فدبت الخصومة بين بنى قينقاع من جانب وبين بنى النضير وبنى قريظة من الجانب الآخر، ولم يتفق بنو النضير وبنو قريظة على شيء غير حسدهم لبنى قينقاع وعملهم على الوقيعة بين قبائل الأوس والخزرج وهى كثيرة فى جوار المدينة. وقد كانوا ينفسون على بنى قينقاع أنهم كانوا يقيمون فى قصورهم داخل المدينة ولا مأوى لبنى قريظة غير ضاحية المشرق ولا لبنى النضير غير ضاحية المغرب. فلما نشبت الحرب بين الأوس والخزرج تفرق اليهود بين الحزبين فكان بنو قينقاع مع الخزرج وكان بنو النضير وبنو قريظة مع الأوس. ولم يتحرك أحد من النضيريين والقرظيين لنصرة بنى قينقاع حين أجلاهم المسلمون عن المدينة، ولا تحرك أحد من القرظيين لنصرة النضيريين حين قضى عليهم بالجلاء لغدرهم بالنبى عليه السلام وصعود أحدهم - عمر بن جحاش - على جدار يجلس النبى تحته ليلقى عليه بصخرة من أعلاه... وإنما وصفتهم الآية بوصفهم هذا حيث جاء فى القرآن الكريم فى سورة الحشر أنهم (لا يقاتلونكم جميعًا إلا فى قرى محصنة أو من وراء جدر بأسهم بينهم شديد تحسبهم جميعًا وقلوبهم شتى ذلك بأنهم قوم لا يعقلون).

«سورة الحشر، ١٤»

وليس فى خليقة من هذه الخلائق قدوة صالحة تعلم الجاهليين ما يحسن بهم أن يتعلموه ويهتدوا به إلى طريق مستقيم.

ولقد عاش يهود يثرب ما عاشوا فى جزيرة العرب ولم يؤثر عنهم قط سعى فى سبيل مطلب من المطالب العامة والخاصة غير الاستكثار من الربح المشروع وغير المشروع بكل ما استطاعوا من حول وحيلة. فلما جهر النبى بدعوته خذلوه من مبدأ الأمر،

وأوفدوا وفودهم إلى كفار قريش، يعرضون عليهم المؤازرة والمحالفة واتخذوا خطتهم التى ثابروا عليها بعد ذلك ولم يعدلوا عنها إلا حين إجلائهم عن حدود الجزيرة، وخلاصة هذه الخطة تثبيت الوثنية الجاهلية وإيثارها على دعوة التوحيد والتنزيه التى جاءت بها رسالة الإسلام وشملت بها تعظيم العقائد الكتابية وعقائد التوحيد جملة منذ عهد إبراهيم الخليل. وكان فى سعيهم للتأليب على هذه الدعوة بعض الأناة والحيطة قبل الهجرة النبوية إلى المدينة، لأنهم كانوا يتراوحون فى مساعيهم بين الحذر من عاقبة الدعوة وبين الأمل فى القضاء على تجارة قريش وانفرادهم بعد قريش بتجارة الحجاز كله من اليمن إلى مكة إلى المدينة إلى الشام، فلما هاجر المسلمون القرشيون إلى المدينة وأقاموا لهم سوقًا بجوار سوق اليهود أرادوا أن يفسدوا كل ما صنعه الإسلام حتى الصلح بين الأوس والخزرج والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار، واستيئسوا فى الكيد والدس ولم يحرصوا على شىء غير استبقاء الربح والتأليب على كل إصلاح وكل مصالحة فى غير هذا السبيل..

فإذا كان ليهود يثرب أثر فى مقدمات الدعوة المحمدية فهو أثر أسوأ من أثر الجاهليين فى المقاومة والعناد، وإذا استفاد الباحث من تاريخ هؤلاء القوم توضيحاً لتلك المقدمات فإنما تأتى هذه الفائدة من جانب آخر لا فضل لهم فيه، فإنهم كانوا تصحيحاً عمليًّا لأخطاء المستشرقين الذين أنكروا وحدة اللغة العربية قبل الإسلام فى عصر المعلقات والقصائد الجاهلية، ولقد كانت وحدة اللغة من مقدمات الدعوة الإسلامية التى خاطبت العرب جميعاً بلسان يعرفونه من قبل عصر الإسلام، فجاء بعض المستشرقين بوهم من أوهامهم يشككون فى وحدة هذه اللغة وينكرون اتفاق الجزيرة على التخاطب بلسان القرشيين والمكيين، وزعموا أن وحدة هذه اللغة ممتنعة لاختلاف لسان العدنانيين والقحطانيين.

فاليهود فى يثرب أصدق جواب على هذه الأوهام لأنهم غرباء من الجزيرة العربية دخلوها فى القرن الأول أو الثانى للميلاد، ولا يجوز الشك فى ذلك ولا القول بأنهم عرب تهودوا كما قال بعض المؤرخين على غير علم ولا روية فيما يصح أن يقال، فإن القول بذلك يستلزم منا أن نفرض أن العرب الأميين تطوعوا للتحول إلى اليهودية ثم تعلموا العبرية وتفقهوا فى كتب التوراة لينقطعوا عن أسلافهم وينضووا إلى قوم مخذولين فى

بلادهم لا يسلمون لأحد من الأمم بأنه أهل للدخول معهم فى عداد شعب الله المختار، فهذا من أغرب الفروض التى لا تثبت بغير دليل قاطع فضلاً عن الثبوت بغير دليل، وليس فى هجرة اليهود من فلسطين إلى بلاد العرب غرابة أو مناقضة لوقائع التاريخ بعد تشتيتهم فى القرن الأول أو الثانى للميلاد، وقد كان مقامهم على الطريق بين تيماء والمدينة للتجارة والزراعة والاشتغال بغير صناعات القبائل العربية أشبه شىء أن يكون على تلك الطريق خاصة دون الطريق الآخر التى يحميها النبط وقريش ولا يستطيع اليهود المهاجرون أن يقتحموها على أصحابها وهم مشردون مستضعفون، مع العداء بينهم وبين النبطيين وتعصب النبطيين على إسرائيل ديناً ولغة وميلاً فى السياسة والولاء.

وعلى جميع هذه الفروض التى لا تقبل الشك تبقى هناك الحقيقة التى لا تختلف مع اختلاف القول فى أصول يثرب وخيبر وفدك وتيماء ووادى القرى على الإجمال.

فهل هؤلاء عرب يكتبون؟

لو كانوا كذلك لقد كانوا خلقاء أن يحفظوا فى صحفهم كلامًا عربيا مما قبل الإسلام بثلاثة قرون يخالف العربية الموحدة فى عصر الإسلام، إن صح أن العربية لم تكن موحدة فى أيام شعراء المعلقات، وبعض هؤلاء الشعراء لم يسبقوا عصر الإسلام بأكثر من مائة عام.

وكانوا خلقاء أن يحفظوا بالكتابة العبرية لهجة غير اللهجة الموحدة التى يشك المستشرقون فى سبقها للإسلام إلى عصر أولئك الشعراء، أو كانوا خلقاء أن نعلم من كتابتهم شيئاً يؤيد ذلك الشك نوعاً من التأييد.

أما إذا كانوا على القول الراجح - بل القاطع - يهوداً دخلوا الجزيرة بلسان غير لسانها، وتكلموا الآرامية أو الآدومية أو العبرية ثم تعلموا اللغة العربية الحجازية فهذا التوحيد الذى تم بين اللغة الحجازية وبين الآرامية أو الآدومية أو العبرية ليس بالمستغرب أن يتم بين لهجة العرب فى الجنوب ولهجة العرب فى الحجاز وسائر أطراف الجزيرة، فقد أقام عرب اليمن فى الجزيرة واتصلوا بالحجاز زمناً أطول جدًّا من مقام اليهود المهاجرين منذ القرن الأول أو الثانى للميلاد.

ولم يصل إلينا شىء من لغة اليهود الذين أقاموا بجنوب الجزيرة أو اليهود الذين تحالف معهم ذو نواس فى نجران، ولكن اليهود الذين وفدوا إلى الحجاز بعد البعثة النبوية

كان منهم كتاب ومؤرخون مطلعون على تواريخ حمير وتواريخ أسلافهم العبرانيين، وكان منهم كعب بن ماتع الحميرى الملقب بكعب الأحبار، وكان منهم وهب بن منبه الصنعانى الذى قال ابن خلقان أنه رأى كتاباً له عن ملوك حمير وأخبارهم فى مجلد واحد ووصف هذا الكتاب بأنه مفيد. وقد كان كعب ووهب من المغربين فى طلب النوادر فلم يذكر لنا زمناً شهداه، أو شهده آباؤهم وأجدادهم كانت فيه لغة قريش، مجهولة فى اليمن وما جاورها وأدنى من ذلك إلى عصر البعثة قدوم الوفود من اليمن إلى الحجاز وذهاب الولاة من الحجاز إلى اليمن بإذن النبى عليه السلام، ومنهم معاذ بن جبل، وعلى بن أبى طالب، ومن كان يصحبهما فى عمل الولاية والتعليم، فلم نسمع أن وفود اليمن على النبى جهلوا ما سمعوه أو نطقوا بكلام لا يفهمه أهل الحجاز، وهؤلاء قد لقنوا لغاتهم من آبائهم فلا يفوتهم ما اختلف من كلامهم إذا كان ثمة اختلاف.

وأقدم من البعثة المحمدية رحلة الصيف ورحلة الشتاء، وليس فى أخبار هذه الرحلات إلماع إلى تفاهم قريش مع أهل اليمن بلغة غير اللغة القرشية فى الجيل السابق للبعثة والجيل الذى تقدمه، ومن البعيد جدًّا أن يغيب عن ذاكرة العربى حديث جيلين قبل جيله وقد كانت أخبارهم ورواياتهم وأنسابهم وأمثالهم كلها قائمة على الحفظ وتسلسل الرواية والإسناد من جيل إلى جيل، فإذا كانت لغة الحجاز شائعة عامة على مدى الذاكرة فى عصر البعثة المحمدية فلا أقل من ثلاثة أجيال تقدر لها الشيوع وهذا التعميم، وترجع بنا هذه الأجيال إلى أقدم الأوقات التى أسند إليها نظم المعلقات فلا نستغرب نظمها باللغة التى يفهمها العرب من الجنوب إلى الشمال.

ولقد سمع النبى عليه السلام قصيدة كعب بن زهير، وقد نظمها ولا شك بلغة أبيه زهير بن أبى سلمى، وكان زهير من أسرة شاعرة مسبوقاً إلى النظم بتلك اللغة، ولا يعقل أن يكون التغير فى لغة النظم قد طرأ عليهم فجأة فى مدى سنوات معدودات، فإذا بلغنا بالمعلقات عصر هرم بن سنان – ممدوح زهير – وما تقدمه بقليل، فليس من شعراء المعلقات من هو أقدم من ذلك بزمن طويل يمتنع فيه التوافق على النظم الواحد واللغة الواحدة، ولابد أن نذكر هنا أن أوزان العروض لا تخلق بين يوم وليلة، وأن وزن قصيدة كعب ووزن قصيدة أبيه قد وجدا قبل عصر الشاعرين ونظمت فيها قصائد جيل أو جيلين على الأقل قبل ذلك التاريخ، ولو أن هذه الأوزان وسعت شعراً غير شعر اللغة الحجازية لما غاب خبره ولو غاب لفظه ومعناه.

ومن عسف القول ولا ريب أن نجزم بامتناع هجرة اليمانية إلى ما وراء حدود اليمن فى الجزيرة العربية. فإذا جاز أن تهاجر منهم قبيلة واحدة فحكم القبيلة فى مسألة اللغة كحكم القبائل العشر أو العشرين. ولمن شاء أن ينكر نسبة البكريين أو التغلبيين أو الغساسنة إلى اليمن مستنداً إلى الدليل أو غير مستند إلى دليل على الإطلاق، ولكنه لا يستطيع أن ينكر نسبتهم إلى اليمن وينكر نسبة اللغة العدنانية إليهم فى وقت واحد. فإنه بذلك ينكر نسبتهم إلى كل أصل معروف فى الجزيرة العربية، ولا يأتى لهم بأصل غير تلك الأصول.

وإن من ينكر انتقال قوم من اليمن إلى ما وراءها لينكر أمراً غير قابل للإنكار فى الجزيرة العربية التى لم يثبت فيها تاريخ أثبت من تواريخ الرحلات على تباعد الأزمنة وتبدل العوارض الجوية، وطوارئ الخصب والجدب والغلبة والهزيمة. وما من باحث ذى روية يعتسف البت بذلك الإنكار ثم يجزم بحصر اليمانية فى حدودهم منذ أحاطت بهم تلك الحدود. فمن العسف أن يقال إن اليمانية لم تبرح اليمن قط فى العصور التى سبقت البعثة المحمدية، وليس من العسف فى شىء أن يقال إنها برحتها على حسب الطوارئ وعوامل الجو والتاريخ، ولا داعية بعد ذلك لاستغراب التوافق بين اليمانية وأبناء الحجاز وتهامة وسائر الجزيرة فى لهجة من اللهجات. فما دمنا نقدر بحكم البداهة أن اليمانية وجدوا فى الجزيرة العربية وراء حدودهم وتكلموا كما يتكلم المقيمون فى جوارهم فقد زالت المشكلة ولم تكن هنالك فى الحقيقة مشكلة تزال.

وليس أكثر من العسف الذى يلجأ إليه منكرو الوحدة فى لغة الجزيرة قبل البعثة المحمدية بجيلين أو ثلاثة أجيال، وأن اعتساف التاريخ هنا لأهون فى رأينا من اعتساف الفروض الأدبية التى لا تقبل التصديق، فما من قارئ للأدب يسيغ القول بوجود طائفة من الرواة يلفقون أشعار الجاهلية كما وصلت إلينا ويفلحون فى ذلك التلفيق. إذ معنى ذلك «أولاً» أن هؤلاء الرواة قد بلغوا من الشاعرية ذروتها التى بلغها امرؤ القيس والنابغة وطرفة وعنترة وزهير وغيرهم من فحول الشعر فى الجاهلية، ومعنى ذلك «ثانياً» أنهم مقتدرون على توزيع الأساليب على حسب الأمزجة والأعمار والملكات الأدبية. فينظمون بمزاج الشاب طرفة ومزاج الشيخ زهير، ومزاج العربيد الغزِل امرئ القيس، ومزاج الفارس المقدام عنترة بن شداد، ويتحرون لكل واحد «مناسباته» النفسية والتاريخية ويجمعون له القصائد على نمط واحد فى الديوان الذى ينسب إليه، ومعنى ذلك

«ثالثاً» أن هذه القدرة توجد عند الرواة ولا توجد عند أحد من الشعراء ثم يفرط الرواة فى سمعتها وهم على هذا العلم بقيمة الشعر الأصيل، وما من ناقد يسيغ هذا الفرض ببرهان فضلاً عن إساغته بغير برهان ولغير سبب إلا أن يتوهم ويعزز التوهم بالتخمين، وإن تصديق النقائض الجاهلية جميعاً لأهون من تصديق هذه النقيضة التى يضيق بها الحس ويضيق بها الخيال.

وشتان – مع هذا – النقائض التى يستدعيها العقل ويبحث عنها إذا تفقدها فلم يجدها، والنقائض التى يرفضها العقل ولا موجب لها من الواقع ولا من الفكر السليم.

فهذه النقائض التى تحاول أن تشككنا فى وحدة اللغة العربية قبل الإسلام يرفضها العقل لأن قبولها يكلفه شططا ولا يوجبه بحث جدير بالإقناع.

فمما يتكلفه العقل إذا تقبلها أن يجزم – كما تقدم – بانقطاع عرب اليمن عن داخل الجزيرة كل الانقطاع، وأن يجزم ببقاء لغة قحطانية تناظر اللغة القرشية فى الجيلين السابقين للبعثة المحمدية، غير معتمد على أثر فى ذاكرة الأحياء ولا فى ورق محفوظ، وأن يلغى كل ما توارثه العرب عن أنسابهم وأسلافهم وهم أمة تقوم مفاخرها وعلاقاتها على الأنساب وبقايا الأسلاف، وأن يفترض وجود الرواة المتآمرين على الانتحال بتلك الملكة التى تنظم أبلغ الشعر، وتنوِّعه على حسب الأمزجة والدواعى النفسية والأعمار، وأن يفهم أن القول المنتحل مقصور على الأسانيد العربية مبطل لمراجعها دون غيرها من مراجع الأمم التى صح عندها الكثير مما يخالطة الانتحال والكذب الصريح.

ومن النقائض التى يستدعيها العقل ويستلزمها ويتخذ منها حجة لثبوت الواقع فى جملته أن يحدث الاختلاق فى الرواية وأن يتعذر فيها الإجماع بين الرواة، فإن العقل لا يصدق الأقاويل التى يتفرق رواتها ويطول العهد عليها ويعول أصحابها على الذاكرة والإسناد ثم تأتى متفقة فى الجملة والتفصيل ولا تتعرض مع الزمن وعوامل الأهواء للاضطراب والحذف والإضافة عن قصد أو بفعل النسيان والإهمال.. فاختلاف الرواة إذن سبب من أسباب التصديق، واتفاقهم يدعو إلى الشك أو التكذيب.

وقد نسمع النقيضين فى هذه الحالة فنرفضها ولا نرفض لباب الخبر ومغزاه. فقد سمعنا أن عمرو بن كلثوم أو الحارث بن حلزة ألقى قصيدته فى وقفة واحدة، وسمعنا أن

زهير بن أبي سلمى كان ينظم قصيدته فى الحول وتسمى قصائده من أجل ذلك بالحوليات، وقد نسقط هذه المبالغة كما نسقط تلك ولا يلزم من ذلك أن نسقط الشعر الذى بولغ فى وقت نظمه بين أقصى الطرفين.

وربما وقفنا على روايتين نصدقهما الآن عند النظر إلى الحقائق العصرية ونعلم أن تلفيقهما فى الزمن الماضى جد عسير ولو أراده الملفقون، فمما يروى عن امرئ القيس أنه تعجب من إعراض النساء عنه مع وسامته ومكانته. وسأل إحدى النساء فى ذلك فقالت له: نعم، ولكن لك عرقاً كأنه عرق كلب، ثم نقرأ أخبار وفاته فنعلم منها أنه أصيب قبل موته بقروح تساقط منها جلده وسمى الحلة التى كان يلبسها من أجل ذلك بذات القروح، ومؤدى الروايتين معا أن الشاعر كان على استعداد للمرض الجلدى لفساد رائحة العرق الذى يفرزه، وأنه لم يزل حتى استشرى به الفساد فى رحلته القصية فظهر فى تلك القروح، ويقترن ذلك بنوادره مع النساء المعرضات عنه وغلبة الشاعر علقمة عليه فى عينى امرأته، فلا يسهل على الناظر فى جميع هذه الأخبار أن ينسب تلفيقها عمدا إلى رواية واحد، ولا يسهل عليه أن يتلقاها متفرقة ثم يجردها من الدلالة التى تربط بينها على غير علم من الرواة المتفرقين.

وربما كذب الكثير من أخبار طرفة ولم تكذب قصيدته التى تنم فى جملتها على خلائقة التى تنوب عن تلك الأخبار وتغنينا عن محاسبة الرواة على التصديق أو على التكذيب.

وهذه القرائن الأدبية هى التى يغفل عنها المستشرقون ولا يفطنون لها لأنهم ينظرون فى النصوص والإسناد ولا ينظرون فى الأدب ولا فى روح الكلام ومضامين التعبير، ومنهم من لا يعرف أدب بلاده ولا يحسن الحكم عليه وهو أدب اللغة التى تلقنها فى حجر أمه، فليست معرفته باللغة العربية كافلة له أن يحكم على آدابها وأساليبها ومضامين الكلام على تعدد الأمزجة والأذواق، ومنهم علامة تصدى لو ضع المعجمات الكبرى فى اللغة العربية فكتب فى مادة «أخذ» أنها تأتى بمعنى نام لقوله تعالى (لا تأخذه سنة ولا نوم).. ومنهم من يترجم «أبا بكر» بأبى العذراء لأنه كان والد الزوجة التى بنى بها النبى عليه السلام وهى عذراء، ومنهم من يترجم الصعيد بمصر الميمونة أو مصر السعيدة Egypt Felix قياسا على اليمن التى تسمى العربية السعيدة Arabia Felix ومنهم من يقول إن التضحية تدل على عبادة الشمس لأنها من الضحى.. وما هى فى وضعها إلا كالتغذية من الغداة والتعشية من

العشاء والسحور من السحر إلى غير ذلك من توقيت الوجبات والذبائح بميقاتها من الليل والنهار.. ومنهم من يحسب أن القصيدة من القصد فيترجمها بالكلام الذى يراد معناه!

وقد تصدت منهم لهذا البحث الذى نحن فيه عن اللغة قبل نزول القرآن طائفة تقتحم هذه المباحث وهى أجهل بآلاتها من عامة الأميين. فالدكتور سنكلر تسديل Thusdale صاحب كتاب مصادر الإسلام يروى شبهات الناقدين للقرآن الكريم، ومنها هذه الأبيات:

دنت الساعة وانشق القمر   عن غزال صاد قلبى ونفر
أحور قد حرْت فى أوصافه   ناعس الطرف بعينيه حور
مر يوم العيد فى زينته   فرمانى فتعاطى فعقر
بسهام من لحاظ فاتك   تركتنى كهشيم المحتظر

ويتخذ منها قرينة على اقتباس القرآن بعض الآيات من أشعار الجاهليين ويضيف الدكتور العلامة إلى هذه الأبيات أبياتا أخرى كقول القائل:

أقبل والعشاق من خلفه   كأنهم من حدب ينسلون
وجاء يوم العيد فى زينة   لمثل ذا فليعمل العاملون

قال الدكتور: «من الحكايات المتداولة فى عصرنا الحاضر أنه لما كانت فاطمة بنت محمد تتلو هذه الآية وهى - اقتربت الساعة وانشق القمر - سمعتها بنت امرئ القيس وقالت لها إن هذه القطعة من قصائد أبى أخذها والدك وادعى أن الله أنزلها عليه، ومع أنه يمكن أن تكون هذه الرواية كاذبة لأن امرأ القيس توفى سنة ٥٤٠م ولم يولد محمد إلا سنة الفيل أى سنة ٥٧٠م فلا ينكر أن هذه الأبيات المذكورة واردة فى سورة القمر وفى سورة الضحى وفى سورة الأنبياء وفى سورة الصافات، وغاية الأمر أنه يوجد اختلاف طفيف فى اللفظ وليس فى المعنى، فورد فى القرآن اقتربت وفى القصيدة دنت.. ومن البين الواضح أنه يوجد مناسبة ومشابهة بين هذه الابيات وبين تلك الآيات الواردة فى القرآن. فإذا ثبت أن هذه الأبيات هى لامرئ القيس حقيقة فحينئذ يصعب على المسلم توضيح كيفية ورودها فى القرآن لأنه يتعذر على الإنسان أن أبيات شاعر وثنى كانت مسطورة فى اللوح المحفوظ قبل إنشاء العالم».

ثم قال الدكتور يطالب العلماء المسلمين مع المعترضين والمشتبهين بأن يقيموا الدليل على أن هذه الآيات مأخوذة ومقتبسة من القرآن وأنها ليست من نظم امرئ القيس الذى توفى قبل مولد محمد بثلاثين سنة «ولكن يصعب علينا أن نصدق بأن ناظم هذه القصائد بلغ إلى هذا الحد من التهتك والاستخفاف والجرأة فى أى زمن من الأزمان بعد تأسيس مملكة الإسلام التى كانت متسعة الأطراف والأكناف حتى يقتبس آيات من القرآن ويستعملها فى مثل هذا الموضوع»

ثم يختم الدكتور كلامه فى هذه الشبهات مصطنعا الحذر والحيطة لئلا يثبت نظم هذه الأبيات بعد الإسلام فتسقط الشبهة كلها، فيقول: إن هذه الأبيات ليست كل ما يعترض به المعترضون، لأن ما تقدم من الأسانيد كاف عندهم لتأييد هذه القضية[1].

وأيسر ما يبدو من جهل هؤلاء الخابطين فى أمر اللغة العربية قبل الإسلام وعلاقتها بلغة القرآن الكريم - أنهم يحسبون أن علماء المسلمين يلقون فى بحث تلك الأبيات وصبا واصبا لينكروا نسبتها إلى الجاهلية ولا يلهمهم الذوق الأدبى أن نظرة واحدة كافية لليقين بإدحاض نسبتها إلى امرئ القيس أو غيره من شعراء الجاهلية.

وهذه النظرة الكافية هى التى تعيى الناقدين المستشرقين وهى أصل وثيق من أصول النقد يعول عليه الناظر فى الأدب كل التعويل، ولا يقدح فيه أن يتسع للجدل وأن يجوز عليه الخطأ فى القليل دون الكثير.

كذلك يتسع سبيل الجدل فى إنكار خبرة الخبير بكتابة الخطوط، وكذلك يجوز الخطأ فى محاكاة كلمة أو بضع كلمات ولا يجوز فى السطور والصفحات .

فإذا نظر خبير الخطوط فى صفحة من الصفحات فقد تغنيه نظرة فى الحكم عليها بالصحة أو التزييف، وربما جاز عليه أمر الكلمة والكلمات إذا لم يكن أمامه غير هذه الكلمة أو هذه الكلمات للمقابلة والمضاهاة، ولكنه إذا حصل على تلك الكلمة مكتوبة عشر مرات أو عشرين مرة لم يكن من اليسير أن ينخدع فيها كما ينخدع فى الكلمة المفردة بغير تكرار، وعلى هذا المنوال يبدو الصحيح والزيف فى الشعر الأصيل والشعر

(١) من صفحة ٢٥ الى صفحة ٢٩ من الترجمة العربية.

المدخول، وقد يجوز التزوير فى الشطرة الواحدة أو البيت الواحد إذا امتنعت المقارنة بينه وبين أمثاله من تلفيق صاحب التزوير، ولكنه لا يجوز إذا كرر المزور الأبيات ومثلت للناظر الناقد طريقته فى تزوير هذه الأبيات المتفرقات..

تزوير الأدب الجاهلى مستحيل

أما المستحيل، أو شبه المستحيل فهو تزوير أدب كامل ينسب إلى الجاهلية ويصطبغ فى جملته بالصبغة التى تشمله على تباين القائلين والشعراء فإذا جمعنا الشعر المنسوب إلى الجاهلية كله فى ديوان واحد فمن المستحيل أو شبيه المستحيل أن نجمع ديوانا يماثله من كلام العباسيين أو كلام الأمويين المتأخرين، وإذا قل الفارق بين الشعر المخضرم والشعر الأموى الأول والشعر الجاهلى، وعلى صحة القرابة بينه وبين الشعر الذى لم يفترق عنه افتراقا بعيدا بزمانه وثقافة قائليه وبيئاتهم فى المعيشة ومناسبات التعبير. فلا يتشابه الشعر الجاهلى والشعر المخضرم، إن لم يكن بينهما ميزان مشترك، مع انتمائه إلى عشرات الشعراء الجاهليين والمخضرمين..

إن الملامح الشخصية التى تميز بين الفرزدق والأخطل وجرير لم يكن لها ثبوت أوضح وأقوى من ثبوت الفوارق التى تميز بين امرئ القيس وعمر بن كلثوم وزهير، فمن يرى أن خلق دواوين الفرزدق والأخطل وجرير فى وسع رواية واحد، فقد سهل عليه أن ينسب شعر الجاهليين جميعا إلى رواية أو رواة، ولكنه يذهب فى الحالين مذهبا لا سند له ولا سابقة من مثله فى آداب الأمم ولا نصيب به من الذوق الأدبى غير النبوّ والاستغراب.

وربما كان «سنكلر تسديل» الذى مثلنا به لجهل المستشرقين باللغة والذوق الأدبى مثلا صارخا كما يقال فى التعبير الحديث، ولكن المثل الصارخ هو الذى يبرز الحقيقة مستعصية على اللبس والمكابرة ويحيط بما دونه من الأمثلة التى تتردد بين الشك واليقين، وقد أتينا على طائفة منها لا تتخلف عن المثل الصارخ بشوط بعيد.

سوء فهم وسوء نية

والمعهود فى جماعة المستشرقين أن الكثيرين منهم يقرنون سوء الفهم بسوء النية، لأنهم يخدمون سياسة المستعمرين أو سياسة المبشرين المحترفين أو ينظرون فى بحوثهم نظرة الغربى الذى ينظر إلى الشرقى نظرة المتعالى عليه فى حاضره وماضيه. غير أنهم ما عدا القليل منهم محددون سطحيون يحومون حول المسائل الحسية ولا يتوسعون فى النظر أو يتعمقون وراء الظواهر التى يلمسها شاهد الحس لمسا فلا تخرج عنده من حدود ما يثبته أو ينفيه من وقائع العيان والسماع.

فغاية ما يقصدون إليه من أمر اللغة أنهم يلتمسون الأسناد المعتمدة عند أهلها فيأخذونها بالشك والتجريح، وإنهم يهدمون الدعائم القائمة ليستجيزوا بعد ذلك كل ادعاء يدعونه وكل إنكار ينكرونه من أصول اليقين والاطمئنان، وتشكيكهم فى أسانيد اللغة من هذا القبيل لايعدوه إلى مطلب بعيد من مطالب الإحاطة والاستيعاب، فهو كالمنازع الذى ينكر على صاحب الدار وثيقته ولا يعدوها إلى أركان الدار وما فى الدار، وتقديرهم لمسألة الشك فى وحدة اللغة أقل جدًّا من قدرها الصحيح فى مقدمات الدعوة المحمدية، إذ هى أصلح هذه المقدمات للدلالة على ما بعدها، وأصدق فى التمهيد لنتائجها من مقدمات السياسة والأحداث الاجتماعية، لأنها المقدمة الوحيدة التى تمشى فى طريق الدعوة المحمدية مساوقة لها مترقبة لأوانها، ولا تكون الدعوة المحمدية بالنسبة إليها كأنها رد الفعل الذى يقاوم ما قبله ويجرى معه مجرى النقيض من النقيض..

الفخر باللسان العربى

إن الشعور بالعربية والفخر باللسان العربى مقدمة لا بد منها للدعوة التى تواجه العرب بآية البلاغة فى القرآن الكريم، وتروعهم بالمعجزة التى يحكونها إن استطاعوا أو يحسبونها من قدرة الله.

مثل هذا التحدى بالبلاغة لا يحدث فى أمة لم تتأصل فيها مفخرة اللسان العربى والوحدة العربية جيلين أو ثلاثة أجيال، ولابد - مع ذلك - أن تكون فتحا قريبا أو شعورا فتيًّا لم يتطاول عليه العهد مئات السنين ولم تذهب روعته بالألفة وفتور النسيان.

ووحدة اللغة القرشية أو الحجازية لا تصبح من مفاخر العرب جميعًا كرامة لقريش أو لأرض الحجاز، ولكنها خليقة أن تسرى إلى نفوس العرب من حيث يشعرون بالعروبة الموحدة عالية الرأس غير مستكينة لسلطان من «العجم» على الخصوص.

والكعبة هى الجوار الوحيد الذى يشعر عنده العرب هذا الشعور.

فهم فى الشام رعايا دولة الروم، وهم فى الحيرة رعايا دولة الفرس وهم فى اليمن أتباع للحبشة أو لفارس أو رعايا لسلطان يدينهم بالمذلة كما يدينهم الملوك الغرباء.

ولكنهم عند بيت الله فى حرم الله يقدسونه جميعًا لأنه لهم جميعًا يضمهم إليه كما يضم أوثانهم وأصنامهم وأربابهم، يلوذون به، ويأوون إليه، فكلهم من معبود أو عابد فى حمى من الكعبة لأنهم فى بيت الله.

وشعورهم هنا بأنهم «عرب» لم يماثله شعور قط فى أنحاء الجزيرة العربية، وقد أوشك أن يشمل شعب اليمن وجمهرة أقوامه على الرغم من سادته وحكامه، فما كان هؤلاء الحكام لينفسوا على الكعبة مكانها ويقيموا لها نظيرًا فى أرضهم لو كان شعب اليمن منصرفا عنها غير معتز بها كاعتزاز البادية والصحراء.

وحدة الكعبة

وقد وافق ذلك زوال عرش الحيرة وزوال عرش حمير واستكانة الغساسنة فى الشام تارة للروم وتارة للفرس بلا ولاء لهؤلاء ولا لهؤلاء، ولا بقية من الفخر لهم غير أنهم عرب وليسوا من هؤلاء ولا هؤلاء.

وإن إبقاء الإسلام على مكانة الكعبة لدليل على هذه المكانة ودليل على حكمة الإسلام فى الاحتفاظ بها للعالم الإسلامى فى متسعه العميم بعد عالمه الأول فى الجزيرة العربية.

ونكاد نقول إن العرب أقبلت على الإسلام أفواجًا، حين صارت الكعبة إلى يديه وأصبحت عاصمة العروبة عاصمة للدين الجديد.

ولو لم تكن للعرب وحدة معروفة بينهم قبل البعثة الإسلامية، لما اعتزوا بالبيت الجامع لهم هذا الاعتزاز، وما وحدة أقوام متقاتلين متنازعين مأخوذين بعصبية الأجداد والعشائر، إن لم تكن وحدة اللغة ووحدة الفخر بلسان مبين يتيهون به على «العجم» أجمعين؟

قال سترابون: إنه وجد الأقوام فى بلاد العجم تتفاهم بلغة واحدة؛ وهى بلاد تعاقبت عليها سلالات الآريين والطورانيين والساميين؛ ويقال فى روايات شتى إن الحاميين وصلوا إليها فى زمن قديم كما كانوا يصلون إليها ويتجمعون فيها بعد الإسلام بعدة قرون؛ ولم تكن عوامل الوحدة اللغوية بينهم أقوى من عواملها فى جزيرة العرب؛ ولم يمض عليهم من الزمن ممتزجين متقاربين أكثر مما مضى على القبائل العربية التى من عادتها الترحل والانتقال من مرعى إلى مرعى ومن جوار إلى جوار.

وفى زماننا هذا – من القرن التاسع عشر إلى القرن العشرين – لا نرى أحدًا يستغرب تخاطب القوم فى جزائر البريطان بلغة واحدة ومنهم الأيرلنديون والإيقوسيون والغاليون؛ وفى كل أمة من هذه الأمم خطباء مفوهون وشعراء مشهورون يحسنون الإنجليزية منظومة ومنثورة وفى مجامع الخطابة والبيان. ولا نرى أحدًا يستغرب ذلك فى بلاد الأسبان ومنهم القشتاليون والباسكيون. ولا نرى فى مصر هنا من يستغرب البيان العربى الفصيح إذا نسب إلى فئة من أبناء النوبة وهم يتفاهمون فى الإقليم النوبى برطانة لا يفهمها سائر المصريين؛ فلا موجب لإنكار النظم والكلام بلغة واحدة فى جزيرة العرب قبل البعثة المحمدية بمائتى سنة أو أكثر من ذلك مع عجز المنكرين أن يأتوا بشاهد من اللغة الأخرى التى يفترضونها وينكرون توحيد اللغة من أجلها؛ ومع توافر الأسباب الموحدة فى جزيرة العرب على نحو لم يعهد فى غيرها من بلاد الزمن القديم؛ ولا تكفى كلمة أو كلمات الحكم بانفصال اللغات؛ فإن الإقليمين فى قطر واحد لا يتفقان فى جميع الكلمات.

فمن التاريخ الثابت أن أبناء الجنوب لم ينقطعوا عن الشمال ولم تزل لهم آثار مكتوبة

فيها إلى الآن. وقد وجدت بعض هذه الآثار بالخط الجنوبى واللغة الشمالية مما يدل على تشابه الكلام والنطق مع بقاء الكتابة بخط الجنوب.

وحدثت فى تاريخ الجنوب حوادث متعاقبة نقلت زعامة الشمال إلى الشماليين وجعلت أهل الجنوب تبعًا لهم كلما وفدوا على الشمال؛ وذلك بعد قيام الدولة النبطية التى ازدهرت فى القرن الرابع للميلاد وتغلغل روادها وتجارها فى الغرب كما ظهر من بعض نقوشهم فى بحر إيجه وفى إيطاليا الجنوبية.

وقد كان من أسباب ضعف الجنوب وقيام دولة النبط فى الشمال اضطراب بلاد اليمن بعد حروب الإسكندر واجتياحه لدولة فارس التى كان لها الإشراف على حكومة اليمن وتجارة الهند والشرق عامة فى الأقطار العربية، وبعد انهيار سد مأرب وإنتشار القراصنة فى خليج العجم وبحر العرب والبحر الأحمر. فغلبت طريق القوافل التى تمر بالحجاز على جميع الطرق الأخرى وتقاربت الصلة بين النبط والحجازيين وأخذ الحجازيون بالخطة الوسطى التى تلتقى عندها سبل الجنوب والشمال والشرق والغرب فى كل بقعة عربية لم تكن للفرس حماية عليها؛ واشتعلت الحروب بين اللخميين على خليج العجم والغساسنة فى بادية الشام فانحصر الأمان أو كاد على طريق الحجاز، واحتاج النعمان بن المنذر - صاحب الحيرة - إلى زعماء مضر لحماية تجارته داخل الجزيرة إلى مكة، فكان من أسباب يوم نخلة أنه أراد رجلا يجيز قوافله على أهل نجد فتنازعها البراض وعروة الرحال سيد هوزان، وقال له هذا إنه يجيزها على أهل الشيح والقيصوم فى أهل نجد وتهامة، ثم نشبت الحرب فاحتكم الجميع أخيرًا إلى سيد من سادات مكة عبد الله بن جدعان.

وانقضت عدة قرون على اتصال النبط والحجاز، وعمل الحجازيون على تعظيم شأن الحجاز بين النبطيين فوضعوا فى الكعبة تماثيل أرباب يعبدها النبطيون يعد منها الرواة هبل واللات ومناة التى قيل إنها من «المنية» بمعنى «القدر والمقدور» معبود النبطيين، وقولهم حانت منيته وحان قدره، معنى واحد عند عبَّاد مناة..

ولا شك أن قصة «عمرو بن لحى» الذى اتفقت الأخبار على أنه نقل الأصنام من بلاد النبط إلى الكعبة إنما هى الوسيلة من وسائله لتعظيم شأن الكعبة عند أهل الشمال

وإيناسهم بها كلما رحلوا إلى الحجاز، وتقريب ما بينهم وبين شعائر البيت الحرام، وهم جميعاً حريصون على تحريم هذه الشقة وحماية روادها من كل قبيل.

وأخطر من ذلك كله أثراً فى إعظام شأن الكعبة أنها المفخرة القومية والحرم الإلهى الذى بقى للعرب بعد سيادة الروم على غسان وتقلب الحبشة والفرس على اليمن وشعور اللخميين - سادة الحيرة - أنفسهم بمناعة الكعبة ومناعة الطريق فى أيدى مصر ومن يواليها، وهو أن سلطان هؤلاء اللخميين حتى آل بهم الأمر إلى الدثور، ثم جاءت وقعة ذى قار التى انتصر فيها العرب على الفرس بعد زوال دولة اللخميين وقضاء الفرس عليها فهزت الجزيرة من أقصاها إلى أقصاها ونمت على نخوة قومية عربية تمكنت من نفوس القبائل جميعاً فاشرأبت أعناقها زمناً إلى كل ملاذ تقصر عنه أيدى فارس والروم.

هؤلاء القوم الذين يفخرون بأنسابهم فيما بينهم، ويفخرون بجنسهم بين سائر الأجناس، قد حلت اللغة عندهم محل العرش والدولة محل البذخ والحضارة ومحل العلم والصناعة، حتى أصبح الفخر بها علامة من العلامات التى يتميزون بها فى عرف علماء الأجناس البشرية. فإذا وجد الفخر باللغة فتلك علامة العربى بين العناصر عامة، من أقاربه الساميين إلى الغرباء عنه من الآريين والطورانيين والحاميين، ثم تتجلى فيهم - دون سائر الأمم - تلك الظاهرة الفريدة فى تواريخ الأديان والثقافات، وهى العلو بالبلاغة حتى تكون البلاغة فى قسطاس كل مخاطب بالقرآن الكريم تحديًا نبويًا، وتحديًا ربانيًّا، من معجزات الإله التى لا تتسامى إليها قدرة البلغاء فى أمة اللسن والبيان.

وهذه ظاهرة متجلية للنظر القريب والبعيد لا تحتاج من المستشرقين إلى بحث عن مجهول أو معلوم. فما يجىء الكتاب بهذه المعجزة لأمة خلت من مأثورات البلاغة فى شعرها وجوامع كلماتها، وما هو بجائز عقلا أن يتحداها القرآن وهى لا تعرف من كلامه شيئًا يتجه إليه ذلك التحدى وتدور عليه الموازنة فى عرف الخبراء بالكلم البليغ. فالقياس المستقيم أن القرآن نزل فى قوم لهم بلاغة موروثة يتناقلونها ولا يجهلون أعلامها، وأما القول بأن بلاغة الجاهلية لم تكن حقيقة واقعة وإنما اصطنعها الرواة اصطناعًا بعد الإسلام سنداً للقرآن ودفعًا للشبهات عنه بين المؤمنين به - فليس من القياس المستقيم فى مقياس غير مقياس أولئك المستشرقين، وما كان الجاهلى الكافر ليقبل آية القرآن ولا يشك فى فصاحة القرآن ثم يأتى المسلم المؤمن فلا تثبت له فصاحة القرآن إلا بكلام

يخلقه خلقًا لينسب إلى أولئك الجاهليين، ولقد حدث نقيض ذلك فى كثير من الشواهد على صحة اللغة وسلامتها، فكان القرآن مرجع المصححين فيما يختلفون عليه ويبتغون له سنداً لا مراء فيه.

ومهما يبلغ من ضعف الذاكرة بالبادية - وليست هى بالضعيفة - فلن يبلغ من نسيانها أن ينقطع الجد عن أخبار أبيه وأخبار بنيه، وأن ينسى لغة سمعها فى حياته أو سمعها أبوه قبل مولده، فما كان جيلان أو ثلاثة أجيال بالامتحان العسير لذاكرة قوم لا معول لهم على غير الذاكرة ورواية الأخلاف عن الأسلاف، وإنه ليمتنع أو يستحيل أن ينشأ الإسلام فى جيل يجهل اللغة التى تنسب إلى شعراء المعلقات وأقدمهم لم يسبق جيل الإسلام بأكثر من مائة وخمسين سنة، وفى هذه السنين خاصة توحد حساب التاريخ وتولاه قلامس العرب وخالفوا فيه تقويم اليهود فى حساب النسيء. فكان جنادة بن عوف ناسئاً عند ظهور الإسلام. وسبقه أبوه عوف بن أمية، وسبقه أبوه أمية بن قلع، وسبقه أبوه قلع بن عباد، وسبقهم آخرون إلى عهد القلمس من بنى كنانة، فهم فى تاريخ معلوم متسلسل قبل الإسلام بأربعة أجيال.

ومن فهامة المستشرقين هؤلاء أنهم لا يختارون من تاريخ العرب مطعناً يصيبونه غير اللغة والأنساب، وكلهم يتحذلقون على العلم فى شكوكهم الموكلة بالتاريخ العربى أو الإسلامى من أقدم عهوده، ثم يأتى العلم فيثبت بالكشوف المحسوسة صدق الخرافة المزعومة وكذب العلماء الزاعمين حتى لقد أصبح التخريف حقًّا لهؤلاء المحققين الذين لا يعرفون من التحقيق إلا اتهام كل رواية عربية أو إسلامية بالتخريف.

فمن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر عادًا وثمودًا، وأنكر الكوارث التى أصابتهم بغير حجة إلا أنه يحسب أن المنكر لا يطالب بحجة ولا يعاب على النفى الجزاف. فما لبثوا طويلا حين تبين لهم أن عادا(Oadita) وثمودا(Thamudida) مذكورتان فى تاريخ بطليموس وأن اسم عاد مقرون باسم إرم فى كتب اليونان، فهم يكتبونها «أدراميت»Adramitae ويؤيدون تسمية القرآن لها بعاد إرم ذات العماد.. وعثر المنقب موزيل التشكىMusil [1] صاحب كتاب الحجاز الشمالى عن آثار هيكل عند «مدين»

---

(١) Northern Hejaz by Musil.

منقوش عليه كلام بالنبطية واليونانية وفيه إشارة إلى قبائل ثمود.

ومن أقطاب هؤلاء المخرفين من أنكر أبرهة ونكبة جيشه واهتمامه بتعطيل الكعبة وبنائه القليس فى صنعاء لصرف العرب عن الكعبة إليها. ثم تنكشف النقوش عن اسمه على خرائب سد مأرب ملقبًا بالأمير الحبشى من قبل «ملك الحبشة وسبأ وريدان وحضرموت واليمامة وعرب الوعر والسهل» ويتواتر الخبر عن الجدرى الذى تفشى فى منتصف القرن السادس للميلاد فيذكره بروكوب(Procobe) من وزراء القسطنطينية، ويروى الرحالة بروس(Bruce) الذى زار بلاد الحبشة فى القرن الثامن عشر أن الأحباش يذكرون فى تواريخهم أن أبرهة قصد إلى مكة ثم ارتد عنها لما أصاب جيشه من المرض الذى يصفونه بصفة الجدرى، ولا يقل عن هذه الأسانيد جميعًا سند التاريخ بعام الفيل قبل البعثة المحمدية بجيل واحد، بل أقل من جيل.

وسد مأرب برمته لم يسلم من التكذيب، وبناء قريش للكعبة بعد مولد النبى هو أيضًا تخريف فى زعم هؤلاء المخرفين ولكنه لقى من يدحضه من المؤرخين الأوربيين المعاصرين، فكتب كرزويل تحقيقه الذى يقول فيه «إن العالم ليونى كايتانى يذهب إلى القول بأن قصة تعمير قريش للكعبة ليست إلا خرافة من نسج الخيال، فاليوم يثبت لنا جليًّا بعد ما أوردناه من الحقائق من بناء الكعبة على الطراز الحبشى فى سنة ٦٠٨ ميلادية ووجود الصور المسيحية التى كانت تحلى باطنها وقيام معمار حبشى ببنائها – وهى جميعًا حقائق متماسكة آخذ بعضها برقاب بعض – صدق رواية المؤرخين الذين قصوا أخبار هذه العمارة، وصحة ما ذهبنا إليه وبطلان ما يدعيه كايتانى من اختراع هذه القصة وتلفيقها»[١].

ونحن نقف بهذه التواريخ عند حدها ولا نجاوزبها مداها، فحسب الناظر فى التاريخ أن يفهم منها أن أخبار العرب عن لغتهم وعن أوائلهم لا تدحض جملة واحدة، وقد تخالطها المبالغة وتتناقض حولها الغرائب، بل ربما كان من دواعى إدحاضها أن تبرأ من كل مبالغة وغرابة، فأما الكذب الذى يعاب على العلم ويلحقه بالخرافة فهو هذا التحقيق الذى هو أهون وأضر من التخريف.

---

(١) المجلة التاريخية المصرية، عدد أكتوبر سنة ١٩٤٩.

إن الحوادث الكبرى تستدعى المقارنة بين فهمنا لها بمقاييس العلم ومقاييس الفلسفة ومقاييس العقيدة، وتوحى إلينا فى جميع الأحوال أن مقاييس العقيدة أخلصها إلى أعماقها وأقدرها على التفسير كلما استجاشت العقيدة فى الأمم قوة الحياة وقوة الضمير.

والإسلام قد استصفى تاريخ العرب قبل دعوته فجمعه كله فى الوحدة القومية، وأقام هذه الوحدة على ركنيها اللذين لا قوام لها بغيرهما على تساند واتفاق: وهما ركن اللغة وركن الحرية الدينية، وكلاهما كان تمهيداً صالحاً لظهور الدعوة الإسلامية.

إلا أن معجزة الإسلام فى جميع مقدماته ونتائجه أن هذه النتائج لم تكن قط منقادة مسخرة لتلك المقدمات، فإن هذه العصبية اللغوية الدينية قد آلت فى يد الإسلام إلى دعوة إنسانية عالمية لا تنكر شيئًا كما تنكر العصبية الجاهلية، ولا تعرف ربًّا غير رب العالمين ولا قسطاساً غير قسطاس العمل الصالح يتفاضل به القرشى والحبشى والعربى والأعجمى وعترة النبى ومن ليست بينه وبين النبى لحمة غير لحمة الإيمان..

ونعود فنقول إن شأن اليهودية فى توضيح هذه الحقائق أعظم من كل شأن لها فى الجزيرة العربية. فمما لانزاع فيه أن أناسًا من اليهود قدموا إلى الجزيرة بلغة غير اللغة الحجازية فاحتفظوا بلغة الدين للدين ولم يمض عليهم زمن طويل حتى عم التفاهم بينهم وبين سائر العرب بلسان الحجاز وتهامة ونجد ومن جاورهم من الأنباط وعرب الحيرة وبادية الشام، وهذه حقيقة تاريخية واقعية مسقطة لكل دعوى يتحذلق بها أدعياء العلم من محترفى التبشير والاستشراق.

المسيحية فى الجزيرة

أما المسيحية فقد كان لها مدخل إلى الجزيرة العربية غير هذا المدخل. فلم تصل إلى داخل الجزيرة عشيرة كبيرة أو صغيرة من المهاجرين، ولم يأتها قوم بلسان غير اللسان العربى كما حدث فى هجرة اليهود، ولكنها شاعت بين قبائل العرب فى جيرة الدول التى سيطرت على أطراف الجزيرة، وهى بيزنطية وفارس والحبشة، وكان لمذهب العاهل القائم بالأمر فى دولة بيزنطية أثر كبير فى توجيه النحل والمذاهب فى بلاده وبلاد أعدائه. وقد حدث فى

مدى قرن واحد أن العواهل كانوا يحرمون المسيحية على رعاياهم، ثم دانوا بها على مذهب، وجاء من بعدهم فدان بها على مذهب يعاديه ويرميه بالكفر والزندقة. فمن شاء أقام مع العاهل فى بلاده طائعًا له أو مداريا لأمره وإلا ففى بلاد أعدائه من الفرس متسع له يعلن فيه مذهبه وينطلق فى تسفيه العاهل وشيعته غير ملوم ولا ممنوع.

وأفلت إلى الجزيرة العربية آحاد من كل نحلة مسيحية غضب عليها عاهل القسطنطينية، فهاجرت إليها فئات متفرقة من أتباع آريوس وأوريجين ونسطور ولوسيان الأنطاكى وجماعة المشبهين وجماعة القائلين بالطبيعة الواحدة والقائلين بالطبيعتين.

وكان نسطور بطرقًا للقسطنطينية ينشر مذهبه ببأس الدولة، ثم عزل، وتعقبه خصومة بالنفى إلى أرض النوبة، ومحور مذهبه أنه يفصل بين الناسوت واللاهوت فى السيد المسيح ويرفض القول بتأليه العذراء عليها صلوات الله، وكان الأنطاكى يناقض تفسير الكتب الدينية بأسلوب المجازات والرموز ويلتزم اللفظ والنص فى فهم معانيها ومسائلها الغيبية وكان آريوس يقول إن الكلمة هى واسطة الخلق، ويقول أوريجين إنها مخلوق محدث له الشرف على سائر المخلوقات، وإن هذه الكلمة تجسمت فى السيد المسيح فظهرت على مثال الإنسان، وآخرون يقولون إن جسد السيد المسيح تشبيه بالجسد وليس بالجسد المادى الذى يحكى جسد الإنسان، وإنه فى لاهوته أجل وأرفع من أن يتعذب أو يتضرع، وصيحته عند الصلب لم تكن «ربى ! ربى !» بل كانت: قوتى ! قوتى ! كما ورد فى بعض النصوص.

* * *

ويعترف جورج سيل مترجم القرآن بما كانت عليه حال المسيحين فى الحجاز من السوء والضلالة، فيقول فى مقدمته للترجمة «من المحقق أن ما ألم بالكنيسة الشرقية من الاضطهاد واختلال الأحوال فى صدر المائة الثالثة للميلاد قد اضطر كثيرين من نصاراها أن يلجئوا إلى بلاد العرب طلباً للحرية وكان معظمهم يعاَقبة، فلذا كان معظم نصارى العرب من هذه الفرقة. وأهم القبائل التى تنصرت حمير وغسان وربيعة وتغلب وبهراء وتنوخ وبعض طيئ وقضاعة وأهل نجران والحيرة.. ولما كانت النصرانية بهذه المثابة من الامتداد فى بلاد العرب لزم عن ذلك ولابد أنه كان للنصارى أساقفة فى مواضع جمة منها

لتنتظم بهم سياسة الكنائس وقد تقدم ذكر أسقف ظفار وقال بعضهم كانت نجران مقام أسقف وكان لليعاقبة أسقفان.. يدعى أحدهما أسقف العرب بإطلاق اللفظ وكان مقامه باكولة وهى الكوفة عند ابن العبرى أو بلدة أخرى بالقرب من بغداد عند أبى الفداء، وثانيهما يدعى أسقف العرب التغلبيين ومقامه بالحيرة. أما النساطرة فلم يكن لهم على هذين الكرسيين سوى أسقف واحد تحت رئاسة بطريركهم».

إلى أن يقول: «أما الكنيسة الشرقية فإنها أصبحت بعد انفضاض المجمع النيقاوى مرتبكة بمناقشات لا تكاد تنقضى وانتقض حبلها بمماحكات الأريوسيين والنساطرة واليعقوبية وغيرهم من أهل البدع. على أن الذى ثبت بعد البحث أن كلا من بدعتى النساطرة واليعقوبية كانت بأن تدعى اختلافاً فى التعبير عن المعتقد أولى من أن تدعى اختلافًا فى المعتقد نفسه، وبأن تدعى حجة يتعنت بها كل من المتناظرين على الآخر أولى من أن تدعى سببًا موجبًا لالتئام مجامع عديدة يتردد إليها جماعة القسان والأساقفة، ويتماحكون ليعلى كل واحد منهم كلمته، ويحيل القضايا إلى هواه. ثم إن نافذى الكلمة منهم وأصحاب المكانة فى قصر الملك كان كل واحد منهم يختص نفراً من قواد الجيش أو من أصحاب الخطط، يكون له عليهم الولاء، ويتقوى بهم، وبذلك صارت المناصب تنال بالرشى والنصفة تباع وتشترى جهاراً. أما الكنيسة الغربية فقد كان فيها من تهالك دماسوس وارسكينوس فى المشاحة على منصب الأسقفية – أى أسقفية روته – ما أفضى إلى احتدام نار الفتنة وسفك الدماء بين حزبيهما.. وكان أكثر ما تنشأ هذه المناقشات عن القياصرة أنفسهم ولا سيما القيصر قسطنطينوس فإنه إذ لم يقدر أن يميز بين صحيح الدين المسيحى وخرافات العجائز ربك الدين بكثير من المسائل الخلافية.. هذا ما كان عليه حال النصرانية فى غير بلاد العرب. أما فى بلاد هذه الأمة التى هى موضوع بحثنا فلم تكن خيرًا من ذلك.. فكان فى نصارى العرب قوم يعتقدون أن النفس تموت مع الجسد وتنشر معه فى اليوم الآخر وقيل إن أوريجانوس هو الذى دس فيهم هذا المذهب، وكم وكم من بدعة انتشرت فى جزيرة العرب، حتى لا نقول نشأت فيها؟! فمن ذلك بدعة كان أصحابها يقولون بألوهية العذراء مريم ويعبدونها كأنما هى الله ويقربون لها أقراصًا مضفورة من الرقاق يقال لها كليرس وبها سمى أصحاب هذه البدعة كليريين.. وفضلا عن ذلك فقد اجتمع أيضًا فى جزيرة العرب عدد وافر من الفرق المختلفة الأسماء لجئوا إليها هربًا من اضطهاد القياصرة..».

فالحالة التى تمثلت بها النصرانية فى جزيرة العرب لم تكن فى حالة هداية يحيط بها مذهب واحد صالح لتعليم من يتعلمه، بل كانت شيعًا سياسية ومذاهب متنازعة يتوقف العلم بالصالح منها على هدى الناظرين فيها وعلى ما عندهم من البصر الثاقب والبداهة المنزهة التى يعود إليها الفضل فيما تقبله وتأباه، ولا فضل عليها لمن يعلمها نحلة من تلك النحل تقدح فى سائرها، وترمى الذين لا يتبعونها بالكفر والضلال.

والقرآن الكريم يصف هذه الحالة بين أهل الكتاب جميعًا كما جاء فى سورة المائدة عن عواطف اليهود والنصارى.

قال عز من قائل: (ولقد أخذ الله ميثاق بنى إسرائيل وبعثنا منهم اثنى عشر نقيبًا وقال الله إنى معكم لئن أقمتم الصلاة وآتيتم الزكاة وآمنتم برسلى وعزرتموهم وأقرضتم الله قرضًا حسنًا لأكفرن عنكم سيئاتكم ولأدخلنكم جنات تجرى من تحتها الأنهار فمن كفر بعد ذلك منكم فقد ضل سواء السبيل، فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظًّا مما ذكروا به ولا تزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين، ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون).

* * *

هذه حالة النصرانية فى الحجاز كما عهدها النبى عليه السلام قبل مبعثه، وهى بهذه المثابة من مقدمات رد الفعل لا من مقدمات التمهيد والتحضير، سواء كان ذلك فى أمر النبى أو أمر الحكماء من طلاب الهداية الذين عرفوا باسم المتحنفين أو المتحنثين.

وينبغى الاحتراس من قول القائلين إن أحدًا من أولئك المتحنفين أو الحنفاء تنصر أو تهود على مذهب مفصل مستوعب لعقائد النصرانية أو اليهودية، فكل ما يصح من أخبار الحنفاء أنهم كانوا يعرفون أن الإيمان بالإله الواحد أهدى وأحكم من الإيمان بالنصب والأوثان، ونحسب ابن هشام قد صدق الرواية حقًّا حين قال عن أشهر هؤلاء المتحنفين زيد بن عمرو بن نفيل إنه «وقف ولم يدخل فى يهودية ولا نصرانية وفارق دين قومه فاعتزل الأوثان والميتة والذبائح التى تذبح على الأوثان ونهى عن قتل المولودة وقال أعبد

رب إبراهيم.. وكان يسند ظهره إلى الكعبة ويقول: «يا معشر قريش! والذى نفس زيد ابن عمرو بيده ما أصبح منكم على دين إبراهيم غيرى. ثم يقول اللهم لو إنى أعلم أى الوجوه أحب إليك عبدتك ولكنى لا أعلم».

* * *

ومثل ابن نفيل ورقة بن نوفل الذى قصدت إليه السيدة خديجة لتسأله عن جبريل الذى نطق النبى عليه السلام باسمه أمامها، فإنه كان يطيل القراءة فى كتب اليهود والنصارى ويعلم أن عبادة الأصنام ضلالة فيلتمس الهداية فى غيرها ولا يستوفى العلم ولا الإيمان بأى الديانتين، وغاية الأمر فى نصرانيته كما قال ابن هشام أنه « كان نصرانيًّا تتبع الكتب وعلم من علم الناس».. وقد ذكر عنه مع ثلاثة من أصحابه، أحدهم ابن نفيل، أنهم كانوا قد انصرفوا من عند صنم يعظمونه فى يوم عيد فقال بعضهم لبعض: «تعلمون والله ما قومكم على شىء.. لقد أخطئوا دين أبيهم إبراهيم. ما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر. يا قوم! التمسوا لأنفسكم فإنكم والله ما أنتم على شىء».

قال ابن هشام: فتفرقوا فى البلدان يلتمسون الحنيفية دين إبراهيم. ونحن نعلم من القرآن الكريم أن المشركين كانوا يقولون إنهم لم يعبدوا الأرباب والأوثان إلا ليقربوهم إلى الله زلفى، وسنرى فى الكلام على الكعبة أن الحقبة التى سبقت بعثة النبى شهدت طوائف من المجتهدين فى العبادة منهم طائفة الحمس التى اختصت الحرم وحده بالتقديس وتنسكت بضروب من العبادة لم يتبعها أحد من قبلهم فى الجاهلية. فقد كانت الحقبة إذن حقبة حائرة بين العبادات ولم تكن عبادة منهم لتستأثر بضمير صاحبها أو تغنيه عن النظر فى غيرها، وقد كانت هذه الحيرة فى جانب من جوانبها، على الأقل، أثرًا من آثار الجامعة القومية أو أثرًا من آثار الشوق إلى ديانة جامعة غير ديانة الأصنام المتفرقة، لكل قبيلة من القبائل صنم تنفرد به. أو تميزه بين زمرة الأصنام المشتركة.

فقد كانت القبائل تعبد أصنامها ولم تكن بها حاجة إلى الاشتراك فى عبادة واحدة تشملها. فلما وجدت هذه الحاجة لمسوا النقص فى كل عبادة من عباداتهم وذهب أصحاب النظر منهم يبحثون عن الدين الصالح ويستلهمون من كلمة « بيت الله» قبساً يقربهم من

الله ومن ديانة رب البيت وبانيه إبراهيم عليه السلام، وقديماً نسب الحجازيون أنفسهم إلى إسماعيل بن إبراهيم ونسبهم إليه أصحاب التوراة وعلماء الأنساب.

* * *

وإن أصدق وصف للحالة الدينية فى عصر البعثة الدينية أنها حالة نقص فى كل نحلة وكل عقيدة. فلم نعلم من أخبار الوثنية قط أنها كانت تستوعب المؤمن بها وتمنعه أن يأخذ ببعض الشعائر من هنا وأن يتقبل بعض الآراء من هناك ولم تكن الحدود بين النحل والعادات الدينية متحجرة مستقرة على قرار لا يأذن بالتبديل والزيادة والتحوير، ولم يكن المتدين منهم جميعًا يتنبه إلى الابتداع فى أمر الدين إلا أن يسومه الخروج على قومه والزراية بشرعة الآباء والأسلاف فيومئذ تنقلب المسألة من تصرف فى الشعائر والآراء إلى النخوة العصبية والغيرة على الأحساب والأنساب، وتصطدم البدعة الجديدة إذن بالعصبية القومية كلها فى إبان اليقظة والطموح وهذه الصدمة لم تفاجئ أبناء الجاهلية قط من نحلة يحكونها أو يستجيبون لها بحكم المسايرة والمجاراة، وإنما فاجأتهم من دعوة الإسلام وحده فتمردوا عليه ذهابًا مع العصبية وتراث الحسب والنسب ولم يتمردوا عليه ذيادًا عن ملة شاملة تستأثر منهم بالضمائر والأفكار.

فالوحدة القومية مهدت للإسلام إلى حد محدود، ويسرت له الأمر بالتوقع والانتظار ثم وقفت دون الغاية حين اصطدمت القومية بالدعوة الجديدة ووجب أن تثوب الدعوة الجديدة إلى قوة أكبر من قوة القومية التى اعتز بها المشركون وخلطوها بما ألفوه من السيادة والمصلحة فى التراث القديم.

فبالوحدة القومية تمهدت طريق الإسلام، وبقوة الإسلام برزت من الوحدة القومية شريعة الإنسان وعبادة رب العالمين.

* * *

ولم نذكر فيما تقدم عاملًا من أشهر عوامل هذه الوحدة القومية، وهو يوم ذى قار الذى انتصر فيه العرب على الفرس وارتجت فيه الجزيرة العربية بالفخر والأمل فى مطلع العصر الإسلامى وعند ولادة النبى عليه السلام..

لم نذكره لنضعه كما وضعه أناس فى مقدمة العوامل الكبرى، ولا ننساه هنا لنحسبه

منها ولا نقدمه عليها، فلو لم يكن يوم ذى قار لكانت الوحدة العربية وكانت توابعها التى لحقت بها فى أوانها. ولعل وثبة ذى قار جاءت بعد الوحدة القومية ولم تسبقها، ولعلها كانت الجولة الثانية بعد الجولة الأولى على تخوم الدولة الفارسية، فلما تنازع أمراء الحيرة وشواهين الدولة غلبت الدولة على الإمارة وقضى الأكاسرة والشواهين على المناذرة والنعامين ولما التقت سطوة فارسية ونخوة عربية فى الجولة التالية ظفرت القبائل حيث أخفق الأمراء.

كانت ذو قار وليدة النخوة العربية ولم تكن أمها التى ولدتها، وإنما كانت أم الأمهات فى هذه النهضة وحدة اللسان ووحدة الجنان.

النبوة المحمدية

أوائل النبوات:

ندع الآن هذه الوحدة ريثما نعود إليها فى الكلام على الكعبة المكية، ونرجع بتاريخنا إلى أوائل النبوات لنمضى بها إلى ختامها بالرسالة المحمدية، فإن تاريخ النبوة من أوائلها أصلح المقدمات لبيان فضل النبوة كما بعث بها خاتم الأنبياء.

من قديم الزمن وجدت الرغبة فى العلم بالغيب واستطلاع المجهول، ووجدت لذلك علامات كثيرة يتفق عليها الناس عامة من قبيل زجر الطير والتفاؤل بالكلام المسموع والمناظر التى تبشر بالخير والنجاح أو تنذر بالشر والخيبة.

هذه العلامات العامة كانت معروفة شائعة بين الناس لا يختص بها أحدهم دون غيره، فكل ما عرفه الناس قديماً من علامات التفاؤل أو علامات التشاؤم فهو ميراث الجماعة يتناقلونه على وتيرة واحدة من الآباء إلى الأبناء.

لكن الرغبة فى استطلاع الغيب ومواجهة المجهول لم تكن كلها من هذا القبيل، ولا سيما المجهول الذى يعرفه الآلهة وحدهم ولا يكشفونه لغير المقربين من عبادهم، وهم خدام معابدهم والأمناء على مشيئتهم والمترقبون لوحيهم فى ليلهم ونهارهم، فربما عرض للقبيلة عارض جسيم لا تعرف وجهتها فيه، ولا يدلها على هذه الوجهة طير يراه فرد من أفرادها على صورة من الصور، أو كلمة يسمعها من عابر طريق يستوحى منها البشارة أو الإنذار، فإن شئون الفرد غير شئون القبيلة، وليس لفرد من عامة أفرادها أن يدعى لنفسه القدرة على سؤال أربابها والفهم عنهم فى معابدهم ومحاريبهم، مع وجود الكاهن الذى انقطع لخدمة الأرباب وورث هذه الخدمة من آبائه وأجداده فى أكثر الأحوال، ولا مع وجود الكاهن الذى تربى من صباه فى مهد العبادة ليقترب من الأرباب المعبودين ويفقه عنهم من إشاراتهم ومضامين وحيهم ما يخفى على سواه.

ومن قديم الزمن أيضًا وجد الكاهن «المختص» ووجد «الرائى» الملهم الذى يختاره الإله للنطق بلسانه والجهر بوعده ووعيده، ولم يكن بين عمل الكاهن وعمل الرائى تناقض فى مبدأ الأمر، لأن كلام الرائى كان يحتاج إلى تفسير الكاهن وحل رموزه ونفى «النفاية» من خلطه واضطرابه إذا كان الغالب على الرائين أنهم قوم تملكهم حالة «الوجد» أو «الجذبة» أو «الصرع» فيتدفقون بالوعد والوعيد وينذرون الناس بالويل والثبور، ويقولون كلامًا لا يذكرونه وهم مفيقون، فيحسب السامعون أن الوثن المعبود يجرى هذا الكلام على ألسنتهم للموعظة والتبصرة، وسمى الصرع من أجل هذا بالمرض الإلهى فى الطب القديم.

وكان اليونان يسمون الرائى مانتى Mantis ويسمون المعبر عنه أو المفسر لكلامه بروفيت Prophet أى المتكلم بالنيابة عن غيره، قبل أن تطلق هذه الكلمة على النبى بمعناها المأثور فى الأديان الكتابية، ولكن الفرق بين الرائى والكاهن لم يزل ملحوظاً فى الأزمنة المتأخرة كما كان ملحوظًا فى الأزمنة الغابرة. فالكهانة وظيفة والرؤية طبيعة، والكاهن يقصد ما يقوله والرائى يساق إليه، وقد تشترك الكهانة والرؤية فى شخص واحد ويظل العملان مختلفين، فما يقوله الكاهن قصدًا غير ما يقوله وهو «راء» ينطق لسانه بما يعيه وما لا يعيه.

ويصطدم العملان كثيرًا بعد ارتقاء الديانة، وامتزاجها بالفضائل الأخلاقية والفرائض الأدبية، فإن الكهان فى هذه الحالة يجمدون أحيانًا على المراسم والشعائر ويحافظون على مناصبهم بالتماس الحظوة عند ذوى السلطان فى بلادهم، ويومئذ يختلف عمل الكاهن المرسوم وعمل الرائى المتطوع فيثور الرائى على الكاهن ويتهمه فى أمانته وإيمانه، ويحدث بينهما ما حدث بين «أمصيا» كاهن بيت ايل وعاموس الرائى، إذ يحذره الكاهن على رزقه وحياته فيقول له: «أيها الرائى اذهب.. اهرب إلى أرض يهودا وكل هناك خبزًا وكن هناك نبيًّا. وأما بيت ايل فلا تعد تتنبأ فيها بعد، لأنها مقدس الملك وبيت الملك».

* * *

وقد وجدت الكهانة والرؤية بين العبرانيين من أقدم عصورهم كما وجدت فى سائر الأمم، ولم يسموا الرائى عندهم باسم النبى إلا بعد اتصالهم بالعرب فى شمال الجزيرة.. إذ وجدت كلمة النبوة فى اللغة العربية كما قلنا فى كتاب أبى الأنبياء «غير مستعارة من

معنى آخر، لأن اللغة العربية غنية جدًّا بكلمات العرافة والعيافة والكهانة وما إليها من الكلمات التى لا تلتبس فى اللسان العربى بمعنى النبوة كما تلتبس فى الألسنة الأخرى.. والعبريون قد استعاروها من العرب فى شمال الجزيرة بعد اتصالهم لها، لأنهم كانوا يسمون الأنبياء الأقدمين بالآباء وكانوا يسمون المطلع على الغيب بعد ذلك باسم الرائى والناظر، ولم يفهموا من كلمة النبوة فى مبدأ الأمر إلا معنى الإنذار.. وقد أشارت التوراة إلى ثلاثة أنبياء من الغرب غير ملكى صادق الذى لقيه الخليل عند بيت المقدس.. وهم يثرون وبلعام وأيوب، ومنهم من يقال إنه ظهر قبل اثنين وأربعين قرنًا وهو أيوب».

ويعزز هذا الرأى ما جاء فى موسوعة الكلمات اللاهوتية[1] فى التوراة عن عالمين من أكبر علماء التاريخ العبرى وهما هولشر Holscher وشميدت Schmidt فإنهما يرجحان أن كلمة النبوة مما استفاده العبريون من أهل كنعان بعد وفودهم على فلسطين.

النبوة والجنون

عرف الأقدمون من العرب والعبريين كلمة النبوة قبل بعثة موسى عليه السلام، ولكنها لم ترتفع بينهم إلى مكانتها الجليلة التى نعهدها اليوم دفعة واحدة، وغبر عليهم دهر طويل وهم يخلطون بينها وبين كل علاقة بالغيب، وينتظرون منها الكذب كما ينتظرون منها الصدق شأنها فى ذلك كشأن غيرها من الدلالات عل المجهول.

فخلطوا بينها وبين الجنون، كما خلطوا بينها وبين السحر والكهانة والتنجيم والشعر، وأضعف من شأن النبوة عند بنى إسرائيل خاصة أن الأنبياء بينهم كثروا وتعددت نبوءاتهم فى وقت واحد فتناقضوا وأشار بعضهم بما ينهى عنه الآخرون، فأصبح الأنبياء عندهم فريقين يتشابهون فى المسلك والمظهر ويختلفون بالصدق والكذب، ولا سبيل إلى معرفة الصادق والكاذب بغير امتحان الحوادث التى تأتى أحياناً بعد نسيان ما تقدم من النبوءات.

---

(١) A Theological Word Book of the Bible, edited by Richardson

وغلبت عليهم فى مبدأ الأمر عقيدة شائعة بذهول النبى وغيابه عن الوعى فى جميع أيامه وفى الأيام التى يملكه فيها الوجد الإلهى على الخصوص، كأنهم يرون أن الغيبوبة والاتصال بالغيب شيء واحد، وكأنهم يحسبون أن الانقطاع عن شواغل الدنيا آية على صدق النبى وإقباله بجملته على الله.

ويؤخذ من سفر صمويل الأول أن المتنبئين كانوا يظهرون جماعات جماعات «إذ أرسل شاول رسلاً لأخذ داود، فرأوا جماعة الأنبياء يتنبئون، وشاول واقفًا بينهم رئيسًا عليهم، فهبط روح الله على رسل شاول فتنبئوا هم أيضاً وأرسل غيرهم فتنبأ هؤلاء.. فخلع هو أيضاً ثيابه وتنبأ هو أيضًا أمام صمويل وانطرح عاريًا ذلك النهار كله وكل الليل».

ومن لم تملكه حالة الوجد برياضة النفس على الخشونة والشظف وتعريض جسده لحرارة الشمس، وبرد الليل فقد يستعين على اكتسابها بالسماع والجولان وينتقل بهذه الوسيلة إلى النشوة أو الغيبوبة فينطلق لسانه بالنبوءات والرموز ويستخلص منها السامعون تفسيرها بما جرت عليه عادتهم من التأويل والتخريج.

وفى سفر صمويل قبل ذلك «أنه يكون عند مجيئك.. إلى المدينة أنك تصادف زمرة من الأنبياء نازلين من الأكمة وأمامهم رباب ودف وناى وعود وهم يتنبئون، فيحل عليك روح الرب فتتنبأ معهم وتتحول إلى رجل آخر».

وفى سفر الأيام الأول أن داود ورؤساء الجيش «أفرزوا للخدمة بنى آساف وهيمان ويدوثون المتنبئين بالعيدان والرباب والصنوج».

وقد ينعزل بنو الأنبياء كأنهم يرشحون أنفسهم للنبوة بعد آبائهم حتى يضيق بهم مكانهم كما جاء فى سفر الملوك الثانى: «وقال بنو الأنبياء لأليشع هو ذا الموضع الذى نحن مقيمون فيه أمامك قد ضاق علينا فلنذهب إلى الأردن».

وعلى هذه الحيرة التى كانت تنتاب القوم بين النبوءات الكثيرة لم يكن بهم غنى عن النبى الصادق الذى يحذرهم غضب الله ويبلغهم مشيئته ويملى عليهم فرائضه وأحكامه فلم يعرضوا عن الأنبياء كل الإعراض ولم يقبلوا عليهم كل الإقبال، ورجعوا إلى التجربة فى التفرقة بين النبوءات، وعقيدتهم فى ذلك ماجاء فى سفر التثنية خطابًا لموسى عليه السلام:

«وأقيم لهم نبيًّا من وسط إخوتهم مثلك واجعل كلامي في فمه فيكلمهم بكل ما أوصيه به، ويكون أن الإنسان الذى لايسمع لكلامى الذى يتكلم به باسمى أنا أطالبه. وأما النبى الذى يفرض عليكم باسمى كلامًا لم أوصه أن يتكلم به، أو الذى يتكلم باسم آلهة أخرى، فيموت ذلك النبى وإن قلت فى قلبك كيف تعرف الكلام الذى لم يتكلم به الرب فما تكلم به النبى باسم الرب ولم يحدث ولم يصر فهو الكلام الذى لم يتكلم به الرب، بل بطغيان تكلم به النبى فلا تخف منه».

وعلى هذا انقسم المتنبئون أقسامًا ثلاثة: نبى يتكلم باسم الرب، ونبى يتكلم باسم آلهة أخرى، ونبى يتكلم باسم رب إسرائيل ولكنه يطغى بما فى قلبه على وحى ربه، فيخلط بين مايقوله هو بلسانه وبين مايجريه الله على لسانه ليبلغه إلى قومه.

والمرجع فى التفرقة بين الأنبياء إلى صدق النبوءة، فإذا امتد الأجل بالنبى حتى يشهد القوم صدقه فى نبوءة بعد أخرى فذاك هو النبى المختار الذى يطاع وتكتب عنه النبوءات، وربما قضى صدر حياته مهانًا منبوذًا بين قومه كما حدث للنبى أرميا الذى أصبح عند كتابة العهد القديم فى زمرة كبار الأنبياء، وقد حكى ذلك فقال فى الإصحاح العشرين: «قد أقنعتنى يارب فاقتنعت وألححت علىّ فقبلت.. صرت للضحك كل النهار.. وكلهم قد استهزأ بى. لأنى كلما تكلمت صرخت.. ناديت ظلم واغتصاب.. فقلت لا أذكره ولا أنطق به باسمه، فكان فى قلبى كنار محرقة محصورة فى عظامى..».

نبوءة الأحلام والرؤى

ومن الحق أن نذكر أن المتنبئين لم يتطلعوا جميعًا إلى مكان النبوة العليا – نبوة القيادة والتعليم والتشريع – ولم تكن نبوة الكثيرين منهم مستمدة من شيء غير الأحلام والرؤى وجيشان الشعور وإلحاحه على صورة واحدة، يعجز المتنبئ عن صرفها فيجهر بها صارخًا كما فعل أرميا كأنه يستغيث من لاعج فى نفسه لايقوى على كتمانه. ومنهم من كان يرى الرؤى ثم تكرر فى منامه، فيفضى بها إلى قومه مخافة الكتمان وحذرًا من أن يكون هذا الكتمان نكوصًا عن الدعوة وممالأة على العصيان والفساد، وقل منهم من أبلغ قومه أنه تلقى الوحى من هاتف مسموع أو شخص منظور فى حالة اليقظة، ومن هؤلاء القليلين

صمويل الذى «الذى سمع قبل أن ينطفئ سراج الله وهو مضطجع فى تابوت الرب صوتاً يدعوه» ويعود إلى دعوته لتوكيدها، ومنهم دانيال الذى قال إن «الرجل جبريل الذى رآه فى الرؤيا ابتدأ يلمسه عند تقدمة الماء ويتكلم معه ويقول له إنه خرج ليعلمه الفهم ويرشده».. ومنهم من كان يستعظم الدعوة حين يحسها فى صدره فيقول كما قال أشعيا: «إنى هلكت لأنى إنسان نجس الشفتين أسكن بين شعب نجس الشفتين» إلى أن قال «إن عينى قد رأتا الملك رب الجنود فطار إلى واحد من السرافيم وبيده جمرة قد أخذها بملقط من على المذبح ومس بها فمى وقال إن هذه قدست شفتيك فانتزعت إثمك وكفرت عن خطيئتك».

وجاشت نفس أرميا وهو صبى بخواطر النبوة ثم ألقى إليه أن الرب يقول له: «قبلما صورتك فى البطن عرفتك وقبلما خرجت من الرحم قدستك. جعلتك نبيًّا للشعوب» فاستكثر النبوة على سنه. وقال فى صلاته: آه ياسيد الرب من أين لى أن أعرف الكلام وأنا ولد، فمد الرب يده ولمس فمه وقال: ها قد جعلت كلامى فى فمك، فانظر، لقد وكلتك هذا اليوم على الشعوب وعلى الممالك لتقلع وتهدم وتهلك وتنقض وتبنى وتغرس.

ولقد خشى الأنبياء الكبار على الشعب خطر المعجزات والآيات التى يدعيها المتنبئون، لأنهم عرفوا عجائب السحر فى مصر وبابل وأشفقوا من فتنتها على عقول السواد فلم ينكروا المعجزة الصادقة ولكنهم حسبوا حساب المعجزة الكاذبة التى يقتدر عليها السحرة وأتباع الأرباب المحرمين فكان من وصايا سفر التثنية التى تنسب إلى موسى عليه السلام «أنه إذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلمًا وأعطاك آية أو أعجوبة لو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لنذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم. لأن الرب إلٰهكم يمتحنكم لكى يعلم هل تحبون الرب إلٰهكم من كل قلوبكم ومن كل أنفسكم.. وذلك النبى أو الحالم ذلك الحلم يقتل لأنه تكلم بالزيغ من وراء الرب..».

إلا أن الحيرة بين أصحاب الآيات والمعجزات لم تبطل فى عهد أنبياء بنى إسرائيل ولا بعد ظهور السيد المسيح. فكان الرسل يستدلون بالعجائب والآيات العظيمة على صدقهم وكانت العجائب الكثيرة تجرى على أيدى الرسل كما جاء فى سفر الأعمال، وكان بولس الرسول يبكت أهل كورنثوس وينعى عليهم سوء معتقدهم بعد العلامات التى صنعها

بينهم وصبر عليها بآيات وعجائب وقوات.. وكان إلى جانب هذا يحذر الشعب ممن يقتدرون بقوة الشيطان على الآيات والعجائب الكاذبة «بكل خديعة الإثم فى الهالكين».

وجاء فى الرؤيا أن الأنبياء الكذبة يقتدرون على ذلك إلى آخر الزمان.. «ومن فم النبى الكذاب ثلاثة أرواح نجسة تشبه الضفادع، فإنهم أرواح شياطين صانعة للآيات تخرج على ملوك العالم على كل المسكونة لتجمعهم لقتال ذلك اليوم العظيم».

ومنذ عرف اسم النبوة بين قبائل إسرائيل ظهر فيهم مئات وألوف من هؤلاء المتنبئين لم يكن شأن الأكثرين منهم ليزيد على شأن الدراويش الذين يلوذون بأماكن العبادة أو أماكن الزيارة فى جميع الأديان، ولم تكن قبائل البادية ولا أهل القرى ليضيقوا بتكاليف معاشهم لأنهم كانوا يقنعون بالقليل من الخبز والأدم، وبالخشن الرخيص من ملابس الشعر والصوف، وربما استراح إليهم الدهماء لأنهم يفرجون عن صدورهم بالاجتراء على كبرائهم وسرواتهم الذين يستسلمون للطمع والكبرياء، أو ربما حمد لهم الأمهات والآباء أنهم يباركون أطفالهم ويشفون مرضاهم ويفوهون أمامهم بأطراف من الأقاويل يفسرون رموزها بما يطيب لهم ولا يشعرون منها برهق شديد، لأنهم لا يحملون مئونتها إذا أخذت مأخذ الجد والجسامة، بل ترتفع إلى أيدى ولاة الأمر ورؤساء الدين والكهان والحكماء فيوفقون بين نقائضها أو يستخدمونها فى تلقين الشعب مايحبون أن يقولوه بلسان المتنبئين، ولا يقولونه بألسنتهم، خوفًا من تبعاته أو من قبيل الحيطة للتراجع إذا حسن لديهم أن يرجعوا عما فرضوه وأثبتوه.

كان خطب المتنبئين من هذا القبيل ميسورًا للقبائل ورؤسائها، حتى إذا ظهر الأنبياء الكبار ظهرت معهم حالة كبرى لا تعرض للقبائل كل يوم، لأنهم لا يظهرون إلا إذا احتاجت القبائل إلى تغيير شامل فى معيشتها وأخلاقها ومعاملاتها، وقد يتقاضاهم الأمر هجرة إلى بلد ناء، أو قتالا مع أهل البلد الذى هم فيه أو مع أهل جواره، وليست خطتهم مع المتنبئين الصغار بمجدية مع هؤلاء الأنبياء الكبار دعاة التغيير الشامل وأصحاب الحق فى القيادة المطاعة، وإنما الخطة المجدية هنا هى الانقياد للدعوة التى يخشى على من يعصيها أن يهلك بغضب من الله ولو عم الهلاك قومهم أجمعين، فلا يلبث النبى الكبير أن ينزل فى منزلته بين القوم وأن يتولى بينهم مكان القيادة والتشريع والتعليم، وهو أرفع مكان يسمو إليه عندهم صاحب حق أو صاحب سلطان.

دليل الأمان

إن مهمة النبوة كما قام بها هؤلاء الأنبياء الكبار هى أعلى ما ارتفع إليه نظر الأقدمين من بنى إسرائيل وغيرهم إلى مقام النبوة، فقد كانوا يلقون عليهم كل معولهم، ويطلبون منهم مالم يطلبوه قط من ذى ثقة أو مقدرة بينهم، فانتهت هذه المطالب كافة إلى غاية واحدة: وهى أن النبى «دليل أمان».

يقبلون منه التعليم والهداية، ولكنهم يقبلون تعليمه وهدايته لأنه دليلهم إلى الطريق الأمين.

ويستمعون له فيما يبلغهم من أوامر الله ونواهيه، ولكنهم يستمعون له لأنه يزحزحهم عن طريق الغضب والنكال.

ويجب عليه قبل كل شىء أن يعرف الغيب ليعرف الخطر المتوقع عليهم وعلى أعدائهم الذين يبغضونهم ولا يقدرون على قتالهم وربما طلبوا منه أن يكشف لهم الغيب لما هو أهون من ذلك بكثير: وهو تعريفهم بمكان المال الضائع والحيوان الضال.

ولبثت مهمة النبى عندهم معلقة على دلالة الأمان فى المكان المجهول والزمان المجهول، ولكنها دلالة الأمان من أخطار محسوسة تشبه تلك الأخطار التى تحذرنا منها المراصد ومكاتب التأمين، فمنها أخطار الخراب وأخطار الوباء وأخطار المصائب فى الأقارب والأعزاء.

ولم يبلغ أحد من أنبياء بنى إسرائيل مكانة أعلى من مكانة يعقوب الذى ينسب إليه بنو إسرائيل، أو موسى الذى يدينون له بالشريعة، ثم صمويل وحزقيال وأرميا من أصحاب النبوءات غير المشترعين.

وكل هؤلاء كانت مهمة النبوة فيهم مقترنة بالمهمة الأخرى التى لا فكاك منها، وهى دلالة الأمان بالمعنى المتقدم، أو دلالة الأمان كما يترقبها المرء من المراصد ومكاتب التأمين، وإن تكن قائمة على الهداية والتعليم.

فمن نبوءات يعقوب يفهم أنهم كانوا يعولون عليه فى رصد النجوم وأن كل اسم من أسماء الأبناء يشير إلى برج من بروج السماء، ولا نستقصى الأسماء هنا بل نشير منها إلى مثلين يغنيان عن غيرهما، وهما مثل يهودا وشمعون ولاوى «فيهودا جرو أسد جثا وربض كأسد ولبوة.. لا يزول قضيب من يهودا ومشترع من بين رجليه حتى يأتى شيلون وله يكون خضوع شعوب».

وهذه إشارة إلى برج الأسد، وكان عند البابليين برجان أحدهما برج الأسد أرجولا والآخر أرماح أحد نجوم الدب الأكبر، وأمام الأسد فى البروج برج يشير إلى علامة الملك Seonis Rogulus الذى تخضع له الملوك..

أما مثل شمعون ولاى «فأخوان، سيوفهما آلات ظلم فى مجلسهما لا تدخل نفسى.. لأنهما فى غضبهما قتلا إنسانًا وفى رضاهما عرقبا ثورًا..»

وهذه إشارة إلى برج التَّوْءَمين، وهو برج إله الحرب «زجال» عند البابليين ويصورون أحدهما وفى يديه خنجر والآخر فى يديه سلاح شبيه بالمنجل.. وتشير عرقبة الثور إلى برج الثور الذى يتعقبه التوءمان[1].

وسواء صحت هذه الإشارات إلى الأبراج والنجوم أو كان فيها مظنة للخطأ والتجوز من المفسرين فالنبوءات عن مصائر الأبناء بأسمائهم واضحة لا تحتمل التكذيب.

وموسى الكليم طالبه القوم من إسرائيل وغير إسرائيل فى مصر بقدرة على السحر أعظم من قدرة السحرة وأصحاب الكهانة والتنجيم، ثم جاوزوا تكليف الدلالة معه إلى تكليفه أن يهيئ لهم الطعام الذى يشتهونه صنوفًا بعد صنوف وهم فى وادى التيه، بمأمن من جند فرعون.

واحتاج القوم إلى علم الغيب فى عهد صمويل ليسألوه عن الماشية الضالة ويأجروه على ردها: «خذ معك واحدا من الغلمان وقم اذهب فتش عن الآتن.. فقال شاول للغلام: فماذا نقدم للرجل؟.. لأن الخبز قد نفد من أوعيتنا، وليس من هدية نقدمها لرجل الله. ماذا معنا؟ فعاد الغلام يقول: هو ذا يوجد بيدى ربع شاقل فضة».

---

(1) The Oracles of Jacob by Eric Barrows

ولم يحفل بنو إسرائيل بالنبوءات بعد صمويل كما حفلوا بنبوءات أرميا وحزقيل، وكلها نبوءات عن أخطار الحوادث التى تصيب قومهم وتصيب غيرهم من الأقوام أصحاب الدول فى وادى النيل وبين النهرين، وكان الإنباء بالغيب على هذا المثال هو المهمة الأولى من مهام كبار الأنبياء، وربما تحدث عن الغيب أنبياء من غير هذه الطبقة ليذكروا مصائر أفراد معلومين إلى جانب مصير الأمة كما قال النبى عاموس فى بيت إيل: «أنت تقول لا تتنبأ على إسرائيل ولا تتكلم على بيت إسحاق.. ولذلك قال الرب: إن امرأتك تزنى فى المدينة وبنيك وبناتك يسقطون بالسيف وأرضك تقسم بالحبل، وأنت تموت فى أرض نجسة، وإسرائيل يسبى سبيًا عن أرضه..».

نبوة الهداية

ختمت أيام هذه النبوءات جميعًا فى بنى إسرائيل قبل البعثة الإسلامية بنحو تسعة قرون، لم تتغير خلالها نظرة الناس عامة وبنى إسرائيل خاصة إلى النبوة الدينية، ولم يفهموا النبوءات الأولى وما لحق بها غير الفهم الذى عهدوه. فلما ظهرت النبوة الإسلامية لم تكن تكرارًا لتلك النبوءات ولا تطورًا فيها بل كانت «تنقية» لها من كل ما لصق بها من بقايا الكهانات والدعوات، وجاءت بمعنى النبوة كما ينبغى أن تكون ونفت عنها ما ليس ينبغى أن تكون ونفت عنها ما ليس ينبغى لها من شوائب الأوهام. وأولها أنها مرصد للحوادث يحمى الطريق، أو مكتب للتأمين يقارض القوم على الأمان من الأخطار..

ليست مهمة النبى أن يعلم الغيب «إنما الغيب لله».

* * *

وليس أصدق من نبى يعلم الناس الصدق فيعلمهم مرة بعد مرة أن الغيب من علم الله يكشف عنه ما يشاء لمن يشاء.

(يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما علمها عند ربى لا يجليها لوقتها إلا هو).

(قل لا أملك لنفسى نفعًا ولا ضرًّا إلا ما شاء الله ولو كنت أعلم الغيب لاستكثرت من الخير وما مسنى السوء إن أنا إلا نذير وبشير لقوم يؤمنون).

(قل لا أقول لكم عندى خزائن الله ولا أعلم الغيب ولا أقول لكم إنى ملك، إن أتبع إلا ما يوحى إلىّ قل هل يستوى الأعمى والبصير أفلا تتفكرون).

(وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو).

وآية الآيات مسألة «المعجزات» فى الدعوة المحمدية، فليست المعجزة ممتنعة إذا أرادها خالق الكون كله، وخالق السنن التى يجريه عليها، ولكن المعجزة لا تنفع من لا ينفعه عقله ولا تقنع المكابر المبطل إذا أصر على اللجاجة فى باطله:

(.. ولو فتحنا عليهم بابا من السماء فظلوا فيه يعرجون، لقالوا إنما سكرت أبصارنا بل نحن قوم مسحورون).

(ويقولون لولا أنزل عليه آية من ربه فقل إنما الغيب لله فانتظروا إنى معكم من المنتظرين).

وقد كان الناس ينظرون إلى حوادث الفلك فيحسبونها من الآيات فينهاهم أن يخلطوا بين حوادث الفلك وحوادث الحياة والموت، كذلك كسفت الشمس عند موت إبراهيم ابنه عليه السلام فقال الناس إنها كسفت لموته فلم يمهلهم أن يسترسلوا فى ظنهم وهو محزون الفؤاد على أحب أبنائه إليه، بل أنكر عليهم ذلك الظن ورآها فرصة للتعليم ولم يرها فرصة للدعوة فقال: «إنما الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تكسفان لموت أحد...».

وخلصت النبوة كلها لمهمتها الكبرى وهى هداية الضمير الإنسانى فى تمام وعيه وإدراكه، فانقطع ما بينها وبين كل صناعة أو حيلة كان يستعان بها قديمًا على التأثير فى العقول من طريق الحس المخدوع.

فليس فى النبوة سحر ولا كهانة ولا هى شعر يزخرفه قائله: (إنه لقول رسول كريم. وما هو بقول شاعر قليلا ما تؤمنون ولا بقول كاهن قليلا ما تذكرون).

* * *

ولابد للمؤرخ أن يتريث عند كل وصف من أوصاف الأنبياء الذين كذب بهم

أقوامهم، لأنها جمعت كل ما قيل عن الأنبياء بين أولئك الأقوام فى العصور المتطاولة. فإذا صح أن جزيرة العرب لم تعرف الأنبياء كما عرفهم بنو إسرائيل وأن النبوات كانت وقفًا على بنى إسرائيل والمتنبئين غيرهم من الأمم، فمن أين عرفت أحوال الأنبياء والمتنبئين التى وصفهم بها المكذبون وقد وردت جميعًا فى القرآن الكريم؟.

فمنهم من كان من المعلمين، ويرميه مكذبوه بالجنون (أنى لهم الذكرى وقد جاءهم رسول مبين. ثم تولوا عنه وقالوا معلم مجنون).

ومنهم من كان يرمى بالسحر أو الجنون: (كذلك ما أتى الذين من قبلهم من رسول إلا قالوا ساحر أو مجنون).

ومنهم من كانوا يلحقونه بزمرة الشعراء ويرمونه بالجنون: (إنهم كانوا إذا قيل لهم لا إله إلا الله يستكبرون ويقولون أئنا لتاركو آلهتنا لشاعر مجنون).

وإذا رموه بالسحر وحده قالوا إنه السحر الكاذب، تمييزا له عن السحر الذى كانوا يعترفون به لكهان معابدهم: (وعجبوا أن جاءهم منذر منهم وقال الكافرون هذا ساحر كذاب).

فالتعليم والشعر والسحر والكهانة والغيبوبة - كانت كلها سوابق واقعة موصوفة على ألسنة المكذبين من أقوام الرسل الأقدمين، ومن وصفها مخترعًا فهذا هو العجب العجاب، ومن وصفها مطلعا فقد استقصاها وزاد عليها ما لم يكن منها، وهو النبوءة الخالصة الضمير.

* * *

إن المتنبئين من الأقدمين لم يفصلوا النبوة بفاصل حاسم، وإن من المتنبئين فى بنى إسرائيل لمن جمع بين الكهانة واستطلاع الغيب بالاقتراع فى المحراب، وعاش القوم بعد أنبيائهم بأزمنة طوال وهم لا يذكرون لهم رسالة أكبر من رسالة الإنذار بالحوادث والأخطار. فإذا كانت النبوة لم تخلص لمهمتها الكبرى قبل محمد عليه السلام فأين هى الكرامة التى تعلو على هذه الكرامة بين مراتب الأنبياء؟

إن الرسالة المحمدية قد علمت الناس أن يعجبوا للنبوءات إذا لم تكن نبوءة للهداية

وللإنذار والبشارة، (أكان للناس عجبا أن أوحينا إلى رجل منهم أن أنذر الناس وبشر الذين آمنوا أن لهم قدم صدق عند ربهم..).

وهذه هى النبوءة المحمدية..

وهذه هى النتيجة التى لم تأت من مقدمتها. أو هذه هى النتيجة التى لم تأت من جميع مقدماتها.

وهذه هى آية العمل الإلهى بين أعمال الناس.

سيد الأنبياء

نشأة الأنبياء

إن وجهة الدعوة النبوية تتبين من نشأة النبى التى أعده الله بها للقيام بتلك الدعوة، فإذا عرفنا نشأة النبى بين قومه عرفنا رسالته فيهم وعمله فى هدايتهم، وعرفنا وجهة النبوة من وجهة النبى منذ هيأه الله حيث جعله أهلا لرسالته.

ولكن غرائب التاريخ فى أمر الأنبياء كثيرة، ومنها هذه الغريبة التى تكاد أن تشمل الأنبياء أجمعين، وهى الجهل التام بتفاصيل نشأتهم بين ذويهم وأقوامهم، فلا يحصى التاريخ شيئًا من هذه التفاصيل عن نشأة نبى من كبار الأنبياء غير محمد عليه السلام، وكل من عداه من جلة الأنبياء. فالعلم بأنباء طفولتهم مستفاد من سيرته بعد النبوة أو مأخوذ مأخذ الاستقراء والاستنباط.

وعلى هذا يقل عدد الأنبياء الذين نحاول اختيارهم للمقابلة بين نشأتهم ومقاصد دعوتهم، ولا نستطيع أن نزيد على ثلاثة من كبارهم وهم إبراهيم وموسى وعيسى عليهم السلام، وعلى بعض الأنبياء المذكورين فى العهد القديم فى مناسبات ظهورهم، وبعض هذه المناسبات يدل على النشأة التى نشئوها والوجهة التى اتجهوا إليها.

خليل الرحمان

مهما يكن من بداءة الخليل إبراهيم فالأقوال متواترة على زعامته لقومه حين هاجر بهم من جنوب العراق إلى شماله ومن شماله إلى أرض كنعان..

كانت مهمته إذن مهمة الزعامة المفروضة على الزعيم، وكان عليه أن يتولى هدايتهم فى شئون دنياهم وشئون دينهم، وبخاصة حين يخشى الخطر عليهم من غضب الله ونقمته العاجلة من جراء المخالفة والعصيان.

وينبغى أن نذكر هنا أن الوعيد بالغضب الإلٰهى كان خطرًا محذورًا قريبًا ممن تعبدوا لجميع الأرباب فى الديانات الأولى، وأن إيمان الناس بالإله فى العهود الأولى إنما كان على أقواه إيمانا بحماية الرب الذى يعبدونه دون سائر الأرباب، فلم يكن لزعيم مؤمن أن يغرر بقومه وهو يعلم سبيل نجاتهم، وقد كان إبراهيم الخليل زعيم أسرته الذين هاجروا معه، فكان عليه أن يهديهم الطريق، وأن يهديهم كل طريق فى هجرة الجسد والروح..

وتتفق الأقوال على أن إبراهيم خالف أباه حين أنكر أرباب القوم ودعا قومه إلى الكفران بالأصنام، وليس فى هذا ما ينفى زعامته على الذين هاجروا معه من أسرته وذوى قرباه وتابعيه، فربما كان الخلاف على الإقامة والمصانعة وإرضاء ذوى السلطان بشىء من المداراة، فاستكان الشيخ للواقع ونفر الكهل القوى من هذه الاستكانة، وقد رأينا أن ثورة النفوس كانت تبلغ غاية مداها فى سلالة إبراهيم يؤمرون بعبادة إنسان أو إقامة الصنم مقام الإله الذى فى السماء، فلعل المفترق بين إبراهيم وأبيه إنما كان على عبادة جديدة أقحمت على القوم من هذا القبيل، فنجا المؤمنون بأنفسهم وتبعوا الخليل فى طريقه، وأدى لهم أمانة الزعامة بهذه النبوة وبهذه الرسالة.

فهذه النبوة مهمة زعيم أمين..

نبوة موسى

ويريد فرويد أن يجعل قيادة موسى عليه السلام من قبيل هذه القيادة، ولكنه يذهب بعيدًا حين يزعم أن موسى كان من المصريين الذين دانوا بعقيدة «آتون» وكفروا بعقيدة آمون، فلما انقلب الكهنة على الوحدانية التى جاءت بها عقيدة آتون تحول موسى إلى المستضعفين من اليهود فى أرض مصر لينشر بينهم هذه العقيدة فى الإلٰه الواحد، وأضاف إليها ما تلقاه من العلم بدين «يهوا» حين نجا بنفسه إلى صحراء سيناء والتقى فى أرض مدين بنبى الصحراء.

ألف فرويد المشهور – وهو إسرائيلى – كتابًا خاصًا عن موسى والوحدانية Moses and Monotheism حاول فيه جهده أن يرجع بأصل موسى عليه السلام إلى الأسرة

المصرية المالكة، وقال إن اسمه نفسه يدل على أصله المصرى لأنه مؤلف من كلمة ابن ومن اللاحقة التى تشبه اللواحق فى أسماء رعموسيس وتحتموسيس وأموسيس، وقصته فى الماء على رأى فرويد تقابلها فى البابلية قصة سراجون الملك الذى وضعته أمه على حافة النهر وجعلت له مهدًا عائمًا من السلال.

وقد توسع فرويد فى تخمينه فقال إن أدوناى التى أطلقها العبريون على الإله إنما هى آتون أو آتوم المصرية، وإن موسى عليه السلام وفق بين عبادتين ليقنع بنى إسرائيل بدعوة أخناتون، وإلى هذا يرجع الاضطراب فى النصوص العبرية القديمة.

وليست طريقة فرويد فى تخمين التاريخ إلا أسلوبًا آخر من طريقته فى كشف العقد النفسية بالتخمين والتأويل تفسيرًا لبواطن المريض، وقد يكون تفسير هذه البواطن قرينة على صحة الرجم بالغيب فى استكشاف الأمراض الباطنية ولكن تخميناته فى سيرة موسى عليه السلام لا تعتمد على قرينة ولا على ظن مقبول، وليس لها سند من الآثار المصرية أو من الآثار العبرية، وفى وسع من يشاء أن يخمن مثلها على هذا المنوال ويأتى بعشرين فرضًا متضاربًا من فروض الخيال.

أما سيرة موسى عليه السلام من المراجع الدينية فليس فيها ما يدل على زعامة معترف بها بين بنى إسرائيل، بل فيها إنكار هذه الزعامة بالقول الصريح. لأنه أراد أن يحكم بين خصمين من العبرانيين فقال له أحدهما: «من جعلك رئيسًا وقاضيًا علينا؟ ألعلك تريد قتلى كما قتلت المصرى بالأمس؟».

ويرجح برستيد - أحد الثقات فى التاريخ المصرى القديم - أن موسى قد تخرج من المدارس المصرية الكبرى واطلع على مكونات علم الكهنة والحكماء، وكانت له منزلة فاضلة عند ولاة الأمر لعله كان يستخدمها فى الشفاعة لقومه والعلم بنيات الولاة وأوامرهم فيما يمس شئونهم، فتعود عقلاؤهم أن يلجئوا إليه ويوسطوه ليستشفعوا به فيما ينوبهم من الظلم وسوء الحال، وأصبح له حق الشورى عليهم كلما ارتبط الأمر بمشيئة الدولة ومطالب بنى إسرائيل.

وعلى خلاف الصورة التى تخيلها (ميكال أنجلو) للرسول العظيم يؤخذ من أوصافه أنه كان وديعًا «حليمًا جدًّا أكثر من جميع الناس الذين على وجه الأرض» كما جاء فى

كتاب العدد من العهد القديم، وأنه كان يشكو حبسة فى لسانه فهو يقول عن نفسه كما جاء فى سفر الخروج: «لست أنا صاحب كلام منذ أمس ولا أول من أمس ولا من حين كلمت عبدك، بل أنا ثقيل الفم واللسان، قال له الرب من صنع للإنسان فما؟... أما أنا هو الرب. فالآن فاذهب وأنا أكون مع فمك وأعلمك ما تتكلم به..».

ولم يخطر له بادئ الرأى أن يقود قومه فى خروجهم من مصر، ولم يكن على أهبة للرسالة الدينية قبل هجرته إلى صحراء سيناء ولقائه فى أرض مدين للنبى العربى الذى يرجح الأكثرون أنه نبى الله شعيب. ولكنه على مختلف الروايات قد تعلم من ذلك النبى علومًا شتى فى شئون التبليغ والقيادة، ولم يزل يتعلم منه كما جاء فى كتب العهد القديم بعد عودته إلى مصر وخروجه منها مع قومه، وكان يثوب إليه كلما ساورته المخاوف وأوشك أن ييأس من هداية القوم أو يضيق ذرعًا بما يسومونه من شهوات الطعام ولدد الخصومة والمنافسة بين العشائر على صغائر الأمور..

فالسنوات التى قضاها إلى جوار نبى مدين كانت هى فترة الاستعداد والرياضة الروحية والتدبر الطويل فيما يمكن عمله لإخراج بنى إسرائيل من مصر وإحلالهم حيث حل على مقربة من سيناء وكنعان، ولابد أنه قد جاس خلال تلك الصحراء ووطئ بقدميه أماكن الرحلة التى لابد منها قبل المقام على استقرار فى ذلك الجوار.

ولا شك أنه كان يصغى إلى نبى مدين فيما يبسطه له من أمر عقيدته وعبادته وأنه حكى له ما عرفه من العقائد المصرية وعبادات الهياكل والكهان، ووازن طويلا بين هذه العبادات وعبادة البادية كما تلقاها من أستاذه المدينى ومن هداية الوحى والإلهام.

فلما عاد إلى مصر ليخرج بقومه منها كان هذا الخروج حيلة من لا حيلة له فى البقاء، ودعاهم إليه باسم الله فأطاعوه بعد لأى ومجاهدة، ولم يظهر من سلوكهم معه أنهم خفوا إلى الخروج من مصر طواعية بغير دعوة ملحة وإقناع عسير.

ولا يفهم من حادث واحد من حوادث الرحلة أن القوم كانوا يؤثرون الفرار حرصًا على عقيدة دينية، فإنهم أسفوا على ما تعودوه من المراسم الدينية فى مصر وودوا لو أنهم يعودون إليها أو يعيدونها منسوخة ممسوخة فى الصحراء، وخطر لهم أن الإله الذى دعاهم موسى إليه إنما غرر بهم ليهلكهم ويعفى على آثارهم، واحتاجوا فى كل خطوة إلى توكيد

الوعد بالأمان ورغد العيش بعد أعوام التيه والانتظار.

فمهمة الرسالة الموسوية بين هذه العوارض الطبيعية، لا تفهم إلا على خطة واحدة ترتسم أمامنا كما كانت لأنها هكذا ينبغى أن تكون.

هجر موسى مصر بعد مقتل المصرى وتهديد بنى إسرائيل، قبل غيرهم بالإبلاغ عنه، فضلا عما يخشاه من ملاحقة ولاة الأمور.

ولم يخطر له قبل تلك الهجرة أن يقنع قومه بالرحيل من الديار المصرية، فلما اختبر الصحراء وسمع ما سمع من هداية نبى مدين ولمح بعينيه مطارح الرحلة والقرار بين مدين وسهوب سيناء وكنعان، وطاب له مقام البادية فلم يستعظم المشقة فى دعوة قومه إلى مثل هذا المقام، تدبر الأمر وصحح العزم على التحول بالقوم من مصر إلى أرض كنعان، وصرف الجهد الذى لا جهد بعده فى إقناعهم باسم الإله الذى اختارهم للنجاة، ولم يزل يحذر عليهم ترك هذا الإله عند أيسر دعوة وبغير إغراء على الترك فى أكثر الأحيان.

وهذه أمثلة من تحذيراته تدل على الجهد الجهيد فى تحويل قومه من العبادة التى كانوا عليها إلى العبادة التى دعاهم إليها.

فمن هذه التحذيرات فى سفر التثنية يقول لهم: «لا تسأل عن آلهتهم قائلا كيف عبد هؤلاء الأمم آلهتهم فأنا أيضًا أفعل هكذا. لا تعمل هكذا للرب إلهك لأنهم قد عملوا لآلهتهم كل رجس مما يكرهه الرب».

وحذرهم من الأنبياء «فإذا قام فى وسطك نبى أو حالم حلمًا وأعطاك آية أو أعجوبة ولو حدثت الآية أو الأعجوبة التى كلمك عنها قائلا لتذهب وراء آلهة أخرى لم تعرفها وتعبدها فلا تسمع لكلام ذلك النبى..».

وحذرهم من الأخ والابن والزوج والصاحب أن يغويهم قائلا: «نذهب ونعبد آلهة أخرى.. فلا ترض منه ولا تسمع له ولا تشفق عينك عليه بل قتلا تقتله».

وحذرهم من المدن التى يدخلونها أن يدعوهم اللئام إلى عبادة أربابها: «فضربا تضرب سكان تلك المدينة بحد السيف وتحرسها بكل ما فيها مع بهائمها بحد السيف».

وإذا سمع عن أحد من إسرائيل «أنه يذهب ويعبد آلهة أخرى ويسجد لها أو للشمس

والقمر أو لكل من جند السماء.. فأخرج ذلك الرجل أو تلك المرأة.. وأرجمه بالحجارة حتى يموت».

* * *

ولا تتغير هذه الحقيقة بما يقال - تأييدًا أو تفنيدًا - لنسبة الكتب الخمسة الأولى من العهد القديم إلى موسى عليه السلام أو نسبة بعضها إليه وبعضها إلى الأنبياء من تلاميذ وتابعيه، فإن أنبياء بنى إسرائيل جميعًا من عهد موسى إلى مبعث عيسى عليه السلام لم تكن لهم من مهمة غير هذه المهمة، وهى تحذير بنى إسرائيل من عبادة إله غير الإله الذى دعاهم إليه صاحبِ الشعيرة، وتبكيتهم كلما انحرفوا عن طريقه، واستبدلوا بملته ملة أرباب آخرين، وهؤلاء إلياس وأرميا وحزقيل من أشد النعاة على بنى إسرائيل فى هذا الأمر لم يتجرد أحدهم لرسالة غير هذه الرسالة، ولم يكن هم إلياس إلا أن يحذرهم عاقبة «إغاظة الرب» إذ كان عمرى قد ملك على إسرائيل.. وعمل الشر فى عينى الرب وبلغت سيئاته أضعاف سيئات من قبله وسار فى جميع طريق يربعام بن نباط وفى خطيئته التى جعل بها إسرائيل تخطئ لإغاظة الرب بأباطيلهم.. وملك آخاب بن عمرى فاتخذ ابنة ملك الصيدونيين زوجة وسار وعبد البعل وسجد له وأقام مذبحًا له فى بيت البعل الذى بناه فى السامرة».

ولم تكن رسالة أرميا إلا كهذه الرسالة حيث أنذرهم فى بعض مراثيه قائلا: «.. إنكم تبخرون للبعل وتسيرون وراء آلهة أخرى لم تعرفوها... الأبناء يلتقطون حطبًا والآباء يوقدون النار والنساء يعجن العجين ليصنعن كعكا لملكة السموات ولسكب السكائب لآلهة أخرى كى يغيظونى...» ويمضى النبى منذرًا متوعدًا ناعيًا على عشائرهم جميعًا «إنهم أبوا أن يسمعوا كلامى وذهبوا وراء آلهة أخرى ليعبدوها ونقض بيت يهودا وبيت إسرائيل عهدى الذى قطعته مع آبائهم».

ومثل هذا الوعيد يسمع من كتاب حزقيل حيث يقول لشيوخ إسرائيل: «إننى آخذ بيت إسرائيل بقلوبهم لأنهم كلهم قد ارتدوا عنى بأصنامهم.. وإن كل إنسان من بيت إسرائيل أو من الغرباء المغتربين فى إسرائيل يرتد عنى ويصعد أصنامه إلى قلبه.. ويجىء إلى النبى ليسأله عنى فإنى أنا الرب أجيبه بنفسى وأجعل وحيى ضد ذلك الإنسان

وأجعله آية ومثلا وأستأصله من وسط شعبى.. فإذا ضل النبى وتكلم كلامًا فأنا الرب قد أضللت ذلك النبى وسأمد يدى عليه وأبيده من وسط شعبى إسرائيل...».

فشعب بنى إسرائيل لم يستغن قط عن الإقناع المتتابع للإيمان بالإله الواحد الذى دعاهم إليه موسى عليه السلام، ولم يتحرك من مصر فرارًا بعقيدته بل كانت هذه العقيدة هى وسيلة الإقناع لحمله على النجاة بنفسه من عوافب البقاء حيث طاب له البقاء، ولم يزل فى الطريق يحتاج إلى تجديد هذا الإقناع فى كل مرحلة ويحن إلى العودة بعد كل نقلة، وظل كذلك بعد انتهاء أيام التيه وإيوائه إلى الفرار عند أرض كنعان.

ونشأة موسى التى عرفناها من مصدرها الذى لا مصدر لنا غيره هى التى تطابق بين هذه النشأة وبين الرسالة الموسوية كما وضحت من الكتب المنسوبة إلى موسى والكتب التى نسبت إلى الأنبياء من بعده، فخلاصة هذه النشأة أن كليم الله تربى فى مصر وخرج منها خفية بعد مقتل المصرى الذى صرعه موسى انتصارًا لرجل من بنى إسرائيل، ولم يكن خاطر الخروج ببنى إسرائيل قد خطر له أو لأحد من ذوى الزعامة بين عشائر قومه، ولكنه عاش فى البرية إلى جوار الهداية النبوية فى أرض مدين، وراض نفسه على حياة النسك والاستلهام وهو يفكر فى أسرته وقومه ويزور الأرض من حوله، وتلقى الدعوة الإلهية بعد طول التدبر والرياضة فعاد إلى مصر لإقناع قومه بدعوته وإقناع السادة الحاكمين بها إن تيسر له ذلك دفعًا للخطر عن ملته وعقيدته، ولم يكن يرضيه فيما بدا من طوالع السيرة وخواتيمها أن يبقى شعب بنى إسرائيل حيث استطاب البقاء، لأنه رأى لهم مصيرًا فى البادية أكرم من هذا المصير، ورأى أن العقيدة التى دعاهم إليها كفيلة بحمايتهم من الضياع بين العشائر والملل فى أرض البادية أو أرض الحضارة.

وهذا هو حكم التوفيق بين النشأة والرسالة فى حياة الكليم عليه السلام..

وقد عرضت لنا فى خلال هذه السيرة قصة مدين ودعوتها النبوية التى أشارت إليها كتب إسرائيل من بعيد ولم تذكر بشىء من التفصيل فى غير القرآن الكريم، ولكنها جاءت بالنشأة والرسالة متوافقتين ذلك التوافق الذى يغنى عن كل دليل على صحة الأصل الأصيل.

قلنا عن مدن القوافل فى كتابنا عن أبى الأنبياء إبراهيم الخليل: «أما الأسباب

السيئة التى أوجبت قيام الدعوات النبوية فى تلك المدن فهى أسباب كثيرة لم تكن توجد يومئذ فى غيرها بهذه القوة وبهذه الكثرة، وأقوى تلك الأسباب مساوئ الاحتكار والاستغلال، فإن تجارة العالم إذا توقفت على مدينة هنا ومدينة هناك صارت فى كل مدينة إلى فئة قليلة من السادة وأصحاب اليسار يحتكرون المقايضة والنقل ويبرعون فى أساليب المعاكسة ورفع الأسعار وزيادة الضرائب والأجور على الرحال والمطايا وجند الحراسة. ويغتنم هؤلاء المحتكرون فرصتهم فيخدعون البسطاء ويحتالون على الأصول والشرائع ويأخذون باليمين والشمال من الوارد والصادر والغادى والرائح ولا حيلة للتجار فيهم ولا لناقلى التجارة لأنهم قابضون على الزمام وليس فى قدرة دولة أن تحاربهم إلا بالاشتباك فى الحرب مع دولة أخرى أو بإنفاق أموال فى الغزو والحصار تزيد على الأموال التى يغتصبها المحتكرون أو يختلسونها. وقد يغلو هؤلاء المحتكرون فى الجشع والتحكم حتى يدفعوا الدول إلى المجازفة بالغارة مرة تريحها من مرات.

«كذلك صنع أنتيجون خليفة الإسكندر مع أهم هذه المدن فى زمانه وهى سلع - أى البتراء - فجرد عليها حملتين ولم يفلح فى غزوها وهاجمها تراجان بقوة كبيرة فدمرها وحول الطريق منها إلى بصرى، ولم يبق من حولها غير مدن صغار».

إن آفة مدين هى آفة هذه المدن على مدرجة الطرق، وإن قصتها فى القرآن الكريم هى قصة التجارة المحتكرة والعبث بالكيل والميزان وبخس الأسعار والتربص بكل منهج من مناهج الطريق، وليس أدل على حدوثها من التوافق بين النشأة والرسالة كما جاءت فى مواضع مختلفة من السور وإحداها سورة الأعراف.

(وإلى مدين أخاهم شعيبًا قال يا قوم اعبدوا الله ما لكم من إله غيره قدجاءتكم بينة من ربكم فأوفوا الكيل والميزان ولا تبخسوا الناس أشياءهم ولا تفسدوا فى الأرض بعد إصلاحها ذلكم خير لكم إن كنتم مؤمنين. ولا تقعدوا بكل صراط توعدون وتصدون عن سبيل الله من آمن به وتبغونها عوجًا واذكروا إذ كنتم قليلا فكثركم وانظروا كيف كان عاقبة المفسدين. وإن كان طائفة منكم آمنوا بالذى أرسلت به وطائفة لم يؤمنوا فاصبروا حتى يحكم الله بيننا وهو خير الحاكمين. قال الملأ الذين استكبروا من قومه لنخرجنك يا شعيب والذين آمنوا معك من قريتنا أو لتعودن فى ملتنا قال أولو كنا كارهين. قد افترينا على الله كذبًا إن عدنا فى ملتكم بعد إذ نجانا الله منها وما يكون لنا

أن نعود فيها إلا أن يشاء الله ربنا وسع ربنا كل شيء علمًا على الله توكلنا ربنا افتح بيننا وبين قومنا بالحق وأنت خير الفاتحين، وقال الملأ الذين كفروا من قومه لئن اتبعتم شعيبًا إنكم إذن لخاسرون. فأخذتهم الرجفة فأصبحوا فى دارهم جاثمين، الذين كذبوا شعيبًا كأن لم يغنوا فيها، الذين كذبوا شعيبًا كانوا هم الخاسرين. فتولى عنهم وقال يا قوم لقد أبلغتكم رسالات ربى ونصحت لكم فكيف آسى على قوم كافرين).

* * *

فرسالة شعيب عليه السلام إنما كانت رسالة خلاص من شرور الاحتكار والخداع فى البيئة التى تعرضت له بحكم موقعها من طرق التجارة والمرافق المتبادلة بين الأمم، والأغلب على التقدير أن جزيرة العرب تعرضت لضروب من هذه الآفات وجاءتها الرسالات التى تصلحها فى إبان الحاجة إليها، ومنها رسالات هود وصالح وذى الكفل وإخوانهم من الرسل الصالحين الذين لم تقصص علينا أخبارهم فى كتاب.

عيسى عليه السلام

وقد اختتم عهد النبوة والرسالة فى بنى إسرائيل بظهور عيسى عليه السلام، ولا نعرف عن نشأته فى طفولته غير القليل ولا نعرف شيئًا عن أيامه من الثانية عشرة إلى الثلاثين مبعثه إلى قومه من بنى إسرائيل، ولكن نشأة العصر كله من وجهة الاستعداد للنبوة معروفة ببعض التفصيل كما أشرنا إلى ذلك فى كتاب «حياة المسيح»..

ففى عصر الميلاد: «ترقبت النفوس بشائر الدعوة الإلهية من كل جانب كما يترقب الراصدون كوكبًا حان موعد طلوعه» وكان موعد الألف الرابعة من تاريخ الخليقة موعدًا مقدورًا فى عرف الأكثرين لظهور المخلص الموعود.

وكان اليهود فى عصر الميلاد فريقين: فريق يترقب الخلاص على يد رسول من ذرية داود عليه السلام، وفريق آخر وهم السامريون بنوا لهم هيكلا خاصًّا فى جرزيم.. «ومن المحقق أن هؤلاء السامريين كان لهم شأن فى تطور الفكرة المسيحية أو فكرة الخلاص المنتظر على يد الرسول الموعود.. وهم ينتسبون إلى يعقوب ويدعون أنهم دون غيرهم

الجديرون باسم الإسرائيليين..».

وقد تكاثر النذيرون قبيل مولد المسيح وهم المنذورون لصحبة المخلص المنتظر، لأن مولده عليه السلام «وافق نهاية الألف الرابعة من بدء الخليقة على حساب التقويم العبرى» وهو الموعد الذى كان منتظرًا لبعثة المسيح الموعود، لأنهم كانوا ينتظرونه على رأس كل ألف سنة، ومنهم من كان يقول إن اليوم الإلهى كان ألف سنة كما جاء فى المزامير، وإن عمر الدنيا أسبوع إلهى، تنقضى ستة أيام منه فى العناء والشقاء ويأتى اليوم السابع بعد ذلك كما يأتى يوم السبت للراحة والسكينة، فيدوم ألف سنة كاملة هى فترة الخير والسلام قبل فناء العالم، ولا يزال الغربيون يعرفونها باسم الألفية Mellinium، ويطلقونها على كل عصر موعود بالسعادة والسلام، والذين قدروا أن القيامة تقوم بعد سبعة آلاف سنة من بدء الخليقة كانوا يؤجلون قيام ملكوت السماء على الأرض إلى نهاية الألف السادسة ويومئذ تسود دولة المسيح الموعود، ولكنهم كانوا كغيرهم فى انتظار رسول من عند الله كلما انتهت ألف سنة من بدء الخليقة، وكانت بداءة الألف الخامسة موعدًا منظورا أو منذورًا يكثر فيه النذيرون، لعلهم يحسبون من جند الخلاص أو لعل واحدًا منهم يسعده القدر فيكتب الخلاص على يديه، والمهم فى أمر النذيرين بالنسبة إلى السيد المسيح أن النبى يحيى المغتسل - يوحنا المعمدان - كان علمًا من أعلامهم المعدودين، وكان السيد المسيح يتعمد على يديه، أو يأخذ العهد عليه، وأن بعض المؤرخين يحسب السيد المسيح من النذيرين ويلتبس عليه الأمر بين النذيرى والناصرى وهما فى اللفظ العبرى متقاربان، ومن هؤلاء المؤرخين من يزعم أنه لم يكن من الناصرة بل يزعم أن الناصرة لم يكن لها وجود لأنها لم تذكر قط فى كتب العهد القديم، ولكن الأرجح فى اعتقادنا أن الناصرة نفسها كانت تسمى نذيرة بمعنى الطليعة عندما كانت على تخوم الأرض التى فتحها العبريون قديمًا، وأنها كانت مرقبًا صالحًا للاستطلاع لأن التلول التى تحيط بها تكشف جبل الشيخ والكرمل والمرج المعروف باسم مرج بن عمير...».

ولاشك أن السيد المسيح قد اتجه بدعوته إلى إسرائيل وابتغى منها الهداية «لخراف بيت إسرائيل الضالة» ولكنه عمم الدعوة بعد تكرارها على القوم ولجاجتهم فى الإعراض عنها، فوجهها إلى كل مستمع لها مقبل عليها، وقال لهم إن العاملين بالخير ذرية لإبراهيم الخليل أقرب وأوفى ممن يدعون النسبة إليه بالسلالة، لأنهم هم أبناؤه بالروح،

وضرب لهم المثل بوليمة العرس التى لم يحضرها المدعوون إليها... «فغضب السيد وقال لعبده: اذهب عجلا إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات إلىّ بمن تراه من المساكين، فعاد العبد وقال لسيده: قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان. قال السيد فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلئ بيتى، فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا للدعاء».

ولم تكن رسالة السيد المسيح رسالة تشريع، لأن الشريعة الدينية كانت فى أيدى أحبار الهيكل والشريعة الدنيوية كانت فى أيدى أتباع قيصر، ولكنه عليه السلام قد جاء بالفتح المبين الذى لم يسبقه إليه سابق من المرسلين فى تصحيح الشرائع بجملتها، فقد حطم عنها قيود النصوص ونقلها إلى مقياسها الصحيح وهو مقياس الضمير، ومن تحطيم النصوص أن يكون أبناء النبى هم أتباعه بالروح وإن لم يكونوا من ذريته بالجسد، ومن تحطيم النصوص كذلك أن يكون الخير فى ضمير الإنسان لا فى مظهر من مظاهر العالم، فإن ملك ضميره فقد ملك كل شيء، وإن ضيع ضميره لم يغن عنه العالم بما وسع من أناس وحطام.

رسالة النور الجديد

ومما تقدم تنجلى المطابقة بين النشأة والرسالة النبوية عن مقاصد ثلاثة تنطوى فى هذه الرسالات:

فمنها الرسالة التى تنطوى فى تكاليف الزعامة، فتأتى الدعوة الإلهية لتمكين زعيم القوم من هدايتهم الروحية لأنه مطالب بقيادتهم فى جميع الشئون..

ومنها الرسالة التى ينتظرها القوم تحقيقًا لوعود متعاقبة يفسرها كل منهم بما يبتغيه.

ثم قامت بعد هذه الرسالات جميعًا رسالة محمد عليه السلام، فلم يستغرقها مقصد من هذه المقاصد، إذ لم تكن تكاليف زعامة ولا رسالة مقصورة على منفعة أمة، ولا تحقيقًا لوعود منتظرة يفسرها كل أحد بما يبتغيه..

رسالة محمد عليه السلام رسالة إلهية قوامها أن الله حق وهدى، وأن الإيمان به جل

وعلا مطلوب لأنه حق وهدى، هذا الإيمان أعلى وأقدس من كل إيمان لأنه إيمان بالحق والهدى.

لم تكن زعامة محمد على قومه مناط تلك الرسالة، لأنه جاء بها بشرًا كسائر البشر، عليه من أمانة الهداية ما على الإنسان للإنسان، زعيمًا كان أو غير زعيم.

ولم تكن منفعة الأمة العربية مناط تلك الرسالة، لأنها إيمان برب العالمين، ولا فضل فيها لعربى على أعجمى ولا لقرشى على حبشى إلا بالتقوى.

ولم تكن مقاضاة لوعود، لأن الإسلام لم يعد أحدًا من العالمين بغير ما وعد به الناس كافة فى جميع البقاع والأرضين.

نزاهة العبادة

تعود بعض المصابين بداء الهذر من المؤرخين الغربيين أن يتكلموا عن نزاهة العبادة ويذكروا النعيم السماوى كما وصفه الإسلام بين النقائض التى تقدح فى العبادة النزيهة.

وما من دين من الأديان خلا من مبدأ الثواب والعقاب، وما من أمة من الأمم فى عصر الدعوة الإسلامية كانت صور النعيم السماوى عندها مقصورة على صورة واحدة تؤمن بها ولا تؤمن بغيرها.

فليس الإيمان بالثواب والعقاب مخلا بنزاهة الدين، وما من دين يستحق أن يسمى دينًا يسوى بين الصالحين والمفسدين، أو يحجر على النفوس أن تطمح إلى النعيم الذى ترتضيه.

إنما الميزان الحق للعبادة النزيهة هو الصفة التى يتصف بها الإله المعبود ومن أجلها يتعبد له المؤمنون.

وأنزه العبادات – ولا ريب – هى العبادة التى يدين بها المؤمن لله جل وعلا لأنه حق وهدى، ولأن الإيمان به هو الصدق والصواب.

هذه العبادة أنزه من العبادة التى تتجه بها الأمة إلى الله لأنه يقوم لها مقام الحارس فى

وجه الأمم التى تخشاها، وهى أنزه من العبادة التى تقوم على تقاضى الوعود أو العبادة التى تقوم على تعلق المرءوس بتكاليف الرئاسة والزعامة.

أمانة إنسان يدعو بها إخوانه فى الإنسانية، ويرفعها مكانًا فوق مكان أنها نشأت فى جزيرة العرب حيث لا غرابة أن تكون الرسالة زعامة أو تكون حراسة أمة ذات عصبية أو تكون على الإجمال منفعة محدودة فى وجه العالم كما تحد الصحراء، ما حولها من البقاع والأرضين.

سيد المرسلين بحق من جاء بالرسالة المنزهة المثلى، وهذه هى رسالة محمد بشهادة العقل حين يقابل بين القرائن والأمثال، قبل شهادة المتدين لدينه أو المتعصب لعصبيته والمقلد لما يمليه التقليد عليه.

الوساطة

يقوم الإسلام على خمس فرائض، هى: الشهادتان، والصلاة، والصيام، والزكاة، والحج إلى بيت الله.

ولا تتوقف فريضة من هذه الفرائض الخمس على وساطة بين الخالق والمخلوق، فحيثما وجد المسلم ففى وسعه أن يؤدى صلاته و (أينما تكونوا فثم وجه الله).

وإذا وجبت صلاة الجماعة فكل مسلم يحسن الصلاة يجوز له أن يؤم المصلين حيث اجتمعوا، ولا يشترط اجتماعهم فى مسجد معلوم.

ويحتاج المسلمون إلى الحاكم لتوقيت شهر الصيام، ولكنهم يحتاجون إليه لأن وسائل الرصد والتعميم تتيسر له حيث لا تتيسر لكل فرد من أفرادهم، وشأنه فيما عدا ذلك كشأن جميع المسلمين.

* * *

وإذا حج المسلم إلى بيت الله فليس فى بيت الله كاهن يقدم له قربانه أو يملى عليه شعائره، وإنما يقرب لنفسه ويقوم بشعائره لنفسه؛ فإن جهل حكمًا من أحكام الحج فإنما يسأل عنه سؤال المتعلم للمعلم، ولا يحتاج فى قبوله إلى وساطة من وسيط.

ويصح للمسلم أن يؤدى زكاته كما يصح له أن يسلمها لولى الأمر ليجمعها ويفرقها على مستحقيها، ولا عمل له فيها يتمم به الفريضة بعد أدائها..

هذه الفرائض التى تنزهت عن الوساطة بين الإنسان وربه، قد تفهم على أنها مصادفات متكررة، على صعوبة التكرار والتوافق بين هذه المصادفات لولا أنها متممة مستوفاة بعقيدة التنزيه التى ارتفعت إلى غايتها فى الإسلام فالإله فى العقيدة الإسلامية منزه عن المشابهة والمقاربة والرمز والمحاكاة. وليس كمثله شىء، ولا وسيلة لإنسان إلى رؤيته من حيث لا يراه الآخرون.

* * *

ومن العسير على بعض المشتغلين بالمقارنة بين الأديان من الغربيين أن يدينوا للإسلام بهذا التقدم الكبير فى تنزيه العقيدة وتنزيه الفكرة الإلهية، وأيسر من ذلك عليهم أن يحسبوه ضرورة من ضرورات النشأة فى الصحراء، حيث يتعود الحس التجريد ولا يرمز إلى الفخامة بروعة البناء.

ولكن العقائد الدينية نشأت فى صحراء العرب وفى غيرها من الصحارى قبل الإسلام، ولم تنشأ فى إحدى هذه الصحارى مجردة من شوائب الوثنية والطوطمية وضروب الكهانات والوساطات بين الإنسان وطبقات من الأرباب دون مقام الإله الواحد المنزه عن الأشباه والنظراء، وكانت الكعبة فى مكة ملأى بالأصنام والأوثان يتخذونها كما يقولون لتقربهم إلى الله زلفى، ولا يحسون أنها تناقض طبيعتهم الصحراوية فى التدين والعبادة.

ومما فات أصحاب المقارنات أن يذكروه فى هذا الصدد، أن الأمم التى تدين لسلطان الهياكل وتقدر على تفخيم البناء إنما كانت تثوب إلى هيكل واحد تتبعه سائر الهياكل؛ ويستأثر كاهنه الأعلى بالوساطة بين أتباعه وبين الله، ويضفى من قداسته ما يشاء على ما يشاء، فإذا وجد فى الصحراء هيكل متفق عليه بين القبائل فهو أحرى أن يمتاز بالتعظيم والتقديس، وأن تحيطه الندرة برعاية خاصة لاتظفر بها المعابد حيث يكثر البناء.

وأولى من ذلك بالتنبيه أن الإسلام يحارب سيطرة توجد فى الهياكل وتوجد فى صوامع الصحراء وخيامها وفى التوابيت التى تحمل من مكان إلى مكان كتابوت بنى إسرائيل،

لأنها سيطرة الكهان والرهبان التى تسلط الناس على رقاب الناس باسم الدين.. (يأيها الذين آمنوا إن كثيرًا من الأحبار والرهبان ليأكلون أموال الناس بالباطل ويصدون عن سبيل الله).. وكل مسلم منهى بحكم دينه أن يقتفى آثار الأمم الذين حكموا فيهم رؤساء دينهم و (اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابًا من دون الله).

* * *

فليس لرئيس الدين فى الإسلام من فضيلة غير فضيلة العلم والموعظة الحسنة وتنبيه الغافلين من ذوى السلطان: (وما كان المؤمنون لينفروا كافة فلولا نفر من كل فرقة منهم طائفة ليتفقهوا فى الدين ولينذروا قومهم إذا رجعوا إليهم لعلهم يحذرون)، وتلك هى الفريضة العامة التى يندب لها من يقدر عليها من ورثة الأنبياء، وهم: (.. أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون).

* * *

هذا موقف للإنسان فى الكون كله بين يدى الله بغير وساطة ولا فاصل ولا حجاب، تقدم به الإسلام ولم تمهده له البادية ولا المدينة، ولكنه نتيجة من تلك النتائج الإلهية الكثيرة التى تقصر عنها السوابق والمقدمات.

دين الإنسانية

قلنا فى صدر هذه الرسالة إننا نتتبع فيها المقدمات ونقسمها إلى قسمين: مقدمات كافية لتفسير النتائج التى تأتى بعدها، ومقدمات غير كافية لا تفسر جميع النتائج التى تلحق بها، وقد تبدو هذه النتائج كأنها منقطعة عن تلك المقدمات أو مستغنية عن تفسيرها.

ونحن نرى فى فصول هذه الرسالة تفاوتًا بين المقدمات فى كفايتها، ولكنه لم يبلغ قط مبلغ التفاوت فى مقدمات دين الإنسانية ولا فى مقدمات النبوة كما بسطناها فى موضعها. فلو أن جميع الأديان التى عرفها الناس قبل الدعوة المحمدية وضعت أمام الباحثين يومئذ لما استطاعوا أن يستخلصوا منها ظهور دعوة دينية تخاطب أمم الإنسانية جميعها من جزيرة العرب على الخصوص.

ومن الواجب أن نفرق بين دين التوحيد ودين الإنسانية فى هذه الخصلة، فقد وجدت أديان تدعو الأمم إلى التوحيد قبل دعوة الإسلام، ولكنها لم تكن تدعوهم لأنها تسوى بينهم وترى لهم حقًا واحدًا فى عبادتهم، بل كانت تدعوهم إلى عبادة ملك واحد فى السماء وملك واحد فى الأرض، كأنها مسألة سيادة لا مسألة مساواة.

وقد جاءت الدعوة إلى التوحيد قبل الإسلام عن طريق توحيد الدولة وفرض السلطان الواحد والعبادة الواحدة حيث تبسط سلطانها، إذ كانت القبيلة القوية تتغلب على القبائل الصغار فتفرض عليها عبادة ربها وطاعة رئيسها، ثم يتغلب الشعب القوى على الشعوب الصغيرة فيفرض عليها عبادة ربه وطاعة أميره، ثم تمتد حدود الدولة وراء بلادها فتصبح لها الصفة «العالمية» وتحسب الأرض كلها عالمًا واحدًا خاضعًا لشريعتها وشرائعها، فلا يطاع فيها ملك غير ملكها ولا يعبد فيه رب غير ربها، ولا يأتى هذا التوحيد على سبيل التسوية بين الغالب والمغلوب أو على سبيل الهداية والإرشاد، بل يأتى على سبيل القهر والإخضاع وتجريد المغلوب من سادته فى الأرض وسادته فى السماء على السواء.

وعلى هذه السنة جرى الرومان على إخضاع اليهود حين فرضوا عليهم عبادة «الإمبراطور» فى هيكلهم، ووضع الشارة الرومانية على محاريبهم، فلم يفرضوا عليهم ذلك هداية لهم أو اعترافاً بمساواتهم، بل فرضوه لإخضاعهم وتحريم كل معبود فى الدولة غير معبودهم، وهكذا صنع غير الرومان فى مصر وبابل والبلاد الفارسية.

إن هذا «التوحيد» وجد قبل الإسلام.

ولكنه أبعد شيء عن دين الإنسانية الذى نعنيه، وهو الدين الذى يتجه إلى جميع الأمم بدعوة واحدة على سنة المساواة بين الشعوب والأجناس والتماس الهداية للغالب والمغلوب، فشتان بين دعوة إلى توحيد العبادة التى تقوم على السيادة والاستعباد، ودعوة إلى توحيد الإنسانية فى حقوق واحدة وهداية واحدة وإيمان واحد بإله لا إله غيره يتساوى الناس بين يديه ولا يتفاوتون بغير الفضل والصلاح.

لقد كان الإله عند العبريين يسمى إله إسرائيل ويخص من أبناء إبراهيم ذرية يعقوب بن إسحاق دون سائر العبريين.

قال يوشع: «هكذا قال الرب إله إسرائيل».

ويقول الشعب فى كتاب الأيام: «ألست أنت إلهنا الذى طردت سكان هذه الأرض أمام شعبك إسرائيل وأعطيتها لنسل إبراهيم خليلك إلى الأبد..».

وقال داود فى سفر صمويل: «مبارك الرب إله إسرائيل الذى أرسلك هذا اليوم».

وفى سفر الأيام: «خلصنا يا إله خلاصنا. واجمعنا وأنقذنا من الأمم لنحمد اسم قدسك ونتفاخر بتسبحتك.. مبارك الرب إله إسرائيل من الأزل إلى الأبد..»

ويطمئن بنو إسرائيل إلى هذه الحظوة وإن لم يستحقوها بولاء أو إيمان، ويتنبأ المتنبئون والأنبياء فينعون عليهم خيانة الإله كما جاء فى سفر أرميا: «إن آباءكم قد تركونى وذهبوا وراء آلهة أخرى وعبدوها وسجدوا لها وإياى تركوا وشريعتى لم يحفظوها، وأنتم أسأتم فى عملكم أكثر من آبائكم وها أنتم ذاهبون كل واحد وراء عناد قلبه الشرير حتى تسمعوا لى..».

ولكنهم يعودون فيسمعون من صاحب النذير أن الله يريدهم شعباً له: «وأجعل عينى

عليهم للخير وأرجعهم إلى هذه الأرض وأبنيهم ولا أهدمهم وأغرسهم ولا أقلعهم وأعطيهم قلبًا ليعرفونى أنى أنا الرب فيكونوا لى شعبًا، وأنا أكون لهم إلهًا، لأنهم يرجعون إلىّ بكل قلوبهم..».

ودامت هذه العقيدة إلى عصر الميلاد فتهيأت العقول لعقيدة أرفع منها وأعدل، وأقرب إلى المساواة بين الناس، فكان يحيى المغتسل (يوحنا المعمدان) يزعزع هذه الثقة بالخلاص لغير سبب من عمل أو إيمان، ويخاطب القوم كلما تمادوا فى اغترارهم بالنسبة إلى إبراهيم الخليل قائلاً:

إن الله قادر على أن يخلق لإبراهيم أبناء من حجارة الأرض، فإن لم يخلصوا فى إيمانهم فلا أمل لهم فى الخلاص.

وتحولت الدعوة المسيحية من بنى إسرائيل إلى الأمم على الرغم من بنى إسرائيل، لأن السيد المسيح شبههم بالمدعوين الذين أقيم لهم العرس فتعللوا بالمعاذير وتخلفوا عن إجابة الدعوة: «فقال هذا إنى اشتريت حقلاً وعلىّ أن أخرج فأنظره.. وقال ذاك: إنى اشتريت أزواجًا من البقر وسأمضى لأجربها.. فغضب السيد وقال لعبده: اذهب عجلاً إلى طرقات المدينة وأزقتها وهات إلى من تراه من المساكين.. فعاد العبد وقال لسيده: قد فعلت كما أمرت ولا يزال فى الرحبة مكان. قال السيد: فادع غيرهم من أعطاف الطريق وزواياه حتى يمتلئ بيتى فلن يذوق عشائى أحد من أولئك الذين دعوت فلم يستجيبوا الدعاء».

ولم تتحول الدعوة المسيحية عن بنى إسرائيل إلا بعد إعراضهم عنها وإصرارهم على الإعراض فى كل بقعة من بقاع فلسطين توجهت إليها دعوة السيد المسيح وتلاميذه. أما قبل ذلك فكانت الدعوة مقصورة عليهم صريحة فى تقديمهم على غيرهم من الأمم: «ثم خرج يسوع من هناك وانصرف إلى نواحى صور وصيدا. وإذا امرأة كنعانية خارجة من تلك التخوم صرخت إليه قائلة: ارحمنى يا سيد! يابن داود. ابنتى مجنونة جدًّا. فلم يجبها بكلمة. فتقدم إليه تلاميذه وطلبوا إليه قائلين: اصرفها لأنها تصيح وراءنا. فأجاب وقال: لم أرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. فأتت وسجدت له قائلة: يا سيد أعنى.. فأجاب وقال: ليس حسنًا أن يؤخذ خبز البنين ويطرح للكلاب.. فقالت: نعم يا سيد. والكلاب أيضًا تأكل من الفتات الذى يسقط من مائدة أربابها. حينئذ أجاب يسوع وقال

لها: يا امرأة عظيم إيمانك. ليكن ما تريدين..».

وتحولت دعوة السيد المسيح ودعوة الرسل المسيحيين إلى الأمم غير مقصورة على بني إسرائيل، ولكنهم كانوا يدعون الأمم لأنهم أحق بإبراهيم من أبنائه بالجسد، إذ كان المستجيبون للدعوة أبناء إبراهيم بالروح..

* * *

وإذا روجع تاريخ الأديان قبل ألفي سنة لم يوجد منها دين واحد خرجت دعوته من نطاق القومية فعمت شعوب الإنسانية على اختلاف أصولها وأجناسها

وقد وجدت في الصين شعوب بلغت في ذلك العهد مائة مليون أو تزيد، ووجدت في الهند شعوب تقاربها في العدد ولم يعرف هؤلاء ولا هؤلاء دعوة الإنسانية إلى دين واحد، بل كانت الصين تدين بعبادة الأسلاف، كل بيت له هيكله وعبادته على حدة، وكانت ديانة الهند ديانة الطبقة الغالبة ينفرد الأحبار بتلاوة أسفارها ويحرمون على الطبقات المحرومة تلاوتها والتعرض لفهمها وتفسيرها، ويقول جوتاماريشي في بعض كتب الفيدا: «إذا سمع الفيدا رجل من المنبوذين فمن واجب الملك أن يصب الرصاص المذاب في أذنيه».

* * *

هذه مقدمات الدعوات الدينية قبل الدعوة المحمدية بعدة قرون، وتقف المقدمات عند هذه الدعوات، ثم يستمع الناس إلى دعوة من أعماق جزيرة العرب تنادي بني الإنسان جميعًا إلى دين واحد إله واحد وحق واحد:

(يٰأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبًا وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عندالله أتقاكم).

(وما أرسلناك إلا كافة للناس).

(وما أرسلناك إلا رحمة للعالمين).

ويفصل رسول الدعوة آيات الكتاب الذي نزل إليه فيقول في تفسير هذه الآيات: «لا فضل لعربي على عجمي ولا لقرشي على حبشي إلا بالتقوى».

ولو لم يكن من سعة المسافة بين المقدمات وهذه النتيجة غير هذا الذى أجملناه لكان فيه الكفاية.

لكن العجب منه يتضاعف ويتعاظم حين تأتى النتيجة من أعماق الجزيرة العربية حيث مشتجر الأنساب والأعراق على نحو لم يعرف له مثيل بين الأمم والعصبيات.

وبقية تبقى بعد ذلك لعجب فوق ذلك العجب المتضاعف المتعاظم، فإن الرسول الذى نادى بهذه المساواة بين الأصول والأمم لم يكن دون أحد من أبناء الجزيرة كلها حسبًا ونسبًا من أبويه الشريفين، بل كان من شرف الأبوة فى الذؤابة التى يعترف بها النظراء ويعنو لها المكابرون.. وهذا الرسول هو الذى يتعلم منه الناس أنهم إذا صلحوا واستقاموا «فلا أنساب بينهم يومئذ ولا يتساءلون».

المسئولية الفردية

وللديانة الإنسانية مناط واحد هو ضمير كل فرد من أفرادها، فما لم يكن لهذا الضمير حساب وعليه تبعة فلا ديانة لإنسان ولا لجملة الناس.

وفكرة التبعة الفردية، والمسئولية الفردية، بسيطة سهلة الفهم.. تتجدد الحاجة إلى تطبيقها كل يوم فى كل بيئة اجتماعية، فلو كانت الفكرة تروج بمقدار بساطتها وسهولة فهمها وتجدد الحاجة إلى تطبيقها لما خلا المجتمع الإنسانى قط من مبدأ المسئولية الفردية منذ أوائل عهد الإنسان بالاجتماع..

لكن الواقع أن هذه الفكرة البسيطة قد أهملت وظلت مهملة من عهد البداوة إلى عهود الحضارة الأولى. لأن محاسبة الفرد لم يكن لها مرجع إلى سلطان واحد. إذ كان الفرد من القبيلة يعتدى على فرد من قبيلة أخرى ويندر أن ترضى قبيلة المعتدى أن تسلمه إلى قبيلة المعتدى عليه، فإن لم تسلمه «تضامنت» فى الدفاع عنه ووقعت الحرب بين القبيلتين أو تعرض كل فرد من أفراد قبيلة المعتدى لأخذ الثأر منه، وقد يتوارثون الثأر إلى الأبناء والأعقاب.

فمضى نظام القبيلة على «مسئولية» القبيلة كلها عن جميع أفرادها، ثم تطورت القبيلة

وتألف الشعب من جملة قبائل متعارفة على نظامها القديم. فثبتت على عاداتها لصعوبة التغيير فى الجماعات التى تقوم على المحافظة ورعاية المأثورات السلفية، وبلغ من ثبات هذه العادات أن رومة - التى كانت تسمى أم الشرائع - جعلت الأب مسئولا عن الأسرة وأباحت له التصرف فى أرواحها وأموالها، وقد ناظرتها فى الشرق شريعة حمورابى فجعلت من حق الرجل الذى تقتل بنته أن يتسلم بنت القاتل ليقتلها كأنها لا تحسب عندهم إنسانًا مستقلا بحياته.

وكانت فى الهند حضارات تأخذ بمبدأ المسئولية الفردية ولكنها ترجع بها إلى حياة سابقة متسلسلة من حياة سابقة على مدى الأزمنة التى لا تعرف لها بداءة منذ أزل الآزال، فهو مولود بجرائره وآثامه وكفارة تلك الجرائر والآثام إلى الأجل المقدور، وليست تبعاته مرهونة بما يعمله بعد ميلاده بل هى سابقة للميلاد لاحقة به آمادا بعد آماد.

وعلى هذا تعاقبت الأجيال على إهمال المسئولية الفردية فى أطوار البداوة وأطوار الحضارة، ولم تعرف حضارة واحدة دانت بهذه المسئولية على النحو الذى نفهمه الآن أو على نحو قريب منه غير الحضارة المصرية فى عصور الأسر القديمة، ثم طواها الزمن وطوى معها شرائعها فلم يبق منها إلا اليسير.

* * *

ولا نطيل فى شرح «المسئولية الفردية» كما اعتقدها أناس من المتدينين الكتابيين قبل الإسلام، ولكننا نشير إلى طرف منها للإبانة عما انتهت إليه واستقرت عليه عند ظهور الدعوة الإسلامية.

ففى سفر التكوين أن «نوحا شرب من الخمر فسكر وتعرى داخل خبائه، فأبصر حام أبو كنعان عورة أبيه وأخبر أخويه خارجًا.. فلما استيقظ نوح من خمره علم ما فعل به ابنه الصغير فقال ملعون كنعان، عبد العبيد يكون لإخوته..»

وفى سفر يشوع أن «عاخان» سرق من غنائم القتال فى وقعة عاى فانهزم الإسرائيليون.. «وأجاب عاخان يشوع وقال حقًا إنى قد أخطأت إلى الرب إله إسرائيل.. رأيت الغنيمة رداءً شنعاريًا نفيسًا ومائتى مثقال من الفضة، ولسان ذهب وزنه خمسون مثقالا، فاشتهيتها وأخذتها وها هى مطمورة فى الأرض وسط خيمتى والفضة

تحتها.. فأخذ يشوع عاخان بن زارح الفضة والرداء ولسان الذهب وبنيه وبناته وبقره وحميره وغنمه وخيمته وكل ماله وجميع إسرائيل معه وصعدوا بهم إلى وادى عجوز.. فقال يشوع: كيف كدرتنا يكدرك الرب فى هذا اليوم، فرجمه جميع إسرائيل بالحجارة وأحرقوهم بالنار ورموهم بالحجارة وأقاموا فوقه رجمة حجارة عظيمة إلى هذا اليوم، فرجع الرب عن حمو غضبه».

وكان القول الشائع، إن عصيان آدم جريرة لا يسأل عنها وحده، بل يسأل عنها كل ولد من ذريته.

* * *

أما الدعوة الإسلامية فالمسئولية الفردية فيها شىء جديد كل الجدة لم يتطور مما تقدمه ولم يكن نتيجة قط لإحدى هذه المقدمات، ومعجزة المعجزات فيها أنها قامت بالمسئولية الفردية حيث يصدها كل عرف قائم ويعوقها كل نظام مصطلح عليه فى المعاملات والعقوبات.

قامت بها فى أعماق الجزيرة العربية، ولا قانون فيها غير قانون الثأر ولا شريعة لها غير شريعة القبيلة، وتعلم الناس لأول مرة فى تاريخ البداوة والحضارة (أن ليس للإنسان إلا ما سعى) وأن جيلا من الأجيال لا يؤخذ بجريرة أسلافه ولا يؤخذ خلفاؤه بجريرته: (تلك أمة قد خلت لها ما كسبت ولكم ما كسبتم ولا تسألون عما كانوا يعملون).

و (كل امرئ بما كسب رهين).

* * *

مرحلة شاسعة لم يعمل فيها تاريخ البشرية كله ما عمله الإسلام وحده مبتدئًا بغير سابقة، بل مبتدئًا على الرغم من العوائق والموانع والمناقضات.

ولم تكن هذه المرحلة الشاسعة نافلة من نوافل الرأى على حواشى العقيدة، ولكنها هى الفتح الأكبر من فتوح الضمير فى جميع مراحل التاريخ. إذ لا قوام للخلق ولا للدين بغير التبعة، ولا معنى بغير التبعة لتكليف ولا حساب.

الكعبة

ونعود بعد هذه المقدمات جميعًا إلى حديث الكعبة أو الكعبات التى ثابت جميعًا إلى قبلة واحدة: هى قبلة الكعبة المكية خاتمة المطاف.

يدور البحث ما يدور فى تاريخ العرب الدينى ثم يتصل من إحدى نواحيه بتلك البيوت التى تعرف ببيوت الله، أو البيوت الحرام، ويقصدها الحجيج فى مواسم معلومة تشترك فيها القبائل من سكان البقاع القريبة، ويتعاهدون على المسالمة فى جوارها.

وكان منها فى الجزيرة العربية عدة بيوت مشهورة، وهى بيت الأقيصر وبيت ذى الخلصة، وبيت صنعاء، وبيت رضاء، وبيت نجران، وبيت «مكة» أشهرها وأبقاها، عدا بعض البيوت الصغار التى يعرفها الرحالون ولا تقصد من مكان بعيد.

وكان بيت الأقيصر فى مشارف الشام مقصد القبائل من قضاعة ولخم وجذام وعاملة، يحجون إليه ويحلقون رءوسهم عنده ويلفون قبضة من الدقيق مع كل شعرة، وهو الذى عناه زهير بن أبى سلمى بقوله:[1]

حلفت بأنصاب الأقيصر جاهدا   وما سحقت فيه المقاديم والقمل

وبيت «ذى الخلصة» كان يدعى بالكعبة اليمانية فى أرض خثعم وبين مكة واليمن على مسيرة سبع ليال من مكة، وروى البخارى أن النبى عليه الصلاة والسلام أمر بهدمه فهدم، وأن الذين كانوا يسمونه بالكعبة اليمانية كانوا يطلقون اسم الكعبة الشامية على كعبة مكة تمييزًا بين الكعبتين..

وكان بصنعاء بيت رئام يحجون إليه وينحرون عنده فطلب حبران «يقرآن التوراة» من ملك اليمن أن يأمر بهدمه «لأنه شيطان» يفتن الناس، فإذن لهما فهدماه.

---

(١) البيت فى هذه الرواية فى «الأصنام»: ٣٨.

وفى بيت رضاء يقول المستوغر بن ربيعة بن كعب حين هدمه بعد الإسلام:

ولقد شددت على رضاء شدة فتركتها قفرا بقاع أسحما
وأعان عبد الله فى مكروهها وبمثل عبد الله أغشى المحرما

أما كعبة نجران فقد تعفت آثارها وكشفها الرحالة «عبد الله فلبى» فى رحلته (٢٥ يونيه سنة ١٩٣٦) وهى التى قال فيها الأعشى يخاطب ناقته:

فكعبة نجران حتم عليـ ـك حتى تناخى بأبوابها
نزور يزيد وعبد المسيـ ـح وقيسا هم خير أربابها

ويقول بعض المؤرخين - ومنهم أبو المنذر[1] - إن هذا البيت وبيت سنداد بين الكوفة والبصرة، لم يكونا من بيوت العبادة، وإنما كانا من المزارات الشريفة التى يذكرها السياح.

اسم الكعبة

وقد ذهب المؤرخون مذاهب شتى فى تفسير اسم الكعبة، فقال بعضهم إنها كانت كلمة رومية أطلقت على كعبة مكة لتكعيبها، وأن بناء من الروم عمل فى بنائها وهندستها فاستعير اسمها من اللغة الرومية، وقيل بل كان بناؤها من الحبشة، ومنها - أى من الحبشة - عرف العرب بناء هذه المعابد وأمثالها لأنهم أمة خيام لم تتأصل فيهم صناعة البناء.

وهؤلاء المؤرخون وأشباههم يتشبثون بالفرع ويغفلون الأصل بجذوره وجذوعه عليه..

فمهما يكن من لغة البناء الرومى أو الحبشى فالقبائل العربية لم تبن تلك البيوت لأن البناء من الروم أو من الحبش، ولم ترد أن تنشئ لها بيتًا يسمى «الكعبة» أو المكعبة فى اللغة الرومية، وإنما وجدت الحاجة إلى البيت الحرام ثم وجدت الوسيلة إلى تلك الغاية، ولو لم يبنه أحد من الروم أو الحبش لبناه أحد من فارس أو مصر أو الهند أو غيرها من

(١) انظر «الأصنام»: ٤٥.

الأمم التى تقدمت فى هذه الصناعات. وقد احتاج سليمان بن داود إلى بناء هيكله فاستعان بالصناع العاملين فى الحجر والمعدن والحديد من شواطئ البحر الأبيض إلى جواره فى الشمال، ولم تقم العقيدة تبعًا لأصحاب الصناعة بل كان أصحاب الصناعة جميعًا ممن يخالفون تلك العقيدة ويتسمون بسمة الكفر والإنكار عند المعتقدين بها.

ولم نعرف أن معبدًا سمى بشكله أو كان له شكل غير أشكال الأبنية التى يغلب عليها التكعيب مع بعض الاستطالة، وليست مادة «كعب» بالغريبة عن اللغة العربية لأنهم كانوا يعرفون كعوب الفتاة ويسمون الفتاة كاعبًا إذا كعب ثدياها، ويلعبون بالكعوب ويتسلحون بالرماح وهى من القصب أو من الأقنية، فيغلب أن يكون اليونان هم الذين أخذوا من العرب كلمة الكعب وكلمة القناة فتصحفت فى لغتهم إلى القانون وهو العصا إلى تتخذ للقياس.

البيوت الحرام

ومهما يكن من أصول هذه الأسماء والأشكال، فالأمر الذى لا يجوز فيه الشك أن «البيوت الحرام» وجدت فى الجزيرة العربية لأنها كانت لازمة ولم توجد فيها العبادات والمعبودات لأن أحدًا اخترعها لتعبد وتقصد، وإنما كانت العبادات والمعبودات مرعية موروثة ثم أقيم لها المكان الذى تعبد فيه وتقصد من أجله.

وقد اجتمع لبيت «مكة» من البيوت الحرام ما لم يجتمع لبيت آخر فى أنحاء الجزيرة، لأن مكة كانت ملتقى القوافل بين الجنوب والشمال وبين الشرق والغرب، وكانت لازمة لمن يحمل تجارة اليمن إلى الشام ولمن يعود من الشام بتجارة يحملها إلى شواطئ الجنوب، وكانت القبائل تلوذ منها بمثابة مطروقة تتردد عليها ولم تكن فيها سيادة قاهرة على تلك القبائل فى باديتها أو فى رحلاتها. فليست فى مكة دولة كدولة التبابعة فى اليمن أو المناذرة فى الحيرة أو الغساسنة فى الشام، وليس من وراء أصحاب الرئاسة فيها سلطان كسلطان دولة الروم أو دولة فارس أو دولة الحبشة وراء الإمارات العربية المتفرقة على الشواطئ أو بين بوادى الصحراء. فهى – أى مكة – مثابة عبادة وتجارة وليست حوزة ملك يستبد بها صاحب العرش فيها ولا يبالى من عداه، وهى إن لم تكن كذلك من أقدم أزمانها فقد

صارت إلى هذه الحالة بعد عهد جرهم والعماليق الذين روى عنهم الرواة أنهم كانوا يعشرون كل ما دخلها من تجارة..

* * *

كانت «مكة» عربية لجميع العرب ولم تكن كسروية ولا قيصرية ولا تبعية ولا نجاشية، كما عساها كانت تكون لو استقرت على مشارف الشام أو عند تخوم الجنوب، ولهذا تمت لها الخصائص التى كانت لازمة لمن يقصدونها ويجدون فيها من يبادلهم ويبادلونه على حكم المنفعة المشتركة لا على حكم القهر والإكراه.

ولقد حاولت الدول الكبرى أن تستغنى عنها بتحويل الطرق منها أو هدم كعبتها فلم تفلح وبقيت لها مكانتها وقداستها كما كانت من أقدم عهودها وهى قديمة سابقة لكتابة أسفار العهد القديم فى التوراة، فإنها هى «ميشة» المشار إليها فى سفر التكوين وهى «ميشا» التى يقول الرحالة «برتون» إنها كانت بيتًا مقصودًا لعبادة أناس من أبناء الهند، ويقول الرحالون الشرقيون إنها كانت كذلك بيتًا مقصودًا للصابئين الذين أقاموا فى جنوب العراق قبل الميلاد بأكثر من عشرة قرون، ونرجح نحن ترجيح الظن أن سكان شواطئ الهند وخليج فارس وجدوا فيها سماحة لعبادة أربابهم العلوية وأفلاك السماء كلما ترددوا عليها فى تجارتهم من أقدم عهود التاريخ، فكان حكمهم فيها حكم القبائل البادية التى وجدت فيها محلا لعبادة أوثانها فى موسم الحج والإحرام.

ومن المحاولات التاريخية التى لاشك فى بواعثها محاولة عام الفيل ومحاولة عثمان ابن الحويرث أن يدخل مكة فى حوزة الروم، وأن تستولى دولة الروم من ثم على تجارة المشرق كلها من شواطئ اليمن إلى مشارف الشام..

* * *

فالحبشة كانت تخشى الفرس فى اليمن وكانت تلقى من دولة الروم معونة على مقاتلة التبابعة اليمانيين، وكانت تحذر دولة الروم لأنها كانت تملك الوصول إلى بلادها من وادى النيل وتملك طريق البحر الأحمر فى نهايته القصوى، فلما خرجت جيوش الحبشة بقيادة أبرهة وأرياط كانت دولة الروم من وراء هذه الغزوة وانتهت بهزيمة ذى نواس ملك اليمن فاقتحم البحر بجواده ليغرق فيه، وسفر أبرهة عن غايته بعد التمكن من اليمن

وشواطئها، فبنى «القليس» فى صنعاء، ويجوز أن تكون مصحفة من كلمة الكليس اليونانية بمعنى المعبد والمجمع أو من كلمة الكلس بمعنى التكليس أو الطلاء. فلما تم بناؤها أمر بتحويل الحج إليها وكتب إلى النجاشي يقول «إنه ليس بمنته حتى يصرف إليها العرب أجمعين».. فقيل فيما قيل إن أناسًا من العرب كانوا يذهبون إلى هذه الكعبة الجديدة ليدنسوها، وإن سيدًا من سادات تميم فعل ذلك وتحدى أربابها أن تصيبه بأذاها إن كانت لها قدرة الأرباب، فكان من جراء ذلك هجوم أبرهة على مكة فى عام الفيل المشهور.

هذه محاولة لاشك فى الغرض منها وهو الاستيلاء على طريق الحجاز من اليمن إلى الشام.

والمحاولة الأخرى كانت من محاولات السياسة الخفية لتمليك سيد من العرب على مكة يدين بالولاء لدولة الروم، فارتضى قيصر لملك مكة رجلا من ساداتها هو عثمان ابن الحويرث بن أسد بن عبد العزى، وكتب له رسائل يبلغها قومه فعاد بها وجمع القوم إليه يرغبهم فى حسن الجزاء من قيصر، وينذرهم بسوء العاقبة فى الشام إذا هم عصوه، وأهون ما هنالك أن يغلق أبوابها فى وجوههم وهم يذهبون إليها ويعودون منها كل عام. قال: «يا قوم! إن قيصر قد علمتم أمانكم ببلاده وما تصيبون من التجارة فى كنفه، وقد ملكنى عليكم وأنا ابن عمكم وأحدكم، وإنما آخذ منكم الجراب من القرظ والعكة[1] من السمن والأوهاب، فأجمع ذلك ثم أذهب إليه، وأنا أخاف إن أبيتم ذلك أن يمنع منكم الشام فلا تتجروا به وينقطع مرفقكم منه».

* * *

وهذه المحاولة السياسية غرضها كما هو ظاهر كغرض تلك المحاولة العسكرية، وكلتاهما تثبت شيئًا واحدًا وهو قيام كعبة الحجاز على كره من ذوى السلطان فى الجنوب، وإن دولة الروم لم تكن تريدها باختيارها وإنما كانت مشغولة بها معنية بتحويلها إلى حوزتها فلم تستطع أن تنال منها منالها، واستطاعت «الكعبة» أن تحفظ مكانها على الرغم من خلو مكة من العروش الغالبة على أنحاء الجزيرة بجميع أطرافها، بل استطاعت ذلك لخلوها من تلك العروش وقيام الأمر فيها على التعميم دون التخصيص وعلى تمثيل جملة العرب بمأثوراتهم ومعبوداتهم دون أن يسخرهم المسخرون، أو يستبد بهم فريق يسخرهم تسخير السادة للأتباع المكرهين على الطاعة وبذل الإتاوة.

(١) العكة وعاء من جلد مستدير.

قداسة الكعبة

والأساس المهم الذى قامت عليه مكانة البيت المكى أن البيت بجملته كان هو المقصود بالقداسة غير منظور إلى الأوثان والأصنام التى اشتمل عليها، وربما اشتمل على الوثن المعظم تقدسه بعض القبائل وتزدريه قبائل أخرى فلا يغض ذلك من مكانة «البيت» عندالمعظمين والمزدرين، واختلفت الشعائر والدعاوى التى يدعيها كل فريق لصنمه ووثنه. ولم تختلف شعائر البيت كما يتولاها سدنته المقيمون إلى جواره والمتكفلون بخدمته، فكانت قداسة البيت هى القداسة التى لا خلاف عليها بين أهل مكة وأهل البادية، وجاز عندهم، من ثم، أن يحكموا بالضلالة على أتباع صنم معلوم ويعطوا البيت غاية حقه من الرعاية والتقدير.

وعلى هذا كان يتفق فى موسم الحج أن يجتمع حول البيت أناس من العرب يأخذون بأشتات متفرقة من المجوسية واليهودية والمسيحية وعبادات الأمم المختلفة، ولا يجتمع منها دين واحد يؤمن به متعبدان على نحوواحد، وما من كلمة من كلمات الفرائض لا تعرف بين عرب الجاهلية بلفظها وجملة معناها كالصلاة والصوم والزكاة والطهارة، ومناطها كلها أنها حسنة عند رب البيت أو عند الله. وجاء فى صحيح مسلم عن عبد الله ابن الصامت أن أبا ذر قال له: «يا بن أخى! صليت مرتين قبل مبعث النبى صلى الله عليه و سلم. فسأله: فأين كنت توجه؟ قال: حيث وجهنى الله!».

* * *

وجاء فى الأغانى أن زيد بن عمرو بن نفيل كان يستقبل الكعبة فى صلاته ويقول

لبيك حقًّا حقّا تعبدًا ورقّا

. . . .

عذت بما عاذ به إبراهيم مستقبل الكعبة وهو قائم
يقول إنى لك عان راغم مهما تجشمنى فإنى جاشم

وذكرت صاحب كتاب حجة الله البالغة أنهم كانوا يصومون يوم عاشوراء، وكان صيامهم من الفجر إلى مغرب الشمس، وكانت لهم بقايا من العبادات التى عرفت بين أهل الكتاب أو لم تكن معروفة على وتيرة واحدة بين أتباع دين من الأديان، وإنما يرغبهم فيها أنها أعمال ترضى «الإله» وأنهم يعرفون إلها أعظم من سائر الآلهة يتوجهون إليه بالدعاء، وهى حقيقة لا يعتورها الشك لأنهم كانوا يسمون «عبد الله» ويلبون فيقولون اللهم لبيك، ولا يدعون أحدًا من الأصنام «رب البيت» فإذا قالوا «رب البيت» أرادوا به ربًّا فوق جميع الأرباب.

إننا فى هذه الرسالة نذكر المقدمات ونقسمها كما قلنا فى مفتتحها إلى قسمين: قسم ينقطع دون النتائج التى جاءت بعده، وقسم يتصل بنتائجه ويسير من مبدئه إلى غايته فى مجرى الحوادث، وليس بين هذه المقدمات المتصلة ما هو أحكم اتصالا بين أوائله وخواتيمه من قيام البيت فى مكة وتوثيقه قبائل العرب على حرمة واحدة.

وقد سميت الكعبة «الحمساء» وانتسب إليها «الحمس» وهم طوائف متشددون فى فرائضهم وخلائقهم يدينون أنفسهم بالتقشف والزهد فى مواسم العبادة، فيقضون زمنًا فى العراء لا يحول بينهم وبين السماء حائل من سقف أو ستار، ويحرمون على أنفسهم فى الأشهر الحرام أكل الأقط والسمن، ولبس النسيج من الوبر والشعر، ولا يجيزون لغيرهم أن يطوف بالبيت فى غير الثياب الأحمسية ويجعلون المطاف بالليل للنساء إذا لم تكن عليهن هذه الثياب.

* * *

ومن رعاية جوار البيت حلف الفضول الذى تعاهد عليه أناس من علية قريش: لينصرن كل مظلوم، ويردن الحق إلى كل مغصوب، وليكونن يدًا واحدة فى قتال كل غاصب يلج فى ظلمه وغصبه اعتزازًا بماله أو بعصبته وحزبه، وما من مقدمة للدعوة المحمدية كانت ألزم ولا أكرم من هذه المقدمة تيسيرًا لاجتماع الكلمة على الخير وتوحيد أبناء الجزيرة العربية فى دعوة واحدة ليست لدى سلطان من ملوك اليمن أو خليج فارس أو مشارف الشام الذين يدينون بالولاء للأكاسرة وللقياصرة وللنجاشيين، بل هى دعوة الله يتلقاها أصحاب التيجان والعروش كما يتلقاها عامة الخلق من عباد الله.

أسرة النبى

منذ ثبتت للبيت الحرام تلك المكانة العالية بين العرب كافة؛ وجبت له أمانة الخدمة بما له من حق محفوظ وشرف ملحوظ، ووجب لخدامه السمت الذى يجمل بهذا المقام وهو فوق مقام الرئاسة الدنيوية وعلى مثابة من مقام العبادة والتقديس.

ولم يقم بهذه الأمانة أحد كما قام بها أجداد النبى عليه السلام من بنى هاشم فقد حفظوا حقها وعرفوا سمتها بل طبعوا عليه فطرة بغير كلفة، وبدا منهم الإيمان بها فى مآزق الشدة التى يمتحن فيها الإيمان بحب النفس وحب البنين، فيغلب الإيمان على حب المرء لنفسه وحبه لبنيه.

وقد تنافس بنو هاشم وبنو أمية على هذا الشرف فأسفرت المنافسة بينهما عن فارق فى الطباع ملحوظ الأثر فى خلائق الأسرتين من أيام الجاهلية إلى ما بعد الإسلام بعدة قرون، ومهما تجد من ندين متناظرين فى هاشم وأمية إلا وجدت بينهما هذا الفارق على نحو من الأنحاء.

كان بنو هاشم أصحاب عقيدة وأريحية ووسامة، وكان بنو أمية أصحاب عمل وحيلة ومظهر مشنوء، وينعقد الإجماع أو ما يشبه الإجماع على أخبار الجاهلية التى تنم عن هذه الخصال فى الأسرتين وبقى الكثير منها إلى ما بعد قيام الدولة الأموية فلم يفندوه.

ومن هذه الأخبار أخبار المنافرات المتتالية تجمعها منافرة حرب وعبد المطلب إلى نفيل جد عمر بن الخطاب، إذ يقضى لعبد المطلب ويخاطب حربًا قائلا: «أتنافر رجلا هو أطول منك قامة وأعظم منك هامة وأوسم منك وسامة وأقل منك لامة وأكثر منك ولدًا وأجزل منك صفدًا وأطول منك مذودًا:

أبـوك معـاهـر وأبـوه عف ... وذاد الفيل عن بلد حرام

والنسابون يؤيدون ما تواترت به هذه المنافرات؛ فيقول دغفل النسابة لمعاوية وقد سأله عن جده أمية: «رأيته رجلا قصيرًا ضريرًا يقوده عبده ذكوان».. قال معاوية «ذلك

ابنه أبو عمرو؟» قال دغفل: «ذلك شيء تقولونه أنتم أما قريش فلم تكن تعرف إلا أنه عبده».

ويقول الكلبي فى أبناء عبد المطلب: «كانوا إذا طافوا بالبيت يأخذون البصر»..

قلنا فى كتابنا عن ذى النورين عثمان بن عفان: وقد يتردد المؤرخ فى قبول بعض الروايات المتقدمة على علاتها؛ ولكنه لا يحتاج إلى المشكوك فيه من تلك الروايات ليعلم هذا الفارق الواضح من خلائق العشيرتين فيما أثر عنهم قبل الإسلام وبعد الإسلام، ففى حلف الفضول قام بنو هاشم بالأمر وقام به معهم بنو أسد وبنو زهرة وبنو تيم، وتخلى عنه بنو عبد شمس فلم يشتركوا فيه.. وخلاصة قصته أن رجلا يمانيًا قدم مكة ببضاعة، فاشتراها رجل فلواه بحقه، وأبى أن يرد عليه بضاعته فقام فى الحجر، أو فى مكان على شرف؛ وصاح يستغيث، وكان من أجل ذلك أن تعاهد أناس من بنى هاشم وأحلافهم ألا يظلم بمكة غريب ولا قريب ولا حر ولا عبد وإلا كانوا معه حتى يأخذوا له بحقه من أنفسهم ومن غيرهم، وعمدوا إلى ماء من زمزم فجعلوه فى جفنة وبعثوا به إلى البيت فغسلت أركانه وشربوه. وقد أبى الأمويون وبنو عبد شمس عامة على أحد منهم أن يدخل هذا الحلف؛ فكان أحدهم عتبة بن ربيعة يقول: «لو أن رجلا وحده خرج من قومه لخرجت من عبد شمس حتى أدخل حلف الفضول».

وربما خفى السبب الذى يرجع إليه هذا الفارق بين الأسرتين، فقد يرى بعضهم أنه يرجع إلى النسب المدخول، وقد رمى الأمويون الأوائل بشبهات كثيرة فى عمود النسب وعرض لهم بذلك أناس من ذوى قرباهم فى صدر الإسلام وأشهر ما اشتهر من هذه الشبهات قصة ذكوان الذى يقولون إنه من آبائهم، ويقول النسابون إنه عبد مستلحق على غير سنة العرب فى الجاهلية. ومما يعلل به هذا الفارق أن بنى أمية كانوا يغيبون عن ديارهم ويعودون إليها فلا يطيب للمقيمين فيها أن يعترفوا لهم بدعوى الزعامة عليهم، وأنهم أكثروا من الرحلة فى بادئ الأمر لحاجتهم وقلة محصولهم من نتاج النعم وأرباح التجارة، وليس بالبعيد أن «المعاهرة» التى أشار إليها المحكمون بينهم وبين الهاشميين قد أورثتهم بعض أمراضها ودست فى أخلاقهم شيئًا من خبائثها، وليس بالبعيد أيضًا أن الفارق بين الأسرتين إنما كان من قبيل تلك الفوارق التى نراها بين الإخوة كأنها قسمت بينهم ميراث الأخلاق، فذهب أحدهم بالحول وذهب أخوه بالحيلة، أو ذهب أحدهم

بالكرم والأريحية وذهب أخوه بنقائضها من خلال الأثرة والدعوى.

وأيًّا ما كان سر هذا الفارق البين، لقد كان بنو هاشم - أسرة النبى - أصحاب رئاسة، وكانت لهم أخلاق رئاسة.

عرفوا بالنبل والكرم والهمة والوفاء والعفة، وبرزت كل خليقة من هذه الخلائق فى حادثة مأثورة مذكورة، فلم تكن خلائقهم هذه من مناقب الأماديح التى يتبرع بها الشعراء أو من الكلمات التى ترسل إرسالا على الألسنة ولا يراد بها مغناها.

كان هاشم غياث قومه فى عام المجاعة، فبذل طعامه لكل نازل بمكة أو وارد عليها، وسمى بالهاشم من ذلك اليوم لهشمه الثريد ودعوة الجياع إلى قصاعه:

عمرو الذى هشم الثريد لقومه   ورجـال مكة مسنتـون عجاف

ومما يروى عنه أنه كان أول من سن الرحلتين لقريش: رحلة الصيف ورحلة الشتاء. وحقيقة ذلك - فيما يخلص لنا من سوابق الرحلات - أنه كان يحمى تلك الرحلات وينظمها، فنسب إليه أنه أول من سنها.

ومكانته فى غير قريش، وفى مدن التجارة خاصة، تدل عليها مصاهرته لبنى النجار فى المدينة، وزواجه من سلمى بنت عمرو التى كانت - لشرفها وعزتها - تأبى أن تتزوج إلا أن يكون أمرها بيدها، ولو لم يكن لهاشم مقامه فى الحجاز كله لما أصهر إلى القوم ولا ارتضى القوم هذه المصاهرة من رجل يزور مدينتهم زيارة الطريق بين مكة والشام. وقد كان المعهود فى بنى عبد مناف أنهم لا يقعدون جميعًا فى ديارهم وأنهم لا تزال لهم همة طامحة فى رحلاتهم وأسفارهم، ومات أكثرهم فى غير وطنهم، فمات هاشم بغزة فى الشام ومات عبد المطلب بردمان إلى ناحية من أرض اليمن، ومات نوفل بسلمان فى العراق.

وابن هاشم عبد المطلب سيد قريش غير مدافع، ويبلغ هذا التقابل بين الأسرتين أقصاه فى عهد مناظرة حرب بن أمية، فكان كلاهما نمطا فى بابه من طرفى العقيدة والأريحية وطرف السعى والحيلة.

وكان عبد المطلب متدينًا صادق اليقين، مؤمنًا بمحارم دينه فى الجاهلية لأن ثقة الإيمان طبيعة فى وجدانه، وهو أول من حلى الكعبة بالذهب من ماله، ويعنينا منه أنه كان فى الحق

نمطًا فريدًا بين أصحاب الطبائع التى فطرت على الاعتقاد ومناقب النبل والإيثار.

فلم تكن مناقبه من مناقب الطابع والوتيرة التى تتكرر على صورة واحدة بين المتصفين بها، ولم يكن كرمه ولا حرمه ولا شجاعته من قبيل الصفات التى تعرف بهذه الأسماء فى جميع الكرماء وذوى الحزم والشجاعة..

بل كانت مناقبه مطلبية تدل عليه ولا تصدر من غيره، وكانت كلها مزيجًا من الأنفة والرصانة والاستقلال ومواجهة الغيب على ثقة وصبر وأناة.

وهذه طائفة من أخباره لا نفتقد فى واحدة منها تلك المناقب المطلبية التى تعز على خيال المتخيل ما لم يكن وراءها أصل تحكيه وترجع إليه.

وصل أبرهة الحبشى عام الفيل إلى أرباض مكة وبعث رجلا من العرب يسمى حناطة يسأل عن «أمير مكة» ويبلغه أن أبرهة لم يأت لقتالهم وإنما أتى لهدم البيت الحرام فإن لم يمنعوه فهم فى أمان من حربه. فلما لقى الرسول عبد المطلب وأبلغه رسالة أبرهة قال عبد المطلب: والله ما نريد حربه، وهذا بيت الله وبيت خليله إبراهيم فإن يشأ منع بيته وحرمه وإن لم يشأ تخلى عنه، ووالله ما عندنا من قتال.

قال الرسول: انطلق معى الى الملك، فانطلق معه عبد المطلب إلى أن أتى معسكر أبرهة وأدخلوه عليه.

يقول الرواة: وكان عبد المطلب رجلا عظيمًا مهيبًا وسيمًا فنزل أبرهة عن سريره وأجلسه معه وسأله عن طلبته فقال عبد المطلب: الإبل التى ساقها جندك!

ويقول الرواة: فهان أمر عبد المطلب فى نظر أبرهة وقال له: أتسأل عن البعير وتترك البيت الذى هو دين آبائك ودينك من بعدهم؟ فقال عبد المطلب: أنا رب الإبل، وللبيت رب يحميه. فأمر برد إبل عبد المطلب دون غيرها، فأخذها عبد المطلب وقلدها النعال وساقها هديا إلى الحرم، ووقف على باب الكعبة يقول:

يارب لا أرجو لهم سواكا ... يارب فامنع منهمُ حماكا
إن عدو البيت من عاداكا ... فامنعهم أن يخربوا قراكا

هذه هى «المطلبية» التى نعنيها فى خصال هذا الرجل العظيم: لا تهور مع القوة

الطاغية، ولكن لا خضوع لها بل وضع لها فى موضعها. وقول يناسب كل مقام، فإذا خامر الظن أحدًا لا يفهم معنى هذه الأنفة التى تأنف من التهور كما تأنف من الجبن، فهناك الجواب الفعال الذى يغنى ما ليس يغنيه المقال: ما سألت عن الإبل لأننى أضن بأثمانها فإننى قد وهبتها بعد ذلك للبيت، ولكننى سألت عنها لأنها هى موضع سؤالى، وتركت السؤال عن البيت لأن استجداء الرحمة من أبرهة لبيت الله ينفى الثقة بالبيت وبالله.

وقد حدث بعد ذلك ما حدث مما لا شك فيه، وهو فتك الجدرى بجنود أبرهة وانهزامه عن البيت؛ وخوفه من أن يتقدم إليه بأذى. وإنه لخبر قد يسهل إنكاره على المتحذلقة من أدعياء التاريخ الذين يجمعون التمحيص كله فى الإنكار، لولا أن حديث الجدرى الذى فشا فى (سنة ٥٦٩) مثبت كما تقدم فى تاريخ بروكوب Procope الوزير البيزنطى المعروف..

وخبر آخر من أخبار هذه المناقب المطلبية أنه عاش زمنًا قليل الولد لم يرزق غير ابنه الحارث الذى كان يكنى به. وعيره عدى بن نوفل بن مناف يومًا فقال له: أتستطيل علينا عبد المطلب وأنت فذ لا ولد لك؟ فأجابه عبد المطلب جوابه الذى أثر عن ذلك اليوم: أبالقلة تعيرنى!؟ فو الله لئن آتانى الله عشرة من الولد لأنحرن أحدهم عند الكعبة!

وسنعود إلى التعقيب على هذه القصة فى حديث عبد الله أبى النبى عليه السلام، ولكننا نجتزئ هنا بأن نقول إننا لا نسقطها لمجرد إختلاف الروايات فيها، فإن أخبار الحاضر تتناقض أمامنا ونحن لا ننكر وقوعها لهذا التناقض وقد اختلف الرواة فى عبد الله بن عبد المطلب هل هو أصغر أبنائه جميعًا أو أصغر أبنائه من أمه، وهل بلغ أبناؤه العشرة أو حسب منهم أبناء الأبناء، وكل أولئك لا يسقط القصة كما أسلفنا، وكما يجىء فى سيرة عبد الله.

وملتقى الروايات فى هذه القصة أنه أمر بنيه أن يكتب كل منهم اسمه فى قدح وطلب من صاحب القداح أن يضرب عليها فخرج السهم باسم عبد الله. فهم بإنفاذ نذره لو لم يتشفع عنده ابنه العباس ورجالات قريش، وتنادوا بينهم لئن فعل ذلك لتكونن سنة ولا يزال الرجل يأتى بابنه فيذبحه، فإن يكن فداء فبأموالنا جميعًا نفديه.

واحتكموا إلى عرافة بالحجاز فسألتهم: كم الدية؟ قالوا: عشرة من الإبل. قالت: قربوا عن ولدكم عشرة من الإبل ثم اضربوا عليها وعلى ولدكم، ثم زيدوا الإبل كلما أخطأها السهم حتى يخرج السهم عليها فانحروها عنه، فقد رضى ربكم ونجا ولدكم .

يقول الرواة: وعادوا إلى مكة فقربوا عشرة من الإبل وضربوا القداح فخرج القدح على عبد الله، وجعلوا يزيدون عشرة فعشرة حتى بلغت مائة وقيل ثلثمائة، فخرج السهم عليها فنحروها وتركوها لا يمنع من لحمها إنس ولا وحش ولا طير.

ومن أخباره أن قريشًا خاصمته فى ماء زمزم بعد أن احتفرها وعارضوه فى احتفارها، فاحتكموا إلى كاهنة بنى سعد بن تميم بمشارف الشام، فركب عبد المطلب ومعه نفر من بنى عبد مناف وركب من كل قبيلة من قريش نفر يتقدمون، وفنى ماء عبد المطلب عند بعض المفاوز بين الحجاز والشام فظمئ أصحابه حتى أيقنوا بالهلكة، وطلبوا الماء ممن معهم من قريش فلم يسقوهم، فجمع أصحابه وسألهم: ماترون؟ قالوا: رأينا تبع لرأيك فمرنا بما شئت. قال: فإنى أرى أن يحفر كل منا حفرته فيواريه فيها أصحابه إذا مات، حتى يكون آخركم موتًا قد وارى الجميع، فضيعة رجل واحد خير من ضيعة الركب كله.. ثم بدا له رأى أصوب من هذا الرأى فقال لأصحابه: والله إن إلقاءنا أنفسنا بأيدينا للموت هكذا دون أن نضرب فى الأرض ونبتغى لأنفسنا لهو العجز. فهلموا نرتحل، ولم يذهبوا فى طريقهم غير يسير حتى انفجرت عين ماء عذب تحت خف راحلته، فشربوا وملئوا أسقيتهم، ثم دعا القبائل من قريش فقال: هلموا إلى الماء فقد سقانا الله. فقال أصحابه: لا نسقيهم والله لأنهم لم يسقونا. قال: نحن إذن مثلهم، ولم يرضه أن يعمل مثل عملهم وهو أحق بالرجحان عليهم، وعرف القرشيون له هذا الحق فكفوا عن منازعته فى ماء زمزم وسلموا له السقاية التى كانوا ينفسونها عليه.

ويروى عنه أنه كان له جار يهودى يسمى أذينة، وكان له مال كثير فطمع فيه حرب بن أمية وأغرى به فتياناً من قومه فقتلوه، فلم يزل عبد المطلب يستقصى خبره حتى علم باغتياله ومن اغتالوه: فأبى إلا أن يُكره حربًا على الدية وأخذ منه مائة ناقة أسلمها إلى ابن عم اليهودى وارتجع ماله إلا شيئًا هلك فارتجعه من ماله.

وهذه هى المناقب «المخصصة» التى نقول إنها لا تجرى مجرى الطابع والوتيرة

ولا تغنى عناوينها عن النظر فى ملامح أصحابها ومميزاتهم فى التفكير والعمل، وهى مناقب لا تخترع ولا يضيرها أن يضاف فيها الخبر المخترع إلى الخبر الواقع. لأن الرواة المخترعين فى هذه الحالة إنما ينقلون عن صورة أصيلة تمت فى أذهانهم قبل اختراع أخبارهم عنها، فحاولوا أن تكون أخبارهم المخترعة مطابقة لحقيقتها.

ففى كل خبر من هذه الأخبار «المطلبية» إيمان وحزم ووفاء وجرأة على الخطر ولكن فى غير مغالطة ولا اصطناع، وإنما قوام ذلك كله حزم يملك زمامه، ويفعل واجبه كما يراه.

وأدعياء التاريخ خلقاء أن يسألوا أنفسهم هنا سؤالين، لا يغفلهما أحد يفقه معنى تمحيص الخبر، وأولهما فى هذا السياق: لماذا يخترع الرواة هذه الأخبار عن عبد المطلب دون غيره؟ وثانيهما: لماذا لم يخترعوها ولا اخترعوا أمثالها عن حرب بن أمية؟

فإذا كانت صورة الرجل فى الأذهان هى علة الاختراع فهناك حقيقة إذن ماثلة وراء هذه المخترعات، وهناك دلالة فى اتفاق الأذهان على الاختراع أولى بالتصديق من اتفاقهم على رؤية العيان، لأن رؤية العيان تحتاج بعدها إلى البحث عما تدل.

وقد اتفقت الروايات كلها على صفات عبد المطلب قبل الاتفاق على أخباره، واتفقت الصفات والأخبار معًا على ملامح شخصية قوامها الإيمان والحزم والوفاء وضبط النفس فى مواجهة القوة والخطر بعزيمة لا تتهور فى غير جدوى ولا تنكص على عقبيها خوفًا من فوات الجدوى، وكلها صفات جديرة بآباء الأنبياء والمرسلين.

عبد المطلب

ولد عبد المطلب فى المدينة وسمى «شيبة» تفاؤلا له بطول العمر فى أسرة لم يكن طول الأعمار من خصائصها، وتربى بعيدًا من آل أبيه فصدق عليه فى طفولته قول القائلين فى عصرنا: إن الطفل أبو الرجل. لأنه كان يلاعب الصبيان من لداته فيذكرون آباءهم ويفخرون بهم عليه وهو لا يرى أباه بينهم، وحز ذلك فى نفسه فجعلت أمه تسرى عنه وتحدثه عن آل أبيه ومآثرهم فى جوار البيت الحرام فطال اشتياقه إلى رؤيتهم والإقامة بينهم، بيد أنه أحجم عن السفر مع عمه «المطلب» حين قدم إلى المدينة لأخذه

إلى مكة، وبصر بأمه فى الدار حزينة واجمة تبكى لفراقه وتستمهل عمه عسى أن يبقيه لديها إلى عام قابل، فقهر فى تلك السن الباكرة شوقه إلى أهل أبيه وقد عز عليه فى المدينة أن يفاخر بهم لداته بين آبائهم وذويهم، وقهر فى إبان الطفولة ذلك التطلع إلى المجهول وذلك الحنين إلى الغرائب وتلك الرغبة فى كل حركة وكل انتقال من مكانه الذى هو فيه، وقال لعمه بعد أن تهلل لمرآه ورحب بالعودة معه إلى قومه: لن أترك أمى أو تأذن لى بالسفر معك راضية.

وفى سفرته تلك سمى عند مدخل مكة بعبد المطلب لأنه أهلها رأوه مع المطّلب لأول مرة فحسبوه عبدًا اشتراه، وجعلوا يدعونه باسم «عبد المطلب» كلما أرادوا أن يميزوه من أبنائه، فغلبت عليه.

وشب الغلام عزوفًا أبيًّا لا يستكين للهضيمة ولا ينزل عن حق له أو حق كان لأبيه، فلما أراد عمه نوفل أن يستأثر بمنزلة أبيه هاشم وميراثه لديه تحين الفرصة للسفر إلى المدينة وعاد إلى مكة بعصبة من أقارب أمه وأخواله، وهم أولو عصبة أشداء، يشاد بغوثهم فى مدائح الشعر:

ولـــو بـأبى وهب أنخت مـــطيتى غدت من نداه رحلها غير خائب

فتلقاهم عمه نوفل مرحبًا ودعاهم إلى ضيافته فلم يقبلوها أو يرضى فتاهم، فصالحهم على ما يرضيهم ويرضيه.

وصح التفاؤل فى عبد المطلب فعاش حتى ناهز المائة أو جاوزها ومات والنبى عليه السلام دون العاشرة فعهد به إلى كفالة عمه أبى طالب شقيق أبيه..

وكل ما تفرقت فيه الروايات من أمره قد استقرت على صفة لا تتفرق فيها روايتان، وهى صدق التدين والإيمان بمحارم الدين فى سدانته أو فى غير سدانته، واسم ولد من أولاده عبد العزى الذى اشتهر بعد ذلك باسم أبى لهب لزهرة كانت فى لون وجهه، ومن حديثه أنه كان يتعصب للعزى التى نمى إليها باسمه، وأنه زار أحد عبادها المتنسكين لها فى مرض موته فوجده يبكى، فسأله: ما يبكيك؟ أمن الموت تبكى ولا مفر منه؟ قال الرجل: كلا، ولكنى أخاف ألا تعبد العزى بعدى!

فقال أبو لهب: والله ما عبدت وأنت حى لأجلك ولا تترك بعدك لموتك. فاطمأن

الرجل ومات وهو يقول: الآن علمت أن لى خليفة يرعاها.

وكانت العزى بوادى خراص على يمين المصعد إلى العراق من مكة، وكانت قريش قدحمت لها شعبًا يقال له سقام، يضاهون به الكعبة، وهى التى يعنيها أبو جندب الهذلى إذ يقول فى بعض غزله:

لقد حلفت جهدًا يمينًا غليظة بفرع التى أحمت فروع سقام

ولها منحر تذبح فيه الذبائح ويقصد إليه الحاج بعد منى، كما يقول نهيكة الفزارى يخاطب عامر بن الطفيل:

يا عام لو قدرت عليك رماحنا والراقصات إلى منى فالغبغب

وشأن هذه القصة فى مناقب عبد المطلب أن التدين لم يكن وسيلة من وسائل الرجل إلى طلب السيادة والسدانة، وأنه لم يتدين لأنه سادن الكعبة وصاحب المنفعة فى تعظيمها. بل كان يعظم العزى ولا منفعة له فى هذا التعظيم، وكان الدين عنده إيمانًا خالصًا من الحيلة ومن مآرب الكهانة.

ولا يخفى أن الوراثة فى الطبائع لا فى الشعائر وظواهر العبادة، فمن كانت عنده عقيدة الإيمان بالغيب والعلو بما يؤمن به عن عوارض الأهواء واللذات، وهان عليه نسيان المنافع والشهوات فى سبيل رضاه، وطابت نفسه بالفداء وفرائض الطاعة والوفاء فهذه هى الطبيعة التى تورث على اختلاف الشعائر والعبادات، ومثلها فى ذلك مثل الشجاعة فى القتال ومثل السخاء بالمال، فإن الابن الذى يرث الشجاعة من أبيه لا يرث منه ميدانه، ولا تتوقف شجاعته الموروثة على سلاحه. فقد يحارب الابن بسلاح لم يعرفه أبوه، وفى ميدان غير ميدانه، وقد يبذل المال لإقامة مسجد ولم يبذل أبوه المال إلا لنحت صنم أو ذبح قربان على وثن، ولا غضاضة على ما ورثه من شجاعة ولا ما ورث من سخاء.

وهذه الطبيعة هى التى ينظر إليها الناظر فى مناقب الأسرة الموروثة، فلو كان عبد المطلب ينافق بالتدين ليخدع به قومه ويتذرع به إلى الرئاسة عليهم لما كان هو عبد المطلب الذى تورث منه خصال الصدق والإيمان، ولكن تورث منه هذه الخصال حين يصدق فى معتقده بالكعبة وبالعزى، وحين يدين الناس بما يدين به نفسه فى رئاسة هؤلاء الناس.

أبو طالب

وكان أبو طالب - خليفته فى الوصاية على النبى - أشبه أبنائه به فى جميع خصاله ومناقبه.

والخلاف كثير فى إسلام أبى طالب، إذ لم يتفق الرواة على إسلام أحد من أعمام النبى غير حمزة والعباس وهما فى مثل سنه، والعباس يكبرهما بنحو ثلاث سنوات.

ولكن لا خلاف على حمايته له وحبه إياه وصبره على عداوة قريش كلها فى سبيل نصرته ورد أذاهم عنه، وقد لقى فى ذلك ما يطيق وما لا يطيق، وعظم عليه الخطب وأشفق من مغبته عليه وعلى ابن أخيه فقال له فى ساعة من أشد ساعات الحرج: «أبق على نفسك يا بنى ولا تحملنى من الألم ما لا أطيق»... فحزن النبى وحسب أنه سيخذله وقال له وهو يهم بمفارقته: «والله يا عم! لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى، على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه، ما تركته».

فلم يبرح النبى غير قليل حتى ناداه عمه وقال له وهو حزين لحزنه: «اذهب يا بن أخى فقل ما أحببت، فوالله لا أسلمك لشىء أبدًا».

وفى رواية ابن إسحاق: أنَّ رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا حضرت الصلاة خرج إلى شعاب مكة، وخرج معه على بن أبى طالب مستخفيًا من أبيه أبى طالب ومن جميع أعمامه وسائر قومه، فيصليان الصلوات فيها فإذا أمسيا رجعا، فمكثا كذلك ما شاء الله أن يمكثا، ثم إن أبا طالب عثر عليهما يومًا وهما يصليان، فقال لرسول الله صلى الله عليه وسلم: يا بن أخى! ما هذا الدين الذى أراك تدين به؟ قال: أى عم. هذا دين الله ودين رسله ودين أبينا إبراهيم.. بعثنى الله به رسولا إلى العباد، وأنت - أى عم - أحق من بذلت له النصيحة ودعوته إلى الهدى وأحق من أجابنى إليه وأعاننى عليه». فقال أبو طالب: «أى ابن أخى! إنى لا أستطيع أن أفارق دين آبائى وما كانوا عليه، ولكن - والله - لا يخلص إليك بشىء تكرهه ما بقيت».

وقال ابن إسحاق: «وذكروا أنه قال لعلى: أى بنى! ما هذا الدين الذى أنت عليه!

فقال: يا أبت آمنت بالله وبرسول الله، وصدقت بما جاء به، وصليت معه لله واتبعته، فزعموا أنه قال له: أما أنه لم يدعك إلا إلى خير، فالزمه»..

وبر أبو طالب بقسمه، وحمل السيف فى سبيل نجدته، وروى القرطبى أنه ناجز أبا جهل وجلة قريش فى مجموعهم يوم اعتدى ابن الزبعرى عليه فى صلاته. وكان النبى عليه السلام قد دخل الكعبة ليصلى كعادته فقال أبو جهل: من يقوم إلى هذا الرجل فيفسد عليه صلاته؟.. فقام ابن الزبعرى فأخذ فرثا ودما فلطخ به وجه النبى، وانفتل النبى من صلاته وقصد إلى عمه فسأله عمه: من فعل هذا بك؟ قال: عبد الله ابن الزبعرى! فقام أبو طالب ووضع سيفه على عاتقه ومشى معه حتى أتى القوم، فلما رأوه قد أقبل جعلوا ينهضون، فقال أبو طالب: والله لئن قام رجل لجللته بسيفى، فقعدوا حتى دنا منهم، وأخذ أبو طالب فرثا ودما فلطخ به وجوههم ولحاهم وانصرف وهو يغلظ لهم القول.

وقد تكفل أبو طالب بالنبى فى طفولته الباكرة وصحبه فى غدواته وروحاته خوفًا عليه من إساءة تمسه فى غيابه وانتوى السفر إلى الشام والنبى فى نحو الثانية عشرة من عمره فأشفق عليه أن يجشمه عناء السفر البعيد، ثم تهيأ للرحيل فتعلق به الغلام الودود وبكى لفراقه، فلم يقو على مفارقته وهو باك، وقال لصحبه: والله لأخرجن به معى ولا يفارقنى ولا أفارقه أبدًا.

ولقد كان الرجل الجليد يذكر أخاه كلما لمحت عيناه الغلام اليتيم فتشرق عيناه بالدموع، ويقول: ما أشبهه بعبد الله. وقد كان أبو طالب وعبد الله - كما تقدم - أخوين شقيقين، ولم يثبت قط أن هذا العم الكريم تخلى طرفة عين عن ابن أخيه أو أحزنه بكلمة لا ترضيه من طفولته إلى أن جهر بدعوته، ولم يخالف هذا الإجماع من أخبار أبى طالب والنبى أحد من المؤرخين حتى أولئك المفسرين الذين الذين حسبوا أن أبا طالب هو المقصود بما جاء فى القرآن فى سورة الأنعام: «وإن يروا كل آية لا يؤمنوا بها حتى إذا جاءوك يجادلونك يقول الذين كفروا إن هذا إلا أساطير الأولين وهم ينهون عنه وينأون عنه، وإن يهلكون إلا أنفسهم وما يشعرون».

فقد وهم أولئك المفسرون أن أبا طالب كان هو المقصود بهذه الآيات لأنه كان ينهى

عن أذى النبى ولا يدين بدينه، ولم يكن أبو طالب ممن يلقون النبى ليجادلوه فيصدق عليه ذلك التفسير، وأوضح من خطأ هؤلاء المفسرين هنا ظنهم أن أبا طالب مقصود بعد وفاته بقوله تعالى فى سورة القصص: (إنك لا تهدى من أحببت).. فإن سورة الأنعام قد نزلت بعد سورة القصص كما جاء فى كتاب الإتقان، فلا هداية ولا جدال ولا نهى عن أذى النبى بعد الوفاة.

وعلى الجملة تبدو لنا رعاية أبى طالب لابن أخيه على الرغم من قريش خلائق رحمة ونخوة ووفاء واعتداد بالجاه والكرامة، وتبدو لنا من سيرته كلها خلائق أخرى من قبيل هذه الخلائق التى تجمع بين الطيبة والقوة. فإننا نعلم أنه كان يلقب بسيد الأباطح، وأنه كان يخرج للتجارة آنة بعد أخرى، وأن أباه عبد المطلب كان على ثراء عظيم وكان سادات بنى أمية ينافسونه بالغنى والسخاء فلا يدركونه فى هذا ولا ذاك، ثم نعلم على كل هذا أن أبا طالب قد لقى ضنكًا فى شيخوخته وأن النبى قد أعانه بكفالة ابنه على وتربيته فى داره، ونعلم كذلك أن النبى لم يكن على حال من الوفر قبل اشتغاله بتجارة السيدة خديجة ومشاركته فى ربح أموالها، فمصير ابن عبد المطلب وحفيده إلى حال من القلة بعد غنى الجدود والأوائل قد ينبئ عن نصيب الأسرة النبوية من السدانة ومن مناصب الدين فى البيت المعمور، فأكبر الظن أنها كانت مغرمًا يأخذ من أموالهم ولم تكن مغنمًا يربحون منه الكثير أو القليل، ولولا سعة التجارة التى عمل فيها هاشم والمطلب حتى قيل إن أحدهما سن لقريش سنة الرحلتين إلى الشام واليمن - لما وصل إليهما ذلك الثراء المشهور ولا استطاعا النهوض بأعباء الشرف ومناصب الدين.

ولقد مر بنا من نجدة أبى طالب لابن أخيه ما تتم به فضيلة النجدة كاملة لهذا الشيخ الكريم، ولكنها كانت فى الحق نجدة تتسع لكل قاصد ومستجير ولو لم تكن حقوق ابن الأخ على عمه، فقد استجار به أبو سلمة صاحب بنى مخزوم فأجاره وأعلن على الملأ جواره، فمشى إليه رجال من بنى مخزوم فقالوا: يا أبا طالب ما هذا؟ منعت منا ابن أخيك محمداً فمالك وصاحبنا تمنعه منا؟ قال: إنه استجار بى وهو ابن أختى، وإن أنا لم أمنع ابن أختى لم أمنع ابن أخى. فغضب أبو لهب فى هذه المرة لأخيه الشيخ وثار بهم قائلا: يا معشر قريش! والله لقد أكثرتم على هذا الشيخ. ما تزالون تتواثبون عليه فى جواره من بين قومه، والله لتنتهى عنه أو لنقومن معه فى كل ما قام فيه حتى يبلغ ما أراد.

فخشى زعماء قريش مغبة الوفاق بين الأخوين فى النجدة والجوار، وكان أبو لهب معهم على رسول الله فى دعوته، فقالوا: بل ننصرف عما تكره يا أبا عتبة، وانصرفوا راغمين.

وحكى عن هشام بن السائب الكلبى عن أبيه فى رواية لا نثبتها ولا ننفيها أن أبا طالب لما أحس الموت «جمع إليه وجوه قريش فأوصاهم فقال: يا معشر قريش!.. إنى أوصيكم بمحمد خيرًا فإنه الأمين فى قريش والصديق فى العرب وهو الجامع لكل ما أوصيكم به، وقد جاء بأمر قبله الجنان، وأنكره اللسان، مخافة الشنآن، وأيم الله كأنى أنظر إلى صعاليك العرب وأهل الوبر والأطراف المستضعفين من الناس قد أجابوا دعوته وصدقوا كلمته وعظموا أمره فخاض بهم غمرات الموت فصارت رؤساء قريش وصناديدها أذنابًا ودورها خرابًا وضعفاؤها أربابًا وإذا أعظمهم عليه أحوجهم إليه، وأبعدهم منه أحظاهم عنده، قد محضته العرب ودادها وأصفت له فؤادها وأعطته قيادها. يا معشر قريش! كونوا له ولاة ولحزبه حماة، والله لا يسلك أحد سبيله إلا رشد، ولا يأخذ بهديه إلا سعد، ولو كان لنفسى مدة ولأجلى تأخير لكففت عنه الهزاهز ولدفعت عنه الدواهى..»

وهذه الوصية لا يثبتها القارئ لها على هذا الأسلوب إلا أن تكون لسان حال لا لسان مقال، وإلا أن يكون ما قيل بعض لفظها وبعض معناها، ولم يكن كل ما جاء فيها.

العباس وحمزة

وعمّان آخران، غير أبى طالب، كانت لهما شهرة وصلة بالدعوة النبوية عرفنا منها بعض ما اتصفا به من صفات وكفايات وهما العباس وحمزة، وكلاهما أخ لعبد الله غير شقيق.

فالعباس على صغره تولى السقاية بعد أبيه، وامتاز بين سادات قريش بالرأى والدهاء وطول الأناة، وكان له علم بالأنساب وقدرة على تآلف الناس ودفع العداوات، مع هيبة يحسب لها حسابها جلة قريش من هاشميين وأمويين، وهو جد بنى العباس ومن خلائقه خلائق أبنائه الكفاة الدهاة من كل رئيس مطاع فى هذا البيت الفريد بين بيوتات الهاشميين.

وحمزة فارس الفرسان فى خلائق الفروسية كلها، من شجاعة وصدق وإيمان ودراية بالسيف والخيل. قال ابن إسحاق فى قصة إسلامه: «فلم يلبث حمزة بن عبد المطلب رضى الله عنه أن أقبل متوشحًا قوسه راجعًا من قنص يرميه ويخرج له، وكان إذا رجع من قنصه لم يصل أهله حتى يطوف بالكعبة، وكان إذا فعل ذلك لم يمر على ناد من قريش إلا وقف وسلم وتحدث معهم، وكان أعز فتى فى قريش وأشد شكيمة، فلما مر بالمولاة - مولاة عبد الله بن جدعان - قالت له: «يا أبا عمارة. لو رأيت ما لقى ابن أخيك محمدًا آنفًا من أبى الحكم بن هشام! وجده ها هنا جالسًا فآذاه وسبه وبلغ منه ما يكره ثم انصرف عنه ولم يكلمه محمد صلى الله عليه وسلم، فاحتمل حمزة الغضب لما أراد الله به من كرامته فخرج يسعى ولم يقف على أحد، معدًّا لأبى جهل إذا لقيه أن يوقع به. فلما دخل المسجد نظر إليه جالسًا فى القوم فأقبل نحوه، حتى إذا قام على رأسه رفع القوس فضربه بها فشجه شجة منكرة، ثم قال: أتشتمه؟ فأنا على دينه أقول ما يقول، فرد ذلك علىّ إن استطعت، فقامت رجال من بنى مخزوم لينصروا أبا جهل فقال أبو جهل: دعوا أبا عمارة. فإنى والله قد سببت محمدًا ابن أخيه سبا قبيحا..»

قال القوم: ما نراك يا حمزة إلا قد صبأت.

فقال حمزة: وما يمنعنى وقد استبان لى منه ذلك.. أنا أشهد أنه رسول الله.

ومن أعمام رسول الله غير حمزة والعباس رجلان لم يسلما وهما الزبير وعبد العزى أبو لهب، وكلاهما كان يحتفى بالطفل الصغير ويدلله ويواليه بالسؤال عنه، وكان الزبير يرقصه بأبيات الشعر يرجو له طول العمر والنجابة، ووهب له أبو لهب جاريته ثويبة، ترضعه وتخدمه فى طفولته، ولا نعرف من أخبار الزبير ما ينبئ عن صفاته وكفاياته وأما أبو لهب فالمعروف عنه - ولا سيما فى علاقاته بابن أخيه بعد الدعوة - غير قليل.

* * *

كان بنو هاشم وبنو المطلب جميعًا فى نصرة النبى من آمن منهم به ومن لم يؤمن ما عدا أبا لهب وبنيه، وفيه نزلت الآيات: (تبت يدا أبى لهب وتب، ما أغنى عنه ماله وما كسب، سيصلى نارًا ذات لهب، وامرأته حمالة الحطب، فى جيدها من مسد).

وتعليل هذا الشذوذ أنه من لوازم الأسر الكبيرة التى لا تشذ منها أسرة ذات خطر فى

التاريخ، فهو هنا القياس المطرد مع طبائع الأمور، كان من علله أنه يدعى بعبد العزى يتعصب لها ويغضب أن يحسب أحد أمامه أن عبادتها مرهونة بحياته كما تقدم.

وكان من علله أنفة الكبير أن ينقاد للصغير، ولا ننسى أنها أنفة لا تستغرب فى عشائر البادية وعشائر الرئاسة منها على التخصيص، ومن استغربها فليذكر أن العباس وحمزة - عمى الرسول اللذين أسلما - كان من لداته عليه السلام إلا سنوات ثلاثًا أو أربعًا تقدم بها العباس فكان لها أثرها فى تأخير إسلامه سنوات.

* * *

وكان من علل ذلك الشذوذ أنه كان على حلف ومشاركة لبيوتات قريش كلها لكثرة ماله وسعة تجارته وأعماله، وقد قال للنبى فى مجمع الأسرة: هؤلاء هم عمومتك وبنو عمك فتكلم ودع الصبأة، واعلم أنه ليس لقومك بالعرب قاطبة طاقة، وأنا أحق من أخذك، فحسبك بنو أبيك وإن أقمت عليه فهو أيسر عليهم من أن يثب بك بطون قريش وتمدهم العرب.. فما رأيت أحدًا جاء على بنى أبيه بشر مما جئتهم به..

وفى مجلس آخر قال له أبو طالب: هؤلاء بنو أبيك مجتمعون، وإنما أنا أحدهم، غير أنى أسرعهم إلى ما تحب، فامض لما أمرت. فوالله لا أزال أحوطك وأمنعك. غير أن نفسى لا تطاوعنى على فراق دين عبد المطلب..

قال أبو لهب: هذه والله السوأة. خذوا على يديه قبل أن يأخذ غيركم.. وانفض المجلس على غيظ يكظمه أبو لهب، وعهد يبرمه أبو طالب ويقول فيه مقسمًا: والله لنمنعنه ما بقينا..

وهذا هو الهوى الذى يزين لصاحبه أن يسوقه مساق الحكمة والحيطة، فيزعم أنه يدفع الشر عن ابن أخيه وعن قومه ويجنبهم ما لا يطيقونه من جهاد العرب، وأنه فى طويته ليأنف أن ينقاد لمن هو أصغر منه، ويخشى ما يصيبه من جراء انقياده لو سلست له كبرياؤه.

* * *

وليس من العلل التى تنسى فى هذا المقام أنه كان زوجًا لأخت أبى سفيان، وأن ولديه

كانا متزوجين لرقية وأم كلثوم كريمتى رسول الله، وبين الزوجتين والزوجة إحن لا تهدأ، ولا تزال تتحين الفرصة للوقيعة والتفرقة والعداء

وأيا ما كان من أبى لهب، فهو الشذوذ الذى يستغرب ألا يكون، وليس يالغريب أن يكون!

وأشهر أبناء الأسرة من غير الأعمام ابن عمه الحبيب وابنه بالتربية على بن أبى طالب رضوان الله عليه، وصفاته وكفاياته نأخذ من كل سيد من ساداتها بنصيب: شجاعة وطيبة وفهم وإقبال على المعرفة وإيثار للمعروف..

أسرة لا تخرج النبوة، وما خرجت قط، من خير منها..

ونشأة النبى عليه السلام فيها أصدق المقدمات التى قلنا إنها مقدمات التمهيد والتحضير.

إلا أنها كسائر المقدمات التى مهدت من جانب لتقيم المصاعب كلها من جانب آخر..

أسرة عزيزة الآباء والأجداد، فخرها بالنسب أعظم من كل فخر، وسيادتها بالخلائق الموروثة أثبت من كل سيادة. ثم ينشأ لها من بينها نبى ينعى على الآباء والأجداد ما كانوا عليه من ضلالة، وينكر من الأبناء أن يسلكوا مسلكهم ويهيموا على آثارهم، ويقول لهم كما قال إبراهيم:

(لقد كنتم أنتم وآباؤكم فى ضلال مبين).

ويهيب بمن آمن منهم: (يأيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وإخوانكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان).

ويدعوهم أن يتبعوا ما أنزل الله لأن آباءهم لا يعقلون: (وإذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا. أو لو كان آباؤهم لايعقلون شيئًا ولا يهتدون).

* * *

لقد نشأ محمد فى الأسرة التى تعطيه خير ما تعطى الأسر بنيها.

ولكنه جاءها بالنبوة التى لا يعطيها غير الله!

وكانت الأسرة تمهيدًا له فيما ورث منها.

ولكنها وما ورثت من قومها هى عقبة الأرض التى تمهدها السماء.

والدا النبى

تلك هى الأسرة العامة التى شملت الأجداد والأعمام، وللنبى صلوات الله عليه، مع هذه الأسرة العامة، أسرة خاصة من أبويه الشريفين عبد الله وآمنة..

ولم يعقب التاريخ كثيرًا من أنباء هذين الأبوين الشريفين، ولكنه أعقب لنا ما فيه الكفاية لبيان أثرهما النفسانى فى وجدان ولدهما العظيم.

ندرت فى أبوات العظماء أبوة كأبوة عبد الله بن عبد المطلب، ونكاد نقول إنها مرت بغير نظير فيما وعيناه من تواريخ الأنبياء والهداة من كل قبيل.

فتى لم يكد ينجو من الموت ذبيحًا حتى مات بعيدًا عن زوجه التى فارقها عروسًا وعن ولده الذى لم تره عيناه.

لكأنما وجد هذا الفتى فى الدنيا ليعقب ذرية تريدها العناية الإلهية، ثم يتركها فى كلاءة تلك العناية لقدر لا تغنى فيه عناية الآباء.

وفى تاريخ الأنبياء أب عاش حتى شهد بعثة ابنه فأنكرها وتواطأ مع قومه على خذلانها، فبقيت ذكراه خيبة أمل وحيرة لمن يجل الدعوة ويجل إبراهيم.

فأما هذه الأبوة فالرحمة فيها تملأ مكان الخيبة، والبر بالذكرى يملأ مكان الحيرة ويتطلع وراءه إلى الأسى على الفقيد والعزاء للوليد الوحيد.

وحياة لا تشبع سجل الحوادث والخطوب، ولكن النفس تشبعها بما يعوضها عن حوادثها وخطوبها حبًّا سابغًا وجمالا يفتن فيه الحس والخيال.

وهذا الذى صنعته بديهة الحياة الصادقة فلم تدع سيرة عبد الله حتى أودعتها من الخواطر والأمانى ما تزدحم به أعمار طوال، فما تمناه له المحزونون على صباه وتقواه يفيض فى جوانب سيرته تمتلئ به مائة حياة.

قيل فى بعض ما قيل من هذه الخواطر والأمانى «إنه لما انصرف مع أبيه بعد أن فداه بنحر مائة من الإبل لرؤيا رآها، مر على امرأة كاهنة متهودة قد قرأت فى الكتب، يقال لها فاطمة، فقالت له حين نظرت إلى وجهه - وكان أحسن رجل فى قريش - لك مثل الإبل التى نحرت عنك وأبذل لك نفسى، لما رأت فى وجهه من نور النبوة ورجت أن تحمل بهذا النبى الكريم صلى الله عليه وسلم فأجابها بقوله:

أما الحرام فالممات دونه والحل لا حل فأستبينه
فكيف بالأمر الذى تبغينه يحمى الكريم عرضه ودينه

ثم خرج به عبد المطلب حتى أتى به وهب بن عبد مناف بن زهرة وهو يومئذ سيد زهرة نسبًا وشرفًا فزوجه ابنته آمنة وهى يومئذ أفضل امرأة من قريش نسبًا وموضعًا، فحملت برسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج من عندها فمر بالمرأة التى عرضت عليه ما عرضت فقال لها: «مالك لا تعرضين علىّ ما عرضت بالأمس، فقالت فارقك النور الذى كان معك فليس لى بذلك اليوم حاجة. إنما أردت أن يكون النور فى، فأبى الله إلا أن يجعله حيث شاء».

وفى أسانيد ابن هشام أن عبد الله «إنما دخل على امرأة كانت له مع آمنة بنت وهب، وقد عمل فى طين له وبه آثار من الطين فدعاها فأبطأت عليه لما رأت به من أثر الطين، فخرج من عندها فتوضأ وغسل ما كان به ثم خرج عائدًا إلى آمنة فمر بامرأته الأولى فدعته فلم يجبها وعمد إلى آمنة فحملت بمحمد صلى الله عليه وسلم، ثم مر بامرأته تلك.. فقالت له: مررت وبين عينيك غرة بيضاء فدعوتك فأبيت».

قال إسحاق بن يسار صاحب الخبر: «فزعموا أن امرأته تلك كانت تحدث أنه مر بها وبين عينيه غرة مثل غرة الفرس. قالت: فدعوته رجاء أن تكون لى، فأبى على، ودخل على آمنة فحملت برسول الله..».

وجاء فى غير خبر أن فتيات مكة ذهبت بهن الحسرة لزواج عبد الله من آمنة، وكانت كل فتاة منهن تتمناه زوجا لها لجماله وتحدث الناس بفدائه.

وفى كل هذه الأخبار قسط من الصحة لا نهمله ولا نسوى بين رواية السير له وبين خلوها منه، فإن مجيئه فى السير يثبت لنا معنى صادق الدلالة وإن يكن غير معناه

المقصود: يثبت لنا لونا من شعور الناس بصاحب السيرة ولونا من تعبيرهم عن ذلك الشعور، ومن كان هذا المعنى لغوا عنده فخير له أن يتجنب السير والتواريخ.

وأما حكم الواقع على حدوث الخبر فحسبنا فيه حكم القرآن الكريم الذى يبطل علم الكهان بالغيب كما ينكره على أعوانهم من الجان، وفى سورة سبأ عن سليمان بن دواد عليهما السلام: (فلما قضينا عليه الموت ما دلهم على موته إلا دابة الأرض تأكل منسأته فلما خر تبينت الجن أن لو كانت يعلمون الغيب ما لبثوا فى العذاب المهين).

والقرآن الكريم يقول فى غير موضع إنه لا يعلم الغيب إلا الله، ويقول بلسان النبى: ولا أعلم الغيب.

فلا كاهن يعلم من أمر الدنيا سرًّا من أسرار الغيب فضلا عن أمر النبوة والرسالة والكاهنة التى تريد أن تحمل بنبى لا يخطر لها أن تحمل به سفاحًا فيقول لها عبد الله:

أما الحرام فالممات دونه   والحل لا حل فأستبينه

وأما أن تكون زوجة ثم لا ترى من زوجها تلك الغرة قبل ذهابها ثم تأبى معاشرته بعد ذهابها – فليس مما يجوز تصديقه من شئون الزواج.

فالقصة كلها، وما شابهها من القصص، رغوة وزبد وزبدتها جمال عبد الله وأسى النفوس لما فات ذلك الجمال فى عنفوان صباه.

ولا نكران لما كان عليه عبد الله من الوسامة والوضاءة وغضارة الشباب سواء حفظت لنا السيرة قصة من تلك القصص أو جاءتنا غفلا منها، فقد حفظت لنا رؤية العيان أنه كان هو وإخوته يطوفون بالكعبة مع أبيهم فيأخذون الأبصار، ولم يصف الواصفون بنى هاشم بدمامة أو معابة فى الخلق والصورة حتى فيما وصفهم به الشانئون وطلاب العيوب.

* * *

وفيما وصل إلينا من سيرته قصة غير تلك القصص لا قبل للمبالغة وحدها بأن تخلقها، لأنها تحتاج إلى افتنان فى وصفها وتحتاج – مع الافتنان – إلى مصلحة مفروضة تدعو إلى اختلاقها، أو علة من العلل المعروفة تفسر لنا ذلك الاختلاق.

وتلك هى قصة النذر التى أوردناها فى الكلام على الكعبة، وهى تقوم بديوان جامع من القصص للتعريف بخلائق عبد الله.

وليس يكفى فى معيار النقد التاريخى أن يكون اختراع القصة ممكنا ليقال إنها مخترعة، فإن اتهام كل خبر بالاختراع لأنه يجوز أن يخترع يسقط أخبار التاريخ كله فى الزمن القديم وفى الزمن الحديث، وإنما يظن الاختراع بالخبر لمسوغ يدعو إلى الشك فيه، ولمصلحة توجب اختراعه وتضطرنا اضطرارا إلى نفيه على ثقة أو على ترجيح.

وهذه القصة بعينها ينبغى قبل نفيها أن نعرف مصلحة المسلم أو الجاهلى فى اختراعها وإلصاقها بعبد المطلب وعبد الله، فقد قيل إنها اخترعت لتصوير عبد الله أبى النبى فى صورة الذبيح إسماعيل، وقيل إنها لم تظهر فى الجاهلية قبل البعثة الإسلامية.

فهل من مصلحة مسلم أن يختلق القصة ليقول إن جد النبى أوشك أن يذبح أباه قربانًا للأصنام؟

وهل من مصلحة جاهلى أن يبدع الافتنان فى القصة وفى وسيلة الخلاص سن الفداء لينكر على سدنة الكعبة قدرتهم على استخبار أربابها ويرجع بالفضل فى الوسيلة والاستخبار إلى كاهنة خيبرية تفتى لهم فى شئون عباداتهم وأبنائهم حيث يعجزون عن الفتيا وهم مفتقرون إليها؟

ولم هذا التخصيص بعبد المطلب وعبد الله؟.. ومن الذى كان عنده من قدرة الافتنان فى القصص مثل هذه القدرة، ثم خفى أمره، ولم تأت منه أفنونة مثلها فى زمانها؟..

وهناك مسوغ آخر للظن يبدر إلى الذهن إذا كانت هذه القصة قد حدثت لأحد قبل عصر عبد المطلب ثم نقلت إليه، كما حدث كثيرًا فى القصص المتكررة التى تروى عن أناس متفرقين، ولكن هذه القصة بذاتها لم ترد بها الرواية فى بلاد العرب أو غيرها عن أحد غير عبد الله، وليست هى مما يوضع فى بلاد لم تعهد السهام وضرب القداح والفداء بالإبل والتقرب إلى كعبة تجمع الأصنام من هبل إلى نائلة إلى أساف. فلماذا اخترعت فى بلاد العرب وخص عبد الله باختراعها عليه؟

إن لم تكن هناك شبهة من هذه الشبهات ومسوغ من هذه المسوغات فقبول القصة

أولى من رفضها، وتأليفها على هذا الافتتان لغير قصد معلوم أصعب فى وقوعها، وقد تساق فى معرض ترجيحها وتداولها إلى منتصف القرن الأول للهجرة رواية للطبرى يقول فيها بعد سند متصل: «إن ابن عباس سألته امرأة أنها نذرت ذبح ولدها عند الكعبة فأمرها بذبح مائة من الإبل وذكر لها هذه القصة عن عبد المطلب، وسألت عبد الله ابن عمر فلم يفتها بشىء بل توقف. فبلغ ذلك مروان بن الحكم وهو أمير على المدينة فقال إنهما لم يصيبا الفتيا، ثم أمر المرأة أن تعمل ما استطاعت من خير ونهاها عن ذبح ولدها ولم يأمرها بذبح الإبل وأخذ الناس بقول مروان»..

والحق بين رفض القصة وقبولها أنه لا موجب لرفضها وليس فى قبولها ما يخالف مألوفًا من مألوفات زمانها. وقد كان نذر عبد المطلب طلبًا عزيزًا من الإله يبذل له فديته، وكان الوفاء من فضائله المأثورة وكان مع الوفاء بالنذر إيمان بسوء العقبى وحذر من أن يصيب الجزاء أبناءه جميعًا، فليس فى هذا الوفاء خليقة تختلق لأنها فوق طاقة الإنسان.

ومن ارتضى قصة النذر هذه فنصيب عبد الله عنده أعظم من نصيب أبيه، لأنه سلم حياته فدية لإخوته ولم ينكص عن طاعة أب وطاعة رب. ومن يفعل ذلك ينبئ عن إيمان قوى بالواجب وإقدام على الموت فى ريعان الشباب، وقد كان له أن يتمحل المعاذير فلا تعوزه الحيلة، فكأى من رجل لا ينكر الدين ولا يمرق منه إذا سامه الدين ما يعز عليه لم تتعذر عليه الحجة للتحلل من فرائضه والاجتراء على أوامره ونواهيه.

على أن الملاحظة التى تستوقف النظر من أمر هذه الأسرة القوية المباركة أن أخبارها المتناثرة التى ترسل إرسالا فى المناسبات المتفرقة أدل عليها من الأخبار التى تنتظم فى مناسبة واحدة وتحتمل مظنة الوضع والتأليف. ومهما تتناثر الأخبار عن أحوالها فى الجاهلية تخلص بنا إلى خصلة ملحوظة فى جميع هذه الأخبار وهى «النظام» الذى تتوخاه فى معاملاتها وعلاقات أفرادها على البديهة بغير تدبير مقصود.

فمن هنا كلمة، ومن هناك خبر، ومن جوانب شتى أحاديث وروايات، وكلها ينطبع بهذا الطابع بغير شذوذ حتى حين ينتظر الشذوذ ولا يستغرب. فأبو لهب نفسه – وهو الخارج على إجماع الأسرة – يأبى فى مجلس قريش أن يسام أخوه الكبير – أبو طالب – ما لم يتعوده من الطاعة والتوقير، ويحضر مجلس الأسرة فلا يزيد على كلمة يقولها حين

يسمع من أخيه أن ينصر محمدًا ولا يستمع فيه لملامة بعيد أو قريب، ثم ينصرف من المجلس وهو كظم.

أما فى سائر مجامع الأسرة فالطاعة والتوقير سنة لا يخالفها صغار الأسرة فى مجالس كبارها، فإذا جلس عميدها جلسوا وراءه وصمتوا فى حضرته لا يبدءون بالكلام إلا أن يدعوهم إليه. ومن هنا عجبهم أن يقبل الغلام اليتيم إلى مجلس جده فيقصد إليه ويجلس إلى جواره، وهم مع علمهم بإشفاق الجد عليه وتدليله إياه يستدعونه إليهم ليجلس معهم حتى يأمرهم الجد فيسكتوا عنه وهم لا يقلون إشفاقا عليه.

ومن نظام الأسرة أن عبد الله خرج بعد زاوجه مع أول قافلة حان موعدها ولم يتخلف عامه ذاك إلى عام قابل، وهو لما يفرغ من عرسه الذى كان خليقًا أن يطيله تلهف أبيه وآله على حياته بعد اليأس منه فى قصة النذر المشهور، فخرج مع القافلة ولما ينقض على زفافه أسبوعان على أرجح الأقوال.

ولا شيء أشبه بالواقع المنظور فى قصة زواج عبد الله بعد الوفاء بنذره واستبقاء حياته، فإن أباه - لا جرم - قد امتلأت نفسه زمنًا بشبح الموت يطيف بولده الحبيب إليه، فليس أقرب إلى خاطره من تعويض ذلك الشعور الجاثم على صدره بالاطمئنان على بقاء فتاه، والغبطة بدوامه ودوام ذريته من بعده، ولا سيما الدوام بعد النذر الذى كان مبعثه تعيير الشانئين بقلة الذرية، وابتئاس الأب خوفًا من انقطاع العقب مع ولد وحيد.

واختار الأب زوجة عبد الله من بنى زهرة أحلاف بنى هاشم والمطلب فى كل خلاف: زوجة آمنة بنت وهب أعرق بنى زهرة نسبًا وأكرمها محتدًا ومدره العشيرة كلها فى مجامع قريش، وينتهى نسبه لأبيه وأمه إلى عبد مناف، وقد فخر رسول الله بانتسابه إلى هذه الأمومة فقال: «أنا ابن العواتك من سليم».

* * *

روى الإمام أبو نعيم الحافظ فى كتاب دلائل النبوة بعد إسناد متصل: «إن عبد المطلب قدم اليمن فى رحلة الشتاء فنزل على حبر من اليهود. قال: فقال لى رجل من أهل الديور - يعنى أهل الكتاب - يا عبد المطلب! أتأذن لى أن أنظر إلى بعضك؟ قال: نعم إذا لم يكن عورة، قال: ففتح إحدى منخرى فنظر فيه ثم نظر فى الآخر فقال:

أشهد أن فى إحدى يديك ملكًا وفى الأخرى نبوة، وإنا نجد ذلك فى بنى زهرة فكيف ذلك؟ قلت لا أدرى! قال هل لك من شاغة؟ قلت وما الشاغة؟ قال زوجة! قلت: أما اليوم فلا. قال فإذا رجعت فتزوج فيهم، فرجع عبد المطلب فتزوج هالة بنت وهب ابن عبد مناف بن زهرة فولدت حمزة وصفية، ثم تزوج عبد الله بن عبد المطلب آمنه بنت وهب فولدت رسول الله، فقالت قريش حين تزوج عبد الله بآمنة: فلج – أى فاز – وغلب عبد الله على أبيه».

وهذا مثل من الأخبار التى لا تثبت على النظر، وتبنى على حقيقة ثابتة وهى اتصال النسب بين آل عبد المطلب وآل وهب، واتصال البيتين فى الحياة الزوجية لما كان من الاتصال بينهما فى الحياة العامة، ولم يأت هذا الاتصال القديم بنبوءة من ناسك فى اليمن تنكشف من النظر فى منخرين.

* * *

انتقل عبد الله بعروسه من حى وهب إلى حى عبد المطلب بعد أيام العرس، فلم يطل فيه البقاء إلا ريثما أذن مؤذن القافلة بالرحيل.

ولم يعد من رحلته تلك إلى داره. فإنها كانت الرحلة الأخيرة لكل راحل أو قاعد فى هذه الحياة: رحلة من ظاهر الأرض إلى جوف الضريح.

وولد النبى عليه السلام بعد موت أبيه على أشهر الروايات، فأرضعته أمه، وأرضعته معها ثويبة جارية عمه أبى لهب، ثم عهد به إلى حليمة بنت ذؤيب تستتم رضاعه فى بادية قومها بنى سعد على سنة العلية من أشراق مكة، يبتغون النشأة السليمة واللغة الصحيحة بعيدًا من أخلاط مكة وأهوائها. ولم يكن الطفل اليتيم على يسار لأن أباه مات فى مقتبل الشباب، ولكن أسرة أبيه وأسرة أمه تكلفتا بنشأته كما ينشأ أبناء السراة من قريش، فأخذته المرضعة بعد تردد، ثم أعادته إلى مكة قبل أن يبلغ الثالثة، لأنها سمعت من ابنها أن أخاه القرشى قد صرع وهو معه، وأن رجلين أخذاه فإذا هما يشقان بطنه ولا يزالان يسوطانه، فلما ذهبت إليه حيث تركه ابنها وجدته قائمًا ممتقع الوجه، فبادرت به إلى مكة مخافة عليه، وطلبت إليها أمه أن تعود به إلى البادية، تخشى على الطفل من هواء البلد ولا تخشى عليه من ذلك الخطر الذى خشيته المرضع الرءوم، بعدما سمعته من ابنها ورأته من

امتقاع لون الوليد القرشى وقيامه منفردًا فى الخلاء، فلما عادت به إلى البادية أتم رضاعة فيها ولبث معها إلى الخامسة أو قبلها بقليل، وتكلم وجرى لسانه بالعربية الفصحى وهو بين بنى سعد، فذاك فخره بعد النبوة إذ يعجب الصحابة من فصاحته فلا يرى عليه السلام عجبًا فى فصاحة عربى نشأ فى بنى سعد وتربى فى الذؤابة من قريش.

* * *

ولم يكد الصبى يطمئن إلى جوار أمه بعد عودته من البادية حتى فقدها وهما فى زيارة لقبر أبيه بالمدينة.

وما كان قد بقى فى الدنيا للفتاة الأيم غير هذا الصبى وذكرى أبيه الراحل فى غربتين: غربة الموت وغربة المكان.

فخرجت به ضيفا تزور الفقيد الراحل فى مثواه وتحسبه مشوقًا تحت طباق الأرض إلى رؤية الوليد الذى لم تبصره عيناه تحت شمس النهار.

وكذلك تزير الوليد اليتيم أباه.

فلما قضت حق الزيارة ولبثت فى جيرة أخوال عبد الله شهرًا أو بعض شهر، قفلت بوليدها راجعة إلى مكة، فماتت ودفنت فى الطريق.

وكل ما وعته السيرة من مرضها أنها وعكت فى لفحة السموم فلم تطل بها الوعكة غير أيام.

* * *

ومن اليسير أن نعلم وقع هذه الفاجعة فى نفس الصبى اليتيم، يتجدد له مصابه فى أبيه فلا يكاد يبرح حتى يقف على ضريح أمه مهجورًا فى عرض الطريق.

إلا أن هذه الفاجعة بما تدل عليه، أهم فى دراستنا هذه مما خلقته فى نفس الصبى الصغير.

مصابه فى أبيه ومصابه فى أمه، ولم يزل صبيًا صغيرًا حين أطبق عليهما مصابه فى جده الذى ضمه إليه بعد فقد أبويه.

لو نفس صغيرة تتابعت عليها هذه الضربات فى صباها لسحقتها واستنزفت كل ما حوته من عطف وأمل، فلا نعيش - إن عاشت بضرباتها - إلا كما يعيش الأشباح فى ظلمات الحياة.

فإذا وجبت لنا وقفة عند هذه الضربات التى تلقاها الصبى فأول ما نقف لديه وأولاه بالوقوف الطويل أنها دلالة على القوة فى مكمنها وعلى الروح العظيم الذى تجلى بعد ذلك فى تاريخ بنى الإنسان، كفؤا لأعظم الأعباء وأفدح الخطوب.

وتلت ذلك وقفتنا أمام العطف الذى أفادته تلك النفس القوية من ضربات تسحق ما دونها وتنزف منها كل عطف وأمل.

* * *

وقد خرج الصبى من تلك الضربات القاصمة بالعاطفة الزاخرة التى تشمل العالمين: عالم الحياة وما بعد الحياة، مذ كان أحب الناس إليه فى عالم آخر لا تبديه له هذه الحياة، وجاءت بعثته إلى الناس كافة باسم الله الرحمن الرحيم.

ولعله أول فتح أطل عليه من فتوح عالم الغيب فاستمد منه بعد ذلك قوته التى دان لها هذا العالم المشهود.

دنياه بعد ذلك أوسع من دنيا الناس وأعم من دنيا الأحياء، وحاجز الموت عنده برزخ تتصل به الدنيا والآخرة ويعيش فيه الحى والميت، ولا ينتقل فيه الخلق فى دنياهم ليهلكوا آخر الدهر بل ليعيشوا آخر الدهر خالدين.

وقليل فى جنب هذا فائدة العطف الذى عهدناه من صباه إلى ختام حياته يحيط به كل إنسان وكل حى وكل شىء. وإنما يترجم عنه عطفه على حاضنته وعلى مرضعته وعلى كل باق من بقايا أمه وأبيه، ولم يزل يترجم عنه عطفه الذى لم يحرمه أحد قط، من صاحب أو صديق.

ولا ندع الكلام على الأسرة النبوية وفى الخاطر سؤال توحى إلينا أن نسأله، وأن نجيب عنه ما استطعنا الجواب.

لقد مات عبد الله وآمنة ولما يجاوزا الخامسة والعشرين. ولا يكون الموت فى هذه السن

إلا علامة على الضعف والهزال، وإن لم يكن من مرض يستنفد الأجل فى عنفوان الشباب.

فهل كان محمد عليه السلام سليل أبوين ضعيفين هزيلين؟

إن لم تكن غرابة الالتقاء بين الأبوين على هذا الضعف كافية لدفع هذا الظن فلا حاجة إلى دافع له غير حياة الوليد، بما استوفته من قوة الروح وقوة الجثمان.

وقد سأل أناس من كتّاب الغرب هذا السؤال وخيل إليهم أنهم وجدوا جوابه فى قصة الصرع المزعوم قبل الفطام، وفيما كان يعروه من برحاء الوحى التى وصفها الأقربون منه، وأيسرها أنه كان عليه السلام يرعد ويضطرب ويتقاطر منه فى اليوم الشاتى عرق كحب الجمان.

وعجيب أن يصاب الإنسان بصرع لا يعروه غير مرة واحدة فى سن الرضاع، ثم لا يعاوده مرة أخرى إلى قرابة الأربعين.

وأعجب منه أن يصاب به بعد الأربعين فى حال واحدة: حين يتلقى الوحى، ثم لا يصاب به مرة فى غير تلك الحال.

ولكنه ليس بالعجب أن تجيش بنية اللحم والدم من أعماقها فى غاشية كغاشية الوحى كائنًا ما كان قوام البدن الذى تغشاه.

ولا نعلم أن أحدًا من الأنبياء وصف لنا كما وصف محمد عليه السلام، فى كل لمحة من لمحاته وفى كل حركة من حركاته، وفى يقظته ورقاده، وفى حديثه وصمته، وفى جلوسه ومسيره، وفى ركوبه وارتحاله، فلم تكن له صفة قط فى كل أولئك غير صفة البنية السوية والخلق القويم.

كان باتفاق جميع واصفيه فوق المربوع، بعيد ما بين المنكبين، غزير الشعر، تلمس جُمّته شحمة أذنيه، شثن الكفين والقدمين، ضخم الكراديس - أى ملتقى العظام، ولم يكن بالمطهَّم ولا بالمكلثم ، أدعج العينين، أهدب الأشفار، إذا مشى تقلع كأنما ينحط من صبب، ذريع الخطوة، سائل الأطراف[1].

---

(١) المطهم المنتفخ الوجه، والمكلثم المدور، والأهدب طويل أهداب العين مع انعطاف.

والنطق أبين عن حالات الصرع من سائر الصفات، وما وصف منطق النبى بشىء ينم على اضطراب فى عصب أو فى عضل أو ينبئ عن عرض من الأعراض غير سليم أو قويم: كان ضليع الفم، يتكلم بكلام بين فَصْل مفسر، إذا أشار بكفه كلها وإذا تعجب قلبها، وإذا تحدث اتصل بها - أى صحب كلامه بما يوافقه من حركتها - وإذا غضب أعرض وأشاح وإذا فرح غض طرفه، جل ضحكه التبسم، ليس بصخاب ولا يرتفع له صوت فى غير دعاء.

وهذه صفات كلامه من أكثر من عشرين مصدرًا، جمعها أبو عيسى الترمذى صاحب الشمائل المحمدية، ولم يأت بين ثناياها مساغ اشتباه فى عرض من أعراض خلل الصرع والاضطراب، بل هى كلها توكيد للمنطق السليم والخلق القويم.

* * *

الله أعلم حيث يجعل رسالته..

وقد جعلت رسالة محمد حيث ينبغى أن تكون - خَلقا وخُلقا - من ميراث الزمن وميراث الأجداد والآباء، فكل خلق وصف به فهو الصالح لأداء رسالته والنهوض بأمانته، إن تكن ضريبة من ضرائب العظمة الكبرى - ولابد لها من ضريبة - فتلك هى النقص فى نسله ليستوفى التمام من أمر هذه الذرية الباقية إلى يومنا، وبعد يومنا، جامعة واعية لكل تابع من تابعيه، وكل مولود له فى عالم الضمير من بنيه وغير بنيه.

وإنه لَعَلَى خلق عظيم..

وإنه لَعَلَى خلق قويم..

نتيجة النتائج

ونتيجة النتائج من مقدماتها جميعًا أن حوادث الدنيا وحوادث الجزيرة وحوادث الأسرة ، قد مهدت سبلاشتى للرسالة المحمدية، ولكنها مهدتها لتأتى الرسالة بعد ها فتثور عليها وتنكث غزلها، وتُعيدها على العالم الإنسانى فى نسج جديد.

يتيم فى غير ذلة..

عزيز فى غير قسوة..

يرث الكعبة ولكنه يهدم أربابها، ويرث الأريحية من يقين بنى هاشم ولكنه يغير مجراها، ويرث العصبية فى أقواها وأمنعها ولكنه يقودها إلى عصبية واحدة تضم إليها العرب والعجم، وتؤمن برب واحد هو رب العالمين.

وجائز أن يكون صاحب الرسالة قد عرف فى صباه كل دين من أديان الجزيرة العربية، ولكنه ليس بالجائز أن تُعلِّمه كيف ينكر أخطاءها، ويقوم التواءها ويترقى بها من أوشاب الشرك إلى صفاء التوحيد.

مهدت له الدنيا طريقًا ولكنه هداها إلى غير تلك الطريق.

فهما تمهيدان يتلاقيان ويفترقان: تمهيد من قوانين الكون وتمهيد من العناية الأزلية، وحيث ينهض رجل واحد بما يأباه قومه ويأباه معهم أقوام زمانه، ليست هى بإرادة إنسان ولكنها إرادة الله، وما هى بقدرة أحد أو آحاد ولكنها قدرة الخالق فيما خلق، يوليها من يشاء حيث شاء.

فهرس

عَبْقَرِيَّةُ مُحَمَّد

مقدمة

تعود بنا هذه المقدمة ثلاثين سنة، إلى اليوم الذى سمعت فيه أول اقتراح بتأليف كتاب عن محمد عليه السلام.

وكنت أقيم يومئذ فى ضاحية العباسية البحرية على مقربة من الساحة التى كانت معدة للاحتفال بالمولد النبوى فى كل عام.

ولنا رهط من الأصدقاء المشتغلين بالأدب يشتركون فى قراءة كتبه العربية والأفرنجية، ويترددون معًا على الأحياء الوطنية، وقلما يترددون على غيرها.. فلا يزالون متنقلين فترة بعد فترة بين الحى الحسينى والحى الزينبى، أو بين منشية القلعة، وضاحية العباسية، أو بين الروضة والخليج.. على حسب المناسبات، وعلى غير مناسبة فى كثير من الأوقات..

وكان رهطا له نقائض الدنيا مجتمعات: نقائض الشباب، ونقائض الحياة الفنية، ونقائض الاختلاف فى البيئة بين ناشئ فى العاصمة وناشئ فى الريف وناشئ فى الصعيد وناشئ فى الثغور، إلى غير ذلك من النقائض التى كانت حلية لهذه الجماعة، ولم تكن فيها من دواعى التفرق والشتات.

ومن عجائبها أن الذى كان يغريها بالأحياء الوطنية هو قراءتها فى الكتب الافرنجية التى كانت شائعة بينها، لأنهم كانوا يقرءون أكثر ما كانوا يقرءون كتب «دكنز» و«هازليت» و«لى هانت» و«كارليل».. وهم كتاب مولعون بعرض الأخلاق الاجتماعية ودراسة العادات المحلية وتمثيل الريفيين، والحضريين فى أوضاعهم المختلفة، ولهم فصول عن الأسواق، والدكاكين، والباعة، تفيض بحسن الملاحظة وبراعة الفكاهة ومتعة القراءة، وتعود من يدمن قراءتها أن يتحرى نظائرها حيثما رآها.

ففى يوم من أيام المولد – والرهط يزورنى لنؤم الساحة مجتمعين فى المساء – كان الكاتب الإنجليزى العظيم «توماس كارليل» هو محور الحديث كله، لأنه كما يعلم

الكثيرون بين قراء العربية صاحب كتاب «الأبطال» الذى عقد فيه فصلا عن النبى محمد عليه السلام، وجعله نموذج البطولة النبوية بين أبطال العالم الذين اختارهم للوصف والتدليل.

* * *

وإنا لنتذاكر آراءه ومواضع ثنائه على النبى، إذ بدرت من أحد الحاضرين الغرباء عن الرهط كلمة نابية غضبنا لها واستنكرناها لما فيها من سوء الأدب وسوء الذوق وسوء الطوية. وكان الفتى الذى بدرت منه الكلمة متحذلقًا يتظاهر بالمعرفة، ويحسب أن التطاول على الأنبياء من لوازم الاطلاع على الفلسفة والعلوم الحديثة.. فكان مما قاله شىء عن النبى والزواج، وشىء عن البطولة، فحواه أن بطولة محمد إنما هى بطولة سيف ودماء!

قلت «ويحك!.. ما سوغ أحد السيف كما سوغته أنت بهذه القولة النابية!».

وقال صديقنا المازنى: «بل السيف أكرم من هذا، وإنما سوغ صاحبنا شيئًا آخر يستحقه.. وأشار إلى قدمه!»

وارتفعت لهجة النقاش هنيهة، ثم هدأت بخروج الفتى صاحب الكلمة من الندى، واعتذاره قبل خروجه بتفسير كلامه على معنى مقبول، أو خيل إليه أنه مقبول.

وتساءلنا: ما بالنا نقنع بتمجيد «كارليل» للنبى، وهو كاتب غربى لا يفهمه كما نفهمه، ولا يعرف الإسلام كما نعرفه!؟ ثم سألنى بعض الإخوان: «ما بالك أنت يا فلان لا تضع لقراء العربية كتابًا عن محمد على النمط الحديث؟» قلت: «أفعل.. وأرجو أن يتم ذلك فى وقت قريب».

ولكنه لم يتم فى وقت قريب.. بل تم بعد ثلاثين سنة!.. وشاءت المصادفة العجيبة أن تتم فصوله فى مثل الأيام التى سمعت فيها الاقتراح لأول مرة.. فكتبت السطر الأخير فيه يوم مولد النبى على حسب الشهور الهجرية، واتفقت هذه المصادفة على غير تدبير منى ولا من أحد، لأنى لم أدبر لنفسى أوقات الفراغ التى هيأت لى إتمام فصوله وتقسيم العمل فيه يومًا بعد يوم.

* * *

والخيرة في الواقع..

والخيرة كذلك في هذا التأخير.

فإنني لو كتبته يومئذ لعدت إلى كتابته الآن من جديد، واحتجت إلى السنين الثلاثين أضيف خبرتها وقراءتها ورياضتها النفسية والفكرية إلى محصول ذلك العمر الباكر.. إذ هو عمر يستطيع المرء أن يمتلئ فيه إعجابًا بمحمد، لأنه عمر الإعجاب والحماسة الروحية. بيد أنه لا يستطيع أن يقيسه بمقياسه، وأن يشعر بشعوره في مثل تجاربه، وفي مثل السن التي اضطلع فيها بالرسالة. وإن تقارب السن هنا لضرورة لا غنى عنها لتقريب ذلك الشأو البعيد من شتى نواحيه.

أين كنا قبل تلك السنين الثلاثين؟.

إنها مسافات في عالم الفكر والروح.. لو تمثلت مكانًا منظورًا، لأخذ المرء رأسه بيديه من الدوار وامتداد النظر بغير قرار.

كم رأي؟.. كم مذهب؟.. كم وسواس؟.. كم محنة؟.. كم مراجعة؟.. كم زلزال يتضعضع له الكيان وتميد معه الدعائم والأركان؟. كم، وكم في ثلاثين سنة مما يطرق نفسًا لا تعفيها الحياة من التجارب والعوارض لمحة عين في نهار؟.. وكم لذلك كله من أثر في توطيد الرأي وتهدئة الثوائر وتجلية الغبار؟.. وكم يضيف ذلك كله إلى الشباب الباكر الذي كان يحلم يومئذ بالعظمة في كل أوج، وبالأوج المحمدي في عليا مراتب الأنبياء؟..

الخيرة في الواقع..

الخيرة في ذلك التأخير..

واليوم ونحن نضع كتابنا هذا عن «عبقرية محمد» بين يدي القراء، لا نقول إننا قد استوفيناه كما أردناه، ولا إننا فصلنا فيه الغرض الذي توخيناه.. ولكننا نقول إننا التزمنا فيه الباعث الذي أوحى الاقتراح بتأليفه لأول مرة. كأننا شرعنا في كتابته مساء ذلك اليوم قبل ثلاثين سنة، فكتبناه ونحن نستحضر في الذهن تبرئة المقام المحمدي من تلك الأقاويل التي يلغط بها الأغرار والجهلاء عن حذلقة أو سوء نية، ونظرنا اتفاقًا، فإذا بأطول الفصول فيه الفصلان اللذان شرحنا فيهما موقف محمد من الحرب ومن الحياة

الزوجية.. لأنهما كانا مثار اللغط تلك الليلة على مقربة من ساحة المولد، وكانا مثار اللغط فى كل ما ردده سفهاء الشانئين من الأصلاء والمقتدين فى هذا الباب..

* * *

فسيرى القارئ أن «عبقرية محمد» عنوان يؤدى معناه فى حدوده المقصودة ولا يتعداها. فليس الكتاب سيرة نبوية جديدة تضاف إلى السير العربية والإفرنجية التى حفلت بها «المكتبة المحمدية» حتى الآن.. لأننا لم نقصد وقائع السيرة لذاتها فى هذه الصفحات، على اعتقادنا أن المجال متسع لعشرات من الأسفار فى هذا الموضوع، ثم لا يقال إنه استنفد كل الاستنفاد.

وليس الكتاب شرحًا للإسلام أو لبعض أحكامه، أو دفاعًا عنه، أو مجادلة لخصومه.. فهذه أغراض مستوفاة فى مواطن شتى، يكتب فيها من هم ذووها ولهم دراية بها وقدرة عليها.

إنما الكتاب تقدير «لعبقرية محمد» بالمقدار الذى يدين به كل إنسان ولا يدين به المسلم وكفى، وبالحق الذى يبث له الحب فى قلب كل إنسان، وليس فى قلب كل مسلم وكفى..

فمحمد هنا عظيم.. لأنه قدوة المقتدين فى المناقب التى يتمناها المخلصون لجميع الناس.

عظيم لأنه على خلق عظيم.

وإيتاء العظمة حقها لازم فى كل آونة وبين كل قبيل.. ولكنه فى هذا الزمن وفى عالمنا هذا ألزم منه فى أزمنة أخرى، لسببين متقاربين لا لسبب واحد: أحدهما أن العالم اليوم أحوج ما كان إلى المصلحين النافعين لشعوبهم وللشعوب كافة.. ولن يتاح لمصلح أن يهدى قومه وهو مغموط الحق، معرض للجفوة والكنود.

والسبب الآخر أن الناس قد اجترءوا على العظمة فى زماننا بقدر حاجتهم إلى هدايتها.. فإن شيوع الحقوق العامة قد أغرى أناسًا من صغار النفوس بإنكار الحقوق

الخاصة، حقوق العلية النادرين الذين ينصفهم التمييز وتظلمهم المساواة.. والمساواة هى شرعة السواد الغالبة فى العصر الحديث.

* * *

ولقد جار هذا الفهم الخاطئ للمساواة على حقوق العظماء السابقين، كما جار على حقوق العظماء من الأحياء والمعاصرين. ثم أغرى الناس بالجور بعد الجور غرورهم بطرائف العصر الحديث، واعتقادهم أنه قد أتى بالجديد الناسخ للقديم فى كل شىء.. حتى فى ملكات النفوس والأذهان، وهى مزية خالدة لا ينسخ فيها الجديد القديم.

يرون أن البخار يلغى الشراع، وربما كان الاختراع السابق أدل على القدرة وأبين عن الفضل من الاختراع الذى تلاه، ولم يكن ليتلوه لولا ما تقدم عليه.

وينظرون إلى أقطاب الدنيا كأن الأصل فى النظر إليهم أن يتجنوا عليهم ويثلبوا كرامتهم، ولا يثوبوا إلى الاعتراف لهم بالفضل إلا مكرهين، بعد أن تفرغ عندهم وسائل التجنى والثلب والافتراء.

هذه الآفة تهبط بالخلق الإنسانى إلى الحضيض.

وتهبط بالرجاء فى إصلاح العيوب الخلقية والنفسية إلى ما دون الحضيض.

فماذا يساوى إنسان لا يساوى الإنسان العظيم شيئا لديه؟.. وأى معرفة بحق من الحقوق يناط بها الرجاء إذا كان حق العظمة بين الناس غير معروف؟.. وإذا ضاع العظيم بين أناس، فكيف لا يضيع بينهم الصغير؟..

* * *

لهذا كان تقدير محمد بالقياس الذى يفهمه المعاصرون ويتساوى فى إقراره المسلمون وغير المسلمين، نافعًا فى هذا الزمن الذى التوت فيه مقاييس التقدير.

إنه لنافع لمن يقدرون محمدًا، وليس بنافع لمحمد أن يقدروه.. لأنه فى عظمته الخالدة لا يضار بإنكار، ولا ينال منه بغى الجهلاء إلا كما نال منه بغى الكفار.

وإنه لنافع للمسلم أن يقدر محمدًا بالشواهد والبينات التى يراها غير المسلم؛ فلا يسعه

إلا أن يقدرها ويجرى على مجراه فيها.. لأن مسلما يقدر محمدًا على هذا النحو يحب محمدًا مرتين: مرة بحكم دينه الذى لا يشاركه فيه غيره، ومرة بحكم الشمائل الإنسانية التى يشترك فيها جميع الناس.

وحسبنا من «عبقرية محمد» أن نقيم البرهان على أن محمدًا عظيم فى كل ميزان: عظيم فى ميزان الدين، وعظيم فى ميزان العلم، وعظيم فى ميزان الشعور، وعظيم عند من يختلفون فى العقائد ولا يسعهم أن يختلفوا فى الطبائع الآدمية، إلا أن يرين العنت على الطبائع فتنحرف عن السّواء وهى خاسرة بانحرافها، ولا خسارة على السواء.

* * *

إن عمل محمد لكاف جد الكفاية لتخويله المكان الأسنى من التعظيم والإعجاب والثناء..

إنه نقل قومه من الإيمان بالأصنام إلى الإيمان بالله، ولم تكن أصنامًا كأصنام يونان يحسب للمعجب بها ذوق الجمال إن فاته أن يحسب له هدى الضمير.. ولكنها أصنام شائهات كتعاويذ السحر التى تفسد الأذواق وتفسد العقول.. فنقلهم محمد من عبادة هذه الدمامة إلى عبادة الحق الأعلى.. عبادة خالق الكون الذى لا خالق سواه، ونقل العالم كله من ركود إلى حركة ومن فوضى إلى نظام، ومن مهانة حيوانية إلى كرامة إنسانية، ولم ينقله هذه النقلة قبله ولا بعده أحد من أصحاب الدعوات.

* * *

إن عمله هذا لكاف لتخويله المكان الأسنى بين صفوة الأخيار الخالدين، فما من أحد يضن على صاحب هذا العمل بالتوقير ثم يجود بالتوقير على اسم إنسان.

إلا أننا نمضى خطوة وراء هذا، حين نقول إن التعظيم حق «لعبقرية محمد» ولو لم تقترن بعمل محمد.

لأن العبقرية قيمة فى النفس قبل أن تبرزها الأعمال ويكتب لها التوفيق، وهى وحدها قيمة يغالى بها التقويم.

* * *

فإذا رجح بمحمد ميزان العبقرية، وميزان العمل، وميزان العقيدة.. فهو نبى عظيم وبطل عظيم وإنسان عظيم.

وحسبنا من كتابنا هذا أن يكون بنانا تومئ إلى تلك العظمة فى آفاقها، فإن البنان لأقدر على الإشارة من الباع على الإحاطة، وأفضل من عجز المحيط طاقة المشير.

عباس محمود العقاد

علامات مولد

عالم

كان عالمًا متداعيًا قد شارف النهاية.. خلاصة ما يقال فيه إنه عالم فقد العقيدة كما فقد النظام.

أى أنه فقد أسباب الطمأنينة فى الباطن والظاهر.. طمأنينة الباطن التى تنشأ من الركون إلى قوة فى الغيب، تبسط العدل، وتحمى الضعف؛ وتجزى الظلم، وتختار الأصلح الأكمل من جميع الأمور.

وطمأنينة الظاهر التى تنشأ من الركون إلى دولة تقضى بالشريعة، وتفصل بين البغاة والأبرياء، وتحرس الطريق، وتخيف العابثين بالفساد..

بيزنطة قد خرجت من الدين إلى الجدل العقيم الذى أصبح بعد ذلك علمًا عليها، وتضاءلت سطوتها فى البر والبحر حتى طمع فيها من كان يحتمى بجوارها.

وفارس قد سخر فيها المجوس من دين المجوس.. وكمنت حول عرشها كوامن الغيلة، وبواعث الفتن، ونوازع الشهوات.

والحبشة ضائعة بين الأوثان المستعارة من الحضارة تارة ومن الهمجية تارة، وبين التوحيد الذى هو ضرب من عبادة الأوثان.. ثم هى بعد هذا التشويه فى الدين، ليست بذات رسالة فى الدنيا ولا بذات طور من أطوار التاريخ.. فليس لها عمل باق فى سجل الأعمال الباقيات.

عالم يتطلع إلى حال غير حاله.. عالم يتهيأ للتبديل أو للهدم ثم للبناء.

أمة

وبين هذه الدول المتداعيات، أمة ليست بذات دولة ولكنها تتأهب لإقامة دولة.. هى

أمة العرب وقد تيقظت لوجودها وشعرت بمكانتها، كما شعرت بالخطر عليها وبمواضع النقص منها.

فى أيديها تجارة العالمين كلها.

فإذا سارت القوافل من خليج فارس إلى بحر الروم، فهى تسير فى البادية بين حراس من العرب لا سلطان عليهم للدول المتداعية.. أو هم قد شعروا بذلك السلطان حيناً فى إبان الصولة الرومانية والصولة الفارسية، ثم علموا أنهم مالكون لزمامهم يرضون فتتصل الأرزاق بين المشرق والمغرب وبين المغرب والمشرق، ويغضبون فتبور التجارة وينضب المورد وتكسد الأسواق.

وإذا سارت القوافل من اليمن إلى الشام أو من بحر القلزم إلى بحر الروم؛ فهى فى جيرة الأعراب من كلتا الطريقين.

أمة تيقظت لوجودها، وعرفت شأنها بين من يحدقون بصحرائها.. ثم رأت هؤلاء المحيطين بها يجورون عليها، ويريدون إخضاعها وابتلاعها..

فهرقل الرومى يرسل إلى مكة من يحكمها، وأبرهة الحبشى يزحف إلى مكة بمن يهدم كعبتها ويستبدل بهاكعبة غيرها، وفارس تطغى على شرق البلاد وعلى جنوبها.

خطر من خارجها، يزيد الأمة يقظة وانتباها لوجودها.

وخطر من داخلها، يدفع بها دفعا إلى الزوال أو إلى استكمال النقص المستشرى فى حياتها..

مدينة واحدة تجتمع فيها ثروة الجزيرة، وعصبة واحدة من سادة القوم تجتمع فى أيديها ثروة المدينة.

حالة لا استقرار فيها.

فمن هنا الترف، والطمع، والخمر، والقمار، والمتعة، وتسخير الأقوياء للضعفاء..

ومن هنا الفاقة، والحسرة، والشك فى صلاح الأمور..

ولكنه شك يبحث ويضطرب، وليس بالشك الذى يستجم ويستكين.

فحيثما اجتمع أناس من أولى الرأى يذكرون العقيدة وطمأنينة الضمير، فهناك هاتف بينهم بسوء ما هم عليه. اجتمع أناس بنخلة لإحياء عيد العزى فقال رجل منهم لإخوانه: «لله ما قومكم على شيء وإنهم لفى ضلال.. فما حجر نطيف به لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع. ومن فوقه يجرى دم النحور. يا قوم التمسوا لكم ديناً غير هذا الدين الذى أنتم عليه». ثم تفرقوا، فمنهم من تنصر، ومنهم من اعتزل الأوثان، ومنهم من انتظر حتى سمع دعوة الإسلام فلباها.. وكان الذى تنصر وسمع دعوة الإسلام ورقة بن نوفل الذى كتب له أن يتلقى بشارة النبى العربى عند ظهوره ويلقى إليه بالبشارة.

هؤلاء شكوا وبحثوا عن العقيدة وطمأنينة الضمير..

وغيرهم شكوا وبحثوا عن وازع من الضمير، ووازع من السلطان فاجتمعت بنو هاشم وزهرة وتيم يتعاهدون باسم الله المنتقم ليكونن مع المظلوم حتى يؤدى إليه حقه.. وذلك حلف الفضول الذى شهده النبى العربى فى شبابه وقال فيه: «ما أحب أن يكون لى بحلف حضرته فى دار ابن جدعان حمر النعم».

حالة لا تستقر، ولا تزال فى طلب الاستقرار..

وأمة يقظى!..

وخطر محدق بها مما حولها، ومما هو فى دخائلها وأحشائها.

حالة تنذر بالزوال، وقلما تزول أمة يقظى فى أوان انتباهها.. فتلك إذن حالة للتبديل والتجديد.

قبيلة

وقبيلة تلك الأمة، فى تلك المدينة.. لها شعبتان:

إحداهما من أصحاب الترف والطمع واستبقاء ما هو قائم كما كان قائماً على هواها.

والأخرى من أصحاب التقوى والسماحة والتوسط بين مقام القوى الذى يجور ويطغى ويستبقى أداة الجور والطغيان، ومقام الضعيف الذى يحتمل الأذى ويصبر على الكريهة ولا يملك مع السيد الآمر إلا أن يذعن له ويأكل من فضلات يديه.

بيت

وبيت من تلك الشعبة الوسطى له كرم النسب العريق وليس له لؤم الثروة الجامحة والكبرياء الجائحة، والقسوة على من دونه من المحرومين.

ذلك هو بيت عبد المطلب من صميم قريش ومن ذؤابتها العليا، وإن لم يكن معدودا من أثرياء القبيلة القرشية فى ذلك الأوان..

ورأس هذا البيت – عبد المطلب – رجل قوى الخلق قوى الإيمان فيما آمن به، حكيم مع قوة طبعه وشدة إيمانه.. خليق أن ينجب العقب الذى يبشر بدعوة وينضح عن دين.

نذر لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند الكعبة.. ثم أحله قومه وأحلته العرافة من نذره، فأبى أن يتحلل حتى يستوثق من رضا الرب ورضا ضميره. سألتهم العرافة: «كم الدية فيكم؟».

قالوا: «عشر من الإبل».

قالت: «فتقربوا إذن بعشر من الإبل واضربوا على الفتى وعليها بالقداح.. فإن خرجت على صاحبكم فزيدوا من الإبل حتى يرضى ربكم» فما زالوا يزيدون حتى بلغت الإبل مائة وخرجت القداح عليها. فهتفت قريش بعبد المطلب: «لقد رضى ربك.. فأطلق فتاك». وكان خليقاً بمن يريد أن يتحلل ويتعلل أن يقبل ولا حرج عليه، ولكن عبد المطلب لم يكن من المتحللين المتعللين، فأبى إلا أن يضرب عليها القداح ثلاث مرات، ثم نحرت الإبل للجياع من الأناسى والسباع.

وجاء القائد الحبشى يهدم الكعبة ويسطو على الإبل والشاة.. فلما سأله عبد المطلب أن يرد إبله. قال له مقال السياسى المحرج المداور بالكلام: «أراك تسأل عن إبلك ولا تسأل عن الكعبة!!».

فأجابه عبد المطلب جواب الحكيم المؤمن: «أما الإبل فأنا ربها، وأما البيت فله رب يحميه!!».

فكان إيمانه إيماناً كفؤا لدهاء السياسة، ولم يكن إيمان العجز والتواكل والاستسلام..

ومن كان له هذا الخلق، وهذا الضمير، وهذا الإيمان، وهذه الرئاسة فليس من عجب أن ينجب نبيًّا فى زمان يستدعى الأنبياء، ومكان مهيئ لهم دون كل مكان.. بل العجب أن يكون الأمر غير ما كان.

أب

وإذا كان عبد المطلب جدًّا صالحا لنبى كريم، فابنه عبد الله نعم الأب لذلك النبى الكريم.

لكأنما كان بضعة من عالم الغيب، أرسلت إلى هذه الدنيا لتعقب فيها نبيا وهى لا تراه.. ثم تعود.

كان إنساناً من طينة الشهداء، يتجه إلى القلب الإنسانى بكل ما فيه من حب وحنو ورحمة. فهو الفتى الذى اسمه عبد الله والذى اختير للفداء، فجاشت له شفقة قومه حتى تركه لهم القدر إلى حين. وهو الفتى الذى تحدثت الفتيات فى الخدور بوسامته وحيائه، وودت مئات منهن لو نعمن منه بنعمة الزواج. وهو الفتى الذى أقام مع عروسه ثلاثة أيام، ثم سافر ليتجر فإذا هى السفرة التى لا يؤوب منها الذاهبون. وهو الفتى الذى مات وهو غريب، وولد له نسله الكريم وهو دفين.. وهكذا تتمثل البصائر الخاشعة آباء الأنبياء والسلالة التى تصل بين الآخرة والدنيا وبين عالم البقاء وعالم الفناء.

رجل

عالم يتطلع إلى نبى.. وأمة تتطلع إلى نبى، ومدينة تتطلع إلى نبى، وقبيلة وبيت وأبوان أصلح ما يكونون لإنجاب ذلك النبى.

ثم هاهو ذا رجل لا يشركه رجل آخر فى صفاته ومقدماته، ولا يدانيه رجل آخر فى مناقبه الفضلى التى هيأته لتلك الرسالة الروحية المأمولة فى المدينة، وفى الجزيرة، وفى العالم بأسره.

نبيل عريق النسب.. وليس بالوضيع الخامل، فيصغر قدره فى أمة الأنساب والأحساب.

فقير.. وليس بالغنى المترف فيطغيه بأس النبلاء والأغنياء، ويغلق قلبه ما يغلق القلوب من جشع القوة واليسار.

يتيم بين رحماء.. وليس هو بالمدلل الذى يقتل فيه التدليل ملكة الجد والإرادة والاستقلال، وليس هو بالمهجور المنبوذ الذى تقتل فيه القسوة روح الأمل وعزة النفس وسليقة الطموح وفضيلة العطف على الآخرين.

خبير بكل ما يختبره العرب من ضرب العيش فى البادية والحاضرة.. تربى فى الصحراء وألف المدينة، ورعى القطعان، واشتغل بالتجارة، وشهد الحروب والأحلاف، واقترب من السراة ولم يبتعد من الفقراء.

فهو خلاصة الكفاية العربية فى خير ما تكون عليه الكفاية العربية..

وهو على صلة بالدنيا التى أحاطت بقومه.. فلا هو يجهلها فيغفل عنها، ولا هو يغامسها كل المغامسة فيغرق فى لجتها.

أصلح رجل من أصلح بيت فى أصلح زمان لرسالة النجاة المرقوبة، على غير علم من الدنيا التى ترقبها!

ذلك محمد بن عبد الله عليه السلام.

قد ظهر والمدينة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه والجزيرة مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه، والدنيا مهيأة لظهوره لأنها محتاجة إليه. وماذا من علامات الرسالة أصدق من هذه العلامة؟.. وماذا من تدبير المقادير أصدق من هذا التدبير؟.. وماذا من أساطير المخترعين للأساطير أعجب من هذا الواقع ومن هذا التوفيق؟.. علامات الرسالة الصادقة هى عقيدة تحتاج إليها الأمة، وهى أسباب تتمهد لظهورها، وهى رجل يضطلع بأمانتها فى أوانها..

فإذا تجمعت هذه العلامة فماذا يلجئنا إلى علامة غيرها؟.. وإذا تعذر عليها أن تجتمع فأى علامة غيرها تنوب عنها أو تعوض ما نقص منها؟

خلق محمد بن عبد الله ليكون رسولاً مبشراً بدين، وإلا فلأى شى خلق؟.. ولأى

عمل من أعمال هذه الحياة ترشحه كل هاتيك المقدمات والتوفيقات، وكل هاتيك المناقب والصفات؟

لو اشتغل بالتجارة طول حياته كما اشتغل بها فترة من الزمن، لكان تاجراً أميناً ناجحاً، موثوقاً به فى سوق التجار والشراة.. ولكن التجارة كانت تشغل بعض صفاته، ثم تظل صفاته العليا معطلة لا حاجة إليها فى هذا العمل مهما يتسع له المجال.

ولو اشتغل زعيماً بين قومه لصلح للزعامة، ولكن الزعامة لا تستوفى كل ما فيه من قدرة واستعداد.

فالذى أعده له زمانه وأعدته له فطرته هو الرسالة العالمية لا سواها، وما من أحد قد أعد فى هذه الدنيا لرسالة دينية إن لم يكن محمد قد أعد لها أكمل إعداد.

بشائر الرسالة

والمؤرخون يجهدون أقلامهم غاية الجهد فى استقصاء بشائر الرسالة المحمدية.. يسردون ما أكده الرواة منها وما لم يؤكدوه وما قبله الثقات منها وما لم يقبلوه، وما أيدته الحوادث أو ناقضته، وما وافقته العلوم الحديثة أو عارضته، ويتفرقون فى الرأى والهوى بين تفسير الإيمان وتفسير العيان وتفسير المعرفة وتفسير الجهالة، فهل يستطيعون أن يختلفوا لحظة واحدة فى آثار تلك البشائر التى سبقت الميلاد أو صاحبت الميلاد حين ظهرت الدعوة واستفاض أمر الإسلام؟

لا موضع هنا لاختلاف.

فما من بشارة قط من تلك البشائر كان لها أثر فى إقناع أحد بالرسالة يوم صدع النبى بالرسالة، أو كان ثبوت الإسلام متوقفًا عليها.

لأن الذين شهدوا العلامات المزعومة يوم الميلاد، لم يعرفوا يومئذ مغزاها ومؤداها، ولا عرفوا أنها علامة على شى أو على رسالة ستأتى بعد أربعين سنة.

ولأن الذين سمعوا بالدعوة وأصاخو إلى الرسالة بعد البشائر بأربعين سنة، لم يشهدوا بشارة واحدة منها ولم يحتاجوا إلى شهودها ليؤمنوا بصدق ما سمعوه واحتاجوا إليه

وقد ولد مع النبى عليه السلام أطفال كثيرون فى مشارق الأرض ومغاربها، فإذا جاز للمصدق أن ينسبها إلى مولده جاز للمكابر أن ينسبها إلى مولد غيره. ولم تفصل الحوادث بالحق بين المصدقين والمكابرين إلا بعد عشرات السنين.. يوم تأتى الدعوة بالآيات والبراهين غنية عن شهادة الشاهدين وإنكار الناكرين.

أما العلاقة التى لا التباس فيها ولا سبيل إلى إنكارها، فهى علامة الكون وعلامة التاريخ.

قالت حوادث الكون: لقد كانت الدنيا فى حاجة إلى رسالة..

وقالت حقائق التاريخ : لقد كان محمد هو صاحب تلك الرسالة..

ولا كلمة لقائل بعد علامة الكون وعلامة التاريخ.

عبقرية الداعي

اتفقت أحوال العالم إذن على انتظار رسالة..

واتفقت أحوال محمد على ترشيحه لتلك الرسالة..

وكان من الممكن أن تتفق أحوال العالم وأحوال محمد، وتتفق معها الوسائل التي تؤدي بها رسالته على أحسن الوجوه.

كان من الممكن أن ينتظر العالم الرسول، ثم لا يظهر الرسول.

وكان من الممكن أن يظهر الرسول في البيت الصالح وفي البيئة الصالحة، ثم لا تتهيأ له الصفات التي يتم بها أداء الرسالة.

ولكن الذي اتفق في رسالة محمد قد كان أعجب أعاجيب الاتفاق، وكان المعجزة التي تفوق المعجزات.. لأنها مع ضخامتها وتعدد أجزائها وتوافق تلك الأجزاء جميعها، مما يقبله العقل قبولاً سائغاً بغير عنت ولا استكراه.

فكان محمد مستكملاً للصفات التي لا غنى عنها في إنجاح كل رسالة عظيمة من رسالات التاريخ.

كانت له فصاحة اللسان واللغة.

وكانت له القدرة على تأليف القلوب وجمع الثقة..

وكانت له قوة الإيمان بدعوته وغيرته البالغة على نجاحها..

وهذه صفات للرسول غير أحوال الرسول. ولكنها هي التي عليها المدار في تبليغ الرسالة، ولو اتفقت فيما عداها جميع الأحوال.

الفصاحة

فالفصاحة صفة تجتمع للكلام، ولهيئة النطق بالكلام، ولموضوع الكلام.. فيكون الكلام

فصيحاً وهيئة النطق به غير فصيحة أو يكون الكلام والنطق به فصيحين، ثم لا تجتمع لموضوعه صفة الفصاحة السارية فى الأسماع والقلوب.

أما فصاحة محمد.. فقد تكاملت له فى كلامه، وفى هيئة نطقه بكلامه، وفى موضوع كلامه.

فكان أعرب العرب، كما قال عليه السلام: «أنا قرشى واسترضعت فى بنى سعد بن بكر».

فله من اللسان العربى أفصحه بهذه النشأة القرشية البدوية الخالصة.. وهذه هى فصاحة الكلام.

ولكن الرجل قد يكون عربيًا قرشيًا مسترضعًا فى بنى سعد ويكون نطقه بعد ذلك غير سليم، أو يكون صوته غير محبوب، أو يكون ترتيبه لكلماته غير مأنوس.. فيتاح له الكلام الجميل ثم يعوزه النطق الجميل.

أما محمد فقد كان جمال فصاحته فى نطقه كجمال فصاحته فى كلامه، وخير من وصفه بذلك عائشة رضى الله عنها حيث قالت: «ما كان رسول الله ﷺ يسرد كسردكم هذا، ولكن كان يتكلم بكلام بين فصل، يحفظه من جلس إليه».

واتفقت الروايات على تنزيه نطقه من عيوب الحروف ومخارجها، وقدرته على إيقاعها فى أحسن مواقعها.. فهو صاحب كلام سليم فى منطق سليم.

ولكن الرجل قد يكون عربيًا قرشيًا مسترضعًا فى بنى سعد، ويكون سليمًا فى كلامه سليمًا فى نطقه.. ثم لا يقول شيئًا يستحق أن يستمع إليه السامع فى موضوعه.

فهذا أيضًا قد تنزه عنه الرسول فى فصاحته السائغة من شتى نواحيها.. فما من حديث له حفظه لنا الرواة الثقات إلا وهو دليل صادق على أنه قد أوتى حقًا «جوامع الكلم»، ورزق من فصاحة الموضوع كفاء مارزق من فصاحة اللسان وفصاحة الكلام.

الوسامة والثقة

وكانت له مع الفصاحة صباحة ودماثة تحببانه إلى كل من رآه، وتجمعان إليه قلوب من

عاشروه. وهى صفة لم يختلف فيها صديق ولا عدو، ولم ينقل عن أحد من أقطاب الدنيا أنه بلغ بهذه الصفة مثل مابلغه محمد بين الضعفاء والأقوياء على السواء.

وحسبك من حب الضعفاء إياه أن فتى مستعبدًا يفقد أباه وأسرته – كزيد بن حارثة – ثم يظهر له أبوه بعد طول الغيبة، فيؤثر البقاء مع محمد على الذهاب مع أبيه.

وإن خادم خديجة رضى الله عنها – ونعنى به ميسرة – يقدمه ليبشر سيدته بالربح والتوفيق فى تجارته، وهو أولى أن ينفس عليه، وأن يدعى لنفسه ما اختصه به من الفضل والتقديم.

وحسبك من حب الأقوياء إياه أنه جمع على محبته أناسًا بينهم من التفاوت فى المزاج والخصال مابين أبى بكر وعمر وعثمان وخالد وأبى عبيدة، وهم جميعًا من عظماء الرجال.

ولكن الرجل قد يكون صبيحًا دمثًا محبوبًا، ولا يكون له من ثقة الناس وائتمانهم إياه نصيب كبير.. لأن الرجل المحبوب غير الرجل الموثوق به، وإذا اتفقت الخصلتان حينًا فمن الجائز أن تفترقا حينًا آخر، لأنهما فى عنصر الخصال لا تتلازمان.

أما محمد فقد كان جامعًا للمحبة والثقة كأفضل ماتجتمعان، وكان مشهورًا بصدقه وأمانته كاشتهاره بوسامته وحنانه. وشهد له بالصدق والأمانة أعداؤه ومخالفوه كما شهد بهما أحبابه وموافقوه. وامتلأ هو من العلم بمنزلته من ثقة القوم، فأحب أن يستعين بها على هدايتهم وترغيبهم فى دعوته فكان يسألهم: «أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل أكنتم تصدقوننى؟».

فيقولون: «نعم، أنت عندنا غير متهم».. إلا أن الإنسان ينفر مما يصدمه فى مألوفاته وموروثاته، ولو صدقه وقام لديه ألف برهان عليه. فلم يكن ما بالقوم أنهم لايصدقون محمدًا ولا يعلمون فيه الشرف والأمانة، وإنما كان بهم أنهم ينفرون من التصديق كما ينفر المرء من خبر صادق يسوؤه فيمن يحب أو فيما يحب، وهو مفتوح العين ناظر إلى صدق ما يلقى إليه.

الإيمان والغيرة

ومن المحقق أن هذه الموافقات على كثرتها، وهذه الشمائل على ندرتها، لا تزال

تتوقف على صفة أخرى يحتاج إليها الداعى أشد من احتياجه إلى الفصاحة والصباحة.. وهى إيمان بدعوته وغيرته على نجاحها فقد نجح داعون كثيرون تعوزهم طلاقة اللسان وطلاقة القسمات، ولم ينجح قط داع كبير يعوزه الإيمان بصواب مايدعو إليه، والغيرة عليه.. وقد قضى محمد عليه السلام شبابه وهو يؤمن بفساد الزمان وضلال الأوثان.. وجاوره أناس أقل منه نبلا فى النفس ولطفًا فى الحس ونفورًا من الرجس، آمنوا بمثل ما آمن به من فساد عصره وضلال أهله ومن حاجتهم إلى عبادة غير عبادة الأصنام، وآدابٍ غير آدابهم فى تلك الأيام. فإذا جاوزهم فى صدق وعيه وسداد سعيه فقد وافق المعهود فيه، والموروث من جده وأبيه

ولما آمن برسالته هو ودعوة ربه إياه إلى القيام بأداء تلك الرسالة يهجم على هذا الإيمان هجوم ساعة لا هجوم يوم، ولم يتعجل الأمر تعجل من يخدع نفسه قبل أن يخدع غيره، ولكنه تردد حتى استوثق، وجزع حتى اطمأن. وخطر له فى فترة من الوحى أن الله قلاه وأعرض عنه، ولم يأذن له فى دعوة الناس إلى دينه. تلقى الطمأنينة من وحى ربه ومن وحى قلبه ومن وحى صحبه.. فصدع بما أمر، ورضى ضميره بما أوتى من الهداية على النحو الذى رضيت به ضمائر الأنبياء وأصحاب الفطرة الدينية، مع مابينه وبينهم من فارق الرتبة والأهبة، وما بين زمانهم وزمانه من فارق فى الحاجة إلى الإصلاح.

فما من عجب إذن أن يكون محمد صاحب دعوة..

وما من عجب أن تتجه دعوته حيث اتجهت، وأن تبلغ من وجهتها الغاية التى بلغت، وإنما العجب ممن يغفلون عن هذه الحقيقة أو يتغافلون عنها لهوى فى الأفئدة. فيشبهون اليوم أولئك الجاهلين الذين أصروا أمس على الكفر به، وحجبوا بأيديهم نوره عامدين.

نجاح الدعوة

مامن حركة كبرى فى التاريخ تتضح للفهم إن لم يكن نجاح الدعوة المحمدية مفهومًا بأسبابه الواضحة المستقيمة التى لاعوج فى تأويلها وما من شىء غير الغرض الأعوج يذهل صاحبه عن هذه الأسباب الطبيعية البينة ثم يخيل إليه أن الدعوة الإسلامية كانت فضولا غير مطلوب فى هذه الدنيا، وأن نجاحها مصطنع لا سبب له غير الوعيد والوعود أو غير الإرهاب بالسيف والإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين.

أي إرهاب وأي سيف؟.

إن الرجل حين يقاتل من حوله إنما يقاتلهم بالمئات والألوف.. وقد كان المئات والألوف الذين دخلوا في الدين الجديد يتعرضون لسيوف المشركين ولا يعرضون أحدًا لسيوفهم، وكانوا يلقون عنتًا ولا يصيبون أحدًا بعنت، وكانوا يخرجون من ديارهم لياذًا بأنفسهم وأبنائهم من كيد الكائدين ونقمة الناقمين ولا يخرجون أحدًا من داره.

فهم لم يسلموا على حد السيف خوفًا من النبى الأعزل المفرد بين قومه الغاضبين عليه، بل أسلموا على الرغم من سيوف المشركين ووعيد الأقوياء المتحكمين.. ولما تكاثروا وتناصروا حملوا السيف ليدفعوا الأذى ويبطلوا الإرهاب والوعيد، ولم يحملوه ليبدءوا واحدًا بعدوان أو يستطيلوا على الناس بالسلطان.

فلم تكن حرب من الحروب النبوية كلها حرب هجوم، ولم تكن كلها إلا حروب دفاع وامتناع.

أما الإغراء بلذات النعيم ومتعة الخمر والحور العين، فلو كان هو باعثًا للإيمان، لكان أحرى الناس أن يستجيب إلى الدعوة المحمدية هم فسقة المشركين وفجرتهم وأصحاب الترف والثروة فيهم، ولكان طغاة قريش هم أسبق الناس إلى استدامة الحياة واستبقاء النعمة. فإن حياة النعيم بعد الموت محببة إلى المتعمين تحبيبها إلى المحرومين، بل لعلها أشهى إلى الأولين وأدنى.. ولعلهم أحرص عليها وأحنى، لأن الحرمان بعد التذوق والاستمراء أصعب من حرمان من لم يذق ولم يتغير عليه حال.

* * *

لم يكن أبو لهب أزهد فى اللذة من عمر..

ولم يكن السابقون إلى محمد أرغب فى النعيم من المتخلفين عنه..

ولكننا ننظر إلى السابقين وننظر إلى المتخلفين، فنرى فارقًا واحدًا بينهم أظهر من كل فارق. ذلك هو الفارق بين الأخيار والأشرار، وبين الرحماء المنصفين والظلمة المتصلفين وبين من يعقلون ويصغون إلى القول الحق، ومن يستكبرون ولا يصغون إلى قول.

ذلك هو الفارق الواضح بين من سبقوا ومن تخلفوا.. وليس هو الفارق بين طالب لذة

وزاهد فيها، أو بين مخدوع فى النعيم وغير مخدوع.

ولعلنا لا نستبين هذه الحقيقة من مثال واحد كما نستبينها من مثال عمر رضى الله عنه فى إسلامه.. فقصته فى ذلك نموذج لتلبية الدعوة المحمدية ينفى كل كلام يقال عن الوعيد والإغراء وأثرهما فى إقناع الأقوياء أو الضعفاء.

قال ابن إسحق: «خرج عمر يومًا متوشحًا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطًا من أصحابه.. قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء. ومع رسول الله صلى الله عليه وسلم عمه حمزة بن عبد المطلب، وأبو بكر ابن أبى قحافة الصديق، وعلى بن أبى طالب، فى رجال من المسلمين رضى الله عنهم.. ممن كان أقام مع رسول الله صلى الله عليه وسلم بمكة ولم يخرج فيمن خرج إلى أرض الحبشة. فلقيه نعيم بن عبد الله فقال له. «من تريد يا عمر؟..»

فقال: «أريد محمدًا هذا الصابئ الذى فرّق أمر قريش، وسفه أحلامها، وعاب دينها، وسب آلهتها، فأقتله».

فقال نعيم: «والله لقد غرتك نفسك يا عمر!.. أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا؟.. أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟»

قال: «وأى أهل بيتى؟»

قال: «ختنك وابن عمك سعيد بن زيد بن عمرو!.. وأختك فاطمة بنت الخطاب.. فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه، فعليك بهما»

قال: «فرجع عمر عامدًا إلى أخته وختنه، وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت، وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما، فلما دخل قال: «ما هذه الهينمة التى سمعت؟»

قالا له: «ما سمعت شيئًا!..»

قال: «بلى والله!.. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه».. وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة بنت الخطاب لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها، فلما فعل ذلك قالت له أخته: «نعم.. قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله فاصنع مابدا لك». فلما رأى

عمر مابأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى، وقال لأخته: «اعطنى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد». وكان عمر كاتبًا، فلما قال ذلك قالت له أخته: «إنا نخشاك عليها»

قال: «لاتخافى» وحلف لها بآلهته ليردنها إذا قرأها إليها. فلما قال ذلك طمعت فى إسلامه، فقالت له: «يا أخى!.. إنك نجس على شركك، وأنه لا يمسها إلا الطاهر». فقام عمر فاغتسل، فأعطته الصحيفة وفيها «سورة طه». فقرأها فلما قرأ منها صدرًا قال: «ما أحسن هذا الكلام وأكرمه!» فلما سمع ذلك خباب خرج إليه، فقال له: «ياعمر! والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته وهو يقول: «اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب فالله الله يا عمر!».

فقال له عند ذلك عمر: «فدلنى ياخباب على محمد حتى آتيه فأسلم» فقال له خباب: «هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه» فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه فضرب عليهم الباب، فلما سمعوا صوته قام رجل من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر من خلل الباب فرآه متوشحًا بالسيف، فرجع إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو فزع، فقال «يارسول الله!.. هذا عمر بن الخطاب متوشحًا بالسيف»

فقال حمزة بن عبد المطلب: «نأذن له.. فإن كان جاء يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان يريد شرا قتلناه بسيفه»

فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ائذن له!» فأذن له الرجل ونهض إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة شديدة وقال: «ما جاء بك يا بن الخطاب؟ فو الله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة!»

فقال عمر: «يارسول الله!، جئتك لأومن بالله ورسوله وبما جاء من عند الله».

قال «فكبر رسول الله صلى الله عليه وسلم تكبيرة عرف أهل البيت من أصحابه أن عمر قد أسلم» فتفرق أصحاب رسول الله صلى الله عليهم وسلم من مكانهم وقد عزوا فى

أنفسهم حين أسلم عمر مع إسلام حمزة، وعرفوا أنهما سيمنعان رسول الله وينتصفون بهما من عدوهم...»

هذه قصة إسلام عمر بن الخطاب، وهذا موضع ما فيها من الوعيد والإغراء.. خرج بالسيف ليقتل محمدًا. ولم يخرج عليه أحد من المسلمين بسيف، وقرأ صدرًا من «سورة طه» ليس فيه ذكر للخمر والنعيم هو: (طه. ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى. إلا تذكرة لمن يخشى. تنزيلا ممن خلق الأرض والسموات العلى. الرحمن على العرش استوى. له ما فى السموات وما فى الأرض وما بينهما وما تحت الثرى. وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى)

فلا جبن إذًا ولا طمع فى إسلام عمر بن الخطاب، بل رحمة وإنابة واعتذار..

* * *

ولم يكن فى إسلام الفقراء الذين هم أقل من عمر ناصرًا وأضعف منه بأسًا جبن ولا طمع، لأنهم تعرضوا بإسلامهم للسيف ولم يخضعوا للسيف حين أسلموا لله ورسوله، وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك بشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة القوة.. ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور، فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غنى أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم، ومن كان به زيغ عنها فقد أبى.. وهذا هو الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف. وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف ويضع الطغاة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون به هوى كهوى الكفار من قريش، فى الإصرار والإنكار.

* * *

إنما نجحت دعوة الإسلام لأنها دعوة طلبتها الدنيا ومهدت لها الحوادث، وقام بها داع تهيأ لها بعناية ربه وموافقة أحواله وصفاته.

فلا حاجة بها إلى خارقة ينكرها العقل أو إلى علة عوجاء يلتوى بها ذوو الأهواء، فهى أوضح شىء فهما لمن أحب أن يفهم، وهى أقوم شىء سبيلا لمن استقام.

عبقرية محمد
العسكرية

حروب دفاع

قلنا فى الفصل السابق إن الإسلام لم ينجح لأنه دين قتال كما يردد أعداؤه المغرضون، ولكنه نجح لأنه دعوة لازمة يقوم بها داع موفق، وليس بين أسباب نجاحه سبب واحد يصعب فهمه على هذا الاعتبار.

ونريد فى هذا الفصل أن نقول إن محمدا كان على اجتنابه العدوان يحسن من فنون الحرب ما لم يكن يحسنه المعتدون عليه، وأنه لم يجتنب الهجوم والمبادأة بالقتال لعجز أو خوف مما يجهله ولا يجيده.. ولكنه اجتنبه لأنه نظر إلى الحرب نظرته إلى ضرورة بغيضة يلجأ إليها ولا حيلة له فى اجتنابها، ويجتنبها حيثما تيسرت له الحيلة الناجحة.

وقبل ذلك ينبغى أن نستحضر فى الذهن بعض الحقائق التى تظهر لنا الاختلاف بين الدين الإسلامى والأديان الأخرى فى مسألة القتال، لنثبت أن للإسلام شأنا فى اجتناب القوة كشأن كل دين، وأنه ما كان لينتصر بالقوة لو لم يكن إلى جانب ذلك صالحا للانتصار، وأن الأديان الأخرى ما كانت لتحجم عن عمل أقدم عليه النبى لو كانت دعوتها كدعوته، وكانت أسبابها كأسبابه.

* * *

فالحقيقة الأولى، أن مطعن القائلين بأن الإسلام دين قتال إنما يصدق - لو صدق - فى بداءة عهد الإسلام كما أسلفنا، يوم دان بهذا الدين كثير من العرب المشركين، ولولاهم لما كان له جند ولا حمل فى سبيله سلاح.

لكن الواقع أن الإسلام فى بداءة عهده كان هو المعتدى عليه، ولم يكن من قبله اعتداء على أحد.. وظل كذلك حتى بعد تلبية الدعوة المحمدية اجتماع القوم حول النبى

عليه السلام، فإنهم كانوا يقاتلون من قاتلهم ولا يزيدون على ذلك: (وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين).

وقد صبر المسلمون على المشركين حتى أمروا أن يقاتلوهم كافة كما يقاتلون المسلمين كافة، فلم يكن لهم قط عدوان ولا إكراه.

وحروب النبى عليه السلام كما أسلفنا كانت كلها حروب دفاع. ولم تكن منها حرب هجوم إلا على سبيل المبادرة بالدفاع بعد الإيقان من نكث العهد والإصرار على القتال، وتستوى فى ذلك حروبه مع قريش وحروبه مع اليهود أو مع الروم.. ففى غزوة تبوك عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة، وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية. فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره.

* * *

والحقيقة الثانية، أن الإسلام إنما يعاب عليه أن يحارب بالسيف فكرة يمكن أن تحارب بالبرهان والإقناع.

ولكن لا يعاب عليه أن يحارب بالسيف «سلطة» تقف فى طريقه، وتحول بينه وبين أسماع المستعدين للإصغاء إليه.

لأن السلطة تزال بالسلطة، ولا غنى فى إخضاعها عن القوة..

ولم يكن سادة قريش أصحاب فكرة يعارضون بها العقيدة الإسلامية، وإنما كانوا أصحاب سيادة موروثة وتقاليد لازمة لحفظ تلك السيادة فى الأبناء بعد الآباء، وفى الأعقاب بعد الأسلاف.. وكل حجتهم التى يذودون بها عن تلك التقاليد أنهم وجدوا آباءهم عليها، وأن زوالها يزيل ما لهم من سطوة الحكم والجاه.

وقصد النبى بالدعوة عظماء الأمم وملوكها وأمراءها لأنهم أصحاب السلطة التى تأبى العقائد الجديدة، وقد تبين بالتجربة بعد التجربة أن السلطة هىّ التى كانت تحول دون الدعوة المحمدية وليست أفكار مفكرين ولا مذاهب حكماء، لأن امتناع المقاومة من هؤلاء العظماء والملوك كانت تمنع العوائق التى تصد الدعوة الإسلامية، فيمتنع القتال.

ومن التجارب التى دل عليها التاريخ الحديث كما دل عليها التاريخ القديم أن السلطة لا غنى عنها لإنجاز وعود المصلحين ودعاة الانقلاب. ومن تلك التجارب تجربة فرنسا فى القرن الماضى، وتجربة روسيا فى القرن الحاضر، وتجربة مصطفى كمال فى تركيا، وتجارب سائر الدعاة من أمثاله فى سائر البلاد.

فمحاربة السلطة بالقوة غير محاربة الفكرة بالقوة.. ولا بد من التمييز بين العملين، لأنهما جد مختلفين.

* * *

والحقيقة الثالثة أن الإسلام لم يحتكم إلى السيف قط إلا فى الأحوال التى أجمعت شرائع الإنسان على تحكيم السيف فيها.

فالدولة التى يثور عليها من يخالفها بين ظهرانيها، ماذا تصنع إن لم تحتكم إلى السلاح؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم حيث جاء فيه: «وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله. فإن انتهوا فلا عدوان إلا على الظالمين».

والدولة التى يحمل أناس من أبنائها السلاح على أناس آخرين من أبنائها، بماذا تفض الخلاف بينهم إن لم تفضه بقوة السلطان؟

وهذا ما قضى به القرآن الكريم أيضًا حيث جاء فيه: «وإن طائفتان من المؤمنين اقتتلوا فأصلحوا بينهما فإن بغت إحداهما على الأخرى فقاتلوا التى تبغى حتى تفىء إلى أمر الله. فإن فاءت فأصلحوا بينهما بالعدل وأقسطوا إن الله يحب المقسطين﴾.

وفى كلتا الحالتين يكون السلاح آخر الحيل؛ وتكون نهاية الظلم والاعتداء نهاية الاعتماد على السلاح.. ثم يأتى الصلح والتوفيق أو يأتى التفاهم بالرضا والاختيار.

* * *

والحقيقة الرابعة، أن الأديان الكتابية بينها فروق موضعية لابد من ملاحظتها عند البحث فى هذا الموضوع..

فاليهودية أو الإسرائيلية كانت كما يدل عليها اسمها أشبه بالعصبية المحصورة فى أبناء إسرائيل منها بالدعوة العامة لجميع الناس.. فكان أبناؤهم يكرهون أن يشاركهم غيرهم فيها، كما يكره أصحاب النسب الواحد أن يشاركهم غيرهم فيه، وكانوا من أجل هذا لا يحركون ألسنتهم – فضلا عن امتشاق الحسام – لتعميم الدين اليهودى وإدخال الأمم الأجنبية فيه، ولا وجه إذن للمقارنة بين اليهودية والإسلام فى هذا الاعتبار.

أما المسيحية فهى قد عنيت «أولا» بالآداب والأخلاق، ولم تعن مثل هذه العناية بالمعاملات ونظام الحكومة.

وقد ظهرت «ثانيًا» فى بلاد للمعاملات والنظم الحكومية فيها قوانين تحميها كما يحميها الكهان المعززون بالسلطان، فهى قد عدلت عن فرض المعاملات والدساتير لهذه الضرورة ، لا لأن المعاملات والدساتير ليست من شأن الدين.

وقد ظهرت «ثالثًا» فى وطن تحكمه دولة أجنبية ذات حول وطول، وليس للوطن الذى ظهرت فيه طاقة بمصادمة تلك الدولة فى ميدان القتال.

أما الإسلام فقد ظهر فى وطن لاسيطرة للأجنبى عليه، وكان ظهوره لإصلاح المعيشة وتقويم المعاملات وتقرير الأمن والنظام.. وإلا فلا معنى لظهوره بين العرب ثم فيما وراء الحدود العربية.

فإذا اختلفت نشأته ونشأة المسيحية، فذلك اختلاف موضعى طبيعى لا مناص منه ولا اختيار لأحد من الخلق فيه.

وآية ذلك أن المسيحية صنعت صنع الإسلام حين قامت بين أهلها الدول والجيوش، وحين استقلت شعوبها عن الأجانب المتغلبين .. وأربت حروب المذاهب فيما بين أبنائها على حروب صدر الإسلام مجتمعات.

* * *

والحقيقة الخامسة، أن الإسلام شرع الجهاد، وأن النبى عليه السلام قال: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فإذا قالوها عصموا منى دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله».

وجاء فى القرآن الكريم: «فقاتل فى سبيل الله لا تكلف إلا نفسك وحرض المؤمنين، عسى الله أن يكف بأس الذين كفروا والله أشد بأسًا وأشد تنكيلا»..

وحدث فعلا أن المسلمين فتحوا بلادًا غير بلاد العرب، ولم يفتحوها ولم يكن يتأتى لهم فتحها بغير السلاح.

إلا أن هذه الفتوح تأخرت فى الزمن، ولم يتم شىء منها قبل استقرار الدولة للإسلام، فلا يمكن أن يقال إنها كانت وسيلة الإسلام للظهور، وقد ظهر الإسلام قبلها وتمكن فى أرضه واجتمعت له جنود تؤمن به وتقدم على الموت فى سبيله.

ثم إن هذه الفتوح كانت تفرضها سلامة الدولة إن لم تفرضها الدعوة إلى دينها..

فلو قدرنا أن الخليفة المسلم لم يكن صاحب دين ينشره ويدعو إليه، لوجب فى ذلك العهد أن يأمن على بلاده من الفوضى التى شاعت فى أرض فارس وفى أرض الروم.. ووجب أن يكف الشر الذى يوشك أن ينقض عليه من كلتيهما، وأن يمنع عدوى الفساد أن تسرى منهما إلى حماه.

هذا إلى أن الإسلام قد أجاز للأمم أن تبقى على دينها مع أداء الجزية والطاعة للحكومة القائمة، وهى أهون ما يطلبه غالب من مغلوب.

* * *

والحقيقة السادسة، أن المقابلة بين ما كانت عليه شعوب العالم يومئذ قبل إسلامها وبعد إسلامها تدل على أن جانب الإسلام هو جانب الإقناع لمن أراد الإقناع.

فقد استقر السلام بين تلك الشعوب ولم يكن له قرار، وانتظمت بينها العلاقات ولم يكن لها نظام.. واطمأن الناس على أرواحهم وأرزاقهم وأعراضهم، وكانت جميعها مباحة لكل غاصب من ذوى الأمر والجاه.

فإذا قيل إن المدعوين إلى الإسلام لم يقتنعوا بفضله سابقين، فلا ينفى هذا القول أنهم اقتنعوا به متأخرين.. إن الإسلام مقنع لمن يختار ويحسن الاختيار، إلى جانب قدرته على إكراه من يركب رأسه ويقف فى طريق الإصلاح.

ومن نظر إلى الإقناع العقلى، تساوى لديه من يستميلك إلى العقيدة بتوزيع الدواء

والطعام؛ أو بتربية الأطفال عليها وهم لا يعقلون ومن يستميلك إليها بالخوف من الحاكم.. على فرض أن خوف الحاكم كان ذريعة من ذرائع نشر الإسلام.

فالشاهد الذى تطعمه وتكسوه ليقول قولك فى إحدى القضايا، كالشاهد الذى ينظر إلى السوط فى يديك فيقول ذلك القول.. كلاهما لا يأخذ بإقناع الدليل ولا بنفاذ الحجة، ولا يدفع عن عقيدة دفع العارف البصير.

وصفوة ما تقدم أن الإسلام لم يوجب القتال إلا حيث أوجبته جميع الشرائع وسوغته جميع الحقوق، وإن الذين خاطبهم بالسيف قد خاطبتهم الأديان الأخرى بالسيف كذلك.. إلا أن يحال بينها وبين انتضائه، أو تبطل عندها الحاجة إلى دعوة الغرباء إلى أديانها.. وأن الإسلام عقيدة ونظام، وهو من حيث النظام شأنه كشأن كل نظام فى أخذ الناس بالطاعة ومنعهم أن يخرجوا عليه.

القائد البصير

ولم يكن الإسلام إذن دين قتال، ولم يكن النبى رجلا مقاتلا يطلب الحرب للحرب أو يطلبها وله مندوحة عنها، ولكنه مع هذا كان نعم القائد البصير إذا وجبت الحرب ودعته إليها المصلحة اللازمة.. يعلم من فنونها بالإلهام ما لم يعلمه غيره بالدرس والمرانة، ويصيب فى اختيار وقته وتسيير جيشه وترسيم خططه إصابة التوفيق ، وإصابة الحساب وإصابة الاستشارة. وقد يكون الأخذ بالمشورة الصالحة آية من آيات حسن القيادة تقترن بآية الابتكار والإنشاء، لأن القيادة الحسنة هى القيادة التى تستفيد من خبرة الخبير كما تستفيد من شجاعة الشجاع، وهى التى تجند كل ما بين يديها من قوى الآراء والقلوب والأجسام.

وقد كانت غزوة بدر هى التجربة الأولى للنبى عليه السلام فى إدارة المعارك الكبيرة، فلم يأنف أن يستمع فيها إلى مشورة الحباب بن المنذر حين اقترح عليه الانتقال إلى غير المكان الذى نزل فيه، ثم وعى من تجربة واحدة ما قل أن يعيه القادة المنقطعون للحرب من تجارب شتى.. فلو تتبع حروبه عليه السلام ناقد عسكرى من أساطين فن الحرب فى العصر الحديث ليقترح وراء خططه مقترحا أو ينبه إلى خطأ، لأعياه التعديل.

ونختار أبرع القادة المحدثين وهو نابليون بونابرت على أسلوب حرب الحركة الذى

كان هو الأسلوب الغالب فى العصور الماضية، والذى ظهر فى الحرب العالمية الحاضرة أنه لا يزال الخطوة الأخيرة فى جميع الحروب. على الرغم من الحصون والسدود.. لأن اختيار نابليون بونابرت يبين لنا السبق فى خطط النبى العسكرية، بالمضاهاة بينها وبين خطط هذا القائد العظيم:

١ - فنابليون كان يوجه همه الأول إلى القضاء على قوة الغدو العسكرية بأسرع ما يستطيع، فلم يكن يعنيه ضرب المدن ولا اقتحام المواقع.. وإنما كانت عنايته الكبرى منصرفة إلى مبادرة الجيش الذى يعتمد عليه العدو وبهجمة سريعة يفاجئه بها أكثر الأحيان، وهو على يقين أن الفوز فى هذه الهجمة يغنيه عن المحاولات التى يلجأ إليها جلة القواد وعنده أنه يستفيد بخطته تلك ثلاثة أمور: أن يختار الموقع الملائم له، وأن يختار الفرصة، وأن يعاجل العدو قبل تمام استعداده.

وكان النبى عليه السلام سابقًا إلى تلك الخطط فى جميع تفصيلاتها فكان كما قدمنا لا يبدأ أحدا بالعدوان، ولكنه إذا علم بعزم الأعداء على قتاله لم يمهلهم حتى يهاجموه جهد ما تواتيه الأحوال، بل ربما وصل إليه الخبر كما حدث فى غزوة تبوك والناس مجدبون والقيظ ملتهب والشدة بالغة.. فلا يثنيه ذلك عن الخطة التى تعودها، ولا يكف عن التأهب السريع وعن حض المسلمين على جمع الأموال وجمع الرجال، ولا يبالى ما أرجف به المنافقون الذين توقعوا الهزيمة للجيش المحمدى فلم يحدث ما توقعوه.

وكان عليه السلام يعمد إلى القوة العسكرية حيث أصابها، فيقضى على عزائم أعدائه بالقضاء عليها.. ولا يضيع الوقت فى انتظار ما يختاره أولئك الأعداء، وإضعاف أنصاره بتركه زمام الحركة فى أيدى الهاجمين، إلا أن يكون الهجوم وبالا على المقدمين عليه، كما حدث فى غزوة الخندق.

٢ - وكان نابليون يقول إن نسبة القوة المعنوية إلى الكثرة العددية كنسبة ثلاثة إلى واحد.

والنبى عليه السلام كان عظيم الاعتماد على هذه القوة المعنوية التى هى فى الحقيقة قوة الإيمان. وربما بلغت نسبة هذه القوة إلى الكثرة العددية كنسبة خمسة إلى واحد فى بعض المعارك، مع رجحان الفئة الكثيرة فى السلاح والركاب إلى جانب رجحانهم فى عدد

الجنود.. ومعجزة الإيمان هنا أعظم جدًّا من أكبر مزية بلغها نابليون بفضل ما أودع نفوس رجاله من صبر وعزيمة. فالنبى عليه السلام كان يحارب عربا بعرب، وقرشيين بقرشيين، وقبائل من السلالة العربية بقبائل من صميم تلك السلالة.. فلا يقال هنا إن الفضل لقوم على قوم فى المزايا الجسدية أو المزايا النفسية كما يمكن أن يقال هذا فى جيوش نابليون، وكل فضل هنا فهو فضل العقيدة والإيمان.

٣ – وقد كان نابليون مع اهتمامه بالقضاء على القوة العسكرية لا يغفل القضاء على القوة المالية أو التجارية التى يتناولها اقتداره.. فكان يحارب الإنجليز بمنع تجارتهم وسفنهم أن تصل إلى القارة الأوربية، وتحويل المعاملات عن طريق إنجلترا إلى طريق فرنسا.

وهكذا كان النبى عليه السلام يحارب قريشًا فى تجارتها، ويبعث السرايا فى أثر القوافل كلما سمع بقافلة منها.

وأنكر بعض المتعصبين من كتاب أوربا هذه السرايا وسموها «قطْعًا للطريق»، وهى هى سنة المصادرة بعينها التى أقرها «القانون الدولى» وعمل بها قادة الجيوش فى جميع العصور، ورأينا تطبيقها فى الحرب الحاضرة والحرب الماضية، رشيدًا تارة وغاليًا فى الحمق والشطط تارة أخرى.

٤ – وقد أسلفنا أن نابليون كان يوجه همه إلى الجيش، ولا يقتحم المدن أو يشغل باله بمحاصرتها لغير ضرورة عاجلة.

ونرجع إلى غزوات النبى عليه السلام فلا نرى أنه حاصر محلة، إلا أن يكون الحصار هو الوسيلة الوحيدة العاجلة لمبادرة القوة التى عسى أن تخرج منها قبل استعدادها، أو قبل نجاحها فى الغدر والوقيعة، كما حدث فى حصار بنى قريظة وبنى قينقاع، فكان الحصار هنا كمبادرة الجيش بالهجوم فى الميدان المختار بغير كبير اختلاف.

٥ – وكان نابليون معتدًّا برأيه فى الفنون العسكرية ولاسيما الخطط الحربية، ولكنه كان مع هذا الاعتداد الشديد لا يستغنى عن مشاورة صحبه فى مجلس الحرب الأعلى قبل ابتداء الزحف أو قبل العزم على القتال.

ومحمد عليه السلام كان على رجاحة رأيه يستشير صحبه فى خطط القتال. وحيل الدفاع ويقبل مشورتهم أحسن قبول، ومن ذلك ما صنعه ببدر – وألمعنا إليه آنفا – حين

أشار عليه الحباب بن المنذر بالانتقال إلى مكان غير الذى نزلوا فيه أول الأمر ثم بتعوير الآبار وبناء حوض للشرب لا يصل إليه الأعداء، وقيل فى روايات كثيرة إنه عمل بمشورة سلمان الفارسى فى حفر الخندق عند المنفذ الذى خيف أن يهجم منه المشركون على المدينة. فحفر الخندق وعمل النبى بيديه الكريمتين فى حفره.

وقبول النبى مشورة سلمان عمل من أعمال القيادة الرشيدة، وسنة من سنن القواد الكبار غير أننا نعتقد أنه عليه السلام كان خليقًا أن يشير بحفر الخندق لو لم يكن سلمان الفارسى بين أهل المدينة فى إبان الهجمة عليها.. لأنه عليه السلام كان شديد الالتفات إلى سد الثغور وحماية الظهور فى جميع وقعاته. وفى وقعة أحد جعل الجبل إلى ظهره وأقام على الشعب الذى يخشى منه النفاذ والالتفاف خمسين راميًا مشددا عليهم فى التزام مواقفهم، قائلا لهم: «احموا ظهورنا فإنا نخاف أن يجيئوا من ورائنا والزموا مكانكم لاتبرحوا منه، وإن رأيتمونا نهزمهم حتى ندخل عسكرهم فلاتفارقوا مكانكم، وإن رأيتمونا نقتل فلا تعينونا ولا تدفعوا عنا، وإنما عليكم أن ترشقوا خيلهم بالنبل فإن الخيل لا تقدم على النبل».

والذى يفعل هذا فى شعب جبل، لا يفوته أن يفعل مثله فى ثغرة مدينة، ولكن المشاورة هنا هى المقصود بالمضاهاة بين ما سبق إليه النبى وما نبغ فيه نابليون: فهذه خصلة معهودة فى كبار القواد لا تقدح فيما عرفوا به من قدرة على وضع الخطط وابتكار الأساليب.

٦ – ولم يعرف عن قائد حديث أنه كان يعنى بالاستطلاع والاستدلال عناية نابليون.

وكانت فراسة النبى فى ذلك مضرب الأمثال، فلما رأى أصحابه يضربون العبدين المستقيين من ماء بدر، لأنهما يذكران قريشًا ولا يذكران أبا سفيان، علم بفطنته الصادقة أنهما يقولان الحق ولا يقصدان المراء، وسأل عن عدد القوم فلما لم يعرفا العدد سأل عن عدد الجزور التى ينحرونها كل يوم، فعرف قوة الجيش بمعرفته مقدار الطعام الذى يحتاج إليه. وكان صلوات الله عليه إنما يعول فى استطلاع أخبار كل مكان على أهله وأقرب الناس إلى العلم بفجاجه ودروبه، ويعقد ما يسمى اليوم مجلس الحرب قبل أن يبدأ بالقتال فيسمع من كل فيما هو خبير به من فنون حرب أو دلائل استطلاع.

٧ - واشتهر عن نابليون أنه كان شديد الحذر من الألسنة والأقلام، وكان يقول إنه يخشى من أربعة أقلام ما ليس يخشاه من عشرة آلاف حسام.

والنبى عليه السلام كان أعرف الناس بفعل الدعوة فى كسب المعارك وتغليب المقاصد، فكان يبلغه عن بعض أفراد أنهم يخفرون الذمة التى عاهدوا عليها ويشهرون به وبالإسلام أو يثيرون العشائر لقتاله ويقذعون فى هجوه وهجو دينه، فينفذ إليهم من يحاربهم فى حصونهم أو يتكفل له بالخلاص منهم.

* * *

وعاب هذا بعض المغرضين من الكتاب الأوربيين وشبهوه بما عيب على نابليون من اختطاف الدوق دانجان وما قيل عن محاولته أن يختطف الشاعر الإنجليزى كولردج الذى كان يخوض فى ذمه ويستهوى الأسماع بسحر حديثه.

إلا أن الفارق عظيم بين الحالتين، لأن حروب الإسلام إنما هى حروب دعوة أو حروب عقيدة، وإنما هى فى مصدرها وغايتها كفاح بين التوحيد والشرك أو بين الإلهية والوثنية، وليس وقوف الجيش أمام الجيش إلا سبيلا من سبل الصراع فى هذا الميدان.

فليس فى حالة سلم مع النبى إذن من يحاربه فى صميم الدعوة الدينية، ويقصده للطعن فى لباب رسالته الإسلامية، وإن لم ينفر الناس لقتاله ولم يحرضهم على النكث بعهده، وإنما هو مقاتل فى الميدان الأصيل ينتظر من أعدائه ما ينتظره المقاتل من المقاتلين، ولا سيما إذا كانت الحرب قائمة دائمة لا تنقطع فترة إلا ريثما تعود.

أما نابليون فالحرب بينه وبين أعدائه حرب جيوش وسلاح، فلا يجوز له أن يقتل أحدًا لا يحمل السلاح فى وجهه أو لا يدينه القانون بما يستوجب إزهاق حياته. وما نهض نابليون لنشر دين أو تفنيد دين، ولا كان للرسول الإسلامى من غرض لو جاز له أن يقبل المسألة ممن يحاربونه فى دينه وإن لم يشهروا السيف فى وجهه، فإن الضرب بالسيف لأهون من المقتل الذى يضربون فيه.

تلك مقابلة مجملة بين الخطط والعادات التى سبق إليها محمد وجرى عليها نابليون بعد مئات السنين، ومن الواجب أن نحكم على قيمة القيادة بقيمة الفكرة أو الخطة قبل أن نحكم عليها بضخامة الجيوش وأنواع السلاح.

لم يتخذ محمد الحرب صناعة، ولا عمد إليها – كما أسلفنا – إلا لدفع غارة واتقاء عداوة، فإذا كان مع هذا يتقن منها ما يتولاه مدفوعًا إليه، فله فضل السبق على جبار الحروب الحديثة الذى تعلمها وعاش لها ولم ينقطع عنها منذ ترعرع إلى أن سكن فى منفاه، ولم يبلغ من نتائجه بعض ما بلغ القائد الأمى بين رمال الصحراء.

ولقد كانت خبرة النبى ببعوث الاستطلاع كخبرته ببعوث القتال، فكانت طريقته فى اختيار المكان والغرض أو فى اختيار القائد وتزويده بالوصايا والأتباع مثلا يحتذى فى جميع العصور، ولا سيما العصر الحديث الذى كثرت فيه ذرائع التخبئة والمراوغة وذرائع الكشف والدعوة، فكثرت فيه – من ثم – حاجة المقاتلين إلى استقصاء أحوال الأعداء.

ففى الحروب الحديثة يتردد ذكر الأوامر المختومة التى تصدر إلى قواد السرايا والسفن ليفتحوها عند مدينة معلومة، أو بعد مسيرة ساعات، أو فى عرض البحر على درجة معينة من درجات الطول والعرض، إلى أمثال ذلك من العلامات التى تعين بها الجهات.

ويتفق فى أمثال هذه البعوث أن يكون القائد وحده مطلعًا على سر البعثة ورجاله جميعًا يجهلونه ولا يعرفون أهم خارجون فى غزوة أم فى مناورة استطلاع، إلى ما قبل الحركة المقصودة بساعات معدودات، وهنالك تصدر الأوامر التى لابد من صدورها للتهيؤ والتنفيذ، ولا خوف من كشفها فى تلك الساعات لصعوبة الاستعداد الذى يقابلها به العدو إذا انكشف له قبل تنفيذها بفترة وجيزة، ولا سيما إذا كانت الحركة من حركات البحار..

هذه الأوامر المختومة ليست بحديثة..

فقد عرفت فى المأثورات النبوية على أتم أصولها التى تلاحظ فى أمثالها، ومن ذلك أنه عليه السلام بعث عبد الله بن جحش ومعه كتاب أمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين، وفحواه أن «سر حتى تأتى بطن نخلة على اسم الله وبركاته، لا تكرهن أحدًا من أصحابك على المسير معك، وامض فيمن تبعك حتى تأتى بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم».

وهذا نموذج من الأوامر المختومة جامع لكل ما يلاحظ فيها حديثًا وقديمًا وعند بداءة الدعوات على التخصيص.

فأولها كتمان الخبر عمن يحيطون بالنبى عليه السلام، فلا يبعد أن يكون منهم من هو مدخول النية عيناً عليه وعلى أصحابه من قبل قريش، ولا يبعد أن يكون منهم من يبوح بالخبر ولا يريد به السوء أو يدرك ما فى البوح به من الخطر المحظور، ولا يبعد أن يكون منهم الضعفاء والمخالفون وأن الاستعانة على قضاء الحاجات بالكتمان لسنة حكيمة من سنن النبى عليه السلام فى جميع المطالب، وهى فى حروب الدعوات على التخصيص أقمن باتباع. ولهذا كان إذا أراد غزوة ورّى بغيرها على النحو الذى يتبعه قادة الحروب إلى الآن.

ومما لوحظ فى كتاب النبى لعبد الله بن جحش كتمان الخبر عن أصحابه ثم وصايته ألا يكره أحدًا منهم على المسير معه بعد معرفته بوجهته، وهذا هو أهم الملاحظات فى هذا المقام.

فقد يحارب الرجل وهو مكره مهدد بالموت الذى يتقيه إذ يفر من القتال، ولكنه لا يستطلع وهو مكره ثم يفيد استطلاعه من أرسلوه، بل لعله ينقلب إلى النقيض فيحرف الأخبار عمدًا، أو يتلقاها على غير اكتراث، أو يطلع الأعداء على أسرار أصحابه وهم غافلون عنه.

ولهذا تعانى الدول أكبر العناء فى مراقبة الجواسيس بالجواسيس وفى امتحان كل خبر بالمراجعة بعد المراجعة والمناقضة بعد المناقضة، حتى تطمئن إلى صحته قبل الاعتماد عليه.

وفى الحرب الحاضرة تجربة جديدة لهذا النوع من المستطلعين أو الرواد المتقدمين.

فقد عرف أن هتلر يعتمد على أفراد من جنده يهبطون من الطيارات وراء الصفوف، فيتسللون إلى مراكز المواصلات ويعيثون بين القرى المعزولة، فيشيعون فيها الرعب والحيرة ويوهمون من يراهم أن الجيش المغير كله على مقربة منهم فلا جدوى لهم من الاستغاثة أو المقاومة، ويحمل معظم هؤلاء الرواد المتقدمين أجهزة للمخاطبة يستعينون بها على الاتصال برؤسائهم من بعيد.

قيل فى الإعجاب بهذه الخطة الهتلرية كثير، وقيل فى انتقادها والتنبيه إلى خطرها كثير.

فمن دواعى الإعجاب بها أنها أفادت فى قطع المواصلات وإشاعة الذعر وتضليل المدافعين، وإنها شيء جديد فى شكله وإن لم يكن جديدًا فى غايته ومرماه..

ومن أسباب انتقادها أن كل فائدة فيها تتوقف على العقيدة وحسن النية. فهى تستلزم أن يكون الرائد غيورًا على عمله متحمسًا لإنجازه رقيبًا على نفسه وهو بمعزل عن رقبائه، أليس أيسر له إذا هو انفرد وأعوزته الرغبة فى إنجاز عمله من أن يستأثر فى أول مكان يصل إليه من بلاد الأعداء، طلبًا للسلامة، ولا عقاب عليه إلى نهاية القتال. ثم يتعلل بما شاء من المعاذير إن وجد بعد ذلك من يحاسبه ويعاقبه، وهيهات أن تستجمع الأدلة عليه فى أمثال هذه الفوضى بين معسكرين أو عدة معسكرات.

فالخطة الهتلرية فاشلة لا محالة إن لم ينفذها مريدون متعصبون غير مكرهين ولا متشككين فيما هو موكول إليهم، وهى لهذا أحرى أن تحسب من وحى إخوان الطريق والهام العقائد لا من النظام الذى يدرب عليه كل جيش ويصلح لجميع الجنود، فلولا أن النازيين قضوا قبل الحرب الحاضرة زهاء عشر سنين ينفخون فى نفوس الناشئة جذوة البغضاء ويلهبونهم بحماسة العقيدة ويخلقون فيهم اللدد الذى يغنى عن الرقابة ساعة التنفيذ لحبطت الخطة كل الحبوط وانقلبت على النازيين شر انقلاب.

وها هنا تتجلى حكمة النبى عليه السلام فى اشتراط الرغبة والطواعية واجتناب القسر والإكراه.

فهذه «أولا» بعثة منفردة لا سبيل إلى الإكراه الفعال بين رجالها إذ أريد.

وهى «ثانيًا» بعثة استطلاع لا يغنى فيها عمل الكاره المقسور. وألزم ما يلزم العامل فيها إيمانه وصدق نيته وحسن مودته لمن أرسلوه، فإن أعوزته هذه الصفة فقد أعوزه كل شيء.

أما غرض البعثة كلها وهو الاستطلاع فقد كان النبى عليه السلام عليمًا بمزاياه معنيًّا به غاية العناية، يحسبُ العدو المجهول كالعدو المستتر بأسوار الحصون، فى حمى من الجهل به قد يحول دون الاستعداد له بالعدة الضرورية فى الوقت الضرورى، ويحول من ثم دون الانتصار عليه.

ونحن نكتب هذه الفصول والحرب الروسية تذكرنا كيف أصيب نابليون فى هذا الميدان حين أصيب فى وسائل الاستطلاع، ثم تذكرنا كيف تكررت هذه الغلطة بعينها على نوع من المشابهة بين غزوة نابليون فى روسيا أمس وغزوة هتلر لتلك البلاد اليوم.

فمن أسباب هزيمة نابليون إهماله النصائح التى سمعها فى مجلس الحرب من بعض الثقات قبل التوغل فى الحرب الروسية، لاعتقاده خطأ أن القيصر سيطلب صلحه بعد أسابيع.

ومن أسباب تلك الهزيمة أن الروس كانوا يتراجعون أمامه تحت جنح الظلام ويخلون المدن والطرقات حتى لا يرى فيها ديارًا يسأله عن مكان الجيش المتراجع أو يلتقط من خلال أجوبته ما يعينه على الاستطلاع الذى كان شديد التعويل عليه.

أما هتلر فقد أتى من قبل هذين النقصين كما أتى من قبله من هو أعظم منه وأولى بالتحرز والأناة.

فقد اشتهر أنه كان فى مجلس الحرب على خلاف مع قواده الثقات الذين علموا من شأن الروس ما ليس له به علم.

واشتهر أنه أخطأ فى استطلاع أخبار القوم إذ خيّل إليه أن الشعب الروسى يتحفز للثورة ويترقب الإغارة عليه لنصرة المغير كائنًا من كان، ولو جاءت الغارة من عنصر معاد للعنصر السلافى، وهو عنصر الجرمان.

ومحمد عليه السلام لم يتعلم ما تعلمه هتلر ونابليون، ولكنه لم يخطئ قط مثل هذا الخطأ فى جميع غزواته وكشوفه، ولعلنا نفهم – كلما درسنا زمانه الحافل بالعبر والأمثلة الباقية – أن دراسته ضرب من دراسة العصر الحديث والقادة المحدثين.

وينبغى ألا تمر بنا سرية عبد الله بن جحش دون أن نستوفى كل ما فيها من الشئون العسكرية. لأنها تشتمل على أكثر من جانب واحد من جوانب السنة النبوية والتشريع الإسلامى فى هذه الشئون.

فهى سرية استطلاع كما علمنا لم تؤمر بقتال ولم يؤذن لها فيه.

لكن حدث بعد فض الكتاب أن اثنين من رجال السرية ذهبا يطلبان بعيرًا لهما ضل

فأسرتها قريش، وهما سعد بن أبى وقاص وعتبة بن غزوان.

ثم نزل الركب بنخلة فمرت بهم عير قريش تحمل تجارة عليها عمرو بن الحضرمى، آخر شهر رجب. وكانت قريش قد حجزت أموال أناس من المسلمين منهم بعض من فى السرية. فتشاوروا فى قتال أهل العير، وحاروا فيما يصنعون: إن تركوا العير تمضى ليلتها امتنعت بالحرم وفاتهم تعويض ما حجزته قريش فى هذه الفرصة السانحة، وإن قاتلوا أهلها قتلوهم فى شهر حرام، لكنهم اندفعوا إلى القتال فأصابوا من أصابوه ورمى أحدهم عمرو بن الحضرمى بسهم فأرداه، وأسروا رجلين.

وقفل عبد الله بن جحش ومن معه إلى المدينة وقد حجزوا للنبى عليه السلام الخمس من غنيمتهم، فأباه عليه السلام وقال لهم: ما أمرتكم بقتال فى الشهر الحرام، وعنفهم إخوانهم لمخالفة النبى، وساءت لقياهم بين أهل المدينة.

وراحت قريش تثير ثائرة العرب، واندس جماعة من اليهود يحضئون نار الفتنة، وتنادوا أن محمدًا وأصحابه قد أباحوا الدماء والأموال فى الشهر الحرام، وقال المسلمون فى مكة: بل كان ذلك فى شعبان، ثم نزلت الآيات: «يسألونك عن الشهر الحرام قتال فيه قل قتال فيه كبير وصد عن سبيل الله وكفر به والمسجد الحرام وإخراج أهله منه أكبر عند الله والفتنة أكبر من القتل ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا».

فقبض النبى العير والأسيرين، وطلبت قريش فداءهما فقال عليه السلام: «لانفديكموهما حتى يقدم صاحبانا، فانا نخشاكم عليهما، فإن تقتلوهما نقتل صاحبيكم».

هذه قصة السرية وما وقع فيها خلافًا لأمر النبى وما نجم عنها من تشريع.. فإذا نحن كتبناها باصطلاح العصر الحديث فكيف نكتبها؟.. وكيف نفهمها؟.

هى لا خلاف حادثة طلائع أو حادثة حدود:

ترسل إحدى الدول طليعة من جندها إلى حدودها للكشف أو للحراسة فيقع الاشتباك بينها وبين طليعة فى بلاد دولة أخرى على غير علم من الحكومتين..

فالذى يحدث فى هذه الحالة أن تنظر الحكومة الأخرى إلى المسألة كأنها مسألة فردية

عرضية لا تستوجب القتال. وتكتفى بما ينال المسئولين على أيدى حكومتهم من جزاء أو تأنيب، وينحسم النزاع.

هذا أو تصر الحكومة الأخرى على طلب الترضية. فان قبلتها الحكومة المطلوبة فالنزاع منحسم، وإن لم تقبلها فالمفاوضة والمساومة أو امتشاق الحسام..

ذلك إذا نظر الفريقان إلى المسألة كأنها مسألة فردية عرضية ولم يشأ أحدهما أو كلاهما أن يضعاها موضع التشريع العام لتقرير الحكم الذى تجريان عليه فيها وفى أمثالها، أو تقرير ما يعترفان به وما ينكرانه من الشرائط والأصول.

وقريش لم تكتف بالنظر إلى حادثة السرية كأنها حادثة فردية عرضية، ولم تعلن الحرب توًّا لأنها تبينت النية لإعلانها بعد حين.. ولكنها أثارت مسألة تشريع عام فى قتال الشهر الحرام.. فوجب أن ينص الإسلام على هذا التشريع نصًّا صريحًا لا لبس فيه، وهذا الذى كان.

ليست المسألة أن عبد الله بن جحش قد خالف أمر النبى فهذا أمر مفروغ منه ولا محل للبحث فيه.

إنما المسألة هى: ما الحكم بعد الآن فى قتال الأشهر الحرم؟.. وماذا يبلغ من حق المشركين فى الاحتماء بحرمة هذه الأشهر إذا كانوا لا يرعون للمسلمين حرمة ولا يزالون يقاتلونهم ويردونهم عن دينهم ما استطاعوا؟ وما الجواب على تشهير قريش واحتجاجها بالحرمات التى لا ترعاها؟..

هذا هو الحكم الذى وجب أن يعلنه الإسلام، وقد أعلنه على الوجه الذى دانت به الشرائع الحديثة فى علاقاتها الحربية ولا تزال تدين به حتى اليوم. فهناك حرمات دولية إذا خالفتها إحدى الدول بطل احتماؤها بها وأحل لغيرها أن يخالفها كما خالفتها أو يتخذ من القصاص ما يردع الشر ويعوض الخسارة، وإلا كانت الحرمات درعًا للمعتدين ولم تكن مانعًا لهم وسدًّا فى وجوههم كما أريد بها أن تكون.

* * *

واليوم تنقطع العلاقة بين دولتين فى حالة حرب أو جفاء فيجوز لكلتيهما أن تحجز

ما عندها من أموال الدولة الأخرى وأن تأسر الذين فى بلادها من رعاياها، ويجوز لها أن تجعل تلك الأموال ضمانًا لسداد المغارم التى تنزل بها وبأبنائها، وأن تتخذ من المعتقلين رهائن تعاملهم بمثل ما يعامل به المعتقلون من أبنائها، فى سجون الدولة الأخرى.

فالذى حدث بعد سرية عبد الله بن جحش هو هذا بعينه، وهو حكم القانون الدولى المتفق عليه: أسيران بأسيرين، وأموال العير بالأموال التى حجزتها قريش للمسلمين. ولا محل لضجة الناقدين من المبشرين والمتعصبين فى تعقيبهم على هذا الحادث المألوف أو على حكم النبى والإسلام فيه، فإن أصحاب هذه الضجة يعمون عما حولهم وينسون أن المعاملات الدولية فى زمانهم لم تفصل فى أمثال هذه الحوادث بحكم أنفع ولا أعدل من الحكم الذى ارتضاه النبى ونزل به النبى به القرآن، وهو حكم مساواة يدين به المسلمون كما يدانون، ويحار المعتسف لو شاء أن يستبدل به ما هو خير منه وأدنى إلى النفاذ والاتباع.

وكان هذا القائد الملهم الخبير بتجنيد بعوث الحرب وبعوث الاستطلاع خبيرًا كذلك بتجنيد كل قوة فى يديه متى وجب القتال، إن قوة رأى وإن قوة لسان وإن قوة نفوذ، فما نعرف أن أحدا وجه قوة الدعوة توجيهًا أسد ولا أنفع فى بلوغ الغاية من توجيهه عليه السلام.

غرضان

والدعوة فى الحرب لها - كما لايخفى - غرضان أصيلان بين أغراضها العديدة.. أحدهما إقناع خصمك والناس بحقك، وهذا قد تكفل به القرآن والحديث ودعاة الإسلام جميعًا، فالدين كله دعوة من هذا القبيل.

وثانيهما، إضعافه عن قتالك بإضعاف عزمه وإيقاع الشتات بين صفوفه.. وربما بلغ النبى برجل واحد فى هذا الغرض ما لم تبلغه الدول بالفرق المنظمة، وبالمكاتب والدواوين، وبدر الأموال.

قال ابن إسحق ما ننقله ببعض تصرف: «إن نعيم بن مسعود الغطفانى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، إنى قد أسلمت، وإن قومى لم يعلموا بإسلامى.. فمرنى بما شئت.

فقال رسول الله: إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت فإن الحرب خدعة.. أى ادخل بين القوم حتى يخذل بعضهم بعضًا فلا يقوموا لنا ولا يستمروا على حربنا.

«فخرج نعيمُ بن مسعود حتى أتى بنى قريظة - وكان لهم نديمًا فى الجاهلية - فقال: يا بنى قريظة، قد عرفتم ودى إياكم وخاصة ما بينى وبينكم..

قالوا: صدقت.. لست عندنا بمتهم.

«فقال لهم: إن قريشًا وغطفان ليسوا كأنتم.. البلد بلدكم، فيه أموالكم وأبناؤكم ونساؤكم لا تقدرون على أن تتحولوا منه إلى غيره، وإن قريشًا وغطفان قد جاءوا لحرب محمد وأصحابه، وقد ظاهرتموهم عليه.. وبلدهم وأموالهم ونساؤهم بغيره.. فليسوا كأنتم!.. فإن رأوا نهزة أصابوها وإن كان غير ذلك لحقوا ببلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل ببلدكم، ولا طاقة لكم به إن خلا بكم. فلا تقاتلوه مع القوم حتى تأخذوا منهم رهنًا من أشرافهم يكونون بأيديكم ثقة لكم على أن تقاتلوا محمدًا حتى تناجزوه..

«فقالوا له: لقد أشرت بالرأى.

«ثم خرج حتى أتى قريشًا فقال لأبى سفيان بن حرب ومن معه من قريش: قد عرفتم ودى لكم وفراقى محمدًا. وإنه قد بلغنى أمر قدر قد رأيت علىّ حقًا أن أبلغكموه نصحًا لكم.. فاكتموا عنى!

«قالوا: نفعل.

«قال: تعلمون أن معشر يهود قد ندموا على ما صنعوا فيما بينهم وبين محمد، وقد أرسلوا إليه: إنا قد ندمنا على ما فعلنا. فهل يرضيك أن نأخذ لك من القبيلتين قريش وغطفان رجالا من أشرافهم، فنعطيهم فتضرب أعناقهم ثم نكون معك على من بقى منهم حتى نستأصلهم؟.. فأرسل إليهم أن نعم.. فإن بعثت إليكم يهود يلتمسون رهنا من رجالكم، فلا تدفعوا إليهم منكم رجلا واحدًا.

«ثم خرج حتى أتى غطفان فقال: يا معشر غطفان، إنكم أهلى وعشيرتى وأحب الناس إلىّ ولا أراكم تتهموننى. قالوا: صدقت ما أنت عندنا بمتهم...

«قالو: فاكتموا عنى.

«قالوا: نفعل، فما أمرك؟..

«فقال لهم مثل ما قال لقريش وحذرهم ما حذرهم.

«فلما كانت ليلة السبت من شوال سنة خمس، أرسل أبو سفيان بن حرب ورءوس غطفان إلى بنى قريظة عكرمة بن أبى جهل فى نفر من قريش وغطفان، فقالوا لهم: إنا لسنا بدار مقام، وقد هلك الخف والحافر.. فاغدوا للقتال حتى نناجز محمدًا ونفرغ مما بيننا وبينه. فأرسلوا إليهم: ان اليوم يوم السبت وهو يوم لا نعمل فيه شيئاً، ولسنا مع ذلك بمقاتلى محمد حتى تعطونا رهنًا من رجالكم يكونون بأيدينا ثقة لنا، فإنا نخشى إن ضرستكم الحرب واشتد عليكم القتال أن تنشمروا إلى بلادكم وتتركونا، والرجل فى بلدنا ولا طاقة لنا بذلك منه.

«فلما رجعت إليهم الرسل بما قالت بنو قريظة قالت قريش وغطفان: والله إن الذى حدثكم به نعيم بن مسعود لحق، فأرسلوا إلى بنى قريظة: إنا والله لا ندفع إليكم رجلا واحدًا من رجالنا فإن كنتم تريدون القتال فاخرجوا فقاتلوا.

«وقالت بنو قريظة حين انتهت الرسل إليهم بهذا؛ إن الذى ذكر لكم نعيم بن مسعود لحق. ما يريد القوم إلا أن تقاتلوا، فإن رأوا فرصة انتهزوها وإن كان غير ذلك انشمروا إلى بلادهم وخلوا بينكم وبين الرجل فى بلدكم..

«.. وخذل الله بينهم وبعث الله عليهم الريح فى ليال شاتية باردة شديدة البرد، فجعلت تكفأ قدورهم وتطرح أبنيتهم.. ثم رحلت قريش وغطفان إلى بلادها، وانصرف رسول الله عن الخندق راجعًا إلى المدينة» هذه دعوة نعيم بن مسعود..

* * *

وما نجحت دعوتهم قط برجل واحد نجاح هذا الرجل، ولا انتهزت فرصة العناصر الطبيعية والعناصر التى تتألف منها جماعة الأعداء كما انتهزت هذه الفرصة.. فكل كلمة قيلت لطائفة من طوائفهم فهى الكلمة التى ينبغى أن تقال فى الوقت الذى ينبغى أن تفعل فيه فعلها، وهذه هى دعوة الإضعاف والتمزيق كأمضى ما تكون.

قائد بغير نظير

عندما تنعقد المقارنة بين المعارك القديمة والمعارك العصرية ينبغى أن ننظر إلى فكرة القائد قبل أن ننظر إلى ظواهر المعارك أو إلى أشكالها وأحجامها، لأننا إذا نظرنا إلى الظواهر فلا معنى إذن للمقارنة على الإطلاق إذ من المقطوع به أن عشرة ملايين يجتمعون فى ميدان واحد أضخم من عشرة آلاف وأن حربًا تدار بالمذياع والتليفون أعجب من حرب تدار بالفم والإشارة، وأن نقل الجنود بالطائرات والدبابات أبرع من نقلهم على ظهور الخيل والإبل، وأن المدفع أمضى من السيف والرصاصة أمضى من السهم. فلا معنى إذن لمقارنة بالظواهر تنتهى إلى نتيجة واحدة.. هى استضخام الحرب الحديثة والنظر إلى القيادة الغابرة كأنها شىء صغير إلى جانب القيادة التى توجه هذه الضخامة.

لكننا إذا نظرنا إلى فكرة القائد، أمكننا أن نعرف كيف أن توجيه ألف رجل قد تدل على براعة فى القيادة لا نراها فى توجيه مليون. بينهم الراجل والراكب، ومنهم من يركبون كل ما يركب من مخلوقات حية وآلات مخترعة.

* * *

وهذه الفكرة هى التى ترينا محمدًا عليه السلام قائدًا جريبًا بين أهل زمانه بغير نظير فى رأيه وفى الانتفاع بمشورة صحبه، وتبرز لنا قدرته النادرة بين قادة العصور المختلفة فى توجيه كل ما يتوجه على يدى قائد من قوى الرأى والسلاح والكلام.

وهذه القدرة هى شهادة كبرى للرسول تأتى من طريق الشهادة للقائد الخبير بفنون القتال.

فمن كانت عنده هذه الأداة النافذة فاقتصر بها على الدفاع واكتفى منها بالضرورى الذى لا محيص عنه، فذلك هو الرسول الذى تغلب فيه الرسالة على القيادة العسكرية، ولا يلجأ إلى هذه القيادة إلا حين توجبها رسالة الهداية..

ويزيد هذه الشهادة عظمًا أن الرجل الذى يجتنب القتال فى غير ضرورة رجل شجاع غير هياب..

شجاع وليس كبعض الهداة المصلحين الذين تجوز فيهم فضيلة الطيبة على فضيلة الشجاعة، فيحجمون عن القتال لأنهم ليسوا بأهل قتال.

إن بعض المستشرقين زعموا أنه عليه الصلاة والسلام قد اشترك فى حرب الفجار بتجهيز السهام، لأنه عمل أقرب إلى خلقه من الخوض فى معمعة القتال.. وكأنهم أرادوا أنه لم يكن قادرًا على المشاركة فى المعمعة بغير ذلك..

فهذا خطأ فى الإحاطة بمزايا هذه النفس العظيمة التى تعددت جوانبها حتى تجمعت فيها أطيب صفات الحنان وأكرم صفات البسالة والإقدام..

فمحمد كان فى طليعة رجاله حين تحتدم نار الحرب ويهاب شواظها من لا يهاب، وكان علىّ فارس الفرسان يقول: «كنا إذا حمى البأس اتقينا برسول الله ﷺ.. فما يكون أحد أقرب منه إلى العدو».

* * *

ولولا ثباته فى وقعة حنين، وقد ولت جمهرة الجيش وأوشك أن ينفرد وحده فى وجه الرماة والطاعنين، لحقّت الهزيمة على المسلمين.

وخروجه والليل لما يسفر عن صبحه ليطوف بالمدينة مستطلعًا، وقد هددها الأعداء بالغارة والحصار أمر لو لم تدعه إليه الشجاعة الكريمة لم يدعه إليه شىء.. لأن المدينة كانت يومئذ حافلة بمن يؤدون عنه مهمة الاستطلاع وهو قرير فى داره، ولكنه أراد أن يرى بنفسه فلم يثنه خوف ولم يعهد بهذا الواجب إلى غيره.

ومشاركته فى الوقعات الأخرى هى مشاركة القائد الذى لا يعفى نفسه وقد أعفته القيادة من مشاركة الجند عامة فيما يستهدفون له، فهى شجاعة لا تؤثر أن تتوارى حيث يتاح لها أن تتوارى، وعندها العذر المقبول بل العذر المحمود.

وإذا كان القائد خبيرًا بالحرب قديرًا عليها غير هياب لمخاوفها، ثم اكتفى منها بالضرورى الذى لا محيض عنه.. فذلك هو الرسول تأتيه الشهادة بالرسالة من طريق القيادة العسكرية، وتأتى جميع صفاته الحسنى تبعًا لصفات الرسول.

خصائص العظمة

لكن للعظمة خصائص تدعو إلى العجب، وإن كانت معروفة الأسباب.. وناهيك بالعظمة التى ترتقى هذا المرتقى.

فمن تلك الخصائص أنها قد توصف بالنقيض فى وقت واحد..

لأنها متعددة الجوانب، فيراها أناس على صورة ويراها غيرهم على صورة أخرى، وربما رأتها العين الواحدة على اختلاف فى الوقتين المختلفين..

ولأنها تبعث الحب الشديد كما تبعث البغض الشديد، وبين الطرفين مجال للاعتدال يستقيم للراشدين، وجال للمغالاة من هنا وللمغالاة من هناك..

ولأنها عميقة الأغوار فلا يسهل استبطانها لكل ناظر، ولا يتأتى تفسيرها لكل مفسر..

وهذا إذا سلمت النفوس من سوء النية.. فأما إذا ساءت النيات وران الهوى على البصائر فلا عجب إذن فى الضلال.

* * *

ومن خصائص العظمة النبوية فى محمد عليه السلام أنه وصف بالنقيضين على ألسنة المتعصبين من أعداء دينه.. فهو عند أناس منهم صاحب رقة تحرمه القدرة على القتال، وهو عند أناس آخرين صاحب قسوة تضريه بالقتل وإهدار الدماء البشرية فى غير جريرة. وتنزه محمد عن هذا وذاك..

فإذا كانت شجاعته عليه السلام تنفى الشبهة فى رقة الضعف والخوف المعيب، فحياته كلها من طفولته الباكرة تنفى الشبهة فى القسوة والجفاء.. وإذ كان فى كل صلة من صلاته بأهله أو بمرضعاته أو بصحبه أو بزوجاته أو بخدمه مثلا للرحمة التى عز نظيرها فى الأنبياء.

ولا نقف كثيرًا عند الحوادث التى ذكرها المتعصبون ليستدلوا بها على إهدار الدماء فى غير جريرة. فأكثرها لم يثبت قط ثبوتًا يقطع الشك فيه، ولا سيما القول بتحريض النبى عليه السلام على قتل عصماء بنت مروان اليهودية لأنها كانت تهجو الإسلام والمسلمين. فإن النبى عليه السلام قد نهى فى قول صريح عن قتل النساء وكرر نهيه فى غير موضع،

حتى قال بعض الفقهاء بمنع قتل المرأة وإن خرجت للقتال، ما لم يكن ذلك لدفع خطر لا يدفع بغير قتلها.

* * *

والحادث الوحيد الذى يستحق الالتفات إليه هو مقتل كعب بن الأشرف الذى كان يهجو المسلمين، ويقدح فى دينهم، ويؤلب عليهم الأعداء، ويأتمر بقتل النبى، ويدخل فى كل دسيسة تنقض معالم الاسلام.. وكان مع قومه بنى النضير معاهدًا على أن يحالف المسلمين، ويحارب من يحاربونهم، ولا يخرج لقتالهم، ولا يقابلهم إلا بما يقابل به الحليف حليفه من المودة والمعونة.

فنقض العهد وزاد على نقضه تأليب العرب مع قومه على النبى وصحبه، وأنه رجع إلى المدينة «فشبب بنساء المسلمين حتى آذاهم» وافترى عليهن وعليهم ما ليس يفتريه رجل شريف وليس يرضاه فى عرضه عربى غيور.

ورد فى حديث مقتله أن الرهط الذين خرجوا لقتله انتهوا إلى حصنه، فهتف به أبو نائلة – وكان حديث عهد بعرس – فوثب فى ملحفته.. فأخذت امرأته بناصيتها وقالت: «إنك امرؤ محارب، وإن أصحاب الحرب لا ينزلون فى هذه الساعة!».

وصدقت امرأته حين وصفته بأنه محارب يعامل معاملة المحاربين وقد حنثوا فى أيمانهم، فلم يكن راعيا لعهده ولم يكن له وازع من نفسه ولا من قومه، ولم يكن مأمونًا على المسلمين وهو لائذ بحصنه.. فهو أقل الناس حقًّا فى أمان.

وجاء فى الخبر أن النبى عله السلام أقر مقتله، فعاب بعض المؤرخين الأوربيين ذلك وحسبوه خروجًا على سنن القتال يشبه فعلة نابليون الكبير حتى أمر باختطاف الدوق دنجان ومحاكمته بغير حق.. مع ما بين الحادثين من بون بعيد بيناه من قبل فلا نعود إليه..

إلا أننا نوجز هنا فلا نزيد على أن نشير إلى حكم القانون الدولى فى أحدث العصور على من يؤخذون بصنيع معيب كصنيع ابن الأشرف، وإن لم يبلغ مبلغه من الغدر والكيد والإساءة إلى الأعراض.

ذلك هو حكم الأسير الذى ينطق بعهد الشرف ألا يعود إلى القتال، فإن القانون

الدولى يوجب عليه أن يوفى بعهده ويوجب على حكومته ألا تندبه إلى عمل ينقض ما عاهد الأعداء عليه، ويقضى بحرمانه حق المعاملة كما يعامل أسرى الحرب إذا شهر السلاح على الذين أطلقوه أو على حلفائهم المحاربين فى صفوفهم ويصح إذن أن يحاكم كما يحاكم المذنبون ويقضى عليه بالموت[1].

* * *

فقوانين العصر الحديث إذن تعاقب بالموت جريمة أهون من جريمة كعب بن الأشرف بكثير، لأنه تجاوز الغدر إلى التأليب والائتمار وثلب الأعراض.

وليس فى توقيع هذه الأحكام قسوة ولا رحمة، لأن المرجع فيها إلى الضرورة التى أوجبت القصاص وفرضته على الناس فى أحوال السلم بين أبناء الأمة الواحدة، فضلا عن أحوال القتال بين الأعداء.

أسرى غزوة بدر

ويلحق بقتل ابن الأشرف ما أخذه بعض المستشرقين من قتل بعض الأسرى بعد غزوة بدر وخروج النبى إلى ساحة الحرب لرؤية صرعى المعركة وغنائمها بعد انتهائها.. فهو أمر لا يصح الحكم فيه إلا بالنظر إلى موضعه وموقعه وأشخاصه، لأنه ليس بالحكم العام الذى اتبعه الإسلام فى جميع الأسرى وجميع الحروب، وإنما هى حالة أفراد كانوا معروفين بتعذيب المسلمين والتنكيل بهم فى غير مبالاة ولا نخوة. وليست هى كحالة الأسرى الذين يقعون فى أيدى أعدائهم غير معروفين بماض ولا بحاضر سوى أنهم جند كسائر الجند الذين يحشدهم الأعداء.. فقتل الأسرى بعد بدر إن هو إلا قصاص كقصاص المتهمين بالتعذيب وقد وقعوا فى أيدى من يتولى عقابهم من الغالبين. جاز هذا فى كل قانون، وجاز أن يحاسب المغلوب على جرائمه التى ليست هى من فروض القتال أو من مباحاته فى شىء.. وفرق بين معاملة هؤلاء ومعاملة أسير كل ما تعلمه فى شأنه أنه جندى لا بغضاء بينك وبينه قبل حمل السلاح ولا بعد وضع السلاح وليس فى عمله محل للثأر والمحاسبة بعد انقضاء واجبه وهو القتال الشريف..

* * *

(١) «أوبنهايم» الجزء الثانى صفحة ٣٠٢.

أما رؤية القتلى فى ساحة الحرب، فقد نسى فيها اولئك الناقدون أن اغتباط المنتصر بفوزه طبيعة إنسانية لا غضاضة فيها.. ما لم تجاوز حدها إلى الفرح برؤية الدماء لمحض الفرح برؤية الدماء. وهذا ما لم يزعمه أحد من شاهدى المعركة عن النبى عليه السلام، ولا نم عليه كلام أحد من المشركين أو المسلمين.

ونسى أولئك الناقدون كذلك أن الرجل الذى يرى الدم فى المدينة العصرية، غير الرجل الذى يرى الدم فى حروب البادية وفى حياة البادية على الإجمال.. ونعنى بها حياة الرعاة التى تتكرر فيها إراقة الدم كل يوم وحياة القبائل التى كانت تغزو وتغزى فى كثير من الأيام..

فإنك لا ترمى بالقسوة طبيبًا قد ألف النظر إلى الجثث وأشلائها والأجسام الحية وجراحها.. لأن الطب لن يكون فى الدنيا رحمة من الرحمات إن لم يألف الأطباء هذه المناظر ويملكوا جأشهم وهم يفتحون أعينهم عليها. ولكنك قد ترمى بالقسوة إنسانًا لم تقع عينه على منظر مثلها ثم هى تفاجئه فلا ينفر منها، وما من رجل عاش فى البادية وشهد غزوة من غزواتها يمكن أن يقال فيه إن ساحة الحرب تفاجئه بما لم يكن يراه، أو بما يستلزم النظر إليه قسوة فى الطباع واستراحة إلى رؤية الدماء.

كان على أولئك الناقدين أن يشهدوا بدرًا، لينظروا بعين النبى إلى عواقب هذه الوقعة التى أوشكت أن تصبح الوقعة الحاسمة فى تاريخ الإسلام.

* * *

كان عليهم أن ينظروا هنالك بعين النبى إلى جيشين.. أحدهما فيه السلاح والخيل والعدد، والآخر فى ثلث من يقاتلونه عددًا، ويكاد أن يتجرد من كل سلاح غير السيف ومن كل مطية غير الأقدام.

وكان عليهم أن يلمسوا إشفاق النبى من عاقبة هذه الوقعة ويستمعوا إليه وهو يناشد ربه: «اللهم هذه قريش قد أتت بخيلائها تكذب رسولك اللهم فنصرك الذى وعدتنى.. اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد..»

وكان عليهم أن ينظروا إليه، وقد مد يديه وشخص ببصره وجمع نفسه فى صلاته. حتى جعل رداؤه يسقط عن منكبيه وأبو بكر يرده ويناديه: «بعض مناشدتك ربك فإن الله

منجز لك ما وعدك.. وهو لا يلتفت إلى سقوط ردائه ولا إلى مناداة صفيه، لاستغراقه فى الدعاء..»

وكان عليهم أن يعلموا حرص قريش أن يستبقوا رجالا منهم، يرجعون إلى مكة قبل المعركة أو بعدها ليثابروا على مناوأة النبى وإعادة الكرة عليه حتى لا يهدأ له بال بعد الصبر على هذا الجهد. وليس الصبر عليه بيسير..

كان على الناقدين أن يعلموا هذا كله ليعلموا أن الشعور بالفرح فى مثل هذا الموقف العصيب أمر لا غرابة فيه، وأنه شعور مطبوع فى نفس حية تجاوب كل ما يحيط بها من بواعث الحياة فى مواقف السلم أو مواقف القتال. فأول ما يبادر النفس الحية من شعور مطبوع صادق فى ذلك الموقف أن تغتبط بالنصر، وتخرج من الضيق إلى الفرج، وتنظر فى ساحة الحرب إلى من قضى فيها من قريش ومن عاد منها إلى وكره ليعيد الكرة ويستأنف الإيذاء والمكيدة، وأن ترى ما هى تلك الأسباب والغنائم التى أوشكت أن تفتن بعض المقاتلين لأنها أول شىء شهدوه من نوعه، ولما ينزل حكم الدين فى سلب أو غنيمة.

إن محمدا رجل حى جياش النفس بدوافع الحياة، وليس بناسك مهزول من نساك الصوامع الذين يكتمون فى جوانحهم كل دافعة وكل إحساس.. فامتناعه أن يشهد نتيجة المعركة التى سبقتها كل تلك المخاوف وستلحق بها كل تلك العواقب أمر لم يكن بالمنتظر من قائد فى مثل موقفه ولم تكن توجبه الفطرة الإنسانية على المقاتل.. وهو فى اللحظة الأولى بعد الظفر خليق أن يعلم مدى انتصاره، ومدى ما يتوقعه بعده، ومدى ما فعلته الفئة القليلة بالفئة الكثيرة، ليقيس عليه ما تفعله مثلها فيما يليها من وقعات. وهؤلاء مراسلو الصحف الحربيون الذين يدرسون اليوم أشباه هذه المواقف يجدون من واجبهم ألا يتخلفوا عن ساحات القتال بعد انجلاء الفريقين، ليشرحوا دروس النصر والهزيمة بينها ويسجلوا ما لا غنى عن تسجيله فى جميع الحروب. فانصراف محمد عن ساحة بدر على إثر النصر عمل غريب يخل بمكانة القائد وبواجب التحقيق والاستفادة من كل ما يفيد.

بعد معركة الأحزاب

ونحن فى صدد الحديث عن الرحمة والقسوة يحسن بنا أن نستقصى ما ذكره المؤرخون

الأوربيون من مآخذ فى هذا الباب، وأهمه عدا ما قدمناه قتل المقاتلين من بنى قريظة بعد معركة الأحزاب.

فإن أولئك المؤرخين يستعظمون قتلهم ويحسبونه مخالفًا للعرف المتبع فى الحروب، وينسون أمورًا لا يصدق الحكم فى هذه المسألة ما لم يذكروها ويستحضروها أتم استحضار. وهى أن بنى قريظة حنثوا فى أيمانهم مرات فلا يجدى معهم أخذ المواثيق من جديد، وأنهم قبلوا حكم سعد بن معاذ وهم الذين اختاروه، وأن سعدًا إنما دانهم بنص التوراة الذى يؤمنون به كما جاء فى التثنية: «حين تقرب من مدينة لكى تحاربها استدعها إلى الصلح، فإن أجابتك إلى الصلح وفتحت لك. فكل الشعب الموجود فيها يكون لك للتسخير ويستعبد لك. وإن لم تسالمك بل عملت معك حربًا فحاصرها، وإذا دفعها الرب إلهك إلى يدك فاضرب جميع ذكورها بحد السيف، وأما النساء والأطفال والبهائم وكل ما فى المدينة كل غنيمة فتغنمها لنفسك وتأكل غنيمة أعدائك التى أعطاك الرب إلهك....» (إصحاح ١٠ إلى ١٥ تثنية).

* * *

وينبغى أن يسأل الناقدون أنفسهم بعد هذا: ماذا كان مصير المسلمين لو ظفرت بهم الأحزاب؟

فالقضاء الذى قضاه النبى فى بنى قريظة عدل وحكمة وصواب، وما من أحد يقضى غير ذلك القضاء وهو مؤتمن على مصير أمة يرحمها من غدر أعدائها، ومن لددهم فى خصومتها، ومن استباحتهم كل منكر فى التربص والوثبة بعد الوثبة عليها.

وإن حملة تأديبية واحدة من حملات العصور الحديثة يحملها قوم مسلحون على قوم عزل يذودون عن أوطانهم وحقوقهم، لفيها من البطش والتعذيب ما لم يحدث قط نظير له فى عقاب بنى قريظة، ولا فى جميع الحروب التى نشبت بين النبى عليه السلام وبين أعداء له ولدينه، هم المتفوقون عليه فى العدد والثروة والسلاح.

إن عبقرية محمد فى قيادته لعبقرية ترضاها فنون الحرب، وترضاها المروءة، وترضاها شريعة الله والناس، وترضاها الحضارة فى أحدث عصورها، ويرضاها المنصفون من الأصدقاء والأعداء.

عبقرية محمد
السياسية

سياسة الخصوم والأتباع

السياسة على معان كثيرة فى العرف الحديث.

فمنها ما يكون بين بعض الدول وبعض من المراسم والعلاقات، ومنها ما يكون بين هذه الدول من معاهدات وخطط فى أعمالها الخارجية، ومنها ما يكون بين الراعى ورعيته أو بين الأحزاب والوزارات من برامج ودعوات.. ولكل معنى من هذه المعانى اصطلاحه فى العرف الحديث، وأن جمعتها كلمة السياسة فى اللغة العربية.

وقد تولى النبى عليه السلام أعمالا كثيرة مما يطلق عليه لفظ السياسة فى عموم مدلوله.. ولكننا لا نعرف بينها عملا واحدًا هو أدخل فى أبواب السياسة، وأجمع لضروبها، وأبعد عن المشاركة فى صفة القيادة العسكرية أو صفة الوعظ العلنى أو سائر الصفات التى اتصف بها عليه السلام من عهد الحديبية فى مراحله جميعًا، منذ ابتدأ بالدعوة إلى الحج إلى أن انتهى بنقض الميثاق على أيدى قريش.

ففى عهد الحديبية تجلى تدبير محمد فى سياسة خصومه وسياسة أتباعه، وفى الاعتماد على السلم والعهد حيث يحسنان ويصلحان، والاعتماد على الحرب والقوة حيث لا تحسن المسالمة ولا تصلح العهود.

بدأ بالدعوة إلى الحج، فلم يقصره فى تلك السنة على المسلمين المصدقين لرسالته.. بل شمل به كل من أراد الحج من أبناء القبائل العربية التى تشارك المسلمين فى تعظيم البيت والسعى إليه، فجعل له وللعرب أجمعين قضية واحدة فى وجه قريش، ومصلحة واحدة فى وجه مصلحتها.. وفصل بذلك دعواها ودعوى القبائل الأخرى، ثم أفسد على قريش ما تعمدوه من إثارة نخوة العرب وتوجيهها إلى مناوأة محمد والرسالة الإسلامية. فليس محمد وأصحابه أناسًا معزولين عن النخوة العربية يضعون من شأنها ويبطلون مفاخرها،

ولكنهم إذن عرب ينتصر بهم العرب ولا يذلون بانتصارهم، أو يقطعون ما بينهم وبين آبائهم وأجدادهم. فإذا خالفوا قريشًا فى شىء فذلك شأن قريش وحدهم أو شأن المنتفعين من قريش بالسيطرة على مكة، وليس هو بشأن القبائل أجمعين.

ثم أفسد على قريش من جهة أخرى ما تعمدوه من إغضاب العرب على الإسلام، بما ادعوا من قطعه للأرزاق وتهديده للأسواق التى يعمرها الحاج ويستفيد منها الغادون إلى مكة والرائحون منها.. فها هو ذا محمد نفسه يأخذ معه المسلمين إلى مكة كما يأخذ معه من شاء مصاحبته من غير المسلمين قصاد البيت الحرام. فإذا حال بينهم وبين ما يقصدون إليه، فتلك جنايته وذلك وزره على نفسه وعلى قومه.. ولا وزر فيها أصاب الأرزاق أو أصاب الأسواق على المسلمين.

وقد سمعنا كثيرًا فى العصور الحديثة عن المقاومة السلبية أو المقاومة التى تجتنب العنف ولا تعتمد على غير وجه الحق والحجة.

سمعنا بها فى الحركة الهندية التى قام على رأسها غاندى وتابعه فيها بعض مريديه، حتى كان لها من الأثر فى إزعاج الحكومة البريطانية ما لم يكن للقنابل ولا للمشاغبات الدامية.

وقيل يومئذ إن غاندى قد تتلمذ فى هذه الحركة على المصلح الروسى الكبير ليون تولستوى.. وقيل بل هو أحرى أن يعرفها من آداب البرهميين والبوذيين التى تحرم إيذاء الحيوان فضلا عن الإنسان، قبل أن يشرع ليون تولستوى مذهبه الجديد.

والذين قالوا بهذا الرأى الأخير استبعدوا أن يتفق المسلمون والبرهميون والبوذيون على حركة غاندى وتبشيره بتلك المقاومة السلبية، لاعتقادهم أن الإسلام قد شرع للقتال فلا يوائم المسلمين ما يوائم البوذيين والبرهميين، من اجتناب القوة والتزام السلم وترك المقاومة.

لكن المثل الذى قدمه النبى صلوات الله عليه فى رحلة الحديبية ينقض ما توهموه؛ ويبين لهم أن الإسلام قد أخذ من كل وسيلة من وسائل نشر الدعوة بنصيب يجرى فى حينه مع مناسباته وأسبابه.. فلا هو يركن إلى السيف وحده ولا إلى السلم وحده، بل يضع كليهما حيث يوضع، ويدفع بكليهما حيث ينبغى أن يدفع، وهو الحكم المتصرف حيث

يختار ما يختار، وليس الآلة التي يسوقها السلم أو الحرب مساق الاضطرار.

* * *

وقد خرج النبي إلى مكة في رحلة الحديبية حاجًا لا غازيًا.. يقول ذلك ويكرره ويقيم الشواهد عليه لمن سأله، ويثبت نية السلم بالتجرد من السلاح، إلا ما يؤذن به لغير المقاتلين.

فلم يفصل بهذه الخطة بين العرب وقريش وحسب.. بل فصل بين قريش ومن معهم من الأحابيش وجعل الزعماء وذوي الرأي يختلفون فيما بينهم على ما يسلكون من مسالك في دفعه أو قبوله أو مهادنته، وهو عليه السلام يكرر الوصاية لأتباعه بالمسالمة والصبر منعًا للاتفاق بين خصومه على قرار واحد، وقل من أتباعه من أدرك قصده ومرماه حتى الصفوة المختارين.

ولما اتفق الطرفان – المسلمون وقريش – على التعاهد والتهادن، كانت سياسة النبي في قبول الشروط التي طلبتها قريش غاية في الحكمة والقدرة «الدبلوماسية» كما تسمى في اصطلاح الساسة المحدثين.

دعا بعلي بن أبي طالب فقال له: «بسم الله الرحمن الرحيم».

فقال سهيل بن عمرو مندوب قريش: «أمسك! لا أعرف الرحمن الرحيم، بل اكتب باسمك اللهم».

فقال النبي: «اكتب باسمك اللهم»..

ثم قال: «اكتب (هذا ما صالح عليه محمد رسول الله سهيل بن عمرو)».

فقال سهيل: «أمسك لو شهدت أنك رسول الله لم أقاتلك، ولكن اكتب اسمك واسم أبيك».

وروى أن عليًا تردد فمسح النبي ما كتب بيده، وأمره أن يكتب «محمد بن عبد الله في موضع محمد رسول الله».

ثم تعاهدوا على أن من أتى محمدًا من قريش بغير إذن وليه رده عليهم، ومن جاء

قريشًا من رجال محمد لم يردوه عليه، وأنه من أحب من العرب محالفة محمد فلا جناح عليه.. ومن أحب محالفة قريش فلا جناح عليه، وأن يرجع محمد وأصحابه عن مكة عامهم هذا على أن يعودا إليها فى العام الذى يليه، ويقيموا بها ثلاثة أيام معهم من السلاح السيوف فى قربها ولا سلاح غيرها.

* * *

ولو كان عهد الحديبية هذا قد كتب بعد قتال انهزم فيه المشركون وانتصر فيه المسلمون، لوجب أن يكتب على غير هذا الأسلوب. فيعترف المشركون كرهًا أو طوعًا بصفة النبوة، ولا يردون أحدًا من مواليهم أو قاصريهم يذهب إلى النبى ويلحق بالمسلمين.

ولكنه عهد مهادنة أو عهد «إيقاف أعمال العداء إلى حين» كما يسمونه فى اصطلاح العصر الحاضر.. فلا يعوزه شيء من الأصول المرعية فى أمثال هذه العهود، من إثبات صفة المندوبين التى لا إرغام فيها لأحد الطرفين ولا مخالفة لدعوى الفريقين، ومن حفظ كل لحقه فى تجديد دعواه واستئناف مسعاه.

فلو أن النبى عليه السلام شرط على قريش أن ترد إليه من يقصدها من رجاله لنقض بذلك دعوى الهداية الإسلامية، ونقض الوصف الذى يصف به المسلمين.. فإن المسلم الذى يترك النبى باختياره ليلحق قريشًا ليس بمسلم، ولكنه مشرك يشبه قريشًا فى دينها وهى أولى به من نبى الإسلام.

أما المسلم الذى يرد إلى المشركين مكرمًا فإنما الصلة بينه وبين النبى هى الإسلام، وهو شيء لا سلطان عليه للمشركين ولا تنقطع الصلة فيه بالبعد والقرب.. فإن كان الرجل ضعيف الدين ففتنوه عن دينه فلا خير فيه وإن كان وثيق الدين فبقى على دينه فلا خسارة على المسلمين.

وما انقضت فترة وجيزة حتى علمت قريش أنها هى الخاسرة بذلك الشرط الذى حسبته غنمًا لها وخذلانًا لمحمد صلوات الله عليه.. فإن المسلمين الذين نفروا من قريش ولم يقبلهم محمد فى حوزته رعاية لعهده، قد خرجوا إلى طريق القوافل يأخذونها على تجارة قريش وهى أمان فى عهد الهدنة بين الطرفين، فلا استطاع المشركون أن يشكوهم

إلى النبى لأنهم خارجون من ولايته بحكم الهدنة، ولا استطاعوا أن يحجزوهم فى مكة كما أرادوا يوم أملوا شروطهم فى عهد الحديبية، ولو قضى العهد بولاية النبى على من ينفر من مسلمى مكة لجاز للمشركين أن ينقضوه أو يطالبوا النبى بالمحافظة عليه.

* * *

وتم العهد.. فعرف من لم يعرف ما أفاء على الإسلام بعد قليل.

فجهر بمحالفة النبى من لم يكن يجهر بولائه.. واستراح النبى من قريش، ففرغ ليهود خيبر وللممالك الأجنبية يرسل الرسل إلى عظمائها بالدعوة إلى دينه، وفتح الأبواب لمن يفدون إليه ممن أنكروا بغى قريش وآمنوا أن تكون نصرتهم للإسلام حربًا يبتلون فيها بما لا يطيقون.

ويوم نزلت الآية الكريمة على إثر اتفاق الحديبية: «إنا فتحنا لك فتحًا مبينًا ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر، ويتم نعمته عليك ويهديك صراطًا مستقيمًا» لم يفقه الكثيرون معناها فى حينها، ولم يتبينوا موضع الفتح من ذلك الاتفاق الذى حسبوه محض تسليم.. ولكنهم فهموا أى فتح هو بعد سنتين، وعلموا أن من الفتوح ما يكون بغير السيف، وما يشبه الهزيمة فى ظاهره عند من يتعجلون ولا يحسنون النظر إلى بعيد.

الفتح المبين

كان فى تلك السنة فتح يراه الناظر بعين الغيب ولا يراه الناظر بعينه، ولكنها سنة واحدة ثم رأى الفتح المبين من لا يرون بغير العيون.. رأوه وامتلأت عيونهم بالنظر إليه، فسر قومًا وساء آخرين.

ففى السنة التالية نادى الرسول أصحابه أن يتجهزوا للحج ولا يتخلف أحد ممن شهد الحديبية، فخرجوا فى شوق المنطلق بعد منع والمنتظر بعد صبر، إلا من استشهد فى خيبر وأدركته الوفاة خلال العام. وخرج معهم جمع كبير ممن لم يشهدوا الحديبية يتبعهم النساء والأطفال، وساقوا أمامهم ستين بدنة مقلدات للهدى، وقد حملوا السلاح والدروع والرماح وعلى رأسهم مائة فارس يقودهم محمد بن سلمة.

فلما انتهى الرسول وصحبه إلى ذى الحليفة قدم الخيل أمامه، وعلمت قريش بالنبأ ففزعوا وبعثوا بمكرز بن حفص فى نفر منهم فجاءوا يقولون: «والله يا محمد ما عرفت صغيرًا ولا كبيرًا بالغدر.. تدخل بالسلاح فى الحرم على قومك وقد شرطت عليهم ألا تدخل إلا بسلاح المسافر: السيوف فى القرب؟» فقال عليه السلام: «إنى لا أدخل عليهم بسلاح» قال مكرز: «هو الذى تعرف به: البر والوفاء».

وإنما حمل النبى السلاح للحيطة كما قال لصحبه: «إن هاجنا هائج من القوم كان السلاح قريبًا منا».. وتركه فى الحراسة على مقربة من مكة حيث يوصل إليه عند الحاجة إليه.

ثم أقبل عليه السلام على ناقته القصواء وجموع المسلمين محدقون به متوشحون بالسيوف يلبون ويهللون، وأخذ عبد الله بن رواحة بزمام القصواء وهو ينشد:

خلوا بنى الكفار عن سبيله خلوا فكل الخير فى رسوله
يارب إنى مؤمن بقيله إنى رأيت الحق فى قبوله

وأوشك وقد هزته النخوة أن يصيح فى قريش صيحة الحرب، فنهاه عمر رضى الله عنه وأمر النبى أن ينادى ولا يزيد «لا إله إلا الله وحده، نصر عبده، وأعز جنده، وخذل الأحزاب وحده». فرفع ابن رواحة بها صوته الجهير، وتلاه المسلمون يرددونها وتهتز بها جنبات الوادى القريب، فيسمعها من فارقوا مكة لكيلا يسمعوها ولا يروا ركب النبى يخطو فى نواحيها.

* * *

وكان الفتح الذى بصر به عيانًا لم يره يوم الحديبية بنور البصيرة، وأسلم من الضعفاء والأقوياء من كان عصيًا على الإسلام: فريق منهم بهرهم وفاء النبى بعهده مع استطاعة نقضه، وفريق منهم راعهم سمت الدين ورحم الإسلام فيما بين المسلمين وجمال ما بينهم وبين نبيهم من طاعة وتمكين، وفريق منهم علموا أن العاقبة للإسلام فجنحوا إلى طريق السلامة والسلام، وحسبك أن عمرة القضاء هذه قد جمعت فى آثارها من أسباب الإقناع بالدعوة المحمدية ما أقنع خالد بن الوليد وعمرو بن العاص، وهما فى رجاحة الخلق والعقل مثلان متكافئان، وإن كانا لا يتشابهان.

وهكذا تجلت عبقرية محمد فى سياسة الأمور كما تجلت فى قيادة الجيوش. فكان على أحسن نجاح فى سياسته إذ نادى بعزيمة الحج وهو لم يفتح مكة بعدده وعدته، وإذ دعا المسلمين وغير المسلمين إلى مصاحبته فى رحلته، وإذ توخى ما توخى من طريقة المسالمة وإقامة الحجة فى إنفاذ عزيمته، وإذ قبل العهد الذى كبر قبوله على أقرب المقربين من عترته، وإذ نظر إلى عقباه ووصل به إلى القصد الذى توخاه.

عبقرية محمد الإدارية

ملكات شخصية

فى الإسلام أحكام كثيرة مما يدخل فى تصرف رجال الإدارة كما نسميهم اليوم.. وفيه وصايا كثيرة عن المعاملات، كالمساندة والمبايعة والاستقراض والشفعة والتجارة وسائر شئون المعيشة الاجتماعية يقتدى بها المشترعون فى جميع العصور.

ولكنا لا نريد بما نكتب عن النبى أن نسرد أحكام الفقه ونبسط وصايا الدين، فهى مشروحة فى مواطنها لمن شاء الرجوع إليها

وإنما نريد أن نعرض لأعماله ووصاياه من حيث هى ملكات شخصية وسلائق نفسية، تلازمه حيث كان مؤديًا لرسالة الدين، أو مؤديًا لغير الرسالة من سائر أعمال الإنسان.

كذلك لا يعنينا مثلًا أن نتكلم عن «الإرادة» كأنها نصوص المنشورات و«اللوائح» التى تدار بها الدواوين وتجرى عليها تفصيلات الحركة فى مكاتب الحكومة، فإن هذه وما إليها هى أعمال منفذين مأمورين وليست أعمال مديرين آمرين، وإنما نعنى الملكة الإدارية من حيث هى أساس فى التفكير: من اعتمد عليه استطاع أن يقيم بناء الإدارة كلها على أسس قوية، ثم يدع لغيره تفصيلات الأضابير والأوراق.

فليس فى وسع رجل مطبوع على الفوضى مستخف بالتبعة أن يؤسس إدارة نافعة ولو كان فيما عدا ذلك كبير العقل كبير الهمة.

أما السليقة المطبوعة على إنشاء الإدارة النافعة فهى السليقة التى تعرف النظام، وتعرف التبعة، وتعرف الاختصاص بالعمل، فلا تسنده إلى كثيرين متفرقين يتولاه كل منهم على هواه.

وقد كانت هذه السليقة فى محمد عليه السلام على أتم ما تكون.

كان يوصى بالرياسة حيثما وجد العمل الاجتماعى أو العمل المجتمع الذى يحتاج إلى

تدبير. ومن حديثه المأثور: «إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا أحدهم» ومن أعماله المأثورة أنه كان يرسل الجيش وعليه أمير وخليفة للأمير وخليفة للخليفة إذا أصيب من تقدمه بما يقعده عن القيادة. وكان قوامَ الرئاسة والإمامة عنده شرطان هما جماع الشروط فى كل رئاسة، وهما الكفاءة والحب: «أيما رجل استعمل رجلا على عشرة أنفس علم أن فى العشرة أفضل ممن استعمل فقد غش الله وغش رسوله وغش جماع المسلمين»..

و«أيما رجل أمّ قومًا وهم له كارهون لم تجز صلاته أذنيه».

وكان إلى عنايته بإسناد الأمر إلى المدير القادر عليه حريصًا على تقرير التبعات فى الشئون ما كبر منها وما صغر، على النهج الذى أوضحه صلوات الله عليه حيث قال: «كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته. فالأمير الذى على الناس راع وهو مسئول عن رعيته، والرجل راع على أهل بيته وهو مسئول عنهم، والمرأة راعية على بيت بعلها وهى مسئولة عنه، والعبد راع على مال سيده وهو مسئول عنه. ألا فكلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته»

وقد كانت أوامر الإسلام ونواهيه معروفة لطائفة كبيرة من المسلمين أنصارًا كانوا أو مهاجرين، ولكنه عليه السلام لم يترك أحدًا يدعى لنفسه حقًا فى إقامة الحدود، وإكراه الناس على طاعة الأوامر، واجتناب النواهى غير من لهم ولاية الأمر وسياسة الناس.

فلما قتل بعض المسلمين غداة فتح مكة رجلًا من المشركين غضب عليه السلام، وقال فيما قال من حديثه المبين: «.. فمن قال لكم إن رسول الله قد قاتل فيها فقولوا إن الله قد أحلها لرسوله ولم يحللها لكم يا معشر خزاعة..» ولما أراد أن يصادر الخمر نهج فى ذلك منهجًا يقصد به إلى التعليم والاستنان كما جاء فى رواية ابن عمر حيث قال:

«أمرنى النبى صلى الله عليه وسلم أن آتيه بمدية، فأتيته بها، فأرسل بها فأرهفت ثم أعطانيها فقال: اغد على بها. ففعلت، فخرج بأصحابه إلى أسواق المدينة وفيها زقاق الخمر قد جلبت من الشام. فأخذ المدية منى فشق ما كان من تلك الزقاق بحضرته ثم أعطانيها، وأمر الذين كانوا معى أن يمضوا معى ويعاونونى، وأمرنى أن آتى الأسواق كلها فلا أجد فيها زق خمر إلا شققته ففعلت، فلم أترك فى أسواقها زقًا إلا شققته»

وهذا تصرف المدير بعد تصرف النبى الذى يبين الحرام ويبين الحلال: فالخمر شربها

وبيعها ونقلها حرام يعلمه جميع المسلمين، من تفقه منهم ومن لم ينفقه فى الدين، ولكن المحرمات الاجتماعية ينبغى أن تكون فى يد ولى المسلمين لا فى يد كل فرد يعرف الحلال والحرام. وليست المسألة هنا مسألة تحريم وتحليل، ولكنها مسألة إدارة وتنفيذ فى مجتمع حافل يشتمل على شتى المصالح والأهواء، ولا يصاب ببلاء هو أضر عليه من بلاء الفوضى والاضطراب واختلاف الدعاوى وانتزاع الطاعة وتجاهل السلطان فلم يكتف النبى عليه السلام بصريح التحريم فى القرآن، ولا اكتفى بإسناد الأمر إلى غير معروف الصفة فى تنفيذ الأحكام، بل خرج بنفسه ثم أمر رجلًا بعينه وأناسًا بأعينهم أن يمضوا فى إتمام عمله، ولم يجعل ذلك إذنًا لمن شاء أن يفعل ما شاء.

وما أكثر ما سمعنا فى أيامنا الأخيرة عن الأمن والنظام، وتوطيد أركان الشريعة والقانون، ولكننا لا نعرف فى كل ما قيل كلامًا هو أجمع لوجوه الصواب فى هذه المسألة من قول النبى: «السمع والطاعة حق ما لم يؤمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة» ومن قوله فيما رواه عبادة بن الصامت: «.. ألا ننازع الأمر أهله إلا أن تروا كفرًا بواحًا عندكم من الله فيه برهان». ومن قوله: «الإمام الجائر خير من الفتنة، وكل لا خير فيه. وفى بعض الشر خيار». ومن قوله: «إن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم» إلى أحاديث فى هذا المعنى هى جماع الضوابط التى تقوم عليها الإدارة الحكيمة، والخطط السليمة المستقيمة، بين آمر ومأمور.

نظام وفوق النظام سلطان، وفوق السلطان برهان من الشرع والعقل لاشك فيه. وجميع أولئك على سماحة لا تتعسف النزاع ولا تتعسف الريبة ولا تلتمس الغلواء.

هذا الإلهام النافذ السديد فى تدبير المصالح العامة، وعلاج شئون الجماعات، هو الذى أوحى إلى الرسول الأمى قبل كشف الجراثيم، وقبل تأسيس الحجر الصحى بين الدول، وقبل العصر الحديث بعشرات القرون، أن يقضى فى مسائل الصحة واتقاء نشر الأوبئة بفصل الخطاب الذى لم يأت العلم بعده بمزيد، حيث قال: «إذا سمعتم بالطاعون بأرض فلا تدخلوها، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

فتلك وصية من ينظر فى تدبيره إلى العالم الانسانى بأسره لا إلى سلامة مدينة واحدة أو سلامة فرد واحد. إذ ليس أصون للعالم من حصر الوباء فى مكانه، وليس من حق مدينة أن تنشد السلامة لنفسها أو لأحد من سكانها بتعويض المدن كلها لعدواها.

تدبير الشئون العامة

على أن الإدارة العليا تتجلى فى تدبير الشئون العامة حين تصطدم بالأهواء وتنذر بالفتنة والنزاع، فليست الإدارة كلها نصوصًا وقواعد يجرى الحاكم فى تنفيذها مجرى الآلات والموازين التى تصرف الشئون على نسق واحد، ولكنها فى كثير من الأحيان علاج نفوس وقيادة أخطار لا أمان فيها من الانحراف القليل هنا أو الانحراف القليل هناك.

وذلك هو المجال الذى تمت فيه عبقرية محمد فى حلول التوفيق واتقاء الشرور أحسن تمام. فما عرض له تدبير أمر من معضلات الشقاق بعد الرسالة ولا قبلها إلا أشار فيه بأعدل الآراء، وأدناها إلى السلم والإرضاء.

صنع ذلك حين اختلفت القبائل على أيها يستأثر بإقامة الحجر الأسود فى مكانه، وهو شرف لا تنزل عنه قبيلة لقبيلة، ولا تؤمن عقبى الفصل فيه بإيثار إحدى القبائل على غيرها ولو جاء الإيثار من طريق المصادفة والاقتراع، فأشار محمد بالرأى الذى لا رأى غيره لحاضر الوقت ولمقبل الغيب المجهول. فجاء بالثوب ووضع الحجر الأسود عليه وأشرك كل زعيم فى طرف من أطرافه، وكان من قسمته هو على غير خلاف بين الناس أن يقيمه بيده حيث كان، وأن ينسلف الدعوة وهى مكنونة فى طوايا الزمان ولو علموا بها يومئذ لما سلموا ولا سلم من عدوان وشنآن.

وصنع ذلك يوم هاجر من مكة إلى المدينة فاستقبلته الوفود تتنافس على ضيافته ونزوله: وهو يشفق أن يقدح فى نفوسها شرر الغيرة بتمييز أناس منهم على أناس أو اختيار محلة دون محلة.. فترك لناقته خطامها تسير ويفسح الناس لها طريقها حتى بركت حيث طاب لها أن تبرك، وفصلت فيما لو فصل فيه إنسان كبير أو صغير لما مضى فصله بغير جريرة لا تؤمن عقباها بعد ساعتها، ولو أمنت فى تلك الساعة على دخل وسوء طوية.

وصنع ذلك يوم فضل بالغنائم أناسًا من أهل مكة الضعيف إيمانهم على الناس من الأنصار الذين صدقوا الإسلام وثبتوا على الجهاد، فلما غضب المفضولون لم يكن أسرع منه إلى إرضائهم بالحجة التى لا تغلب من يدين بها، بل تريه أنه هو الغالب الكاسب

وأنها تصيب منه المقنع والإقناع فى وقت واحد: «أوجدتم يا معشر الأنصار فى لعاعة من الدنيا تألفت بها قومًا ليسلموا ووكلتكم إلى إسلامكم؟.. ألا ترضون يا معشر الأنصار أن يذهب الناس بالشاة والبعير وترجعوا برسول الله إلى رحالكم؟. فوالذى نفس محمد بيده لولا الهجرة لكنت امرءًا من الأنصار، اللهم ارحم الأنصار وأبناء الأنصار وأبناء أبناء الأنصار...»

كلام مدير فيه الإدارة والرياسة هبة من هبات الخلق والتكوين.. فهو مدير حين تكون الإدارة تدبير أمور، ومدير حين تكون الإدارة تدبير شعور، وهو كفيل ألا يلى مصلحة من المصالح تعتورها الفوضى ويتطرق إليها الاختلال، لأنه يسوسها بالنظام وبالتبعة، وبالاختصاص وبالسماحة، وما من مجتمع يساس بهذه الخصال ويبقى فيه منفذ بعدها لاختلال أو انحلال، أو لخطل فى إدارة الأعمال..

التبليغ

«اللهم هل بلغت»!

هذه هى اللازمة التى رددها النبى فى أطول خطبه الأخيرة، وهى خطبة الوداع..

وهى لازمة عظيمة الدلالة فى مقامها، لأنها لخصت حياة كاملة فى ألفاظ معدودات. فما كانت حياة النبى كلها بعملها وقولها وحركتها وسكونها إلا حياة تبليغ وبلاغ، وما كان لها من فاصلة خاتمة أبلغ من قوله عليه السلام وهو يجود بنفسه «جلال ربى الرفيع فقد بلغت!».

ولصدق هذه الدلالة ترى أن السمة الغالبة على أسلوب النبى فى كلامه المحفوظ بين أيدينا هى سمة الإبلاغ قبل كل سمة أخرى.. بل هى السمة الجامعة التى لا سمة غيرها، لأنها أصل شامل لما تفرق من سمات هى منها بمثابة الفروع..

وكلام النبى المحفوظ بين أيدينا إما معاهدات ورسائل كتبت فى حينها، وإما خطب وأدعية ووصايا وأجوبة عن أسئلة كتبت بعد حينها وروعيت الدقة فى المضاهاة بين رواياتها جهد المستطاع.

والإبلاغ هو السمة المشتركة فى أفانين هذا الكلام جميعًا، حتى ما جرى منه مجرى القصص أو مجرى الأوامر إلى المرءوسين أو مجرى الدعاء الذى يلقنه المسلم ليدعو الله على مثاله.

انظر مثلا إلى قصة أصحاب الغار الثلاثة وتوسلهم بصالح الأعمال وهى كما جاء فى مختار مسلم:

«... بينما ثلاثة نفر يتمشون أخذهم المطر فآووا إلى غار فى جبل. فانحطت على فم غارهم صخرة من الجبل فانطبقت عليهم. فقال بعضهم لبعض: انظروا أعمالا عملتموها صالحة فادعوا الله تعالى بها، لعل الله يفرجها عنكم، فقال أحدهم: اللهم إنه كان لى

والدان شيخان كبيران وامرأتى، ولى صبية صغار أرعى عليهم. فإذا أرحت عليهم حلبت فبدأت بوالدى فسقيتهما قبل بَنِىَّ. وإنه نأى بى ذات يوم الشجر فلم آت حتى أمسيت، فوجدتهما قد ناما. فحلبت كما كنت أحلب فجئت بالحلاب فقمت عند رأسيهما أكره أن أوقظهما من نومهما، وأكره أن أسقى الصبية قبلهما والصبية يتضاغون عند قدمى. فلم يزل ذلك دأبى ودأبهم حتى طلع الفجر. فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة نرى منها السماء.

«ففرج الله منها فرجة فرأوا منها السماء».

«وقال الآخر: اللهم إنه كانت لى ابنة عم أحببتها كأشد ما يحب الرجال النساء، وطلبت إليها نفسها فأبت حتى آتيها بمائة دينار.. فتعبت حتى جمعت مائة دينار، فجئتها بها.

«فلما وقعت بين رجليها قالت: يا عبد الله! اتق الله ولا تفتح الخاتم إلا بحقه. فقمت عنها، فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا منها فرجة.. ففرج لهم.

«وقال الآخر: اللهم إنى كنت استأجرت أجيرًا بفرق[1] أرز، فلما قضى عمله قال: أعطنى حقى، فعرضت عليه فرقة فرغب عنه.. فلم أزل أزرعه حتى جمعت منه بقرًا ورعاءها، فقال: اتق الله ولا تظلمنى حقى! قلت: اذهب إلى تلك البقر ورعائها فخذها فقال: اتق الله ولا تستهزئ بى! فقلت: إنى لا أستهزئ بك. خذ ذلك البقر ورعاءها!.. فأخذه فذهب به.

«فإن كنت تعلم أنى فعلت ذلك ابتغاء وجهك فافرج لنا ما بقى».

«ففرج الله ما بقى».

توجيه الأمراء والولاة

هذا أسلوبه عليه السلام فى التعليم بالقصص.

فانظر إلى أسلوبه فى توجيه الأمراء والولاة كما جاء فى مختار مسلم حيث قال: «كان

(١) إناء يسع ثلاثة آصع.

رسول الله إذا أمر أميرًا على جيش أو سرية أوصاه فى خاصته بتقوىٰ الله ومن معه من المسلمين خيرًا ثم قال: اغزوا باسم الله فى سبيل الله. قاتلوا من كفر بالله. اغزوا ولا تغلوا ولا تغدروا ولا تمثلوا ولا تقتلوا وليدًا. وإذا لقيت عدوك من المشركين فادعهم إلى ثلاث خصال فأيتهن ما أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. ثم ادعهم إلى التحول من دارهم إلى دار المهاجرين، وأخبرهم أنهم إن فعلوا ذاك فلهم ما للمهاجرين فإن أبوا أن يتحولوا منها فأخبرهم أنهم يكونوا كأعراب المسلمين ولا يكون لهم فى الغنيمة والفىء شىء، إلا أن يجاهدوا مع المسلمين، فإن هم أبوا فسلهم الجزية. فإن هم أجابوك فاقبل منهم وكف عنهم. فإن هم أبوا فاستعن بالله وقاتلهم.

«وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تجعل لهم ذمة الله وذمة نبيه فلا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه. ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله».

«وإذا حاصرت أهل حصن فأرادوك أن تنزلهم على حكم الله فلا تنزلهم على حكم الله ولكن أنزلهم على حكمك، فأنت لا تدرى أتصيب حكم الله فيهم أم لا».

وهذا أسلوبه عليه السلام فى تعليم الولاة بالأوامر والوصايا.

فانظر إلى أسلوبه فى الرسائل من رسالته إلى النجاشى حيث قال:

«سلم أنت. فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو، الملك القدوس السلام المؤمن المهيمن. وأشهد أن عيسى بن مريم روح الله وكلمته ألقاها إلى مريم البتول الطيبة الحصينة فحملت بعيسى فخلقه الله من روحه ونفخه كما خلق آدم بيده ونفخه.

«وإنى أدعوك إلى الله وحده لا شريك له، والموالاة على طاعته، وأن تتبعنى وتؤمن بالذى جاءنى فإنى رسول الله.

«وقد بعثت إليك ابن عمى جعفرا ونفرًا معه من المسلمين، فإذا جاءك فأقرهم ودع التجبر.. فإنى أدعوك وجنودك إلى الله فقد بلغت ونصحت فاقبلوا نصحى.

«والسلام على من اتبع الهدى».

المعاهدات والمواثيق

أما أسلوبه فى المعاهدات والمواثيق فهذا طرف مما جاء فى كتابه عليه السلام بين المهاجرين والأنصار واليهود:

«... المهاجرون من قريش على ربعتهم يتعاقلون بينهم وهم يفدون عانيتهم بالمعروف والقسط بين المؤمنين.

«وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط بين المؤمنين.

«وبنو الحارث على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالقسط بين المؤمنين.

«وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى، وكل طائفة تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين...»

وهكذا إلى آخر الكتاب.

تلك نماذج من كلام النبى فى أربعة أبواب مختلفات، تتفرق موضوعاتها كما تتفرق القصص والأوامر والرسائل والمواثيق، ولكنها كلها موسومة بسمة واحدة لا اختلاف فيها، وهى سمة الإبلاغ أو البلاغ المبين. وأصدق ما يقال فى تعريفها ما قيل فى تعريف الخط المستقيم عند أهل الهندسة: أقرب موصل بين نقطتين.

فليس أقرب من هذا الأسلوب فى إبلاغ الغرض منه.

لا كلفة ولا غموض ولا إغراب، وقلة الغريب - بل ندرته - فى كلام النبى أجدر الأمور بالملاحظة فى إقامة المثل والنماذج لأساليب البلاغة العربية.

فمحمد العربى القرشى الناشئ فى بنى سعد العالم بلهجات القبائل حتى ما تفوته لهجة قبيلة نائية فى أطراف الجزيرة، لم يكن فى كلامه كله غريب يجهله السامع أو يحتاج تبيانه إلى مراجعة.. وسر ذلك أنه يريد أن يبلغ أو يريد أن يصل إلى سامعه، ولا يريد أن يقيم بينه وبين السامع حاجزًا من اللفظ الغريب أو المعنى الغريب، ومن ذلك ما روى عنه

عليه السلام أنه كان يعيد الكلمة ثلاثًا لتعقل عنه، وأنه كان يبغض التكلف والاغترار بالبلاغة كما قال: «إن الله تعالى يبغض البليغ من الرجال الذى يتخلل بلسانه تخلل الباقرة بلسانها».

وقد عرف عن النبى عليه السلام فى حياته الخاصة والعامة أنه كان قليل الكلام معرضًا عن اللغو لا يقول إلا الحق وإن قاله فى مزاح.

فمن ثم لا عجب أن يخلو كلامه من الحشو والتكرار والزيادة. فإذا كرر اللفظ بعينه كما جاء فى بعض المعاهدات فذلك أسلوب المعاهدات الذى لا محيص عنه، لأن تكرار النص يمنع التأويل عند اختلافه. فهو أيضًا سمة من سمات الإبلاغ على سبيل التوكيد والتحقيق، أو على سبيل الإعادة التى روى أنه كان يتوخاها عليه السلام أحيانًا ليعقل عنه كلامه.

وفى كتابه إلى النجاشى زيادة من أسماء الله الحسنى ومن الإشارة إلى المسيح وأمه لم تؤثر فى الكتب الأخرى.. ولكنها ألزم ما يلزم فى خطاب ملك مسيحى يراد منه أن يفهم كيف تتفق صفات الله والمسيح فى دينه وفى دين المسلمين الذى يدعى إليه، وكيف يبتغى طريق المقابلة بين العقيدتين إذا شاء.. ما على الرسول إلا البلاغ.

وهذا هو البلاغ فى التعبير: كل كلمة تصل إلى سامعها، وكل كلمة مقصودة بمقدار.

ولا زخرف ولا حيلة ولا مشقة متعمل فى ابتغاء التأثير، إلا الإبلاغ الذى يليق بالرجولة والكرامة، وعلى المعرض بعد ذلك وزر الإعراض.

سجع كحلية الذهب

وكان عليه السلام يكره «سجع الكهان» الذى يخضعون به السامع ليوهموه أنه يستمع إلى طلاسم السحرة والشياطين، ولكنه لم يكن يأبى السجع بتة ولا يخلو كلامه من سجع يأتى على السجية، ويغلب أن يكون ذلك فيما يرتل علانية كالأذان وما هو فى حكمه، أو فيما يحفظ من الوصايا الجامعة كقوله: «ما بال أقوام يشترطون شروطًا ليست فى كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل وإن كان مائة شرط. قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق» أو قوله: «إن الله حرم عليكم عقوق

الأمهات ووأد البنات، ومنعًا وهات، وكره لكم قيل وقال وكثرة السؤال وإضاعة المال».

ومذهبه فى هذه الحلية اللطيفة مذهبه فى كل حلية تليق بالرجل: فحولة فى القول وفحولة فى الزينة؛ فسجعه عليه السلام كحلية الذهب التى يليق بالرجل أن يتحلى بها، ولا مزيد.

كتب إليه أبو سفيان كتابًا يقول فى آخره:

«... نريد منك نصف نخل المدينة، فإن أجبتنا إلى ذلك وإلا أبشر بخراب الديار وقلع الآثار:

تجاوبت القبائل من نزار لنصر اللات فى البيت الحرام
وأقبلت الضراغم من قريش على خيل مسومة ضرام

فأجابه بكتاب جاء فيه، «وصل كتاب أهل الشرك والنفاق والكفر والشقاق، وفهمت مقالتكم. فوالله مالكم عندى جواب إلا أطراف الرماح وأشفار الصفاح، فارجعوا ويلكم عن عبادة الأصنام، وأبشروا بضرب الحسام، وبفلق الهام، وخراب الديار، وقلع الآثار...»

فهذا السجع فى هذا المقام أصلح لخطاب الجاهليين، لأنهم يعرفون منه معنى التوثيق والتمكين، كما يعرفون منه معنى المناجزة والتخويف. ومن هنا أقر النبى نص الحلف الذى كان بين جده وخزاعة على ما كان به من سجع وتفخيم يجعلونهما موثقا تعقد به المواثيق وتؤكد به الحرمات. وهذا نصه:

«باسمك اللهم. هذا حلف عبد المطلب بن هاشم لخزاعة حلفًا جامعًا غير مفرق: الأشياخ على الأشياخ، والأصاغر على الأصاغر، والشاهد على الغائب. قد تعاهدوا وتعاقدوا أوكد عهد، وأوثق عقد، لا ينقض ولا ينكث ما أشرقت شمس على ثبير، وحن بفلاة بعير، وما أقام الأخشبان[1] واعتمر بمكة إنسان: حلف أبد لطول أمد، يؤيده طلوع الشمس شدا، وظلام الليل مدا، وإن عبد المطلب النصرة لهم بمن تابعه على طالب، وعلى خزاعة النصرة لعبد المطلب وولده ومن معهم ورجال خزاعة متكافئون متضافرون

(١) جبلا مكة.

متعاونون. على عبد المطلب وولده ومن معه على جميع العرب فى شرق أو غرب. أو حزن أو سهل، وجعلوا الله على ذلك كفيلا، وكفى به حميلا...»

هذه أمثلة السجع الذى فاه به الرسول أو أقره من كلام غيره، وما عداه من تجميل الكلام فهو تجميل الإبلاغ الذى لا كلفة فيه.

وقد أعانه عليه السلام على أسلوب الإبلاغ أن الذين كانوا يستمعون إليه إنما كانوا يستمعون إلى كلام نبى محبوب مطاع. فهو نافذ فى نفوسهم بغير حيلة، مستجمع لأسماعهم بغير تشويق قائم بالكفاية الوسطى التى لا حاجة بها إلى إفراط ولا خوف عليها من تفريط.

أما رسائله إلى الملوك والأمراء – ممن لم يسلم ولم يهتد – فإنما كانت للإبلاغ أول الأمر، ثم يأتى بعدها التفسير والتفصيل على ألسنة المرشدين الموكلين بالإجابة فيما يسألونه عنه، فهى كذلك قائمة على كفاية الإبلاغ، تلك الكفاية الوسطى التى لا إفراط فيها ولا تفريط.

ونقول إن الأمرين أعانا النبى على أسلوبه المبلغ البليغ ولا نقول إنهما أنشأاه وأوحياه.. فإن الحوار القليل الذى حفظ لنا من أيام الدعوة الأولى قبل استفاضة الدين وإقبال الأتباع المؤمنين قد كانت له صبغة هذا الأسلوب بعينه غير ظاهر فيها أثر من الكلفة والاصطناع.. لأن مصدر الفحولة فى الإبلاغ ثقته بقوله لا ثقة المستمعين إليه. فكلامه كله نسق واحد فى هذه الخصلة، وخطابه كله خطاب سهولة وكرامة، وسياقه كله مطواع لا احتيال فيه، ووصاته لم يقتد به أن يقصر الخطبة ويقلل الكلام كما كان يقول لمن يبعث بهم من الولاة.

ولا يفهمن من هذا أن مقتضيات الكلام لم يكن لها أثر فى اختلاف الوضع أو اختلاف الموقف وهو يخاطب الناس. فقد كان عليه السلام يلاحظ هذا الاختلاف ويعطيه حقه كما كان يفعل حين يتكئ على قوس وهو يخطب فى الحرب، أو يتكئ على عصا وهو يخطب فى العظات، وكان يبدو على وجهه ما يختلج بصدره إذا غضب أو أنذر «فكان إذا خطب احمرت عيناه وعلا صوته واشتد غضبه كأنه منذر جيش: صبحكم مساكم».

أسلوب عصرى

ولمن شاء أن يحسب أسلوب النبى – كتابة وخطابًا – أسلوباً عصريًّا يقتدى به المعاصرون فى زماننا هذا وفى كل زمان... لأن الأسلوب الذى يخرج من الفطرة المستقيمة هو أسلوب عصرى فى جميع العصور، ويخطئ من يحسب الوصل بين الجمل شرطاً للكلام العربى القديم والفصل بينها علامة من علامات الأساليب المبتدعة فى الزمن الأخير، ويخطئ كذلك من يحسب قبول الكلام لإشارات الترقيم علامة أخرى من علامات هذه الأساليب. فإليك الحديث الذى نقلناه آنفًا وهو مثل من أمثلة كثار حيث يقول عليه السلام: «ما بال أقوام يشترطون شروطا ليست فى كتاب الله؟ ما كان من شرط ليس فى كتاب الله فهو باطل، وإن كان مائة شرط: قضاء الله حق، وشرط الله أوثق، وإنما الولاء لمن أعتق».

هذا الحديث رضى البلاغة العربية فى وصله وفصله: ورضى الأسلوب العصرى فى إشارات ترقيمه، وآية على خطأ الذين يفرقون بين شروط البلاغة العربية ذلك النحو من التفريق.

رأى النبى فى الشعر

وقد نقلت إلينا تعقيبات معدودة عن رأى النبى فى الشعر والشعراء لا تدخل فى النقد الفنى وتدخل فى كلام الأنبياء الذين يقيسون الكلام بقياس الخير والصلاح والمطابقة لشعائر الدين وسنن الصدق والفضيلة. ومنها قوله «أصدق كلمة قالها الشاعر كلمة لبيد: «ألا كل شىء ما خلا الله باطل». وقوله عن امرئ القيس «إنه صاحب لواء الشعراء إلى النار»، وإنه كان يتمثل بشطرات من أبيات يبدل وزنها كلما أمكن تبديله مع بقاء المعنى المقصود، فكان يقول مثلا: «ويأتيك بالأخبار من لم تزود» لأنها لا تقبل التبديل مع بقاء المعنى، ولكنه إذا نطق بقول سحيم عبد بنى الحسحاس: «كفى الشيب والإسلام للمرء ناهيًا» قدم كلمة الإسلام فقال: «كفى الإسلام والشيب للمرء ناهيًا» لينفى ما استطاع أنه شاعر ينظم القصيدة وأن سور القرآن قصائد مرتلات كما زعم المشركون.

وقد استحسن ما قيل من الشعر فى النضح عن الإسلام والذود عنه وعن آله، فكانت

آراؤه هذه وشبيهاتها آراء الأنبياء فيما يحمدون من كلام، لأنهم قد بعثوا لتعليم الناس دروس الخير والصلاح، ولم يبعثوا ليلقنوهم دروسهم فى قواعد النقد والإنشاء.

جوامع الكلم

إلا أن الإبلاغ أقوى الإبلاغ فى كلام النبى هو اجتماع المعانى الكبار فى الكلمات القصار، بل اجتماع العلوم الوافية فى بضع كلمات وقد يبسطها الشارحون فى مجلدات.

ومن أمثلة ذلك علم السلوك فى الدنيا والدين وقد جمعه كله فى أقل من سطرين قصيرين من قوله: «اعمل لدنياك كأنك تعيش أبدًا، واعمل لآخرتك كأنك تموت غدًا».

ومن أمثلة علم السياسة الذى اجتمع كله فى قوله: «كيفما تكونوا يول عليكم»..

فأى قاعدة من القواعد الأصيلة فى سياسة الأمم لا تنطوى بين هذه الكلمات؟..

ينطوى فيها أن الأمم مسئولة عن حكوماتها، لا يعفيها من تبعة ما تصنع تلك الحكومات عذر بالجهل أو عذر بالإكراه، لأن الجهل جهلها الذى تعاقب عليه، والإكراه ضعفها الذى تلقى جزاءه.

وينطوى فيها أن العبرة بأخلاق الأمة لا بالنظم والأشكال التى تعلنها الحكومة، فلا سبيل إلى الاستبداد بأمة تعاف الاستبداد ولو لم يتقيد فيها الحاكم بقيود القوانين، ولا سبيل إلى حرية أمة تجهل الحرية ولو تقيد فيها الحاكم بألف قيد من النظم والأشكال.

وينطوى فيها أن الولاية تبع تابع وليست بأصل أصيل، فلا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم. وأحرى ألا يغير الوالى قومًا حتى يتغيروا هم قبل ذلك.

وينطوى فيها «أن الأمة مصدر السلطات» على حد التعبير الحديث.

وينطوى فيها أن الأمة تستحق الحكم الذى تصبر عليه ولو لم يكن حكم صلاح واستقلال.

وذلك هو الإبلاغ الذى يُسمى فى وجهاته كل نفاذ.

ويلحق بهذا فى العلم بالتبعات قوله عليه السلام: «أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل».

فالمزايا الإنسانية واجبات وأعباء وليست بالمتع والأزياء، وعلم الإنسان بالخير والشر يفرض عليه الفرائض التى يبتلى بها، ولا يهنئه بالراحة التى يصبو إليها. وهو محسوب عليه وكذلك ذكاؤه محسوب عليه.

وأمثال هذه الأحاديث فى أصول السياسة والأخلاق والاجتماع مما لا يتناوله الإحصاء فى هذا المقام.

كان محمد فصيح اللغة فصيح اللسان فصيح الأداء.

وكان بليغًا على أسلس ما تكون بلاغة الكرامة والكفاية، وكان بلسانه وفؤاده من المرسلين، بل قدوة المرسلين.

محمد الصديق

عطوف ودود

إذا كان الرجل محبًّا للناس، أهلا لحبهم إياه، فقد تمت له أداة الصداقة من طرفيها..

وإنما تتم له أداة الصداقة بمقدار ما رزق من سعة العاطفة الإنسانية ومن سلامة الذوق، ومتانة الخلق، وطبيعة الوفاء.

فلا يكفى أن يحب الناس ليحبوه. لأنه قد يحبهم وفى ذوقه نقص ينفرهم منه ويزهدهم فى حبه..

ولا يكفى أن يكون محبًّا سليم الذوق ليبلغ من الصداقة مبلغها. فقد يكون محبًّا محبوبًا حسن الذوق ثم يكون نصيبه من الخلق المتين والطبع الوفى نزرًا ضعيفًا لا تدوم عليه صداقة، ولا تستقر عليه علاقة.

إنما تتم أداة الصداقة بالعاطفة الحية، والذوق السليم، والخلق المتين، وقد كان محمد فى هذه الخصال جميعًا مثلا عاليًا بين صفوة خلق الله.

كان عطوفًا يرأم من حوله ويودهم، ويدوم لهم على المودة طول حياته، وإن تفاوت ما بينه وبينهم من سن وعرق ومقام.

كان صبيًّا فى الثانية عشرة يوم سافر عمه، فتعلق به حتى أشفق العم أن يتركه وحده فاصطحبه فى سفره.

وكان شيخًا قارب الستين يوم بكى على قبر أمه بكاء من لا ينسى. وليس فى سجل المودة الإنسانية أجمل ولا أكرم من حنانه على مرضعته حليمة ومن حفاوته بها وقد جاوز الأربعين، فيلقاها هاتفاً بها: أمى! أمى! ويفرش لها رداءه ويمس ثديها بيده.. كأنه يذكر ما لذلك الثدى عليه من جميل، ويعطيها من الإبل والشاه ما يغنيها فى السنة الجدباء..

ولقد وفدت عليه هوازن وهى مهزومة فى وقعة حنين وفيها عم له من الرضاعة.. لأجل هذا العم من الرضاعة تشفع النبى إلى المسلمين أن يردوا السبى من نساء وأبناء، واشترى السبى ممن أبوا رده إلا بمال.

وحضنته فى طفولته جارية عجماء فلم ينس لها مودتها بقية حياته، وشغله أن تنعم بالحياة الزوجية ما يشغل الأب عن أمر بناته ورحمه، فقال لأصحابه: «من سره أن يتزوج امرأة من أهل الجنة فليتزوج أم أيمن...» وما زال يناديها يا أمة يا أمة كلما رآها وتحدث إليها، وربما رآها فى وقعة قتال تدعو الله وهى لا تدرى كيف تدعو بلكنتها الأعجمية، فلا تنسيه الوقعة الحازبة أن يصغى إليها ويعطف عليها.

* * *

وكان هذا عطفه على كل ضعيف ولو لم يذكره بحنان الطفولة ورحم الرضاع. فما نهر خادمًا ولا ضرب أحدًا، وقال أنس: «خدمت النبى صلى الله عليه وسلم عشر سنين، فما قال لى أف قط، ولا قال لشىء صنعته: لم صنعته؟.. ولا لشىء تركته: لم تركته؟..».

وكان من أضحك الناس وأطيبهم نفسًا، صافى القلب إذا كره شيئًا رئى ذلك فى وجهه، وإذا رضى عرف من حوله رضاه.

وقد اتسع عطفه حتى بسطه للأحياء كافة ولم يقصره على ذوى الرحم من الناس ولا على الناس من غير ذوى الرحم. فكان يصغى الإناء للهرة لتشرب، وكان يواسى فى موت طائر يلهو به أخو خادمه، وأوصى المسلمين «إذا ركبتم هذه الدواب فأعطوها حظها من المنازل ولا تكونوا عليها شياطين» وكرر الوصاية بها أن «اتقوا الله فى البهائم المعجمة فاركبوها صالحة وكلوها صالحة».

وقال: «إن الله غفر لامرأة مومسة مرت بكلب على رأس ركى يلهث قد كاد يقتله العطش، فنزعت خفها فأوثقته بخمارها، فنزعت له من الماء فغفر لها بذلك».

وقال فى هذا المعنى: «دخلت امرأة النار فى هرة ربطتها فلا هى أطعمتها ولا هى تركتها تأكل من خشاش الأرض».

لا بل شمل عطفه الأحياء والجماد كأنه من الأحياء، فكانت له قصعة يقال لها الغراء.

وكان له سيف محلى بالذهب ذا الفقار، وكانت له درع موشحة بنحاس تسمى ذات الفضول، وكان له سراج يسمى الداج وبساط يسمى الكز وركوة تسمى الصادر، ومرآة تسمى المدلة، ومقراض يسمى الجامع، وقضيب يسمى الممشوق.

وفى تسمية تلك الأشياء بالأسماء معنى الألفة التى تجعلها أشبه بالأحياء المعروفين ممن لهم السمات والعناوين، كأن لها «شخصية» مقربة تميزها بين مثيلاتها، كما يتميز الأحباب بالوجوه والملامح وبالكنى والألقاب.

* * *

هذه العاطفة الإنسانية التى رحبت حتى شملت كل ما أحاطت به وأحاط بها لم تكن هى كل أداة الصداقة فى تلك النفس العلوية، بل كان معها ذوق سليم يضارعها رفعة ونبلا ويتمثل - فيما يرجع إلى علاقات النبى بالناس - فى رعاية شعورهم أتم رعاية وأدلها على الكرم والجود.

كان إذا لقيه أحد من أصحابه فقام معه، فلم ينصرف حتى يكون الرجل هو الذى ينصرف عنه. وإذا لقيه أحد من أصحابه فتناول يده ناوله إياها فلم ينزع يده منه حتى يكون الرجل هو الذى ينزع يده منه...

«وكان إذا ودع رجلا أخذ بيده فلا يدعها حتى يكون الرجل هو الذى يدع يده...».

«وكان أرحم الناس بالصبيان والعيال»... «وإذا قدم من سفر تلقى بصبيان أهل بيته».

«وكان أشد حياء من العذراء فى خدرها، وأصبر الناس على أقدار الناس».

يحفظ مغيبهم كما يحفظ محضرهم ويقول لصحبه: «من اطلع فى كتاب أخيه بغير أمره فكأنما اطلع فى النار»

ومع العاطفة الإنسانية والذوق السليم والأدب الكريم: سمت جميل ونظافة بالغة وحرص على أن يراه الناس فى أجمل مرآه.

ومع هذا كله أمانة يثق بها العدو فما بال الصديق؟.. وحسبك من ثقة الناس به

ما أودعوه من أمانات وهم يناصبونه العداء، فلم يخرج للهجرة وهو مهدد فى سربه حتى رد الأمانات إلى أصحابها، وقد يكون فى ردها ما ينبههم إلى خروجه ويأخذ عليه سبيل النجاة، وهذا إلى اشتهاره بالأمانة فى صباه حتى سمى بالأمين قبل أن يتجرد لدعوة تنبغى لداعيها أمثال هذه الصفات.

* * *

كل هذه المزايا النفسية – بل بعض هذه المزايا النفسية – خليق أن يتم لصاحبه أداة الصداقة أوفى تمام، أن يجعله محبًّا لمن حوله جديرًا منهم بأحسن حب وولاء. فلم يعرف فى تاريخ العظمة – لا بين الأنبياء ولا غير الأنبياء – إنسان ظفر بنخبة من الصداقات على اختلاف الأقدار والبيئات والأمزجة والأجناس كالتى ظفر بها محمد، ولم يعرف عن إنسان أنه أحيط من قلوب الضعفاء والأقوياء بما يشبه الحب الذى أحيط به هذا القلب الكبير.

تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب حديث زيد بن حارثة الذى خطف من أهله وهو صغير ثم اهتدى إليه أبوه واهتدى هو إلى أبيه على لهفة الشوق بعد يأس طويل، فلما وجب أن يختار بين الرجعة إلى آله وبين البقاء مع سيده «محمد» اختار البقاء مع السيد على الرجعة مع الوالد، وشق عليه أن يحتجب عن ذلك القلب الذى غمره بحبه ومواساته، وهو ضعيف شريد لا يرى ذويه ولا يدرى من هم ذووه.

وكان لا يغنى من لازموه أن يلزموه فى الحياة حتى يثقوا من ملازمتهم إياه بعد الممات. فضعف مولاه ثوبان ونحل جسمه وألح عليه الحزن فى ليله ونهاره، فلما سأله السيد العطوف يستفسره علة حزنه ونحوله قال فى طهارة الأبرار: «إنى إذا لم أرك اشتقتك واستوحشت وحشة عظيمة، فذكرت الآخرة حيث لا أراك هناك لأنى إن دخلت الجنة فأنت تكون فى درجات النبيين فلا أراك» ورويت هذه القصة فى أسباب نزول الآية الكريمة: «ومن يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين وحسن أولئك رفيقا».

وأدرك الموت بلالا فأحاط به أهله يصيحون: واكرباه.. وهو يجيبهم «واطرباه.. غدًا ألقى الأحبة محمدًا وصحبه..!»

* * *

وقد عنينا مما تقدم بحب الصداقة بين الإنسان والإنسان لأننا لم نقصد حب المؤمن لنبيه فى هذا الباب. فقد بلغ من امتلاء قلوب المسلمين والمسلمات بهذا الحب أن المرأة كانت تسمع أنباء المعركة فينعى إليها خاصة أهلها وهى تسترجع وتعرض عن هذا لتسأل عن النبى وتهتم بسلامته قبل اهتمامها بسلامة الإخوة وبنى الأعمام. إلا أننا عنينا محبة الصداقة فى هذا الباب لأنها هى المحبة التى جعلت كثيرًا من الناس يؤمنون بمحمد لمحبتهم إياه واطمئنانهم إليه، فكانت سابقة فى قلوبهم وأرواحهم لحب العقيدة والإيمان.

عظمة العظمات

إن عطف العظيم على الصغير حتى يستحق منه هذا الحب لفضيلة يشرف بها مقام العظيم فى نظر بنى الإنسان.

ولكن قد يقال إن استحقاق العظيم أن يحبه العظماء لأشراف من ذلك رتبة وأدل على حظه الجليل من فضائل التفوق والرجحان.. وهذا صحيح لا ريب فيه.

وهنا أيضا قد تمت لمحمد معجزته التى لم يضارعه فيها أحد من ذوى الصداقات النادرة.

فأحدقت به نخبة من ذوى الأقدار تجمع بين عظمة الحسب وعظمة الثروة وعظمة الرأى وعظمة الهمة، وكل منهم ذو شأن فى عظمته تقوم عليه دولة وتنهض به أمة، كما أثبت التاريخ من سير أبى بكر، وعمر، وخالد، وأسامة وابن العاص، والزبير، وطلحة، وسائر الصحابة الأولين.

وربما عظم الرجل فى مزية من المزايا فأحاط به الأصدقاء والمريدون من النابغين فى تلك المزية، كما أحاط الحكماء بسقراط والقادة بنابليون.

بل ربما أحاط الصالحون بالنبى العظيم كما أحاط الحواريون بالمسيح عليه السلام وكلهم من معدن واحد وبيئة متقاربة.

* * *

أما عظمة العظمات فهى تلك التى تجذب إليها الأصحاب النابغين من كل معدن وكل طراز، وهى التى يتقابل فى حبها رجال بينهم من التفاوت مثل ما بين أبى بكر وعلى، وبين

عمر وعثمان، وبين خالد ومعاذ، وبين أسامة وابن العاص: كلهم عظيم وكلهم مع ذلك مخالف فى وصف العظمة لسواه.

تلك هى العظمة التى اتسعت آفاقها وتعددت نواحيها حتى أصبحت فيها ناحية مقابلة لكل خلق، وأصبح فيها قطب جاذب لكل معدن، وأصبحت تجمع إليها البأس والحلم، والحيلة والصراحة، والألمعية والاجتهاد، وحنكة السن وحمية الشباب.

تلك هى بلا ريب عظمة العظمات، ومعجزة الإعجاز فى باب الصداقات.

وما استحقها محمد إلا بنفس غنيت بالحب وخلصت له حتى أعطت كل محب لها كفاء ما يعطيها: مودة بمودة وصفاء بصفاء، وعليها المزيد من فضل التفاوت فى الأقدار.

ولقد كان صاحب الفضل على أصفيائه جميعًا بما هداهم إليه من نور العقل ونور البصيرة، وهما أشرف من نور البصر لأنه نعمة يشترك فيها الإنسان والعجماوات، ونور العقل ونور البصيرة نعمتان يختص بهما الإنسان ومع هذا كان يذكر فضلهم ويشيد بذكرهم. كما قال عن أبى بكر «ما أحد أعظم عندى يدًا من أبى بكر: واسانى بنفسه وماله وأنكحنى ابنته» وكما قال عن أبى بكر وعمر: «أبو بكر وعمر منى بمنزلة السمع والبصر» وكما قال عن على: «على أخى فى الدنيا والآخرة» وكما قال عن بعض أصحابه: «إن الله تعالى أمرنى بحب أربعة وأخبرنى أنه يحبهم: على منهم، وأبو ذر، والمقداد، وسلمان» وكما قال عن الأنصار جميعًا وهو فى مرض الموت: «استوصوا بالأنصار خيرًا. إنهم عيبتى التى أويت إليهم، فأحسنوا إلى محسنهم وتجاوزوا عن مسيئهم».. وغير ذلك كثير عن الصحابة كافة وعن بعضهم مذكورين بأسمائهم.

* * *

على أننا نلمس دلائل هذا الفؤاد الرحب وهذا العطف الإنسانى الشامل فى معاملته لأعدائه وشانئيه فضلا عن معاملته للأصفياء، ومن ليس بينهم وبينه عداء ولا صفاء.

فما ثأر من أحد أساء إليه فى شخصه، وقد عفا عن رجل هم بقتله وهو نائم ورفع السيف ليهوى به فسقط من يده على كره منه، وما حارب قط أحدا كان فى وسعه أن يسالمه ويحاسنه ويتقى شره.

ومعاملته لعبد الله بن أبي الذى كان المسلمون يسمونه رأس النفاق مثل من أمثلة الإغضاء والصفح الجميل. فقد عاهد وغدر ثم عاهد وغدر وعاش ماعاش يكيد للنبى فى سره ويمالئ عليه أعداءه، وشاع أن النبى عليه السلام قضى بقتله فتقدم ابنه وقال له: «يارسول الله، إنه بلغنى أنك تريد قتل عبد الله بن أبي فيما بلغك عنه، فإن كنت فاعلا فمرنى به فأنا أحمل إليك رأسه. فوالله لقد علمت الخزرج ما كان بها من رجل أبر بوالده منى، وإنى لأخشى أن تأمر به غيرى فيقتله فلا تدعنى نفسى أنظر إلى قاتل أبى يمشى فى الناس فأقتله فأقتل رجلا مؤمنًا بكافر فأدخل النار».

فأبى النبى أن يقتله وآثر الرفق به وزاد فى أفضاله وإجماله فكافأ الولد خير مكافأة على خلوص نيته وإيثاره البر بدينه على البر بأبيه. فأعطاه قميصه الطاهر يكفن به أباه وصلى عليه ميتًا ووقف على قبره حتى فرغ من دفنه، وقد حاول عمر أن يثنيه عن الصلاة على ذلك العدو الذى آذاه جهد الإيذاء فذكر الآية: «... استغفر لهم أو لاتستغفر لهم. إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم..» فقال «لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت».

* * *

هذه النفس المطبوعة على الصداقة والرحمة والسماحة ما أعجب اتهامها بالقسوة على ألسنة بعض المؤرخين الأوربيين!.

ما أعجب اتهامها بالقسوة لأنها دانت أناسًا بالموت كما يدين القاضى مجرمًا بذنبه وهو من أرحم الرحماء؟.

ما أعجبهم إذ يذكرون العقوبة وينسون الذنب الذى استوجب العقوبة كما يستوجب السبب النتيجة.

وأى ذنب؟.. ذنب لو قوبل به غير محمد لأراق فيه أنهارًا من الدماء، وله حجة من سلطان الدنيا والآخرة.

فلا نذكر استهزاء المشركين به وإعناتهم إياه وإلقاءهم عليه القذر والحجارة وائتمارهم بحياته وحياة أصحابه وإخراجهم المسلمين من ديارهم إلى أقصى الديار، ولا نذكر العناد

والإغاظة والاستثارة لغير جريرة إلا أنهم دعوا إلى عبادة الله والتحلى بمكارم الأخلاق وترك عبادة الأصنام وترك الرذيلة.

* * *

لا نذكر شيئًا من هذا فهو أطول من أن يحصيه هذا الكتاب، ولكننا نذكر حادثًا واحدًا تجمع فيه من اللؤم ما تفرق فى كثير غيره، وذلك حادث الرسل الأربعين – وقيل السبعين – الذين قتلوا فى بئر معونة ولا ذنب لهم إلا أنهم ذهبوا تلبية لدعوة الداعين ليعلموا من ينشد علم القرآن والدين، غير مغضوب عليه.

فماذا كانت دولة الحضارة صانعة بالقاتلين الغادرين لو كان هؤلاء الأربعون أو السبعون مبشرين بالدين المسيحى قتلوا فى قبيلة من الهمج الذين يأكلون الآدميين ومن حقهم أن يعذروا كما تعذر الوحوش.. إن بقى من أبناء القبيلة من يروى أنباء المقتلة، فقد يقال إن القوم لرحماء فى العقاب!..

* * *

ولم يكن حادث بئر معونة بالحادث الوحيد من حوادث الغدر بالرسل الأبرياء. فلعلنا نختم هذا الفصل عن الصداقة بخير ما يختم به حين نشير إلى غدر قبيلة هذيل بالرسل الستة الذين ذهبوا إليهم ليعلموا من شاء أن يتعلم أحكام الدين وهو آمن فى داره، لا إكراه له ولا بغى عليه. فقتلوا جميعًا وجيء بأحدهم زيد بن الدثنة أسيرًا ليباع.. فاشتراه صفوان بن أمية ليقتله بأبيه، ونصب للقتل فسأله أبو سفيان مستهزئًا: «أنشدك الله يا زيد. أتحب أن محمدًا الآن عندنا فى مكانك نضرب عنقه وأنت فى أهلك؟» فأجابه زيد: «والله ما أحب أن محمدًا الآن فى مكانه الذى هو فيه تصيبه شوكة تؤذيه وأنا جالس فى أهلى...»

فصاح أبو سفيان دهشًا: «ما رأيت من الناس أحدًا يحبه أصحابه ما يحب أصحاب محمد محمدًا...»

* * *

من فعلة كهذه تعلم مدى ما استحقه محمد من حب الأصدقاء ومدى ما استحقه أعداؤه من جزاء، فقد أحب أصدقاءه وأحبوه لأنه طبع على الصداقة. أما أعداؤه فقد لقوا جزاءهم لأنهم هم طبعوا على العداء والاعتداء..

محمد الرئيس

الرئيس الصديق

من الحسن أن نكتب عن محمد الرئيس بعد كتابتنا عن محمد الصديق. لأنه هو قد جعل للرئاسة معنى الصداقة المختارة، فمحمد الرئيس هو الصديق الأكبر لمرءوسيه، مع استطاعته أن يعتز بكل ذريعة من ذرائع السلطان.

فهناك الحكم بسلطان الدينا..

وهناك الحكم بسلطان الآخرة..

وهناك الحكم بسلطان الكفاءة والمهابة.

وكل أولئك كان لمحمد الحق الأول فيه: كان له من سلطان الدنيا كل ما للأمير المطلق اليدين فى رعاياه، وكان له من سلطان الآخرة كل ما للنبى الذى يعلم من الغيب ما ليس يعلم المحكومون.. وكان له من سلطان الكفاءة والمهابة ما يعترف به بين أتباعه أكفأ كفؤ وأوقر مهيب.

ولكنه لم يشأ إلا أن يكون الرئيس الأكبر، بسلطان الصديق الأكبر.. بسلطان الحب والرضا والاختيار.

فكان أكثر رجل مشاورة للرجال، وكان حب التابعين شرطا عنده من شروط الإمامة فى الحكم بل فى العبادة. فالإمام المكروه لا ترضى له صلاة.

وكان يدين نفسه بما يدين به أصغر أتباعه.. فروى أنه كان فى سفر وأمر أصحابه بإصلاح شاة. فقال رجل: يارسول الله، علىّ ذبحها. وقال آخر: علىّ سلخها. وقال آخر: علىّ طبخها.. فقال عليه السلام: وعلىّ جمع الحطب. فقالوا : يارسول الله نكفيك العمل. قال: علمت أنكم تكفوننى، ولكن أكره أن أتميز عليكم، إن الله سبحانه وتعالى يكره من عبده أن يراه متميزًا بين أصحابه».

وأبى والمسلمون يعملون فى حفر الخندق حول المدينة، إلا أن يعمل معهم بيديه. ولولا أنها سنة حميدة يستنها للرؤساء فى حمل التكاليف لأعفى نفسه من ذلك العمل وأعفاه المسلمون منه شاكرين.

وجعل قضاء حوائج الناس أمانًا من عذاب الله أو كما قال: «إن لله تعالى عبادًا اختصهم بحوائج الناس يفزع إليهم الناس فى حوائجهم. أولئك الآمنون من عذاب الله».

* * *

وقد كان أعلم الناس أن الأعمال بالنيات. ولكنه علم كذلك «أن الأمير إذا ابتغى الريبة فى الناس أفسدهم» فوكل الضمائر إلى أصحابها وإلى الله، وحاسب الناس بما يجدى فيه الحساب.

سمع خصومة بباب حجرته فخرج إليهم قائلا: «إنما أنا بشر. وإنه يأتينى الخصم فلعل بعضكم أن يكون أبلغ من بعض فأحسب أنه صدق، فأقضى له بذلك، فمن قضيت له بحق مسلم، فإنما هى قطعة من النار فليأخذها أو فليتركها».

واليوم يكثر اللاغطون بحرية الفكر ويحسبونها كشفًا من كشوف الثورة الفرنسية وما بعدها، ويحرمون على الحاكم أن يؤاخذ الناس بما فكروا به مالم يتكلموا أو يعملوا ويكن فى كلامهم وعملهم ما يخالف الشريعة.

فهذا الذى يحسبونه كشفًا من كشوف العصر الأخير قد جرى عليه حكم النبى قبل أربعة عشر قرنًا، وشرعه لأمته فى أحاديثه حيث قال عليه السلام: «إن الله تجاوز لأمتى عسا حدثت به نفسها ما لم تتكلم به أو تعمل به»..

وزعموا كذلك أن تقديم الرحمة على العدل فى تطبيق الشريعة دعوة من دعوات المصلحين المحدثين لم يسبقوا إليها، وهى هى دعوة النبى العربى التى كررها ولم يدع قط إلى غيرها فقال: «إن الله تعالى لما خلق الخلق كتب بيده على نفسه أن رحمتى تغلب غضبى» وقال: «إن الله تعالى رفيق يحب الرفق ويعطى عليه مالا يعطى على العنف» وقال: «إن الله تعالى لم يبعثنى معنتا ولا متعنتا، ولكن بعثنى معلمًا ميسرًا» وروى عنه غير

صاحب من أصحابه أنه ما خير بين حكمين إلا اختار أيسرهما، مالم يكن فيه خرق للدين.

* * *

وكان يوصى بالضعفاء ويقول لصحبه: «أبغونى الضعفاء فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم» ويذم الترفع على الخدم والفقراء «فما استكبر من أكل مع خادمه وركب الحمار بالأسواق واعتقلْ الشاة فحلبها»

لكنه مع الرحمة بالصغير لا ينسى حق الكبير: «من لم يرحم صغيرنا ويعرف حق كبيرنا فليس منا»

إذ ليس الإنصاف حراما على الكبراء حلالا لمن صغر دون من كبر، فلكل حق ولكل إنصاف. وإنزال الناس منازلهم كما أمر قومه وهو خير شعار تستقيم عليه الحكومة، وتنعكس أمور الأمم بانعكاسه.

* * *

وكان النبى الرئيس يعلم أن الرئاسة لجميع المرءوسين وليست للموافقين منهم دون المخالفين، فيأمر قومه أن «اتقوا دعوة المظلوم وإن كان كافرًا فإنها ليس دونها حجاب».

وإذا قال هذا رئيس ونبى فإنها لأولى السنن أن يتبعها الرؤساء كافة، لأنهم لم يبعثوا لنشر الدين ومحو الكفر كما بعث الأنبياء.

لقد كانت سنة الرئاسة عند محمد هى سنة الصداقة.. فلو استغنى حكم عن الشريعة لاستغنى عنها حكم هذا الرئيس الذى جاء بالشريعة لجميع متبعيه.

الزوج

حق المرأة

الكلام عن زوج يستدعى الكلام عن مكانة امرأة عند رجل، وعن مكانة النساء عامة عند الرجال عامة.

وإنما تعرف مكانة المرأة التى وصلت إليها بفضل محمد ودينه، متى عرفت مكانة المرأة التى استقرت عليها فى الجاهلية، ومكانة المرأة التى استقرت عليها فى عصره - وبعد عصره - وبين أمم أخرى غير الأمة العربية.

وقياسان اثنان كافيان لبيان الفارق البعيد بين ما كانت عليه المرأة فى الجاهلية وما صارت إليه بعد رسالة محمد:

كانت متاعًا يورث ويقسم تقسيم السوائم بين الوارثين، فأصبحت بفضل الإسلام ونبيه صاحبة حق مشروع، ترث وتورث ولا يمنعها الزواج أن تتصرف بمالها وهى فى عصمته كما تشاء.

وكانت وصمة تدفن فى مهدها فرارًا من عار وجودها، أو عبئًا تدفن فى مهدها فرارًا من نفقة طعامها.. فأصبحت إنسانًا مرعى الحياة ينال العقاب من ينالها بمكروه.

ولم تكن فى البلاد الأخرى بأسعد حظًّا منها فى البلاد الغربية.

فلا نذكر شرائع الرومان واستعبادها النساء. ولا نذكر المتنطسين فى صدر المسيحية وتسجيلهم عليها النخاسة وتجريدهم إياها من الروح.

وكفى أن نذكر عصر الفروسية الذى قيل فيه إنه عصر المرأة الذهبى بين الأمم الأوربية، وإن الفرسان كانوا يفدون النساء بالدم والمال..

فهذا العصر كان كما قال الدارسون له: عصر الحصان قبل أن يكون عصر المرأة أو عصر «السيدة المفداة».

وقد أجمله جون لانجدون دافيز صاحب «التاريخ الموجز للنساء»[1] فقال: «إن عصر الفروسية كان معروفًا بما لحظ فيه من فقدان الشبان على الجملة الاهتمام بالجنس الآخر. ولعلنا نقل من الدهشة لذلك لو أننا وعينا كلمة الفروسية وذكرنا أنها لم تكن ذات شأن بالسيدات كما كانت ذات شأن بالخيل على خلاف ما يروق الكثيرين أن يذكروه. فقلما بلغ الاهتمام بالمرأة مبلغ الاهتمام بالحصان فى عصر الفروسية إلا على اعتبار أنها عنوان ضيعة».

إلى القارئ محادثة من كتاب أغانى الآداب والتحيات Hansons de Geste يروى فيها أن ابنة أوسيس Ausies جلست فى نافذتها ذات يوم فعبر بها فتيان – هما جاران وجربرت – وقال أحدهما: «انظر. انظر يا جربرت: وحق العذراء ما أجملها من فتاة! فلم يزد صاحبه على أن قال: يا لهذا الجواد من مخلوق جميل!.. دون أن يلتفت بوجهه.. وعاد صاحبه يقول مرة أخرى: «ما أحسبنى رأيت قط فتاة بهذه الملاحة. ما أجمل هاتين العينين السوداوين!» وانطلقا وجربرت يقول: «ما أحسب أن جوادًا قط يماثل هذا الجواد» وهى حادثة صغيرة ولكنها واضحة الدلالة؛ إذ قلة الاهتمام تورث الازدراء.. والحق أن عصر الفروسية يرينا بعض الشواهد الواضحة على هذا الازدراء. وإليك مثلا حادثة فى الكتاب المتقدم يروى فيها أن الملكة بلانشفلور ذهبت إلى قرينها الملك ببين Pepin تسأله معونة أهل اللورين. فأصغى إليها الملك ثم استشاط غضبًا ولطمها على أنفها بجمع يده فسقطت منه أربع قطرات من الدم وصاحت تقول: «شكرًا لك. إن أرضاك هذا فأعطنى من يدك لطمة أخرى حين تشاء».

ولم تكن هذه حادثة مفردة لأن الكلمات على هذا النحو كثيرًا ما تتكرر كأنها صيغة محفوظة.. وكأنما كانت اللطمة بقبضة اليد جزاء كل امرأة جسرت فى عهد الفروسية على أن تواجه زوجها بمشورة.

«... ... ومتى كانت المرأة تزف إلى زوجها عفو الساعة وكثيرًا ما تزف إلى رجل لم تره قبل ذاك، إما لتسهيل المحالفات الحربية والمدد العسكرى، أو لتسهيل صفقة من صفقات الضياع. ومتى كانت بعد زفافها إلى فارس مجنون بالحرب معطل الذكاء قد يكون

---

(١) Short History of Women: by John Langdon Davies

فى معظم الأحوال من الأميين - عرضة للضرب كلما واجهته بمخالفة - أترى سيدة القصر إذن واجدة لها رحمة أو ملاذًا من حياة الشقاء أو من صحبة قرين ليس لها بأهل ؟».

* * *

ولقد تقدم الزمن فى الغرب من العصور المظلمة إلى عصور الفروسية إلى ما بعدها من طلائع العصر الحديث ولما تبرح المرأة فى منزله مسفة لا تفضل ما كانت عليه فى الجاهلية العربية، وقد تفضلها منزلة المرأة فى تلك الجاهلية.

ففى سنة ١٧٩٠ بيعت امرأة فى أسواق إنجلترا بشلنين لأنها ثقلت بتكاليف معيشتها على الكنيسة التى كانت تؤويها.

وبقيت المرأة إلى سنة ١٨٨٢، محرومة حقها الكامل فى ملك العقار وحرية المقاضاة.

وكان تعليم المرأة سبة تشمئز منها النساء قبل الرجال، فلما كانت اليصابات بلا كويل تتعلم فى جامعة جنيف سنة ١٨٤٩ - وهى أول طبيبة فى العالم - كانت النسوة المقيمات معها يقاطعنها ويأبين أن يكلمنها، ويزوين ذيولهن من طريقها احتقارًا لها كأنهن متحرزات من نجاسة يتقين مساسها.

ولما اجتهد بعضهم فى إقامة معهد يعلم النساء الطب بمدينة فلادلفيا الأمريكية أعلنت الجماعة الطبية بالمدينة أنها تصادر كل طبيب يقبل التعليم بذلك المعهد وتصادر كل من يستشير أولئك الأطباء.

وهكذا تقدم الغرب إلى أوائل عصرنا الحديث ولم تتقدم المرأة فيه تقدمًا يرفعها من مراغة الاستعباد التى استقرت فيها من قبل الجاهلية العربية.

فماذا صنع محمد؟ وماذا صنعت رسالة محمد؟

حكم واحد من أحكام القرآن الكريم أعطى المرأة من الحقوق كفاء ما فرض عليها: «ولهن مثل الذى عليهن بالمعروف».

وحكم آخر من أحكامه العالية، أمر المسلم بإحسان معاشرتها ولو مكروهة غير ذات

حظوة عند زوجها: «وعاشروهن بالمعروف فإن كرهتموهن فعسى أن تكرهوا شيئًا ويجعل الله فيه خيرًا كثيرًا».

وأباح لها الدين في الجهاد أن تكسب كما يكسب الرجال: «للرجال نصيب مما اكتسبوا وللنساء نصيب مما اكتسبن».

ولم يفضل الرجل عليها إلا بما كلفه من واجب كفالتها وإقامة أودها والسهر عليها.

أما محمد فقد جعل خيار المسلمين خيارهم لنسائهم: «أكمل المؤمنين إيمانًا أحسنهم خلقًا وخياركم خياركم لنسائهم».

وأمر بمداراة ضعفها ونقصها لأن «المرأة خلقت من ضلع لن تستقيم لك على طريقة، فإن استمتعت بها استمتعت بها وبها عوج، وإن ذهبت تقيمها كسرتها، وكسرها طلاقها».

وأوجب على الرجل أن يتجمل لامرأته ويبدو لها فى المنظر الذى يروقها، فقال عليه السلام، مما قال فى هذا المعنى وهو كثير: «اغسلوا ثيابكم وخذوا من شعوركم واستاكوا وتزينوا وتنظفوا، فإن بنى إسرائيل لم يكونوا يفعلون ذلك فزنت نساؤهم».

وأوجب على الرجل إذا خطب امرأة أن يظهرها على عيبه إن كان به عيب مستور: «إذا خطب أحدكم المرأة وهو يخضب بالسواد فليعلمها أنه يخضب».

وبلغ من رعاية شعورها ومداراة خجلها الذى فطرت عليه أنه أوجب على الرجل أن يمتعها كما تمتعه لأنها لا تطلب لنفسها إلا ما يطلبه الرجل منها: «فإذا جامع أحدكم أهله فليصدقها. ثم إذا قضى حاجته قبل أن تقضى حاجتها فلا يعجلها حتى تقضى حاجتها».

وكان تأديبه المسلمين فى هذه الصلة غاية فى الكياسة والترفق، فقال مما قال فى هذا المعنى: «إذا دخلت ليلا فلا تدخل على أهلك حتى تستحد المغيبة وتمشط الشعثة.. الكيس الكيس!».

معاملته لزوجاته

وإنما نلخص ما أوجبه النبى على المسلمين عامة فى معاملاتهم لزوجاتهم، وهو دون ما أوجبه على نفسه فى معاملة زوجاته بكثير.

فكان يشفق أن يرينه غير باسم فى وجوههن، ويزورهن جميعًا فى الصباح والمساء، وإذا خلا بهن «كان ألين الناس ضاحكًا بسامًا» كما قالت عائشة رضى الله عنها.

ولم يجعل من هيبة النبوة سدًا رادعًا بينه وبين نسائه، بل أنساهن برفقه وإيناسه أنهن يخاطبن رسول الله فى بعض الأحايين. فكانت منهن من تقول له أمام أبيها: «تكلم ولا تقل إلا حقًا..» ومن تراجعه أو تغاضبه سحابة نهارها، ومن تبلغ فى الاجتراء عليه ما يسمع به رجل كعمر بن الخطاب فى شدته، فيعجب لهم ويهم بأن يبطش بابنته حفصة لأنها تجترئ كما تجترئ الزوجات الأخريات. وإذا رأى النبى غضبًا كهذا من جرأة كتلك كف من غضب الأب وقال له: ما لهذا دعوناك!

وقد كان يتولى خدمة البيت معهن، أو كما قال: «خدمتك زوجتك صدقة».

وكان يستغفر الله فيما لا يملك من التسوية بين إحداهن وسائرهن وهو ميل قلبه: «اللهم هذا قسمى فيما أملك فلا تلمنى فيما لا أملك».

ولما أقعده مرض الوفاة أن يزورهن كل يوم كما عودهن بعث إليهن فتلطف فى سؤالهن: «أين أنا غدًا؟ أين أنا غدًا؟».. ليقلن عند عائشة ويأذن له فى الإقامة ببيتها. ولو أنه أحل لنفسه أن يقيم حيث أقام وهو مريض لما كان فى ذلك من حرج.

والمعاملة الطيبة فى الزمن الطويل خلق نادر بين الناس، ولكنها فى حالة الرضا خلق لا يشق فهمه على كثيرين.

إلا أن الخلق الذى يشق فهمه على الأكثرين هو طيب المعاملة عندما تتعرض الحياة الزوجية لأخطر ما يمسها من خطر وهو المساس بالوفاء، فى هذه الخصلة تتسامى الحضارة الحديثة ما تتسامى فلا نخالها تحلم بمعاملة أطيب ولا أكرم من المعاملة التى أثرت عن النبى فى قصة عائشة بنت الصديق وهى أحظى نسائه لديه، ونلخصها مما روته بلسانها إذ تقول رضى الله عنها:

«... كان رسول الله إذا أراد أن يخرج لسفر أقرع بين نسائه؛ فأيها خرج سهمها خرج بها رسول الله معه. وأقرع بيننا فى غزوة غزاها فخرج فيها سهمى، ثم قفلنا من الغزوة إلى أن دنونا من المدينة، فقمت حين آذنوا بالرحيل فتمشيت حتى جاوزت الجيش وقضيت من شأنى، وأقبلت إلى الرجل فلمست صدرى فإذا عقدى قد انقطع، فرجعت

ألتمسه فحبسني ابتغاؤه.. وأقبل إلى الرهط الذين كانوا يرحلون لى[١] فحملوا هودجى وهم يحسبون أنى فيه. وكانت النساء إذ ذاك خفافًا لم يهبلن[٢] ولم يغشهن اللحم. إنما يأكلن العلقة من الطعام. فلم يستنكر القوم ثقل الهودج حين رحلوه ورفعوه إذ كنت مع ذاك جارية حديثة السن.

«ووجدت عقدى فجئت منازل الجيش وليس بها داع ولا مجيب، فتيممت منزلى الذى كنت فيه وظننت أن القوم سيفتقدوننى فيرجعون إلى.

«فبينما أن جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت. وكان صفوان بن المعطل السلمى قد عرس من وراء الجيش فأدلج[٣] فأصبح عند منزلى فرأى سواد إنسان نائم. فعرفنى حين رآنى واسترجع. فاستيقظت وخمرت وجهى بجلبابى، ووالله ما يكلمنى كلمة ولا سمعت منه كلمة غير استرجاعه حتى أناخ راحلته وركبتها وانطلق يقودها حتى أتينا الجيش بعد ما نزلوا فى نحر الظهيرة[٤].

فهلك من هلك فى شأنى، وكان الذى تولى كبره عبد الله بن أبى بن سلول.

واشتكيت حين قدمنا المدينة شهرًا والناس يفيضون فى قول أهل الإفك ولا أشعر بشىء من ذلك.

«... ويريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله اللطف الذى كانت أرى منه حين أشتكى. إنما يدخل رسول الله فيسلم ثم يقول: كيف تيكم؟ فذاك يريبنى ولا أشعر بالشر حتى خرجت بعدما نقهت وخرجت معى أم مسطح قبل المناصع[٥].

«ثم عدنا فعثرت أم مسطح فى مرطها، فقالت: تعس مسطح!» قلت: بئس ما قلت! أتسبين رجلا قد شهد بدرًا؟

«قالت: أى هنتاه[٦]! أو لم تسمعى ما قال؟

(١) أى يحملون الرحل على البعير.
(٢) يثقلهن اللحم والشحم.
(٣) سار فى آخر الليل.
(٤) أى فى شدة الحر.
(٥) أماكن فى خلاء المدينة تقصد لحاجة بمكائد الناس.
(٦) كأنها تنعى عليها طيبتها وقلة معرفتها.

«قلت: وماذا قال؟

«فأخبرتنى بقول أهل الإفك.. فازددت مرضًا إلى مرضى فلما رجعت إلى بيتى فدخل علىّ رسول الله فسلم ثم قال: كيف تيكم؟ استأذنت أن آتى أبوى: أريد أن أتيقن الخبر من قبلهما، فأذن لى.

«قالت أمى: يا بنية هونى عليك. فوالله لقلما كانت امرأة قط وُضيئة عند رجل يحبها ولها ضرائر إلا أكثرن عليها.

«قلت: سبحان الله! وقد تحدث الناس بهذا؟ فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم.

«ودعا رسول الله على بن ابى طالب وأسامة بن زيد يستشيرهما فى فراق أهله. فأما أسامة بن زيد فأشار على رسول الله بالذى يعلم من براءة أهله، وبالذى يعلم فى نفسه لهم من الود، وقال لرسول الله: هم أهلك ولا نعلم إلا خيرًا.

«وأما على بن أبى طالب فقال: لم يضيق الله عليك، والنساء سواها كثير. وإن تسأل الجارية تصدقك.

«فدعا رسول الله بريرة يسألها: هل رأيت من شىء يريبك من عائشة؟ قالت: والذى بعثك بالحق إن رأيت عليها أمرًا قد أغمصه[1] عليها أكثر من أنها جارية حديثة السن تنام عن عجين أهلها، فتأتى الداجن[2] فتأكله.

«... وبكيت يومى ذلك لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ثم بكيت ليلتى المقبلة لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم، وأبواى يظنان أن البكاء فالق كبدى..

«فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله فسلم ثم جلس وتشهد ثم قال: أما بعد يا عائشة فإنى قد بلغنى عنك كذا وكذا. فإن كنت بريئة فسيبرئك الله، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه. فإن العبد إذا اعترف بذنب ثم تاب، تاب الله عليه.

---

(١) أعيبه.

(٢) أى الحيوان الذى يألف البيت.

«فلما قضى رسول الله مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة. فقلت لأبى: أجب عنى رسول الله! فقال: والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله.

«فقلت لأمى: آجيبى عنى. فقالت كذلك. والله ما أدرى ماذا أقول لرسول الله..

«قلت – وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ كثيرًا من القرآن – إنى والله لقد عرفت أنكم سمعتم بهذا حتى استقر فى نفوسكم وصدقتم به: فإن قلت لكم إنى بريئة والله يعلم أنى بريئة، لا تصدقونى. ولئن اعترفت لكم بأمر، والله يعلم أنى بريئة. لتصدقونى، وإنى والله ما أحد لى ولكم مثلا إلى كما قال أبو يوسف: فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون.

«ثم تحولت فاضطجعت على فراشى.

«... ... فوالله ما رام رسول الله مجلسه ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله عز وجل على نبيه فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء عند الوحى، حتى أنه ليتحدر منه مثل الجمان[1] فى اليوم الشاتى.

«فلما سرى عن رسول الله وهو يضحك كان أول كلمة تكلم بها أن قال: «أبشرى يا عائشة!.. أما الله فقد برأك.

«قالت لى أمى: قومى إليه.

«قلت: والله لا أقوم إليه، ولا أحمد إلا الله. هو الذى أنزل براءتى..

وكان أبو بكر ينفق على مسطح لقرابته منه وفقره.. فأقسم لا ينفق عليه شيئًا أبدًا. فأنزل الله عز وجل: «ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يؤتوا أولى القربى.. إلى قوله: ألا تحبون أن يغفر الله لكم؟».

«فقال أبو بكر: والله إنى لأحب أن يغفر الله لى، ورجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفقها عليه».

تلك هى القصة التى عرفت بقصة الإفك كما روتها لنا السيدة عائشة رضى الله عنها.

---

(١) الدر.

وهى مسبار صادق يسبر لنا أغوار المروءة والرفق فى معاملة النبى لزوجاته حيث لا رفق ولا مروءة عند الأكثرين. فليس النبى هنا فى حالة من حالات الرضا التى تسلس الطباع ولا تستغرب معها المودة وطول الأناة، ولكنه فى حالة من تلك الحالات التى تثير الحمية وتثير الحب وتثير النقمة وتثير فى النفس البشرية كل ساكنة تدعو إلى طيب المعاملة، فلم يكن فى هذه الحالة إلا كرمًا خالصًا بما سلك فى أمر نفسه وفى أمر أهله وفى أمر دينه، ولم يدع لحالم من حالمى الحضارة الحديثة مرتقى يتطلع إليه فى جميع هذه الغايات.

سمع النبى حديثًا يلاك بين المنافقين ويسرى إلى المسلمين بل إلى خاصة ذويه الأقربين: حديثًا يسمعه رجل كعلى بن أبى طالب فى بره وكرم نحيزته فلا يرى بعده حرجًا من الطلاق والنساء كثيرات.

سمع النبى ذلك الحديث المريب فلم يقبله بغير بينة ولم يرفضه بغير بينة، وكان عليه أن يعود زوجه المريضة أو يجفوها إلى حين.. فعادها وبه من الرفق والإنصاف ما يأبى عليه أن يفاتحها فى مرضها بما يخامر نفسه الكريمة.. وبه من الموجدة والترقب ما أبى عليه أن يقابلها بما كان يقابلها به والنفس صافية كل الصفاء. وظل يسأل عنها سؤال متعتب ينتظر أن تشفى وأن تأتيه البينة فيشتد كل الشدة أو يرحم كل الرحمة، ولا يعجله لغط الناس أن يأخذ فى هذا الموقف الأليم بما توجبه الحمية وما توجبه المروءة فى آن.

وسأل من ينبغى أن يسأل: عليًا وأسامة وهما بمقام ولديه، وبريرة الجارية التى تعرف عائشة وتخلص لسيدها كما تخلص لسيدتها، وضرة لعائشة تنافسها وتكاد أن تضارعها فى حظوتها لديه، زينب بنت جحش التى كانت أسرع من يقول لو علمت شيئًا يقال. فاستعاذت بالله وقالت: «أحمى سمعى وبصرى، والله ما علمت إلا خيرًا».

واتصل الحديث بعائشة فاستأذنته فى زيارة أهلها، وآن له أن يفاتحها وقد وصل النبأ إلى سمعها. ولم يثن له قبل ذلك وهو كاظم ما فى فؤاده قادر على كتمانه مخافة أن يؤذيها بغير حق وهى تشكو سقامها..

فاتحها لتبرئ نفسها أو تستغفر الله.

* * *

وغضبت غضب البرىء المشكوك فيه، وإنها لبريئة فى نظر كل منصف يفهم أن امرأة كعائشة لا تعرض نفسها لهذه الريبة أمام جيش، وفى وضح النهار، ولغير ضرورة، ومع رجل من المسلمين يتقى ما يتقيه المسلم فى هذا المقام من غضب النبى وغضب المسلمين وغضب الله. فتلك خلة تترفع عنها من هى أقل من عائشة منبتا ومنزلة وخلقا وأنفة، فكيف بها فى مكانها المعلوم..

إلا أن النبى أراد لها البراءة أمام الخلق عامة وأمام نفسه المحبة، حذرًا أن تكون تبرئته إياها عن محبة وضعف لا عن تبين واستيثاق، فلما قضى كل حق وانتهى به الاستيثاق إلى الثقة كان قد وفى الكرم والحمية والإنصاف والرحمة أجمعين.

نعم وفى الرحمة حتى باللاغطين المتعجلين الذين أبدءوا وأعادوا فى ذلك الحديث المريب. وما أحد أرحم ممن يرحم المفترين على سمعة أهله وهناءة بيته وأمان سربه، ولا يعذر الناس أحدًا كما يعذرون نبيًا مطاعًا ينال فى عرضه فينال بالعقاب العدل من استحقوه.

سماحة الكريم

ولقد علمنا من رواية السيدة عائشة كما علمنا من روايات شتى أن عبد الله بن أبى ابن سلول كان أكبر اللاغطين بحديث الإفك عن سوء نية وكيد مبيت للنبى ودينه، وكان هذا الرجل كما تقدم فى بعض فصول هذا الكتاب بغيضًا إلى المسلمين متهما عندهم يتوجسون منه ويسمونه رأس المنافقين ولا يكفون عن طلب دمه واستئذان النبى فى قتله. فما ضر النبى لو خلى بين المسلمين وبينه يحاسبونه على فريته ويحاسبونه على كيده وينقمون لعرض النبى منه ليأمنوا شره ويجعلوه عبرة لغيره؟

وإذا قيل إن عبد الله بن أبىٍّ كان من أصحاب العصبية التى يحسب حسابها وتتقى بوادرها، فماذا يقال فى مسطح وهو مكفول أبى بكر وصنيعته الذى يأكل من ماله؟ ما الذى أنجاه من السخط والعقاب وكفل له دوام البر والمعونة لولا سماحة النبى وسماحة أبى بكر وسماحة القرآن.

على أن العصبية التى كان عبد الله بن أبىٍّ يلوذ بها لم تكن لتحميه عقاب النبى لو

أراده بعقاب ولو كان أصرم عقاب.. فما من عصبية هى أقرب إلى رحم الرجل وأولى بالذود عنه من ولده المشهور ببره. وقد أسلفنا أن ولد عبد الله قد تطوع لقتله يوم قيل له إن النبى يهدر دمه ويقضى بموته.. إنما هى سماحة الكريم..

إنما هى السماحة التى شملت مسطحًا كما شملت كبير المنافقين، وخرجت من حديث الإفك كله بالعفو عن جميع المسيئين مخلصين فى الرأى وغير مخلصين، وهى التى سبرت غورًا فى قصة هذا الحديث فتكشفت عن أطيب معاملة للزوجات فى أحرج الحالات. وتلك هى المعاملة الطيبة فى مثلها الأعلى، معاملة لا تتبدل بعد أيام وشهور بل تطول مدى السنين، وتطول مدى السنين مع نساء مختلفات لا مع امرأة واحدة، وتطول فى جميع الحالات ومنها حالة الألم البالغ ولا تنحصر فى حالة الرضا والطمأنينة. وأقل من ذلك أمنية يتمناها الحالمون بالوئام بين الأزواج فى العصر الذى وصفوه بعصر المرأة، لفرط ما أطنب فيه المطنبون من إكبار شأنها والدعوة إلى إنصافها.

تعدد الزوجات

هنا يعرض لنا الكلام عن تعدد زوجات النبى وهو الهدف الثانى الذى يرميه المشهورون بالإسلام فيكثرون من رميه كلما تكلموا عن أخلاق محمد عليه السلام وذكروا منها ما يزعمونه منافيًا لشمائل النبوة، مخالفًا لما ينبغى أن يتصف به هداة الأرواح.. السيف والمرأة!.

كأنهم يريدون أن يجمعوا على النبى بين الاستسلام للغضب والاستسلام للهوى، وكلاهما بعيد من صفات الأنبياء.

أما السيف فقد أسلفنا الكلام فيه.

أما المرأة فالظنة فيها أضعف من الظنة فى السيف على ما نراه، لان الاستسلام للشهوة آخر شيء يخطر على بال الرجل المحقق - مسلما كان أو غير مسلم - حين يبحث فى تعدد زوجات النبى، وفيما يدل عليه ذلك التعدد، وفيما اقتضاه.

قال لنا بعض المستشرقين إن تسع زوجات لدليل على فرط الميول الجنسية..

قلنا إنك لا تصف السيد المسيح بأنه قاصر الجنسية Undersexed لأنه لم يتزوج قط،

فلا ينبغى أن تصف محمدًا بأنه مفرط الجنسية Oversexed لأنه جمع بين تسع نساء.

ونحن قبل كل شيء لا نرى ضيرًا على الرجل العظيم أن يحب المرأة ويشعر بمتعتها. هذا سواء الفطرة لا عيب فيه، وما من فطرة هى أعمق فى طبائع الأحياء عامة من فطرة الجنسين والتقاء الذكر والأنثى، فهى الغريزة التى تلهم الحى فى كل طبقة من طبقات الحياة ما لا تلهمه غريزة أخرى. أرأيت إلى السمك وهو يعبر الماء الملح فى موسمه المعلوم فيطوى ألوفًا من الفواسخ ليصل إلى فرجة نهر عذب يجدد فيها نسله ثم يعود أدراجه؟.. أرأيت إلى العصفور وهو يبنى عشه ويعود من هجرته إلى وطنه؟ أرأيت إلى الزهر وهو يتفتح ليغرى الطير والنحل بنقل لقاحه؟ أرأيت إلى سنة الحياة فى كل طبقة من طبقات الأحياء؟ ما هى سنتها إن لم تكن هى سنة الألفة بين الجنسين؟ وأين يكون سواء الفطرة إن لم يكن على هذا السواء؟

فحب المرأة لا معابة فيه..

هذا هو سواء الفطرة لا مراء..

وإنما المعابة أن يطغى هذا الحب حتى يخرج عن سوائه، وحتى يشغل المرء عن غرضه، وحتى يكلفه شططًا فى طلابه. فهو عند ذلك مسخ للفطرة المستقيمة يعاب كما يعاب الجور فى جميع الطباع.

فمن الذى يعلم ما صنع النبى فى حياته ثم يقع فى روعه أن المرأة شغلته عن عمل كبير أو عن عمل صغير؟

مَن مِن بناة التاريخ قد بنى فى حياته وبعد مماته تاريخًا أعظم من تاريخ الدعوة المحمدية والدول الإسلامية؟

ومَن ذا الذى يقول إن هذا عمل رجل مشغول؟

عم شغلته المرأة؟ ومن ذا تفرغ لعظيم من المسعى فبلغ فيه شأو محمد فى مسعاه؟.

فإن كانت عظمة الرجل قد أتاحت له أن يعطى الدعوة حقها ويعطى المرأة حقها فالعظمة رجحان وليست بنقص، وهذا الاستيفاء السليم كمال وليس بعيب. ورسالة محمد إذن هى الرسالة التى يتلقاها أناس خلقوا للحياة ولم يخلقوا نابذين لها ولا منبوذين منها.

فليست شريعة هؤلاء بالشريعة المطلوبة فيما يخاطب به عامة الناس فى عامة العصور.

وأعجب شيء أن يقال عن النبى أنه استسلم للذات الحس وقد أوشك أن يطلق نساءه أو يخيرهن فى الطلاق لأنهن طلبن إليه المزيد من النفقة وهو لا يستطيعها.

فقد شكون – على فخرهن بالانتماء إليه – أنهن لا يجدن نصيبهن من النفقة والزينة، واجتمعت كلمتهن على الشكوى واشتددن فيها حتى وجم النبى وهم بتسريحهن، أو تخييرهن بين الصبر على معيشتهن والتسريح.

وذهب إليه أبو بكر يومًا «يستأذن عليه فوجد الناس جلوسًا لا يؤذن لأحد منهم. ثم دخل أبو بكر، وعمر من بعده، فوجدا النبى جالسًا وحوله نساؤه واجمًا ساكتًا. فأراد أبو بكر أن يقول شيئًا يسرى عنه، فقال: «يا رسول الله لو رأيت بنت خارجة! سألتنى النفقة فقمت إليها فوجأت عنقها» فضحك رسول الله وقال: هن حولى كما ترى يسألننى النفقة!.. فقام أبو بكر على عائشة يجأ عنقها، وقام عمر إلى حفصة يجأ عنقها ويقولان: «تسألن رسول الله ما ليس عنده؟».

فقلن: «والله لا نسأل رسول الله شيئًا أبدًا ليس عنده». ثم اعتزلهن الرسول شهرًا أو تسعة وعشرين يومًا فنزلت بعدها الآية التى فيها التخيير وهى: «يا أيها النبى قل لأزواجك إن كنتن تردن الحياة الدنيا وزينتها فتعالين أمتعكن وأسرحكن سراحًا جميلا، وإن كنتن تردن الله ورسوله والدار الآخرة، فإن الله أعد للمحسنات منكن أجرًا عظيما».

فبدأ الرسول بعائشة فقال لها: «يا عائشة!.. إنى أريد أن أعرض عليك أمرًا أحب ألا تتعجلى فيه حتى تستشيرى أبويك..».

قالت: «وما هو يا رسول الله؟» فتلا عليها الآية..

قالت: «أفيك يا رسول الله أستشير أبوى؟ بل أختار الله ورسوله والدار الآخرة..» ثم خير نساءه كلهن فأجبن كما أجابت عائشة، وقنعن بما هن فيه من معيشة كان كثير من زوجات المسلمين يظفرن بما هو أنعم منها.

علام يدل هذا؟..

نساء محمد يشكون قلة النفقة والزينة ولو شاء لأغدق عليهن النعمة وأغرقهن فى

الحرير والذهب وأطايب الملذات.

أهذا فعل رجل يستسلم للذات حسه؟

أما كان يسيرًا عليه أن يفرض لنفسه ولأهله من الأنفال والغنائم ما يرضيهن ولا يغضب المسلمين، وهم موقنون أن إرادة الرسول من إرادة الله؟.

وماذا كلفه الاحتفاظ بالنساء حتى يقال إن كان يفرط فى ميله إلى النساء؟.. هل كلفه أن يخالف ما يحمد من سننه أو يخالف ما يحمد من سيرته أو يترخص فيما يرضاه أتباعه ولا ينكرونه عليه؟

لم يكلفه شيئًا من ذلك، ولم يشغله عن جليل أعماله وصغيرها، ولم نر هنا رجلا تغلبه لذات الحس كما يزعم المشهورون، بل رأينا رجلا يغلب تلك الملذات فى طعامه ومعيشته وفى ميله إلى نسائه.. فيحفظها بما يملك منها ولا يأذن لها أن تسومه ضريبة مفروضة عليه، ولو كانت هذه الضريبة بسطة فى العيش قد ينالها أصغر المسلمين، ولاشك فى قدرة النبى عليها لو أراد.

رجل الجد والرصانة

وهكذا نبحث عن الرجل الذى توهمه المشهورون من مؤرخى أوربا فلا نرى إلا صورة من أعجب الصور التى تقع فى وهم واهم.

نرى رجلا كان يستطيع أن يعيش كما يعيش الملوك ويقنع مع هذا بمعيشة الفقراء ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!

ونرى رجلا تألبت عليه نساؤه لأنه لا يعطيهن الزينة التى يتحلين بها لعينيه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!..

ونرى رجلا آثر معيشة الكفاف والقناعة على إرضاء نسائه بالتوسعة التى كانت فى وسعه ثم يقال إنه رجل غلبته لذات حسه!..

ذلك كلام لو شاء المشهورون أن يرسلوه كلامًا مضحكًا مستغربًا لأفلحوا فيما قالوه أحسن فلاح. أو لعله أقبح فلاح!..

ويزيد فى غرابته أن الرجل الذى توهموه ذلك التوهم لم يكن مجهولا قبل زواجه ولا بعد زواجه فتخبط فيه الظنون ذلك الخبط الذريع.

فمحمد كان معروف الشباب قبل قيامه بالدعوة الدينية كأشهر ما يعرف فتى من قريش أوهل مكة.

كان معروفًا من صباه إلى كهولته فلم يعرف عنه أنه استسلم للذات الحس فى ريعان صباه، ولم يسمع عنه أنه لها كما يلهو الفتيان حين كانت الجاهلية تبيح ما لا يباح.. بل عرف بالطهر والأمانة واشتهر بالجد والرصانة وقام بالدعوة بعدها فلم يقل أحد من شانئيه والناعين عليه والمنقبين وراءه عن أهون الهنات: تعالوا يا قوم فانظروا هذا الفتى الذى كان من شأنه مع النساء كيت وكيت يدعوكم اليوم إلى الطهارة والعفة ونبذ الشهوات.. كلا.. لم يقل أحد هذا قط من شانئيه وهم عديد لا يحصى. ولو كان لقوله موضع لجرى على لسان ألف قائل.

ولما بنى بأولى زوجاته - خديجة - لم تكن لذات الحس هى التى سيطرت على هذا الزواج. لأنه بنى بها وهى فى نحو الأربعين وهو فى نحو الخامسة والعشرين، ونيف على الخمسين وأوتى الفتح المبين وليس له من زوجة غيرها ولا من رغبة فى الزواج بأخرى.

ولم يكن وفاؤه لها بقية حياته وفاء المرء للذات حس أو ذكرى متاع جميل. لأنه فضلها على عائشة فى صباها وهى أحب نسائه إليه، وكانت عائشة تغار منها فى قبرها فلم يكتمها قط أنه يفضلها عليها.

قالت له مرة: هل كانت إلا عجوزًا بدلك الله خيرًا منها، فقال لها مغضبًا: «لا والله ما أبدلنى الله خير منها.. آمنت بى إذ كفر الناس.. وصدقتنى إذ كذبنى الناس، وواستنى بمالها إذ حرمنى الناس، ورزقنى الله منها الولد دون غيرها من النساء».

فلهذا أحب خديجة ووفى لها وفضلها ولم يمح ذكراها من نفسه قط من أعقبتها من الزوجات الفتيات: وفاء قلب وليست لذات حس ولا ذكرى متاع جميل.

أسباب تعدد زوجاته

ولو كانت لذات الحس هى التى سيطرت على زواج النبى بعد وفاة خديجة لكان

الأحجى بإرضاء هذه الملذات أن يجمع النبى إليه تسعًا من الفتيات الأبكار اللاتى اشتهرن بفتنة الجمال فى مكة والمدينة والجزيرة العربية، فيسرعن إليه راضيات فخورات، وأولياء أمورهن أرضى منهن وأفخر بهذه المصاهرة التى لا تعلوها مصاهرة.

لكنه لم يتزوج بكرًا قط غير عائشة رضى الله عنها، ولم يكن زواجه بها مقصودًا فى بداية الأمر حتى رغبته فيها خولة بنت حكيم التى عرضت عليه الزواج بعد وفاة خديجة.

قالت عائشة رضى الله عنها: «لما توفيت خديجة قالت خولة بنت حكيم امرأة عثمان ابن مظعون للنبى: «أى رسول الله!.. ألا تتزوج؟»

قال: «من؟».

قالت: «إن شئت بكرًا وإن شئت ثيبًا؟»..

قال: «فمن البكر؟».

قالت: «بنت أحب الناس إليك عائشة بنت أبى بكر».

قال: «فمن الثيب؟».

قالت «سودة بنت زمعة آمنت بك واتبعتك؟».

ثم كانت سودة هى أولى النساء اللاتى بنى بهن بعد وفاة خديجة. وكان زوجها الأول – ابن عمها – قد توفى بعد رجوعه من الهجرة إلى الحبشة. وكانت هى من أسبق النساء إلى الإسلام فآمنت وهجرت أهلها ونجا بها زوجها إلى الحبشة فرارًا من إعنات المشركين له ولها. فلما مات لم يبق لها إلا أن تعود إلى أهلها فتصبأ وتؤذى، أو تتزوج بغير كفؤ أو بكفؤ لا يريدها. فضمها النبى إليه حماية لها وتأليفًا لأعدائه من آلها. وكان غير هذا الزواج أولى به لو نظر إلى لذات حس ومال إلى متاع.

وكانت للنبى زوجة أخرى وسمت بالوضاءة والفتاء وهى زينب بنت جحش ابنة عمته عليه السلام التى زوجها زيداً بن حارثة بأمره وعلى غير رضا منها، لأنها أنفت – وهى ما هى فى الحسب والقرابة من رسول الله – أن يتزوجها غلام عتيق.

هذه أيضًا لم يكن «للذات الحس» المزعومة سلطان فى بناء النبى بها بعد تطليق زيد

إياها وتعذر التوفيق بينهما، ولو كان للذات الحس سلطان فى الزواج لكان أيسر شىء على النبى أن يتزوجها ابتداءً ولا يروضها على قبول زيد وهى تأباه. فقد كانت ابنة عمته يراها من طفولتها ولا يفاجئه من حسنها شىء كان يجهله يوم عرض عليها زيدًا وشدد عليها فى قبوله. فلما تجافى الزوجان وتكررت شكوى زيد من إعراضها عنه وترفعها عليه وإغلاظها القول له، كان زواج النبى بها «حلا لمشكلة» بيتية بين ربيب فى منزلة الابن وابنة عمة أطاعته فى زواج لم يقرن بالتوفيق.

أما سائر زوجاته عليه السلام فما من واحدة منهن - رضى الله عنهن - إلا كان لزواجه بها سبب من المصلحة العامة أو من المروءة والنخوة دون ما يهذر به المرجفون من لذات الحس المزعومة.

فأم سلمة كانت كهلة مسنة يوم خطبها، كما قالت له معتذرة إليه لإعفائه من تكليف نفسه أن يتزوجها، جبرًا لخاطرها بعد موت زوجها عبد الله المخزومى من جرح أصابه فى غزوة أحد. ولما برح بها الحزن لوفاته واساها رسول الله قائلا: «سلى الله أن يؤجرك فى مصيبتك وأن يخلفك خيرًا».

فقالت: «ومن يكون خيرًا من أبى سلمة؟» فأوجب على نفسه خطبتها لأنها تعلم أنه خير من أبى سلمة، ولأنه يعلم أن أبا بكر وعمر خطباها فترفقت فى الاعتذار، وهما أعظم المسلمين قدرًا بعد النبى عليه السلام.

وجويرية بنت الحارث سيد قومه كانت إحدى السبايا فى غزوة بنى المصطلق فتزوجها النبى ليعتقها ويحض المسلمين على عتق أسراهم وسباياهم تفريجًا عنهم وتألفًا لقلوبهم، فأسلموا جميعًا وحسن إسلامهم، وخيرها أبوها بين العودة إليه والبقاء فى حرم رسول الله فاختارت البقاء فى حرم رسول الله.

وحفصة بنت عمر بن الخطاب مات زوجها، فعرضها أبوها على أبى بكر فسكت وعلى عثمان فسكت. وبث عمر أسفه للنبى فلم يكن للنبى عليه السلام أن يضن على وليه وصديقه بالمصاهرة التى شرف بها أبا بكر من قبله، وقال: يتزوج حفصة من هو خير من أبى بكر وعثمان.

ورملة بنت أبى سفيان تركت أباها لتسلم وتركت وطنها لتهاجر مع زوجها إلى الحبشة،

ثم تنصر زوجها وفارقها وهى غريبة هناك بغير عائل. فأرسل النبى إلى النجاشى فى طلبها لينقذها من ضياع الغربة وضياع الأهل وضياع القرين. فكانت النجدة الإنسانية باعث هذا الزواج ولم يكن له باعث من المتعة والاستزادة من النساء، وكان للنبى مقصد جليل من وراء هذا الزواج الذى لم يفكر فيه حتى ألجأته النجدة إلى التفكير فيه، وهو أن يصل بينه وبين أبى سفيان بآصرة النسب، عسى أن يهديه ذلك إلى الدين، بما يعطف من قلبه ويرضى من كبريائه.

وكان إعزاز من ذلوا بعد عزة سنة النبى عليه السلام فى معاملة جميع الناس، ولا سيما النساء اللاتى تنكسر قلوبهن فى الذل بعد فقد الحماة والأقرباء، ولهذا خير صفية الإسرائيلية سيدة بنى قريظة بين أن يلحقها بأهلها وأن يعتقها ويتزوج بها، فاختارت الزواج منه عليه السلام. وآية الآيات فى رعاية الشعور الإنسانى أنه عليه السلام أنب صفيه بلالا لأنه مر بها وبابنة عمها على قتلى اليهود. فقال له مغضبًا: «أنزعت الرحمة من قلبك حين تمر بالمرأتين على قتلاهما؟»، واحتقرتها زينب فلقبتها يومًا باليهودية فهجرها شهرًا لا يكلمها ليأخذ بناصر هذه الغريبة ويدفع عنها الضيم..

* * *

تتكشف لنا مراجعة الحياة الزوجية لمحمد عليه السلام عن هذه الأسباب وشبيهاتها من دواعى اختياره لنسائه واستجماعه لهذا العدد من الزوجات فى حين واحد.

ولا حرج - كما أسلفنا - على رجل قويم الفطرة أن يلتمس المتعة فى زواجه. ولكن الذى حدث فعلا أن المتعة لم تكن قط مقدمة فى الاعتبار عند نظر النبى فى اختيار واحدة من زوجاته قبل الدعوة أو بعدها، وفى إبان الشباب أو بعد تجاوز الكهولة.

وآخر صورة يتصورها المنصف هنا هى صورة رجل فرغ للذاته وجلس ينتقى واحدة بعد واحدة من الحسان على حسب ما يرجوه عندها من متاع. فإنما كان الاختيار كله على حسب حاجتهن إلى الأيواء الشريف أو على حسب المصلحة الكبرى التى تقضى باتصال الرحم بينه وبين سادات العرب وأساطين الجزيرة من أصدقائه وأعدائه، ولا استثناء فى هذه الخصلة لزوجة واحدة بين جميع زوجاته حتى التى بنى بها فتاة بكرًا موسومة بالجمال، وهى السيدة عائشة بنت أبى بكر الصديق رضى الله عنه..

إلا أن المشهرين المتقولين نسوا كل حقيقة من حقائق هذه الحياة الزوجية التى سجلت لنا بأدق تفصيلاتها ولم يذكروا إلا شيئاً واحدًا حرفوه عن معناه ودلالته، ليفتروا على النبى ما طاب لهم أن يفتروه وذلك أنه جمع فى وقت واحد بين تسع زوجات.

نسوا أنه اتسم بالطهر والعفة فى شبابه فلم يستبح قط لنفسه ما كان شباب الجاهلية يستبيحونه لأنفسهم من اللهو المطروق لكل طارق، فى غير مشقة عندهم ولا معابة.

ونسوا أنه بقى إلى نحو الخامسة والعشرين لم يتعسف فى طلب الزواج الحلال وهو ميسر له تيسره لكل فتى وسيم حسيب منظور إليه بين الأسر وبين الفتيات.

ونسوا أنه تزوج فى تلك السن كان زواجه بسيدة فى الأربعين اكتفى بها إلى أن توفيت وهو يجاوز الخمسين.

ونسوا أنه اختار أحسابا فى حاجة إلى التآلف أو الرعاية ولم يختر جمالا مطلوبًا للمتاع.

ونسوا أن الرجل الذى وصفوه بما وصفوا من تغليب لذات الحس لم يكن يشبع فى بعض أيامه من خبز الشعير، ولم يجاوز حياة القناعة قط لإرضاء نسائه وإرضاء نفسه، ولو شاء لما كلفه إرضاء نفسه وارضاؤهن غير القليل بالقياس إلى ما فى يديه.

نسوا كل هذا وهو ثابت فى التاريخ ثبوت عدد النساء اللاتى جمع بينهن عليه السلام.. فلماذا نسوه؟

نسوه لأنهم أرادوا أن يعيبوا وأن يتقولوا وأن ينحرفوا عن الحقيقة، وقد كانت رؤية الحقيقة أيسر لهم من الإغضاء عنها، لو أنهم أرادوها وتعمدوا ذكرها ولم يتعمدوا نسيانها.

الوجهة الخلقية

ونستطرد إلى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية فلا نطيل فيه، لأننا نقصر هذا الكتاب على عبقرية محمد وما له اتصال بجوانب هذه العبقرية فى تعدد مناحيها، ولم نرد به أن نتناول حكمة الشريعة الإسلامية فى تفصيلها ولا مسوغات الأصول الدينية على اختلافها.

فأوجز ما نقوله فى تعدد الزوجات من الوجهة الخلقية أو الأدبية أن النبى عليه السلام لم يجعله حسنة مطلوبة لذاتها أو مباحًا يختاره من يختاره وله مندوحة عنه.. وإنما جعله ضرورة يعترف بها الرجل وتعترف بها الأمة فى بعض الأحول لأنها خير من ضرورات. ولن ينكر هذا إلا متعنت يصدم الحقائق ويتجاهل المحسوس الماثل للعيان.

ففى حياة محمد الخاصة لا ينكر أحد أن بناءه بنسائه قد كان خيرًا من الاخلاء بينهن وبين التأيم والمذلة والرجعة إلى الكفر والضلالة، وكان خيراً من قطع تلك الآصرة التى وصلت بينه وبين البيوت والعشائر فكان لها ما كان من فضل فى نفع الدين والمتدينين به، وهى ضرورة يلجأ إلى الاعتراف بها كل مسئول عن شئون أمة بل أمم تمارس الحياة الدنيا، وكل إمام عليم بطبائع الناس.

أما الضرورة الاجتماعية العامة فقد اعترفت بها الشرائع المدنية الحديثة جميعًا ثم تحللت منها بإباحة الزنى وعلاج مشكلة الزواج بحل خارج عن نطاق الزواج أوخارج عن نطاق البيت والأسرة. ولو اهتدت هذه الشرائع المدنية إلى حل خير من هذا لجاز لها أن تنكر تعدد الزوجات، وتنكر أنه ضرورة أكرم من ضرورات.

فلا شك أن الجمع بين المرأة العقيم أو المرأة المريضة وبين غيرها أكرم لها وللمجتمع من نبذها فى معترك هذه الدنيا الضروس بغير ولد وبغير زوج وبغير عاصم، ثم هو أكرم للزوج نفسه وهو كائن حى يريد أن يصل ما بينه وبين الحياة بذرية صالحة هى الغرض الأكبر من كل زواج، ولولاها لا تنقض فى المجتمع أساس كل زواج.

ولا شك أن الجمع بين المرأة المزهود فيها وبين زوجة أخرى أكرم لها وأصلح من الجمع بينها وبين خليلة أو عدة خليلات.

* * *

ولا شك أن تسهيل الزواج وبخاصة فى أوقات الحروب التى ينقص فيها الرجال أكرم للمجتمع الإنسانى وأصلح من تسهيل العلاقات الأخرى التى لا تنفع النوع ولا تنفع الأخلاق، ولا ترفع مكانة المرأة فى عصمة رجل أو فى متناول كثير من الرجال.

هذا شىء جائز..

بل هذا شيء أكثر من جائز، لأنه واقع لا محيد عنه ولا حيلة فيه. وغير ملوم من يواجهه بحل أكرم من حلول شتى.. بل اللوم عليه أن ينظر فى شئون العالم ثم يغمض عن حقائقه التى تصدم كل عين.

ومن السهل - على من أراد - أن يسوس العالم فى خياله بالفضائل التى تروقه وترضيه!.. وليس من السهل عليه أن يخلق العالم الذى يساس له ويرضى بما ارتضاه. وقد علم هذا كل رجل واجهته مشكلة واحدة من المشكلات التى واجهت محمدًا بادئ الرأى على غير مثال سابق يحتذيه، إلا ما ألهمه الله.

ماذا صنع نابليون فى عصرنا الحديث؟

وإنما نضرب المثل بنابليون لأنه حضر انقلابًا فى الأطوار والعادات يشبه نشأة الدين فى أيام الدعوة المحمدية ونعنى به الثورة الفرنسية، وحضر انحدارًا فى الأخلاق والآداب يشبه الانحدار الذى أصيب به العرب فى أواخر عهد الجاهلية، وأسس دولة، ونظر فى سن قانون، وحاول ضروبًا من الإصلاح.

نابليون قد طلق امرأته وأكره أحبار المسيحية على قبول هذا الطلاق، وقد اشتهرت له علاقات بخليلات متعددات، غير الخليلات المجهولات.

ونابليون يقول عن المرأة: «لقد صنعت كل ما وسعنى أن أصنع لتحسين حال أولئك المساكين الأبرياء أبناء الزنى. إلا أنك لا تستطيع أن تصنع لهم الشيء الكثير دون مساس بقواعد الزواج. وإلا أحجم الناس عن الزواج إلا القليل».

«ولقد كان للرجل فى العهد القديم سريات إلى جانب الزوجات، ولم يكن أبناء الزنى محتقرين بين الناس احتقارهم اليوم.. إنه لمن المضحك أن يحظر على الرجل الزواج بأكثر من واحدة. فتحمل هذه الزوجة الواحدة، وكأن الرجل فى أثناء حملها أعزب أو عقيم.

* * *

«واليوم لا سريات للرجال ولكنهم يعاشرون الخليلات وهن أقدر على التبديد والإفساد.

«إنهم فى فرنسا يخولون النساء فوق حقهن من التعظيم. وإنما الواجب ألا ينظر

إليهن كأنهن مساويات للرجال.. فما هنَّ فى الحقيقة إلا آلات لتخريج الأطفال.

«وقد تمردن فى إبان الثورة وعقدن الجماعات لأنفسهن وبدا لهن أن يؤلفن فرقًا منهن فى الجيش.

«وكان لابد من صدهن.. لأن المجتمع الإنسانى عرضة للخلل والفوضى إذا ترك النساء حالة الاعتماد على الرجال وهى مكانهن الحق فى الحياة. نعم إن المجتمع لوشيك إذن أن يتمزق بددًا بغير انتهاء.

«وعلى جنس من الجنسين أن يخضع للآخر لا محالة.. فإذا نشبت الحرب بينهما، فلن تكون كحرب الأغنياء والفقراء أو حرب البيض والسود!..

«الا وان الطلاق لأضر بالمرأة دون مراء. فالرجل الذى يجمع بين زوجات لا يبدو عليه من ذلك أثر كالأثر الذى يبدو على المرأة بعد التزوج بعدة رجال. إنها تضمحل إذن كل الاضمحلال».

كذلك اعترف نابليون بالضرورات الزوجية فى العصر الحديث. فكيف اعترف بها «لنين» فى الثورة الكبرى بعد الثورة الفرنسية؟

حل مشكلة الزواج بحل رابطة الزواج.. فلا رابطة بين الزوجين أوثق من رابطة الرفيقين فى الفندق أو الطريق. وليس أعجب ممن جعل الزواج شريعة ملائكة إلا الذى جعله على هذا النحو شريعة عجماوات.

عقوبة الزوجات

ولا نختم هذا الفصل عن النبى فى حياته الزوجية قبل أن نعرض لعقوبة الزوجات فى الإسلام وللعقوبة التى اختارها عليه السلام. لأن عقوبة الرجل لامرأته فى حالة الغضب كمحاسنته لها فى حالة الرضا - كلاهما ميزان صادق لمكانتها عنده، ومكانة المرأة عامة فى تقديره.

والقرآن ينص على العقوبات السائغة فى حالة النشوز وهى العظة والهجر فى المضاجع والضرب، والتسريح بإحسان: «واللاتى تخافون نشوزهن

فعظوهن واهجروهن فى المضاجع واضربوهن. فإن أطعنكم فلا تبغوا عليهن سبيلا».:.«... وإذا طلقتم النساء فبلغن أجلهن فأمسكوهن بمعروف أو سرحوهن بمعروف، ولا تمسكوهن ضرارًا لتعتدوا ومن يفعل ذلك فقد ظلم نفسه...»

والنبى عليه السلام لم يطلق زوجة من زوجاته دخل بها وعاشرها ولم يضرب قط واحدة منهن، ولم يرو عنه قط أنه ضرب أو نهر خادمًا فضلا عن زوجة، بل روى عنه ما ينفى ذلك ممن عاشروه ولازموه.

بل كان عليه السلام يكره ضرب النساء ويعيبه كما قال: «أما يستحى أحدكم أن يضرب امرأته كما يضرب العبد؟.. يضربها أول النهار ثم يجامعها آخره!»..

فما نص القرآن عليه من عقوبة الضرب فإنما نص عليه لعلاج النشوز الذى لا يستقيم بغيره، وقيده المفسرون بشروط تمنع الإيذاء وتحصره فى القدر الذى يستقيم عليه الجزاء.

فغاية ما يفهم من ذكر الضرب بين العقوبات أن بعض النساء يتأدبن به ولا يتأدبن بغيره، وقد يعلم الكثيرون أن هؤلاء النساء لا يكرهنه ولا يسترذلنه، وليس من الضرورى أن يكن من أولئك العصبيات المريضات اللائى يشتهين الضرب كما يشتهى بعض المرضى ألوان العذاب.

إنما العقوبة التى آثرها النبى عليه السلام هى الهجر الطويل أو القصير، بعد العظة والعتاب الجميل.

* * *

والهجر - ولاسيما الهجر فى المضاجع - عقوبة نفسية بالغة وليست كما يسبق إلى بعضهم عقوبة حسية تؤلم المرأة لما يفوتها من سرور ومتعة فإن فوات السرور والمتعة أيامًا، لا يؤلم المرأة هذا الإيلام الذى يجعل الهجر فى المضاجع من أصعب العقوبات دون الطلاق.

قال الأستاذ رشيد رضا رحمه الله فى كتابه نداء الجنس اللطيف: «أما الهجر فهو ضرب من ضروب التأديب لمن تحب زوجها ويشق عليها هجره إياها، ولا يتحقق هذا بهجر

المضجع نفسه وهو الفراش، ولا بهجر الحجرة التى يكون فيها الاضطجاع، وإنما يتحقق بالهجر فى الفراش نفسه. وتعمد هجر الفراش أو الحجرة زيادة فى العقوبة لم يأذن بها الله تعالى. وربما يكون سببًا فى زيادة الجفوة. وفى الهجرة فى المضجع نفسه معنى لا يتحقق بهجر المضجع أو البيت الذى هو فيه، لأن الاجتماع فى المضجع هو الذى يهيج شعور الزوجية فتسكن نفس كل من الزوجين إلى الآخر ويزول اضطرابها الذى أثارته الحوادث قبل ذلك. فإذا هجر الرجل المرأة وأعرض عنها فى هذه الحالة رجا أن يدعوها ذلك الشعور والسكون النفسى إلى سؤاله عن السبب ويهبط بها من نشز المخالفة إلى صف الموافقة، وكأنى بالقارئ وقد جزم بأن هذا هو المراد، وإن كان مثلى لم يره لأحد من الأموات ولا الأحياء.

والذى نراه أن الأستاذ رحمه الله وقد أخطأه المراد الدقيق من هذه العقوبة النفسية. وأن الحكمة فى إيثارها أعمق جدًّا من ظاهر الأمر كما رآه الأستاذ.

فأبلغ العقوبات ولا ريب هى العقوبة التى تمس الإنسان فى غروره وتشككه فى صميم كيانه: فى المزية التى يعتز بها ويحسبها مناط وجوده وتكوينه.

* * *

والمرأة تعلم أنها ضعيفة أمام الرجل ولكنها لا تأسى لذلك ما علمت أنها فاتنة له. وأنها غالبته بفتنتها وقادرة على تعويض ضعفها بما تبعثه فيه من شوق إليها ورغبة فيها.

فليكن له ما شاء من قوة، فلها ما تشاء من سحر وفتنة وعزاؤها الأكبر عن ضعفها أن فتنتها لا تقاوم، وحسبها أنها لا «تقاوم» بديلا من القوة والضلاعة فى الأجساد والعقول.

فإذا قاربت الرجل مضاجعة له وهى فى أشد حالاتها إغراء بالفتنة ثم لم يبالها ولم يؤخذ بسحرها فما الذى يقع فى وقرها وهى تهجس بما تهجس به فى صدرها؟

أفوات سرور؟ أحنين إلى السؤال والمعاتبة؟ كلا.. بل يقع فى وقرها أن تشك فى صميم أنوثتها وأن ترى الرجل فى أقدر حالاته جديرًا بهيبتها وإذعانها، وأن تشعر بالضعف ثم لا تتعزى بالفتنة ولا بغلبة الرغبة. فهو مالك أمره إلى جانبها وهى إلى جانبه لا تملك شيئًا

إلا أن تثوب إلى التسليم، وتفر من هوان سحرها فى نظرها قبل فرارها من هوان سحرها فى نظر مضاجعها..

فهذا تأديب نفس وليس بتأديب جسد، بل هذا هو الصراع الذى تتجرد فيه الأنثى من كل سلاح، لأنها جربت أمضى سلاح فى يديها فارتدت بعده إلى الهزيمة التى لا تكابر نفسها فيها. فإنما تكابر ضعفها حين تلوذ بفتنتها.. فإذا لاذت بها فخذلتها فلن يبقى لها ما تلوذ به بعد ذاك.

* * *

وهنا حكمة العقوبة البالغة التى لا تقاس بفوات متعة ولا باغتنام فرصة للحديث والمعاتبة.

إنما العقوبة إبطال العصيان، ولن يبطل العصيان بشىء كما يبطل بإحساس العاصى غاية ضعفه وغاية قوة من يعصيه. والهجر فى المضاجع هو مثابة الرجوع إلى هذا الاحساس.

* * *

على أن عقاب النبى لزوجاته كان من الندرة بحيث لا يذكر لولا ما تعود المسلمون من ذكر كل كبيرة وصغيرة فى حياته الخاصة والعامة على السواء، وهذا مع طول العشرة وتعدد الزوجات وكثرة الحوادث الجسام وقلة النسل الذى يصل المقطوع ويرأب المصدوع.

وكان معظم عقابه أشبه بعقاب نبى لمسلمات منه بعقاب زوج لزوجات. وهو فى حالتى عقابه وإحسانه إنسان على أكمل ما يكون الإنسان من رحمة وكيس وإنصاف.

وإذا حارت الأدلة فى قوام تلك الحياة الزوجية فالدليل الذى لا يحار أن ينقضى نحو أربعين سنة عليها وهى على ذلك الصفاء والولاء الذى لم يعرف مثله فى علاقات الرجال والنساء: هذه حياة زوجية لا تقوم على الحس والمتعة، ولن تدوم ذلك الدوام لو كان لها قوام غير مودة القلوب وراحة النفوس وحب الخير ومبادلة العطف والتعظيم.

الأب

الأبوة الروحية والأبوة النوعية

حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التى دقت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة.

وهو ولا ريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الأحياء وإن كنا نحن لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه، ولا نزيد عن استقصاء بعض الملاحظات التى تقارب الحقيقة، أو هى أقرب ما نستطيع الوصول إليه.

وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجرى على سنة المكافأة والتعويض فى معظم حالاته. فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالإتقان فى مزية أخرى.

فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف، فيبقى منه القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير.

والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد. فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحياء السفلى.

ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التى يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه. فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجور ذلك على نسله وينتقص من قسمته فى أبنائه، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور، فإذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الأخرى. أو كأنما هى مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد إلا بثمن غال يحسب عليه، ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الأنحاء

والإنسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تحديد النسل وزيادة عدده.

فهل يجوز لنا أن نقول إن العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم بإصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية؟

إن قلنا ذلك فإنما نقوله على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا إليها. ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة ولا تفضى بنا إلى الجزم أو إلى التغلب.

فمعظم العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية، كعيسى عليه السلام.

وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية؛ أو رزقوا ذرية كلها إناث، أو رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة.

وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة، وفى جميع الأمم،، وفى جميع العصور، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة: يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون، ويدخل فيهم القادة العسكريون والسياسيون، ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى، ومحمد عبده، وسعد زغلول، وعبد الله النديم، ومصطفى كامل، ومصطفى فهمى، ومحمود سامى البارودى، وحافظ إبراهيم.

فإذا جاز لنا أن نقف عند تلك الملاحظة وأن نتأمل مغزاها، وجاز لنا أن نفهم أن إصلاح شئون النوع الإنسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال – فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة إن لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال بعد الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيل؟.. وأى أبوة إنسانية تغنى عن أبوة

اللحم والدم كما تغنى أبوة النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان؟

* * *

نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية، ونرى تكافؤًا فى الجانبين جديرا بالملاحظة والاعتبار.

ألا ما أثقل ثمن الإصلاح!..

ألا ما أحق المصلحين بالتمجيد وحسن الجزاء.

فمحمد الأب كان أصلح الآباء، ثم فجع فى بنيه فجيعة لا يدارى فيها ألم الإنسان إلا صبر الأنبياء.

ومن الناس من لا يكون صديقًا صالحًا ولا سيدًا صالحًا ولا زوجًا صالحًا، ولكنه أب صالح بر ببنيه..

لأن الرحم بين الآباء والأبناء أدنى الأرحام إلى المودة وأحراها بتحريك الشفقة فيمن لاينسفقن على أحد..

فكيف تكون الأبوة فى نفس صلحت للصداقة وصلحت للسيادة وصلحت للزوجية لأنها تصلح للعطف الذى يعم القريب والغريب، ويشمل القوى والضعيف؟

ذلك أب نعلم كيف يفرح بأبنائه.

ونعلم كيف يحزن حين يفجع فى أولئك الأبناء.

ومن الراجح أن العطف الأبوى لم يتمثل قط فى مولد أحد من أبناء محمد عليه السلام كما تمثل فى مولد ابنه الذى سماه باسم جده الأكبر أملا فى أن يصبح بعده خليفته الأكبر. ولعل العطف الأبوى قد تمثل فى تشييع هذا الطفل الصغير أشد من تمثله فى استقباله يوم ميلاده.

كانت أسباب كبيرة توحى إلى قلب محمد العظيم شوقه الطويل إلى استقبال ذلك الوليد.

كان منها أن محمدًا عربى يحرص على العقب من بعده كحرص كل رجل من أبناء القبائل وأصحاب العصبية: هم فخورون بالنسب فخورون بالعقب، يحفظون سيرة السلف ويتوقون إلى استبقاء الخلف على نحو لا يعهده الحضريون وإن كان حب الذرية فطرة مركبة فى جميع الطباع.

ومحمد كان يحب التكاثر لنفسه ويحبه لأمته، ويوصى المسلمين أن يستكثروا من النسل ما استطاعوا ليفاخر بهم الأمم وفرة وعزة. فاشتياقه إلى العقب من الذكور خليقة عربية تقترن بالخليقة الإنسانية والخليقة النبوية، فتزداد قوة على قوتها التى ركبت فى جميع الطباع..

وكان من أسباب هذا الشوق القوى طول العهد بالأبناء بعد من ولدتهم له السيدة خديجة رضى الله عنها، وشماتة أناس من شانئيه سماه بعضهم بالأبتر لانقطاع معظم نسله: وفى ذلك نزول الآية الكريمة: «إن شانئك هو الأبتر»

فقد مضى نيف وعشرون سنة لم تلد له فى خلالها زوجة من زوجاته. ومات فى هذه الفترة كل أولاده ما عدا فاطمة رضى الله عنها التى ماتت بعده بقليل: مات القاسم، والطاهر، طفلين. وماتت زينب، ورقية، وأم كلثوم، بعد أن تزوجن، ولم يتعوض من فقدهن ما يعزيه بعض العزاء..

فجيعة تضاعف السوق إلى الوليد المأمول.

وطول انتظار يضاعف الحب له كما يضاعف الشوق إليه.

ولسنا ندرى لم طالت الفترة التى مضت على أزواج النبى جميعًا بغير عقب.. ولكنا لا نستبعد تعليلها باجتماع المصادفات التى لا يندر أن تجتمع فى أمثال هذه الأحوال. فعائشة البكر التى لم يتزوج النبى بكرًا غيرها قد مات عنها عليه السلام وهى دون العشرين. وهى سن قد تبلغها المرأة ولا تلد، وإن كان ولودًا فيما بعدها.

أما أزواجه الأخريات اللائى تزوجن قبله فلا نعلم من أخبارهن أنهن أعقبن لأزواجهن الأولين خلفا غير رملة أم حبيبة، وهند بنت أمية المخزومية، وهذه كانت مسنة يوم بنى بها النبى عليه السلام، وفى عمر لا يستغرب فيه امتناع الولادة.

فكلهن ما عدا هاتين لم يلدن للنبى ولا لزوج قبله، واجتماع هذه المصادفة ليس بالعجيبة المعضلة التى يصعب تعليلها إذا تذكرنا أن النبى قد توخى فى اختيارهن تلك الأغراض العامة التى أجملناها فى الفصل السابق ولم يتحر منها النسل خاصة: وهى الإيواء الشريف والمصاهرة. وبعضهن - بل معظمهن - قد لقين من الشدائد والمخاوف وعناء الهجرة البعيدة، ما يعقم الولود.

فإذا أضفنا إلى ذلك معيشة الكفاف وضريبة العظمة النبوية التى أشرنا إليها على سبيل الاحتمال، واشتغال النبى فيها بين الخمسين والستين بتعزيز الدين وقمع الفتن ودرء الأخطار - لم يكن فهم تلك الظاهرة الحيوية بالأمر العصى على التعليل.

حزن الأبوة

طال اشتياق النبى إلى الوليد المأمول، وتجدد اشتياقه فى إثر كل زواج حتى جاءته مارية القبطية من قطر بعيد، ومن معدن غير المعدن الذى يختار لايواء المحزونات وتقريب الأسر والعصبيات، فبشرت النبى بعقب لعله غلام، واجتمع فى هذه البشارة اشتياق نيف وعشرين سنة، ورجاء لا ينتهى بانتهاء الزمان.

وولد إبراهيم!..

ولد الطفل الذى نظر أبوه إليه يوم مولده فامتد به الأمل مئات السنين بل ألوف السنين، وتخير له الاسم الذى وراءه أعقاب كأعقاب جده الأعلى، ليكون أبا ويكون له أحفاد، ويكون لأحفاده من بعدهم أحفاد ثم مامت ذلك الطفل الصغير.

ومات ذلك الأمل الكبير.

مات كلاهما والأب فى الستين.. أى صدمة فى ختام العمر؟.. أى أمل فى الحياة؟.. الدين قد تم، وهذه الآصرة قد انقطعت، فليس فى الحياة ما يستقبل وينتظر: كل ما فيها للإشاحة والإدبار.

مات الطفل ولم يدرك السنتين.

مصاب صغير إن كانت المصائب تقاس بسنوات المفقودين.

ولكن المصائب فى الأعزاء إنما تقاس بمبلغ عطفنا عليهم، والصغير أحوج إلى العطف من الكبير المستقل بشأنه.

وإنما تقاس بمبلغ تعويلهم علينا، وتعويل الصغير على وليه أكبر من تعويل الكبير.

وإنما تقاس بمبلغ الأمل فيهم، والأمل يطول فى بداءة الطريق وقد يقصر فى منتصف الطريق.

إنما تقاس آلام المفقودين بأعمار الفاقدين وأى مصاب أفدح من مصاب الستين وما بعدها فى الأمل الوحيد الواصل بينها وبين الزمان ماضيه وآتيه؟

ما تخيلت محمدًا فى موقف أدنى إلى القلوب الإنسانية من موقفه على قبر الوليد الصغير ذارف العينين مكظوم الوجد ضارعاً إلى الله.

نفس قد نفثت الرجاء فى نفوس الألوف بعد الألوف، وهى فى ذلك الموقف قد انقطع لها رجاء عزيز: رجاء وا أسفاه لا يحييه كل ما ينفثه المصلح فى الدنيا من رجاء.

وكأنى بمحمد كان يومئذ أقرب إلى قلوب الخالفين من بعده مما كان مع الجالسين حوله، ومع أقرب الناس إليه.

كان أقرب الناس إليه زوجاته أمهات المسلمين. وكن يحببنه غاية ما يحب النساء الأزواج، ولكن حبهن إياه لم يكن فى هذا الموقف من حب المقربات العاطفات، لأنه حب أثار غيرتهن من أم الوليد المأمول، فاحتجب من عطفهن بمقدار تلك الغيرة وبمقدار ذلك الحب. ولا لوم عليهن فيما طبع عليه الإنسان وفيما لا يقصدنه ولا يقدرن عليه.

وكان أقرب الناس إليه أصحابه الخاشعون بين يديه، وكان إكبارهم لسيد الأنبياء ينسيهم أنه أب من الآباء، بل إنه أب أرحم من سائر الآباء.

ظنوا أن النبى لا يحزن، كما ظن قوم أن الشجاع لايخاف ولا يحب الحياة، وأن الكريم لا يعرف قيمة المال

لكن القلب الذى لا يعرف قيمة المال لا فضل له فى الكرم، والقلب الذى لا يخاف لا فضل له فى الشجاعة، والقلب الذى لا يحزن لا فضل له فى الصبر. إنما الفضل فى الحزن والغلبة عليه، وفى الخوف والسمو عليه، وفى معرفة المال والإيثار عليه.

وفضل النبى فى نبوته وفى أبوته أنه حزن وبكى، وتلك هى الصلة بينه وبين قلب الإنسان، وبينه وبين الناس، وأى نبى تنقطع بينه وبين القلب الإنسانى صلة كهذه الصلة التى تجمع أشتات القلوب؟.

روى أسامة بن زيد أن زينب بنت النبى أرسلت إليه: «إن ابنتى قد حصرت فاشهدنا» فأرسل إليها عليه السلام يقول: «إن لله ما أخذ وما أعطى، وكل شئ عنده مسمى. فلتحتسب ولتصبر». فأرسلت تقسم عليه، فقام النبى صلى الله عليه وسلم وقمنا. فرفع الصبى فى حجر النبى ونفسه تقعقع. ففاضت عينا النبى صلى الله عليه وسلم. فقال له سعد: «ما هذا يا رسول الله؟»

قال: «هذه رحمة وضعها الله فى قلوب من شاء من عباده. ولا يرحم الله من عباده إلا الرحماء»

ما هذا يا رسول الله؟!

هذا رسول الله فى أصدق ما تكون عليه رسالة الرسل: فى الرحمة، وفى الآصرة الإنسانية، وغير هذا لن يكون.

ومحمد قد اتقى رؤية طفل يموت لابنته وهو كهل غير يائس من العقب، فكيف يكون حزنه على فلذة كبده إبراهيم وهو بعده ذاهب الرجاء فى الأبناء؟!

لقد كان حزنه لموته بمقدار فرحه بولده، وكان فرحه بولده بمقدار أمله فيه واشتياقه إليه.

وإن العطف الإنسانى كله ليتجه إلى تلك النفس الزكية وهى تتوسع فرحًا بالوليد المأمول.. حلق الأب المتهلل شعر وليده وتصدق بزنته فضة على المساكين، وذلك هو التوسع الذى وسعه رجل كان أقدر الرجال على وجه البسيطة غير مستثنى فيها رؤساء ولا ملوك.

جاء بأقصى ما عنده من الفرح وأقصى ما عنده من التوسعة، ولو شاء لقد كان وزن الوليد كله درًّا وجوهرًا بعض ما يستطيع فى ذلك اليوم الأغر الميمون.

وبمقدار هذا الفرح الطهور يوم الاستقبال كان الحزن الوجيع يوم الوداع:

خرج الرجل الذى اضطلع بأعباء الدنيا ومن فيها، وهو لا يضطلع بحمل قدميه: خرج يتوكأ على صديق عطوف إلى حيث يحمل الوليد آخر مرة فى حجره الأبوى قبل أن يودعه حجر التراب.. وكان يستقبل الجبل بوجهه فقال: يا جبل!.. لو كان بك مثل ما بى لهدك. ولكن إنا لله وإنا إليه راجعون.

أى والله!.. إنها لإحدى الفواقر التى يحملها اللحم والدم ولا تحملها صخور الجبال.

وصرخ أسامة حين بكى رسول الله. فنهاه رسول الله وقال: البكاء من الرحمة والصراخ من الشيطان.

حزن كما ينبغى له أن يحزن.. أما الحزن الذى لا ينبجى له فهو الصراخ الذى نهى عنه، وهو أن تنكسف الشمس يوم موت إبراهيم فيحسب المسلمون أنها انكسفت لموته، ويقول الأب الذى انكسفت الشمس حقًّا فى عينيه: «كلا.. إن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا تخسفان لموت أحد ولا لحياته!»

أو تخسفان ولكن فى أكباد المحزونين، وليس فى كبد السماء.

أكرم الآباء

أو كان من الحتم أن يكون محمد مثال الآباء كما كان مثال الأنبياء؟.. كذلك شاء القدر القادر، وكذلك رأينا محمدًا مثال الأب يوم ولد له إبراهيم، ومثال الأب يوم ذهب عنه إبراهيم.

ما يتمنى طفل – لو جاز أن يتمنى الأطفال – أبوة أرحم ولا أزكى من هذه الأبوة فى الحالتين.

بل كان محمد مثال الأب حيثما كان له نسل قريب أو بعيد، وذكر أو أنثى، وصغير أو كبير.

أرأيت إلى الحسن بن فاطمة وقد دخل عليه فركب ظهره وهو ساجد فى صلاته؟..

إن النبى فى صلاته لهو النبى فى مقامه الأسنى، وإن النبى فى مقامه الأسنى ليشفق أن يشغل الصبى عن لعبه فيطيل السجدة حتى ينزل الصبى عن ظهره غير معجل. ويسأله

بعض أصحابه: لقد أطلت سجودك؟ فيقول: إن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله!

أرأيت إلى فاطمة تدخل البيت أشبه الناس مشية بمشية محمد؟.. أرأيت إلى حنان يفيض على القلب كحنانه حين يرى فتاة تشبه أباها فى مشيته وسمته!

تلك فاطمة بقية الباقيات من الأبناء والبنات، يختصها النبى بمناجاته فى غشية وفاته: إنى مفارق الدنيا فتبكى. إنك لاحقة به فتضحك.. فى هذا الضحك وفى ذلك البكاء على برزخ الفراق بين الدنيا والآخرة أخلص الود والحنان بين الآباء والأبناء.

سرها بنبوته، وسرها بأبوته، فضحكت ساعة الفراق لأنها ساعة الوعد باللقاء.

وكذلك فارق الدنيا أكرم الأنبياء وأكرم الآباء.

السيد

الخير المطبوع

قدمنا الكلام فى فصول هذا الكتاب عن محمد رئيسًا، ومحمد صديقًا، ومحمد زوجًا، ومحمد أبًا، بعد الكلام على عبقريته فى الدعوة، وعبقريته فى قيادة الجيوش، وعبقريته فى السياسة والإدارة والبلاغة.

وبقى جانب لا تتم بغيره الإحاطة بجوانب النفس الإنسانية فى العلاقات بينها وبين سائر النفوس، وهو جانب المعاملة التى تكون بين الرجل ومن هم دونه ممن يملك أمرهم ويقبض على زمامهم ولا يعتصمون منه بعاصم غير عواصم طبعه وخلقه. ونريد بهم الخدم والعبيد والأرقاء، وهى معاملة لها من الدلالة على الأخلاق، ما يندر أن تدل عليه معاملة أخرى، لأنها تأتى من طبائع النفس وعقائدها، ولا تأتى بأمر آمر أو بدعوة داع.

فالصداقة لها الحقوق المتكافئة بين الصديقين. لا يستطيع أحدهما أن ينساها زمنًا طويًلا إلا ذكره بها مذكر من صديقه الحافظ لحقوقه، القادر على مقابلة الجفاء بمثله، ولو فى طوية نفسه.

والرئاسة قد تخول الرئيس حق السيطرة، وتفرض على المرءوسين واجب الطاعة، غير أنها قل أن تنطلق بغير وازع من خشية الغضب. أو خشية الانتفاض يحسب له الرئيس كل الحساب، أو بعض الحساب.

والأب يعطف على بنيه فلا يعجب الناس لعطفه عليهم، لما ركب فى طباع جميع الأحياء من حب الأب لولده، وإن اختلف الآباء فى صفات العطف وفى استحقاقهم لبر الأبناء.

وكذلك الزوج يرفق بزوجته وليس له كل الاختيار فى رفقه؛ لما يكون بين الزوجين من دالة يعتز بها الضعيف، ويستغنى بها أحيانًا عن القوة والرئاسة.

أما العبد المملوك فلا عاصم له غير ما فى نفس سيده من رحمة وخير، وإنه لمن الرحمة والخير أن يتبع السيد أمر الدين مع عبيده وخدمه الذين لا ينصرهم عليه ناصر فى هذه الدنيا. بل إنها لرحمة تؤثر ولو وقفت عند حدود الأوامر الإلهية، فإذا تجاوزتها إلى طواعية فى الخير لم يفرضها الدين ولم يفرضها العرف ولم يطلبها العبد نفسه فتلك هى الرحمة فى أصدق معانيها، وهى أدل الدلالات على لباب الأخلاق.

* * *

ولقد علم القارئ من فصولنا السابقة أننا لم نكتب هذا الكتاب لشرح الأصول الإسلامية وتفصيل محاسن الدعوة المحمدية. فذلك غرض لا تتسع له هذه الفصول وليس لنا أن نتصدى له بعد من فصلوه وكرروا الكتابة فيه..

وإنما نقصد بهذه الفصول إلى غرض قدمناه على كل غرض فى موضوعه، وهو بيان البواعث النفسية التى توحى إلى النبى أعماله ومعاملاته، ولا شك فى مطابقة هذه البواعث لكل أمر من أوامر الدين وكل نهى من نواهيه. إلا أن الخير المطبوع شئ والخير المأمول شىء آخر. والخير المطبوع هو الذى قصدنا إلى بيانه بكل ما بيناه.

ففى كتابتنا عن معاملة محمد للعبيد والخدم لا ننوى أن نفصل أحكام الإسلام وأوامر القرآن فى هذه العاملة، وإنما ننوى أن نبين مزية محمد على جميع السادة فى هذا الباب، وهى مزية لا تتوافر لمن يقنعون بالتزام الأوامر والحدود، ولا للذين يرتفعون إلى أرفع مرتبة تفرضها هذه الأوامر والحدود.

الإسلام والرق

على أن هذا لا يمنعنا أن نوجز الإشارة بداءة إلى مزية الإسلام بين الأديان الأخرى فى مسألة الرق والاستعباد، لأن أناسًا يخلطون بين اعتراف الإسلام بنوع من الرق وبين اعتباره مسئولاً عن وجوده فى الزمن القديم، ويردون شيئًا من ذلك إلى عمل النبى عليه السلام.

فمن الواجب أن نذكر أولاً أن دينًا من الأديان الأخرى لم يأمر بإلغاء الرق فى شكل من أشكاله، سواء رق الحروب أو رق النخاسة والبيع والشراء، وإن أناسًا من أقطاب

المسيحية كالقديس أغسطين سوغوه اعتبروه جزاءً عادلاً للخطايا التى يقترفها المسترقون، وجاء بعض أحبار الكنيسة فحرموا على الأرقاء شرف الخدمة فيها بالوعظ والهداية، أنفة لها أن يدنسها لؤم العنصر الذى وسموا به الرقيق.

ويجب أن نذكر بعد هذا أن النظام الاقتصادى القديم فى أساسه كان مرتبطاً بالاسترقاق أشد الارتباط. فكان إلغاؤه طفرة واحدة أقرب شئ إلى المستحيلات، ولم يكن أنفع فى علاجه من التدرج خطوة فخطوة والابتداء بتصعيبه وترغيب الناس عنه، وهو ما شرعه الإسلام.

فالإسلام قد بدأ بتحريم كل رق غير الأسرى فى الحروب، ثم حسن إطلاقهم وسماه منّا وعفوًا يشكر فاعله عليه: «فإما منّا بعد وإما فداء».

ثم أجاز للأسير أن يشترى نفسه، وأوجب حريته فى حالات كثيرة يرجع معظمها إلى إرادته هو إذا استطاع.

والحق الذى لا مراء فيه أن صنيع الإسلام هذا كان أجمل صنيع لقيه الأرقاء من دين أو شريعة، وأنه إذا كان هناك تمهيد لإلغاء الرق بتة فذلك هو تمهيد الإسلام دون غيره، وهو أقصى ما كان مستطاعًا فى نظام العالم القديم: نظام كان عدد الأرقاء فيه يقارب عدد الأحرار، كما جاء فى بعض الإحصاءات المروية عن الحضارتين الرومانية واليونانية.

وقد نظر فى مسألة الرق عقل من أكبر العقول التى نبغت فى أمة اليونان بل فى الأمم كافة– ونعنى به أرسطو – فأقره وأوجبه لأنه جعله سنة من سنن الفطرة وقيدًا لا فكاك منه لطائفة من الناس، خلقت عاجزة عن ولاية أمرها فلا غنى لها عن سيد ولا موئل لها من وال.

معاملة محمد لعبيده

ولو وقف النبى عند هذا الحد فى معاملة الأرقاء لأحسن وأجمل وامتاز بأمر دينه على كل محسن إلى الأرقاء فى زمانه إلا أننا نقرر الواقع ولا نتعداه قيد شعرة حين نقول إن كثيرًا من الأبناء لا يتمنون عند آبائهم خيرًا من المعاملة التى ظفر بها خدم محمد وعبيده. ومَن مِن الآباء يحسن إلى أبنائه خيراً من إحسان محمد لزيد بن حارثة ولابنه أسامة؟

فقد أعتق زيدًا ورآه أهلًا للزواج بعقيلة من أقرب قريباته إليه وأولاهن بحدبه وتوقيره، وهى التى رآها بعد ذلك أهلًا لزواجه بها وحظوتها لديه. فلم يعطه الحرية وكفى، ولم يعطه المساواة فى العيش وكفى، بل رفعه إلى المنزلة الاجتماعية التى يرتفع إليها السادة، ولا يثبتها شىء كما يثبتها شرف المصاهرة.

ثم حفظ هذا البر الأبوى لابنه أسامة، فولاه جيش الشام وهو دون العشرين، وفى الجيش طائفة من أكابر الصحابة. فلو كان للنبى ولد فى سنه لما تكفل به أحسن من هذه الكفالة ولا ميزه أشرف من هذا التمييز.

نعم لم نعد الواقع، ولا تجوَّزنا فى الوصف، حين قلنا إن الابن لا يتمنى خيرًا من معاملة محمد لعبده. فقد عرف زيد فعلًا أن محمدًا خير من أب وخير من أسرة كاملة يرجع إليها وترجع إليه. فبقى معه ولم يذهب مع أبيه. ولم يبق معه إيثارًا لبركة النبوة فإن محمدًا لم يكن قد أرسل بالدعوة يوم اختاره زيد وآثره على جميع آله. وإنما بقى معه لأنه الإنسان الذى يعرف حتى العبد الرقيق أن آصرة الإنسانية عنده أوثق من آصرة الأبوة عند آخرين.

إن حب الوالد لوليده وراثة ألوف الألوف من الأجيال. بل وراثة الحياة فى جميع الأحياء. فإذا بلغ البر بالضعفاء مبلغ الحب الأبوى من القوة فقد بلغ الذروة العليا التى لا متسنم فوقها لراق.

لقد خيرت شريعة الإسلام المحسنين بين المن وإعتاق الأسرى، وبين الفداء بالمال أو البادلة.. فأيها اختار المالك فهو إحسان.

أما محمد فقد اختار المن وزاد عليه، فأعتق كل أسير صار إلى حوزته وزاد على العتق تلك الرحمة الأبوية التى شملت كل منتم إليه، ولم يستبح فى غضبه ما يستبيحه المعلم والوالد من ضرب وتعزيز.. وربما كانت كلماته للخادم المخالف أقرب إلى الملاطفة منها إلى العقاب. ومن ذلك قصة الوصيفة التى أرسلها فأبطأت فى الطريق فما زاد على أن قال لها حين عادت: «لولا خوف القصاص لأوجعتك بهذا السواك!».

ضرب سواك لابن عزيز ليس بالشىء الكثير.

ولكن محمدًا يخشى القصاص إذا استباحه فى معاملة وصيفة تهمل أمره، وهو الذى لا يهمل له أمر عند سادة الشرفاء.

وروى أنس أن النبى أرسله فى حاجة فانحرف إلى صبيان يلعبون فى السوق، «وإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قد قبض ثيابى من ورائى، فنظرت إليه صلى الله عليه وسلم وهو يضحك فقال: يا أنيس! اذهب حيث أمرتك!».

كلمة أمر لا يقولها لخادمه إلا وقد ناداه مدللا وقابله ضاحكًا كأنه يعتب على قرين. وقد يلام القرين بأشد من هذا الملام.

وكانت رحمته بعبيد غيره كرحمته بعبيده.. فكان يجاملهم ويجبر كسرهم ويقبل منهم الهدية ويكافئ عليها. ويلبى دعوتهم إذا دعوه إلى طعام، ويوصى بهم قائلا: «هم إخوانكم وخولكم جعلهم الله تحت أيديكم فمن كان أخوه تحت يده فليطعمه مما يأكل ويلبسه مما يلبس ولا تكلفوهم ما يغلبهم، فإن كلفتموهم فأعينوهم» و«اتقوا الله فى الضعيفين النساء والرقيق».

البر بالخدمة

وربما كان البر بالخدمة فى هذا المقام أكرم وأنفى للهوان من البر بالخدم.. فالبر بالخادم عطف عليه. أما البر بالخدمة فارتفاع بالخادم إلى مقام السادة حيث لا يأنف السادة من خدمة أنفسهم بأيديهم، وذلك هو البر بالخدمة كما عنيناه، وذلك هو دأب النبى الذى جرى عليه فى بيته وبين أهله وخدمه.

فقد كان يحلب شاته ويخصف نعله ويخدم نفسه ويعلف ناضحه، أى البعير الذى يستقى عليه الماء. فإذا رأى الخدم لهم عملا فى البيت يماثل عمل سيدهم ومالك أمرهم فتلك هى المساواة التى تمسح ضير الخدمة وتجبر كسرها، ولا تقتصر على العطف والرحمة.

ولم يقبل عليه السلام خدمة من خادم يأنف الأحرار أن يقضوها له شاكرين. فما كان فى رجالات المسلمين كابر ابن كابر إلا كان يتمنى أن يؤدى لنبيه تلك الخدمة التى تطوعت بها نفوس مواليه وأتباعه. وهذا ضرب آخر من ضروب البر بالخدمة والتسوية فيها بين مقام الخادم ومقام المريد. فكان عمل الخادم عنده عمل التلميذ الذى يجلس إلى قدمى

أستاذه، حبًّا لا خنوعًا، وتوقيرًا لا مذلة، وأدبًا يفرضه على نفسه وليس بضريبة مكتوبة يفرضها عليه العرف والتأديب.

وعلى هذا كان النبى عليه السلام يكره أن تقبل يداه مخافة أن تجرى العادة بهذا بين الناس فتحمل بينهم على محمل الذلة والخضوع. قال أبو هريرة رضى الله عنه: «دخلت السوق مع النبى صلى الله عليه وسلم فاشترى سراويل، وقال للوزان: زن وأرجح.. فوثب الوزان إلى يد رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلها، فجذب يده وقال: هذا تفعله الأعاجم بملوكها، ولست بملك، إنما أنا رجل منكم. ثم أخذ السراويل فذهبت لأحملها فقال: صاحب الشىء أحق بشيئه أن يحمله».

ولقد يصح أن يقال إن حصة النبى من خدمة نفسه كانت أعظم من حصة خدمه. وإن تعويلهم عليه كان أكبر من تعويله عليهم وإنه جعل الخدمة على سنته ضربًا من توزيع الأعمال، أو ضربًا من تعاون أبناء البيت الواحد فيما يستطيعه كل منهم من تدبيره وقضاء شئونه.

«إنما أنا عبد آكل كما يأكل العبد، وأجلس كما يجلس العبد»

هذه كلمة السيد بإمامته، السيد بنسبه، السيد بسلطانه، السيد بالتفاف القلوب حوله، السيد بسيادته على سره وعلانيته ورأيه وهواه. ولو عمت هذه السيادة لبطل الاستعباد وأصبح تفاوت الدرجات كتفاوت الأعمار شيئًا لا غضاضة فيه على صغير ولا خنزوانة فيه لكبير. إنما هو تقسيم أعمال، وتعاون بين إخوان، وإن لم يكن تعاونًا بين أمثال.

العابد

الطبائع الأربع

طبيعة العبادة، وطبيعة التفكير، وطبيعة التعبير الجميل، وطبيعة العمل والحركة..

هذه طبائع أربع تتفرق فى الناس وقلما تجتمع فى إنسان واحد على قوة واحدة. فإذا اجتمعت معًا فواحدة منهن تغلب سائرهن لا محالة، وتلحق الأخريات بها فى القوة والدرجة على شىء من التفاوت.

طبيعة العبادة تدعونا إلى الاتصال بأسرار الكون للمعاطفة والتآلف بيننا وبينها: تدعونا إلى الحلول من الكون فى أسرة كبيرة.

وطبيعة التفكير تثير فى نفوسنا ملكات الكشف والاستقصاء. تدعونا إلى الحلول من الكون فى معمل كبير.

وطبيعة التعبير الجميل تشب النار المقدسة فى سرائرنا، فتصهر معادن الجمال من هذه الدنيا وتفرغها فى قوالب حسناء من صنع قرائحنا وألسنتنا، أو صنع قرائحنا وأيدينا، أو صنع قرائحنا وأوصالنا، تدعونا إلى الحلول من الكون فى متحف كبير.

وطبيعة العمل والحركة تعلمنا كيف نتأثر بدوافع الكون وكيف نؤثر فيها، وتجذبنا إليها فنستمد منها القدرة التى تجذبها إلينا: تدعونا إلى الحلول من الكون فى ميدان صراع ومضمار سباق.

وقلما تشعر بالكون بيتًا لأسرة، ومعملا لباحث، ومتحف فن، ومضمار سباق فى وقت واحد. إنما هى حالة من هذه الحالات تجب سائر الحالات، وقد تلحقها بها إلحاق التابع بالمتبوع والمساعد بالعامل الأصيل.

محمد بن عبد الله كانت فيه هذه الطبائع جميعًا على نحو ظاهر فى كل طبيعة. كان

عابدًا ومفكرًا، وقائلا بليغًا، وعاملا يغير الدنيا بعمله. ولكنه عليه السلام كان عابدًا قبل كل شيء، ومن أجل العبادة قبل كل شيء كان تفكيره وقوله وعمله، وكل سجية فيه.

تهيأ للعبادة بميراثه ونشأته وتكوينه. فولد فى بيت السدانة والتقوى، وتقدمه آباء يؤمنون ويوفون بإيمانهم، ويعتقدون ويخلصون فيما اعتقدوه..

* * *

ونشأ يتيما من طفولته فانطوى على نفسه وتعود التأمل والجد والعزوف عن عبث الصغار، والنظر إلى ما حوله بعين الناقد المترفع عن الدنايا، الجانح إلى الطهر واستقامة الضمير.

وتكون فى بنيته عابدًا من صباه..

قيل إنه فى الثانية أو الثالثة من عمره قد أدركته حالة يختلف شراح التاريخ فى تفسيرها، ويرويها من سمعوا بها على روايات مختلفات لا ندرى ما هو الواقع الصحيح منها، ويتعجل بعض المؤرخين الأوربيين فيحسبها ضربًا من الصرع على غير سند علمى أو تاريخى محقق يستند إليه.

كل ما يمكن أن نجزم به من هذه الحالة أو من غيرها أن محمدًا قد تكون ليتلقى الوحى الإلهى، وأن لهذا التكوين استعدادًا لابد أن يلحظ من أوائل صباه، لأن البنية الحية لن تتهيأ له فى أيام ولا فى شهر ولا فى سنوات ولن تستطيعه إلا إذا تمت أهبتها له والمولود فى صلب أبيه، ولا نقول فى المهد أو فى الرضاع.

فمن الأقوال المتواترة أنه كان عليه السلام إذا نزل عليه الوحى نكس رأسه، وكرب لذلك وتربد وجهه، وأخذته البرحاء حتى إنه ليتحدر منه مثل الجمان فى اليوم الشاتى، وسمع عند وجهه كدوى النحل، وقد يصدع فيغلف رأسه بالحناء. وقد شاب فقال: (شيبتنى هود وأخواتها) وعدد حين سئل عن أخواتها سورا أخرى من القرآن الكريم.

وليس هذا من خليقة كل بينة إنسانية: إنما هو خليقة البنية التى تتلقى وحيًا وتستوعب سرًا وتهتز لنبأ عظيم.

صفة العابد

وكانت أوصافه فى غير حالة الوحى توافق الاستعداد الذى يرشحه لتلقى الوحى والنبوة. فكان حسًّا كله وحياة كله. يراه من ينظر إليه فيرى فؤادًا يقظًا يتنبه لكل خالجة نفسية وكل نبأة خفية. يسرع فى مشيته ويلتفت فيلتفت بكل جسمه، ويشير فيشير بكل كفه، ويفكر فلا يزال يطرق إلى الأرض أو يرفع بصره إلى السماء، ويدعو فيرفع يديه حتى يرى بياض إبطيه، ويغضب فتحمر عيناه ووجنتاه، ويمتلئ عرق جبينه وينام وقلبه يقظ لا ينام: حس مرهف يدنى إليه ما وراء الحجاب، ويوقظ سريرته لأخفى البواطن، ويجعله أبدًا فى حالة قريبة من حالة الوحى حيثما هبط الوحى عليه.

هذه صفة عابد يفكر ويعبر ويعمل، وليست بصفة عابد ينقطع للعبادة أو ينقطع للتفكير، أو يعمل كما يعمل بعض النساك الذين هزلت بنيتهم الجسدية فلم يبق لهم إلا عكوف الصومعة أو رحلة الزهادة.

كانت عبادة محمد خلوًّا بالنفس إلى حين، أو عجبًا من بدائع الكون التى ألفها الناس لأنهم لم يوهب لهم فى أبصارهم وبصائرهم تلك النظرة الجديدة التى ترى كل شىء كأنه فى خلق جديد.

ما أعظم دهشة الناظر أن يرى الشمس قد خلقت اليوم أمام عينيه دهشة لا تعدلها دهشة.

وهى هى دهشة العين التى أبت أن تكل من الألفة لأنها أبدًا فى نظر جديد، أو فى نظر إلى كل منظور كأنه مخلوق جديد.

وهكذا كانت عبادة محمد عليه السلام: عجب من بدائع الكون فى كل نظرة يراها لأول مرة، وتفكير فى الخلق ينتهى إلى الإيمان، لأنه يبدأ بالعجب، ولا يزال أبدًا بين العجب والإيمان.

وإن محمدًا باعث الإيمان إلى القلوب. لقد كان يجدد إيمانه كما يجدد عجبه كل يوم. وكان يدعو الله فيقول: «يا مقلب القلوب ثبت قلبى على دينك».. وقيل له فى ذلك

فقال: «إنه ليس آدمى إلا وقلبه بين أصبعين من أصابع الله. فمن شاء أقام ومن أشاء أزاغ»

حركة متجددة فى الحس وفى الفكر وفى الضمير

فلا انقطاع عن الحس للعبادة كل الانقطاع

ولا انقطاع عن الحس للتفكير كل الانقطاع

وإنما هو تفكير من ينتظره العمل، وليس بتفكير من ترك العمل ليوغل فى الفروض ومذاهب الاحتمال والتشكيك: ثلث أيامه لربه وثلثها لأهله، وثلثها لنفسه. وما كان فى فراغه لنفسه ولا لأهله شيء يخرجه من معنى عبادة الله والاتصال بالله، على نحو من التعميم.

* * *

بهره الجمال من صباه: جمال الشمس والقمر والنهار والليل والروض والصحراء، وجمال الوجوه التى يلمح عليها الحسن فيطلب عندها الخير. إنما هو الخير على كل حال ما قد طلب من الجمال. وإنما جمال الله هو الذى قد كان يدعوه إليه، كلما نظر إلى خلق جميل.

فكر فى الخلق فآمن بالخالق واستقر هنالك لا يتقدم ولا يتأخر. فقال: «إن الشيطان يأتى أحدكم فيقول: من خلق السماء؟ فيقول: الله، فيقول: من خلق الأرض؟ فيقول: الله. فيقول: من خلق الله؟ فإذا وجد ذلك أحدكم فليقل: آمنت بالله ورسوله».

تلك هى نهاية التفكير التى ينتهى إليها عقل مستقيم خلق لعبادة عامل، وتعليم الناس عبادة وعملا، ولم يخلق ليوغل فى الفروض ويتقلب بين الشكوك..

وإنا لنسأل مع هذا: إلى أين انتهى المفكرون الذين أوغلوا فى شكوكهم وتطوحوا بها إلى قصوى ما تفرضه الفروض؟

إلى أين انتهى (كانت) Kant إمام المفكرين فى هذا الباب بين فلاسفة العصر الحديث، إن لم نقل الحديث والقديم؟

انتهى إلى أن النفس نفسان والوجود وجودان: نفس حسية ونفس حقيقية.. ووجود محسوس ووجود حق هو ذات الوجود.

النفس الحقيقية تدرك الوجود الحقيقى عندما ترجع إلى قرارها، ثم لا تتخطى بإدراكها عالم الباطن إلى عالم المحسوسات التى يتناولها التعبير وتصدير الكلام.

* * *

أليس معنى هذا أن إيمان النفس الباطنة أمر لا يتعلق بالبرهان؟ وأن المرجع غاية المرجع إنما هو الإيمان ولا شيء غير الإيمان!

بل حتى البرهان الأكبر على وجود الله نعود إليه لنسأله ونسمع منه فماذا يقول؟..

يقول لنا إن العدم معدوم فالوجود إذن موجود، وإنك إذا آمنت بالوجود فلا مناص لك من الإيمان به فى صفته المثلى، لأنك تحتاج إلى مقتض لفرض النقص ولا تحتاج إلى مقتض لفرض الكمال فى وجود لا يتطرق إليه العدم.

وما الفارق بين الإيمان بالله والإيمان بالوجود فى صفته المثلى؟

هنا ينتهى الإيغال فى الفروض والشكوك.

وهناك انتهى الإيمان، بغير إيغال فى فروض ولا شكوك.

ألا تتلاقى النهايتان؟.. أو لا تضل الفروض والشكوك حيث تضل ثم لا يخطو لها قدمان وراء خطر الإيمان؟

لهذه السنة التى استنها النبى عليه السلام فى عبادته الروحية كثرت وصاياه بإدمان التفكير فى خلق الله واجتناب التفكير فى ذات الله. فقال فى حديث: «تفكروا فى آلاء الله ولا تفكروا فى الله» وقال فى هذا المعنى: «تفكروا فى خلق الله ولا تفكروا فى الله فتهلكوا» وقال فى حديث قدسي: «كنت كنزًا مخفيًّا فأحببت أن أعرف، فخلقت الخلق فعرفت» أو كما جاء فى رواية: «فخلقت الخلق فبى عرفونى».

طريق الوصول

وخلاصة هذه الأحاديث وما فى معناها أن التفكير فى حقائق الوجود هو طريق

الوصول إلى الله ولا طريق غيره للحواس ولا للعقل ولا للبديهة. إيمان بالوجود الأبدى فى صفته المثلى، وتفكير فى حقائق الوجود كما نراها ونحسها ونعقلها؛ وذلك قصارى ما عند العقيدة، وقصارى ما عند الفلسفة، وقصارى ما عند العلم إذ يقف العلم عند حده، وهذا هو العلم الذى فرضه الإسلام على كل مسلم ومسلمة، وقال النبى فى رواية ابن عباس. «إنه أفضل من الصلاة والصيام والحج والجهاد فى سبيل الله» لأنه سبيل الوصول إلى الله.

ومن الواجب أن نذكر بعد هذا جميعه أن محمدًا نبى، وأن النبى يعلم جميع الناس الإيمان، وتلك سبيل جميع الناس فيما يفتح لهم من أبواب التفكير وأبواب الاعتقاد. فهم يضلون فى تيه الشكوك والمناقضات التى يتعمق فيها الفلاسفة والمنطقيون، ولا يبلغون إلى هداية أقوم وأسلم من هداية الإيمان بالخالق والتفكير فى الخليقة. فإما هذه الهداية وإما الضلال الذى لا هداية وراءه. وليس لنبى أن يحجب طريق الهداية ويفتح طريق الضلال.

* * *

وقد تكلمنا فى هذا الفصل عن روح العبادة أو عن فطرة العابد التى توحى إليه «عبادته الروحية».

أما عبادة الشعائر الظاهرة فهى عبادة الإسلام كما فرضت على جميع المسلمين. يصلى النبى ويصوم ويحج ويؤدى الزكاة على الشريعة التى يتبعها كل مسلم، وقد يطلب إلى نفسه فى هذه العبادات ما ليس يطلبه إلى غيره، على سنة السماحة والتيسير التى أثرت عنه فى كل عمل من أعماله وكل سجية من سجاياه..

«فكان أخف الناس صلاة على الناس وأطول الناس صلاة لنفسه» وربما قام الليل أكثره أو أقله ولا يدين أحدًا بالتهجد كما كان يتهجد أو بالصلاة والصيام كما كان يصلى ويصوم، بل قد نهى الناس أن يشتدوا فى العبادة فيصبحوا كالمنبت «لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى» لأن الناس جميعًا يتلقون الأمر بالعبادة كما يتلقون الأمر بفريضة واجبة، فهم فى حاجة إلى الرفق والتيسير..

أما النفس المفطورة على العبادة فالصلاة عندها مناجاة حب وفرحة لقاء، ومطاوعة لميل الضمير وميل الجوارح على السواء.

* * *

وكان محمد «إذا حزبه أمر صلى».

كذلك إذا حزب الأمر نفسًا رجعت إلى من تحب فخف وقرها وانفرج كربها، وأنست بعد وحشة واهتدت بعد حيرة.

ومتى وجدت النفس «فرحة اللقاء» في الصلاة فلا إجهاد فيها لجسد ولا تضييق فيها لوقت، بل فيها الترويح عن الجهد والتنفيس عن الضيق، ولا سيما إذا كانت النفس من سعة الأفق بحيث تحيى ما تحيى من ليلها ونهارها فى الصلاة والعبادة ثم تؤدى عملها وتفكر تفكيرها، ولا يحسب أحد يعرفها أنها تنقطع بالصلاة والعبادة عن حق من حقوق حياتها، أو عن حق من حقوق بنى الإنسان.

الرجل

المختار

عاش فى العصور الماضية كثير من العظماء الذين تواترت الأنباء بأوصافهم السماعية وأوصافهم المرسومة فى الصور والتماثيل. غير أننا لا نعرف أحدًا من هؤلاء العظماء تمت صورته السماعية أو المنقولة كما تمت صورة محمد عليه السلام من رواية أصحابه ومعاصريه، فنحن نعرفه بالوصف خيرًا من معرفتنا لبعض المخلدين بصورهم وتماثيلهم التى نقلت عنهم نقل الحكاية والمطابقة، لأن هذه الصور والتماثيل قد تحكى للناظرين ملامح أصحابها ومعارفهم الظاهرة، وقد تحكى للمتفرسين شيئًا من طبائعهم التى تنم عليها سيماهم، إلا أنها لا تحفظهم لنا كما حفظت الروايات المتواترة أوصاف النبى فى كل حالة من حالاته وكل لمحة من لمحاته: فى سيماه وفى هندامه، وفى شرابه وطعامه، وصلاته، وصيامه، وحله ومقامه، وسكوته وكلامه، لأن الذين وصفوه وأحبوه وأحبوا أن يقتدوا به فتحرجوا فى وصفه كما يتحرج المرء فى الاقتداء بصفات النجاة والأخذ بأسباب السلامة، فكانت أمانة الوصف هنا مزيجًا من العطف والتدين، وضربًا من اتباع السنن وقضاء الفروض، لم يختلف الوصف مرة إلا كما تختلف نظرة الناظر إلى وجه واحد بين ساعة وأخرى. فيقول غير ما قال آنفًا ثم لا يبدو التناقض ولا قصد التحريف بين القولين.

وخلاصة المحفوظ من الروايات المتواترة أن النبى عليه السلام كان مثلا نادرًا لجمال الرجولة العربية، كان كشأنه فى جميع شمائله مستوفيًا للصفة من جميع نواحيها. فرب رجل وسيم غير محبوب، ورب رجل وسيم محبوب غير مهيب، ورب رجل وسيم يحبه الناس ويهابونه وهو لا يحب الناس ولا يعطف عليهم ولا يبادلهم الولاء والوفاء، أما محمد عليه السلام فقد استوفى شمائل الوسامة والمحبة والمهابة والعطف على الناس. فكان على ما يختاره واصفوه ومحبوه، وكان نعم المسمى بالمختار.

إذا نظر إليه الناظر رأى رجلا أزهر اللون، عظيم الهامة، مفاض الجبين، سبط الشعر، أزج الحاجبين بينهما عرق يدره الغضب. أدعج العينين فى كحل، أقنى الأنف يحسبه من لم يتأمله أشم العرنين، أسيل الخد ضليع الفم، غزير اللحية، جميل الجيد، عريض الصدر، واسع ما بين المنكبين، ضخم الكراديس، طويل الزندين، رحب الراحة، شثن الكفين والقدمين، لا بالمشذب ولا بالقصير، مربوعًاو أو أطول من المربوع، معتدل الخلق متماسكًا، لا بالبدين ولا بالنحيل..

وإذا أقبل يتحرك نظر إليه الناظر فرأى رجلا يصفه الأقدمون بأنه «حى القلب» ويصفه المحدثون «بالحركة والحيوية».

يمشى فكأنما ينحدر من جبل وينحط من صبب، ويرفع من قدميه فيرفعها تقلعًا كأنما ينشط بجملة جسمه، ويلتفت فيلتفت كله، ويشير فيشير بكفه كلها، ويتحدث فيقارب يده اليمنى من اليسرى ويضرب بإبهام اليمنى وراحة اليسرى، ويفتح الكلام بأشداقه ويختمه بأشداقه، وربما حرك رأسه وعض شفته فى أثناء كلامه. وهو على هذه الحركة الحية جم الحياء: أشد حياء من العذراء، نضاح المحيا إذا كره شيئًا عرف ذلك فى وجهه وإذا رضى تطلقت أساريره وتبين رضاه.

واقترن النشاط والحياء بالقوة والمضاء فى هذه البنية الجميلة... فكان عليه السلام يصرع الرجل القوى. ويركب الفرس عاريًا فيروضه على السير، ويداعب من يحب بالمسابقة فى العدو. قالت عائشة رضى الله عنها: «خرجت مع النبى صلى الله عليه وسلم فى بعض أسفاره وأنا جارية لم أحمل اللحم. فقال صلى الله عليه وسلم للناس: تقدموا.. فتقدموا.. ثم قال: تعالى حتى أسابقك فسابقته فسبقته، فسكت.

«حتى إذا حملت اللحم وكنا فى سفرة أخرى قال صلى الله عليه وسلم للناس: تقدموا.. فتقدموا.. ثم قال تعالى أسابقك فسابقته فسبقنى فجعل صلى الله عليه وسلم يضحك ويقول: هذه بتلك!».

وهذا بعد أن قارب الستين. إنها لمسابقة تنم على فتوة الروح فوق مانمت عليه من فتوة الأوصال.

وتجلت هذه الأريحية فى علاقته بكل إنسان من خاصة أهله أو من عامة صحبه. فرقت

حاشية جده حتى عطفت على كل أسى، ورحمت كل ضعف، وامتزجت بكل شعور.

قال أنس بن مالك رضى الله عنه: «دخل النبى عليه السلام على أمى فوجد أخى أبا عمير حزينًا. فقال: يا أم سليم! مابال أبى عمر حزينًا؟.. فقالت يارسول الله مات نغيره. تعنى طيرًا كان يلعب به.. فقال صلى الله عليه وسلم: أبا عمير!.. مافعل النغير؟.. وكان كلما رآه قال له ذلك»..

وهذه قصة صغيرة تفيض بالعطف والمروءة من حيثما نظرت إليها، فالسيد يزور خادمه فى بيته، ويسأل أمه عن حزن أخيه، ويواسيه فى موت طائر، ولا يزال يرحم ذكراه كلما رآه.

ومثل هذا عطفه على الضعف البشرى فى رجل مثل عبد الله الخمار الذى لقب بهذا اللقب لما اشتهر به من السكر والدعابة، فكان النبى عليه الصلاة والسلام يحده فى الخمر ولا يتمالك أن يضحك منه.

قبول للدعابة

وكان نعيمان بن عمرو أشهر الأنصار بالدعابة، لا يقيل منها أحدًا ولا يراه النبى فيتمالك أن يبتسم.. وربما قصد النبى ببعض هذه الدعابات لطمعه فى حمله وعلمه بموقع الفكاهة من نفسه: جاء أعرابى إلى رسول الله فدخل المسجد وأناخ راحلته بفنائه، فقال بعض الصحابة لنعيمان: (لو نحرتها فأكلناها؟.. فإنا قد قرمنا إلى اللحم، ويغرم النبى صلى الله عليه وسلم حقها» فنحرها نعيمان. وخرج الأعرابى فرأى راحلته فصاح:

«واعقراه يامحمد!..». فخرج النبى يسأل: «من فعل هذا؟» قالوا: «نعيمان».. فاتبعه النبى حتى وجده بدار ضباعة بنت الزبير بن عبد المطلب قد اختفى فى خندق وجعل عليه الجريد. فأشار إليه رجل ورفع صوته: «مارأيته يارسول الله» وهو يشير بأصبعه إلى حيث هو، فأخرجه رسول الله وقد تعفر وجهه بالتراب فقال: «ماحملك على ماصنعت؟» قال: «الذين دلوك علىّ يارسول الله هم الذين أمرونى!» فجعل رسول الله يمسح عن وجهه التراب ويضحك.. ثم غرم ثمن الراحلة.

ونعيمان هذا هو الذى باع عاملا لأبي بكر الصديق وهو يعلم أن النبأ وصل إلى النبى لا محالة.

سافر أبو بكر إلى بصرى تاجرًا ومعه نعيمان وسويط بن حرملة عامله على زاده. فجاءه نعيمان وطلب إليه طعامًا فأباه عليه حتى يأتى أبوبكر. فأقسم نعيمان ليغيظنه. وذهب إلى قوم فقال لهم: «تشترون منى عبدًا لى؟» قالوا: «نعم!» قال: «إنه عبد له كلام، وهو قائل لكم: لست بعبده. أنا رجل حر... إلى أشباه ذلك. فإن كان إذا قال لكم هذا تركتموه فلا تشتروه ولا تفسدو علىّ عبدى...» قالوا: «لا. بل نشتريه ولا ننظر إلى قوله» فاشتروه منه بعشر قلائص، ثم أداهم إياه فوضعوا عمامته فى عنقه ولم يحفلوا بقوله، وجعلوا كلما قال لهم: «أنا حر!.. إنه يتهزأ ولست أنا بعبده» سخروا منه وقالوا: بل عرفنا خبرك فدفع عنك اللجاجة... فلما جاء أبو بكر سأل عنه فقص عليه نعيمان قصته، وذهبوا جميعًا ليلحقوا بالقوم فيفتدوه ويعيدوه.

ثم قدموا على رسول الله فضحك من فعله نعيمان، وجعل يذكرها حولا كاملا كلما رآه.

من سعة النفس أن ينهض الرجل بعظائم الأمور بل بأعظمها جدًّا ووقارًا وهو إقامة الأديان وإصلاح الأمم وتحويل مجرى التاريخ ثم يطيب نفسًا للفكاهة ويطيب عطفًا على المتفكهين. ويشركهم فيما يشغلهم من طرائف الفراغ. فللجد صرامة تستغرق بعض النفوس فلا تتسع لهذا الجانب اللطيف من جوانب الحياة.. ولكن النفوس لا تستغرق هذا الاستغراق إلا دلت على شيء من ضيق الحظيرة ونقص المزايا وإن نهضت بالعظيم من الأعمال.

فاستراحة محمد إلى الفكاهة هى مقياس تلك الآفاق النفسية الواسعة التى شملت كل ناحية من نواحى العاطفة الإنسانية، وهى المقياس الذى يبدى من العظمة مايبغيه الجد فى أعظم الأعمال.

وكان محمد يتفكه ويمزح كما كان يستريح إلى الفكاهة والمزاح، وكان دأبه فى ذلك كدأبه فى جميع مزاياه: يعطى كل مزية حقها ولا يأخذ لها من حق غيرها، أو يعطى الفكاهة حقها ولا ينقص بذلك من حق الصدق والمروءة. فعبد الله الخمار كان يجد من

قلب النبى عطف القلب الكبير على نقيصة الضعف فى الرجل السكير، ولكنه كان يجد من تأديب النبى جزاء الشار ب الذى يخالف الدين ويخل تماديه بالشريعة. عطف يجمل بالنبى على أحسن مايكون، لأنه يجمل بالإنسان على أفضل مايكون.

وإذا مزح محمد فإنما كان يعطى الرضا والبشاشة حقهما ولا يأخذ لهما من حق الصدق والمروءة.. فكان مزاحة آية من آيات النبوة لأنه كان كذلك آية من آيات الإنسانية، ولم يكن بالنقيض الذى يستغرب من نبى كريم..

قال لعمته صفية: لا تدخل الجنة عجوز!.. فبكت، فقال لها وهو يضحك: الله تعالى يقول: «إنا أنشأناهن إنشاء فجعلناهن أبكارًا عربا أترابا»... ففهمت ما أراد وثابت إلى الرضا والرجاء.

وطلب إليه بعضهم أن يحمله على بعير. فوعده أن يحمله على ولد الناقة. فقال: يارسول الله!.. ما أصنع بولد الناقة؟.. فقال: وهل تلد الإبل إلا النوق؟

وكان عليه السلام يقول لحاضنته السوداء أم أيمن وهى عجوز: «غطى قناعك يا أم أيمن!».

وسمعها فى يوم حنين تنادى بلكنتها الأعجمية: «سبت الله أقدامكم!»

فلم تنسه الغزوة القائمة أن يصغى إليها ويداعبها بين نذر الحرب وصليل السيوف، وأقبل عليها يقول: «اسكتى يا أم أيمن فإنك عسراء اللسان!» فكانت هذه الدعابة فى ذلك الموقف المرهوب كأنها تربيت سيد الفصحاء على تلك اللكنة البريئة.

أريحية محمد

هذه الأريحية الفياضة هى الحلية الباطنة التى تمت بها حلية محمد فى عيون الناس، وهى جواب محمد لما كان له فى قلوبهم من حب وإعظام، أو هى الآصرة التى تجمع بين قلبه وتلك القلوب فى نطاق الأسرة الإنسانية: يحبونه ويحبهم ويشعرون به ويشعر بهم، وليس قصارى الأمر أنه وسيم وأنه محبوب وأنه مهيب.

سمت يقابل العيون بجمال.
وأريحية تقابل النفوس بجمال.

وقد سرت هذه الأريحية فى صميم طويته فامتزجت طواعية وارتجالا بجميع خصاله وجميع علاقاته بالناس ولا سيما الضعفاء والمكسورين. فكان أحرص إنسان على جبر القلوب وتطبيب الخواطر وتوخى المؤاساة واجتناب الإساءة، يتفقد أصحابه كبارًا وصغارًا ويسأل عنهم، ويتحدث إلى ذوى الأقدار وعامة الناس فلا يحسب صغيرهم أن أحدًا أكرم عليه منه، ويتحدث إليه من شاء فلا يقطع عليه حديثه وإن طال. وإذا انتهى إلى قوم جلس حيث ينتهى به المجلس، ومن جالسه صابره حتى يكون هو المنصرف، وما أخذ أحد بيده فأرسلها حتى يكون الآخذ هو الذى يرسلها.

ومن سننه التى اتبعها وأوصى باتباعها أن يجيب دعوة من دعاة ولا يرد دعوة عبد ولا خادم ولا أمة ولا فقير وفى ذلك يقول من وصاياه فى آداب الولائم والمحافل: «إذا اجتمع الداعيان فأجب أقربهما بابًا، فإن أقربهما بابا أقربهما جوارًا، وإن سبق أحدهما فأجب الذى سبق».

يبدأ من لقيه بالسلام ويمر بالصبيان فيقرئهم سلامه. وربما خفف صلاته إذا جاءه أحد وهو يصلى ليسأله عن حاجته ويلقاه بالتحية.

يتقى الغضب جهده ويعالجه إذا أحسه بعلاج من الروح فيقبل على الصلاة والتسبيح، أو بعلاج من الجسد فيجلس إذا كان قائمًا ويضطجع إذا كان جالسًا، ويأبى الحركة التى ينزع إليها وهو غضبان.

آدابه الاجتماعية

وكان فى آدابه الاجتماعية قدوة الرجل المهذب فى كل زمان. فلم ير قط مادًّا رجليه بين أصحابه، وتعود كلما زار أحدًا ألا يقوم حتى يستأذنه، ولم يكن ينفخ فى طعام ولا شراب ولا يتنفس فى إناء، وإذا أخذه العطاس وضع يده أو ثوبه على فيه، وربما نهض بالليل فيشوص فاه بالسواك؛ ولا يزال يستاك ويوصى بالاستياك بعد الطعام والتيقظ من النوم، وكان يتطيب ويتحرى النظافة ويقول لصحبه: «اغتسلوا يوم الجمعة ولو كأسًا بدينار».

وقد تختلف العادات الاجتماعية بين جيل وجيل فى شئون عرضية لا تتصل بلباب الذوق والشعور. فيأكلون فى جيل بأصابع اليد ويأكلون فى الجيل الآخر بالشوكة والسكين، ويخرج اناس بالثياب السود ويخرج غيرهم بالثياب البيض. وهى عرضيات يقاس بها عرف البيئة ولا يقاس بها تهذيب الطباع، فلا ضير على الناس أن تختلف عاداتهم باختلاف بيئاتهم من أمة لأمة ومن جيل لجيل. وإنما الضير فيما يتناول الطبع السليم والذوق الحسن وهما الخصلتان اللتان كان عليه السلام قدوة فيهما لكل رجل مهذب فى كل أمة وفى كل زمان.. فلم يكن يهفو فى حق أحد. ولم يكن أحد يشكو من محضره بإنصاف، وذلك هو ملاك التهذيب الكامل فى أصدق معانيه..

صاحب هذا السمت رسول..

وصاحب هذه الآداب رسول..

وخلاصة سمته وآدابه أنها سماحة فى الأنظار وسماحة فى القلوب.. فالسماحة هى الكلمة الواحدة التى تجمع هذه الخصال من أطرافها، والسماحة هى الصفة التى ترقت فى محمد إلى ذروة الكمال.

ومن يكون الرسول إن كان لابد من تعريف وجيز لعلامات الرسالة؟ الرسول هو الذى له وازع من نفسه فى الكبير والصغير مما يتعاطاه من معاملات الناس، لأن عمل الرسول الأول أن يقيم للناس وازعًا يأمرهم بالحسن وينهاهم عن القبيح ويقرر لهم حدودهم التى لا يتخطونها فيما بينهم، ومن كان هذا عمله الأول فينبغى أن تكون صفته الأولى - بل صفته الكبرى - أن يستغنى عن الوازع وأن يغنى الناس عن محاسبته وطلب الحق منه. وهذه هى السليقة الشاملة التى سرت فى خلائق محمد وامتزجت بجميع أعماله وأقواله فلم يحاسبه أحد قط كما حاسب نفسه فى رعاية حق الصغير والكبير، وصيانة الحرمات للعاجز والقدير.

هذه علامة رسالة لا علامة أصدق منها ولا أجدر منها بالقبول، لأنها علامة من داخل السريرة.. وليست علامة من خارجها قد تلازم أو تفاريق من تعروه.. وليس للنوع البشرى مقياس صحيح يقاس به محمد فيعطيه مرتبة دون مرتبة الحب والتبجيل.. يعطيه

هذه المرتبة من يدين بالإسلام ومن يدين بغير الإسلام ومن ليس له دين من أديان التنزيل.

فليس للنوع البشرى أصل من أصول الفضائل يرمى إلى مقصد أسمى وأنبل من تقديس تلك المناقب التى كان محمد قدوة فيها للمقتدين.

عزيمة الزهد والإيمان

وليس أولى بالحب والتبجيل ممن يطلب خير الناس ويزهد فى نعمة العيش وهى بين يديه.

فقد ثبت أن محمدًا لم يستمتع بدنياه ولم يشبع ثلاثة أيام تباعًا حتى مضى لسبيله، وقالت عائشة رضى الله عنها: «لقد كنت أبكى رحمة له مما أرى به وأمسح بيدى على بطنه مما أرى به من الجوع وأقول: «نفسى لك الفداء لو تبلغت من الدنيا بقوتك» فيقول: «يا عائشة! مالى وللدنيا.... إخوانى من أولى العزم من الرسل صبروا على ما هو أشد من هذا».

وقالت زوجه أم سلمة تصف ما وجدته فى بيته ليلة عرسها: «.. فإذا جرة فيها شىء من شعير، وإذا رحى وبرمة وقدر وكعب فأخذت ذلك الشعير فطحنته ثم عصدته فى البرمة، وأخذت الكعب فأدمته، فكان ذلك طعام رسول الله صلى الله عليه وسلم وطعام أهله ليلة عرسه!».

رآه عمر وقد أثر فى جنبه حصير فقال له: «يا رسول الله! قد أثر فى جنبك رمل هذا الحصير وفارس والروم قد وسع عليهم وهم لا يعبدون الله» فاستوى جالسًا وقال: «أفى شك أنت يا بن الخطاب؟.. أولئك قوم قد عجلت لهم طيباتهم فى الحياة الدنيا!».

ولقد مات ودرعه مرهونة، ولا ميراث لأهله مما ترك من عقار، وهو قليل..

فما عسى أن يقول قائل فى قدر هذا الرجل.. آمن به أو لم يؤمن؟

أيقول إنه رسول وإنه رسول وإنه كان يعلم أنه رسول فصدع بأمر ربه واحتمل ما احتمل فى سبيل طاعته وفى سبيل إصلاح خلقه؟

تلك إذن منزلة الأنبياء التى تستوجب له مقام أصفياء عند من يؤمن بالله؟..

أم ينكر النبوات ويقول إنه رجل أراد الخير وهو لا يعلم أنه رسول ولا أن الله مطالبه برسالته إلى خلقه، ولكنه تجرد لهدايتهم فى غير مأرب يناله ولا نعمة ينعم بها لأنه لا يطيق لهم شرًا ولا ينتظر فى الدنيا ولا الآخرة من جزاء؟

من قال هذا وغض من قدر رجل يحب الناس ذلك الحب ويغار على هدايتهم تلك الغيرة فهو إنسان ممسوخ الضمير.

فمحمد الرجل فى المقام الأول بين الرجال: فى المقام الأول بخلقته، وفى المقام الأول بنيته، وفى المقام الأول بعمله، وفى المقام الأول بالقياس إلى المشبهين له فى عودته.

ونرى عن يقين أنه لم يحرم نفسه ذلك الحرمان إلا استزادة لأسباب الإيمان وشحذًا للعزيمة فى سبيل ذلك الإيمان، وإعذارًا إلى الله وإلى الناس فيما تجرد له من إصلاح.

لأن محمدًا لم يكن كارهًا لطيبات الدنيا ولا حاضًا لأحد على كراهتها والإعراض عنها. فإذا قنع بما قنع فإنما فعل ذلك ليرتفع بإيمانه عن ظنه هو لا عن ظنون غيره.. كأنه يخشى إذا استوفى حظوظ النعيم الميسرة له أن يحسب تلك الحظوظ غرضًا من الأغراض التى نظر إليها حين نظر إلى هداية الناس.

فليكن الإيمان إذن هو كل غرض وكل عمل وكل جزاء.. وتلك راحة ضميره، ومن وراء راحة ضميره أن يظفر الناس بجهده كله فى هدايتهم غير منقوص ولا مظنون.

إذا هدى الناس واستمتع بالعيش خشى أن يحسب المتعة من آماله.

وإذا هدى الناس وكفى كانت الهداية هى جملة الآمال وغاية الآمال.. فلينقص حظه من العيش ليكمل حظه وحظ أمته من إيمانه، وليتم بذلك حسابه لنفسه وحسابه عند الله وحسابه بين الناس..

وما حساب أولئك جميعًا؟

حساب رجل هو وازع نفسه فى السر والعلانية، وهو أحق الناس أن يقيم وازعًا للناس، رجل ولا كمثله الرجال.

محمد فى التاريخ

اتصال التاريخ بمحمد

أردنا بالفصول المتقدمة أن نصف محمدًا فى عبقريته، أو محمدًا فى نفسه، أو محمدًا فى مناقبه التى يتفق عليها تعظيمها من يدين برسالته الدينية، ومن لا يدين له برسالة.

ونريد بهذا الفصل - وهو خاتمة الكتاب - أن نذكر كلمة موجزة عن محمد فى التاريخ، أو محمد فى العالم وأحداثه الخالدة. وهو بحث يغنينا فيه الإيجاز، لأن العالم كله صفحات تنبئنا بمكان محمد فيه.

محمد فى نفسه عظيم بالغ فى العظمة، وفاقًا لكل مقياس صحيح يقاس به العظيم عند الإنسان فى عصور الحضارة.

فما مكان هذه العظمة فى التاريخ؟.. ما مكانها فى العالم وأحداثه الباقية على تعاقب العصور؟

مكانها فى التاريخ أن التاريخ كله بعد محمد متصل به مرهون بعمله، وأن حادثًا واحدًا من أحداثه الباقية لم يكن ليقع فى الدنيا كما وقع لولا ظهور محمد وظهور عمله.

فلا فتوح الشرق والغرب، ولا حركات أوربا فى العصور الوسطى، ولا الحروب الصليبية، ولا نهضة العلوم بعد تلك الحروب، ولا كشف القارة الأمريكية، ولا مساجلة الصراع بين الأوربيين والآسيويين والأفريقيين، ولا الثورة الفرنسية وما تلاها من ثورات، ولا الحرب العظمى التى شهدناها قبل بضع وعشرين سنة، ولا الحرب الحاضرة التى نشهدها فى هذه الأيام ولا حادثة قومية أو عالمية مما يتخلل ذلك جميعه كانت واقعة فى الدنيا كما وقعت لولا ذلك اليتيم الذى ولد فى شبه الجزيرة العربية بعد خمسمائة وإحدى وسبعين سنة من مولد المسيح.

كان التاريخ شيئًا فأصبح شيئًا آخر، توسط بينهما وليد مستهل فى مهده بتلك

الصيحات التي سمعت في المهود عداد من هبط من الأرحام إلى هذه الغبراء.. ما أضعفها يومئذ صيحات في الهواء.. ما أقواها بعد ذلك أثرًا في دوافع التاريخ.. ما أضخم المعجزة.. وما أولانا أن نؤمن بها كلما مضت على ذلك المولد أجيال وأجيال، وما أغنانا أن نبحث عنها قبل ذلك بسنين حيثما بحث عنها المنجمون والعرافون.

فتوح إيمان

على أننا نستعظم الأحداث العظام في تاريخ بني الإنسان بمقدار ما فيها من فتوح الروح، لا بمقدار ما فيها من فتوح البلدان.

وجائز أن يقع في الدنيا طوفان أو زلزال فيتصل به من أحداث الزحوف والفتوح ما يبدل في التاريخ، ويبتعث دوافع الشعوب.

أما غير الجائز فهو أن تنفتح للإنسان آفاق جديدة من عالم الضمير بغير عظمة روحية يوحيها الإيمان، وبغير رسالة باطنية تسبق هذه الظواهر التي تهول الأنظار.

ولقد فتح الإسلام ما فتح من بلدان لأنه فتح في كل قلب من قلوب أتباعه عالمًا مغلقًا تحيط به الظلمات، فلم يزد الأرض بما استولى عليه من أقطارها فإن الأرض لا تزيد بغلبة سيد على سيد أو بامتداد التخوم وراء التخوم، ولكنه زاد الإنسان أطيب زيادة يدركها في هذه الحياة، فارتفع به مرتبة فوق طباق الحيوان السائم، ودنا به مرتبة إلى الله.

يدين بهذه الحقيقة كل من يدين بحقيقة في عالم الضمير.. فمن أنكرها فإنما ينكر تقدم الإنسان كثيرًا أو قليلاً في هذه الطريق.

عقد عالم أوربي[1] مقارنة بين محمد وبوذا والمسيح فسأله: «أليس محمد نبيًّا على وجه من الوجوه؟» ثم أجاب قائلاً: «إنه على اليقين لصاحب فضيلتين من فضائل الأنبياء: فقد عرف حقيقة عن الله لم يعرفها الناس من حوله، وتمكنت من نفسه نزعة باطنية لا تقاوم لنشر تلك الحقيقة، وإنه لخليق في هذه الفضيلة أن يسامي أوفر الأنبياء شجاعة وبطولة بين بني إسرائيل، لأنه جازف بحياته في سبيل الحق، وصبر على الإيذاء يومًا بعد

---

(١) الدكتور ماركس دودز في كتابه «محمد وبوذا والمسيح».
Mohammed, Buddha, and Christ-by Dr. Marcus Dodds

يوم عدة سنين، وقابل النفى والحرمان والضغينة، وفقد مودة الأصحاب بغير مبالاة، فصابر على الجملة قصارى ما يصبر عليه إنسان دون الموت الذى نجا منه بالهجرة، ودأب مع هذا جميعه على بث رسالته غير قادر على إسكاته وعد ولا وعيد ولا إغراء.. وربما اهتدى إلى التوحيد أناس آخرون بين عباد الأوثان، إلا أن أحدًا آخر غير محمد لم يقم فى العالم مثل ما أقام من إيمان بالوحدانية دائم مكين، وما أتيح له ذلك إلا لمضاء عزمه أن يحمل الآخرين على الإيمان. فإذا سأل سائل: ما الذى دفع بمحمد إلى إقناع غيره حيث رضى الموحدون بعباد العزلة؟.. فلا مناص لنا أن نسلم أنه هو العمق والقوة فى إيمانه بصدق ما دعا إليه».

والحقيقة التى يراها المنصف مسلمًا كان أو غير مسلم، هى هذه:

هى أن فتوح محمد فتوح إيمان، وأن قوة محمد قوة إيمان، وأنه ما من سمة لعمله أوضح من هذه السمة، ولا من تعليل لها أصدق من هذا التعليل. لقد جاء الإغراء الذى أشار إليه العالم الأوربى وهو داع مهدد فى سربه، وجاءه وهو عزيز الشأن بين المؤمنين بدعوته، فما حفل بالإغراء وهو بعيد من مقصده ولا حفل به وهو واصل إليه.

جاءه سيد قومه عتبة بن ربيعة وهو فى مبدأ أمره فقال له واعدًا ملاطفًا بعد أن أعياهم تخويفه متوعدين: «يابن أخى، إنك منا حيث قد علمت من خيارنا حسبًا ونسبًا، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم، وسفهت أحلامهم وعبت آلهتهم ودينهم، وكفرت من مضى من آبائهم، فاسمع منى أعرض عليك أمورًا تنظر فيها لعلك تقبل منا بعضها. فقال عليه السلام: «قل يا أبا الوليد. فقال: يا ابن أخى!.. إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالاً جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالاً، وإن كنت تريد شرفًا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرًا دونك، وإن كنت تريد ملكًا ملكناك علينا، وإن كان الذى يأتيك رئيا من الجن لا تستطيع رده عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه» فما زاد عليه السلام على أن أجابه بآيات من القرآن الكريم، ثم تركه يعود كما أتى.

ثم أدرك النبى غاية ما سعى إليه فلم يدخل له المال ولا المتاع فى حساب، ولم يكن النعيم المستطاع أفعل فى إغرائه من النعيم الموعود، بل كان النعيم المستطاع فوق

ما حلم به عتبة بن ربيعة، وكان النبى أزهد فيه من زهده فى النعيم الموعود فلم كل هذا؟ لم هذا الجهاد؟ ولم هذا العناء؟ ولم هذا الصبر إن لم يكن فى سبيل الإيمان؟ وأى نبى له من الإيمان شفاعة أكبر من هذه الشفاعة ورسالة أكبر من هذه الرسالة؟.. وأى إنسان يعرف تعظيم الأنبياء إن لم تظفر نبوة محمد عنده بالتعظيم؟

التاريخ هو فيصل التفرقة بين محمد وشانئيه: حكمه أنفذ من حكم الشانئين والأصدقاء، وأنفذ من حكم المشركين والموحدين، وأنفذ من حكم المتدينين والملحدين.. لأنه حكم الله.

وقد حكم له أنه كان فى نفسه قدوة المهذبين، وكان فى عمله أعظم الرجال أثرًا فى الدنيا، وكان فى عقيدته مؤمنًا يبعث الإيمان، وصاحب دين يبقى ما بقيت فى الأرض أديان.

وسيطلع فى الأفق هلال ويغيب هلال، وسيذهب فى الليل قمر ويعود قمر، وتتعاقب هذه الشهور التى كأنها جعلت لتاريخ ما بين الصدور، لأن الناس لا يؤرخون بها مواسم الزرع ولا مواعد الأشغال ولا أدوار الدواوين والحكومات، ولا ينتظرونها إلا هداية مع الظلام وسكينة مع الليل: أشبه بهداية العقيدة فى غياهب الضمير.

يوم الغار

ستطلع الأقمار بعد الأقمار، وتقبل السنة القمرية بعد السنة القمرية، وكأنها تقبل بمعلم من معالم السماء يومئ إلى بقعة من الأرض هى غار الهجرة. أو يومئ إلى يوم لمحمد هو أجمل أيام محمد، لأنه أدل الأيام على رسالته، وأخلصها لعقيدته ورجاء سريرته، وهو يوم التقويم الذى اختاره المسلمون بإلهام لا يعلوه تفكير ولا تعليم.

لم كان يوم الهجرة ابتداء التاريخ فى الإسلام، ولم يكن يوم الدعوة؟

ولم لم يكن يوم بدر أو يوم ولادة النبى أو يوم حجة الوداع يوم ابتداء التاريخ.. كل يوم من هذه الأيام كان فى ظاهر الرأى وعاجل النظر أولى بالتاريخ والتمجيد من يوم الفرار بالنفس والعقيدة فى جنح الظلام.

فالرجل الذى اختار يوم الهجرة بدءًا لتاريخ الإسلام قد كان أحكم وأعلم بالعقيدة والإيمان ومواقف الخلود من كل مؤرخ وكل مفكر يرى غير مارآه

لأن العقائد إنما تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب: كل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين ويفوز الدعوة، أما النفس التى تعتد حقًّا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقًّا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء.

وليس يوم أحق بالتأريخ إذن من اليوم الذى هجر فيه النبى بلده. «إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين، إذ هما فى الغار، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا. فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم».

ليقل من قال إن التوقيت بما قبل الهجرة وما بعدها كان توقيتًا معروفًا على عهد النبى عليه السلام.. وليقل من قال إن دخول المدينة هو المقصود بالتاريخ من الهجرة، وهو يوم عظيم.. ليقل من قال هذا أو ذاك، فإن تاريخ النصر فى القرآن ظاهر إذ هو «ثانى اثنين» فى الغار.

وإن ابن الخطاب لنبيل ملهم الفؤاد - سواء كان هو المقترح أو مجيب الاقتراح - حين نظر إلى غار «ثور» ولم ينظر فى التأريخ إلى نصر المدينة ولا إلى نصر بدر ولا إلى نصر أحد، ولا إلى نصر فارس، ونظر إلى تلك «الجنود التى لم تروها» وقد نراها نحن الآن.

يوم الدعوة لم يكن الإسلام الأول، لأن الدعوة كلمة يستطيعها كل إنسان ويستطيع النكول عنها بعد قليل أو كثير.

ويوم ميلاد النبى لم يكن يوم الإسلام الأول، لأن ميلاد محمد لم يكن معجزة الإسلام كما كان ميلاد عيسى معجزة المسيحية، ولأن محمدًا بشر مثلنا فى مولده ولكنه سيد الرسل يوم دعا ويوم نجا بالدعوة إلى حيث تنجو وحيث تسود، وحيث يكون امتحانها الأول فى قلب صاحبها وقلب صاحبه الصديق، وهما اثنان فى غار.

كذلك تؤرخ العقائد والأديان: بالشدة تأريخها وليس بالغنائم والفتوح وإنها لشىء فى القلب فلنعرفها إذن حين لا تكون إلا فى القلوب، وحين يكون كل شىء ظاهر كأنه ينكرها وينفى وجودها وهى يومئذ من الوجود فى الصميم.

يوم عقيدة ورجاء

إن يوم الغار ليوم له عبرته وعزاؤه فى كل يوم ولا سيما أيام القلق والحيرة والانتظار.

إنه يوم عقيدة فهو يوم رجاء ويوم نظر إلى المستقبل الذى ينظر إليه من ليس له رضا فى حاضر عهده. وحاضر العالم فى عهده لا يرضى أحدًا من محبيه.. حيثما غلبت الحيرة والقلق فى العالم فهنالك أمر واحد كن منه على أتم اليقين. كن على يقين أن العالم يبحث عن عقيدة روحية ! لأنه يضيق بالحاضر وينظر إلى المستقبل، وكل مستقبل فلا محل له من جوانح الصدور إن لم يكن موضع رجاء ومرجع إيمان، وغاية سعى يستحق الكفاح... وفى التاريخ الإنسانى كله لم تقم قط حركة عظيمة على الماضى الذى لا مستقبل بعده، إنما تقوم الحركات العظمى جميعًا على الرجاء فى غد محجوب، أو على شىء يمكن أن يتحقق فى حياة الإنسان وشىء يبقى أبدًا موضع الرجاء البعيد.

لقد كان علىّ فتىً يستقبل الدنيا، وكان أبو بكر كهلًا يدبر عنها، يوم أعانا محمدًا فى يوم حراء. ولكنهما كانا معًا على أبواب غد واحد ورجاء واحد، يستوى فيه الفتى الكهل والشيخ الدالف إلى قبره، لأنه رجاء الإيمان لا رجاء العيان

المستقبل للإيمان

ماذا فتح الإسلام لأبى بكر من عوالم الحياة ؟.. هل رجع به إلى الماضى أو أقبل به على المستقبل ؟.. هل مشى به فى حركة إلى أمام أو قفل به فى رجعة إلى وراء ؟.. الحق أن الإسلام مثل المستقبل للشيخوخة كما مثل المستقبل للشباب، وانفصل من حالة لا تبقى ليتصل بحالة يرجى لها البقاء، وكان يفتح أمام أبى بكر – وليس أمام علىّ وحده – باب الحياة الصالحة فى الدنيا، وباب الحياة الخالدة فى الآخرة.. وهكذا كل عقيدة فما هى بعقيدة على أى معنى من معانى الاعتقاد إن كان خيرها كله شيئًا يناله الإنسان فى أيامه.. فلا مناص فى العقيدة من خير وراء أيام الفناء.

ليذكر هذا جميعه من يتحفزون للنهوض، ومن يبتغون الحركة، ويقودون الخطوات المقبلة فى عجلة أو أناة.

لن تتحرك أمة إلا إذا فتحت أمامها باب المستقبل، ولن تلتفت إلى الماضى إلا إذا كان فيه التقاء بالمستقبل، ولن تعيره الحياة إلا وهو مبعوث من جديد فى صورة الخلق الجديد.

ليذكر هذا من يحارون فى أمر العالم اليوم وهو غارق فى دمائه، ضائق بحاضره، معرض عن ماضيه.. فيم يحار؟..

فى طلب المستقبل، فى طلب العقيدة، فى طلب المسوغ للوجود، لأن الوجود وحده لا يكفى الإنسان إلا أن يكون على طبقة مع الحيوان.

فالإيمان للمستقبل.. وعسى أن يكون المستقبل للإيمان.

وعسى أن يجد العالم عزاء باقيا من يوم الغار ومن صاحب يوم «الغار»..

فهــرس

عَبْقَرِيَّةُ الصِّدِّيق

تقديم

فى تقديم كتابى هذا عن أبى بكر الصديق أقول ما قلته فى «عبقرية محمد» و «عبقرية عمر» وكل كتاب من هذا القبيل، وفحواه أننى لا أكتب ترجمة للصديق رضى الله عنه، ولا أكتب تاريخًا لخلافته وحوادث عصره، ولا أعنى بالوقائع من حيث هى وقائع ولا بالأخبار من حيث هى أخبار، فهذه موضوعات لم أقصدها ولم أذكر فى عناوين الكتب ما يعد القارئ بها ويوجه استطلاعه إليها، ولكننا قصدت أن أرسم للصديق صورة نفسية، تعرفنا به وتجلو لنا خلائقه وبواعث أعماله، كما تجلو الصورة ملامح من تراه بالعين، فلا تعنينا الوقائع والأخبار إلا بمقدار ما تؤدى أداءها. هذا المقصد الذى لا مقصد لنا غيره، وهى قد تكبر أو تصغر فلا يهمنا منها الكبر أو الصغر إلا بذلك المقدار، ولعل حادثًا صغيرًا يستحق منا التقديم على أكبر الحوادث إذا كانت فيه دلالة نفسية أكبر من دلالته، ولمحة مصورة أظهر من لمحته. بل لعل كلمة من الكلمات الموجزة التى تجىء عرضًا فى بعض المناسبات تتقدم لهذا السبب على الحوادث كبيرها وصغيرها فى مقياس التاريخ.

ومن هنا أن تكون الصورة صادقة كل الصدق فى جملتها وتفصيلها... فليس من غرضنا التجميل الذى يخرج بالصورة غن حقيقتها، ولسنا نريد أن يطلع القارئ على تلك الصورة فلا يعرفها ولا يعرف أبا بكر منها، ولكن تجميل الصورة شىء ، وتوقير صاحبها شىء آخر، فإنك إذا صورت أبا بكر ورفعت صورته مكانًا عليًّا لم تكن قد أضفت إليه جمالا غير جماله أو غيرت ملامحة النفسية بحيث تخفى على من يعرفها، فهذا هو التوقير الذى لا يخل بالصورة ولا يعاب على المصور، وليس هو بالتجميل المصطنع الذى يضل الناظر عن الحقيقة.

فكل فضيلة أثبتناها لأبى بكر فى هذه الصفات فهى فضيلته التى لا نزاع فيها،

وكل عمل استطاعه ووصفناه بقدرته فقد استطاعه بغير جدال، وما من عمل لم يعمله قلنا إنه قد عمله، ولا من قدرة لم تظهر منه جعلناها من صنوف قدرته، ثم يتوسمه القارئ بعد هذا فيرى صورة مميزة بين صور العظماء من أمثاله، فهو محمود موقر وعمر بن الخطاب فى صورته محمود موقر، ولكنهما مع ذلك لا يتشابهان ولا يتراءى أحدهما فى ملامح الآخر، وهذا قصاراك من صدق الصورة فى تمييز الرجل بين نظرائه، وفى تمثيله بما فيه وما ليس فيه.

إنك حين تعدد ثروة رجل فتقول: إنه صاحب عشرة بيوت، لا يلزمك بعد ذلك أن تقول: ولكنه ليس بصاحب أرض زراعية ولا أوراق مالية ولا معامل صناعية ولا مرتبات حكومية، وإذا أنت سكت عن هذا قاصدًا أو غير قاصد لم يجز لأحد أن يلومك أو يظن بك تعمد الإخفاء والسكوت، فحسبك أنك ذكرت ثروته الصحيحة ولم تضف إليه ما ليس من ماله لتكون قد أعلمت من يريد العلم بثروته غاية ما ينبغى أن يعلم.

وكذلك الشأن فى ثروات النفوس حين يحصيها المقدرون: تصدق إن ذكرت له ما يملك، ولا يفوتك الصدق إن فاتك أن تحصى كل ما ليس له بملك، فليس هذا بغرض من أغراض الإحصاء أو التعريف.

ومذهبنا الذى نتوخاه فى الكتابة عن العظماء الذين حسنت نياتهم فى خدمة الإنسان أن نوفيهم حقهم من التوقير، وأن نرفع صورهم إلى مكان التجلة، وإن لم يمنعنا هذا أن نصدقهم الوصف والتصوير.

عبرت عن هذا المذهب شعرًا قبل ثلاثين سنة فقلت من أبيات:

لا تلح ذا بأس وذا همة ... على ذنوب العصبة الغلب
فليس مقياسك مقياسهم ... ولا هم مثلك فى المأرب
انظر إلى ما خلفوا بعدهم ... من المعالى ثم لم واعتب
من ركب الهائل من أمره ... فعذره فى ذلك المركب

ونحسب هذا المذهب فى زماننا هذا أوجب مما كان فى الأزمان الغابرة، لأن

الأسباب التى تغض من وقار العظمة لم تزل تتكاثر منذ القرن الثامن عشر إلى الآن، وهى مما يحدث عفوًا فى بعض الأحيان، ومما يأتى قصدًا فى أحيان أخرى وقد تفيد الإشارة إليها فى اتقائها إذا كان إلى اتقائها سبيل.

بدأت هذه الأسباب بفهم سيىء للمنازعات التى شجرت بين رجال العلم ورجال الدين منذ النهضة العلمية الحديثة. فوقر فى بعض الأذهان أن العلم الحديث قد ألغى ما قبله من جهود المصلحين وطلاب المعرفة الإلهية والدنيوية، وخلط أناس بين دعاه الأديان الذين أخلصوا العقيدة فى الإصلاح وبين رجال الأديان الذين استغلوا العقائد وتعمدوا إنكار الحقائق ووقفوا بعنادهم ولجاجتهم عقبة فى طريق التقدم والتهذيب.

فالمصلحون من عظماء الأديان أهل لكل تعظيم واعتراف بالجميل لا يعيبهم أنهم سبقوا عصر العلم الحديث، بل يزكيهم ذلك ويضاعف حقهم فى الثناء وعرفان الجميل، ويدل على أن الحاجة إليهم كانت أمس وألزم وأنهم كانوا فى خدمتهم الإنسانية أقدر وأعظم، مع ما هو مفهوم من الفارق بين حاجة الناس إلى الدين وحاجتهم إلى العلوم. فهذه حاجة ذهنية وتلك حاجة حيوية أو روحيه لا تغنى فيها علوم العلماء.

ثم جاءت الديمقراطية وأساء بعض الناس فهمها كما أساءوا فهم النزاع بين العلم والدين، فظنوا أن حرية الصغير تجعله فى صف الكبير، وأن المساواة القانونية تلغى الفوارق الطبيعية، وأن الثورة على الرؤساء المستبدين معناها الثورة على كل ذى مكانة من العظماء، وهو وهم ظاهر البطلان ولكنه قد سرى مسراه إلى الأذهان، فكثر التطاول على كل عظمة إنسانية وفشت بدعة الاستخفاف والزراية حتى أوشك التوقير لمن يستحق التوقير أن يعاب.

ثم جاءت الشيوعية وهى قائمة على أن الأبطال صنائع المجتمع وليسوا بأصحاب الفضل عليه، وأن تعظيم الأبطال الغابرين يصرف الناس عن عيوب النظم الاجتماعية التى أنشأت أولئك الأبطال فخدموها قاصدين مدبرين أو على غير قصد

منهم وتدبير. وأفرط الشيوعيون فى تلويت كل عظمة يؤدى توقيرها إلى نقض مذهبهم ومخالفة دعوتهم، حتى بلغ من سخفهم فى هذا أنهم غيروا أبطال الروايات فى مسرحيات شكسبير وأمثاله فعرضوا «هملت» على المسرح لئيما ماكرًا سيئ النية على خلاف ما صوره الشاعر، لأن تصوير أمير من أمراء القرون الوسطى فى صورة حسنة يخل بما قرروه عن النظم الاجتماعية والسياسية فى تلك القرون.

وتكاثرت على هذا النحو أسباب الغض من العظماء حتى صح عندنا أن العظمة فى حاجة إلى ما يسمى «برد الاعتبار» فى لغة القانون، فإن الإنسانية لا تعرف حقًّا من الحقوق إن لم تعرف حق عظمائها، وإن الإنسانية كلها ليست بشىء إن كانت العظمة الإنسانية فى قديمها أو حديثها ليست بشىء.

ومن ثم مذهبنا فى توقير العظمة مع التفرقة بين التوقير المحمود والتجميل المصطنع الذى يعيب المصور ويضل الناظر إلى الصورة. فليس لنا أن نثبت جمالا غير ثابت، ولكن لنا - بل علينا - متى أثبتنا الجمال فى مكانه أن نرفع الصورة إلى مقام التوقير.

قال زميلنا الباحث الفاضل الأستاذ أحمد أمين من نقده لكتاب الدكتور هيكل (باشا) فى الصديق وكتابى فى عبقرية عمر: «... بقيت مسألة هامة كثيرًا ما اختلفت وجهة نظر الكتاب فيها، وهى أن العظيم مهما عظم له أخطاء، وإلا ما كان إنسانا والعصمة لله وحده. فهل واجب المترجم له أن يعرض لكل ذلك فى تفصيل، فيذكر كل ما له ويشيد بذكره، ويذكر أخطاءه وينقدها، ويعلم بذلك درسًا فى نواحى مجده، ودرسًا آخر فى مواضع خطئه، أو واجبه فقط تجلية نواحى العظمة والتأويل والدفاع الدائم عن نواحى الخطأ؟ أنا أرى أن الرأى الأول أوجب، متأسيًا بأبى بكر وعمر نفسيهما، والمؤلفان الفاضلان إلى الرأى الثانى أميل».

والواقع أننا إلى الرأى الثانى أميل، كما قال زميلنا الأستاذ، ولكنه الميل الذى نحده بما قدمناه من حدود، ونحتج له بما بيناه من أسباب، ويخيل إلينا أن الأستاذ نفسه يستطيب هذا الميل حين قال فى صدر مقاله عن الكتابين: «...إن الأوربيين

قد وجدوا من علمائهم من يشيد بعظمائهم ويستقصى نواحى مجدهم، بل قد دعتهم العصبية أحيانًا أن يتزيدوا فى نواحى هذه العظمة، ويعملوا الخيال فى تبرير العيب وتكميل النقص تحميسًا للنفس وإثارة لطلب الكمال. أما نحن فقد كان بيننا وبين عظمائنا سدود وحواجز حالت بين شبابنا وجمهورنا والاستفادة منهم...».

فهذه السدود كثيرة فى الشرق فى العصر الحاضر حيث كان، وهى التى تجيز لنا - بل تفرض علينا - أن نوفى العظماء حقهم من التوقير، وأن نصورهم كما خلقهم الله، ثم لا علينا أن نرفع الصورة حيث شئنا بعد الصدق فى التصوير

عباس محمود العقاد

اسم وصفة

عرف الخليفة الأول فى التاريخ بأسماء كثيرة: أشهرها أبو بكر والصديق، ويليهما فى الشهرة عتيق وعبد الله.

وقيل إنه عرف بهذه الأسماء أو الألقاب فى الإسلام والجاهلية على السواء.

عرف فى الجاهلية بلقب الصديق لأنه كان يتولى أمر الديات وينوب فيها عن قريش، فما تولاه من هذه الديات صدقته قريش، فيه وقبلته، وما تولاه غيره خذلته وترددت فى قبوله وإمضائه.

وعرف بالعتيق لجمال وجهه، من العتاقة وهى الجودة فى كل شىء، وقيل: بل من العتق، لأن أمه لم يكن يعيش لها ولد فاستقبلت به الكعبة وقالت: اللهم إن هذا عتيقك من النار فهبه لى. فعاش فعرف باسم عتيق... وقيل غير ذلك: إنه أحد ثلاثة أبناء هم: عتيق ومعتق ومعيتيق، سموا بذلك تفاؤلا بالعيش وللعتق من الموت.

وعرف كما قيل فى بعض الروايات باسم عبد الكعبة فى الجاهلية، ثم عبد الله فى الإسلام.

وسمى فى الإسلام بالصديق لأنه صدق النبى عليه السلام فى حديث الإسراء، وبالعتيق لأنه عليه السلام بشره بالعتق من النار.

ومن الجائز أنه عرف بهذه الألقاب على محملها فى الجاهلية ومحملها فى الإسلام. ففى حياته وسيرته قبل الإسلام وبعده مايحقق هذه التسمية أو هذا التلقيب.

ولد للسنة الثانية أو الثالثة من عام الفيل، فهو أصغر من النبى عليه السلام بنحو سنتين، وهو عبد الله بن عثمان الذى عرف باسم أبى قحافة، ويلتقى نسبة ونسب النبى عليه السلام عند مرة بن كعب، بعد ستة آباء. وكلا أبويه من بنى تيم، وهم قوم اشتهر رجالهم بالدمانة والأدب، واشتهر نساؤهم بالدل والحظوة، وقيل إن بنات تيم أدل النساء

وأحظاهن عند الأزواج. وربما كان مرجع ذلك إلى طول عهد القبيلة بحياة المدينة وأشغالها، وأن اشتغالها بالتجارة كان يقوم على المودة وحسن المعاملة ولا يقوم على بسطة النفوذ وصولة الوفر والغلبة. فبنو أمية، مثلا – كانوا يتجرون وكان زعيمهم أبو سفيان يرسل القوافل بين الحجاز والشام، ولكنها قوافل أشبه بالحملات والبعوث، معولهم فيها على الوفر والوفرة، وليست كذلك تجارة أبي بكر وإخوانه من أبناء البطون القرشية التى لها شرف النسب فى غير مكاثرة بالعدد والعدة، ومغالبة بالصولة ودهاء القوة، كمغالبة الأمويين.

ومهما يكن من أثر المعاملة الودية وآداب الأسرة والمدنية فى بنى تيم، فهذه الآداب واضحة فى أسرة الصديق رضى الله عنه أجمل وضوح، لم تذكر لنا قط أسرة كانت فى عصره على مودة أجمل من المودة التى اتصلت بينه وبين أبيه وأمه وأبنائه، مدى الحياة، وقد كان له ابن حارب فى صفوف المشركين، وأوشك أن يكون بينه وبين أبيه قتال، ولكننا إذا تجاوزنا هذه الفلتة من فلتات السن رجعنا إلى أبوة لا عقوق فيها بعد اهتداء ذلك الابن إلى الإسلام، كما اهتدى إليه سائر ذوية.

عاش أبو قحافة حتى رأى ابنه خليفة يرفع صوته على أناس لم يكن فى مكة أرفع منهم صوتًا وأعظم خطرًا، وكان مكفوف البصر على باب داره بمكة يوم أقبل أبو بكر إليها معتمرًا بعد مبايعته بالخلافة، فقيل له: هذا ابنك، فنهض يتلقاه، ورآه ابنه يهم بالنهوض فجعل نازلا عن راحلته وهى واقفة قبل أن ينيخها، وجعل يقول: يا أبت لا تقم! ثم لا قاه والتزمه وقبل بين عينيه، ولم ينتظر – وهو فى نحو الستين – أن ينيخ راحلته لينز ل منها، مخافة على أبيه من مشقة النهوض.

ودعا الخليفة بأبى سفيان لأمر أنكره فأخذته الحدة التى كانت تراجعه فى بعض ثورات نفسه، وأقبل يصيح على أبى سفيان وهو يلين له ويسترضيه. فسأل أبو قحافة قائده: على من يصيح ابنى؟ فقال: على أبى سفيان!... فدنا منه يقول له وفى كلامه من الغبطة أكثر مما فيه من الإنكار، وفيه من دهاء الطيبة أكثر مما فيه من سهو الشيخوخة: أعلى أبى سفيان تصيح وترفع صوتك ياعتيق؟ لقد عدوت طورك وجزت مقدارك!

فابتسم أبو بكر والصحابة، وقال لأبيه المنكر فى رضاه الراضى فى إنكاره: يا أبت إن الله رفع بالإسلام قومًا وأذل به آخرين.

وهذه الطيبة التى لا تخلو من دهائها هى التى ظهرت من هذا الأب الصالح، يوم نعو ا إليه رسول الله فقال: أمر جلل. وسأل: ومن ولى الأمر بعده؟ قالوا: ابنك، فعاد يسأل: فهل رضيت بذلك بنو عبد مناف وبنو المغيرة؟ قالوا نعم.. قال: لا مانع لما أعطى الله، ولا معطى لما منع!

بل هذه الطيبة التى لا تخلو من دهائها هى التى ظهرت منه حين هاجر ابنه مع النبى عليه السلام فأقبل على أحفاده يسألهم: ما ترك لكم بعد هجرته من المال؟ وهى التى ظهرت منه حين ذهب ابنه ينفق من ماله لإعتاق الأرقاء الذين عذبهم المشركون فكان يقول: لو أنك إذ فعلت ما فعلت أعتقت رجالا جلدًا يمنعونك ويقومون دونك؟ ويقول له ابنه: يا أبت إنى أريد ما عند الله.

ثم عاش الأب الصالح حتى قبض ابنه العظيم فرد ميراثه منه إلى أحفاده وسأل حين بلغته وفاته وهو يقول: رزء جلل، رزء جلل. فمن ولى الأمر بعده؟ قالوا: عمر! قال صاحبه... يعنى صاحب الأمر أو صاحب الصديق فى إيجاز كاف كإيجاز ابنه العظيم.

كثير مما فى أبى بكر من هذا الأب الصالح: طيبة فى يقظة فى استقامة، ويزيد عليه ابنه فى كل وصف حميد.

الصديق الأول والخليفة الأول

فى رواية من أشهر الروايات عن مرض النبى صلى الله عليه وسلم أن مؤذنه بلالا جاءه يومًا، وقد اشتد به المرض فقال عليه السلام:

مروا أبا بكر فليصل بالناس:

قالت عائشة رضى الله عنها: يارسول الله! إن أبا بكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس. فلو أمرت عمر؟

فقال عليه السلام مرة أخرى: مروا أبابكر فليصل بالناس.

فعادت عائشة تقول لحفصة: قولى له: إن أبابكر رجل أسيف، وإنه متى يقم مقامك لا يسمع الناس. فلو أمرت عمر؟

فأعادت حفصة ما قالته له عائشة.

وضجر عليه السلام من هذه المراجعة، فقال: إنكنّ أنتن صواحب يوسف. ثم قال لثالث مرة: مروا أبابكر فليصل بالناس.

وروى عبد الله بن زمعة أنه خرج من عند النبى، فإذا عمر فى المسجد وأبوبكر غائب. فقال: ياعمر. قم فصل بالناس. فتقدم فكبر، وكان رجلا مجهرًا. فلما سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته سأل: فأين أبوبكر؟ يأبى الله ذلك والمسلمون، يأبى الله ذلك والمسلمون.

ولام عمر عبد الله بن زمعة قائلا: ويحك! ما صنعت بى يا ابن زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتنى إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك بذلك. ولولا ذلك ما صليت بالناس.

قال ابن زمعة: والله ما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بشىء، ولكنى حين لم أر

أبابكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس.

وموضع العجب فى هذه الرواية تردد السيدة عائشة رضى الله عنها فى تبليغ أمر النبى بإقامة أبيها مقامه فى الصلاة، وقد تكرر الأمر أكثر من مرة.

فهذا التردد عجيب من وجوه:

عجيب أن تتردد فى تبليغ أمر محمد عليه السلام، وهو الزوج المحبوب والنبى المطاع.

وعجيب أن تتردد فى تبليغه، وهو تشريف لأبيها بمقام كريم تتطاول إليه الرقاب.

ويزيده عجبًا أن يحدث فى شدة المرض والنبى مجهد يطلب الراحة، وهى أشد نسائه سهرًا عليه فى مرضه، وأرعاهم له بما يريحه، ويخفف الجهد عنه.

نعم إن عائشة رضى الله عنها كانت أكثر الناس دالة على النبى وأجرأهم على مراجعته، والتلطف فى إبلاغه مايتهيب القوم أن يبلغوه، فلئن كانت هى أولى الناس أن تطيعه وتبلغ أمره، لقد كانت كذلك تعلم من مكانتها عنده مايبيح لها أن تراجعه وتأمن غضبه، لدالتها عليه وثقته من مضمر حبها له وامتثالها لأمره.

إلا أنها قد بلغت مكان الدالة عند رسول الله بما لها من صفات كثيرة غير الصباحة والجمال، وأول تلك الصفات فرط الذكاء ولطافة الحس وحسن التقدير.

وخليق بمن كانت فى مثل ذكائها ولطافة حسها وحسن تقديرها أن تفطن إلى الجد فى ذلك الموقف العصيب، وفى ذلك البلاغ الخطير.. وهيهات أن تتردد يومئذ عن دلال فى غير موضعه، ولأسباب غير السبب الذى يمكن أن يوحى إليها ذلك التردد، ولابد له من سبب عظيم.

ولقد كان له سبب عظيم.

بل هو أعظم الأسباب التى يمكن أن توحى إليها ذلك التردد، ولولاه لما أقدمت عليه.

وما نحسب أن شيئاً حفظته الروايات التاريخية لنا عن ذكاء السيد عائشة يدل على قوة ذلك الذكاء، كما دل عليه ترددها فى ذلك الموقف العصيب.

يكفى أن نستحضر اليوم ما قيل عن الخلافة بعد النبى عليه السلام لنعلم مبلغ ذلك

الذكاء العجيب فى مقتبل الشباب، ونكبر ذلك النظر الثاقب إلى أبعد العواقب، ونلتمس لها العذر الذى يجمل بامرأة أحبها محمد ذلك الحب وأعزها ذلك الإعزاز.

فقد قيل فى الخلافة بعد النبى كثير:

قيل فيها ما يخطر على بال الأكثرين، وما يخطر على بال الأقلين، وما ليس يخطر على بال أحد إلا أن يجمح به التعنت والاعتساف أغرب جماح.

قيل: إن وصول الخلافة إلى أبى بكر إنما كان مؤامرة بين عائشة وأبيها.

وقيل: إنه كان مؤامرة بين رجال ثلاثة أعانتهم عائشة على ماتآمروا فيه، بما كان لها من الحظوة عند رسول الله، وكان هؤلاء الرجال على زعم أولئك القائلين أبا بكر وعمر وأبا عبيدة بن الجراح، وهم الذين أسرعوا - من المهاجرين - إلى سقيفة بنى ساعدة ليدركوا الأنصار قبل أن يتفقوا على اختيار أمير أو خليفة لرسول الله.

وقيل: إن هؤلاء الرجال الثلاثة اتفقوا على تعاقب الحكم واحدًا بعد واحد: أبو بكر فعمر فأبو عبيدة؛ ولهذا قال عمر حين حضرته الوفاة: لو كان أبو عبيدة حيًّا لعهدت إليه لأنه أمين الأمة، كما قال فيه رسول الله، وهذا زعم روجه بعض المستشرقين والقى بين القراء الأوربيين كثيرًا من القبول، لأنه شبيه بما عهدوه فى أمثال هذه المواقف من أحاديث التدبير والتمهيد وروايات التواطؤ والائتمار.

فالسيدة عائشة مسعودة الحظ لا مراء، لأنها لم تخالف محمدًا قط فى أمر خطير، وحين خالفته أو ترددت فى تبليغ كلامه فى أمر من أخطر الأمور، كان هذا التردد أدل على مكانتها وفضلها وعلى استحقاقها لمنزلة الإيثار فى ذلك القلب العظيم.

فهى قد ترددت لتبرئ نفسها من القالة، وتبرئ ذلك الموقف الخطير من المظنة، وتبرئ الخلافة من أسباب الادعاء، وقد يكون فيها إضعاف وإيذاء.

وأشهدت على نفسها أولى الناس بالشهادة فى ذلك الموقف الخطير حفصة بنت عمر رضى الله عنها.

فإذا علمت حفصة أن عائشة راجعت رسول الله مرتين فى تبليغ الأمر إلى أبيها أن يصلى بالناس، فقد علمت ذلك من هى أحق بعلمه من سائر أمهات المسلمين، إذ كان

عمر رضى الله عنه أحد اثنين فى حق الخلافة لا يذكر أحدهما إلا ذكر الآخر، كما ظهر ذلك من واقع الأمور، أو كما ظهر من قول عبد الله بن زمعة لعمر: «حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة بالناس».

فتردد عائشة فى ذلك الموقف الخطير لم يضر بل نفع، وكان أنفع من إسراعها بالتبليغ، وأول ما نفع به أنه أظهر رغبة النبى إظهاراً لا مجال للظنة فيه، فكان ذلك من أدعى دواعى الاتفاق على الاختيار وقطع السبيل على الفتنة والشقاق.

نعم إن رواية من الروايات تزعم لنا أن السيدة عائشة رضى الله عنها ترددت فى التبليغ لأنها أشفقت أن يتشاءم الناس برؤية أبيها فى مقام يذكرهم بالخطر على أحب الناس إليهم فى ذلك المقام، وتلك سانحة يجوز أن تسنح لها وهى أشد الناس إحساساً بذلك التشاؤم ووقعه فى نفوس المسلمين. ولكننا إذا سلمنا أنها رضى الله عنها قد تعمدت الإبطاء فى التبليغ، فالسبب الذى أو مأنا إليه آنفاً أولى وأليق بالمعهود من ذكائها وخلقها الكريم. لأنها لا تجهد النبى فى مرضه ولا تفوت على أبيها شرف الخلافة حذراً من التشاؤم وحده، ثم هى لا تدعو حفصة إلى تعريض عمر لموقف تصون عنه أباها. فإن كان تعمد للإبطاء فى التبليغ فذلك السبب أومأنا إليه آنفاً أحق الأسباب أن يرجح على غيره لتفسير ذلك الإبطاء، فهو أدعى أن يبطل به العجب ولا يمتنع مع هذا أن يقترن بغيره من الأسباب.

* * *

ويقل العجب من تردد السيدة عائشة كلما ازداد العجب من تلك الفروض والأقاويل التى خاض فيها من خاض عن «مؤامرة» الخلافة المزعومة، وليس لها سند من التاريخ، ولا من التفكير القويم، ولا من المعهود فى أخلاق الرجال والنساء الذين عزيت إليهم تلك المؤامرة بغير بينة قاطعة ولا ظن راجح.

فليس فى شىء مما رواه الرواة عن الخلافة بعد النبى عليه السلام كلمة واحدة ترجح تلك الفروض والأقاويل، سواء كان قائلها ممن أسرعوا إلى بيعة الصديق أو تباطئوا فى بيعته، أوقضوا حياتهم ولم يبايعوه.

وليس فى شىء من خلائق أبى بكر وعمر وأبى عبيدة التى عهدها الناس منهم فى حياة

النبى أو بعد وفاته ما يأذن لمتوهم أن يتوهم فيهم التآمر على خلافته وهو بقيد الحياة، دون أن يطلعوه على جليلة أو دقيقة مما يفكرون فيه.

وليس فى سيرة أبى بكر وعمر بعد أن وليا الخلافة ما ينم على طمع فى السطوة، وحرص على زهو الملك يغريهما باستباحة ثقة النبى فى حياته بما لا يليق، وهو عندهما بمكان من التجلة والحب لا تتطرق إليه الشكوك ولا ترتفع إليه الشبهات.

وعلى نقيض ذلك تدل الحوادث والروايات التاريخية على أن الأمر قد وقع منهم جميعًا موقع المفاجأة التى لم يتدبروا فيها إلا بعد وقوعها، ولم يبرموا فيها الرأى على نحو من الأنحاء قبل اجتماع الأنصار بسقيفة بنى ساعدة.

فالأقوال تتفق - أو تكاد تتفق - على أن أبا بكر لم يكن قريباً من النبى عليه السلام يوم أمر النبى بلالا أن يدعوه إلى الصلاة بالناس، ولو كان بينه وبين السيدة عائشة اتفاق فى هذا الصدد لكان اقترابه من المسجد أو بيت النبى فى تلك اللحظة لازماً كل اللزوم لإنجاز ذلك الاتفاق، وإلا توجهت الدعوة إلى غيره وخرج الأمر من أيدى المتفقين.

وقد توفى النبى عليه السلام وليس فى أصحابه الأقربين من كان يتوقع وفاته، فتركه أبو بكر بعد الصلاة وهو يقول: يا نبى الله! إنى أراك قد أصبحت بنعمة من الله وفضل كما نحب واليوم يوم بنت خارجة، أفآتيها؟

فأذن له النبى فى الانصراف: وخرج أبو بكر إلى «السنح» حيث كان يقيم.

أما عمر فقد دهش لنعى النبى تلك الدهشة التى لم يكن لها على أهبة، ولو كان أهبة لها لقد كان الأخرى أن يؤكد الوفاة ولا يستغربها، تمهيداً لذلك الاتفاق المزعوم الذى سيتلوها.

وبلغ أبا بكر وعمر أن الأنصار مجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة لاختيار الخليفة منهم، فخرجا إلى السقيفة على غير اتفاق بينهما أيهما الذى يخاطب القوم. فكان عمر يخشى حدة أبى بكر فيهيئ فى نفسه كلامًا يقوله، وكان أبو بكر يخشى حدة عمر يستمهله ويخاطب القوم قبله، وليس فى ذلك دليل اتفاق قديم.

وكان لقاؤهما أبا عبيدة يومئذ لقاء مصادفة فى الطريق. وجاء فى رواية مشهورة أن عمر فاتح أبا عبيدة قبل ذلك فقال له: ابسط يدك فلأ بايعك. فأنت أمين هذه الأمة على لسان رسول الله. فقال له أبو عبيدة: ما رأيت لك فهة[1] قبلها منذ أسلمت. أتبايعنى وفيكم الصديق وثانى اثنين؟ فإذا صحت هذه الرواية فهى تنفى ما قيل عن تفاهم هؤلاء الرجال الثلاثة على مبايعة أبى بكر وتعاقب الخلافة بعده، وقد يكون عمر فاتح أبا عبيدة عازمًا على مبايعته. أو فاتحه لاستطلاع ما عنده من الرأى والرغبة، فعلى كلتا الحالتين لا تفاهم من قبل على ذلك الرأى ولا اتفاق.

هكذا تلقى الصحاب الأجلاء نعى النبى، وهكذا كانوا فى أثناء شدة المرض عليه فمتى كان التفاهم المزعوم؟ أقبل أن يمرض رسول الله يعقل عاقل أن يجتمع صفوة أصحابه والمؤمنين برسالته للتآمر على وراثته واغتنام موته؟ إن جاز فى عقل عاقل هذا، فمن أدراهم إذن أن القرآن الكريم لا يوحى برأى فى الخلافة غير الذى رأوه؟ ومن أدراهم إذن – سلفاً – أن النبى عليه السلام يفارق هذه الدنيا ولا يوصى فى أمر الخلافة بوصاة يشهدها الناس عامة وتخالف ما اتفقوا عليه؟

إن الأمر لم يكن قابلا لأن يحصل فيه غير ما حصل، بعد حسبان كل حساب، واستقصاء كل فرض، وتمحيص كل رواية.

ولم يكن فيه اتفاق مدبر على صورة من الصور، وإنما هو كما قال عمر رضى الله عنه: «إن بيعة أبى بكر كانت فلتة.. ألا وإن الله وقى شرها».

وما حاجة الأمر إلى تمهيد وقد كان فى غنى عن التمهيد؟

لقد كان اختيار أبى بكر للخلافة «خيرة الواقع» الذى لا يحتاج إلى تدبير، بل يقاوم كل تدبير.

فمن غير أبى بكر كانت تجتمع له الشرائط كما اجتمعت له، وتتلاقى عند الوجهات كما تلاقت عنده؟

---

(١) الفهة: الذلة.

كانت تجتمع له شرائط السن، والسبق إلى الإسلام، وصحبة النبى فى الغار، والمودة المرعية بين أجلاء الصحابة ومعظم من دخلوا فى الدين على يديه.

وكانت أمارات استخلافه ظاهرة من طلائعها الأولى قبل مرض النبى عليه السلام بسنوات. فكان أول أمير للحج بعث به النبى عليه السلام وهو بالمدينة. وكان ذلك سنة تسع من الهجرة، واتفق فى طريقه أنه دعا إلى صلاة الصبح فسمع رغوة ناقة وراء ظهره، فوقف عن التكبير وقال: هذه رغوة ناقة النبى – صلى الله عليه وسلم – الجدعاء فلعله أن يكون رسول الله فنصلى معه. فإذا على بن أبى طالب على الناقة. فسأله أبو بكر؛ أمير أم رسول؟ قال: لا بل رسول. أرسلنى رسول الله صلى الله عليه وسلم ببراءة أقرؤها على الناس. فلما قدموا مكة قام أبو بكر فخطب الناس محدثًا عن المناسك، وقرأ على سورة براءة حتى ختمها، ثم كان يوم عرفة فخطب أبو بكر وقرأ على السورة، وهكذا حتى انتهت المناسك.

وكان قتال بين جماعة من الأوس فذهب النبى عليه السلام يصلح بينهم وقال لبلال: إن حضرت الصلاة ولم آت فمر أبا بكر فليصل بالناس.

وأثبت البخارى عن جبير بن مطعم أن امرأة أتت النبى صلى الله عليه وسلم فأمرها أن ترجع إليه. قالت: أرأيت إن جئت فلم أجدك.. كأنها تريد الموت. قال: إن لم تجدينى فأتى أبا بكر.

وهذه أمارات مشهودة متفق عليها، وغيرها أمارات شتى بعضها أصرح وبعضها أحوج إلى التأويل، لا ضرورة لاستقصائها لأنها لا تبلغ فى الجزم والتوكيد مبلغ ما قدمناه.

* * *

واقترنت بتلك الأمارات جميعًا أمارات أخرى لا تقل عنها صراحة وتواتراً تدل على رغبة قوية فى اجتناب كل ما يثير العصبية، ويلبس الأمر على الجهلاء والمغرضين بين دعوة النبوة وطلب السلطان والاستعلاء.

فلا نحسب أن محمداً عليه السلام دل بعمله وقوله ومضامين رأيه على شىء واضح

مطرد كما دل على هذه الرغبة القوية، ولا ظهر منه الحرص على شىء كما ظهر حرصه على تنزيه النبوة من مطامع السيادة الدنيوية ومفاخر العصبيات.

فأبغض شىء كان إلى نفسه الكريمة قول من كانوا يقولون: إن النبوة تمهيد لدولة هاشمية أو وراثة دنيوية.

ولهذا أثر عنه أنه لم يول أحدًا من قرابته ولاية أو عمالة فى مكة والمدينة أو فى غيرهما.

بل لهذا أصهر إلى أبى سفيان، واتخذ معاوية كاتبًا للوحى، وأمر يوم فتح مكة مناديًا ينادى فى الناس «... من دخل المسجد فهو آمن ومن دخل دار أبى سفيان فهو آمن» ليمحو من نفوس بنى أمية حزازة العصبية بينهم وبين بنى هاشم، ولا يدع فى سرائرهم مجالا للظن بأنها غلبة أسرة على أسرة، أو بطن من قريش على سائر بطونها.

وقال عليه السلام: «إن هذا الأمر فى قريش لا يعاديهم أحد إلا كبه الله على وجهه ما أقاموا الدين». ولم يقل «فى بنى هاشم» أو فى بنى عبد المطلب، ولو شاء لقال.

ولا ريب أنه عليه السلام لم يؤثر قريشا بالأمر يومئذ لأنه يؤثر العصبية لبنى قبيلته وقومه، ولكنه آثرهم للحكمة السياسية البينة التى لا يسهو عنها الهداة المسئولون عن مصائر الأمم فى عصر من العصور. فقريش هم أصحاب السيادة فى مكة وهى كعبة الإسلام وعاصمة الدول الإسلامية فى ذلك الحين. ولن تفلح دولة يكون أهل العاصمة فيها أول الثائرين عليها والمنكرين لذويها.

ويغلب على اعتقادنا أنه عليه السلام ترك أمر الخلافة بغير وصية ظاهرة لأنه علم أن الخلافة منتهية إلى مثل ما انتهت إليه، ولا سيما بعد تقديمه أبا بكر للصلاة بالناس.

ونص على «قريش» ولم يتجاوز ذلك لأنه علم أن قريشًا تتفق على مثل ما اتفقت عليه، وأن الخلاف إنما يجىء - إن جاء - من جانب الأنصار أهل المدينة. فالحاجة ماسة إلى هذا التخصيص لدفع الخلاف المنظور، ومع هذا التخصيص اللازم وصية مكررة بإكرام الأنصار أوصى بها المسلمين بعده، وهى وصية معناها الواضح فى هذا المقام أنه عليه السلام كان يترقب أن تئول الخلافة إلى المهاجرين فهم الذين تتجه إليهم الوصية بإكرام مثوى إخوانهم الأنصار، ولولا ذلك لما اتجهت الوصية لفريق منهما دون فريق.

ونقول إن النبى علم بمصير الخلافة على الوجه الذى صارت إليه، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه عليه السلام ترك هذه المسألة وهو يتوقع فيها الفشل والفتنة ولم يبرم فيها حكماً يدفعهما به ما استطاع.

فإذا انحصرت الخلافة يومئذ فى قريش فهى صائرة إلى أبى بكر دون غيره ولا حاجة إلى تدبير لن يغير مصير الأمور.

وإلا فكيف كانت الخلافة صائرة إلى غير ما صارت إليه وهى محصورة يومئذ فى قريش؟

وإلى من كانت تصير؟

إن الذين تولوها بعد أبى بكر من صحابة النبى هم عمر وعثمان وعلى ومعاوية. فأى هؤلاء كان أظهر حقًّا وأقرب طريقًا وأدنى من الصديق إلى اتفاق المسلمين عليه؟

أهو عمر؟ لقد كان أصغر من أبى بكر بنحو عشر سنين، ولم تكن له سابقة فى الإسلام وفى صحبة النبى، ولم تكن ألفة الناس له كألفتهم لأبى بكر، وليس هو بأقوى عصبة منه بين بطون قريش، وليس هو بالذى يشغب على أبى بكر ويعصيه لطمع فى الخلافة إذا تقدم إليها بل كان هو أول من بايعه وحث الناس على بيعته. وقال له: أنت أفضل منى. فقال أبو بكر: وأنت أقوى منى. فعاد عمر يقول: وإن قوتى لك مع فضلك، وكان هذا فصل الخطاب ومرجع الاختيار الذى لا تفويت فيه لفضل ولا قوة، ولا تضييع فيه لفرصة أبى بكر التى لا فرصة بعدها. أما عمر فله بعد ذلك فرصته حين يأتى أوانها.

أفكانت تصير إذن إلى عثمان بن عفان؟

إن عثمان رضى الله عنه أسلم على يدى أبى بكر، وقد كانت معه عصبية بنى أمية وهى عصبية قوية، ولكن زعامة تلك العصبية كانت فى يد أبى سفيان يوم ذاك ولا طريق له إلى الخلافة وإن طمع فيها. وتنزه عثمان مع هذا أن يركن إلى تلك العصبية ليزاحم أبا بكر فى حق لا ينكره ولا ينفسه عليه.

أفكانت تصير إذن إلى على بن أبى طالب؟

إنما كانت تصير إليه بحجة بنى هاشم وهى الحجة التى اتقاها النبى جهده كما قدمنا،

وكان بنو هاشم مع هذا لا يتفقون على اختيار واحد من رؤسائهم الثلاثة العباس وعلى وأخيه عقيل، ولم يكن عليٌّ بعد هذا وذاك قد جاوز الثلاثين إلا بسنوات قلائل، وهى عقبة من العقبات التى لا يسهل تذليلها فى أمة ترعى حق السن ومكانة الشيوخ إلا بوصية ظاهرة من النبى عليه السلام. ولم تكن هناك وصية من هذا القبيل كما اتفق عليه كل سند وثيق.

أفكانت تصير إذن إلى معاوية بن أبى سفيان؟

ما نحسب أن معاوية نفسه قام بخلده أن يرشح نفسه لخلافة النبى فى تلك الآونة. ولو توافرت له السن وتوافرت له الذرائع التى تقربه من ذلك الأمل لآثرت قريش بالمبايعة كل بطن من بطونها غير بطن بنى أمية، لأن الخلافة فى بنى أمية معناها دولة بنى أمية؛ لاستطاعتهم بالخلافة وقوة العصبية أن يفرضوا دولتهم على سائر البطون وسائر القبائل.. أما الخلافة فى بنى تيم، رهط أبى بكر، فهى خلافة قريش كلها ومعهم جميع المسلمين، لتعذر قيام الدولة ببطن واحد من البطون الصغيرة واحتياج الحاكم إلى اتفاق هذه البطون من حوله. ويقال مثل ذلك فى بنى عدى رهط عمر، وفى سائر البطون القرشية ما عدا هاشما وأمية.

فإذا كان انتخاب أبى بكر للخلافة هو رأى قريش الذى لا محيد عنه، وهو نية النبى التى ظهرت من أعماله وإشاراته، فما الحاجة إلى التدبير بين السيدة عائشة وأبيها، أو بين الرجال الثلاثة أبى بكر وعمر وأبى عبيدة؟ ومن أين يأتى تخيل التدبير ولا موجب له من الفروض ولا من الإسناد؟

ربما كان الدليل الذى هو أقطع من كل دليل على نفى التدبير المزعوم أن نقدر أن التدبير لم يحصل قط فماذا كان يحصل بعد امتناعه – أكان يقع فى مسألة الخلافة شىء غير الذى وقع؟ وما هو؟ وما حيلة التدبير فى منعه؟

فإن كان الجواب أن التدبير وترك التدبير يستويان، وأن الحاجة إليه لا تخطر على بال عاقل، ففى ذلك غنى عن الأدلة الأخرى التى تنقضه وتلقى به فى مراجم الظنون والأوهام.

نظر النبى إلى ذلك كله بالبصيرة الثاقبة التى تكشف له ما لا ينكشف لغيره، فسكت

بالقدر اللازم، وأشار بالقدر اللازم، وعلم أنه قد أشار بما فيه الكفاية، وأن ما زاد على ذلك فهو زيادة على الكفاية.

وما نشك لحظة فى أنه عليه السلام قد أحاط بكل ما يحاط به فى هذه المسألة خلال مرضه وقبل مرضه، وقد اطمأن إلى كل ما يوجب الاطمئنان فى تقديره، وأنه لو رأى حاجة إلى المزيد من التصريح بالقول القاطع لصرح وقطع بالقول، لأننا لا نستطيع أن نفهم أنه عليه السلام يترك الإسلام والمسلمين عرضه للفشل والفتنة ثم لا يدفع ذلك بما فى وسعه. فاكتفاؤه بما صنع هو الدليل على علمه بما سيحدث واستغنائه عن المزيد من التدبير.

وقد نظر عليه السلام – ولا ريب – إلى كل ما يستحق النظر فى مسألة الخلافة وهو يرشح لها أبا بكر ذلك الترشيح الأبوى الذى يؤنس بالرأى ولا يقحمه على القلوب.

نظر إلى حق أبى بكر كما نظر إلى مصلحة المسلمين.

فحق أبى بكر فى قيامه مقام النبى ظاهر ما فيه خلاف، ولا موجب لتخطيه إلى غيره على وجه من الوجوه.

ومصلحة المسلمين فى ولايته راجحة فى كل حساب، لأن المسلمين كانوا يومئذ أحوج إلى عهد يكون امتدادًا لعهد النبى حتى يحين وقت التوسع والتصرف، وأحوج إلى ألفة غير مخشية ولا منفوسة تعوضهم من طاعتهم النبى بتعاونهم بينهم على النصيحة والمودة. وكل أولئك ميسور لأبى بكر قبل تيسره لغيره من جلة الصحابة الأقربين. فهو فى حرص شديد على الاقتداء بالنبى حرفًا حرفًا وخطوة خطوة لن يكون عهده إلا امتدادًا للعهد النبوى حتى تتغير الأحوال فتأذن بالتغير، وهو فى ألفته واجتماع القلوب إليه خير من يخلف الطاعة بالمودة ويعالج الفرق والانقسام بالرفق والتؤدة. فإن جد ما يدعو إلى التصرف أو يدعو إلى الشدة فهناك الأعوان المخلصون له وللدين، وهناك المشيرون الذين يقلبون الرأى على جميع الوجوه: فضله مع قوتهم وقوته مع فضلهم، نعم العون ونعم الكفيل باجتماع أسباب الحول والحيلة، كما ألمع إلى ذلك عمر بن الخطاب.

ثم حانت الساعة التى تهيأت لها مشيئة القدر وتهيأت لها مشيئة الناس على ذلك النحو المستقيم.

فتم فى يوم واحد كل ما ينبغى أن يتم فى يوم.

ولاح للوهلة الأولى أن الخطر عظيم وأنه موشك أن يعصف بكل شىء وأن يخرج على كل سواء.

إذ اجتمع الأنصار يتحدثون بحقهم فى الخلافة دون المهاجرين، وهمت الفتنة أن تنطلق بغير عنان فى طريق لا تعرف عقباه، ولكنها فتنة مكبوحة قدر لها ألا تقوى على الانطلاق من باب السقيفة التى نجمت فيها.

فكان سعد بن عبادة زعيم القوم مريضًا لا تؤاتيه فى ذلك اليوم حركة النفس التى لا غنى عنها فى ذلك المقام، لأنها تعدى بالهيبة والثقة من يستمعون إليه. فحملوه من بيته إلى السقيفة وهو لا يملك زمام عزمه ولا يقدر على الكلام، فجعل يخاطبهم بلسان القريبين منه وجعلوا يصغون إليه إصغاءهم إلى مريض يشعرون بضعفه لا إلى زعيم يشعرون بقوته وبأسه.

وكان القوم فريقين متنافسين منذ زمن قديم، وهم الخزرج والأوس وبينهما ملاحاة دائمة تهون معها كل ملاحاة بين الأنصار والمهاجرين.

وكانت يقظة عمر وأصحابه أسرع من فتنة القوم. فبلغوا السقيفة فى إبانها وعالجوا الأمر حق علاجه، وقال كل منهم كلمة كانت أنفذ من سهم وأقهر من جيش. قال أبو بكر: «إن هذا الأمر إن تولته الأوس نَفَسَتْهُ عليهم الخزرج وإن تولته الخزرج نفسته عليهم الأوس، ولا تدين العرب لغير هذا الحى من قريش... نحن الأمراء وأنتم الوزراء لا تفتاتون بمشورة ولا تُقضى دونكم الأمور» وقال عمر: «إن العرب لا تمتنع أن تولى أمرها من كانت النبوة فيهم وولى أمورهم منهم». وقال أبو عبيدة: «يا معشر الأنصار! كنتم أول من نصر وآزر فلا تكونوا أول من بدَّل وغير».

ونادى أبو بكر القوم: هذا عمر وهذا أبو عبيدة فأيهما شئتم فبايعوا. فقال عمر وقال أبو عبيدة مثل مقالته: «لا والله! لا نتولى هذا الأمر عليك. فإنك أفضل المهاجرين، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وخليفة رسول الله على الصلاة، والصلاة أفضل دين المسلمين، فمن ذا الذى ينبغى له أن يتقدمك أو يتولى هذا الأمر عليك».

أبسط يدك نبايعك.

فبايعه زعيم من الأوس، بشير بن سعد، وهو يقول: «كرهت أن أنازع قومًا حقًّا جعله الله لهم» وقال النقيب أَسَيْد بن حضير: «والله لئن وليتها الخزرج عليكم مرة لا زالت لهم عليكم بذلك الفضيلة، ولا جعلوا لكم معهم نصيبًا أبدأ فقوموا بايعوا...»

وبايع عمر وأبو عبيدة فكأنما بايع المهاجرون معهما، ولم يبق للخزرج الحاضرين عزم خلاف، فتزاحموا على البيعة حتى أوشكوا أن يطئوا زعيمهم المريض، وماتت الفتنة فى مهدها لأنها ولدت بعلة الموت.

ولدت بعلة الموت فماتت وما اصطدمت بأكثر من ثلاثة رجال، لم يستعدوا لها بأكثر من استعداد الساعة. بل لعلهم أفلحوا فى القضاء عليها لأنهم كانوا أولئك الثلاثة بعينهم ولم يكونوا جمعًا حاشدًا من المهاجرين المناظرين فلاحوا للقوم هداة ينصحون ولم يلوحوا لهم غزاة يقتحمون، وكان ذلك أدعى أن يستمعوا إليهم كما يستمعون إلى الضيف الناصح دون أن تثار فيهم نخوة الغاضب لذماره، المطروق عليه فى عقر داره.

ولو أن سعد بن عبادة كان صحيحًا غير مريض، وكان الأنصار حزبًا واحدًا غير منقسم، وكان المهاجرون الثلاثة متخلفين عن الموعد الحاسم، أو كانوا غير أبى بكر وعمر وأبى عبيدة، أو كانوا جمعًا كثيرًا يحفز العداء والمقاومة، لجاز أن يتغير مجرى الأمور وأن يكون للتاريخ الإسلامى شأن غير شأنه الذى عرفناه.

ولكننا نخطئ كثيرًا إذا نسينا فضل الأنصار أنفسهم فيما صارت إليه الأمور، فقد كانت لهم فيه مشيئة مستورة إن لم نقل مشيئة ظاهرة.

كانوا على الأرجح يقضون حق المجاملة لسعد بن عبادة ولا ينوون الزيادة أو يجدون فى الكفاح لا نتزاع الخلافة: كانوا مسلمين قبل كل شىء ولم يكونوا طلاب ملك قبل كل شىء، وكانوا يحسون ما أحسه المسلمون جميعًا إذ قالوا: إن النبى قد ائتمن أبا بكر على الدين بتقديمه للصلاة فكيف لا يؤتمن على الدنيا؟ وكانوا يعلمون أن المهاجرين مقدمون فى القرآن على الأنصار: «والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان». فلم يكن إيمانهم بحقهم فى الخلافة إيمان من يغضب لفواتها ويستميت فى طلبها، ولم يكن حرصهم على السلطان أشد من حرصهم على الدين ومصلحة المسلمين، ولم يكن أملهم فيها إذا نازعتهم قريش عليها بالأمل الذى يطغى على كل تفكير، فما هو إلا أن

أشار بعضهم إلى منازعة المهاجرين حتى قالوا: «منا أمير ومنهم أمير» قبل أن تستفيض بينهم حجج المهاجرين. ثم تمت البيعة فلم يعودوا إلى تمحل الأسباب للخروج على صاحب الأمر كما يفعل كل حريص على السلطان لجوج فيه.

فهم ولا ريب أصحاب مشيئة فيما صارت إليه الأمور، على هذا النحو من المشيئة التى قد يجهلها صاحبها وهى حاضرة.

وهم ولا ريب إخوان يطلبون حقًّا فى الإرث المشروع إن ثبت لهم حق فيه، وليسوا بأعداء ينظرون إلى أسلاب العدو ويستحقونها بالغلبة عليها، كائنة ما كانت ذريعتهم إليها من حق أو باطل.

على أنهم لو كانوا غير ذلك وكان نزاعهم إلى السلطان نزاعًا طاغيًا لا يبالون فيه بالحقوق والحرمات لبطل فى هذا النزاع كل تدبير سابق لأبى بكر وصاحبيه، ولكان مآل الفتنة إلى حكم الواقع الذى لا تغنى فيه الخطط السابقة ولا العظات البالغة. إذ قصارى التدبير من أبى بكر وصاحبيه أن يجمعوا حولهم كلمة قريش ورؤسائها وبطونها. فأما أن يخضعوا بالتدبير من لا يخضع لغير السيف، وأن يدفعوا بالاتفاق بينهم ما ليس له دافع، فذلك هو المحال بعينه، أو ذلك هو الاتفاق على أناس خارجين من نطاق الاتفاق.

وصفوة القول أن خلافة أبى بكر كانت نتيجة لكل مقدمة سبقتها من فعل الحوادث، أو من فعل أحد عامد أو غير عامد.

وغير هذه الخلافة ما كان ليكون، إلا الفتنة التى لا يجدى فيها اختيار هذا ولا اختيار ذاك، ولا يغنى فيها تدبير ولا تقدير.

ولسنا نحب أن يفهم من هذا أن أحدًا من كبار الصحابة كان يعاف الخلافة ولا يسره أن يختار لهذا المقام العظيم، وأن يراه الناس أهلا للاضطلاع بعبئه الجسيم. فخلافة النبى شرف لا يأباه أحد يحبه ويعظمه ويتتبع خطاه، وأقل من هذا المقام الأسنى كان حقيقًا عند الصحابة أن يستشرفوا له ولا يكتموا طموحهم إليه. جاء أهل نجران إلى النبى عليه السلام فقالوا: ابعث لنا رجلا أمينًا فقال: «لأبعثن إليكم أمينًا حق أمين» فاستشرف لها الناس. فبعث أبا عبيدة بن الجراح.

وروى أبو بكر هذه القصة حيث قال: «قدم إلينا وفد نجران فقالوا: يا محمد ابعث لنا من يأخذ لك الحق ويعطيناه. فقال: والذى بعثنى بالحق لأرسلن معكم القوى الأمين». فما تعرضت للإمارة غيرها. فرفعت رأسى لأريه نفسى، فقال: قم يا أبا عبيدة.

ولقد ساء أبا بكر بعد مبايعته الأولى أن ينقبض أناس عنه فظهر منه الاستياء حيث قال: «أيها الناس! ألست أحق الناس بها؟ ألست أول من أسلم؟».

وغير ذلك – أيضًا – لم يكن ليعقله العقل ولا بالذى يجمل بالكريم، فكل رجل كريم يسوؤه أن ينقبض أناس عنه وهو جدير منهم بغير الانقباض.

ولكن الغبطة بالخلافة شىء والاحتيال لها بالحيلة والدسيسة شىء آخر، فهذا الذى ننكره لأننا لم نجد دليلا واحدًا عليه، ووجدنا أدلة كثيرة على نقيضه.

كذلك دبر أبو بكر وأصحابه كل ما يحمد تدبيره بعد قيامه بالخلافة لتوطيد أركانها وحماية الإسلام غوائل عصيانها والتمرد عليها. وجهدوا أن يفرقوا كل اجتماع يخشون مغبته على وحدة المسلمين. فاقترحوا على العباس بن عبد المطلب أن يجعلوا له نصيبًا يكون له ولعقبه من بعده ليمنعوا الاتفاق بينه وبين على ابن أخيه، إن سعى إليهما من يسعى إلى التأليب والتخريب، كما هم أبو سفيان أن يفعل باسم البطون القوية فى قريش: بنى هاشم وبنى أمية، وصنع أبو بكر وأصحابه نظائر ذلك فى سبيل الوحدة العربية والجماعة الإسلامية، ولكن الذى صنعوه هو التدبير الواجب الذى لا يضير، وقد يكون فى تركه ضير كبير.

لقد كان أبو بكر الخليفة الأول لأنه كان الصديق الأول، ولأن شروط الخلافة التى اجتمعت له لم تجتمع لأحد غيره، وليس له من منازع فيها بين أهل عصره، ولأن المزايا التى قد يرجحه بها أنداده وقرناؤه لا تضيع على الإسلام بولايته عليهم ومعونتهم إياه. فكان اختياره أصح اختيار عرف فى تاريخ الولاية، وكانت التوفيقات فيها غنية عن التدبير والتمهيد. فإن لج بعض المكابرين مع هذا فى دعوى التدبير فأنعم به تدبيرًا ينقطع به الخلاف، ويتم به أصح استخلاف.

صفاته

كان أبوبكر فى جملة ما وصفوه به أبيض تخالطه صفرة، وسيمًا، غزير شعر الرأس، خفيف العارضين، ناتىء الجبهة، غائر العينين معروق الوجه، نحيفًا مسترخى إزاره عن حقويه[1] حمش الساقين[2]، ممحوص الفخذين خفيف اللحم فى بسائر جسمه.

وكان أجنأ - أى منحنى القامة - وقيل فى وصف آخر: إنه حسن القامة لا يلحظ عليه انحناء، ولعله كان كذلك أيام الشباب ولم يرد فى أخباره وصف قاطع عن الطول والقصر، ولكنه على ما يؤخذ من بعض تلك الأخبار كان أميل إلى القصر، ولا سيما أخبار الهجرة مع النبى عليه السلام.

فقد جاء فى خبر الهجرة أن النبى عليه السلام «كان على بعير، وأبو بكر على بعير، وعامر ابن فهيرة على بعير فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم يثقل على البعير فيتحول عنه إلى بعير أبى بكر، ويتحول أبو بكر إلى بعير عامر ويتحول عامر إلى بعير رسول الله صلى الله عليه وسلم..».

فكان هو أخف من عامر بن فهيرة.

وكان عامر بن فهيرة أخف من رسول الله عليه السلام.

وكان رسول الله كما علمنا من وصفه ربعة فى الرجال فوق القصير ودون الطويل، ولم يكن بين الامتلاء، بل معتدلا لا إلى السمن ولا إلى النحافة، فلو كان أبوبكر رضى الله عنه أطول من الربعة لما كان أخف كثيرًا من رسول الله، وأخف كذلك من عامر بن فهيرة، بحيث يظهر الفرق بينه وبينهما فى حركة البعير الذى يتعاقبون ركوبه.

(١) الحقو: موضع شد الإزار وهو الخاصرة.

(٢) دقيق الساقين خلص من الاسترخاء.

اما صفاته الخلقية فقد اتفقت فيها أقوال واصفيه، ودلائل أعماله فى الجاهلية والإسلام، فكان أليفًا ودودًا حسن المعاشرة، وكان مطبوعًا على أفضل الصفات التى تتألف له الناس فيألفونه، ومنها التواضع ولين الجانب. فلم يتعال على أحد قط فى جاهليته ولا فى إسلامه، وكان فى خلافته أظهر تواضعًا منه قبل ولايته الخلافة. فإذا مدحه مادح قال اللهم أنت أعلم منى بنفسى، وإذا سقط منه خطام ناقته وهو راكب نزل منها ليأخذه ولم يأمر أحدًا بمناولته إياه. وبلغ من بغضه الخيلاء أنه كان يبغضها حتى حيث يغتفرها الناس من ربات الحجال. فدخل يومًا على السيدة عائشة رضى الله عنها وهى تمشى وتنظر إلى ذيل ثيابها فقال: يا عائشة! أما تعلمين أن الله لا ينظر إليك الآن؟ قالت: ومم ذاك؟ قال: أما علمت أن العبد إذا دخله العجب بزينة الدنيا مقته ربه عز وجل حتى يفارق تلك الزينة؟ فلما نزعت تلك الزينة التى أعجبتها فتصدقت بها قال: عسى ذلك يكفر عنك.

ولم يكن تألفه الناس محض مجاملة باللسان مما يستسهله معظم المشهورين بالتودد والمجاملة، ولكنها كانت ألفة النجدة والكرم والسخاء، فكان كما قال ابن الدغنة لقريش، وقد هم أبو بكر أن يهجر بلده: «أتخرجون رجلا يكسب المعدوم ويصل الرحم ويحمل الكل ويقرى الضيف ويعين على نوائب الحق؟».

فهو ودود كريم لا يضن بماله وجاهه فى سبيل الكرم والسخاء.

ومع هذه المودة وهذه الألفة كانت فيه حدة يغالبها ولا يستعصى عليه أن يكبح جماحها: ووصف بها نفسه ووصفه بها أقرب الناس إليه وأصدقهم فى وصفه. فقال فى خطبة من أوائل خطبه بعد مبايعته «.. اعلموا أن لى شيطانًا يعترينى فإذا رأيتمونى غضبت فاجتنبونى..».

وقال عمر بن الخطاب: «وكنت أدارى منه بعض الحد – أى الحدة – ». وذلك حين أعد كلامًا يقوله فى سقيفه بنى ساعدة، مخافة أن يحتد أبو بكر فى ذلك المقام.

وسئل عنه ابن عباس فقال: «كان خيرًا كله على حدة كانت فيه».

إلا أنها كانت حدة تنم على سرعة التأثر فيه، فإذا لم تكن غضبًا يغالبه ويكبحه فهو سريع التأثر إلى الرحمة والرفق فى جملة أحواله، يميل إلى الحزن والأسى ويعطف على

الحزين والأسوان، أو كان كما وصفته عائشة رضى الله عنها: «غزير الدمعة وقيذ الجوانح[1] شجى النشيج»... «أسيفًا متى يقم مقامك - تخاطب رسول الله - لا يسمع الناس».

* * *

وكان فى جاهليته وإسلامه وقورًا جميل السمت يغار على مروءته ويتجنب مايريب. فلم يشرب الخمر قط لأنها مخلة بوقار مثله وسئل: لم كان يتجنبها فى الجاهلية. فقال: «كنت أصون عرضى وأحفظ مروءتى، فإن من شرب الخمر كان مضيعًا فى عقله ومروءته»، ومن مروءته أنه كان يتقى كل مايورده موارد الشبهات. دعاه رجل فى الجاهلية أن يستصحبه لحاجة يعينه عليها، فرآه يمر فى طريق غير التى يمر منها فسأله: أين تذهب؟ هذه الطريق!.. قال الرجل: إن فيها أناساً نستحى منهم أن نمر عليهم. قال رضى الله عنه: تدعونى إلى طريق نستحى منها؟ ما أنا بالذى أصاحبك.

وكان لمروءته يتحاشى السقط من الكلام، فلا يتكلم إلا أن يدعوه داع إلى قولة خير فيقولها إذن ويصدق فى مقاله. ومن وصاياه لبعض عماله: «إذا وعظتهم فأوجز فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا».

وقد اشتهر بالصدق فى الجاهلية والإسلام، فكان «ضامن» قريش المقبول الضمان. لايعد أحدًا إلا وفى وصدق الدائن والمدين. ووكلت إليه الديات والمغارم فلم يكن يحمل شيئًا منها إلا اطمأن إليه الناس، فإن احتملها أحد غيره خذلوه ولم يصدقوه.

وما امتحن صدقه بشىء إلا كان صدقه أثبت وأقوى. فخطب رسول الله ابنته عائشة حين ذكرتها له خولة بنت حكيم. وكان المطعم بن عدى قد خطبها قبل ذلك لابنه. فقال أبوبكر لزوجه أم رومان: «إن المطعم بن عدى قد كان ذكرها على ابنه والله ما أخلف أبوبكر وعدًا قط..» ثم أتى مطعمًا وعنده امرأته، فسأله: ماتقول فى أمر هذه الجارية؟ فأقبل الرجل على امرأته ليسألها: ماتقولين؟ فأقبلت هى على أبى بكر تقول: لعلنا إن أنكحنا هذا الصبى إليك تصبئه وتدخله فى دينك الذى أنت عليه. فلم يجبها أبوبكر وسأل المطعم بن عدى: ماتقول أنت؟ فكان جوابه: إنها تقول ماتسمع.

(١) الوقيذ الجوانح: المخزون القلب.

فتحلل أبو بكر عند ذلك من وعده، ولم يتحلل منه قبل ذلك على مافى نسب الرسول من شرف، وما فى قلبه من إعزاز له يفوق كل إعزاز.

وكانت شجاعته كفاء صدقه ووفائه بوعده: سواء منها شجاعة الرأى وشجاعة القتال. فلما أسلم لم يبال أن يعلن إسلامه وأن يجهر بصلاته ودعائه، يصيبه فى ذلك مايصيب، ولما وجب القتال كان هو أقرب المقاتلين إلى رسول الله فى كل غزوة وكل مأزق من مآزق الجلاد، وانهزم كثير من الشجعان فى بعض الملاحم الحازبة، ولم تذكر له قط هزيمة فى ساعة من ساعات الشدة، ولا ثبت نفر قط حيث يصعب الثبات إلا كان هو بين أول الثابتين. ولم تكن وقعة قط أشد على المسلمين من وقعتى أحد وحنين. ولى فيهما من ولى واستشهد من استشهد وتردد فى صفوف العسكريين أن الرسول عليه السلام كان بين المستشهدين. فذعر الضعيف وقال القوى: ماتصنعون بالحياة بعده؟ فموتوا على مامات عليه رسول الله...

ففى وقعة أحد – أشد هاتين الوقعتين – كان أبوبكر فى طليعة الثابتين، ونظر إلى حلقة من درع قد نشبت فى جبين صديقه وصفيه ونبيه فشغله أن يصاب هذا المصاب، وانكب عليها لينزعها، لولا أن أقسم عليه أبو عبيدة ليسبقنه هو إلى نزعها، فجذبها بثنيته جذبًا رفيقًا حتى نزعها وسقطت ثنيته.

* * *

وعلى هذا الحظ الوافر من المزايا الخلقية كان له قسط محمود من المزايا العقلية التى يمتاز بها ذوو الأقدار من أهل زمانه. فقيل فيه وفى صاحبه أبى عبيدة: إنهما «داهيتا قريش». وأثر عنه أنه كان أسرع الناس إلى الفطنة لما يوحى به النبى عليه السلام بالتلميح دون التصريح. ومما جاء فى الحديث الشريف عن علمه وفطنته أنه عليه السلام قال:

«كأنى أعطيت عسا[1] مملوءًا لبنًا فشربت منه حتى امتلأت، فرأيتها تجرى فى عروقى بين الجلد واللحم، ففضلت منها فضلة فأعطيتها أبا بكر، قالوا: يارسول الله! هذا علم

(١) العس: الإناء الكبير أو القدح الكبير.

أعطاكه الله. حتى إذا امتلأت فضلت فضلة أعطيتها أبابكر. قال صلى الله عليه وسلم: قد أصبتم».

* * *

وكان لأبي بكر حظ وافر من الملكة الروحية إلى جانب ماعنده من هذه الملكة الذهنية، وتلك الملكة الخلقية، ونعني بالملكة الروحية مانسميه اليوم بيقظة الضمير.

ومناط الضمير أن يرعى الإنسان حق غيره، وأن يحسن ولا يسيء وهي خصلة كانت ملحوظة في أبي بكر من أيام الجاهلية قبل أن يدين بالدين الذي يأمر بالخير وينهى عن الشر، ويدعو إلى اتباع الحق واجتناب الباطل. فلما جاء هذا الدين بني منه على أساس قديم، وبلغت به نفسه قصارى ما تبلغه نفس طيبة من رعاية حقوق الناس، ومن كلف بالخيرات وسخط على الشرور.

قال ربيعة الأسلمي: «جرى بيني وبين أبي بكر كلام فقال لي كلمة كرهتها وندم، فقال: ياربيعة! رد عليّ مثلها حتى يكون قصاصًا. قلت: لا أفعل! قال: لتقولن أو لأستعدين عليك رسول الله صلى الله عليه وسلم. فقلت: ما أنا بفاعل. فانطلق أبوبكر وجاء في أناس من أسلم فقالوا لي: رحم الله أبابكر، في أي شيء يستعدي عليك وهو الذي قال لك ما قال؟ فقلت: أتدرون من هذا أبو بكر الصديق؟ هذا ثاني اثنين، وهذا ذو شيبة في الإسلام. إياكم لايلتفت فيراكم تنصرونى عليه فيغضب، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم فيغضب لغضبه، فيغضب الله لغضبهما فيهلك ربيعة. وانطلق أبوبكر وتبعته وحدي حتى أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم، فحدثه الحديث كما كان. فرفع إليّ رأسه فقال: ياربيعة! مالك والصديق؟ فقلت يارسول الله، كان كذا وكذا، فقال لي كلمة كرهتها، فقال لي: قل كما قلت حتى يكون قصاصًا فأبيت. فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أجل لا ترد عليه؛ ولكن قل: قد غفر الله لك يا أبا بكر..».

وهو يكره أن يسيء لأنه يكره أن يساء، ويعلم ماتوقعه الإساءة في النفس من ألم يغلبها على الحلم والأناة حتى في المحضر الذي تراض فيه على غاية الحلم وغاية الأناة.

بينما رسول الله جالس ومعه أصحابه وقع رجل بأبي بكر فآذاه، فصمت عنه. ثم آذاه الثانية فصمت عنه. ثم آذاه الثالثة فانتصر منه. فقام رسول الله حين انتصر أبوبكر

فقال: أوجدت عليّ يارسول الله؟ فقال رسول الله: نزل ملك من السماء يكذبه بما قال، فلما انتصرت وقع الشيطان.

ولا شك أنه درس من الدروس النبوية يداوى به نوازع الحدة فى صاحبه الأمين، لأنه كان يهيئه لأمر عظيم: أمر ينبغى لمن تولاه أن تؤلمه إساءته إلى الناس فوق ألمه لإساءة الناس إليه.

ومن يقظة الضمير فيه أنه لم يطق أن تستقر فى جوفه لقمة يشك فى مأتاها: فكان له مملوك يغل عليه، فأتاه ليلة بطعام فتناول منه لقمة. قال المملوك: مالك كنت تسألنى كل ليلة ولم تسألنى الليلة؟ قال: حملنى على ذلك الجوع... من أين جئت بهذا؟ فأنبأه المملوك أنه مر بقوم كان يرقى لهم فى الجاهلية فوعدوه، فلما أن كان ذلك اليوم مر بهم فإذا عرس لهم فأعطوه ذلك الطعام!

قال الصديق: إن كدت لتهلكنى.

وأدخل يده فى حلقة فجعل يتقيأ - وجعلت اللقمة لا تخرج - فقيل له: إن هذه لا تخرج إلا بالماء..

فدعا بطست من ماء فجعل يشرب ويتقيأ حتى رمى بها.

قيل له: يرحمك الله! كل هذا من أجل لقمة؟ فقال: لو لم تخرج إلا مع نفسى لأخرجتها.

وما نحسب أن يومًا مر بـه دون أنْ يطيـع فيه داعى الإحسـان، وسليقة الـبر والمودة سئل عنها أو لم يسأل.

فكان من عادة النبى عليه السلام أن يسأل أصحابه حينًا بعد حين عما ابتدروه من الخيرات فلا يكتموه شيئًا لأنه يسأل ويريد أن يجاب ليتبع جوابهم عظة من العظات، أو يعقبه بحديث يؤثرونه عنه.

صلى النبى الصبح ذات يوم فلما قضى صلاته سأل: أيكم أصبح اليوم صائمًا؟

قال عمر: أما أنا يارسول الله فقد بت لا أحدث نفسى بالصوم، وأصبحت مفطرًا.

وقال أبو بكر: أنا يارسول الله، بت الليلة وأنا أحدث نفسى بالصوم، فأصبحت صائمًا.

ثم سأل النبىُ: أيكم عاد اليوم مريضًا؟

قال عمر: إنما صلينا الساعة ولم نبرح فكيف نعود المريض؟

وقال أبو بكر: أنا يارسول الله. أخبرونى أن أخى عبد الرحمن بن عوف مريض وجع، فجعلت طريقى عليه، فسألت عنه: ثم أتيت المسجد.

ثم سأل النبى: فأيكم تصدق اليوم بصدقة؟

قال عمر: يارسول الله. مابرحنا معك مذ صلينا فكيف نتصدق!

وقال أبوبكر: أنا يارسول الله، دخلت المسجد، فإذا سائل يسأل وابن لعبد الرحمن ابن أبى بكر معه كسرة خبز، فأخذتها فأعطيتها السائل.

فقال النبى: فأبشر بالجنة: أبشر بالجنة!

لا جرم يقول عمر: ماسابقت أبا بكر إلى خير قط إلا سبقنى إليه.

ولا جرم يقول على: هو السباق. والذى نفسى بيده ما استبقنا إلى خير قط إلا سبقنا إليه أبوبكر.

* * *

لقد وصف لنا الصديق بأوصاف نستطيع أن نعيدها اليوم بما ألفناه من أساليب العصر فنراها على وفاق لحقائق تلك الأوصاف ودلالاتها، وذلك أبين البينات عن صدق ما وصفوه به فى الجاهلية أو الإسلام.

فمن جملة الملامح والسمات التى وصف بها يتبين لنا أنه كان من أصحاب المزاج العصبى للناشئين فى وراثة كريمة، فهو عصبى كريم النزعات والطوايا.

ولا يندر فى أصحاب هذا المزاج أن يتميز بحدة الذكاء وسرعة التأثر والطموح إلى المثل العليا والحماسة لما يعتقدونه، والتعلق بما يؤمنون به ويصدقونه، والتقدم فى العقائد والدعوات.

بل هذا هو الغالب، فيهم كما نشاهد اليوم فى كل دعوة دينية أو اجتماعية أو سياسية، لن تخلو من أناس فى مزاج أبى بكر وخلائقه الجسدية والنفسية، ينصرونها ويتشبثون بها ويؤمنون بدعاتها ولا ينكصون عن سبيلهم أو سبيلها.

وإذا كان الرجل من بيت من بيوت الشرف والوجاهة فشأنه – إذ يكون على هذا المزاج – أن يعتصم بالوقار ودواعيه، وأن يستزيد من خلائق الصدق والمروءة التى ركبت فيه.

ولم يكن أبوبكر على ماعلمنا صاحب «الشخصية الباطشة» التى تروع الناظر إليها لأول وهلة.

ولم تكن سيادة بيته سيادة جبارين يملكون الناس بالبأس والسطوة.

فسبيله إذن أن يعتصم بصدقه ومروءته ليحفظ بهما كرامة الشرف الذى ينتمى إليه، وأن يستزيد من ذلك الصدق وتلك المروءة بما يزيدهما فى التمكين ويعلى لهما فى الثبات والرسوخ، وأن يتجنب فلتات الطبع واللسان وينزه عن كل مخل بالوقار مزر بالصيان، لأن وقاره وصيانه هما الحجاز القائم بينه وبين كل مهانة واستخفاف، ولو كان باطش المظهر أو باطش السيادة لقد يستغنى عنهما بعض الاستغناء فى بعض الأحيان. أما وهو بعيد من البطش فى مظهره وسيادته فليس من شأنه أن يفضل عن سمت الوقار والمروءة طرفة عين.

وقد عرف الصديق بالحدة وهى أيضا من خلائق هذا المزاج التى يغالبها من يحرصون على وقارهم ومروءتهم أن يستهدفا لجرائر الحدة أو يندفعا فى غير عمل حميد.

إلا أن يمس الرجل فيما هو من أخص الخصائص التى يقوم عليها مزاجه وتستقيم عليها عاداته وسماته فعندئذ تعسر المغالبة وتبرز الحدة من مكمنها، وهى على حق إذن فى بروزها.

لهذا نرجع إلى حوادث أبى بكر فى الحدة والصرامة على خلاف عادته من الرحمة والألفة، فإذا هى كلها مما يمس الصدق والتصديق أو يمس الإيمان، أو يجرى مجرى الاستهزاء الذى يمس الوقار.

بلغ أقصى ما بلغ من غضب وحدة فى عقاب الفجاءة بن إياس ابن عبد ياليل. وبقى طوال حياته يندم على حدته فى ذلك العقاب.

وماذا صنع الفجاءة حتى هاج منه تلك الحدة التى كان يغالبها أقوى مغالبة؟

أثاره فى مكمن الثورة فيه.

كذبة الأمانة، وخدعه وخدع المسلمين، وقتل من قتل من الآمنين، وقلما غضب إنسان كما يغضب الصادق لصدقه المخدوع، ولاسيما الخديعة التى فيها غدر وسفك دماء.

جاءه يطلب سلاحا ليحارب به المرتدين، فأخذ السلاح وحارب به المسلمين الآمنين، وعاث فى الطريق ينهب ويسلب ويهدر الدماء، فلما وقع فى الأسر لم يجزئه عنده إلا أن يقذف به فى النار.

وجاء له رجل من أحبار اليهود اسمه فنحاص فى الآية: «من ذا الذى يقرض الله قرضًا حسنًا فيضاعفه له أضعافًا كثيرة» فقال فنحاص مستهزئًا بالله والنبى: «لو كان عنا غنيا ما استقرضنا أموالنا كما يزعم صاحبكم ينهاكم عن الربا ويعطيناه»!

هذا هو الاستهزاء.

وهذا هو المساس بالإيمان.

وكلاهما لا يطيقه الرجل المؤمن الوقور وتغلبه فيه الحدة إن هو غلبها فى غير ذلك من الأمور.

ولقد عاش أبو بكر ما عاش أليفًا مؤلفًا لقومه، محبًّا محبوبًا فيمن حوله، رحيما بالغرباء فضلا عن الأقربين وفضلا عن الأبناء، إلا أن هذا الرجل الرحيم الأليف نهض إلى مبارزة ابنه ودعا عليه بالهلاك حين شهد الحرب مع المشركين، ورأى البر به – غاية البر – أن ينهض هو لمبارزته ولا يدعه لأحد غيره من المسلمين.

وكان ذلك يوم بدر، وكان ابنه عبد الرحمن من أشجع الشجعان بين العرب، ومن أنفذ الرماة سهمًا فى قريش. فتقدم الصفوف يدعو إلى البراز، وقام أبوه يجيب دعوته، لولا أن استبقاه النبى عليه السلام، وهو يقول له: متعنى بنفسك.

ولما أسلم عبد الرحمن قال لأبيه: لقد أهدفت لى يوم بدر فضفت عنك - أى عدلت عنك - ولم أقتلك، فقال له أبوه: لكنك لو أهدفت لى لم أضف عنك.

وهكذا نعلم أين تبدر الحدة وأين تبدر الصرامة من خليقة أبى بكر المسالم الوديع، فحيثما روى راو أنه احتد أو اشتد فلنعلم عن يقين أن فى الأمر شيئا يمس التصديق والإيمان، أو يمس المروءة والوقار، فلا تأتى الحدة أو الشدة يومئذ فى غير موضعها من الطبيعة التى ولد بها ومرن عليها.

رجل له خصائص المزاج العصبى فى البنية الدقيقة.

ورجل من عنصر كريم وأرومة طيبة.

ورجل له قدم فى السيادة واعتصام بالوقار والمروءة.

فكل ما روى عنه فهو موافق لهذه الخصال، منتظم فى هذه الخصائص، معقول فى هذا التركيب فى الخلق والخليقة، وهو من ثم دليل على صحة الوصف وصحة السيرة على الإجمال.

ولن يكون هذا الرجل على هذا التكوين إلا كما وصفوه ونقلوا عنه: حديد الطبع، مستمسك الخلق، سريع التأثر، قوى العاطفة، محبًّا للاعتقاد حمسًا فى اعتقاده، صادقًا فى وعده، كما نستطيع أن نعرف ممن طبعوا على هذا المزاج ونراهم بيننا رأى العين، أو نعرفهم على السماع معرفة اليقين.

ونحن فيما نتوخاه من المضاهاة بين أوصاف السابقين وأوصافنا نحن المعاصرين إنما نريد أن نفضى إلى المقياس الصحيح للتصديق أو التكذيب، والمحك الصالح للتشكيك أو التغليب. فإذا كانت الأوصاف التى نقرؤها مطابقة للأوصاف التى نعقلها والتى نعهدها فذلك هو برهان الصحة فى كل مقياس.

وأنه لمن واجبنا فى عصرنا هذا أن نقضى على آفة العصر التى أوشكت أن تغلب فيه على كل آفة، وهى الظن الشائع بين المتفيهقين والمتهجمين أن البراعة كل البراعة فى التكذيب، وأن الجهالة كل الجهالة فى التصديق، وليست الجهالة كلها فى الحقيقة هنا، ولا البراعة كلها فى الحقيقة هناك.

فكثيرا ماتكون الغفلة فى التكذيب أعظم من الغفلة فى التصديق، وكثيرا مايكون بخس الشىء الثمين أدل على الغباء وأضيع للمنفعة من إغلاء الشىء البخس، فى تسويم التجارة أو تسويم الضمائر والعقول.

خذ مثلا لذلك حسنات أبى بكر اليومية التى سأله عنها النبى عليه السلام، فاتفق فى يوم سؤاله عنها أنه كان قد أهداها جميعا على وجه من الوجوه.

تلمح على وجه المتفيهق المتشكك مسحة التردد وهو يتابع ذلك الخبر كأنه مما لا يجوز ولا يتكرر على هذا المنوال.

فإذا سألته: لم التردد وفى وسعك أن تبلغ بالخبر إلى مقطع اليقين؟ لم تقف هنا ولا تتابع الطريق إلى منتهاه؟ إنك لتعلم إذن أن التردد سخف حين يكون اليقين منك على مد اليدين تتناوله إن شئت متى مددتهما إليه.

ماذا يكون إن صدقنا الخبر؟

وماذا يكون إن كذبناه؟

إن صدقنا الخبر فكل ما هنالك أن إمامًا فى الدين مطبوعًا على الكرم والكرامة قد جرى على سنة نبيه وهاديه، فأصبح صائمًا وعاد مريضًا وتصدق على فقير بكسرة خبز وجدها فى يد حفيده.

وليس هذا بممتنع، بل هذا أقرب الأشياء أن يقع، ولا سيما إذا أضفناه إلى جملة أخبار أبى بكر من إحسانه فى الجاهلية والإسلام، ومن إنفاقه المال كله فى سبيل الخير حتى مات وهو فقير.

فإن كذبنا الخبر فماذا يتقاضانا تكذيبه من جهد للعقل واعتساف للتفكير والتخمين؟

إن كذبناه وجب أن نعتقد أن أبا بكر رضى الله عنه قد أجاب النبى عليه السلام بغير الحق، وأنه يتجافى صدق المقال فى أقمن المواضع بصدق المقال، فلو جاز أن يكذب على كل إنسان لما جاز أن يكذب على الرجل الذى صدقه، وخاطر بالمال والبنين والحياة فى سبيل تصديقه. فمن الذى يقبل هذا الفرض ولا يرى أن كل فرض دونه أدنى إلى القبول؟

ومن الذى يعقل ثم يخيل إليه أن العقل يميل به إلى هذا التكذيب ولا يميل به إلى ذلك التصديق؟

ونقول: إن هذا جائز لنتمادى مع التفيهق إلى أقصى مداه فما الذى يتقاضانا جوازه مرة أخرى من جهد واعتساف؟

يتقاضانا أن نقبل شيئًا يقرب من المستحيل.

إن الرجل الذى يجترئ على الكذب فى هذا المقام لا ينطبع على الصدق، ولا يخفى كذبه على الناس، فكيف به وهو مشهور بالصدق فى كل ما قال، والوفاء بكل ما وعد؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق فى شئون الضمان والمغارم، وهى شئون لا يخفى التدليس فيها إلى زمن طويل؟ وكيف به وهو مشهور بالصدق قبل أن يدين بالدين الذى يحضه عليه؟ أيجوز أن أكذب الكاذبين، بأمر الدين وبغير أمر الدين، يشتهر بأنه أصدق الصادقين؟

تصديق هذا غفلة أدعى إلى السخرية من كل غفلة! ولا سيما إذا لجأ الإنسان إليها فرارًا من القول بأن إمامًا شبيهًا بالأنبياء يصوم أيامه ويعود مرضاه ويعطى مسكينا كسرة من الخبز، وهو قد أعطى الألوف وأنقذ المعسرين وضمن من ليس له ضمان.

وعلى هذا النحو نتوخى التصحيح والترجيح فيما نأخذ به من أوصاف هؤلاء العظماء. أقرب المقاييس إلينا أن يكون تكذيب الوصف أصعب من تصديقه فى تقدير العقل والبديهة، وفيما نعهده اليوم من حقائق هذه الأوصاف.

وكذلك أوصاف الصديق كما نقلها الناقلون وكما يفهمها اليوم الفاهمون؛ فإن الأقدمين ذكروا أوصافًا متفرقة لم يقصدوا أن نجمعها نحن، ولا قصدوا بعد جمعها أن نعرضها على علم النفس ووقائع الحياة، كما وضحت لنا بمصباح العلم الحديث.

ولكننا جمعنا تلك الأوصاف وعرضناها على علم النفس فوجدنا بينها ذلك التناسب الذى يقضى بتصديقها، وينفى الظنة عن استقامتها فى جملتها.

فأبو بكر كما وصفوه رجل لا محالة من أصلاء المزاج العصبى النابتين فى منبت الشرف والمروءة وقد قالوا: إنه كان يجود بماله، ومثل هذا الرجل خليق أن يجود بماله، وقالوا: إنه

يحتد ويعطف، ومثل هذا الرجل معهود فى حدته وعطفه، وقالوا: إنه يروض نفسه على السمت[1] والكرم، ومثل هذا الرجل لا يستغنى عن هذه الرياضة ولا يعجز عنها، وقالوا: إنه يشتد فى اعتقاده، وليس فيما شهدناه وخبرناه أشد من اعتقاد مثله.

قالوا ذلك فلم يقولوا عجبًا ولم يقل أحد ما ينقضه وينفيه وله حجة فيه.

فإذا كانت للعقل أمانة فالأمانة فى تقرير هذه الأوصاف كما فهمناها بالاستقراء وكما رواها الرواة فى مجمل الأنباء، وإذا كانت للعقل مهانة فمهانة العقل أن نعطله عن فهم حقيقة ماثلة، لغير شىء من الأشياء.

---

(١) السمت: الاعتدال والوقار.

مفتاح شخصيته

كان أبو بكر كما رأينا رجلا عصبى المزاج دقيق البنية، خفيف اللحم صغير التركيب.

تكوين يغلب على أصحابه أحد أمرين: إن كانوا من كرام النحيزة[1] فهم مطبوعون على الإعجاب بالبطولة، والإيمان بالأبطال.

وإن كانوا من لئام النحيزة فهم مطبوعون على الحسد والكيد، وهما ضرب من الإعجاب المعكوس يؤدى إليه انعكاس الطبيعة، والإحساس بالعظمة فى غير معاطفة بينهم وبينها ولا ارتياح إليها.

فالحسد هو إعجاب اللئيم عند شعوره بالعظمة، أو هو التحية التى يؤديها اللئيم إلى العظمة حسبما عنده من التواء وارتكاس[2].

ولهذا يصح أن يقال: إن أصحاب البنية الدقيقة والمزاج العصبى مطبوعون على الشعور بالعظمة على حال من الأحوال، فإن كانوا كراما شعروا بها مغتبطين مؤيدين، وإن كانوا لئاما شعروا بها محنقين مثبطين، ويندر فيهم جدًّا من يشذ عن هذه أو تلك من الخصال.

ولقد كان أبو بكر رجلا كريمًا أليفًا من أهل الخير والمودة؛ فلا جرم كان الإعجاب بالبطولة طبعًا متأصلا فيه؛ مقرونًا بكل ما فى الإعجاب من حب وثقة وإيمان؛ ولا جرم كان هذا الإعجاب «مفتاحًا لشخصيته» مفسرًا لكل ما يلتبس من أعماله؛ مميزًا لكل ما يتشابه بينه وبين غيره من الصفات.

قلنا فى كتابنا عن «عبقرية عمر»: إن مفتاح الشخصية «هو الأداة الصغيرة متى تفتح لنا أبوابها؛ وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها؛ وهو كمفتاح البيت فى كثير من المشابه

---

(١) النحيزة: الطبيعة.

(٢) ارتكس: وقع فى أمر.

والأغراض. فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التى قد تحملها فى أصغر جيب، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق».

وقلنا: «وليس مفتاح البيت وصفًا ولا تمثيلا لشكله واتساعه، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها، ولا تزيد».

فشخصية الصديق لها مفتاح قريب المتناول وهو هذا المفتاح: مفتاح الإعجاب بالبطولة.

وهذا الإعجاب بالبطولة هو الوَسْم الذى يتسم به كل عمل من أعماله وكل نيَّة من نياته، وهو السر الذى نراه كامنًا فى كل رأى يرتئيه وكل قرار حاسم يستقر عليه.

والإعجاب بالبطولة فى التاريخ الإنسانى شىء عظيم، ليس بعد البطولة منزلة يشرف بها الإنسان أشرف من منزلة الإعجاب بها والركون إليها. لأن الفضيلتين معًا لا زمتان جنبًا إلى جنب فى كل أمر جليل ثم فى تاريخ الإنسان، وكل طور من أطوار التقدم ارتقى إليه.

وليقل أصحاب التحليل العلمى ما يشاءون.

وليقل أصحاب القياس المنطقى ما يحبون.

فشاءوا أولم يشاءوا، وأحبوا أو لم يحبوا، لقد تم بغير التحليل العلمى وبغير القياس المنطقى كثير من العظائم فى تاريخ الإنسان، ولم يتم قط - ولن يتم فيما نرى - أمر عظيم واحد بغير البطولة وبغير الإعجاب بالأبطال.

لها برهانها من الواقع كبرهان الأقيسة المنطقية والتجارب العلمية. فالرجل الذى ينهض له البرهان النفسانى على الثقة ببطل من الأبطال فيثق به ويعينه على عمله ليس بالرجل الذاهب على غير هدى أو الآخذ بغير دليل. كلا. فعمله ونتيجة عمله كلاهما برهان يغنيه عن مصنع التحليل وعن قضايا المنطق، ويغنى العالم كذلك عنها إذا نظرنا إلى العمل ثم نظرنا إلى النتيجة، ونظرنا قبل هذا وبعد هذا إلى طبائع الإنسان.

خذ لذلك مثلا حديث الأعاجيب التى سمعها أبو بكر فى أيام الدعوة المحمدية

فصدقها لأنه يصدق صاحبها ويركن إليه.

هبة قد ثاب إلى معمل التحليل فقال له المعمل إنه لم يسمع بأمثال هذه الأعاجيب، وليس لديه مسبار لها يصلح للتأييد أو التفنيد.

وهبة قد ثاب إلى قضايا المنطق فقالت له إنها لا تعرف هذه الأقيسة ولا هذه المقدمات ولا هذه البراهين.

وهبة قعد في مكانه بعد هذا وذاك، لأن معمل التحليل لاينشط به إلى الحركة في هذا الطريق، ولأن قضايا المنطق لاتزجيه إلى الجهاد في هذا الميدان - أفكاسب هو إذن؟ أفعاقل هو إذن؟ أفحق ما انتهى إليه وما انتهت إليه الجزيرة العربية من جراء سكونه وإحجامه؟

إن الجزيرة العربية لا تربح شيئًا بذلك التمحيص المزعوم، وإن العالم الإنسانى لا يزيد عقلا ولا علمًا ولا تحليلا ولا قضايا منطق بذلك الإحجام الذى استقر عليه، وإن أبا بكر لن يكون خيرًا من أبى بكر، والدنيا لن تكون خيرًا من الدنيا، والتفكير لن يكون خيرًا من التفكير، بل كل من أولئك فاقد وخاسر ومنقوص.

وقصارى ما فى الأمر أن رجلا شك فلم يعمل شيئًا، ولم يدر أحد بأنه شك ولا بأنه لم يعمل، ولم ينتفع عقل الإنسان بما كان.

أفيفهم فاهم من هذا أننا نقول: إن العمل على خطأ خير من الشك على صواب؟

كلا!.. ليس هذا ما نقوله، وليس هذا ما نحن مضطرون إلى قوله بضرورة من الضرورات.

وإنما نقول: إن الشك إذن هو الخطأ، وإن برهان خطئه نفسانى يقام له وزنه كما يقام الوزن التحليلى العلمى والقضايا المنطقية، وإنما الخطأ أن تحوج البطولة إلى الدخول فى المعمل لتثبت لك قدرها، وتثبت لك حقها فى الإعجاب، وحقها فى العمل، وحقها فى تحويل تاريخ الإنسان ثم تثبت لك قدرتها عليه!

ليس المعمل محل هذا.

محل هذا نفس الإنسان.

وساءت الدنيا إن كانت نفس الإنسان لا تغنيه فى تقويم النفوس، ولا سيما أعظم النفوس.

أفلا يروعنى البطل إلا من خلال الأنابيق والأنابيب؟

أفلا تملكنى نخوة الإعجاب إلا بوثيقة من إيساغوجى؟

أفيروقنى الطائر المنطلق فأعلم لم يروقنى، ويتراءى لى الروح العظيم فأقول: مكانك حتى أرجع إلى مائدة التشريح أو إلى قارورة الكيمياء؟!

ما قال ذلك قائل قط أمام روح عظيم.

والسبب واضح مستقيم.

السبب أن الروح العظيم كان قبل أن تكون مائدة تشريح وقارورة كيمياء، وأن الإنسانية ألهمت خيرًا ألا تؤجل الإعجاب بكل روح عظيم إلى أن يظهر المشرحون والمحللون.

ليظهروا «على مهلهم» ولتأخذ العظمة الروحية حقها من الإعجاب قبل إذْنهم، فلا مناقضة للعلم ولا للمنطق فى ذلك. إنما المناقضة أن نعلق دوافع النفوس وبواعث الفطرة على شىء لا تتعلق به ولا تتوقف عليه، وأن نخطىء الواقع ثم نخطىء الواقع الصالح ولا سند لنا أوثق من الواقع على كل حال، ولا شفاعة عندنا أكرم من شفاعة الواقع الصالح فى كل مآل.

أفيقولون إن البديهة قد تخطىء فى الإعجاب؟

قد يخطئ ولا جدال.

ولكن كذلك يخطئ العقل، وكذلك تخطئ التجربة، وكذلك تخطئ العلوم وتمضى فى خطئها مئات السنين. ولم يقل أحد إن قبولها للخطأ ينفى قبولها للصواب، ولا ينسى أحد أنها إذا أخطأت مرة فلها امتحان من العواقب يأبى على الخطأ أن يدوم.

على أن تمحيص القضايا المنطقية أو العلمية شىء وتمحيص الشمائل النفسية شىء

آخر. وربما كانت وسائل الصديق أقل من وسائل المحللين والمشرحين فى العصر الحاضر فى باب القضايا المنطقية أو العلمية. أما فى باب الشمائل النفسية فوسائله ليست بأقل من وسائلهم بحال، وقدرته على أن يحس من حوله عظمة النفس الإنسانية ليست بأقل من قدرة أحد من المحللين والمشرحين.

وهو قد قال: هذه نفس عظيمة لا شك فى عظمتها، فالخير فى متابعتها، إن لم يكن بد من افتراق الطريق بينها وبين أعدائها.

وهو فيما قال قد أصاب.

أصاب منطقاً وأصاب علماً وأصاب حسًّا وأصاب بكل مقياس من مقاييس الصواب.

هو فيما قال أصوب ممن يخالفه رأياً، ولو استند إلى كل حجة من حجج التحليل والتشريح.

وهاديه فيما اهتدى إليه هو إعجابه بالبطولة.

وهو إعجابه بالبطولة التى تستحق الإعجاب، لأن الإعجاب طبقات تتفاوت، كما أن البطولة نفسها طبقات تتفاوت. وقد كان هو من طبقات هذا الإعجاب فى أرفع مكان.

لأنه لم يعجب ببطل تروعه منه سطوة العتاة المتجبرين، ولم يعجب ببطل تروعه منه مظاهر الزخرف والخيلاء، ولم يعجب ببطل تروعه منه جلبة الصيت الفارغ والمواكب الجوفاء، ولم يعجب ببطل يزدهى بالوفر والثروة أو بالعصبة أولى القوة.

لا، لم يكن شىء من هذا هو الذى راعه من بطولة محمد عليه السلام، لأن محمداً عليه السلام لم يكن ذا سطوة، بل كان عرضة للأذى من المسلطين عليه. ولم يكن من أصحاب الزخرف والخيلاء بل كان أعداؤه هم أصحاب الزخرف والخيلاء، ولم يكن وراءه أحد يتبعه ولا معه مال يصل به من يصل إليه، بل كان وحيداً يطرده الأكثرون، فقيراً يعينه الموسرون، وأولهم أول صديقيه والمقبلين عليه.

إنما البطولة التى أعجب بها أبو بكر هى البطولة التى ليس أشرف منها بطولة تعرفها النفس الإنسانية: هى بطولة الحق، وبطولة الخير، وبطولة الاستقامة. وهى بعد هذا،

وفوق هذا، بطولة الفداء - يقبل عليها من أقبل وهو عالم بما سيلقاه من عنت الأقوياء والجهلاء.

تلك هى بطولة محمد.

وذلك هو إعجاب الصديق. خير لبنى آدم أن يبقى لهم هذا الإعجاب من أن يزول ويبقى بعده كل شيء، وأى شيء!

* * *

ولقد أجدى ذلك الحق الكريم أكبر جدواه، لأنه تهيأ له بسليقته ونشأته وتوشج تركيبه عليه.

فظهر منه فى إيمان القلب، وروية الفكر، وفى سياسته العامة، وفى سياسته الخاصة، وما تشتمل عليه من أدب سلوك وعلاقة بالناس.

أحاط به أناس من المشركين يتهكمون به ساخرين عابثين: هل لك إلى صاحبك؟ إنه يزعم أنه أسرى به الليلة إلى بيت المقدس!

وكان أناس قد ارتدوا بعد إسلام لما سمعوا بحديث الإسراء ولم يتبينوه. فأما أبو بكر فما زاد على أن قال: أو قد قال ذلك؟ لئن قال ذلك لقد صدق!

فغاظهم منه أنهم لم يبلغوا منه موقع التشكيك فيما أربى عندهم على حدود التصديق، وعادوا يسألونه: أتصدق أنه ذهب الليلة إلى بيت المقدس وعاد قبل أن يصبح؟

قال: نعم! إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء فى غدوة أو روحة. ثم ذهب إلى النبى عليه السلام فطفق يسمع منه ويصدقه ويقول: أشهد أنك لرسول الله.

وهذا هو البرهان النفسانى كما دعوناه، وهو برهان لا خلل فيه من وجهته التى يستقيم عليها، وإن لم يكن هو البرهان الذى تعوده المناطقة والعلماء.

وهنا موضع صالح للتفرقة بين هذه البراهين فى ظواهرها، وللتوفيق بينها فيما تنتهى إليه من نشدان الحقيقة الكبرى.

إنى لأصدقه فيما هو أبعد من ذلك من خبر السماء.

وفحوى ذلك: إنى لأصدقه لأنه أهل التصديق.

هذا هو أساس الإقناع فى منطق الإعجاب والإيمان. فإن كان للمنطق أو للتجربة العلمية أساس آخر، فليس معنى ذلك أن الأساسين متناقضان متدابران، وإنما معناه أنهما نحوان مختلفان.

ولكننا إن فرضنا مع هذا أنهما قد تناقضا وتدابرا فليس الخطأ إذن فى جانب الصديق، ولكنه على التحقيق فى جانب العالم أو المنطيق.

إن قال العالم أو المنطيق: إننى لا أصدق حديث الإسراء ولهذا أبطل الدعوة الإسلامية وأبطل قبلها العظمة المحمدية، فهو المخطئ فى برهانه وهو الذى تعدى به حدود قياسه.

لأنه نظر إلى المسألة فى غير جانبها الذى ينظر إليه، من حيث كان أبو بكر على صواب كل الصواب فى نظرته إليها من جانبها الأوفى، أو جانبها الذى هو مناط التأييد والإنكار.

أبو بكر يأخذ النفس العظيمة مأخذاً واحداً، ويصدق الخبر فيها جملة واحدة، ولا يجزئها قطعة قطعة وخبراً خبراً، فيبطلها كلها بخبر من أخبارها وجزء من أجزائها.

وأبو بكر ينظر إلى المسألة فى أساسها فيطمئن إليها عند ذلك الأساس ويبنى عليه كل ما فوقه من الإضافات والمزايدات، والمسألة فى أساسها هنا هى مسألة الصلاح والفساد، ومسألة التوحيد وعبادة الأصنام، ومسألة المقابلة بين الأخلاق الجاهلية والأخلاق التى تأمر بها الدعوة المحمدية، ومسألة الثقة بالمقاصد العظيمة والمساعى الكريمة، أو الثقة بالجهل الشائع والعادات الذميمة.

فإذا كان أبو بكر قد نظر إلى هذا الأساس فهو المصيب.

وإذا كان العالم هو والمنطيق لم ينظرا إليه فهما المخطئان، وهما المقيمان للقياس على غير أى أساس قويم. إذ كان خليقاً بهما أن ينظرا إليه ولا يغفلا عنه وهو أولى بالتقديم والاعتبار، سواء أخذناه بالإحساس والإيمان، أو بالتجربة وبالتفكير.

ترى لو مثل العالم والمنطيق والصديق أمام عرش «الحق» السرمدى بعد ذلك اليوم

بعشر سنين فسألهم فأجابوه كل على ما أجملنا آنفاً، فأيهم كان يسخطه وأيهم كان يرضيه؟.

يمثل العالم أو المنطيق بين يدى الحق فيسأله: ماذا سمعت قبل عشر سنين؟

فيقول: سمعت مَن رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أظفر منه ببرهان.

فيسأله: فماذا صنعت بعد ذاك؟

فيقول: كذبته وصدقت المشركين، ثم نقضت الدعوة الإسلامية وبقيت حتى اليوم على سنة الجاهلية.

فما يختلف اثنان إذن فى الجواب الذى يلقاه ذلك العالم أو ذلك المنطيق، ليقولن الحق له إذن: إنك أخطأت وخالفت العلم والمنطق فيما صنعت لأن تلك المقدمة لا تنتهى بك إلى تلك النتيجة، وحديث الإسراء على أى معنى فهمته لن يجعل النفس العظيمة لغوًا، ولن يجعل عملها العظيم مستحقًّا للإبطال.

ويمثل الصديق بين يدى الحق فيسأله: ماذا صنعت قبل عشر سنين؟

فيقول: سمعت من رأى أنه أسرى من مكة إلى بيت المقدس فلم أشك فيما رآه.

فيسأله: ولم لم يخامرك الشك فيه؟

فيقول: لأننى صدقته فى أمر السماء، فما يكون لى أن أكذبه فيما دون ذلك.

فيسأله: فلم صدقته فى أمر السماء؟

فيقول: لأننى أعتقد فيه الخير ولا أعتقد فيه السوء، ولأننى أعتقد السوء فى منكريه ولا أعتقد فيهم الخير.

ليقولن الحق له إذن: إنك أصبت وتأديت إلى التصديق من طريق صالح للتصديق، ووافقت المنطق والعلم أخيراً وإن لم تأت معهما فى الطريق وإن هذه السنين العشر لتشهد لك بصدق الوعى ولا تشهد به لمن خالفوك: أخذت فى المنطق والعلم بالنتيجة ولم تبال بالمقدمة، وأخذ المخالفون إياك بالمقدمة ولم يبالوا بالنتيجة. فأنت فى سبيلك أهدى وأنت إلى المنطق والعلم أقرب وأدنى.

أفيفهم فاهم من هذا أننا ندين بقول القائلين: إن النجاح هو برهان الصلاح؟

كلا! ليس هذا ما ندين به، وليس هذا بالذى يقتضيه ما قدمناه، وكل ما هنالك أننا نقرر حقيقة لا شك فيها حين نقول: إن أبا بكر كان أفهم للعظمة المحمدية ممن أنكروها لأنهم شكوا فى حديث الإسراء، وإن المنطق والعلم لا يقضيان بمحاربة الدعوة المحمدية كائناً ما كان فهْم الفاهمين لحديث الإسراء. فإن قال قائل: إن المنطق والعلم يقضيان بذلك فهو يظلم المنطق والعلم فيما ادعاه عليهما بغير برهان؛ وهو الذى يخالف البرهان النفسانى فى آن.

ولا حاجة بنا هنا إلى إلغاء البراهين العلمية أو البراهين المنطقية، وإنما حاجتنا كلها ألا نلغى البراهين النفسانية. لأنها قد تتناول العظائم الإنسانية فى عمومها فينطوى فيها العلم والمنطق معاً، وتأتى الأيام بعد ذلك بتفصيل هذا الإجمال وتوضيح هذا الإبهام.

يقول قائل: وما مرجعنا فى البراهين النفسانية؟ أنصدق كل من يدعيها؟ أنأخذ بها حيثما رأيناها؟ أندين بالإعجاب حيثما هتف هاتف بإعجاب؟ فأقرب ما عندنا من جواب أن عظمة النفوس مستحقة للإعجاب كما يستحقه جمال الوجوه.

فماذا عسانا قائلين لمن يسألنا: وما مرجعنا فى جمال الوجوه؟...

لا حاجة هنا إلى مرجع، ولا فائدة فى المرجع إن وجدناه.

فجمال الوجوه لا يتوقف على مرجعه الذى نسهب أو نوجز فى توضيحه.. وعظمة النفوس من باب أولى قائمة فى الدنيا بغير مرجعها الذى نسوقها إليه، ولا خوف عليها من قلة المراجع عندنا، فهى تأتى حين تأتى بآياتها وبراهينها، وحيثما ظهرت عظمة مُعجبة ظهر لها صديقون معجبون، وأقبل عليها مقبلون وأعرض عنها معرضون، ولن ينفعها المرجع شيئًا إن لم يكن فيها ما يغنيها عنه.

وقد كان فى وسعنا أن نجتزئ بهذا ولا نزيد عليه. ولكننا نود أن نستريح بالعقل إلى سند ما أمكننا أن نريحه. فغاية ما نستريح بالعقل إليه فى هذا الصدد مأخوذ من كلام الصديق نفسه رضى الله عنه. وذلك إذ يقول: «إن خير الخصلتين لك أبغضهما إليك».. فالدعوة التى تزين لنا ما نستنيم إليه ليست بدعوة عظيم، والدعوة التى ترفعنا فوق

أنفسنا وتنهض بنا إلى ما يشق علينا، هى الدعوة العظيمة فى أصدق مقاييسها، وهى التى تفرحنا بالواجب ولا تفرحنا بالهوى، وحسبها ذلك «برهانًا نفسانيًّا» لا نهتدى إلى خير منه، فكل ما عظم بنا فقد كلفنا ما يشق علينا، وانتقل بنا إلى طور فوق طورنا، فإن كنا على استعداد لهذا الانتقال مالت إليه نفوسنا كما يميل الجسم إلى النمو وإن كان نموه ليكلفه عنتًا عند الولادة، وعنتًا عند التسنين، وعنتًا عند المراهقة، وعنتًا عند بلوغه سن الرشد والاستقلال.. وإن لم نكن على استعداد كرهناه وحسبنا الراحة فى كراهته، وهى فى الحقيقة داء يمنع النماء.

مرجع «البرهان النفسانى» الصادق فى تقدير العظمة أنه سبيل الفداء فى طريق النماء، وكل ما تركنا كما نحن أو تحدَّر بنا دون ما نحن فيه فبينه وبين العظمة حجاب، وليس له من ضمائر النفس برهان.

بهذا البرهان النفسانى واجه أبو بكر مسألة الدعوة المحمدية من حيث تنبغى مواجهتها، ونظر إليها من جانبها الأصيل الذى تنحصر فيه النظرة الأولى؛ أمحمد إمام خليق بالاتباع؟ أهو بطل جدير بالإعجاب؟ إن كان كذلك فهو معجب به متبع إياه، وإن لم يكنه فلا إعجاب ولا اتباع... وكل ما وراء ذلك فضول وانحراف عن الجانب الأصيل.

ومحمد بطل جدير بإعجابه، إمام خليق باتباعه، فامتلأ به إعجاباً ولازمه اتباعا، وعرف طريق الخير من بداءة الأمر أنه أشق الطريقين، وعوده كرم النحيزة من قبلُ أن المجد تكليف وجهد، وأن الحق صبر وجهاد، فكانت سُنَّته فيهما أن يحمل المغارم وأن يأخذ بيد المهيض، وأن يجور على نفسه وفاء بحق غيره، فلم تطرقه الدعوة الإسلامية من باب غريب، ولم يصادفه الجهاد للدين على غير تأهيب وتدريب، بل زاده يقيناً من طبعه واستواء على نهجه، وجعله فى صدر هذه الدعوة مثل الإعجاب والإيمان، وأبرزه للأجيال عنواناً «للشخصية» التى يبلغ بها الولاء للبطولة ذروة مجدها وغاية تمامها، ويستخرج منها كوامن قواها وأحاسن مزاياها، ويستقيم بها على سوائها، ويرتقى بها إلى سمائها، فهو هو أبو بكر فى تصديقه وولائه على أحسن ما يكون.

وهو هو الصديق.

برهانه فى تصديق الغيب كبرهانه فى تصديق الشهادة لأن المرجع فيه إلى شخص القائل لا إلى الشىء الذى يقال.

فلما ارتد بعض المسلمين من حيث الإسراء بالنبى إلى بيت المقدس قال أبو بكر قولته تلك: إنى آمنت به فى أمر السماء فلم لا أومن به فيما دون ذلك؟

ولما تشاور المسلمون فى صلح الحديبية رضى مَن رضِىَ وأبى من أبى؟ وظهر هنا منطقان متقابلان: منطق عمر بن الخطاب يقول: إننا على الحق فلمَ نعطى الدنية؟ ومنطق أبى بكر يقول: إنى أشهد أنه رسول الله فلم لا أتبعه فيما ارتضاه؟.

ولما اختلف المختلفون فى بعثة أسامة كان أمام أبى بكر خطط متعددات يختار منها ما يشاء: منها أن يحتفظ بالجيش لحراسة المدينة، وأن يحتفظ به لحرب أهل الردة، وأن يبعث به إلى العراق ترصداً للفرس المنذرين بالإغارة، وأن يبعث به حيث أراد رسول الله، وإن قال بعض القائلين: إن الحال قد تبدل، وإن المقام يؤذن بالمراجعة فيما أراد. فشاء أبو بكر الخطة التى شاءها محمد، وأبى أن يأذن فيها بمراجعة أو تبديل.

ولما جاءوا بالأعطية يقسمونها كانت التفرقة بين الأقدار أدنى إلى التصرف، وكانت التسوية بين الأقدار أدنى إلى الاتباع. وكان عمر يقول: أنعطى من حارب الرسول كما نعطى من حارب مع الرسول؟ وكان أبو بكر يقول: أنؤجرهم على إيمانهم فنعطيهم بمقدار ذلك الإيمان؟ فكان عمر عنوان التصرف وكان أبو بكر عنوان الاقتداء.

ومن أصالة الإعجاب بالبطولة فيه أنه كان مثلا فى أدب الملازمة وقدوة فى أصول المصاحبة، وكان بفطرته خبيراً بالمراسم التى نسميها اليوم «بالبروتوكول» لأن أدبه فى توقير العظمة أدب الطبع الذى يهتدى من نفسه بدليل.

انظر إليه وهو يستأذن أسامة فى استبقاء عمر بن الخطاب!

انظر إليه وهو يأبى إلا أن يركب أسامة وهو يشيعه سائراً على قدميه!

انظر إليه وهو ينادى بنته عائشة: يا أم المؤمنين!

هو فى كل أولئك المعجب المؤدب بأدب المصاحبة، الخبير بمراسم المعاملة، الذى يدرى بوحى نفسه كيف يكون التعظيم، وكيف يكون السلوك وكيف تصان حقوق المراتب والدرجات.

قيل: إنه كان إذا قدم على الرسول وفود القبائل علمهم كيف يسلمون وكيف يتكلمون بين يديه عليه السلام.

وكان عليه السلام يومًا فى المسجد قد أطاف به أصحابه إذ أقبل على بن أبى طالب فوقف فسلم ثم نظر مجلساً والتفت عليه السلام يرى أيهم يوسع له، وكان أبو بكر على يمينه فأسرع فتزحزح عن مجلسه وهو ها هنا يقول: يا أبا الحسن! فبدأ السرور فى وجه النبى، وقال: «يا أبا بكر، إنما يعرف الفضل لأهل الفضل ذوو الفضل»

وكأنما خلق أمينًا لسر، فما تعوزه صفة واحدة من صفات الأمناء للعظماء الذين يعجبون بهم ويغارون عليهم، ومنها هذا الأدب، ومنها قلة الكلام، ومنها الكتمان عنهم فى خاصة شئونهم، وكان أبو بكر فى كتمانه عن النبى يتصدى للملام ولا يبوح بكلام.

تأيمت حفصة بنت عمر فعرضها على عثمان ثم على أبى بكر، ثم خطبها النبى عليه السلام.

قال عمر: «فقال عثمان: سأنظر فى أمرى، فلبث ليالى ثم لقينى فقال: قد بدا لى ألا أتزوج يومى هذا. ولم يرجع إلىّ أبو بكر شيئاً، فكنت أوجد عليه منى على عثمان، فلبثت ليالى ثم خطبها رسول الله صلى الله عليه وسلم فأنكحتها إياه.. فلقينى أبو بكر فقال: لقد وجدت علىّ حين عرضت علىّ حفصة فلم أرجع إليك شيئاً ؟ قلت: نعم! قال: لم يمنعنى أن أرجع إليك فيما عرضت علىّ إلا أننى كنت علمت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد ذكرها، فلم أكن لأفشى سر رسول الله، ولو تركها رسول الله قبلتها.

فهو فى هذا الكتمان قد جرى على خير سنة يجرى عليها أمناء الأسرار! أشفق أن يذيع سر الرسول عليه السلام فيبدو له فى العدول، فتكون فى ذلك ملامة فآثر هو أن يلام على أن يعرض صاحبه لملام.

ومع هذا الكتمان وهذا الكلام النزر كانت له خبرة بكياسة القول هى القدوة العليا لمن جبلوا على مخاطبة العظماء. فسأل رجلا يحمل ثوبًا: أتبيعه؟ فأجابة: لا عافاك الله.. قال: هلا قلت وعافاك الله!!

تلك نفس ملكتها شمائل الوقار والتوقير، وامتزجت بها سليقة الإعجاب والتعظيم،

حتى فاضت على جوارحها، وسرت مرتجلة إلى جميع حالتها، فهى هنالك تستشفها فى بواطن الضمير، وتلمسها فيما ظهر من الأعمال والمعاملات، وتتلقاها من خلجات الذهن وبوادر اللسان. وهى هنالك مفتاح الشخصية كلها تنفذ بنا إلى خفاياها، وتفتح لنا ما استغلق من أسرارها وتميز لنا بين خصائصها وخصائص الأنفس التى تناظرها فى المقام، وتخالفها فى المزاج والتركيب.

لقد كان عمر بن الخطاب معجبًا بمحمد غاية إعجابه محبًّا له غاية محبته ولكن «الإعجاب بالبطولة» كان صفة من صفاته ولم يكن صفته الأولى التى تغلب على جميع الصفات، وخليقته الشاملة التى تنطوى فيها جميع الخلائق. فإذا قضى حق الإعجاب بقيت له بقية للمناقشة والمراجعة، واستطاع أن يجمع بين التوقير والاستفسار والتفسير، فكانت له طريق إلى الإيمان تصاحب طريق الإعجاب، وتنتهى معها إلى مثل نهايتها آخر المطاف.

أما أبو بكر فقد كان الإعجاب أقرب طرقه إلى الإيمان، وأكبرها على السواء. وهما بعد هذا وذاك ملتقيان.

فإذا كان عمر ثانى المتصرفين بعد نبيه وأستاذه وهاديه، فأبو بكر أول المقتدين بغير سابق، وبغير نظير.

وهما بعد قرينان يتقابلان فى كل حركة من حركات التاريخ، وكل ظاهرة من ظواهر الأمم، ولا سيما فى إبان الدعوات.

نموذجان

النموذجان المتقابلان فى الملكات والأخلاق ظاهرة معهودة فى كل أمة، ولا سيا خلال النهضات التى تبرز فيها كوامن الملكات وتمتحن فيها حقائق الأخلاق.

وعهد التاريخ بها فى شئون الضمير كعهده بها فى شئون المعرفة والحكمة، أو فى شئون السياسة والتشريع، أو فى كل شأن له أثر بين فى أعمال الناس.

فاصطلح النقاد على تسمية هذين النموذجين فى المعرفة والحكمة بالنموذج الأفلاطونى نسبة إلى أفلاطون، والنموذج الأرسطى نسبة إلى أرسطا طاليس، أو النموذج الذى يتمثل فى النظريات ويتعلق بما وراء الطبيعة، النموذج الذى يتمثل فى التجربة والمشاهدة ويتعلق بالطبيعة وظواهرها المحسوسة.

وفى الأدب والفن يوجد المثاليون عشاق المثل الأعلى، والواقعيون طلاب الواقع الذين يأخذون الدنيا كما هى، ويصفون الناس على ما هم عليه.

وفى السياسة محافظون ومجددون، وفى التشريع حرفيون ومعنويون، وفى العقيدة أو فقه العقيدة مقتدون ومجتهدون، وفى ميول الناس ومشاربهم عاطفيون وعقليون، وأصحاب أثرة أو أصحاب إيثار.

وليس المقصود بالنموذجين المتقابلين هنا تقابل الضدين اللذين يتناقضان كما يتناقض الصواب والخطأ، والخير والشر، والعلم والجهل، والهدى والضلال.

ولكن المقصود هو التقابل الذى يتمم فريقًا بمزايا فريق ويعين قوة نافعه بقوة أخرى تكافئها، ويزدوج فى عناصر الأمة كما يزدوج الجناحان اللذان يستقل بهما الطائر، ولا يستقل بفرد جناح.

هذان النموذجان معهودان، لا زمان.

معهودان على الخصوص حيثما نهضت أمة من الأمم بجميع قواها، وجميع مزاياها، وجميع ما فيها من عدد الأهبة والحيطة وبواعث الإقدام والإحجام.

ولازمان فى النهضات على الخصوص حيثما تقدمت النهضة فى طريقها واحتجب عنها إمامها وهاديها، وأصبح لزامًا بعده أن تتقابل القوى، وتتعاون الجهود.

ومن تمام الدعوة المحمدية أنها كشفت هذه النماذج المتقابلة فى الأمة العربية بين عشية وضحاها فإذا الأمة العربية كلها كأنما هى حشد مستعد بكل عدة، متزود بكل زاد.

ظهر فيها أقطاب الشجاعة وأقطاب الدهاء، وظهر فيها المقدمون والمتحذرون، وظهر فيها الخياليون والعمليون، وظهر فيها كل طرف وما يقابله من طرف يوازنه ويستند إليه.

وبين هذه النماذج كلها ظهر نموذجان من الطراز الأول، يوشك أن يجتمع فيهما كل ما تفرق فى غيرهما من الملكات والشمائل والميول.

نموذجان كبيران تغيب فى أطوائهما جميع النماذج الصغار:

وهما نموذج الصديق ونموذج الفاروق.

بين هذين الرجلين العظيمين تقابل كثير الشعب متعدد الأنحاء: تقابل ينتهى إلى التجاذب والإخاء ولا ينتهى إلى التدافع والنفار، لأنهما كانا يحومان معًا فى نطاق كوكب واحد، أو نظام كوكبى واحد كما تحوم السيارات والأقمار حول شمس واحدة، هى لها جميعًا مركز أصيل لا تنفصل عنه.

وربما دخل فى وجوه التقابل بين هذين الرجلين العظيمين أكثر ما أجملناه من الفوارق التى تختلف بها نماذج الناس: العقل والعاطفة، والمحافظة والتجديد، والواقع، والمثل الأعلى، وما لا يحصى من الألوان والشيات، والأطراف والحدود.

ولكنها على تعددها واختلافها فوارق متناسبة متوافقة تقبل التلخيص فى فارق واحد يطويها من معظم نواحيها، وهو الفارق بين نموذج الاقتداء ونموذج الاجتهاد.

كان أبو بكر نموذج الاقتداء فى صدر الإسلام غير مدافع.

وكان عمر فى تلك الفترة نموذج الاجتهاد دون مراء.

وكلاهما كان يحب النبى ويطيعه ويحرص على سنته ويعجب به غاية ما فى وسعه من إعجاب.

ولكنهما فى ذلك طريقان يتوازيان، وإن كانا لا يتناقضان ولا يتحدان.

وإن بينهما فى ذلك لفرقًا لطيف المأخذ، عسير التمييز، نحاول الإيضاح عنه جاهدين، ونرجو أن نبرزه بأوفى ما يستطاع له من إبراز، ونحسب أننا موفقون حين نقول: إن تقديم وصف على موصوف يكفى فى الإبانة عن هذا الفرق الدقيق الذى لا ينفسح حتى يتسع لأكثر من هذا التفريق.

فأبو بكر كان يعجب بمحمد النبى.

وعمر كان يعجب بالنبى محمد.

ونزيد القول إيضاحاً فتقول: إن حب أبى بكر لشخص محمد هو الذى هداه إلى الإيمان بنبوته وتصديق وحيه.

وإن اقتناع عمر بنبوة محمد هو الذى هداه إلى حبه والولاء له، والحرص على سنته، وعلى رضاه.

ولهذا كان أبو بكر صاحبًا آمن بصاحبه الذى يطمئن إليه ويحمد خصاله، وكان عمر عدوا رده الاقتناع إلى مودة الرجل الذى كان ينكره ويعاديه.

ولهذا كان أبو بكر يطيع محمدًا فيفهم القرآن، وكان عمر يأخذ بالقرآن أو بما يفهم من مشيئة الله فيناقش محمدًا حتى يثوب إلى الفهم الصحيح.

هما قريبان جد قريبين.

ولكنهما ليسا بشىء واحد على كل ما بينهما من اقتراب.

أو هما كما قلنا فى ختام الفصل السابق: أبو بكر أول المقتدين، وعمر ثانى المجتهدين، وبذلك يتكافآن ولا نقول يتفاضلان.

نعم، يتكافآن ويتعادلان، وهذا الذى نريد أن نؤكده ونجتنب فيه سوء الفهم والتفسير.

فليست المقابلة بين هذين الرجلين العظيمين مقابلة بين قوة وضعف وقدرة وعجز عن قدرة.

كلا. هذا أبعد ما يخطر على بال أحد يدرك فضائل الرجلين العظيمين ويعرف ما لكل منهما من خلق مكين وعمل جليل.

فإن الضعف «سلبى» لا يجنى منه عمل عظيم.

وصلابة أبى بكر فى حرب الردة لم تكن صلابة «سلبية» تقول «لا» فى موضع «نعم» ولا تزيد.

ولكنها كانت صلابة تثوب إلى قوة لا شك فيها: قوة مصدرها الاقتداء. هذا لا يهم فى وصفها بالقوة وإبعادها من صفة الضعف والعجز عن القدرة... وإنما المهم أنها قوة فعالة، وأنها قوة عظيمة لا مراء.

ليست المقابلة إذن بين هذين الرجلين مقابلة بين قوة وضعف، وقدرة وعجز عن القدرة.

ولكنها مقابلة بين القوة من نوع والقوة من نوع آخر، وكلتاهما فعالة، وكلتاهما ذات أثر فى الإسلام، وفى العالم، جليل.

وليس من الضرورى اللازم أن يكون كل مقتد أقل فى الشأن والأثر من كل مجتهد برأيه، فقد يكون من المقتدين من هو أكبر وأقدر من المجتهدين، وقد يكون الاقتداء وكله خير، ويكون الاجتهاد ولا خير فيه.

ولعلنا نوضح هذه الحقيقة بالمثل المحسوس، لأنه أقرب إلى المشاهدة والإقناع.

فالمصابيح الكهربية منها ما هو أم، مستقل بمفتاحه، ومنها ما هو تابع موصول بمفتاح غيره.

ويتفق مع هذا أن يكون «المصباح الأم» أصغر حجمًا وأضعف نورًا من المصباح الذى يتبع غيره ويضىء بمفتاحه، وهما أقرب مثل محسوس للاجتهاد والاقتداء.

كذلك الكوكب الثابت والسيارات التى تدور حول غيرها، لا يلزم أن يكون كل

كوكب ثابت أصغر من كل سيار دائر، وإن تكرر هذا فى العيان وسبق إلى الأذهان.

وعلى هذا النحو كان الفرق بين الصديق والفاروق، بين أول المقتدين وثانى المجتهدين. فهو فرق بين قوة من نوع، وقوة من نوع آخر، ولا محل للضعف فى الموازنة بين هاتين القوتين.

* * *

وهناك مقابلة أخرى بين الصديق والفاروق لا تفوتنا الإشارة إليها، لأنها مقابلة أصيلة فيما تئول إليه من الصفات والآثار.

ونعنى بها المقابلة بينهما فى تكوين البِنْيَة وتركيب المزاج، وهى أيضًا مثل عجيب من أمثلة التقابل بين هذين الرجلين العظيمين.

فكان أبو بكر نموذج القوة فى الرجل الدقيق.

وكان عمر نموذج القوة فى الرجل الجسيم.

ومن عجيب المصادفات أن هذا كان غزير الشعر بين الغزارة فيه، وهذا كان أصلع، بين النزارة فيه، ليتم بينهما التقابل حتى فى الصفة التى يقتضيها اختلاف البنية بين الرجل الدقيق والرجل الجسيم.

قلنا فى كتابنا عبقرية عمر: «إن العالم الإيطالى لومبروزو ومدرسته التى تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور فى أحد من أهلها. وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة. فيكون العبقرى طويلا بائن الطول، أو قصيرًا بين القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس، ويكثر بين العبقريين من طراز جيشان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ فيكون فيهم من تفرط سورته كما يكون فيهم من يفرط هدوءه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة، فى الزكانة[1] والفراسة، وتارة فى النظر على

(١) الزكانة: الفطنة والفهم.

البعد أو الشعور على البعد، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله».

تلك جملة الخصائص العبقرية التى أجملناها من كلام لومبروزو وأشياعه، فكأنما شاء القدر أن يتفق الصاحبان فى جوهر العبقرية ويختلفا فى أعراضها اختلاف المقابلة. حتى فى غزارة الشعر ونزارته على غير ما يقتضيه هذا الاختلاف.

والمقابلة بين الصديق والفاروق فى تكوين البنية وتركيب المزاج كان لها أثر كبير فى المقابلة بين الرجلين العظيمين فى الخلائق والجهود فعمر، بما نشأ عليه من الجسامة والهيبة، لم ينشأ وله منبه من البنية ينبه أبدًا إلى وجوب التهدئة والترويض، فمضى بتلك البنية كما يمضى راكب الفرس الجموح غير متوجس من جماحه، لأنه مطمئن آخر الأمر إلى العنان.

وأبو بكر، بما نشأ عليه من الدقة والنحول، قد نشأ وله منبه إلى غوائل الحدة التى تعهد من أصحاب هذا التركيب ولا تؤمن غوائلها عليهم، فراض نفسه على التهدئة والترويض، ومضى بتلك البنية كما يمضى راكب الفرس الجموح عودها قبل الدخول فى المضمار أن تدَع الجماح، وأن تشعر بالعنان القابض عليها فى كل حين.

وهنا لا تكون التفرقة أيضًا من قبيل التفرقة بين القوة والضعف، وبين القدرة والعجز عنها، ولكنها على ما قدمنا تفرقة بين قوة وقوة تكافئها، أو بين طرازين من القدرة يتقابلان.

فلو كان أبو بكر ضعيفًا قليلا لجمحت به الحدة، ولم يعتصم من عزمه إلى كابح قدير على الكبح، فتحطم كما يتحطم الضعفاء.

ولو كان شعوره بنفسه شعور ضعف وقلة لاستقر على هذا الشعور واستكان إليه، ولم يأخذ نفسه بالسمت والوقار، ولا بمناقب السيادة والمروءة، ورضى له ولذويه بما يرضى به الضعفاء.

ولكنه شعر من نفسه بقوة يعتصم بها ويقوى على رياضتها، فكان مثلا للقدرة الرائضة والنفس المروضة كما تكون فى الرجل الدقيق النحيل.

* * *

فى حياة الصاحبين موقف من المواقف النادرة التى يظهر فيها الرجل كله، ولا يتفق فى التجارب النفسية أن يواجهها الإنسان مرتين فى حياته، وهو الموقف الذى فاجأهما بموت النبى عليه السلام.

ليس للصاحبين غير صديق واحد بمنزلة محمد عندهما من المحبة والتجلة، وهما لا يروعان كل يوم بنبأ فاجع يسوءهما كما يسوءهما نبأ موته وانقضاء عشرته والأنس بقربه. فالموقف نادر، والبلية به خليقة أن تبتلى الرجل فى كل ما ينطوى عليه من بديهة وروية.

وابتلى به عمر فغضب غضبته المرهوبة وثار بالنعاة يتوعدهم ليقطعن أيدى رجال وأرجلهم يزعمون أن محمدًا قد مات.

غضب غضبة الرجل المملوء بقوته وحميته، الذى لم ينبهه منبه قط إلى ترويض غضبه والمبالاة بعواقب ثوراته، وكأنما قام فى دخيلة نفسه أنه يستكثر حتى على الموت أن يجترى على الصديق الذى يحبه ذلك الحب، ويجله تلك التجلة، ويعتقد فيه تلك العقيدة، وينتظر حتى من الموت أن يتحامى جانب ذلك الصديق، ويرعى له حرمة لا يرعاها لسائر الأحياء.

وأبو بكر يحب محمدًا كما يحبه عمر، ويأسى لفراقه كما يأسى، ويرفعه مثله درجات فوق مقام الأحياء من قبله ومن بعده، ولكنه رجل راض نفسه وقمع حدة طبعه، وعرف الصبر على ما ليس يدفعه دافع ولا تغنى فيه حيلة، فإن كان تسليم فهذا أحق المواقف بالتسليم، وأولاها بطول ما ارتاض عليه من صبر، وما تأهب له من أسوة.

بذلك أدى كل من الرجلين ضريبة طبعه ومزاجه الذى لا معدى له عن مطاوعته والاستجابة لدواعيه.

ثم زالت الغاشية الأولى. فظهر الرجلان فى حالة القرار كما ظهرا فى حالة المفاجأة: ظهر أن عمر لم يكن ثورة كله، بل كانت فيه إلى جانب الثورة روية تفرغ للأمر فى أحرج أوقاته، وظهر أن أبا بكر لم يكن روية كله، بل كانت فيه إلى جانب الروية مطاوعة لسليقة الحب والألفة قد تشغله عن العواقب إلى حين.

فبينا هو مشتغل بتجهيز رسول الله إذا بالأنصار يجتمعون فى سقيفة بنى ساعدة

ليتخذوا لهم أميرًا دون إخوانهم من المهاجرين، وإذا عمر يتأهب للأمر أهبته، ويعاجل الخطب قبل استفحاله، ويأخذ أبا بكر من بيت رسول الله إلى سقيفة بنى ساعدة ليبايعه هناك بالخلافة.. ويتقى الحدة من أبى بكر فيهيئ فى نفسه كلامًا يصلح لذلك المقام يمهد به لكلامه. وفى بعض الروايات أنه فكر فى أمر المبايعة قبل ذلك حين لم يفكر فيها أحد من المهاجرين، وأنه شاور أناسًا وشاوروه فيما يكون بعد وفاة رسول الله. فما كانت غضبته الثائرة إلا ريثما قبض على العنان بكلتا يديه، ثم كان عنانه ذلك أطوع عنان.

كلا الرجلين العظيمين فيه روية وفيه حدة: تأتى الروية أولا أو تأتى الحدة أولا ذلك هو موضع الفارق من بوادر المزاج والتركيب، ولكن الروية هناك قائمة فى المزاجين حين تراد.

* * *

وقد نلمس هذه الجوانب المتقابلة من مزاج الصاحبين فى كل مسألة ذهبا فيها مذهبين ونزعا فيها إلى رأيين مختلفين.

من ذلك مسألة الردة، ومسألة خالد بن الوليد، ومسألة الأعطية والنوافل للمؤلفة قلوبهم ولغيرهم من عامة المسلمين.

فى كل مسألة من هذه المسائل كان كل من الصاحبين عند طبعه ومزاجه، أو عند المعهود من وصفه واستقصاء أحواله، دليل أصدق دليل على خلوص الرأى وصراحة الضمير والتوجه إلى الأمر بما يستدعيه عندهما من مقدماته وموجباته، فى غير حيد ولا انحراف عن سواء السبيل.

ففى مسألة الردة جنح أبو بكر إلى الصرامة وجنح عمر إلى الهوادة وفى ظاهر الأمر أن هذا اختلاف على غير المنظور من طبيعة الرجلين ولكن الواقع أنه لا يخالف المعهود إذا مضينا فيه إلى ما وراء الظاهر القريب.

فقد كان أبو بكر عند طبعه حين أبى أن يترك عقالا مما كان يأخذه رسول الله من فرَيضة الزكاة، وكان كذلك عند طبعه حين استثاره الاستخفاف به والجرأة عليه، كأنهم يستصغرونه ويتقحمونه، وهو الذى توقر طول حياته من مكانة من يستصغر ويتقحم، لدقة فى تكوينه وقوة فى نفسه تعاف أن تحسب عليه الدقة فى التكوين صغرًا فى المقام.

وقد كان عمر عند طبعه حين أخذ بالتصرف والاجتهاد على حسب اختلاف الأحوال؛ ووثق من مصير الأمور إلى الخير بأية حال.

* * *

أما مسألة خالد بن الوليد فقد كان السؤال فيها: هل يحاسب أو لا يحاسب؟ فكان جواب الصاحبين على حسب المعهود فيهما من مزاج وخليقة، ولم يكن منظورًا أن يقضى أحد منهما بغير ما قضاه.

قتل خالد مالك بن نويرة وبنى بامرأته فى ميدان القتال على غير ما تألفه العرب فى جاهلية وإسلام، وعلى غير ما يألفه المسلمون وتأمر به الشريعة.

أفيحاسب على هذا أو لا يحاسب عليه؟

أول جواب يبدر إلى عمر عن هذا السؤال هو المحاسبة بغير وناء. ولم لا؟ ما الذى يتقى؟ ما الذى يكون؟ إن المبالاة بعقبى حسابه ليست مما يروع عمر ويثنيه، بل لعلها مما يحفزه إلى التحدى والإسراع فيه.

أما أبو بكر فقد استشار هنا طبيعة الاقتداء، وطبيعة الإعجاب بالبطولة وطبيعة اللين والإغضاء، وهى تشير عليه بالإعفاء من الحساب أو بالإمهال به إلى حين.

فهو لا يعزل قائدًا من قواد رسول الله وسيفًا من سيوفه، وهو لا ينسى بطولة خالد وإن زل أو أخطأ التأويل، كما قال، وهو يؤثر اللين لأنه فى عامة أحواله مطبوع عليه ما لم يمسه الأمر فيما يثير.

* * *

وجاءت مسألة الأعطية فأبى أبو بكر أن يتصرف فى تمييز الأقدار وأقدم عمر على التصرف والاجتهاد.

وجاءت مسألة المؤلفة قلوبهم فأعطاهم أبو بكر متبعًا سابقة الرسول وأنكر عمر عطاءهم لأنهم كانوا يأخذون ما أخذوه والإسلام ضعيف.

فأما الآن فماذا عساهم أن يصنعوا إن لم يأخذوا؟ ما يصنعونه كائنًا ما كان لا يكرثه ولا يثنيه.

وهكذا نستقصى علل الخلاف بين الصاحبين فى كل مسألة من المسائل فإذا هى فى مردها خلاف بين قوتين من نوعين، أو خلاف فى تناول الأمور على طريقتين، ولم تكن قط خلافًا بين قوة وضعف، أو بين حرص وتفريط، أو بين أثرة وإيثار.

ومن المسلم أن القوة ضروب، وأن العظمة صنوف، وأن اللين لا يلين أبدًا والشديد لا يشتد أبدًا، فلابد من اختلاف بين العظيم والعظيم، ولابد من اختلاف بين عمل العظيم الواحد فى أوقات. وليس العجب أن يجرى كل منهم على خطته وأسلوبه، وإنما العجب أن تتعدد ضروب القوة وتتعدد صنوف العظمة ثم تتوحد الخطة والأسلوب.

وموضع العبرة - بل موضع الإعجاز فيما تقدم - هو تلك الدعوة التى شملت هذه القوة كلها فى طية واحدة، وضمت هؤلاء الرجال جميعًا حول رجل واحد، وجذبت إليها أكرم العناصر التى تأتى بالعظائم وتصلح للخير وتقدم على الفداء.

فأوجز ما يقال فى تلك الدعوة أنها خاطبت خير ما فى الإنسان فلباها أمثال الصديق والفاروق، وأقبل عليها الأقوياء المخلصون من كل طراز فليست هى بالدعوة التى تخاطب الضعف والضعة، ولا بالدعوة التى تخاطب الطمع والأثرة، ولا بالدعوة التى قوامها الترهيب والترغيب، ولكنها الدعوة التى يجيبها أكرم سامعيها، ويتخلف عنها أقلهم سعيًا إلى الخير واقتدارًا عليه.

والصديق والفاروق خير نماذج الرجال فى الجزيرة العربية، ففى خلائق هذين العظيمين دليل على السر الذى من أجله نادى محمد قومه ومن أجله أجيب، ومن قال من المكابرين والمتعنتين: إن دعوة محمد لم تكن بالدعوة الصالحة فليقل: أى صلاح كان يلقى فى الجزيرة العربية مجيبين أكرم وأقدر من هؤلاء المجيبين؟ وأى هداية بين الناس أشرف من الهداية التى تجمع إليها أقوى الأقوياء وأطيب الطيبين، على ما بينهم من تقابل فى المزاج والرأى كأعجب ما يكون التقابل بين المختلفين المتفاوتين؟ وأى إقناع أقنع الصديق؟ وأى إقناع أقنع الفاروق؟ الخشية؟ المتعة؟ الشر؟ الطمع؟ لقد كان إذن آخر من يجيب، وكان خصومهما إذن أسرع المجيبين وأسبق المؤمنين!

إسلامه

قيل إن أبا بكر رضى الله عنه كان أول من أسلم، واتفقت الأقوال على أنه كان أول من أسلم من الرجال، وأن السيدة خديجة رضى الله عنها كانت أول من أسلم من النساء، وكان على رضى الله عنه أول من أسلم من الصبيان، وكان زيد بن حارثة أول المسلمين من الموالى، وهو الذى تبناه النبى عليه السلام.

وقال النبى عليه السلام: «ما دعوت أحدًا إلى الإسلام إلا كانت منه عنده كبرة ونظر وتردد، إلا ما كان من أبى بكر، ما عكم[1] عنه حين ذكرته له، وما تردد فيه». فلمَ سهل إسلام الصديق هذه السهولة التى لم تؤثر عن أحد غيره كما جاء فى ذلك الحديث الشريف؟

لعلنا نختصر الطريق إلى جواب هذا السؤال إذا نحن سألنا عن الموانع دون الإسلام، قبل أن نسأل عن الموجبات.

لأننا إذا بحثنا عن العقبات فلم نجدها، أو بحثنا عنها فوجدناها قليلة العدد هينة التذليل، بدت لنا سهولة الطريق من غير جهد كبير فى البحث عن الموجبات، وعرفنا أنه «لا مانع» فعرفنا أنه لا صعوبة ولا محل للتردد والمقاومة فما الذى كان يمنع أبا بكر أن يجيب دعوة الإسلام؟

بل ما الذى يمنع إنسانًا من الناس - كائنًا من كان - أن يجيب الدعوة إلى عقيدة جديدة؟

موانع شتى.

ومن الحقائق الملحوظة أن هذه الموانع كانت أقل ما تكون فى أبى بكر الصديق، فلا نعرف أحدًا فى عصر النبى كانت موانعه دون إجابة الدعوة الجديدة أقل من موانع هذا

---

(١) عكم عنه: تأخر.

الرجل الصادق المصدق، المستعد لإجابة النبى إلى هدايته كأنما كان معه على ميعاد.

يمنع الإنسان أن يصغى إلى دعوة العقائد الجديدة موانع شتى من آفات العقل والخلق والبيئة، تجتمع وتتفرق، ويبتلى الرجل الواحد بها جميعًا، وقد يبتلى بمانع واحد منها فيحول بينه وبين الإصغاء والإجابة.

يمنعه أن يجيب الدعوة إلى المصلحين غطرسة، أوسيادة مهددة، أومصلحة فى بقاء القديم ومحاربة الجديد، أوذهن مغلق لايتفتح للفهم والتفكير، أومغامسة للشهوات تحبب إليه أن يستنيم إلى العرف الذى يبيحها ويعزف عن الهداية التى تحظرها وتقف فى سبيلها، أو تعصب غضوب للعقيدة التى درج عليها، أو شعور بقوة سلطان تلك العقيدة فى أبناء قومه، سواء منهم المتعصبون لها والقابلون لها على المجاراة والمداراة، أو جبن ينهاه أن يخرج على المألوف ويتصدى لسخط الساخطين وإن تبين طريق الاستقامة والسداد، أو إيغال فى الشيخوخة يصد الإنسان عن كل تغيير ويميل به إلى كل تواكل ومتابعة وتقليد، أو حداثة سن تجعله تابعًا لغيره فى الرأى والخليقة وتجعل له شرة تحجبه عن التروية والمراجعة، أو ذلة مطبوعة تلحقه بمن أذله وبسط سلطانه عليه.

فالغطرسة خلة تأبى على صاحبها أن يستمع إلى قول أو يصيخ إلى دعوة، أو يتنزل إلى متابعة إنسان، ترفعًا عن الإصغاء قبل أن يهديه الإصغاء إلى موافقة أو إنكار.

والسيادة المهددة توحى إلى صاحبها كراهة التجديد، لأنه يحس بالبداهة أن صاحب الجديد أولى منه بالسيادة إن شاع ما جدده بين الناس، فتبطل سيادته ببطلان القديم الذى قامت عليه، وقيام الجديد الذى نسخه وعفاه.

والمصلحة فى حالة من الحالات المستقرة تجعل الرجل محبًّا لتلك الحالة حبه للمنفعة، كارهًا لتبديلها كراهته للخسارة، ميالا إلى محاربة الدعوة الجديدة قبل أن يبحث فيها ويتعرف وجوه الخير الذى قد يصيبه منها.

والذهن المغلق يجهل ما يقال، ويعادى ما يجهل، وينفر من كل ما يشق عليه، وأول ما يشق عليه أن يفهم شيئًا على وجهه السوى، أو يتهيأ للفهم بأية حال.

ومغامسة الشهوات تبغض إلى المرء سلوانها والإقلاع عنها، وتقرن عنده دعوات

الإصلاح والاستقامة بشؤم التنغيص والتكدير، فيتبرم بها وينزعج لها، كما ينزعج النائم المستغرق أيقظته من نومة لذيذة قد استراح إليها.

والتعصب الغضوب لما اعتقده المرء يثيره أن تمس عقيدته كما يثور لحماية الحوزة أو الذود عن الآباء والأجداد، لأنه يحسب عقيدته ملكًا له ولآبائه يرد عنها من يهجم عليها، كما يرد صاحب البيت من يهجم عليه.

والعقيدة إذا كانت قوية السلطان غلبت عزتها على عزة العقل والفؤاد، فأصر عليها من كان خليقًا أن يعافها ويعرف عيبها لو دعى إلى تركها وهى تتداعى وتتزعزع وتؤذن بالزوال.

والجبن يخيف صاحبه أن يجهر بالحق ويبتعد به عن طريق المخافة، فلا يدنو إلى الصوت الذى عسى أن يقوده إلى الإصغاء فالإيمان فالجهر بما يضير.

والشيخوخة عدو لكل طارق، والحداثة بين طيش يدعو إلى التمرد وطاعة تدعو إلى متابعة الأولياء، والذلة حجاب بين الذليل ونفسه يحجبه وراء مَنْ أذله، فلا تصل إليه الدعوة إلا من تلك الطريق.

هذه مواقع الإصغاء إلى كل دعاء جديد.

أو هذه أعم المواقع التى تحول بين معظم الأسماع والإصغاء إلى ذلك الدعاء.

ومن الحقائق الملحوظة - كما أسلفنا - أن أبا بكر كان براء منها جميعًا، أو كان كأبرأ الناس منها فى عهد الدعوة المحمدية.

فلم يكن متغطرسًا، بل كان مشهورًا بالدعة والتواضع، مألفًا لقومه كما قال واصفوه «محبًّا سهلا...» وكان رجال قومه يأتونه ويألفونه لغير واحد من الأمر، لعلمه وتجاربه وحسن مجالسته.

ولم يكن مهددًا فى سيادة مضروبة على أعناق الناس، فكان من ذوى الشرف فى قريش، ولكنه لم يكن من قبائلها الساطية التى تستطيل بالبغى والطغيان. كان من «تيم» وهى بيت قرشى معدود، ولكنه لم يمنع أبا سفيان أن يقول كما قال لعلى بن أبى طالب يستثيره حين بويع أبو بكر بالخلافة: «ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش

وأقلها؟» ولم تكن «تيم» أذل قبيلة فى قريش كما قال أبو سفيان، ولكنها على أية حال لم تكن بمقام السطوة والسيادة التى تطمس الضمائر والألباب.

ولم تكن لأبى بكر مصلحة فى دوام الجاهلية، لأن عمله فيها كان ضمان المغارم والديات، وربما كان هذا العمل أدنى إلى الخسارة منه إلى المنفعة والغنيمة، فلا راحة ولا أسف عليه. أما التجارة فلا خوف عليها من الدعوة الجديدة، وصاحبها الداعى إليها تاجر يبيحها ويزاولها ويحض عليها.

ولم يكن مغلق الذهن ولا وصفه أحد بهذه الصفة من محبيه أو شانئيه، بل كان معروف الذكاء يلمح اللحن البعيد فيدركه ويسبق الحاضرين إلى فهمه والفطنة لموضع الإشارة فيه، كما حدث غير مرة والنبى عليه السلام يتحدث أو يعظ الناس.

ولم يكن مغامسًا للشهوات، بل كان يكره ما شاع منها بين الجاهليين من ذوى الأقدار والأخطار، فلم يشرب الخمر ولم يركب الدنس ولم يشتهر قط بوصمة يعيبه بها من أسرعوا إلى معابته يوم هجر عقيدة الجاهلية وجنح إلى عقيدة الإسلام.

ولم تكن عبادة الأوثان عقيدة مكينة السلطان فى عهد الدعوة المحمدية، بل كان أناس يهملونها وأناس يبحثون عن غيرها، وأناس يؤثرون عليها المسيحية واليهودية، فلا يصابون بمكروه فى أكثر ما سمعنا من أخبار أولئك المتمسحين أو المتهودين.

وعلى هذا لم يكن أبو بكر متعصبًا للجاهلية وعباداتها، بل لعله كان مزدريًا لها مستخفا بالأصنام وبأحلام عابديها، وإذا صح ما جاء فى «أنباء نجباء الأبناء» فهو لم يسجد لصنم قط. وقال: «لما ناهزت الحلم أخذ أبو قحافة بيدى فانطلق بى إلى مخدع فيه الأصنام فقال: هذه آلهتك الشم العوالى، وخلانى وذهب، فدنوت من الصنم وقلت: إنى جائع فأطعمنى! فلمَ يجبنى. فقلت: إنى عار فاكسنى! فلم يجبنى. فألقيت عليه صخرة فخر لوجهه»

ولم يكن الصديق بالجبان، ولا بالشجاع الذى نصيبه من الشجاعة قليل، بل كانت شجاعته تفوق شجاعة الأبطال المعدودين فى الجاهلية والإسلام. فثبت مع النبى فى كل وقعة حين ولى من ولى وأبطأ من أبطأ، وغامر بحياته فى حروب الردة وله مندوحة عن خوضها، ولم يذكر فى أخباره قط خبر نكول أو خوف على حياة ومال.

ولم يكن شيخًا فانيًا متابعًا لكل قديم، ولا حدثًا صغيرًا تطيش به شرة الشباب حين دعاه محمد إلى دينة وهداه، بل كان رجلا ناضجًا فى بسطة الرجولة، يفقه الأمور ويعتدل بين الصبا الباكر والكهولة المولية، ويزن القول بفهم نافذ وحكم صادق، وعقل راجح يعرف الترجيح.

* * *

تلك جملة الموانع التى تحول بين الإنسان وقبول الدعوات الجديدة إلى الإصلاح، وكلها هنا غائبة على الأقل إن لم نقل إن جانب الدواعى فى مكانها أوضح من جانب الموانع، ومعنى ذلك أن الصديق لم تكن بينه وبين الإسلام عقبات تصده عن وروده، وأن طريقه إليه كانت ممهدة مفتوحة يخطو فيها خطوته الأولى فلا يلبث أن يتبعها بخطوات.

على أن الأمر لم يقتصر على قلة الموانع فى طريق الصديق إلى الإسلام فقد كانت هناك الدواعى التى أشرنا إليها فى مكان تلك الموانع، وكانت للصديق خلائق عاملة تقربه من العقائد القويمة، وتجعله ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه، ولا حاجة به إلى أكثر من ذلك ليفرق بين سنن الجاهلية وسنن الإسلام، ويميز بين ما هو حقيق بالترك والإعراض، وما هو حقيق بالحرص عليه والإيفاض[1] إليه.

كان الرجل صادق الطبع مستقيم الضمير، لا يلتوى به، عما يعلم أنه الحق، عوج ولا سوء دخلة، وعرف باسم الصديق إذ عرف الناس فيه الصدق من أيام الجاهلية وقبل أن يدين بالإسلام، لأنه كان يضمن المغارم والديات فيصدقونه ويعتمدون على وعده ويركنون إلى وفائه، وقيل: إنه سمى بالصديق لتصديقه النبى فى كل ما أنبأه به من المغيبات والبشائر ولكنهم لم يختلفوا فى تصديق ضمانه والاعتماد على وعده، وإن اختلفوا فى سبب التسمية وفى ميقاتها من الجاهلية أو الإسلام.

ومن كان على هذا الصدق فى الخليقة فلا حجاز بينه وبين دعوة إصلاح، وليس من شأنه أن يصم أذنيه عن قول صادق ودعاء مستقيم ولا أن يعادى الحق ويلج فى عدائه، شنشنة المكابرين والمستكبرين. .

(١) الإيفاض: الإسراع.

وكان مطبوعًا على الحماسة لما يعتقد فيه الخير والصلاح، يطلب العقيدة ويطلب المعتقدين بها والمهتدين إليها. يبدو ذلك من إسراعه إلى التبشير بالإسلام ساعة أن اهتدى إليه، فدخل فى الدين على يديه نخبة من أسبق الصحابة وأخلصهم للنبى عليه السلام وأعظمهم أثرًا بعد ذلك فى قيام الدولة الإسلامية، كعثمان بن عفان وعبد الرحمن ابن عوف والزبير بن العوام وسعد بن أبى وقاص وطلحة بن عبيد الله، وجعل لا يهدأ ولا يستريح حتى أدخل فى دينه أمه وأباه وذويه.

وتبدو حماسته لاعتقاده من إلحاحه على النبى أن يظهر بالمسلمين فى نواحى المسجد وهم دون الأربعين عددًا، ومن قيامه بينهم خطيبًا يجهر بالدعوة إلى الله، والمشركون متربصون ثائرون، حتى أصابه من ذلك أذى شديد خيف عليه الموت منه، وتركه المشركون وهم لا يشكون فى أنه مات أو أنه مائت عما قريب.

وتبدو هذه الحماسة من اتخاذه مسجدًا لصلاته وتلاوته على قارعة الطريق، يسمعه حين يقرأ كل عابر، ويتوعده المشركون فلا يفزع من وعيد. ولما جاءه الرجل الذى أجاره من المشركين على أن يكتم إسلامه فخيره بين الكتمان أو رجع الذمة إليه، لم يتردد فى رد ذمته وقال له: فإنى أرد إليك جوارك، وأرضى بجوار الله عز وجل.

ورجل مطبوع على سماع الحق وتصديقه والدعوة إليه والحماسة له غير عجيب أن يسرع إلى العقيدة الجديدة هذا الإسراع.

وإلى هذا كان قريبًا من السليقة الدينية التى تتراءى فى مكاشفة الغيب واستطلاع الرؤى والهواتف وانفتاح النفس لإشارات الإيحاء والاستيحاء، ويروى عنه أنه رأى قبل البعثة وهو بالشام رؤيا تنبئ بقرب ظهور النبوة فى البلاد العربية، ويعرف عنه على التحقيق أنه كان يعبر الرؤيا بين يدى النبى عليه السلام ويستأذنه فى تفسيرها، ويحتفل هو بما يراه فى منامه.

وإلى هذه القربى من الإيمان بالغيب كان لطيف الحس خاشع النفس عظيم الرفق والمودة، لا ترين على قلبه تلك الغلظة التى تغلق أبواب القلوب وإن تفتحت الأذهان، فكان خشوعه يبكيه وفرحه يبكيه، وسليقته الدينية كاملة لا يعوزها إلا القبس الذى يلمسها، فتضىء ثم لا ينطفئ لها ضياء.

وكان مع الصدق وحماسة العقيدة ومقاربة الغيب وموحياته ونجاواه بليغًا متذوقًا للبلاغة، كثير الرواية للشعر والاسترواح للكلام الحسن الفصيح، فكان فى ازدرائه لكلام المتنبئين غضب تلمح فيه عيفان[1] الذوق البليغ كما تلمح فيه عيفان المؤمن الناقم على الضلال. سمع فقرات من قرآن مسيلمة الكذاب فما عتم أن ابتدر قارئيه مشمئزا من سخفه وإسفافه: «ويحكم إن هذا لم يخرج من إل[2] ولا بر!».

ولا جرم يكون هذا الذوق المستقيم سببًا قريبًا بين صاحبه وبلاغة القرآن وبلاغة النبى عليه السلام.

إلا أن سبب الأسباب جميعًا فى التقريب بين الصديق وبين الدعوة المحمدية هو ذلك السبب الغالب على كل ما ذكرناه، لأنه يمتزج بأطواء نفسه ويصبغها بصبغته وينحو بها أبدًا فى منحناه؛ ونعنى به الإعجاب بالبطولة، ذلك الإعجاب الذى نحسبه ملاكًا لأخلاقه ومفتاحًا لشخصيته كما فصلناه فى غير هذا الباب.

فالرجل المعجب بالبطولة يعرف بطله، ثم يثق به، ثم يرتقى بالثقة إلى ما فوقها وما هو أمكن منها، لأن الثقة استناد إلى وثيقة تدعو إليها على حسب ما فيها من بيناتها وبراهينها؛ أما الإعجاب فهو الرغبة فى الثقة وكراهة التحول عنها، هو البحث عن الثقة والتذاذها إذا وقف الواثقون عند الانتظار، أو مجرد التأمين والموافقة بعد الانتظار.

وقد تواترت أنباء مختلفة بصداقة أبى بكر للنبى عليه السلام قبل الدعوة المحمدية بسنين، وذكر المؤرخون الثقات أنه كان معه عليه السلام حين ذهب فى صحبة عمه إلى الشام واجتمع بالراهب بحيرا وسمع منه ما سمع عن الدين والبشارة بالنبـوة. وقد شك بعض المؤرخين من الأوربيين فى اتصال المودة بين الصفيين قبل الدعوة المحمدية بزمن طويل، إلا أن الدليل الذى يغنى عن وثائق التاريخ أن أبا بكر كان باتفاق الأقوال أول المستجيبين لدعوة محمد من غير أهله، ولن يكون ذلك بغير معرفة سابقة بين الرجلين حببت إلى النبى عليه السلام أن يبدأ به ويترقب منه الإصغاء إليه، وأيسر ما يستلزمه ذلك السبق إلى الإسلام أن يكون أبو بكر معروفًا بصفاته لمحمد وأن يكون محمد معـروفًا

(١) العيفان: النفور والكراهية.

(٢) الإل: العهد والحلف.

بصفاته لأبى بكر. فلما سمع دعوته سارع إلى تصديقه وهو معجب به وباستقامة طبعه ونقاء سيرته وبلاغة حديثه، وأعانه على التفرقة بينه وبين خصومه، والتمييز بينه وبين منكريه أنه كان نسابة قريش لا يفوته مغمز من مغامزهم قديمها وحديثها فى الأنساب والأخلاق، ومحمد عنده مطهر من كل ذلك براء.

* * *

من جملة ما تقدم تتبين لنا سهولة اتجاه الصديق إلى الدعوة المحمدية، سواء من ضعف العقبات فى طريقه أو من قوة الدواعى التى تجذبه إليه، فقد اجتمعت هذه وتلك على تفسير تلك الأعجوبة النادرة فى تاريخ الدعوات الجديدة: أعجوبة رجل فى سمت الرجولة يقال له: تعال إلى دين جديد غير دين آبائك وأجدادك، فلا يتوانى ولا يتردد فى إجابة الدعوة، وما هو إلا أن يسمعها حتى يلبيها وينقطع لها، ويصبح من أقوى دعاتها بعد صاحبها.

ومن تمام الجلاء فى تفسير تلك الأعجوبة أن نفهمها على حقيقتها فى جميع أحوالها وملابساتها، وأن نفهم الفارق بينها وبين نظائرها لو جرت فى عصرنا الحاضر. أو فى بيئة أخرى غير البيئة التى جرت فيها.

فنحن نسمع بقصة أبى بكر وتصديقه السريع للدعوة المحمدية فنحضر فى أخلادنا رجلاً من المسلمين أو المسيحيين أو الإسرائيليين فى عصرنا الحاضر يقال له: تعال إلى دين غير دينك ودين آبائك وأجدادك فيجيب الداعى لتوه وساعته كأنها تحية وجوابها.

وهى أعجوبة عندنا يوشك أن يأباها العقل وأن تمتنع على التصديق.

ولكن إسلام أبى بكر لم يكن من هذا القبيل، ولم يكن الدين الذى تحول عنه كالدين الذى يؤمن به المسلم فى هذه الأيام.

لم يكن دين المشركين من قريش ديناً من أديان الروح وعقيدة من عقائد الضمير.

لم يكن له شأن بالحياة الصالحة ولا بالحياة الباقية ولا بالنظر إلى الكون فى أسرار خلقه ولا بالجماعة الإنسانية فى قوام أمرها ومناط الخير والشر فيها والصلاح والفساد بين رجالها ونسائها

ولم يكن التابعون له ينظرون إليه هذه النظرة أو ينظرون هذه النظرة إلى دين آخر أو عقيدة أخرى.

ولكنهم كانوا ينظرون إلى عقائدهم نظرتهم إلى الموروثات المألوفة والعرف المتفق عليه، أو نظرتهم إلى العادات التى ترتبط بها مصالح العيش ومصالح السيادة والجاه، وكان يعز عليهم أن يقال لهم: إن آباءهم وأجدادهم هالكون، وإن الدين الذى نشئوا عليه وماتوا دين سخف ومهانة وضلال. فكانوا فى ثورتهم على الدعوة الجديدة أشبه الناس بأبناء القرى والمدن الذين يثورون على رجل يبتدع فى الولائم والأفراح والجنائز بدعة تخالف المألوف وتهدد مصالح الوجهاء أو ما يسمونه «شرف الأسرة»، وسير البلدة وعادات الناس وتهدد مع تهديدها الوجهاء مصالح العاملين فى شئون الزواج وشعائر الوفاة، وما إلى ذلك من الرسوم والعادات.

وكان المشركون لا يبالون أن يخرج على دينهم من يخرج عليه ناجياً بروحه خالياً بنفسه بينه وبين ربه، فعاش بينهم اليهود والمسيحيون والمتهودون والمتنصرون وهم فى دعة وأمان إلا من أذى الأقارب المخالفين لهم فى قليل من الأحيان، وإنما كانوا يثورون على الدعوة العامة التى تبدل العرف كله، وتخرج الجماعة من مألوفاتها وقواعدها التى استقرت عليها. فكان الثائرون فى وجه الدعوة المحمدية من مشركى قريش بين رجل من ثلاثة لا يعدوهم إلى رابع: رجل صاحب سيادة تتصل سيادته ببقاء الأمور على ما هى عليه، ورجل من الأذناب الذين لا يعقلون ولا يحسون الظلم والفساد ولا يفعلون إلا ما يأمرهم به السادة المسيطرون. ورجل لم يصغ إلى الدعوة الجديدة حق الإصغاء، ولم يتسع له الوقت للتفرقة بينها وبين العرف القديم.

وما عدا هؤلاء جميعاً فهو قريب من الدعوة المحمدية لا يمنعه مانع أن يتجه إليها متى أصاب الوجهة التى تهديه فى طريقه، وليس معنى ذلك أن التغلب على العرف الجاهلى كان من الهنات الهينات أو كان أهون من التغلب على سائر العقائد والأديان، فليس أصعب ولا أعضل فى الحقيقة من التغلب على عرف ترتبط به مصالح السيادة وغباوة الدهماء وتراث الأجداد والآباء وإنما معناه أن الأمر لا يعم جميع المشركين ما لم يكن واحداً من أولئك الثلاثة، وهم ألوف وألوف.

وأبو بكر رضى الله عنه لم يكن واحداً من هؤلاء

وكان مع هذا رجلاً يحس بالروح والضمير ويحس الخواء الذى تتركه العقائد الجاهلية فى حياة الروح والضمير.

وقد عافاه الله من سبب قوى من أسباب الثورة على الدعوة المحمدية بين المشركين المعتزين بالآباء والأمهات.

«أأبى على ضلال؟ أأمى مع الهالكات؟».. تلك خاطرة كانت تهجس فى نفس المشرك من قريش فيغضب ويثور ويحسب الدعوة الجديدة فى عداد السباب الموجه إلى أقرب الناس إليه وأعزهم عليه.

أما أبو بكر فقد عافاه الله من ذلك فى إبان الدعوة المحمدية، لأنها ظهرت وأبوه وأمه بقيد الحياة مفتوح لهما باب النجاة، فما زال بهما حتى دخلا معه فى دينه، وأطمأنت نفسه على أبيه وأمه وبنيه.

وفيما عدا هذا قيل له: دع هذه البقايا الفاسدة وأقبل ومن تحب على دين جديد فيه الخير والصلاح والهداية إلى خالق الأرض والسماء.

فلم لا يترك تلك البقايا الفاسدة؟ ولم لا يقبل على الدين الجديد؟

إنه لا يحب بقايا الجاهلية، ولا يربطه بها شح ولا كبرياء ولا ذلة ولا غباء، وإنه ليفهم ويعقل ويحب الخير والصلاح ويحس فى قلبه جيشان الروح والضمير، وإن الذى يدعوه لكريم حليم صادق قويم حبيب إلى النفس مبرأ من العيب يحق له أن يجاب، وإنه لا يخاف لأنه شجاع، ولا يقابل الأمر بفتور المستخف لأنه رجل حى الفؤاد مطبوع على الحماسة لما يؤمن به والإعجاب بمن يستحق عنده الإعجاب.

فالعجب أن يدعى إلى تلك الدعوة فلا يجيبها أسرع ما يكون الجواب، وليس العجب أن يسرع إلى إجابتها كما أسرع فأجاب.

وهكذا يبين لنا فى إسلام أبى بكر كما بان لنا فى إسلام كل رجل ذى بال من السابقين إلى الدعوة المحمدية أنها دعتهم إليها بأسبابها المعقولة فاستجابوا لها بأسبابهم المعقولة التى توائم كلا منهم أصدق المواءمة، ولا تحوج أحداً من المعللين والمفسرين إلى الخوارق

المكذوبة، أو إلى تفسير الأمر بالوعد والوعيد ورغبة الجنة ورهبة السيف.

وكما قلنا فى كتابنا «عبقرية محمد» إن الأقوياء لم يسلموا خوفًا لأنهم أقوياء، وإن الضعفاء لم يسلموا خوفاً لأن الإسلام عرضهم للقتل والعذاب ولسيوف المشركين الذين هم عليهم سيادة وطغيان، «وما كفر الذين كفروا لزهد ولا شجاعة فيقال: إن الذين سبقوهم إلى الإسلام قد فعلوا ذلك لشغف بلذات الجنة وجبن عن مواجهة للقوة، ولكنهم اختلفوا حيث تطلب طهارة السيرة وصلاح الأمور. فمن كان أقرب إلى هذه الطلبة من غنى أو فقير ومن سيد أو مستعبد فقد أسلم. ومن كان به زيغ عنها فقد أبى، وهذا الفيصل القائم بين الفريقين قبل أن يتجرد للإسلام سيف يذود عنه، وبعد أن تجرد له سيف تهابه السيوف، وما يقسم الطائفتين أحد فيضع أبا بكر وعمر وعثمان فى جانب اللذة والخوف، ويضع الطغاة من قريش فى جانب العصمة والشجاعة إلا أن يكون له هوى كهوى الكفار...»

* * *

كان الصديق إذن أول رجل من شرفاء العرب دان بالإسلام بعد نبيه عليه السلام. دان به سريعاً إلى دعوته لتلك الأسباب التى تليق به وتليق بالدعوة المحمدية، وكتب له فى اللحظة الأولى أن يكون ثانى اثنين حين يكون النبى هو أول الاثنين. فكان ثانى اثنين فى الإسلام، وثانى اثنين فى غار الهجرة، وثانى اثنين فى الظلة التى أوى إليها النبى يوم بدر الذى لا يوم مثله، وثانى اثنين فى كل وقعة من الوقعات بين المسلمين والمشركين، وأقرب صاحب إلى النبى فى شدة الإسلام ورخائه، وفى سره وجهره، وفى شئون نفسه وشئون المسلمين.

ومن اللحظة الأولى وهب للإسلام كل ما يملك إنسان أن يهب من نفسه وآله وبنيه، فأخذ أمه إلى النبى لتسلم على يديه وهى بين الحياة والموت، وجاءه بأبيه بعد فتح مكة ليسلم على يديه وقد جلله الشيب وابيض رأسه كأنه ثغامة[1]، وحمل ماله كله وهو يهاجر فى صحبة النبى يؤثر به الدين على الآل والبنين.

والروايات فى توجيه الدعوة إليه مختلفات: منها ما يؤخذ منه أن النبى عليه السلام

(١) الثغام: نبت جبلى ورقه كورق الزنجبيل، إذا يبس شبه به.

وجه الدعوة إليه خاصة فلباها، ومنها ما يؤخذ منه أنه عليه السلام قصد الناس فى المسجد بالدعوة العامة فاتصل نبؤها بأبى بكر فجاءه يسأله:

يا أبا القاسم! ما الذى بلغنى عنك؟

فسأله النبى: وما بلغك عنى يا أبا بكر؟

قال: بلغنى أنك تدعو إلى توحيد الله، وزعمت أنك رسول الله.

قال: نعم يا أبا بكر، إن ربى جعلنى بشيرًا ونذيـرًا، وجعلنى دعوة إبـراهيم، وأرسلنى إلى الناس جميعًا.

فما أبطأ أبو بكر أن قال: والله ما جربت عليك كذباً وإنك لخليق بالرسالة لعظم أمانتك، وصلتك لرحمك، وحسن فعالك. مد يدك فإنى مبايعك.

والصدق والأمانة وصلة الرحم وحسن الفعال صفات يفهمها أبو بكر لأنها يحبها ويتصف بها ويحب أهلها. فهو صادق أمين رحيم حسن الفعال، وتلك أقرب الآيات إلى لبه وقلبه، وهى أولى الآيات بالتصديق عند الصادقين المصدقين، فمن الجائز أن تخدعنا الخوارق وليس من الجائز أن يخدعنا من يصدُق ويبر ويؤدى الأمانة، ويستقيم على سواء الطريق فى فعاله وخصاله.

وأصبح الإسلام منذ تلك اللحظة ديناً عند أبى بكر يقابل الدنيا بما وسعت من خيرات وطيبات. أصبح عنده غنيمة يفتديها بكل غنيمة يضن بها المرء من حياة أو آل أو ذرية ومال، ولو قاسه بمقياس دنيا. لقد كان الإسلام بلية عليه لا يطلبها عاقل، ولكنه قاسه بمقياس دين فعلم أنه أربح الرابحين وأرشد الراشدين.

طلبه ديناً وكفى. فصبر فيه على ما يجزع منه طالب الدنيا، ويأبى أن يستهدف له أو يشارفه من بعيد.

كان المسلمون دون الأربعين يوم أشار على النبى أن يجتمعوا فى المسجد ويجهروا بالدعاء. فلما وقف بينهم فى المسجد يدعو إلى الله ورسوله وثب عليهم المشركون يضربونهم ويؤذونهم ويوسعونهم إهانة مع الضرب والإيذاء. وتصدى عتبة بن أبى ربيعة لأبى بكر فجعل يضربه بنعلين مخصوفين حتى ورم وجهه، وخفى على الناظر إليه مكان

أنفه. وتسامع أهله من بنى تيم فأقبلوا يتعادون ويجلون المشركين عنه. ثم حملوه فى ثوب إلى بيته وما يشكون فى موته. وصاح منهم صائحون فى المسجد: والله لئن مات أبو بكر لنقتلن عتبة.

ثم أحاطوا به يكلمونه حتى أفاق وأجاب، فكان أول ما فاه به وهو فى تلك الحال: ما فعل رسول الله؟

فلاموه وعنفوه، وسألوا أمه تطعمه أو تسقيه شيئاً يرد إليه نفسه فأبى أن يأكل أو يشرب حتى يعلم ما فعل رسول الله.

قالت: والله ما أعلم بصاحبك.

قال: فاذهبى إلى بنت الخطاب فاسأليها عنه.

فلما جاءتها أنكرتها وأشفقت أن تكون عيناً من عيون المشركين عليها وعلى رسول الله، فقالت: ما أعرف أبا بكر ولا محمد بن عبد الله! ثم عرضت عليها أن تذهب إلى أبى بكر لتسمع منه وتطمئن إلى ما قاله. فوجدته صريعاً دَنفاً برَّح به الألم، فغلبها الإشفاق فأعلنت بالصياح وهى تقول: إن قوماً نالوا منك لأهل فسق. وإنى لأرجو أن ينتقم الله لك.

فما زاد على أن كرر سؤاله الذى لزمه مذ أفاق من غشيته: ما فعل رسول الله؟

قالت: وهى لا تزال حذرة من أمه: هذه أمك تسمع!

قال: لا عين عليك منها.

قالت: سالم صالح!

فلم يكفه ذلك حتى يراه بعينه، وسألها: أين هو؟.. فأعلمته بمكانه من دار الأرقم بن أبى الأرقم، وأحب أن يذهب إليه، وكأنه أحس من أمه ممانعة فى خروجه وهو بتلك الحال! حتى يتبلغ بشىء ويذوق شراباً يرويه ويقويه، فأقسم لا يذوقن طعاماً ولا شراباً أو يرى رسول الله.

وأكبرت المرأتان العطوفان حبه لصديقه ونبيه، فأمهلتاه حتى هدأت الرِّجل وسكت

الناس، وخرجنا به يتكئ عليهما ولا يقدر على حمل نفسه. ثم دخلنا به على رسول الله وهو بتلك الحالة فانكب عليه يقبله، ورق الرسول لصديقه وصفيه رقة شديدة، فقال الصديق الصفى: بأبى أنت وأمى! ليس بى إلا ما نال الفاسق من وجهى، وهذه أمى برة بوالديها فادعها إلى الله! وادع الله لها عسى أن يستنقذها بك من النار.

ولبث بين المشركين يستهين بالخطر على نفسه، ولا يستهين بخطر يصيب النبى قل أو كثر حيثما رآه واستطاع أن يذود عنه العادين عليه، وإنه ليراهم آخذين بتلابيبه فيدخل بينهم وبينه وهو يصيح بهم: «ويلكم أتقتلون رجلاً أن يقول ربى الله؟» فينصرفون عن النبى وينحون عليه يضربونه ويجذبونه من شعره فلا يدعونه إلا وهو صديع.

ولما أذن له النبى فى الهجرة إلى الحبشة بعد ما ابتلى به من عنت المشركين غضب لرحلته الأكرمون من القوم ولحق به ربيعة بن فهيم المعروف بابن الدغنة فقال له: إن مثلك يا أبا بكر لا يَخرج ولا يُخرج. إنك تكسب المعدوم، وتصل الرحم، وتحمل الكل، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، فأنا لك جار. ارجع واعبد ربك ببلدك.

وطاف ابن الدُّغنة عشية فى أشراف قريش يبلغهم أنه أجار أبا بكر فعرفوا له جواره وقالوا له: مرة فليعبد ربه فى داره يصلى فيها ويقرأ ما يشاء، ولا يؤذينا ولا يستعلن به، فإنا نخشى أن يفتن نساءنا وأبناءنا.

إلا أن أبا بكر بنى بفناء الدار مسجداً يصلى فيه ويرتل القرآن، ويستمع له النساء والأطفال فيجتمعون إليه. منهم من يسخر ومنهم من يعجب ويسأل عن الخبر. ففزع المشركون وطلبوا إلى ابن الدغنة أن ينهاه أو يسترد منه ذمته، فأبى أبو بكر أن ينتهى عن الجهر بالصلاة والقراءة، وقال لابن الدغنة: فإنى أرد إليك جوارك وأرضى بجوار الله عز وجل!

وبقى بمكة طوال مقامه بها يعمل لدينه ولنبيه ولا يعمل لنفسه إلا ما ليس عنه غنى من طلب المعاش، يدعو وجوه الناس ويعرض الأمر على القبائل، ويغنى فى الدعوة بصلاح سيرته ورجاحة قدره ويقين الناس باستقامة قصده، ما قل أن يغنيه دليل العقل أو نقاش الجدل والملاحاة. وكان يتعرض للأذى فلا يعنيه أن يتقيه كما يعنيه أن يقى منه النبى وسائر المسلمين. فكان يعين الفقراء ويعتق الموالى الذين يسامون العذاب فى سبيل

الله، أو يحمل المغارم ويهيئ لمن أراد الهجرة وسائلها، ولا يكون عمل من الأعمال ينفع الدين الجديد وينفع أهله إلا وله سهم فيه.

ثم كانت هجرته إلى المدينة فكانت أخطر هجرة أقدم عليها مسلم من أهل مكة. إذ كان كفار قريش يقيمون لكل مهاجر من الأرصاد والعيون كفاء قدره، وكانت أرصادهم وعيونهم على النبى أكثر ما استطاعوا من عدة وكيد وحيطة. فكانت الهجرة فى صحبة النبى شرفًا من شرفين، لا يدرى المرجح بينهما أيهما أحق بالإعظام: إما مجازفة بالحياة، وإما يقين لا يخامره الريب أن النبى ناج فى حماية ربه، ولو كان فى الهجرة ما فيها من فراق الموطن أو الهجوم على فراق أرهب منه وأقسى، وهو فراق الدنيا.

فتلقى أبو بكر الإذن بهذه الهجرة كما يتلقى البشارة بالسلامة. قالت بنته عائشة رضى الله عنها: «ما شعرت قبل ذلك أن أحدًا يبكى من الفرح حتى رأيت أبا بكر يبكى حين أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحبته».

وقالت بنته أسماء رضى الله عنها: «لما هاجر رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهاجر أبو بكر معه احتمل أبو بكر ما له كله خمسة آلاف درهم أو ستة. فدخل علينا جدى أبو قحافة وقد ذهب بصره. وقال: والله إنى لأراه قد فجعكم بماله كما فجعكم بنفسه. قلت: كلا يا أبت، إنه قد ترك لنا خيرًا كثيرًا؛ وأخذت أحجاراً فوضعتها فى كوة البيت الذى كان أبى يضع فيه ماله، ثم وضعت عليها ثوبًا، ثم أخذت بيده وقلت؛ يا أبت؛ ضع يدك على هذا المال. فوضع يده عليه وقال: لا بأس إذا كان قد ترك لكم هذا فقد أحسن، وفى هذا بلاغ لكم. ولا والله ما ترك لنا شيئاً؛ ولكنى أردت أن أسكن الشيخ»

* * *

وكذلك أقبل الصديق على الإسلام وهو عالم بالذى هو مقبل عليه لم يقل له أحد ولا قال هو لنفسه إن الأمر أهون مما توقع، وإن البلاء بعقيدته التى تحول إليها أخف ما وجد، فلم يجد نصباً وكان يرجو الراحة، ولم يجد غرماً وكان يرجو المنفعة، ولم يجد عداء من قومه وكان يرجو منهم المودة، ولم يجد خطراً وكان يرجو السلامة، وإنما دخل فى شىء يتوقع ما هو ملاقيه فيه، ويراه دون حقه من المصابرة والحفاظ والاحتمال؛ لأنه الدين. لأنه الحياة الفانية والحياة الباقية. لأنه الحق ودونه الباطل، والهدى ودونه الضلال.

فما أقبل إنسان قط أصدق من هذا الإقبال، وما تأهب إنسان قط لبلاء فى سبيل ضميره وربه أعظم من هذه الأهبة؛ وما نفس الصدق عند إنسان قط أغلى من هذه النفاسة. فهى سلامة النفس وسلامة الآباء والأبناء وسلامة المال والعتاد وسلامة الدنيا بأسرها يعلقها بكلمة صدق من رجل صادق، وإن أناساً ليصدقون غاية التصديق ثم لا يخاطرون فى سبيل الصدق برزق يوم ولا براحة ساعة.

إنه الصديق.

وما وصف بكلمة واحدة هى أجمع لخلائقة من كلمة الصديق.

ولقد رأينا أناسًا من الناقدين يستنكرون على عربى فى الجاهلية أن يقوِّم الهداية الدينية بهذه القيمة التى لا تعلوها قيمة.

ولكنهم مخطئون.

لأن العربى الجاهلى عرف «الحق» وعرف بيع الحياة فى سبيل «الحق» كما يراه: حق الجوار أو حق العِرض أو حق الشرف والذمار.

وأبو بكر خاصة كان ممن يرعون الحقوق ويكفلونها لأهلها، وكان ممن يكرهون البغى وينقمونه على أهله.

فإذا عرف «الحق» الأكبر فغير عجيب أن يرعاه هذه الرعاية وأن يكفله هذه الكفالة، وهو مهيأ لعرفانه بكرم الخليقة وطيب النحيزة واستقامة الفطرة وصفاء القريحة.

وقد عاش أبو بكر فى زمن كان عقلاؤه فى كل أرض يتطلعون إلى هداية من السماء، ويخيل إلينا أن انتظار الهداية من السماء لم يطل فى زمن من الأزمان، ولا سيما الزمن الذى يعم فيه الفساد وتعيا به حيلة الإنسان، وحسبنا أننا بعد الإسلام رأينا أناساً يترقبون «المهدى» الذى ينشر العدل كلما عم الجور، ويأمر بالعرف كلما فشا المنكر، ويهدى إلى سواء السبيل كلما استحكم الضلال.

وقبل البعثة المحمدية كان أناس ينتظرون الهدى من نسل داود أو ينتظرونه من نسل إسماعيل بن إبراهيم.

وسمع أبو بكر ما سمع من هذا فى رحلته إلى اليمن، ورحلته إلى الشام، وفى حديثه مع

ورَقَة بن نوفل، وحديثه مع المنكرين الظلام الجاهلية والمستشرفين إلى كل نور جديد.

وهذا محمد بن عبد الله يدعوه دعوة إبراهيم: دعوة الأب الأكبر الذى يشمل العرب جميعًا، ومن فوقها دعوة الله التى تعم جميع الناس.

فمن أولى منه بالدعوة، ومن أولى بالتصديق؟

إنه استشار خُلقَه القويم فهداه، وإن مشورة العقل وحدها لتهديه هذه الهداية، حيثما وازن وقابل فأحسن الموازنة والمقابلة بين جميع ما ينتظم فيها من شئون ذلك الزمان.

كان أبو بكر فى اهتدائه إلى الإسلام هو أبو بكر فى نشأته وسليقته وجملة أحواله وأحوال قومه وعهده.

وكان أبو بكر فى إسلامه هو أبو بكر فيما وصف به وفيما جد عليه من إيمان المصدق بدينه، وحماسة المعجب ببطله.

كان إسلامه إسلام الرجل الكريم السمح الودود. يستمسك بالصدق والتصديق ويخلص فى الإعجاب بالبطل الذى هداه إخلاصاً لا شية فيه. فهو يلين فى كل حالة ويشتد فى حالة واحدة هو فيها أشد الأشداء: مرجعها إلى كل ما اتصل عنده بقوة التصديق وقوة الإعجاب.

قال بعد مبايعته بالخلافة: «إنما أنا متبع ولست بمبتدع» فجمع إسلامه أجمع صفة وأحسنها فى هذه الكلمات.

وربما عرض له من الأمر ما ليس يتضح فيه طريق الاتباع، فيخرج إلى الناس يسألهم ثم يقول «الحمد الله الذى جعل فينا من يحفظ علينا سنة نبينا».

فلا يبتدع إلا بعد استقصائه كل مرجع من مراجع الاتباع.

وفى هذا هو شديد غاية الشدة، بعيد من اللين والهوادة غاية البعد، وهو الرجل الذى اتسم فى حياته كلها باللين والهوادة.

فتصديق المؤمن وإعجاب المعجب ببطله العزيز عليه، هما تفسير كل شدة يشتدها الصديق الحليم الودود.

هو شديد فى تسيير جيش أسامة لأن النبى عليه السلام ولاه وأمر بتسييره، وما يكون له أن ينزع رجلا استعمله رسول الله «ولو تخطفته الذئاب ولم يبق فى القرى أحد غيره».

وهو شديد فى حرب الردة: لأنه لا يترك عقالا كان رسول الله يأخذه من المرتدين.

وإذا رأيناه يتردد بين الهوادة والشدة فى محاسبة بعض الناس فالشدة التى مرجعها التزام جادة الرسول والاقتداء بقدوته فى كل شىء هى أقرب التفسيرين إلى فهم عمله، وهى أغلب فى طبعه من اللين والهوادة، على اشتهاره بهما فى كل ما عدا ذاك.

فالهوادة ليست هى التى تفسر لنا عمله فى ترك جزاء خالد بن الوليد على البناء بامرأة مالك بن نويرة، إلبناء ببنت مجاعة فى حرب بنى حنيفة، وتوزيع الأموال وتأخير الحساب، وإنما الذى يفسر لنا هوادته معه أنه سيف من سيوف الله، ولا يعزل أبو بكر من استعمله الرسول وله مندوحة عن عزله.

ويتبين لنا مناط الشدة واللين عنده فى جناية واحدة استصغر فيها العقوبة على امرأة واستكبر العقوبة نفسها على امرأة أخرى، وذلك إذ كتب إليه المهاجر بن أبى أمية المخزومى يقول له: إن مغنيتين تغنت إحداهما بثلب رسول الله، وتغنت الأخرى بثلب المسلمين، فقطع يديهما ونزع ثناياهما لتكفا عن الغناء. فخطَّأه أبو بكر لأن الأولى كانت أحق بالقتل، وأن الثانية كانت أحق بالصفح... وأوصاه أن يقبل الدعة وأن يحذر المثلة «فإنها مأثم ومنفرة إلا فى قصاص».

ففى تعظيم النبى كل شدة قليلة، وفى أمر غيره كل صفح جائز بل مستحب محمود، وليست هى المحبة التى يعوزها التفكير قد فرقت هذه التفرقة بين العقابين، لأن هجو النبى قدح فى لباب الدين وأس النظام، وهجو المسلمين وزر قد يأتيه المسلم فى خلاف بينه وبين قومه، ولكنها على هذا حادثة قد عرضت لنا طبع أبى بكر فى حالتيه: لين وهوادة، وإعظام لا لين فيه ولا هوادة، وإنما هى الشدة كأشد ما تكون.

* * *

وربما تهيب الأمر فيه نفع لا شك فيه إذا لم يسبقه النبى عليه السلام إلى صنعه أو صنع مثله، لفرط اتقائه أن يصنع ما ترك أو يترك ما صنع، كما تهيب جمع القرآن فى المصحف

حين أشار به عمر، فقال: «كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله صلى الله عليه وسلم؟» ثم استصوب جمعه لما فيه من خير.

فسماحة أبى بكر كانت طبيعة فيه لأنه طبع على الرفق والأناة والأخذ بالحيطة واستبقاء المودة.

وشدة أبى بكر كانت طبيعة فيه، لأنه طبع على تصديق من هو أهل لتصديقه، والإعجاب بمن هو أهل لإعجابه، ولن ترى شدة فى إنسان كشدة الرجل السمح فى تنزيه صفيه وحبيبه وموضع إعجابه، ولا حرصاً فى إنسان كحرصه على القدوة بذلك الصفى الحبيب المعجب به، واجتناب التخلف عنه والحيد عن طريقه.

وفيما عدا هذه الشدة لم يكن أبو بكر إلا حلمًا غالباً ورحمة غالبة ولم تنفرج أمامه طريقان: إحداهما إلى العفو، والأخرى إلى البطش إلا أخذ بالأولى وأعرض عن الثانية.

شاوره النبى عليه السلام فى أسرى بدر فقال: «يا نبى الله، هؤلاء بنو العم والعشيرة والإخوان، وإنى أرى أن تأخذ منهم الفدية، فيكون ما أخذنا منهم قوة، وعسى الله أن يهديهم فيكونوا لنا عضداً».

وشاوره حين اجتمعت قريش لصده وصد المسلمين عن البيت فنادى بالناس «أشيروا أيها الناس علّى. أترون أن أميل إلى عيالهم وذرارى هؤلاء الذين يريدون أن يصدونا عن البيت، فإن فاتونا كان الله قد قطع علينا من المشركين، وإلا تركناهم محروبين؟».

فقال أبو بكر: «يا رسول الله، خرجت عامدًا لهذا البيت، لا تريد قتال أحد ولا حرباً، فتوجه له فمن صدنا قاتلناه»... يقاتل من صده عن البيت ولا يقاتل من لم يصده.

وشيع جيش أسامة فلم ينس أن يوصيه بالضعفاء وهو ذاهب إلى القتال «لا تخونوا، ولا تغلوا، ولا تغدروا. ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلا صغيرًا ولا شيخاً كبيراً، ولا امرأة، ولا تعقروا نخلا ولا تحرقوه. ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاه ولا بقرة ولا بعيراً إلا لمأكلة. وسوف تمرون بأقوام قد فرغوا أنفسهم فى الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قوم يأتونكم بآنية فيها ألوان الطعام فإذا

أكلتم منها شيئاً بعد شيء فاذكروا اسم الله عليها، وتلقون أقواماً قد فحصوا أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً. اندفعوا باسم الله».

وليس أكثر من الشواهد التى تشهدنا على قوة الدين فى نفوس من آمن به. إلا أننا لا نعلم بينها شاهداً أصدق فى الدلالة على تلك القوة من أن يدين المرء نفسه بالدين أمام أعدائه، كما يدينها به أمام إخوانه فى اعتقاده. ومن شواهد ذلك فى إسلام الصديق أنه كره المثلة بأعدى الأعداء فى ميدان القتال. فلما بعث إليه عمرو بن العاص برأس بنان بطريق الشام أنكر فعله أشد إنكار، ولم يخفف من إنكاره قول عقبة بن عامر له: إنهم يصنعون ذلك بنا، بل قال: أيستنون بفارس والروم؟ لا يحمل إلى رأس. إنما يكفى الكتاب والخبر.

فهو مسلم مع من يحب ومع من يكره ولو فى قتال. وهذا بلاغ الدين القويم فى نفس إنسان.

وهكذا كان مسلكه مع إخوانه وأعدائه، وفى لينه وشدته، وفى مفترق كل طريقين: إحداهما إلى الشدة وأخراهما إلى اللين. فقال النبى عليه السلام يصفه ويصف عمر: «... إن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: فمن تبعنى فإنه منى ومن عصانى فإنك غفور رحيم، ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: إن تعذبهم فإنهم عبادك، وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم»... و «إن مثلك يا عمر مثل نوح قال: رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا، ومثلك مثل موسى قال: ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يُؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

ولم يكن عمل من أعماله فى قضاء حقوق دينه وأداء فرائضه إلا يدل على هذه الخليقة التى اتصف بها فى جملة خياته الإسلامية: وهى المبادرة فى كل ما فيه قدوة بالنبى عليه السلام، والأخذ بالحيطة فى كل ما يحتمل التعجيل والتأجيل.

سأله النبى: متى توتر؟ قال: من أول الليل.

وسأل عمر: متى توتر؟ قال: من آخر الليل.

فقال لأبى بكر؛ أخذت بالحزم؛ وقال لعمر: أخذت بالعزم.

وصلاة الوتـر كما لا يخفى تقضى من بعـد العشاء إلى مـا قبل الفجـر، ويرى بعض الأئمة أنها فريضة، ويرى بعضهم أنها سنة يقتدى فيها بالنبى.

فأبو بكـر يبادر إلى أدائهـا ويأخـذ بالحيـطة مخافـة أن يفوتـه أوانها إذا أجلها، وعمـر الشديد على نفسه الواثق من عزيمته يعلم أنها لن تفوته وأنه لن يغلبه عليها غالب من النوم، فيؤجلها إلى ما قبل الفجر، وهو واثق من أدائها فى أوانها.

لهذا قال النبى لأبى بكر : إنه أخذ بالحزم وهو الأحوط، وقال لعمر إنه أخذ بالعزم وهو الأقوى، وعرف صاحبيه فى هذه الفارقة الصغيرة كما عرفهما فى كبار الأمور وصغارها.

وإن العقيدة التى تتسع لهذين الرجلين ولهذين الخلقين ولهذين العقلين، ثم يكون كلاهما إماماً فيها عظيماً فى ابتاعها، لهى عقيدة تتسع لكثير.

الصديق والدولة الإسلامية

قلنا فى كتابنا «عبقرية عمر» إن الدولة الإسلامية «تأسست فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث. فشرع السنة الصالحة فى توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه فى حرب الردة، وشرع السنة الصالحة فى تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح. فكان له السبق على خلفاء الإسلام فى هذين العملين الجليلين».

«إلا أننا نسمى عمر مؤسسًا للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق فى أعمال الخلافة. لأننا «أولا» لا نجد مكانًا فى التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام، ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة فى إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح. وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسًا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كان مؤسسًا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأعلنها وأعزها بهيبته وعنفوانه..».

إلى أن قلنا «.. إنه كان من يوم إسلامه آخذًا فى تشييد هذا البناء الذى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء».

والذى قلناه عن عمر فى تأسيسه بناء الدولة الإسلامية قبل خلافته يصدق على أبى بكر بهذا المعنى منذ يوم إسلامه قبل سائر الصحابة وسائر الخلفاء.

ويكفى من ذلك أن نذكر الذين أسلموا على يديه من عظماء القوم وضعفائهم على السواء. فقد كان لإسلامه أثر بالغ بين السادة، كما كان له أثر بالغ بين العبيد والأتباع، وما هو إلا أن علم الوجوه والعلية من فضلاء قريش أن أبا بكر رضى الإسلام دينًا حتى كان للقدوة به حجة عندهم أقوى من حجة البيان والإقناع: إن الدين الذى يرتضيه رجل كأبى بكر فى مروءته وصلاحه وشرفه واستغنائه واستقامة قصده وسلامة صدره لدين جدير بالاستماع إليه والنظر فى دعوته، وإن النظر فى دعوته وفيما بينها وبين العقائد

الجاهلية من البون الشاسع لكاف وحده لكسب القلوب وتحويل الأذهان، ولا سيما عند من خلا من الغرض فى دوام العقائد الجاهلية وإحباط الدعوة الجديدة أو كل دعوة جديدة كائنًا ما كان حظها من الخير والفلاح.

فأسلم على يديه رهط من أكبر السادة وأكبر القادة فى الإسلام، أسلم على يديه عثمان ابن عفان، والزبير بن العوام، وطلحة بن عبيدالله، وسعد بن أبى وقاص، وعثمان بن مظعون، وأبو عبيدة بن الجراح، وعبد الرحمن بن عوف، وعبد الله بن عبد الأسد أبو سلمة، وخالد بن سعيد، ومنهم من أسلم وهو يفع أو شاب ناشئ كسعد والزبير، فكانا فتوة للإسلام حين جد الجد واشتدت سواعده بسواعد فتيانه الأبرار.

واشترى نفرًا من العبيد المرهقين: منهم بلال بن رباح مؤذن النبى عليه السلام، وكان سيده يخرجه فى حمارة القيظ فيطرحه على ظهره فى بطحاء مكة ويلقى بصخرة عظيمة على صلبه ويدعه وهو يقول: لاتزال هكذا حتى تموت أو تكفر بمحمد. فلا يزيد على أن يقول: أحد. أحد، ويرددها حتى يوشك أن يغيب عن وعيه من ألم العذاب. اشتراه أبو بكر أو استبدله بما يساوى خمس أوراق ذهبًا فقيل له: لو أبيت إلا أوقية لبعناك!. وقال: ولو أبيتم إلا مائة أوقية لأخذته. ومضى فى شراء العبيد والإماء بما يطلبه سادتهم من ثمن يغالون فيه ليعجزوه ويدخلوا الندم على نفسه، وهو لايبالى مايبذل من مالة وجهده لينقذ أولئك المساكين من أيدى المشركين ويريحهم من قسوة السادة المتجبرين. فكان كسبه لقلوب الضعفاء أربح للإسلام وأجدر بسمعته ورحمته من كسبه قلوب العلية الأعلام، وأبلغ فى التدين والفضلية من إقناع بنافذ الحجة وإبلاغ بصادق الكلام. ولعل الدعوة الجديدة كسبت بين الأمم بهذه الرحمة أضعاف ما كسبته بهداية الشرفاء الذين اقتدوا به وذهبوا إلى النبى من طريقه.

ولم يزل فى كل عمل من أعماله منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة مؤسسًا لهذا البناء الشامخ الذى كان هو أول من قام عليه بعد بانيه. فالدعوة الصريحة إلى الإسلام فى المسجد بمسمع من قريش، والهجرة مع النبى من داره، وبذل المال فى البعوث وغير البعوث، وتيسير القدوة للمقتدين بإسراعه إلى التلبية والتصديق كلما التبس الأمر واضطربت الأفكار، ومحاربته قريشًا بعلمه واطلاعه على الأنساب كما حاربهم بماله وسلاحه ومشورته ورأيه – بل كل ماعمل منذ أسلم إلى أن تولى الخلافة، فهو فى جملته

ركن من أركان الدولة الإسلامية يجعله بالحق مؤسسًا لها مشاركًا فى بنائها، بسلطان العقيدة قبل سلطان الحكومة والكلمة المسموعة.

* * *

ثم كانت البيعة بالخلافة..

وكانت بعثة أسامة بن زيد، وكانت حروب الردة، وكانت بعوث العراق والشام، فقام على هذه المآثر الثلاث التى لاتقضى حقها من الإكبار كل ماقام بعد ذلك من بناء.

بعثة أسامة وما بعثة أسامة؟.. يستصغرها بعض المؤرخين المحدثين ويقولون إنها من نوافل البعثات، لأنها بدأت وانتهت بغير فتح وبغير ثمرة وبغير حظ كبير من الغنائم تلجئ إليه ضرورة من الضرورات.

وإنهم لمخطئون

وإن الصديق لعلى صواب

ولقد يكون فى صوابه إلهام أو تكون فيه روية وقصد مرسوم، ولكنه سداد على كل حال، ووجهة قويمة هى أدنى الوجهتين إلى النفع والصلاح.

بعثة أسامة كانت العنوان الأول لسياسة عامة فى الدولة الإسلامية هى فى ذلك الحين خير السياسات.

كان قوامها كله طاعة ما أمر به رسول الله

وكانت الطاعة – جد مطاعة – مناط السلامة وعصمة المعتصمين من الخطأ الأكبر فى ذلك الحين.

وحيث يكون التمرد هو الخطأ الأكبر فالطاعة – بل الطاعة الصارمة – هى العصمة التى ليس من ورائها اعتصام.

وقد كان التمرد هو الخطر الأكبر فى ذلك الحين لا مراء:

كان النفاق يطلع رأسه فى مكة والمدينة، وكانت القبائل البادية تتسابق إلى الردة فى

أنحاء الجزيرة، وكان جند أسامة نفسه يود لو استبدل به أميرًا غيره، وكان أسامة أول من يشك فى طاعة القوم إياه ويترقب أن يخلفه على البعثة أمير سواه.

تمرد، أو نذير بتمرد، فى كل مكان.

وطاعة واجبة هنا حيث نبغ التمرد، أو لا سبيل إلى واجب بعد ذلك يطاع.

طاعة أو شيء.

فإن بقيت الطاعة فقد بقى كل شيء.

وهنا تسعف الصديق طبيعة هى أعمق الطبائع فيه، او هى العبقرية الصديقية فى أوانها، وعلى أحسن حال تكون.

هنا تسعفه القدوة القويمة بالبطل المحبوب.

وهنا يقول وقد خوفوه الخطر على المدينة والجيش يفارقها:

«والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله! ولو أن الطير تخطفتنا، والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة!»

كلمة لو قالها غير أبى بكر لكانت كبيرة، ولكن الذى يقولها أبو بكر وبنته أعز أمهات المؤمنين.

فلا خطر إذن أكبر من خطر الاجتراء على حق الطاعة فى تلك الآونة، ولو جرت الكلاب بأرجل البنات والأمهات.

ومن المؤرخين المحدثين من قال مافحواه: إن بعثة أسامة إنما أرسلت ثأرًا لأبيه زيد الذى قتل فى معركة مؤتة، وإن قاتله فى تلك المعركة قد مات لتوه، أفما كان إرجاء البعثة من المستطاع وقد أدرك ثأر القائد القتيل؟

ومن المهاجرين والأنصار من كان يرى الرأى فى بقاء البعثة بالمدينة بعد موت النبى عليه السلام، وفى مقدمتهم أسامة.

ومنهم من كان يرى أن يتقدم للقيادة من هو أسن منه وأخبر بفنون القتال ومنهم عمر بن الخطاب.

أما أبو بكر فقد رأى العصمة – حق العصمة – فى رأى واحد لا أرى قبله ولا بعده، وهو الطاعة فى غير لىّ ولا هوادة ولا إبطاء، ولو لم يكن التمرد هو الآفة المحذورة فى تلك الآونة لقد كان غير ذلك الرأى أصوب، ولكنه كان آفتها التى لا آفة مثلها، ثم لا خطر إن سلمت الدولة من شرها، فلتكن الطاعة إذن هى الصواب، وهى الملاذ.

وقد ضرب المثل الأول فى الطاعة التى أرادها، فشيع البعثة وهو ماش على قدميه وعبد الرحمن بن عوف يقود دابته بجواره. فقال أسامة: ياخليفة رسول الله، والله لتركبن أو لأنزلن. فقال: والله لا تنزل، ووالله لا أركب، وما علىّ أن أغبر قدمى فى سبيل الله ساعة.

ثم استأذن أسامة قائلا: إن رأيت أن تعيننى بعمر فافعل، فعاد عمر بإذنه: بإذن القائد الذى هو فى مقام الطاعة هناك، حتى على الخليفة وعلى أكبر الصحابة من بعده.

ثم قال لأسامة: اصنع ما أمرك به رسول الله صلى الله عليه وسلم.. ولا تقصرن فى شىء من أمر رسول الله.

أفكان المؤرخون المحدثون على صواب فى أمر هذه البعثة حين قالوا إنها من النوافل بعد مقتل القاتل لزيد أبى أسامة؟

إنهم لعلى خطأ فى كل تقدير قدروه ولو جاريناهم فحصرنا أغراض البعثة فى ذاك الغرض الوحيد، لأن مقتل قائد فى معركة ليس بالجريمة الفردية التى يعاقب عليها القاتل وحده، وإنما المسألة هنا مسألة الجيش كله، وهيبة الأمة التى أرسلت ذلك الجيش وتمثلت فيه بقوتها ومناعة حوْزتها، فإن لم يقع روْع الأعداء المقاتلين أن ذلك الجيش قوة تهاب وتنال حقها من الثأر فقد بطل الغرض كله من القتال.

وفى هذه البعثة بعينها، ماذا كان يحدث لو أن قبائل غسان وقضاعة استضعفت شأن المسلمين وفى أيديها الطريق بين بلاد العرب وبلاد الروم؟ كل شىء جائز أن يكون.

وأوله إغراء الروم بالهجوم وهم عون من تلك القبائل ومن يجتمع إليها من المجترئين والمتحفزين، ولما تقعدهم عن الاجتراء والتحفز هيبة جيوش الإسلام.

ولقد أدرك أناس فى عصر أبى بكر صواب الرأى فى إنفاذ تلك البعثة بعد إنفاذها

وعودتها. فشاع فى الجزيرة العربية خبرها. وروى مؤرخو تلك الفترة أنها كانت لا تمر بقبيل يريدون الارتداء إلا تخوفوا وسكنوا: وقالوا فيما بينهم: لو لم يكن المسلمون على قوة لما خرخ من عندهم هؤلاء.

فإذا كان بقاء أسامة بالمدينة جائزًا لدفع خطر، فإرساله كذلك جائز لدفع خطر مثله، وفازت الدولة بين هذا وذاك بدرس الطاعة، وهو يومئذ ألزم الدروس.

* * *

ثم تكرر هذا الدرس فى أوسع نطاق لأنه نطاق الدولة الإسلامية كلها فى ذلك الحين، وجاءت حروب الردة التى هى مفخرة أبى بكر الكبرى غير مدافع، أو هى مفخرته الخاصة التى انفرد بها فى تاريخ الدعوة الإسلامية بغير شريك. فكان «هو نفسه» كما يقول الغربيون فى تعبيراتهم على حين يذكرون الأعمال التى تدل على صاحبها بجميع خصائصه ولباب شعوره وتفكيره، وتبرزه على حقيقته التى لا مماراة فيها، خلافًا لأعمال أخرى قد تكون فيها هذه «الحقيقة» موضع التباس أو اختلاف.

ففى حروب الردة كان أبو بكر رضى الله عنه هو أبابكر على سوائه وجلائه، ولم يكن موقفه فيها غريبًا كما يسبق إلى الذهن للوهلة الأولى حيثما يخطر للذهن أنه الرجل الوديع الرفيق، وذلك الموقف أولى المواقف بالصلابة الصارمة والبأس الشديد.

غضب الصديق رضى الله عنه فى حروب الردة غضبته التى لابد أن يغضبها وإلا فما هو بغاضب.

أثارته ردة المرتدين لأنها مسته فى كل مايثيره، وأصابته فى كل مايعزه ويغار عليه.

وهنالك الصديق المحب لصديقه، والمعجب الغيور على ذكرى بطله، يثيره أن يغدر الغادرون بعهد ذلك الصديق وذكرى ذلك البطل، ولم تمض له فى قبره أيام أو أسابيع.

وهنالك المسلم «الصديق» الذى آمن ببشارة النصر ولو كره الكافرون، كما آمن من قبل بانتصار الروم على الفرس بعد بشارة القرآن فخاطر على ذلك النصر بالمال والميثاق، ولم يخامره الشك لحظة أنه الرابح لا محالة فى ذلك الخطار، وكذلك غضب فى حرب الردة غضبة الواثق من الحق، الواثق من الغلبة، الواثق من العاقبة، لأنه سمع البشارة

السماوية لينصرن الله الإسلام على الدين كله، فإذا حارب فى سبيل الإسلام فهو لا محالة منصور.

وهنالك الرجل «الدقيق التكوين» يقابل بالاستخفاف فى أول خلافته وقد راض نفسه طوال حياته على المروءة والكرامة والوقار، أنفة من الاستخفاف وكراهة للصغر والاستصغار، فإذا بهم يستقبلونه بما أشاح عنه طوال حياته، وإذا بالأمر صريح بالمقال فضلا عن صراحته بلسان الحال هم يستكثرون عليه كنيته أبابكر فيكنونه أبا الفصيل؟ وأعوانه يردون عليهم ذلك الاستهزاء متوعدين: لترونه غدًا أبا الفحول.

وهنالك الرجل الذى فيه من وثاقة العزم ماقمع به ثورة الحدة وهى أصيلة فى تركيبه، ومن كان له العزم فهو منجده حين يحتاج إليه، وما كان محتاجًا إليه قط لو أنه استغنى عنه فى فتنة الردة، وهى تفاجئه بالغضب المثير.

وهنالك الرجل الذى كان مثلا فى الاقتداء بالرسول حيثما سبقت سابقة يقاس عليها، وقد سبقت هذه السابقة فى فريضة من فرائض الإسلام وإن لم تكن فريضة الزكاة: سبقت فى فريضة الصلاة، وذهب أناس من المثقفين يعرضون على النبى إسلامهم على أن يعفيهم من الصلاة، فقال عليه السلام: «إنه لا خير فى دين لا صلاة فيه». وكذلك لا خير فى دين لا زكاة فيه، فإذا جاء المرتدون يزعمون أنهم مسلمون يقبلون فرائض الإسلام ولا يقبلون الزكاة فليس أبو بكر بالذى يقبل منهم ما يزعمون.

إنما كان أبو بكر إذن أصدق ما كان لنفسه وسرائر مزاجه يوم قابل الردّة بدرس الطاعة التى لا هوادة فيها، ولم يكن فى باطن الأمر غريبًا عن المعهود فيه، وإن لاح فى ظاهر الأمر أنه جاء بالغريب من رجل وديع رفيق.

ولقد أكثر المؤرخون من الكتابة عن حروب الردة ما لم يكثروا قط فى حادث من حوادث صدر الإسلام، وكانوا على حق حين وازنوا بين دعوة الإسلام الأولى فى مقاومة الشرك ودعوة الإسلام الثانية فى مقاومة الارتداد فإنما كانت الغلبة على فتنة المرتدين فتحًا جديدًا لهذا الدين الناشىء، كأنما استأنفت الدعوة إليه من جديد.

ولكنهم لم يكونوا على حق حين حاولوا أن يصبغوا الردة بغير صبغتها وأن يفهموها على غير وجهها، ولا سيما النقاد المغرضين الذين انحرفوا بها عمدًا ليتسللوا منها إلى

الطعن فى نشأة الإسلام. فقالوا: إن ارتداد الأعراب إنما كان دليلا على أنهم قد أسلموا مكرهين، فما عتَّموا أن وجدوا سبيلا إلى النكصة على أعقابهم حتى نكصوا مسرعين.

والمسألة أوضح من هذا لو أراد أولئك النقاد طريق الوضوح.

المسألة أقرب شىء إلى طبائع الأمور فى أشباه هذه الأطوار من كل دين ومن كل مذهب ومن كل دعوة تتناول الناس عامة وخاصة، بل من كل فكرة تخامر الأذهان والقلوب حتى ما كان من قبيل الحكمة والفلسفة والدراسات العلمية التى يعنى بها خاصة الباحثين ولا تتسرب دعوتها إلى السواد. فماذا حدث فى الحكمة بعد سقراط؟ وماذا حدث فى مذهب النشوء بعد داروين؟ وماذا حدث فى علم الأخلاق بعد كانْت أو بعد بِنْتام أو بعد برجسون؟

فالذى حدث من ردة العرب هو الطبيعى المنظور أن يحدث، والذى تَخيله النقاد المغرضون واجبًا مقررًا هو الغريب الذى لم يحدث قط فى دعوة من الدعوات.

وإلا فما هو ذاك الذى كان يتخيله أولئك النقاد المغرضون؟.. أكانوا يتخيلون أن دينًا جديدًا يملك الناس جميعًا فى الجزيرة العربية فيسرى إلى كل نفس، ثم يسرى من كل نفس إلى جميع بواطنها وخفاياها فلا يبقى فيها بقية للنكسة والارتداد؟ أكانوا يتخيلون ذلك الدين مقتلعًا فى مدى تلك السنوات القليلة كل أثر لأطماع الخليقة الآدمية وكل حنين فى قلوب الزعماء إلى الجاه القديم، وكل فضلة من فضلات الجاهلية، وكل باب من أبواب الدسائس التى تنفذ إلى جزيرة العرب من طريق الدول الأجنبية والعصب الداخلية؟.. أكانوا يريدون من الأعراب بعد بضع سنوات أن يوغلوا فى الإسلام أشد من إيغال قبائل نجران أو الغساسنة فى الدين المسيحى بعد بضعة قرون؟

إن تخيلوا ذلك فاللوم على الخيال المضلل وليس على الواقع ولا على العقل السليم ولا على الإسلام.

وما من شىء هو أحرى أن يدل على النشأة الطبيعية فى الإسلام من هذه العوارض الطبيعية التى عرضت له فى حياة نبيه وبعد موته، وأولها حرب الردة وما اقترن بها من عوامل النكسة والاضطراب.

لقد كان النبى مناط الاستقرار فى الجزيرة العربية بعد نجاح دعوته ودخول العامة والخاصة فى دينه، أو كان كما قال الشاعر:

فإنك موضع القسطاس منها فتمنع جانبيها أن يميلا

وإذا غاب «مناط الاستقرار» أو موضع القسطاس فماذا يكون؟ بل ماذا يمكن أن يكون؟

يكون نقيض الاستقرار لا جرم.

أو يكون الميل هنا والميل هناك، ولو كان العارض الذى طرأ قد عرض لأجسام من المادة لا تعرف الدين باختيار، ولا تعرفه باضطرار.

فلما غاب «مناط الاستقرار» أول مرة حدث ما لابد أن يحدث، وطرأ التقلقل الذى لا مناص منه فى كل بيئة ريثما يزول الأثر الطارئ وترجع الأمور إلى نصاب.

فعرض لكل طائفة من الناس تقلقل يناسبها ويجرى فى مجراها.

تقلقل الأنصار وهم مسلمون حق مسلمين، واجتمعوا فى سقيفة بنى ساعدة يبتون بتهم فى مصير الخلافة، لأنه مصير لابد لهم من البت فيه.

وتقلقل المهاجرون من بايع منهم أبا بكر ومن لم يبايعوه، ومنهم عترة النبى وأقربهم إليه وأعظمهم إيمانًا بدينه والغيرة عليه.

وتقلقل فى مكة أناس قريبو عهد بالنفاق، فهموا بالعصيان لولا نذير من ولى السلطان.

أما القبائل فيما وراء ذلك فكان لكل منها نصيب من التقلقل يناسب نصيبها من القرب والبعد والمودة والجفاء.

فأقربهم إلى مهد الإسلام كانوا يخلصون للنبى ويخرجون على من ولى الحكم بعده.

أطعنا رسول الله مذ كان بيننا فيا لعباد الله ما لأبى بكر؟

وأناس منهم آمنوا بالزكاة ولم يؤمنوا بمن يؤدونها إليه، واحتجوا بآيات من القرآن

الكريم حرفوها إلى المعنى الذى أرادوه، ومنها: «خذ من أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها وصل عليهم إن صلاتك سكن لهم».. قالوا: فلسنا ندفع زكاتنا إلا إلى من صلاته سكن لنا! وأبوا أن يدفعوها وإن علموا أن دفعها فريضة من فرائض الدين، فهم لم ينكروا الفريضة ولكنهم أنكروا الجباة.

أما الأبعدون من مهد الإسلام فكان لهم تقلقلهم الذى يعرض لكل بعيد لم يسكن قط إلى قرار، وإنما هو فى اضطراب مستور يتربص أن يثب إلى الجهر ما تهيأ له وثوب.

فأبناء اليمن كان لهم ملك قديم، وكانت لهم أسر معرقات فى الحكم تتداوله تارة بسلطان الحبشة، وتارة بسلطان فارس، وحيناً بين هذا وذاك بسلطان أهل البلاد، وكانت لهم كهانة تمتزج بكل عقيدة من العقائد الكتابية وغير الكتابية. فلما اضطرب بينهم ميزان الأمور برز كل عامل من هذه العوامل فى الفتنة بأثر من آثاره، ونجح بينهم الأسود العنسى صاحب النبوة فيهم - وهو مسخ مشوه - لأن التشويه كان من آلات الكهنة والسحر عندهم ولم يكن من عوائق النجاح فى أمثال هذه الدعوات. فكان وفاقاً لشروط الكهانة اليمنية على شبه من كاهنهم «سطيح» الذى قيل فيه إنه كان لحماً بغير عظم، أو كان من لين العظام بحيث يدرج جسمه كما يدرج الثوب خلا جمجمة رأسه، وهى مع هذا تمس باليد فيؤثر فيها المس الخفيف لفرط لينها، وعلى شبه من كاهنهم «شق» الذى سمى بهذا الاسم لأنه أشبه بنصف إنسان مشقوق لنحافته وانسلاخ أعضائه. فكانت حقارة الأسود العنسى آلة من آلات نجاحه تبطل العجب ولا تدعو إليه، كلما استعظم أحد أن يظفر مثله بما ظفر به من الفوز العاجل فى بداية الفتنة اليمنية.

وحينما رجعت الفتنة إلى مطامع العنسى وأمثاله من المشعوذين الطامحين إلى الصولة فقد بدأت طلائعها من أيام النبى عليه السلام فى أنحاء متفرقات من الجزيرة، لأن هؤلاء المشعوذين لم يفهموا الإسلام ولم يعقلوا قط أنه دعوة إصلاح لخير الناس، وكل ما عقلوه أنه حياة كاهن أفلحت فحق لهم أن يطمعوا فى الفلاح لأنهم كهان لا تعوزهم وسائل السحر وحبائل الخديعة. فتطلعت رءوس الفتنة من هنا وهناك والنبى عليه السلام بقيد الحياة، إلا أنها لم تتفاقم ولم تبلغ مداها من الانتشار فى حياته عليه السلام.

ولكنها تجمعت إلى يوم الرجة التى ارتجتها الجزيرة العربية بعد فراقه هذه الدنيا. وهى

رجة لا محيص عنها. فما كان معقولا ولا منظورًا أن يحدث هذا الحادث الجلل بغير رجته التى تقترن به لا محالة، وإذا وقعت الرجة فما كان معقولا ولا منظورًا أن تقع على غير هذا المثال.

وغاية ما يفهم من هذه الرجة التى لا غرابة فيها أنها الأثر المعقول المنظور لمطامع الطامعين وخلائق الأعراب وذوى الجهالة من أهل البادية فى كل جيل. فما عرف التاريخ قط أناسًا منقطعين للبداوة الأولى إلا عرف منهم الاستعداد لأمثال هذا الانتقاض كائنًا ما كان الدين الذى ينتحلونه والزمن الذى قضوه فى انتحاله. وربما مضت مئات السنين على قبيلة من البادية المغرقة فى البداوة وهى تدين بالمسيحية أو الإسرائيلية ثم تنقلب مثل انقلاب الردة فى رجة من الرجات النفسية أو الاجتماعية التى تشبهها، ولا يستغرب العالمون بطبائع الناس هذا الانقلاب بعد مئات السنين كما استغرب أناس أن ينقلب بعض أهل البادية على الإسلام أو على دولة الإسلام، ولما ينقض على دخولهم فيه عشر سنين.

على هذه الحقيقة ينبغى أن تفهم فتنة الردة إنصافًا للتاريخ إن لم يكن إنصاف الدعوة المحمدية مما يعنى أولئك المستغربين.

ولإنصاف التاريخ ينبغى أن تفهم هذه الفتنة على أنها أصدق امتحان للدعوة المحمدية خرجت منه دعوة من الدعوات.

فإذا كانت فتنة الردة قد كشفت عن زيغ الزائغين وريبة المرتابين فهى قد كشفت كذلك عن الإيمان المتين والفداء السمح واليقين المبين فحفظت للناس نماذج للصبر والشجاعة والإيثار والحمية تشرق بها صفحات الأديان، وجاء الشهادة الأولى على لسان رجل من أصحاب طليحة سأله: ويلكم ما يهزمكم؟ فقال له: أنا أحدثك ما يهزمنا. إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله، وأنا لنلقى قومًا كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه!

وقد امتحنت دعوة الإسلام وامتحنت جميع الدعوات التى نهضت لمنافسته بقوة السلاح وقوة الدهاء وقوة العصبية فقضت له بالبقاء وقضت عليها بالفناء. ولو كان نجاح الدعوة الإسلامية نجاح سلاح أو دهاء أو عصبية لقد كان أصغر متنبئ من أدعياء الردة خليقًا أن يطمع فى مثل ذلك النجاح، لأنهم بدءوا دعوتهم ومعهم من جموع القبائل التى

تعتز بعصبياتها ما لم يتهيأ لصاحب الدعوة المحمدية قبل عدة سنين، وصدقهم أناس كانوا يقولون إن نبيًّا كاذبًا منهم خير من نبى صادق من مضر أو قريش.

وأصدق من هذا كله فى امتحان الدعوة المحمدية أنها خرجت من فتنة الردة وهى بشهادة الواقع والحق بنية حية تسير على سنن الحياة الصحيحة التى لا زيف فيها ولا اصطناع: يعرض لها الخطر من أسبابه، وتعرض لها السلامة من أسبابها، وتنجو كما تنجو البنية الحية القوية حيثما تجمعت فيها عناصر النجاة.

فليست هى جسمًا محجبًا بالأوهام كما زعم طليحة الكذاب لجسمه أنه لا يعمل فيه السيف ولا تصيبه السهام. ولكنها جسم صحيح يعمل فيه السيف وله مع ذلك ما يدفع الطعن ويبرئ من الجراح.

ولاشك أن المسلمين لم يواجهوا جوانب الخطر كلها فى حروب الردة دون المرتدين الذين أشعلوا الفتنة وصلوا بنارها. فقد كانت حروب الردة فتنة كجميع الفتن التى لا يؤمن خطرها على الفريقين المشتركين فيها فكان فيها جانبها الخطر على أهل الردة كما كان فيها جانبها الخطر على الإسلام. وما كان منها خطرًا على فريق فقد كان فيه للفريق الآخر أمان.

وقد كان أمانها على الإسلام أن المرتدين متفرقون لا تؤلف بينهم وحدة معلومة المقاصد فى السياسة ولا فى الدين، وأنهم هددوا المدينة بجموع البادية فأثاروا فيها سليقة الدفاع ووحدوا بين صفوفها وهى موشكة أن تتصدع بين الشيع والأهواء. فعلم أهل المدينة كما علم أهل مكة أنهم مهددون بجائحة من البادية لا يطمئنون بعدها إلى مصير، وهبوا يتعاونون ويتكاتفون لاتقاء تلك الجائحة سواء من بايع الخليفة ومن تثاقل عن البيعة فى أوائلها. وتقدم على رءوس المدافعين أناس كانوا فى يوم البيعة متخلفين، وجرى القضاء بوقوع أهل الردة فى خطأ من أخطاء العجلة كان فيه نفع – أى نفع – للمسلمين. فهجموا على المدينة مغترين بكثرتهم وقلة المدافعين عنها، ولم يحسنوا الأهبة للهجوم كما أحسن المسلمون الأهبة للدفاع. فثارت حمية الأنصار والمهاجرين معًا للدين الذى آمنوا به، وثارت حميتهم معًا للجوار الذى روعوا فيه، وكانت هذه الهجمة وبالا على الردة وفاتحة من فواتح الهزيمة، ولو أنهم قنعوا بالبقاء فى باديتهم والتوغل فى صحرائهم، لقد كان

ذلك أدنى إلى الحزم من ناحيتهم، وإن لم يكن حتما لزامًا أن يفضى بهم آخر الأمر إلى نجاح.

وزاد فى بواعث الطمأنينة إلى جانب المسلمين أن عاد جيش أسامة سالمًا موفورًا ولما ينقض على مبعثه شهران على أرجح الأقوال: عاد بالأسلاب والغنائم من تخوم الروم ولم يقتل منه أحد ولا بدا عليه عناء أو مشقة مما كان فيه.

ولا تجهل قبائل البادية ما هى دولة الروم التى اجترأ الجيش على تخومها فى غير مبالاة. إنهم يعلمون ما هى دولة الروم بالعيان أو يعلمون ما هى دولة الروم بتهويل السماع، وجيش يذهب إلى تخوم تلك الدولة ثم يعود غير مسحوق ولا منقوص بل يعود بالغنائم والأسلاب، كيف تستخف به قبيلة هائمة فى عرض صحراء؟ وكيف تخفى دلالة هذا الحادث على أناس اشتهروا بتنسم الأخبار كما اشتهروا باستطلاع الدلائل على القوة والضعف وعلى الخطر والأمان؟

إن جيش أسامة قوة ذات بال فى الجزيرة العربية، ولكنه فعل بسمعته ومعناه ما لم يفعله بقوته وعدده. فأحجم من المرتدين من أقدم. وتفرق من اجتمع، وهادن المسلمين من أوشك أن ينقلب عليهم، وصنعت الهيبة صنيعها قبل أن يصنع الرجال وقبل أن يصنع السلاح.

* * *

تلك فتنة الردة بجملتها، وبجانبى الخطر والسلامة فيها.

قابلها أبو بكر رضى الله عنه بأحزم ما تقابل به من مبدئها إلى منتهاها، وعالجها علاجها فى كل خطوة من خطواتها وكل ناحية من نواحيها.

فبادرها بالحزم من صيحتها الأولى، وتعقبها بالحزم يومًا بعد يوم وساعة بعد ساعة حتى أسلمت مقادها وثابت إلى قرارها.

وأحزم الحزم فى تلك الفتنة عقابه للمرتدين الذين مردوا على العصيان ولم يستجيبوا نصيح المودة ولا استجابوا نذير الجزاء. فقد كان العقاب أليق شىء بالوزر الذى اجترموه ومردوا عليه: أناس قد استوهنوا سلطان الدين وبخلوا بالمال فبلغ من شحهم

به أنهم أنكروا حقوق الدين كله فى سبيل حصة من الزكاة. فجزاؤهم أن يشهدوا من بأس ذلك السلطان ما يعتبرون به ولا ينسونه مدى الحياة، وأن يفقدوا المال الذى من أجله تبادروا إلى الفتنة واستبقوا إلى العصيان. فاستبيحت ديارهم ومراعيهم ومساقيهم ووهبت عطايا للمجاهدين، ولان خالد فى بعض المواقع وأبو بكر الوديع الرفيق لا يلين، ووضع القصاص فيمن تجاوزوا منع الزكاة إلى قتل المسلمين بين ظهرانيهم، فلم تأخذه فيهم هوادة بعد إصرارهم على العصيان واعتدائهم بالقتل وإعراضهم عن النصيح والنذير.

جزاء حق لأنه من جنس العمل.

استهانة يقابلها بأس، وبخل بالمال يقابله ضياع للمال، ونفس بنفس، ومجاهدون مخلصون يؤثرون الإيمان على عروض الدنيا أخذًا بثأرهم من عصاة غادرين يؤثرون عروض الدنيا على الإيمان.

* * *

قال أبو رجاء البصرى: «دخلت المدينة فرأيت الناس مجتمعين ورأيت رجلا يقبل رأس رجل ويقول له: أنا فداؤك ولولا أنت لهلكنا، قلت: من المقبل ومن المقبل؟ قالوا: هو عمر يقبل رأس أبى بكر فى قتال أهل الردة إذ منعوا الزكاة حتى أتوا بها صاغرين»

وأبو رجاء من ثقات الرواة: وكلا الرجلين جدير بما روى عنه من مودة وإكبار، عمر جدير بإكبار أبى بكر، وأبو بكر جدير بإكبار عمر إياه، فالخبر صحيح أو هو كالصحيح، إن لم يكن فهو حرى أن يكون.

هنالك ولا ريب أعظم رجلين واجها حروب الردة بين عظماء المسلمين فى ذلك الحين.

وما كان اثنان قط أقرب منهما فى القصد، ولا كان اثنان قط أبعد منهما فى الرأى بما أشارا أول الأمر فى شأن أهل الردة.

ولا ينتهى العجب فى موقفهما هذا عند فرط الاقتراب وفرط الابتعاد، ولكنه عجب عاجب من غير ناحية فيه، فإذا قدر لهما أن يتفقا مقصدًا ويختلفا رأيًا فقد كان المظنون أن يتجه عمر إلى جانب الشدة، وأن يتجه أبو بكر إلى جانب اللين، فجاء اختلافهما يومئذ على غير المظنون.

ومهما يكن من حق الدراسة التاريخية فى هذا الموضوع فحق الدراسة النفسية يساويه إن لم يزد عليه، أو ربما كان حق الدراسة التاريخية مطلوبًا لما ينتهى إليه من هذه العجيبة النفسية التى هى غاية العلم الذى نصبو إليه. إذ ليس للتاريخ ولا لغيره من العلوم غاية أشرف ولا أنفس من تعريف الإنسان بالإنسان.

كان عمر يقول لصاحبه: يا خليفة رسول الله؛ تألف الناس وارفق بهم!.. كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله. فمن قال لا إله إلا الله فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه؟

وكان أبو بكر يقول: «والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة، فإن الزكاة حق المال، والله لو منعونى عناقًا[1] لقاتلتهم على منعها». ويملكه الغضب فيصيح بصاحبه: «يا بن الخطاب؛ رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك؟ أجبار فى الجاهلية وخوار فى الإسلام؟ إنه قد انقطع الوحى وتم الدين، أو ينقص وأنا حى»؟

فكيف اختلف الصاحبان هذا الاختلاف؟

أما أن يختلفا فلا عجب، وأما أن يتصارحا بالاختلاف فلا عجب فيه كذلك.

وإنما العجب - عند النظرة الأولى - أن يجيء منهما الاختلاف على هذا النحو الذى خالف المنظور كما خالف المعهود من طبائع الرجلين، وهذا الذى يستوقف النظر فى طليعة ما يستوقف الأنظار من حروب الردة، ومن جميع ما أعقب وفاة النبى عليه السلام وقيام الخلافة الأولى.

وصفوة ما يقال فى تفسير هذه العجيبة حقيقتان غير عجيبتين: أولاهما أن المعهود من أخلاق الإنسان ليس هو الإنسان كله، بل فى الإنسان شىء كثير مما ليس يعهده الناس منه فى عامة أحواله. والحقيقة الثانية أن الخلق المعهود قد يفسر على وجوه كثيرة بعضها موافق للمتبادر إلى الذهن وبعضها لا يوافق المتبادر إلى الذهن إلا بعد إنعام واستقصاء.

فالشدة فى أبى بكر موجودة تظهر فى مناسباتها.

واللين فى عمر موجود يظهر فى مناسباته.

---

(١) الأنثى من أولاد المعز.

وأولى المواقف أن يظهر فيها هذان الخلقان هو الموقف العصيب، لأنه موقف المراجعة الذى لا يذهب فيه الإنسان مع الخاطرة الأولى.

فالموقف العصيب هو الموقف الذى يراجعُ فيه الإنسان نفسه ويثوب إلى المكنون من أخلاقه فيصل منها إلى القرار الذى يخفى على الناس فى عامة الأحوال ولا يظهر لهم للوهلة الأولى. فيشتد اللين ويلين الشديد، أو يبدو كل منهما على الحالين بجميع ما فيه من شدة ولين.

ومن ثم يبدو مالم يكن بمعهود فى عامة الأحوال.

على أن الموقف الذى وقفه عمر فى حرب الردة معهود فيه إذا علمنا أن الخلق الإنسانى يفسر نفسه على عدة وجوه.

فعمر متصرف بالرأى.

وعمر جرىء فيما يرى.

وعمر وثيق الإيمان.

وعمر عادل متحرج فى عدله.

وهل كان موقفه من المرتدين خلواً من خلق من هذه الأخلاق؟

ألم يكن فيه تصرف حين أراد أن يؤجل أمر الزكاة إلى يوم تتبدل فيه الأحوال؟

ألم يكن فيه جرأة حين جهر بهذا الرأى ولم يحفل بمداراته؟

ألم يكن فيه ثقة بأن المصير إلى ثبات الإسلام وإن ضل من ضل وزاغ فى الطريق من زاغ؟

ألم يكن فيه تحرج من قصاص لم يتضح له لحقه فيه حتى وضح له ذلك الحق فبطل الحرج ووافق صاحبه فى كل ما ارتآه؟

فهذا هو عمر المعهود، ولكن بعد إنعام واستقصاء.

أما أبو بكر المعهود فنحسب أننا قد بيناه فيما تقدم، فبينا أن ما صنع من قتال أهل

الردة كان أقرب الأعمال إلى «الصدبقيات المطبوعة»، وإن بدا فى النظرة الأولى على غير ذلك، ونحن لانفهم الإنسان حقًّا إذا فهمنا أنه يعيش حياته كلها ولايأتى بشيء يخالف ما عهدناه وانتظرناه. ونحن لا نستغرب الموقوفين من أبى بكر وعمر إذا أحضرنا هذه الحقيقة التى هى أقمن شيء بالإحضار فى دراسة النفوس الإنسانية، وبخاصة نفوس العظماء.

وقد وضح كل الوضوح أن أبا بكر كان على صواب عظيم.

ولكن لم يتضح كل الوضوح أن عمر كان على خطأ عظيم.

ولكن يخيل إلينا اليوم أننا لو كنا فى عصر الردة لوضح لنا يومئذ ما يتضح لنا اليوم، ولم نتردد فى متابعة أبى بكر إلى القتال على يقين أنه الصواب كل الصواب أو أنه الواجب الذى لا مثوبة فيه.

ولكننا لو حضرنا ذلك العصر لجاز كثيراً أن يميل منا الألوف - بل ألوف الألوف - إلى القول بالمسالمة والمتاركة حتى حين، وجاز أن يعتقد منا الكثيرون أن التربص بالمرتدين حتى يعود جيش أسامة ويثوبوا إلى الحسنى أسلم وأحزم، فإن لم يثوبوا إلى الحسنى فعدة القتال يومئذ أوفى وأعظم، وقد يجنح بنا إلى هذا الرأى أن الخطر من نكسة المنافقين فى مكة والمدينة غير بعيد، وأن الخطر من غاية المرتدين غير مستحيل، وأن القبائل إن بقيت فى باديتها فأمرها مستدرك حتى تعالج بالهوادة أو بالنذير أو بالقتال آخر الأمر على ثقة من الغلبة فيه.

ذلك جائز واضح الجواز، وما كان كذلك فالقول به ليس بالخطأ العظيم، وإن بينت الحوادث أن القول بغيره كان صواباً جدَّ صواب وإنما الخِلاف فى أهل الردة من ضروب الخلاف التى يفضها الفقهاء لأن الرأى وحده لا يكفى ولن يكفى يوماً لفض خلاف فى مسألة حاسمة من مسائل التاريخ.

وقد شاء القضاء أن يكون أبو بكر بطل الإسلام فى حروب الردة غير مدافع. فهو فيها صاحب الشرف الأول بين ذوى الرأى وذوى العمل فى تلك الحروب. وكأنما عمر قد وضع بشفتيه شفاه المسلمين جميعاً على ذلك الرأس الجليل يوم انحنى عليه بالتكريم والتقبيل. وحسب المؤرخ والنفسانى عبرة أن يلحظ هذه الثروة النفسية فى صدر الدعوة

الإسلامية: دعوة فيها لكل موقف أبطال، وفى كل بطل منها أهبة لكل حادث طارئ تختلف فيه الأهب والآراء، وفيهم جميعاً التعاون والإخلاص مختلفين ومتفقين.

* * *

وما انتهت حروب الردة حتى بدأت فى تاريخ الإسلام مرحلة أخرى أجل وأعظم، تصدى لها الصديق بذلك العزم الذى تصدى به لكل ما عقد النية عليه وآمن بصوابه: إقدام كأنه لا يعرف المبالاة، والتدبير ومبالاة وتدبير كأنهما لا يعرفان الإقدام.

كانت المرحلة الأولى تأمين الإسلام فى عقر داره.

وكانت المرحلة الثانية تأمين الإسلام فى حدوده وتخومه، ودفع الخطر من هجوم الأعداء عليه.

ونقول تأمين الحدود ولا نزيد، لأننا نعتقد أن الصديق رضى الله عنه أخذ فى تسيير البعوث إلى حدود العراق والشام وهو على هذه النية دون نية الفتح بالسلاح، وأنه رضى الله عنه قد التزم فى سياسته الخارجية خطة النبى عليه السلام فى تلك السياسة، وهى الخطة التى ظهرت فى بعثة تبوك ثم فى بعثة أسامة بن زيد، وأصدق ما يقال فيها أنها خطة لا هجوم فيها ولا تهجم ولا باعث لها إلا دفع الأذى، وحماية الطريق، والتمهيد لنشر الدين بالحسنى والبرهان إن تيسر نشره بالحسنى والبرهان، فإن قامت العقبة من قوة طاغية تحول دون ذلك فعلى القوة الطاغية حساب تلك العقبة، حيثما حان أوان الحساب.

ففى غزوة تبوك – كما قلنا فى عبقرية محمد – «عاد الجيش الإسلامى أدراجه بعد أن أيقن بانصراف الروم عن القتال فى تلك السنة، وكان قد سرى إلى النبى نبأ أنهم يعبئون جيوشهم على حدود البلاد العربية، فلما عدلوا عدل الجيش الإسلامى عن الغزوة على فرط ما تكلف من الجهد والنفقة فى تجهيزه وسفره».

أو كما قلنا فى عبقرية عمر إن دولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم الجزيرة وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبى عليه السلام وكان المسلمون يعيشون فى فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها، يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبى حيث يقول: «... وكنا تحدثنا أن غسان تنتعل النعال لغزونا، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابى ضرباً شديداً وقال: أثم هو! ففزعت فخرجت إليه وقال: حدث أمر

عظيم... قلت: ما هو؟ ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا. بل أعظم منه وأطول. طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه!»

وهو حديث يتبين منه مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار.

فلما تولى الصديق رضى الله عنه الخلافة أنفذ بعثة أسامة التى يصح أن تسمى بلغة العصر الحاضر بعثة تأديبية لردع القبائل التى تبعث فى الطريق بين الحجاز والشام تأميناً لتلك الطريق وتوطيد لهيبة الإسلام فى نفوس تلك القبائل فلم تجاوز البعثة هذا الغرض المحدود ولم تلبث أن قفلت إلى المدينة بعد أربعين يوماً فى قول بعض المؤرخين وسبعين فى قول آخرين.

أما غزوة فارس فقد كانت استطراداً لحروب الردة فى أطراف البحرين فكانت القبائل التى تدين لسلطان فارس توالى الإغارة على أرض المسلمين فيدفعونها ويقتصون منها ويتعقبونها فى بلادها، وكان الصديق رضى الله عنه يجهل اسم القائد المقدام الذى كان يتولى الدفاع والتعقيب فى تلك الأنحاء فسأل عنه فى شىء من العجب: من هـذا الذى تأتينا وقائعه قبل معرفة نسبه؟ فعرفه به ابن قيس بن عاصم قائلاً: هذا رجل غير خامل الذكر ولا مجهول النسب ولا ذليل العماد: هذا المثنى بن حارثة الشيبانى!

فكان هذا الاستطراد فى حرب الردة بداءة الاشتباك بفارس ومن والاها من قبائل البحرين والسواد، ومضت الحوادث شوطاً قبل أن تنقلب إلى الحرب الضروس بين العرب وفارس فى أوسع نطاق، فلما أرسل الصديق خالداً لنجدة المثنى أمره أن «يتألف أهل فارس ومن كان فى ملكهم من الأمم» وتقدم خالد فى تأمين الطريق فصالح أهل الحيرة، وغيرهم على «أن لا يخالفوا ولا يعينوا كافراً على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلوهم على عورات المسلمين... فإن هم خالفوهم فلا ذمة ولا أمان وإن هم حفظوا ذلك ورعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد، وعلى المسلمين المنع لهم وأيما رجل منهم وجد عليه شىءمن زى الحرب سئل عن لبسه ذلك، فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب...»

فمن طلائع الغزوة الفارسية يلوح للمتتبع أنها غزوة فرضتها الحوادث على الخليفة الأول، فاستجاب لها بما ينبغى أن يستجيب، وقبل المناجزة حين لم يكن له من قبولها

مناص ولا متحول، ولم ينس مع هذا أن يتألف الأمم ويسالم الأمراء ويدعوهم إلى السلام والإسلام، ويشخص إليهم من يعلمهم ما هو وصف الدين الذى يدعوهم إليه. فإن أصاخوا إليه فلا حرب ولا عداء، وإن جردوا له السيف رجع معهم إلى حكمه الذى نزلوا عليه.

* * *

وهكذا قدر للخليفة الأول أن تتوطد على يديه دعائم الدولة الإسلامية الناشئة فى سياستها الخارجية، فما صنعه فقد استمر فيه على خطة النبى عليه السلام، وما صنعه الذين لحقوا به فإنما هو نتيجة لازمة لما بدأ فيه.

وشاء الله أن يشهد سداد رأيه بعينه وهو حظ لا يتاح للكثيرين ممن يفتتحون الدول العظام ولا سيما الشيوخ. فشهد سداد رأيه فيما تم من أعماله وفيما هو آخذ فى التمام وفارق الدنيا وهو يعلم أنه قارن التوفيق فى حرب فارس كما قارنه فى حرب الردة، وليس بينهما تفاوت فى الإقدام ولا فى ثقة الإيمان.

ويحق لمن يؤرخ تلك الحوادث، ولمن يبحث فى صفات الصديق ومناقبه، أن يسأل: ما مبلغ تلك الثقة من الإيمان؟ وما مبلغها من الحساب؟

إنه سير البعوث لإخضاع الجزيرة العربية وهى ترتج رجتها الكبرى وليس معه من الجند إلا قلة محدودة من أهل تلك الجزيرة.

وإنه سير البعوث إلى تخوم فارس والروم وليس معه من قوة غير المسلمين من العرب، مستثنى منهم فى أول الأمر كل من تابوا بعد ردة، وإنه لتفاوت بين القوتين أعظم من التفاوت بين جيش الخليفة وجيوش المرتدين.

أفكانت مجازفة؟

أفكانت يقيناً لا تصحبه الروية وهى فى الدين الإسلامى مطلوبة مع اليقين؟

لاريب أن اليقين كان أكبر العدد التى تقدم بها الصديق فى بعوث الردة وفى بعوث فارس والروم على السواء.

ولاريب أنه أقصى المسلمين الذين تابوا بعد ردة فلم يلحقهم بالجند الموجهين إلى تخوم

الدولتين، لأنه علم أن العدة الكبرى فى أولئك الجند هى عدة اليقين الذى لا يتزعزع ولا يدركه الوهن والطمع.

ولاريب أن يقين الصديق بنصرة الإسلام على الدين كله فى يوم من الأيام قد كان أقوى يقين سكن فى قلب إنسان أو سكن إليه قلب إنسان.

فكل وعد من وعود القرآن قد كان عنده حقيقة عيان، بل أمكن من حقيقة العيان.

وكل كلمة سمعها من النبى بخبر من أخبار الغد المجهول فهى عنده شاهد من شواهد الحاضر الملموس باليدين.

نزل القرآن الكريم بغلبة الروم على الفرس فى بضع سنين فذهب الصديق إلى مشركى قريش يكبتهم بنبأ هذا النصر القريب لأنهم كرهوه كراهة منهم فى كل أهل كتاب، وأحبوا نصر فارس حبًّا منهم لكل عابد وثن، وقال لهم: ليظهرن الروم على فارس! أخبرنا بذلك نبينا... فصاح به أبى بن خلف الجمحى: كذبت يا أبا فصيل! قال الصديق: أنت أكذب يا عدو الله، ودعاه أبىٌّ أن يراهنه على عشر قلائص. فعاد إليه يقول: بل على مائة إلى تسع سنين. لأنه سمع وعد القرآن، ووعد القرآن حقيقة عيان، بل أمكن من حقيقة العيان.

ولما تعقب جاسوس المشركين سراقة بن جعشم ركب النبى عليه السلام فى الهجرة سمعه الصديق يقول لسراقة: كيف بك إذا لبست سوارى كسرى؟

فما شك الصديق أن الإسلام غالب الأكاسرة فى يوم من الأيام، وأنه منصور على الدين كله كما جاء فى الكتاب وفى حديث صديقه الرسول الأمين.

ذلك كله لاريب فيه

سيُنصر الإسلام على الدين كله فى يوم من الأيام. ذلك خبر عيان بل أمْكن من خبر العيان.

ولكن أى يوم؟ ومتى يحين الأوان؟

هنا تبدأ الروية إلى جانب اليقين، بل تجب الروية على ولى الأمر فى الإسلام كما يجب اليقين.

ونعتقد نحن أن الخليفة الأول قد أعطى الروية حقها كما أعطى اليقين حقه، فما كـان أبو بكر بالرجل الذى ينسى الحيطة كلما وجبت الحيطة على ولى الأمر، وهى هنا كأوجب ما تكون.

وحسبنا من ذلك حيطته فى حراسة المدينة وتبييت الجند بالمسجد حين تجرد لكفاح أهل الردة، ثم وصيته لخالد بن الوليد – وقد علم حنكته فى فنون الحرب وقدرته على قيادة الجيوش – فلم يُسنه هذا العلم أن يزوده بالنصح حين خرج لحرب المرتدين، فيدير هذا النصح كله على الحيطة واليقظة كما قال من كلام رصين وجيز: «إذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً عن الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة، واستظهر بأفراد، وسر بالأدلاء، وقدم أمامك الطلائع ترتد لك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة واحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات فإن فى العرب غرة... وإذا لقيت أسدًا وغـطفان فبعضهم لـك، وبعضهم عليك، وبعضهم لا عليك ولا لك، متربص دائرة السوء ينتظر لمن تكون الدبـرة فيميل مـع من تكون لـه الغلبة، ولكن الخوف عندى من أهل اليـمامة، فـاستعن بالله عـلى قتالهم، فـإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم، فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة، سر على بركة الله»

وأدل من هذه الوصية على الحيطة والاحتراس فى كفاح الأجانب وصيته ليزيد بن أبى سفيان فى فتوح الشام حين يقول: «... وإذا قدم عليك رسل عدوك فأكرمهم وأقلل لبثهم حتى يخرجوا من عسكرك وهم جاهلون به، ولا تريثهم فيروا خللك ويعلموا علمك، وأنزلهم فى ثروة عسكرك، وامنع من قِبلَك من محادثتهم، وكن أنت المتولى لكلامهم، ولا تجعل سرك كعلانيتك فيختلط أمرك... وأكثر حرسك وبددهم فى عسكرك، وأكثر مفاجأتهم فى محارسهم بغير علم منهم بك، فمن وجدته غفل عن محرسه فأحسن أدبه وعاقبه فى غير إفراط، وأعقب بيتهم بالليل واجعل النوبة الأولى أطول من الأخيرة فإنها أيسرها لقربها من النهار...»

ولم ينس قط ما بين جنده وجند العدو الأجنبى من فروق العدة. فكان يعمل فى تدارك هذا الفرق ورأب هذا الصدع ما استطاع. فذهب يوماً يتفقد جنده الذين هموا بالخروج لغزو الشام فلم تعجبه عدتهم وسأل من حوله: ما ترون فى هؤلاء إن أرسلتهم إلى الشام فى هذه العدة؟ فقال عمر: ما أرضى هذه العدة لجموع بنى الأصفر، وقال بقية أصحابه:

نحن نرى ما رأى عمر، فكتب إلى أهل اليمن يستكمل العدة ويستنهضهم إلى الجهاد ليخفوا إليه بما يسد هذا النقص من جند وسلاح.

فالرجل الذى لا تفوته فائتة من شأن القبائل التى يرسل إليها بعوثه، والرجل الذى يختار القائد فيحسن اختياره ثم لا ينسى مع ذلك وصيته وتحذيره وإتمام عدته بما يقارب عدة عدوه، والرجل الذى يقرن ذلك كله بالحيطة فى مدينته بما فى وسعة – ليس هو الرجل الذى يزجى البعوث إلى تخوم فارس ولم يأخذ للأمر مثل هذه الحيطة ولم يعمل فيه مثل هذه الروية، وليس بالذى يجازف وله مندوحة عن المجازفة من إرجاء أو مسالمة إلى حين. وإنما يرجو الغلبة بالقليل على الكثير لأنه يعتمد على «عدة الإيمان» ويعلم كما قال ليزيد بن أبى سفيان: «قد نبأنا الله أن الفئة القليلة منا تغلب الفئة الكثيرة بإذن الله، وأنا مع ذلك ممدكم بالرجال فى أثر الرجال حتى تكتفوا ولا تحتاجوا إلى زيادة إنسان».

وإننا لنعلم اليوم أن الصديق لم يجازف قط بتجريد البعوث إلى تخوم فارس والروم، ونعلم أن عوامل النصر كانت كلها أو معظمها فى صفوفه، وأن عوامل الهزيمة كانت كلها أو معظمها فى صفوف أعدائه.

نعلم اليوم أن الفرس قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمتها الحرب الخارجية والفتن الداخلية، وباخت نارها التى تعبدها فى قلوب أهلها قبل أن تبوخ فى معابدها ومشاعلها، وشاع فيهم الخوف من الثبات فى القتال حتى قيدوا بعضهم إلى بعض بالسلاسل ليحولوا بين هارب وهربه، وقلت الدربة فى قادتهم حتى تخيروا أسوأ المواقع وأسوأ الأوقات للهجوم فى معارك كثيرة.

ونعلم أن الروم قد انهزموا لأنهم كانوا يدفعون العرب عن دولة حطمها ما قد حطم الفرس من الحروب الخارجية والفتن الداخلية، وباخت عقائدها فى صدورها لفرط ما أرثها من الجدل العقيم والمحال الذميم، واستكانت إلى الذلة زمنًا حتى رضيت بالجزية تؤديها لبرابرة الهون والأبارة، واشتملت على أمم كثيرة تعاديها وتتربص بها الدوائر كلما طمع الطامعون فيها.

نعلم اليوم ذلك من الواقع الذى وقع وبطل الشك فيه، ومن التاريخ الذى تفتحت أمامنا صفحاته وقد زال عنها الحجاب.

ولكن الصديق لم يكن قد رأى هذا الذى رأيناه، ولا تصفح هذا الذى تصفحناه، فهل معنى ذلك أنه أقدم بغير علم، وأنه نسى ما طبع عليه من الحيطة والحزم، وأنه سها عن واجب الروية وقد تهيأ له واجب اليقين؟!

لا. فإن الذى كان يعلمه الصديق قد كان يكفيه ويغنيه عن هذا الذى علمناه.

كان يعلم أن الفرس قد خسروا قبل الإسلام وقعة ذى قار وهم أقوى صولة والعرب أضعف شأناً من شأنهم بعد الإسلام.

وكان يعلم أن الروم قد صبروا على بعثتين عربيتين بلغتا من بلادهم إلى التخوم وأوغلتا فى بعض الأطراف ثم فترت همتهم عن مقابلة ذلك بالقمع والقصاص السريع.

وكان يعلم أن العرب إن طلبوا الدين حاربوا صادقين فى القتال، وإن طلبوا الدنيا حاربوا صادقين فى القتال، وأنهم موعودون بالنصر ومؤمنون بصدق الوعد ومقبلون بنفوس تحب الموت كما يحب أعداؤهم الحياة، وأنهم خفاف لاتثقلهم العدد، محميون من وراء ظهورهم بالصحراء إن وجبت الرجعة مقدمون على أرض خبرتها طلائعهم وهونت عليه خطبهم، وأبلغته من أخبار فتنها ومفاسدها ما يملى له فى الإيمان بالقدرة عليها.

فإذا علم هذا فهو حسبه من الروية مقروناً بذلك اليقين الذى لوسها عن كل روية لكان له بعض العذر، وكان به جل الغناء.

* * *

وفى أقل من ثلاث سنوات قصار أنجز ما أنجز من تلك المآثر الطوال. وفى أقل من ثلاث سنوات أنفذ بعثة أسامة وفى سبيلها ما فيه من صعاب وقمع الردة وحولها ما حولها من خطر، ووطئ حدود فارس والروم ولها ما لها من هيبة ومنعة: ثلاثة أركان للدولة الإسلامية لم يكن ليقوم لها ركن قبل أن تقوم، ولو أنها حسبت لثلاثين سنة - ولم تحسب لثلاث سنوات قصار - لجللتها جميعًا بالثناء والفخار.

ولم يتسع الزمن لإقامة نظام الدولة الإسلامية فى عهد أبى بكر على منال النظم السياسية والإدارية التى تقام للدول الكبار فى حداثة نشأتها. أو لعل المسألة هنا ليست مسألة اتساع الوقت وضيقه فى عهد الخلافة الأولى، ولكنها مسألة الحاجة إلى تلك النظم

وقلة الحاجة إليها، ففى عهد الخليفة الأول بعد النبى عليه السلام لم يطرأ على إدارة الدولة الإسلامية ما يدعو إلى نظام جديد غير النظام الذى كانت تجرى عليه فى عهده عليه السلام. لأن الجزيرة العربية عادت بعد حروب الردة إلى مثل ما كانت عليه فى أيام النبوة، ولأن الأرجاء الأجنبية التى زحفت عليها بعوث المسلمين لم تزل إلى آخر خلافة الصديق فى دور الغزو والفتح ولم تبلغ بعد إلى دور التوطيد والتنظيم، فكل ما جرى عليه النظام فى أيام النبوة فقد كان صالحًا للاتباع فى أيام الخلافة الأولى، وههنا تتجلى حكمة النبى عليه السلام فى إسناد الخلافة الأولى إلى أصلح الناس لمتابعة العهد النبوى على حاله الذى كان عليه. حتى إذا حان وقت التوسع والتصرف وجد الوقت من هو أصلح وأقدر عليه، وكأنه كان معروفاً من قبل موكولا إلى حينه الذى يترقبه ويستدعيه، ولن يكون إلا عمر بن الخطاب كما سماه عليه السلام حيث قال: «أريت فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب[1] فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا[2] أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له؛ ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربًا، فلم أر عبقريًّا يفرى فرية حتى روى الناس وضربوا بعطن[3].

* * *

وعلى هذا يمكن أن يقال إن الأداة الحكومية الإدارية - لم تكن فى عهد الصديق محتاجة إلى نظام غير النظام الذى اتخذه النبى عليه السلام، واكتفى به فى إدارة الشئون العامة بمكة والمدينة والجزيرة العربية، مع التعديل الذى اقتضاه توزيع العمل وتفرقة العبء الكبير بعد وفاة النبى، وغياب المرجع الأعلى الذى ترتفع إليه جميع الأمور.

فتولى بيت المال رجل سماه النبى عليه السلام «أمين الأمة» وهو أبو عبيدة بن الجراح، وتولى القضاء رجل لم يشتهر أحد بالعدل اشتهاره وهو عمر بن الخطاب، وتولى الكتابة كاتب النبى عليه السلام زيد بن ثابت وكانت ولا ياتهم أقرب إلى الارتجال والتداول منها إلى التكليف الدائم والعمل المرسوم.

وكان قادة الجند يفتحون البلدان ويقيمون فيها الولاة والقضاه على النحو الذى ألفوه فى الجزيرة العربية، ومن عرضت له مشكلة من مشكلات الإدارة فى بلد أجنبى

---

(١) بئر. (٢) دلوًا. (٣) مربط الإبل حول الماء.

تركها على النحو الذى كان مألوفاً فى ذلك البلد، إلا ما كان فيه خلاف للدين.

وكل من ولاه النبى عليه السلام فى حياته عملا من الأعمال العامة أبقاه الصديق فى مكانه، أو رده إليه إن كان قد تحول عنه، أو استأذنه فى تحويله عنه إن بدا له من مصلحة المسلمين ما أوجب تحويله، كما كتب إلى عمرو بن العاص «إنى كنت قد رددتك إلى العمل الذى كان رسول الله صلى الله عليه وسلم ولاكه مرة وسماه لك أخرى: مبعثك إلى عمان، انجازاً لمواعيد رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقد وليته ثم وليته، وقد أحببت - أبا عبد الله - أن أفرغك لما هو خير لك فى حياتك ومعادك منه، إلا أن يكون الذى أنت فيه أحب إليك»

وأشار عمر بن الخطاب بعزل خالد بن الوليد بعد أن قتل مالك بن نويرة على غير بينة قاطعة فى رأى عمر، وتزوج بامرأته فى ميدان القتال وهو أمر تكرهه العرب قبل الإسلام وبعد الإسلام. فاختلف الفاروق والصديق اختلافهما الذى يرجع من كل منهما إلى أصل أصيل فى الطباع والنظر إلى الأشياء والرجال: والفاروق وديدنه أن يوقع الجزاء بمن يستحقه كائناً من كان، والصديق وديدنه أن يتألف ويستبقى ولا يبتدئ شيئاً بغير سابقة، وساعده على إبقاء خالد سابقة للنبى عليه السلام معه فى حرب بنى جذيمة. فإنه تعجل يومئذ فى قتل بعض الأسرى فوداهم النبى عليه السلام حتى رد إليهم ميلغة الكلب، ورفع يديه يبرأ إلى الله مما صنع خالد، ولكنه لم يعزله من الإمرة أو القيادة. فكانت هذه السابقة أمام الصديق يوم لام خالداً على ما بدر عنه ثم أبقاه.

* * *

وما من شيء يدل على تكافؤ العظمة بين الرجلين كما تدل عليه الحجة التى يعتمد عليها كل منهما حين يختلفان. فما اختلفا قط بحجة تضعف من ناحية وحجة تقوى من الناحية الأخرى، بل كان لكل منهما حجته الناهضة فيما يجنح إليه، وإن كانت هذه حجة اقتداء، وهذه حجة ابتداء.

جاءت الغنائم والأنفال إلى بيت المال لتوزيعها بين من يستحقونها من الرجال والنساء. فكان الفاروق يجنح إلى تمييز الأنصبة على حسب المآثر والأقدار، وحجته أنه لا يسوى بين من قاتل رسول الله ومن قاتل مع رسول الله، وكان الصديق يجنح إلى

التسوية بين الأنصبة بغير تمييز، وحجته أن «الأعمال شىء ثوابه على الله، وهذا معاش فالأسوة فيه خير من الأثرة».

وما اختلفت حجة الابتداء وحجة الاقتداء – أو ترك الابتداء كما اختلفت هاتان الحجتان على مساواة فى النهوض والإقناع.

وقد جرى الصديق فى سياسة الدولة على سنة النبى عليه السلام من مشاورة ذوى الرأى والثقة فى كل ما جل أو دعا إلى السؤال، ولكنه كان يستقل بالرأى حين تكون التبعة فيه تبعته دون غيره، كما استقل بالرأى فى اختيار الخليفة من بعده، واستقام له بعد المشاورة والروية أن يعهد بالخلافة إلى عمر بن الخطاب.

فخلاصة ما يقال فى سياسة الصديق للدولة الإسلامية على عهده أنها كانت سياسة المقتدى المقتدر الفعال الذى يصغى إلى النصح ممن يرون التصرف والتمييز والابتداء، ولم يكن قط مقتديًا على ضعف وتواكل وإلقاء بالتبعة على غيره، بل ربما اقتدى ليعمل ما هو أصعب وأعضل وأنهض بالتبعة من أعمال المتصرفين.

* * *

وإذا حسبت لأبى بكر بعوث أسامة وبعوث الردة وبعوث فارس والروم، فلا بد أن يحسب له عمل آخر لا يدخل فى باب البعوث، ولكنه أقوم للدولة الإسلامية من جميع هذه البعوث، لأنه دستور هذه الأمة التى لم تقم لها قائمة بغيره، وهو جمع القرآن.

وقد كانت سنته فى جمع القرآن سنته الواضحة التى لا محيد عنها: وهى سنة الاقتداء والإصغاء إلى القويم من الآراء. فلما مات من مات من حفاظ القرآن فى حروب الردة وخيف على من بقى منهم أن تأتى عليهم حروب فارس والروم كبر على عمر فأشار على الخليفة بجمع القرآن. فأحجم بادئ الرأى، وهو يقول: كيف أفعل شيئاً لم يفعله رسول الله؟ ثم انشرح صدره لما أشار به عمر فتجرد له بجميع عزمه وانقضت خلافته على القول الأشهر والقرآن مجموع مفروغ من كتابته فى المصاحف كما نقرؤه الآن.

وكانت الدولة الإسلامية بهذه المثابة أمانة أعظم بها من أمانة تنوء بها كواهل الرجال. يقول من شاء ما شاء فى دراسة هذه الفترة الخالدة، إلا شيئاً واحداً لا يقوله عارف بما يقول، وهو أن أحداً كان يتلقى تلك الأمانة خيراً من تلقيه أو يسلمها خيراً من إسلامه، منذ أن تلقاها بيد من النبى عليه السلام حتى أسلمها بيد إلى عمر بن الخطاب.

الصديق والحكومة العصرية

قلنا فى الفصل السابق عن الصديق والدولة الإسلامية إن الحاجة لم تدْع فى عهده إلى نظام غير النظام الذى سنه النبى عليه السلام لسياسة الجزيرة العربية، وإنه - رضى الله عنه - قد توفى ولما تستقر الأمور فى البلاد المفتوحة على حال تدعو إلى اتباع نظام شامل لكل قطر من أقطار الدول الإسلامية.

إلا أن الصديق كان أول خليفة قام بالحكم الإسلامى بعد عهد النبوة، فمن الطبيعى أن نسأل عن نوع الحُكْم الذى توصف به حكومته وحكومة الخلفاء من بعده، وأن نعرف وجه المشابهة بين تلك الحكومة وحكومات العصر التى قامت على المبادئ الدستورية الحديثة. فأى حكومة هى حكومة الصديق أو حكومة الإسلام فى عهده؟ وأى العناوين هو أقرب إليها من عناوين الحكم فى هذا العصر الحديث؟

الديمقراطية - ولا ريب هى أقرب النظم إلى نظام الحكم فى عهد الصديق.

ولكن الديمقراطية أشكال تختلف فى العصر الواحد بين أمة وأمة، ولها قواعد دستورية ومقدمات تاريخية من العسير أن نوحد بينها وبين قواعد الخلافة ومقدماتها. ومن السهل جدًّا مع هذا أن نصدف عن هذا التوحيد دون أن نغض من نوع الحكومة فى صدر الإسلام.

فليس من المحقق أن حكومة الإسلام يومئذ توصف بالديمقراطية على المعنى الذى نفهمه من هذه الكلمة فى هذه الأيام.

ولكن من المحقق أن الحكومة الإسلامية على النحو الذى جاء به القرآن الكريم واتفق عليه المسلمون كانت بعيدة كل البعد من جميع أنواع الحكومة المعيبة أو جميع المبادئ التى تستند فى تقرير حكم الشعوب على أساس معيب.

فإذا كانت حكومة الخلافة لم تقرر الديمقراطية على أساسها العصرى المعروف بيننا فهى - بلا ريب - قد أبعدت مبادئ الأوتوقراطية، ومبادئ الثيوقراطية، ومبادئ

الأليجاركية، ومبادئ حكومة الغوغاء، وسائر المبادئ التى لا تستقيم مع حرية الفرد ومع الفطرة السليمة.

فالأتوقراطية وهى حكومة الفرد المستبد ممنوعة فى الإسلام، لأن القرآن الكريم يأمر النبى أن يشاورهم فى الأمر وينص على أن «أمرهم شورى بينهم». وإذا كان النبى الذى يتلقى الوحى الإلهى لا يجل عن مشاورة أتباعه والرجوع إلى رأيهم فى سياسته، فغيره من ولاة الأمر أولى أن يتقيد بالشورى ويتجنب حكومة الطغيان.

والثيوقراطية وهى الحكومة التى يدعى فيها الحاكمون صفة إلهية ممنوعة كذلك فى الإسلام، لأن القرآن الكريم يعلِّم المسلمين أن النبى بشر مثلهم ويبطل الكهانة والوساطة بين الإنسان وربه، وقد نهى النبى ولاته وأمراء جيشه أن يبرموا العهود باسم الله أو باسم رسوله، فكان يقول لمن ولاه: «... لا تجعل لهم ذمة الله ولا ذمة نبيه ولكن اجعل لهم ذمتك وذمة أصحابك، فإنكم إن تخفروا ذممكم وذمم أصحابكم أهون من أن تخفروا ذمة الله وذمة رسوله».

ولما قيل للصديق: يا خليفة الله، أنكر ذلك وقال: إنما أنا خليفة رسول الله، وسأل الناس أن يقوموه ويرشدوه.

والأليجاركية وهى حكومة الفئة القليلة من الأعيان والسروات ممنوعة كذلك من المسلمين، لأن بيعة الخاصة فى الإسلام لا تغنى عن بيعة العامة وليس فى الإسلام سيادة نسب كما جاء فى الحديث الشريف: «اسمعوا وأطيعوا وإن استعمل عليكم عبد حبشى كأن رأسه زبيبة».

وحكومة الأهواء سواء كانت أهواء الوجوه أو أهواء السواد ممنوعة كما منعت الحكومات التى أسلفناها. فليست أهواء المحكومين مغنية عن أصول الحق والعدل ودستور الشريعة والنظام، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: «فاحكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم عما جاءك من الحق، لكل جعلنا منكم شرعة ومنهاجاً»...

وإذا امتنعت كل هذه المبادئ المعيبة فى حكم الناس فقد صلحت الحكومة بما شئت من الصفات والعناوين. إذ الحكومة على تعدد أنواعها إنما تنحصر فى نوعين اثنين هما النوعان اللذان فرق بينهما أرسطو فى أصول السياسة: أو هما الحكومة الصالحة لمصلحة

المحكومين، والحكومة الفاسدة لمصلحة الحاكمين. وكل ما عدا ذلك من الصفات والعناوين فهو داخل فى أحد هذين النوعين.

فإذا لم تكن حكومة الصديق ديمقراطية حديثة فالديمقراطية لا تتوخى من الحكم غاية أفضل من الغاية التى تتوخاها حكومة الخلافة، ولا تبعد من المبادئ شيئاً غير المبادئ التى أبعدتها الحكومة الإسلامية بما نص عليه القرآن الكريم أو الحديث الشريف أو اتفاق المسلمين.

* * *

أما الحكومة من حيث علاقتها بشخص الخليفة وخلائقه النفسية فخلائق أبى بكر التى عرفناها دليل عليها: عفة وصدق ودعة وحزم وأناة وكيس، وكل ما يعهد من هذه الخلائق فهو معهود من الخليفة الأول فى جميع ما حكم به وتولاه.

ولى الخلافة فأصبح ذات يوم وعلى ساعده أبراد يذهب بها إلى السوق، فلقيه عمر فسأله: أين تريد؟ قال: إلى السوق. قال: تصنع ماذا وقد وليت أمر المسلمين؟ قال: فمن أين أطعم عيالى؟ فأشار عليه أن يذهبا إلى أبى عبيدة أمين بيت المال ليفرض له قوته وقوت عياله. ففرضت له ستة آلاف درهم فى السنة.

وكان يقيم بالسنح على مقربة من المدينة فتعود أن يحلب للضعفاء أغنامهم كرماً منه ورفقاً بهم. فسمع جارية تقول بعد مبايعته بالخلافة: اليوم لا تحلب لنا مفاتح دار.. فسمعها فقال: بل لعمرى لأحلبنها لكم... فكان يحلبها وربما سأل صاحبتها: يا جارية! أتحبين أن أرغى لك أو أصرح؟ فربما قالت: أرغ، وربما قالت صرح. فأى ذلك قالته فعل.

ثم تكاثرت أعمال الحكومة فانتقل إلى المدينة ورأى أن يعين نفسه على النفقة بالتجارة حيثما استطاعها. فلما حضرته الوفاة أمر أن يحصى ما أخذه من بيت المال فيرد من ماله وأرضه وقال لعائشة رضى الله عنها: «فإذا أنا مت فردى إليهم صحفتهم وعبدهم ولقحتهم ورحاهم ودثارة ما فوقى اتقيت بها البرد ودثارة ما تحتى اتقيت بها نز الأرض. كان حشوها قطع السعف».

وما روى عن عفته وزهده أن امرأته اشتهت حلواً واستفضلت من نفقتها فى عدة أيام

ما تشتريه به، فلما علم ذلك رد الدريهمات إلى بيت المال وأسقط من نفقته كل يوم ما فضل منها لثمن الحلوى.

وما كان صديق النبى وصفيه ليبيح لنفسه ما لم يبحه النبى وإن استطاع من خاصة ماله، فضلا عن بيت مال المسلمين.

وكان حكمه إلى الرفق والأناة والكياسة غير غافل عن اليقظة والحزم حيثما وجبت يقظة وحزم.

فكان يتقصى اخبار الولاة ويسأل الرعية: هل من أحد يتشكى ظلامة؟ فإن وجد ظلامة أنصف المظلوم على سنته التى استنها، وهى أن الكبير صغير حتى يأخذ الحق منه.

وكان يوصى قائده: «ألا تغفل عن أهل عسكرك فتفسده، ولا تتجسس عليهم فتفضحهم، ولا تكشف الناس عن أسرارهم واكتف بعلانيتهم». أو يقول: اقبل علانيتهم وكلهم إلى سرائرهم، ويأمره مع ذلك ألا يغفل عن استطلاع أمرهم لإصلاح ما فسد منه.

وإلى كياسته يرجع الفضل فى تغليب مبدأ من أسلم مبادئ القضاء قديمها وحديثها، أخذ به رجال المسلمين فى قضائهم واتبعته الحكومات العصرية جميعاً فى قضائها، ونعنى به المبدأ الذى يحرم على القاضى أن يحكم بعلمه فى إقامة الحدود، وقد آثره الصديق رضى الله عنه فقال: «لو رأيت رجلا على حد من حدود الله لم آخذه حتى يكون معى شاهد غيرى».

* * *

وما حفظت له وصية قط إلا ظهر فيها خلقاه الغالبان، الكياسة والصدق، فإذا حذر الولاة أن يكشفوا عن أسرار الناس لم ينس قط تحذيرهم من إخلاف الوعد والوعيد، وجماع ذلك قوله لعكرمة: «مهما قلت إنى فاعل فافعله، ولا تجعل قولك لغواً فى عقوبة ولا عفو، ولا ترج إذا أمنت ولا تخافن إذا خُوفت، ولكن انظر ماذا تقول وما تقول، ولا تعدن معصية بأكثر من عقوبتها، فإن فعلت أثمت وإن تركت كذبت».

جرى حكمه كله على هذه السنة من الرفق والصدق ومن اليقظة والحزم، ومن الكيس والفطنة، لم تؤخذ عليه إلا بادرة واحدة هى إحراقه الفجاءة فى ساعة من ساعات الحدة

التى كان يغالبها جهده، حتى غلبته مرة فى عقاب هذا اللص الخاتل السفاح.

وكان الفجاءة هذا – أو إياس بن عبد ياليل – قد جاء الصديق فاستعانه بالسلاح لقتال المرتدين، فلما أعطاه السلاح أخذه ليقطع الطريق ويعيث فى الأرض ويثخن فيمن صادفه قتلا ونهباً من المسلمين كان أو المرتدين، وتفاقم شره وعظم بغيه حتى وقع فى الأسر وجىء به إلى الخليفة وهو يرى أنه قد استحق جزاءً أكبر من القتل لأن جرمه أكبر من جرم قاتل. وقد استثاره هذا الرجل بكل ما يثيره ويذهب بحلمه ورفقه: استثاره بكذبه عليه وهو يمقت الكذب، واستثاره بخداعه إياه وهو يكره أن يعبث به أحد، واستثاره بتسخيره فى قتل المسلمين بما أعطاه من سلاح وعدة. فأكبر جرمه بمقدار ما يكبر عنده الصدق والكرامة والغيرة على دماء المسلمين، وأمر به أن يلقى فى نار توقد فى مصلى البقيع.

خطأ ولا ريب.

ولكنه خطأ له عذره، وخطأ فى رأى أبى بكر نفسه قد ندم عليه بعد فورة الغضب التى ذهبت بحلمه ورفقه، وقد ظل يذكر هذا الخطأ ويأسف له إلى أن قال وهو يجود بنفسه: «وددت أنى لم أكن حرقت الفجاءة وأنى كنت قتلته سريحاً أو خيلته نجيحاً..».

ومهما يكن من رأى الأقدمين أو المحدثين فى هذا الحادث فالخطأ الذى لا جدال فيه أن ندين به الإسلام كله أو ندين به أبا بكر كله فى جميع حالاته. ففى كل عصر تقع الحوادث من أشباه هذا الحادث المفرد ولا تحسب على دين أو دولة سواء فى العصر القديم أو العصر الحديث.

إنما على يحسب الإسلام ما هو قاعدة من قواعده، ويحسب على أبى بكر ما هو سنة مطردة فى حكومته، وما عدا ذلك فهو نبوة عارضة عذره فيها فداحة الجرم وشفيعه فيها طول الندم، فمن غلا فى المؤاخذة حتى فتح من هذا الحادث المفرد باباً للمقارنة بين عصر وعصر، وبين حاكم وحاكم فقد أضاف إلى النية جهله بالعصر الحديث.

وعلى هذا يثبت من شاء هذا الحادث لحكومة أبى بكر ويحذفه من شاء منها، فلا تزال على الحالين قدوة لأصلح الحكومات العصرية فى مزيتين جامعتين: إحداهما إبطال المبادئ الضارة التى تفسد الحكومة على اختلاف صفاتها وعناوينها ودعاواها، والثانية تقرير الغاية التى لا تفضلها غاية لحكومة إنسانية: وهى حرية الفرد ومصلحة المحكومين.

الصديق والنبى وصحبه

سئل النبى عليه السلام: يا رسول الله! أى الناس أحب إليك؟

قال: عائشة.

قالوا: إنما نعنى من الرجال.

قال: أبوها.

وكان عليه السلام يقول: ما لأحد عندنا يد إلا وقد كافيناه بها ما خلا أبا بكر، فإن له يداً يكافيه الله بها يوم القيامة.

ويفسر ذلك قوله عليه السلام: ما أحد أعظم عندى يداً من أبى بكر: واسانى بنفسه وماله، وأنكحنى ابنته.

وكان عمر بن الخطاب يقول: أبو بكر سيدنا وخيرنا وأحبنا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم.

وهذه حقيقة لو لم يؤيدها لسان المقال لأيدها ما يسمونه بلسان الحال. فإن أبا بكر كان ألزم الناس للنبى وأعرفهم بسره وجهره، وأقربهم إلى ثقته وحسن رأيه، وكان النبى عليه السلام يسمر عنده فى شئون المسلمين ويركن إلى مشورته فى كثير من الأحايين، وإذا بلغ من شأن رجل أن يكون أحب الناس إلى النبى عليه السلام فهو أهل لحبه وأهل لثقته لا مراء، لأن هذا الحب فى النفوس العظيمة قرين الثقة والتقدير لا يخلو منها ولاينفصل عنها- فمن استحق منها الحب الراجح فقد استحق عندها الثقة الراجحة فى آن.

فلم يكن حب النبى أبا بكر حب الرجل يجزى به من يحبه ويخلص له ويوليه الجميل من ذات نفسه وماله ثم لا مزيد. ولكنه كان كذلك حب الرجل من يستحق منه الحب لفضيلته وكفايته واقتداره على معونته فيما تجرد له من عمل عظيم لا يضطلع به كل معين.

وحين قدمه للإمامة من بعده لم تكن وسيلته إليها حب الإخلاص والجزاء، بل كانت وسيلته إليها حب الثقة والروية وحب الدعوة التى تجرد لها وحب المسلمين الذين آمنوا بتلك الدعوة. فإن نبيًا كمحمد عليه السلام لا يجعل مستقبل دينه مكافأة لصداقة إنسان، وإنما يكلُ هذا المستقبل لمن هو أهل لأمانته وأقدر على صيانته، وهو من أجل ذلك أهل للحب وأهل للبقيا والادخار.

أما حب أبى بكر محمدًا فهو كما قدمناه حب الإيمان والإعجاب والولاء، وهو الحب الذى تهون فيه على المرء نفسه وماله وذووه، وينزعه من ماضيه ليستولى على حاضره، كله وما هو أعز عليه من الحاضر وما فيه، وهو الأمل فيما يشهد والأمل فيما وراء الغيب، بل الأمل فى حاية لن تبيد.

فمنذ اللحظة التى انعقدت فيها الصداقة بينهما رضى الصديق الأمين أن يسخو فى سبيل هذه الصداقة بكل نفيس عنده وكل أثير لديه وأنفق ماله وفارق وطنه وأبناءه وهاجر من المدينة مخاطراً بحياته، فما همه وهو محفوف بالخطر فى طريقه إلا صاحبه الذى معه يفديه بما وسعه من فداء: ليسبقه تارة ويخلفه تارة أخرى ليدرأ عنه الشر من حيثما توقعه واتقاه، ثم يقيم على هذا العهد ما أقام فى دنياه، غير باخل بعزيز، ولا ناكص عن محذور ولا نادم عن مبذول أو مفقود.

ومن فضول القول أن يقال إنه أقام على عهده هذا بعد موت النبى، كما أقام عليه طوال حياته، فكل حركة تحركها وكل كلمة قالها شهيد بذلك له عند من ينصف ويعقل، بل عند من يعقل ولو لم يكن من المنصفين.

إذ ليس من العقل أن يقدح قادح فى ولاء الصديق للنبى بما حرّم فاطمة رضى الله عنها من ميراث أبيها. فلئن حرمها لقد حرم عائشة مثلها، لأن الأنبياء فى شرعة محمد لا يورثون، وما أراد أبو بكر أن يضن بميراث محمد على وارثيه ومنهم بنته وأحب الناس إليه، ولكنه أراد أن يضن بدينه ويضن بوصياه! وهى أولى أن تصان من المال ومن البنين، كذلك لا يقال إنه حرم عليًا رضى الله عنه حقًا فى الخلافة، فما كان فى وسعه أن يحرمه شيئاً لو كان عليه السلام قد وصى له بشىء، وما كانت فاطمة بغائبة عن سرير أبيها فى مرض موته فيقال إنهم قد كتموا عن النبى بعض ماقال، ولاكان علىّ بالذى يعوزه المنطق لو أنه أراد البرهان من القرآن الكريم أو أراد الحجة من الحديث الشريف. ومن

أين لأبى بكر تلك القوة التى ينتزع بها الخلافة انتزاعاً من آل النبى ومن الأنصار والمهاجرين بغير حجة وبغير برهان؟ لئن استطاع ذلك غير محتال ولا مغتال ولا سافك دم لكفى بذلك آية له أنه أحق المسلمين بولاية أمر الإسلام وأقدرهم عليها. وما استطاعه بعد ذلك من تتبيت الدين وقمع الفتنة وافتتاح الدولة لهو الآية بعد الآية والتمكين فوق التمكين.

لقد حدث بعد النبى ما لا بد أن يحدث، وما ليس بكثير أن يحدث فى موقف مقتضب لم يمهد له بسابق متبوع ولا بقدوة مأمومة، فتأخر علىٌّ على المبايعة أشهراً وقيل إنه لم يتأخر غير أيام بل ساعات، فلا هو ولا أبو بكر صنعا ما يعاب فى هذه الفترة طالت أو قصرت، لأن أبا بكر كان يندب عليًّا للمهمات فى حراسة المدينة وعلى كان يلبى ندبة أبى بكر تلبية الصدق والنجدة. ولو صح أن أبا بكر أخفى حقًّا يشينه إخفاؤه لما أقر علىٌّ له ببيعة. ولا رضى له ولا لمن بعده بصحبة، فكيف لو صح ما تهوس به بعض المتهوسين من إخفاء آيات من القرآن أو كلمات من الحديث؟.

جهد ما يقال فى أحداث تلك الفترة أنها مدعاة أسف لا يؤسى عليه، لأنها أقل ما يؤسف له إلى جانب الغبطة التى يغتبط بها من أحاط بالموقف وأحاط بدواعى الخطر فيه ودواعى السلامة منه.

أما عهده لعمر من بعده فلا محل هنا للموازنة بين استخلاف عمر واستخلاف علىّ فى تلك الآونة، ولكننا نقول إن الصديق قد جهد فى مسألة العهد جهد رأيه، وإن كان يود أن يكل الأمر إلى المسلمين يختارون من يشاءون، فجمع إليه نخبة من أهل الرأى وقال لهم فيما قال: «... قد أطلق الله أيمانكم من بيعتى، وحل عنكم عقدتى، ورد عليكم أمركم، فأمروا عليكم من أحببتم، فإنكم إن أمرتم فى حياة منى كان أجدر ألا تختلفوا بعدى».

فلم يستقم لهم أمر كما جاء فى رواية الحسن البصرى، ورجعوا إليه يقولون: «إن الرأى يا خليفة رسول الله رأيك» فاستمهلهم حتى «ينظر لله ولدينه ولعباده».

ثم استقر رأيه على استخلاف عمر بعد مشاورة عبد الرحمن بن عوف وعثمان بن عفان وسعيد بن زيد وأسيد بن الحضير.

وسأل عليًّا فقال: «عمر عند ظنك به ورأيك فيه، إن وليته – مع أنه كان والياً معك –

تحظى برأيه وتأخذ منه، فامض لما تريد، ودع مخاطبة الرجل، فإن يكن على ما ظننت إن شاء الله فله عمدت، وإن يكن ما لا تظن لم ترد إلا الخير».

وأملى أبو بكر كتاب العهد على عثمان بن عفان فكتبه وختمه وخرج به مختومًا ونادى فى الناس: أتبايعون لمن فى هذا الكتاب؟... وقيل إن أبا بكر أشرف من كُوَّته فقال: «يأيها الناس !إنى عهدت عهدًا أفترضونه؟ فقالوا: رضينا يا خليفة رسول الله وقام علىّ فقال: لا نرضى إلا أن يكون عمر».

ثم كانت البيعة التى أجمع عليها المسلمون.

* * *

فالمسألتان اللتان حسبتا من قبيل الخلاف بين الصديق وعترة النبى عليه السلام هما هاتان المسألتان: الميراث والخلافة.

ففى مسألة الميراث ما كان له أن يبرم فيها غير ما أبرم. وقد علم أن النبى لا يورث كما قال عليه السلام، وكان حكم عائشة فى هذا كحكم فاطمة رضى الله عنها، وقد حضرته الوفاة وهو يوصى عائشة أن تنزل للمسلمين عما وهب لها من ماله، وإنه لحل لها بالهبة والميراث.

وفى مسألة الخلافة لا تحمد المجاملة، حيث تكون المجاملة إخلالا بالذمة التى بينه وبين ربه، وإخلالا بالوحدة الإسلامية ومصالح المسلمين مجتمعين.

وفيما عدا هاتين المسألتين لم يكن من أبى بكر فى حق على فاطمة إلا أحسن المجاملة والإجمال، ولم يكن منه تقصير قط فى تعهد البيت النبوى بما يصون وقاره، ويحمى جواره، بل كان منه فى حق أهل البيت كل ما يرضى ويريح.

* * *

وجرى أبو بكر فى معاملته لصحابة النبى على طبعه الذى فطر عليه، وهو الرفق والمروءة والحياء. فأحسن صحبتهم وأثبت لهم ما أثبته النبى لهم فى حياته، ولم يكن منه فى حقهم ما يشكونه إلا ما شكا منه بعضهم حين التسوية بينهم وبين العبيد والنساء فى حصة بيت المال، وذلك رأى له قدمنا حجته فيه، فأقدارهم عند الله يجزيهم عليها الله، وهذا

معاش تحسن فيه المساواة بين الناس.

وكان أقربهم إليه وأجمعهم لثقته وحسن ظنه عمر بن الخطاب: عرفه على حقيقته التى جهلها بعض الصحابة، وعرف ما فى باطن نفسه من رحمة تخفيها خشونة ملمسه وشدته فى عمله. فلما سأل عنه عبد الرحمن بن عوف أجابه: «إنه أفضل من رأيك فيه. ولكن فيه غلظة» فقال عن خبرة به: «هو كذلك لأنه يرانى رقيقًا، ولو أفضى الأمر إليه لترك كثيرًا مما هو فيه».

وقد آثر أبو بكر أن يبقى عنده نخبة الصحابة فى المدينة فلا يقصيهم فى الولايات ولا يفرقهم بين الأقطار، لأنهم أحق الناس أن يستشيرهم ويرجع إليهم ويشركهم معه فى رقابة العمال والولاة، وسئل فى أهل بدر: لم لا يوليهم عملا فقال: أكره أن أدنسهم بالدنيا، ولعله يريد بالتدنيس تعريضهم لفتنة الدنيا وشهوة الحكم وغواية المال والمتاع.

ولا ندرى على التحقيق أى الصاحبين كان صاحب الفكرة الأولى فى هذه السياسة التى اتفقا عليها ولم ينحرفا عنها قط فى عهديهما إلا لضرورة نادرة. ونعنى بها سياسة الإقلال من إسناد الأعمال إلى كبار الصحابة.

فعمر كان متشددًا فى اتباع هذه السياسة حتى ليخطر على البال أنه هو صاحب الفكرة السابقة فيها، وكان أبو بكر يخالفها حينًا فيحاول عمر أن يرده إليها. قال: «لما خرج معاذ بن جبل إلى الشام أخل خروجه بالمدينة وأهلها فى الفقه وما كان يفتيهم به، ولقد كنت كلمت أبا بكر رحمه الله أن يحبسه لحاجة الناس إليه، فأبى على، وقال: رجل أراد جهادًا يريد الشهادة فلا أحبسه، فقلت: والله إن الرجل ليرزق الشهادة وهو على فراشه».

إلا إن أبا بكر كان يحاذر انطلاق بعض الصحابة محاذرة الرجل الذى امتلأ بيقين رأيه ولم يستمده من مشورة غيره. فلم ينس أن يحذر عمر هذا التحذير فى وصيته إياه بعد استخلافه حيث قال:

«واحذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم لنفسه، وإن منهم لحيرة عند زلة واحدة منهم، فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله...»

وفاض هذا الرأى من لسانه حين أحس من بعض المهاجرين طمعًا فى الاستخلاف دون عمر بن الخطاب، فقال لعبد الرحمن بن عوف، وقد دخل عليه يعوده:

«... ما لقيت منكم أيها المهاجرون أشد على من وجعى، إنى وليت أمركم خيركم فى نفسى، فكلكم ورم أنفه أن يكون له الأمر دونه، ورأيتم الدنيا قد أقبلت، ولما تقبل، وهى مقبلة حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج، وحتى يألم أحدكم بالاضطجاع على الصوف الأذربى[1] كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان. والذى نفسى بيده لأن يقدم أحدكم فيضرب عنقه فى غير حد خير له من أن يخوض غمرات الدنيا. ثم أنتم غدًا أول ضال بالناس يمينًا وشمالا، لا تضيعوهم عن الطريق. يا هادى الطريق جرت!»

فهذا كلام رجل ممتلىء النفس باليقين مما يقول، فليس هو برأى انتقل إليه من غيره استحسنه وارتضاه، ولكنه - فيما نرجح - رأى اتفقا عليه وقلباه بينهما، فازداد كل منهما يقينًا به فوق يقين.

* * *

على أن هذه النصائح القوية بين يدى الموت تكشف من حياة أبى بكر ما ليست تكشفه الأخبار المطولة والأقوال المستفيضة، فهى تشهد له أنه قد سار فى حياته تلك السيرة التى يريدها من الصحابة ويحث عليها أناسًا فى منزلة عبد الرحمن بن عوف وعمر بن الخطاب، وأن تلك السيرة كانت من البداءة المعروفة التى يصدر عن صاحبها النصح فيسمعه أمثال هذين الصحابيين الكبيرين. وقد كانت هذه فى الواقع منزلة أبى بكر بين الصحابة عامة وخاصة، استحقها بينهم بسابق إسلامه وقديم صحبته للنبى صلوات الله عليه، واستحقها برياضة نفسه على الكرامة والوقار، حتى امتلأت النفوس حوله بكرامته ووقاره، ولم يكن أحد غير أبى بكر يسكت عمر بن الخطاب وقد ثار ثورته بعد موت النبى، أو يسكته وقد نهض للكلام أول مرة فى سقيفة بنى ساعدة، وما أسكته يومئذ لأنه خليفة، فما كان يومئذ بالخليفة، ولا كان عمر بالذى تسكته هيبة منصب أو سطوة سلطان، ولكنه رجل وقور يستمع له رجل حق. وناهيك بمن يهابه عمر ابن الخطاب! إنه لأحق امرئ بين الصحابة أن يهاب.

---

(١) منسوب إلى أذربيجان.

ثقافته

تُعرف ثقافة الرجل المثقف بعلامات كثيرة، ولو لم تكن لها بالفكر والاطلاع صلة ظاهرة.

وندرَ أن يظهر من الإنسان أثر محسوس إلا كان فيه علامة من العلامات على نصيبه من ثقافة زمانه.

على أن هذه العلامات تتفاوت فى الدلالة كما تتفاوت فى القيمة، وأدلها وأقومها - فيما نرى - كلام الإنسان ورأيه فى كلام غيره. لأن الكلام صورة نفسية وقدرة عقلية فى وقت واحد. فهو يكشف عن نفس قائله كما يكشف عن قدرة عقله ومبلغ عرفانه بتصوير خلجات قلبه وخطرات ذهنه، فتقدير لكلامه وكلام الناس ميزان صادق لتقدير الرجل فى جملة أحواله وأفعاله، وعلامة على الثقافة الروحية والفكرية قلما تضارعها علامة أخرى.

وتقدير الكلام من أصدق العلامات على ثقافة الصديق، سواء نظرنا فى وزنه لكلامه أو فى وزنه لكلام غيره، أو فى وزنه للكلام عامة من حيث هو جزء من «الشخصية الإنسانية» يحرص عليه المرء كما يحرص على مقومات نفسه.

فالصديق كان أحرص الناس على كلام يبدر من لسانه، وكان أعلم الناس بموضع كلام الرجل من مروءته وشرفه، فكان قوله نزرًا، ووصيته بالإقلال من المقال أسبق وصاياه إلى ولاته وعماله. قال لخالد بن الوليد: «أقل من الكلام فإنما لك ما وعى عنك». وقال ليزيد بن أبى سفيان: «إذا وعظتهم فأوجز، فإن كثير الكلام ينسى بعضه بعضًا»، وكان يقول: «إن البلاء موكل بالمنطق» ويجتنب التزيد فى المقال، كما يجتنب التعرض للبلاء.

كان أقرب الصحابة إلى النبى عليه السلام، وألزمهم له فى نهاره وليله. ولكنه على هذه الملازمة لم يرو من الأحاديث النبوية إلا نيفًا ومائة وأربعين حديثًا لم يتجاوز ما أثبته

البخارى ومسلم نحو سبعها. وقيل فى تعليل ذلك إنه رضى الله عنه مات قبل تدوين الأحاديث، وهو تعليل يرد عليه أن كثيرًا ممن سمعوا الأحاديث النبوية ماتوا كذلك قبل الاشتغال بتدوينها، وإنما هى قلة كلامه فيها نرى أقلت ما سمع الناس عنه فحرروه ونقلوه.

ذلك وزنه للكلام عامة من حيث هو ملكة نفسية وجزء من الشخصية الإنسانية.

أما كلامه هو فمن أرجح ما قيل فى موازين الكلام، سواء فى ذلك موازين البلاغة أو موازين الخلق والحكمة، وله من جوامع الكلم أمثلة نادرة تدل الواحدة منها على ملكة صاحبها فيغنى القليل منها عن الكثير، كما تغنى السنبلة الواحدة عن الجرين الحافل، حين تكون المسألة مسألة الدلالة على المنبت والنبات.

فحسبك أن تعلم معدن القول من نفسه وفكره حين تسمع كلمة كقوله: «احرص على الموت توهب لك الحياة». أو قوله: «أصدق الصدق الأمانة وأكذب الكذب الخيانة»، أو قوله: «خير الخصلتين أبغضهما إليك»، أو قوله: «الصبر نصف الإيمان واليقين الإيمان كله» أو قوله: «إذا فاتك خير فأدركه وإن أدركك فاسبقه»، أو قوله: «لا تخزن عن المشير خبرك فتؤتى من قبل نفسك»، أو قوله: «ليست مع العزاء مصيبة» فهى وما أثر عنه من أمثالها كلمات تتسم بالقصد والسداد، كما تتسم بالبلاغة وحسن التعبير، وتنبئ عن المعدن الذى نجمت منه فتغنى عن علامات التثقيف التى يستكثر منها المستكثرون، لأن هذا الفهم الأصيل هو اللباب المقصود من التثقيف.

وكانت له – رضى الله عنه – لباقة فى الخطاب إلى جانب هذه البلاغة فى الكلام، وهذا الجد فى وزن المقال.

عزى عمر فى طفل احتسبه فقال له: «عوضك الله منه ما عوضه منك» وسأل رجلا يحمل ثوبًا: أتبيع هذا الثوب؟ فأجابه: لا... عافاك الله! قال: هلا قلت لا وعافاك الله!

وهذا تمام البصر بالكلام: قصد فى العبارة، ووزن للكلام، وذوق فى الخطاب، ولا تتعرف النفس المثقفة إلى الناس بآية هى أقرب من هذه الآية وأحق منها بالتصديق.

ومن السهل على من يملك هذا البيان فى كلامه أن يتتبع شواهد البيان فى كلام

الآخرين. ولعل الصديق قد ملك هذا البيان لأنه طبع عليه وطبع على حبه فتتبعه فى كلام البلغاء من الخطباء والشعراء. فكان يروى الشعر ويحفظ الأمثال، ويراجع النبى عليه السلام فى الأبيات التى يبدل مواضع كلماتها ليخرجها من وزنها، ومنه - لا ريب - قبست السيدة عائشة ذلك القبس من مأثورات الشعر والخطب فيها كانت تتمثله وترويه، وإليه ترجع السليقة التى ظهرت فى ذريته ومنهم ولداه عبد الله وعبد الرحمن، وكانا ينظمان الأبيات بعد الأبيات. وهو نفسه لم ينظم الشعر فيها أجمع عليه الثقات، ولكنه - وإن لم ينظم - قريب السليقة ممن قالوه ولو بالتذوق والحفظ والرواية.

ولهذه الثقافة مراجعها التى يرجع إليها أفضل ثقافات زمانه فى الجزيرة العربية: طبع سليم وملاحظة صادقة وخبرة بالدنيا من طريق المعاملة والسياحة، وإصغاء إلى الحسن من القول، والوثيق من الأخبار، وعلم بالأنساب والتواريخ مشهور بين المشهورين من أربابه، واستيعاب للقرآن كله، ولفقه الدين كله، ودراية بما استوعب من معانيه عن فهم وعن سماع، ممن نزل عليه القرآن الكريم صلوات الله عليه.

قرأ يومًا: (يأيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضل إذا اهتديتم) فقال: إن الناس يضعون هذه الآية فى غير موضعها، ألا وإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إن القوم إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا عليه يديه، والمنكر فلم يغيروه، عمهم الله بعقابه»

وسأل أصحابه يومًا: ما تقولون فى هاتين الآيتين: (إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولا هم يحزنون) و (الذين آمنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم)؟ قالوا: لم يلبسوا إيمانهم بظلم الخطيئة. فقال: لقد حملتموها على غير المحمل: استقاموا فلم يلبسوا إيمانهم بشرك.

وإن فقه القرآن لينبوع يستمد من الصديق فى سلامة طبعه وصفاء ذهنه مددًا يرجح بأمداد.

فثقافته فى زمانه هى ثقافة الفقيه الأديب المؤرخ بما اصطلحوا عليه من معنى التاريخ فى ذلك الزمان.

ولا يتشابه معنى التاريخ عندهم ومعنى التاريخ عندنا كما نتوسع فيه اليوم، ولكن

النسب الذى كان يعلمه الصديق كان هو النسب المحيط بالمحامد والمثالب فى القبائل العربية كافة، وهو أنفع ما فى علم التاريخ حين يراد بعلمه الطموح إلى منزلة الحمد والسمعة الرفيعة والتنزه عن معارض الذم وقالة السوء، وكذلك كان علم الصديق بأنساب العرب أجمعين.

لما خرج النبى عليه السلام ليعرض نفسه على القبائل – فى أول الدعوة الإسلامية – كان معه أبو بكر وعلى بن أبى طالب أسبق الناس إلى الإسلام.

قال على رضى الله عنه: فرفعنا إلى مجلس من مجالس العرب، فتقدم أبو بكر فسلم، وكان مقدمًا فى كل خير، وكان رجلا نسابة فقال: ممن القوم؟ قالوا: من ربيعة، قال: وأى ربيعة أنتم؟ أمن هاماتها أو من لهازمها؟ قالوا: من هامتها العظمى. قال: وأى هاماتها العظمى أنتم؟ قالوا: من ذهل الأكبر. قال: فمنكم عوف بن محلم الذى يقال فيه: لا حر بوادى عوف؟ قالوا: لا. قال: فمنكم المزدلف الحر صاحب العمامة الفردة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم بسطام بن قيس أبو القرى ومنتهى الأحياء؟ قالوا: لا. قال: فمنكم جساس بن مرة حامى الذمار ومانع الجار؟ قالوا: لا. قال: فمنكم الحوفزان قاتل الملوك وسالب أنفسها؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من كندة؟ قالوا: لا. قال: فمنكم أصهار الملوك من لخم؟ قالوا: لا. قال أبو بكر: فلستم ذهلا الأكبر إنما أنتم ذهل الأصغر».

وكان هذا علمه بأنساب كل قبيلة ومحامد السابقين منها ومثالبهم، ولا سيما قريش ومن جاورها. ولهذا كانوا يقولون كلما سمعوا أبياتا من الشعراء المسلمين يردون بها الهجاء على المشركين: هذا تلقين ابن أبى قحافة وما عداه. لأنه كان فى هذا العلم بين قريش عامة بغير نظير.

ونحن لا ننتظر بداهة من كل رجل تيسرت له هذه المراجع أن يبلغ من الثقافة مبلغ أبى بكر الذى تدل عليه أقواله وأعماله وخلائقة وسجاياه. ولكننا إذا علمنا أن تلك مراجعه وأن ذلك مبلغه فقد علمنا شيئًا آخر نقصده ونتحراه، وهو أنه رجل خلق من معدن العظمة والامتياز، ولم يخلق رجلا كسائر الرجال.

الصديق في بيته

من السهل بعد مراجعة يسيرة لحياة الصديق فى جملتها أن نعلم أنه «رجل بيت» أو «رجل أسرة» وإن أواصره البيتية لا تستند إلى الشعور بالواجب وحده: ولكنها تستند مع الشعور بالواجب إلى الشعور بغبطة القرابة ومودة الرحم ونعمة الألفة والمصاحبة، فلم يكن ولدًا بارًا لأن البر بالآباء واجب وكفى، ولا أبا رحيما لأن الرحمة بالأبناء غريزة وكفى، ولا زوجًا وفيًّا لأن الوفاء للأهل واجب وكفى، ولكنه كان كذلك كما كان فى جميع أواصره وعلاقاته: رجلا يشعر بالغبطة فى جوار أبناء جنسه، ويأنس للصحبة فى جو الشعراء والأصدقاء، ويتجلى فيه خلق الإنسان «الاجتماعى بطبعه» على أخلصه وأوفاه.

عُرف بره بأبويه فى الجاهلية، فلما أسلم وصاحب النبى عليه السلام جمع بين بر الفطرة والحنان وبر الواجب والفريضة، واطمأن إلى هذا البر كما يطئن صاحب الخير الذى لا جزاء عليه أن يصبح وله من الحظوة الإلهية أجمل جزاء.

وعُرف عطفه على أبنائه طوال حياته، فما داخلته فى عطفه عليهم قسوة أو شدة إلا أن يكون ذلك بدافع من العقيدة أو وازع من التأديب.

قال له بعض أبنائه - وقد كان يقاتل مع المشركين - إننى كنت أراك فأتحاماك. فقال له: لكننى لو رأيتك لما تحاميتك.

وكان بين عائشة والنبى كلام. فسألها: من ترضين أن يكون بينى وبينك؟ أترضين بأبى عبيدة بن الجراح! قالت: لا. ذلك رجل هين لين يقضى لك. قال أترضين بأبيك؟ قالت نعم.

فلما جاء أبو بكر قال: رسول الله: اقصصى!

فقالت: بل اقصص أنت.

فأخذ رسول الله فى إعادة ما جرى بينهما من كلام، وبدرت من عائشة كلمة لا تعنيها

فقالت: اقصد، أى التزم القصد ولا تزد فى الرواية، فرفع أبو بكر يده فلطمها وانتهرها مغضبًا: تقولين يا بنت أم رومان: اقصد! من يقصد إذا لم يقصد رسول الله! وجعل الدم يسيل من أنفها ورسول الله يحجز بينهما ويقول لصديقه: إنا لم نرد هذا. حتى انصرف برضا من رسول الله. فقال لها ما معناه: رأيت كيف أبعدك الله منه! أو قال لمثل هذه المناسبة: «رأيت كيف أنقذتك من الرجل!»

ففى هذا وأمثاله يشتد أبو بكر على بنيه وهى شدة قدتقترن بالرحمة ولا تحجبها إلا إلى حين.

وكان لصدق شعوره بالأبوة يحس ما يحتاج إليه الوليد فى نشأة الطفولة ويزوده بتلك الحاجة، ولو أغضب الآباء وهم عنده أصدق الأصدقاء.

فلما أخذ عمر بن الخطاب ابنه عاصمًا من أمه المطلقة تخاصما إليه فقضى بالوليد لأمه وقال لعمر: «ريحها وشمها ولطفها خير له منك». فكان غاية الرحمة وغاية العدل فى آن، وإن رجلا يعدل حين يهم بالجور لهو من العدل بمكان لا يسامى.

وكادت الصداقة عنده أن تكون أخوة أو بنوة. فكان يتحدث عن عمر يومًا فإذا هو يقول كأنما يتحدث إلى نفسه: «والله إن عمر لأحب الناس إلى...» ثم خشى أن يكون فى قوله ما يمس الصدق الذى فطر عليه فسأل من معه وفيهم عائشة: كيف قلت؟ فأعادت عليه عائشة ما جرى به لسانه، فاستدرك قائلا: اللهم أعز والولد ألوط! أى ألصق بالقلب وأدنى.

* * *

وقد بنى أبو بكر بزوجتين فى الجاهلية وزوجتين فى الإسلام، منهن أم رومان وهى أم ولديه عبد الرحمن وعائشة رضى الله عنهما، ومنهن حبيبة بنت خارجة التى مات عنها وهى حامل، فولدت بعد موته أم كلثوم.

ومن أولاده غير عبد الرحمن وعائشة: عبد الله الذى كان يأتيه بأخبار قريش حين هاجر مع النبى إلى المدينة. وقد جرح بالطائف ومات بجرحه بعد انتقاضه. وكانت فيه شجاعة وأدب ورقة، وله شعر حسن يروى بعضه فى زوجته المطلقة عاتكة بنت زيد،

وقصته معها من أدل أخبار هذه الأسرة على شعور أبى بكر بالأبوة والزوجية، والواجب فى وقت واحد، وأن المغالبة بين الرحمة والواجب فى نفسه كانت مغالبة سجال.

وقد كانت عاتكة من أشهر نساء عصرها بالجمال والعقل والفطنة، ففتن بها عبد الله وشغل بها عن مصالحه وشئونه، فنصح له أبوه بطلاقها فطلقها، فما زال حتى ندم وألح به الندم على فراقها، وقال من شعره فيها:

أعاتك، لاأنساك ما ذر شارق وما لاح نجم فى السماء محلق
أعاتك، قلبى كل يوم وليلة لديك بما تخفى النفوس معلق
لها خلق جزل ورأى ومنصب وخلق سوى فى الحياء ومصدق
ولم أر مثلى طلق اليوم مثلها ولا مثلها فى غير شىء تطلق

فرحمه أبوه وأمره بمراجعتها، فراجعها. فكان أبو بكر فى هذا نموذجًا مقابلا لنموذج عمر فى هذه الناحية من الخلائق والوشائج القلبية، كما كان نموذجًا مقابلا له فى خلائل شتى ووشائج أخرى، إذ كان عمر ينعى على ولده أنه عجز عن طلاق امرأته، ويعد ذلك من مآخذه حين رشحه بعضهم للخلافة بعده.

ولم يكن لزوجات أبى بكر ما يشتكينه منه غير الإقلال من النفقة والقصد فى المعيشة، ففى اليوم الذى اجتمعت فيه نساء النبى عليه السلام يطالبنه بالمزيد من النفقة، كانت بنت خارجة زوجة أبى بكر تطالبه هذه المطالبة، فيغضب منها، ويلوى عنقها، ويذهب إلى النبى فيحدثه بحديثها ليسرى عنه، وقد رآه بين أمهات المسلمين على مثل تلك الحالة، فكأنما كن جميعًا على ميعاد.

ولم يكن أبو بكر مقلا من المال، ولا عاجزًا عن كسبه قبل الخلافة ولا بعدها، فقد أنفق فى سبيل الإسلام أربعين ألف درهم، ومازال ينفق من ماله فى شراء الأكسية والأطعمة وتوزيعها على الفقراء ولا سيما فى الشتاء، ولكنه آثر متاع روحه على متاع جسده، وكره أن يعيش فى بيته خيرًا من معيشة نبيه وصفيه، وكان يبغض السرف فيقول: «إنى لأبغض أهل البيت ينفقون رزق الأيام فى يوم»... فلو بقى له من المال ما يجاوز به حظه من النفقة لما جاوزه وهو يرى أمامه مثل النبى ويجب أن يكون مثلا لمن معه ومن بعده من خلفاء الإسلام وعامة أتباعه.

وقد تعددت الروايات عما قسم له من الرزق بعد الخلافة وكيف قسم بمشورة من حضر من جلة الصحابة ومنهم عمر وعثمان وعلى وأبو عبيدة. ولكن الروايات متفقة على قصده فى بيته واجتنابه للسرف فى معيشته، وأنه كما قال: «لم يعد سد الجوعة وورى العورة وقواتة القوام». ومات وليس عنده مدخر يذكر. فقال عمر: «رحمه الله. لقد أتعب من بعده». يريد أنه ألزمهم قدوة تتعب ولا تريح.

* * *

ونحسب أن النشأة فى حياة أبى بكر البيتية لا تتمثل فى شىء كما تتمل فى نشأة بنتيه: عائشة وأسماء رضى الله عنهما. فأما عائشة فقد فارقت بين أبيها وهى فى نحو العاشرة أو أكبر من ذلك بقليل، كما استخلص بعض المؤرخين من مراجعة التواريخ الكثيرة، فإذا هى فى تلك السن قد وعت ماوعته من الشعر البليغ والأمثال السائرة والأخبار النادرة، وقد نضجت لمصاحبة النبى والوعى عنه والدراية بالمأثور من كلامه، وكانت بعد ذلك مرجعًا من مراجع الفقه والسنة، خليقا باعتماد الثقات الأجلاء.

ومن الناس من تعود أن يتخيل عائشة رضى الله عنها جارية صغيرة حظيت عند زوجها عليه السلام لجمالها وصغرها وصداقة أبيها، ولكنها - ولا ريب - لم تبلغ هذه الحظوة عنده صلوات الله عليه إلا أنها الزوجة الكفء لبلوغها والمحافظة عليها، وكانت تعرف من أدب الزواج ما يجمل بمكانها، وتعرف من ملاطفة الزوج مداخل قلبه ومواطن رضاه، وربما دللت زوجها ولم تترك له وحده مسرة تدليلها. فمن ذلك فى روايات تختلف فى النقل وتتفق فى هذا المعنى أنه كان عليه السلام يصلح نعله فى يوم قائظ فتندى جبينه وتحدر العرق على خده، وهى تلحظه من قريب وكأن بها وجدًا عليه. فسألها:

ما بالك بهت؟

فقالت: لو رآك أبو كبير الهذلى لعلم أنك أحق بقوله.

فعاد يسألها: أى قوله؟

فأجابته حين يقول:

ومبـــرأ من كـل غـــبر حيضـــة وفســـاد مـــرضعـــة وداء مـغيـــل

وإذا نظرت إلى أسرة وجهه   برقت بروق العارض المتهلل

فقام النبى إليها يقبل ما بين عينيها، ويقول لها: سررتنى يا عائشة سرك الله.

فهى أبعد شىء عما يتصوره النقاد الأوربيون حين يصورونها لقرائهم لعبة صغيرة بين يدى رجل كبير يدللها ولا تفاهم بينه وبينها، ولكنها الزوجة التى تكافئ الزوج فى حياته المنزلية، والمرأة التى تبادل الرجل ما عنده من شعور، والتلميذة التى تتلقىٰ عن أستاذ عظيم فتحسن التلقى عنه، وهى من جميع هذه الجوانب مثل صالح للنشأة البيتية فى أسرة الصديق.

* * *

أما أسماء - ذات النطاقين - فما حمد الناس فضيلة للمرأة بنتًا وزوجًا ووالدة إلا كانت فيها على أجملها وأسماها وأحقها بالتمجيد والإكبار.

أسلمت مع أبيها، وكانت تخاطر بنفسها لإخفاء هجرته مع رسول الله وتزويدهما بالطعام والميرة فى تلك الهجرة، ولم تجد ما تشد به طعامهما فشقت نطاقها وشدته به، فسميت لذلك ذات النطاقين.

وتزوجت الزبير بن العوام وليس له مال ولا مورد، فكانت تعلف فرسه وتدق النوى لناضحه[1] وتستقى له الماء وتخرز[2] له غربه[3] وتنقل النوى على رأسها من الأرض التى أقطعها إياها رسول الله على مسيرة ميلين. وما زالت كذلك حتى علم أبوها بمشقتها فى خدمة زوجها اتفاقاً فأعانها بخادمة، بعد أن قضت زمناً تخدم بيتها وهى بنت أبى بكر وزوج الزبير وأم عبد الله من أعظم أبطال الإسلام.

وحوصر ابنها عبد الله فى مكة فخذله الناس حتى أهله وولده، وعرض عليه بنو أمية الأمان والولاية والمال. فذهب إليها يعرض عليها أمره، وهو يقول: «... لم يبق معى إلا اليسير ومن لا دفع عنده أكثر من صبر ساعة من النهار، وقد أعطانى القوم ما أردت من الدنيا فما رأيك؟ فما ضعفت من الهول ضعف النساء، ولا ضعف الأمهات، وإن

(١) البعير الذى يستقى عليه الماء.

(٢) تخرز: تثقب

(٣) الولد من الجلد.

الأبطال الصناديد ليضعفون فى مكانها، فلا يعدمون المعذرة الناهضة، والشفاعة المقبولة، بل ملكت جأشها وملكته جأشه وأقبلت عليه تقول: «يا ولدى، إن كنت على حق تدعو إليه فامض عليه فقد قتل عليك أصحابك، ولا تمكن من رقبتك غلمان بنى أمية فيتلعبوا بك وإن قلت إنى كنت على حق فلما وهن أصحابى ضعفت نيتى فليس هذا فعل الأحرار، ولا فعل من فيه خير. كم خلودك فى الدنيا؟ القتل أحسن ما يقنع به يابن الزبير والله لضربة بسيف فى عز أحب إلىّ من ضربة بسوط فى ذل».

والتفتت تدعو الله كأنما تناجى نفسها: «اللهم ارحم طول ذاك النحيب والظمأ فى هواجر المدينة ومكة، وبره بأمه اللهم إنى قد سلمت فيه لأمرك، ورضيت فيه بقضائك، فأثبنى فى عبد الله ثواب الشاكرين».

مقالة أم جاوزت المائة واصطلحت عليها الملمات وكف بصرها من الحزن ويئست من نصرة ابنها ومن حياته فى جهاده، فناهضت من السن والمرض والخوف والثكل فى أحرج الساعات ما تنوء به عزائم الأقيال وتنهد له أركان الجبال.

ثم غلب القوم ابنها المقدام فصلبوه ورفعوا جثته للتمثيل والتشهير، فآلمها أن يصاب فى كرامة موته كما آلمها من قبل أن يصاب فى كرامة حياته. وذهبت إلى الحجاج تسأله فى ذلك سؤال الأعزاء. فقادها الدليل إليه حتى وقفت على مقربة منه تقول: أما آن لهذا الراكب أن ينزل؟ قال فى غير رفق ولا حياء: المنافق؟ فما همها وهو صاحب طلبتها أن يجيبها أو لا يجيبها، وإنما همها أن تدفع عن ولدها وأن تجزى الشاتم بشتمه، وقالت مغضبة: والله ما كان منافقاً، والله ما كان منافقاً، وقد كان صواماً قواماً...»

فعالجها مغيظاً من ردها عليه: اذهبى فإنك عجوز قد خرفت...

قالت: لا والله! ما خرفت. ولقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: يخرج من ثقيف كذاب ومبير[1]. فأما الكذاب فرأيناه، وأما المبير فأنت هو.

وهذه هى الأم التى يشرف بها الأبناء والآباء، وتشرفها سلالة آدم وحواء.

هذه أسماء بنت أبى بكر.

---

(١) مبير مهلك.

وتلك عائشة بنت أبى بكر.

فما عسى أن يقول القائل وأن يثنى المثنى على بيت ينجب هاتين العقيلتين الكريمتين ؟

لقد كان لأبى بكر أبناء من خيرة الرجال.

ولكن البيت تدل عليه بناته قبل أن يدل عليه أبناؤه، لأن الفضل فى نشأتهن كلها للبيت، من حيث يحسب لغير البيت الفضل فى نشأة الأبناء.

وذلك هو بيت الصديق، أكرم به من بيت بين ما حملت الأرض كلها من بيوت.

صورة مجملة

قالت السيدة عائشة فى وصف أبيها وقد تناوله بعضهم بما أغضبها:

«... سبق إذ ونيتم سبَقَ الجوادِ إذا استولى على الأمد، فتى قريش ناشئاً وكهفها كهلاً، يفك عانيها، ويـريش مملقها، ويـرأب شعبها، ويلم شعثهـا، حتى حلته قلوبهـا، ثم استشرى فى دين الله فما برحت شكيمته فى ذات الله عز وجل..»

وكان نفر من المهاجرين والأنصار يتذاكرون فضائل أهل الفضل عند باب النبى عليه السلام، فخرج عليهم النبى فسألهم: فيم أنتم؟ قالوا: نتذاكر الفضائل... فقال: «لا تقدموا على أبى بكر أحداً فإنه أفضلكم فى الدنيا والآخرة».

ومن قوله فيه عليه السلام: «أبو بكر خير الناس إلا أن يكون نبى..»

وقال على رضى الله عنه فى تأبينه: «... كنت كالجبل الذى لا تحركه العواصف ولا تزيله القواصف: كنت كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم ضعيفاً فى بدنك، قويًّا فى أمر الله، متواضعاً فى نفسك، عظيماً عند الله، جليلاً فى الأرض، كبيراً عند المؤمنين. ولم يكن لأحد عندك مطمع، ولا لأحد عندك هوادة، فالقوى عندك ضعيف حتى تأخذ الحق منه، والضعيف عندك قوى حتى تأخذ الحق له، فلا حرمنا الله أجرك، ولا أضلنا بعدك...»

وفى هذا الثناء كفاية إذا عمدنا إلى الثناء الذى قاله فيه عارفوه.

ولكننا فى أمر أبى بكر وأمثاله نستطيع أن نتجاوز الثناء إلى مقالة الأعداء الألداء، ونحن آمنون أن نسمع فيه ما يغض من فضله وينقص شيئاً من حقه. إذ ليس على عظيم من العظماء غضاضة أن يختلف فيه مختلفون، وأن يتأول أعماله متأولون، فكل عظيم من عظماء الدنيا قيل له وقيل عليه، وحسنت نيات قوم نحوه وساءت نيات آخرين. فليس هذا بضائره، وليس هذا بعجيب، وإنما الميزان العادل فى الحكم له أن عليه دليل القائل

وليس مقال القائل. فلمن شاء أن يزعم ما يشاء فيمن يشاء، ولكنه لا يوضع فى الميزان إلا بدليل تؤيده الوقائع والأعمال. فهذا الذى يحسب من مقال القائلين ومن خلاف المختلفين.

فليست فضيلة أبى بكر أنه ظفر من الناس جميعاً بالثناء الذى لا معقب عليه، إذ ليس هذا بممكن وليس هذا بمعقول ولا بمطلوب.

وإنما فضيلته أنه قد ظفر بالثناء ممن فى ثنائه صدق ولثنائه قيمة، وأن خلاف المخالفين لم يقم قط على دليل ولم يأت قط من أناس يحسنون ما يقولون

وكل حكم على أبى بكر مؤيد بدليل معتمد على واقع، فهو مصور له فى صورة عامة واحدة لا شك فيها، وهى صورة أمين، وأكثر من أمين، لأنه لم يتهم قط بخيانة فى الجاهلية أو الإسلام.

وأكثر من الأمين، لأن الأمين هو الذى يعطى حق غيره، فأما الذى يعطى الأمانة ويزيد عليها، أو يعطى حق غيره ويعطى من حقه الذى لا يطلب منه، فذلك هو المفضل الذى جاوز قدر الأمانة، فهو أكثر من أمين.

وكان أبو بكر يؤدى الأمانات فى الجاهلية ويزيد عليها من عنده فضل المفضل وإحسان المحسن وإغاثة المغيث.

ثم تسلم الأمانة الكبرى بعد الخلافة فترك الدنيا وقد أداها كما هى وزاد عليها.

ولسنا غالين فى المجاز حين نقول إنه صنع مثل ذلك فى أمانة الخلق أو أمانة الحياة، فمات خيراً مما ولد، ونشأ ضعيفاً فى بدنه. كما قال رسول الله فإذا هو يستمد من قوة باطنه لقوة ظاهره، ويلقى من مروءته على مرآه، حتى أنشأ من نفسه ما لم ينشأ من بدنه، وبلغ من المهابة بالقوة التى زادها على تكوينه الظاهر فوق ما يؤتاه أمثاله فى أمثال هذا التكوين.

للناس أن يعطوه وهم على ثقة أن يستردوا ما أعطوه وزيادة، وللحياة أن تعطيه وهى على ثقة ألا ينقص عطاؤها وألا يزال معه فى ازدياد، على كل أمانة عنده كائناً ما كان معطيها حق مصون، ومزيد مضمون.

صورته المجملة أنه الأمين، وأكثر من الأمين.

الأمين فى الصداقة، والأمين فى الحكومة، والأمين فى السيرة، والأمين فى المال، والأمين فى الإيمان، ثم هو فى كل أولئك أكثر من الأمين.

عصمته العواصم من فتنة الغواية فولد كريماً تعنيه العزة بين الأقوياء، ولا يعنيه الطغيان على الضعفاء.

وكبر وليس له مأرب فى سيادة باغية، ولا فى صولة دائمة على من لا يريدها ولا يطمئن إليها.

وكبر فى تكوينه حدة الشعور وحماسة اليقين، وسليقة الإعجاب، وعصمة المروءة والوقار.

وكبر وكل فضيلة فيه تكبر إلى آمادها، فلما مات كان أكبر ما كان، وأكبر ما يتأتى أن يكون.

مات وهو صاحب الدعوة الثانية فى الإسلام، فكان الثانى حقًّا بعد النبى عليه السلام فى كل شىء، من قبول الإسلام إلى ولاية أمر الإسلام إلى تجديد دعوة الإسلام، بعد أن نقضت الردة دعوته الأولى وأوشكت أن ترجع بها إلى الجاهلية الجهلاء.

ثانى اثنين وأول مقتد وأول مجيب.

ذلك موضعه فى تلك الدعوة الإنسانية التى نشأت فى أمة واحدة ثم غيرت ما بعدها فى جميع الأمم، سواء منها من علم بها وما لم يعلم، وهو دعوة صديقه وصفيه ونبيه محمد صلوات الله وسلامه عليه.

* * *

قيل إنه مات بالسم فى أكلة أكلها قبل عام من وفاته، وليس لهذا القول مرجع يميل إلى الباحث إلى تصديقه.

وقيل إنه مات بالحمى لأنه استحم فى يوم بارد، وقد مات فى شهر قائظ[1] كما يظهر

---

(١) أغسطس.

من مضاهاة الشهور العربية على الشهور الشمسية، فليس لهذا القول سند صحيح.

وأغلب الظن أنها حمى المستنقعات «الملاريا» التى أصيب بها بعد الهجرة إلى المدينة، ثم عاودته فى أوانها مرة أخرى وهو شيخ ضعيف، فجددت الإصابة الثانية عقابيل الإصابة الأولى، وانتهت حياة بلغت نهايتها فى حيز الجسد، وفى حيز المجد، وفى حيز التاريخ.

فهـرس

عَبْقَرِيَّةُ عُمَرَ

مقدمة

تم تأليف هذا الكتاب فى أحوال عجيبة هى أحوال بأس وخطر. فلا غرابة بينها وبين موضوع الكتاب الذى أدرته عليه، لأننا لا نتكلم عن عمر بن الخطاب إلا وجدنا أننا على مقربة من البأس ومن الخطر فى آن.

فما شرعت فى تحضيره وبدأت فى الصفحات الأولى منه حتى رأيتنى على سفر بغير أهبة إلى السودان. فوصلت إليه وليس معى من مراجع الكتاب إلا القليل، وكانت الصفحات الأولى التى كتبتها فى القاهرة مما تركته مع المراجع الكثيرة فيها، فأعدت كتابتها فى الخرطوم، ومضيت فيه هنالك حتى انتهيت من أكبر شطريه. واستغنيت بمراجع الخرطوم عن المراجع التى أعجلنى السفر عن نقلها، لأن أدباء السودان وفضلاءه يدخرون جملة صالحة من هذه المراجع، ويجودون بها أسخياء مبادرين إلى الجود، فلا أذكر أننى طلبت كتابًا فى المساء إلا كان عندى فى بكرة الصباح.

وإنى لأتوفر على كتابته وأحسبنى منتهيا منه فى السودان إذ رأيتنى مرة أخرى على سفر بغير أهبة إلى القاهرة، فعدت إليها بالطائرة ألتمس العلاج السريع، لأن يدى أوشكتا أن تعجزا عن تناول القلم بما عراهما من ثآليل «الخريف».

فعدت وما يشغلنى عن إتمامه شاغل فى السفر والمقام، ولم أحسب هذا البأس فى الحالتين من موانعه وعراقيله، لأننى ألفت بعض كتبى الكبار فى أحوال تشابه هذه الأحوال. فألفت كتابى عن «ابن الرومى» بين السجن ونذره ومقدماته، وألفت كتابى عن «سعد زغلول» وأنا غير مستريح من كفاحه، وكلاهما من آثر الكتب عندى وأكبرها فى الموضوع وفى عدد الصفحات.

إنما حسبت هذا البأس من مطابقاته وموافقاته، ومن وضع الشىء فى موضعه على نحو من الأنحاء، ولم أعدده من حرج التأليف كما عددته من مهيئات جوه، ولاسيما حين

ألفيتنى أدرس آثار الحركة المهدية، وأتقلب بين مشاهدها وميادينها، وأستخرج العبرة من القتال بين الراجلين والفيلة فى مواقع فارس، ومن القتال بين الراجلين والسفن المسلحة فى مواقع الخرطوم وأم درمان. فهذه عقيدة وتلك عقيدة، ولكن العقيدة التى ظفرت كان معها حليف من الغد المأمول، ولم تكن العقيدة التى فشلت على وفاق مع الغد ولا مع الأمل.

ولكن الحرج كل الحرج فى التأليف إنما كان فى محاسبة عمر بن الخطاب. أو ليس الحرج فى الحساب أيضا، من العمريات المأثورات؟!

فالناس قد تعودوا ممن يسمونهم بالكتاب المنصفين أن يحبذوا وينقدوا، وأن يقرنوا بين الثناء والملام، وأن يسترسلوا فى الحسنات بقدر لينقلبوا من كل حسنة إلى عيب يكافئها ويشفعوا كل فضيلة بنقيصة تعادلها، فإن لم يفعلوا ذلك فهم إذن مظنة المغالاة والإعجاب المتحيز، وهم إذن أقل من الكتاب المنصفين الذين يمدحون ويقدحون، ولا يعجبون إلا وهم متحفزون للملام.

عرض لى هذا الخاطر فذكرت قصة العاهل الذى تحاكم إلى قاضيه مع بعض السوقة فى عقار يختلفان على ملكه فحكم القاضى للسوقة بغير الحق ليغنم سمعة العدل فى محاسبة الملوك، وعزله العاهل لأنه ظلم وهو يبتغى الرياء بظلمه. فكان أعدل عادل حين بدا كأنه يحرص على مال مغصوب، ويجور على تابع جسور.. لأنه أنصف وهو مستهدف لتهمة الظلم، وقاضيه قد ظلم وهو يتراءى بالإنصاف.

قلت لنفسى: إن كنت قد أفدت شيئًا من مصاحبة عمر بن الخطاب فى سيرته وأخباره فلا يحرجنك أن تزكى عملا له كلما رأيته أهلا للتزكية، وإن زعم زاعم أنها المغالاة، وأنه فرط الإعجاب.

وهذه هى الأسوة العمرية فى الحساب.

فالحق أننى ما عرضت لمسألة من مسائله التى لغط بها الناقدون إلا وجدته على حجة ناهضة فيها، ولو أخطأه الصواب.

وإن أعسر شىء أن تحاسب رجلا كان أشد أعدائه لا يبلغون من عسر محاسبته بعض ما كان يبلغه هو فى محاسبته نفسه، وأحب الناس إليه.

ذلك رجل قل أن يجور عن القصد وهو عالم بجوره، وقل أن يتيح لأحد أن يكسب دعوى الإنصاف على حسابه إلا أن يكسبها أيضًا على حساب الحق والنقد الأمين.

فإذا عرفت منحاه من الخلق والرأى، وسلمت له مزاجه ووجهة تفكيره فكن على يقين أنه لن يتجافى عن النهج السوى، ولن يتعلق بأمر يعدوه الصلاح ويشوبه السوء.

وذلك أحرج الذى عانيته فى نقد هذا الرجل العظيم، وتلك حيطة معه إن لم يستفدها الكاتب وهو مشغول بعمر، ونهج عمر، فشغله عبث ذاهب فى الهواء.

وعلم الله لو وجدت شططًا فى أعماله الكبار لكان أحب شىء إلى أن أحصيه وأطنب فيه، وأنا ضامن بذلك أن أرضى الأثرة وأرضى الحقيقة، ولكنى أقولها بعد تمحيص لا مزيد عليه فى مقدورى: إن هذا الرجل العظيم أصعب من عرفت من عظماء الرجال نقدًا ومؤاخذة، ومن فريد مزاياه أن فرط التمحيص وفرط الإعجاب فى الحكم له أو عليه يلتقيان.

وكتابى هذا ليس بسيرة لعمر، ولا بتاريخ لعصره على نمط التواريخ التى تقصد بها الحوادث والأنباء، ولكنه وصف له ودراسة لأطواره، ودلالة على خصائص عظمته، واستفادة من هذه الخصائص لعلم النفس وعلم الأخلاق وحقائق الحياة، فلا قيمة للحادث التاريخى جل أو دق إلا من حيث أفاد فى هذه الدراسة، ولا يمنعنى صغر الحادث، أن أقدمه بالاهتمام والتنويه على أضخم الحوادث، إن كان أوفى تعريفًا بعمر، وأصدق دلالة عليه.

وعمر بعد، رجل المناسبة الحاضرة فى العصر الذى نحن فيه، لأنه العصر الذى شاعت فيه عبادة القوة الطاغية وزعم الهاتفون بدينها أن البأس والحق نقيضان. فإذا فهمنا عظيمًا واحدًا كعمر بن الخطاب فقد هدمنا دين القوة الطاغية من أساسه، لأننا سنفهم رجلا كان غاية فى البأس، وغاية فى العدل، وغاية فى الرحمة.. وفى هذا الفهم ترياق من داء العصر يشفى به من ليس بميئوس الشفاء.

وإنه لجهاد جديد لعمر بن الخطاب، يطيب لنا أن نوجزه فى كتاب.

عباس محمود العقاد

عبقرى

«... لم أر عبقريًّا يَفرِى فريَّه[١]...»

كلمة قالها النبى عليه السلام فى عمر رضى الله عنه، وهى كلمة لا يقولها إلا عظيمٌ عظماء، خُلق لسياسة الأمم وقيادة الرجال.

فمن علامات العظمة التى تحيى مواتَ الأمم أن تختص بقدرتين لا تعهدان فى غيرها، أولاهما أن تبتعث كوامن الحياة ودوافع العمل فى الأمة بأسرها وفى رجالها الصالحين لخدمتها، والأخرى أن تنفذ ببصيرتها إلى أعماق النفوس فتعرف بالبديهة الصائبة والوحى الصادق فيم تكون عظمة العظيم، ولأى المواقف يصلح، وبأى الأعمال يضطلع، ومتى يحين أوانه وتجب ندبته[٢] ومتى ينبغى التريثُ فى أمره إلى حين.

كلتا القدرتين كان لها الحظ الوافر فى سيرة عمر بن الخطاب فأين – لولا الدعوةُ المحمدية التى بعثت كوامن العظمة فى أمة العرب – كنا نسمع بابن الخطاب؟ وأى موضع له كان من مواضع هذا التاريخ العالمى الذى يزخر بكبار الأسماء؟

إنه الآن اسم يقترن بدولة الإسلام ودولة الفرس ودولة الروم وكل دولة لها نصيب فى التاريخ. فأين كنا نسمع باسم عمر لولا البعثة المحمدية؟

لقد كان ولا ريب خليقا أن يستوى على مكان الزعامة بين بنى عدى آله الأقربين، أو بين قريش قبيلته الكبرى، ثم ينتهى شأنه هناك كما انتهى شأن زعماء آخرين لم نسمع لهم بخبر. لأنهم عظموا أو لم يعظموا، يعطون البيئة كفاء ما تطلب من جهد ودراية، وهى تطلب منهم ما يذكرون به فى بيئتهم، ولكنها لا تطلب منهم ما يذكرون به فى أقطار العالم البعيد.

---

(١) فرى الجلد: قطعه ليصلحه، وفرى الفرى أتى بالعجب. والمعنى أن عمر عبقرى منفرد فى عمله فلا يقدر أحد على أن يصنع مثل صنيعه.

(٢) اسم من ندبه للأمر أى دعاه.

وقد كان عمر قوى النفس بالغًا فى القوة النفسية، ولكنه على قوته البالغة لم يكن من أصحاب الطمع والاقتحام، ولم يكن ممن يندفعون إلى الغلبة والتوسع فى الجاه والسلطان بغير دافع يحفزه إليه وهو كاره. لأنه كان مفطورًا على العدل وإعطاء الحقوق والتزام الحرُمات ما التزمها الناس من حوله. وكان من الجائز أن يهيجه خطر على قبيلته أو على الحجاز ومحارمه المقدسة فى الجاهلية فينبرى لدفعه ويبلى فى ذلك بلاء يتسامع به العرب فى جيله وبعد جيله، ولكنه لا يعدو ذلك النطاقَ ولا هو يبالى أن يمعن فى بلائه حتى يعدوه.

بل كان من الجائز غير هذا وعلى نقيضه.

كان من الجائز أن تفسد تلك القوة بمعاقرة الخمر والانصراف إليها. فإنه كان فى الجاهلية كما قال «صاحب خمر يشربها ويحبها» وهى موبقة[1] لا تؤمن حتى على الأقوياء إذا أدمنوها ولم يجدوا من زواجر الدين أو الحوادث ما يصرفهم عنها، ويكفهم عن الإفراط فى معاطاتها.

فعمر بن الخطاب الذى عرفه تاريخ العالم وليد الدعوة المحمدية دون سواها. بها عُرِف وبغيرها لم يكن ليعرف فى غير الحجاز أو الجزيرة العربية.

أما القدرة الأخرى التى يمتاز بها العظيم الذى خلق لتوجيه العظماء فقد أبان عنها النبى عليه السلام فى كل علاقة بينه وبين عمر من اللحظة الأولى، أى من اللحظة التى سأل الله فيها أن يعز به الإسلام، إلى اللحظة التى ندب فيها أبا بكر للصلاة بالناس وهو - عليه السلام - فى مرض الوفاة.

سبر غوره واستكنه عظمته، وعرفه فى أصلح مواقفه فعرف الموقف الذى يتقدم فيه على غيره والموقف الذى هو أولى بتقديم غيره عليه.

وليست هى مفاضلة بين رجلين ولا موازنة بين قدرتين.. ولكنها مسألة التوفيق بين الرجل والموضع الذى ينبغى أن يوضع فيه، والمهمة التى ينبغى أن يندب لها، والوقت الذى يحين فيه أوانه.

وربما رأينا فى زماننا هذا رئيسا يوصى لنصير من أنصاره بالوزارة ويوصى لغيره بقيادة

---

(١) موبقة: مهلكة.

الجيش، فلا نقول إنه يفاضل بين النصيرين أو إنه يرجح أحدهما على الآخر فى ميزان الكفاءة. وإنما يختار كلا منهما لموضعه فى الوقت الذى يحتاج إليه، ولا غضاضة على أحد منهما فى هذا الاختيار.

فالنبى عليه السلام كان يعلم من هو أبو بكر ومن هو عمر. وقد عادل بينهما أجل معادلة حين قال: «إن الله عز وجل ليلين قلوب رجال فيه حتى تكون ألين من اللبن، وإن الله ليشدد قلوب رجال فيه حتى تكون أشد من الحجارة، وإن مثلك يا أبا بكر مثل إبراهيم قال: «من تبعنى فإنه منى، ومن عصانى فإنك غفور رحيم» ومثلك يا أبا بكر مثل عيسى قال: «إن تعذبهم فإنهم عبادك وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم» ومثلك يا عمر مثل نوح قال: «رب لا تذر على الأرض من الكافرين ديارا» ومثلك كمثل موسى قال: «ربنا اطمس على أموالهم واشدد على قلوبهم فلا يؤمنوا حتى يروا العذاب الأليم».

كان النبى عليه السلام يعلم - كما قال - أن عمر أشد المسلمين فى الله، ويعلم أن فى أبى بكر لينًا وهوادة. فجمع للإسلام المزيتين حين اختار أبا بكر للصلاة وضمّن هذا الاختيار معنى من معانى الاستخلاف.. أو كما جاء فى بعض الروايات أنه نص على استخلاف أبى بكر بالقول الصريح.

فتعزيز الإسلام بعد نبيه كان فى حاجة إلى كثير من الهوادة والمجاوزة. وكان كذلك فى حاجة إلى كثير من الشدة والصرامة. ولن تذهب شدة عمر إذا احتاج إليها أبو بكر فى محنة يشتد فيها اللين الوديع. إنما الخوف أن يذهب لين أبى بكر إذا اشتد عمر، ولا خوف من أن يلين عمر وأبو بكر شديد. فإن الموقف إذا استنفد حججَ الرحمة حتى يلجأ فيه أبو بكر إلى البأس ويصر عليه، فأقرب شيء أن يعدل عمر عن لينه وأن يثوبَ إلى المعهود من صرامته ولَدَدِه[1].

وكان النبى عليه السلام يعلم أن احتمال التبعة أو «المسئولية» خليق أن يبدل أطوار النفوس فى بعض المواقف والأزمات، فيجنح اللين إلى الشدة ويجنح الشديد إلى اللين. لأننا إذا قلنا إن رئيسا أصبح يشعر بالمسئولية فمعنى ذلك أنه أصبح يراجع رأيه فلا

---

(١) اللدد: شدة الخصومة.

يستسلم لأول عارض يمليه عليه طبعه، ولا يقنع باللين أولَ وهلة إذا كان من دأبه اللين، ولا بالشدة أول وهلة إذا كان من دأبه الشدة. ومن هنا ينشأ الاختلاف بين موقف الرجل وهو مسئول وموقفه وهو غير مسئول.

وهذا الذى ظهر أعجب ظهور فى موقفى الصاحبين من حرب الردة. فإن عمر الشديد قد آثر الهوادة وأبا بكر الرفيق قد آثر القتال وأصر عليه. وكان عمر يقول: «إن رسول الله كان يقاتل العرب بالوحى والملائكة يمده الله بهم وقد انقطع ذلك اليوم»، ثم يقول للخليفة: «الزم بيتك ومسجدك فإنه لا طاقة لك بقتال العرب». وكان أبو بكر يقول متسائلا: «أئن كثر أعداؤكم وقل عددكم ركب الشيطان منكم هذا المركب؟ والله ليظهرن الله هذا الدين على الأديان كلها ولو كره المشركون، قوله الحق ووعده الصدق، «بل نقذف بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق».. «كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين». «والله أيها الناس لو منعونى عقالا لجاهدتهم عليه واستعنت عليهم بالله وهو خير معين!».

هناك بلغت التبصرة بوجوه الرأى المختلفات غاية مداها، وجاء عمر بقصارى ما عنده من حجج الرأى الآخر حتى وضحت المناهج واستقر العزم والتقى الصاحبان عليه، فكانت شدتهما فى الحق شدتين.

وهب الأمر مع هذا قد اختلف فى موقف الصاحبين فمال أبو بكر إلى السلم والمسامحة، فأين كانت شدة عمر ذاهبة عنه فى هذه الحال؟ أغلب الظن أنه هو الذى كان يتولى يومئذ أن يبسط وجه الشدة فى معاملة المرتدين. لأنه يعلم أنه المسئول عن بسط هذا الوجه دون غيره، فلا تفوت الإسلام مزية من مزايا الصاحبين.

إن محمدًا عليه السلام قد عرف من هم رجاله وما هو الموقف الذى هم مقبلون عليه بعد وفاته. فعرف الموضع الذى يضع فيه كلا منهم والعمل الذى يتولاه خير ولاية فى ذلك الموضع. ولم يفته أن يحسب حساب التبعة وما فى احتمالها من ضمان للأخلاق الصالحة والعقول الراجحة، وأبو بكر وعمر من خيرة أصحاب هذه الأخلاق وهذه العقول.

ولا يحسبن حاسب أننا نفسر الأمور بما كشفته لنا الحوادث بعد وقوعها ولم يكن مقصودًا فى النيات قبل ذلك. فإن الذى يحسب هذا الحسبان يخطئ تلك الخطأة الشائعة

التى لا تثبت على أقل نصيب من الروية والمراجعة: يخطئ فى وهمه خطأة الذين يتخيلون أن هذه السياسات العالية من بدع الزمن الأخير وليست هى من البدع فى زمن كان. لأن العظمة لم تكن قط وقفًا على العصر الحديث، ولا سيما العظمة التى ترجع إلى الفطرة القويمة والبديهة النافذة والنظر السديد.

فكل هذا التقدير الذى أجملنا شرحه كان تقدير قصد وتدبير، وكان مفهومًا على البداهة بين ولاة الأمر فى تلك الآونة، ملحوظًا بينهم فى مناجاة النيات قبل أن نلحظه نحن فى عصرنا هذا من تفسير حوادث التاريخ.

وإلى ذلك أشار عمر فى قول صريح حين قال لمن هابوه وتحدثوا بخوف الناس منه: «بلغنى أن الناس هابوا شدتى وخافوا غلظتى وقالوا: قد كان عمر يشتد علينا ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ثم اشتد علينا وأبو بكر والينا دونه، فكيف وقد صارت الأمور إليه؟ ومن قال ذلك فقد صدق، فقد كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه. وكان من لا يبلغ أحد صفته من اللين والرحمة، وكان كما قال الله: بالمؤمنين رءوف رحيم، فكنت بين يديه سيفًا مسلولاً حتى يغمدنى أو يدَعَنى فأمضى. فلم أزل مع رسول الله على ذلك حتى توفاه الله وهو عنى راضٍ، والحمد لله على ذلك كثيرا وأنا به أسعد. ثم ولى أمر المسلمين أبو بكر فكان من لا ينكرون دعته وكرمه ولينه، فكنت خادمه وعونه، أخلط شدتى بلينه فأكون سيفًا مسلولاً حتى يغمدنى أو يدعنى فأمضى، فلم أزل معه كذلك حتى قبضه الله عز وجل وهو عنى راض، والحمد لله على ذلك كثيرًا وأنا به أسعد. ثم إنى قد وليت أموركم أيها الناس فاعلموا أن تلك الشدة قد أضعفت[1]، ولكنها إنما تكون على أهل الظلم والتعدى على المسلمين: «فأما أهل السلامة والدين والقصد فأنا ألين لهم من بعض لبعض...»

بل ظهرت آثار الشعور بالتبعة بعيد موت النبى والحال على أشده فى يوم السقيفة، والمسلمون مختلفون على من يلى الأمر بعد محمد حتى قيل فيما قيل: من الأنصار أمير ومن المهاجرين أمير!

ففى تلك المحنة التى تشخص فيها الأبصار وتعظم التبعات وتودى زلة الساعة فيها

---

(١) أضعفت: زادت أضعافا.

بالكثير الذى لا تستدركه الأعوام، كان عمر الحاد الشديد يخشى بوادر الحدة من أبى بكر ويهيئ الكلام اللين ليعالج الأمر بالرفق والتؤدة، ويقول فيما رواه عن محنته ذلك اليوم: «وكنت أدارى منه بعض الحد - أى الحدة - فلما أردت أن أتكلم قال أبو بكر: على رسلك! فكرهت أن أغضبه، فتكلم أبو بكر فكان هو أحلم منى وأوقر»

وعمر الحاد الشديد يحاذر من بوادر أبى بكر، وأبو بكر الحليم الوديع يكف عمر عن الكلام فيطيع!

هؤلاء رجال يعرفهم صاحبهم، وهذه مواقف يعرفها صاحبها، وهذه مسألة فصل فيها الزمن ولم يبق لنا نحن الذين نعود إليها ونستخلص عبرتها إلا أن نراقب ما فيها من آيات الإعجاز، وسوابق النظر البعيد.

ما وضع أبو بكر خيرًا من موضعه وهو يلى الإسلام والخطر من داخل أهله، والطب الذى يطبهم به هو طب التآلف والإحجام عن السطوة ما كان إلى الإحجام عنها سبيل.

وما وضع عمر خيرًا من موضعه وهو يلى الإسلام والخطر عليه من أعدائه المحدقين به، والطب الذى يطبهم به هو طب الصلابة والحزم الذى لا ينكل[1] عن صراع.

وكأنما توقع النبى أن أيام أبى بكر معدودات ولكنها الأيام التى تحتاج إليه وتكفى لإنجاز عمله. وتوقع أن يأتى عمل عمر فى حينه المقدور فلا يفوت الإسلام أن ينتفع بمقدرته فى عهد أبى بكر ولا فى عهده نقول هذا على الترجيح ومن حقنا أن نقوله على التوكيد، لأن حديث ا بى فيه غنى عن التخمين والتأويل. قال عليه السلام: «أريت فى المنام أنى أنزع بدلو رة على قليب[2] فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا[3] أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا، والله يغفر ل م جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربًا[4] فلم أر عبقريًا يفرى فرية حتى روىَ الناس وضربوا بعَطن»[5].

(١) ينكل: يجبن.

(٢) قليب: بئر.

(٣) ذنوبا: دلوا.

(٤) الغرب: الدلو العظيمة.

(٥) عط ! الإبل حول الماء.

وفهم فقهاء الإسلام أن ضعف النزع هو قصرُ المدة وانصراف العزم إلى حرب الردة، وأن فيض الرى على يد عمر هو فيض العبقرية التى ينفسح لها الأجل وتنفسح أمامها منادح العمل، ويؤتى لها من السبق ما لا يؤتى لغير العبقريين.

ولنا أن نفسر العبقرية بمعناها الذى يفهمه الأقدمون أو بمعناها الذى نفهمه نحن المحدثين، فكلا المعنيين مستقيم فى وصف عمر بن الخطاب... أتراها على كلا المعنيين شيئًا غير التفرد والسبق والابتكار؟ كلا. ما للعبقرية مدلول يخرج عن صفة من هذه الصفات. ومن يكتب تاريخ عمر فقد يجد فى النهاية أنه يكتب تاريخًا «لأول من صنع كذا وأول من أوصى بكذا» حتى ينتهى بسرد هذه «الأولويات» إلى عداد العشرات.

وتلك هى العبقرية التى لا يفرى فريها أحد كما قال صاحبه وأعرف الناس به، صلوات الله عليه.

رجل ممتاز

يوصف عمر بالعبقرية إذا نظرنا إلى أعماله، ويوصف بها إذا نظرنا إلى تكوينه الذى جعله مستعدًا لتلك الأعمال مضطلعًا بتلك القدرة، وإن لم يكن من اللازم اللازب أن تقترن القدرة بالعمل الذى تستطيعه، لما يتفق أحياناً من وقوف العوائق بينها وبين الإنجاز أو الاتجاه إلى ذلك العمل.

إلا أن عمر كان رجلاً ممتازًا بعمله، ممتازًا بتكوينه، وكان وفاء شرط الامتياز والتفرد فى عرف الأقدمين والمحدثين، من المؤمنين بدينه وغير المؤمنين.

إذا وصفته للأقدمين الذين يقيسون العبقرية بالفراسة والخبرة عرفوا من صفته أن الذى يوصف لهم رجل ممتاز أو رجل نسيج وحده[١].

وإذا وصفته للمحدثين الذى يقيسون العبقرية بالعلم أو مشاهدات العلماء عرفوا من تلك الصفة أنه رجل ممتاز أو رجل موهوب.

كانت نظرة إليه - قبل السماع بعمل من أعماله - توقع فى الروع[٢] أنه من معدن فى الرجال غير معدن السواد[٣]، وأنه جدير بالهيبة والإعظام، خليق أن يحسب له كل حساب.

كان مهيبًا رائع المحضر حتى فى حضرة النبى الذى تتطامن عنده الجباه، وأولها جبهة عمر.

أذن النبى يومًا لجارية سوداء أن تفى بنذرها «لتضربن بدفها فرحًا إن رده الله سالماً» فأذن لها عليه السلام أن تضرب بالدف بين يديه.

---

(١) نسيج وحده: لا نظير له.

(٢) الروع: العقل أو القلب.

(٣) سواد الناس: عوامهم.

ودخل أبو بكر وهى تضرب، ثم دخل على وهى تضرب، ثم دخل عثمان وهى تضرب، والصحابة مجتمعون.

فما هو إلا أن دخل عمر حتى وجمت الجارية وأسرعت إلى دفها تخفيه والنبى عليه السلام يقول: (إن الشيطان ليخاف منك يا عمر!).

وروت السيدة عائشة رضى الله عنها أنها طبخت له عليه السلام حريرة[1] ودعت سودة أن تأكل منها فأبت، فعزمت عليها لتأكلنَّ أو لتلطخنَّ وجهها فلم تأكل، فوضعت يدها فى الحريرة ولطختها بها. وضحك النبى عليه السلام وهو يضع الحريرة بيده لسودة ويقول لها: لطخى أنت وجهها. ففعلت.

ومر عمر فناداه النبى: يا عبد الله! وقد ظن أنه سيدخل فقال لهما: قوما فاغسلا وجهيكما!

قالت السيدة عائشة: فما زلت أهاب عمر لهيبة رسول الله صلى الله عليه وسلم إياه.

ومن تلك الهيبة أنها كانت رضى الله عنها تتحفظ فى زيارة قبره بعدموته وحكت ذلك فقالت: «ما زلت أضع خمارى وأتفضل[2] فى ثيابى وأقول إنما زوجى وأبى، حتى دفن عمر ابن الخطاب، فلم أزل متحفظة فى ثيابى حتى بنيت بينى وبين القبور جدارًا فتفضلت بعد».

وإن من أدب الرسول عليه السلام أنه كان يرعى تلك الهيبة رضًا عنها واغتباطًا بأثرها فى نصرة الحق وهزيمة الباطل وتأمين الخير والصدق وإخافة أهل البغى والبهتان.

وقد كان الذين يعرفون عمر أهيب له من الذين يجهلونه.. وتلك علامة على أن هيبته كانت قوة نفس تملأ الأفئدة قبل أن تملأ الأنظار. فربما اجترأ عليه مَنْ لم يعرفه ومن لم يختبره لتجافيه عن الخيلاء وقلة اكتراثه للمظهر والثياب. أما الذين عرفوه واختبروه فقد كان يروعهم على المفاجأة روعة لا تذهبها الألفة وطول المعاشرة، ومن ذلك أنه كان يمشى ذات يوم وخلفه عدة من أصحاب رسول الله إذ بدا له فالتفت، فلم يبق منهم أحد إلا وجبل ركبته ساقط!

(١) الحريره هنا. دقيق يطبخ بلبن فيكون حساء.

(٢) التفضل لبس الفضال وهو الثوب يلبس فى البيت للخدمة أو النوم.

وتنحنح عمر والحجام يقص له شعره فذهل الحجام عن نفسه وكاد أن يغشى عليه، فأمر له بأربعين درهمًا.

فهى هيبة من قوة النفس قبل أن تكون من قوة الجسد. إلا أنه مع هذا كان فى منظر الجسد رائعًا يهول من يراه. ولا يذهب الخوف منه إلا الثقة بعدله وتقواه.

كان طويلًا بائن الطول يرى ماشيًا كأنه راكب، جسيمًا صلبًا يصرع الأقوياء ويروض الفرس بغير ركاب، ويتكلم فيسمع السامع منه وفاق ما رأى من نفاذ قول وفصل خطاب.

تشهد العيون كما تشهد القلوب أنه لمن معدن العظمة، أو معدن العبقرية والامتياز بين بنى الإنسان،وللمحدثين علامات فى العبقرية تتصل بالتكوين وتركيب الخلقة كما تتصل بمدلول الأخلاق والأعمال.

فالعالم الإيطالى «لومبروزو» ومدرسته التى تأتم برأيه يقررون بعد تكرار التجربة والمقارنة أن للعبقرية علامات لا تخطئها على صورة من الصور فى أحد أهلها.. وهى علامات تتفق وتتناقض ولكنها فى جميع حالاتها وصورها نمط من اختلاف التركيب ومباينته للوتيرة العامة بين أصحاب التشابه والمساواة.

فيكون العبقرى طويلًا بائن الطول، أو قصيرًا بين القصر، ويعمل بيده اليسرى أو يعمل بكلتا اليدين، ويلفت النظر بغزارة شعره أو بنزارة الشعر على غير المعهود فى سائر الناس. ويكثر بين العبقريين من كل طراز جَيشَان الشعور وفرط الحس وغرابة الاستجابة للطوارئ، فيكون فيهم من تفرط سورته[1] كما يكون فيهم من يفرط هدوءه، ولهم على الجملة ولع بعالم الغيب وخفايا الأسرار على نحو يلحظ تارة فى الزكانة[2] والفراسة وتارة فى النظر على مبعد، وتارة فى الحماسة الدينية أو فى الخشوع لله.

ومهما يكن من الشك فى استقصاء هذه العلامات والمطابقة بين تفصيلاتها وبين الواقع فهى بلا ريب صادقة فى حالات، مقاربة فى حالات، غير أهل فى كل حال للتصديق التام

(١) سورة السلطان: سطوته واعتداؤه.

(٢) الزكانة والفراسة: أن يظن الشخص فيصيب.

ولا للنبذ التام، ولا سيما عندما تتفق فيها الظواهر والبواطن وتتلاقى فيها ملاحظات العلماء وشواهد العرف المأثور.

وفى عمر بن الخطاب من هذه العلامات كثير.

كان كما تقدم طويلاً يمشى كأنه راكب، وكان أعسر[1] يسرًا يعمل بكلتا يديه، وكان أصلع خفيف العارضين، وكان كما وصفه غلامه وقد سأله بلال: وكيف تجدون عمر؟ فقال: خير الناس، إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم.

وكان سريع البكاء إذا جاشت نفسه بالخشوع بين يدى الله، وأثر البكاء فى صفحتى وجهه حتى كان يشاهد فيهما خطان أسودان.

ومن فرط حسه وتوفز شعوره أنه كان يميز بين بعض المذوقات والمشمومات التى لا يسهل التمييز بينها. سقاه غلامه ذات يوم لبنا فأنكره، فسأله: ويحك! من أين هذا اللبن؟ قال الغلام إن الناقة انفلت عليها ولدها فشرب لبنها فحلبت لك ناقة من مال الله.

وقد عرفنا أهل البادية وعرفنا أنهم جميعًا أصحاب إبل وألبان، ولكننا لم نجد منهم إلا قليلاً يدعون أنهم يفرقون بين لبن الناقة ولبن غيرها هذه التفرقة السريعة، ولا سيما فى المناخ الواحد والمرعى المتقارب.

وكانت له فراسة عجيبة نادرة يعتمد عليها ويرى أن «من لم ينفعه ظنه لم تنفعه عينه»... وتروى له فى أمر هذه الفراسة روايات قد يصدق منها القليل وتتسرب المبالغة إلى كثير، ولكنها على كلتا الحالتين تنبئنا بحقيقة لا شك فيها، وهى أنه اشتهر بالفراسة وحب التفرس والاستنباط بالنظرة العارضة، فمن ذلك أنه كان جالسًا فمر به رجل جميل فقال ما معناه: أحسبه كان كاهنهم فى الجاهلية.. فكان كذلك.

وأنه أبصر أعرابيًا نازلا من جبل فقال: هذا رجل مصاب بولده، قد نظم فيه شعرًا لو شاء لأسمعكم. ثم سأل الأعرابى: من أين أقبلت؟ فقال: من أعلى الجبل. فسأله: وما صنعت فيه؟ قال: أودعته وديعة لى. قال: وما وديعتك؟ قال: بنى لى هلك فدفنته قال: فأسمعنا مرثيتك فيه. فقال: وما يدريك يا أمير المؤمنين؟ فو الله ما تفوهت بذلك، وإنما

---

(١) الأعسر اليسر: الذى يعمل بكلتا يديه.

حدثت به نفسى، ثم أنشد أبياتا ختمها بقوله:

فالحمد لله لا شريك له ... فى حكمه كان ذا وفى قدره
قدر موتًا على العباد فما ... يقدر خلق يزيد فى عمره

فبكى عمر حتى بل لحيته، ثم قال: صدقت يا أعرابى.

وكان عمير بن وهب الجمحى وصفوان بن أمية يذكران مصاب أهل بدر فقال صفوان: والله ما إن فى العيش بعدهم خير. فوافقه عمير وهو يقول كالمعتذر من تخلفه عن الثأر: أما والله لولا دين علىّ ليس له عندى قضاء، وعيال أخشى عليهم الضيعة بعدى، لركبت إلى محمد حتى أقتله.

فقال صفوان يحرضه: علىَّ دينك أنا أقضيه عنك، وعيالك مع عيالى أو اسيهم ما بقوا، لا يسعنى شيء ويعجز عنهم.

فوقع كلامه من نفس عمير، فأسر إليه بعزمه على الغدر بالنبى وشحذ سيفه وسمه، ثم انطلق حتى قدم المدينة.

فلما نظر عمر إليه متوشحًا بالسيف حتى أوجس منه وهمس لمن معه: هذا الكلب عدو الله عمير بن وهب، ما جاء إلا لشر، وهو الذى حرش بيننا وحزرنا[1] للقوم يوم بدر. ثم دخل على النبى فأخبره خبره وعاد إلى عمير فأخذ بحمالة سيفه فى عنقه فلببه[2] بها، وقال لرجال من الأنصار: ادخلوا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فاجلسوا عنده واحذروا عليه من هذا الخبيث. فإنه غير مأمون. ثم دخل به على رسول الله فلما رآه وعمر آخذ بحمالة سيفه فى عنقه قال: أرسله يا عمر! ادن يا عمير!

وجعل رسول الله يسأل عميرًا وهو يراوغ حتى ضاقت به منافذ الإنكار فباح بسره، وأعلن الإسلام والتوبة.

هذه الفراسة وشبيهاتها هى ضرب من استيحاء الغيب واستنباط الأسرار بالنظر الثاقب. وما من عجب أن تكون هذه الخصلة قرينة من قرائن العبقرية فى حاشية من

---

(١) حزر الشيء: قدره بالتخمين.

(٢) لببه جمع ثيابه عند نحره ثم جره.

حواشيها... إذ ما هى العبقرية فى لبابها كائنا ما كان عمل المتصف بها؟ ما هى الحكمة العبقرية؟ ما هو الفن العبقرى؟ ما هو دهاء السياسة فى الدهاة العبقريين؟ من هو:

الألمعى الذى يظن بك الظن كـأن قـد رأى وقـد سمعـا؟

كل أولئك يلتقى فى هبة واحدة هى كشف الخفايا واستيضاح البواطن واستخراج المعانى التى تدق عن الألباب... فاتصالها بالفراسة وشبيهاتها أمر لا عجب فيه، ولا انحراف به عن النحو الذى تنتحيه.

والذى يعنينا من الفراسة وشبيهاتها فى صدد الكلام عن عمر رضوان الله عليه أن نحصى الخصال الأخرى التى هى كالفراسة فى هذا الاعتبار، وهى التفاؤل والاعتداد بالرؤيا والنظر أو الشعور على البعد أو «التلباتى» كما يسميه النفسانيون المعاصرون. ولكل أولئك شواهد شتى مما روى عن عمر فى جاهليته وبعد إسلامه إلى أن أدركته الوفاة.

جاءه رسول من ميدان نهاوند فسأله: ما اسمك؟ قال قريب. وسأله مرة أخرى: ابن من؟ فقال ابن ظفر! فتفاءل وقال: ظفر «قريب» إن شاء الله، ولا قوة إلا بالله.

وروى يحيى بن سعيد أن عمر سأل رجلا: ما اسمك؟ قال: جمرة! فسأله: ابن من؟ قال: ابن شهاب. فسأله: ممن؟ قال من الحرقة. وعاد يسأله: ثم ممن؟ قال: من بنى ضرام، وهكذا فى أسئلة ثلاثة أو أربعة عن مسكنه وموقعه. والرجل يجيب بما فيه معنى النار ومرادفاتها حتى استوفاه. فقال عمر: أدرك أهلك فقد احترقوا.

وقد يكون التأليف ظاهراً فى هذه القصة ولكنها مع تأليفها لا تخلو من الدلالة على اشتهار عمر باستكناه الألفاظ فى معرض التفاؤل أو الإنذار.

أما الرؤيا فآخر ما روى عنه من أخبارها أنه رأى قبيل مقتله كأن ديكًا نقره نقرتين فقال: يسوق الله إلى الشهادة ويقتلنى أعجمى، فإن الديك فى الرؤيا يفسر برجل من العجم.

على أن المكاشفة أو الرؤية Vision كما يسميها النفسانيون المحدثون إنما تظهر بأجلى وأعجب من هذا كثيرًا فى قصة سارية المشهورة، وهى مما يلحقه أولئك النفسانيون بهبة التلباثى Telepathy أو الشعور البعيد.

كان رضى الله عنه يخطب الجمعة فالتفت من الخطبة ونادى: يا سارية بن حصن! الجبل.. الجبل..! ومن استرعى الذئب ظلم.

فلم يفهم السامعون مراده، وقضى صلاته فسأله علىّ رضى الله عنه: ما هذا الذى ناديت به؟ قال: أو سمعته؟ قال: نعم.. أنا وكل من فى المسجد.

فقال: وقع فى خلدى أن المشركين هزموا إخواننا وركبوا أكتافهم، وأنهم يمرون بجبل. فإن عدلوا إليه قاتلوا من وجدوه وظفروا، وإن جاوزوه هلكوا، فخرج منى هذا الكلام.

وجاء البشير بعد شهر فذكر أنهم سمعوا فى ذلك اليوم وتلك الساعة حين جاوزوا الجبل صوتا يشبه صوت عمر يقول: يا سارية بن حصن! الجبل الجبل. فعدلنا إليه ففتح الله علينا.

ولا داعى للجزم بنفى هذه القصة استنادًا إلى العقل أو إلى العلم أو إلى التجربة الشائعة. فإن العقل لا يمنعها. والعلماء النفسانيون فى عصرنا لا يتفقون على نفيها ونفى أمثالها، بل منهم من مارسوا «التلباثى» وسجلوا مشاهداته وهم ملحدون لا يؤمنون بدين.

إلا أن المهم من نقل هذه القصة فى هذا الصدد أن عمر كان مشهورًا بين معاصريه بكاشفة الأسرار الغيبية إما بالفراسة أو الظن الصادق أو الرؤية أو النظر البعيد، وهى الهبات التى يلحقها بالعبقرية علماء العصر الذين درسوا هذه المزية الإنسانية النادرة وراقبوها وأكثروا من المقارنات فيها والتعقيبات عليها.

فهو رجل نادر بما تراه منه العين، نادر بما تشهد به الأعمال والأخلاق، نادر فى مقاييس الأقدمين ومقاييس المحدثين.

أو هو رجل ممتاز، وعبقرى موهوب فى جميع الآراء.

صفاته

نحن على هذا أمام رجل لا كالرجال. رجل عبقرى، أو رجل ممتاز من خاصة الخليقة الذين لا يعدون فى الزمن الواحد بأكثر من الآحاد.

أنقول رجل قوى؟ نعم هو رجل قوى لامراء. وكل عظيم فهو قوى بمعنى من معانى القوة. نعلم هذا فنعلم الشىء المهم عنه، ولكننا بعد هذا لا نعلم شيئًا مهمًّا عن صفاته وأخلاقه. لأن الناس من حيث القوة أقوياء وضعفاء أو متوسطون ومنحرفون إلى هنا تارة وإلى هناك تارة أخرى أما من حيث الصفات والأخلاق فهم ألوف وألوف، وهم فى قوتهم أو ضعفهم أنماط لا تُحصى من المناقب والعيوب، وأحرى بنا أن نقول إن القوة صفة تستفاد من جملة مناقب الإنسان وعيوبه. فهى حالة تدل عليها المناقب والعيوب أو تدل عليها الصفات والأخلاق، وليست هى بالحالة التى تدلنا على مناقب الإنسان وعيوبه، وتهدينا - بغير هاد - إلى صفاته وأخلاقه.

فإذا قلت: إن عمر بن الخطاب رجل قوى فما زدت على أن تقول: إنه رجل عبقرى أو إنه رجل عظيم.

وكل رجل من هذا القبيل فمعرفته ليست بالأمر اليسير، لأنه نمط لا يتكرر فيسهل فهمه بالقياس إلى أمثاله الكثيرين. وقد يكون الرجل العظيم نَمطاً وحيداً فى التاريخ كله لا نظير له فى تفصيل أخلاقه وصفاته، وإن ساواه فى القدر أنداد وقرناء.

وعمر بن الخطاب مثل فذ من أمثلة هذا الطراز الفريد. تفهم سره فإذا هو على وفاق مع جهره، وتنفذ إلى باطنه فإذا هو مصدق للظاهر من سيماه[1].

فهل حللنا العقدة بهذا التقريب بين الظاهر والباطن وبين الجهر والسريرة؟ كلا. ولا تقدمنا بعيدًا فى طريق حلها، لأننا لا نعرف هذا التقارب إلا بعد معرفة السريرة

---

(١) سيماه: علامته، والمراد ما اشتهر به.

التى نبحث عنها، فلا بد إذن من البحث ولابد إذن من المعرفة. فإذا وصلنا إلى الغور البعيد عرفنا ساعتئذ أنه لا يناقض الظاهر المكشوف. ولكن لابد من الوصول إلى الغور البعيد قبل ذلك.

لا تناقض فى خلائق عمر بن الخطاب، ولكن ليس معنى ذلك أنه أيسر فهمًا من المتناقضين، بل لعله أعضل فهمًا منهم فى كثير من الأحوال. فالعظمة على كل حال ليست بالمطلب اليسير لمن يبتغيه، وليست بالمطلب اليسير لمن ينفذ إلى صميمه ويحتويه.

إنما الأمر الميسور فى التعريف بهذا الرجل العظيم أن خلائقه الكبرى كانت بارزة جدًّا لا يسترها حجاب. فما من قارئ ألمّ بفذلكة صالحة من ترجمته إلا استطاع أن يعلم أن عمر بن الخطاب كان عادلا وكان رحيمًا، وكان غيورًا، وكان فطنًا، وكان وثيق الإيمان، عظيم الاستعداد للنخوة الدينية.

فالعدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان الوثيق صفات مكينة فيه لا تخفى على ناظر، ويبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف تتجه هذه الصفات إلى وجهة واحدة ولا تتشعب فى اتجاهها طرائق قددا[1] كما يتفق فى صفات بعض العظماء. بل يبقى عليه بعد ذلك أن يعلم كيف يتمم بعض هذه الصفات بعضًا حتى كأنها صفة واحدة متصلة الأجزاء متلاحقة الألوان.

وأعجب من هذا فى التوافق بين صفاته أن الصفة الواحدة تستمد عناصرها من روافد شتى ولا تستمدها من ينبوع واحد. ثم هى مع ذلك متفقة لا تتناقض، متساندة لا تتخاذل، كأنها لا تعرف التعدد والتكاثر فى شىء.

خذ لذلك مثلا عدله المشهور الذى اتسم به كما لم يتسم قط بفضيلة من فضائله الكبرى. فكم رافدة[2] لهذا الخلق الجميل فى نفس ذلك الرجل العظيم؟

روافد شتى: بعضها من وراثة أهله، وبعضها من تكوين شخصه، وبعضها من عِبَر أيامه، وبعضها من تعليم دينه... وكلها بعد ذلك تمضى فى اتجاه قويم إلى غاية واحدة لا تنم على افتراق.

---

(١) طرائق قددا: فرقا مختلفة.

(٢) رافدة الرافد ما يمد النهر بالماء من قناه أو نهر.

لم يكن عمر عادلا لسبب واحد بل لجملة أسباب:

كان عادلا لأنه ورث القضاء من قبيلته وآبائه، فهو من أنبه بيوت بنى عدى الذين تولوا السفارة والتحكيم فى الجاهلية، وراضوا أنفسهم من أجل ذلك جيلا بعد جيل على الإنصاف وفصل الخطاب، وجده نفيل بن عبد العزى هو الذى قضى لعبد المطلب على حرب بن أمية حين تنافرا إليه وتنافسا على الزعامة. فهو عادل من عادلين، وناشىء فى عهد الحكم والموازنة بين الأقوياء.

وكان عادلا لأنه قوى مستقيم بتكوين طبعه، وإن شئت فقل أيضاً بتكوينه الموروث. إذ كان أبوه الخطاب وجده نفيل من أهل الشدة والبأس وكانت أمه حنتمة بنت هشام بن المغيرة قائد قريش فى كل نضال. فهو على خليقة الذى لايحابى لأنه لايخاف، والذى يخجل من الميل إلى القوى لأنه جُبْن، ومن الجور على الضعيف لأنه عِوج يُزرى بنخوته وشممه.

وكان عادلا لأن آله من بنى عدى قد ذاقوا طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم لعقة[١] الدم، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم، فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه، وساعدت عبر الأيام على تمكين خليقة العدل فى خلاصة هذه الأسرة أو خلاصة هذه القبيلة، ونعنى به عمر بن الخطاب.

وكان عادلا بتعليم الدين الذى استمسك به وهو من أهله بمقدار ما حاربه وهو عدوه. فكان أقوى العادلين كما كان أقوى المتقين والمؤمنين.

وكذلك اجتمعت عناصر الوراثة الشعبية، والقوة الفردية، وعبر الحوادث وعقيدة الدين فى صفة العدل التى أوشكت أن تستولى فيه على جميع الصفات.

كان عادلا لأسباب كأنه عادل لسبب واحد لقلة التناقض فيه. وربما كان تعدد الأسباب هو العاصم الذى حمى هذه الصفة أن تتناقض فى آثارها. لأنه منحها القوة التى تشدها كما يشد الحبل المبرم فلا تتفكك ولا تتوزع، فكان عمر فى جميع أحكامه عادلا على وتيرة واحدة لا تفاوت بينها. فلو تفرقت بين يديه مائة قضية فى أعوام متباعدات

---

(١) لعقة الدم: سموا كذلك لأنهم تحالفوا مع غيرهم فنحروا جزورا فلعقوا دمها، او غمسوا أيديهم فيه.

لكنت على ثقة أن تتفق الأحكام كلما اتفقت القضايا.. كأنه يطبعها بطابع واحد لا يتغير.

إلا أن الصفات إذا بلغت هذا المبلغ من القوة الرائعة لم تكد تسلم من طروء التناقض عليها وإن سلمت منه بطبيعتها. لأنها تدخل فى صفات البطولة التى تثير الإعجاب والمبالغة، وكل بطولة فهى عرضة للمبالغات والإضافات، ومن ثم لا تسلم من تناقض الأوقايل.

وصفات عمر كلها صفات لها طابع البطولة، وفيها دواعى الإغراء بالإعجاب والمبالغة. وممن؟ من الأصدقاء المصدقين، لأنهم لا يتهمون بقصد السوء وهم فى الواقع أولى بالاحتراس من الخصوم المتهمين.. فمن هنا يجىء التناقض لا من طبيعة الصفات التى تأباه.

فالعدل مثلا هو المساواة بين أبعد الناس وأقربهم فى قضاء الحقوق وإقامة الحدود.

وليس أقرب إلى الحاكم من ابنه.

فإذا سوى الحاكم بين ابنه وسائر الرعية فذلك عدل مأثور يقتدى به الحاكمون.

ولقد سوى عمر بين أبنائه وسائر المسلمين فبلغ بذلك مبلغ البطولة فى هذه الصفة النادرة بين الحكام.

وذلك كاف فى تعظيم قدره، لا حاجة بعده إلى مزيد.

إلا أنها صفة من صفات البطولة التى تروع وتعجب وتملأ النفس بالرغبة فى التحدث بها والإطناب فى أحاديثها. فهى لا تكفى المبالغين حتى يجعلوا عمر مقيمًا للحد على ابنه، مشتدًّا فى عقوبته اشتدادًا لا يسوى فيه بينه وبين غيره. ثم لا يكتفى المبالغون بهذا فيقولون: حتى يموت الولد قبل استيفاء العقوبة، فيمضى عمر فى جلده وهو ميت لا تقام عليه الحدود، ومن اعتدل من المبالغين لم يذكر الموت وإتمام العقوبة، وذكر لنا أن الولد مات بعد ذلك بشهر من مرض الضرب الذى ثقل عليه، وعجز عن احتماله.

نعنى بما تقدم قصة عبد الرحمن بن عمر فى مصر، وهى كما رواها عمرو بن العاص والى مصر يومئذ حيث يقول: «.. دخلا – عبد الرحمن بن عمر وأبوسروعة – وهما

منكسران، فقالا: أقم علينا حد الله، فإنا قد أصبنا البارحة شرابًا فسكرنا. فزبرتهما[1] وطردتهما، فقال عبد الرحمن: إن لم تفعل أخبرت أبي إذا قدمت عليه. فحضرني رأيٌ وعلمت أني إن لم أقم عليهما الحد غضب عليّ عمر في ذلك وعزلني وخالفه ماصنعت، فنحن على مانحن عليه إذ دخل عبد الله بن عمر، فقمت إليه فرحبت به وأردت أن أجلسه في صدر مجلسي فأبى عليّ وقال: أبي نهاني أن أدخل عليك إلا ألّا أجد من ذلك بدًّا. إن أخي لا يحلق على رءوس الناس. فأما الضرب فاصنع مابدا لك».

قال عمرو بن العاص: «وكانوا يحلقون مع الحد، فأخرجتهما إلى صحن الدار فضربتهما الحد، ودخل ابن عمر بأخيه إلى بيت من الدار فحلق رأسه ورأس أبي سروعة. فو الله ماكتبت إلى عمر بشيء مما كان حتى تحينت كتابه إذا هو نظم فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبد الله أمير المؤمنين عمر إلى العاصي بن العاص «عجبت لك يا بن العاص ولجرأتك عليّ وخلاف عهدي.. فما أراني إلا عازلك فمسيء عزلك. تضرب عبد الرحمن في بيتك وتحلق رأسه في بيتك وقد عرفت أن هذا يخالفني؟ إنما عبد الرحمن رجل من رعيتك تصنع به ما تصنع بغيره من المسلمين، ولكن قلت هو ولد أمير المؤمنين، وقد عرفت أن لا هوادة لأحد من الناس عندي في حق يجب لله عليه. فإذا جاءك كتابي هذا فابعث به في عباءة على قتب[2] حتى يعرف سوء ما صنع».

قال: «فبعثت به كما قال أبوه وأقرأت ابن عمر كتاب أبيه، وكتبت إلى عمر كتابًا أعتذر فيه وأخبره أني ضربته في صحن داري، وبالله الذي لا يحلف بأعظم منه أني لأقيم الحدود في صحن داري على الذمي والمسلم، وبعثت بالكتاب مع عبد الله بن عمر».

قال أسلم: «فقدم عبد الرحمن على أبيه فدخل عليه، وعليه عباءة ولا يستطيع المشي من مركبه. فقال: يا عبد الرحمن فعلت كذا؟ فكلمه عبد الرحمن بن عوف وقال: يا أمير المؤمنين قد أقيم عليه الحد مرة. فلم يلتفت إلى هذا عمر وزبره. فجعل عبد الرحمن يصيح: أنا مريض وأنت قاتلي! فضربه وحبسه، ثم مرض فمات رحمه الله».

فهذه قصة تتوافق أخبارها ومن رويت عنهم، فلا نستغربها في جميع تفصيلاتها إلا حين

---

(١) زبرتهما: زجرتهما ونهرتهما.

(٢) القتب: الرحل الصغير على قدر سنام البعير.

تطرأ عليها المبالغة التى تتسرب إلى كل خبر من أخبار البطولات المشهورة، وذلك أن يقسو عمر على ابنه تلك القسوة التى لا يوجبها الدين ولا تقبلها الفطرة الإنسانية، فيقيم عليه الحد وهو ميت، أو يعرضه للموت من أجل حد أقيم.

هذا هو الغريب الذى استوقفنا فأنكرناه، ومضينا فى تمحيصه فطابق التمحيص ماقدَّرناه. أما سائر القصة فلا غرابة فيه من كل نواحيه، بل هو من القصص التى يستبعد فيها التلفيق والاختراع.. إلا أن يكون الملفق من حذاق الرواة ومهرة الوضاع.

ولو كان المصدر واحدًا معروفًا بالحذق فى القصص لحسبناها من وضعه وتلفيقه. ولكنها سمعت من غير مصدر موثوق به، فهى أقرب إلى الواقع فيما يشبهه ويجرى مجراه.

فعبد الرحمن بن عمر يذهب إلى الوالى لأنه شرب شيئًا ظنه غير مُسْكِر فإذا هو قد سكر منه، ولا مناص من إقامة الحد عليه وإلا رفع الأمر إلى أبيه.. هى شنشنة[1] عمرية لا لبس فيها، وهو ابن عمر لا مراء.

والوالى. ومن الوالى؟ عمرو بن العاص الذى لا خفاء بدهائه ولا ببعد حسابه، فهو يتريث بادىء الأمر ويحاول أن يصرف الفتى إذا طاب له الانصراف دون أن يقيم الحدَّ عليه.. وهى أيضًا شنشنة لاغرابة فيها. فمن يدرى؟ ألا يجوز أن يصبح هذا الفتى أخًا للخليفة أو مدبِّرا للسلطان معه فى يوم غير بعيد؟

والخليفة يدرى بالأمر فيهوله ويستكبر أن يخفيه عنه واليه فلا يصل إليه نبؤه من قِبَلِهِ، وهو ماهو فى تحرجه من تبعة يحملها غافلا عنها، لحرص الولاة على تحرى هواه وابتغاء رضاه، فيشفق أن يقع ابنه فى معصية ثم ينجو من الحد الذى شرعه الدين، وهو مسئول عن الولاة والحدود، ومسئول عن ذويه الأقربين قبل سائر المسلمين.

كل أولئك كما قلنا سائغ لا غرابة فيه.

أما الغريب من عمر حقًّا فى معدلته وعلمه بالدين وكراهته رياء الناس فهو أن يتم على ابنه الحد وهو ميت، أو يشتد فى إقامة الحد على ابنه حتى يتلف أو يصاب بما يتلفه بعد أيام.

---

(١) الشنشنة: الخلق والطبيعة.

فلا موجب لذلك من حكم دين ولا اتقاء تبعة.

وهو مع هذا مخالف لما عرف عن عمر فى إقامة الحدود خاصة وفى مثل هذه العقوبة بعينها.

فقد جىء له يوما بشارب سكران، وأراد أن يشتد عليه فقال له: لأبعثنك إلى رجل لا تأخذه فيك هوادة. فبعث به إلى مطيع بن الأسود العبدى ليقيم عليه الحد فى غده. ثم حضره وهو يضربه ضربًا شديدًا فصاح به: قتلت الرجل. كم ضربته؟ قال ستين،قال: أقصَّ[1] عنه بعشرين أى ارفع عنه عشرين ضربة من أجل شدتك عليه فيما تقدم من الضربات.

وقد كان من دأبه أن يتريث فى إقامة الحدود، حتى ليؤثر - كما قال - تعطيلها فى الشبهات على أن يقيمها فى الشبهات.

ومر بقوم يتبعون رجلا قد أخذ فى ريبة فقال: «لا مرحبًا بهذه الوجوه التى لا ترى إلا فى الشر».

وربما غضب على الوالى من كبار الولاة لغلوِّه فى تقاضى الحدود على المعاصى، كما فعل فى إنذاره الشديد لأبى موسى الأشعرى حين جلد شابًّا وحلق شعره وسود وجهه ونادى فى الناس ألا يجالسوه ولا يؤاكلوه. فأعطى الشاكى مائتى درهم وكتب إلى أبى موسى «لئن عدت لأسودن وجهك ولأطوفن بك فى الناس» وأمره أن يدعو المسلمين إلى مجالسته ومؤاكلته وأن يمهله ليتوب ويقبل شهادته إن تاب.

وتفقد رجلا يعرفه فقيل له إنه يتابع الشراب. فكتب إليه: إنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو «غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذى الطوْل لا إله إلا هو إليه المصير»[2] فلم يزل الرجل يرددها ويبكى حتى صحت توبته وأحسن النزع[3]، وبلغت توبته عمر فقال لمن حضروا مجلسه: هكذا فاصنعوا. إذا رأيتم أخا لكم زل زلة فسددوه

(١) أقص: خذ له بقصاصة - أى أتم القصاص عليه بحذف عسرين. ولعل الأصل أقص عنه عسرين أى أنقص عنه عسرين، وزيادة الباء من تحريف الرواه.

(٢) سورة غافر - الآية ٢.

(٣) أحسن النزع: كف عما كان فيه وانتهى.

ووفقوه وادعوا الله أن يتوب عليه، ولا تكونوا أعوانًا للشيطان عليه.

وقد تكرر منه إعفاء الزانيات من الحد لشبهة القهر والعجز عن المقاومة، وتكرر منه الإعفاء لمثل هذا العذر فى غير ذلك من الحدود.

فلم يكن عمر بالسريع المتعطش إلى إقامة الحد، ولم يُعرفْ عنه قط أنه أقام حدًّا وله مندوحة عنه.

وفى قصة ولده منادح شتى ترضيه على شدة تحرجه وتحريه. ثم لا حاجة بمثله إلى رياء العدل فيجور على ابنه ويسرف فى القسوة عليه، ليقال إنه سوى بينه وبين غيره.

وأصح من ذلك أن نأخذ برواية عبد الله بن عمر وهو أحق الناس بالمبالغة فى عدل أبيه، لو كانت المبالغة مما يجمل بمثله. فقد روى هذه القصة فقال ما خلاصته: إن أخاه عبدالرحمن وأبا سروعة عتبة بن الحارث سكرا، فلما أصبحا انطلقا إلى عمرو بن العاص وهو أمير مصر، فقالا: طهرنا فإنا قد سكرنا من شراب شربناه..! ولم أشعر أنهما أتيا عمرو بن العاص، فقلت: والله لا يحلق اليوم على رءوس الأشهاد. أدخل أحلقك!... وكانوا إذ ذاك يحلقون مع الحد، فدخل معى الدار فحلقت أخى بيدى، ثم جلدهما عمرو بن العاص، فسمع عمر بن الخطاب فكتب إلى عمرو أن ابعث إلىّ بعبدالرحمن بن عمر على قتب.. ففعل ذلك عمرو. فلما قدم عبد الرحمن على عمر جلده وعاقبه من أجل مكانه منه. ثم أرسله فلبث شهرا صحيحًا ثم أصابه قدره، فتحسب[1] عامة الناس أنه مات من الجلد ولم يمت منه.

هذه رواية عبد الله عن أبيه وأخيه، ولو كان الأمر مبالغة فى عدل عمر لكان الابن أحق الناس بهذه المبالغة، أو كان الأمر رحمة بعبد الرحمن لكان الأخ أحق الناس بهذه الرحمة. ولكنه أمر صدق لا نقص فيه ولا زيادة.

فالذى يجوز لنا أن نقبله من هذه القصة هو الجانب الذى يستقيم مع خلائق عمر ولا يناقضها هو العدل الصحيح فى محاسبة ولده على ذنبه ولا زيادة، ولا سيما الزيادة التى لا تستقيم مع عدله ورحمته على السواء. وكلا العدل والرحمة من صفاته الأصيلة فيه.

---

(١) تحسب: ظن.

نعم كانت الرحمة من صفاته التى وازنت فيه العدل أحسن موازنة... فما عهد فيه أنه أحب العدل لغضه من الأقوياء المعتدين، كما كان يحبه لنجدته الضعيف المعتدى عليه.

ولا يمنعن ذلك أنه كان خشن الملمس، صعب الشكيمة، جافيًا فى القول إذا استغضب واستثير. فليست الخشونة نقيضًا للرحمة، وليست النعومة نقيضًا للقسوة. وليس الذين لا يستثارون ولا يستغضبون بأرحم الناس. فقد يكون الرجل ناعمًا وهو منطو على العنف والبغضاء، ويكون الرجل خشنًا وهو أعطف خلق الله على الضعفاء، بل كثيرًا ماتكون الخشونة الظاهرة نقابا يستتر به الرجل القوى، فرارًا من مظنة الضعف الذى يساوره من قبل الرحمة. فلا تكون مداراة الرقة إلا علامة على وجودها وحذرًا من ظهورها.

ومن المألوف فى الطبائع أن الرجل الذى يقسو وهو معتصم بالواجب قلما ينطبع على القسوة، ولا سيما إذا كان الواجب عنده شيئًا عظيمًا يزيل كل عقبة ويبطل كل حجة، ويقطع كل ذريعة. فهو إنما يعتصم بالواجب فى هذه الحالة كما يعتصم الإنسان بالحصن المنيع كلما خشى أن تقتحم عليه طريقه. ولولا خوف الرحمة أن تغلبه لما كانت به حاجة إلى ذلك الحصن المنيع، ولا سيما حين يكون حصنًا بالغًا فى المنعة كما كان الواجب عند عمر بن الخطاب.

أرأيت هذا الرجل الصارم الحازم قاسيا قط إلا باسم واجب أو فى سبيل واجب؟ كلا. وما نذكر أننا سمعنا رواية واحدة من روايات شدته إلا لمحنا الواجب قائما إلى جانبها يزكيها ويسوغها. ومن كانت القسوة طبعًا فيه فما هو بحاجة إلى واجب يغريه بالقسوة، بل هو فى حاجة إلى واجبات عدة تنهاه عنها وتغريه باجتنابها.

وليس قصاراه فى هذا الخلق أنه غير قاس أو أن الرحمة كانت تنفذ إلى قلبه كلما طرقته واتخذت سبيلها إليه، فإن نصيبه من الرحمة قد كان أوفى جدًّا من ذاك، وكانت هذه الفضيلة من فضائله الأصيلة فيه لا تكاد تفارقه فى عامة حياته، حتى ليصبح أن تضرب الأمثال برحمته كما كانت تضرب الأمثال بعدله. وأن يقرن معه لقب العادل بلقب الرحيم.

وفى صدد الكلام عن الخليفة الإسلامى الكبير قد يهمنا خلق الرحمة فيه خاصة. لأن شأنها فى التقريب بينه وبين الإسلام غير قليل.

فمن المحقق أن رقته للمسلمين وللدين الذى يدينون به كانت مقرونة فى أول الأمر برحمته لامرأتين ضعيفتين رآهما فى حالة من الشكوى تلين القلب وتكف الغرب[1] وتمسح جفوة العناد والبغضاء.

قالت أم عبد الله بنت حنتمه: لما كنا نرتحل مهاجرين إلى الحبشة أقبل عمر حتى وقف على، وكنا نلقى منه البلاء والأذى والغلظة علينا، فقال لى إنه الانطلاق يا أم عبد الله! قلت: نعم، والله لنخرجن فى أرض الله... آذيتمونا وقهرتمونا، حتى يجعل الله لنا فرجًا. فقال: صَحِبكم الله، ورأيت منه رقة لم أرها قط.

وحديثه مع أخته فاطمة فى سبب إسلامه مشهورٌ متواتر فى أوثق الروايات. فإنه ضربها حين علم بإسلامها فأدمى وجهها، فأدركتها الثورة الخطابية التى فيها منها بعض مافيه. وقالت وهى غضبى: يا عدو الله! أتضربنى على أن أوحّد الله؟ قال غير متريث: نعم! فقالت: ماكنت فاعلا فافعل. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله. لقد أسلمنا على رغم أنفك.

ويذكر لنا رواة القصة التى اتفقت عليها روايات كثيرة أنه ندم وخلىَّ عن زجها - بعد أن صرعه وقعد على صدره - ثم انتحى ناحية من المنزل وطلب الصحيفة التى كتبت فيها آيات القرآن، وخرج من ثمة إلى حيث لقى النبى فأعلن شهادة الإسلام على يديه.

وغير عسير علينا أن نرقب طوية عمر ونرى كيف كانت تتمشى فيها الخوالج والخطرات وهو يتحدث إلى المرأتين. بنت حنتمة، وبنت الخطاب.

فهذا بطل مناضل يشحذه النضال إذا لقى أنداده من الأبطال وأقرانه من الرجال: الإساءة تتبعها الإساءة، والتحدى يعقبه التحدى، وكلما قوبل البطش بمثله تضرمت سورة الغضب وثارت نحيزة القتال[2]، ومضى العداء شططًا لا اعتدال فيه، ولا نكوص عنه، حتى ينكسر عدو من العدوين. فلا موضع هنا لرحمة ولا سبيل لها إلى ظهور. وتتمادى الشرة[3] على ذلك شهورًا وسنين، وكأنه الرحمة لم تخلق فى النفس ولم يسمع لها فى حنايا الصدور صوت.

(١) تكف الغرب: تخفف الحدة أى تلين الشديد القاسى.

(٢) النحيزة الطبيعة والغريزة.

(٣) الشرة: الشر.

أما المرأة الشاكية أو المرأة الدامية إذا واجهت ذلك البطل القوى فما حاجته إلى قوته ونضاله؟ وما أحرى تلك القوة أن تهدأ فى مكانها كأنها هى الخليقة الخفية التى لم تخلق وليس لها صوت مسموع! وما أقربها إذن إلى أن تخجل من إيذائها وتندم على قسوتها وتثوب إلى التوبة والخشوع، وهما من لباب الدين.

إن العرب يشتقون الرحمة من الرحم أو القرابة، وهو اشتقاق عميق المغزى، يهدينا إلى نشأة هذه الفضيلة الإنسانية العالية... ومودة عمر بن الخطاب لرحمه وذوى قرباه لا تنحصر دلائلها فى موقف شكواها ويأسها، ولو كانت بعيدة الآصرة، منقطعة النسب. إنما يدل على مودته لذوى قرباه. ذلك الحب الذى كان يضمره لأبيه بعد موته مع شدته عليه، وغلظته فى زجره وتأديبه، فكان يطيل الحديث عنه وينقل أخباره ويقسم باسمه، وظل يقسم باسمه وهو كهل إلى أن نُهِىَ المسلمون عن القسم بأسماء من ماتوا على الجاهلية.

وندر بين الناس من أحب إخوته كما كان عمر يحب أخاه زيدًا فى حياته، وبعد مماته، فما شاء أحد أن يبكيه إلا ذكره له ففاضت شئونه[1]، وجعل بعد قتله يتأسى بمن أصيب مثل مصابه، ولا يرى أحدًا فقد أخًا له إلا التمس الأسوة عنده.

حكى أحمد بن عمران العبدى عن أبيه عن جده قال: «صليت مع عمر بن الخطاب الصبح، فلما انفتل من صلاته إذا هو برجل قصير أعور متنكبًا قوسه وبيده هراوة فسأل: من هذا؟ فقيل: متمم بن نويرة. فاستنشده رثاءه لأخيه، فأنشده حتى بلغ إلى قوله:

وكنا كندمانى جذيمة حقبة ... من الدهر حتى قيل لن يتصدعا
فلما تفرقنا كأنى ومالكا ... لطول افتراق لم نبت ليلة معا

فقال عمر: هذا والله التأبين، يرحم الله زيد بن الخطاب! إنى لأحسب أنى لو كنت أقدر على أن أقول الشعر لبكيته كما بكيت أخاك. ثم سأله: ما أشد ما لقيت على أخيك من الحزن؟ فقال: كانت عينى هذه قد ذهبت، فبكيت بالصحيحة فأكثرت البكاء حتى أسعدتها العين الذاهبة وجرت بالدمع. فقال عمر: إن هذا لحزن شديد. ما يحزن هكذا أحد على هالك. قال متمم: لو قتل أخى يوم اليمامة كما قتل أخوك ما بكيت أبدًا. فصبر

(١) الشئون: الدموع.

عمر وتعزى عن أخيه وقال: ما عزانى أحد عنه بأحسن مما عزيتنى...»

هذا هو عمر من وراء النقاب.

فما كان أحوجه رضى الله عنه إلى ذلك النقاب، وما أقل الغرابة فى ذلك النقاب من الشدة والهيبة حين ينفذ الناظر إلى ما وراءه فيرى مكان الحاجة إليه.

وقد يرحم الرجل أهل الرحم والقرابة ويجفو غيرهم من الناس، ولكن الرحمة الأصيلة فى الطباع تسوى فى المودة ولا تفرق، وتخلق هى سبب الرحمة ولا تنتظر حتى تفرضها عليها القرابة بأسبابها. فكان عمر كما روى «الحسن» يذكر الصديق من أصدقائه بالليل فيقول: يا طولها من ليلة! فإذا صلى الغداة غدا إليه، فإذا لقيه التزمه أو اعتنقه.

وكان بكاء طفل يزعجه ويقطع عليه صلاته، وينغص علي ليله.

قدمت رفقة من التجار فنزلوا المصلى، فاقترح على عبد الرحمن بن عوف أن يذهبا ليحرساهم من السّرق، ثم باتا يحرسان ويصليان، فسمع بكاء صبى، فتوجه نحوه وقال لأمه: اتقى الله وأحسنى إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه فسمع بكاءه فرجع إلى أمه كرة أخرى، ثم سمع بكاءه آخر الليل فقال لأمه: ويحك! إنى لأراك أم سوء.. مالى أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟ قالت: يا عبد الله قد أضجرتنى منذ الليلة. إنى أربعه عن الفطام[1] فسأل: ولم؟ فقالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم! فسألها: وكم له؟ فلما علم أنها فطمته دون سن الفطام أمر مناديًا فنادى ألّا تعجلوا صبيانكم عن الرضاع فإنا نفرض لكل مولود فى الإسلام.

وقصته مع الصبية الجياع مشهورة، ولكنها تعاد لأنها أحق قصة بأن تعاد.

قال أسلم: «خرجنا مع عمر رضى الله عنه إلى حرة واقم، حتى إذا كنا بصرار[2] إذا نار تؤرث[3] فقال: يا أسلم إنى أرى ها هنا ركبانًا قصر بهم الليل والبرد. انطلق بنا!

---

(١) أربعة عن الفطام: المقصودأن أحبسه عن الطعام وأعوده.

(٢) مكان على مقربة من المدينة.

(٣) تؤرث: توقد.

«فخرجنا نهرول حتى دنونا منهم، فإذا بامرأة معها صبيان وقدر منصوبة على نار، وصبيانها يتضاغون[١]. فقال عمر: السلام عليكم يا أهل الضوء. وكره أن يقول: يا أصحاب النار. فأجابته امرأة: وعليكم السلام! فقال: أأدنو؟ فقالت: ادن بخير أو دع. فدنا منها فقال: ما بالكم؟ قالت: قصر بنا الليل والبرد. قال: وما بال هؤلاء الصبية يتضاغون؟ قالت: الجوع! قال: وأى شيء فى هذه القدر؟ قالت: ماء أسكتهم به حتى يناموا... والله بيننا وبين عمر! فقال: أى رحمك الله. وما يدرى عمر بكم؟ فقالت: يتولى أمرنا ثم يغفل عنا؟ فأقبل على فقال: انطلق بنا.

«فخرجنا نهرول حتى أتينا دار الدقيق. فأخرج عدلاً[٢] من دقيق وكبة[٣] من شحم، وقال: احمله علىّ! قلت: أنا أحمله عنك. قال: أنت تحمل وزرى يوم القيامة!.. لا أم لك!

«فحملته عليه، فانطلق وانطلقت معه إليها نهرول، فألقى ذلك عندها، وأخرج من الدقيق شيئًا فجعل يقول لها ذرى على وأنا أحر لك[٤].

«وجعل ينفخ تحت القدر، وكانت لحيته عظيمة، فرأيت الدخان يخرج من خلالها حتى طبخ لهم. ثم أنزلها وأفرغ الحريرة فى صحفة وهو يقول لها: أطعميهم وأنا أسطح لهم - أى أبرده - ولم يزل حتى شبعوا وهى تقول له: جزاك الله خيرًا، كنت بهذا الأمر أولى من أمير المؤمنين...»

وأمثال هذه القصة فى سيرة عمر كثير، لا يقال إنها هى ومثيلاتها من الشعور بالتبعة وليست من الرحمة، لأن العهد بالشعور بالتبعة أن يأتى من الرحمة، وليس العهد بالرحمة أن تأتى من الشعور بالتبعة!

كذلك لا يقال إنه قد كان يطيع أمرًا سماويًّا تحركت له نفسه أو لم تتحرك. فإن النفس التى تتحرك للأمر السماوى هى النفس التى فيها الخير ولها رغبة فيه، وقلما تشفق من عقاب السماء إلا أن تشعرَ بألم الظلم ومبلغ استحقاقه للعقاب.

---

(١) تتضاغون: يتصايحون.

(٢) العدل: الجوالق.

(٣) كبة من شحم: مقدار منه.

(٤) أحر لك: أى اتخذ لك حريرة، وهى الحساء من الدقيق والدسم.

على أن عمر كان يرحم فى أمور يحول فيها النفور الدينى دون الرحمة عند كثيرين.

فمن ذلك أنه رأى شيخًا ضريرًا يسأل على باب، فلما علم أنه يهودى قال له: ما ألجأك إلى ما أرى؟ قال: أسأل الجزية والحاجة والسن! فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله، فأعطاه ما يكفيه ساعتها، وأرسل إلى خازن بيت المال: يقول: انظر هذا وضرَباءه[1] فوالله ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم. إنما الصدقات للفقراء والمساكين. والفقراء هم المسلمون، وهذا من المساكين من أهل الكتاب... ووضع عنه الجزيةَ وعن ضرَبائه.

فهنا علمته الرحمة كيف يطيع الدين، ولن يطيع الدين هكذا إلا رحيم.

وقد فرض عمر لكل مولود لقيط مائة درهم من بيت المال كما فرض لكل مولود من زوجين، وهى رحمة قد يحجبها النفور من الزنا وثمراته فى نفوس أناس ينفرون فلا يرحمون.

بل كان يرحم كل مخلوق حى حتى البهيم الذى لا يُبين بشكاية، فروى المسيب بن دارم أنه رآه يضرب رجلاً ويلاحقه بالزجر لأنه يحمل جمله ما لا يطيق.

وكان يدخل يده فى عقرةِ البعير الأدبر[2] ليداويه وهو يقول: إنى لخائف أن أسأل عما بك. ومن كلامه فى هذا المعنى: لو ماتَ جدى بطف[3] الفراتِ لخشيتُ أن يحاسبَ به الله عمر، وإن لشعور بالتبعة عظيم.

لكنه كما أسلفنا لن ينبت فى قلب كل أمير عليه تبعة، إلا أن يكون به منبت للرحمة عظيم.

* * *

فنحن إذاً بإزاء صفة كبيرة إلى جانب صفة كبيرة: الرحمة إلى جانب العدل وكلتاهما من البروز والوثاقة وعمق القرار بمثابة العنوان الذى يدل على صاحبه، أو بمثابة العنصر

---

(١) ضرباؤه: نظراؤه وأمثاله.

(٢) البعير الأدبر: المصاب بالدبر وهو مرض يصيب الدواب كالقرحه.

(٣) طف الفرات: شاطئه.

الأصيل الذى يلازمه ويلابسه ولا يفارقه فى جملة أعماله.

ومن خصائص عمر أنه كان على هذا الشأن فى جميع صفاته المشهورة، خلافًا للمعهود فى الصفات الغالبة بين الناس من المحامد كانت أو العيوب. إذ قلما يوسم إنسان بأكثر من صفة غالبة بهذه المثابة من التأصل والبروز، فهو عادل أو رحيم أو غيور أو فطن أو وثيق الإيمان، ثم تطغى إحدى هذه الصفات على سائرها فلا تعطيها إلى جانبها مكانة رسوخ واستقرار

وعلى غير هذا العهد كان عمر فى جميع صفاته الكبيرة التى ذكرناها، فكانت كل صفة منها فى قوتها ورسوخها تكفى للغلبة على شخصية تتسم بها ولا تذكر بغيرها، وإنه ليتصف بها فتأخذ من سماته ومعالمه ما يخصصها به ولو كانت من الصفات القومية الشائعة فى أبناء جلدته جميعًا، فيخيل إليك أنها سمة مميزة له لم توجد فى غيره.

فأحرار العرب كلهم غيور. ولكنك إذا قلت «العربى الغيور» فكأنما سميت عمر بن الخطاب، لأنه طبع هذه الصفة القومية بطابعه الذى لا يشبهه فيه غيره، فكان الغيور بين الغيورين.

قال أكبر أصدقائه وأكبر العارفين به محمد عليه السلام: «إن الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور».

وتحدث إلى صحبه يومًا وعمر فيهم فقال: «بينما أنا نائم رأيتنى فى الجنة، فإذا امرأة تتوضأ إلى جانب قصر، فقلت: لمن هذا القصر؟ فقالوا. لعمر. فذكرت غيرته فوليتُ مدبرًا... فبكى عمر وقال كالمعتذر: أعليك أغار يا رسول الله؟».

وكانت هذه الغيرة معروفة مخشية بين جميع من يعرفونه ويسمعون بطباعه، والنساء من باب أولى يعرفنها ويعهدنها ويتقينها كما لم يتقينها قط من غيره.

استأذن على النبى يومًا وعنده نساء من قريش يكلمنه، ويستكثرنه عالية أصواتهن، فلما استأذن عمر قمن يبتدرن الحجاب.

فدخل والنبى يضحك.

قال عمر: أضحك الله سنك يا رسول الله.. كأنه يسأله عن سبب ضحكه. فقال عليه

السلام: عجبت من هؤلاء اللاتى كن عندى لما سمعن صوتك ابتدرن الحجاب.

قال عمر: فأنت يا رسول الله كنت أحق أن يهبن. ثم التفت إليهن يقول: أى عدوات أنفسهن! أتهبنني ولا تهبن رسول الله صلى الله عليه وسلم؟

قلن: ولا يخذل المرأة لسانها فى هذا المقام: نعم أنت أغلظ وأفظ من رسول الله!

وحسبك من غيرته أنه هو الذى أشار على النبى صلى الله عليه وسلم بحجاب أمهات المسلمين، وكان يرى إحداهن فى الظلام ذاهبة لبعض شأنها فيقول لها: عرفتك يا فلانة! ليريها أنها فى حاجة إلى مزيد من التحجب.

وقد ضجرت إحداهن منه لهذا فقالت له: وإنك علينا يا بن الخطاب والوحى ينزل فى بيوتنا؟

على أن الغيرة فى ابن الخطاب لم تكن غيرة مقصورة على المرأة وكفى، بل غيرته على المرأة لم تكن إلا شطراً من غيرته على كل حرم وحوزة. فمن هذه الغيرة العامة سياسته العربية التى كانت تصد الغرباء عن جزيرة العرب كأنها الحرم الموصد، ومنها غيرته على الزى العربى ونساء العرب، وكذلك غيرته على العقيدة وحدود الشريعة، وغيرته على كل حق يحميه غيور.

والأحاديث عنه فى هذه الخصلة تتعدد فى معارض شتى كما تعددت أحاديث عدله ورحمته وكل صفة بارزة فيه. فشأن هذه الصفات أن يظهرن أبدًا حيث ظهر له قول أو عمل، لأنهن أصيلات مطبوعات يختلطن بكل ما عمل وقال.

إلا أنك تقرؤها جميعًا فتخرج منها بأثر واحد لا اختلاف فيه.

ذلك أن عمر كان يغار على حق ولا يغار من أحد ولا ينفس على ذى نعمة.

فإذا قيل لك إن عمر قد غار فلن يخطر لك أن تسأل: ممن كانت غيرته؟ وإنما يخطر لك أن تسأل فى كل مرة: علام غار؟ ولأى شىء كان يغار؟.

فهو يغار على حق، أو يغار على عرض، أو يغار على دين، أو يغار على صديق أو صاحب حرمة، ولا يغار من هذا أو ذاك لنعمة أصابها هذا أو ذاك.

إنما كان يغار على شيء يحميه ويعلم من نفسه القدرة على حمايته، فهي غيرة من يريد الحماية لغيره، ولا يريد انتزاع الخير لنفسه أو غلبة إنسان على حظه.

رجل قوى، جياش الطبع، شديد الشكيمة، مؤمن بالحق وحرماته، قادر على تقويم من يحيد عنها ويجترئ عليها. فإن لم يكن هذا غيورًا فمن يكون الغيور؟

وقل فى ذكائه وفطنته وألمعية ذهنه ما تقول فيما اشتهر به من صفات العدل والرحمة والغيرة، وإن كانت هذه الصفة أحوج منهن إلى الشرح والتحليل.

فبعض المستشرقين الذين أثنوا عليه قد عرضوا لأمر تفكيره فوصفوه بأنه محدود التفكير، أو أنه يأخذ الأمور بقياس واحد.

ونحن لا نقول إن عمر رضى الله عنه خلق بذهن عالم بحّاثة منقطع للكشف والتنقيب، ولا أنه خلق بذهن فيلسوف مطبوع على التجريد والذهاب بالفكر فى مناحى الظنون والفروض، ولا أنه خلق بذهن منطيق يدور بين الأقيسة والاحتمالات مدار الترجيح والتخمين. فالواقع أنه لم يكن كذلك ولا يعيبه ألا يكونه، وأنه كان معنيًّا بالعمل قبل عنايته بالنظر أو الفرض والتقدير، ولكن الفرق بعيد بين هذا وبين الفكر المحدود والنظر الذى يقيس الأمور بقياس واحد.

فعمر كانت له فطنة الرجل العليم بنقائض الأخلاق وخبايا النفوس، ولم يحكم عليها قط كأنه ينظر إليها من جانب واحد أو يطبعها فى تفكيره بطابع واحد. بل علم الدنيا وعلم كيف ينقلب الإنسان، وراح فى علمه هذا يراقب الناس مراقبة الحذور، ويقيم عليهم الأرصاد إقامة الرجل الذى لا يفوته أن ينتظر منهم ما ينتظر من خير وشر، وقوة وضعف، وصلاح وفساد.

وكفى من الكلمات الدالة عليه أن نذكر أنه كان يحب أن يعرف الشر كما يعرف الخير، لأن «الذى لا يعرف الشر أحرى أن يقع فيه» وأنه كان يحب أن يعرف الأعذار كما يعرف الذنوب حيث يقول: «أعقل الناس أعذرهم للناس». وأنه هو القائل: «احترسوا من الناس بسوء الظن»، وهو القائل مع ذاك: «أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر».. يوفق فى هذين القولين بين سهر الحاكم الذى لا ينبغى أن تخفى عليه خافية، وبين عدل القاضى الذى لا ينبغى أن يحكم بغير بينة ظاهرة.

بل لو كان عمر بن الخطاب محدود التفكير ينظر إلى الأمور من جانب واحد لما كثرت مشاورته للكبار والصغار والرجال والنساء مشاورة من يعلم أن جوانب الآراء تتعدد: وأن للأمور وجوهًا لا تنحصر فى الوجه الذى يراه. وكثيرًا ما قال: «أخوف ما أخاف عليكم إعجاب المرء برأيه». وليس استطلاع الآراء ولا الخوف من الإعجاب بالرأى شيمة رجل محصور التفكير ضيق المنافذ إلى الحقيقة.

وقد عاشره أناس من الدهاة فخبروه وحذروه!.. وقال المغيرة بن شعبة لعمرو بن العاص: أأنت كنت تفعل أو توهم عمر شيئًا فيلقنه عنك؟ والله ما رأيت عمر مستخليًا بأحد إلا رحمته كائنًا من كان ذلك الرجل. كان عمر والله أعقل من أن يُخدع وأفضل من أن يَخدع..».

إنما كان عمر كما وصف نفسه «ليس بالخب ولكن الخب[1] لا يخدعه». وهذا هو الحد الفاصل أحسن الفصل بين الدهاء المحمود، والدهاء المذموم، أو بين الفهم الصحيح والخبث القبيح. فهناك فطنة تسىء الظن لأنها تعرف الشرور التى فى طبائع الناس، وفطنة تسىء الظن لأنها تشعر شعور السوء، والفرق بينهما عظيم، كالفرق بين الخير والشر والمحمدة والمذمة. فالفطنة الأولى معرفة حسنة والفطنة الثانية خلق ردىء. وإنما كان عمر بالفطنة الأولى معصومًا من أن يخدع غيره أو ينخدع لغيره، وهذا هو الحد القوام الذى لا نقص فيه من جانبيه.

وكانت له فى استيحاء الخفايا قدرة تقرب من مكاشفة الغيب لولا أنها تستند إلى التقدير الصحيح والظن المدعوم بالخبرة، وحكاية واحدة من هذا القبيل تغنى عن حكايات، وهى حكايته مع المغيرة الذى استكثر على عمرو بن العاص أن يوحى إلى عمر بمراده ويتداهى عليه.

فقد هم عمر رضى الله عنه بأن يعزل المغيرة عن العراق ويولى جبير بن مطعم مكانه، وأوصى جبيرا أن يكتم ذلك ويتجهز للسفر. فأحس المغيرة وسأل جليسا له أن يدس امرأته - وهى مشهورة بلقط الأخبار حتى سميت «لقاطة الحصا» - لتستطلع النبأ من بيت جبير. وذهبت إلى بيته فإذا امرأته تصلح أمره فسألتها: إلى أين يخرج زوجك؟

---

(١) الخب: الخداع

قالت: إلى العمرة! قالت لقاطة الحصا: بل كتمك، ولو كانت لك عنده منزلة لأطلعك على أمره! فجلست امرأة جبير متغضبة ودخل عليها وهى كذلك، فلم تزل حتى أخبرها وأخبرت لقاطة الحصا. وذهب المغيرة إلى عمر ففاتحه بما علم وهو يقول له: بارك الله لأمير المؤمنين فى رأيه وتوليته جبيرًا! فلم يعجب عمر من وقوفه على السر، بل قال: كأنى بك يا مغيرة قد فعلت كيت وكيت، كأنما سمع ورأى.. وأنشدك الله هل كان كذلك؟ قال المغيرة: اللهم نعم. ثم صعد عمر إلى المنبر ونادى فى الناس: أيها الناس! من يدلنى على المخلط المزيل[1] النسيج وحده؟ فقام المغيرة فقال: ما يعرف ذلك فى أمتك أحد غيرك!.. فأبقاه على ولايته ولم يزل واليه على العراق حتى مات.

وإنما كانت مجارته للداهية من هذا القبيل إعجابًا بحصافته، لا انخداعًا بمكره، وقد يتغابى ويعمل وما يريده المتداهى عليه لأنه أدرك مرمى كلامه وفهم ما فيه من صواب، كما صنع مع عمرو بن العاص فى خطبة أم كلثوم بنت على رضى الله عنهما.. وسيأتى الكلام عنها فى فصل تال.

على أن القدرة الذهنية التى امتاز بها عمر فى غنى عن الاستدلال عليها بما قال وما قيل فيه، وما دار بينه وبين بعض القوم من المساجلات والمحاورات. إنه عمل ما لم يعمله إلا القليل من أقدر الحكام فى تاريخ بنى الإنسان. وكفى بذلك دليلا على قدرته الذهنية لا حاجة بعده إلى دليل. ساس شعوبًا بينها من الاختلاف مثل ما بين العرب والفرس وبين الفرس والقبط والسوريين، ونصب ولاة وانتدب قوادًا وسير بعوثًا وأشرف على ميادين قتال، وأقام نظمًا فى الحكومة وراقب رعاة ورعية فيما يعلنون وما يبطنون، ونجح فى كل ما عمل نجاحًا منقطع النظير، غير مردود إلى المصادفة، ولا إلى ارتجال المغامرين، وليس هذا كله مما يضطلع به رجل محدود الفكر ضيق الأفق قليل الخبر بالجماعات والأفراد. فإذا استوفى هذا الحظ الوافى من القدرة الذهنية فذلك حسبه منها وحسب كل من تصدى لمثل عمله ونهض بمثل وقره[2]. ولا عليه بعد ذلك أنه لم يفكر على نمط الفلاسفة وأقطاب العلم وأساطين المنطق والرياضة، فإن الدنيا لم تخرج لنا عمر ليزيدنا أفلاطون آخر أو إقليدس ثانيًا أو «فارداى» سابقًا فى الزمن القديم، بل

---

(١) رجل مخلط مزيل: يجمع بين الأسياء. ويميز بينها لقوة فكره.

(٢) وقره: حمله ومسئوليته.

أخرجته للناس ليكون مؤسس عهد ومحول تاريخ. فإذا تأدى به عقله إلى تلك الغاية فهو العقل الصائب يفكر على النحو الذى خلق له ويبلغ القصد الذى رمى إليه. وعلينا نحن أن نعرف كيف كان تفكيره وأن نسلكه بين قرنائه وأنداده.

إنما طرأت شبهة العقل المحدود على المستشرقين الذين ظنوا به هذا الظن من ناحية واحدة، وهى ناحية العدل الذى لا يلتفت ذات اليمين وذات الشمال، والقضاء الذى يكيل الجزاء دقة بدقة ولا يبالى بالنقائض والمفارقات.

ونظروا إلى جملة آرائه فى المسائل الجلّى فإذا هى من الآراء التى يغلب عليها القطع والجزم والانطلاق إلى غرض ماثل لا تنحرف عنه قيد شعرة، كأنه قد جهل ما فى الدنيا من نقائض وخفايا ومن عوج وتعريج، أو كأنه السهم الثاقب ينفذ فيما أمامه إلى هدفه المحدود ولا يلتفت إلى شىء فى نفاذه أو يعوقه عائق دونه.

فظهر لهم أن فطنته إنما كانت فطنة فراسة فطرية كالغريزة التى تهتدى على استقامة واحدة، ولكنها لا تنحرف ولا تتصرف ولا تخالف ما جبلت عليه، وأنها فطنة العقل المحدود، والبصر الموكل بجانب واحد ينفذ فيه ولا يحيط به أو يتشعب فى نواحيه.

والفكر المحدود – هنا – هو فكر أولئك المستشرقين لا فكر عمر بن الخطاب.

فالرجل الذى يستقيم على وجه واحد لا يحيد عنه، هو واحد من رجلين:

إما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه لا يرى غيره ولا يحيط بما حوله.

وإما رجل يستقيم على هذا الوجه لأنه قادر على اختراق العقبات، عالم أنها تنثنى إليه حيث كان دون أن ينثنى إليها حيث كانت.

واستقامة عمر بن الخطاب على وجه من هذا القبيل وليست من ذلك القبيل.

هى استقامة قدرة وليست باستقامة عجز، وهى استقامة تصرف سريع وليست باستقامة محجور مقيد، يأبى أن يدور لأنه قد أعياه أن يدور.

هى استقامة حياة غلابة، وليست باستقامة أداة كالموازين تسوى بين التبر والتراب لأنها لا تميز بين التبر والتراب.

فالرجل الذى يجتنب التصرف فى العدل عجزًا عن الفهم والتزامًا للحرف المكتوب ونزولا إلى مرتبة الموازين التى لا تعى ولا تغضب ولا تغار إنما هو آلة فقيرة فى مادة الحياة.

أما الذى يجتنب التصرف فى العدل غيرة على الضعيف، وقدرة على القوى، وعلماً بالتبعة، واضطلاعا بجرائرها، فذلك حى غنى بالحياة يعدل لفرط السليقة الإنسانية والقدرة الحيوية، ولا يعدل لأنه آلة تشبه الميزان الذى لا حس فيه.

وشتان بين هذا وذاك. إنهما لنقيضان وإن كانا – فى ظاهر الأمر – شبيهين متقاربين.

والاعتماد على الأمثلة الخاصة أولى بنا فى هذا المعرض من الاعتماد على القواعد العامة والتقريرات النظرية.

فهذه أمثلة ثلاثة من أمثلة العدل الذى يبدو لأول وهلة كأنه عدل الموازين الآلية حين تسوى بين الأوزان وإن اختلفت القيم والأقدار، وتفصل فى الأنصباء بغير نظر إلى فوارق الدنيا ومقتضيات السياسة وتبدل الأحوال.. ونختارها من أجهر الأمثلة وأدناها إلى تأييد شبهات المستشرقين فيما زعموه من العقل المحدود، لنرى على قدر ضخامة هذه الأمثلة ضخامة الخطأ فى استخراج ما تدل عليه.

كان عمرو بن العاص واليًا لمصر وكان ابنه يجرى الخيل فى ميدان السباق، فنازعه بعض المصريين السبق واختلفا بينهما لمن يكون الفرس السابق. وغضب ابن الوالى فضرب المصرى وهو يقول: أنا ابن الأكرمين! فاستدعى عمر الوالى وابنه حين رفع إليه المصرى أمره، ونادى بالمصرى فى جمع من الناس أن يضرب خصمه قائلا له: اضرب ابن الأكرمين! ثم أمره أن يضرب الوالى لأن ابنه لم يجرؤ على ضرب الناس إلا بسلطانه، وصاح بالوالى مغضبًا: بم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ فما نجا من يده إلى برضا من صاحب الشكوى واعتذار مقبول.

وكان خالد بن الوليد أشهر قادة الإسلام فى زمانه فأحصى عليه عمر بعض المآخذ ومنها إنفاقه من بيت المال فى غير ما يرضاه. فأمر به أن يحاكم فى مجلس عام كما يحاكم أصغر الجند، وعزله بعد مقاسمته فيما يملك من نقد ومتاع

وكان جبلة بن الأيهم أميرًا نصرانيًا فأسلم وأسلمت معه طائفة من قومه، ثم وطئ أعرابى إزاره فلطمه جبلة على ملأ من حجاج بيت الله. فقضى عمر للأعرابى أن يلطم الأمير على ذلك الملأ. لأن الإسلام لا يفرق بين سوقة وأمير.

هذه أمثلة العدل الذى لا يتصرف ولا يلتفت إلى الدنيا وما فيها من فوارق وتعريجات تتأبى على القصاص المستقيم، وهى من أقوى الشبهات على النظر المحدود فى تقدير الجزاء بالحرف المكتوب، دون التفات إلى الأحوال والمقتضيات.

فهل هى فى الواقع كذلك؟ وهل كان على عمر أن «يتصرف» فى هذه الأقضية بلباقة الساسة الدهاة فى جميع الأزمان إذ يحتالون على حرف الشريعة ويدورون حول حدود القانون؟

نعم كان عليه ذلك لو عجز عن سنة المساواة واحتاج إلى الحيلة. فإنما يعاب على الوالى عدل الموازين ويحمد منه التصرف والدوران لأن المساواة تعييه، أو لأن المساواة تعرضه لعاقبة شر وأظلم من الإجحاف، فإذا نظر إلى عاقبة المساواة فى المعاملة فرآها شرًّا وأظلم من عاقبة التفرقة والتمييز فقد وجب عليه إذًا أن يدور حول الحقيقة وألا يواجهها نصًّا بغير انحراف.

ولكن أين هذا من عمر وأين عمر من هذا؟ إنه كان قويًا قادرًا على العواقب، وكان شديد الألم من ظلم الظالم شديد الخجل من خذلان المظلوم، وكان وثيق الإيمان بنصر الله فى الحق وفى النجدة. فلماذا ينحرف؟ ولماذا يتصرف؟ ولماذا يدور؟

كان قويًّا بطبعه قويًّا بإيمانه. فلماذا يهاب قويًّا جار على ضعيف؟ ولماذا يروغ من صرامة القاضى إلى دهاء السياسى الذى يدور حول الحقوق والحدود؟

للمستشرقين المتحدثين بالتفكير المحدود أن يأخذوا عليه تشهيره بكبار الولاة ويثبتوا به كل ما قالوه عن ذلك التفكير المحدود الذى ينسى الفوارق ولا يحتال على المحظورات، ولكن بشرط واحد.

ذلك الشرط هو أن يتوقعوا ولو من بعيد أن يثور ابن العاص ونظراؤه على هذا القصاص، فيختل حكم الدولة وينتشر الأمر على الخليفة ويقع من المحظور أضعاف ما كان واقعًا لو بطلت المساواة بين السوقة والولاة.

أما أن يكون ابن العاص ونظراؤه لا يثورون ويعلمون من هو عمر وما هى عقباهم إذا ثاروا عليه.

وأما أن يكون عمر لا يخشى تلك الثورة ولا يعبأ بها إذا هى فاجأته أو جاءته على انتظار.

وأما أن يكون الأمر فى ضميره وفى ضمائرهم يجرى على البديهة التى لا خفاء بها ولا شك فيها – فكيف يقال إذن إن تفكير عمر فى قصاص الولاة كبارًا وصغارًا تفكير محدود؟ وأين هو فى هذه الحالة موضع التفكير المحدود؟

إنه فى موضع واحد، وهو كما أسلفنا موضع الناقد الذى يصف عمر بغير وصفه، لأنه هو محدود الفكر فى قياس الرجال بمقياس واحد، أو فى اعتقاده أن الخطوب تبقى كما هى ولا تتغير كلما تغيرت عليها أيدى الرجال.

لقد كان عمرو بن العاص خطرًا على الخليفة الذى يغض منه لو كان غير عمر، ولكنه هو – والذين كانوا أجرأ منه على الفتك وأسرع منه إلى الغضب – لم يكن لهم من خطر إذا كان عمر هو الذى أمر بالعزل وهو الذى قضى بالقصاص.

فأجرأ منه ولا ريب كان خالد بن الوليد، وأشهر منه بين سيوف الإسلام لو عمد إلى السيف. ومع هذا نقم خالد عزله فخطب الناس ومضى يقول: إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت بثنية – أى حنطة – وعسلا عزلنى وآثر بها غيرى. فما أتمها حتى نهض له رجل من السامعين فقال له: صبرًا أيها الأمير فإنها الفتنة. فما تردد خالد أن قال: أما وابن الخطاب حى فلا..

نعم، لا فتنة وابن الخطاب حى ولو كان الغاضب خالدًا الغضوب، ومن هنا حق له أن يشكو ولا جناح عليه.

وأطرف من هذا فى هيبة عمر بين ولاته وقواده أنه كتب إلى أبى عبيدة يأمره أن يقاسم خالدًا ماله نصفين، فقاسمه جميع ماله حتى بقيت نعلاه، فقال أبو عبيدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا.. فأبى خالد أن يخالف أمر عمر وأعطاه إحداهما وأخذ الأخرى.

لقد نظرنا إلى عمر مستقيمًا ولم ننظر إلى الخطوب، ولو نظرنا إليها لرأينا أنها انثنت

لتنقاد له وتتقى مصادمته وتستقيم على منهاجه.. فعلمنا لم استقام دون أن يقدح ذلك فى صدق نظره إلى الدنيا وصدق فراسته فى خلائق الناس.

وندع قضايا الولاة وننظر فى قضية الأمير الذى ارتد عن الإسلام هو وقومه لأن عمر أجبره على قصاص المساواة بينه وبين رجل من السوقة. فماذا كان ينبغى أن يفعل عمر غير ما فعل من المساواة الصادقة بين الأمير الضارب وخصمه المضروب؟

لعل داهية من دهاة السياسة الذين يصفون أنفسهم بالنظر البعيد كان يؤثر إرضاء الأمير واستبقاء أتباعه فى الإسلام والاحتيال على الشاكى بما يواسيه ويغنيه عن أن يسوى بين الخصمين، ويمكن لضعيف من ضرب أمير اعتدى عليه.

فهل معنى ذلك أن عمر كان يعوزه دهاء أولئك الساسة وما عندهم من بعد نظر مزعوم؟

كلا. بل معناه أن أولئك الساسة يعوزهم السخط على الظلم والغيرة على الحق واليقين بالقدرة والإيمان بمناعة الإسلام أن يصيبه غضب أمير صابئ بما يضيره، ولو كثر أتباعه والصابئون فى ركابه.

معناه أنهم احتاجوا إلى التصرف وعمر لم يحتج إليه.

وها هى ذى السنون قد مضت وتلتها الأحقاب والقرون فبدا لنا اليوم أن النظر البعيد والعدل الشديد فى هذه القضية يلتقيان، وأن عمر كان أحسن المتصرفين فيها لأنه اجتنب التصرف الذى يهواه الدهاة. فقد أفاد الإسلام ما لم يفده بقاء جبلة وأتباعه على دينه، ووقاه ضررًا أضخم وأوخم من نكوص أولئك الصابئين عنه. أفاده ثقة أهله بإقامة أحكامه واطمئنان الضعفاء إلى كنفه ورهبة الأقوياء من بأسه، وسمعته فى الدنيا برعاية الحق وإنجاز الوعد وتصديق معنى الدين، ولا معنى له إن كان أضعف بأسًا من أمير وجب العقاب عليه.

ويجوز أن الفاروق لم ينظرْ إلى عواقب القرون كما ننظر إليها الآن، بعد أن برزت من حيز الفرض إلى حيز العيان. غير أن الأمر الذى لا يجوز فى اعتقادنا أنه عدل فى قضية جبلة ونظائرها عدل آلة أو عدل ميزان. إن الميزان لأقل من مخلوق له حياة. أما الفاروق

فى هذه القضية فقد كان أكبر من الحياة الفانية، وكان بطلا يؤمن ويعمل بإيمانه، وهكذا يعلو الإنسان ببطولة الإيمان.

والعبرة التى نخرج بها من هذا أن النظرة الأولى فى أخلاق عمر بن الخطاب حسنة ولكن النظرة الثانية هى على الأغلب الأعم أحسن من الأولى.

فالناقدون الأوربيون الذين فسروا عدله المستقيم القاطع بالنظر الضيق والفكر المحدود لم يفهموه ولم ينصفوه، ولو فهموه وأنصفوه لعلموا أن عدله المستقيم القاطع زيادة فى القدرة وليس بنقص فى الفطنة، أو أنه زيادة فى قوة الثقة وقوة الإيمان وليس بنقص فى العلم والبداهة، ولم يكن عسيرًا عليهم أن يفقهوا ذلك لو راجعوا أنفسهم وتريثوا فى حكمهم، لأن قوة الثقة وقوة الإيمان لا تخفيان فى خلق من أخلاقه ولا عمل من أعماله، ولا تزالان ممزوجتين فيه بكل إقدام وبكل إحجام. فكان يقدم على أعظم الخطوب ويحجم عن أهون الهينات تحرجاً منها وتنزهاً عنها، إذا اقتضى ذلك وازع من قوة الإيمان.

فلم يكن يمضى قدماً لأنه يغفل عما حوله من النواتئ والمنعرجات والسدود، بل كان يمضى بينها قدمًا لأنه لا يباليها ويؤمن أصدق الإيمان أنها تنثنى له إذا مضى فيها، فلا حاجة به أن ينثنى إليها.

إنه ليعلم العوج ولكنه يعلم أنه أقدر منه، لأنه يؤمن بحقه إيمان القوى الوثيق، فله من قوته ومن إيمانه قدرتان.

إنه ليرفع العبء إلى كاهله وهو قائم لا يطأطئ للنهوض بـه، فليس الفارق بينـه وبين غيره أنه يجهل العبء الذى يعرفونه، أو ينسى العواقب التى يذكرونها، أو يتحلل من المصاعب التى يتحرجون منها.. كلا! إنما الفرق بينه وبينهم أنهم ينثنون للخطوب، وأن الخطوب هى التى تنثنى إليه.

هذه القوة فى إيمانه كانت هى المسيطر الأكبر على كل خلق من أخلاقه، وكل رأى من آرائه، بل كانت هى المسيطر الأكبر على ما هو أصعب مقادًا من الأخلاق والآراء، وأشد عراما[1] من العقائد والشبهات، وهى دوافع الطبع وسورات الغريزة، وقلما خلا منها طبع قوى عزوف غيور.

(١) أشد عرامًا: أشد شراسة وشدة.

فالأفكار والأخلاق جانبان من جوانب النفس الإنسانية قابلان للضوابط والقيود، ولكن ما القول فى الدوافع والسورات؟

مثل الفكر كمثل السفينة الطافية على وجه النهر لها شراع ولها سكان، وعليهما معًا رقيب من النواتية[1] والربان[2].

ومثل الخلق كمثل النهر المتدافع تحبسه الشواطىء والقناطر ويفيض فى موعد ويعرف له مجرى ويحسب له مقدار.

ولكن ما القول: فى السيل العرم؟

ما القول فى السورة الجامحة التى ليست بفكر يسوس ويساس، ولا بخلق متميز بسماته وخصائصه ومراميه؟

هنا تبدو لنا قوة الضوابط والقيود.

وهنا أيضا كانت ضوابط الإيمان القوى فى نفس عمر كأقوى ما تكون.

ولا أحسب أن قلبه الكبير جمحت به فى الجاهلية أو الإسلام سورة أكبر من سورته يوم نعى النبى إلى المسلمين، فأنكر أن ينعى وأبى أن يسمع صوتًا بين المسلمين يزعم أن محمدًا قد مات وصاح الناس فى رهبة منه كرهبتهم من شبح الموت المخيم يومئذ على الرءوس: «والله إنى لأرجو أن تقطع أيدى رجال وأرجلهم قد يزعمون أنه مات».

ثم أقبل أبو بكر من مسكنه على فرسه، فنزل فتمشى وئيدًا صامتًا لا يكلم أحدًا، وتيمم النبى وهو مغشى بالثوب، فكشف عن وجهه ثم أكب عليه وقبله، وبكى.

ثم أحس صولة عمر وهو يكلم الناس، فخرج إليهم فقال: اجلس يا عمر!.. وأقبل على المسلمين يكلمهم بكلام السماء: «أما بعد، فمن كان يعبد محمدًا فإن محمدًا قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حى لا يموت... وما محمد إلا رسول قد خلتْ من قبله الرسل، أفإنْ مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم، ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئًا وسيجزى الله الشاكرين».

---

(١) النوتى: الملاح فى البحر خاصة، جمعه النواتى.

(٢) الربان: (بضم الراء) من يجرى السفينه.

فأهوى عمر إلى الأرض وأناب.

وكأنه والمسلمين معه ما علموا أن أنزلت هذه الآية التى تلاها عليهم أبو بكر تلك الساعة.

يالروعة التسلال الزاخر؟

ويالروعة السابح القاهر الذى لوى به ليًّا كأنما قبض على عرف، وأخذ له بعنان!

أكبر ميدان من ميادين الدنيا لا يرينا صراعًا عاتيًا هو أولى بالروعة من نفس عمر وهى متراوحة بين شعوره الزاخر وإيمانه الوثيق.

لحظة هائلة من أهوال ما تحس النفوس، ثم انهزام كأسرع ما يكون الانهزام، وانتصار كأسرع ما يكون الانتصار، وغاشية تنجلى عن صاحب تلك لنفس وهو مالك لزمامه، ماض بشعوره إلى حيث يمضى به إيمانه، فهما قوتان غالبتان، وليستا بعد بالعسكرين المتغالبين.

لقد كانت تلك سورته الكبرى ولكنها لم تكن أولى سوراته ولا أخراها.

فقد عهدت هذه السورات فى طبعه حتى عرف من عهدوها كيف يسوسونها ويتقونها، وأوشكت أن نحسب فى عداد الأنهار المحكومة لا فى عداد السيول الجارفة انطلقت من عقالها.

ذهب إليه بلال مستأذنا فقال له الخادم إنه نائم، فسأله: كيف تجدون عمر؟ قال: خير الناس إلا أنه إذا غضب فهو أمر عظيم. قال بلال: لو كنت عنده إذا غضب قرأت عليه القرآن حتى يذهب غضبه!

فهو الإيمان ضابط كل شيء فى تلك النفس حتى السورات التى ليس لها ضابط فى النفوس.

أو قل إنها هى النفس القوية فى دفعاتها وفى ضوابطها على السواء.

ورب نفس من ضعف الدفعة بحيث يقمعها أهون ضابط يسيطر عليها، فأما الدفعة التى لا يقف فى طريقها إلا ضابط أقوى منها فتلك هى الطبيعة الحيوية المضاعفة، وليست هى الضعف الذى يتراجع لأهون مراجعة.

نذكر هذا وينبغى أن نذكره ولا ننساه، لأن الفرق بين الإيمان الذى يكبح الهزيل المنزوف الحياة وبين الإيمان الذى يكبح القوى الجياش فرق عظيم.

ولم يكن عمر معرضًا عن زخارف الحياة لهزال كان فى دواعى الحياة فيه. إنما كان معرضًا عنها لأنه كان قادرًا على الإعراض غير ممتحن به فى إرادة ولا عزيمة.

وكان معرضًا عنها لأنه صاحب حيوية غير الحيوية الجسدية الموكلة بالسرور والمتاع.

فمن الواجب إذا ذكرنا الحيوية وضعفها وقوتها أن نذكر أبدا أنها حيويات متعددة وليست بحيوية واحدة.

حيوية الروح وحيوية الخلق، وحيوية الذوق، وحيوية العقل وحيوية الجسد، وغير ذلك كثير مما يتداخل بين هذه الحيويات.

فليس من الضرورى إذا رأيت رجلا قليل الاشتهاء لمتعة الأجساد أن تحكم عليه بضعف الحيوية، فربما كانت له حيوية أخرى تملأ ألوفًا من النفوس لا تجد متاعها فى أكلة أو شهوة وتجد المتاع خير المتاع فى إحقاق الحق وزجر الطغيان وإقامة العدل والشريعة بين الناس.

وهكذا كانت حيوية عمر فيما يريده وفيما يزهد فيه.

لم تكن قلة الرغبة فى زخارف الدنيا هى مقياس حيويته العظمى وإنما كان مقياس تلك الحيوية عظم الرغبة فى الإصلاح والتقويم، وفى إجراء ما ينبغى أن يجرى . غير مبال ما يكلفه ذلك من جهد تتضاءل دونه جهود الألوف من الموكلين بمتاع الأجساد.

* * *

تلك صورة مجملة للصفات الخلقية الكبيرة التى كانت غالبة على نفس عمر بن الخطاب، وهى العدل والرحمة والغيرة والفطنة والإيمان.

وأول ما يلاحظ عليها تعدد الصفات الغالبة فى نفس واحدة، وصفة واحدة منها قد تغلب على النفس – وليست بصغيرة – فتنعتها بنعتها وتستأثر بتمييزها والدلالة عليها.

ثم يلاحظ عليها أن الصفة منها تتصل بعمر بن الخطاب فتأخذ منه وتصطبغ بصبغته،

حتى كأنها لم تُعهد فى غيره على شيوعها وكثرة الموسومين بسماتها.

إلا أن هذا وذاك ليس بأعجب الملاحظات ولا أندرها فى هذا السياق، وإنما العجب العجاب حقًّا هذا التركيب الذى ندر مثيله جدًّا بين خصائص النفوس كائنًا ما كان نصيب صاحبها من العظمة والامتياز.

وأحرى بنا أن نقول «هذه التركيبة» ولا نقول هذا التركيب، لأن صفاته الكبيرة تتركب كما تتركب أجزاء الدواء الذى ينفع لغرض واحد مفهوم، والذى ينقص جزء منه فينقص نفعه كله ويدخله التناقض والاختلاط.

إذا نظرت إلى تلك الصفات أجزاء متفرقات فهى سهلة بسيطة ليس فيها شىء عويص أو مكتنف بغموض.

ولكنك تنظر إليها مركبة متناسقة فيبدو لك منها جانب الدهشة والإعجاز، أو جانب الندرة التى يعز تكرارها فى طبائع النفوس، لأنها تتركب لاستيفاء الغرض منها جميعًا واستيفاء الغرض فى كل منها على حدة، وهذا هو النادر جد الندرة فى تركيب الأخلاق.

ما العدل مثلا بغير الرحمة التى تمزجه بالإحسان؟ وما العدل والرحمة معا بغير الحماسة الروحية والغيرة اليقظى التى تجعل كراهة المرء للظلم كأنها كراهة الضرر الذى يصيبه فى نفسه وآله وتجعل حبه للعدل كأنه حب هواه وقبلة مناه؟ وما العدل والرحمة والغيرة جميعًا بغير فطنة تضع الأمور فى مواضعها وتعصم المرء أن ينخدع لمن لا يستحق ويغفل عمن يستحق وهو حسن القصد غير متهم الضمير؟ وما العدل والرحمة والغيرة والفطنة بغير الإيمان الذى هو الرقيب الأعلى فوق كل رقيب والوازع الأخير بعد كل وازع، والمرجع الذى لا مرجع بعده لطالب الإنصاف؟

كل صفة تتمة لجميع الصفات.

وكل الصفات روافد لغرض واحد يتم به نصر الحق وخذلان الباطل.

وكل خليقة فهى جزء لا ينفصل من هذه «التركيبة» التى اتفقت أحسن اتفاق وأنفع اتفاق، وكأنما اتفقت لتصبح كل خليقة منها على أتم قدرتها فى بلوغ كمالها وتحقيق غايتها.

فلا نقص فى العدل كالنقص فى كل عدل يعمى عن الطبيعة البشرية ويذهل عن ضعف الإنسان.

ولا نقص فى الغيرة كالنقص فى كل غيرة ظالمة قاسية كأنها ضراوة وحش وليست بحماسة روح.

ولا نقص فى أولئك كله كالنقص فى جميع الصفات بغير الفطنة التى تخرج بها من ظلام إلى نور، وبغير الإيمان الذى يقف منها موقف الحارس الساهر والرقيب الأمين.

صفات متراكبة كأنها صفة واحدة يأخذ بعضها من بعض فلا تتعدد فى مرآها، ولا تزال فى صورة البساطة بعيدة عن التركيب فيخطىء النظر القصير فى التفرقة بين هذه الظاهرة النفسية الرائعة وبين ظاهرة الشىء البسيط المحدود، وإنه لخطأ شائع ينساق إليه كثيرون ممن يستسهلون بساطة عمر، وهى أولى بالروعة من تركيب يختلط من كل مزيج، ثم يزيد فى الألوان ولا يزيد فى الإتمام والتوحيد والإتقان.

ولو أن مخترعًا من أهل القصص حاول أن يخترع سيرة عمر بن الخطاب لأعياه أن يخترع ذلك الشتيت المتفرق من الأخبار والأحاديث والنوادر ليقرأه القارىء بعد ذلك فيقبل منه ما يقبل ويسقط منه ما يسقط، ثم يبقى منه ما يدل أصدق الدلالة على كل صفة من تلك الصفات.

فلا اختراع فى جملة أخبار عمر وإن جاز الشك فى بعضها أو جاز إسقاط الكثير منها، ومن شاء فليتشكك فى هذا الخبر أو ذاك ما بدا له الشك، وليسقط منها ما بدا له الإسقاط، فسيبقى بعد ذلك جميعه خبر يدل: على عدله ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على رحمته ولا سبيل إلى نقضه، وخبر يدل على غيرته ولا سبيل إلى نقضه، ويبقى ذلك التركيب العجيب الذى هو موضع الإعجاز وموضع الدهشة وموضع التساؤل فى مصادر الأخبار.

هذه هى المعضلة التى عنيناها حين قلنا فى صدر هذا الفصل إن سهولة عمر وخلو طبائعه من التعقيد والغموض هى سهولة أصعب من الصعوبة، لأنها تنتهى بك إلى صعوبة التركيبة التى هى أندر من التعقيد والغموض، وتريك عناصر شتى قد تتناقض فى غير هذا التركيب ولكنها هنا لا تتناقض فى شىء ذى بال، لأن التناقض أن يذهب كل عنصر فى وجهة معارضة لسائر الوجهات، فأما أن تكون كلها ذاهبة فى وجهة واحدة فذلك عنصر

واحد متعدد الأجزاء والألوان.

ولهذا كانت دراسة عمر غنيمة لكل علم يتصل بالحياة الإنسانية كعلم الأخلاق وعلم الاجتماع وعلم السياسة، ولم تقتصر مزايا هذه الدراسة على علم النفس وكفى.

لأن كل نفس صغرت أو كبرت فهى إنسان يضيف العلم به إلى علم النفس بعض الإضافة.

ولكن ليست كل النفوس بالنفس التى تصحح أوهام الواهمين فى فضائل الأخلاق وفضائل الاجتماع، وفى القدوة المثلى التى يقتدى بها طلاب الرفعة والسيادة.

ونحن فى عصر شاعت فيه فلسفات مسهبة، تنكر الرحمة والعدل على الأقوياء الغيورين وتحسبهما حيلة من حيل الطبع فى خلائق الضعفاء لاستدامة البقاء. كأن رحمة الضعيف تنفعه إذا رحم، وكأن عدل الضعيف ينفعه إذا عدل، أو كأن القوى يخلق نفسه لنفسه ولا يخلق قويًا لتفيد قوته فائدتها فى خدمة المحتاجين إليها.

فعمر ذو البأس والعدل، وعمر ذو الرحمة والغيرة، أصدق تفنيد لذلك الوهم الأخرق البليد. إذا كانت رحمته وعدله لا تناقضان البأس والغيرة فيه، بل كان بأسه معوانًا لرحمته وكانت غيرته معوانًا لعدله، وكان هو قويًا لينتفع الناس بقوته، ولم يكن قويًا ليطغى بقوته على الضعفاء.

ولم يكن لزامًا أن يقسو ذو البأس ولا يرحم؟

ألا يقسو الضعيف؟ فلم العجب إذن من رحمة القوى؟ كل ما هنالك أن رحمة الضعفاء غير رحمة الأقوياء. فأما العقل الذى يرى الرحمة غريبة فى الأقوياء، ويرى القسوة غريبة فى الضعفاء فهو يرى غير الواقع من هؤلاء وهؤلاء. إذ الواقع فى الدنيا أن القسوة لا تدل على القوة، وأن الرحمة لا تدل على الضعف، وأن ليس فى الدنيا أقسى من الأطفال وهم أضعف من فيها من الضعفاء.

وبغير إمعان طويل فى دقائق النفس الإنسانية استطاعت امرأة محزونة أن تفرق بين الخصلتين وتجمع بينهما معًا فى عمر بن الخطاب ونعنى بها عاتكة بنت زيد حين قالت فى رثائه:

رءوف على الأدنى غليظ على العِدَا   أخى ثقـة فى النـائبـات منيب

وهى تفرقة سهلة ولكنها صادقة جامعة، فغير عجيب أن يكون إنسان كذلك، وإنما هو أوفق شىء لطبائع الأشياء.

مفتاح شخصيته

مفتاح الشخصية هو الأداة الصغيرة التى تفتح لنا أبوابها، وتنفذ بنا وراء أسوارها وجدرانها، وهو كمفتاح البيت فى كثير من المشابه والأغراض. فيكون البيت كالحصن المغلق ما لم تكن معك هذه الأداة الصغيرة التى قد تحملها فى أصغر جيب، فإذا عالجته بها فلا حصن ولا إغلاق!

وليس مفتاح البيت وصفًا له ولا تمثيلا لشكله واتساعه، وكذلك مفتاح الشخصية ليس بوصف لها ولا بتمثيل لخصائصها ومزاياها، ولكنه أداة تنفذ بك إلى دخائلها، ولا تزيد.

ولكل شخصية إنسانية مفتاح صادق يسهل الوصول إليه أو يصعب على حسب اختلاف الشخصيات.. وهنا أيضًا مقاربة فى الشكل والغرض من مفاتيح البيوت. فرب بيت شامخ عليه باب مكين يعالجه مفتاح صغير، ورب بيت ضئيل عليه باب مزعزع يحار فيه كل مفتاح.

فليست السهولة والصعوبة هنا معلقتين بالكبر والصغر، ولا بالحسن والدمامة. ولا بالفضيلة والنقيصة، فرب شخصية عظيمة سهلة المفتاح، ورب شخصية هزيلة ومفتاحها خفى أو عسير.

وقد يحيرنا الرجل الذى قيل فى وصفه مثل ما قيل فى ابن عباد:

لا تمدحن ابن عباد وإن هطلت يداه بالجود حتى شابه الديما[1]
فإنها خطرات من وساوسه يعطى ويمنع لا بخلا ولا كرما

فإننا لا نستطيع أن ننفذ منه إلى مواضع اللوم أو مواضع الثناء، ولا ندرى حقًّا أعمله من الكرم أم من البخل، ومن الرفعة أم من الخسة، ومن الشجاعة المحمودة أم من الجبن

(١) الديم: جمع ديمة، وهى السحابة الممطرة.

المذموم؟ وغاية ما ننتهى إليه أن نفض المشكلة بكلمة واحدة هى الوسواس، وهى حيلة تلجئنا إليها قلة الحيلة، لأن تفسير الأعمال بالوسواس يفيدنا فى تقدير صاحبها وتقدير أعماله وأخلاقه، ولكنه تفسير له معنى واحد فى النهاية: وهو ترك التفسير.

قد تحيرنا هذه الشخصية المنقوصة ولا تحيرنا الشخصية الكاملة التى تروعنا بفضائلها ومزاياها، ثم لا نستغرب منها فضيلة أو مزية بالقياس إلى انتظام عملها واتصال أثرها، كالشمس الطالعة تروعنا بإشراقها فى أوقاتها وبروجها. ثم لا تحيرنا لمحة عين كما تحيرنا الذبالة الضئيلة تومض لحظة وتختفى من بعيد.

وفى اعتقادنا أن شخصية عمر من أقرب الشخصيات العظيمة مفتاحًا لمن يبحث عنه، فليس فيها باب معضل الفتح وإن اشتملت على أبواب ضخام.

وقد ذكرنا فى الفصل السابق أن إيمان عمر هو الضابط الذى يسيطر على أخلاقه وأفكاره كما يسيطر على دوافعه وسوراته، ولكن الذى نريده بمفتاح الشخصية شىء آخر غير معرفة الضابط الذى يسيطر عليها: نريد به السمة(١) التى تميزه بين العظماء حتى فى الإيمان وسيطرته على الأخلاق والأفكار والدوافع والسورات، فإن الإيمان ليقوى فى نفوس كثيرات ثم تختلف آياته وشواهده باختلاف تلك النفوس، وهنا نبحث عن «مفتاح الشخصية» لنعرف به الفارق بين الإيمان فى طبيعة عمر وبين الإيمان فى طبائع غيره من الأقوياء.

والذى نراه أن «طبيعة الجندى» فى صفتها المثلى هى أصدق مفتاح «للشخصية العمرية» فى جملة ما يؤثر أو يروى عن هذا الرجل العظيم.

فأهم الخصائص التى تتجمع «لطبيعة الجندى» فى صفتها المثلى الشجاعة والحزم والصراحة والخشونة والغيرة على الشرف، والنجدة والنخوة والنظام والطاعة وتقدير الواجب والإيمان بالحق وحب الإنجاز فى حدود التبعات أو المسئوليات.

هذه الخصائص قد تجمعت بعد ألوف السنين من تجارب الأمم فى تعبئة الجيوش حتى عرف الناس أخيرًا أنها لازمة للجندى فى أمثل حالاته. فما من خاصة منها يستغنى عنها الجندى الكامل الذى تحلى بأجمل صفاته وألزمها لتحقيق وجوده.

---

(١) السمة: العلامة والشارة المميزة.

فانظر إلى هذه الخصائص جميعها هل تجدك محتاجًا إلى التنقيب طويلا عن واحدة منها فى نفس عمر؟ هل تجدك محتاجًا إلى تعمّل أو استقصاء لجمع أشتاتها والاهتداء إلى شواهدها ومواقعها؟

كل هذه الخصائص عمرية لا شك فيها. فهو الشجاع، الحازم، الصريح، الخشن، المطيع، الغيور على الشرف، السريع النجدة المحب للنظام، المؤمن بالواجب والحق، الموكل بالإنجاز، العارف بالتبعات والمسئوليات.

هذه الخصائص واضحة كلها فى عمر، وعمر حده واضح بين أمثاله فى جميع هذه الخصائص، حتى ليخيل إلينا لو أن أحدًا مولعًا بتأليف الألغاز سأل عن عظيم فى الإسلام والعروبة متصف بجميع هذه الخصائص على أصدق وأبرز حالاتها لكان الجواب الواحد عن سؤاله اسم عمر بن الخطاب.

وقد يكون العجب من توافر هذه الخصائص فى تفريعاتها الثانوية،وأشكالها العارضة أبلغ وأدل على العمق والتأصل من توافر الخصائص الجليلة التى هى بمثابة الأصول الجامعة فى طبائع الجنود.

فالنظام مثلا ليس بالخلق الأصيل فى الجندى الباسل، فقد ينساق إليه بطبعه، وقد يحتاج إلى تعوده وإدمانه حتى يكسبه بطول المرانة.

لكن النظام كان خلقًا أصيلا فى طبيعة عمر حتى فيما يتفرع عليه ويدخل منه فى عداد الأشكال والنوافل[1].

أرأيته وهو يصلى بالناس فلا يكبر حتى يسوى الصفوف ويوكل رجلا بذلك؟ أرأيته وهو يرى الناس يجتمعون بالمسجد فى شهر رمضان أوزاعًا متفرقين حول كل قارئ فيأمرهم أن يجتمعوا إلى قارئ واحد؟ أرأيته وهو يحمل الدرة لينبه المخالفين فى الطريق ويذكرهم هيبة القانون؟ أرأيته وهو يركب فى السوق فيكسر ما برز من الدكاكين ويخفق التجار بالدرة إذا تكوفوا[2] على الطعام وقطعوا طريق السابلة؟ أرأيته وهو لا يزال يأمر

---

(١) النوافل: جمع نافلة، وهى الزيادة.

(٢) تكوفوا على الطعام: اجتمعوا عليه.

بـالمثاعب[١] والكنف[٢] أن تقـطع عن طريق المسلمـين؟ أرأيته وهـو ينهى الـولاة عن الاتكـاء فى مجالس الحكم ويكتب إلى عمرو بن العاص «وقع إلىّ أنك تتكئ فى مجلسك، فإذا جلست فكن كسائر الناس ولا تتكئ»!

بل أرأيته وهو يرعى المراتب فينزل درجة من سلالم المنبر بعد أبى بكر لأن الخليفة الأول أحق منه بالتقديم؟

ذلك هو السمت العسكرى بالفطرة التى فطر عليها، وليس هو السمت العسكرى بالأسوة والتعليم.

والفطرة التى فطر عليها كان يحب ما يحسن بالجندى فى بدنه وطعامه، ويكره ما ليس بالمتسحسن فيه، فكان يقول: «إياكم والسمنة فإنها عقلة[٣]»، وكان يقول: «إياكم والبطنة فإنها مكسلة عن الصلاة ومفسدة للجسم ومؤدية إلى السقم، وعليكم بـالقصد فى قـوتكم، فهو أبعد من السرف، وأصح للبدن، وأقوى على العبادة». وكـان يأمـر بالجـد ويحذر من المهـازل، لأن «من كثر ضحكـه قلت هيبته، ومن كـثر سقطه[٤]». قـل ورعه وكـان يمشى «شديد الوطء على الأرض جهورى الصوت» كما يمشى الجنود وكما يتكلمون، وكان يأمر بتعلم الرماية والسباحة والفروسية والمصارعة، وكل رياضة يتدرب عليها الجندى وتتهذب بها الأبدان والأخلاق.

وإذا ارتقينا من هذا إلى النظام الأشمل والتقسيم الأعم الأكمل فهناك عمر بن الخطاب الذى دوّن الدواوين وأحصى كل نفس فى الدولة الإسلامية كأدق إحصاء وعاه الموكلون بالتجنيد فى العالم الحديث. فما من رجل أو امرأة أو طفل إلا عرف اسمه وعرف مكانه وعرفت حصته من بيت مال المسلمين. وما من مجاهد إلا عرفت له رتبته من السبق والتقديم على حسب المراتب التى يمتاز بها الجنود... فالحاضرون فى وقعة «بدر» هم المقدمون بين المجاهدين، والحاضرون فى «الحديبية» يأتون بعدهم فى التقديم، والذين اشتركوا فى حرب الردة يأتون بعد هؤلاء وهؤلاء، الذين حاربوا فى معارك الروم والفرس

(١) المثاعب: مسايل الماء.

(٢) الكنف: جمع كنيف، وهو الحظيرة من الخشب أو الشجر تتخذ للإبل والغنم لتقيها الحر والبرد.

(٣) العقلة: القيد والعقال.

(٤) السقط: الخطأ من القول والفعل.

ومعهم أبناء الغزاة فى بدر يلحقون بمراتب هؤلاء المتقدمين، وقس على ذلك ما يليه من سائر المراتب فى حقوق التقديم والتقسيم.

ثم هناك عمر بن الخطاب الذى عشر الجنود، أى جعلهم عشرات عشرات. ثم قسمهم إلى كتائب وبنود.

وهناك عمر بن الخطاب الذى لم يدبر قط تدبيرًا كبيرًا أو صغيرًا فى شئون الدولة إلا بنظام لا يختل أو على أساس لا يحيد.

وقد كانت له طريقة الجند فى التصريف السريع الذى ينفذ إلى الغرض من أقرب طريق، فلما تشاور المسلمون ماذا يصنعون بسهيل بن عمرو، خطيب المشركين يومئذ وأقدر الخائضين منهم فى الإسلام؟ قال عمر بن الخطاب: يارسول الله! انزع تنيته[1] السفليين فلا يقوم عليك خطيبًا أبدًا». وكان سهيل أعلم - أى مشقوق الشفة السفلى - فإذا نزعت ثنيتاه فقد عجز عن الخطابة من غير ما حاجة إلى عهد أو تحذير أو شغل شاغل بإسكاته والرد عليه.

* * *

والقضاء لم يكن من لوازم «الطبيعة الجندية» وإن تولاه القادة والجند فى أيام الفتن والأيام التى تقام فيها الدول الناشئة والنظم الجديدة.

ولكن كم من قضية لعمر بن الخطاب تذكرنا بالقضاء العسكرى الذى يمنع الضرر من أقرب الطرق ويحمى الأكثرين بالحد من حقوق الأقلين؟

هتفت امرأة باسم نصر بن حجاج وتمنت أن تشرب الخمر وتلقاه فأرسل إليه «فإذا هو أحسن الناس شَعرًا وأصبحهم وجهًا. فأمره أن يجم[2] شَعره، فظهر جبينه ووجنتاه فازداد حسنًا، ثم أمره أن يعتمّ فزادته العمامة زينة وغواية، فقال: لا يسكن معى رجل تهتف به العواتق[3] فى خدورها، وزوده بمال وأرسله إلى البصرة ليعمل فى تجارة تشغله عن النساء، وتشغل النساء عنه.

---

(١) الثنية: من الأسنان، جمعها ثنايا وثنيات، وفى الفم أربع.

(٢) يجم شعره: يقصره.

(٣) العواتق: جمع عاتق وهى الشابة الصغيرة.

وفى القضية جور على نصر بن حجاج لاجدال فيه، ولكن فى سبيل مصلحة أكبر وأبقى، أو فى سبيل مصلحة يرعاها «الحكم العسكرى» فى أزمنة كزمان عمر، ويقضى فيها بما هو أعجب من إقصاء نصر بن حجاج، يرعاها أحيانًا بمنع الإقامة بمكان، ومنع المرور من طريق وتحريم تجارة لا حرام فيها، ومراقبة إنسان يخشى أن يقود إلى جريمة، وتقييد السهر بعد موعد من الليل.

ولسنا نقول إن هذا الحكم فى قضية نصر بن حجاج كان حكمًا لزامًا لا محيص عنه ولا مأخذ عليه، ولكنا نقول إنه حكم فيه تلك الصبغة العمرية التى سميناها «مفتاح شخصيته» وهى المقصودة بما نكتبه الآن.

وقد كان له فى قضائه ذلك الحزم الذى يقطع اللجاجة[١] وينهض بالحجة، على كل ذى خلاف كلما اشتجر[٢] الخلاف: كتب إليه أبو عبيدة من دمشق أن عمرو بن معد يكرب، وأبا جندل، وضراراً، وجماعة من علية القوم والوجوه شربوا الخمر وسئلوا فأجابوا: «إننا خُيِّرنا فاخترنا» قال: «هل أنتم منتهون» ولم يعزم[٣]... وكأن أبا عبيدة تحرج من عقاب هؤلاء العلية فرفع أمرهم إلى الخليفة يستفتيه، فلم يلبث البريد أن بلغ المدينة حتى عاد إليه يأمره أن يدعوهم على رءوس الأشهاد، ويسألهم سؤالا لا يزيد عليه ولا ينقص منه: أحلال الخمر أم حرام؟ فإن قالوا حرام فليجلدهم، وإن قالوا حلال فليضرب أعناقهم. فقالوا: بل حرام، فجلدوا وتابوا.

* * *

وربما تجمع للرجل كل ما فى «طبيعة الجندى» من الخصائص وبقيت محبوسة فيه لا يدرى بها الناس إلا أن يأتى بعمل ينم عليها، فيدين نفسه بطبيعته تلك ولا يدين غيره، ويكون مطبوعًا على أن يطيع ولا يكون مطبوعًا على أن يطاع، وإذا جاءته طاعة المطيعين له فإنما تجيئه من سلطان النظام وحكم الشرع وغلبة العادات، لأن الشجاعة مثلا لا تلازم الهيبة فى كل حال، فقد يكون الشجاع مهيبًا ويكون غير مهيب، بل يكون أحيانًا ممن تقتحمهم الأنظار ويجترئ عليهم المستخفون.

---

(١) اللجاجة: تمادى الخصمين.

(٢) اشتجر الناس: تنازعوا.

(٣) لم يعزم: لم يحدد حكماً قاطعاً، وعزيمة الله، فريضته التى افترضها.

أما عمر بن الخطاب فقد كانت له «طبيعة الجندى» ظاهرة باطنة، تبادر القلوب، كما تبادر الأنظار، وتلازمه كأنها عضو من أعضائه. فما يجترئ عليه مجترئ الا أن يُطْمعه هو، ويسهو عن نفسه لحظة ليغريه بالاجتراء.

وهى فى موقف الأمر تخيف من لا يخاف، ويجفل منها من يحتمى بجاه أو كبرياء. شكا إليه رجل من بنى مخزوم أبا سفيان لظلمه إياه فى حدّ كان بينهما، فدعا بأبى سفيان والمخزومى وذهبوا إلى المكان الذى تنازعاه، ونظر عمر فعرف صدق الشكوى، ونادى بأبى سفيان: خذ يا أبا سفيان هذا الحجر من هنا فضعه هنا... فأبى وتردد، فعلاه بالدرة وهو يقول: خذه فضعه ها هنا، فإنك ما علمت قديم الظلم، فأخذ أبو سفيان الحجر ووضعه حيث قال، ولو غير عمر أمره هذا الأمر لاستكبر أن يطيع، أو شنها عليه حربًا شعواء لا تؤمن جريرتها.

كان يوماً[١] فى مجلس عمر وزياد بن سمية[٢] يتكلم وهو يومئذ شاب، فأحسن كعادته فى مجال الخطابة والمشورة، فأعجب به عمر وهتف به: لله هذا الغلام! لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه.

وكان على بن أبى طالب إلى جانب أبى سفيان، فمال إليه هذا وهمس فى أذنه كلامًا فحواه أنه يعرف من أبو ذلك الغلام من قريش. قال علىّ: فمن؟ قال: أنا... قال: فما يمنعك من استلحاقه؟ فهمس له: أخاف هذا الجالس أن يخرق على إهابى![٣]

وخليق بمثل هذا الرجل ألا يكون له شعار غير شعار الجند حيث كانوا: الأمر هو الأمر، والطاعة هى الطاعة.

وخليق بالناس أن يفهموا ذلك عنه بغير بيان، لاسيما إذا فهموا قبل ذلك أنه متى وجبت الطاعة كان هو أول من يطيع.

ذلك هو الجندى المطبوع.

---

(١) أى أبو سفيان.

(٢) اشتهر باسم «زياد بن أبيه» ولم يكن معروف الأب، وفى عهد معاوية، شهد ناس من المسلمين أنه ابن أبى سفيان فاستلحقه معاوية «أى اعترف به أخا له» وولاه البصرة. اشتهر بالذكاء وسعة الحيلة والخطابة.

(٣) الإهاب: الجلد.

جندى من جنود الله فى معترك الحق والإيمان. وإذا استوفينا المثل إلى أقصاه فالقانون المطاع هو القرآن، والقائد الأعلى هو النبى الذى يوحى إليه، وليس أحد بعد ذلك أكبر من أن يطيع.

يأمر الله فالطاعة واجب لا هوادة فيه.

ويأمر القائد الأعلى فقد يراجعه مَن دونه ويرتفعان معًا إلى القانون، لأن الطاعة لا تمنع المراجعة والمشاورة، ولكنها تمنع التمرد على القائد الأعلى وإنكار سلطانه حيثما استقر على قرار، فإذا رجع القائد عن أمره فحسن، والمراجعة إذن خير لا ضرر فيه، وإذا مضى فى أمره فلا خلاف إذن فيما يجب: فالذى يجب إذن واحد، وهو أن يطاع.

كذلك راجع عمر النبى فى مسائل شتى، فأخذ النبى برأيه فى بعض هذه المسائل وخالفه فى بعضها، فلم تكن طاعته فيما خولف فيه أقل ولا أضعف مما ووفق عليه.

كذلك راجع الخليفة أبا بكر فى كبريات المسائل وصغارها، فكان أبو بكر يثوب[1] إلى رأيه كثيرًا، ويصر على ما بدا له إذا رأى الحسنى فى الإصرار، فيطيع عمر أمره بعد ذلك كأن لم يكن خلاف.

وإذا امتنعت المراجعة فليس الرجل عند ذلك بواهن عن احتمال التبعة، وتصريف الرأى، والاضطلاع بأعباء الموقف كيف كان.

اشتد المرض بالنبى عليه السلام فقال: ائتونى بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده.. قال عمر: إن النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا.

عندنا كتاب الله حسبنا.

عندنا القانون الأعلى.

أما القائد الأعلى فهو فى مرضه بحال لا تستحب معها المراجعة، وهو مع ذلك لم يصر على أمره ولم يعاود طلب الورق للكتاب، وإنما قال حين كثر اللغط بين الصحابة: قوموا عنى ولا ينبغى عندى التنازع. ثم عاش عليه السلام أيامًا ولم يذكر الكتاب.

---

(١) يثوب إلى رأيه: يرجع إليه ويأخذ به.

فالرجل يطيع إذا استقام الأمر واستقرت التبعة.

وكان يراجع إذا اتسع مجال المراجعة.

فإن لم يكن هذا ولا ذاك فهو ضليع بالتبعة التى يوجبها على نفسه، وقمين أن يذهب إليها ولا ينكل عنها.

وتلك سنة جرى عليها عمر عن علم وقصد، ولم يجر عليها عن بداهة وإلهام وكفى، وأشار إليها فى كلامه غير مرة، فقال فى خطبة من خطبه ما فحواه: «... كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فكنت عبده وخادمه وجلوازه[1]، وكان كما قال الله تعالى: «بالمؤمنين رءوف رحيم»، وكنت بين يديه كالسيف المسلول، إلا أن يغمدنى أو ينهانى عن أمر فأكف عنه، وإلا أقدمت على الناس لمكان أمره...».

فهو جلواز النبى وسيفه المسلول كما وصف نفسه.

وهو على أقوم مثال للجندى الفاضل العليم بموقع الطاعة، وموقع المراجعة، وموقع المشاورة، وهو مع التبعة حيث لا مهرب منها، وتلك هى الجندية فى صورتها المثلى.

وما نحسبه كان يراجع ويشاور إلا لغرض واحد، وهو الوصول إلى الأمر الذى يحمل التبعة فيه.

فإذا أعفى نفسه من التبعة بمراجعة رؤسائه، وأعفى نفسه من التبعة بمشاورة مرءوسيه، فقد عرف كيف ينبغى أن يطيع، وعرف كيف ينبغى أن يطاع، وعرف ما يتوق كل جندى أن يعرفه حين يؤمر وحين يأمر، وهو توضيح ما يطلب منه وما يطلب من غيره، وتقرير مكان التبعات حين تقسم التبعات.

ولقد كانت له مخالفات ليست من قبيل المراجعة ولا المشاورة التى تعمل فيها الروية عملها، أو تختلف مذاهب الآراء فيها.

كانت هذه أيضًا من مخالفات «الجندى» التى يندفع إليها كلما غلبته الحماسة وثارت به الحمية.

---

(١) الجلواز: الشرطى.

فلما كان يوم أحد جاء أبو سفيان ينادى على مسمع من المسلمين: أفيكم محمد؟ فقال رسول الله: لا تجيبوه!

فعاد ينادى مرتين: أفيكم محمد؟ فلم يجيبوه!

فسأل ثلاثًا: أفيكم ابن أبى قحافة[١]؟ فسكتوا.

ثم سأل: أفيكم ابن الخطاب؟ وكررها ثلاثًا.. فلما لم يسمع جوابًا قال لقومه: أما هؤلاء فقد كفيتموهم![٢].

كثير على عمر أن يحتوى صبره فى هذا الموقف أكثر مما احتواه. فما قالها أبو سفيان حتى صاح به من مكانه: «كفرت يا عدو الله. ها هو ذا رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأبو بكر وأنا أحياء! ولك منا يوم سوء!».

هذه مخالفة لا مراجعة فيها ولا مشاورة.

لكنها من مخالفات الجند، ولهم ولاشك مخالفات كما لهم طاعات.

* * *

نعم كانت له مخالفاتهم وطاعاتهم، وكانت له كذلك فكاهاتهم وأهواؤهم التى هى أخص بهم من سائر الفكاهات والأهواء.

فكانت تعجبه الفكاهة التى توحى إليه معنى مضحكًا فيه صراحة وخشونة، ومنها الفكاهة التى نسميها اليوم «بالنكات العملية».

فرغ رسول الله يومًا من بيعة الرجال وأخذ فى بيعة النساء، فاجتمع إليه نساء من قريش فيهن هندبنت عتبة متنقبة[٣] متنكرة، لما كان من صنيعها بحمزة[٤] رضى الله عنه، فهى تخاف أن يأخذها رسول الله بصنيعها. فلما دنون منه ليبايعنه قال عليه السلام: تبايعننى على ألا تشركن بالله شيئًا.

---

(١) هو أبو بكر الصديق رضى الله عنه.

(٢) حدث هذا بعد نهاية المعركة، وقد ظن أبو سفيان أنهم ماتوا فى الموقعة.

(٣) أى تلبس النقاب وهو الحجاب.

(٤) هند: زوج أبى سفيان، وهى التى مثلت بجثة حمزة بعد أن قتل فى أحد.

قالت هند: والله إنك لتأخذ علينا أمرًا ما تأخذه على الرجال، وسنؤتيكه.

قال: ولا تسرقن.

قال: والله إن كنت لأصيب من مال أبى سفيـان الهنة[١] والهنـة وما أدرى أكـان ذلك حلالاً لى أم لا.

قال أبو سفيان وكان شاهدًا: أمّا ما أصبت فيها مضى فأنت منه فى حل.

فقال رسول الله: وإنك لهند بنت عتبة!

قالت: أنا هند بنت عتبة فاعف عما سلف، عفا الله عنك.

فمضى رسول الله فى أخذ البيعة وعاد يقول: ولا تزنين!

قالت: يا رسول الله هل تزنى الحرة؟

قال: ولا تقتلن أولادكن!

قالت: قد ربيناهم صغارًا وقتلتهم يوم بدر كبارًا، فأنت وهم أعلم.

فضحك عمر بن الخطاب حتى استغرب[٢]، وكـان قليل الإغـراب فى الضحك، فـإن استغرب ضاحكًا بين حين وحين فإنما يضحكه مثل هذه الفكاهة.

وعلى هذا النحو فكاهته مع خادمه أسلم وابنه عاصم: دخل عليهما وهما يغنيان غناء يشبه الحداء فوقف يستمع ويستعيد. وشجعهما إصغاؤه واستعادته فسألاه: أينا أحسن صنعة؟ قال: مثلكما كمثل حمارى العبادى. سئل: أيهما شر؟ فقال: هذا ثم هذا!

ومن فكاهته القوية تلك المزحة المرعبة التى أطار بها لب الحطيئة ليكف عن هجاء الناس. فدعا بكرسى وجلس عليه ودعا بالحطيئة فأجلسه بين يديه، ودعا بإشفى[٣] - أى مثقب، وشفرة، يوهمه أنه سيقطع لسانه، فضج الحطيئة وتشفع الحاضرون فيه، ولم يطلقه حتى أخذ عليه عهدًا لا يهجون أحدًا بعدها، واشترى منه أعراض المسلمين بثلاثة آلاف

(١) الهنة: مؤنثة الهن وهى الشىء.

(٢) استغرب فى الضحك: بالغ فيه.

(٣) الإشفى: المثقب، والشفرة، السكين العظيمة.

درهم. فما هجا أحدًا بعدها وعمر بقية الحياة.

تلك أمثلة من فكاهته الخشنة التى تعهد فى طبيعة الجند، وهى فكاهة لا يطمع منه فى غيرها.

وشاءت الجاهلية أن تورطه فى بعض أهوائها فكان، هواه منها معاقرة الخمر يحببها ويكثر منها. وقد نرى أنه هوى قريب من مزاج الجند غير نادر فيهم، إذ الخمر توافق ما فيهم من سورة طبع، وتشغلهم عن الخطر أو تعينهم عليه، وتصاحبها فى كثير من الأحيان ضجة يألفونها.

وقد أحب ضجة الدفوف وهى فى سياق هذا الهوى، وظل يحبها بعد إسلامه وخلافته وإن كرهها فى غير الأعراس.. فسمع ضوضاء فى دار فسأل: ما هذا؟ قيل له: عرس! فقال: هلا حركوا غرابيلهم؟ أى الدفوف!

على أنه كان يحب الغناء جملة ويطيل الإصغاء إليه ما لم يشغله عن مهم من أمر دينه أو سياسته. فسمع صوت حاد، وهم منطلقون إلى مكة فى جوف الليل، فما زال يوضع راحلته[1] حتى دخل بين القوم يسمع إلى مطلع الفجر، ثم قال للقوم: إيه! قد طلع الفجر. اذكروا الله.

* * *

فطبيعة الجندى فى الفاروق تامة متكاملة بأصولها وفروعها، ويندر أن تتم طبيعة شاملة فى رجل واحد إلا أن يكون كعمر فى أصالة الطبع وصراحته وخلوصه واتساقه، فلا يخذل منه جزء جزءًا ولا تقبل منه وجهة حيث تدبر أخرى، وحينئذ لا عجب أن تتم له طبيعة واحدة بالغة ما بلغت من تعدد العناصر والألوان والشيات. كما أنه لا عجب أن يشبه الولد أباه، لأنه أصيل صريح النسب، بالغًا ما بلغ التعدد فى مشابه الأخلاق والجوارح والأعمال.

ولهذه الطبيعة أثرها فى أمور لا تمت إليها على ظاهرها. كأثرها فى تحريم رق العربى وفى إخلاء الجزيرة من غير العرب، فهى شنشنة الغيور على الحوزة، الموكل بحماية الذمار[2].

---

(١) يوضع راحلته: يحملها على السير السريع.

(٢) الذمار: ما يلزمك حمايته وحفظه والدفاع عنه، من الحرم والأهل والحوزة.

ولها أثرها فى سياسته مع الأمم حيث يأمر الجند بتصديق كلمة الشرف والبر بالوعد، ولو كان إشارة باليد أو نبأة من صوت. فقد أوجب على قادته وجنوده إذا نزلوا بلاد الأعاجم فبدرت منهم إشارة أو نبأة يحسبونها عهدًا أن ينجزوا هذا العهد ولا ينكصوا فيه، ولو أتيح لهم أن يتعللوا بجهل اللغة وغرابة العادات والمصطلحات.

وإنك على الجملة لا تعرض عملا من أعماق الفاروق العامة والخاصة على هذه الطبيعة إلا وجدت له قرارًا فيها ووجدت عليه صبغة منها.

فهى بلا ريب أقرب مفتاح لهذه الشخصية العظيمة، وبها تتميز خصائصه التى لا يشترك فيها أناس مطبوعون على غيرها وإن كانوا عظماء أقوياء.

وقد أسلفنا الإشارة إلى الإيمان القوى وقلنا إنه ضابط لأخلاقه وسوراته، وليس بمفتاح يكشفها ويفتح مغالقها، لأن الإيمان القوى نفسه يحتاج فى فهمه وتمييزه إلى المفتاح الذى يفرق بين ضروب الإيمان عند الأقوياء، وليست القوة كلها - كما لا يخفى - معدنًا واحدًا فى البواعث والمظاهر والآثار.

وهكذا كان إيمان عمر فى سلوك دنياه وسلوك دينه: كان إيمان الطبيعة الجندية فى حالتها المثلى.

ففى سلوك دنياه كان يعيش أبدًا عيشة المجاهد فى الميدان.. فآثر الشظف وقنع منها بأقل ما يكفيه ولا غنى عنه.

وفى سلوك دينه كان موقفه بين يدى الله أبدًا كموقف الجندى الذى يعلم أنه لا يلقى مولاه إلا ليؤدى الحساب على الكثير والقليل.. فإن تجئه المسامحة جاءت عفوًا لا ينسيه تحضير الحساب.

وكان معتمدًا على الغيب موصولا بالقدر يركن إليه كأنه يراه بعينيه. ومن دأب كل طبيعة تستحضر الموت أن تنظر إلى الغيب، وتستطلع طلعه[1] وتنتظر منه الحماية والهداية.

فاشتهر عن كثير من كبار القادة أنهم يؤمنون لهم بنجم سعد يلحظهم، أو بغاية أجل

---

(١) يقال فلان أطلعنى على الأمر، أو أطلعنى طلعه بكسر الطاء.

لا يعجلون عنها، أو بإلهام يهديهم إلى النجاة ويرون أماراته وعلاماته فى الرؤى والهواتف وكلمات الفأل والبشارة.

وكان عمر يتفاءل بالأسماء، وينظر فى الرؤى والمنامات، ويروى عنه فى روايات متواترة أنه أنبئ بموته فى منام، وأنه رأى كأن ديكا ينقره نقرتين، وفسروا له الديك برجل من العجم يطعنه طعنتين.

وروى محارب بن دثار عنه أنه سأل رجلا: من أنت؟ فقال: قاضى دمشق. قال: كيف تقضى؟ قال: أقضى بكتاب الله. فسأله: وإذا جاءك ما ليس فى كتاب الله؟ فأجابه: أقضى إذن بسنة رسول الله. فسأله ثانية: وإذا جاءك ما ليس فى سنة رسوله؟ قال: أجتهد برأيى وأؤامر جلسائى. فاستحسن قوله وأوصاه إذا جلس للحكم أن يدعو الله قائلا: «إنى أسألك أن أفتى بعلم، وأن أقضى بحلم، وأسألك العدل فى الغضب والرضا».

ثم رجع القاضى بعد فترة فسأله عمر: ما أرجعك! قال: رأيت الشمس والقمر يقتتلان، مع كل واحد منها جنود من الكواكب.

فسأله: مع أيهما كنت!

فقال: مع القمر!

فتأمل قليلا ثم ذكر قوله تعالى: «وجعلنا الليل والنهار آيتين فمحونا آية الليل وجعلنا آية النهار مبصرة» ثم قال: لا تلى لى عملا[1].

هذه رواية من روايات كثيرة عن المنامات ونظره فيها، ولا ندرى مبلغها من الصحة فى تفصيلاتها، ولكنها كلها تدل على الغرض الذى قصدنا إليه وهو استهداء الغيب من طريق الرؤى والعلامات، إلى جانب الإيمان القوى الذى لا يسهو عن عالم الغيب طرفة عين.

ومن الحق أن نضيف هنا أن الإيمان القوى ليس بمستغرب فى الطبيعة الجندية، بل ربما كانت طبيعة الجهاد أقرب شىء إلى طبيعة الإيمان.

---

(١) لا تلى: لا هنا نافية وليست ناهية، فالفعل بعدها مرفوع.

وأن نضيف هنا استدراكًا آخر، لعله أدعى إلى البحث من القول فى الجهاد والإيمان، وذلك أن العدل لا يناقض طبيعة الجند عامة، وأن طبيعة الجند لا تستلزم العدوان فى كل محارب، ولا سيما المحارب نضحًا[1] عن دين ووفقًا لشريعة.

فالعدل يفتقر إلى شجاعة وشرف، وهما خصلتان مطلوبتان فى الجندى المطبوع، فأما الشجاعة فى الرجل العادل فتحميه أن يحابى الأقوياء وهو جبن، وأما الشرف فيحميه أن يجور على الضعيف وهو خسة، ولا تناقض بين هذه الخصال.

إنما المحارب المعتدى هو الذى «يحارب لحسابه» كما يقولون، أو يحارب لنفسه مرضاة لطمعه وذهابًا مع نزواته، ومن هذا الطراز الإسكندر وتيمور ونابليون.

أمّا المحارب الذى تقيده إرادة غير إرادته، ويحكمه قانون غير هواه، فالحرب من مثله واجب يلام على تركه وليست بجريمة يلام على اقترافها.

وقد يرى هؤلاء أن أشرف الجهاد جهاد النفس والهوى قبل جهاد الخصوم والأقران كما رأى عمر بن الخطاب.

ومصداق ذلك ظاهر فى كل قائد تدعوه إلى الحرب إرادة إله أو إرادة أمة، أو إرادة ضمير له قانون، فطبيعة الجندى فى هؤلاء لا تناقض العدل إلا كما تناقضه طبيعة الفيلسوف أو طبيعة الفن أو طبيعة التصرف فى شئون المعاش، ولا تناقض بينه وبين واحدة منها، أو هى جميعًا فى هذه الخصلة سواء.

هؤلاء لا يحاربون إلا مكرهين، وإذا حاربوا لم يحاربوا لبغى ولا لتنكيل، ولو كانوا فى ميدان القتال. وسنتهم هى سنة عمر حين جذر المجاهدين أن يعتدوا لأن الله لا يحب المعتدين. ثم قال: «لا تجبنوا عند اللقاء، ولا تمثلوا عند القدرة، ولا تسرفوا عند الظهور[2]، ولا تقتلوا هرمًا ولا امرأة ولا وليدًا، ونزهوا الجهاد عن عرض الدنيا، وأبشروا بالإرباح[3] فى البيع الذى بايعتم به، وذلك هو الفوز العظيم.

---

(١) نضحًا: دفاعًا.

(٢) الظهور: النصر.

(٣) الإرباح: الحصول على الربح.

وذلك هو الجندى فى حالته المثلى.

وذلك هو المفتاح الصادق الذى لا نعلم مفتاحًا أصدق منه لخلائق هذا الجندى العادل الكريم.

إسلامه

يجوز أن نبحث عن سبب واحد للعمل الذى يعمله الرجل اليوم وينساه غدًا، أو يكرره كل يوم ولا يلتفت إلى عقباه، أو يلتفت إلى عقباه ولا يتوقع لها أثرًا يغير فى مجرى حياته. فسبب واحد لعمل من هذه الأعمال كاف ولا حاجة بعده إلى استقصاء.

لكن العمل الذى تتحول به حياة الإنسان تحولاً حاسمًا لن يرجع إلى سبب واحد، ولن نستغنى فى تفسيره عن عدة أسباب، بعضها حديث وبعضها قديم، ومنها الظاهر الطيع والخفى والمستعصى، وقد يجهل صاحبها بعض هذه الأسباب وينسى المهم منها ويتعلق بالهين القريب.

فالرجل الذى يغير موطنه أو معيشته أو زيه لا يفعل ذلك عفو الساعة ولا تلبية لاقتراح يوحى إليه فى مجلس فراغ. وقد يتوهم هو أنه سمع الاقتراح فلباه، وأنه لم يكن ليلبيه لولا ما سمع فى تلك اللحظة العارضة، فهاجر أهله وترك موطنه وغير صناعته من أجل كلمة... وإنك سائله ساعتئذ: «إنك قد هاجرت أهلك وتركت موطنك وغيرت معيشتك لأنك لبيت اقتراحًا، فهل تعلم لم لبيت الاقتراح؟» فإذا سألته ذلك السؤال رددته إلى نفسه، فعلم أن الأسباب الصحيحة وراء ذلك، وأنه لم يتحول لأنه سمع الاقتراح المزعوم. بل سمع الاقتراح ولباه، لأنه كان قبل ذلك مستعدًّا للتحول، ماضيًا فى طريقه. ولو سمعه مائة معه لم يكونوا مستعدين مثله لما عملوا به ولا التفتوا إليه.

وأين تغيير المعيشة والموطن والزى من تغيير العقيدة الدينية؟

إننا إذا استصغرنا السبب الواحد فى تفسير تلك التغييرات فهو لا مراء أصغر من ذلك جدًّا فى تفسير التحول الحاسم إلى دين جديد.

لأن الإنسان إذا غير معيشته فإنما يغير صناعة، وإذا غير موطنه فإنما يغير بلدًا، وإذا غير زيه فإنما يغير سمتاً[1] يقوم على كساء، ولكنه إذا غير عقيدته الدينية فقد غير كونه

(١) السمت: الهيئة.

واستبدل به كوناً آخر، وقد غير ماضيه وماضى أهله، وغير حاضره وحاضر أهله، وغير مصيره فى الدنيا ومصيره بعد الموت، وغير آراءه ومقاييسه فيما يأخذ وفيما يدع من أمور الحياة وعلاقات الناس؛ ومنها مآلف وأواصر ومحاب ومكاره متوشجات الأصول إلى ما وراء الآباء والأجداد.

فسبب واحد لا يغير هذا كله دفعة واحدة.

ولابد لتمام هذا التغيير من أسباب سابقة، وأسباب مهيئة، وأسباب موقوتة هى أظهر تلك الأسباب، وقد تكون أضعفها وأقلها تفسيراً لذلك الحدث العظيم فى العالم، وهل يتغير الإنسان هكذا إلا وقد أحاط بالعالم فى نظره حدث عظيم؟

ونحن قد أشرنا فيما تقدم إلى ندم عمر لشكاية المرأتين اللتين عارضهما فى الإسلام، وإلى ما كان لندمه من كسر حدته واستلال ضغنه، وترويض عناده، والتقريب بينه وبين الخشوع الدينى والهداية الإسلامية. فهل نقف عند هذا الندم وكفى؟ وهل انتهينا به إلى حيث يستقر الوقوف؟

إنه لسبب من أسباب:

ومما لا شك فيه أن عمر كان مقتربًا من الإسلام يوم رثى لأم عبد الله بنت حنتمة وتركها تنطلق إلى الهجرة وهو يدعو لها بالسلامة. وكانت هى على صواب حين طمعت فى إسلامه ورجالها يائسون منه. فقد سألها عامر بن ربيعة مستغربًا مستبعدًا: كأنك قد طمعت فى إسلام عمر؟ قالت: نعم، قال: إنه لا يُسلم حتى يُسلم حمار الخطاب!

ولكن الرجل أخطأ وصدقت المرأة، إذ ليس أسرعَ من المرأة أن تلمحَ جانب الرقة وجانب الغضب من قلب الرجل فى خطفة عين. أليست حياتها كلها من قديم الزمن منوطةً بذلك الغضب كيف تتلطف فى تحويله، وبتلك الرقة كيف تتلطف فى ابتعاثها من مكمنها؟ وهل تحجبها عنها القوة وهى ما نَفَذتْ إلى نفس الرجل قط إلا من وراء القوة؟

فعمر كان مقتربًا من الإسلام يوم رثَى للمرأة المهاجرة ودعا لها بصحبة الله، وكان على تمام الإسلام يوم رأى الدم على وجه أخته ورأى زوجها منطرحًا تحته لا يقوى على دفاع.

ولكنه كما قلنا سبب من أسباب، أو أنه هو السبب العارض الذى يومئ[1] إلى السبب العميق: سبب عارض هو الأسف لشكاية الضعيف، وسبب عميق هو الرحمة التى تجمُل بذى نخوة كريم. وليس الإنسانُ كله ندماً ورحمة وإن طال ندمه وطالت رحمته. فلنبس كل ما احتوى رحمته بمحتويه إلى زمن طويل.

وقد تعددت الروايات فى إسلام عمر واختلف بعض هذه الروايات فى اللفظ واتفق فى المغزى وجعل أناس ينظرون فيها كأنما الصحيح منها لا يكون إلا رواية واحدة وسائرها باطل لا يشتمل على حقيقة. فلم لا تكون صحاحًا كلها؟ ولم لا تكون أسبابًا متعددات فى أوقات مختلفات؟ فمن المستطاع المعقول أن نسقط منها قليلاً من الحشو هنا وهناك، ثم نخلص منها إلى جملة أسباب لا تعارض بينها فى الجوهر، وقد يعزز بعضها بعضاً فى نسق السيرة وفى لباب النتيجة.

روى عن عمر رضى الله عنه أنه قال: «كنت للإسلام مباعدًا، وكنت صاحب خمر فى الجاهلية أحبها وأشربها، وكان لنا مجلس يجتمع فيه رجال من قريش... فخرجت أريد جلسائى أولئك فلم أجد منهم أحدًا. فقلت: لو أننى جئت فلانًا الخمار!... وخرجت فجئته فلم أجده، قلت: لو أننى جئت الكعبة فطفت بها سبعًا أو سبعين، فجئت المسجد أريد أن أطوف بالكعبة فإذا رسول الله صلى الله عليه وسلم قائم يصلى، وكان إذا صلى استقبل الشام وجعل الكعبة بينه وبين الشام، واتخذ مكانه بين الركنين: الركن الأسود والركن اليمانى. فقلت حين رأيته: والله لو أنى استمعت لمحمد الليلة حتى أسمع ما يقول! وقام بنفسى أننى لو دنوت أسمع منه لأروعنه[2]. فجئت من قبل الحجر[3]. فدخلت تحت ثيابها ما بينى وبينه إلا ثياب الكعبة، فلما سمعت القرآن رق له قلبى فبكيت وأدخلنى الإسلام».

وروى ابن إسحاق فى سبب إسلامه كما نقلنا عنه فى كتابنا «عبقرية محمد»: «أن عمر خرج يومًا متوشحًا بسيفه يريد رسول الله صلى الله عليه وسلم ورهطاً من أصحابه... قد اجتمعوا فى بيت عند الصفا وهم قريب من أربعين بين رجال ونساء، ومع

---

(١) يومئ: يشير.

(٢) لأروعنه: لأفزعنه.

(٣) الحجر: بكسر الحاء حطيم مكة، مدار البيت من جهة الشمال.

رسـول الله صلى الله عليـه وسلم عمه حمـزة بن عبد المطلب، وأبو بكـر بن أبي قحافـة الصـديق، وعلى بن أبي طـالب فى رجال من المسلمـين رضى الله عنهم... فلقيـه نُعيم بن عبد الله فقال له: أين تريد يا عمر، فقال: أريد محمدًا هـذا الصابئ[1] الـذى فرق أمـر قريش وسفه أحلامها وعاب دينها وسب آلهتها فأقتله. فقال نعيم: والله لقد غرتك نفسك يا عمر، أترى بنى عبد مناف تاركيك تمشى على الأرض وقد قتلت محمدًا؟ أفلا ترجع إلى أهل بيتك فتقيم أمرهم؟ قال وأى أهـل بيتى؟ قال. خَتَنُـكَ[2] وابن عمك سعيـد بن زيد زيد بن عمر وأختك فاطمة بنت الخطاب، فقد والله أسلما وتابعا محمدًا على دينه. فعليك بهما.

قال... فرجع عمر عامدًا إلى أخته وخَتَنه، وعندهما خباب فى مخدع لهم أو فى بعض البيت. وأخذت فاطمة بنت الخطاب الصحيفة فجعلتها تحت فخذها، وقد سمع عمر حين دنا إلى البيت قراءة خباب عليهما. فلما دخل قال: ما هذه الهينمة[3] التى سمعت؟ قالا له.. ما سمعت شيئاً! قال: بلى والله. لقد أخبرت أنكما تابعتما محمدًا على دينه، وبطش بختنه سعيد بن زيد فقامت إليه أخته فاطمة لتكفه عن زوجها، فضربها فشجها. فلما فعل ذلك قالت له أخته: نعم. قد أسلمنا وآمنا بالله ورسوله، فاصنع ما بدا لك. فلما رأى عمر ما بأخته من الدم ندم على ما صنع فارعوى وقال لأخته: أعطينى هذه الصحيفة التى سمعتكم تقرءون آنفًا أنظر ما هذا الذى جاء به محمد... وقرأ سورة طه، فلما فعل ذلك قالت له أخته: نعم. قد أسلمنـا وآمنا بـالله ورسولـه، فاصنـع ما بـدا لك. فقال له: يا عمر، والله إنى لأرجو أن يكون الله قد خصك بدعوة نبيه، فإنى سمعته أمس وهو يقول: اللهم أيد الإسلام بأبى الحكم بن هشام أو بعمر بن الخطاب. فالله الله يا عمر! فقال له عند ذلك عمر: دلنى يا خباب على محمد حتى آتيه فأسلم. فقال له خباب: هو فى بيت عند الصفا معه فيه نفر من أصحابه. فأخذ عمر سيفه فتوشحه ثم عمد إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصحابه، فضرب عليهم الباب وقام رجل من أصحاب رسول الله فنظر من خلل[4] الباب فرآه متوشحًا بالسيف، فرجع إلى رسول الله

---

(١) الصابئ: الخارج من دين إلى دين.

(٢) ختنك: الختن: الصهر، زوج البنت أو الأخت.

(٣) الهينمة: الكلام الخفى غير الواضح.

(٤) الخلل: الفرجة بين الشيئين.

وهو فزع. فقال: يا رسول الله! هذا عمر بن الخطاب متوشحًا السيف. فقال حمزة بن عبد المطلب: نأذن له، فإن كان يريد خيرًا بذلناه له، وإن كان يريد شرًّا قتلناه بسيفه. فقال رسول الله ائذن له.. ونهض إليه حتى لقيه بالحجرة فأخذ بحجزته[1] أو بمجمع ردائه ثم جبذه جبذة[2] شديدة وقال: ما جاء بك يابن الخطاب؟ فوالله ما أرى أن تنتهى حتى ينزل الله بك قارعة[3] فقال عمر: يا رسول الله! جئتك لأومن بالله وبرسوله وبما جاء من عند الله!..؟

هاتان الروايتان هما أجمع الروايات للأسباب «المباشرة» التى قربت بين عمر والإسلام، وتتفرع منها روايات منوعة يزيد بعضها تارة أن عمر قد أوفد لقتل النبى من قبل قريش، ويزيد بعضها تارة أخرى آيات من القرآن الكريم قرأها عمر فى بيت أخته غير الآيات التى تقدمت الإشارة إليها فى سورة طه. وأشبهها بالتصديق أنه لما اطلع على الصحيفة قرأ فيها اسم «الرحمن الرحيم» فذعر وألقاها، ثم رجع إلى نفسه فتناولها وجعل كلما مر باسم من أسماء الله ذعر. فلما بلغ «... وما لكم لا تؤمنون بالله والرسولُ يدعوكم لتؤمنوا بربكم وقد أخذ ميثاقكم إن كنتم مؤمنين».. قال: أشهد أن لا إله إلا الله، وأن محمدًا رسول الله.

وهذه على اختلافها روايات متقاربة يبدو لنا أنها قصة واحدة شطرت شطرين وزيدت عليها الحواشي والأطراف، فاختلفت فى ألفاظها ومواعيدها واتفقت فى جوهرها ومدلولها، لأنها تمس نفس عمر من الناحية التى هى أشبه أن تهديه إلى طريق جديد.

وهى - كما أسلفنا - تجمع لنا الأسباب «المباشرة» التى اقترنت بإسلام عمر، ولا تغنينا عن الأسباب الأخرى التى هى أساس هذه الأسباب ومرجعها، ولأجلها كان خليقاً أن تأخذه بلاغة القرآن، وأن تميل به الرحمة إلى الإيمان.

فقد كان مهيأً للإسلام لا محالة، وكانت مجافاته للإسلام خليقة أن تنتهى بعد قليل، وألا تطول إلا ريثما تعن المناسبة للشهادة باللسان بعد التهيؤ بالفطرة والضمير.

---

(١) بحجزته: الحجزة موضع شد الإزار من الوسط.

(٢) جبذه: جذبه.

(٣) القارعة. الداهية.

فلم يكن بين عمر والإسلام فى بداية الأمر إلا باب واحد للعداء.

وكل ما عدا ذلك من الأبواب فقد كان مفتوحًا بينه وبين هذا الدين الجديد، ما هو إلا أن يراه بالعين حتى يندفع فيه.

كان باب العداء بينه وبين الإسلام أنه رجل قوى غيور عزيز فى قومه. فإذا رجل يخرج عليهم فيفرق – كما قال – أمر قريش ويسفه أحلامها ويعيب دينها ويسب آلهتها، فلا جرم أن يثور ويغضب وينقم، ولا عجب أن يذود عن ذماره ويرحض[1] المعابة عن شرف آبائه، ويرى أنه غير عاد ولا باغ، وأن البغى والعدوان إنما يجيئان من قبل ذلك الرجل الخارج على قومه، حتى يتبين له بالحق الذى يصدع به أن الذى هو فيه هو البغى والعدوان.

ذلك باب العداء الوحيد الذى كان بين عمر والإسلام، وهو باب لا يطول مدخله فى نفس طبعت على العدل والإنصاف.

فما من سبب يصل بين الجاهلى الشريف وهذا الدين الجديد إلا كان موصولا بنفس عمر أوثق صلة، وما علمنا من سبب للإسلام إلا كانت له عقدة فى نفس عمر وثيقة القرار.

فربما أسلم أناس لأنهم أخذوا ببلاغة القرآن، وأسلم أناس لأنهم كرهوا المنكر الذى كان يشيع فى الجاهلية، أو لأنهم ورثوا النزعة الدينية والخلائق المستقيمة، أو لأنهم جبلوا على روحانية تصل بينهم وبين عالم الغيب وحظيرة الأسرار، أو لأنهم قد عرضت لهم عارضة موقوتة حركت ما فيهم من كوامن تلك الأسباب.

وكل أولئك كان عمر على استعداد له عظيم.

وكل أولئك لم يكن عمر فيه بالوسط المكرر، بل كان فيه العلَم المترفع المضىء بين الأعلام.

كان عمر بليغًا حسن النقد للبلاغة، هواه منها الصدق والطبع وجمال التفصيل، فكان يطرب لقول زهير:

---

(١) رحض الثوب. غسله، ويرحض المعابة عن سرف آبائه: يزيلها.

فـــإن الحق مقـطعــه ثـلاث يمـين أو نفـار أو جـــلاء[1]

ويقول كلما أنشده معجبًا: ما أحسن ما قسم! وسماه شاعر الشعراء لأنه لا يعاظل[2] بين القوافى ولا يتبع حوشى الكلام.

وربما قضى الليلة ينشد شعره حتى يبرق الفجر فيقول لجليسه: «الآن اقرأ يا عبد الله».

وجاءه يومًا بعض آل هرم بن سنان ممدوح زهير فقال عمر: أما وإن زهيرًا كان يقول فيكم فيحسن، فقيل له: كذلك كنا نعطيه فنجزل. فعاد عمر يقول: ذهب ما أعطيتموه وبقى ما أعطاكم.

وجاءه وفد من غطفان فسألهم من الذى يقول:

حلفت فلم أترك لنفسك ريبة وليس وراء الله للمرء مذهب

قالوا: نابغة بنى ذبيان. فسألهم: ومن الذى يقول:

أتيتـك عـاريــا خلقًـا ثيـــابى على وجل تظن بى الظنون[3]
فـــألفيت الأمـــانـــة لم تخنهـــا كـذلك كـان نـوح لا يخـون

قالوا: هو النابغة. فقال: هو أشعر شعرائكم.

وطالما أعجب بقول عبدة بن الطيب:

والمـرء ساع لأمـر ليس يـدركـه والعيش شـح وإشفـاق وتـــأميـل

وينشده فيقول: على هذا بنيت الدنيا!..

وندر بين أئمة الدين من غاص فى أدب قومه غوصه، ووعى من أشعارهم وطُرَفهم مثل ما وعاه. قال الأصمعى: «ما قطع عمر أمرًا إلا تمثل فيه ببيت من الشعر». ونحن نرجع إلى الشعر الذى تمثل به فنراه فى أحسن موقع وأصدق شاهد، ونلمح من قليل

---

(١) يريد الشاعر أن مقاطع الحقوق ثلاثة، يمين أو حكومة أو بينة.

(٢) يعاظل: عاظل بالكلام عقده وصعبه واستخدم حوشيه وغريبه.

(٣) الثوب الخلق: البالى.

أخباره فى خلوته أن الأدب كان جانبًا من جوانبه التى ترق فيه حاشيته، ويأنس فيه إلى قلبه، ويرجع فيه إلى فطرته. جاء عبد الرحمن بن عوف إلى بابه فوجده مستلقيًا على مزحفة له وإحدى رجليه على الأخرى وهو ينشد بصوت عال:

وكيف ثوائى[1] بالمدينة بعدما قضى وطرًا منها جميل بن معمر

فلما دخل عبد الرحمن وجلس قال له: يا أبا محمد: إنا إذا خلونا قلنا كما يقول الناس.

ولم يقصر إعجابه بالشعراء على الذين وافقوا المواعظ والسنن الدينية، بل نظر فى فنهم وفاضل بينهم فى بلاغتهم، ففضل امرأ القيس لأنه «سابقهم، خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر»[2].

ونوادره مع الشعراء والرواة كثيرة تدل على شغفه بالبلاغة الصادقة وحفظه لأجمل ما يحفظ بين أهل عصره، كما تدل على ذلك خطبه ورسائله وشواهده وأمثاله.

وقد يصح أنه نظم الشعر أو لا يصح. فقد نسبت إليه أبيات، وأنكر هو أنه شاعر حيث يقول: لو نظمت الشعر لقلته فى رثاء أخى. ولكن الصحيح أنه كان يحب الشعر البليغ ويرويه ويوصى بروايته، وأنه نشأ فى قوم يحبون مثل ما أحب ويعجبون بمثل ما أعجبه، ومنهم أبوه الذى نظم الشعر فى أكثر من مناسبة ورُوِىَ عنه أنه قال لما توعده أبو عمرو بن أمية:

أيوعدنى أبو عمرو ودونى رجال لا ينهنهها الوعيد[3]

....

ربيع المعدمين وكل جار إذا نزلت بهم سنة كئود[4]

هم الرأس المقدم من قريش وعند بيوتهم تلقى الوفودُ

---

(١) ثوائى: إقامتى.

(٢) خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر: استنبط عين شعر وَشق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان. راجع «باب ثقافته».

(٣) لا ينهنها الوعيد: أى لا يهابون التهديد.

(٤) سنة كئود: شديدة مظلمة.

فكيف أخاف أو أخشى عدوا ونصـــرهم إذا أدعـــوا عتيـــدُ
فلست بعـــادل عنهم ســـواهم طوال الدهر ما اختلف الجديد[1]

إلى آخر ما نسب إليه.

فأقرب شيء إلى الواقع - وإلى المتوقع - أن يأخذ ببلاغة القرآن رجل نشأ هذه النشأة وأحب الكلام البليغ هذا الحب، وأن يخشع لآياته ويعجب لتفصيله، فيفتح من قلبه مسالك الإصغاء.

وكان عمر مستقيم الطبع مفطورًا على الإنصاف، فلم يكن رجل مثله ليستريح إلى فساد الجاهلية أو يخفى عليه فسادها إذا نبه إليه وهوى إلى ما هو خير منه.

وكانت النزعة الدينية وراثة فى أسرته على ما يظهر من مبادرة أخته فاطمة وابن عمه سعيد بن زيد إلى الإسلام، وكان له قبل الإسلام رجل من عمومته يقدح فى الوثنية ويبحث عن الحق فى النصرانية واليهودية، ويبتلى أهله بالخلاف ويبتلونه بالإيذاء والحبس والإرهاق، ونعنى به زيد بن عمرو بن نفيل.

وعمر نفسه.. ألم يقل لنا إنه يئس ليلة من السمر ومن الخمر فذهب يطوف بالبيت كأن طواف البيت شهوة من شهوات قلبه تنوب عنه مناب المحبوب من الشهوات؟ ألم يكن فى الجاهلية ينذر أن يعتكف ليلة من كل أسبوع؟ بل لعل صلابة الخطاب أبيه لم تكن فى صميمها شيئًا مناقضًا لعنصر الدين والإيمان. فإن هؤلاء الصلاب الشداد فى المحافظة على العرف هم أولئك المؤمنون المتزمتون[2] الذين لا يطيقون المساس بعقائدهم إذا آمنوا بدين.

وزاد عمر على الوراثة الدينية أنه كان صاحب فراسة وزكانة[3] وكان يستطلع الرؤى والمنامات، ويتصل بالغيب، ويبصر على البعد... كما سلف فى حديث سارية حين ناداه: يا سارية الجبل! يا سارية الجبل. وبينهما مسيرة أيام.

---

(١) الجديدان: الليل والنهار، يعنى أنه لا يعدل بهم قوماً آخرين مهما تعاقب الزمان.
(٢) المتزمت: الوقور المتشدد فى دينه.
(٣) الزكانة: الفطنة والفراسة.

وكانت العوارض تمر به فتعطفه إلى الإسلام تارة من طريق الرحمة وتارة من طريق العدل والنخوة، فيخشع ويندم ويراجع عناده وكبرياءه. إذ ليس أبغض إلى الرجل الأبى المنصف من أن يحارب أناسًا لا يحاربونه، ويلج فى إيذاء قوم لا يقدرون على أذاه.

فإذا تفتحت هذه الأبواب جميعًا بين عمر والإسلام فباب واحد موصد لن يحجبه طويلاً عن هذا الدين، ولن يحجب هذا الدين طويلاً عنه.

وقد تفتحت فى يوم من الأيام.

تفتحت كلها فدخلها دخول العاصفة من جميع الأبواب، وأسلم الجاهلى الشريف كما كان ينبغى أن يسلم، وكما كان يقينًا سيسلم فى مناسبة من المناسبات.

فإذا العالم الإنسانى قد تفتحت فيه صفحة جديدة.

صفحة يقرأ فيها القارئ قبل كل شيء ماذا يصنع الإسلام بالنفوس، ويعلم منها قبل كل علم أن هذا الدين كان قدرة بانيةً منشئة من لدن المقادير التى تسيطر على هذا الوجود: كان قدرة تلابس الضعيف فيقوى، وتلابس القوى فتنمى قوته وتجرى به فى وجهته، وكأن يداً خالقة حاذقة تأخذ الحجارة المبعثرة فى التيه فإذا هى صرح له أساس وأركان، وفيه مأوى للضمائر والأذهان.

جاهلى كسبه الإسلام فكسبه العالم الإنسانى كله إلى آخر الزمان.. ونفس ضائعة ردت إلى صاحبها فعرف منها ما كان ينكر، واطلع منها على ما كان يجهل، ونفع بها أمته وأممًا لا تحصى، وصنع بها الإسلام أعظم وأفخم ما تصنعه قدرة بناء وإنشاء، حيثما كانت قدرة بناء وإنشاء.

ونظرت الأمم فرأت كيف تعلو النفس الإنسانية حتى يحار فيها الإنسان وهو ريشة فى مهب النوازع والأشجان[1].

رأت كيف يصبح العدل والحق طبيعة حياة، وكيف يصبح مخلوق من اللحم والدم وكأنه لا يأكل طعامه ولا يروى ظمأه إلا ليعدل ويعرف الحق، وكأنه لا يتنفس الهواء إلا ليمتنع الظلم عن الناس وتدول دولة الباطل بين الناس، وكأنما العدل والحق دين عليه

(١) الأشجان «جمع شجن» والشجن: الهم والحزن والحاجة الشاغلة.

يطالبه به ألف غريم، وهو وحده أقوى فى المطالبة بها من ألف غريم.

لقد كان هذا الرجل المجيد يبغض أن يظلم غيره أشد من بغضه أن يظلمه غيره. وهذه منزلة فى الأنفة لا تطاولها المنازل، لأنها منزلة الأبطال الذين يسمون على أنفسهم، ولهم أنفس أسمى من عامة الأبطال.

وإننا لنعلم كم حز فى قلبه الكريم أن يضرب بريئًا على دين الحق كلما رجعنا إلى أيامه الأولى بعد الإسلام، وهى أيام لا تنسى فى تاريخ البطولة والأبطال.

فما شغله أمر بعد إعلان الدين إلا أن يخرج ليضربه أناس كما كان يضرب أناساً فى سبيل ذلك الدين.

ثار إلى الناس يضربونه ويضربهم، فقام خاله يسأل: «ما هذه الجماعة؟ قيل له إن ابن الخطاب قد صبأ... فقام على الحِجْر فنادى: ألا إننى قد أجرت[1] ابن أختى: فانكشف الناس عنه، فكان لا زال يرى مسلماً يضرب ولا يضربه أحد، وثقل عليه ألا يصيبه ما يصيب المسلمين، فذهب إلى خاله وقد اجتمع الناس فى الحجر وناداه: اسمع!... جوارك مردود عليك[2]. قال خاله وهو به وبما يستهدف له أدرى: لا تفعل يا بن أختى. فأصر على رد جواره، وطاب له بعد ذلك أنه اقتص من نفسه للأبرياء الذين ضربهم وهو يجهل دينهم، فلا تمضى تلك الضربات بغير قصاص، وإن كفر عنها بالتوبة وإعزاز الدين الذى آذاهم من أجله.

وأبى من اللحظة الأولى إلا أن يواجه الخطر الأكبر فى سبيل دينه، وإلا أن يقبض على الثور من قرنيه، كما يقول الغربيون فى أمثالهم، وأن يتحدى قريشًا بحقه مذ آمن بأنهم على باطل. فسأل أناسًا: أى أهل مكة أنقل للحديث؟ قيل له جميل بن معمر الجمحى... فذهب إليه فصرح له بإسلامه!... ولم يكذب الرجل الظن به، فما هو إلا أن سمعها حتى خرج وعمر وراءه إلى أندية قريش حول الكعبة يصرخ بأعلى صوته على باب المسجد: يا معشر قريش! ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ.. وعمر يقول من خلفه: كذب! ولكنى أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، ثم تنشب

---

(١) أجاره: أى أدخله فى حماه ورعايته وجواره.

(٢) أى: أعفنى من حمايتك.

المعركة بين هذا الرجل المنفرد وبينهم، فيثب على أدناهم منه وأجرئهم عليه - عتبة بن ربيعة - فيصرعه ويبرك عليه يضربه ويدخل أصبعيه فى عينيه لأنهما عمياوان عن الحق لا تبصران النور! ويتكاثرون عليه فلا يدنو منهم أحد «إلا أخذ شريف من دنا منه» حتى أحجموا عنه وركدت الشمس، وفتر من طول الصراع، فجلس وهم قائمون على رأسه يثلبونه[١] وهو يقول لهم: «افعلوا ما بدا لكم. فوالله لو كنا ثلثمائة رجل لتركتموها لنا أو تركناها لكم». افعلوا ما بدا لكم! وهذا ما أراد.. فما يستريح وجدانه الحى أن يضرب مسلمًا لإسلامه ولم يضرب كافرًا لكفره، وما يشعر أنه وفى لله دينه وقد ضرب ولم يُضرب وآذى أناسًا ولم يؤذه أحد، وما تهدأ حاسة العدل فيه - وقد كانت كأنها من حواس بدنه - ألا أن يحس القصاص فى نفسه كما أحس المضروبون بالأمس عدوانه فى أنفسهم.

وراح يسأل النبى: يا رسول الله! ألسنا على الحق إن متنا أو حيينا؟ فقال عليه السلام: بلى! والذى نفسى بيده إنكم على الحق إن متم وإن حييتم. قال: ففيم الاختفاء؟ والذى بعثك بالحق لتخرجن!

فما لبث النبى أن خرج فى صفين: أحدهما فيه عمر، والآخر فيه حمزة، ولهما كديد[٢] كأنه كديد الطحين، فدخلوا المسجد وقريش تنظر وتعلوها كآبة فلا يجرؤ سليط[٣] منها ولا حكيم أن يقترب من صفين فيهما هذان.... وسماه النبى يومئذ الفاروق.

قال على بن أبى طالب رضى الله عنه: «ما علمت أن أحدًا من المهاجرين هاجر إلا مختفيًا إلا عمر بن الخطاب، فإنه لما هم بالهجرة تقلد سيفه، وتنكب قوسه، وانتضى فى يده أسهمًا، واختصر عنزته[٤] ومضى قبل الكعبة والملأ من قريش بفنائها، فطاف فى البيت سبعًا متمكنًا، ثم أتى المقام فصلى، ثم وقف على الحلق[٥] واحدة واحدة يقول لهم:

(١) يثلبونه: يشتمونه ويعيبونه.

(٢) كديد: التراب الناعم.

(٣) السليط: البذىء اللسان.

(٤) العنزة: عصا لها زج كالرمح الصغير، واختصرها، اعتمد عليها فى مشيه.

(٥) الحلق «جمع حلقة» والحلقة: القوم يجتمعون مستديرين.

شاهت[1] الوجـوه! لا يرغم الله إلا هـذه المعاطس[2]! من أراد أن يثكـل أمه أو يـوتم ولده أو يرمل زوجته[3] فليلقنى وراء هذا الوادى...».

لقد كان فى تحديه هذا لقريش عدتان: شجاعته وعدله... فما كانت شجاعته فى هذا التحدى بأظهر من عدله، ولا كان عدله فيه بأظهر من شجاعته. إذ الشجاع الحق مطبوع على الأنفة من الظلم، لأنه شديد الإحساس بذله، ومن كان شديد الإحساس بذل الظلم فهو شديد الإحساس بعزة العدل من طريق واحد. وقلما أغضب العادل الشجاع شىء كاستطالة الظالم وظنه أن المظلوم لا يستطيل عليه، فذلك هو التحدى الذى يثير الشجاعة ويثير النقمة على الظلم أو يثير حب العدل فى وقت واحد، وإن الموت لأهون من الصبر على هذا التحدى المرذول وهذا الصلف القبيح. وما الشجاعة إن لم تكن هى الجرأة على الموت كلما وجب الاجتراء عليه؟ وأى امرئ أولى بالجرأة من الشجاع الذى يعلم أن الحق بين يديه؟ ألسنا على الحق إن حيينا وإن متنا؟ فعلى الحق إذن فلنمت ولا نعيشَنَّ على الباطل. فالباطل كريه والجبن كريه. وذانك ملتقى العدل والشجاعة فى قلب العادل الشجاع.

* * *

ونهج عمر طريقه فى الإسلام كما نهج طريقه إلى الإسلام: كلاهما طريق «عمرى» هو أشبه به، وهو أقدر عليه... وكلاهما طريق صراحة وقوة، لا يطيق اللف والتنطع، ولا يحفل بغير الجد الذى لا عبث فيه.. فلا وهن ولا رياء، ولا حذلقة ولا ادعاء. وما شئت بعد ذلك من إسلام صريح قويم فهو إسلام عمر بن الخطاب.

قال فى بعض عظاته: «لا تنظروا إلى صيام أحد ولا صلاته، ولكن انظروا من إذا حدث صدق، وإذا ائتمن أدى، وإذا أشفى - أى هم بالمعصية - ورع».

وقال فى هذا المعنى: «لا يعجبنكم من الرجل طنطنته، ولكن... من أدى الأمانة إلى من ائتمنه، وسلم الناس من يده ولسانه».

---

(١) ساهت الوجوه: قبحت.

(٢) المعاطس «جمع المعطس» والمعطس: الأنف.

(٣) أى يجعل أمه ثكلى، أو ولده يتيمًا، أو زوجته أرملة: يعنى «أن أقتله».

وقال فى عمل الدنيا والآخرة: «ليس خيركم من عمل للآخرة وترك الدنيا، أو عمل للدنيا وترك الآخرة، ولكن خيركم من أخذ من هذه ومن هذه. وإنما الحرج فى الرغبة فيها تجاوز قدر الحاجة وزاد على حد الكفاية...».

ولم يكن أبغض إليه ممن يتوانى ليقال إنه متوكل على الله، أو يتراءى بالضعف ليقال إنه ناسك، أو يفرط[1] فى العبادة ليقال إنه زاهد فى الدنيا.

فكان يقول: «إن المتوكل الذى يلقى حبة فى الأرض ويتوكل على الله»... و «لا يقعد أحدكم عن طلب الرزق ويقول: اللهم ارزقنى وقد علمتم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة، وأن الله تعالى يرزق الناس بعضهم من بعض».

وكان يضرب من يتماوت ويستكين ليظهر التخشع فى الدين، فنظر إلى رجل مظهر للنسك متماوت فخفقه بالدرة وقال: «لا تُمِتْ علينا ديننا أماتك الله»؛ وأشاروا له إلى رجل يصوم الدهر فضربه وهو يقول له: كل يا دهر! كل يا دهر!.. ينهاه عن الصوم الذى يعوقه عن معاشه ولا يوجبه عليه الدين.

وكان كلما رأى شابًّا منكسا رأسه صاح به: «ارفع رأسك فإن الخشوع لا يزيد على ما فى القلب، فمن أظهر للناس خشوعًا فوق ما فى قلبه، فإنما أظهر للناس نفاقًا إلى نفاق».

وإنما كان يعجبه «الشاب الناسك نظيف الثوب طيب الرائحة»، ويرى المسلمين بخير ما علموا أبناءهم الرمى والعوم والفروسية «فأنتم بخير» كما قال «ما نزوتهم[2] على ظهور الخيل».

دين الرجل القوى الشجاع الذى ينتصر بدينه فى ميدان الحياة، وليس بدين الواهن المهزوم الذى تركته الدنيا فأوهم نفسه أنه هو تاركها ليقبل على الآخرة.

وكانت شجاعته فى دينه أندر الشجاعات فى النفوس الآدمية.. لأنها الشجاعة التى يواجه بها تهمة الجبن وهو أرذل من الموت عند الرجل الشجاع فإن كثيرًا من الناس

---

(١) أفرط إفراطا: أسرف وتجاوز الحد، بعكس التفريط.

(٢) النزو: الوثوب.

ليعدلون عن الصواب الذى يظهرهم بمظهر الخوف ليقال إنهم شجعان، وإنهم فى عدولهم عنه لمن الجبناء المستعبدين للثناء، ولم يكن عمر يعدل عن صواب فَهِمَه ولو قيل فى شجاعته ما قيل، وتلك أشجع الشجاعات.

فشا طاعون عمواس وعمر فى طريقه إلى الشام، فلقيه أبو عبيدة وأصحابه عند تبوك وأخبروه خبر الطاعون، فاستشار المهاجرين والأنصار فاختلفوا بين ناصح بالمضى وناصح بالقفول: ناصح بالمضى فى طريقه يقول إنه خرج لأمر ولا يرى له أن يرجع عنه، وناصح بالقفول يقول إنه اصطحب «بقية الناس وأصحاب رسول الله ولا يرى أن يقدمهم على وباء»... ثم دعا مشيخة قريش من مهاجرة الفتح فلم يختلف عليه رجلان وأشاروا جميعًا بالرجوع. فقال أبو عبيدة: أفرارًا من قدر الله؟ قال عمر: نعم نفر من قدر الله إلى قدر الله، أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عدوتان[1] إحداهما خصبة والأخرى جدبة، أليس إن رعيت الخصبة رعيتها بقدر الله، وإن رعيت الجدبة رعيتها بقدر الله؟.. وما رام[2] مكانه حتى جاءه عبد الراحمن بن عوف فحسم الخلاف برأى النبى فى الخروج من أرض الطاعون والقدوم إليها حيث قال عليه السلام: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا منها».

فكان إيمانه بصيرًا لا يهجم به على عمياء، ولا يستسلم فيه استسلام العجزة وهو قادر على الحيطة والأخذ بالأسباب، وكانت نصيحته العامة للمسلمين فى أمر الطاعون كرأيه الخاص فى أمر نفسه وصحبه، فأمرهم بالاستنقاذ ما وجدوا له سبيلا، وكتب إلى أبى عبيدة: «إنك قد أنزلت الناس أرضًا غمقة – أى وخيمة – فارفعهم إلى أرض مرتفعة نزهة[3]» وهو أحوط ما يحتاط به أمير عالم فى هذه الأيام.

* * *

كذلك لم يكن يؤمن بشىء ينفع أو يضر غير ما عرفت اسباب نفعه وضرره، فكان ينظر إلى الحجر الأسود فيقول كلما استلمه[4]: «إنى لأعلم أنك حجر لا تضر ولا تنفع،

---

(١) العدوه: المكان المرتفع.

(٢) رام: برح وترك.

(٣) نزهة: مرتفعة.

(٤) استلم الحجر الأسود أى لمسه إما بالتقبيل أو باليد.

ولولا أنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك ما قبلتك».

وسمع أن الناس يأتون الشجرة التى بايع رسول الله تحتها بيعة الرضوان فيصلون عندها ويتبركون بها، فأوعدهم[1] وأمر بها أن تقطع، مخافة أن تسرى إلى الإسلام من هذه المناسك وأشباهها لوثة[2] من الوثنية والتوكل على الجهاد.

* * *

وربما التبس الأمر من نوادر عمر فى التقشف واجتناب المتع والمناعم فحسبت فرائض يوجبها ويجرى فيها على طريقة أولئك النساك المتخشعين الذين كان ينهاهم أن يميتوا الدين ويهزأ بهم كلما تنطعوا فيه وأوجبوا ما لا يجب على المؤمنين.

فلا يلتبس الأمر هذا الملتبس، فهو واضح بين التفرقة من سيرته ومن الأحاديث التى صحبت تلك النوادر، ففسرتها ودلت على الغرض منها.

فعمر كان مسلمًا وكان خليفة للمسلمين. وفرق بين محاسبة المسلم نفسه وهو مسئول عنها دون غيرها، وبين محاسبة الخليفة نفسه حتى يقع الشك فى عمله وينزه يده وأيدى أهله عما ليس لهم بحق من سلطان الحكم أو بيت المال، ثم يفى لذكرى صاحبه الذى خلفه على المسلمين، فلا يعيش فى مكانه خيرًا من عيشته، ولا يمنح نفسه وذويه ما لم يمنحه النبى لآله وذويه.

وعمر الذى كان يقنع بالخشن الغليظ من المأكل والملبس، ويأبى أن يذوق فى المجاعة مطعمًا لا يسع جميع المسلمين إنما هو الخليفة الذى يحاسب نفسه قبل أن تحاسبه الرعية، وقد وجد منهم من لامه لأنه طرح كساءه وفيه فضل ملبس. فاتقاء هذا الحساب وما وراءه من حساب الله هو الذى توخاه خليفة النبى فى معيشته ومعيشة أهله، مما يشبه تقشف النساك.

وعلى هذا كله كان أعلم الناس أن الطيبات حلال، وأن النهى عن الحلال تنطع فى الدين يأباه الإسلام.

---

(١) أوعد: تستخدم فى الشر، أما وعد فتكون فى الخير.

(٢) اللوثة: الحماقة.

كتب إليه أبو عبيدة أنه لا يريد الإقامة بأنطاكية لطيب هوائها ووفرة خيراتها مخافة أن يخلد الجند إلى الراحة فلا ينتفع بهم بعدها فى قتال، فأنكر عليه ذلك وأجابه: «إن الله عز وجل لم يحرم الطيبات على المتقين الذين يعملون الصالحات، فقال تعالى فى كتابه العزيز: «يا أيها الرسل كلوا من الطيبات واعملوا صالحاً إنى بما تعملون عليم»، وكان يجب عليك أن تريح المسلمين من تعبهم وتدعهم يرغدون فى مطعمهم ويريحون الأبدان النَّصِبة[1] فى قتال من كفر بالله».

وحدث حذيفة بن اليمان أنه أقبل على الناس وبين أيديهم القصاع، فدعاه عمر إلى الطعام وعنده خبز غليظ وزيت! فقال حذيفة: أمنعتنى أن آكل الخبز واللحم ودعوتنى على هذا؟ قال: إنما دعوتك على طعامى، فأما ذاك فطعام المسلمين.

فللمسلمين حل ما شاءوا من الطعام، أما الرجل الذى ينفق من بيت المال فله ما يكفيه. والحرج كل الحرج عليه – وهو فى عدل عمر وحزمه وجلده – أن يأخذ منه ما لا حاجة به إليه، وإنه ليزداد حرجًا على ما فيه من قناعة أن يكون من أصحاب رسول الله ويعلم كيف كان رسول الله يأكل فى بيته، وماذا كان يجد من الملبس له ولأهله، ثم يصيب من هذا أو ذاك خيرًا مما أصاب الرسول.

وللولاة عنده مثل ما للمسلمين عامة من حق المتعة السائغة والنعمة التى ترضاها الرجولة، لا يأخذهم بمحاكاته لأنهم يتولون الأمر كما تولاه، بل ربما لامهم على التقتير كما كان يلومهم على الإسراف.

أنكر على عامله فى اليمن حللا مشهرة ودهونًا معطرة فعاد إليه العامَ الذى يليه أشعث مغبرًا عليه أطلاس[2]، فقال: لا. ولا كل هذا... إن عاملنا ليس بالشعث ولا العافى[3]. كلوا واشربوا وادهنوا، إنكم ستعلمون الذى أكره من أمركم.

* * *

ومن تمام العلم بإسلام عمر أن نعلم فضل إسلامه مع من لم يكن من أهل الإسلام.

(١) النصبة: التى أصابها النصب، وهو التعب.

(٢) أطلاس: جمع طلس وهو الثوب الوسخ.

(٣) العافى: طالب المعروف، والشعث: الوسخ الجسد أو المتلبد شعر رأسه.

فإن الحق الذى يتبعه الرجل مع أهل دينه وحدهم لحق محدود يدخل فى باب السياسة القومية أكثر من دخوله فى باب الفضيلة الإنسانية. وإنما يصبح حقًّا جديرًا باسم الحق حين يتبعه الرجل مع أهل دينه ومع الخارجين عليه.

وعمر كان ولا ريب أشد المسلمين فى إسلامه.

فلو كان الإسلام ظالمًا بطبيعته لمن لم يدخلوا فيه لكان عمر أشد المسلمين ظلمًا لهم وقسوة عليهم. لكنه كان فى الواقع أشد المسلمين رعاية لعهدهم منذ كان أشد المسلمين غيرة على دينه وعملا بأدبه.

فكان شأنه مع من حاربوه شأن المحارب الشريف، ولن ينتظر محارب من محارب إلى آخر الزمان معاملة أقوم ولا أصدق من معاملة عمر لمحاربيه.

وكان شأنه مع من صالحوه وعاهدوه أن يفى بعهدهم ويخلص فى الوفاء به بإخلاص من يطالب نفسه به قبل أن يطالبوه، ومن يراقب نفسه فيه قبل أن يراقبوه.

كتب للنصارى فى بيت المقدس أماناً على أنفسهم وأولادهم ونسائهم وأموالهم وجميع كنائسهم لا تهدم ولا تسكن، وحان وقت الصلاة وهو جالس فى صحن كنيسة القيامة فخرج وصلى خارج الكنيسة على الدرجة التى على بابها بمفرده، وقال للبطرك: لو صليت داخل الكنيسة لأخذها المسلمون من بعدى وقالوا: هنا صلى عمر! ثم كتب كتاباً يوصى به المسلمين ألا يصلى أحد منهم على الدرجة إلا واحدًا واحدًا غير مجتمعين للصلاة فيها ولا مؤذنين عليها.

أما عهده لهم فقد كان مثالا من السماحة والمروءة لا يطمع فيه طامع من أهل حضارة من حضارات التاريخ كائنة ما كانت.

فكتب لهم العهد الذى قال فيه: «...هذا ما أعطى عبد الله عمر أمير المؤمنين أهل إيلياء من الأمان. أعطاهم أمانًا لأنفسهم وأموالهم وكنائسهم وصلبانهم وسقيمها وبريئها وسائر ملتها: أنه لاتسكن كنائسهم ولا تهدم ولا ينتقض منها ولا من خيرها ولا من صليبهم ولا من شىء من أموالهم، ولا يكرهون على دينهم ولا يضار أحد منهم، ولا يسكن بإيلياء معهم أحد من اليهود. وعلى أهل إيلياء أن يعطوا الجزية كما يعطى أهل

المدائن، وأن يخرجوا منها الروم واللصوت[1]، فمن خرج منهم فإنه آمن على نفسه وماله حتى يبلغوا مأمنهم، ومن أقام منهم فهو آمن وعليه مثل ما على أهل إيلياء من الجزية... ومن أحب من أهل إيلياء أن يسير بنفسه وماله مع الروم ويخلّي ببِيَعهم وصُلُبِهم[2] فإنهم آمنون على أنفسهم وعلى بيعهم وصلبهم حتى يبلغوا مأمنهم...».

وليس لذى عهد من ظافر أن يطمع فى أمان أكرم من هذا الأمان.

وإنه لقد كان يعطيهم عليه وعلى قومه هذه العهود ثم لا يقنع بها حتى يشفعها بالوصاة للولاة أن يمنعوا المسلمين من ظلم أهل الذمة، وأن يوفى لهم بعهدهم وينضح[3] عنهم، ولا يكلفوا فوق طاقتهم: كتب بذلك إلى أبي عبيدة كما كتب إلى غيره من الولاة وأوصى به فى وصيته قبل أن يموت.

وما شكا إليه مظلوم من أهل الذمة واليًا كبر أو صغر إلا أنصفه منه: بعث زياد بن حدير الأسدى على عشور[4] العراق والشام. فمر عليه تغلبى نصرانى معه فرس قوموها بعشرين ألفا، فخيره أن ينزل على الفرس ويأخذ تسعة عشر ألفا أو يمسكها ويعطى الألف ضريبة، فأعطاه التغلبى ألفا وأمسك فرسه. ثم مر عليه راجعًا فى سنته فطالبه بضريبة أخرى، فأبى وشكاه إلى عمر وقص عليه قصته، فما زاد على أن قال: كفيت! ثم رجع التغلبى إلى زياد وقد وطن نفسه على أن يعطيه ألفا أخرى، فوجد عمر قد كتب إليه: من مر عليك فأخذت منه صدقة فلا تأخذ منه شيئا إلى مثل ذلك اليوم من قابل[5].

وسمع أن بنى تغلب لا يزالون ينازعون واليهم الوليد بن عقبة وينازعهم، وأنهم أوغروا صدره فقال فيهم يتوعدهم:

---

(١) اللصوت: اللصوص، مفردها لصت.

(٢) البيع: جمع بيعة وهى معبد النصارى، والصلب، جمع صليب.

(٣) ينضح عنهم: يدافع عنهم.

(٤) العشور: ضرب من الزكاة.

(٥) من قابل: أى بعد عام.

إذا ماعصبتُ الرأس منى بمشوذ[١]
فغيك منى تغلب ابنة وائل

فخشى أن يضيق بهم صبره فيسطو عليهم، فعزله، وأمّر غيره.

ولعل حاكمًا من الحكام لا يرام منه أن يبلغ فى البر بمخالفيه فى الدين مبلغًا أكرم وأرفق من إجراء الصدقة على فقرائهم، ولا سيما الحاكم الذى يدعو إلى دين جديد.

وقد تقدم أن عمر أجرى الصدقة على شيخ يهودى مكفوف البصر وقال: ما أنصفناه إن أكلنا شبيبته ثم نخذله عند الهرم.

وقد جعل ذلك سنة فيمن يبلغه أمرهم من الذميين والمعوزين. فمر فى أرض دمشق بقوم مجذّمين[٢] من النصارى، فأمر أن يعطوا من الصدقات وأن يجرى عليهم القوت.

وإذا أحصيت له - فى سيرته الطويلة - أوامر وخططا تحرم الذميين بعض الحريات أو بعض الحقوق. فكن على يقين أنه قد صدر فى ذلك جميعه عن حكمة توجبها سياسة الدولة، ويقرها العقل والعرف كما يقرها الدين والكتاب، ولم يصدر فيه قط عن حيف مقصود أو عن رغبة فى حرمان الذميين حرية يستحقونها أو حقًّا هم أحرار فيه.

ولعل الذى يحصى له من هذه الأوامر والخطط لا يعدو النهى عن استخدام بعض الذميين، ومنعهم أن يتشبهوا فى الأزياء والمظاهر بالمسلمين، وإجلاء بعضهم عن الجزيرة العربية فى إبان الفتوح، والحذر من الكيد والتجسس والانتقاض.

فأما نهيه عن استخدام بعض الذميين فارجع إلى ماقاله فى ذلك تعلم أنه منع استخدامهم لمصلحة العدل وكراهة الظلم والمحاباة فقال: «إنى نهيتكم عن استعمال أهل الكتاب فإنهم يستحلون الرشا»[٣].

وطلب يومًا من أبى موسى رجلا ينظر فى حساب الحكومة فأتاه بنصرانى، فقال: إنى سألتك رجلا أشركه فى أمانتى فأتيت بمن يخالف دينه دينى. وقلما نهى عن استعمال اليهود

---

(١) المشوذ: العمامة.

(٢) مجذمين: مصابين بالجذام وهو مرض قد ينتهى بصاحبه إلى تآكل الأعضاء وسقوطها.

(٣) الرشا: جمع رشوة.

والنصارى إلا ذكر بعدها: إنهم أهل رشا، ولا تحل فى دين الله الرشا.

وكان له عبد من أهل الكتاب يقال له أسبق، فعرض عليه أن يسلم حتى يستعين به على بعض أمور المسلمين فأبى، فأعتقه وأطلقه وقاله له: اذهب حيث شئت!..

فلم يكن نهيه عن استخدام أهل الكتاب فى مهام الدولة إلا إيثارًا للعدل وكراهة للرشوة والزيغ فى الحكومة، وما نظن أحدًا ينكر أن استخدام الغرباء عن الدولة خليق أن يحاط بمثل هذا الحذر وأن تجتنب فيه مثل هذه الآفة، إذ يكثر بين المرتزقة الذين يخدمون دولة من الدول وهم غرباء عنها كارهون لمجدها وسلطانها أن نظروا إلى منفعتهم قبل أن ينظروا إلى منفعتها. وأن يساوموا على نفوذهم قبل أن يستحضروا الغيرة على سمعتها، والرغبة فى خيرها وخير أهلها، ولا سيما فى زمن كانت الدول تميز بالعقائد قبل أن تميز بالأوطان.

وما من أمة فى عهدنا هذا تبيح الوظائف إلا بقيود وفروق متفق عليها: أولها تحريمها على الأجانب مالم تكن فى استخدامهم منفعة عامة.

وهذه سياسة عمر فى مسألة الوظائف القومية، بغير إعنات للدولة ولا إعنات للرعية، وكفى باتقاء الإعنات أن العبد المملوك يخير فى الوظيفة والإسلام فيأبى، فلا يصيبه من ذلك ضيم، ويطلق له زمامه يفعل ما يشاء.

أما نهيه عن تشبه الذميين بالمسلمين وكراهته أن يبدلوا أزياءهم التى ولدوا عليها فلا يلام عليه حتى نعلم لِمَ كان أناس من الذميين يودون التشبه بالمسلمين فى الزى والشارة؟ أكانوا يتشبهون بهم حبًّا لدينهم فهم إذن مسلمون لا يمنعهم مانع أن يجهروا بالإسلام.. أم يتشبهون بهم كيدًا لهم، ورغبة فى التسلل بينهم، والإفلات من عهودهم والتزاماتهم، وما توجبه الدولة عليهم فى تلك العهود والالتزامات؟.

إن كانوا يفعلونه لهذا فلا لوم على عمر أن يأباه، وبخاصة فى الزمن الذى كان المسلمون فيه جميعًا فى حكم الجنود، وما من دولة ترضى أن تبيح أزياء جنودها لمن يشاء.

وأما إخراج بعض الذميين من الجزيرة فما خرج منهم أحد إلا وقد غدر بذمة وكرر الغدر مرة بعد مرة، كما صنع أهل خيبر.

ومنهم من أُجْلِي عن الجزيرة لأنه طلب الجلاء، فضلا عن نقضه العهد، كما فعل أهل نجران.

فقد صالحهم النبى على أن يبقوا فى مساكنهم ولا يأكلوا الربا ولا يتعاملوا به، وجاء أبو بكر فجدد الصلح على ذلك، ثم استخلف عمر فرجعوا إلى الربا وأفرطوا فيه، وكانوا قد بلغوا أربعين ألفا فتحاسدوا بينهم وأتوا عمر يسألونه إجلاءهم. فاستحب هذا الجلاء.

على أنه لم يكن يأبى على التجار المأمونين أن يدخلوا الجزيرة ويؤدوا العشور. فلما كتب إليه المشركون من أهل منبج أن «دعنا ندخل أرضك تجارًا وتعشرنا»[1] شاور أصحاب النبى فأشاروا عليه بقبولهم،فدعاهم إليه.

ولا يفوتنا فى هذا الصدد أمران مقترنان بخطة الإجلاء التى لجأ إليها عمر وأيقن بصوابها وضرورتها. فأول الأمرين أن الجزيرة حرم الإسلام الذى كان يحيط به أعداؤه ويتربصون به الدوائر، ويثيرون الفتنة على أطرافه كما صنع الفرس بالعراق والروم بالشام ولا أمان على حرم يسكنه أناس فيهم منْ يغدر بأهله، بل فيهم من هؤلاء كثيرون.

وثانى الأمرين أن عمر قد سوى بين الإسلام والنصرانية فى هذه الخطة، فحفظ حرم النصرانية ببيت المقدس للمسيحيين لا يسكنه معهم من لا يقبلونه، كما حفظ حرم الإسلام بالجزيرة العربية بالمسلمين لا يسكنه معهم من يحذرون غدره.

وقد أجمل العوض حين ألجأته ضرورة الدولة إلى اتخاذ هذه الخطة، فاشترى بيوت أهل نجران وعقاراتهم وأقطعهم النجرانية عند الكوفة، وكتب لهم وصاة قال فيها: «... هذا ما كتب به عمر أمير المؤمنين لأهل نجران. من سار منهم آمن بأمان الله لا يضره أحد من المسلمين.. ومن مروا به من أمراء الشام وأمراء العراق فليوسعهم من حرث الأرض، فما اعتملوا[2] من ذلك فهو لهم صدقة لوجه الله.

.. ومن حضرهم من رجل مسلم فلينصرهم على من ظلمهم فإنهم أقوام لهم الذمة وجزيتهم عنهم متروكة أربعة وعشرين شهرًا بعد أن يقدموا، ولا يكلفوا - إلا من صنعهم - البر غير مظلومين ولا معتدى عليهم».

---

(١) تعشرنا: أى تدعنا نؤدى العشور.

(٢) اعتمل: اعتمل فلان، عمل لنفسه وتصرف فى العمل.

ولم يفارق عمر الدنيا حتى أوصى الخليفة الذى يختار بعده بالذميين كافة «أن يوفى بعهدهم ولا يكلفوا فوق طاقتهم وأن يقاتل من ورائهم[1]».. ودون هذا بالمراحل الشاسعة يقف عدل الدول القدامى والمحدثات فى كل ما اتخذت من حيطة حربية أو حماية قومية أو معاهدة بينها وبين أمة أجنبية، وإن عذرها لدون عذر عمر فى خططه، وإن أسبابها لدون أسبابه فى الإقناع.

* * *

كان مسلمًا شديدًا فى إسلامه، فلم تكن شدته فى إسلامه خطرًا على الناس، بل كانت ضمانًا له ألا يخافه مسلم ولا ذمى ولا مشرك فى غير حدود الكتاب والسنة.

وكان جاهليًّا فأسلم، فأصبح إسلامه طورًا من أطوار التاريخ، ولو لم يكن الإسلام قدرة بانية منشئة فى التاريخ الإنسانى لما كان إسلام رجل طورًا من أطواره الكبار.

وكان هذا الرجل يحب ويكره كما يحب الناس ويكرهون، ولكن لا ينفعك عنده أن يحبك ولا يضيرك عنده أن يكرهك إذا وجب الحق ووضح القضاء، قال يومًا لأبى مريم السلولى قاتل أخيه: والله لا أحبك حتى تحب الأرض الدم المسفوح! فقال له أبو مريم: أتمنعنى لذلك حقًّا؟ قال: لا.. قال: لا ضير! إنما يأسى على الحبِّ النساء.

وحسبك من إسلام يحمى الرجل من خليفة يبغضه وهو قادر عليه، فذلك المسلم الشديد فى دينه، والذى يشتد فيأمنه العدو والصديق.

---

(١) يقاتل من ورائهم: يحميهم.

عمر والدولة الإسلامية

تأسست الدولة الإسلامية فى خلافة أبى بكر رضى الله عنه لأنه وطد العقيدة وسير البعوث، فشرع السنة الصالحة فى توطيد العقيدة بين العرب بما صنعه فى حرب الردة. وشرع السنة الصالحة فى تأمين الدولة من أعدائها بتسيير البعوث وفتح الفتوح، فكان له السبق على خلفاء الإسلام فى هذين العملين الجليلين.

إلا أننا نسمى عمر مؤسسًا للدولة الإسلامية بمعنى آخر غير معنى السبق فى أعمال الخلافة. لأننا «أولا» لا نجد مكانًا فى التاريخ أليق به من مكان المؤسسين للدول العظام.

ولأننا من جهة أخرى لا نربط بين التأسيس وولاية الخلافة فى إقامة دولة كالدولة الإسلامية، إذ الشأن الأول فيها للعقيدة التى تقوم عليها وليس للتوسع فى الغزوات والفتوح. وعمر كان على نحو من الأنحاء مؤسسا لدولة الإسلام قبل ولايته الخلافة بسنين، بل كا ن مؤسسًا لها منذ أسلم فجهر بدعوة الإسلام وأذانه، وأعزها بهيبته وعنفوانه.

وكان مؤسسًا لها يوم بسط يده إلى أبى بكر فبايعه بالخلافة وحسم الفتنة التى أوشكت أن تعصف بأركانها، وكان مؤسسًا لها يوم أشار على أبى بكر بجمع القرآن الكريم وهو فى الدولة الإسلامية دستور الدساتير ودعامة الدعائم. ولم يزل يراجع أبابكر فى ذلك حتى استدعى زيد بن ثابت كاتب الوحى فأمره أن يتتبع آى القرآن ليجمعها من الرقاع والأكتاف والعسب[1] وصدور الرجال، فكان ذلك أول الشروع فى جمع الكتاب.

هذا إلى أن أبا بكر رضى الله عنه أسس ولم يتسع له الأجل حتى يفرغ من عمله، وجاء عمر بعده فأتم عمله وأقام الأساس ثم أقام عليه البناء، وكانت قدرته على التأسيس هى آية الآيات فيه وفى ذلك العصر من البداوة البادية، لأنه التفت إلى مواضعه

---

(١) الأكتاف: جمع كتف، والعسب جمع عسيب وهو جريد النخل، كانوا ينزعون خوصه ويكتبون فى طرفه العريض، وكان العرب يكتبون كذلك على صفائح الحجارة وعلى الأضلاع والأكتاف إلخ..

الخليقة بالاهتمام والتقديم كأنه راجع تاريخ عشرين دولة مستفيضة الملك، راسخة العمران. وهى قدرة تروعنا وتدهشنا لو شهدناها من ملك تربى على الملك، وسلفه[1] على عرشه سمط[2] من الملوك. وأولى أن تروعنا وتدهشنا من رجل البادية الذى يقدم على أمر جديد لم تعنه فيه السوابق، ولم يهتد فيه إلا بما اختار هو أن يهتدى إليه.

فبعد جمع القرآن لا نعرف عملا يقترن به ويلازمه ويعد من أسس الدولة العربية كالعمل على تصحيح اللغة وحفظها من الخلط والفساد. وكلاهما عمل لا يفطن إليه إلا من طبع على سليقة التأسيس وأخذ بها من أصولها، وكلاهما فطن إليه هذا المؤسس الكبير على أهون ما يكون من البساطة والسهولة، فأشار بوضع علم النحو كما أشار بجمع آى القرآن، وكان أثره فى تدعيم الدولة الأدبية كأثره فى تدعيم دولة الغزوات والفتوح.

وندر فى الدولة الإسلامية نظام لم تكن له أولية فيه... فافتتح تاريخًا، واستهل حضارة، وأنشأ حكومة، ورتب لها الدواوين، ونظم فيها أصول القضاء والإدارة، واتخذ لها بيت مال، ووصل بين أجزائها بالبريد، وحمى ثغورها بالمرابطين، وصنع كل شىء فى الوقت الذى ينبغى أن يصنع فيه، وعلى الوجه الذى يحسن به الابتداء، فأوجز ما يقال فيه أنه وضع دستورًا لكل شىء وتركه قائمًا على أساس لمن شاء أن يبنى عليه.

وملاك[3] النظم الحكومية كلها نظام الشورى الذى أقامه عمر على أحسن ما يقام عليه فى زمانه، فجمع عنده نخبة الصحابة للمشاورة والاستفتاء، وضن بهم على العمالة فى أطراف الدولة، تنزيهًا لأقدارهم، وانتفاعًا برأيهم، واعتزازًا بتأييدهم له، ومعاونتهم إياه فيما يتولاه من ثواب أو عقاب.

وجعل موسم الحج موسمًا عامًّا للمراجعة والمحاسبة واستطلاع الآراء فى أقطار الدولة من أقصاها إلى أقصاها... يفد الولاة والعمال لعرض حسابهم وأخبار ولايتهم، ويفد فيه أصحاب المظالم والشكايات لبسط ما يُشكيهم[4]، ويفد فيه الرقباء الذين كان يبثهم فى

---

(١) سلفه: تقدمه.

(٢) سمط: خيط تنظم فيه حبات العقد، والمراد عدد.

(٣) ملاك الأمر: قوامه وأساسه، يقال: القلب ملاك الجسد.

(٤) ما يشكيهم: ما يجعلهم على الشكوى.

أنحاء البلاد لمراقبة الولاة والعمال... فهى «جمعية عمومية» كأوفى ما تكون الجمعيات العمومية فى عصر من العصور.

وكان عمر يستشير جميع هؤلاء ويشير عليهم، ويستمع لهم ويسمعهم، ويتوخى فى جميع ذلك تمحيص الرأى وإبراء الذمة والخلوص إلى التبعة السليمة من العقابيل.

وإن أضعف الناس رأيا لَمَنْ يستضعف فضل الأمير فى عمل تولاه، لأنه عمله بمشاورة غيره.

فإن باب المشاورة مفتوح لكل إنسان، وليس كل إنسان مع ذلك بالذى يريد أن يستشير، أو بالذى يعرف كيف يستشير إذا أراد، أو بالذى يحسن الموازنة بين الآراء إن عرف من يستشيرهم ومن يقبل مشورتهم فى حالة ويرفضها فى حالة أخرى.

إن المشاورة لَفَنٌّ عسير.

وإن الذى ينتفع بمشورة غيره لأقدر ممن يشير عليه.

وقد كان عمر عبقرى هذا الفن الذى لا يجارى. وكان من بدعه الملهمة فى هذا الفن العسير أنه لم يلتمس الرأى عند أهل الحنكة والخبرة وكفى، بل كان يلتمسه كذلك عند أهل الحدة والنشاط ممن يناقضون أولئك فى الشعور والتفكير... فكان كما روى يوسف ابن الماجشون: «إذا أعياه الأمر المعضل دعا الأحداب فاستشارهم لحدة عقولهم». وإنه لإلهام فى فن الاستشارة لا يلهمه إلا صاحب رأى أصيل، فمن الرأى الأصيل أن يخبر[1] الإنسان كيف يستعير آراء المشيرين.

انظر إليه كيف يستشير فى اختيار أمير، تعلم أن الاستشارة - كما قلنا - فن، وأنه فن عسير.

قال لأصحابه: دلونى على رجل أستعمله.

فسألوه: ما شرطك فيه؟

---

(١) خبر الأمر يخبره من باب نصر: علمه.

قال: «إذا كان فى القوم وليس أميرهم، كان كأنه أميرهم، وإذا كان أميرهم كان كأنه رجل منهم».

إن الذى يسأل هكذا، لهو أقدر من الذى يجيبه بالصواب، لأنه قطع له ثلثى الطريق السديد إلى الجواب.

وكان ربما استشار العدو الذى لا يأمنه، كما فعل فى سماع رأى الهرمزان فى أمر الحرب الفارسية، لأنه بصير يطلب نورًا، فإذا رأى النور استوى لديه أن يحمل له المصباح عدو أو صديق.

ومن اليسير، إذا تعقبنا[1] مشاورات عمر، أن نعلم أنه هو واضع دستور الشورى فى الدولة الإسلامية، وأن الشورى التى وضع دستورها هى شورى الرأى الأصيل يستعين بكل أصيل من الآراء.

وقد وضع لقواده دستور الحرب، أو دستور الزحف من الجزيرة العربية إلى تخوم[2] أعدائها، كأحسن ما يضعه رئيس دولة لقواده وأجناده.

فأرسل المدد إلى العراق، وعليه أبو عبيد بن مسعود الثقفى، وعلمه كيف يستشير مجلس الحرب الذى معه، وكيف يقدم فى موضع الإقدام ويتريث فى موضع التريث، وأجمل له ذلك فى قوله: «اسمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأشركهم فى الأمر، ولا تجتهد مسرعًا بل اتئد، فإنها الحرب لا يصلحها إلا الرجل المكيث[3]، الذى يعرف الفرصة، ولا يمنعنى أن أؤمرّ سليطًا (ابن قيس) إلا سرعته إلى الحرب. والسرعة إلى الحرب – إلا عن بيان – ضياع...»، وزاده تبصرة بالحيطة فقال له: «إنك تقدم على أرض المكر والخديعة والخيانة والجبرية[4]: تقدم على قوم تجرءوا على الشر فعلموه، وتناسوا الخير فجهلوه. فانظر كيف تكون، وأحرز[5] لسانك ولا تفشين سرك، فإن

---

(١) تعقبنا: تتبعنا.

(٢) تخوم : حدود، جمع تخم.

(٣) المكيث: الذى لا يتعجل فى الأمر.

(٤) الجبرية: بفتح الجيم وسكون الباء مع تشديد الباء: الكبر مثل الجبروت.

(٥) أحرز: الحرز المكان الحصين، فالمراد حصن لسانك واضبطه ولا تثرثر.

صاحب السر - ما يضبطه - متحصن لا يؤتى من وجه يكره، وإذا لم يضبطه كان بمضيعة».

فهى المشاورة، ثم أناة فى الاجتهاد، إلا أن تجب السرعة، ببيان وثقة، فليكن الإسراع. وهذه وصية عمر بن الخطاب الذى يظن به الاندفاع. وينسى من يظن به هذا الظن، أنه قوى الدفاع وقويٌّ ضابط فى وقت واحد، وعند ما يقترن الاندفاع بضابط فهو مزية وليس بعيب.

وكتب إلى سعد بن أبى وقاص بعد اختياره لحرب فارس وفى كتابه له قبس من هذا المعنى: «إذا انتهيت إلى القادسية، وهو منزل رغيب خصيب دونه[1] قناطر وأنهار ممتنعة، فتكون مسالحك[2] على أنقابها[3] ويكون الناس بين الحجر والمدر[4]، على حافات الحجر، وحافات المدر، والجراع [5] بينها، ثم الزم مكانك، فلا تبرحه، فإنك إذا أحسوك أنغصتهم، ورموك بجمعهم الذى يأتى على خيلهم ورجلهم، وحدهم وجدهم[6] - فإن أنتم صبرتم لعدوكم، واحتبستم لقتاله، وقويتم الأمانة - رجوت أن تنصروا عليهم ثم لا يجتمع لكم مثلهم أبدًا، إلا أن يجتمعوا وليست معهم قلوبهم. وإن تكن الأخرى[7]، كان الحجر فى أدباركم فانصرفتم من أدنى مدرة من أرضهم إلى أدنى حجر من أرضكم، ثم كنتم عليهم أجرأ وبها أعلم، وكانوا عنها أجبن وبها أجهل، حتى يأتى الله بالفتح».

ثم كتب إليه يستوصفه المنازل التى نزل بها ويسأله: «أين بلغك جمعهم؟ ومن رأسُهم الذى يلى مصادمتكم؟ فإنه قد منعنى من بعض ما أردت الكتاب به قلة علمى بما هجمتم عليه، والذى استقر عليه أمر عدوكم. فصف لنا منازل المسلمين والبلد الذى بينكم وبين المدائن صفة أنظر إليها، واجعلنى من أمركم على الجليّة».

---

(١) دونه: بينك وبينه.

(٢) مسالحك: جمع مسلحة على وزن مصلحة، جند المراقبة على الحدود.

(٣) أنقابها: جمع نقب، وهو هنا الطريق فى الجبل.

(٤) المدر: جمع مدرة وهى القرية والحضر، وعكسها الوبر أى البادية، والمراد بالحجر من أرض العرب الجبلية الوعرة.

(٥) الجراع: جمع اجرع وهو الأرض ذات الحزونة تشاكل الرمل ولا تنبت.

(٦) حدهم وجدهم: يقال «فلان له حد وجد» أى له بأس وقوة.

(٧) الأخرى: يقصد النكسة أو الانهزام.

وكتب إلى أبى عبيد وقد ترك حصار حلب يستضعف رأيه فى ترك حصارها: «...سرنى ما علمت من الفتح، وعلمت من قُتِل من الشهداء، وأما ما ذكرت من انصرافك عن قلعة حلب إلى النواحى التى قربت من أنطاكية فهذا بئس الرأى... أتترك رجلا ملكْتَ دياره ومدينته ثم ترحل عنه وتسمع أهل النواحى والبلاد بأنك ما قدرت عليه؟.. فما هذا برأى.. يعلو ذكره بما صنع، وطمع من لم يطمع، فترجع إليك الجيوش وتكاتب ملوكها. فإياك أن تبرح حتى يحكم الله وهو خير الحاكمين... وقد أنفذت إليك كتابى هذا ومعه أهل مشارف[1] اليمن ممن وهب نفسه لله ورسوله، ورغب فى الجهاد فى سبيل الله، وهم عرب وموال[2]، رجال وفرسان، والمدد يأتيك متواليا إن شاء الله تعالى».

فكان دستوره فى الحرب أن يضع الأسس العامة ويعهد فى تنفيذها إلى ذى خبرة وأمانة، ولا يتخلى عن تبعته العظمى فى مصائر الحرب كل التخلى اعتمادًا على القائد وحده، إذ ليْس القائد بالمسئول الوحيد عن المصير.

فإذا رأى القائد رأيًا وخالفه هو فى رأيه أعانه بالمدد والمشورة على الأخذ بالرأى الذى دعاه إليه، وأبطل معاذيره بتوضيح الأمر وإعانته عليه.

ولقد كان إلى جانب هذا السهر على الميادين عامة لا يغل يد القائد فيما يحسن أن تنطلق فيه، فإذا تجاوز الأمر سياسة الحرب العامة من فتح الميادين وفك الحصار وانتظار الهجوم فمن حق القائد عنده أن يختار لنفسه ولا ينتظر الرجوع إليه، وأن يجرى فى إدارة المعركة على الوجه الذى تمليه ضرورة الساعة، ولهذا استشاره أبو عبيدة فى دخول الدروب خلف العدو فكتب إليه: «أنت الشاهد وأنا الغائب، والشاهد يرى ما لا يرى الغائب، وأنت بحضرة عدوك وعيونك يأتونك بالأخبار، فإن رأيت الدخول إلى الدروب صوابًا فابعث إليهم السرايا، وادخل معهم بلادهم، وضيق عليهم مسالكهم، وإن طلبوا إليك الصلح فصالحهم...».

فهو يضع القواعد العامة للحملة كلها منذ بدايتها.

وهو يختار القائد الضليع بتسيير تلك الحملة.

---

(١) مشارف الأرض: أعاليها.

(٢) الموالى: يطلق على العتقاء والنصراء والحلفاء.

وهو بعد ذلك لا يعفى نفسه من التبعة، ولا يعفى القائد من واجب الرجوع إليه فى المواقف الحاسمة، ولا يغل يده فيما هو أدرى به وأقدر على الاختيار فيه، ولا ينسى أن يعنيه إذا خالفه فى الرأى ليتفق الرأيان المختلفان. فإذا رجع القائد إلى الحصار الذى أزمع أن يتركه رجع إليه وهو مؤمن بصواب ما يعمل، ليستمد من الإيمان بالصواب قوة لن يشعر بها وهو يؤدى عملا يخالف الصواب فى تقديره.

وهذه السياسة هى السياسة التى جرى عليها عمر فى جميع بعوثه وغزواته وسراياه. وهى السياسة التى لا يستطيع حاكم أن يجرى على غيرها فى حرب قديمة أو حديثة، وقد جرى عليها فجعلته كاسب النصر كما يكسبه القائد فى الميدان، وجعلت بطل الفرس رستم المشهور فى التاريخ والأساطير يقول إن عمر هو هازمه فى الميدان، و «إنه هو عمر الذى يكلم الكلاب فيعلمهم العقل! أكل عمر كبدى أحرق الله كبده!!..».

وربما أخطأ القائد الذى يختاره فمسته التبعة من هذا الجانب لأنه هو المسئول عن اختياره. غير أنها لا تمسه من جانب إلا أعفِىَ منها من جانب آخر أو جوانب عدة، كما حدث فى وقعة الجسر التى قتل فيها قائده أبو عبيد المتقدم ذكره ثم انهزم فيها جيش المسلمين. فهو مسئول عن اختيار هذا القائد كما يسأل كل رئيس دولة فى مثل ذلك، ولكن أعذاره على التحقيق أكبر من أخطائه فى كل مسألة من هذا القبيل؛ وفى هذه المسألة بعينها كان اختياره لأبى عبيد إنصافًا، له حجته الراجحة فيه، لأنه كان أول من أجاب الدعوة إلى القتال، فلم ير من الإنصاف أن يؤخر المتقدم ويقدم عليه المتخلفين، وقد سوغ الرجل اختياره إياه بانتصاراته الأولى التى رفعت شأنه بين القواد، فلما أخطأ من مخالفة عمر فى وصاياه، ومنها وجوب التريث والحذر من عبور الأنهار والجسور، ولم يكن على عمر لوم فى تقصير عن التنبيه والتحذير.

* * *

وقبل أن يضع دستورًا للولاة وضع دستورًا لنفسه قوامه أن الحكيم محنة[1] للحاكم ومحنة للمحكومين، و «أنه لا يصلح إلا بشدة لا جبرية[2] فيها، ولين لا وهن فيه[3]» وأن

(١) محنة: اختبار، ومحنة من باب قطع وامتحنه اختبره، والاسم المحنة، ولذا سميت المصائب بالمحن لأنها اختبار للإنسان.

(٢) جبرية: جبروت وطغيان. (٣) وهن: ضعف.

الخليفة مسئول عن ولاته واحدًا واحدًا فى كل كبيرة وصغيرة، ولا يعفيه من اللوم أنه أحسن الاختيار.

قال يومًا لمن حوله: «أرأيتم إذا استعملت عليكم خير من أعلم ثم أمرته بالعدل، أكنت قضيت ما عليّ؟ قالوا: نعم. قال: لا، حتى أنظر فى عمله أعَمِل بما أمرته أم لا».

وعهوده على نفسه هى خير العهود التى تؤخذ على ولاة الأمر وأبينها للحدود القائمة بين الراعى والرعية، وخير ما فيها أنه كان يحث الناس على الاستغناء عن التحاكم إلى الحكام خلافًا لأصحاب الأمر الذين يودون لو فرضوا لأنفسهم حكمًا فى كل شىء. فكان يقول لهم: «أعطوا الحق من أنفسكم ولا يحمل بعضكم بعضًا على أن تَحَاكَموا إلى...».

وجمع صلاح الأمر[1] فى ثلاث: «أداء الأمانة، والأخذ بالقوة، والحكم بما أنزل الله»، وصلاح المال فى ثلاث: «أن يؤخذ من حق، ويعطى فى حق، ويمنع من باطل».

وعاهد الناس فقال: «لكم على ألا أجتنى شيئا من خراجكم ولا ما أفاء الله عليكم إلا من وجهه، ولكم عليّ إذا وقع فى يدى ألا يخرج منى إلا فى حقه، ولكم على أن أزيد عطاياكم وأرزاقكم إن شاء الله وأسد ثغوركم[2]، ولكم على ألا ألقيكم فى المهالك ولا أجمركم - أى أحبسكم - فى ثغوركم، وإذا غبتم فى البعوث فأنا أبو العيال حتى ترجعوا إليهم. فاتقوا الله عباد الله، وأعينونى على أنفسكم بكفها عنى، وأعينونى على نفسى بالأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر، وإحضارى النصيحة فيما ولانى الله من أمركم».

ومن أوائل عهوده فى بيان الحق الذى يرشح الحاكم لولاية الحكم: «أيها الناس: إنى قد وليت عليكم ولولا رجاءُ أن أكون خيرَكم لكم، وأقواكم عليكم، وأشدكم استضلاعا بما ينوب من مهم أموركم ما وليت ذلك منكم».

فأحق الناس بالحكم أقدرهم على البر والحزم والنهوض بالأعباء، وليس له فى غير ذلك حق يرشحه للحكومة.

---

(١) أى أمر الدولة.

(٢) الثغور: جمع ثغر، وهو من البلاد الموضع الذى يخاف منه هجوم العدو، ويقصد بسد الثغور: الدفاع.

ومن أوائل خطبه بعد توليه الخلافة: «إن الله ابتلاكم بى، وابتلانى بكم، وأبقانى فيكم بعد صاحبى، فلا والله لا يحضرنى شىء من أمركم فيليه أحد دونى، ولا يتغيب عنى فآلو [١] فيه عن أهل الصدق والأمانة، ولئن أحسنوا لأحسن إليهم، ولئن أساءوا لأنكلن بهم».

فهو يعاهدهم أن يلى الأمر بنفسه فى كل ما حضره، وألا يعهد فيه إلى غيره إلا إذا غاب عنه، ثم لا يكون وكلاؤه فيه إلا من أهل الصدق والأمانة، ثم هو لا يدعهم وشأنهم بعد ذلك بل يراقبهم ويتتبع أعمالهم، فيحسن إلى من أحسن وينكل بمن أساء.

وقد كان يقول ويعنى ما يقول ويعمل بما يقول.

وصارح القوم فيما لا يحصى من الخطب والأحاديث أن له عليهم حق الطاعة فيما أمر الله فلا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق، وأن لهم عليه حق النصيحة ولو آذوه فيها. ومن ذلك الرواية المشهورة التى سأل الناس فيها أن يدلوه على عوجه فقال له أحدهم: «والله لو علمنا فيك اعوجاجاً لقومناه بسيوفنا»، فحمد الله أن جعل فى المسلمين من يقوم اعوجاج عمر بسيفه.

ولم يكن يبيح من مال المسلمين أجراً لعمله إلا ما يقيم أوده[٢] وأود أهله عند الحاجة إليه، فإن رزقه الله ما يغنيه عن بيت المال كف يده عنه: «.. ألا وإنى أنزلت نفسى من مال الله، بمنزلة ولى اليتيم، إن استغنيت استعففت، وإن افتقرت أكلت بالمعروف، تقرَّم[٣] البهيمة الأعرابية: القضم لا الخضم»، أى كما تأكل ماشية البادية قضماً بأطراف أسنانها، لا مضغاً وطحنا بأضراسها.

ولما سئل عما يحل للخليفة من مال الله قال: «إنه لا يحل لعمر من مال الله إلا حلتين: حلة للشتاء وحلة للصيف، وما أحج به وأعتمر[١]، وقوتى وقوت أهلى كرجل من قريش ليس بأغناهم ولا بأفقرهم. ثم أنا بعد رجل من المسلمين».

---

(١) فآلو أى أقصر، ومنه آلوك نصحاء أى لا أقصر فى نصحك ولا أدخر جهدًا فيه.
(٢) أود: أود من باب طرب اعوج، فالأود العوج، والمراد ما يكفى الضرورة.
(٣) قرم: أى أكل ضعيفًا، والمراد آكل أضعف أكل من أخس طعام.
(٤) الحج معروف، والعمرة: الحج الأصغر، وهى مأخوذة من الاعتمار أى الزيارة.

وقد كان أسخى من ذاك فى تقديره لأرزاق الولاة والعمال، فقدر لعمار بن ياسر حين ولاه الكوفة ستمائة درهم فى الشهر له ولمساعديه، يزاد عليها عطاؤه الذى يوزع عليه كما توزع الأعطية على أمثاله، ونصف شاة ونصف جريب[1] من الدقيق.

وقدر لعبد الله بن مسعود مائة درهم وربع شاة لتعليمه الناس فى الكوفة وقيامه على بيت المال فيها، ولعثمان بن حنيف مائة وخمسين درهما وربع شاة فى اليوم مع عطائه السنوى وهو خمسة آلاف درهم... وهكذا على حسب الولايات والنفقات.

وكان يحظر على الولاة مظاهر الخيلاء والأبهة التى تبعد ما بينهم وبين الرعية، ولكنه ينظر فى أعذارهم فيقبلها أو يغضى عنها حيثما توقف صلاح الولاية على ذلك.

قدم إلى الشام راكباً على حمار فتلقاه عامله معاوية بن أبى سفيان فى موكب عظيم، فلما رآه معاوية نزل وسلم عليه بالخلافة، فمضى فى سبيله ولم يرد عليه سلامه، فقال له عبد الرحمن بن عوف: أتعبت الرجل يا أمير المؤمنين، فلو كلمته! فالتفت إذ ذاك إلى معاوية وسأله: إنك لصاحب الموكب الذى أرى؟

قال: نعم.

قال: مع شدة احتجابك ووقوف ذى الحاجات ببابك؟

قال: نعم.

قال: ولم ويحك!

قال: لأننا ببلاد كثر فيها جواسيس العدو، فإن لم نتخذ العدة والعدد استخف بنا وهجم علينا، وأما الحجاب فإننا نخاف من البذلة[2] جرأة الرعية، وأنا بعدعاملك، فإن استنقصنى نقصت، وإن استزدتنى زدت، وإن استوقفتنى وقفت!

فقال عمر: ما سألتك عن شىء إلا خرجت منه. إن كنت صادقًا فإنه رأى لبيب، وإن كنت كاذبًا فإنها خدعة أريب[3]، لا آمرك ولا أنهاك».

---

(١) الجريب. مكيال كان يستخدم، يمكن أن يقدر بما يعادل ٣٦٠ رطلا.

(٢) البذلة: الابتذال وترك الكلفة.

(٣) أريب: ذكى.

أما دستور الولاة عنده فأساسه أن الولاية تمييز بالواجب والكفاءة، وليست تمييزاً بالوجاهة والاستعلاء فكان يقول للوالى: «افتح لهم بابك، وباشر أمورهم بنفسك، فإنما أنت رجل منهم، غير أن الله جعلك أنقلهم حملا».

وشغله كل الشغل، أن تخضع الرعية لواليها، رغبة فى حكمه، واطمئناناً إلى عدله، فكان يقول للوالى: «اعتبر منزلتك عند الله بمنزلتك من الناس»، ويقول للرعية: «إنى لم أبعث إليكم الولاة ليضربوا أبشاركم[1] ويأخذوا أموالكم، ولكن ليعلموكم ويخدموكم».

وتستوى عنده رغبة الرعية من المسلمين ورغبة الرعية من غيرهم. فلما رأى أقوامًا ذميين ينقضون العهد ويثورون على الدولة، طلب من صلحاء البصرة وفداً فيهم الأحنف بن قيس وهو مصدق عنده، فسأله: «إنك عندى مصدق، وقد رأيتك رجلا فأخبرنى: أَلمظلمة نفَرَ أهل الذمة أم لغير ذلك؟».

فقال الأحنف: «لا. بل لغير مظلمة، والناس على ما تحب».

فهدأ باله وقال «فنعم[2] إذن... انصرفوا إلى رحالكم».

وربما ذهب فى إرضاء الرعية مذهبًا لم يحلم به الغلاة من المطالبين بحقوق الشعوب فى هذه العصور.

فكان من قواده وولاته سعد بن أبى وقاص، قائده المظفر فى حروب فارس، وقريب رسول الله صلى الله عليه وسلم،والرجل الذى جعله عمر واحدًا من ستة يستشارون بعده فى أمر الخلافة، فنارت به طائفة من أتباعه وشكته إلى عمر، وجيوش الفرس تتجمع للغزو والثأر. فلم يشغله ذلك عن تحرى الأمر من مصادره، وإيفاد من يبحث عن حقيقة الشكوى بين أهلها. فبعث بوكيله على العمال محمد بن مسلمة يسأل عن سعد وسيرته فى الرعية. وكلما سأل عنه جماعة أثنوا عليه، إلا من شكوه فقد أحجم فريق منهم لم يمدحوه ولم يذموه، وقال فريق منهم: «إنه لايقسم بالسوية، ولا يعدل فى القضية، ولا يغزو فى السرية».

---

(١) أبشاركم: جلودكم.

(٢) أى: لا ضير إذن.

فعاد محمد بن مسلمة إلى المدينة وسعد معه، وأعاد عمر سؤاله فلم تثبت له من أمره ريبة، إلا أنه اتقى الفتنة والخطوب منذرة، فعزله وقال لشاكيه: «إن الدليل على ما عندكم من الشر نهوضكم لهذا الأمر. وقد استعدلكم من استعد، وايم الله لا يمنعني ذلك من النظر فيما لديكم وإن نزل بكم» وقال لسعد يومئذ مبرئًا له من تهمة خصومه: «هكذا الظن بك يا أبا إسحق! ولولا الاحتياط لكان سبيلهم بينًا». ثم أبى أن يفارق الدنيا وفي ذمته شهادة لسعد يعلنها لملأ المسلمين، فلما حضرته الوفاة وسألوه أن يستخلف أبى أن أحدًا من أهله. وسمى عليًّا وعثمان وطلحة والزبير وعبد الرحمن بن عوف وسعدًا «لأنهم نفر توفى رسول الله وهو عنهم راض. فأيهم اسْتخلف فهو الخليفة»... ثم قال: فإن أصابت سعدًا فذاك، وإلّا فأيهم استخلف فليستعن به، فإني لم أعزله عن عجز ولا خيانة.

وهذا مثل من أمثلة الوفاء بجميع الحقوق، والرعاية لجميع الذمم من حاكمين ومحكومين.

ولا يبعد أن يقع الغبن على بعض الولاة الكفاة من فرط العناية بشكايات الرعية، إلا أن عمر في حزمه وعدله لم يكن يفوته مفرق الصواب بين الأمرين. فغَبْنُ والٍ أو قائد، أهون من غبن أمة أو جيش... ومن أقواله في ذلك «هان شيء أصْلِح به قومًا أن أبدلهم أميرًا مكان أمير».

بل ربما جرى منه حكم العزل على الولاة الكفاة لغير سبب من أسباب الشكاية أو القصاص، وإنما هو سبب من الأسباب التي ترجع إلى سلامة الدولة، أو ما نسميه في العصور الحديثة بالسياسة العليا. وهذه أسباب لا يصح أن يغفل عنها ولاة الأمر في أيام تأسيس الدول وتجربة النظم الحديثة، وأولها عصمة الدولة من فتنة الولاة المقتدرين المحبوبين.

فربما كان الوالي المقتدر المحبوب أخطر على الدولة الناشئة في تأسيسها من الوالي العاجز البغيض، إذا لم يتعهده نظر ثاقب وحساب عسير.

فقد تزين له نفسه، أو تزين له رعيته، أن يستقل بالأمر، وينتحل لذلك ما شاء من المعاذير. فإن فاته الاستقلال – ورئيسه قوي مهيب – لم يفته بعد زوال ذلك الرئيس ولو جاء بعده من يضارعه في القوة والمهابة، لأن الفترة بين زوال عهد واستقرار عهد آخر

تؤذن بمثل هذا التقلقل، وتفتح الثغرات لمن يريد أنْ يَلِج[1] منها بعد طول تربص واستعداد.

ولم يكن عمر بن الخطاب يعرف تاريخ الإسكندر المقدونى وتواريخ العُتاة من قياصرة الرومان، ولا كان الغيب قد انكشف له فرأى ما تلاه من الأمثلة فى دول المغول والعثمانيين ودول المسلمين من مشرقيين ومغربيين، ولكنه لو استقصى أخبارهم جميعًا وعرف فتنة الولاة بعد زوالهم لما ندم لحظة على عزل الذين عزلهم وهو يقول لهم: إنما عزلتكم لكيلا أحمل على الناس فضل عقولكم. أو لكيلا تفتتنوا بالناس كما افتتن الناس بكم، ولكان له سبب آخر وجيه بالغ فى الوجاهة يدعوه إلى تغليب رغبات الرعية على مكانة الولاة، وهو عصمة الدولة من أولئك الولاة أن يطول بهم العهد، وتتم لهم القدرة، ويحوطهم الحب والولاء، فلا يبقى بينهم وبين الانتقاض[2] إلا الفرصة السانحة، وهى أقرب شىء سنوحًا فى إبان التأسيس والانتقال.

وما لم يكن عزل العمال لسبب من أسباب السياسة العليا التى من هذا القبيل فلا جزاء إلا بقسطاس دقيق محيط ولا سيما فى الشئون المالية، لأنه يعتمد فى محاسبتهم على وسائل متفرقة يستدرك بعضها نقص بعض، فلا تكاد تخفى عليه خافية مما يريد الوقوف عليه.

فمن هذه الوسائل أنه كان يحصى أموالهم قبل الولاية ليحاسبهم بها على ما زادوه بعد الولاية مما لا يدخل فى عداد الزيادة المعقولة، ومن تعلل منهم بالتجارة لم يقبل منه دعواه لأنه كان يقول لهم: «إنما بعثناكم ولاة ولم نبعثكم تجارًا».

ومنها أنه كان يرصد لهم الرقباء والعيون من حولهم ليبلغوه ما ظهر وما خفى من أمرهم، حتى كان الوالى من كبار الولاة وصغارهم يخشى من أقرب الناس إليه أن يرفع نبأه إلى الخليفة.

ومنها أنه كان يندب لهم وكيلا خاصًا يجمع شكايات الشاكين منهم ويتولى التحقيق والمراجعة فيها، ليستوفى البحث فيما ينقله الرقباء والعيون.

---

(١) يلج: مضارع ولج أى دخل.

(٢) المراد الخروج على الدولة والاستقلال بالولاية.

ومنها أنه كان يأمر الولاة والعمال أن يدخلوا بلادهم نهارًا إذا قفلوا[1] إليها من ولاياتهم، ليظهر معهم ما حملوه فى عودتهم، ويتصل نبؤه بالحراس والأرصاد الذين يقيمهم على ملاقى الطريق.

ومنها أنه كان يستقدمهم فى كل موسم من مواسم الحج ليحاسبهم ويسمع ما يقولون وما يقال فيهم، وعليهم شهود ممن يشاء أن يحضر الموسم من أهل البلاد. ونوى فى أواخر أيامه أن يستكمل الرقابة بالسير فى البلاد «فيقيم شهرين شهرين فى الشام ومصر والبحرين والكوفة والبصرة وغيرها» فإنه ليعلم «أن للناس حوائج تقطع عنه، أما هم فلا يصلون إليه، وأما عمالهم فلا يرفعونها إليه».

وكان لا يكتفى بوسائله تلك إذا استراب، فيعمد إلى الحيلة للكشف عن الخبايا التى تريبه. ومن ذلك أنه سمع بعودة أبى سفيان من عند ولده معاوية والى الشام، فوقع فى نفسه أن ولده قد زوده فى عودته بمال. وجاءه أبو سفيان مسلمًا فقال: أجزنا[2] يا أبا سفيان! قال: ما أصبنا شيئًا فنجيزك! فمد يده إلى خاتم فى يده فأخذه منه وبعثه إلى هند زوجه، وأمر الرسول أن يقول لها باسم زوجها: انظرى الخرجين اللذين جئت بهما فابعثيهما. فما لبث أن عاد بخرجين فيهما عشرة آلاف درهم فطرحهما عمر فى بيت المال.

وكانت سنته إذا ثبتت على الوالى شبهة التصرف فى بيت مال المسلمين أن يصادر المال الذى ظفر به أو يقاسم الوالى فيما أربى[3] على كسبه المعقول، فيترك له النصف ويضم النصف إلى بيت المال، وهذا عدا ما يجزيه به من عزل أو عقاب.

أما حساب الشكايات من المظالم فكانت سنته فيه التحقيق ثم الجزاء على شرعة المساواة بين أكبر الولاة وأصغر الرعية بغير تفرقة بين السيئة وجزائها. فمن ضرب ضرب، ومن غصب رد ما غصب! ومن اعتدى قوبل بمثل اعتدائه وعليه زيادة التأديب.

وقد يأخذ الوالى أحيانًا بوزر[4] ولده أو ذوى قرابته إذا وقع فى نفسه أنهم يستطيلون على الناس بسلطان الولاية ولا ينهاهم الوالى المسئول عنها.

(١) قفلوا: رجعوا

(٢) أجزنا: المقصود أعطنا.

(٣) أربى: زاد.

(٤) الوزر: الذنب.

جاءه مصرى فشكا إليه واليها عمرو بن العاص، وزعم أن الوالى أجرى الخيل فأقبلت فرس المصرى فحسبها محمد بن عمرو فرسه وصاح: فرسى ورب الكعبة! ثم اقتربت وعرفها صاحبها فغضب محمد بن عمرو ووثب على الرجل يضربه بالسوط ويقول له: خذها وأنا ابن الأكرمين. وبلغ ذلك أباه فخشى أن يشكوه المصرى فحبسه زمناً ومازال محبوسًا حتى أفلت وقدم إلى الخليفة لإبلاغه شكواه.

قال أنس بن مالك راوى القصة: فوالله ما زاد عمر على أن قال له اجلس... ومضت فترة إذا به فى خلالها قد استقدم عمْرًا وابنه من مصر فقدما ومثلا[1] فى مجلس القصاص. فنادى عمر: أين المصرى؟ دونك[2] الدرة فاضرب بها ابن الأكرمين.

«فضربه حتى أثخنه[3] ونحن نشتهى أن يضربه، فلم ينزع حتى أحببنا أن ينزع من كثرة ماضربه، وعمر يقول: اضرب ابن الأكرمين! ثم قال: أجِلْها[4] على صلعة عمرو! فوالله ما ضربك ابنه إلا بفضل سلطانه.. قال عمرو فزعًا: يا أمير المؤمنين قد استوفيت واشتفيت، وقال المصرى معتذرًا: يا أمير المؤمنين قد ضربتُ من ضربنى.. فقال عمر: أما والله لو ضربته ما حُلنا بينك وبينه-حتى تكون أنت الذى تدَعه. والتفت إلى عمرو مغضبًا يقول له تلك القولة الخالدة التى ما قالها حاكم قبله: «أيا عمرو! متى تعبَّدْتُم[5] الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟».

* * *

ومن هذا العدل فى شئون الولاية نستطيع أن نفهم دستوره فى شئون القضاء، فلن يكون هذا الدستور إلا دستور العدل المحكم فى الجزاء والفصل بين الحقوق، إلا أننا نعتقد أن وصاياه فى القضاء أحكم وأصلح لجميع الأزمنة من جميع وصاياه، فلا تعقيب بعدها لمعقب فى زمانه أو فى زمان يليه، مهما تختلف الأقوام والأوقات.

أنشأ وظائف القضاء وتخير لهم العدول[6] الأكفاء، ولم تكن به من حاجة هنا إلى سن

(١) مثل بين يديه: انتصب قائما، وبابه دخل.

(٢) دونك الدرة: اسم فعل بمعنى خذ.

(٣) أثخنه: أضعفه وأوجعه وأوهنة.

(٤) أجلها: أدرها.

(٥) تعبدتم: استعبدتم.

(٦) عدول: تقبل شهادته.

الشريعة التى يحكمون بها، فإنها ماثلة فى الكتاب والسنة، ولكنه كان فى حاجة إلى تعليم القضاة كيف يتصرفون حين يلتبس عليهم الأمر، فأحسن التعليم.

* * *

كان يكتب لأحدهم: «إذا جاءك شىء فى كتاب الله فاقض به ولا يلفتنك عنه الرجال، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله فانظر سنة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فاقض بها، فإن جاءك أمر ليس فى كتاب الله ولم يكن فيه سنة من رسول الله، ولم يتكلم فيه أحد قبلك، فاختر أى الأمرين شئت: إن شئت أن تجتهد رأيك وتقدم فتقدم، وإن شئت أن تأخر فتأخر[1]. ولا أرى التأخير إلا خيرًا لك».

وضرب لهم أصلح الأمثلة باجتهاده واستفتائه، فلم يقطع يد السارق فى عام المجاعة رعاية للزمن، ولم يقطع يد الغلام الذى سرق من سيده رعاية لسنه، أو للعلاقة بين السارق والمسروق منه، واشتركت امرأة وصاحبها فى قتل رجل فتحرج من قتل اثنين بواحد حتى أفتاه على رضى الله عنه بأنهما مستحقان للقتل، كما يستحق اللصوص المتعددون أن يقام عليهم الحد إذا سرقوا لحمًا من بعير واحد، فأخذ بفتواه.

* * *

ومن وصاياه للقاضى: «آس[2] بين الناس فى مجلسك ووجهك، حتى لايطمع شريف فى حيفك[3] ولا ييأس ضعيف من عدلك، والبينة على من ادعى واليمين على من أنكر، والصلح جائز بين المسلمين إلاصلحًا حرم حلالاً وأحل حرامًا، ولايمنعك قضاء قضيته بالأمس ثم راجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع عنه، فإن الحق قديم، ومراجعة الحق خير من التمادى[4] فى الباطل.الفهم الفهم عندما يتلجلج[5] فى صدرك ما لم يبلغك فى كتاب الله ولا سنة النبى صلى الله عليه وسلم واعرف الأمثال والأشباه،

---

(١) تقدم: تنقدم، و «تأخر»: أى تتأخر.

(٢) آس: سو.

(٣) حيفك: ظلمك.

(٤) التمادى: الاستمرار والإصرار.

(٥) يتلجلج: تتردد ويتحير.

وقس الأمور عند ذلك ثم اعمد[1] إلى أحبها إلى الله وأشبهها بالحق فيما ترى، واجعل للمدعى حقًّا غائبًا أو بينة أمدًا ينتهى إليه، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه، وإلا وجهت عليه القضاء، فإن ذلك أنفى للشك وأجلى للعمى وأبلغ فى العذر.. المسلمون عدول[2] بعضهم على بعض إلا مجلودًا فى حد أو مجربًا عليه شهادة زور، أو ظنينا[3] فى ولاء أو قرابة، فإن الله قد تولى منكم السرائر ودرأ[4] عنكم الشبهات. ثم إياك والقلق والضجر والتأذى بالناس والتنكر للخصوم فى مواطن الحق التى يوجب الله بها الأجر، ويحسن بها الذخر، فإنه من يخلص نيته فيما بينه وبين الله تبارك وتعالى ولو على نفسه يكفيه الله ما بينه وبين الناس».

ومن وصاياه لمن يلون الحكم: «الزم خمس خصال يسلم لك دينك وتأخذ فيه بأفضل حظك: إذا تقدم إليك الخصمان فعليك بالبينة العادلة أو اليمين القاطعة، وأدن الضعيف حتى يشتد قلبه وينبسط لسانه، وتعهد الغريب فإنك إن لم تتعهده ترك حقه ورجع إلى أهله، وإنما ضيع حقه من لم يرفق به وآس بين الناس فى لحظك وطرفك، وعليك بالصلح بين الناس ما لم يستبن لك فصل القضاء».

* * *

تلك نماذج متفرقة من وصاياه للقضاة وولاة الأحكام، وهى فيما نراه أحكم وصاياه، وأقربها أن يتبعها سواه.

ولذلك سبب لا يعسر تعليله. فقد كان عمر فى الجاهلية حكمًا من قبيلة محكمين، أو سفيرًا يسعى بين الناس بالصلح من قبيلة سفراء. فهو فى هذه الصناعة عريق.

إلا أن المرء قد يجلس للحكم بين الناس كما جلس عمر ولا يحسن الوصية فيه كما أحسنها. وإنما بلاغ حسن الوصية أن تجمع الخصلتين اللتين اجتمعتا فى وصاياه لقضاته. فما من أحد يستطيع أن يوصى قاضيًا بخير مما أوصى، وما من عقدة قضائية تأتى

(١) اعمد: اقصد.

(٢) عدول: تقبل شهادتهم.

(٣) ظنينا: متهما.

(٤) درأ: منع العقوبة

من قبل القضاة أو من قبل المتقاضين إلا وهى ملحوظة فى كلامه، وهاتان هما الخصلتان الباديتان فى دستور القضاء كما أملاه.

* * *

ولابد أن يلفت النظر فى سياسته للولاية وسياسته للقضاء أنه كان يأخذ بالواجب حيث وجب، وإن اختلف الواجبان.

ففى الولاية كان يتحرى البواطن ويمعن فى تحريكها ولا يكتفى من الناس بالظواهر.

وفى القضاء وما شابه القضاء كان يكتفى بالظواهر حتى تنقضها البينة[1] القاطعة، وكان يعلن هذه الخطة على المنبر فيقول: «أظهروا لنا أحسن أخلاقكم والله أعلم بالسرائر، فإن من أظهر لنا قبيحًا وزعم أن سريرته حسنة لم نصدقه، ومن أظهر لنا علانية حسنة ظننا به حسنا»، أو يقول:

«إنما كنا نعرفكم إذ الوحى ينزل، وإذ النبى صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، فقد رفع الوحى، وذهب النبى صلى الله عليه وسلم، فإنما أعرفكم بما أقول لكم. ألا فمن أظهر لنا خيرًا ظننا به خيرًا وأثنينا عليه، ومن أظهر لنا شرًّا ظننا به شرا وأبغضناه».

بل كان له فى الأخلاق الإسلامية مذهب ثالث يشبه مذهبه فى القضاء، فكان يكره أن يكشف المرء من أخيه ما يستره عنه، وينهى أن تظن بكلمة شرًّا وأنت تجد لها فى الخير محملا.

وهذه فى الظاهر نقائض، وفى الحقيقة واجبات متعددة كل منها فى موضع لازم.

فالعلم بخبايا الحكومة واجب على كل ولى مسئول لا تنصلح الأحوال بغيره، وفى الغفلة عنه مضرة محققة لجميع الناس.

والأخذ بالبينة دون الظاهر فى شئون القضاء واجب لا محيص عنه لضمان السلامة ومنع الجور، وهو فى أحد طرفيه لا يخلو من الحذر الشديد من الطبيعة البشرية، إذ فيه خشية من غواية الهوى أن تنطلق بالقضاة فى الحكم بغير برهان.

---

(١) البينة: الدليل والبرهان.

وفى الأخلاق الاجتماعية لا يؤمن التقاطع بين الأصدقاء إذا جرت العلاقة بينهم على التجسس والخدعة، ولا رعاية للمودة ما لم تكن رعاية للحرمات ومنها الأسرار.

والتفرقة بين الواجبات المختلفة هى دليل البصيرة فى عرفان كل واجب منها، وأنها تصدر عن رأى أصيل ولا تصدر عن تسخير العرف وإملاء التقليد والمحاكاة.

* * *

وأنشئت فى عهد عمر دواوين أخرى غير ديوان القضاء ودواوين الإحصاء والخراج والمحاسبة التى لم تكن من المؤسسات القائمة قبل عهده. فأنشأ البريد وبيت المال ومرابط الثغور ومصنع السكة لضرب النقود ودار الحبس للعقاب. ووكل معظم الدواوين إلى أبناء البلاد يزاولونها بلغاتهم لأنها ليست من أسرار الدولة، وليس من الميسور أن ينصرف إليها فتيان العرب عما هو أولى بهم وهو فرائض الدفاع والجهاد.. فلو وجد منهم من يفى[(١)] لتلك الأعمال لكانت خسارة الدولة فى قيامهم بها أعظم من ربحها، ولكنهم غير موجودين ولا عملهم فيها باللازم اللازب للمصلحة الكبرى، وقد يكون عمل الفارسى فى مصلحة فارس والسورى فى مصلحة سورية والمصرى فى مصلحة مصر أحرى[(٢)] أن يعصمهم إن كان بهم عاصم، وإلا فلا تثريب[(٣)].

ووضع عمر نظامًا لتحصيل الجزية وتصرف فى وضعها على حسب الأمم والبلاد. فأعفى التغلبيين بالشام من الجزية وفرض عليهم بديلا عنها ضعف صدقة المسلم، لأنهم أنفوا أن يؤدوها وأزمعوا اللحاق بأرض الروم.

وكان له نظام اقتصادى يوافق مصلحة الدولة فى عهده، فكان يحض على التجارة ويوصى القرشيين ألا يغلبهم أحد عليها لأنها ثلث الملك. ولكنه أبقى الأرض لأبنائها فى البلاد المفتوحة ونهى المسلمين أن يملكوها على أن يكون لكل منهم عطاؤه من بيت المال كعطاء الجند فى الجيش القائم. وإذا أسلم أحد الذميين أخذت منه أرضه ووزعت بين أهل بلده وفرض له العطاء. وكان غرضه من ذلك أن تبقى لأهل البلاد موارد ثرواتهم، وأن

---

(١) يفى: يكفى ويصلح.

(٢) أحرى: أجدر.

(٣) تثريب: لوم وذنب.

يعتصم[١] الجند الإسلامى من فتن النزاع على الأرض والعقار، ومن فتن الدعة[٢] والاشتغال بالثراء والحطام. وربما أغضى[٣] عن كثير فى سبيل الإعانة على تعمير البلاد بأهلها. فصفح عن أهل السواد «العراق» ليأمنوا البقاء فيه، مع أنهم حنثوا بالعهد وعاونوا الفرس على المسلمين فى أثناء القتال.

ويلوح من كلامه فى أخريات أيامه أنه كان على نية النظر فى تصحيح النظام الاقتصادى وعلاج مشكلة الفقر والغنى على نحو غير الذى وجدها عليه، فقال: «لو استقبلت من أمرى ما استدبرت[٤] لأخذت فضول[٥] أموال الأغنياء فقسمتها على الفقراء».

ولم يرد فى كلامه تفصيل لهذه النية، ولكن الذى نعلمه من آرائه فى هذا الصدد كاف لاستخلاص ما كان ينويه. فعمر على حبه للمساواة بين الناس كان يفرق أبدا[٦] بين المساواة فى الآداب النفسية والمساواة فى السنن الاجتماعية. فكتب إلى أبى موسى الأشعرى:«بلغنى أنك تأذن للناس جمًّا غفيرا[٧] فإذا جاءك كتابى هذا فأذن لأهل الشرف وأهل القرآن والتقوى والدين، فإذا أخذوا مجالسهم فأذن للعامة»، ولكنه لما رأى الخدم وقوفًا لا يأكلون مع ساداتهم فى مكة غضب وقال لساداتهم مؤنبًا: ما لقوم يستأثرون على خدامهم؟ ثم دعا بالخدام فأكلوا مع السادة، فى جفان واحدة.

فالمساواة فى أدب النفس لم تكن عند عمر مما ينفى التفاضل بالدرجات، ولم يكن يرضيه كذلك أن يعتمد الفقراء على الصدقات والعطايا ويعرضوا عن العمل واتخاذ المهنة، فكان يقول لهم فى خطبه: «يا معشر الفقراء ارفعوا رءوسكم فقد وضح الطريق، فاستبقوا الخيرات، ولا تكونوا عيالا[٨] على المسلمين». وكان يوصى الفقراء والأغنياء

---

(١) يعتصم: يمتنع ويتحصن.

(٢) الدعة: الخفض والرفاهية.

(٣) أغضى: أغمض عينه وصفح.

(٤) المراد لو رجع من عمرى ما فات.

(٥) فضول: ما زاد عن الحاجة، جمع فضل.

(٦) أبدا: دائما.

(٧) جما غفيرا: جمعا، الشريف مع الوضيع فى كثرة.

(٨) لا تكونوا عيالا على المسلمين: لا تعتمدوا على أن يعولوكم.

معًا «أن يتعلموا المهنة. فإنه يوشك أن يحتاج إلى مهنة وإن كان من الأغنياء».

فيسوغ لنا أن نفهم من هذا جميعه معنى ما انتواه من أخذ فضول الغنى وتقسيمه بين ذوى الحاجة، وهو تحصيل بعض الضرائب من الثروات الفاضلة وتقسيمها فى وجوه البر والإصلاح.

على أن عمر يصح أن يسمى مؤسسًا لديوان الوقف الخيرى على الوجه الذى تعهده الآن، فقد انشأ بيت الدقيق لإغاثة الجياع الذين لا يجدون الطعام، وأصاب قبل خلافته أرضا بخيبر فاستشار النبى عليه السلام فيها فاستحسن له أن يحبس أصلها ويتصدق بريعها، فجعلها عمر صدقة لا تباع ولا توهب ولا تورث، وينفق منها على الفقراء والغزاة وغيرهم، ولا جناح[1] على من وليها أن يأكل بالمعروف، ويطعم صديقًا فقيرًا منها.

* * *

وعرضت لعمر مسائل التعمير على حسب الحاجة إليها فى وقته فلم تجده مسألة منها دون ما تحتاج إليه من إصابة الرأى وحسن الروية. فكانت نصائحه فى تخطيط المدن واختيار مواقعها من أنفع النصائح، وكانت دواعيه إلى بنائها من أشرف الدواعى وأليقها بالأمير.

شاهد فى الجند هزالاً وتغير ألوان فسأل قائدهم سعداً: ما الذى غير ألوان العرب ولحومهم؟ فأجابه: إنها وخومة[2] المدائن ودجلة، فكتب إليه: «إن العرب لا يوافقها إلا ما وافق إبلها من البلدان، فابعث سليمان وحذيفة فليرتادا[3] منزلا بريًّا بحريًّا ليس بينى وبينكم فيه بحر ولا جسر». وأمر أن تبلغ مناهج[4] المدينة أربعين ذراعًا وما يليها ثلاثين ذراعًا وما بين ذلك عشرين، وألا تنقص الأزقة عن سبع أذرع ليس دونها شىء، وألا يرتفع بناء الدور.

فبنيت الكوفة على هذا التخطيط.

وعلم أن الجند يشكون الشتاء ويعوزهم الملجأ الذى يسكنون إليه بعد الغزو فى حدود

(١) لا جناح: لا إثم ولا حرج ولا ذنب.

(٢) وخومة: فساد الجو والبيئة.

(٣) فليرتادا: فليختارا بعد البحث.

(٤) مناهج: طرق.

فارس، فكتب إلى عتبة بن غزوان أن «ارتد لهم منزّلا قريبًا من المراعى والماء» ووصف له ما يلتزم من مواقعه وخططه، فبنيت البصرة عند ملتقى النهرين.

وهو الذى أشار على عمرو بن العاص أن يحفر خليجًا بين النيل وبحر القلزم لاتصال المرافق بين مصر وعامة الدولة، وضرب له الموعد حولا يفرغ فيه من حفره وإعداده لمسير السفن فيه، فساقه من جانب الفسطاط إلى القلزم(١)، ولم يأت الحول حتى جرت فيه السفن، وسمى خليج أمير المؤمنين، ولم يزل مفتوحًا حتى ضيعه الولاة وغفل عنه الخلفاء.

فسياسته التعميرية وافية بالغرض منها لعصره، وقد يلاحظ عليها أبناء العصر الحاضر شيئاً لا يوافقهم كالحد من ارتفاع الدور والزهد فى تشييد القصور. أما هو فالوجه الذى توخاه فى سياسة التعمير أن يحمى الدولة فى نشأتها فى الترف والبذخ، وأن يحول بين الجند وبين الاستنامة(٢) إلى متاع القصور المشيدة، والصروح الممردة، وما فيها من بواعث الوهن والفتور. ومن فلاسفة العصر الحاضر من يحسب ضخامة البناء دليلًا على ابتداء الضعف وعفاء(٣) العقيدة، ويقول شبنجلر أحد هؤلاء الفلاسفة: إن الأمم فى نهوضها تعبر طريقين مختلفين: طريق العقيدة وقوة النفس، وتلازمه بساطة الظواهر وعظمة الضمائر، وطريق الفخامة المادية والوفرة العددية وفيه تنحل الضمائر وتخلفها العظمة التى تقاس بالباع والذراع، وتقدر بالقنطار والدينار، وكانت قبل ذلك تقاس بما لايحس من العزائم والأخلاق.

وعمر على كلتا الحالتين، لم يتعد طبائع الأشياء، ولم يأخذ فى زمانه بغير الصالح من الآراء.

* * *

وقصارى القول، أن هذا الرجل لم تواجهه فى ولاياته الواسعة صعوبة أكبر منه وأحوج إلى قدرة أعلى من قدرته أو هيبة ودراية أجل مما كان له من هيبة ودراية، فإذا

---

(١) القلزم: مدينة السويس الحالية. وكان البحر الأحمر قديماً يسمى بحر القلزم نسبة لهذه المدينة.

(٢) الاستنامة: الاطمئنان والرغبة والرضا.

(٣) عفاء: انتهاء وفناء.

عرضت الصعوبة الطارئة فهناك الحزم اللازم لمواجهتها، والحيلة الصالحة لتدبيرها، كأنما كان لها على استعداد، وكأنما عاش حياته كلها يتمرس[1] بهذه الأمور.

وكان اضطلاعه[2] بتفريج الأزمات والكوارث كاضطلاعه بتدبير الحاجات إلى التعمير والتنظيم. ففى السنة الثامنة عشرة للهجرة فاجأه قحط الرمادة المشهور، وهو القحط الذى لا يقال فى وصفه أوجز من قولهم يومئذ إن الوحش كانت تأوى فيه إلى الإنس، وإن الرجل المتضور من الجوع كان يذبح الشاة فيعافها لقبحها.

فنهض بهذه الكارثة نهوضه لكل خطب، واستجلب القوت من كل مكان فيه مزيد من قوت، وجعل يحمله على ظهره مع الحاملين إلى حيث يعثر بالجياع والمهزولين العاجزين عن حمل أقواتهم، وآلى[3] على نفسه لا يأكلن طعاماً أنقى من الطعام الذى يصيبه الفقير المحروم من رعاياه، فمضت عليه شهور لا يذوق غير الخبز والزيت، ونظر فى كل شىء حتى فى تعليم كل بيت كيف ينتفع بالرزق الذى يرسله إليهم مع عماله.. فقال للزبير بن العوام: «اخرج فى أول هذا العير فاستقبل بها نجداً، فاحمل إلى أهل كل بيت قدرت أن تحملهم إلى، ومن لم تستطع حمله فمر لكل أهل بيت ببعير بما عليه، ومرهم فليلبسوا كساءين، ولينحروا البعير فليحملوا شحمه، وليقددوا لحمه، وليحتزوا[4] جلده، ثم ليأخذوا كبة من قديد وكبة من شحم وحفنة من دقيق فليطبخوا ويأكلوا حتى يأتيهم الله برزق».

* * *

وهذه السهولة فى مواجهة كل حالة بما يوائمها هى التى تبرز لنا «مؤسس الدولة الملهم» فى هذا الرجل العظيم.

فكل عمل من هذه الأعمال سهل على القرطاس صعب عند تصورنا إياه، وإحاطتنا بما يستدعيه من تدبير وإنجاز وخلق وهيبة. فكم بين المدينة وتلك الأطراف فى زمن أسرع وسائله بعير سريع! وكم عمل عمر لملاحقة كل جيش يسير وكل بلد يفتح، وكل أمة تحكم، وكل عارض يطرأ على غير رقبة[5] ولا سابقة خبرة؟

(١) يتمرس: يتدرب ويتمرن ويعالج.

(٢) اضطلاعه: احتماله وقيامه.

(٣) آلى: حلف.

(٤) حز الجلد واحتزه: قطعه.

(٥) رقبه: ترقب وانتظار.

تجنيد الجيوش لشتى الميادين وليس بسهل، واختيار القوّاد على حسب ما يندبون له وليس بسهل، والأمر بكل حركة على حسب كل ميدان وليس بسهل، والسؤال عن قادة الأعداء ومداوراتهم[١] ليستقصى خبرهم ويعرف ما يقابلهم به من الكيد والعدة وليس بسهل، وإنشاء المدن والعمائر فى مواضعها، وإقامة الدواوين عند الحاجة إليها، وإرضاء الأمم والجيوش بالإصغاء إلى شكاياتهم ولو جاءت فى غير أوانها، والنهوض للكوارث والأزمات بما ينبغى لها، والمشاورة لمن تسمع منه المشورة، والاجتهاد بالرأى عندما تختلف الآراء، والاشتغال بكل شاك كأنه لا يشتغل بغير ما شكاه، وخدمة الناس فى دينهم وخلقهم كخدمته إياهم فى دنياهم ودولتهم، وتجدد هذه المتاعب يومًا بعد يوم، وشهرًا بعد شهر، وعامًا بعد عام، وهى شاقة لا سهولة فيها على غير صاحبها القدير عليها ولو زاولها عرضًا إلى أيام.

وجليل بعض هذا غاية الجلال لو أن صاحبه قنع منه بالإشراف والمراجعة، ولم يعمل بيده فيه كأنه خادم البيت المرهق وأجير الديوان الصغير، لكنه كما نعلم كان يكدح بيده ويحمل على ظهره ويتعقب[٢] بعينه، ولا يدع أحدًا من خدام الدولة الواسعة إلا وهو شريك له فى مثل ما يتولاه.

وأكبر ما يستحق الإكبار فى هذا الرجل الكبير أنه كان قادرًا على تأسيس الدول وعلى فتح الأمصار، ولكنه راض[٣] القدرتين فلم يقدم على فتح الأمصار إلا بمقدار.

فليس للفتح شهوة عنده ولا المجد الحربى لبانة[٤] من لباناته، وهو على علمه بأن الله وعد المؤمنين أن يورثهم الأرض لم يكن يرى فى ذلك داعيًا إلى العجلة بالفتح، كما كان يرى فيه دواعى للتبصر والأناة، حتى لا يسفك دم فى غير موجب ولا تعتسف خطة بغير روية.

فكان همه الأكبر تأمين الجزيرة العربية من أطرافها وحماية الإسلام فى عقر داره،

(١) المداوره: المحاربة والافتنان فى أساليب القتال.

(٢) يتعقب: يتبع ويفحص.

(٣) راض: روض وذلل.

(٤) لبانة: حاجة ورغبة.

ولولا أن الدول العظمى التى كانت تحدق بجزيرة العرب تحفزت[1] للبطش بها وقمع دعوتها فى مهدها لكانت للدولة الإسلامية سياسة أخرى فى مصاولة أولئك الأعداء.

فدولة الروم كانت ترسل البعوث إلى تخوم[2] الجزيرة. وتهيج القبائل لحرب المسلمين من عهد النبى عليه السلام، وكان المسلمون يعيشون فى فزع دائم من خطر هذه الدولة وأتباعها. يدل عليه كلام عمر وهو يتحدث عن أزواج النبى حيث يقول: «... وكنا تحدثنا أن غسان[3] تنتعل النعال لغزونا، فنزل صاحبى يوم نوبته فرجع عشاء فضرب بابى ضربًا شديدًا وقال: أثم هو؟ ففزعت فخرجت إليه، وقال: حدث أمر عظيم... قلت: ما هو؟ أجاءت غسان؟ قال: لا. بل أعظم منه وأطول... طلق النبى صلى الله عليه وسلم نساءه!»

ومن هذا الحديث يتبين لنا مبلغ الفزع من تهديد الروم للجزيرة العربية بالليل والنهار.

أما فارس فقد بلغ بطغيانها أن عاهلها غضب من دعوته إلى الإسلام فأوفد إلى الحجاز رسولًا مع نفر من الجند ليأتيه بالنبى العربى حيًّا أو ميتًا!! ولولا أنه مات قبل إنجاز وعيده واشتعلت نيران الفتن فى بلاده لوطئت الجيوش الفارسية أرض الجزيرة قبل أن ينهض العرب للدفاع. وما هو إلا أن حفظ العرب حدودهم من قبل العراق الفارسى حتى سكنوا إلى ذلك، وود عمر بن الخطاب «لو أن بيننا وبين فارس جبلًا من نار لا يصلون إلينا ولا نصل إليهم». ولم تتغير خطته هذه إلا حين استوى يزدجرد على عرش فارس وتأهب للغارة على المسلمين وإخراجهم من حيث نزلوا، فتجدد القتال.

وقد طال تردد عمر فى فتح مصر، ولم ينبعث إلى غزوها حبًّا للغزو ولهجًا[4] بالفتوح. ولولا أن علم أن أريطون قائد الروم فى بيت المقدس قد فر منها إلى مصر ليحشد فيها الحشود ويتأهب للكر على الشام لطال تردده فى الزحف عليها، ومع هذا أوشك أن يسترجع عمرو بن العاص بعد إشخاصه إليها، ونهاه عن الإيغال فى المغرب بعد فتحها

---

(١) تحفزت: استعدت وتوثبت.

(٢) تخوم: حدود.

(٣) غسان: عرب الشام

(٤) لهجا: اللهج بالشىء الولوع به.

لأن السطوة – وهو مقتدر عليها – لم تكن تزدهيه[1] ولا تغويه، لأن الضن بالأرواح أغلب فى طبعه من الشغف بالفتوح، و«أن رجلاً من المسلمين أحب إلىّ من مائة ألف دينار!».

* * *

فلا يخطئ القائل الذى يقول إن الأناة فى السطوة أكبر ما يستحق الإكبار من هذا الخلق الرفيع، وإن دلالته الإنسانية أكبر دلالة يشتمل عليها هذا السجل الحافل بالمآثر. لأنه يرينا القوة كيف تكون نعمة إنسانية عالية ولا تكون لزامًا نقمة من نقم الأثرة والأنانية، ويرينا الرجل كيف يقوى فلا يخافه الضعيف بل يخافه من يخيف الضعفاء.

وبحق يتزود بهذه القوة مؤسس دولة تقوم على دين، لأن الدولة قد تقيمها القوة الطاغية، أما الدين فلا يهدمه شىء كما تهدمه قوة الطغيان.

إن البأس الذى رزقته نفس عمر لحظ عظيم، ولكنه لو كان فى يدى غيرها لقد يكون نصيبها منه أو فى من نصيبها وهو فى يديها، فلم يشحذه عمر قط لغرض يخصه دون غيره، ولم يضرب به قط بمعزل عن الإيمان حتى فى أيام الجاهلية، فلو لم يقع فى روع[2] عمر أن محمدًا أهان قريشًا وانتقص دينها لما تصدى له بأذى، ولولا حرمة الإيمان الجاهلى عنده لما ثار على إيمان محمد وصحبه.

وغاية ما هنالك أنه فرق بين إيمان وإيمان، ففى الجاهلية كان إيمانه مضللاً فعقم ولم يأت بطائل، وفى الإسلام كان إيمانه رشيدًا فأتى بأطيب الثمرات.

* * *

قبل أن يقال إن عمر كان أكبر فاتح فى صدر الإسلام ينبغى أن يقال إنه كان يومئذ أكبر مؤسس لدولة الإسلام، وإنه أسسها على الإيمان ولم يؤسسها على الصولجان[3]، فكان

(١) تزدهيه: تستهويه وتستخفه.

(٢) الروع بالضم: القلب والعقل والبال.

(٣) الصولجان: عصا الملك، فارسى معرب، إذ لا يجتمع فى كلمة عربية صاد وجيم، الجمع الصوالجة، والمراد أنه لم يؤسسها على الطغيان والأبهة، وغطرسة الملوك.

مؤسسًا لها قبل أن يلى الخلافة وينفرد بالكلمة العليا، وكان من يوم إسلامه آخذًا فى تشييد هذا البناء الذى تركه وهو بين دول العالم أرسخ بناء.

إن تاريخ عمر وتاريخ الدولة الإسلامية لا يفترقان، فإذا بدأت بهذا فقد بدأت بفصل من تاريخ ذاك، ولن يطول بك الاستطراد، حتى تثوب إليه كرة أخرى.

عمر والحكومة العصرية

من الحقائق التى لا يحسن أن تغيب عنا ونحن نقدر الأبطال من ولاة العصور الغابرة أنهم أبناء عصورهم وليسوا أبناء عصورنا، وأننا مطالبون بأن نفهمهم فى زمانهم وليسوا هم مطالبين بأن يشبهونا فى زماننا، وأن الرجل الذى يصنع فى عصره خير ما يصنع فيه هو القدوة التى يقتدى بها أبناء كل جيل ولا حاجة به إلى اقتداء بنا، ولا أن يشق حجابَ الغيب لينظر إلينا ويعمل ما يوافقنا ويرضينا.

ويحسن بنا أن نذكر مع هذا أن أشكال الحكومات بمرتبة دون مرتبة المبادئ التى تقوم عليها، وأن المبادئ التى تقوم عليها بمرتبة دون مرتبة الروح الإنسانى الذى ينبغى أن يعمها ويتخللها، لأن المبدأ يعيبه أن يخلو من الروح الإنسانى، ولا يعيب الروح الإنسانى أن يخالف المبدأ فى بعض الأحايين.. فالملكية والجمهورية شكلان من أشكال الحكومة قد يقومان على مبدأ واحد هو مبدأ الحكومة الشعبية أو الديمقراطية، ولكن العدل والحرية هما الروح الإنسانى المقدم على المبدأ وعلى الشكل معًا، لأن فقد المبدأ والشكل لا يضيرنا إذا وجدنا العدل والحرية.. أما فقدان العدل والحرية فهو الذى يضير ولو توافرت المبادئ والأشكال.

فإذا عرفنا العدل بروحه ولبابه فلا ضير عليه أن تنكره مبادئ الثورة الفرنسية، أو مبادئ الوثيقة الكبرى فى البلاد الإنجليزية، أو مبادئ الدستور الأمريكى فى أيام آباء الدستور هناك، أو مبدأ من المبادئ التى لا تنى تتجدد وتتغير كائنا ما كان.

ويحسن بنا أن نسأل أنفسنا كلما أعجبنا بعظيم من عظماء العصور الحديثة: ماذا كان هذا العظيم صانعًا لو نشأ فى القرن الأول للهجرة مثلا أو القرن الأول للميلاد؟ أكان يصنع فيه ماهو «عصرى» فى زماننا أو يصنع فيه ماهو عصرى فى ذلك الزمان؟ فمما لا مراء فيه أنه يخالف عمله فى زماننا ولا يخاف عمله فى زمانه الذى نشأ فيه، ولا ملامة عليه فيما خالف وفيما وافق، بل اللوم علينا نحن إذ ننتظر مالا ينتظر، ونقيس على غير قياس.

وإلى جانب هذا كله ينبغى أن نذكر ولا ننسى أن عصرنا ليس بخير العصور! وأننا لو ملكنا تبديله فى كثير من الأمور لبدلناه، وأننا لا نتفق على استحسان الحسن ولا استقباح القبيح فيه، وأن الفارق الأكبر بينه وبين العصور الأخرى إنما هو فرق الألفة والاستغراب، فعصرنا مألوف لنا وسائر العصور مستغربة فى أنظارنا، وكثيرًا ما يكون الاستغراب عرضيًّا سخيفا متعلقًا بالمظاهر والأزياء دون الجواهر وحقائق الأشياء.

أذكر من الصور التى رأيتها فى الصحف الأوربية - ولا أنساها - صورة جامعة لبعض المشهورين والمشهورات فى أزياء عصرنا وأزياء العصور السابقة على اختلافها، عرضتها الصحيفة وأحسبها كتبت تحتها: هل تعرف هؤلاء لو مروا بك فى الطريق؟

فإذا تأملت الصورة رأيت فيها يوليوس قيصر فى القبعة الطويلة وكسوة السهرة السوداء، ورأيت كليوباترة فى زى الباريسية العصرية، ثم رأيت أميرًا من أمراء هذا الزمن وحكيمًا من حكمائه على نمط التماثيل التى حفظت لقياصرة الرومان وحكماء اليونان. فإذا بك تستغرب ما تألف وتألف ما تستغرب... وكأنك على استعداد أن تحادث يوليوس قيصر حديثك للرجل الذى يفهمك وتفهمه من الكلمة الأولى، وعلى حذر أن تقارب الرجل الذى مثلته لك الصورة فى زى الأقدمين المخالفين لك فى العقيدة والشارة والذوق ونمط التفكير والنظر إلى الأشياء.

هذه صورة نشرت يومئذ للتسلية والفكاهة، ولكنها خليقة أن تعلمنا الكثير، وأن تصحح لنا مقاييس المقابلة والتقدير بين كل عصر سابق وعصر أخير.

ونحن - إذ ننظر إلى أعمال عمر بن الخطاب ونقيسها إلى نظام الحكم فى زماننا - واجدون فيها كثيرًا من المستغربات التى تحول بيننا وبين تقديرها الصحيح للوهلة الأولى. ولكننا لا نلبث أن نرفع القشرة وننفذ إلى اللباب حتى تزول الغرابة، ونرى فى مكانها الحق الخالد الذى تتغير العصور ولا يتغير، بل نرى فى مكانها أحيانًا ما يصلح كل الصلاحية للتفسير حتى بمبادئ هذا العصر الأخير.

خذ مثلا أنه - وهو أقدر المالكين فى عصره - كان يقنع بالكفاف ويلبس الكساء الغليظ، ويهنأ إبل الصدقة - أى يداويها بالقطران - ويراه رسل الملوك وهو نائم على

الأرض نومة الفقير المدقع، وتعرض له المخاضة[1] وهو داخل إلى الشام فينزل عن بعيره ويخلع خفية ويخوض الماء ومعه بعيره، ويسافر مع خادمة فيساوى بينهما فى المأكل والمركب والكساء.

حاكم من حكام العصر الحديث لا يصنع هذا ولا يطالب بأن يصنعه، وهو وأبناء العصر الحديث على حق فيما ارتسموه لأنفسهم من السمت[2] والشارة، لأن حاكم الأمة يحتاج إلى المهابة بين قومه وغيرهم من الأقوام، وهذا حسن مشكور.

ولكن هذه وجهتنا نحن فى هذا، فما هى وجهة عمر فيه؟

وهذه حجتنا نحن فيما ارتسمنا، فما هى حجة عمر فيما ارتسم؟ إننا إذا عقدنا المقارنة بين الوجهتين والحجتين ألفيناه فى غنى عن وجهتنا وحجتنا، وأنه كان يصل إلى الغاية التى نرومها نحن من طريق أقوم وأنفذ من الطريق الذى توخيناه. فكان يعيش عيشة الفقراء وأمته وأمم أعدائه أهيب له مما تهاب التيجان فى القصور.

وكان عمل الرجل تثبيت سلطان وتثبيت عقيدة هى أساس الحكم قبل كل أساس، فكانت عيشته الفقيرة أعون له على تثبيت العقيدة، ثم لا غضاضة فيها على السلطان.

وكان يدين نفسه بهذه العيشة ولا يأبى على غيره أن يخالفها، ويقنع باليسير ويعطى الحق الكثير لمن يستحقه على تفاوت فى المآثر والأعمال. فلما ندب أبا عبيدة لتوزيع الطعام فى عام المجاعة أعطاه ألف دينار وألح عليه فى قبولها، ولما قسم الولايات جعل لكل وال كفاء عمله[3] من أجر وطعام مكفولا له مع عطائه الذى يعطاه كسائر المسلمين. وهو الذى خالف أبابكر فى التسوية بين الأعطية لعلمه بتفاوت الحقوق، فقال له: أتسوِّى بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف؟ أتجعل من قاتل رسول الله كمن قاتل معه؟ ولقد ظل كلاهما على رأيه حتى قام عمر بالخلافة فأخذ بمذهب التفضيل وتوفية العطاء حسب الحقوق. أما المهابة فمن افتقر من الولاة إلى

---

(١) المخاضة: موضع الماء يجوزه الناس مشاة وركبانا.

(٢) السمت: الهيئة.

(٣) كفاء عمله: أى ما يكافئ عمله ويجازيه.

المظهر فيها لم يمنعه عمر ولم يوجب عليه أن يقتدى بـه فى خصاصتـه[1] وشظفـه، فله من ذاك ما تقتضى به مصلحة الدولة حيث كان.

وبهذا يكون الحاكم عمر بن الخطاب قد أدى «الواجب الحكومى» على الوجه الأقوم، فلا سبيل لأحد إلى أن يؤاخذه فيه بقياس حديث أو بقياس قديم.

فإذا بقى أن نستدل بتشديده فى المعيشة على تفكيره أو خلقه فما هى الدلالة التى يدل عليهـا؟ هل يـدل هذا التشـديد فى محـاسبة النفس عـلى شىء يعاب؟ هـل هو أدنى إلى النقص أو أدنى إلى الرجحان؟

إن أناسًا يشددون على أنفسهم عن كـزازة[2] فى الطبـع، وضيق فى الحظيرة[3] وعجـز عن ملابسة الدنيا، وهذه نقائص تعاب فى مقياس الفكر والأخلاق.

ولكن هل كانت خليقة عمر بن الخطاب خليقة المرعب المتوجس العاجز الذى يرجع الشظف عنده إلى العجز عن ملابسة الدنيا؟

أعجل الناس بالاتهام لا يتهم عمر بهذا ولا بما يشبهه ويدانيه.. وإنما تدل جملة أخلاقه على أن الخلق الذى ألزمه حياة الشظف إنما هو خلق قوى يروض صاحبه على مايريد، وليس بخلق ضعيف يجفل من التصرف والتكليف إجفال العجز والرهبة والوسواس.

وفى «طبيعة الجندى» التى قدمنا الكلام فيها بعض التفسير لنظرته فى حساب نفسه، وفى الموقف الذى اختار أن يقفه بين يدى الله. فهو يعلم أن الله شديد الحساب وأن الله رحيم، ولكن الجندى القوى إذا وقف بين يدى مولاه جعل تعويله على الوفاء بالأمر وقضاء الواجب فى أدق تفاصيله، ولم يجعل معوله الوحيد على طلب الرحمة والصفح عن الخطيئة. فإن جاءه الصفح من مولاه فليس هذا بمعفيه أمام نفس من استقصاء الحساب ولو جار عليها. فأكرم لطبيعته الجادة القوية أن يجور على نفسه من أن يترخص فى إعطائها ثم يتعرض للصفح والغفران.

---

(١) الخصاصه: الفقر.

(٢) الكزازه: الانقباض، والمراد الترمت والجمود

(٣) الحظره: مأوى الماشيه، والمراد «ضيق الأفق».

وكان وفاؤه لحق الصداقة كوفائه لحق الله سببًا من أسباب هذا الشظف الذى عـاش عليه بعد النبى وخليفته الأول، فقد أبى له وفاؤه أن يعيش خيرًا مما عاشا، وأن يستبيح - وقد صار الأمر إليه - حظًّا لم يستبيحاه، وكثـيرا ما تـوسل إليـه خاصتـه أن يشفق على نفسه، وأقنعوه بما عملوا أنه أدنى إلى إقناعه، وهو أن يتوسع فى العيش ليكون ذلك أقوى له على الحق، فكان يقول لهم: «قد علمت نصحكم. ولكنى تركت صاحبى على جـادة[1]. فإن تركت جـادتهما لم أدركهما فى المنزل[2]». وكلما نصـح له ذووه ومنهم بنتـه حفصة أن يستكثر من الطعام الطيب والنعمة السائغة سألهـا: كم كان نصيب النبى من هـذا أو من ذاك، وأنت تعرفين نصيبه؟ فيكون السؤال هو الجواب.

ثم كانت رغبته فى إقامة الحجة على ولاته وعماله سببًا آخر من أسباب شظفه وقناعته بالقليل. فقد يستحى أحدهم أن يخون ليغنى وخليفته قانع لا يطمع فى أكثر من الكفاف.

وما كان عمر بالذى يجهل ما عرفه الناس من مروءة «الأبهة والوجاهة» وهو الذى يعلم ما جهلوه، ولكنه كان غنيًّا عنها إيثارًا لغيرها مما هو أرفع منها وأدل على المروءة فى حقيقتها. فكان يقول: «المروءة مروءتان: مروءة ظاهرة ومروءة باطنة، فالمروءة الظاهرة الرياش، والمروءة الباطنة العفاف».

فهو فى جملة أحواله يفرض الشظف على نفسه لأن قوّته الخلقية تستطيع أن تريد فتفعل، وتستسهل الجد الذى يصعب على غيرها. ففيها رجحان يكبره العقل والخلق، وليس فيها نقص يعاب بمقياس التفكير أو مقياس الأخلاق.

إنما كان الرجل يحاسب غيره فيعطيه حقه فى غير بخس ولا حرج، ويحاسب نفسه فيؤثر الشدة ليقطع الشك ويدرأ الشبهة[3] ويقتدى بصاحبيه، ويترك القدوة المثلى لمن يليه، فلا سبيل عليه لباحث فى نظم الحكم ولا لباحث فى معانى الأخلاق. على أن عصورنا الحديثة تستغرب الشظف من عمر وهى تهلل لملوكها وتكبر لهم حين يستنون لأنفسهم سنته فى بعض أوقات الضيق والمحنة، وهى الأوقات التى يتنبه فيها شعور الرعية للفارق

---

(١) الجادة: وسط الطريق، والمقصود طريق الرسول صلى الله عليه وسلم وصاحبه أبو بكر.

(٢) المنزل: المنزلة والمكانة.

(٣) يدرأ الشبهة: يدفعها ويبعدها.

بنها وبين راعيها فى المعيشة والتكليف. وأكثر ما يكون ذلك فى أوقات المجاعات والحروب وشح المئونة على الإجمال.

ففى الحروب الأخيرة تجاوبت الصحف بالثناء على الملوك الذين راضوا أنفسهم وراضوا أسرهم وحاشيتهم معهم على جراية الحرب التى توجبها ضرورات التموين، وعدوا من مفاخر الملوك أنهم لا يأكلون إلا ما تأكله شعوبهم، وأنهم لا يرون لهم عزة فى الترف الذى يعز على رعيتهم[١]، فاقتدوا بعمر فيما أوجبه على نفسه عام القحط[٢] وعلمتهم الشدة كيف ينفذون إلى الواجب الإنسانى من وراء زخارف الحضارة الحديثة.

وشىء آخر يستغربه العصريون فى نظام حكومة عمر وإن كانوا ليتمنون مثله لو استطاعوه، ونعنى به طريقته فى محاسبة الولاة والعمال سواء لتحقيق العدل أو لتحقيق الأمانة.

فكان يجزى الوالى جزاء المثل عن كل مظلمة وقعت على أحد رعاياه، ويأخذ الوالى بسيئات أبنائه وذوية إن ساءوا وهم مستطيلون[٣] بما للولاية من حول وجاه.

وكان يحصى أموال الولاه ثم يستصفى ما زاد عليها كلما فشت[٤] لهم فاشية من النعمة لا يخبرونه بمصدرها.

وفى هذا وذاك ضمان للعدل والأمانة يستغربه العصريون لأنهم لا يألفونه فى طرائق الحكومات العصرية.

ولكن أتراهم يستغربونه لأنه غير حسن أو لأنه غير مستطاع؟

بل لأنه غير مستطاع ولا ريب، أو لأن الحكومات العصرية لا تملك أن تتحراه وتنصف فى تنفيذه[٥].

---

(١) يعز على رعيتهم: يصعب عليهم تحقيقه.

(٢) عام القحط أو عام المجاعة، وقد سبقت الإشارة إليه.

(٣) مستطيلون: أى معتزون بسلطانهم وجاههم.

(٤) فشت لهم فاشية من النعمة: ذاعت وانتشرت، والفاشية كل شىء منتشر من المال كالغنم والابل وغيرها

(٥) تحاول الحكومات على عهدنا أن تتحراه بما تستطيع من وسائل.
وقانون الكسب غير المشروع ضرب من هذا الصنيع.

أما أنه حسن فلا شك فى حسنه، ولا فى أنه أحسن من نظائره بين النظم العصرية، لأن حكومات العصر الحديث قد تحمى الوالى وإن ظلم واعتدى فلا تسمح بمقاضاته إلا بإذن منها! وقد تحميه مرة أخرى بالإحالة إلى الثقة بالوزارة ومنع المناقشة فى عمله، لأنها هى المختصة بمناقشته فيه، وتعتذر فى الحالتين بعذر المحافظة على نظام الدولة أن يهدده مايهدد مراكز الحكام. ولم يكن عمر يخشى هذا الخطر لأنه أقوى منه، فله هو الحق وعلى النظم العصرية الملام.

أما الطريقة العصرية فى ضمان أمانة الحكام فهى أن تحرم عليهم الدساتير مباشرة الأعمال فى الشركات وما إليها، ثم هى لا تأخذ منهم درهمًا ولو دخلوا الخدمة صفر اليدين وخرجوا منها بالضياع والقصور والأموال. فمن استغرب الطرائق العمرية فى هذا الباب فليستغربها ما شاء وهو يعلم أن الغرابة ليست بعيب، وأن المألوف هو المعيب إن قصر عن الغرض المطلوب.

وما عدا هذا من اختلاف بين العهدين فقلما يعدو اختلاف الأسماء وتغيير العناوين؛ وقل أن ينفذ إلى ماوراء القشور.. وهذه بعض الشواهد التى تقرب أسباب النظر إلى حقيقة هذا الاختلاف. مر عمر فى سوق المدينة فرأى إياس بن سلمة معترضًا فى طريق ضيق فخفقه بالدرة وقال له «أمط عن الطريق يا بن سلمة!»[1]

ثم دار الحول[2] ولقيه فى السوق فسأله: أردت الحج هذا العام؟ قال: نعم يا أمير المؤمنين، فأخذ بيده حتى دخل البيت وأعطاه ستمائة درهم وقال له: يابن سلمة! استعن بهذه، واعلم أنها من الخفقة التى خفقتك بها عام أول!.. قال إياس: يا أمير المؤمنين ما ذكرتها حتى ذكرتنيها. فأجابه عمر: أنا والله ما نسيتها.

فالنظم العصرية تحار فى وضع هذه الحادثة فى باب من أبوابها المرتبة حسب الوظائف والأوامر والمراجعات.

ولكن ماذا يصنع جندى المرور فى عصرنا إذا شاء أن يميط الطريق ويفض الزحام؟ وماذا تصنع المحاكم فى تعويض من أصابه الضرب بغير ضرورة؟.

---

(١) امط عن الطريق: تنح وافسح.

(٢) دار الحول: انقضى عام.

إن جندى المرور ليضرب بالدرة وبما هو أقسى منها، وإن المحاكم لتعوض المضروب بشىء من مال الدولة عن خطأ الجند والموظفين. وعمر قد عوض الرجل من ماله كما يؤخذ من قول ابن سلمة أنه ذهب به إلى بيته، فإن لم يكن هذا المبلغ من مال عمر وكان من خزانة الدولة، فقد غَرِمَ عمر كل دين عليه قبل موته، ولم يفارق الدنيا إلا على ضمان وثيق أن يعاد كل درهم من دينه إلى ذويه، وقد يكون الخطأ يومئذ فى الحساب لا فى تصرف عمر بن الخطاب.

ورأى عمر امرأة فى زى استغربه فسأل عنها فقيل له: إنها الأمة فلانة! فضربها بالدرة ضربات وهو يقول لها: يالكعاء! أتُشبَّهين بالحرائر[1]؟

وهنا مجال واسع للحذلقة العصرية فى الكلام على «الحرية الشخصية»، وعلى حق من يشاء أن يلبس ما يشاء ويسير حيث يشاء.

ولكن ماذا تصنع الحضارة العصرية بالنساء المريبات اللاتى يتنكرن بأزياء الحرائر، ويأوين إلى البيوت فى أحيائهن، ويخرجن معهن إلى الطريق؟ وبماذا يختلف شأن النساء المريبات من شأن الإماء فى زمن كن فيه متهمات الأعراض؟

ورأى عمر رجلا يتبختر ويمشى مشية قبيحة لا تليق بالرجال، فأمره أن يتركها فأبى، وزعم أنه لا يطيق تركها فجلده. وعاد بعد جلده إلى التبختر فجلده مرة أخرى. ثم مضت أيام وجاءه الرجل وقد ترك تلك المشية القبيحة ودعا له: جزاك الله خيرًا يا أمير المؤمنين. إن كان إلا شيطانًا[2] أذهبه الله بك.

الحرية الشخصية مرة أخرى!

غير أن عمر فى عقوبته هذه إنما يعاقب على أمر نهى عنه القرآن وليس له أن يبيحه بحال، فهو قانون يعرفه من أوقع العقاب ومن وقع عليه ومن شهدوه وأقروه، وكلهم يأبى أن يمشى فى الأرض مرحاً، ويعدها من قبائح الآداب.

ولكننا فى العصر الحديث نقسم النواهى والأوامر إلى قسم يحاسب عليه القانون وقسم

---

(١) الحرائر: الأمة ضد الحرة والجمع إماء، والحرائر جمع حرة، واللكعاء الحمقاء.

(٢) إن كان إلا شيطانًا: أى ما كان إلا شيطانًا.

يحاسب عليه العرف المأثور. وعقاب العرف حق الأمة وليس بحق الحكومة والقضاء.

وحجة العصر الحديث أن العقاب القانونى هنا غير منصوص عليه، وليس النص عليه بمستطاع، وربما فتح الباب للأغراض والأهواء واستبداد الحاكمين إذا استطيع.

وعندنا أن حجة العصر الحديث فى هذا ناهضة لا شك فى صدقها، ولكنها إن نهضت فإنما تنهض على العصر الحديث ولا تنهض على عمر ولا على من وثقوا بعدله، وأسلموه زمام العرف والقضاء على السواء... فماذا لو استطاع العرف فى عصرنا أن يحاسب الناس بالحبس والجلد والغرامة على رذائل الذوق وقبائح الآداب دون أن يخطئ أو يجور؟ أيأبى الإصلاح وهو آمن عقباه؟ إن أباه فليس صوابه فى إبائه بأكبر من صواب عمر فى تقريره، وليس على عمر ولا على رعيته جناح أن يطمئنوا إلى عدل يعيينا أن نطمئن إلى مثله.

وقد تقدم أن عمر غضب على الحطيئة لهجائه الناس ونهاه أن يهجو أحدًا فضرع إليه الرجل وقال: إذن أموت ويموت عيالى من الجوع، فأنذره ليقطعن لسانه!.. ثم عطف عليه فساومه على ترك الهجاء بثلاثة آلاف درهم. فسلم الناس من لسانه، واستغنى عن هذه الصناعة ما عاش عمر، ثم عاد إليها بعد موته.

إن أمين الحساب فى خزائن الدول الحديثة يحار فى أى باب من أبواب المصروفات يضع هذه الدراهم التى اشترى بها هجاء الحطيئة، ولكنه لا يحار طويلا حتى يذكر باب الدعوة وما تنفقه الدول من الملايين ثمنًا للثناء والهجاء، فيضعها هنالك وهو أهدأ ضميرًا مما وضع فى الباب كله، لأنه مال تنتفع به الرعية وتنتفع به الأخلاق، ولا نفع فيه لذوات الحاكمين.

ولنضرب أمثلة من طراز آخر على الطريقة العمرية التى يستغربها العصريون وهم مخطئون فى استغرابها أو قادرون على النظر إليها كما ينظرون إلى المألوفات لو أطلقوا عقولهم من عقال الصيغ والأشكال ونفذوا من ورائها إلى الجواهر والأصول.

كان عمر يعُسّ فى المدينة فسمع صوت رجل وامرأة فى بيت، فتسور الحائط فإذا رجل وامرأة عندهما زق خمر[1]. فقال، يا عدو الله! أكنت ترى أن الله يسترك وأنت على

(١) الزق: السقاء (الإناء).

معصية؟ فقال الرجل: يا أمير المؤمنين: أنا عصيت الله فى واحدة وأنت فى ثلاث، فالله يقول: «ولا تجسسوا» وأنت تجسست علينا، والله يقول: «وأتوا البيوت من أبوابها» وأنت صعدت من الجدار ونزلت منه، والله يقول: «لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها»، وأنت لم تفعل ذلك... فقال عمر: هل عندك من خير إن عفوت عنك؟ قال: نعم، والله لا أعود، فقال: اذهب فقد عفوت عنك.

ما أسرع ما تقول الحذلقة العصرية وهى مستريحة البال: هذه بدوات[1] البادية فى حكمها. تجسس ثم محاجة جدلية، ثم نزول عن عقاب. وهى «طريقة تعوزها الإجراءات الرسمية» التى نحن عليها حريصون، وبها جد فخورين!..

لكن ما القول فى مطابقة هذه الطريقة كل المطابقة لما يجرى عليه النظام الحديث فى إجراءاته الرسمية بغير استثناء؟

فالدساتير الحرة تمنع الرقابة وفض الرسائل واستباحة الأسرار... والحكومات مع هذا المنع الدستورى تضطر إلى استطلاع الأحوال واتقاء الجرائم بمراقبة المتهمين وذوى الشبهات. فإذا اتفق فى حادث من الحوادث أنها استباحت سرًّا يدل على جريمة محظورة فماذا يكون من سير الإجراءات الرسمية؟ يكون ما كان من عمر فى الحادث الذى رويناه بغير اختلاف... فالقضاء لا يأخذ بدليل يمنعه الدستور، ولا تثبت عنده الجريمة إلا بدليل مشروع، والحكومة تضطر هنا إلى السكوت ومتابعة الحالة حتى تسفر عن بينة يجوز لها أن تعتمد عليها أمام القضاء. وهى فيما تصنع من هذا القبيل أعجز من عمر فيما صنع، لأنه جعل الاستطلاع سبيلا إلى العظة والتوبة، واستغنى عن الإجراءات الرسمية التى نحن عليها حريصون وبها جد فخورين!

ونقترب من حادث تطول فيه الألسنة العصرية أبعد مما طالت فى شتى الحوادث التى قدمناها، ونعنى به كتابه الذى خاطب به النيل يوم قيل له إنه أمسك عن الفيضان.

وقد زعم المؤرخون أن أهل مصر ذهبوا إلى عمرو بن العاص فى شهر بئونة فأخبروه أن للنيل عندهم سنة قديمة لا يجرى إلا بها، وهى «أنهم إذا كانت ليلة ثلاث عشرة من هذا الشهر عمدوا إلى جارية بكر بين أبويها فحملوا عليها من الحلى والثياب أفضل

(١) البدوات: جمع بداة وهى الرأى الذى يسنح.

ما يكون ثم ألقوا بها فى النيل»... فلم يجبهم عمرو إلى ما سألوه وقال لهم: هذا لا يكون فى الإسلام، وإن الإسلام يهدم ما كان قبله. فأقاموا بئونة وأبيب ومسرى لا يجرى فيها النيل قليلا ولا كثيراً، ثم رفع عمرو الخبر إلى عمر فاستصوب ما صنع وكتب له: إنى بعثت إليك بورقة مع كتابى هذا فألقها فى النيل. وفى الورقة كتاب يخاطب به النيل يقول فيه: «من عبد الله عمر إلى نيل مصر. أما بعد، فإن كنت تجرى من قبلك فلا تجر، وإن كنت تجرى من قبل الله فنسأل الله أن يجريك».

قال رواة هذه القصة: إن عمرا ألقى بالورقة فى النيل قبل يوم الصليب بشهر، وقد تهيأ أهل مصر للجلاء والخروج، فأصبحوا يوم الصليب وقد أجراه الله ستة عشر ذراعاً[1]، واستراحوا من ضحاياه فى ذلك العام وفيما بعده من الأعوام.

والرواية على علاتها قابلة للشك فى غير موضع عند مضاهاتها على التاريخ. وقد يكون الواقع منها - وإن وقعت - دون ما رواه الرواة بكثير. ولتكن على هذا صحيحة بحذافيرها، فما هى الغضاضة فيها على العلم الحديث، ولا نقول على العقل «البدوى» قبل نيف وألف سنة؟.

إن عمر لم يجد أهل مصر معولين فى فيضانهم على القناطر والسدود وفنون الهندسة فأبى عليهم أن يعولوا عليها، ولكنه وجدهم معولين على خرافة يعافها العقل والشعور فأنكرها وحق له أن ينكرها، ولم يقل لهم إن ورقته الملقاة فى النيل هى التى تجريه، بل قال لهم إن النيل ليجرى بغير تلك السنة التى استنوها له وبغير القربان الذى يتقربون به إليه، وليس فى هذه القصة كلها ما يستغرب من حاكم عصرى مؤمن بالله منكر للخرافات. فورقة عمر أقرب إلى العقل فى زماننا هذا من الكئوس والقوارير التى تكسر فى الأنهار عند فتح قناطرها وجسورها، وأقرب إلى العقل من البخور الذى يحترق فى البِيَع[2] والهياكل جلباً للفيضان واستغاثة بالسماء.

ونحن لا نعرض لهذه الأشتات من طريقة عمر فى حكومته لأنها هنات تلجئ

---

(١) ذراع القياس تؤنث كثيرا وتذكر قليلا.

(٢) البيع: الكنائس.

المعجب به إلى دفاع وتسويغ. وليس فى كل هذه الأشتات وأشباهها ما يلجئ عمر ولا المعجبين به إلى دفاع أو تسويغ.

وإنما عرضنا لها توسعة لأفق النظر إلى العظمة الإنسانية فى مختلف أزمانها، واستخفافًا بالغرائب التى تخلقها العادة العارضة لعبادها، ثم هى لا تستحق من هوانها أن نخسر من أجلها شعورنا بعظمة الإنسان، وإنها لأنفس ما نصونه ونعتز فى جميع الأزمان.

عدل عمر نخسره لأنه كان يقضى فيه بغير «استئمارة» مدموغة ينص عليها قانون المرافعات! أو لأنه كان يقضى فيه على غير «الإجراءات العصرية» فى مواجهة الحقوق الشخصية! أو لأنه كان يقضى فيه قضاء يختلف الفقهاء فى عنوانه وفى الرف الذى يضعونه عليه بين رفوف الأضابير!...

يا لها من حماقة تخجل العصر الحديث! تخجله وهو واقف بين العصور يتطاول عليها بتسخيف الحماقات وإدحاض الخرافات.

عمر والنبى

يندر أن يظفر الباحثون فى طبائع الإنسان بمغنم نفسى هو أوفر ثمرة، وأنفس محصولا من دراسة عمر بن الخطاب، لأن الظواهر المختلفة التى تتجلى فى هذه النفس العظيمة ليست من ظواهر كل يوم، ولا ظواهر كل دراسة، ولأن اتفاقها البسيط مع تركيبها العجيب مما يتعذر جدًّا فى النفوس التى نعهدها، ومما يتعذر جدًّا حتى فى نفوس الأفذاذ من العظماء.

بيد أن المغنم الأكبر فى هذه الدراسة إنما هو مغنم علم الأخلاق. لأن علم الأخلاق أحوج إلى الاستدلال بالظواهر الطبيعية، وأفقر إلى الأسناد والدعائم التى تقيمها أمثال هذه الدراسات.

فكل نفس – عظمت أو صغرت – فدراستها مغنم لعلم النفس لا شك فيه، كائنة ما كانت النتيجة التى تتأدى إليها من بحث خفاياها، وتنظيم شواهدها.

لكن الوصول إلى نتائج علم الأخلاق هو الصعب الجديد الذى لن يزال اليوم وبعد اليوم صعبًا وجديدًا إلى أمد بعيد.

فالمفروض أن نتائج علم الأخلاق «فكرية تكليفية» يستنبطها الفكر الذى يختلف فى صوابه كما يختلف فى خطئه، ويمليها التكليف الذى يطاع ولا يطاع، ويراض عليه الإنسان رياضته على الأمر الغريب «الأجنبى» عن نوازع الطباع.

فإذا اهتدينا إلى نفس تعزز تلك النتائج الفكرية التكليفية التى هى أقرب إلى الآمال المنشودة منها إلى الوقائع الموجودة فقد ظفرنا بمغنم كبير.

وإذا ظفرنا بحقيقة نفسية، هى فى الوقت نفسه حقيقة فكرية، وحقيقة خلقية، فذلك هو المغنم المضاعف الذى قلما ينال.

ونفس عمر بن الخطاب هى تلك النفس التى ندعم علم الأخلاق من الأساس، وهى

ذلك الصرح الشامخ الذى ننظر إلى أساسه فكأننا تسلقنا النظر إلى ذروته العليا، لأنه قرّب بين الآمال والقواعد أوجز تقريب، إذ هو التقريب الملموس.

آمال كثيرة من آمال محبى الخير ودعاة الإصلاح هى فى نفس عمر بن الخطاب وقائع مفروغ منها، كأنها وقائع المرئيات والمسموعات.

فمنها فيما أسلفناه أن القوة لا تناقض العدل فى طبيعة الإنسان بل يكون العدل هو القوة التى تخيف فيخافها الظالمون.

ومنها فيما نحن بصدده الآن أن القوة لا تناقض الإعجاب على خلاف ما يتبادر إلى الأكثرين.

فإن الأكثرين يحسبون أن الرجل الذى يعجب به الناس لا يعجب هو بأحد، وأن البطل الذى يقدسه عشاق البطولة لا يعشق البطولة فى غيره، وأن التطلع إلى الأعلى صفة ينطبع عليها الصغار ليرتفعوا بعض الارتفاع ويحسنوا الخدمة والعون للكبار، ولكنها صفة ينفر منها الكبير ويحس فيها الغضاضة أن يصغر إلى جانب المتفوقين عليه، ممن هم أكبر قدرًا، وأحق بالإعجاب.

لكن البطل الذى ندرسه هذه الدراسة ينقض ذلك الحسبان أقوى نقض مستطاع، لأنه بطل يروع ويعرف روعة البطولة... ويستحق الإعجاب غاية استحقاقه، ثم يخيل إليك من فرط ولائه لمن يفوقونه أن خلق للإعجاب بغيره، ولم يخلق ليكون هو موضع إعجاب.

فعمر كان يحب محمداً حب إعجاب، ويؤمن به إيمان إعجاب، ويستصغر نفسه إذا نظر إلى عظمة محمد، وما هو فيما خلا ذلك بصغير فى نظر نفسه ولا فى نظر الناس.

كان محمد عليه السلام كما نعلم قدوة فى الدعة وحسن المعاملة لجميع صحبه وتابعيه، وكان يعاملهم جميعًا معاملة الإخوان والزملاء، فلا يغمرهم برهبة التفاوت الشاسع والتفوق البعيد. فلو جاز أن ينسى أحد فارقًا بينه وبين عظيم لنسى أصحاب النبى هذا الفارق بما يلقونه من مساواته وحسن معاملته، ولو نسيانًا إلى حين.

ألا إن عمر «العظيم» سمع مرة من صديقه محمد عليه السلام كلمة «يا أخى» فظل يذكرها مدى الحياة.

استأذنه فى العمرة فأذن له وقال: «يا أخى لا تنسنا من دعائك».. فما زال عمر يقول بعدها كلما ذكرها: «ما أحب أن لى بها ما طلعت عليه الشمس، لقوله يا أخى!».

شهادة لعظمة محمد أنه يؤاخى الناس كبارًا وصغارًا وأن الناس كبارًا وصغارًا لا ينسون ما فى مؤاخاته من فخر وغبطة، وما بينهم وبينه من فارق بعيد.

وشهادة لعظمة عمر أنه أهل لذلك الإخاء، لأنه يدرك ما فيه من عظمة، ويشعر بما فيه من رضوان.

وما يدريك ما عمر الذى يشيع فى قلبه الفرح بهذا الإخاء؟

ليس بالرجل الذى يحب تواضع المرائين، وليس بالرجل الذى يجهل مقداره أو يهاب مخلوقًا بغير الحق، وبغير الإعجاب.

عمر هذا هو الذى تولى الخلافة وحجته الأولى فى ولايتها أنه أكفأ المسلمين لها غير مدافع، وأنه كما قال: «لو علمت أن أحدًا أقوى منى على هذا الأمر لكان أن أقدَّم فتضرب عنقى[1] أحب إلى من أن أليه»[2].

نعم، هو عمر أقدر المسلمين كما يعلم، وهو عمر الذى يستصغر نفسه إذا نظر إلى المثل الأعلى والقدوة الفضلى، وهو إذن أكبر ما يكون بهذا الاستصغار.

لقد كان يُسمع وهو خليفة يقول كالساخر وما هو بساخر: «بخ بخ[3] يا بن الخطاب. أصبحت أمير المؤمنين!».

أكان يقولها لأنه كان يجهل أنه أكفأ العرب للخلافة بعد صاحبيه؟.. كلا.. بل كان يقولها لأنه يعرف النظر إلى المثل الأعلى.. يعرف الإعجاب بما فوقه، يعرف محمدًا ويعرف أن اللحاق به أمل لا يطال، يعرف الإعجاب بطلا معجبًا ببطل، ويشاء فضله أن تحصى له هذه بين أصدق شواهد البطولة فيه.

(١) العنق: يذكر ويؤنث.

(٢) أليه: مضارع من ولى الأمر فهو يليه وأنا أليه.

(٣) بخ: كلمة تقال عند الرضا بالشىء.

ومن الخطأ أن يتوهم المتوهم أن عمر كان يتصاغر لأنه يشعر بصغره، ويتواضع لأنه شعر بضعة فيه

إن الصغير لا حاجة به إلى تصاغر لأنه صغير، وربما كانت حاجته الكبرى إلى مداراة شعوره الدخيل بتفخيم الرواء، وتزويق الطلاء، والتخايل بالمسكن والكساء.

وإنما كان عمر يتصاغر لأنه يشعر بعظمته ويكبح ما يخامره من اعتداد بنفسه، ومحال أن تمتلئ نفس بمثل هذه القوة ثم تخلو من شعور بقوتها واعتداد بقيمتها. فليس ذلك من معهود الطباع فى حى من الأحياء، ولا نقصر القول على الإنسان.

ولهذا كان عمر يتصاغر على قدر ما يراه من بواعث الكبرياء، لا على قدر ما يراه من بواعث الصغر، فأبى أن يركب البرذون[1] وهو يغالب عزة الفتح داخلا إلى الشام دخول المنتصر، وقيل له فى ذلك فصاح بهم: خلوا سبيل جملى! إنما الأمر من هاهنا، وأشار إلى السماء!

وكلما اعتز من حوله من خاصة أهله وخلصاء رعاياه بما يرونه فيه من بسطة السلطان وعلو الكلمة غض من اعتزازهم وأحضر فى أذهانهم ما ينسيهم السلطان المبسوط والكلمة العالية فقال لأصحابه يومًا، وقد مر ببعض الشعاب[2] على مقربة من مكة «لقد رأيتنى فى هذه الشعاب أرعى إبل الخطاب، وكان غليظًا يتعبنى ثم أصبحت وليس فوقى أحد!».

وضايقت هذه الكلمة ابنه فقال له: ما حملك على ما قلت يا أمير المؤمنين؟».. قال: «إن أباك أعجبته نفسه فأحب أن يضعها[3]».

وانظر هنا إلى كلمة «أمير المؤمنين» يقولها الابن، ثم انظر إلى كلمة «أباك» يقولها أمير المؤمنين.

ومن قبيل هذا ركوعه لله ذليلا خاشعًا يوم أمر أبا سفيان أن ينقل الحجر من مكانه فنقله، فخشع لله الذى جعله يأمر أبا سفيان فى شعاب مكة فيستمع لما أمر.

---

(١) البرذون: ضرب من الدواب يخالف الخيل العراب، عظيم الخلقة غليظ الأعضاء.

(٢) السعاب: جمع شعب (بكسر الشين) وهو انفراج بين الجبلين أو هو الطريق.

(٣) أن يضعها: أن يقلل من شأنها.

وليس هذا وأشباهه تصاغرًا يكشف الصغر، إنما هو تصاغر يكشف القوة والاعتداد بها، ويكبحها بعنان متين هو نفسه دليل القوة والاعتداد.

* * *

بل يشاء بأس هذا البطل أن تتمادى فيه الصفات إلى غايتها وهى متناقضة فى النظره الأولى، فإذا بهذا التمادى يردها إلى الوفاق والتكافؤ ولا يوسع ما بينها من ظواهر الاختلاف.

فما رأيناه أنه عادل يفوق العدول، وقوى يفوق الأقوياء، فإذا العدل والقوة فيه وفقان متساندان لا يختصمان ولا يتناقضان.

ومما رأيناه أنه بطل تعجب بطولته الأصدقاء والخصوم، ثم هو فى إعجابه بالبطولة كأنه خلو من دواعى الإعجاب.

وبقى من موافقاته النادرة أن الإعجاب عنده لا ينفض الاستقلال، ولا يهدد «الشخصية» بالفناء والزوال، فيعجب بمن يفوقه غاية الإعجاب، ويحتفظ معه باستقلال رأيه غاية الاحتفاظ، ولا يتناقض الأمران.

فلم يكن أحد يعجب بمحمد أكبر من إعجاب عمر.

ولم يكن أحد مستقلا برأيه فى مشورة محمد أكبر من استقلال عمر. فهو آية الآيات على أن فضيلة الإعجاب لا تغض من صراحة الرأى عند ذى الرأى الصريح.

فما أحجم عمر قط عن مصارحة النبى عليه السلام برأى يراه، ولو كان ذلك الرأى من أخص الخصائص التى يقف عندها الاستقلال.

فمحمد فى بيته وهو صاحبه، ومحمد فى شريعته وهو صاحبها، كان يستمع إلى عمر حين يقترح وحين يستنزل الأحكام، وحين يستدعى الوحى فى أمر من الأمور.

فكان يشير على النبى عليه السلام أن يحجب نساءه، ويبلغ ذلك إحدى أمهات المسلمين زينب فتقول له: «إنك علينا يا بن الخطاب والوحى ينزل علينا فى بيوتنا!».. وتخرج إحداهن سودة وهى تحسب أن أحدًا لا يعرفها لاستتارها بالظلام فيعرفها بطول قامتها ويناديها «عرفتك يا سودة!» ليؤكد ضرورة الحجاب.

ولما هم النبى عليه السلام بالصلاة على عبد الله بن أبى كبير المنافقين يوم وفاته تحول عمر حتى قام فى صدره، وأخذ يذكره مساوئ عبد الله وأقاويله فى النكاية بالإسلام، وحكم القرآن فيه وفى أمثاله أن «استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم»، وألح فى التذكير حتى أكثر على النبى عليه السلام وهو يبتسم ويقول له: «أخر عنى يا عمر، لو أعلم أنى إن زدت على السبعين غفر له زدت»، ثم صلى عليه ومشى معه حتى فرغ من دفنه.. ثم ما كان إلا يسيرًا كما قال عمر حتى نزلت هاتان الآيتان: «ولا تصل على أحد منهم مات أبدًا ولا تقم على قبره».

وروى أبو هريرة عن النبى عليه السلام أنه أنفذه إلى رهط من المسلمين فقال له: اذهب إليهم «فمن لقيت من وراء هذا الحائط يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه فبشره بالجنة»، فكان أول من لقى عمر، فصده وعاد به إلى النبى يسأله: «يا رسول الله بأبى أنت وأمى، أبعثت أبا هريرة من لقى يشهد أن لا إله إلا الله مستيقنًا بها قلبه بشره بالجنة؟». قال النبى: نعم. فلم يتريث عمر أن قال: «فلا تفعل يا رسول الله! فإنى أخشى أن يتكل الناس عليها. فخلهم يعملون»، فوافقه عليه السلام وقال: «فخلهم!».

وفى التشريع أو التحليل والتحريم، كان عمر لا يقنع حتى يصل إلى القول الفصل فيما يستفسر عنه ويتردد فى حكمه، فما زال يسأل عن الخمر حتى حرمت وبطل فيها الخلاف. وهو هو الذى كانت الخمر شهوة له فى الجاهلية يحبها ويكثر منها، ولو شاء لالتمس الرخصة فيها ولم يكثر من السؤال عن تحريمها، ففى سؤاله عنها وحذره منها فضل أكبر من فضل الاستقلال بالرأى والإخلاص فى المراجعة، وهو فضل الغلبة على النفس والتحصن من الغواية بالأمر الذى لا هوادة فيه.

وجرى صلح الحديبية الذى كان ظاهر الغبن فيه على المسلمين، وظاهر الفوز فيه للمشركين. فيستطيع قارئ التاريخ قبل أن يحصى أسماء المعارضين للصلح والصابرين عليه، أن يعلم أين كان عمر بين الفريقين، فقد غمه هذا الصلح غمًّا شديدًا وذهب إلى أبى بكر يراجعه ويناجيه: علام نعطى الدنية فى ديننا؟ فأجابه أبو بكر: يا عمر الزم غرزك أى رحلك[1] فإنى أشهد أنه رسول الله. وردد عمر أنه ليشهد أنه رسول الله، ثم ذهب فى

(١) الرحل: كل شيء يعد للرحيل من متاع ومركب إلخ.

بعض الروايات إليه عليه السلام فسأله: ألسنا يا رسول الله على الحق وهم على الباطل؟ أليس قتلانا فى الجنة وقتلاهم فى النار؟ ورسول الله يجيبه: بلى! بلى! فيعود فيسأل: علام نعطى الدنية فى ديننا ونرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟

فلما ناداه، ابن الخطاب! إنى رسول الله! ولن يضيعنى الله أبدًا، ثم علم أنه الفتح المنتظر، ثاب إلى الرضا وكف عن السؤال.

والمحنة على ما هى عليه أعظم ما يطيقه صبر عمر وتسكن إليه سورة[1] طبعه. فمن شروط الصلح أن يرجع المسلمون عامهم ذاك، فيردوا من جاءهم من قريش، ولا ترد إليهم قريش أحدًا ممن يجيئون إليها، وأن يكتب النبى اسمه فى عقد الصلح فلا يكتب فيه أنه رسول الله، وهذه محنة وردت على حمية[2] عمر بالوارد الجلل الذى ليس أقسى منه ولا أمر على هذه الحمية العَزوف. ولكن الصلح لم ينته حتى تفاقمت المحنة وادلهمت الغاشية كأن ما ابتلاه منها لا يكفيه. فبينما هم يكتبون إذ جاء أبو جندل بن سهيل يرسف فى الحديد قد انفلت إلى رسول الله. فقام إليه سهيل[3] – وكان وكيل المشركين فى عقد الصلح – فضرب وجهه وأخذ بتلابيبه ليدفع به إلى قريش، وأبو جندل يصيح: يا معشر المسلمين، أأرد إلى المشركين يفتنوننى فى دينى؟ فواساه النبى ودعاه إلى الصبر والاحتساب[4]، ووثب عمر إليه يمشى إلى جنبه ويدنى منه قائم السيف ويقول له: اصبر يا أبا جندل، فإنما هم المشركون، وإنما دم أحدهم دم كلب. ورجا – كما قال بعد ذلك – أن يأخذ أبو جندل سيفه فيضرب به أباه.. قال: ولكن الرجل ضن بأبيه ونفذت القضية.

فالمحنة أعظم مما تطيقه الحمية العمرية بغير وازع من هداية نبوة. ولأيًا ما[5] سكنت نفسه واطمأنت إلى حكمة سيده ومعلمه وهاديه. ولا سيما حين ناداه: ابن الخطاب! إنى رسول الله ولن يضيعنى الله أبدًا..

هذه المراجعة كانت من خلائق عمر التى لا يحيد عنها ولا يأباها النبى عليه السلام،

---

(١) سورة الغضب: وثوبه، وسورة السلطان سطوته واعتداؤه.

(٢) الحمية: الأنفة، والمراد أنها نزلت على أنفة عمر وكبريائه نزولا عظيمًا.

(٣) سهيل: هو أبوه.

(٤) الاحتساب: الصبر وادخار الأجر عند الله على هذا الصبر.

(٥) لأيا ما: اللأى الشدة والمشقة. يقال فعل ذلك بعد لأى، ولأيا عرفت الشىء، ولأيا ما.

وكثيرًا ما جاراه واستحب ما أشار به وعارض فيه. فلا جرم يراجع النبى فى كل عمل أو رأى لم يفهم مأتاه ومرماه ما أمكنته المراجعة، وما قلقت خواطره حتى تثوب إلى قرار.

اللهم إلا أن تستعصى المراجعة ويعظم الخطر فهناك تأتى الخليقة العمرية بآية الآيات من الاستقلال والحب والحزم الذى يضطلع بجلائل المهمات. فلما دخل النبى عليه السلام فى غمرة الموت ودعا بِطِرْس[1] يملى على المسلمين كتابا يسترشدون به بعده، أشفق عمر من مراجعته فيما سيكتب، وهو جد خطير، وقال: إن النبى صلى الله عليه وسلم غلبه الوجع، وعندنا كتاب الله حسبنا[2]. ومال النبى إلى رأيه فلم يعد إلى طلب الطرس وإملاء الكتاب. ولو قد علم النبى أن الكتاب ضرورة لا محيض عنها لكان عمر يومئذ أول المجيبين.

وكانت هذه سنته فى حياة النبى وبعد موته فى كل عمل لا يستريح إليه، فلم يحجم عن مراجعة أمره حيًّا وميتًا فى مسألة ليست من مسائل الوحى الذى فيه فصْل الخطاب، وما كانت المسألة مسألة رأى فهو ناهض لها برأيه حتى، يؤمن بخطئه، أو يرده عن المعارضة أمر مطاع.

كذلك صنع فى قيادة أسامة بن زيد قائد الجيش إلى البلقاء، وفيه جِلة الصحابة من كبار السن والمقام. فقد ولاه النبى القيادة ومات عليه السلام وهو فى أول الطريق، فقال أسامة لعمر: ارجع إلى خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم فاستأذنه يأذن لى أن أرجع بالناس، فإن معى وجوه الناس[3]، ولا آمن على خليفة رسول الله وثَقَل[4] رسول الله وثقل المسلمين أن يتخطفهم المشركون»، وقالت الأنصار: «فإن أبى إلا أن نمضى فأبلغه عنا، واطلب إليه أن يولى أمرنا رجلا أقدم سنًّا من أسامة».

وغضب أبو بكر، وكان جالسًا فوثب وأخذ بلحية عمر وهو يهتف به: ثكلتك أمك وعدمتك يا بن الخطاب! استعمله رسول الله وتأمرنى أن أنزعه؟

---

(١) الطرس: الصحيفة.

(٢) حسبنا: يكفينا.

(٣) وجوه الناس: أكابرهم.

(٤) الثقل: الحشم والمتاع.

فوجبت الطاعة، لأنه أبرأ ذمته بالمراجعة، وسمع أمر الرئيس الذى لا رجعة فيه، وعمر جندى متى صَرُحَ[1] له الأمر من صاحب الأمر لم يبق له إلا أن يطيع.

وختمت سنة النبى بوفاته فلم يكن بين الصحابة أحد أحرص على هذه السنة وألزم لها وأكثر رجوعًا إليها من عمر. ولم تكن له وصية مقدمة على الأخذ بكتاب الله وسنة رسوله. إلا أنه مع هذا لم يكن يغفل عن العلل إذا وجب البحث عن العلة التى وراء السنة النبوية، فخالف أبا بكر رضى الله عنه فى إقطاعه الأرض لعيينة بن حصن والأقرع بن حابس وقال لهما: إن رسول الله كان يتألفكما[2] على الإسلام وهو يومئذ ذليل، وإن الله قد أعز الإسلام.. «فاذهبا فاجهدا جهدكما..».

فقد علم سنة النبى مع «المؤلفة قلوبهم» ولم يغفل عن سببها وموقتها، فهى سنة تطاع لحكمتها ولا توضع فى غير موضعها، وليس على المسلمين حرج أن يختاروا للمؤلفة قلوبهم معاملة غير التى ألفوها من صاحب الرسالة، إذا تغيرت الحكمة واختفت العلة، واستغنى الإسلام عن ناصرين تتألفهم العطايا والأنفال[3].

ولمثل هذا السبب ولا شك نهى عن زواج المتعة، ونهى عن التحلل من بعض مناسك الحج ولم يكن منهيًا عنها كل النهى فى حياة النبى عليه السلام. فكان الرجل يتزوج بالمرأة لأجل معلوم ثم يتركها. وكان منهم من ينوى الحج ثم يتحلل من بعض مناسكه، فنهى عنها عمر فى أيام خلافته وقال: «متعتان كانتا على عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنا أنهى عنهما وأضرب عليهما».

وموافقات عمر للقرآن وللسنة كثيرة لا يدعونا المقام هنا إلى إحصائها واستيفائها، وكذلك مراجعاته ومناقشاته فيما يرد عليه من أحكام لا تنجلى مآتيها ومراميها، فحسبنا منها دلائل استقلاله وصراحة عقله فيما سردناه، وحسب الإسلام فخرًا أن يؤمن به الإنسان إيمان عمر ثم يستقل برأيه وطبعه استقلال عمر. فالإيمان فى أقصاه لا يعطل الرأى المستقل فى أقصاه، وكل صفة فى عمر فهى صفة مستقصية لا وسط فيها. إذا آمن

---

(١) صرح الأمر: وضح.

(٢) يتألفكما: يعطيكما ليستميل قلوبكما.

(٣) الأنفال: جمع نفل وهو الغنيمة.

فذلك غاية الإيمان، وإذا استقل فذلك غاية الاستقلال، وإذا أعجب فذلك غاية الإعجاب.. وإن الظفر الذى يظفره علم الأخلاق من دراسته لمَبْعَثه هذا الشاهد من الصفات التى تتناقض فى ظاهرها، وهى على عهدنا بها فى عمر متفقات متساندات لا تستغنى واحدة منها عن سائرها.

فلو لم يكن فى دراسة عمر إلا أن نرى رجلا عادلا بالغًا فى عدله، قويًّا بالغًا فى قوته، معجبًا بالبطولة بالغًا فى إعجابه، مستقلا بالرأى بالغًا فى استقلاله، لكفى بذلك ظفرًا لعلم الأخلاق، وكفى بسيرة واحدة أن تقرر لنا هذه الحقائق التى تستكثر على عشرات السير، وهى أن القوة لا تناقض العدل، وأن البطولة لا تناقض الإعجاب، وأن الإعجاب لا يناقض الاستقلال، وتلك الحقائق أثبت فى عمر من معارف بدنه وملامح سيماه.

* * *

وكانت مودة النبى لعمر كمودة عمر للنبى شرفًا له من جانبيه، وشهادة لعظمته وعظمة معلمه ومؤدبه وهاديه.

كانت نظرة محمد إليه نظرة عالية لا تعلوها نظرة أحد من أصحابه، فلم يكن أحد يكبر عمر كما كان يكبره أكبر عارفيه، ولم يكن رضاه عن مخالفاته ومراجعاته بأقل من رضاه عن موافقاته وتسليماته. لأنه كان ينظر إلى بواعث هذه وتلك فيحمدها ويرجو للإسلام خيرًا منها، بل يدخر للإسلام سورته[1] كما يدخر له تسليمه وطاعته، ويسوسه - فى رفق وكرامة - سياسة المعلم لتلميذه الذى يعينه ويستعين بغيرته، ويروضه رياضة الإمام لمريده الذى يهيئه للإمامة بعد حين، ويشجعه بقبول الحسن من رأيه تشجيع من يثبّت فيه حسن الرأى ويستزيده منه.

ولا يتأتى أن ينظر النبى الملهم إلى عمر دون أن يرى فيه أولى مشابهاته للطبائع النبوية، وهى الإلهام الدينى، والبصيرة الروحية. فكان عليه السلام يقول فيه: «قد كان قبلكم من بنى إسرائيل رجال يكلَّمون من غير أن يكونوا أنبياء، فإن يكن فى أمتى أحد فعمر».

---

(١) سورته: سورة الغضب وثوبه، وسورة السلطان سطوته.

ومثله قوله فى بعض ما نقل عنه عليه السلام: «لو كان بعدى نبى لكان عمر بن الخطاب» وقوله: «إن الله جعل الحق على لسان عمر وقلبه»... وقوله: «عمر بن الخطاب معى حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان».

وتلك لمحات نبى ملهم إلى بصيرة ملهمة تقارب بصيرة الأنبياء...

وإن فى هذه اللمحات لمعرفة بالنفس، ونفاذًا إلى الضمير، من أجلها كان محمد مصلح نفوس وهادى ضمائر، وفاتح عهد روحى فى تاريخ الإنسان.

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن محمدًا قد أحاط بكل فضيلة من فضائل عمر، وكل خليقة من خلائق طباعه. وراقبه قبل إسلامه وبعد إسلامه، فلم تفته كبيرة ولا صغيرة من مواطن العظمة فيه، إلا أنه لم يحمد منه شيئًا كما حمد حبه للحق وكراهته للباطل، فهى الخصلة التى تلاقيا فيها وتقاربا من قِبَلها، وإن كان محمد لأرحب صدرًا، وأعلم بالناس من أن يكلف صاحبه أن يشبهه كل الشبه فى علاج الحق والباطل، فلا بد من فارق بين الرجلين هو الفارق الذى لابد منه بين المعلم والمريد، وبين الإمام والمأموم.

ولا نخالنا نلمس هذا الفارق كما نلمسه من قصة الأسود بن شريع، ذلك الشاعر الذى كان ينشد النبى بعض الأماديح فاستنصته[1] مرتين إذ دخل عليهما عمر والشاعر لا يعرفه. فصاح: واثُكلاه[2]! من هذا الذى أسكت له عند النبى؟ فقال النبى: هذا عمر.. هذا رجل لا يحب الباطل!»

وتلك قصة تُكْبِر عمر مرة وتُكْبِر النبى مرات، فلايسمعها السامع فيخطر له أن محمدًا كان يقبل الباطل الذى يأباه عمر. أو كان يهوى اللغو الذى يعرض عمر عن سماعه.. وإنما يسمعها فيعلم أى الرجلين يهدى صاحبه فى مناهج الحق ويدربه على كراهة الباطل، ويعلم أن الإمام يطيق ما لا يطيقه المريد ويتسع صدره لما تضيق به صدور تابعيه، وأن محمدًا أراد أن يعود الناس مهابة عمر، وأن يستبقى لعمر سورته فى محاربة الضلال، والأيام كفيلة بترويض تلك السورة فيما ينبغى أن تراض عليه.

---

(١) استنصته: طلب منه السكون والانصات.

(٢) الثكل: فقد الحبيبة، وكلمة واثكلاه.. صيغة من صيغ الندبة يراد بها التحسر وإبداء الدهشة هنا.

وهنا يتجلى مذهبان فى كراهة الباطل، ويتجلى فارق واضح بين مذهب المعلم ومذهب المريد.

فعمر كان ينكر الباطل إنكار المحارب، ويرفع له سلاحه حيثما رآه، ومحمد كان ينكره ولا يرفع له سلاحه حيثما رآه.. لأنه يعلم ضروبًا من الباطل وضروبًا من الإنكار.

ومن الإنكار أحيانًا أن يتجاوز عنه، وأن يشفق عليه إشفاق الرجل على سخف الطفل الصغير، وأن يتربص به الأيام حتى يزول، وأن يعالجه بسلاح المحارب وبغير سلاح المحارب، وهو بذلك قد أعد له ضروبًا من الإنكار، وكان أكمل عدة له من الراصدين له فى ميدان واحد.

أنقول إن الفارق بين محمد وعمر فى هذا هو الفارق بين نبى وخليفة!؟

إن قلنا ذلك فقد قلنا حقًّا جامعًا لا شبهة فيه، ولكنا لا نعدو به تحصيل الحاصل وتكرير الأسماء... فمحمد نبى وعمر خليفة ما فى ذلك خلاف. ولابد بينهما من فارق ما فى ذلك خبر جديد، فما هو الفارق الذى لايعدو تكرير الأسماء أو تكرير الصفات؟

الفارق فيما نرى هو الفارق بين إنسان عظيم ورجل عظيم.

فالنبى لا يكون رجلا عظيمًا وكفى: بل لابد أن يكون إنسانًا عظيمًا فيه كل خصائص الإنسانية الشاملة التى تعم الرجولة والأنوثة والأقوياء والضعفاء، وتهيئه للفهم عن كل جانب من جوانب بنى آدم. فيكون عارفًا بها وإن لم يكن متصفًا بها، قادرًا على علاجها، وإن لم يكن معرضًا لأدوائها، شاملا لها بعطفه وإن كان ينكرها بفكره وروحه، لأنه أكبر من أن يلقاها لقاء الأنداد[١]، وأعذر من أن يلقاها لقاء القضاة، وأخبر [٢] بسعة آفاق الدنيا التى تتسع لكل شىء بين الأرض والسماء، لأنه يملك مثلها آفاقًا كآفاقها، هى آفاق الروح.

ومن الصغائر الآدمية التى كثيرًا ما يطيقها الإنسان العظيم ويَبْرَم بها الرجل العظيم، كل غرور صبيانى يحيك بنفوس الناس، وهو ضروب ليست لها نهاية: غرور الشاعر

(١) الأنداد. جمع ند وهو النظير الكفء.
(٢) أخبر: أكثر خبرة.

بأماديحه، وغرور الفنان بصنعته، وغرور المرأة بجمالها، وغرور الشيخ بتراثه، وغرور الأحمق بخيلائه، وغرور الجاهل بعلمه.. وفى كل ضرب من هذه الضروب كان بين محمد وعمر فارق واضح وتفاوت محسوس، وكانت بينهما دروس تجرى بها الحوادث تعليمًا وهدى كما تجرى عرضًا غير ظاهر فيه قصد التعليم والتلقين.

وعمر رضى الله عنه قد استفاد من دروس معلمه وهاديه فى هذه الضروب شتى الفوائد، كما ظهر من سياسته فى أيام خلافته ومن مراجعة نفسه والنبى عليه السلام بقيد الحياة.

فقد أشار على النبى بقتل عبد الله بن أبىّ بن سلول حين مشى بالفتنة بين المسلمين. فأبى النبى وترك عبد الله يمضى فى شططه حتى أنكره قومه وعنفوه، وتصدى له من صُلبه من يريد له الموت[1]، فقال النبى لعمر حين بلغه ذلك من شأنهم : كيف ترى ياعمر ؟ أما والله لو قتلته يوم قلت لى اقتله لأُرْعِدَت له آنف لو أمرتها اليوم بقتله لقتلته، قال عمر : قد والله علمت، لأمْرُ رسول الله صلى الله عليه وسلم أعظم بركة من أمرى.

وكان عمر يستكثر صلاة النبى على عبد الله بن أبىّ بعد موته ويستعظم أن يهبه قميصه وأن يكفنه أهله فى ذلك القميص، وكان النبى يرعى فى ذلك حق ابنه الذى أخلص فى إسلامه، وبلغ من إخلاصه أنه اقترح على النبى قتل أبيه، وسئل النبى كما جاء فى بعض الروايات : لم وجهت إليه بقميصك وهو كافر ؟ فقال : إن قميصى لن يغنى عنه من الله شيئًا، وإننى أؤمل من الله أن يُدخل فى الإسلام كثيرًا بهذا السبب ! فقيل إن ألفًا من الخزرج أسلموا لما رأوا زعيمهم يطلب الاستشفاء بثوب الرسول، وخرجت الصحابة وعمر فى طليعتها بعبرة باقية من هذا الدرس النبوى الحكيم.

وشبيه بدرس عبد الله بن أبىّ درس الخطيب المفوه سهيل بن عمرو الذى أسر فى بدر فأشار عمر على النبى بكسر ثنيتيه السفليين ليعجز عن الكلام إذ كان مشقوق الشفة السفلى.. فأبى النبى «عسى أن يقوم مقامًا لا تذمه»، فما زال وما زال عمر حتى رآه فى حروب الردة يقطع بلسانه كما يقطع السيف، فحمد له ذلك المقام.

---

(١) كان من المنافقين وهو الذى قال فى غزوة بنى المصطلق «لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل» فغضب الرسول والصحابة لقولته.

وجاء الفتح بعد صلح الحديبية فرأى عمر كما رأى المعارضون معه أن قريشًا خسرت ولم تربح بالصلح الذى عارضوه، وأن المسلمين ربحوا ولم يخسروا بقبوله، وأنهم زادوا عددًا وزادوا حلفاء من غير المسلمين، وأن الذين رفضهم النبى من تابعيه عملا بالصلح لم ينفعوا قريشًا، بل كانوا بلاء عليها أشد من بلاء القتال. وبدأ ذلك من مبدأ الأمر لعمر فاعتبر به وقال: «مازلت أتصدق وأصوم وأصلى وأعتق من الذى صنعت يومئذ مخافة كلامى الذى تكلمت به حتى رجوت أن يكون خيرًا».

تجتمع خلاصة هذه الدروس كلها فى خبر واحد من أخبار عمر بعد ولايته الخلافة، وذلك حين بلّغوه فتح «تستر» وذكروا له أن رجلا ارتد عن الإسلام فقتلوه: فلامهم على قتله وقال لهم: «هلا أدخلتموه بيتًا وأغلقتم عليه وأطعمتموه كل يوم رغيفًا فاستتبتموه[1]؟ اللهم إنى لم أشهد ولم آمر ولم أرض إذ بلغنى».

فهذا عمر تلميذ محمد فى الإسلام، وهذا عمر شاهد دروس ابن سلول ومن على شاكلته من المنافقين والمشركين، وهذا عمر المستفيد بما وعى من تلك الدروس، ومعنى ذلك جميعه أن محمدًا أعظم من عمر، وليس معناه أن عمر لم يكن بعظيم.

ومن تحصيل الحاصل أن نقول إن النبى - عليه السلام - كان يعلم ما يحتاج إليه صاحبه وما يستغنى عنه من الدروس. فعمر لم يعوزه قط درس قوى يعلمه حب الحق وكراهة الباطل، لأنها خليقة متمكنة منه أصيلة فيه موشوجة[2] بطبعه، ولكنه قد يعوزه حينًا بعد حين أن يتعلم الصبر على الباطل ولاسيما فى فوعة الشباب [3] وألا يأسى على الحق أن تفوته معركة زائلة فى صراعه الدائم مع خصمه القديم، فهى معركة لا تضيع بصدمة ولا تؤخذ بهجمة، ولا تزال سجالا منظورة العواقب فى ساعة النصر وساعة الهزيمة على السواء.

وربما أعوزه ما يعوز الأقوياء فى معظم الأحايين، وهو أن يذكروا أن الناس جميعًا ليسوا بأقوياء، وأن الناس جميعًا ليسوا بعمر بن الخطاب، فإذا استطاع عمر أن يمنع الخمر مرة واحدة فقد يشق ذلك على آخرين، وإذا استطاع أن يتصدى للموت فى كل

(١) استتبتموه رجوتم توبته.

(٢) موشوجة بطبعه: أى موصولة به مرتبطة.

(٣) فوعة الشباب: حدته.

لحظة فليس ذلك فى وسع كل مسلم، وقلما يستحضر الأقوياء هذه الحقيقة إلا بعد تذكير وروية. أما على البداهة فهم يقيسون الناس على أنفسهم ويحسبونهم أهلا لما هم أهل له، وكفؤًا لما هم قادرون عليه، ولهم من الشرف فى نسيان هذه الحقيقة، فوق مالهم من الشرف فى تذكارها، ودوام استحضارها.

وقد كان تفكير عمر كله على البداهة فى عهد النبى عليه السلام فكان يفضى إليه بما يوحيه عفو خاطره وتمليه بادرة فكره[1]، مطمئناً إلى مرجع الرأى ومقطع القول بين يديه، شاعرًا بواجبه الأول أحسن شعور فى هذا المقام، لأنه شعور الرجل الكريم الذى لا يضن بشىء من عونه، فهو يعرض أقصى ما عنده من البأس ويدع لصاحب الأمر أن يكتفى باليسير منه إذا شاء، ولكن ليس عليه هو أن يعرض اليسير ويترك لصاحب الأمر أن يطلب الكثير.

مثل عمر فى هذه المواقف مثل صاحب المال تنزل الضائقة الحازبة[2] فيبسط ما عنده من المال جميعًا، ويدع للوالى القائم بالتدبير أن يختار من ماله مقدار ما يريد، وذلك أفضل الحسنيين وأكرم الواجبين، وهو الواجب الذى يليق بعمر فى صحبة الرسول.

ولا يحسبن قارئ أننا نعتسف[3] التأويل والتخريج لننظر إلى عمر فى أجمل الصور، ونوجه أعماله أحسن توجيه. فما نقوله هنا لايعدو تفسير عمر نفسه لما اتصف به من الشدة فى عهد رسول الله، وتفسيره - كما قال غير مرة - أنه كان سيفًا للرسول إن شاء ضرب به وإن شاء أغمده فى قرابه، وأنه كان جلوازه[4] القائم بين يديه، وليس من شأن الجلواز أن يمسك كثيرًا أو قليلا من بأسه حتى يؤمر بإمساكه، ويُرَد إلى الهوادة واللين.

بل هذا الذى نقوله هو الذى قاله أبو بكر رضى الله عنه فى شدة عمر ولينه، فكلما تحدثوا إليه بغلظته قال: إنما يشتد لأنه يرانى ليناً، ولا غلظة على الضعفاء فيه.

فكان جميلاً بعمر أن يسهو عن تلك الحقيقة وأن يحتاج فيها إلى تذكير واستحضار،

---

(١) تمليه بادرة فكره: أى بما يتأتى له من الرأى السريع.

(٢) الحازبة: الشديدة.

(٣) الاعتساف: الأخذ على غير الطريق، يعنى أننا لانحمل التأويل فوق ما يطيق.

(٤) الجلواز: الشرطى.

وكان أفضل واجبيه لا مراء أن يعرض البأس حتى يؤبى، ثم يثوب إلى اللين ولا جناح عليه.

وهو اليقين الذى لا يخامرنا الشك فى أن عمر كان خليقاً أن يفهم تلك الحقيقة بتفصيلاتها لو جعل باله إليها ولم يجعل باله إلى تقديم ما عنده «والجود بأقصى جوده» فى انتظار القول الفاصل من رأى النبى عليه السلام، ولولا استعداده لفهم تلك الحقيقة وما شابهها لما انتفع بالقدوة، ولا أغنت معه المثل والتجاريب.

ومهما يكن من حاجته إلى دروس معلمه وهاديه فالذى نعتقد أن مكانه من الخلافة لم تقرره الحاجة إلى تلك الدروس، لأن الصحابة كلهم على حكم واحد فى هذا الاعتبار سواء منهم الخلفاء الراشدون وغير الخلفاء الراشدين. فما من رجل كان بين أصحاب محمد عليه السلام إلا كان مفتقراً إلى جانب من جوانب هديه وتهذيبه وتقويمه، وما كان عمر على التخصيص بأشد افتقاراً إلى ذلك من رفاقه وتابعيه وإن اختلف ما يعوزه وما يعوزهم من مواضع الهدى والتهذيب والتقويم.

وواضح مع هذا أن دعوة النبى عليه السلام أبا بكر للصلاة بالناس فى مرض وفاته لم تكن بالمصادفة ولا بالاختيار الذى يتساوى فيه أبو بكر وعمر فى ذلك المقام. فقد دعاه ثم دعاه حتى وصل الأمر إليه رضى الله عنه فلباه: وتفصيل ذلك كما جاء فى رواية البخارى أن النبى اشتد عليه المرض فقال: مروا أبا بكر فليصل بالناس: قالت عائشة رضى الله عنها: إن أبا بكر رجل رقيق القلب إذا قام فى مقامك لا يكاد يُسْمِع الناس من البكاء. فلو أمرت عمر؟ فعاد النبى يقول: مروا أبا بكر فليصل، فعاودته، فقال مرة أخرى: مروه فليصل، إنكن صواحب يوسف[١].

وحدث عبد الله بن أبى زمعة أن بلالاً دعا النبى إلى الصلاة فقال: مروا من يصلى بالناس، «فخرجت فإذا عمر فى الناس، وكان أبو بكر غائبًا فقلت: قم يا عمر فصل بالناس. فقام، فلما كبر سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته، وكان عمر رجلاً مجهراً[٢]. فقال: فأين أبو بكر؟ يأبى ذلك الله والمسلمون. فبعث إلى أبى بكر فجاء بعد أن

(١) العبارة تحمل معنى اللوم والعتب على النساء، والإشارة إلى موقف النساء فى قصة يوسف عليه السلام.
(٢) مجهراً: مرتفع الصوت

صلى عمر تلك الصلاة فصلى بالناس».

قال عبد الله بن أبي زمعة إن عمر لقيني فقال لى: ويحك ماذا صنعت بى يا بن أبى زمعة؟ والله ما ظننت حين أمرتنى إلا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك. ولولا ذلك ما صليت بالناس... قلت: والله ما أمرنى رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك! ولكن حين لم أر أبا بكر رأيتك أحق من حضر بالصلاة.

والواضح من كلتا الروايتين أن النبى عليه السلام قصد إلى اختيار أبى بكر للقيام فى مقامه فى إمامة المسلمين وضمّن ذلك ما ضمنه من معنى الاستخلاف والتقديم.

فعلى أى وجه نفهم هذا الاختيار الذى صدر عن قصد وروية ولم يصدر عن مصادفة واتفاق؟ وعلى أى وجه تساءل النبى عليه السلام حين سمع صوت عمر ولم يسمع صوت أبى بكر فقال: «يأبى الله ذلك والمسلمون»؟.

إننا لا نفهم ذلك إلا على وجه واحد يجمل بمحمد ويجمل بأبى بكر ويجمل بعمر كما يجمل بالمسلمين.

فمن البديه أن ينظر النبى فى اختيار خليفته إلى جميع الاعتبارات التى تدخل فى الحسبان ولا يقنع بالنظر إلى اعتبار واحد.

فإذا نظر النبى إلى جميع الاعتبارات فأى غضاضة على عمر أن يقع الاختيار على أبى بكر ولا يقع عليه؟

إن اختيار أبى بكر يجمع للإسلام فضائل الرجلين ولا غضاضة فيه على أحدهما ولا على المسلمين. ولكن الغضاضة أن يتأخر أبو بكر وهو أسن وأسبق إلى الإسلام وثانى اثنين فى الغار، وأقمن[1] أن تبطل حوله منافسة الأنداد، وله الرأى الصائب والشجاعة المأثورة والإيمان الثابت والمسالمة المرضية والحق الظاهر فى الإيثار كلما قوبل بغيره من الحقوق.

ومع هذا الرجحان الذى انفرد به أبو بكر ترجيح آخر لاستخلافه فى الموقف الذى كان منظورًا بعد موت النبى عليه السلام، وهو موقف رضًا ومسالمة بن المسلمين يغنيان إذا

(١) أقمن: أجدر وأولى.

جرت الأمور فى مجراها الطيب المأمون. فإذا تأزمت واضطربت ونفدت حيلة اللين حتى نبذه أبو بكر فى رفقه وهوادته فذلك إذن موطن الإجماع، وإذا صلب غيره واجتمعت كلمتهم على الصلابة ولم يبق من يلين فى الأمر سواه فصلابتهم أقمن إذن أن تنعطف بلينه إلى الإجماع الذى لا شذوذ فيه.

فالنبى عليه السلام قد حسب للعواقب كل حساب، وقد نظر فى استخلافه إلى كل اعتبار، وقد وازن بين أمور كثيرة، ولم يوازن بين صاحبين ليس بينهما محل للتنافس والملاحاة.

ومما نظر إليه عليه السلام أن عمر أصغر من أبى بكر بعشر سنوات أو نحو ذلك. فدور أبى بكر لا يحجب دور عمر، وإذا انتفع الإسلام بمزايا أبى بكر فى حينها الذى هو أحوج إليها فسينتفع الإسلام بمزايا عمر فى الحين الذى يتولاه فيه، يوم تغنى الصلابة فى مدافعة الأعداء ماأغناه الرفق فى تأليف الأودَّاء[1].

ولا يحسبن قارئ هنا أيضاً أننا نستخلص النتائج من التاريخ وندرك ما كان بعد أن كان، فالواقع المنصوص عليه أن الذى رأيناه بعد وقوعه قد كان منظوراً إليه قبل أن ينكشف عنه الغيب، وقد نظر إليه النبى عليه السلام فقال: «أريتُ فى المنام أنى أنزع بدلو بكرة على قليب، فجاء أبو بكر فنزع ذنوبًا أو ذنوبين نزعًا ضعيفًا، والله يغفر له، ثم جاء عمر بن الخطاب فاستحالت غربًا، فلم أر عبقرياً يفرى فريه، حتى رَوِىَ الناس وضربوا بعطن[2]». ولم يخف معنى هذه الرؤيا على معبريها لأنها لا تحتمل غير تعبير واحد، وهو الذى أشار إليه الشافعى رحمه الله ففسر ضعف النزع بقصر المدة وعجلة الموت والاشتغال بحرب أهل الردة عن «الافتتاح والازدياد الذى بلغه عمر فى طول مدته».

ويجوز أن النبى عليه السلام قد أدخل فى حسابه تقديرات أخرى من هذا القبيل لا يحيط بها أبناء عصره، ولا نراها نحن فى عصرنا. فلهذه المسائل فى جميع العصور نواحيها الموضعية، ونواحيها الخاصة التى لا يدركها كل من عاش بينها ولا يتأتى نقلها

---

(١) الأوداء: جمع وديد وهو صاحب المودة.

(٢) القليب: البئر، والذنوب، الدلو المملوء، والعطن: مبرك الإبل حول الماء والغرب: الدلو العظيمة.

بالكتابة والتدوين. ومتى كانت هذه هى التقديرات التى فصلت فى مسألة الترشيح للخلافة، فأى غضاضة فيها على عمر...؟ إنها شىء لا يتناوله وحده، وليس لكفاءة أبى بكر ولا لكفاءته هو كل اليد فيه، وأن الذى حدث لا يعدو أن يكون موازنة بين أحوال، ثم تقديمًا للصالح فى تلك الأحوال، أو هو تأخير موعد ومناسبة وليس بتأخير حق وكفاءة، فأبو بكر كفء للخلافة، وعمر كفء للخلافة، ولكن تقديم أبى بكر أصلح وأولى، وأوفق لأحوال الزمن، ولكرامة الصحابة والمسلمين أجمعين.

وإنك لتكونن على ثقة من حقيقة واحدة فى رهط محمد تجزم بها وأنت آمن أن تخالف التاريخ فيما بطن وفيما ظهر.. وذلك أنه عليه السلام لم يبرم قط أمراً فيه غضاضة على أحد من أصحابه، ولا سيما فى مسألة الاستخلاف، أو التقديم للإمامة والصلاة بالناس، فكل الذى حدث فيها فهو الذى يجمل بالنبى من تقدير وتدبير، ويجمل بصاحبيه من إيثار وتوقير، ويجمل بالإسلام من تمكين وتعمير، وانتفاع بعمل كل عامل، واقتدار كل قدير.

بقى جانب من جوانب العلاقة بين النبى وعمر لا يُسْكَت عنه لكثرة ما قيل فيه، فضلاً عن وجوب النظر فيه لأنه يتمم العلم بتلك العلاقة ويزيدنا فهماً لها، واستقصاء لمداها، واطلاعًا على طريقة عمر فى الموازنة بين الواجبات والشئون حيثما اشتجرت بين يديه، ونريد به جانب العلاقة بين عمر وآل البيت، وبين عمر وابنى عم النبى الكبيرين: على وابن عباس بعد انتقال النبى إلى الرفيق الأعلى.

فالذين أولعوا فى التاريخ بخلق القضايا والمخاصمات يقولون كثيرًا فى هذه العلاقة، ويمثلون عمر على صورة الرجل الذى كان يتحدى بنى هاشم ويناجزهم، مناجزة لعصبية فيه عليهم، ولكنهم لا يذكرون من الوقائع ما يعزز شبهة أو يرجح بظن فى هذه الوجهة. وكل ما حفظته لنا أنباء العصر فإنما تخلص بنا إلى الخلاصة التى تجمل بعمر وتحمد منه. وهى الوفاء المحض لذكرى النبى عليه السلام فى آله وخاصة بيته، والأمانة المحض لمصلحة العرب والإسلام مقدمة على كل مصلحة خاصة أو عامة، وكل ما عدا ذلك لغو وباطل.

فعند تقسيم الأعطية كان لآل النبى النصيب الأوفى والمكان المقدم بين الصحابة، وكان لهم التفضيل فى كل حق من حقوق المسلمين حسبما كان بينهم وبينه عليه السلام من رحم

وقرابة، وفضّلهم عمر على أقرب الناس إليه فى اللقاء والحفاوة. فكان فى بعض الأيام ينتظر الحسين بن على رضى الله عنه، فذهب إليه الحسين فلقى عبد الله بن عمر فى الطريق فسأله: من أين جئت؟ قال: استأذنت على عمر فلم يأذن لى. فرجع الحسين ولم يذهب إليه.. ثم لقيه عمر معاتباً وسأله: ما منعك يا حسين أن تأتينى؟ قال أتيتك ولكن أخبرنى عبد الله بن عمر أنه لم يؤذن له على فرجعت.. فعز ذلك على عمر وقال له: وأنت عندى مثله! وأنت عندى مثله؟ وهل أنبت الشعرَ على الرأس غيركم؟

وكسا عمر أصحاب النبى فلم يكن فى الأكسية ما يصلح للحسن والحسين رضى الله عنهما، فبعث إلى اليمن فأتى لهما بالكسوة تصلح لهما، وقال حين رآهما: الآن طابت نفسى!

وسافر إلى الشام فاستخلف عليًّا، رضى الله عنه، على المدينة. وأخذ نفسه باستفتائه والرجوع إليه فى قضائه متحرجًا من دعوته إليه حين يحتاج إلى سؤاله، استفتاه بعضهم فى مجلسه فقال: اتبعونى، وأخذهم إلى على فذكر له المسألة، فقال على: ألا أرسلت إلىّ؟ قال عمر: أنا أحق بإتيانك.

وكذلك كان يستفتى ابن عباس فى الدين والأدب، ولا يلقاه باحثاً مسترسلاً فى الحديث إلا قال له معجباً متبسطاً: غص غواص[1]! وقلما سئل فى أمر وابن عباس حاضر إلا قال يشير إليه: عليكم بالخبير بها.

ولم يحجم عن توليتهم الولايات إلا كما أحجم عن تولية الجلة من الصحابة ورءوس قريش الذين أبقاهم عنده للمشورة، وصانهم عن محاسبته وعتابه. وفى ذلك يقول لابن عباس: إنى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم استعمل الناس وترككم.. والله ما أدرى أصرفكم عن العمل أو رفعكم عنه وأنتم أهل ذلك؟ أم خشى أن تعاونوا لمكانكم منه فيقع العتاب عليكم، ولابد من عتاب؟

أما مسألة الخلافة فالذى يزعمه فيها الذين يخوضون فى القضاء والمخاصمات أن عمر رضى الله عنه تعمد أن يحول بين على والخلافة بصرفه النبىَّ عن كتابة الكتاب الذى أراد أن يبسط فيه وصاياه فلا يضل المسلمون بعده، ويزعمون أنه هو قد حال بين علىّ والخلافة مرة أخرى يوم تركها للشورى ولم يستخلفه باسمه لولايتها.

---

(١) الغوص: النزول تحت الماء، يقال: فلان يغوص على حقائق العلم، إذا كان كثير البحث فيه

واستكثروا من عمر صرامته فى دعوة على إلى مبايعة أبى بكر، كما جاء فى بعض الروايات التى تزجع صحتها، وخلاصتها «أن عمر أتى منزل علىّ وبه طلحة والزبير ورجال من المهاجرين فقال: والله لأحرقن عليكم الدار أو لتخرجن إلى البيعة، فخرج الزبير مصلتًا بالسيف، فسقط السيف من يده، فوثبوا عليه[1] فأخذوه..». أو قال لهما فى رواية أخرى: «والله لتبايعان وأنتما طائعان، أو لتبايعان وأنتما كارهان».

فاستكثر المستكثرون هذه الصرامة، وعدوها من إصرار عمر على الإجحاف بعلى وإقصاء بنى هاشم عن الخلافة.

أما القول بأن عمر هو الذى حال بين النبى عليه السلام والتوصية باختيار علىّ للخلافة بعده فهو قول من السخف بحيث يسىء إلى كل ذى شأن فى هذه المسألة، ولا تقتصر مساءته على عمر ومن رأى فى المسألة مثل رأيه.

فالنبى عليه السلام لم يدع بالكتاب الذى طلبه ليوصى بخلافة على أو خلافة غيره، لأن الوصية بالخلافة لا تحتاج إلى أكثر من كلمة تقال، أو إشارة كالإشارة التى فهم المسلمون منها إيثار أبى بكر بالتقديم، وهى إشارته إليه أن يصلى بالناس.

وقد عاش النبى بعد طلب الكتاب فلم يكرر طلبه ولم يكن بين علىّ وبين لقائه حائل، وكانت السيدة فاطمة زوج علىّ عنده إلى أن فاضت نفسه الشريفة. فلو شاء لدُعِىَ به وعهد إليه.

وفضلًا عن هذا السكوت الذى لا إكراه فيه نرجع إلى كل سابقة من سنن النبى فى تولية الولاة، فنرى أنه كان يجنب آله الولاية ويمنع وراثة الأنبياء، وهذه السنة مع هذا السكوت لا يدلان على أن محمداً صلوات الله عليه أراد خلافة علىّ فحيل بينه وبين الجهر بما أراد.

ولم يعتمد عمر على الشورى فى اختيار الخليفة بعده وله مندوحة عنها. فقد رأى من أصحابه - كما قال - حرصًا سيئًا وخلافًا لا يحسمه رأى واحد، وكانت حيرته عظيمة بين الاستخلاف وترك الاستخلاف، فلما قيل له وهو طعين يودع الحياة: ماذا تقول لله عز

---

(١) مصلتاً بالسيف: مجرداً السيف من غمده.

وجل إذا لقيته ولم تستخلف على عباده ؟.. أصابته كآبة، ثم نكس رأسه طويلاً ثم رفع رأسه وقال: «إن الله تعالى حافظ الدين، وأى ذلك أفعل فقد سن لى. إن لم أستخلف فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف، وإن أستخلف فقد استخلف أبو بكر».

واختار للشورى فى أمر الخلافة أناسًا ليس بين المسلمين أولى منهم بالاختيار، وكأنهم كانوا متسمين بأسمائهم لهذه المهمة، لو لم يرشحهم هو لرشحهم لها كل مختار.

ولم يكن الفكاك من التبعة هو الذى أوحى إليه أن ينفض يديه ويلقى بالعبء على عواتق غيره. فعمر لا ينجو بنفسه ليوقع أحدًا فيما يحاول النجاة منه، ولكنه قدر أن الرجل الذى تختاره كثرة المحكمين هو أولى أن ينعقد عليه الإجماع، وينحسم بترجيحه النزاع. فمن خرج عليه فهو باغى فتنة يتبعها الأقلون ويردعها الأكثرون.

وكان مع هذا يود لو اجتمع الرأى على اختيار علىّ بعد المشاورة فقال لابنه: لو ولوها الأجلح «أى المنحسر الشعر» لسلك بهم الطريق، فسأله ابنه: فما يمنعك يا أمير المؤمنين أن تقدم عليًّا؟ قال: أكره أن أحملها حيًّا وميتًا.

وفيما عدا الاستخلاف بعد النبى والاستخلاف بعد عمر فالسياسة التى جرى عليها عمر كانت كلها سياسة عامة قائمة على أساس عام، لا تفرقة فيها بين بنى هاشم وغيرهم، ولا بين علىّ وغيره.

فكان يكره أن تستأثر بالأمر عصبة دون غيرها بالغة ما بلغت منزلتها، ولم يكره ذلك من بيت هاشم دون سائر البيوت.

كان يحجر على وجوه قريش أن يخرجوا إلى البلدان إلا بإذن وإلى أجل، وبلغه أنهم يشكونه فأعلن فى الناس «أن قريشًا يريدون أن يتخذوا مال الله معونة على ما فى أنفسهم. ألا إن فى قريش من يضمر الفرقة، ويروم خلع الربقة[1]، أما وابن الخطاب حىّ فلا. إن أخوف ما أخاف على هذه الأمة انتشاركم فى البلاد».

وكان يزجر قومه بنى عدى كلما أحس منهم الطمع فى خلافته لأنه واحد منهم، فيصارحهم قائلا: «بخ بخ بنى عدى. أردتم الأكل على ظهرى، وأن أهب حسناتى لكم،

(١) الربقة: حبل تشد به البهيمة. وفى الحديث «خلع ربقة الإسلام من عنقه».

لا والله حتى تأتيكم الدعوة وإن أطبق عليكم الدفتر..» أى وإن كتبتم فى الأعطية آخر الناس. وهو الذى أبى أن يختار ابنه للخلافة، وقال للمغيرة بن شعبة الذى زين له استخلافه: «لا أرب[1] لنا فى أموركم، وما حمدتها فأرغب فيها لأحد من بيتى. إن كان خيرًا فقد أصبنا منه، وإن كان شرًّا فبحسب آل عمر أن يحاسب منهم رجل واحد».

وجمع عليًّا وعثمان فى مجلس الشورى لاختيار الخليفة، فالتفت إلى على فقال: «اتق الله يا على، إن وليت شيئًا، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين».

والتفت إلى عثمان فقال: «اتق الله إن وليت شيئًا، فلا تحملن بنى معيط على رقاب المسلمين»، أو قال بنى أمية.

وكان أكبر همه أن يعصم الإسلام من الملك الذى يستأثر به مستأثر لأناس دون أناس، وكثيرًا ما سأل: والله ما أدرى أخليفة أنا أم ملك؟ مستعيذًا بالله من كل سلطان لا يعم جميع رعاياه بالخير.. وكلمته لابن عباس حيث قال: «إن الناس كرهوا أن يجمعوا لكم النبوة والخلافة، وإن قريشًا اختارت لأنفسها فأصابت» هى كلمته حيثما تكلم فى هذا الصدد لا يخص بها بيتًا دون بيت ولا معشرًا دون معشر ولا قبيلة دون قبيلة، إلا الأمانة لمصلحة المسلمين جميعًا حيثما اتفقوا عليها أو كان لهم رجاء فى الاتفاق.

وما كانت لعمر صرامة مع على لم تكن له مع غيره فى مأزق الخوف من الفتنة والذود عن الوحدة. فقبل أن يسلم الروح كانت وصيته وهو لا يعلم مَن الخليفة بعده: «إن اجتمع خمسة ورضوا رجلا وأبى واحد فاشدخ[2] رأسه بالسيف، وإن اتفق أربعة فرضوا رجلا وأبى اثنان فاضرب رأسيهما، فإن رضى ثلاثة رجلا منهم وثلاثة رجلا فحكموا عبد الله بن عمر، فأى الفريقين حكم له فليختاروا رجلا منهم، فإن لم يرضوْا بحكم عبد الله بن عمر فكونوا مع الذين فيهم عبد الرحمن بن عوف، واقتلوا الباقين إن رغبوا عما اجتمع عليه الناس».

وما اختار ابنه عبد الله للفصل بين الفئتين المتساويتين إلا لأنه خارج من الاختيار، ثم لم يجعل له القول الفصل حتى يفتح للناس مخرجًا من رأيه إن شاءوا ألا يتبعوه.

(١) الأرب: الغرض والغاية.

(٢) الشدخ: كسر الشىء الأجوف.

ولن يقضى بأمثل من هذا القضاء فى مأزق الفتنة أحد له قضاء عادل منزه عن خبايا القلوب.

فما اتخذ عمر من حكم بين الناس فهو الحكم الذى يجمل به ويحمد منه ولا ينتفع به قبل أن ينتفع سائر الناس. هو الحكم الذى يعم ويعدل ولا يخص ويتحيز، وهو الحكم الذى لو سئل فيه النبى سيد بنى هاشم لأعاد فيه قوله: «عمر بن الخطاب معى حيث أحب، وأنا معه حيث يحب، والحق بعدى مع عمر بن الخطاب حيث كان».

عمر والصحابة

بايع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

وبويع عمر فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

وقد تواترت أقوال الصحابة فى عمر بما يشيد بفضله ويشهد بقدره ويكبر فى أعين الناس أكبر من أن تقال فيه. لأن الذين قالوها أناس لهم حلوم راجحة، وألسنة صادقة، وعقيدة راسخة، وقلوب لا تهاب أن تفول الحق فى إنسان. ولكن الشهادتين اللتين شهد بهما الواقع أدل على قدر عمر بين الصحابة من كل ما قيل. لأن شهادة الواقع هى الشهادة التى يقولها الصادق باختياره ويحاول الكاذب أن يكذب فيها فلا يستطيع. وإنما يجوز الصدق والكذب فيما يملكه اللسان أو يملكه الشعور. أما الشهادة التى تعبر عن نفسها بلغة الواقع فهى قائمة من وراء كلام الألسنة ومن وراء هوى النفوس: إنكارها كإنكار المحسوس الذى تقع عليه الأيدى ولا تغمض عنه العيون.

وقد انتهت مسألة الخلافة بعد النبى بسلام.

ولكن إنهاءها بسلام لا يعنى أنها كانت ستنتهى وحدها بسلام على أية حال، ولا يعنى أنها انتهت لأنها من المسائل التى يؤمن فيها الخطر وتمتنع فيها الفتنة. إذ الحقيقة أن انتهاءها على هذا النحو قد كان أعجوبة من أعاجيب التاريخ، مع ما يحيط بها من دواعى النزاع ومن كوامن القلق والخوف على غير سابقة يستقيم بها العرف وتتضح بها معالم الطريق.

فما هو إلا أن لحق النبى بالرفيق الأعلى حتى تحفزت دواعى النزاع من كل فج، وتكشفت كوامن القلق والخوف من كل مكمن، وجهل أعلم الناس كيف تنجلى الغاشية ويستقر القرار.

فالأنصار يقولون إنهم أحق بالخلافة من المهاجرين لأنهم كثرة والمهاجرون قلة،

ولأنهم فى ديارهم والمهاجرون طارئون عليهم، ولأنهم جميعًا عرب مسلمون ولهم فضل التأييد والإيواء.

والمهاجرون على قلتهم غير متفقين على اتفاق ينعقد به الإجماع، وحجتهم الغالبة أنهم السابقون إلى الإسلام ومنهم جلة الصحابة الأولين.

وتسايرت الأحاديث بحق آل البيت النبوى فى الخلافة النبوية، وبين آله رجلان قويان هما على والعباس، لو أصغيا إلى هذه الدعوة ومضيا فيها لتمخضت عن خطب عظيم.

وكأن هذه العصبيات لم تكفّ دعاة الخلاف حتى جاء أبو سفيان يزيدها عصبية أخرى بالمفاخرة بين أكبر القبائل وأصغرها فى قريش، فدخل على علىّ والعباس يثيرهما ويعرض عليهما النجدة والمعونة، ويهيب بعلى باسمه، ثم بالعباس باسمه: «يا على! وأنت يا عباس! ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها؟ والله لو شئت لأملأنها عليه - يعنى أبا بكر - خيلا ورجلا وآخذنها عليه من أقطارها»[1].. فيجيبه على بما هو أهله: «لا والله لا أريد أن تملأها عليه خيلا ورجلا: ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلا ما خليناه وإياها»، ثم يبلغ من كرم النحيزة أن يؤنب أبا سفيان، من طرف خفى، على سعيه فى هذه العصبية فيقول: يا أبا سفيان! إن المؤمنين قوم نَصَحَة بعضهم لبعض، وإن المنافقين قوم غَشَشَة بعضهم لبعض، متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم!».

ولم تكن هذه العصبيات كل ما هنالك من دواعى النزاع وكوامن القلق والخوف، فقد كان هنالك منافقون أسلموا وهم راغبون، وكان هنالك ضعفاء من المسلمين يقفون على شفير[2] من الفتنة لا يلبث أن يضطرب تحت أقدامهم حتى ينهار، وكان هنالك أناس لا ينصرون ولا يخذلون، فهم إن لم يفسدوا فى الأرض لا يصلحون.

وبين هذه المخاوف والنوازع تنتهى مسألة الخلافة بسلام، فيكون انتهاؤها بسلام أعجوبة الأعاجيب. وتبحث عن سر هذه الأعجوبة أو عن سرها الأكبر فيغنيك فيها أن

(١) الرجل جمع راجل، وقوله «لآخذنها عليه من اقطارها، تهديد بأنه سينازله من كل ناحية وصوب.

(٢) شفير كل شيء: حرفه.

تذكر اسمًا واحدًا، هو اسم عمر بن الخطاب.. إلى أين كانت تلك الفتنة ذاهبة لو لم يقف في وجهها عمر وقفته المرهوبة يوم السقيفة؟

سؤال يدلك على سر تلك العجيبة قبل كل جواب. فما عرف رأى عمر فى البيعة حتى بطل الخلاف إلا ما لا خطر له. واطمأن من يوافق، وعلم من يخالف أن خلافه لا ينفعه، واجتمعت كلمة على مبايعة أبى بكر أوشكت أن تكون كلمات.

قال أبو بكر لعمر: ابسط يدك نبايع لك.

قال عمر: أنت أفضل منى. قال أبو بكر: أنت أقوى منى.

قال عمر: إن قوتى لك مع فضلك. لا ينبغى لأحد بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون فوقك يا أبا بكر. أنت صاحب الغار مع رسول الله، وثانى اثنين، وأمرك رسول الله حين اشتكى فصليت بالناس فأنت أحق الناس بهذا الأمر.

ووثب عمر فأخذ بيد أبى بكر، فتواثب الجميع من علية الصحابة يبتدرون البيعة، ثم كان الغد فجلس أبو بكر على المنبر وتكلم عمر بين يديه يقول للناس ٠ «إن الله قد جمع أمركم على خيركم صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وثانى اثنين إذ هما فى الغار، وأولى الناس بأموركم، فقوموا فبايعوا»..

فكانت البيعة العامة، وتركت شجرة الخلاف لجفاف، فإن لم تذبل لساعتها فهى وشيكة ذبول.

بايع عمر فقطعت جهيزة قول كل خطيب.

وذلك قدر عمر عند الصحابة، وقدره عند أبى بكر، وقدره عند الله، تغنى شهادة السرائر فيه عن شهادة كل كلام.

وفى تلك الكلمات الموجزات التى تبادلها الصديقان العظيمان خلاصة نقد الناقدين وبحث الباحثين، وحكم التاريخ فى أبى بكر وعمر، وفى موقف الخلافة فى بدايته إلى منتهاه.

قال عمر: إنك أفضل منى. وقال أبو بكر: إنك أقوى منى.

وقال عمر: إن قوتى لك مع من فضلك.

صدقا غاية الصدق، وجاملا غاية المجاملة، وقضيا بالعدل والحكمة والإخاء، وتركا التاريخ يقول ما يقول ويسهب ما يسهب، ثم لا يزيد فى فحواه كلمة على ما ضمنته تلك الكلمات الموجزات.

ولقد كان من قوة عمر أنه كان يراجع أبا بكر فى خلافته حتى يرجع عن رأيه، وكان من فضل أبى بكر أنهم يسألونه مستثيرين: والله ما ندرى أأنت الخليفة أم عمر؟ فيقول هو لو كان شاء!

وكان فضل أبى بكر وقوة عمر جمعًا لا يشذ عنه مكابر، ومن شذ عنه فما له من فضل ولا من قوة ينفعانه.

بل كان الرجلان على اختلافهما فى المزاج كأنهما رجل واحد يراجع نفسه بين الرأيين المختلفين، حتى يستقر على أحدهما فإذا هو رأىٌ جميعٌ لا خلاف فيه، لأنهما يصدران عن عقيدة واحدة، ويتجهان إلى غرض واحد، فهما غير مفترقين إلى أمد طويل.

وأعجوبة الأعاجيب فى هذا الأمر موقف الرجلين من المشكلة الكبرى التى واجهتهما معًا بعد موت النبى بأيام قلائل، وهى مشكلة الردة ونكوص العرب عن أحكام الدين، وحيرة الصحابة الكبار فيما يعامل به المرتدون.

وليس العجب أن يختلف أبو بكر وعمر فى مشكلة كبيرة أو صغيرة، وإنما العجب هو نوع هذا الخلاف الذى لم يتوقعه أحد. فيخالف أبو بكر لأنه يجنح إلى الشدة والصلابة، ويخالف عمر لأنه يجنح إلى اللين والهوادة، ثم يلتقيان ولا يتعارضان.

فأبو بكر يأبى إلا أن يحارب الذين منعوا الزكاة ويقول مصرًّا على قوله: «والله لو منعونى عناقاً[1] لقاتلتهم على منعها».

وعمر يقول له: «كيف تقاتلهم وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فمن قالها فقد عصم منى نفسه وماله إلا بحقه، وحسابه على الله!»

(١) عناق: معزه.

ويشارك عمر فى رأية جلة الصحابة كأبى عبيدة الذى قال فيه النبى «إنه أمين الأمة»، وسالم مولى أبى حذيفة الذى قال فيه النبى «إن سالماً شديد الحب لله»، وأناس من هذه الطبقة من صحابة الرسول.

ويعود أبو بكر فيقول: «إن الزكاة حق المال» وفيها نحارب بالحق. ثم يهيب بعمر: رجوت نصرتك وجئتنى بخذلانك؟ أجبار فى الجاهلية وخوَّار فى الإسلام؟

فإذا بعمر يثوب إلى شدته بعد أن أفرغ أمانة الرأى كما قال: «ما هو إلا أن رأيت أن الله شرح صدر أبى بكر للقتال حتى عرفت أنه الحق»، وما أسهل أن يعرف الحق لمن يريد أن يراه ولا يغمض عينيه. أرجلان هنا مختلفان أم رجل واحد؟

قل هذا وذاك فالقولان مستويان. ما دمت لا تنسى أن الرجلين المختلفين معهما العقيدة الراسخة التى لا تفارقهما، وطالما جمعت العقيدة جيوشاً على قلب واحد، فضلاً عن رجلين.

وإنما كان يعيب عمر أن يعارض إذا كان فى المسألة وجه واحد لا يحتمل المعارضة بحال، فأما أن يكون لها وجه آخر يبديه ويشرح حجته فالذى يعيبه ويضير الإسلام أن يكتم ذلك الوجه وأن ينطوى عليه صامتاً فى موقف البحث والمشاورة، وهو الناصح الأمين.

ومسألة الردة قد كان لها وجه آخر غير الذى رآه أبو بكر رضى الله عنه، وكان عمر خليقًا أن يرى ذلك الوجه الآخر لأنه موافق لمجمل آرائه فى الحرب والسياسة. فقد كان بطيئاً إلى الحرب كما عرفنا من عامة وصاياه، وكان أبطأ ما يكون عنها إذا نشبت بين العرب أو المسلمين، وكان جيش الإسلام بعيداً عن المدينة فى غزوة الروم التى خرج بها أسامة بن زيد بعد قيام أبى بكر بالخلافة، فالتريث إلى أن يستكمل الإسلام عدته ويسترجع الغائبين من جنده وجه غير ضعيف، أو هو فى أقل الأمر وجه لا يحسن كتمانه عن الأمير المسئول.

وقد كان من عادة عمر أن يطيع صاحب التبعة متى وجبت الطاعة واستقر القرار، فلا ضير إذن ألا يألوه جهده معارضة حتى يتبين مذاهب الرأى على اختلافها، ثم هو مستعد بقوته لمعاونته بأقصى ما استطاع.

ومثل هذا الرجل، معارضته قوة فوق قوة وخير لا ضير فيه.

وخليق بنا أن نفهمها على صوابها فى مسألة الردة فنعلم بعد النظرة الثانية أنها من دلائل قوته المعهودة وليست من فلتات الضعف فيه، لأنه رأى الرأى فلم يحجم أن يبديه ويشرح حجته، جريئاً فيما رآه.

وعلى هذا الدأب ظل عمر قوة لأبى بكر بموافقته ومعارضته على السواء وأصاب فيما قال له يوم بايعه: «إن قوتى لك مع فضلك»، فكسب الإسلام خليفتين معاً بتقديم أبى بكر للخلافة لأنهما لم يبغيا بالخلافة مأرباً غير خدمة الإسلام.

ثم بويع عمر بالخلافة فبطل الخلاف إلا ما لا خطر فيه.

عرضها عليه أبو بكر فقال: «لا حاجة لى فيها» فقال أبو بكر: «ولكن لها بك حاجة يا بن الخطاب»... وسأل خيرة أصحابه فقال له عبد الرحمن بن عوف: «هو والله أفضل من رأيك فيه» وقال عثمان بن عفان: «إن سريرته خير من علانيته، وإنه ليس فينا مثله» وسأل أسيد بن الحضير فقال: «اللهم أعلمه الخيرة بعدك. يرضى للرضا ويسخط للسخط، والذى يسر خير من الذى يعلن، ولن يلى هذا الأمر أحد أقوى عليه منه».

وأجمع المهاجرون والأنصار على تزكية عمر وتصويب أبى بكر فى ترشيحه. ولعلهم لم يذكروا من مناقبه إلا ما هو به أعلم وأخبر، فلم يزده ثناء المثنى علماً بصاحبه! ولم يكن قدح القادح ليخلف رأيه فيه، لأنه على عرفانه بالدنيا وعرفانه بالناس لا يجهل أن رجلاً كعمر بن الخطاب فى حزمه وصدقه لن يخلو من مبغض، ولن يبغضه أحد لما يعيبه ويحول بينه وبين ولاية أمر المسلمين.

قال له وهو يعرض عليه الخلافة: «يا عمر، أبغضك مبغض وأحبك محب. وقدماً يبغض الخير ويحب الشر».

وإن منهم لمن حذره شدة عمر وقالوا له: «إنك كنت تأخذ على يديه ولا نطيق غلظته، فكيف وهو خليفة؟ وما أنت قائل لربك إذا سألك عن استخلافه علينا؟»

فبلغ الصبر بالرجل الصبور مداه، وأمر من حوله أن يجلسوه فجلس، فقال لمن خوفوه الله وعمر: «أبالله تخوفوننى؟ خاف من تزود من أمركم بظلم. أقول: اللهم إنى قد

استخلفت على أهلك خير أهلك!».

ولو شاء أبو بكر لقال إن ما خوفوه من شدة عمر لفضيلة من فضائله التى قدمته عنده على غيره، فقد خاف عليهم الفتنة. وكان أكبر حذره أن تجىءالفتنة من أولئك الأعلام الذين يتبعهم الطغام[1] وليس لهؤلاء غير عمر يرهبونه ويتقون الفتنة باتقائه، فمن هنا وصاه فحذره «هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين قد انتفخت أجوافهم، وطمحت أبصارهم، وأحب كل امرئ منهم لنفسه» وقال له: «إن لهم لحيرة عند زلة واحد منهم، فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ما خفت الله، ولك مستقيمين ما استقامت طريقتك».

فالذين حذروه عمر إنما رغبوه فيه ولم يحذروه منه، لأنه أراد لهم من يخافونه ويستقيمون معه، فكانت سيئته عندهم حسنة عند أبى بكر، ورجاء فى صلاح أمر الأعلام والطغام.

فلما اتفق مدح المادحين ونقد الناقدين على إيثار عمر بالخلافة فرغ أبو بكر من مشورته، وأبرأ إلى الله ذمته، ودعا بعثمان فأملى عليه: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا ما عهد به أبو بكر بن أبى قحافة فى آخر عهده بالدنيا خارجاً منها، وأول عهده بالآخرة داخلاً فيها، حيث يؤمن الكافر ويوقن الفاجر، ويصدق الكاذب: إنى استخلفت عليكم بعدى..».

ثم أخذته غشية فكتب عثمان «عمر بن الخطاب»، ولم يترك الكتاب خلواً من الاسم مخافة أن يذهب الموت بأبى بكر فى تلك الغشية فيلج من يلج بالخلاف، وله شبهة يحوم عليها.

وإنه ليكتبها إذ أفاق أبو بكر فقرأ عليه ما كتب، فكبر وأدرك ما وقع فى روعه فحياه ودعا له: «جزاك الله عن الإسلام خيراً: والله إن كنت لها لأهلا[2]... ثم أتم الكتاب.

ثم بويع عمر بالخلافة بإجماع لم ينعقد لخليفة قبله ولا بعده إلا أن تكون وراثة فى دولة

(١) الطغام. جمع طغامة وهو الوغد.
(٢) أى أنك كنت أهلا لها.

استقرت لها دعائم وثبتت لها أركان. فكانت شهادة من الصحابة والمسلمين أجمعين بما هو أنطق من الألسنة والقلوب: بالبديهة التى لا تكذب فى صادق ولا كذوب.

وجائز جدًّا أن يبدأ عمر خلافته وهذا رأى المسلمين فيه، وأن يختمها آخر الأمر ورأيهم فيه على اختلاف، إذ الحكم يخلق العداوات، ويفتق أسباب التباعد فى الظنون والآراء، ويفتن صاحبه حتى يتبدل من حيث يريد ولا يريد. فشهادة أخرى من شهادات الواقع والبداهة أن عمر قد فارق الدنيا والمختلفون فيه ينقصون، والمتفقون على حمده يزيدون، ثم هم يزيدون فى حمدهم إياه وثنائهم عليه.

دخل زياد على عثمان فى خلافته بما بقى عنده لبيت المال، فجاء ابن لعثمان فأخذ شيئاً من فضة ومضى به، فبكى زياد.. قال عثمان: ما يبكيك؟ قال: أتيت أمير المؤمنين[١] بمثل ما أتيتك به فجاء ابن له فأخذ درهماً فأمر به أن ينتزع منه حتى أبكى الغلام، وإن ابنك هذا جاء فأخذ ما أخذ، فلم أر أحداً قال له شيئاً... قال عثمان: «إن عمر كان يمنع أهله وقرابته ابتغاء وجه الله، وإنى أعطى أهلى وأقربائى ابتغاء وجه الله. ولن تلقى مثل عمر. ولن تلقى مثل عمر. لن تلقى مثل عمر!».

وبكى على يوم موته فسئل فى بكائه فقال: «أبكى على موت عمر. إن موت عمر ثلمة[٢] فى الإسلام ولا ترتق إلى يوم القيامة» وقال عبد الله بن مسعود: «كان إسلامه فتحًا، وكانت هجرته نصرًا، وكانت إمارته رحمة».

وقال معاوية يوازن بين الخلفاء: أما أبو بكر فلم يرد الدنيا ولم ترده، وأما عمر فأرادته الدنيا ولم يردها، وأما نحن فتمرغنا فيها ظهرًا لبطن». وقال عمرو بن العاص وهو يحدث نفسه: «لله در ابن حنتمة!... أى امرئ كان!».

ولم يقل فيه قائل راض ولا ساخط إلا ثناءً كهذا الثناء، بعد خلافة طويلة لو خرج منها بنصف الثناء لأربى على الأمل فى إنصاف بنى الإنسان

ورعى عمر قدر الصحابة والتابعين كما رعوا قدره... إلا أنه كان مفضلاً فى جميع

---

(١) يعنى عمر بن الخطاب

(٢) الثلمة: الخلل، ورتق الثلمه: إصلاحها.

محامده وحسناته، فإنه رعى أقدارهم وهو مستطيع ألا يرعاها، وقليل منهم من كان قادراً أن يعمل غير ما عمل ويقول فيه غير ما قال.

جمع منهم مجلس المشورة لا يبرم أمرًا ولا ينقضه إلا بعد مذاكرتهم والاستئناس بنصيحتهم وسابق علمهم من مأثورات النبى وأحاديثه.

وارتفع بهم أن يكونوا أتباعًا له فجنبهم ولاية الأعمال قائلاً لمن راجعه فى ذلك: «أكره أن أدنسهم بالعمل[1]» فسبق الدساتير العصرية بحسبن تقسيمه وصادق حدسه وتدبيره. هم مجلس الأمة وليس لأحد من مجلس الأمة أن يلى عملاً من أعمال الحكومة، فهما فى الدولة وظيفتان لا تجتمعان.

وقدم صغارهم على أعظم العظماء من رءوس القبائل وقروم[2] الجزيرة العربية. فحضر بابه سهيل بن عمرو بن الحارث بن هشام، وأبو سفيان بن حرب فى جمع من السادة ينقطع ندهم بين الكابرين[3] وحضره معهم صهيب وبلال وهما موليان فقيران، ولكنهما شهدا بدراً وصحبا رسول الله، فأذن لهما قبل علية القوم! فغضب أبو سفيان فقال لصاحبه: لم أر كاليوم قط، يأذن لهؤلاء العبيد ويتركنا على بابه؟، أما صاحبه فكان حكيمًا فقال: أيها القوم! إنى والله أرى فى وجوهكم... إن كنتم غضاباً فاغضبوا على أنفسكم. دعى القوم – إلى الإسلام – ودعيتم، فأسرعوا وأبطأتم، فكيف بكم إذا دعوا يوم القيامة وتركتم؟».

ولو غير عمر لما تقدم عنده صهيب وبلال، ولا أمن أن يغضب عليه أبو سفيان وسهيل.

لكنه الحق فوق كل قدر عند هذا القسطاس الذى يعطى كل ذى قدر قدره حيث ينبغى له من تقديم وتأخير. فيقدم من يقدمه عمله ويؤخر من يؤخره عمله، ولا عليه من غضب الغاضبين ولوم اللائمين.

فلما ندب الناس إلى غزو العراق فبادر إليه أبو عبيد بن مسعود وتخلف من حضر

---

(١) يعنى بالعمل هنا الولايه والحكم، اما العمل للإنتاج فقد سبق أن عرفنا رأى عمر فيه.

(٢) القروم: جمع قرم وهو السيد.

(٣) أى: ليس له مثيل بين السادة الكبراء.

الدعوة من الصحابة ولاه قيادتهم وأبى أن يوليها رجلًا من السابقين من المهاجرين والأنصار. وأجاب من راجعوه قائلًا: «لا والله! لا أفعل. إن الله إنما رفعكم بسبقكم وسرعتكم إلى العدو، فإذا جبنتم وكرهتم اللقاء فأولى بالرئاسة منكم من سبق إلى الدفع وأجاب إلى الدعاء. والله لا أؤمر عليهم إلا أولهم انتدابًا».

ثم دعا معه ابن عبيد وسليط بن قيس فأبلغهما «إنكما لو سبقتما لوليتكما..» والتفت إلى أمير الجيش الذى اختاره فقال له: «اسمع من أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم، وأشركهم فى الأمر، ولا تجتهد مسرعًا حتى تتبين، فإنها الحرب». هذا ما استحقوه، فلا رجحان لهم إلا بالحق، ولا رجحان عليهم إلا للحق.

ومن الحق الذى له الرجحان عليهم حق الأمة جمعاء. وحق الأمان الذى يعم الدولة ويوطد أركانها. فإذا خيف على الدولة من بعضهم فأمان الدولة مفضل عليهم، وحقها الأكبر مقدم على الكبير من حقوقهم. فربما حبسهم فى المدينة لا يسافرون منها إلا بإذن وإلى أجل، مخافة منهم على الناس ومخافة عليهم من الناس. ويستأذنه أحدهم فى غزو الروم والفرس محتجًّا بسابق بلائه مع رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيتخذ من سابق هذا البلاء حجة عليه يذوده بها عن السفر، ويقول له: «إن لك فى غزوك مع رسول الله ما يكفيك ويبلغك، وبحسبك، وهو خير لك من الغزو اليوم، وإن خيراً لك ألا ترى الدنيا ولا تراك».

على هذا الوجه وحده ينبغى أن نفهم كل علاقة كانت بين عمر وبين أحد من أكابر الصحابة والتابعين، فهو القسطاس الذى لا يجور، وكأنه لا يعرف الجور لو شاء.

بل على هذا الوجه وحده نفهم كل علاقة بينه وبين أحد من عامة المسلمين. فلكل رجل حقه. ولا ضير على أحد أن يتأخر قدره ويتقدم عمله، ولا ينفع أحدًا أن يتقدم قدره ويتأخر عمله. فكل عمل وله حساب، وكل قدر وله كرامة، وأكبر الصحابة خليق أن ينزل منزل المرءوسين لمن سبقهم إلى العمل النافع. وأصغر الناس خليق أن ينال جزاءه الحسن إذا استحقه، وكل قسطاس غير هذا القسطاس فإنما يقارفه الحاكم لظلم أو لخوف، وليس لهذا ولا ذاك سبيل إلى عمر. لأنه عادل، ولأنه لا يخاف، وإذا وقع ما يخافه غيره فهو ضليع بالتبعات[1].

---

(١) ضليع بالتبعات: قدير عليها.

على هذا الوجه وحده ينبغى أن نلتمس التأويل فى محاسبات عمر ومعاملاته إذا وقع منها ما يحتاج إلى تأويل، وقل فى محاسبات عمر ومعاملاته ما يحتاج إليه، لأنه كان يحاسب نفسه قبل أن يحاسب غيره، وحسابه لنفسه أعسر من حسابه للآخرين.

ففى جميع محاسباته للقادة والولاة من كبار الصحابة لم توضع مسألة فى موضع التأويل الكثير، والمناقشة الحادمة[1]، كما وضعت مسألة خالد بن الوليد رضى الله عنه.

ولا يعقل أن تكون هذه المسألة شذوذًا عن خطته مع جميع القادة والولاة، لأن الذى صنعه فيها عمر هو الذى كان منتظرًا أن يصنعه، سواء كان القائد خالدًا أو كان رجلاً غيره... وهذا الذى ينفى الشذوذ والحيف، أو ينفى المعاملة الخاصة التى تكيل للناس بكيلين، وتزن لهم بميزانين، وتنظر إليهم بنظرين مختلفين.

عزل عمر خالدًا وهو سيف الإسلام وبطل الجزيرة والشام، وإذا كان لابد لخالد بن الوليد من عازل أو قاض عادل فلن يكون عازله وقاضيه غير عمر بن الخطاب، هو على قدر عزله بلا مراء، وهو قدر كبير.

فقال أناس إنها منافسة الند للند والشبيه للشبيه، وقال أناس عزله لغير خطأ أتاه، وقال أناس إنها ترة[2] قديمة، ولولاها لما كان الخطأ الجديد بمستوجب عزله وحرمان المسلمين من بأسه وجهاده.

والذين ظنوا هذه الظنون لهم شبهات من ظواهر الأمور تخيلها لهم وتقربها إلى حدسهم، لأن المشابهة بين عمر وخالد كانت مشابهة خَلْق وخُلُق توحى الظن بالتنافس والملاحاة، وكانت مشابهة خالد لعمر فى خلقته تلتبس على بعض الناس فيكلمون عمر وهم يحسبونه خالد بن الوليد.

فمن شاء أن يخبط بالظن فله أن يحسب أن عمر قد عزله لغير سبب يستوجب عزله، لأن عمر نفسه قد صان على القائد الكبير كرامته وأمسك عن الخوض فى أمر عزله بعد الفراغ من ضجته الأولى، وكتب إلى الأمصار يبرئه من الخيانة ويعلنهم «أنه لم يعزله

(١) الحادمة: يقال: حدمته الشمس أو النار. أى: اشتد حرها عليه. واحتدمت النار أى اشتد حرها، ومنه: احتدمت المناقشة.

(٢) الترة: الثأر.

لسخطة ولا خيانة، ولكن الناس فتنوا به»... قال: «فخشيت ان يوكلوا به ويبتلوا، فأحببت أن يعلموا أن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة». ولما سأله خالد فى ذلك قال له: «إن الناس افتتنوا بك فخفت أن تفتتن بالناس».

فمن شاء أن يخبط بالظن هنا فقد يخبط ما شاء وله شبهة فيه، ولكنه لا يرجع إلى الوقائع من قديمها وحديثها حتى تسقط شبهاته بين يديه، ويوقن أن عمر لم يحاسب خالدًا بميزان غير الذى حاسب به جميع القادة والولاة، وأن المدهش الحق أن يبقيه فى الولاية والقيادة بعد ما أخذه غليه: لأنه حينئذ يكون قد وزن بميزانين وكال بكيلين.

والذى أخذه عمر على خالد يرجع بعضه إلى أيام النبى عليه السلام، وبعضه إلى أيام أبى بكر رضى الله عنه، وبعضه إلى أيامه، وكله مما يصح أن يؤخذ به فى موقف الحساب، وإن كان الذى حدث فى أيام عمر وحدها كافيًا لما قضاه فى أمره.

ففى فتح مكة نهى رسول الله خالدًا عن القتل والقتال وقال له وللزبير: «لا تقاتلا إلا من قاتلكما». ولكن خالدًا قاتل وقتل نيفًا وعشرين من قريش وأربعة نفر من هذيل، فدخل رسول الله مكة فرأى امرأة مقتولة فسأل حنظلة الكاتب: من قتلها؟ قال: خالد بن الوليد. فأمره أن يدرك خالدًا فينهاه عن أن يقتل امرأة أو وليدًا أو عسيفًا – أى أجيرًا – وبعث إليه من يسأله: ما حملك على القتال؟ فاعتذر بخطأ الرسول فى تبليغه: وشهد الرسول[1] على نفسه بالخطأ فكف عنه.

ثم بعث رسول الله خالدًا إلى بنى جذيمة داعيًا إلى الإسلام ولم يبعثه للقتال، وأمره ألا يقاتل أحدًا إن رأى مسجدًا أو سمع أذانًا، ثم وضع بنو جذيمة السلاح بعد جدال بينهم واستسلموا. فأمر بهم خالد فكتفوا، ثم عرضهم على السيف فقتل من قتل منهم، وأفلت من القوم غلام يقال له السميدع حتى اقتحم على رسول الله وأخبره وشكا إليه. فساله رسول الله: هل آنكر عليه أحد ما صنع؟ قال: نعم. رجل أصفر ربعة[2] ورجل احمر طويل. وكان عمر حاضرًا فقال: أنا والله يا رسول الله أعرفهما. أما الأول فهو ابنى، وأما الثانى فهو سالم مولى بنى حذيفة. وظهر بعد ذلك أن خالدًا أمر كل من أسر

---

(١) يعنى الرسول الذى حمل رسالة النبى عليه السلام إليه.

(٢) ربعة: معتدل الجسم.

أسيرًا أن يضرب عنقه، فأطلق عبد الله بن عمر وسالم مولى أبي حذيفة أسيرين كانا معهما... فرفع رسول الله يديه حين علم ذلك وقال: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد»... ثم دعا عليّ بن أبي طالب وأمره أن يقصد إلى القوم ومعه إبل ووَرِق[1]، فودى[2] لهم الدماء وعوضهم من الأموال.

وفى عهد أبي بكر رضى الله عنه وجه خالدًا إلى بعض أهل الردة يدعوهم إلى أحكام الإسلام أو يقاتلهم حتى يثوبوا إليها. فعزم على المسير إلى مالك بن نويرة ولم يأمره الخليفة بالمسير إليه. وأحجم الأنصار ينتظرون أن يكتب إليهم الخليفة بما يراه، وقال خالد: «قد عهد إلىّ أن أمضى وأنا الأمير، ولو لم يأت كتاب بما رأيته فرصة، وكنت إن أعلمته فاتنى لم أعلمه. وكذلك لو ابتلينا بأمر ليس فيه منه عهد إلينا لم نَدَعْ أن نرى أفضل ما يحضرنا ثم نعمل به، فأنا قاصد إلى مالك ومن معى من المهاجرين والتابعين ولست أكْرِهُهم»...

ثم جاءته الخيل بمالك بن نويرة فى نفر من بنى ثعلبة بن يربوع فاختلفت السرية فيهم، يشهد قوم أنهم أذّنوا وأقاموا وصلوا، ويشهد آخرون أنه لم يكن من ذلك شيء. فلما اختلفوا فيهم أمر بحبسهم فى ليلة باردة، وأرسل فيها قيل مناديًا ينادى: أدفئوا أسراكم، فظن القوم أنه أراد قتلهم.. لأن إدفاء الأسرى كناية عن القتل فى لغتهم.

ويروى أن مالكاً قال لخالد: ابعثنا إلى أبي بكر فيكون هو الذى يحكم فينا، فلم يجبه خالد إلى طلبته وقال له: لا أقالنى الله إن أقلتك، وتقدم إلى ضرار بن الأزور بضرب عنقه. وتزوج بامرأته فى الحرب وهو أمر تكرهه العرب وتعايره.

وقد بلغ الخبر عمر بن الخطاب فقال لأبي بكر: إن سيف خالد فيه رهق[3]. فاعتذر له أبو بكر بأنه «تأول فأخطأ» وودى مالكًا واستدعى خالدًا إليه.

قدم خالد فدخل المسجد وعليه قباء وفى عمامته أسهم غرزها للمباهاة، فقام إليه عمر فنزعها وحطمها وقال له: قتلت امرأ مسلماً ثم نزوت على امرأته؟ والله لأرجمنك بأحجارك!

---

(١) الورق: بكسر الراء، المال من الدراهم.

(٢) ودى: أعطاهم الدية وهو المال يعطى لأهل القتيل بدل النفس.

(٣) الرهق: الظلم والسفه والطغيان.

وكان أبو بكر رضي الله عنه هم بعزل خالد لاستئثاره بتصريف المال الذى فى ولايته، فسأل عمر: من يجزئ جزاء خالد[1]؟ فندب عمر نفسه ليخلفه إن لم يكن بد من ذلك، وتجهز عمر حتى أنيخ الظهر فى الدار، لولا أن مشى أصحاب رسول الله إلى أبى بكر يوصونه أن يحتفظ بعمر لحاجته إليه، وأن يبقى خالدًا فى ولايته لحاجته إليه، فعمل بما أشاروا.

ذلك ما كان فى عهد النبى وأبى بكر. فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيراً إلا بأمره، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله. وكان قد أجاب أبا بكر بكلام مقتضب قال فيه: «إما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك بعملك» فلم يطقها عمر وقال: «ما صدقتُ الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه».

وقد أبرمه منه أنه وهب الشاعر الأشعث بن قيس عشرة آلاف درهم، ونُمى الأمر إليه – كما كانت تنمى إليه أخبار الولاة والقواد من عيونه وأرصاده – فكتب إلى أبى عبيدة أن يحاسبه على هذه الهبة «فإن زعم أنها من إصابة أصابها فقد أقر بالخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف».

وقد أبى خالد أن يجيب فى مبدأ الأمر فاعتقله أبو عبيدة بعمامته كما أمر عمر، ونَزَعَ منه قلنسوته فى موقف المحاسبة حتى قال إنها من ماله. فقومت عروضه وضم ما زاد منها إلى بيت المال، وقال له عمر يومئذ: «يا خالد! والله إنك علىّ لكريم، وإنك إلىّ لحبيب، ولن تعاتبنى بعد اليوم على شىء».

ولم يعزله عمر دفعة واحدة على إثر قيامه بالخلافة كما جاء فى بعض الأخبار، لأن اسم خالد كان بين أسماء الشهود على عهد بيت المقدس بعد فتحه، والأرجح أنه فى تاريخ القصة خطأ وقع فيه بعض المؤرخين ومنهم ابن الأثير، فكتب عن عزل خالد فى أخبار السنة الثالثة عشرة للهجرة، ثم ذكره فى أخبار السنة السابعة عشرة، وأورد فى الموضعين أقوالاً متشابهات.

تلك جملة المآخذ التى أخذها على خالد من عهد النبى عليه السلام إلى عهد خلافته،

---

(١) يعنى: من يقوم مقامه ويكون فى مثل كفايته؟

وما من أحد يعرف عمر ثم يلوحُ له أنه أنكر من خالد شيئًا كان يقبله من غيره، وأنه نصب له ميزانًا غير الموازين التى يحاسب بها القواد والولاة وكل صاحب عمل مسئول. فرأيُ عمر فى إنكار هذه المآخذ معروف من بداية أيامه، والذين لزموه وتأدبوا بأدبه ينكرونها مثله ولو كانوا على البعد منه، كما حدث من ابنه فى بعثة جذيمة حيث أبى على خالد بسطشه بمن أوثقهم وعرضهم على السيف، ثم أنكر النبى عليه السلام ما أنكراه واستصوب ما استصوباه.

فعمر كان يكره الإسراع إلى القتال ويوصى قواده جميعًا بالتريث فيه، وربما نحى القائد عن القيادة وهو كُفؤ لها لأنه يعجل بالقتال كما قال لسليط بن قيس: «لولا أنك رجل عجل فى الحرب لوليتك هذا الجيش والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث».

وكان يتحرج غاية الحرج أن يستبيح دم برىء أو مشكوك فيه، وتقدم فى هذا الكتاب أنه لام أناسًا من أصحابه لأنهم قتلوا رجلًا ارتد عن دينه، وقال لهم: هلا استتبتموه وحبستموه؟ وتبين من رأيه فى أهل الردة أنه كان يؤثر الهوادة والاستتابة على القتال. فإن كان قتال فالذى لا حيلة فيه ولا محيص عنه، فإنكاره لمقتل مالك بن نويرة وأصحابه، هو رأيه الذى لا شذوذ فيه، ويضاف إليه إنكار البناء بامرأته[1]، ووقوع البناء بها فى أثناء المعركة، وهو أمر لا ينفرد عُمَرُ بكراهته وانتقاده، بل تكرهه العرب عامة، مسلمين وغيرَ مسلمين.

وكان عمر يحاسب جميع الولاة أدق حساب: يكتب عروضهم[2] قبل ولايتهم، ويسألهم فيما فشا من طارئ أموالهم، ويأمرهم إذا عادوا إلى أهلهم أن يدخلوا المدينة نهارًا لينكشف ما عادوا به إليهم، ويقاسمهم كل درهم يُربى[3] على المحسوب من أرزاقهم. ويجرى على هذه السنة مع كل وال وكل عامل ذى أمانة. فلم يستثن منها أحدًا قط، ولم يُعرف وال قط سلم من مصادرة أو حساب عسير.

فالذى صنعه مع خالد حين أنكر «سرعة هجماته وشدة صدماته» سنة عمرية لا شذوذ فيها، والذى صنعه حين حاسبه على هباته وتوزيعاته سنة عمرية كذلك لا شذوذ

(١) البناء بالمرأة: الزواج منها.

(٢) العروض: الأمتعة.

(٣) يربى: يزيد.

فيها، ولو أنه صنع غير هذا الصنيع لقد كان ذلك هو الشذوذ المستغرب الذى لا يقع من عمر بن الخطاب خاصة، لأنه لا يحابى ولا يفرق فى المعاملة ولا يبالى غضب قائد كبير ولا وال قدير. وليس يجب أن يقال إن رجلاً من الرجال لا غنى عنه لدولة الإسلام، فربما كان شيوع هذه العقيدة أخطرَ على الإسلام من عزل وال مظلوم أو ولاة مظلومين.

ولا ننسى الأمانة الكبرى التى هى أكبر من أمانة الرفق بالولاة، والعدل فى محاسبة العمال، ونعنى بها أمانة الدين والدولة، أو ما نسميه نحن فى أيامنا «بالسياسة العليا».

وعمر لا يتركنا نفسر أعماله هنا باجتهادنا فى فهمها وتأويلها على ما نراه، بل يصرح للناس فيها بما بغنيهم عن التفسير والتأويل.

فكان يرعى فى شئون الولاة الكبار والقواد المشهورين أمرين يجيزان له عزلهم ولو لم يقع منهم ما يوجب المؤاخذة.

أحد هذين الأمرين أن يفتتن بهم الناس فيفتتنوا هم بالناس، كما قال لخالد بعد عزله. والخوف فى هذا الأمر من القائد الكفء أعظم من الخوف من قائد صغير لم يُبْلِ أحسن البلاء ولم تتساير بذكره الأنباء، فليس لهذا فى بقائه كخطر القائد الكبير.

وخطته هنا عامة لا يخص بها واليًا دون وال، ولا قائدًا دون قائد.

فلما عزل زياد بن أبى سفيان عن ولاية العراق سأله زياد: لم عزلتنى يا أمير المؤمنين؟ ألعجز أم خيانة؟ فقال له: لم أعزلك لواحدة منهما، ولكنى كرهت أن أحمل فضل عقلك على الناس. وقديمًا قال فيه عمر: لو كان قرشيًّا لساق العرب بعصاه. فالحيطة منه وفاق رأيه فيه.

وقد كان من خلق عمر أن يقدم الحذر ويأخذ الحيطة ويطيل الروية، ثم يجزم بالرأى السديد فى غير إبطاء، ولهذا كان يكره ولاية الرجل الفخور وينهى عنها فى خلافته وقبل خلافته، فأشار على أبى بكر ألّا يولى خالد بن سعيد وكلمه فى عزله، لأنه رجل فخور يحمل أمره على المغالبة والتعصب... فعزله أبو بكر كما أشار.

فإذا اجتمع لعمر هذا السبب من أسباب السياسة العليا إلى المآخذ التى أنكرها على خالد فلا جناح عليه، ولا محل للشك والظنة فى أسباب عزله.

لقد رأى زهو خالد بالنصر والغلب قبل أن يفتح الشام، ويسبق بالشهرة أنداده من القواد: رأى ذلك يوم عاد من حرب أهل الردة فدخل المسجد وفى عمامته السهام. ورآه يوم استقل ببيت المال فى ولايته على عهد أبى بكر وعلى عهده، ورآه فى أمور كان يبتدئها ولا يستأذن فيها، ورآه مما يحس ولا يلمس، ومما يقدر ولا ينتظر. «فإذا أشفق أن يفتتن بالناس كما افتتنوا به فلا جناح عليه».

وثانى الأمرين اللذين يدخلان فى تقديرات السياسة العليا، ويجيزان العزل فى غير جريرة ظاهرة، أن يصبح القائد ضرورة لا غنى عنها لتسيير الجيوش وفتح الفتوح، وأن يعزى إليه النجاح فتتخاذل العزائم وتصغر أقدار القادة دونه، وأن تعظم العقيدة فيه فتضعف العقيدة بالله، ويخسر الجيس بذلك أضعاف ما يخسره بإقصاء قائده، ولو لم يكن له نظير.

فإن كان له نظير كما تبين من اختيار عمر لقواده فى كل ميدان فلا خسارة هناك، بل هو كسب العقيدة وكسب قائد جديد. وإذا حان اليوم الذى ينتفع فيه بالقائد المعزول فهو قمين أن ينفع ما بقيت فيه بقية من صلاح وخير.

وتعويل عمر على العقيدة أمر تعزوه إلى كل شىء فتراه فيه على صواب: تعزوه إلى إيمانه بالله فهو فيه مصيب، وتعزوه إلى حسن سياسته فهو فيه مصيب، وتعزوه إلى تقديره للواقع فهو فيه مصيب. فكل أولئك كان خليقًا أن يرجح كفة العقيدة عنده على كل كفة، وأن يوجب عليه استبقاءها قبل كل استبقاء. وألا يزال بالناس يذكرهم ما ذكرهم به حين كتب إلى الأمصار بعد عزله خالدًا «إن الله هو الصانع، وألا يكونوا بعرض فتنة».

ولو أن رئيسًا لخالد غير عمر بن الخطاب فى إيمانه المكين، لما فاته أن يعلم أين كانت قوة المسلمين وبم كان انتصارهم فى جميع الميادين، ولا فاته أن يستبقى هذه القوة بكل وسيلة وأن يفتديها بجميع ما فى يديه: تلك قوة العقيدة لا مراء، إن ضاعت فلا عوض عنها، وإن بقيت فللقادة عوض كثير.

فكيف بعمر بن الخطاب الذى يؤمن بهذا إيمان تسليم، كما يفكر فيه تفكير سياسة وتدبير؟ لئن نسى ذلك لهو الحقيق باللوم على نسيانه، ولئن ذكره فاقتضاه ذكره أن يعزل خالدًا بغير جريرة لما كان عليه من لوم. وهو كما رأينا لم يعزله لغير جريرة، أو لم يكن

حسابه له مختلفًا عن حسابه للقادة والولاة... وقد كان أبو بكر نفسه – وهو من أبقى خالدًا – يلمح بعض الخطر من افتتان الناس به حين قال: أعجزت النساء أن ينشئن مثل خالد!

ويؤكد تعويل عمر على العقيدة فى كل نجاح وإسناده كل فشل إلى ضعفها والترخص فيها، أن الجيش الذى غزا مصر أبطأ فى فتحها، فالتمس عمر علة ذلك فى ضعف نياتهم وكتب إليهم يقول: «عجبت لإبطائكم عن فتح مصر تقاتلونهم منذ سنتين. وما ذاك إلا لما أحدثتم، وأحببتم من الدنيا ما أحب عدوكم، وإن الله تبارك وتعالى لا ينصر قومًا إلا بصدق نياتهم».

فنظرته فى عزل خالد هى النظرة العامة التى لا تخصيص فيها لرجل ولا لمعركة ولا لمكان، وتقديمه العقيدة على كل عدة من عدد النصر هو الخطة التى جرى عليها فى مراقبة القادة ومراقبة الجيوش. وتدبير عدد النصر وتجنيب المسلمين مآزق الخذلان... وهل أخطأ؟ هل كانت منه حماسة إيمان ولم تكن روية تفكير؟ هل يرى غير هذا الرأى ناقد عسكرى من أعداء الإسلام لو بحث فى الأمر ونفذ إلى حقائق الأسباب؟.. كلا. بل هو صدق الرأى وصدق الإيمان معًا مقترنين، لا يشير هذا بغير ما يشير به ذاك.

ودون هذا من أسباب «السياسة العليا» يجيز لعمر ما استجازه من عزل خالد من القيادة والولاية، ولاسيما بعد ما أخذ عليه ما أخذ، وبعد ما علم الناس أنه لا يسامح أحدًا فى أمثال هذه المآخذ. فما باله يسامح خالدًا فيها؟ إنه إذن لصانع النصر الذى لا غنى عنه، وإن الخطر الأكبر الذى يخشاه لقد حق على الجند وعلى الدولة، ولقد حق معه خطر آخر لا يقل عنه: أن يسكن الناس إلى التفرقة فى الحساب، وأن يألفوا ما يعاب إذا عيب من الرءوس والأقطاب، دون الأتباع والأذناب.

ومسألة أخرى يجب ألا يغفل عنها الرجل العصرى وهو ينظر فى عزل خالد للأسباب التى قدمنا، أو لأى سبب غيرها.. وذلك أن حقوق الولاية فى عصرنا غير حقوق الولاية فى عصر عمر على التخصيص، وهو العصر الذى بدأت فيه تجربة الولاية والعمالة فى دول الإسلام.

فالولاية فى عصرنا مركز يستحقه موظف الحكومة بعد مرانة طويلة ودراسة خاصة

واستعداد مقصور على طائفة من المرشحين لها لم تشركهم فيه طائفة أخرى، وكأنها صناعة العمر التى لا يحتمل عمر الإنسان تجديد صناعتين مثلها. فإذا قيل إن واليًا عُزِل فى عصرنا فكأننا نقول إن تاجرًا صودر ماله، أو زارعًا حيل بينه وبين زرع أرضه. ومصادرة من هذا القبيل حرى أن تلتمس لها أسباب من قبيلها فى الرجاحة والإقناع.

غير أن الولاية فى عهد عمر لم تكن كذلك بوجه من الوجوه، ولم يكن لصاحبها مثل هذا الحق الذى اصطلح عليه العرف وإن لم ينص عليه القانون، وإنما كانت تجربة ارتجالية يتساوى فيها جميع الصالحين من المسلمين، لا تنقطع بها صناعة العمر ولا سابقة الاستعداد والمرانة، فيصح أن يعزل الوالى لأسباب أهون من تلك الأسباب التى قدمناها فى الرجاحة والإقناع، ويصح أن يكون للعزل معنى المناوبة فى ندبة متساوية بين جميع المسلمين.

«لله در «ابن حنتمة» !... أى رجل كان !».

كلمة قالها رجل يعرف الرجال. قالها عمرو بن العاص وكأنه لم يكن يود أن يقولها لولا أن أنطقه بها الإعجاب الذى لا يجدى فيه كتمان.

وهى كلمة يقولها الناظر فى سيرة عمر كلها وقف من أخبارها موقف الناقد الذى يبحث عن الخطأ فيلفيه حيثما بحث عنه عسيرًا جد عسير... أى رجل كان هذا الرجل؟ أى عدل كان عدله؟ أى قسطاس كان قسطاسه؟ أى حساب كان حسابه لنفسه؟ وأى سبيل للناقد إلى رجل كان يحاسب نفسه هذا الحساب؟

وربما اختلفت الأمزجة أو اختلف تركيب العقول والأبدان فقل فى ذلك ما تشاء، وقل فى خلائق عمر ما تشاء... قل هى الشدة والصرامة، أو قل هى الخشونة والصلابة، أو قل هو نسيان الضعف وفرط الغيرة على الحق فى عالم تستكثر فيه مصانعة الحقوق ويستعظم فيه تكلف الصواب... قل ما بدا لك من ذلك واذهب ما شئت أن تذهب فيه، فإنك لا تعطى المزاج حقه ولا تفرض له فرضه حتى تحار بعد ذلك فى سبب انتقاد أو علة اختلاف، أنه لا يزاول أمرًا إلا وهو صواب، لامحل فيه لسوء الطوية، من وجهة ذلك المزاج.

كنا نقرأ عن عزل خالد ما تتفق قراءته من هنا وهناك، وكنا نستمع إلى الذين يردونه إلى المنافسة والتناظر، فنجيز هذا ولا نمنعه، أو نرى فيه منالا من قدر عمر، ومنقصة تغض

من إعجابنا بمزاياه. لأنه قد يغار من خالد ويعزله لغير جريرة، ويبقى له بعد ذلك قدره الجليل، وأثره الضخم فى تاريخ الإنسان.

وفى عصرنا هذا رأينا أبطالا خدموا أقوامهم ثم بلغ من ضغنهم على منافسيهم أنهم قتلوهم ولم يقنعوا بإقصائهم عن الحكم ولا بمحاسبتهم بين يدى القضاء. ثم نصب الناقدون لهم موازين النقد فأسقطوا السيئات من الحسنات وقرنوا قتل أفراد بإحياء أمة فبقى لأولئك الأبطال حقهم الخالد فى الثناء والتعظيم. وإذا بلغ من صواب عمر أنك لا تحصي عليه خطأ غير عزله لخالد، وما جرى مجراه فما أكثر هذا صوابًا على الآدمى، وإن كان من أعظم العظماء!

بدأنا نقرأ عن هذه القصة وفى خلدنا هذا الفرض الذى لا يحملنا على استبعادها، وعندنا أنه خطأ يذكر إلى جانب حسنات، فلا ضير أن يكون له موضعه فى جانب تلك الحسنات.

ثم نقرأ كل ما تسنى لنا أن نقرأه فى هذه القصة فلا نزال نستبعد الخطأ ونستبعده، ولا تزال كلمة ابن العاص تعود إلى لساننا وتعود، حتى نطقنا بها كما هى، وغفر الله لابن العاص.

وهكذا كنا نصنع فى كل خطأ نسب إلى عمر وتواتر على السماع دون تمحيص واستقصاء. فلا تزال بنا الوقائع حتى يثبت بطلانه من أساسه، أو يضعف سنده ضعفًا لا يبيح الاعتماد عليه، إلا لمن يتجنى ويتمحل ذرائع النقد ودعوى التخطئة والعيب.

كلا. هذا رجل لا يسهل نقده، ولا يتأتى لإنسان أن يحاسبه كما حاسب نفسه، ولن يقع الخلاف بين المنصف وبينه إلا على أنه اختلاف فى الأمزجة وتركيب العقول والأبدان. فإذا وضع هذا موضعه من التقدير فأعسر عسير بعد ذلك أن تلومه على خطأ، وأن تحصى عليه خطأ فيه من سوء النية نصيب.

فالذى حصل والذى كان متوقعًا حصوله ينفيان الظنة عن مروءة عمر وإنصافه فى قضية خالد بن الوليد، وقد حكم فيها بما وجب عنده، وانتهى كل شىء بعد ذلك فى هذه القضية بانتهاء الغرض منها فى مصلحة الدولة ومصلحة السياسة العليا. إذ لا موضع فيها لحزازات النفوس وصغائر المنافسة وما تجر إليه من لغو المتاكسة وفضول الكلام.

قال لخالد: لن تعتب عليّ فى شىء بعد اليوم، ثم أمسك عن الخوض فى قضيته إلا أن تثار فى معرض عام، فيشير إليها حيث تثار على سبيل الاعتذار، ويقبل ما شاء له كرم الخليقة أن يسمع من ملام الأقربين والمشايعين، وإن أغلظوا فى المقال، على ما كان له من هيبة ترد الجامح وتخيف من لايخاف.

قال من خطبته بالجابية: إنى أعتذر اليكم من عزل خالد بن الوليد، فإنى أمرته أن يحبس هذا المال على ضعفة المهاجرين فأعطى ذا البأس وذا الشرف وذا اللسان.

فتصدى له أبو عمرو بن حفص بن المغيرة وجابهه بكلام غليظ يقول منه: «والله ما أعذرت ياعمر. ولقد نزعت غلامًا استعمله رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأغمدت سيفًا سله رسول الله صلى الله عليه وسلم، ووضعت أمرًا نصبه رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقطعت رحمًا، وحسدت بنى العم...».

فما زاد عمر على أن قال وهو يعذره: «إنك قريب القرابة، حديث السن، تغضب فى ابن عمك».

ولم ينس أن يصون للرجل اسمه ومنزلته فى أمصار المسلمين، فكتب ما ألمعنا إليه آنفا يدحض عنه سمعة العجز والخيانة ، ويجعل العزل لفضيلة فيه لا لقصور منه، ولا لتثريب عليه.

وعلم بموته فاشتد حزنه عليه واسترجع[1] مرارا، ونكس رأسه وهو يكثر من الترحم عليه، ثم قال: كان والله سدادًا لنحور العدو ميمون النقيبة.

ولم يهمه أن يذكر صوابه أو خطأه فى عزله بمقدار ما أهمه أن يعلن فضله ويذكر حسناته فقال: «قد ثلم فى الإسلام ثلمة لا ترتق». وقيل له: لم يكن هذا رأيك فيه، فلم يحجم أن يعلن قائلا: «ندمت على ما كان منى إليه»... وقال فى غير هذا المعرض وبلغه أنه لم يعقب من حطام الدنيا غير فرسه وغلامه وسلاحه: «رحم الله أبا سليمان، كان على غير ما ظنناه به».

(١) استرجع: قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون».

وقد كان عمر ينهى عن الندب والعويل، فلما مات خالد واجتمع بنات عمه يبكينه وسئل عمر أن ينهاهن قال: «دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة[1]. على مثله تبكى البواكى»!

ودخل هشام بن البخترى فى أناس من بنى مخزوم على عمر فاستنشده شعره فى خالد، وقال له وقد أطال الإصغاء إليه: «قصرت فى الثناء على أبى سليمان رحمه الله، إن كان ليحب أن يذل الشرك وأهله، وإن كان الشامت به لمتعرضًا لمقت الله. رحم الله أبا سليمان! ما عند الله خير له مما كان فيه».

ومن الحق أن يقال إن قضية خالد قد أرتنا مروءة خالد كما أرتنا مروءة عمر، وقد عرضت لنا هذا البطل فى صفحتيه، فإذا هو بطل الفؤاد فى ولايته وبعد عزله، وفى شدته على عدوه وطاعته لأميره... وما على مثله من ضير أن يحق عليه العزل فى ميزان عمر بن الخطاب فذاك ميزان تعلو فيه الكفة ولا يزال صاحبها راجحًا أى رجحان. وقد استحق المجد بيقين واستحق العزل بظن، ولولا مصلحة أعلى من مصلحة الإبقاء على رضاه لقد كان ذلك الظن حقيقًا بالغض عنه والتجوز فيه.

وكفى بالرجلين فضلا أن يختلفا ومن وراء اختلافهما فضل يعترف به كلاهما ويعترف به كل محب وشانئ، وكل منصف وجاحد، وما نخال أن تقديرنا خالدًا وتقديرنا عمر يدعونا أن ننصب الميزان فى هذه القضية من جديد. فقصارى ما نغنم من ذلك أن خالدًا كان جديرًا بالبقاء فى منصبه ولم يكن مستحقًا لعزله، وليس ذلك بشىء إلى جانب ما رأيناه حين نصب الميزان فى القضية كما نصبه خليفة الإسلام، فقد أرانا عدلا أعظم من بطولة الأبطال، فإن أخطأ البطل - على تقدير خطئه - فالعدل أعظم منه وأخرى أن يتعقبه كأنه من أضعف الضعفاء، وذلك ميزان أشرف لعمر وللخالد وللإسلام من كل ميزان.

(١) النقع واللقلقة: شرحها المؤلف فى ص ١٨٨ بأنها إثارة التراب والإفراط فى النحيب.

ثقافة عمر

إذا تكلمنا عن ثقافة عمر بلغة العصر الحاضر جاز لنا أن نقول إنه كان رجلا وافر الحظ من ثقافة زمانه، إنه كان أديبًا مؤرخًا فقيهًا، مشاركاً في سائر الفنون، مدربًا على الرياضة البدنية، خطيباً مطبوعا على الكلام فليس أرحج من نصيبه فى ثقافة زمانه نصيب.

ظل فى إسلامه كما كان فى جاهليته عظيم الشغف بالشعر والأمثال والطرف الأدبية، بل ظل كذلك بعد قيامه بالخلافة واشتغاله بجلائلها ودقائقها التى لا تدع له من وقته فراغًا لغيرها، فكان يروى الشعر ويتمثل به ويحث على روايته، ويعتدها من تمام المروءة والمعرفة، كما قال لابنه عبد الرحمن «يا بنى انسب نفسك تصل رحمك ، واحفظ محاسن الشعر يحسن أدبك، فإن من لم يعرف نسبه لم يصل رحمه. ومن لم يحفظ محاسن الشعر لم يؤد حقًّا ولم يقترف أدبًا»... وقال للمسلمين عامة: «ارووا الأشعار فإنها تدل على الأخلاق».

ونظر إلى فائدته العملية كما نظر إلى متعته الأدبية، فقال فيه إنه جذل[1] من كلام العرب يسكن به الغيظ وتطفأ به الثائرة[2] ويبلغ به القوم فى ناديهم، ويعطى به السائل.

وكانت متعته بطرائف الأدب من متع الحياة التى لا يبالى الموت لو حرم نصيبه منها، فكان يقول: لولا أن أسير فى سبيل الله، وأضع جبهتى لله، وأجالس أقوامًا ينتقون أطايب الحديث كما ينتقون أطايب الثمر لم أبال أن أكون قد مت.

وإذا اقترنت العبادة باستطراف الحديث المهذب عند عمر فذلك غاية ما يبلغه فضل الأدب عنده من ثناء وتقريظ.

---

(١) الجذل: الأصل.

(٢) الثائرة: الهياج.

وقد كان إعظام الرجل فى عينيه بمقدار حذقه للحديث وقدرته على الإبانة والمنطق الحصيف، فنظر يومًا إلى هرم بن قطبة ملتفًّا فى بت[1] بناحية المسجد وقد عرف تقديم العرب له فى الحكم والعلم وهو ما هو من دمامة وضآلة ومنظر زرى، فأحب أن يكشفه ويسبر حكمته، فسأله فى علقمة بن علاثة وعامر بن الطفيل: أرأيت لو تنافرا إليك اليوم أيهما كنت تنفر[2]؟ فأجابه الرجل: يا أمير المؤمنين! لو قلت فيهما كلمة لأعدتها جَذَعة، أى لأعاد الحرب فتية كما كانت، فأثنى عليه وقال: لهذا العقل تحاكمت إليه العرب!

وجاءه وفد فيه الأحنف فتركهم جميعًا واستفتح ما عنده من الحديث فأعجبه وأعظم قدره وعقد له الرئاسة إلى أن مات.

وسره أن عاد العرب إلى رواية الشعر بعد أن شغلهم عنه الجهاد فى سبيل الدين: فكان يقول إن الشعر «كان علم قوم لم يكن لهم علم أصح منه، فجاء الإسلام فتشاغلت عنه العرب بالجهاد وغزو فارس والروم، ولهيت عن الشعر وروايته، فلما كثر الإسلام وجاءت الفتوح، واطمأنت العرب بالأمصار، راجعوا رواية الشعر فلم يئلوا[3] إلى ديوان مدون، ولا كتاب مكتوب، فألفوا ذلك وقد هلك من العرب من هلك بالموت والقتل فحفظوا أقله وذهب منهم أكثره.

ومن ناحية الأدب فيه، وناحية الدين معًا، حثه على تعلم العربية؛ «لأنها تثبت العقل وتزيد فى المروءة»، وقد أوصى بوضع قواعد النحو لأنه قوام العربية.

ولم يزل عمر الخليفةُ هو عمرَ الأديب طوال حياته، لم ينكر من الشعر إلا ما ينكره المسئول عن دين، ولم ينس قط أنه الأديب الحافظ الراوية إلا حيث ينبغى أن ينسى ذلك ليذكرَ أنه القاضى المتحرز الأمين.

فنهى عن التشبيب بالمحصنات كما نهى عن الهجاء، وجيء له بالحطيئة متهماً بهجاء الزبرقان بن بدر حيث يقول فيه:

---

(١) البت: الطيلسان من خز ونحوه.

(٢) نفر فلانًا ينفره: غلبه فى المنافرة، ونفر فلانًا «بتشديد الفاء» وأنفره: أعانه وغلّبه وحكم له وهو المقصود هنا.

(٣) لم يئلوا: لم يرجعوا.

دع المكارمَ لا ترحلْ لبغيتها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى[1]

فنسى أنه الأديب الراوية ولم يذكر إلا أنه القاضى الذى يدرأ الحدود بالشبهات ولا يحكم بما يعلم دون ما يعلمه أهل الصناعة، وقال للزبرقان: ما أسمع هجاءً ولكنها معاتبة. ثم سأل حسان بن ثابت فقضى بأنه هجاه وأفحش فى هجائه، فحبسه وأنذره ونهاه أن يعود إلى مثلها، فانتهى طوال حياة عمر، ثم عاد إلى الهجاء بعد وفاته. واستعداه تميم ابن مقبل على النجاشى لأنه قال فى قومه بنى العجلان:

إذا الله عادى أهلَ لؤم وذلة فعادى بنى العجلان رهطَ ابن مقبل

فذكر عمر قضاءه ولم يذكر روايته للشعر، وقال على سنة القضاة يدفع الحدود بالشبهات: إنه دعاء والله لا يعادى مسلماً.

قال تميم: فإنه يقول عنا:

قبيلته لا يغدرون بذمة ولا يظلمونَ الناس حبة خردل

فقال عمر: ليتنى من هؤلاء. قال تميم، وإنه يقول:

تعاف الكلاب الضاريات لحومهم وتأكل من عوف بن كعب بن نهشل

فقال عمر: كفى ضياعًا بمن تأكل الكلاب لحمه.

قال تميم: وإنه يقول:

ولا يردون الماء إلا عشية إذا صدر الوُراد عن كل منهل

فقال عمر: ذلك أصفى للماء وأقل للسكاك (أى الزحام).

قال تميم، وإنه يقول:

وما سُمىِّ العجلان إلا لقولهم خذ القعبَ[2] واحلب أيها العبد واعجل

فقال عمر: كلنا عبد، وخير القوم أنفعهم لأهله.

---

(١) الطاعم الكاسى: أى المطعم المكسو.

(٢) القعب: قدح ضخم غليظ، جمعه قعاب وأقعب.

قال تميم، فسله عن قوله:

أولئك أولاد الهجين وأسرة اللئـ ـيم ورهط العاجز المتبذل

فقال عمر: أما هذا فلا أعذرك عليه، وحبس الشاعر وضربه وأنذره لئن عاد ليضاعفن له العقاب.

وقد تجوزنا فقلنا إن عمر نسى علمه بالشعر ليذكر إبراء الذمة فى القضاء. وقد حاول ذلك جهده فأفلح لو يفلح أديب فى نسيان أدبه. ولكنه مطلب ما استُطيعَ قط ولن يستطاع. فكان عمر فى تخريجه للكلام وعلمه بما تنصرف إليه معانيه أخبر بالشعر من قاض لا يفقه منه إلا ظاهر لفظه ومعناه.

ومن المشهور عن عمر أنه كان عليمًا بتاريخ العرب وأيامها ومفاخر أنسابها كعلمه بالمتخير من شعرها والسائر من أمثالها.

جنح إلى ذلك بطبعه ونقله عن أبيه، وكثيرًا ما كان يقول كما جاء فى البيان والتبيين سمعت ذلك عن الخطاب، ولم أسمع ذلك عن الخطاب.

ومن وصاياه: «تعلموا النسب ولا تكونوا كنبط السواد[1] إذا سئل أحدهم عن أهله قال من قرية كذا». ومنها «عليكم بطرائف الأخبار، فإنها من علم الملوك والسادة، وبها تنال المنزلة والحظوة عندهم».

وفقه عمر بالشريعة التى كان مسئولا عن نفاذها مشهور بين الفقهاء كاشتهار أدبه واطلاعه على تاريخ قومه. فكان عبد الله بن مسعود يقول: «كان عمر أعلمنا بكتاب الله، وأفقهنا فى دين الله»، وكان إذا اختلف أحد فى قراءة الآيات قال له: اقرأها كما قرأها عمر، وأطنب فقال: «لو أن علم عمر بن الخطاب فى كفة ميزان ووضع علم الأرض فى كفة لرجح علم عمر بعلمهم» ولقد كانوا يروون أنه ذهب بتسعة أعشار العلم... وقال ابن سيرين: إذا رأيت الرجل يزعم أنه أعلم من عمر فشكَّ فى دينه»: وكل ما فسر به آى القرآن فى معرض الحكم والعظة فهو التفسير الراجح فى وزن العقل والدين وكل ما استخرجه من أحكام الشريعة فهو الحكم الواضح الصحيح.

---

(١) النبط: جيل من العجم ينزلون بالبطائح بين العراقين.

ونصائحه للعلماء والمتعلمين نصائح عالم يعرف ما هو العلم وماذا يجمل بالعلماء فى طلبه، فكان يقول: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه وتواضعوا لمن تُعلِّمون، ولا تكونوا جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم». وكان يوصى طلابه «أن يكونوا أوعية الكتاب وينابيع العلم، ويسألوا الله رزق يوم بيوم، ولا يضيرهم ألا يُكْثَر لهم»، ولايزال يذكرهم أن التفقه مقدم على السيادة «فتفقهوا قبل أن تسودوا».

ولم يقصر نصائحه على علم الدين وحده، ولا علم الأدب واللغة وحده، بل تناول كل ما عرف من معارف زمانه فقال: «تعلموا من النجوم ما يدلكم على سبيلكم فى البر والبحر ولا تزيدوا عليه».

ولا شك أن نصائحه العملية فى طلب العلم كانت أغلب من نصائحه النظرية فيه، شأنه فى ذلك شأن رجل الدولة الذى يعلم الناس ما ينفعهم ويصلح معاشهم ويهذب أخلاقهم... ولكننا مخطئون إن فهمنا من هذا القول الذى رويناه فى علم النجوم أنه كان يكره الزيادة الحديثة فيه كما عرفناها نحن فى أيامنا، فإنما الزيادة التى كرهها هى تلك الزيادة التى كانت على عهده تخوض فى التنجيم وتربط أقدار الناس بالكواكب، وتجعل منها أربابًا تعبد وأرصادًا تؤمن على أسرار الغيب. وذلك ما ننهى عنه الآن ونعد النهى عنه من تحقيق العلم الصحيح.

ولم يفته الحرص على المعرفة التى تخترع منها منافع للناس فى أمر المعاش، فطلب إلى أبى لؤلؤة غلام المغيرة أن ينجز ما ادعاه من اختراع طاحون تدار بالهواء، وهو علم الصناعات كما انتهى إليه فى عصره، لا يضيره أنه قسط ضئيل، بل حرصه عليه مع ضآلته دليل على ما يلقاه منه تشجيع الصناعة يوم يراها جليلة كبيرة الآثار.

على أن زبدة الثقافة كلها فى أقطاب الحكم وعظماء الأعمال إنما تتلخص فى شىء واحد هو الدراية بالناس، ونفاذ البصر فى شئون الدنيا، وصدق الخبرة بدخائل النفس البشرية، أو هو ما نسميه فى أيامنا هذه بالرأى السليم والحكمة العملية، وهو مجال كان عمر بن الخطاب قليل النظراء فيه، وحفظت له كلمات فى معانيه يندر مثيلها بين كلمات الحكام، ولا يكثر مثيلها بين كلمات الحكماء.

فأى كلمة أدل على النفس البشرية من قوله: «ليس العاقل الذى يعرف الخير من الشر ولكنه الذى يعرف خير الشرين».

وأى نفاذ فى تركيب الطبائع أمضى من نفاذه إذ يقول: «ما وجد أحد فى نفسه كبرًا إلا من مهانة يجدها فى نفسه»، أليس هذا بعينه مركب النقص الذى يلهج به علم النفس الحديث؟

وأى رأى فى تجربة الناس أصدق من رأيه حين يقول: «لا تعتمد على خُلُق رجل حتى تجربه عندالغضب»، أو حين أثنى بعضهم على رجل أمامه فسأله: أصحبته فى السفر؟ أعاملته؟ فلما أجابه نفيًا قال: «فأنت القائل بما لم تعلم؟».

وأى فهم لمعنى الاستعداد للعمل أقرب من فهمه حين ينصح العاملين: «إذا توجه أحدكم فى الوجه ثلاث مرات فلم ير خيرًا فليدعه»؟

كذلك سداد جوابه حين سئل فيمن يشتهى المعصية ولا يقارفها، وفيمن ينتهى عنها وهو لا يشتهيها، أيهما أفضل وأجزل مثوبة، عند الله؟ فكتب فى هذا فصل الخطاب إذ قال: «إن الذين يشتهون المعصية ولا يعملون بها، أولئك الذين امتحن الله قلوبهم للتقوى لهم مغفرة وأجر كريم». وكذلك وصيته بكتمان السر وتبيينه لحسن عقباه حين قال: «من كتم سره كان الخيار بيده».

وكذلك وصيته فى الحب والبغض حين قال «لا يكن حبك كلفا، ولا بغضك تلفا».

وكذلك مخافته محنة الفراغ على الناس أشد من مخافته محنة الخمر حين قال: أحذركم عاقبة الفراغ فإنه أجمع لأبواب المكروه من السكر».

وكذلك وصاياه التى كانت تحفل بها كتبه إلى الولاة وخطبه فى الصلوات والأعياد كلها آيات من هذه الحكمة العملية التى هى خلاصة الثقافة المحمودة فى أقطاب الحكم خاصة، وفى كل رجل يزاول شئون الحياة على التعميم.

أما مشاركته فى سائر الفنون والمعارف التى كانت ميسورة على عهده فمنها المستغرب عند من يتخيل صورة عمر من جملة أخباره، ولا يتقصى فيها إلى التفصيل.

فقليل من يتخيل أن عمر كان يعرف «جغرافية» الشرق كأحسن ما يعرفها رجل فى

وطنه، ولكنه كان يعرفها حقًّا عن سماع وعن رؤية وعن زكانة تعين السماع والرؤية. بل كان يفرض على الولاة أن يحيطوا بعلم ما يتولونه من البلاد ويعزل من يرى فيه تقصيراً عن ذاك. فاستقدم عمار بن ياسر أمير الكوفة لما شكوه إليه وقالوا فى شكواهم إياه: «أنه لا يدرى علام اسُتعْمِل» وجعل يسأله عن المواقع والبلدان من بلاد العرب والفرس حول الكوفة، سؤال مطلع خبير، ثم عزله لتقصيره بعد اختباره.

ومن الواجب أن نشك فى كل خبر يوهم أن عمر كان يجهل معرفة من المعارف العملية التى يحتاج إليها فى تدبير الدولة، فلا يعقل مثلا أنه كان يجهل المعرفة العامة بالحساب وقد كان تاجراً منذ نشأته فى الجاهلية، وكان يحضر الجيوش ويعرف ما هى الألوف وما هى عشرات الألوف، فإذا استفسر عن رقم فلن يكون إلا استفسار تجاهل واستعظام، وليس بجهل وغرارة، كما جاء فى أخبار الخراج من هَجَرَ والبحرين.

قال أبو هريرة ما فحواه: قدمت من هجر والبحرين بخمسائة ألف درهم: فأتيت عمر بن الخطاب ممسيًا أسلمه إياه، فسأل كم هو؟ قلت خمسمائة ألف درهم! قال: وتدرى كم خمسمائة ألف درهم؟! قلت نعم: مائة ألف ومائة ألف خمس مرات... قال: أنت ناعس، اذهب فبت الليلة حتى تصبح!

فكل شىء يجوز أن يفهم من هذه القصة إلا أن عمر كان يجهل ذلك الرقم ولم يسمع بمثله قبل ذلك، وهو الذى شهد الدولة وحسابها من عهد أبى بكر وأحصى الجند والمال فى عهده... إنما هى غبطة واستعظام وليس هو جهلا بدلالة هذا الرقم فى جملة الحساب.

وإذا قل من يتخيل علم عمر بالجغرافية والحساب فأقل من أولئك من يتخيل له حظًّا من السماع والغناء، ولكنه كان يسمع ويغنى فى بعض الأحيان، ولا ينهى عن غناء إلا أن تكون فيه غواية تثير الشهوات. جىء له برجل يغنى فى الحج وقيل له: إن هذا يغنى وهو محرم، فقال: دعوه فإن الغناء زاد الراكب.

وروى نائل مولى عثمان بن عفان أنه خرج فى ركب مع عمر وعثمان وابن عباس، وكان مع نائل رهط من الشبان فيهم رباح بن المعترف الفهرى الذى كان يحدو ويجيد الحداء والغناء. فسألوه ذات ليلة أن يحدو لهم فأبى وقال مستنكرًا: مع عمر! قالوا: احد فإن نهاك فانته. فحدا، حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. ثم

كانت الليلة الثانية فسألوه أن ينصب لهم نَصْب العرب[١]. فأبى وأعاد استنكاره بالأمس قائلا: مع عمر؟.. قالوا له كما قالوا بالأمس: انصب فإن نهاك فانته. فنصب لهم نصب العرب حتى إذا كان السحر قال له عمر: كف فإن هذه ساعة ذكر. ثم كانت الليلة الثالثة فسألوه أن يغنيهم غناء القيان[٢] فما هو إلا أن رفع عقيرته[٣] بغنائهن حتى نهاه وقال له: كفَّ فإن هذا يُنَفِّر القلوب.

وكان يخرج للحج ومعه من يحسن الغناء فيقترح عليه أن يغنى شعرًا ويؤثر أن يكون ذلك من شعره.

خرج مرة للحج ومعه خوات بن جبير وأبو عبيدة بن الجراح وعبد الرحمن بن عوف، فاقترحوا على خوات أن يغنيهم من شعر ضرار، وقال عمر: بل دعوا أبا عبد الله فليغن من بنيات فؤاده. فما زال يغنيهم حتى كان السحر، فهتف به عمر: ارفع لسانك ياخوات فقد أسحرنا.

وجاءه قوم فذكروا أن إمامهم يصلى بهم العصر ثم يتغنى بأبيات من الشعر، فقام معهم إليه واستخرجه من منزله، وسأله فيما بلغه عنه، واستنشده الأبيات التى يغنيها، فأنشده:

وفؤادى كلما نبهته ... عاد فى اللذات يبغى تعبى
لا أراه الدهر إلا لاهيًا ... فى تماديه فقد برح بى
ياقرين السوء ما هذا الصِّبا ... فنى العمر كذا باللعب[٤]
وشباب بان[٥] منى فمضى ... قبل أن أقضى منه أربى
نفس لا كنت ولا كان الهوى ... اتقى المولى وخافى وارهبى

فأعاد البيت الأخير، وقال لمن شكوا إليه: من كان منكم مغنيًا فليغن هكذا.

---

(١) الحداء: الغناء للإبل كى تجد فى السير، والنصب: غناء أرق من الحداء وهو غناء الركبان.
(٢) القيان: جمع قينة وهى الجارية البيضاء، وقيل: تختص بالمغنية.
(٣) عقيرته: صوته
(٤) الصبا: من الشوق، يقال منه (تصابى)، والصباء اللعب مع الصبيان.
(٥) بان: ذهب وودع.

وكان مرة فى سفر فرفع عقيرته بالغناء وأنشد:

وما حملت من ناقة فوق رحلها   أبـــرَّ وأوفى ذمـــة من محمـــد

فاجتمع الركب إليه، فقرأ فتفرقوا. فعل ذلك وفعلوه مرات، فصاح بهم «يابنى المتْكاء[1]! إذا أخذت فى مزامير الشيطان اجتمعتم وإذا أخذت فى كتاب الله تفرقتم؟..» لا يلومهم على الغناء وسماعه. إنما يلومهم أن يؤثروه على سماع القرآن مرات.

ولا شك أن الشغف بالشعر الجزل والحديث الرائق والصوت الحسن لا يجتمع فى نفس إلا اجتمع معه ذوق للجمال وسرور بكل حسن جميل. ولكن أين يقع هذا من صرامة عمر وبأسه وشدة حجره على زينة الحسان؟ فقد دخل فى روع أناس أنها جميعًا من نقائض حب الجمال. وقد سمعنا هذا فعلا من أدباء يجلون عمر ولا يحسبون ذوق الجمال من مأثور حسناته، لأنه كان شديدًا فى الحجاب وكا ن ينفى الفتيان الحسان كما صنع بنصر بن حجاج ومعقل بن سنان، وكان يقول، «استعينوا بالله من شرار النساء وكونوا من خيارهن على حذر».

وعندنا نحن أن هذا جميعه ينم على الإحساس بخطر الجمال وطغيان فتنته، ولا ينم على غفلة عنه وقلة مبالاة بأثره. وما نخال أحدًا من المترخصين فى الحجاب كان يؤمن بسلطان الجمال أبلغ من إيمان عمر بسلطانه، أو كان يعرف حق المرأة فى الشوق إليه كما عرفه وأمر برعايته، فإنه كان ينكر على الآباء أن يكرهوا فتياتهم على قباح الوجوه ويوصيهم «ألّا تكرهوا فتياتكم على الرجل القبيح فإنهن يحببن ماتحبون». وجاءت له امرأة بزوج أشعث أغبر تسأله الخلاص منه، فأمر به أن يجم وأن تقلم أظفاره ويؤخذ من شعره، ثم قال له ولمن فى مجلسه: «هكذا فاصنعوا لهن فو الله إنهن ليحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزين لكم».

فكل ما روى عن عمر من الشدة والرفق فى معرض الجمال فهو دليل على الإحساس به وإكبار خطره، وليس بدليل على الغفلة عنه واستصغار أثره، وربما كانت الشدة والحجر أدل على ذلك من الرفق والمحاسنة.

* * *

---

(١) المتكاء. امرأة لم تخفض.

ومن الآداب العامة التى لها حظ من ذوق الجمال فى معارض السياسة أدب الذكريات الذى لا يستغنى عنه ولاة الأمر الموكلون بإحياء معالم الدول والاحتفال بمراسمها وأعيادها.

ففى هذا الأدب كان لعمر النصيب الذى يغنيه، فهو الذى اختار أو وافق على اختيار يوم الهجرة بداية للتاريخ الإسلامى. وإنه لأصلح يوم يؤرخ به الإسلام لأن العقائد كما قلنا فى «عبقرية محمد»: «تقاس بالشدائد ولا تقاس بالفوز والغلب، وكل إنسان يؤمن حين يتغلب الدين وتفوز الدعوة. أما النفس التى تعتقد حقًّا ويتجلى فيها انتصار العقيدة حقًّا فهى النفس التى تؤمن فى الشدة وتعتقد ومن حولها صنوف البلاء».

وكلما اقترح على عمر اقتراح فيه نفحة من ذوق الذكرى كان مجيبًا له سريع الإصغاء إليه. فكان يحترم وفاء بلال وإقلاعه عن الأذان بعد وفاة النبى عليه السلام، ولكنه دعاه إلى الأذان تلبية لاقتراح الجلة من الصحابة فى يوم وداع دمشق بعد الفتح المبين. فبينما المسلمون يشهدون الصلاة الجامعة إذا بالصوت الذى انقطع بعد النبى يرتفع رويدًا رويدًا فى الفضاء ويسرى رويدًا رويدًا من الأسماع إلى الصدور، والتفتوا وكأنهم يسألون: ماذا؟ هل عاد محمد إلى الأرض؟ إن لم يكن قد عاد فقد عاد الحنين إليه أقوى ما ينبعث من صوت إنسان إلى صدور إنسان. فذابت قلوب لا يذيبها الهول، وبكى أشيب أولئك الأبطال وأصبرهم على حر القتال.

وإذا كان عمر المعجب بالجمال مستكنًّا وراء ستار يحوجنا إلى النظر من ورائه فعمر الرياضى المشغول بالرياضة البدنية ظاهر لنا بعمله وقوله، وبسيرته فى الجاهلية وسيرته بعد الإسلام، وسيرته بعد الخلافة إلى أن فارق الحياة.

فكان يصارع فى المواسم ويسابق على الخيل، وكان ينوط مجد العرب بالرياضة والفروسية ويكتب إلى الأمصار أن «علموا أولادكم السباحة والفروسية ورووهم ما سار من المثل وحسن من الشعر»، ولا يفتأ يذكرهم أنه: «لن تخور قوى ما دام صاحبها ينزع وينزو» أى يرمى بالقوس ويركب ظهور الخيل بغير ركاب.

أما الخطابة فقد كانت فيه من صفات البنية ولم تكن من صفات الذهن وكفى، فكان له فم يمتلىء بالكلام حين يخطب كأنه خلق ليقول، ولوحظ عليه أنه كان ينطق ببعض

الحروف – كالصاد – من كلا شدقيه وهى تنطق فى الأغلب من شدق واحد.

وكان جهورى الصوت واضح النطق سليم الشفتين فى إخراج الحروف، وكتابته كلها كأنها خطب مرتجلات تقرؤها فكأنك تصغى إلى خطيب لاتفقد منه إلا الصوت المسموع.

ولا نطباعه على الكلام الذى لا تصنع فيه كان يستسهل كل كلام يوافق طبعه ولا يستصعب من الخطب إلا الذى من نظرته إلى الناس ويلجئه إلى المداراة والباطل. فكان يقول: «مايتصعدنى[1] كلام كما تصعدنى خطب النكاح»، والتمس ابن المقفع علة ذلك فقال: ما أعرفه إلا أن يكون أراد قرب الوجوه من الوجوه. ونظر الحداق من قرب فى أجواف الحداق[2]، ولأنه إذا كان جالسًا معهم كانوا كأنهم نظراء وأكفاء، وإذا علا المنبر صاروا سوقة ورعية. والتمس الجاحظ علة ذلك فروى عن أناس أنهم رجعوا باستصعاب عمر لخطب النكاح إلى «أن الخطيب لا يجد بدًّا من تزكية الخاطب، فلعله كره أن يمدحه بما ليس فيه فيكون قد قال زورًا وغرَّ القوم من صاحبه». وكلا القولين جائز فى بيان وجه المخالفة بين طبع عمر والتكلم فى محافل النكاح. فهو مطبوع على أن يتكلم إلى الناس كلام رجل يقود الرجال، ومطبوع على الصدق الذى تثقل على المداهنة، وهى مما لا غنى عنه فى هذا المقام، ولو كان الخاطب من الأكفاء.

وقد اختلفوا فى نظمه الشعر فزعم الشعبى أنه كان شاعرًا ورويت أشعار لا تشبهه ولا ترضيه، ونفى هو نظمه للشعر حين قال: «لو كنت أقول الشعر لرثيت أخى زيدًا».

ولا طائل فى هذا الخلاف لأنه لن ينتهى إلى رأى قاطع يسكت عليه، ولكنما المهم فى هذا الصدد أنه كان مطبوعًا على التعبير وله عبقرية فيه، أو أن تعبيره كان خاصًّا به لا يشبهه تعبير سواه، فهو تعبير عمرى بمفرداته وتركيبه لا يلتبس بتعبير أحد من أهل عصره حتى ليسهل تمييز كلامه من كل كلام، ويصعب تزوير القول عليه ولو أحكمت المحاكاة.

فمن خصوصياته فى التعبير أنه كان يقول: «لولا الخليفى لأذنت»، وهو يعنى الخلافة ولا يقصد الإغراب.

---

(١) مايتصعدنى كلام: مايشق على.

(٢) الحداق: جمع حدقة وهى سواد العين.

ومنها وهو ينقل خبر إسلامه إلى خاله: «وجئت إلى خالى فأعلمته فدخل إلى البيت وأجاف الباب» أى أوصده.

ومنها وهو يصف ما وقع فى نفسه من الآية التى تلاها أبو بكر رضى الله عنه حين أنكر موت النبى فقال: «والله ما هو إلا أن سمعت أبابكر تلاها فعقرت حتى ماتقلنى رجلاى»، يعنى أنه عجز عن القيام.

ومنها فى الكتابة والقراءة ينهى عن العجلة فيها: «شر الكتابة المشق وشر القراءة الهذرمة، وأجود الخط أبينه»[1].

ومنها وهو يذكر امرأة كانت تسقى الناس يوم أحد: أنها «كانت تزفر للناس القرب» أى تحملها.

ومنها فى المشورة: «الرأى الفرد كالخيط السحيل، والرأيان كالخيطين المبرمين والثلاثة مرار لا يكاد ينتقض»[2].

ومنها حين كتب إلى أبى عبيدة بعد ولايته الخلافة: «.. ولا تبعث سرية إلا فى كثف من الناس»[3].

ومنها حين شكا إليه الشاكى هجاء الشاعر الذى قال فيه:

ولا يـردون المـاء إلا عشيـــة إذا صدر الوراد عن كل مورد

فقال: ذلك أنفى «للسكاك» أى الزحام.

ومنها فى سماحه بالبكاء «مالم يكن نقع أو لقلقه» أى مالم يثر التراب ويفرط فى العويل.

ومنها وقد حار بأهل الكوفة: «أعضل[4] بى أهل الكوفة ما يرضون بأمير ولا يرضاهم أمير».

---

(١) مشق فى الكتابة: مد حروفها وأسرع فيها، هذرم القرآن، أسرع فى قراءته لا يتدبر معانيه.

(٢) السحيل: الثوب السحيل الذى لايبرم غزله، مرار: قوية محكمة.

(٣) الكثف: الجماعة.

(٤) أعضل بى: أعيانى أمرهم.

ومنها: «أن قريشًا تريد أن تكون مغويات لمال الله» أى مصائد تحتجنه لها دون عباد الله.

ومنها: «تمعددوا واخشوشنوا واقطعوا الركب وانزوا على الخيل نزوًا» أى تزيّوا بزى العرب من معد بن عدنان.

ومنها «فرقوا بين المنايا واجعلوا الرأس رأسين، ولا تُلِثُّوا[1] بدار معجزة» أى تقيموا.

ومنها: «فمن بايع رجلا على غير مشورة من المسلمين فلا يتابع هو ولا الذى بايعه تغرة أن يقتلا» أى أن يتعرضا للقتل.

ومنها: «.. أن الاقتصاد فى السنة خير من الاجتهاد فى الضلالة، فافهموا ماتوعظون به، فإن الحريب من حرب فى دينه» يريد المسلوب.

ومنها وقد سمع بامرأة سافرة يبرزها زوجها فقال: «هذه الخارجة وهذا المرسلها لو قدرت عليها لشتَّرتُ بهما» أى لأغلظت القول لهما.

ومنها لما سألوه: لم حصبت المسجد فقال: «هو أغفر للنخامة وألين فى الموطن» أى أستر للبصاق.

ومنها: ثلاث من الفواقر[2]: جار مقامة إن رأى حسنة سترها وإن رأى سيئة أذاعها، وامرأة إن دخلت عليها لسنتك وإن غبت عنها لم تأمنها. وسلطان إن أحسنت لم يحمدك، وإن أسأت قتلك» ولسنتك: أى تناولتك بلسانها.

ومنها: وهو يخاطب سعد بن عبادة يوم السقيفة: «لقد هممت أن أطأك حتى تندر عضدك» أى تسقط.

ومنها وهو يتكلم عن امرئ القيس: «خسف لهم عين الشعر فافتقر عن معان عور أصح بصر»، أى استنبط عين الشعر وشق طريق المعانى وأتى بالشوارد الحسان.

ومنها وهو يتكلم عن نصيب المسلمين فى الغنائم وبيت المال: «والله لئن بقيت ليأتين

(١) فى المختار: ولا تقيموا ببلدة تعجزون فيها عن الاكتساب والتعيش.

(٢) الفواقر: جمع فاقرة وهى الداهية.

الراعى بجبل صنعاء حظه من هذا المال وهو مكانه قبل أن يحمر وجهه»، أى قبل أن يخجل ويحمر وجهه فى طلبه.

ومنها قوله لأعرابى استفتاه فى صيد ظبى وهو محرم: «أتقتل فى الحرم وتغمص الفتيا!» أى تعيبها ولا ترضاها.

وأشباه هذا كثير لا تخلو منه خطبة أو حديث أو كتاب، تعمدنا أن نكثر شواهده لنرى أنه ليس بالمصادفة وليس بالتكرير لنمط واحد من العبارات.

ويلحق بهذا تسمية مواليه بين أسبق وأسلم ويرفأ وفرقد وذكوان وفروخ وما شابه هذه الأسماء، وهى تسمية مفردة تكاد تقتصر عليه، وإنما هى الطبيعة العمرية تمثلت فى صيغة الكلام وفى اختيار الأعلام، فلا تستطيع أن تسميها إغرابًا أو عسلطة أو تعملا[1] بنحو من أنحائه، إذ ليس وراءها قصد متفق فى جميع هذه الصيغ، وأبين ما يبين فيها أنها من عفو البداهة هنا وهناك، وأنها تترجم عن الطبيعة العمرية أصدق ترجمة وأشبهها بصاحبها فهى قوية خشنة مستقلة جادة خالية من الزخرف. وهكذا كان المتكلم عمر، وهكذا كان كلامه الذى ينطبع عليه حين يكون منطبعًا على التعبير ، فلو أن كلمات تتمثل رجلا لتراءى لنا من مثال هذه الكلمات شخص عمر فى خلقه وخلقه كما كان.

* * *

ومحصل هذه الأخبار جميعًا أن عمر كان من نخبة المثقفين فى العربية، وكان وافر السهم فى ثقافة قومه وعصره. وكان الجانب العملى من ثقافته أغلب وأظهر من جوانبها النظرية كما هو المعهود فى ساسة الأمم وعواهل الدول. وإن كان هذا لا يمنع أنه اشتاق إلى نفائس الشعر وأطايب الأدب لما يجده من راحة النفس ومتعة الخاطر.

ويستطرد بنا الكلام على ثقافته العربية إلى الكلام على موقفه من الثقافات الأخرى فى زمانه، وعلى حقيقة الرواية التى شاعت وتواترت عن موقفه من مكتبة الإسكندرية التى قيل إنه أمر بإحراقها. فهل هو الآمر بإحراقها كما جاء فى تلك الرواية؟ وإذا كان هو الآمر بذلك فما دلالته على تفكيره؟ وما وجه التبعة فيه؟ فحوى تلك الرواية أن

---

(١) العسلطة: الكلام بلا نظام، وكلام معسلط أى مخلط والتعمل: التكلف.

عمرو بن العاص رفع إليه خبر المكتبة الكبرى فى الإسكندرية فجاءه الجواب منه بما نصه: «أما الكتب التى ذكرتها فإن كان فيها ما يوافق كتاب الله ففى كتاب الله عنه غنى، وإن كان فيها ما يخالف كتا ب الله فلا حاجة إليه، فتقدم بإعدامها» قال مفصل هذه الرواية: فوزعت الكتب على أربعة آلاف حمام بالمدينة ومضت ستة أشهر قبل أن تستنفد لكثرتها!.

وأحرى شىء أن يلاحظ فى مسألة المكتبة هذه أن الذين أدحضوها وأبرءوا عمر من تبعتها كان معظمهم من مؤرخى الأوربيين الذين لا يتهمون بالتشيع للمسلمين، وكانوا جميعًا من الثقات الذين يؤخذ بنتائج بحثهم فى هذا الموضوع.

فالمؤرخ الإنجليزى الكبير إدوارد جيبون Gibbon صاحب كتاب الدولة الرومانية فى انحدارها وسقوطها يسرد الحكاية ويعقب عليها قائلا: «أما أنا من جانبى فإننى شديد الميل إلى إنكار الحادثة وتوابعها على السواء، لأن الحادثة العجيبة فى الحق كما يقول مؤرخها إذ يسألنا هو أن نسمع ما جرى ونعجب!.. وهذا الكلام الذى يقصه أجنبى غريب يكتب على تخوم ميدية بعد ستمائة سنة يوازنه ويرجح عليه ولا شك سكوت اثنين من المؤرخين كلاهما مسيحى وكلاهما مصرى، وأقدمهما البطريق يوتيخيوس Eutychius الذى توسع فى الكتابة عن فتح الإسكندرية. وإن القضاء الصارم الذى نسب إلى عمر لبغيض إلى أصحاب الفهم الصحيح المستقيم من فقهاء المسلمين الذين يفتون بتحريم إحراق الكتب الدينية التى تغنم من اليهود والمسلمين فى الحرب، وما كان من الكتب دنيويًّا ظنينًا سواء ألفه المؤرخون أو الشعراء أو الأطباء أو الفلاسفة فحكمهم فيه أن يستخدم على الوجه المشروع لمنفعة المؤمنين. وقد تعزى إلى متقدمى الخلفاء بعد محمد غيرة أضرى من ذلك بالهدم والإبادة. ولكن لو صح هذا لوجب أن تنفذ الأوراق سريعًا لقلة المادة المحترقة! فلا نرجع إلى نكبة المكتبة فى الحريق الذى أصابها على غير قصد بيدى قيصرى وهو يدافع عن نفسه، ولا إلى تعصب المسيحيين الأوائل الذين كانوا يدبرون الوسائل تدبيرًا لتعفية الآثار المتخلفة من أيام عبادة الأصنام، ولكننا ننحدر شيئا فشيئًا من عصر أنتونين إلى عصر ثيوديسيوس فنعلم من سلسلة الأنباء المعاصرة أن القصر الملكى وهيكل ساربيس لم تبق فيهما تلك الأسفار التى جمعها البطالسة وبلغت فى إحدى الروايات أربعة آلاف وفى رواية أخرى سبعة آلاف، ولا يبعد أن تحفل الكنيسة

ومعهد البطارقة بذخيرة من الأوراق والأضابير، فإن كانت هذه هى الوقود الذى أفنته الحمامات بما كان فيها من جدل بين القائلين بتعديد الطبيعة المسيحية والقائلين بتوحيدها فقد يرى الفيلسوف وعلى فمه ابتسامة أنها كانت فى الحمامات أنفع لبنى الإنسان؟».

والدكتور الفرد بتلر Butler المؤرخ الإنجليزى الذى أسهب فى تاريخ فتح العرب لمصر والإسكندرية يلخص الحكاية وينقضها ابتداءً لأن حنا فلبيوتوس الذى قيل إنه خاطب عمرو بن العاص فى أمر المكتبة لم يكن حيًّا فى أيام فتح العرب لمصر.. ثم ينقضها لأسباب شتى منها أن كثيرًا من كتب القرن السابع كانت من الرق[1] وهو لا يصلح للوقود، وأنها لو قضى الخليفة بإحراقها لأحرقت فى مكانها ولم يتجشموا نقلها إلى الحمامات مع ما فيه من التعب ومع إمكان شرائها من الحمامات بعد ذلك بأبخس الأثمان، وأننا لو صرفنا النظر عن الكتب المخطوطة على الرق لما كفى الباقى من ذخائر المكتبة لوقود أربعة آلاف حمام مائة وثمانين يوما، وهذا عدا الشك الذى يعتور القصة من تأخر كتابتها زهاء خمسة قرون ونصف قرن بعد فتح الإسكندرية، ثم كتابتها بعد ذلك خلوًا من المصادر والأسناد، بل هذا عدا ما قيل من احتراق المكتبة فى السنة الثامنة والأربعين للميلاد، وفيما تلا ذلك من الفتن والقلاقل بين طوائف المسيحين.

والمستشرق كازانوفا يسمى الحكاية أسطورة ويقول إنها نشأت بعد تاريخ الحادثة بستة قرون، وينقضها لمثل الأسباب التى لخصناها من كتاب بتلر، ثم يقول: «.. وهناك اعتراض أخطر مما تقدم وهو أن ما ذكر عن يحيى النحوى منقول عن كتاب الفهرست لابن النديم فى أواخر القرن العاشر، وفيه أن يحيى هذا عاش حتى فتحت مصر وكان مقربًا من عمرو ولم يذكر شيئًا من مكتبة الإسكندرية، فحادثة المكتبة إذن من أوهام ابن القفطى أخذها عن خرافة كانت شائعة فى عصره».

ثم يمضى فى تفنيده فيقول: وقد تساءل ابن خلدون عن مخلفات الفرس والأشوريين والبابليين والقبط التى حرقها عمر عند فتح العرب. وقال ابن خلدون فى كلام آخر: «إن العرب لما فتحوا بلاد الفرس سأل سعد بن أبى وقاص عمر عما يأمر به فى شأن الكتب التى بها فأمره بإلقائها فى اليم، فانتقلت القصة من فارس إلى الإسكندرية مع الزمن، وفَعَل الخيال فعله فى تحريفها.

---

(٢) الرق: بفتح الراء وكسرها، جلد رقيق يكتب فيه.

«وقد وقع تحريف فى هذه الخرافة فى بعض دوائر المعارف حيث نقل عن سبر نجل أن مكتبة الإسكندرية حرقها العرب عند فتح مصر وأن الخليفة المتوكل أنشأها من جديد، وأن الترك فتحوا الإسكندرية سنة ٨٦٨ وأضرموا فيها النار على عهد أحمد بن طولون.. ولكن أحمد بن طولون لم يفتح مصر وإنما أقامه خليفة بغداد حاكمًا عليها، فلا علاقة للترك إذن بهذا الحادث المزعوم».

قال: «وفى سنة ١٨٧٧ ذكر الكونت دى لندبرج أن أحد الضباط الإنجليز اتهم نابليون الأول بإحراق مكتبة الإسكندرية».

قال: «وسنلم هنا بالسبب الذى من أجله ظهرت هذه الخرافة فى القرن الثالث عشر ولم تظهر قبل ذلك».

«ففى أواخر القرن الثانى عشر رجعت مصر إلى حكم خلفاء بغداد، وأبلى صلاح الدين بلاءه فى الحروب الصليبية وانتصر على المسيحيين فلقبه الشعب بفاتح مصر، وقرن بين اسمه واسم عمر بن الخطاب، وكان لابن القفطى أب يعجب بصلاح الدين ولاه صلاح الدين قضاء القدس، وعاصر عبد اللطيف البغدادى وهو من المعجبين بصلاح الدين؛ فتلاقيا فى القدس وسمع منه هذه الأسطورة التى توسع ابن القفطى فى نقلها. فكان أول من ألف هذه الأسطورة من حاشية صلاح الدين لتزكية حاكم مصر الجديد. ومما يروى عن صلاح الدين أنه باع كنوز القصر والمكتبة فبقيت هذه الرواية إلى القرن الثامن عشر يوشيها ما ينسجه الخيال حول الخرافة العمرية. ثم اتخذت صورتها التاريخية منذ ذلك العهد تعززها خرافات أخرى لحقت بعمر؛ ووافقت معنى قوله أن لا كتاب إلا كتاب الله..».

ومن المشارقة الذين تناولوا حكاية المكتبة المؤرخ الكبير جورجى زيدان فى الجزء الثالث من كتابه «تاريخ التمدن الإسلامى» حيث قال إنه كان يميل إلى نفى الحكاية ثم عدل عن ميله هذا إلى قبولها وأورد من أسباب ذلك «أن حكاية إحراق مكتبة الإسكندرية لم يختلقها أبو الفرج لتعصب دينى، ولا دسها أحد بعده، بل هو نقلها عن ابن القفطى وهو قاض من قضاة المسلمين عالم بالفقه والحديث وعلوم القرآن واللغة والنحو والأصول والمنطق والنجوم والهندسة والتاريخ والجرح والتعديل، وكان صدرًا محتشمًا جمع من الكتب مالا يوصف، وكانوا يحملونها إليه من الآفاق، وكانت مكتبته

تساوى خمسين ألف دينار، ولم يكن يحب من الدنيا سواها، وله حكايات غريبة عن غرامه بالكتب، ولم يخلف ولدًا فأوصى بمكتبته لناصر الدولة صاحب حلب، وله مؤلفات عديدة فى التاريخ والنحو واللغة. وفى جملتها كتاب أخبار مصر من ابتدائها إلى أيام صلاح الدين فى ستة مجلدات، وكتاب تراجم الحكماء الذى نحن فى صدده، وأن ابن القفطى وعبد اللطيف البغدادى أخذا عن مصدر ضائع. وأما خلو كتب الفتح من ذكر هذه الحادثة فلا بد له من سبب، والغالب أنهم ذكروها ثم حذفت بعد نضج التمدن الإسلامى واشتغال المسلمين بالعلم ومعرفتهم قدر الكتب، فاستبعدوا حدوث ذلك فى عصر الخلفاء الراشدين فحذفوه، أو لعل لذلك سببًا آخر، وفى كل حال فقد ترجح عندنا صدق رواية أبى الفرج...».

ونرى نحن أن ابن القفطى كان أولى ممن تقدموه بالسكوت عن حريق المكتبة بأمر عمر بن الخطاب لو كان الذين تقدموه قد سكتوا عنه لعرفانهم قدر الكتب وغيرتهم على سمعة الخلفاء الراشدين، فإن ابن القفطى لا يجهل قدر الكتب ولا يسبقه سابق من المؤرخين فى المغالاة بنفاسة المكتبات. فلا بد من تعليل أصوب من هذا التعليل، لسكوت المؤرخين المسلمين والمسيحيين الذين شهدوا فتح مصر عن هذه الحكاية: إلى أن نجمت بعد بضعة قرون.

فمن جملة هذا العرض لآراء نخبة من الثقات فى هذه المسألة يحق لنا أن نعتقد أن كذب الحكاية أرجح من صدقها، وأنها موضوعة فى القرن الذى كتبت فيه ولم تتصل بالأزمنة السابقة له بسند صحيح، وربما كانت مدسوسة على الرواة المتأخرين للتشهير بالخليفة المسلم، وتسجيل التعصب الذميم عليه وعلى الإسلام.

وإذا كانت هذه الحكاية من تلفيق النيات السيئة فالمعقول ألا توضع قبل القرن السادس الهجرى الذى تسربت فيه إلى الكتب المدونة، وهذا يفسر لنا كل غموض يستوقف النظر فى الحكاية من جميع أطرافها.

لأن تلفيق هذه الحكاية يستلزم عناصر شتى لا تجتمع كلها فى وقت واحد قبل القرن السادس للهجرة.

فهو يستلزم أن يكون الملفق عليمًا بالأقوال والأحوال التى أثرت عن عمر بن الخطاب. وفيها ما يجعل حكاية المكتبة قريبة التصديق مشابهة لما يتوخاه الخليفة فى أوامره

ونواهيه... ولم تكن هذه الأقوال والأحوال معلومة مستفيضة الخبر بين المسلمين أنفسهم عند فتح الإسكندرية فضلا عن المسيحيين أو الإسرائيليين، وإنما علمت واستفاضت بعد ما دونت السير وجمعت المتفرقات.

ويستلزم تلفيق الحكاية، للتشهير بالخليفة المسلم، أن يكون الملفق عارفًا بما في هذه التهمة من المعابة، شاعرًا بما فيها من الاعتساف والغرابة. ولم يكن هذا أيضًا مفهومًا في أيام فتح الإسكندرية بين خصوم الإسلام، لأنهم كانوا قد تعودوا إحراق الكتب والتماثيل، واعتبار الوثنية وبقاياها رجسًا من عمل الشيطان يستحق نار الدنيا قبل نار الجحيم، وما من عارف بالكتب بينهم إلا كان يسمع بحماسة القياصرة المسيحيين في تدمير التحف الإغريقية ولا سيما «ثاوديسيس» الذي أحرق هياكل شتى، فيها ولا شك كتب كثيرة من بقايا المكتبة التي عليها الخلاف.

وقد يستلزم تلفيق الحكاية أن تكون مصر وأخبارها موضع اهتمام ومثار قيل وقال، ولم تكن مصر قط قبلة أنظار العالم كما كانت في أوقات الحروب الصليبية، يوم كانت هي ميدان الفصل ومناط الظفر والهزيمة بين جيوش الدنيا المحشودة فيها أو على أبوابها.

وقد يستلزم كذلك أن يكون العصر عصر حزازة بين الإسلام وخصومه كما كان عصر الحروب الصليبية وما قبله بقليل.

وقد يستلزم مع جميع أولئك أن يشترك في القيل والقال حافظو الكتب الإغريقية في بيزنطة وشواطئ آسيا الغربية، وهي البلاد التي كانت موطئ أقدام الجيوش في الكر والفر والقدوم والإياب، ومنها تدفق حافظو الكتب إلى أوربا عندما أغار الترك على بيزنطة من تلك الأرجاء.

فتلفيق الحكاية إذن كان عجيبًا في أيام فتح الإسكندرية وما تلاها من الأزمنة إلى زمان القفطي والبغدادي وأبي الفرج الملطي، ولهذا لم تظهر حكاية المكتبة في تلك الأيام.

وتلفيقها في عصر الحروب الصليبية غير عجيب لاجتماع الأسباب التي يستلزمها ذلك التلفيق، ولهذا ظهرت فيه وأمدنا ظهورها فيه بالسبب الذي يبطل العجب ويفسر الغوامض التي لا يفسرها تعليل معروف غير هذا التعليل.

إلا أننا على الرغم من كل هذا نفرض أن عمر بن الخطاب أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية، فما هى الوصمة التى تلحقه من هذا الأمر ؟ ولماذا كان يَحْرم عليه أن يحرقها ويجب عليه أن يستبقيها ويفتح أبوابها ؟ ولماذا كان ينبغى أن يكون على يقين أنها شيء مفيد للمسلمين ولغيرهم من الأمم، وأنها ذخيرة من ذخائر العالم لا يجوز التفريط فيها ؟.

أمن النقض فى تفكير الإنسان أن ينشأ بمعزل عن بلاد اليونان وعن عصره حكماء اليونان فلا يطلع على الفلسفة اليونانية ؟ أكانت فائدة تلك الكتب واضحة كل الوضوح من أحوال أقوامها الذين حفظوها، إن صح أنهم حفظوها ؟

إن أحوال الروم والقبط فى ذلـك العهد لم يكن فيهـا دليل واحـد على أنهم محتفـظون بينهم بمعرفة نفيسة، وأن ضياع كتبهم فيه ضياع لذخيرة من ذخائر العالم التى لا يجوز التفريط فيها.

فقد كانوا على شر حال من الضعف والفساد والجهل والهزيمة والشقاق والتهالك على سفساف الأمور. فإذا كان عمر غير مطالب بعلم الفلسفة اليونانية أو غير ملوم على فوات الاطلاع عليها، وإذا كانت أحوال الأمم التى هى أهلها لا تدل على قيمتها بل تسوِّغ الاعتقاد بخلوها من كل قيمة، فأين هو العيب فى تفكيره، إن صح أنه فكر على هذا المنوال ؟

إنما يعيب الإنسان أن يكون عدوًّا للمعرفة على إطلاقها ولم يكن عمر عدوًّا للمعرفة ولا معرضًا عنها، بل كان مشغوفًا بها حيث رآها دينية كانت أو أدبية، ومن قومه أتت أو من غير قومه.

فكان يستشير الغرباء فى تدوين الدواوين ومنافع الصناعة ولا ينهى عن علم شيء إلا أن تكون فيه فتنة أو ضلال.

وكان ولا ريب يؤثر للمسلمين أن يُقْبلوا على دراسة القرآن ويقدّموا فهمه على فهم كل كتاب. وهذا واجبه الأول الذى لا مراء فيه، وما من أحد هو مطالب بهذا الواجب قبل أن يطالب به عمر على التخصيص، لأنه الخليفة الذى فى عهده انتشر المسلمون بين أقطار المشرق، وخيفَ عليهم أشدَّ الخوف أن ينحل العقد الذى جمعهم وبث فيهم الهمةَ والبأسَ وسوَّدهم على العالمين.

وفى الأخبار التى نقلت بهذا الصدد أن رجلا أنبأه أنهم لما فتحوا المدائن أصاب كتابًا فيه كلام معجب، فسأله: أمن كتاب الله؟ قال لا. فدعا بالدرة فجعل يضربه بها وهو يقرأ: «ألر تلك آيات الكتاب المبين. إنا أنزلناه قرآناً عربيًّا لعلكم تعقلون...» ثم قال: «إنما أهلك من كان قبلكم أنهم أقبلوا على كتب علمائهم وأساقفتهم وتركوا التوراة والإنجيل حتى درسًا وذهبَ ما فيهما من العلم».

رويتْ هذه الرواية عن عمر بن ميمون عن أبيه، وليس فيها ما يأباه العقل ولو حكمنا على عمر بحكم الدنيا وحكم التجربة الواقعية وتركنا حكم الدين والإيمان إلى حين.

فبالتجربة الواقعية أيقن عمر أن المسلمين بكتابهم خرجوا من الظلمات إلى النور، وانتصروا على من حاربوه وعندهم كل كتاب.

وما فرغ المسلمون بعد من قراءة القرآن ولا انقضت على تداوله بينهم سنوات. فكيف يرضى الخليفة الذى يهمّه أمر رعاياه أن ينصرفوا عنه إلى كتب لا يؤمن فيها؟ وكيف يكون الحال إذا تفرقوا شذَرَ مذَرَ[1] ولهم فى كل بلدة قراءة غير هذا الكتاب الذى لم يفرغوا منه ولم يستوعبوا كل ما فيه؟ أمن عداوة المعرفة هذا أو من إيثار المعرفة التى تتقدم على غيرها؟ وإذا لم تتقدم هذه المعرفة على غيرها فى السنوات الأولى من تداول القرآن الكريم فمتى تتقدم؟ ومتى يعطى القرآن حقه من الفقه والوعى والإقبال؟ وأين هى الغنيمة الروحية التى تَعْدل فى كتاب من الكتب بعض ما غنمه المسلمون بوحى القرآن فى صدر الإسلام؟

فعلى أى فرض من الفروض لم يكن فى تصرف عمر ما يأباه العقل الذى ينظر إلى الحقائق المشهودة والآثار الواقعة، ويجوز أنه أمر بإحراق مكتبة الإسكندرية على أبعد احتمال، ولكن الذى لا يجوز لمنصف أن يفهَمَ من ذلك أنه عدوُّ الثقافة وهو الأديب الفقيه الخطيب، وهو قد وازن بين معرفة ظاهرة النفع ومعرفة مجهولة ظواهرها كلُّها تغرى باتهامها. ولا لوم عليه أن يولدَ حيث يجهلُها، ولا لوم عليه أن يتهمها وهى لم تنفع أهلها يوم رآهم يخبطون فى الضلالة والهزيمة، ولا يقال عن عقل يفكر هذا التفكير إنه لم يفكر على هدىٍ مستقيم.

---

(١) شذر مذر: أى متفرقين.

عمر في بيته

كان الخليفة الأكبر - صاحب الأمر في الجزيرة العربية، وصاحب الغلبة على ملك الأكاسرة والقياصرة والفراعنة، ومدير الحكم في الرقعة الوسطى بين قارّات العالم المعمور - رجلا فقيراً يعيش في بيته عيشة الكفاف، ويقنع من الغذاء والكساء بحظ لا يتمناه كثير من الرجال، ويزهد فيه كثير من النساء.

فمن غير العجيب أن يخطب بعض النساء فيأبين عيشه، وقد أبى مثل هذا العيش نساء النبي عليه السلام، فلم يقبلنه إلا وقد خيرن بينه وبين الطلاق.

وما ندري أي الشهادات لحكم الخليفة الأكبر أغلى وأجمل، فإن الشهادات لحكمه أكثر من أن تحصى، وهي جميعًا مما تغالى به السير وتزدان بجماله، ولكننا لا نعرف بينها ما هو أغلى وأجمل من هاتين الشهادتين: أن يعيش في بيته عيشاً لا يُشتهى، وأن تكون في يده صولة الملك فلا ترى فيها امرأة من النساء خلابة[1] تغرها، ولا صولة تخيفها من أن ترفضها وتأباها.

إن امرأة واحدة ترفض عمر لأغلى في الشهادة له من ألف امرأة يقبلن على بيته ويطمعْن في سلطانه.

وقد وصفته امرأة خطبها ورفضته وصفاً لم نسمع فيما قيل عن إيمانه بالله أصدق منه ولا أوجز وأوفى، فقالت أم أبان بنت عتبة بن ربيعة إنه رجل «أذهله أمر آخرته عن أمر دنياه، كأنه ينظر إلى ربه بعينه».

والذي نعنيه من الوصف هو قولها عن مخافته الله أنه كان يخافه كأنه يراه بعينه.

فهو في الحق أصدق وصف لإيمان هذا الرجل المتفرد بإيمانه كما تفرد بكثير من شئونه. إنه تجاوز حد الإيمان إلى حد الرؤية والعيان، وحقق مبالغات أبي الطيب المتنبي حين وصف الغاية القصوى من الشجاعة والحكمة فقال:

---

(١) خلابه: أي ما يجلب ويخدع.

تجاوزت مقدار الشجاعة والنهى   إلى قول قوم أنت بالغيب عالم

ومهما يكن من إيمان بالغيب فهو لا يبلغ فى اليقين والحضور مبلغ الرؤية بالعين، وهى قولة عابرة من قائلة أصابت ما لم يصبْه قائل، ولعلها لا تدرى مدى صوابها.

وخطب عمر أمَّ كلثوم بنت أبى بكر إلى أختها أمِّ المؤمنين عائشة رضى الله عنها فقالت له: الأمر إليك، ثم سألت أختها فأبته وقالت: لا حاجة لى فيه. فزجرتها قائلة: أترغبين عن أمير المؤمنين؟ قالت: نعم، إنه خشن العيش شديد على النساء. وكرهت عائشة أن تجبهه[1] بالرفض فوسطت فى الأمر عمرو بن العاص يحتال له برفقه وحسن تدبيره، فجاء عمر وفاجأه قائلا: بلغنى خبر أعيذك بالله منه. قال ما هو؟ قال: خطبت أم كلثوم بنت أبى بكر. قال نعم، أفرغبت بى عنها أم رغبت بها عنى؟ قال لا واحدة، ولكنها حدثة[2] نشأت تحت كنف أمير المؤمنين فى لين ورفق، وفيك غلظة، ونحن نهابك وما نقدر أن نردك عن خلق من أخلاقك. فكيف بها إن خالفتك فى شىء فسطوت بها؟ كنت قد خلفت أبا بكر فى ولده بغير ما يحق عليك!.. ففهم عمر أن ابن العاص لا يقدم على هذه الوساطة بغير موسط، وأن فى الأمر ممانعة على نحو من الأنحاء... فسأله كأنه يستطلع ما وراءه من الممانعة. كيف بعائشة وقد كلمتُها؟ قال: أنا لك بها، وأدلك على خير منها: أم كلثوم بنت على بن أبى طالب، تعلق منها بنسب رسول الله.

وأم كلثوم بنت على حدَثَة أيضًا، والمحظور فى إغضابها أكبر من المحظور فى إغضاب بنت أبى بكر، وإن اعتمد ابن العاص على أن عمر يملك نفسه فلا يغضبها، فقد كان حريًّا به أن يعتمد على شىء من ذلك فى خطبته لبنت الصديق... فلن يفوت عمر – وهو يعلم من يخاطبه فى الأمر – أن يفهم خبيئة سعيه، وأن يتجاهله لئلا يكتشف موقف الرفض والاعتذار من عائشة وأختها رضى الله عنهما، ويعمل بما يراه الصواب.

والطريف فى القصة – وكلها طريف – أن يذهب عمرو بن العاص إلى خليفته ليواجهه، بما يؤخذ عليه من خلائقه وهو آمن أن يغضبه، بل هو فوق ذلك واثق من موافقته إياه مادام على صدق فى مقاله.

---

(١) تجبهه: تواجهه.

(٢) حدثة: صغيرة السن.

وللمرأة أن تأبى الخشونة فى رجلها ولا تستريح إليها، ولكنَّ دارس الأخلاق لا ينبغى أن يعيب هذه الخصلة إلا بمقدار ما فيها من نقص فى الطبائع الإنسانية الأصيلة. إذ المحقق أن الخشونة حرمان من الصقل والمرونة، ولكننا نخطئ كل الخطأ أن حسبناها حرمانًا من البر والرحمة، لأن المرء قد يكون ناعم الملمس وهو قاس مفرط القسوة، ويكون خشن الملمس وهو رحيم مفرط الرحمة، ويغلب فى هذه الحالة أن تكون خشونته - كما أسلفنا فى فصل سابق: درعًا يستر بها مواضع اللين فى خلقه، وضربًا من الخجل أن يطلع على ناحية فيه يتطرق إليها الضعف وتنفذ منها الرماية.

فالخشونة نقيض الصقل والنعومة، وليست نقيض العطف والرحمة. وعمر بن الخطاب من أفذاذ الرجال الذين تتجلى فيهم هذه الحقيقة أحسن جلاء، حتى فى علاقاته بالأهل والنساء.

رحمة عمر رحمة فى غلاف، وليست بالرحمة المكشوفة لكل ناظر ولامس، ولا تطول بالناس عشرته حتى ينقشع هذا الغلاف عن قلب وديع مفعم بالعطف والمودة، مفتح الجوانب لكل عاطفة كريمة ولو لم تكن من ولىّ حميم.

فنساؤه اللائى عاشرنه قد كَلِفن بحبه ورضينَ عَيشه لرضاهنَّ بمودته وعطفه، وكانت إحداهن التى سمِّيت العاصية وسماها النبى عليه السلام الجميلة لا تطيق فراقه، فإذا خرج مشت معه إلى باب الدار فقبلته ولم تزل فى انتظاره.

وكانت من نسائه عاتكة بنت زيد، وهى على قسط وافر من الجمال ومن الدين ومن البلاغة، تولهت[1] فى رثائه حين قتل فلم يكن بكاؤها عليه كبكاء كل زوجة على كل زوج فقيد، وتعددت قصائدها فى تأبينه بكلام لا يغيب عنه صدق المدح ولا صدق الحسرة، وهى التى قالت فيه:

عصمة الناس والمعينُ على الد ... هر وغيث المنتاب والمحروب
قل لأهل الضرَّاء والبؤس موتوا ... قد سقته المنون كأسَ شَعوب[2]

---

(١) تولهت: كاد عقلها يذهب من شدة الحزن.

(٢) شعوب: اسم للمنية «الموت» سميت كذلك لأنها تفرق الخلائق.

وقالت فيه:

رءوف على الأدنى غليظ على العدا أخي ثقة في النائبات منيب
متى ما يقل لا يكذبُ الله قولُه سريع إلى الخيرات غير قطوب

وقالت فيه:

جسدٌ لففَ في أكفانه رحمة الله على ذاك الجسد

وقالت فيه:

يا ليلة حبستْ على نجومها فسهرتها والشامتون هجود
قد كان يسهرني حذارك مرة فاليوم حق لعيني التسهيد

ولا يبكى الرجل هذا البكاء على ما فى عيشة من الشظف إلا ومن وراء خشونته مودة قلب تنفذ إلى القلوب.

وأكثف ما تكون الدروع أرق ما يكون الموضع الذى يليها وأخوفه من الإصابة. فانظر أين الموضع الحصين المحمى فهنالك الموضع اللين الذى يخاف عليه، ولا يخدعنك عن ذلك خادع من إظهار أو تظاهر غير مشعور به، وغير مقصود.

أين أكثف ما تكاثفت الغلظة فيه من درع عمر التى عنيناها؟ المرأة ولا نزاع!

فعلى المرأة كانت له غيرة اشتهر بها وعدت من دلائل شدته عليها، وفى هذا يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن الله غيور يحب الغيور، وإن عمر غيور».

وعلى المرأة ومن المرأة كان حذره أن تتخايل للعيون وتتبرج فى مضطرب الفتون.

وكلما أوصى بوصية فيها فإنما هى الفتنة التى يتقيها، فلما قال عليكم بالأبكار لم يقل عليكم بالأبكار لأنهن أمتع وأنضر، ولكنه قال عليكم بهن لأنهن أكثر حبًّا وأقل خبًّا(١).

ولما توجس من زواج المسلمين ببنات الأعاجم لم يتوجس منه لأنه حرام بل لأن «فى نساء الأعاجم خلابة، فإن أقبلتم عليهن غلبنكم على نسائكم».

---

(١) الخب: الخداع.

فالخلابة هى المحذور الذى يتقى.

وهنا كثافة الدرع فابحث هنا عن منفذ الحذر. إنك لا تبعد كثيرًا حتى تلمس الموضع الذى نمَّ عليه الرجل حيث قال: «لو أدركت عفراء وعروة جمعت بينهما[1]».. أو نمَّ عليه الصبى الذى عناه ابن الخطاب حيث قال: «أحب أن يكون الرجل فى أهله كالصبى، فإذا احتيج إليه كان رجلا».

ومتى كان فرط الغيرة على المرأة أو الحذر منها دليلا على أنها ذلك الشىء المهين، وإن قال الغيور الحذور بلسانه إنها لشىء مهين؟..

وابحث عن جانب واحد مغلق أو مقطوع من جوانب الرحم الذى ينبغى أن يوصل فإنك لن تجده فى نفس هذا الرجل بتة، وإن جهدت فى البحث.

فكان ابنًا بارًّا لا ينسى التحدث عن أبيه، ويعتز بذكراه على ما كان من قسوته عليه فى صباه، ولم يزل يقسم باسمه حتى نهاه النبى، فانتهى وهو يقارب الكهولة.

وكان أبًا يحب أبناءه ويعرف وجْدَ الآباء بالأبناء، وينزع الثقة من وال لا يحنو على صغاره.. أمر بكتابة عهد لبعض الولاة فأقبل صبى صغير فجلس فى حجره وهو يلاطفه ويقبِّله، فسأله المرشح للولاية: أتقبِّل هذا يا أمير المؤمنين! إن لى عشرة أولاد ما قبَّلت أحدًا منهم ولا دنا أحدهم منى.. فقال له عمر: وما ذنبى إن كان الله عز وجل نزع الرحمة من قلبك.. إنما يرحم الله من عباده الرحماء.. ثم أمر بكتاب الولاية أن يمزَّق وهو يقول إنه إذا لم يرحم أولاده فكيف يرحم الرعية؟

وكان كلاب بن أمية الكنانى فى غزوة فاشتاق إليه أبوه الهرم وحزن لغيابه، واتصل نبؤه بعمر فكتب إلى قائد الجيش يستعيد كلابًا إلى المدينة. فلما عاد ودخل عليه سأله: ما بلغ من برِّك بأبيك؟ قال: كنت أكفيه أمره، وكنت أعتمد – إذا أردت أن أحلب لبناً – أغزر ناقة فى إبله وأسمنها فأريحها وأتركها حتى تستقر، ثم أغسل أخلافها حتى تبرد، ثم أحلب له فأسقيه.

ثم بعث إلى أبيه فجاء يتراوح فى مشيته ضعيفًا بصره، محنيًّا ظهره، فسأله: كيف أنت

(١) عروة بن حزام: شاعر من الشعراء العشاق المشهورين وصاحبته عفراء، مات شهيد عشقه.

يا أبا كلاب ؟ كما ترى يا أمير المؤمنين.. ثم جاءه بلبن حلبه ابنه ففطن الرجل وقال وهو يدنى الإناء من فمه: لعمر الله يا أمير المؤمنين إنى لأشم رائحة يدى كلاب من هذا الإناء!.. فقال عمر: هذا كلاب عندك حاضر قد جئناك به. فوثب إليه ابنه، وطفق الأب الذى لم يكد يراه يضمه ويقبله... وبكى عمر، وأمر كلاباً أن يلزم ما بقيا، وله عطاؤه كأنه يجاهد فى سبيل الله.

ومن حنانه على الأطفال أنه كان يشفق عليهم أن يحزنوا فى لهوهم ولعبهم فلا يترك الخائف منهم حتى يأمن على لهوه ومحصول لعبه، فحدث سنان بن سلمة أنه كان فى صباه يلتقط البلح فى أصول النخل مع بعض الصبية إذ أقبل عمر فتفرق الغلمان وثبت هو فى مكانه، فلما دنا منه أسرع قائلاً: يا أمير المؤمنين، إنما هذا ما ألقت الريح!.. قال عمر: أرنى أنظر فإنه لا يخفى علىَّ. فنظر فى حجره ثم قال: صدقت. إلا أن الصبى لم يقنع بهذا حتى يحرسه أمير المؤمنين إلى بيته! فقال: يا أمير المؤمنين، أترى هؤلاء الآن ؟.. وأشار إلى الصبية الهاربين، ثم قال: والله لئن انطلقت لأغاروا علىَّ فانتزعوا ما معى، فمشى معه عمر حتى بلَّغه بيته!..

وكثير على المصدقين المفرطين فى التصديق أن يعرفوا هذا عن عمر ثم يصدقوا أنه وأد بنتًا فى الجاهلية على تلك الصورة البشعة انتقلت إلينا فى بعض الروايات، وخلاصتها أنه رضى الله عنه كان جالسًا مع بعض الصحابة إذ ضحك قليلاً ثم بكى، فسأله من حضر فقال: كنا فى الجاهلية نصنع صنمًا من العجوة فنعبده ثم نأكله وهذا سبب ضحكى، أما بكائى فلأنه كانت لى ابنة فأردت وأدها فأخذتها معى وحفرت لها حفرة فصارت تنفض التراب عن لحيتى فدفنتها حيَّة.

فهى قصة يعتورها الشك من ناحية ضحكها ومن ناحية بكائها ومن ناحية اجتماعهما فى لحظة واحدة لتمكين واضع القصة من التفرقة بين عصرى عمر فى جاهليته وإسلامه، وأدعى ما فيها من الشك تلك الخاتمة التى يتم بها اختراع الفجيعة والبلوغ بها إلى ذروتها، وهى نفض الطفلة الصغيرة تراب حفرتها عن لحية أبيها.

فالوأد لم يكن بالعادة الشائعة بين جميع القبائل العربية، ولم يشتهر بنو عدى خاصة بهذه العادة ولا اشتهرت بها أسرة الخطاب التى عاشت منها فيما نعلم فاطمة أخت عمر وحفصة أكبر أولاده وهى التى كنى أبا حفص باسمها.

وقد ولدتْ حفصة قبل البعث الإسلامى بخمس سنوات فلم يئدها. فلماذا وأد الصغرى المزعومة وهى فى السن التى تفهم فيها كيف تنفض التراب عن لحية أبيها؟.. ولماذا انقطعت أخبار هذه الصغرى المزعومة فلم يذكرها أحد من إخوانها وأخواتها ولا أحد من عمومتها وخئولتها؟.

ما نحسبها إلا إحدى جنايات الأغراب على من خلقوا وفى سيرتهم مثال للإغراب والإعجاب. فهى اختراعة تضعفها قرائن التاريخ وتضعفها خلائق عمر التى لا تتبدل هذا التبدل من النقيض إلى النقيض بين جاهليته وإسلامه، وقد كان عمر فى جاهليته لم يسلم بعد يوم أشفق على أخته وهى دامية الوجه، وكان فى جاهليته يوم أحب أخاه حبه المفرط وبقى عليه. فليس وقوع القصة المزعومة فى الجاهلية مانعًا لغرابتها ومقربًا لتصديقها، وغير هذا الأب وهذا الأخ يطيق هذه القسوة التى لا تطاق.

إن قليلًا من الآباء من أحب أبناءه، كما أحب عمر أبناءه، وإن قليلًا من الإخوة من أحب أخًا كما أحب عمر زيدًا أخاه، فما سمع اسمه بعد مقتله إلا سالت عبرته، وما هبت الصبا كما قال إلا وجد نسيم زيد وتمنى نظم الشعر لينظمه فى رثائه.

بل إن قليلًا من الأصدقاء مَنْ أخلص لأصدقائه وعشرائه، كما أخلص عمر لكل صديق وعشير.. وهو القائل: «لقاء الإخوان جلاء الأحزان» وهو القائل حرصًا على المودة وضنًّا بها: «إذا أصاب أحدكم ودًّا من أخيه فليستمسك به، فقلما يصيب ذلك».

فإذا أردنا أن ننقب عن وشائج الرحم وصلات المودة فى نفس هذا الرجل المهيب المخيف فلننقب عنها فى ينابيعها الخفية التى تسرى منها وتترقرق فى نواحيها، ولا ننقب عنها فى الصخور التى تكتنفها وتطفو عليها وترفع أعلامها.

أو نحن حريون أن ننقب عنها بين هذه الصخور والأعلام ولكن على هدى وبصيرة. فلا نقنع منها برأى العين من بعيد أو قريب ولا نغتر بما تبديه كأنه كل شىء تحتويه.

فما هذه الصخور والأعلام التى كانت تروع الناظر من هيبة عمر ومن ملامح سيماه؟.. هى مظهر قدرته على نفسه لا أكثر ولا أقل، وهى الحارس اليقظ الذى يحمى تلك النفس أن يتسرب إليها الوهن وأن تؤخذ على غرة، من حيث يخاف عليها.

والمرء لا يعتصم بقدرته على نفسه وهو آمن، ولا يوقظ الحارس على دخيلته وهو وادع فى سربه. إنما يعتصم بقدرته ويوقظ حارسه حين يحذر، وإنما يحذر من الطارق الذى لا يستهين به ولا يزال على رقبة منه.

وقد كان عمر بن الخطاب أكثر ما يكون اعتصامًا بقدرته فى أمسِّ الأمور بقلبه وسريرة طبعه: فى خشية الخديعة من ناحية الترف والمتعة، فهو لا يستسلم لشهوة مأكل ولا ملبس ولا قنية دنيوية، وفى خشية الخديعة من ناحية ولده وأهله فهو يجفل من أن يرى لهم رزقًا لا يعرف مأتاه، ويجفل أن يرى لهم إبلًا سمانًا بين الإبل العجاف مخافة أن يسمنها لهم الناس فى مراعيهم... لأنهم ولد أمير المؤمنين وتلك إبل أبناء أمير المؤمنين!..

وكان أكثر ما يكون اعتصامًا بقدرته حين يلمح الفتنة الكبرى التى يقتدر بها شيطان الغواية. وتلك هى المرأة لا فرق بين خيارها وشرارها، فمن شرارها استعذ بالله!. ومن خيارها كن على حذر!.

وإذا اعتصم عمر بن الخطاب بنفسه فانتظر شيئًا واحدًا لن تجد حولًا عنه، وهو تقديره العدل تقدير الخائف أن يزيد فيه شعرة أو ينقص منه شعرة. فمتى اعتصم بنفسه استيقظ وانتصر، ومتى استيقظ وانتصر فللحق يقظته وفى سبيل الحق انتصاره.

يعرض شأن المرأة فهو الغيور الحذور، وهو الواقف على الميزان فيما تعطاه وفيما تعطيه، فلا هى بظالمة ولا مظلومة فى كل أمر يرجع إليه.

فمن همّه كان ألا تظلم لضعفها، ولا تغبن لحيائها وخفرها، ومن حقها عنده ألا تكره على زواج الرجل القبيح لأنها تحب لنفسها ما يحبه الرجل لنفسه وأن يعرف لها عذرها حيث يعرف للرجل عذره فى الصلة بينها وبينه. فسمع مرة أعرابية تنشد:

فمنهن من تُسقى بعذب مبرّد نُقَاح[1] فتلكم عند ذلك قرَّت
ومنهن من تسقى بأخضر آجن[2] أجاج ولولا خشيـة الله فرَّت

فتوهم فى زوجها عيبًا وأرسل فى طلبه فإذا هو متغير الفم، فخيره بين خمسمائة درهم وطلاقها، فقبل الدراهم وطلقها.

---

(١) النقاح: الماء العذب الصافى.

(٢) الآجن: الماء المتغير الطعم واللون، والأجاج: المالح المر.

وسمع امرأة من وراء بابها تنشد:

تطاول هذا الليل تسرى كواكبه وأرَّقنى ألاَّ خليل ألاعبه
فوالله لولا الله لا شىء غيره لزُلزل من هذا السرير جوانبه

فسأل عن زوجها فعلم أنه خرج فى غزوة طالت غيبته فيها فأمر بعد ذلك ألا تطال غيبة الأزواج فى الغزوات.

وكان يقبل شكوى المرأة من زوجها الذى يهمل النظافة والزينة، لأن النساء «يحببن أن تتزينوا لهن كما تحبون أن يتزينّ لكم».

وقبل شكوى المرأة من زوجها الخاضب[1] قبل البناء بها يوهمها أنه شاب وهو موخوط الرأس بالشيب، فأوجعه ضرباً وقال: غررت القوم.

ولم يكن يتحرج مع المرأة مثل هذا التحرج أن تستر من سيرتها ما لا يضير ستره إن عاق زواجها. فكاشفه رجل بأمر ابنة له أسلمت وأصابها حد من حدود الله، فهمت أن تذبح نفسها، فأدركها أهلها وقد قطعت بعض أوداجها[2] فبرئت وتابت واستقامت على الهدية. فسأله: أأخْبر القومَ الذين يخطبونها بما تقدم من سيرتها؟.. قال: ويلك!... أتعمد إلى ما ستره الله فتبديه؟ والله لئن أخبرت بشأنها أحدًا من الناس لأجعلنك نكالاً. «أنكحها نكاح العفيفة المسلمة».

فهى أولى عنده ببعض المحاباة - حين لا ضير فى المحاباة... وقد عاهد الناس فيما عاهدهم عليه «ليمنعن النساء إلا من الأكفاء».

وترى أنه قضى فى الخلاف بين الزوج والزوجة بالقول الفصل فى بناء الأسر وتعمير البيوت، حيث قال لرجل هم بطلاق امرأته لأنه لا يحبها: «أوَكُل البيوت بنى على الحب؟ فأين الرعاية والتذمم؟».

فإنه لبر بربات البيوت لم يدركه متحذلقة العصر الذين يلغطون بالحب والزواج ويجهلون أن الرعاية والتذمم أقمن بالدوام والتعمير من زواج يبنى على الحب وحده، لأن

(١) الخاضب: الذى يخضب بالحناء أو نحوه.

(٢) الأوداج: جمع ودج وهو عرق فى العنق

الحب منوط بالأهواء التى تتغير بين آونة وأخرى وأما مناط الرعاية والتذمم فهو الأخلاق التى قل أن يطرأ عليها تغيير.

وقد استشار النساء فيما يحسن كما استشار الرجال فيما يحسنون، ولم يتعال قط أن يرجع عن خطئه إذا ردته عنه امرأة بالبينة الصادعة[1]، ومن ذاك أنه نهى الناس فى بعض خطبه أن يزيدوا مهور النساء على أربعين أوقية، فصاحت به امرأة فطساء من صفوف النساء: ما ذاك لك؟ فلم يأنف أن يسألها: ولم؟ قالت: لأن الله تعالى يقول: (... وآتيتم إحداهن قنطاراً فلا تأخذوا منه شيئًا، أتأخذونه بهتانًا وإثمًا مبينًا) فرجع عن خطئه واعترف بصوابها.

فما للمرأة من حق تعطاه، وما ليس لها بحق لا تعطاه وتذاد عنه. والذى ليس لها بحق فى رأى عمر - ورأى كل رجل ذى رجولة - ألا تتعرض لعمله الذى لا تفقهه، ولا يرجع إليها فى مثله، ولا سيما إن كان شأنًا من شئون الدولة. ومهمة من أخص مهام الرجال، فتشفعت له امرأته فى وال مقصِّر تسأله: فيم وجْدت[2] عليه؟.. فالتفت غاضباً وقال لها: وفيم أنت وهذا؟.. إنما أنت لُعبةٌ يلعب بك ثم تُتْركين!. كلمة لا تلبس القفاز الناعم. ولم يخلق القفاز الناعم ليلبس فى كل حين.

والذى ليس بحق المرأة أن تعلو كلمتها على كلمة وليها، وهذا الذى كان ينكره عمر على أهل المدينة حيث قال: «.. كنا معشر قريش نَغْلب النساء، فلما قدمنا على الأنصار إذا هم قوم تغلبهم نساؤهم، فطفق نساؤنا يأخذْن من أدب نساء الأنصار وصحت على امرأتى فراجعتنى، فأنكرت أن تراجعنى. قالت: ولِمَ تنكر أن أراجعك؟ فوالله إن أزواج النبى صلى الله عليه وسلم ليراجعنه وإن إحداهن لتهجره اليوم حتى الليل. فأفزعنى...»

نعم هذا مفزع لعمر، وقد كان ولا ريب مفزعاً لرسول الله أن تعلو كلمة على كلمته فى بيته، لكن طريقة محمد فى تغليب الكلمة، طريقة نبى يؤم متبعيه، وطريقة عمر طريقة مريد مؤتَمٍّ بنبوة، ولا جناح على عمر ألا يلحق بشأو محمد فى كل ما سبق إليه.

فمحمد إنسان عظيم، وعمر رجل عظيم، وهذا هو الفارق بينهما كما بيَّناه فى مناسبة

---

(١)البينة الصادعة: المراد. البينة التى تحملك على الإذعان والتصديق.

(٢) وجدت عليه: غضبت «من الموجده».

سابقة. وإنما الفارق بينهما فى المناسبة التى نحن بصددها أن الرجل العظيم يرحم المرأة كما يرحمها الجندى فى معرض القوة والنضال، ولكنه يأنف أن يستكين لسلطانها فى معرض الهوى والفتنة، فيكسرها ولا ينكسر لها إذا لجت فى الغرور وانطلقت فى عنانه. ومن ثم استصغر عمر ولده نفسه – عبد الله – لأنه عجز عن تطليق زوجه. فلما أشاروا عليه باستخلافه قال لمن كلمه فى ذلك: «ويحك! كيف أستخلف رجلاً عجز عن طلاق امرأته؟».

أما الإنسان العظيم فهو يشمل ضعف الإنسانية كلَّه ويعطف عليه. ومنه ضعف المرأة فى غرورها، بدلال الضعف على القوة، لأنه فى حقيقته اعتزاز بمكانها منها وتقدير لتلك القوة فى بعض نواحيها. فهو يرى فى تكبر المرأة إذا كانت كبيرة عنده نوعًا من الاعتراف بكبره، وهو لا يقف معها فى ميدان كما يقف كل ذكر وأنثى، لأن ميدانه هو يشمل الميدانين مجتمعين، إذ هو ميدان الإنسان كله والإنسانية جمعاء.

على أن شأن الرجل مع المرأة لا يظهر من رأى الرجل فيها كما يظهر من رأيها فيه، فبعد معاملة عمر للمرأة وقوله فيها يبقى له شأن فى عالمها يظهر لنا من رأيها هى فيه.

وقد أكبرت سيدة نساء العصر عمر فوصفته بأنه كان نسيج وحده، وهى عائشة رضى الله عنها، وجمعت الشفاء بنت عبد الله بعض صفاته فقالت إنه «كان إذا تكلم أسمع، وإذا مشى أسرع، وإذا ضرب أوجع وهو الناسك حقًّا». وصاحت أم أيمن مرضعة النبى يوم أصيب: اليوم وَهَى الإسلام.

وعلينا نحن أن نسأل المرأة فى عصر عمر عن مثال الرجل فى عصرها ولا نسأل فيه نساء زمان غير ذلك الزمان. وما نخالنا نعرف رأى المرأة يومئذ فى الرجل الذى يكبر فى عينها كما نعرفه من امرأة هى هند بنت عتبة زوج أبى سفيان وأم معاوية، فليس أقدر منها على الجواب ولا أصرح فيه:

جاءها أبوها يشاورها فى رجلين من قومها يخطبانها فاستخبرته عنهما فقال يصفهما: «أما أحدهما ففى ثروة وسعة من العيش، إن تابعته تابعك، وإن ملت عنه حط إليك، تحكمين عليه فى أهله وماله. وأما الآخر فموسَّع عليه، منظور إليه فى الحسب الحسيب

والرأى الأريب، مِدْرهُ أرومته[1] وعزّ عشيرته، شديد الغيرة لا ينام على ضعة، ولا يرفع عصاه عن أهله».

فقالت: «يا أبت! الأول سيد مضياع للحرة، فما عست أن تلين بعد إبائها، وتضيع تحت جناحه اذا تابعها بعلها فأشِرَت[2] وخافها أهلها فأمنت؟.. ساء عند ذلك حالها، وقبح عند ذلك دلالها، فإن جاءت بولد أحمقت، وإن أنجبت فمن خطأ ما أنجبت[3] فاطو ذكر هذا عنى ولا تسمه علىّ بعد!.. وأما الآخر فبعل الفتاة الخريدة الحرة العقيلة[4]، وإنى لأخلاق مثل هذا لموافقة. فزوجنيه».

ونحن نحسب هذا رأى النجيبة فى زمان عمر، ولو شئنا لحسبناه رأيها فى كل زمان على أن تضمره بباطن القلب ولا تلقيه بطرف اللسان. فإن زادت خشونة العيش فى بيت عمر على القدر الذى ترضاه المرأة فهى خشونة غير محقورة السبب، لأنها لا تحسب على عمر «الزوج» من ناحية حتى تحسب لعمر «الرجل» من ناحية أخرى. إذ هى لم تأت من قلة القدرة على العيش وإنما جاءت من كثرة القدرة على النفس، وهى خليقة تعجب بها المرأة فى الرجل الذى تكبره، لأنها من أقوى خلائق الرجولة فيه.

وليس لدينا بيان واف عن النساء اللاتى تزوج بهن عمر يعيننا على التمييز بين سماتهن والبحث فى المياسم الشخصية التى يتعددن فيها أو يختلفن، ويجيز لنا أن نسهب فى السلام عن موقع كل منهن من نفسه، وأثرها فى حياته، ومبلغ حظوتها عنده، وسبب هذه الحظوة فى رأيه وشعوره، وما يدل عليه جميع ذلك من نوازع فطرته وذوقه. فقد سكت التاريخ وسكت عمر عن كل بيان واف فى هذا الباب، فلم يبق لدينا منه إلا أسماء وأعوام ونوادر مقتضبات، لا تساعدنا على تكوين سمات واضحات فضلا عن التفرقة بين تلك السمات.

غير أننا نعتقد أن التاريخ لم يفقدنا شيئًا كثيرًا فى هذا الباب، لأنا مستطيعون أن نعوض ما فقدناه بالقياس إلى ما عرفناه، فلا نخطئ إذا رجحنا أن سمات هؤلاء النساء

---

(١) المدره: السيد الشريف المقدم فى اللسان واليد والأرومة: الأصل.

(٢) الأشر: البطر.

(٣) أحمقت: ولدت أحمق، وأنجبت: ولدت نجيبا.

(٤) الخريدة: العذراء فيها حياء وخفر، والعقيلة: الكريمة.

جميعا تدخل فى نطاق الوصف الذى كان يستحبه عمر فى المرأة ولا يطيق منها أن تخالفه وتخرج عليه.

فأفضل ما كان يشرطه فى المرأة أن تكون ولودًا ودودًا، وألا تعاب بالحمق فيسرى حمقها فى دماء وليدها، إذ «لم يقم جنين فى بطن حمقاء تسعة أشهر إلا خرج مائقا[١]» كما قال.

أما ذوق الجمال فقد كان عمر فيه كما كان فى جميع خلائقه عربيًّا بحتًا يستملح ما يستملحه كل عربى صميم، ويستحسن الحسن عنده وهو أعم من الملاحة، ويروى عنه أنه قال: «تزوجها سمراء ذلفاء[٢] عيناء[٣]، فإن فركْتَها[٤] فعلى صداقها» وأنه قال: «إذا تم بياض المرأة فى حسن شعرها فقد تمَّ حسنها»، وهذان هما الملاحة والحسن كما وصفا فى الشعر العربى من قديم إلى حديث.

ومن القليل الذى بقى لدينا من أخبار نسائه نعلم أنه كان موفور الحظ من هذا الجمال فى الزوجات، فقد وصف أكثرهن بالحسن البارع، وضرب المثل بملاحة إحداهن بين نساء قريش وهى قريبة بنت أبى أمية بن المغيرة. فروى فى مأثور الحديث الشريف أن سعد بن عبادة قال يومًا فى حضرة النبى عليه السلام: ما رأينا من نساء قريش ما كان يذكر من جمالهن! فقال له عليه السلام: هل رأيت بنات أبى أمية بن المغيرة؟ هل رأيت قريبة؟، وهى إحدى زوجات عمر قبل إسلامه.

وروى أن جميلة بنت ثابت سميت بهذا الاسم لجمالها، وكان اسمها فى الجاهلية عاصية، فكرهته بعد إسلامها وسألت عمر ثم سألت النبى فى تغييره فاتفقا على تسميتها بوصفها، ونوديت بعد ذلك باسم جميلة. وروى عن عاتكة بنت زيد بن عمر بن نفيل أنها أعطيت شطر الحسن مع ما رزقته من الفصاحة والتقوى. وروى مثل ذلك عن زوجات أخريات، وإن لم يتفوقن هذا التفوق المشهور.

---

(١) المائق: الأحمق الغبى.

(٢) صغيرة: الأنف.

(٣) عيناء: حسنة العين واسعتها.

(٤) فركتها: أبغضتها وتركتها.

ومن أخبار زوجاته أنه طلق اثنتين من أشهر نسائه بالجمال وهما قريبة وجميلة... تزوَّج بالأولى وطلقها قبل إسلامه، وتزوَّج بالثانية وطلقها بعد إسلامه، ولا ندرى على التحقيق ما سبب تطليق هاتين الزوجتين الجميلتين، فهل هو دلال الجمال ضاق به صدر عمر وهو على شموس المرأة غير صبور؟.. لعله ذاك، ولعل الذى أبقى عاتكة بنت زيد فى عصمته أنها تجاوزت دلال الصغر حين بنى بها، أو غضَّت من دلالها بالفطنة والتقوى.

وكذلك بقيت فى عصمته أم كلثوم بنت على بن أبى طالب وهى جميلة صغيرة، وولدت له ابنا سماه باسم أخيه زيد الذى كان يحبه ويذكره ويطيل البكاء عليه، وأعزَّها عنده النسب والأدب والمحافظة على آصرة النبوَّة، فلم يفترقا فى الحياة ولم ينشب بينهما خلاف إلا حين جاءتها الهدية من ملكة الروم فضمَّها إلى بيت المال.

وله مع إحدى أولئك الزوجات قصة صغيرة لا يفوتنا إيرادها فى الكلام على حياته الخاصة لأنها كثيرة الدلالات عليه: تدل على عمر فى أبوَّته، وتدل على عمر فى سوْرة طبعه، وتدل على عمر فى مثوبته إلى الحق كلما وجب أن يثوب إليه.

فقد طلق جميلة وله منها ولد صغير، فرآه يومًا يلعب مع الصبيان فحمله بين يديه، فأدركته جدته الشموس بنت أبى عامر وجعلت تنازعه إياه حتى انتهيا إلى أبى بكر رضى الله عنه وهو خليفة، فقال له أبو بكر: خل بينه وبينها فهى حاضنته، فرده إليها ولم يراجعه بكلمة.

ولعمرى إن فى هذه القصة الصغيرة من الدلالة عليه لما يغنى عن قصص وفيها عمر إنسان عطوف، وفيها عمر رجل سوَّار الطبيعة، وفيها عمر صاحب خلق مكين يكبح من طبيعته كل سورة جاوزت حد العدل والإنصاف، وهذا هو عمر فى شتى نواحيه.

وقد تدل هذه القصة على شىء يبرئه من بعض اللوم فى تطليقه أم هذا الولد، فاسمها عاصية واسم أمها الشموس، وكأنها - كما ينبئ عنها هذا الاسمان - من أسرة تباهى بدلال بناتها وشموسهن وتختار لهنّ من الأسماء ما يدل على هذه الخصلة، وقد يضيف إلى توكيد هذه الخصلة فيهن أنَّ عاصية غضبت حين اختار لها عمر اسم جميلة وقالت له. سميتنى باسم الإماء! ثم اختار لها النبى هذا الاسم فقالت: يا رسول الله! أتيت عمر فسمانى جميلة فغضبت، قال عليه السلام أو ما علمت أن الله عز وجل عند لسان عمر وقلبه؟

فكأنها نشأت فى قوم يعتقدون أن التحسين والترغيب إنما هو من شأن الإماء، وأن الشموس والعصيان أليق بالحرائر وإن أحببن أزواجهن وأحبوهن، فإن كان فى تطليقها مأخذ على عمر فقد يكون فيه مآخذ عليها تفسر لنا افتراقهما بعد ما أحبها وأحبته.

ورزق عمر الذرية من ذكور وإناث نجباء ونجيبات، فقرت عينه بهم لأنه كان كأهل البداوة كافة يستكثر من الذرية ويوصى الناس أن يستكثروا منها، وكانوا جميعًا عنده بمكان الحب والمودة لا يخشى الانحراف عن العدل من جانب كما يخشاه من جانب هذه الذرية أو جانب أهله على التعميم، ولهذا كان يجمعهم إذا نهى الناس عن حوزة حق من الحقوق ليبلغهم أنه قد نهى عنه ويذكرهم «أن الناس ينظرون إليكم نظر الطير إلى اللحم»، ويقسم لهم لئن فعله أحد منهم ليضاعفن عليه العقوبة!

وليس بنا أن نحصى فتاواه وأقضيته فى محاسبة أهله أو محاسبة أبنائه خاصة قبل سائر أهله. فذلك عمل له لم ينقطع عنه طوال حياته، ولكنا نكتفى بمثل من أمثال عديدة متواترة وهو قضاؤه فى اتجار أبنائه بمال من بيت مال المسلمين، وذاك أن ابنيه عبد الله وعبيد الله خرجا فى جيش إلى العراق، فلما قفلا نزلا وذهبا بالبصرة وذهبا إلى أبى موسى الأشعرى وهو أميرها، فقال لهما: لو أقدر على أمر أنفعكما به؟ ثم عرض عليهما أن يحملا إلى أبيهما مالا من مال الله فيشتريا به متاعًا من العراق يبيعانه بالمدينة، ثم يؤديان رأس المال ويكون لهما الربح. فلما علم عمر سألهما: أكل الجيش أسلفه؟ ثم أمرهما أن يؤديا المال وربحه.. فسكت عبد الله وقال عبيد الله: ما ينبغى لك يا أمير المؤمنين هذا، لو نقص هذا المال أو هلك لضمنّاه! وقال رجل فى المجلس: يا أمير المؤمنين[1] لو جعلته قراضا؟ فأخذ رأس المال ونصف ربحه، وأخذ ابناه نصف ربح المال.

وإنما كان عمر يتقى محاباة الولاة لأبنائه وذويه وإقرار هذه المحاباة بإذنه، ولكنه كان يقترض من بيت المال ليتجر ويربح ما يعيش به فى أهله ويلجأ إلى التجارة لقلة رزقه الذى فرضه لنفسه من بيت مال المسلمين، وقد فرض رزقه لنفسه بعد مشاورة أصحاب رسول الله، فقال عثمان: كل واطعم، وقال على: ما يصلحك ويصلح عيالك بالمعروف، وقال هو: إن افتقرت أكلت بالمعروف، وإن أيسرت قضيت. وكان يقترض فيعسر فيتأخر

---

(١) القراض: قارضه قراضًا، أى دفع إليه مالا ليتجر فيه، ويكون الربح بينهما على ما شرطا.

قضاؤه، فيأتيه صاحب بيت المال ويشتد فى تقاضيه، فيحتال له عمر ويؤجله إلى أن يستحق عطاءه مع عطاء المسلمين، فيسد به دَيْنَه.

ومع هذا كان يشفق أن يقترض من بيت المال إلا أن يتعذر عليه الاقتراض من بعض صحبه. فأرسل مرة إلى عبد الرحمن بن عوف فى طلب أربعة آلاف درهم يجهز لها عيرا[1] إلى الشام، فعاد الرسول يقول له: خذها من بيت المال ثم ردها.! وشق ذلك عليه فلقى صاحبه وعلم منه صدق ما بلغه فقال: أفإن مت قبل أن تجىء قلتم أخذها أمير المؤمنين دعوها له. وأوخذ يوم القيامة؟: «لا... ولكنى أردت أن آخذها من رجل حريص شحيح مثلك، فإن مت أخذها من ميراثى».

وحدث ما توقعه من مجىء الأجل قبل سداد ديونه جميعًا فلم يشغله الموت ولا شغلته كبار الخطوب التى يضطلع بتصريفها قبل موته أن يسأل عن ديونه ويوصى بسدادها من ماله ومال أهله، وقال لابنه: «إن وفى به - أى بالدين - مال آل عمر فأده من أموالهم، وإلا فاسأل فيه بنى عدى، فإن لم تف أموالهم فاسأل فيه قريشًا ولا تعدهم[2] إلى غيرهم». وكان عبد الرحمن بن عوف حاضرًا فأشار عليه مقترحًا أن يستقرضها من بيت المال حتى تؤدى، فلم يقبل عمر، ودعا بابنه عبد الله فقال: اضمنها! فضمنها، ووفى بوعده. فلم يدفن أبوه حتى أشهد بها على نفسه أهل الشورى وعدة من الأنصار، وما انقضى أسبوع حتى حمل المال إلى عثمان، وأحضر الشهود على البراءة بدفعه، وقد بيعت لعمر دار فى هذا الدين وسميت زمنًا باسم دار القضاء، لأنها بيعت فى قضاء دينه.

ولأن يموت عمر مدينًا موفى الدين لهو أعظم الشرفين... وأيسر من ذلك شرفًا أن يموت غنيًا بغير دين.

---

(١) العير: الإبل التى تحمل الزاد.

(٢) أى لا تجاوزهم وتتركهم لتسأل غيرهم.

صورة مجملة

صحبنا عمر بن الخطاب، فى حالات كثيرة تختلف فيها صور الرجال.

صحبناه فى جاهليته وإسلامه، وفى سره وعلانيته، وفى بيته وحكومته، وفى دينه وثقافته، وفى اتصاله بالله واتصاله بالناس. فإذا الصورة المجملة من جميع هذه الصور المختلفة صورة رجل عظيم من معدن العبقرية والامتياز بين الناس على اختلاف العصور، وإذا هو صاحب مناقب وأخلاق من أنبل الصفات الإنسانية توافقت فيه على قوة نادرة وتلاقت فيه إلى غاية واحدة: وهى إحقاق الحق وادحاض الباطل، ووسمته جميعًا بسمة الجندية المجاهدة التى تحمى الحدود للناس وتحميها من الناس، وهو هو فى طليعة من يحمى وفى طليعة من يحتمى على السواء.

ورسخت فى طويته خليقة المساواة فى العدل حتى أصبحت كالوظيفة العضوية التى لاتنفصل منه، وحتى أصبح يتجرّد من نفسه أو يجرِّد منها شخصًا آخر غريبًا عنه لا فرق بينه وبين أحد فى حدود الله وحرماته، وتمكنتْ هذه الخليقة منه حتى جرت على لسانه عامدًا وغير عامد، فكان يتكلم عن نفسه كما يتكلم عن غريب: بخ بخ ياعمر! ويحك يا ابن الخطاب؟ ماذا يقول عمر! وهذا فلان بن عمر وليس بفلان ولدى.. إلى أشباه هذه التجريدات التى تنبعث فيه من خليقة التسوية بين جميع الناس، وبينهم وبين نفسه قبل جميع الناس.

وكانت فيه خشونة الأقوياء الصرحاء، ولكنه كما قال عارفوه من الصحابة «باطنه خير من ظاهره» أو كما قال فيه الصديق من كلام فحواه أن مبغضيه هم المبغضون للخير.

وكان له محبون من كرام الناس لا يعدلون بحبه حب أحد من أمثاله، فكان عبد الله ابن مسعود يقول: «لو أعلم عمر كان يحب كلبًا لأحببته. والله إنى لأحسب العضاه[1] قد وَجَدتْ فقد عمر».

---

(١) جمع عضاهة وهو شجر كبير له شوك. ووجدت، أى علمت.

والغالب فى أمثال عمر من أصحاب الطبائع القوية المهيبة أن تحجب عنهم الهيبة ألفة الغرباء الذين لا يختلطون بهم فى السر والعلانية، بل تحجب عنهم ألفة الأقربين فى كثير من الأحيان، لأنهم من تفردهم بالصراحة والحق فى عزلة دائمة بين ألصق الناس بهم وأقربهم إليهم:

أعاذك أنس المجد من كل وحشة فإنك فى هذا الأنام غريب

ولكنهم لا يكرهون إلا عن خطأ أو حسد لئيم. وكان عمر على التخصيص ممن لا يثيرون شعور الكراهية فى قلب إنسان، لأنه كان على عظم «شخصيته» مبرأ من العنصر الشخصى، فى معاملة الأصدقاء والخصوم. وإنما ينجم العداء الشديد من الإحساس بهذا «العنصر الشخصى» ومقابلته بمثله مقابلة اصطدام وانتقام.

فالذين كانوا يذوقون إنصاف عمر كانوا يستمرئونه ويحبونه، والذين كانوا يذوقون عقابه كانوا لا يشعرون بعمر بن الخطاب معاقبًا لهم صوالا عليهم، وإنما يشعرون بميزان الشريعة منصوبًا على رءوسهم، يتساوون فيه وعمر وأبناء عمر لو وجب العقاب. فلا موضع هنا للضغينة ولا لاصطدام النفس بالنفس واحتدام الحزازة بالحزازة.

ولهذه الخصلة ذَكَره بالحب والإعجاب من ابتلوا بعدله أشد ابتلاء، وانطبعت نفوسهم على الدهاء أو الهجاء.

فعمرو بن العاص ومعاوية كانا يثنيان عليه وشدَّ ما ابتليا فى حياته بضربات عدله وهيبته، والحطيئة أهجى الشعراء وأبخلهم بالثناء كان رفاقه يذكِّرونه اسم عمر بعد موته فيرتعب ثم يهدأ فيقول: يرحم الله ذلك المرء!.. ويثنى عليه.

وقد قال عمرو بن العاص إذا رأى عمر يبكى لاستعطاف الخطيئة إياه فى سجنه: ما أظلت الخضراء ولا أقلت الغبراء أعدل من رجل يبكى على تركه الخطيئة!

وقد شاء القدر أن يموت عمر قتيلاً فلا يكون قتله دليلاً على بغضاء «شخصية» أو خلة ترتبط بحياته الفردية. فإنما البغضاء «الوطنية» هى علة التآمر على قتله بين المغلوبين فى ميدان القتال على التحقيق، وهكذا كل بغضاء بقيت بعد موته مقرونة بذكراه فإنما هى فى أصلها «بغضاء وطنية» كامنة وراء الدعاوى الطائفية والمجادلات المذهبية، وإن تطاولت الأيام.

فـالمعلوم أن عمـر مـات بـطعنـات من خنجـر فـيروز« أبي لؤلؤة » من سبـايـا الفـرس بالمدينة، وأن فيروز هذا جاء عمر قبل مقتله بأيام فشكا إليه مولاه المغيرة بن شعبة لأنه فرض عليه خراجاً درهمين فى كل يوم، فسأله عمر عن صناعته فأنبأه أنه « نجار نقاش حداد».. فلم يستكثر عمر هذا الخراج على من يصنع هذه الأعمال، وقال له: قد بلغنى أنك تقول: «لو أردت أن أعمل رحى تطحن بالريح فعلت»، وطلب إليه أن يصنع رحى على هذه الصفة، فقال له: لئن سلمت لأعملن لك رحى يتحدَّث بها مَنْ بالمشرق والمغرب... ثم انصرف وهو يقول: «وسع الناس عدله غيرى!» فقال عمر لسامعيه: لقد توعدنى العبد آنفا... ولم يؤاخذْه بهذا الوعيد، بل كان من نيته أن يلْقى المغيرةَ ليخفِّف عن مولاه.

هذا هو السبب الظاهر الذى لا يستر ما وراءه، لأن أبا لؤلؤة لم يكن إلا منفِّذاً للكيد الذى اتفق عليه كثيرون، وقد روى عبد الرحمن بن أبى بكر أنه رأى هذا الرجل مع الهرمزان وجفينة قبل مقتل عمر جالسين يتحدثون. فلما فاجأهم قاموا وقوفاً فسقط بينهم خنجر له رأسان نصابه فى وسطه، وهو الخنجر الذى حمله فيروز لقتل عمر وقتل نفسه إن أخذ بفعلته.

والهرمزان أمير زالت عنه الإمارة بعد ذهاب الدولة المجوسية، وجُفَيْنَةُ من أهل الأنبار وهم على ولاء للفرس، وأبو لؤلؤة فارسى شديد الحقد على المسلمين لم ينس أسره ولم يزل كلما جىء إلى المدينة بأسرى من وقعات فارس مسح رءوسهم وتوعد المسلمين أجمعين.

وقد شاركهم فى هذه المؤامرة يهودى مغلوب تظاهر بالإسلام وهو المسمى بكعب الأحبار، ولعله أراد أن يكسب سمعة العلم بالأسرار من علمه بالمؤامرة «فذهب إلى عمر قبـل ثلاثـة أيام من مقتله ينـذره أن يختار ولىَّ عهـده لأنه ميت فى ثـلاثة أيـام..»فسألـه عمر: وما يدريك؟ قال: أجده فى كتاب الله التوراة. فلم تجز هذه الدعوى على عمر وعاد يسأله: «الله! إنك لتجد عمر بن الخطاب فى التوراة؟»، فأشفق الرجل أن ينكشف دجله وقال: بل أجد صفتك وحليتك وأنه قد فنى أجلك. ثم كرر له النذير مرتين فى اليومين التاليين.

فعمر إنما ذهب رحمه الله شهيد مؤامرة من أعداء الدولة الإسلامية لا شك فيها، وما كانت قصة الخراج لا الستار الذى يتوارى به المتآمرون بالمدينة والبلاد الأخرى

مخافة القصاص الذى يحيق بهم، إذا جهروا بما دبروه، أو جهروا بالعلة التى من أجلها تربصوا بذلك التدبير.

إن مقتل عمر أحرى أن يعد جزءاً من أكبر أجزاء سيرته ولا يحسب نهاية تَختَتِمُ تلك السيرة دون أن تضيف إليها.

فقد تمثلت فى مقتله مزاياه الكبار التى تمثلت فى جلائل أعماله وعظائم مساعيه وخصاله، فكان عمر الصريع قدوة فى الشجاعة وتقديم الواجب والإيثار على النفس ومحاسبة الضمير وسداد التدبير، كما كان عمر فى أصح ساعاته وأسلمها للعمل والتفكير.

وكان رضى الله عنه ينظر إلى الحياة كأنها رسالة تؤدى ما استطيع أداؤها ثم لا معنى لها إذا فرغ من رسالتها أو حيل بينه وبين أدائها، فبعد الحجة التى مات على أثرها أناخ بالأبطح ثم كوم كومة من البطحاء ألقى عليها طرف ردائه واستلقى عليها ورفع يديه إلى السماء، ودعا الله: «اللهم كَبرتْ سنى وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرّط. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك، واجعل موتى فى بلد رسولك».

ومضت أسابيع فخرج يوماً قبيل الفجر يوقظ الناس ثم يسوى الصفوف للصلاة، فلم يكد يؤم الناس حتى فاجأه القاتل بطعنتين إحداهما فى كتفه والأخرى فى خاصرته، وقيل ثلاث طعنات إحداهن تحت السرة وقد خرقت الصفاقين[1] قضى بها نحبه رحمه الله، وقيل بل ست طَعنات منها تلك الطعنة القاتلة.

فلم تشغله هذه الطعنات المفاجئات عن الصلاة، ولم يفكر أن يشغل المسلمين بمقتله عن أداء فريضتهم فى موعدها، وسأل عن عبد الرحمن بن عوف ليصلى بالناس.

ثم جعل يغمى عليه ولا ينتبه إذا دعوه، حتى قال بعض عارفيه: إنكم لن تفزعوه بشىء مثل الصلاة إن كانت به حياة.. فنودى: الصلاة.. الصلاة! فلما سمع النداء فتح عينيه وفاه بكلمات متقطعات: «الصلاة! ها... الله.. إذن..» ثم قال: لاحظ فى الإسلام لمن ترك الصلاة.

ولم يهمه من قتله بعد أن حمل إلى منزله إلا أن يعرف ألمظلمة كان قتله أمْ لبغْى من

---

(١) صفاق البطن هو الجلد الباطن عند سوْار البطن.

القاتل؟ فلما علم أنه أبو لؤلؤة قال: ولم قاتله الله وقد أمرت به معروفاً؟ ثم حمد الله قائلًا: «الحمد لله الذى لم يجعلْ قاتلى يحاجنى عند الله بسجدة سجدها له قط ما كانت العرب لتقلتنى».

وهمه بعد ذلك أن يلقى حسابه عند الناس وهو وشيك أن يلقى حسابه عندالله. فأمر ابن عباس أن يخرج إلى المهاجرين والأنصار يسألهم: أعن ملأ منكم ومشورة كان هذا الذى أصابنى؟ فصاحوا معلنين «لا والله ولوددنا أن الله زاد فى عمره من أعمارنا».

واشتد البكاء كأن الناس لم يصابوا بمصيبة قبلها، فنهاهم أن يبكوا عليه ثم سقوه نقيع التمر فخرج من الجرح أحمر كما هو فلم يعرفوا أدم هو أم النقيع خرج بلونه.. فسقوه اللبن فخرج أبيض يشوبه صديد، فأشار عليه الطبيب أن يعهد.. فقال: «لو قلت غير هذا لكذبتك».

وكان قد أنكر على الناس أن يجيئوه بالطبيب قبل أن يفرغ من وصاياه ويحكم أيها الناس، أأنظر فى أمر نفسى قبل أن أنظر فى أمور المسلمين؟.. فلما قال الطبيب مقالته أخذ فى تدبير المهم من شئون الدولة وأولها الخلافة، فجعلها شورى ليستقر بها القرار ما استطيع إقراره، ونجا بأهله منها وهو يقول...: «أما لقد جهدت نفسى وحرمت أهلى، وإن نجوت كفافاً[1] لا وزر ولا أجر إنى لسعيد».

وهو فى هذا كله لا يخالف ديدنه من صراحة ولا يكتم طبيعة أهل الفناء من حب الحياة، ولا يخفى «إن للحياة لنصيباً من القلب إن للموت لكربة!» ولكنها لم تمنعه قط أن يعطى الحق حيث وجب للموت أو للحياة.

فلما فرغ من شئون الدولة نظر فى أمر دينه فأبى أن يدفن قبل أن يضمن سداده، وأقبل يطمئن إلى مضجعه فى جوار صاحبيه وقد فرغ من حقوق الدنيا. فدعا بابنه عبد الله ينطلق إلى عائشة أم المؤمنين ويقرئها منه السلام ونهاه أن يسميه عندها أمير المؤمنين لأنه ليس اليوم للمؤمنين أميرًا... ثم يستأذنها أن يدفن إلى جوار صاحبيه يعنى النبى عليه السلام وخليفته الصديق.

---

(١) نجوت كفافاً: أى، لا لى ولا على.

ووجدها عبد الله تبكى فسلم عليها واستأذنها فأذنت، وقالت: كنت أريده لنفسى، ولأوثرنه به اليوم على نفسى !.

فلم يكفه هذا حتى يستوثق كل الاستيثاق من رضاها، فعاد يخاطب ابنه «يا عبد الله ابن عمر! انظر، فإذا أنا قبضت فاحملونى على سريرى ثم قف على الباب. فقل يستأذن عمر بن الخطاب، فإن أذنت لى فأدخلنى، وإن ردتنى فردنى إلى مقابر المسلمين، فإنى أخشى أن يكون إذنها لى لمكان السلطان.

قال شهود دفنه «فلما حمل فكأن المسلمين لم تصبهم مصيبة إلا يومئذ» وفارق الدنيا أعدل العادلين وهو مظلوم أو متهم بظلم فما دلها شىء على عظم فضله ولا عظم الحاجة إلى العدل فيها كما دلها هذا الختام.

فهـرس

عَبقريّة الإمام عليّ

تقديم

فى كل ناحية من نواحى النفوس الإنسانية ملتقى بسيرة على بن أبى طالب رضوان الله عليه.

لأن هذه السيرة تخاطب الإنسان حيثما اتجه إليه الخطاب البليغ من سير الأبطال والعظماء، وتثير فيه أقوى ما يثيره التاريخ البشرى من ضروب العطف ومواقع العبرة والتأمل.

فى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالعاطفة المشبوبة والإحساس المتطلع إلى الرحمة والإكبار.. لأنه الشهيد أبو الشهداء، يجرى تاريخه وتاريخ أبنائه فى سلسلة طويلة من مصارع الجهاد والهزيمة، ويتراءون للمتتبع من بعيد واحدًا بعد واحد شيوخًا جللهم وقار الشيب ثم جللهم السيف الذى لا يرحم، أو فتيانًا عوجلوا وهم فى نضرة العمر يحال بينهم وبين متاع الحياة، بل يحال بينهم أحيانًا وبين الزاد والماء، وهم على حياض المنية جياع ظماء.. وأوشك الألم لمصرعهم أن يصبغ ظواهر الكون بصبغتهم وصبغة دمائهم، حتى قال شاعر فيلسوفٌ كأبى العلاء لا يظن به التشيع بل ظنت بإسلامه الظنون:

وعلى الأفق من دماء الشهيديـ ـن علىٍّ ونجله شاهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا ن ، وفى أولياته شفقان

وهذه غاية من امتزاج العاطفة بتلك السيرة قلما تبلغها فى سير الشهداء غاية، وكثيراً ما تتعطش إليها سرائر الأمم فى قصص الفداء التى عمرت بها تواريخ الأديان.

وفى سيرة ابن أبى طالب ملتقى بالخيال حيث تحلق الشاعرية الإنسانية فى الأجواء أو تغوص فى الأغوار. فهو الشجاع الذى نزعت به الشاعرية الإنسانية منزع الحقيقة ومنزع التخيل، واشترك فى تعظيمه شهود العيان وعشاق الأعاجيب... ألم يحارب المردة فى فلواتها ؟.. ألم يخلق له الرواة أنداداً من المناجزين والمبارزين لم يخلقهم الله ؟.. ألم يستصغر

عليه المحبون الغالبون فى الحب أن يصرع من عرفنا من خصومه فأنشئوا له من الخصوم المغلوبين من لم يعرفهم ولم يعرفوه؟.. لم يوشك من وصفوه ووصفوا وقعاته وفتكاته أن يلحقوه بأبطال الأساطير. وهو هو أصدق الأبطال فى أصدق مجال.

وتلتقى سيرته - عليه رضوان الله - بالفكر كما تلتقى بالخيال والعاطفة، لأنه صاحب آراء فى التصوف والشريعة والأخلاق سبقت جميع الآراء فى الثقافة الإسلامية، ولأنه أحجى الخلفاء الراشدين أن يعد من أصحاب المذاهب الحكمية بين حكماء العصور، ولأنه أوتى من الذكاء ما هو أشبه بذكاء الباحثين المنقبين منه بذكاء الساسة المتغلبين، فهو الذكاء الذى تحسه فى الفكرة والخاطرة، قبل أن تحسه فى نتيجة العمل ومجرى الأمور..

وللذوق الأدبى - أو الذوق الفنى - ملتقى بسيرته كملتقى الفكر والخيال والعاطفة، لأنه رضوان الله عليه كان أديباً بليغاً له نهج من الأدب والبلاغة يقتدى به المقتدون، وقسط من الذوق مطبوع يحمده المتذوقون، وإن تطاولت بينه وبينهم السنون. فهو الحكيم الأديب، والخطيب المبين، والمنشئ الذى يتصل إنشاؤه بالعربية ما اتصلت آيات الناثرين والناظمين..

وللنفس الإنسانية نواحيها الكثيرة غير نواحى العطف والتخيل والتفكير، وتذوق الحسن الجميل من التعبير.

فمن نواحيها الكثيرة ناحية لم تنقطع قط فى زمن من الأزمان، وهى ناحية الخلاف بين الطبائع والأذهان، أو ناحية الخصومة الناشبة أبداً على رأى من الآراء، أو حق من الحقوق، أو وطن من الأوطان.

فقد يفتر العقل والذوق بعض حين، وقد يفتر الخيال والعاطفة بعض حين، ولكن الذى لم يفتر ولا تخاله يفتر فى حين من الأحايين، خصام العقول وجدل الألسنة واختلاف المختلفين وتشيع المتشيعين.

وإنها هنا للمجال الرغيب والملتقى القريب فى سيرة هذا الإمام الأوحد التى لا تشبهها سيرة فى هذه الخاصة بين شتى الخواص، وهو رضوان الله عليه قد قال فى ذلك أوجز مقال حين قال.

«ليحبنى أقوام حتى يدخلوا النار فى حبى، ويبغضنى أقوام حتى يدخلوا النار فى

بغضى».. أو حين قال: «يهلك فىّ رجلان محب مفرط بما ليس فىّ ومبغض يحمله شنآنى على أن يبهتنى».

وصدق الإمام الكريم فى خلو الطرفين من محبيه ومن مبغضيه. فقد بلغ من حب بعضهم إياه أن رفعوه إلى مرتبة الآلهة المعبودين، وبلغ من كراهة بعضهم إياه أن حكموا عليه بالمروق من الدين: هنا الروافض الغلاة يعبدونه وينهاهم عن عبادته فلا يطيعونه.. ويستتيبهم فيصرون على الكفر أى إصرار، ويأمر بإحراقهم فيقولون وهم يساقون إلى الحفيرة الموقدة: إنه الله وإنه هو الذى يعذب بالنار!.

وهناك الخوارج الغلاة يعلنون كفره ويطلبون منه التوبة إلى الله عن عصيانه.. ويسبونه على المنابر كما سبه خصومه الأمويون الذين خالفوهم فى العقيدة ووافقوهم على السباب.

ميدان من ميادين الملاحاة لم يتسع قط ميدان متسعة فى تواريخ الأبطال المعرضين للحب والبغضاء: يقول أناس: إله. ويقول أناس كافر مطرود من رحمة الله!.

وناحية أخرى من نواحى النفس الكثيرة تلاقيها سيرة الإمام فى أكثر من طريق: وتلك هى ناحية الشكوى والتمرد، أو ناحية الشوق إلى التجديد والإصلاح.

فقد أصبح اسم علىّ علماً يلتف به كل مغصوب، وصيحة ينادى بها كل طالب إنصاف، وقامت باسمه الدول بعد موته لأنه لم تقم له دولة فى حياته. وجعل الغاضبون على كل مجتمع باغ، وكل حكومة جائرة يلوذون بالدعوة العلوية كأنها الدعوة المرادفة لكلمة الإصلاح، أو كأنها المنفس الذى يستروح إليه كل مكظوم.. فمن نازع فى رأى، ففى اسم على شفاء لنوازع نفسه، ومن ثار على ضيم، ففى اسم على حافز لثورته ومرضاة لغضبه، ومن واجه التاريخ العربى بالعقل أو بالذوق أو بالخيال أو بالعاطفة فهناك ملتقى بينه وبين علىّ فى وجه من وجوهه، وعلى حالة من حالاته، وتلك هى المزية التى انفرد بها تاريخ الإمام بين تواريخ الأئمة الخلفاء، فأصبحت بينه وبين قلوب الناس وشائج تخلقها الطبيعة الآدمية إن قصر فى خلقها التاريخ والمؤرخون.

وكل ملتقى من هذه الملتقيات يدع الكاتب فى حذر ما بعده من حذر، لأن اشتباك العوامل النفسية يزيد صعوبة الباحث عن نفس من النفوس، ولا ينقصها أو يئول بها إلى

البساطة والوضوح، وكلما قلّت هذه العوامل وانحصرت فى ناحية من النواحى،سهل الخلوص إلى مقطع الحق فيها. فالبطل الذى يلتقى بالفكر وحده أسهل من البطل الذى يلتقى بالفكر والعاطفة، وإن هذا لأسهل من الذى يلتقى بالفكر والعاطفة والخيال، وكل أولئك أسهل ممن يلتقى فى ألف سنة متوالية بدخائل النفوس جميعاً من طموح إلى المثل الأعلى، أو حرص على الملاحاة، أو شغف بالبلاغة أو رياضة على التقوى، مزيداً على التخيل والشعور والتفكير،لهذا نعلم غير مترددين فى علمنا أن واجبنا فى «عبقرية الإمام» مرسوم الغاية والطريق، وهو واجب التبسيط والقصد إلى الخطة الوسطى، وفى علمنا بهذا بعض التيسير، وإن لم يكن فيه كل التيسير، نرجع «بعبقرية الإمام» إلى الحقيقة الوسطى.

نرجع من عشرين طريقاً إلى بداية واحدة، لأن الطريق الواحدة لا تؤدى إليها أقرب أداء. وحسبنا أننا عرفنا ضرورة الرجوع من كل هذه الطرق إلى تلك البداية المقصودة، فعلى بركة الله.

صفاته

المشهور عن علي كرم الله وجهه أنه كان أول هاشمي من أبوين هاشميين.. فاجتمعت له خلاصة الصفات التي اشتهرت بها هذه الأسرة الكريمة وتقاربت سماتها وملامحها في كثير من أعلامها المقدمين، وهي في جملتها النبل والأيد والشجاعة والمروءة والذكاء، عدا المأثور في سماتها الجسدية التي تلاقت أو تقاربت في عدة من أولئك الأعلام.

فهو ابن أبي طالب بن عبد المطلب بن هاشم بن عبد مناف، وأمه فاطمة بنت أسد بن هاشم بن عبد مناف.

وقيل إن اسمه الذي اختارته له أمه: حيدرة باسم أبيها أسد، والحيدرة هو الأسد.. ثم غيره أبوه فسماه عليًّا وبه عرف واشتهر بعد ذلك..

وكان عليّ أصغر أبناء أبويه، وأكبر منه جعفر وعقيل وطالب، وبين كل منهم وأخيه عشر سنين.

قيل إن عقيلا كان أحب هؤلاء الإخوة إلى أبيه، فلما أصاب القحط قريشًا وأهاب رسول الله عليه السلام بعميه حمزة والعباس أن يحملوا ثقل أبي طالب في تلك الأزمة، جاءوه وسألوه أن يدفع إليهم ولده ليكفوه أمرهم. فقال: دعوا لي عقيلا وخذوا من شئتم. فأخذ العباس طالبًا وأخذ حمزة جعفرا وأخذ النبي عليه السلام عليًّا كما هو مشهور. فعوضه إيثار النبي بالحب عن إيثار أبيه، ولكنه عرف هذا الإيثار في طفولته الأولى فكان سابقة باقية الأثر في نفسه على ما يبدو من أطوار حياته التالية، وجاءت لهذه السابقة لواحقها الكثيرة على توقع واستعداد فتعود ألّا يفوته الحق والتفضيل وهو يدرج في صباه.

وربما صح من أوصاف علي في طفولته أنه كان طفلا مبكر النماء سابقًا لأنداده في الفهم والقدرة، لأنه أدرك في السادسة أو السابعة من عمره شيئاً من الدعوة النبوية التي يدق

فهمها والتنبه لها على من كـان فى مثل هـذه السن المبكرة. فكـانت له مـزايا التبكـير فى النماء، كما كانت له أعباؤه ومتاعبه التى تلازم أكثر المبكرين، ولا سيـما المولـودين منهم فى شيخوخة الآباء..

ونشأ رضى الله عنه رجلا مكين البنيان فى الشباب والكهولة، حافظًا لتكوينه المكين حتى ناهز الستين..

قال واصفوه وهو فى تمام الرجولة إنه كان رضى الله عنه ربعة أميل إلى القصر، آدم – أى أسمر – شديد الأدمة، أصلع مبيض الرأس واللحية طويلها، ثقيل العينين فى دعج وسعة، حسن الوجه واضح البشاشة، أغيد كأنما عنقه أبريق فضة، عريض المنكبين لها مشاش كمشاش[1] السبع الضارى،لا يتبين عضده من ساعده قد أدمجت إدماجاً. وكان أبجر – أى كبير البطن – يميل إلى السمنة فى غير إفراط، ضخم عضلة الساق دقيق مستدقها، ضخم عضلة الذراع دقيق مستدقها، شثن الكفين، يتكفأ فى مشيته على نحو يقارب مشية النبى، ويقدم فى الحرب فيقدم مهرولا لا يلوى على شىء.

وتدل أخباره – كما تدل صفاته – علي قوة جسدية بالغة فى المكانة والصلابة على العوارض والآفات. فربما رفع الفارس بيده فجلد به الأرض غير جاهد ولا حافل، ويمسك بذراع الرجل فكأنه أمسك بنفسه فلا يستطيع أن يتنفس، واشتهر عنه أنه لم يصارع أحدًا إلا صرعه، ولم يبارز أحدًا إلا قتله، وقد يزحزح الحجر الضخم لا يزحزحه إلا رجال، ويحمل الباب الكبير يعيـا بقلبه الأشـداء، ويصيح الصيحـة فتنخلع لها قلوب الشجعان.

ومن متانة تركيبه رضى الله عنه أنه كان لا يبالى الحر والبرد، ولا يحفل بالطوارئ الجوية فى صيف ولا شتاء، فكان يلبس ثياب الصيف فى الشتاء وثياب الشتاء فى الصيف، وسئل فى ذلك فقال: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث إلىّ وأنا أرمد العين يوم خيبر فقلت: يا رسول الله إنى أرمد العين. فقال: اللهم أذهب عنه الحر والبرد، فما وجدت حرًّا ولا بردًا منذ يومئذ..»

* * *

(١) المشاش: رأس العظم.

ولا يفهم من هذا أنه رضوان الله عليه كان معدوم الحس بالحر والبرد بالغًا ما بلغت بها القساوة والإيذاء. فقد كان يرعد للبرد إذا اشتد ولم يتخذ له عدة من دثار يقيه. قال هرون بن عنترة عن أبيه: دخلت على عليّ بالخورنق وهو فصل شتاء وعليه خلق قطيفة وهو يرعد فيه. فقلت: يا أمير المؤمنين، ان الله قد جعل لك ولأهلك فى هذا المال نصيبًا وأنت تفعل هذا بنفسك؟.. فقال: والله ما أرزؤكم شيئا، وما هى إلا قطيفتى التى أخرجتها من المدينة.

فليس هو انعدام حس بالصيف والشتاء. إنما هى مناعة قوية خصت بها بنيته، ولم يخص بها معظم الناس.

وكان إلى قوته البالغة، شجاعًا لا ينهض له أحد فى ميدان مناجزة، فكان لجرأته على الموت لا يهاب قرنًا من الأقران بالغًا ما بلغ من الصولة ورهبة الصيت، واجترأ وهو فتى ناشئ على عمرو بن ود فارس الجزيرة العربية الذى كان يقوم بألف رجل عند أصحابه وعند أعدائه، وكانت وقعة الخندق فخرج عمرو مقنعًا فى الحديد ينادى جيش المسلمين: من يبارز.. فصاح عليّ أنا له يا نبى الله.. قال النبى وبه إشفاق عليه: إنه عمرو. اجلس. ثم عاد عمرو ينادى: ألا رجل يبرز؟.. وجعل يؤنبهم قائلا: أين جنتكم التى زعمتم أنكم داخلوها إن قتلتم؟.. أفلا تبرزون إلىّ رجلا؟.. فقام على مرة بعد مرة وهو يقول: أنا له يا رسول الله، ورسول الله يقول له مرة بعد مرة: اجلس. إنه عمرو، وهو يجيبه: وإن كان عَمرا.. حتى أذن له فمشى إليه فرحًا بهذا الإذن الممنوع كأنه الإذن بالخلاص.. ثم نظر إليه عمرو فاستصغره وأنف أن يناجزه وأقبل يسأله: من أنت؟.. قال ولم يزد: أنا عليّ. قال: ابن عبد مناف؟.. قال: ابن أبى طالب. فأقبل عمرو عليه يقول: يا بن أخى.. من أعمامك من هو أسن، وإنى أكره أن أهريق دمك، فقال له عليّ: لكنى والله لا أكره أن أهريق دمك. فغضب عمرو وأهوى إليه بسيف كان كما قال واصفوه كأنه شعلة نار، واستقبل عليّ الضربة بدرقته فقدها السيف وأصاب رأسه، ثم ضربه عليّ على حبل عاتقه فسقط ونهض، وثار الغبار، فما انجلى إلا عن عمرو صريعًا وعلى يجأر بالتكبير.

وكأنما كانت شجاعته هذه القضاء الحتم الذى لا يؤسى على مصابه، لأنه أحجى المصائب، وأقلها معابة ألا يدفع. فكانت أخت عمرو بن ود تقول على سبيل التأسى بعد موته:

لو كان قاتل عمرٍو غير قاتله بكيته أبدًا ما دمت فى الأبد
لكن قاتله من لا نظير له وكان يدعى أبوه بيضة البلد

* * *

فكانت شجاعته من الشجاعات النادرة التى يشرف بها من يصيب بها ومن يصاب..

ويزيدها تشريفًا أنها ازدانت بأجمل الصفات التى تزين شجاعة الشجعان الأقوياء.. فلا يعرف الناس حلية للشجاعة أجمل من تلك الصفات التى طبع عليها علىّ بغير كلفة ولا مجاهدة رأى. وهى التورع عن البغى، والمروءة مع الخصم قويًا أو ضعيفًا على السواء، وسلامة الصدر من الضغن على العدو بعد الفراغ من القتال.

فمن تورعه عن البغى، مع قوته البالغة وشجاعته النادرة، أنه لم يبدأ أحدًا قط بقتال وله مندوحة عنه، وكان يقول لابنه الحسن: (لا تدعون إلى مبارزة. فإن دعيت إليها فأجب. فإن الداعى إليها باغ والباغى مصروع)..

وعلم أن جنود الخوارج يفارقون عسكره ليحاربوه، وقيل له إنهم خارجون عليك فبادرهم قبل أن يبادروك، فقال: (لا أقاتلهم حتى يقاتلونى. وسيفعلون!..)

وكذلك فعل قبل وقعة الجمل، وقبل وقعة صفين، وقبل كل وقعة صغرت أو كبرت ووضح فيها عداء العدو أو غمض: يدعوهم إلى السلم وينهى رجاله عن المبادأة بالشر، فما رفع يده بالسيف قط إلا وقد بسطها قبل ذلك للسلام.

كان يعظ قومًا فبهرت عظته بعض الخوارج الذين يكفرونه فصاح معجبًا إعجاب الكاره الذى لا يملك بغضه ولا إعجابه: قاتله الله كافرًا ما أفقهه.. فوثب أتباعه ليقتلوه. فنهاهم عنه، وهو يقول: إنما هو سب بسب أو عفو عن ذنب.

وقد رأينا أنه كان يقول لعمرو بن ود: إنى لا أكره أن أهريق دمك.. ولكنه على هذا لم يرغب فى إهراق دمه إلا بعد يأس من إسلامه ومن تركه حرب المسلمين.. فعرض عليه أن يكف عن القتال فأنف، وقال: إذن تتحدث العرب بفرارى، وناشده: يا عمرو إنك كنت تعاهد قومك ألا يدعوك رجل من قريش إلى خلتين إلا أخذت منه إحداهما. قال: أجل. قال: فإنى أدعوك إلى السلام أو إلى النزال. قال: ولم يا بن أخى؟.. فو الله

ما أحب أن أقتلك.. فلم يكن له بد بعد ذلك من إحدى اثنتين: أن يقتله أو يقتل على يديه.

وعلى ما كان بينه وبين معاوية وجنوده من اللدد فى العداء لم يكن ينازلهم ولا يأخذ من ثاراته وثارات أصحابه عندهم إلا بمقدار ما استحقوه فى موقف الساعة: فاتفق فى يوم صفين أن خرج من أصحاب معاوية رجل يسمى كريز بن الصباح الحميرى فصاح بين الصفين: من يبارز؟.. فخرج إليه رجل من أصحاب علىّ فقتله ووقف عليه ونادى: من يبارز؟.. فخرج إليه آخر فقتله وألقاه على الأول، ثم نادى: من يبارز؟.. فخرج إليه الثالث فصنع به صنيعه بصاحبه، ثم نادى رابعة: من يبارز؟.. فأحجم الناس ورجع من كان فى الصف الأول إلى الصف الذى يليه، وخاف علىّ أن يشيع الرعب بين صفوفه فخرج إلى ذلك الرجل المدل بشجاعته وبأسه فصرعه ثم نادى نداءه حتى أتم ثلاثة صنع بهم صنيعه بأصحابه، ثم قال مسمعًا الصفوف: يا أيها الناس: إن الله عز وجل يقول: ﴿الشهر الحرام بالشهر الحرام والحرمات قصاص﴾، ولو لم تبدءونا ما بدأناكم.. ثم رجع إلى مكانه.

أما مروءته فى هذا الباب فكانت أندر بين ذوى المروءة من شجاعته بين الشجعان. فأبى على جنده وهم ناقمون أن يقتلوا مدبرًا أو يجهزوا على جريح أو يكشفوا سترًا أو يأخذوا مالا. وصلى فى وقعة الجمل على القتلى من أصحابه ومن أعدائه على السواء، وظفر بعبد الله بن الزبير ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وهم ألد أعدائه المؤلبين عليه فعفا عنهم ولم يتعقبهم بسوء، وظفر بعمرو بن العاص وهو أخطر عليه من جيش ذى عدة فأعرض عنه وتركه ينجو بحياته حين كشف عن سوأته اتقاء لضربته.. وحال جند معاوية بينه وبين الماء فى معركة صفين وهم يقولون له: ولا قطرة حتى تموت عطشًا.. فلما حمل عليهم وأجلاهم عنه سوغ لهم أن يشربوا منه كما يشرب جنده، وزار السيدة عائشة بعد وقعة الجمل فصاحت به صفية أم طلحة الطلحات: أيتم الله منك أولادك كما أيتمت أولادى. فلم يرد عليها شيئًا، ثم خرج فأعادت عليه ما استقبلته به فسكت ولم يرد عليها. قال رجل أغضبه مقالها: يا أمير المؤمنين. أتسكت عن هذه المرأة وهى تقول ما تسمع؟.. فانتهره وهو يقول: ويحك؟.. إنّا أُمرْنا أن نكف عن النساء وهن مشركات أفلا نكف عنهن وهن مسلمات؟.. وانه لفى طريقه إذ أخبره بعض أتباعه عن رجلين

ينالان من عائشة فأمر بجلدهما مائة جلدة. ثم ودع السيدة عائشة أكرم وداع وسار فى ركابها أميالا وأرسل معها من يخدمها ويحف بها. قيل إنه أرسل معها عشرين امرأة من نساء عبد القيس عممهن بالعمائم وقلّدهن السيوف.. فلما كانت ببعض الطريق ذكرته بما لا يجوز أن يذكر به وتأففت وقالت: هتك سترى برجاله وجنده الذين وكلهم بى.. فلما وصلت إلى المدينة ألقى النساء عمائمهن وقلن لها: إنما نحن نسوة.

وكانت هذه المروءة سنته مع خصومه، من استحق منهم الكرامة ومن لم يستحقها، ومن كان فى حرمة عائشة رضى الله عنها ومن لم تكن له قط حرمة، وهى أندر مروءة عرفت من مقاتل فى وغر القتال..

وتعدلها فى النبل والندرة سلامة صدره من الضغن على أعدى الناس له وأضرهم به وأشهرهم بالضغن عليه. فنهى أهله وصحبه أن يمثلوا بقاتله وأن يقتلوا أحدًا غيره، ورثى طلحة الذى خلع بيعته وجمع الجموع لحربه رثاء محزون يفيض كلامه بالألم والمودة، وأوصى أتباعه ألّا يقاتلوا الخوارج الذين شقوا صفوفه وأفسدوا عليه أمره وكانوا شرًّا عليه من معاوية وجنده، لأنه رآهم مخلصين وإن كانوا مخطئين وعلى خطئهم مصرين..

* * *

وتقترن بالشجاعة – ولا سيما شجاعة الفرسان المقاتلين بأيديهم – صفة لازمة لها متممة لعملها قلما تنفصل عنها وكأنها والشجاعة أشبه شىء بالنضح للماء، أو بالإشعاع للنور، فلا تكون شجاعة الفروسية إلا كانت معها تلك الصفة التى نشير إليها، وهى صفة «الثقة» أو «الاعتزاز» أو الادراع بالهيبة والتهويل على الخصوم ولا سيما فى مواقف النزال.

وقد يسميها بعض الناس زهوًا وليست هى به ولا هى من معدنه وسمته، وإن شابهته فى بعض الملامح والألوان.

فالزهو المذموم فضول لا لزوم له ولا خير فيه، وهو لون خادع قد يوجد مع الضعف كما يوجد مع القوة، وقد يبدو على الجبان كما يبدو على الشجاع..

أما هذا الاعتزاز الذى نشير إليه، أو هذه الثقة التى تظهر لنا فى صورة الاعتزاز، فهى جزء من شجاعة الفارس المقاتل لا يستغنى عنه ولا يزال متصلا بعمله فى مواجهة

خصومه، وهو عرض للقوة يساعد الفارس فى إرهاب عدوه وإضعاف عزيمة من يتصدى لحربه. مثله هنا كمثل العروض التى تعمد إليها الجيوش لإعلان بأسها وتخويف الأعداء من الاستخفاف بها والهجوم عليها. فهو كالشجاعة أداة ضرورية من أدوات القتال لا تنفصل عنها، وليس كل ما فيها ضربًا من الخيلاء يرضى به الشجاع غروره ويتيه به فى غير حاجة إلى التيه.

ولهذا تحمس الناس للفخر العسكرى من قديم الزمن وعهدوه وتحدثوا به وتناقلوه، فسمحوا للفارس – بل لعلهم أوجبوا عليه – أن يروع من خصمه بالفخر المرعب إذ يتقدم لنزاله. وأن يلاقيه وهو ينشد الأشعار فى ذكر وقعاته والتهويل بضرباته والإشادة بغزواته، وعلموا أنهم – وقد احتاجوا إلى شجاعة – محتاجون كذلك إلى فخره وحماسته وإيقاع الرعب فى جنان قرنه، فشاعت قصائد الفخر والحماسة كما شاعت قصائد الحب والمناجاة، وهى أحب القصائد إلى القلوب.

* * *

ومن تأصل هذه العادة فى الطبائع أنها تشاهد فى جميع الأحياء فطرة وارتجالا بغير اصطناع ولا تعمد. فلا نرى حيا من الأحياء الناطقة أو العجماء ينازل قرنًا له إلا حاول ما استطاع أن يهوله بتكبير حجمه واستطالة قدره وائتمار نظره وتنفيش ريشه أو شعره، ويقف الإنسان مثل هذا الموقف فيطيل قامته ويبرز صدره ويدق بيده عليه ويقول بلسان حاله ما يقال باللسان، فإذا هو الفخر والحماسة وإذا هو عنوان الثقة والإقدام..

هذه الصفة لازمة لفرسان الميدان، ولا سيما فرسان العصور الأولى الذين يقفون للقتال وجهًا لوجه، وينظر أحدهم إلى قرنه وهو يهجم عليه.

وكانت هذه الصفة من صفات علىّ رضى الله عنه، يفهمها من يريد أن يفهم ولا يضيق صدرًا بفضله، وينكرها من ينفس عليه فيسميها الزهو أو يسميها الجفوة والخيلاء. قال له قيس بن سعد بعد عزله من ولاية مصر: إنك والله ما علمت لتنظر الخيلاء.. ومر الزبير بن العوام مع رسول الله فى بنى غنم. فرأى رسول الله عليًّا على مقربة منه فضحك له وضحك علىّ يحييه. فقال الزبير: لا يدع ابن أبى طالب زهوه. قال رسول الله: إنه ليس به زهو، ولتقاتلنه وأنت له ظالم.

فليس هو بالزهو المكروه، ولكنها الشجاعة التى يمتلئ بها الشجاع والثقة التى تتراءى مكشوفة فى صراحتها واستقامتها، لأن صاحبها لم يتكلف مداراتها ولم يحس أنه يحتاج إلى مداراتها، ولأنه لا يقصدها ولا يتعمد إنداءها..

* * *

وقد كان مدار هذا الخلق فى ابن أبى طالب على ثقة أصيلة فيه لم تفارقه منذ حبا ودرج. وقبل أن يبلغ مبلغ الرجال. فما منعته الطفولة الباكرة يوماً أن يعلم أنه شىء فى هذه الدنيا وأنه قوة لها جوار يركن إليه المستجير. ولقد كان فى العاشرة أو نحوها يوم أحاط القروم القرشيون بالنبى عليه السلام ينذرونه وينكرونه وهو يقلب عينه فى وجوههم ويسأل عن النصير ولا نصير.. لو كان لعلى أن يرتاع فى مقام نجدة أو مقام عزيمة، لارتاع يومئذ بين أولئك الشيوخ الذين رفعتهم الوجاهة ورفعتهم آداب القبيلة البدوية إلى مقام الخشية والخشوع. ولكنه كان عليًّا فى تلك السن الباكرة كما كان عليًّا وهو فى الخمسين أو الستين.. فما تردد وهم صامتون مستهزئون أن يصيح صيحة الواثق الغضوب: أنا نصيرك.. فضحكوا منه ضحك الجهل والاستكبار، وعلم القدر وحده فى تلك اللحظة أن تأييد ذلك الغلام أعظم وأقوم من حرب أولئك القروم..

علىّ هذا هو الذى نام فى فراش النبى ليلة الهجرة، وقد علم ما تأتمر به مكة كلها من قتل الراقد على ذلك الفراش.

وعلى هذا هو الذى تصدى لعمرو بن ود مرة بعد مرة والنبى يجلسه ويحذره العاقبة التى حذرها فرسان العرب من غير تحذير، يقول النبى: اجلس. إنه عمرو. فيقول: وإن كان عمراً.. كأنه لا يعرف من يخاف ولا يعرف كيف يخاف، ولا يعرف إلا الشجاعة التى هو ممتلئ بها واثق فيها فى غير كلفة ولا اكتراث.

وتمكنت هذه الثقة فيه لطول مراس الفروسية التى هى كما أسلفنا جزء منها وأداة من أدواتها.

وزادها تمكيناً حسد الحاسدين ولجاجة المنكرين، وكلاهما خليق أن يعتصم المرء منه بثقة لا تنخذل، وأنفة لا تلين. فمن شواهد هذه الثقة بنفسه أنه حملها من ميدان الشجاعة إلى ميدان العلم والرأى حين كان يقول: «اسألونى قبل أن تفقدونى، فو الذى

نفسى بيده لا تسألونى فى شيء فيما بينكم وبين الساعة، ولا عن فئة تهدى مائة وتضل مائة إلا أنبأتكم بناعقها وقائدها وسائقها، ومناخ ركابها ومحط رحالها».

ومن شواهدها أنه كان يقول والخارجون عليه يرجمونه بالمروق: «ما أعرفِ أحدًا من هذه الأمة عبد الله بعد نبينا غيرى، عبدت الله قبل أن يعبده أحد من هذه الأمة تسع سنين».

وزاده اتهام من حوله معتصماً بالثقة بنفسه، فلما عتب عليه خصماه طلحة والزبير أنه ترك مشورتهما قال: «نظرت إلى كتاب الله وما وضع لنا وأمرنا بالحكم به فاتبعته. وما استن النبى صلى الله عليه وسلم فاقتديته. فلم أحتج فى ذلك إلى رأيكما ولا رأى غيركما، ولا وقع حكم جهلته فاستشيركما وإخوانى المسلمين، ولو كان ذلك لم أرغب عنكما ولا عن غيركما...».

وأبدى هذه الخليقة منه أن كان رضى الله عنه لا يتكلف ولا يحتال على أن يتألف. بل كان يقول: «شر الإخوان من تكلف له» ويقول: «إذا احتشم المؤمن أخاه فقد فارقه»، فكان الذين ينتظرون منه الاصطناع والإرضاء يخطئون ما انتظروه، ولا سيما إذا هم انتظروه من أرزاق رعاياه وحقوقهم التى اؤتمن إليها. فيحسبون أنها الجفوة البينة وأنه الزهو المقصود وما هو بهذا ولا بتلك. إنما هى شجاعة الفارس بلوازمها التى لا تنفصل منها، وإنما هو امتعاض المغموط المسيء ظنًا بمن حوله يتراءى على سجيته فى غير مداراة ولا رياء. فما كان يتكلف إظهار تلك الخلائق زهوًا كما يسمونه أو جفوة كما يحسبونها. بل كان قصاراه ألا يتكلف الإخفاء فإذا التفت قاصداً إلى ما فى نفسه فهو لا يقصد العجب ولا يرضاه، بل ينهى عنه ويشتد فى اجتنابه، ويوصى من أحب: «إياك والإعجاب بنفسك والثقة بمايعجبك منها»... «واعلم أن الإعجاب ضد الصواب وآفة الألباب».

نعم كان ملاك الأمر فى أخلاق علىّ عليه السلام أنه كان لا يتكلف إظهار شيء ولا يتكلف إخفاء شيء ولا يقبل التكلف حتى من مادحيه، فربما أفرط الرجل فى الثناء عليه وهو متهم عنده فلا يدعه حتى يعلن له طويته ويقول له: «أنا دون ما تقول وفوق ما فى نفسك».

* * *

وكانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقته الكبرى من الشجاعة والبأس والامتلاء بالثقة والمنعة. وكانت تسلك معه مسلك الحقيقة والمجاز على السواء. كأنه يعنى ما يصنع وهو لا يعنيه، وإنما يجيء منه على البديهة كما تجيء الأشياء من معادنها: كان مثلا يخرج إلى مبارزيه حاسر الرأسْ ومبارزوه مقنعون بالحديد. أفعجيب منه أن يخرج إليهم حاسر النفس وهم مقنعون بالحيلة والرياء؟ وكان يغفل الخضاب أحيانًا ويرسل الشيب ناصعًا وهو لا يحرم خضابه فى غير ذلك من الأحيان. أفعجيب منه، مع هذا، أن يقل اكتراثه لكل خضاب ساتراً ما ستر، أو كاشفاً ما كشف، من رأى وخليقة؟

بل كانت قلة التكلف هذه توافق منه خليقة أخرى كالشجاعة فى قوتها ورسوخها.. أو هى قريبة للشجاعة فى نفس الفارس النبيل وقلما تفارقها ونعنى بها خليقة الصدق الصراح الذى يجترئ به الرجل على الضر والبلاء كما يجترئ به على المنفعة والنعماء. فما استطاع أحد قط أن يحصى عليه كلمة خالف فيها الحق الصراح فى سلمه وحربه، وبين صحبه أو بين أعدائه. ولعله كان أحوج إلى المصانعة بين النصراء مما كان بين الأعداء لأنهم أرهقوه باللجاجة وأعنتوه بالخلاف، فما عدا معهم قول الصدق فى شدة ولا رخاء، حتى قال فيه أقرب الناس إليه: إنه رجل يعرف من الحرب شجاعتها ولكنه لا يعرف خدعتها، وكان أبداً عند قوله: «علامة الإيمان أن تؤثر الصدق حيث يضرك، على الكذب حيث ينفعك، وألا يكون فى حديثك فضل على علمك، وأن تتقى الله فى حديث غيرك».

* * *

وصدق فى تقواه وإيمانه كما صدق فى عمل يمينه ومقالة لسانه، فلم يعرف أحد من الخلفاء أزهد منه فى لذة دنيا أو سيب دولة، وكان وهو أمير للمؤمنين يأكل الشعير وتطحنه امرأته بيديها، وكان يختم على الجراب الذى فيه دقيق الشعير فيقول: «لا أحب أن يدخل بطنى ما لا أعلم».. قال عمر بن عبد العزيز وهو من أسرة أمية التى تبغض عليًّا وتخلق له السيئات وتخفى ما توافر له من الحسنات: «أزهد الناس فى الدنيا على بن أبى طالب». وقال سفيان: «إن عليًّا لم يبن آجرة على آجرة ولا لبنة على لبنة ولا قصبة على قصبة» وقد أبى أن ينزل القصر الأبيض بالكوفة إيثارًا للخصاص التى يسكنها الفقراء وربما باع سيفه ليشترى بثمنه الكساء والطعام، وروى النضر بن منصور عن عقبة بن علقمة قال: «دخلت على علىّ عليه السلام فإذا بين يديه لبن حامض آذتنى حموضته

وكسر يابسة، فقلت: يا أمير المؤمنين، أتأكل مثل هذا؟ فقال لى: يا أبا الجنوب، كان رسول الله يأكل أيبس من هذا ويلبس أخشن من هذا – وأشار إلى ثيابه – فإن لم آخذ بما أخذ به خفت ألا ألحق به».

وعلى هذا الزهد الشديد كان على رضى الله عنه أبعد الناس من كزازة طبع وضيق حظيرة وجفاء عشرة، بل كانت فيه سماحة يتبسط فيها حتى يقال دعابة، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه أن قال له: «لله أبوك لولا دعابة فيك» وأنه قال لمن سألوه فى الاستخلاف: «ما أظن إلا أن يلى أحد هذين الرجلين: علىّ أو عثمان. فإن ولى عثمان فرجل فيه لين، وإن ولى علىّ ففيه دعابة، وأحر به أن يحملهم على الطريق».

وأغرق ابن العاص فى وصف الدعابة فسماها «دعابة شديدة» وطفق يرددها بين أهل الشام ليقدح بها فى صلاح الإمام للخلافة، وإنما نقول إن ابن العاص أغرق فى هذا الوصف، وإن الدعابة المعيبة لم تكن قط من صفاته، لأن تاريخ على وأقواله ونوادره مع صحبه وأعدائه محفوظة لدينا لا نرى فيها دليلا على خلق الدعابة فضلا عن الدليل على الإفراط فيه.. فإن كان لهذا الوصف أثر أجاز لعمر بن الخطاب أن يذكره فربما كان مرجع ذلك أن عليًّا خلا من الشغل الشاغل سنين عدة، فأعفاه الشغل الشاغل من صرامته وأسلمه حيناً إلى سماحته وأحاديث صحبه ومريديه فحسبت هذه الدعة من الدعابة البريئة ثم بالغ فيها المبالغون، ولم يثبتوها بقصة واحدة أو شاردة واحدة تجيز لهم ما تقولوه.

* * *

وقد كانت للإمام صفات ومزايا فكرية تناصى المشهور المتفق عليه من صفاته النفسية ومزاياه الخلقية. فاتفق خصومه وأنصاره على بلاغته، واتفقوا على علمه وفطنته، وتفرقوا فيما عدا ذلك من رأيه فى علاج الأمور ودهائه فى سياسة الرجال.

والحق الذى لا مراء فيه أنه كان على نصيب من الفطنة النافذة لا ينكره منصف، وأنه أشار على عمر وعثمان أحسن المشورة فى مشكلات الحكم والقضاء، وأنه كان أشبه الخلفاء بالباحثين والمنقبين أصحاب الحكمة ومذاهب التفكير وعنه أخذ الحكماء الذين شرعوا علم الكلام قبل أن يتطرق إليه علم فارس أو علم يونان.. وكان يفهم أخلاق

الناس فهم العالم المراقب لخفايا الصدور ويشرحها فى عظاته وخطبه شرح الأديب اللبيب..

إلى هنا متفق عليه لا يكثر فيه الخلاف، ثم يفترق الناس فى رأيه رأيين وإن لم يكونوا من الشانئين المتحزبين، فيقول أناس إنه كان على قسط وافر من الفهم والمشورة، ولكنه عند العمل لا يرى ما تقضى به الساعة الحازبة ولا ينتفع بما يراه. ويقول أناس بل هو الاضطرار والتحرج يقيدانه ولا يقيدان أعداءه وإنهم لدونه فى الفطنة والسداد. وهو رضى الله عنه قداعتذر لنفسه بمشابه من هذا العذر حين قال: «والله ما معاوية بأدهى منى، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس».

أما مقطع الرأى بين الرأيين فنرجو أن نفصله فى مواضعه من الفصول التالية مشفوعًا بمناسباته. ولكننا نستطيع أن نجزم هنا بحقيقتين تجملان مانبسطه فى مواضعه من الكتاب، ولا نحسبهما تتسعان لجدال طويل، وهما أن أحداً لم يثبت قط أن العمل بالآراء الأخرى كان أجدى وأنجع فى فض المشكلات من العمل برأى الإمام وأن أحدًا لم يثبت قط أن خصوم الإمام كانوا يصرفون الأمور خيراً من تصريفه، لو وضعوا فى موضعه واصطلحت عليهم المتاعب التى اصطلحت عليه. وكلتا الحقيقتين حرية أن تضبط لسان الميزان قبل أن يميل فيغلو به الميل هنا أو هناك.

* * *

هذه صفات تنتظم فى نسق موصول: رجل شجاع لأنه قوى، وصادق لأنه شجاع، وزاهد مستقيم لأنه صادق، ومثار للخلاف لأن الصدق لا يدور بصاحبه مع الرضا والسخط والقبول والنفور، وأصدق الشهادات لهذا الرجل الصادق أن الناس قد أثبتوا له فى حياته أجمل صفاته المثلى، فلم يختلفوا على شىء منها إلا الذى اصطدم بالمطامع وتفرقت حوله الشبهات، وما من رجل تتعسف المطامع أسباب الطعن فيه ثم تنفذ منه إلى صميم.

مفتاح شخصيته

«آداب الفروسية» هى مفتاح هذه الشخصية النبيلة الذى يفض منها كل مغلق ويفسر منها كل ما احتاج إلى تفسير.

وآداب الفروسية هى تلك الآداب التى نلخصها فى كلمة واحدة هى: النخوة..

وقد كانت النخوة طبعًا فى علىّ فطر عليه، وأدبًا من آداب الأسرة الهاشمية نشأ فيه، وعادة من عادات «الفروسية» العملية التى يتعودها كل فارس شجاع متغلب على الأقران، وإن لم يطبع عليها وينشأ فى حجرها. لأن للغلبة فى الشجاع أنفة تأبى عليه أن يسف إلى مايخجله ويشينه، ولا تزال به حتى تعلمه النخوة تعلمًا، وتمنعه أن يعمل فى السر ما يزرى به فى العلانية.

وهكذا كان علىّ رضى الله عنه فى جميع أحواله وأعماله: بلغت به نخوة الفروسية غايتها المثلى، ولا سيما فى معاملة الضعفاء من الرجال والنساء. فلم ينس الشرف قط ليغتنم الفرصة، ولم يساوره الريب قط فى الشرف، والحق أنهما قائمان دائمان كأنهما مودعان فى طبائع الأشياء. فإذا صنع ما وجب عليه فلينس من شاءوا ما وجب عليهم، وإن أفادوا كثيرًا وباء هو بالخسار.

أصاب المقتل من عدوه مرات فلم يهتبل الفرصة السانحة بين يديه. لأنه أراد أن يغلب عدوه غلبة الرجل الشجاع الشريف، ولم يرد أن يغلبه أو يقتص منه كيفما كان سبيل الغلب والقصاص..

قال بعض من شهدوا معركة صفين: لما قدمنا على معاوية وأهل الشام بصفين وجدناهم قد نزلوا منزلا اختاروه مستوياً بساطاً واسعاً وأخذوا الشريعة – أى مورد الماء – فهى فى أيديهم.. وقد أجمعوا على أن يمنعونا الماء. ففزعنا إلى أمير المؤمنين فخبرناه بذلك فدعا صعصعة بن صوحان فقال له: «أئت معاوية وقل له إنا سرنا مسيرنا هذا إليكم ونحن

نكره قتالكم قبل الإعذار إليكم، وإنك قدمت إلينا خيلك ورجلك فقاتلتنا قبل أن نقاتلك وبدأتنا، ونحن من رأينا الكف عنك حتى ندعوك ونحتج عليك، وهذه أخرى قد فعلتموها إذ حلتم بين الناس وبين الماء. والناس غير منتهين أو يشربوا فابعث إلى أصحابك فليخلوا بين الناس وبين الماء ويكفوا حتى ننظر فيما بيننا وبينكم وفيما قدمنا له وقدمتم له..»

ثم قال راوى الخبر ما معناه أن معاوية سأل أصحابه فأشاروا عليه أن يحول بين علىّ وبين المورد غير حافل بدعوته إلى السلم ولا بدعوته إلى المفاوضة فى أمر الخلاف، فأنفذ معاوية مددًا إلى حراس المورد يحمونه ويصدون من يقترب منه، ثم كان بين العسكرين تراشق بالنبل فطعن بالرماح فضرب بالسيوف حتى اقتحم أصحاب علىّ طريق الماء وملكوه.

وهنا الفرصة الكبرى لو شاء علىّ أن يهتبلها، وأن يغلب أعداءه بالظمأ كما أرادوا أن يغلبوه به قبل ساعة.. وقد جاء أصحابه يقولون: والله لا نسقيهموه. فكأنما كان هو سفير معاوية وجنده إليها يتشفع لهم ويستلين قلوبهم من أجلهم. وأصاح بهم: «خذوا من الماء حاجتكم وارجعوا إلى عسكركم وخلوا عنهم، فإن الله عز وجل قد نصركم عليهم بظلمهم وبغيهم».

ولاحت له فرصة قبل هذه الفرصة فى حرب أهل البصرة، فأبى أن يهتبلها وأغضب أعوانه إنصافًا لأعدائه، لأنه نهاهم أن يسلبوا المال ويستبيحوا السبى وهى فى رأيهم حلال. قالوا: أتراه يحل لنا دماءهم ويحرم علينا أموالهم؟.. فقال: «إنما القوم أمثالكم، من صفح عنا فهو منا ونحن منه، ومن لج حتى يصاب فقتاله منى على الصدر والنحر» وسن لهم سنة الفروسية أو سنة النخوة حين أوصاهم ألا يقتلوا مدبرًا ولا يجهزوا على جريح ولا يكشفوا سترًا ولا يمدوا يدًا إلى مال.

ومن الفرص التى أبت عليه النخوة أن يهتبلها فرصة عمرو بن العاص وهو ملقى على الأرض مكشوف السوأة لا يبالى أن يدفع عنه الموت بما حضره من وقاء. فصدف بوجهه عنه آنفاً أن يصرع رجلا يخاف الموت هذه المخافة التى لا يرضاها من منازله فى مجال صراع. ولو غير علىّ أتيح له أن يقضى على عمرو لعلم أنه قاض على جرثومة عداء ودهاء فلم يبال أن يصيبه حيث ظفر به، ولا جناح عليه.

لقد كان رضاه من الآداب فى الحرب والسلم رضا الفروسية العزيزة من جميع آدابها ومأثوراتها.

فكان يعرف العدو عدوًّا حيثما رفع السيف لقتاله.. ولكنه لا يعادى امرأة ولا رجلا موليًّا ولا جريحًا عاجزاً عن نضال ولا ميتاً ذهبت حياته ولو ذهبت فى سبيل حربه.. بل لعله يذكر له ماضيه يومئذ فيقف على قبره ليبكيه ويرثيه ويصلى عليه.

وهـذه الفروسيـة هى التى بغضت إليـه أن ينـال أعـداءه بـالسبـاب وليس من دأب الفارس أن ينال أعداءه بغير الحسام.

فلما سمع قومًا من أصحابـه يسبون أهـل الشام أيـام حروبهم بصفـين قال لهم: «إنى أكره أن تكونوا سبابين، ولكنكم لو وصفتم أعمالهم وذكرتم حالهم كان أصـوب فى القول، وأبلغ فى العذر، وقلتم مكان سبكم إياهم: اللهم أحقن دماءنا ودماءهم، وأصلح ذات بيننا وبينهم، واهدهم من ضلالهم حتى يعرف الحق من جهله، ويرعوى عن الغى والعدوان من لهج به».

وربما شذ عن سنته هذه فى بعض الأحايين فإذا به لا يشذ عنها إلا كما يشذ الفرسان حين تغلبهم بوادر اللسان.. فندر بين رجال السيف من يسمع الكلمة المغضبة فلا ينطق لسانه بكلمة عوراء يجارى بها غضبه الذى طبع على إبدائه ولم يطبع على كتمانه.

ومن قبيل هذا كلمات قالها علىّ فى ابنِ العاص وفى معاوية وفى الأشعث بن قيس وغير هؤلاء. ولكنه لم يجعلها ديدناً له كما سبوه على المنابر وأشاعوا مذمته بين أهل الأمصار.

شغب عليه الأشعث بن قيس ومرد عليه الجند وأفشى بين أنصاره الفتنة وقاطعه مرة وهو يخطب على منبر الكوفة فأغضبه وهاج غيظه فبدره بقوله: «عليك لعنة الله ولعنة اللاعنين: حائك ابن حائك، منافق ابن كافر، والله لقد أسرك الكفر مرة والإسلام أخرى، فما فداك من واحدة منهما مالك ولا حسبك، وإن امرأ ولى على قومه السيف وساق إليهم الحتف لحرى أن يمقته الأقرب ولا يأمنه الأبعد».

* * *

وطفق ابن العاص ينعته بين أهل الشام بالهزل والدعابة ويأمر بسبه على المنابر حتى وجب رده وادحاض زعمه. فقال رضى الله عنه فى بعض خطبه: عجباً لابن النابغة!.. يزعم لأهل الشام أنى فى دعابة وأنى امرؤ تلعابة: أعانس وأمارس[١].. لقد قال باطلا ونطق آثمًا. أما – وشر القول الكذب – إنه ليقول فيكذب ويعد فيخلف، ويسأل فيبخل، ويخون العهد ويقطع الآل[٢]، فإذا كان عند الحرب فأى زاجر وآمر هو مالم تأخذ السيوف مآخذها. فإذا كان ذلك كان أكبر مكيدته أن يمنح القوم سبته. أما والله إنى ليمنعنى من اللعب ذكر الموت. وإنه ليمنعه من قول الحق نسيان الآخرة إنه لم يبايع معاوية حتى شرط أن يؤتيه آتية ويرضخ له على ترك الدين رضيخة[٣].

وكذلك كان يجيبه معاوية وغيره بنظائر هذه الكلمات حين يجترئون عليه بما يغض من حقه ويقدح فى دعوته. فلا يشذ عن ديدن الفرسان فى روية فكره ولا فى بوادر لسانه، ولكن الفلتات التى من هذا القبيل شىء واتخاذ السباب صناعة دائمة وسلاحًا مشهورًا وسبيلا إلى القول الباطل شىء آخر..

ولقد كانت للإمام رضى الله عنه شواغل أخرى غير الفروسية تجرى فى مجراها حيناً وتبدو غريبة عنها حينًا آخر فى عرف بعض الناقدين، ومنها التفقيه والنزوع إلى «التصوف» واستنباط حقائق الأشياء.

* * *

فهذه فى عرف الناقدين ليست من مزاج الفروسية على ظاهر ماقدروه.. ولكن ما التصوف أو التجرد للحقيقة ؟.. أليس هو فى معدنه جهادًا فى الحق أو جهادًا فى الله ؟.. أليست طبيعة الجهاد وطبيعة الفروسية من معدن واحد ؟.. ألم نعهد فى كل ملة وكل زمان فئات من الناس يجاهدون لأنهم متدينون متنطسون، أو يتدينون ويتنطسون لأنهم مجاهدون ؟..

فالإمام على رضى الله عنه فارس لايخرجه من الفروسية فقه الدين، بل هل أحرى

(١) المعانسة: مضاربة الناس مزاحا ومغازلة النساء.

(٢) الآل: القرابة والرحم.

(٣) الآتية: العطية. ومثلها الرضيخة مع قلة.

أن يسلكه فيها. ولا يخرجه من الفروسية بعد المقال فى خصومه، بل هى بوادر الفرسان بعينها، ولا تزال آداب الفروسية بشتى عوارضها هى المفتاح الذى يدار فى كل باب من أبواب هذه النفس فإذا هو منكشف للناظر عما يليه.

إسلامه

ولد على فى داخل الكعبة، وكرم الله وجهه عن السجود لأصنامها، فكأنما كان ميلاده ثمة إيذاناً بعهد جديد للكعبة وللعبادة فيها.

وكاد على أن يولد مسلمًا..

بل لقد ولد مسلماً على التحقيق إذا نحن نظرنا إلى ميلاد العقيدة والروح، لأنه فتح عينيه على الإسلام ولم يعرف قط عبادة الأصنام.

فهو قد تربى فى البيت الذى خرجت منه الدعوة الإسلامية وعرف العبادة من صلاة النبى وزوجه الطاهرة قبل أن يعرفها من صلاة أبيه وأمه، وجمعت بينه وبين صاحب الدعوة قرابة مضاعفة ومحبة أوثق من محبة القرابة. فكان ابن عم محمد عليه السلام وربيبه الذى نشأ فى بيته ونعم بعطفه وبره. وقد رأينا الغرباء يحبون محمداً ويؤثرونه على أبائهم وذويهم. فلا جرم يحبه هذا الحب من يجمعه به جد، ويجمعه به بيت، ويجمعه به جميل معروف: جميل أبى طالب يؤديه محمد وجميل محمد يحسبه ابن أبى طالب ويأوى إليه.

واختلفوا فى سنه حين إسلامه من السابعة إلى السادسة عشرة، ولعله أسلم فى نحو العاشرة لأنه كان يناهزها عند إعلان الدعوة المحمدية، وكان النبى عليه السلام يتعبد فى بيته عبادة الإسلام قبل الدعو بفترة غير قصيرة، وليس ما يمنع عليًّا أن يألف تلك العبادة فى طفولته الباكرة

فإذا هو نفر منها وأعرض عنها لغير سبب فى تلك الطفولة الباكرة فالعجيب أنه يعود إلى ألفتها والرضا بها بعد أن بلغ السن التى يعرف فيها معنى الغضب لعبادة الآباء والأجداد.

ولولا ألفة على لابن عمه وكافله لما قربته القرابة وحدها من الدين الذى دعى إليه، فقد أصر كثير من أقرباء النبى على الشرك زمناً طويلاً منهم عقيل أخوه وأحب إخوته إلى أبيه. فحارب المسلمين فى بدر ولم يسلم وقد وقع فى أسر النبى وصحبه.. بل افتداه عمه العباس وخرج من الأسر، وهو على دينه، ثم أسلم بعد صلح الحديبية مع طائفة من الغرباء والأقربين

على أن الألفة بين ابنى العم الكريمين قد أوشكت أن تكون عائقاً لإسلام على فى طفولته الباكرة.. لأن النبى عليه السلام أبى أن ينتزع الطفل من دين أبيه وأبوه لا يعلم، وأشفق أن يكون بره بعمه وبابن عمه سبيلاً إلى التفرقة بين الأب وابنه وهو لا يدرك ما يفعل، ولم يشأ أن يعود الطفل الصغير أن يخفى سرًّا عن أبيه كأنه يخدعه بإخفائه ولو فى سبيل الهداية والخير. فظل هذا الحرج الكريم عائقاً عسيراً أعسر ما فيه أنه عائق اختيار يهون معه الاضطرار، أو عائق حيرة تقل فيها حيلة الكريم. حتى شاع أمر الدعوة المحمدية وعلم بها أبو طالب ونصر ابن أخيه وأمر عليًّا بمتابعة ابن عمه ونصره. فأقبل الغلام البر بأبيه وبكافله إقبالاً لا تلجلج فيه على الدين الجديد.

وملأ الدين الجديد قلباً لم ينازعه فيه منازع من عقيدة سابقة ولم يخالطه شوب يكدر صفاءه ويرجع به إلى عقابيله.. فبحق ما يقال إن عليًّا كان المسلم الخالص على سجيته المثلى، وإن الدين الجديد لم يعرف قط أصدق إسلاماً منه ولا أعمق نفاذاً فيه.

* * *

كان المسلم حق المسلم فى عبادته، وفى علمه وعمله، وفى قلبه وعقله، حتى ليصح أن يقال إنه طبع على الإسلام فلم تزده المعرفة إلا ما يزيده التعليم على الطباع.

كان عابداً يشتهى العبادة كأنها رياضة تريحه وليست أمراً مكتوباً عليه.. وكان يرى فى كهولته وكأنما جبهته ثفنة بعير من إدمان السجود.

وكان على محجة فى الإسلام لا يحيد عنها لبغية ولا لخشية، فكلما زينوا له الهوادة أبى «أن يداهن فى دينه ويعطى الدنية فى أمره» وآثر الخير كما يراه على الخير كما يراه الناس.

وكان دينه له ولعدوه، بل له ولعدو دينه فما كان الحق عنده لمن يرضاه دون من يقلاه، ولكنه كان الحق لكل من استحقه وإن بهته وآذاه

وجد درعه عند رجل نصرانى فأقبل به إلى شريح - قاضيه - يخاصمه مخاصمة رجل من عامة رعاياه، وقال: إنها درعى ولم أبع ولم أهب، فسأل شريح النصرانى: ما تقول فيما يقول أمير المؤمنين؟. قال النصرانى: ما الدرع إلا درعى وما أمير المؤمنين عندى بكاذب!.. فالتفت شريح إلى على يسأله: يا أمير المؤمنين هل من بينة؟:. فضحك علىّ وقال: أصاب شريح. ما لى بينة!.. فقضى بالدرع للنصرانى فأخذها ومشى و«أمير المؤمنين» ينظر إليه... إلا أن النصرانى لم يخط خطوات حتى عاد يقول: أما أنا فأشهد أن هذه أحكام أنبياء.. أمير المؤمنين يديننى إلى قاضيه يقضى عليه!.. أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، الدرع والله درعك يا أمير المؤمنين.. اتبعت الجيش وأنت منطلق إلى صفين فخرجت من بعيرك الأورق. فقال: أما إذا أسلمت فهى لك. وشهد الناس هذا الرجل بعد ذلك وهو من أصدق الجند بلاءً فى قتال الخوارج يوم النهروان.

* * *

وأحسن الإنسلام علماً وفقهاً كما أحسنه عبادة وعملا. فكانت فتاواه مرجعاً للخلفاء والصحابة فى عهود أبى بكر وعمر وعثمان؛ وندرت مسألة من مسائل الشريعة لم يكن له رأى فيها يؤخذ به أو تنهض له الحجة بين أفضل الآراء.

إلا أن المزية التى امتاز بها على بين فقهاء الإسلام فى عصره أنه جعل الدين موضوعاً من موضوعات التفكير والتأمل ولم يقصره على العبادة وإجراء الأحكام، فإذا عرف فى عصره أناس فقهوا فى الدين ليصححوا عباداته ويستنبطوا منه أقضيته وأحكامه، فقد امتاز علىّ بالفقه الذى يراد به الفكر المحض والدراسة الخالصة؛ وأمعن فيه ليغوص فى أعماقه على الحقيقة العلمية، أو الحقيقة الفلسفية كما نسميها فى هذه الأيام.

ويصح أن يقال إن عليًّا، رضى الله عنه، أبو علم الكلام فى الإسلام، لأن المتكلمين أقاموا مذاهبهم على أساسه كما قال ابن أبى الحديد فى شرح نهج البلاغة. فواصل بن عطاء كبيرهم تلميذ أبى هاشم عبد الله بن محمد بن الحنفية، وأبو هاشم تلميذ أبيه، وأبوه تلميذ علىّ رضى الله عنه. وأما الأشعرية فإنهم ينتمون إلى أبى الحسن على بن أبى الحسن

على بن أبى بشر الأشعرى وهو تلميذ أبى على الجبائى، وأبو على الجبائى أحد مشايخ المعتزلة الذين علمهم واصل بن عطاء.. أما الفقه فإمامه الأكبر أبو حنيفة قرأ على جعفر ابن محمد وجعفر بن محمد قرأ على أبيه وهكذا ينتهى الأمر إلى علىّ رضى الله عنه. وقد قرأ مالك بن أنس على ربيعة الرأى، وقرأ ربيعة على عكرمة، وقرأ عكرمة على عبد الله ابن عباس، وقرأ عبد الله بن عباس على علىّ رضى الله عنه. وقيل لابن عباس: أين علمك من علم ابن عمك؟.. فقال: كنسبة قطرة من المطر إلى البحر المحيط.

* * *

قال ابن أبى الحديد: «ومن العلوم علم الطريقة والحقيقة وأحوال التصوف. وقد عرفت أن أرباب هذا الفن فى جميع بلاد الإسلام ينتهون إليه وعنده يقفون. وقد صرح بذلك الشبلى والجنيد وسرى وأبو يزيد البسطامى وأبو محفوظ معروف الكرخى وغيرهم. ويكفيك دلالة على ذلك: الخرقة التى هى شعارهم إلى اليوم، وكونهم يسندونها بإسناد متصل إليه عليه السلام».

* * *

وقد جمع «نهج البلاغة» نماذج شتى من الكلمات التى تنسب إليه ويصح أن تحسب أصلاً «للعلم الإلهى» أو لأسرار التصوف فى صدر الإسلام قبل اشتغال المسلمين بفلسفة اليونان وحكمة الأمم الأجنبية، وبما وقع الشك فى نسبة بعض الكلمات إلى على رضى الله عنه لأنها تجمعت بعد عصره بزمن طويل وامتزج بها ما لابد أن يمازجها من علوم القرن الثالث وما بعده.. ولكن شيئاً على هذا النهج لابد أن يكون قد صدر منه حقاً حتى جاز أن يتصل النسب بينه وبين أئمة التوحيد وعلم الكلام على النحو الذى تواترت به الأقوال، وأجمله ابن أبى الحديد فيما تقدم.

* * *

ولنا أن نقول إنه كان رضى الله عنه يتتلمذ للقرآن الكريم ويستوحيه نصًا فى عرفان إسلامه وتقرير إيمانه، فكانت نظرته إلى الخلق والخالق نظرة قرآنية يبتكر ما شاء ابتكار التلميذ فى الحكاية عن الأستاذ، فكلامه عن الطاووس والخفاش والزرع والسحاب إنما هو الدرس القرآنى الذى وعاه من أمر الكتاب بالنظر فى المخلوقات ووصف الكتاب

لطوائف منها كالنمل والنحل والطير والأجنة فى الأرحام، فهو تلميذ ربه جل وعلا فى قوله عن الخفاش: «من لطائف صنعته وعجائب حكمته ما أرانا من غوامض الحكمة فى هذه الخفافيش التى يقبضها الضياء الباسط لكل شيء ويبسطها الظلام القابض لكل حى، وكيف غشيت أعينها عن أن تستمد من الشمس المضيئة نوراً تهتدى به فى مذاهبها.. فسبحان من جعل الليل لها نهاراً ومعاشاً. والنهار لها سكناً وقرارًا، وجعل لها أجنحة من لحمها تعرج بها عند الحاجة إلى الطيران كأنها شظايا الآذان، غير ذوات ريش ولا قصب.. تطير وولدها لاصق بها لاجئ إليها، يقع إذا وقعت، ويرتفع إذا ارتفعت، لا يفارقها حتى تشتد أركانه، ويحمله للنهوض جناحه، ويعرف مذاهب عيشه ومصالح نفسه، فسبحان البارئ لكل شيء على غير مثال خلاف غيره».

ومثله قوله عن الطاووس: «ومن أعجبها خلقاً الطاووس الذى أقامه فى أحكم تعديل ونضد ألوانه فى أحسن تنضيد، بجناح أشرج قصبه وذنب أطال سحبه، إذا درج إلى الأنثى نشره من طيه، وسما به مظلًّا على رأسه.. وقد ينحسر من ريشه ويعرى من لباسه فيسقط تترى وينبت تباعاً، فينحت من قصبه نحتات أوراق الأغصان، ثم يتلاصق ثانياً حتى يعود كهيئته قبل سقوطه لا يخالف سالف ألوانه ولا يقع لون فى غير مكانه».

ونحن لا نستغرب ابتداءً هذا النمط من النظر الفلسفى على نحو من الأنحاء فى عصر الإمام علىّ رضى الله عنه، لأنه كان عهداً نبتت فيه أصول الفرق الإسلامية جميعاً من الخوارج والشيعة والقائلين بالرجعة وتناسخ الأرواح والمجتهدين فى قراءة القرآن وتفسيره على شتى المذاهب.. فأقرب شيء إلى المعقول أن يكون إمام العصر كله قدوة فى الاجتهاد والنظر وعنواناً للنوازع التى تفرقت بين أهل زمانه وتعبيراً صادقاً لتفكيره ووعيه، وصاحب أقوال من قبيل هذه الأقوال التى قدمناها، وإن لم تكن هى إياها بالنص والتفصيل.

ويستقيم مع هذا التقدير أن يكون الإمام على سجيته مؤثراً للاجتهاد ما استطاعه، معرضاً عن التقليد ما استغنى عنه، فوافق الخلفاء من قبله فى أمور وخالفهم فى أمور، وأبى أن يأتم بعملهم فيما يراه وما لا يراه وأوصى ابنه الحسن وقد بلغ الستين فقال: «.. اعلم يا بنى أن أحب ما أنت آخذ به إلىّ من وصيتى تقوى الله والاقتصار على ما فرضه الله عليك والأخذ بما مضى عليه الأولون من آبائك والصالحون من أهل بيتك،

فإنهم لم يدعوا إن نظروا إلى أنفسهم كما أنت ناظر، وفكروا كما أنت مفكر.. فإن أبت نفسك أن تقبل ذلك دون أن تعلم كما علموا فليكن طلبك ذلك بتفهم وتعلم. لا بتورط الشبهات، وعلق الخصومات وابتدئ قبل نظرك فى ذلك بالاستعانة بإلهك، والرغبة إليه فى توفيقك، وترك كل شائبة أولجتك فى شبهة أو أسلمتك إلى ضلالة فإن أيقنت أن قد صفا قلبك، وتم رأيك فاجتمع، وكان همك فى ذلك همًّا واحداً، فانظر فيما فسرت لك..».

وربما كانت هذه الوصية وحدها كافية للتعريف بإسلام علىّ كما ارتضاه لنفسه وارتضاه للقادرين عليه من أتباعه.. فإنما هو إسلام المسلم «المطبوع» الذى يبتكر دينه لأنه يعتمد فيه على وحى بصيرته وارتجال مزاجه، وإنما هو السلام الحكيم المجتهد الذى يرجع فى الحكمة والاجتهاد إلى رياضة النفس على سنة النساك وتمحيص الفكر على سنة العلماء. وإنما هو إسلام الرجل الذى أتيح له أن يتتلمذ لربه ويتربى فى حجر نبيه ويصبح إماماً للمقتدين من بعده.

عصر الإمام

كانت الظاهرة الكبرى فى عصر «على» ظاهرة اجتماعية خاصة به دون عصور الخلفاء من قبله، ولم تكن فى حقيقتها ظاهرة سياسية أو حربية عسكرية على شدة القتال فيها وغزارة الدماء التى أريقت فى حروبها.

فعصر أبى بكر كان هو العصر الذى نشأت فيه الدولة الإسلامية، وعصر عمر كان هو العصر الذى تم فيه إنشاؤها.

وعصر عثمان كان هو العصر الذى تكون فيه المجتمع الإسلامى بعد نشأة الدولة الجديدة. فبرز فيه نظام جديد على أساس الثروة المجلوبة من الأقطار المفتوحة، وعلى أساس الولايات التى تولاها بعض الطبقات المرشحة للرئاسة من العلية وأشباهها.

أما عصر علىّ فكان عصراً عجيبًا بين ما تقدمه وجاء فى أعقابه، أو هو لم يكن عجيباً لأنه جرى على النحو الذى ينبغى أن يجرى عليه، فلم يثبت كل الثبوت ولم يضطرب كل الاضطراب لأنه كان بناءً جديدًا فى سبيل التمام، ولم يكن بناء متداعيًا فكله هدم واندثار، ولا بناءً قائماً مفروغًا منه فكله رسوخ واستقرار.

إلا أن العجيب فيه حقًّا أنه انقسم بين ثبوته واضطرابه قسمين اثنين متقابلين: فى أحدهما كل عوامل الرضا عن النظام الاجتماعى والرغبة فى بقائه وتدعيمه، وفى الآخر كل عوامل التذمر من النظام الاجتماعى والتحفز لتقويضه وتحويله.

أحدهما، وهو قسم الرضا عن النظام الاجتماعى، كان قسم معاوية ابن أبى سفيان فى الشام وما جاورها.

والآخر، وهو قسم التذمر من النظام الاجتماعى. كان قسم على بن أبى طالب فى الجزيرة العربية بجملة أنحائها.

كانت الشام بمعنى من المعانى أرضاً أموية فى عهد الجاهلية فلجأ إليها أمية جد الأمويين حين غلبه هاشم على الزعامة، وقصد إليها أبناؤه متجرين أو مهاجرين إلى ما بعد قيام الدعوة الإسلامية.

ثم قامت الدعوة الإسلامية فكان من نصيب يزيد بن أبى سفيان أن يتولى الإمارة والقيادة على الشام من قبل الخليفة أبى بكر الصديق، وخلفه أخوه معاوية من قبل الخليفة عمر، فلم يزل مقيماً على إمارتها بضع عشرة سنة إلى مبايعة علىّ بالخلافة بعد مقتل عثمان. فاتسع له من فسحة الوقت وفسحة الرخاء مجال ممهد لتأسيس السلطان الأموى الذى لا ينازعه منازع من حوله. ولم يزل منذ تولاها عاملا على البقاء فيها واصطناع الأعوان المؤيدين له فى حكمها. فلم يتوان فى استرضاء رجل ينفعه رضاه، ولم يقصر رعايته على الشرفاء دون السواد من الأتباع والأجناد. بل كان يرضى كل من وسعه إرضاؤه، وقد وسعت ثروة الشام كل صاحب حاجة مقيم عنده أوساع إليه.

واشتهرت عنه هذه الخصلة حتى قصده أقرب الناس إلى خصومه وأولاهم باجتنابه والنقمة عليه. ومنهم عقيل أخو علىّ بن أبى طالب، وعبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله بن زمعة، وعمرو بن العاص، وأناس من هذه الطبقة بين الشرفاء وذوى الأخطار.

أراد عقيل من أخيه مالاً يجريه عليه من بيت المال فأباه عليه لأنه ليس له بحق، فتركه وأقبل على معاوية وهو يقول «إن أخى خير لى فى دينى، ومعاوية خير لى فى دنياى» وقس على ذلك ما يصنعه الغرباء عن علىّ والمقربون من معاوية بالنسب والرجاء.

قد همه إرضاء السواد والعامة، كما همه إرضاء الشرفاء وذوى الأخطار.. وبلغ من إحكامه للسياسة وإتقانه لها واجتذابه قلوب خواصه وعوامه أن رجلا من أهل الكوفة دخل على بعير له إلى دمشق فى حال منصرفهم عن صفين، فتعلق به رجل من دمشق فقال: هذه ناقتى أخذت منى بصفين فارتفع أمرهما إلى معاوية وأقام الدمشقى خمسين رجلا بينة ويشهدون أنها ناقته.. فقضى معاوية على الكوفى وأمره بتسليم البعير إليه. فقال الكوفى: أصلحك الله إنه جمل وليس بناقة فقال معاوية: هذا حكم قد مضى. ودس إلى الكوفى بعد تفرقهم فأحضره وسأله عن ثمن بعيره فدفع إليه ضعفه وبره وأحسن إليه، وقال له: (أبلغ عليًّا أنى أقابلة بمائة ألف ما فيهم من يفرق بين الناقة والجمل!)

ولقد بلغ من أمرهم فى طاعتهم له أنه صلى بهم عند مسيرهم إلى صفين الجمعة فى يوم الأربعاء وأعاروه رءوسهم عند القتال وحملوه بها[1]

فإن كان فى هذه القصص بعض المبالغة فهى مبالغة الفكاهة الموكلة لتكبير الملامح ليراها من غفل عنها، وليست مبالغة الخلق والافتراء

وما هى إلّا سنوات على هذه الوتيرة حتى اجتمع له كل منتفع بالنظام الاجتماعى الجديد، راغب فى تدعيمه ووقايته من نذر الخطر والزوال

وعلى قدر هذا الدأب الشديد فى اجتلاب أسباب التمكين والتدعيم كان له دأب مثله فى اتقاء أسباب التمرد والإخلال بالنظام كما نسميه فى هذه الأيام.

فما سمعت قط صيحة فتنة إلا بادر إليها بما يسكنها ويردها إلى طلب الاستقرار والدوام. فمن أجدى معه المال أسكته بإغداق المال عليه، ومن كان من أهل الجلد والإخلاص فى العبادة والزهادة فهو محتال على إقصائه أو نفيه من الشام بحيلة يوافقه عليها شركاؤه فى المصلحة ولا تعييه.

حنق بعض الزهاد على هذا الترف الذى استفاض بين العلية والشرفاء فارتفعت عليهم صيحة أبى ذر الغفارى بالنكير، وطفق يطالب الأغنياء بالإنفاق فى سبيل الله، حتى ولع الفقراء بصيحته وشكا الأغنياء ما يلقونه من نذيره أو بشيره: (وبشر الذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها فى سبيل الله بمكاو من نار تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم).

فأشفق معاوية من مغبة هذه الصيحة وأرسل إلى أبى ذر ألف دينار يسكته بها إن كان ممن يسكتهم الغنى عن الأغنياء، فما طلع النهار حتى كانت الدنانير فى أيدى المعوزين الذين يلوذون بالداعية الأمين ويشكون إليه. ثم صلى معاوية الصبح وأرسل إلى الداعية رسوله الذى حمل إليه الدنانير يقول له: (أنقذ جسدى من عذاب معاوية فإنه أرسلنى إلى غيرك فأخطأت بك. فقال له: يا بنى، قل له: والله ما أصبح عندنا من دنانيرك دينار.. ولكن أخرنا ثلاثة أيام حتى نجمعها).. فعلم معاوية أن الرشوة هنا لاتغنى عن القسوة.

---

(١) مروج الذهب للمسعودى: الجزء الثانى.

وكتب إلى الخليفة أن أبا ذر أعضل به فلا طاقة له بالصبر عليه، فأتاه الإذن بنفى أبى ذر من الشام إلى المدينة، ثم ضاقت به المدينة أيضاً فنفى منها إلى قرية من أرباضها حيث لا يسمع له دعاء

* * *

وصنع بعبد الله بن سبأ - صاحب القول برجعة النبى إلى الدنيا ووصاية علىٍّ على الخلافة - مثل هذا الصنيع بعد أن داراه فـأعياه، فلما يئس منـه ومن ترغيبـه أو ترهيبـه ضيق عليه ثم أقصاه..

والتفت إلى من سماهم أهل الفتنة من طلاب الإصلاح والتبديل فكتب فى أمورهم إلى الخليفة يقول: (إنه قدم على أقوام ليست لهم عقول ولا أديان. أضجرهم العدل. لا يريدون الله بشىء ولا يتكلمون بحجة. إنما همهم الفتنة وأموال أهل الذمة، والله مبتليهم ومختبرهم ثم فاضحهم! وليسوا بالذين ينكون أحدًا إلا مع غيرهم..)

ثم أخرجهم من دمشق إلى غيرها مستريحًا منهم بالنفى والإقصاء، كأنما دمشق وحدها من بلاد المسلمين هى التى ينبغى لها أن تستريح.

وهكذا تعاقبت السنون وكل سنة تزيد معاوية وفرة من أسباب الرضا والاستقرار وقلة من أسباب القلق والطموح إلى التغيير، حتى تحيزت له الشام عند مبايعة علىّ وفيها أعظم ما يتأتى فى مثل ذلك العهد من دواعى السكينة واستدامة الحال، وأقل ما يتأتى فيه من شواجر الفتنة والعصيان..

أما علىّ فقد شاءت المصادفات أن تنعكس الآية فى حصته من الدولة الإسـلامية أيمـا انعكاس. فأوشكت أن تنعدم فيها دواعى الرضا والاستدامة، وأوشكت أن تتم فيها شواجر الفتنه وما نسميه اليوم بالإخلال بالنظام..

فكان التنافس عنده على أشده بين العاصمتين الحجازيتين وبين الكوفة، لا يرضى أهل المدينة بما يرضى أهل مكة، ولا يرضى أهل الكوفة بما يرضى به هؤلاء وهؤلاء. حتى ضاق به المقام فى الحجاز وأوى إلى الكوفة مأوى «المستجير من الرمضاء بالنار».

* * *

وكانت قبائل البادية تنفس على قريش غنائم الولاية ومناصب الدولة، وينظرون إليهم نظرتهم إلى القوى المستأثرة تجاه الدين والدنيا وحق الخلافة والسطوة. وهى حالة كان أحجى بالولاة أن يخفوها ويتلطفوا فى إصلاحها أو تبديلها ما استطاعوا لها من إصلاح وتبديل، ولكنهم على نقيض ذلك كانوا يباهون بها ويجهرون بحديثها حتى قال سعيد بن العاص والى الكوفة: «إنما السواد بستان لقريش!»

وظهر هذا السخط من أثرة قريش فى خطب المتكلمين بلسان أهل البادية حين نشب النزاع بين طلحة والزبير وأنصارهما وبين على وأنصاره، فقام فى الجمع رجل من عبد القيس يقول:

«يا معشر المهاجرين!.. أنتم أول من أجاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فكان لكم بذلك فضل..» إلى أن قال يشير إلى خلافة أبى بكر: «ولم تستأمرونا فى شىء من ذلك فجعل الله للمسلمين فى إمارته بركة، ثم مات واستخلف عليكم رجلا فلم تشاورونا فى ذلك. فرضينا وسلمنا. فلما توفى جعل أمركم إلى ستة نفر فاخترتم عثمان، وبايعتموه عن غير مشورة منا، ثم بايعتم عليًّا من غير مشورة منا. فما الذى نقمتم عليه فنقاتله؟»..

وهذا كلام رجل يدين بفضل المهاجرين ويقدمه فى صدر مقاله، فكيف بكلام الرجال ممن ينسون هذا الفضل أو تغلبهم المنافسة على الشهادة به فى معرض الخصومة؟.. ولعل النافثين بهذا الغيظ كانوا يثوبون إلى بعض الصبر والتجاوز أو أنهم وجدوا من يشكون إليه فيحسن الإصغاء والاعتراف لهم بالحق فى دعواهم، ولكنهم كانوا يشكون فيثور بهم المخالفون ويلجئونهم إلى الصمت راغمين. فلما قال ذلك الرجل مقالته هموا بقتله لساعته لولا أن حمته عشيرته وصحبه. ثم وثبوا عليه فى الغد فقتلوه وقتلوا معه قرابة سبعين.

* * *

وكان العبيد والموالى والأعراب المحرومون حانقين متبرمين لا يرضون عن حظهم من العيش بعد أن علمهم الإسلام حقوق المساواة وشرع لهم شريعة الإنصاف. ولقد يكون معظم المتآمرين على قتل عثمان من هؤلاء العبيد والموالى والأعراب المحرومين. فلما طولب علىّ بالاقتصاص منهم لمقتل عثمان قال:.. «كيف أصنع بقوم يملكوننا

ولا نملكهم؟.. ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم خلالكم يسومونكم ما شاءوا فهلا ترون موضعًا لقدرة على شيء مما تريدون؟»

وقالت السيدة عائشة، رضى الله عنها: «أيها الناس!.. إن الغوغاء من أهل الأمصار وأهل المياه، وعبيد أهل المدينة اجتمعوا على هذا الرجل المقتول ظلمًا بالأمس.. والله لأصبغ عثمان خير طباق الأرض أمثالهم..».

* * *

وكان مع علىّ جمهرة القراء والحفاظ وأصحاب النسك والفقه والشريعة، وهم خلق كثير يعدون بالألوف ويتفرقون فى الحواضر والبوادى، ولا يزالون كأنبياء بنى إسرائيل منذرين متوعدين ساخطين على ترف المترفين، منكرين لكل خلال ولو يسير فى إقامة أحكام الدين. لا يرضون عن الدنيا ولا عمن رضى بها من طلابها، لا يستمعون إلى أمر إلا أن يكون فى رأيهم وفاقًا لحكم القرآن كما يفسرونه وحكم السنة كما يعتقدونها. وطالما وقفوا بين علىّ وبين القتال لأنهم لا يستجيزونه، أو عن الصلح والتحكيم لأنهم يجلون القرآن عن قبوله.. فإذا كان أجناد معاوية يسمعون الحق والباطل لأنهم لا يفرقون بينهما ولا يفرقون بين الجمل والناقة فهؤلاء الأجناد العارفون لا يسمعون إلا ما أجازوه واستوجبوه، لأنهم خرجوا فى الأرض للتفريق بين الحلال والحرام والمعروف والمنكر. فلا يجمعون على طاعة ولا يحاربون أو يسالمون فى جماعة. وهم أقرب الناس فى ذلك العهد إلى الجهر بالنذير والنداء بالتبديل والتغيير والإصغاء إلى وحى الضمير قبل دعاء الأمير.

واجتمع مع علىّ فى الحجاز والكوفة كل منافس على الخلافة متطلع إليها ولو لم يجهر بطلبها مخافة من شركائه الذين يزاحمونه عليها، فمنهم من كان يقول لعلىّ: نبايعك على أنا شركاؤك، ومنهم من كان يتعلل بقلة المشاورة له والمبالاة بقوله، ومنهم من كان يحارب عثمان ثم أصبح يحارب عليًا باسم عثمان، تمحلا لذرائع الخلاف وكراهة لاستقرار الأمور..

* * *

وقد كان أبوبكر وعمر يمسكان كبار الصحابة بالحجاز ويحذران منهم أن ينطلقوا فى الأرض فيقبلوا على الدنيا ويشجر بينهم من النزاع ما يشجر بين طلابها. ثم ينصدع

شمل الأمة بالتشيع لهم وعليهم والتفرق بين أنصارهم وأعدائهم، وأوصى أبو بكر خليفته من بعده قائلا:

«.. احذر هؤلاء النفر من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم الذين انتفخت أجوافهم وطمحت أبصارهم وأحب كل امرئ منهم نفسه، وإن منهم لحيرة عند زلة واحد منهم فإياك أن تكونه، واعلم أنهم لن يزالوا منك خائفين ماخفت الله»..

فلما صارت الخلافة إلى عثمان أهمل هذه السياسة الحكيمة وشق عليه أن يطيل حبسهم بالحجاز والهيمنة عليهم بجواره، فانطلقوا حيث ذهبت بهم المذاهب، وكان منهم ما حذره أبو بكر حيث قال لعبد الرحمن بن عوف: «ورأيتم الدنيا قد أقبلت.. حتى تتخذوا ستور الحرير ونضائد الديباج وحتى يألم أحدكم بالإضّجاع على الصوف الأذربي[1] كما يألم أحدكم إذا نام على حسك السعدان».

* * *

روى المسعودى أنه «فى أيام عثمان اقتنى الصحابة الضياع والمال، فكان لعثمان يوم قتل عند خازنه خمسون ومائة ألف دينار وألف ألف درهم وقيمة ضياعه بوادى القرى وحنين وغيرهما مائة ألف دينار وخلف إبلا وخيلا كثيرة، وبلغ الثمن الواحد من متروك الزبير بعد وفاته خمسين ألف دينار، وخلف ألف فرس وألف أمة. وكانت غلة طلحة من العراق ألف دينار كل يوم ومن ناحية السراة أكثر من ذلك. وكان على مربط عبد الرحمن ابن عوف ألف فرس وله ألف بعير وعشرة آلاف من الغنم، وبلغ الربع من متروكه بعد وفاته أربعة وثمانين ألفا، وخلف زيد بن ثابت من الذهب والفضة ما كان يكسر بالفئوس غير ما خلف من الأموال والضياع. وبنى الزبير داره بالبصرة وبنى أيضا بمصر والكوفة والإسكندرية.. وكذلك بنى طلحة داره بالكوفة وشيد داره بالمدينة وبناها بالجص والآجر والساج، وبنى سعد بن أبى وقاص داره بالعقيق ورفع سمكها وأوسع فضاءها وجعل على أعلاها شرفات، وبنى المقداد داره بالمدينة وجعلها مجصصة الظاهر والباطن، وخلف يعلى ابن منبه خمسين ألف دينار وعقارا وغير ذلك ما قيمته ثلاثمائة ألف درهم».

* * *

---

(١) منسوب إلى أذربيجان.

هؤلاء أيضًا أصبحوا فى حصة علىّ من الدولة الإسلامية عنصرًا من أقوى عناصر القلق والتبرم والنفور من دوام الأمر للحكومة الجديدة، خلافًا لأمثالهم فى معسكر معاوية.

فالذى يغلب على أصحاب الثروات فى كل مجتمع أنهم أنصار الحالة القائمة وأعداء الثورة والاضطراب السياسى أو الاجتماعى على التخصيص، ولكن هؤلاء الأغنياء خالفوا المعهود فى مجتمع علىّ فأصبحوا قادة السخط والشكوى وأعوان الثورة والتغيير ولو فى سرائر القلوب كلما حيل بينهم وبين الظهور فى الثورة بفعل محسوس. لأنهم عرفوا عليًّا من قبل ومن بعد، فعلموا أنه لن يقرهم على ما هم فيه ولن يلبث أن يحاسبهم على ما جمعوه من المال أو يأخذ عليهم طريق المزيد.

عرفوا مذهبه فى حساب الولاية ومذهبه فى حساب الخلافة. فلما كان واليًا لليمن أبى على بعض الصحابة أن يركبوا إبل الصدقة وقال لهم: إنما لكم منها سهم كما للمسلمين، ثم لام العامل الذى أذن لهم أن يركبوها فى غيبته وهو منصرف إلى الحج. وشاعت هذه القصة لأن أناسًا شكوه إلى رسول الله عليه السلام، فأنكر شكواهم منه وقال: «لقد علمت أنه جيش فى سبيل الله».

* * *

ولما قام عثمان بالخلافة طال عتب علىّ عليه، لأنه أباح للعمال والولاة ما ليس بمباح فى رأيه، ولقى بالعتاب كل صحابى من إخوانه جمع مالا واستهوته فتنة البذخ والثراء.

وليس مذهبه واليا ولا مذهبه خليفة بمريح أولئك الأغنياء الذين ذاقوا حلاوة الغنى وكرهوا أن يحرموه أو يحاسبوا عليه.

ولم يكن فى وسع علىّ أن يغض عنهم نظره ولو شاء ذلك، وهو لا يشاؤه ولا يحله لنفسه وقد أنكره على غيره. لأنه إذا غض نظره لم يستطع أن يغض الأنظار المفتوحة التى ثارت بعثمان وبايعت عليًّا بعده ليصنع غير ما صنعه عثمان وغير ما أثارهم عليه.

فلا دعاة الدنيا راضون مطيعون، ولا دعاة الدين راضون مطيعون، ولا الفقراء والجهلاء راضون مطيعون، وما منهم إلا من هو قلق متوفز لا يسكن به سكن ولا يدوم به قرار.

وكل أولئك كانوا فى حصة علىّ من الدولة الإسلامية، ولم يكن لمعاوية فى حصته شاجرة فتنة من هذه الشواجر، بل كان له فى موضع كل واحدة منها دعامة تمكين وتأييد.

وإن هذه الشواجر على كثرتها وقوتها لفى غنى عن علة أخرى من علل الفساد والشقاق تضاف إليها.

ولكنها مع هذا لم تستوعب تلك العلل التى اصطلحت على حصة علىّ من الدولة الإسلامية.. فقد أضيفت إليها علة أخرى، بل أضيفت إليها أكثر العلل التى تبتلى بها دولة أو حكومة.. وهى اعتمادها فى مواردها على غيرها.

فكانت موارد الشام فى الشام نفسها من خراج أو أنفال أو تجارة. أما موارد الحجاز فقد كانت بعيدة منه وإن دخلت فى طاعته وجنحت إلى القائم بالأمر فيه. وكانت مصر والسواد من حصة علىّ، ولكنه لم ينتفع بمصر كثيرًا لتعاقب الولاة فيها، ولم يستفد بالسواد كثيرًا لتعاقب الفتن والغارات عليها.. وحسبك من هذا داعية قلق وباعث مخافة ومبطل أمان وطمأنينة.

* * *

وينبغى أن نذكر أن الحيلة فى هذا التقسيم قليلة، وأن الحوادث هى التى اختارت لكل حصة من الحصتين زعيمها وأشبه الناس بها وأقربهم إلى ولاية أمرها و«كما تكونوا يول عليكم».. ولا محل فى هذه القاعدة لحيلة أو اختيار..

فلم يكن أحد أشبه بقيادة المنافع المستبقاة من معاوية، ولم يكن أحد أشبه من علىّ بقيادة الشكوى التى تطمح بأصحابها إلى التغيير.

إن شكا أناس غلبة قريش، فعلىّ كان يشكو منها ويظن الظنون بحقدها عليه ونكرانها لحقه، ويقول فى كتاب من كتبه إلى أخيه: «...ودع عنك قريشًا وتراكضهم فى الضلال وتجولهم فى الشقاق، فإن قريشًا قد أجمعت على حرب أخيك إجماعها على حرب رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل اليوم...».

وإن جاءت صيحة الإصلاح والتغيير عن طريق الدين على مذهب الحفاظ والقراء والنساك فعلىّ كان إمام أهل العلم والقراءة، وأحق من يتكلم بتفقيه أو تفسير.

وإن جاءت من ضيم الفقراء فعليّ فقير، أو من تهافت الولاة على المال فعليّ يبغض هذا التهافت كما يبغضه أضعف الفقراء، عن زهد فيه لا عن قلة الوسائل إليه..

فما شكا شاك قط إلا وعليّ شريك له فى شكواه، وكيف ينجو رجل كهذا من قيادة الدولة التى قامت على التبرم بالحال والطموح إلى التغيير؟.. وأية حيلة له إلى جانب حيلة الحوادث وتوفيق المقادير؟..

* * *

كان عليّ نموذج أصحابه الأعلى، وكان معاوية نموذج أصحابه الأعلى. وكانا لأجل ذلك فى موضع رشحتهما له الحوادث قسرًا قبل أن يرشحا له بإرادة مريد.

وما نحن بقادرين على وزن الرجلين ولا على المقابلة بينهما فى الرأى والعمل ما لم نستحضر هذه الحقيقة أبدًا، وما لم نذكر أبدًا أن أحدهما كان يعمل والحوادث حرب عليه، وأن الآخر كان يعمل والحوادث عدة فى يديه!..

البيعة

بويع لعلى بالخلافة بعد حادثة من أفجع الحوادث الدامية فى تاريخ الإسلام، وهى مقتل الخليفة عثمان بن عفان فى شيخوخته الواهنة، بعد أن حصروه بين جدران داره، وكاد يقتله الظمأ لو أمهله القتلة بضعة أيام..

وأفجع ما كان فى هذه الحادثة أنها بلاء لا يدفع وقضاء لا حيلة لأحد فى اتقائه لأن المسئولين عنه كثيرون متفرقون فى كل جانب يناصره أو يعاديه.. فإذا امتنع الأعداء لم يمتنع الأصدقاء، وإذا بطل الشر الذى فيه اختيار لم يبطل الشر الذى لا اختيار فيه، وربما كان حسن النية وسوء النيه هنا صنوين متساويين. فمن الأعمال المؤسفة التى عجلت بالفاجعة أعمال كثيرة بدرت من عثمان نفسه، أو لعله أقدم عليها بعد قصد ومراجعه، وليست هى فى تعجيلها ولا فى سوء مغبتها بأهون من أعمال الأعداء..

مضت السنون الأولى من خلافة عثمان على خير ما كان يرجى لها أن تمضى فى عهد خليفة.

ثم تغيرت الأحوال فجأة من جانب الراعى ومن جانب الرعية، لأسباب لم تكن طارئة ساعة ظهورها، وإن ظهرت عواقبها طارئات.

وتتعدد الأسباب التى أوجبت ذلك التغيير بعد السنوات الأولى، ولكنها قد تنحصر فى سببين اثنين جامعين لغيرهما من الأسباب العديدة، وهما إمعان الخليفة فى الشيخوخة، واستمراء الأعوان لما نعموا به من لين الخليفة ولين الرغد والمتاع.

ولقد كتبت الأسفار المطولات فى إحصاء المآخذ على عثمان رضى الله عنه، وكتبت الأسفار المطولات فى تبرئة الخليفة من تلك المآخذ أو الاعتذار له بأحسن الأعذار

وتفسيرها على أحسن الوجوه، لأن المسألة خرجت من عداد المسائل التاريخية، وانتقلت إلى ميدان النزاع بين الأحزاب والمذاهب وأقاويل الجدل والحجاج.. فجعلها الشيعيون وأهل السنة ذريعة إلى تأييد مذهب وإنكار مذهب فى الخلافة والخلفاء، وراح الأولون يبالغون فى الاتهام كما يبالغ الآخرون فى الدفاع، ولا طائل هنا من شرح هذا وذاك، ولا هو مما يقتضيه كلامنا الآن.. وإنما المرجع فيه إلى تاريخ عثمان

إلا أننا نجتزئ هنا بالإشارة إلى التذمر الذى أثار الفتنة، والإلمام بأسبابه عند أصحابه.. فمما لاشك فيه أنهم تذمروا لأسباب تثيرهم وإن طال الشك والجدل حول نصيبهم من الخطأ والصواب.

أهم هذه الأسباب، أنه خالف بعض السنن التى اتبعها النبى عليه السلام فى الأذان والصلاة، وأنه أدنى أناساً من أقاربه كان رسول الله عليه السلام قد أقصاهم عن المدينة.. فاستدعاهم إليه بعد استخلافه وأغدق عليهم المنح والأموال، وأنه أطلق العنان لأبناء أسرته فى الولاية والعمالة، ومنهم من اتهموه بإقامة الصلاة وهو سكران، وأنه منح سفيان ابن حرب مائتى ألف درهم ومنح الحارث بن الحكم زوج بنته عائشة مائة لف درهم من بيت المال، وأنه توسع فى بناء القصور، وحرم بعض الصحابة، وضرب بعضهم على مشهد من الملأ ضرب إهانة وإيجاع..

ولم تنقض سنوات على هذه الحال حتى كثر المترفون من جانب والمتربون من جانب آخر، وشاع بين الجانبين ما يشيع دائماً فى أمثال هذه الأحوال من الملاحاة والبغضاء والتزيد بالتهم واللجاجة، وإضافة الأوهام إلى الحقائق فى خلق ذرائع الخلاف والشحناء.

ويدل على خطر مسألة الثروة فى هذه الفتنة، أن الناس تألبوا على الخليفة. فأرسل فى طلب عليّ ليصرفهم عنه، فلما قدم إليه استأذنه فى إعطائهم بعض الرفد العاجل من بيت المال، فأذن له.. فانصرفوا عن زعماء الفتنة، وهدءوا إلى حين.

ثم توافد المتذمرون من الولايات إلى المدينة مجندين وغير مجندين.. وتولى زعامة المتذمرين فى بعض الأحيان جماعة من أجلاء الصحابة، كتبوا صحيفة وقعوها وأشهدوا فيها المسلمين على مآخذ الخليفة.. فلما حملها عمار بن ياسر إليه، غضب وزيره مروان بن الحكم، وقال له «إن هذا العبد الأسود قد جرأ عليك الناس.. وإنك إن قتلته نكلت به من

وراءه» فضربوه حتى غشى عليه.

وفى مرات أخرى، كان الخليفة يصغى إلى هذه الشكايات ويندم على ما اجترحه أعوانه بعلمه أو بغير علمه، ثم يعلن التوبة إلى رعاياه، ويؤكد لهم الوعد بإقصاء أولئك الأعوان وإخلافهم فى أعمالهم بمن يرضى المسلمين، ويرضى الله.

ثم يغلبه أولئك الأعوان على مشيئته، فيبقيهم حيث كانوا ويملى لهم فيما تعودوه من الترف والنكاية، وعلى رأسهم مروان بن الحكم.. أبغض أولئكَ الأعوان إلى المسلمين، حتى من أهل الخليفة المقربين.

وكان بعض الوفود يشكون ولاتهم، فإذا عادوا إلى بلادهم تلقاهم أولئك الولاة بالأذى وقتلوا بعضهم ضرباً على ملأ من الشاكين الذين ينتظرون الإنصاف.. فيعود المضربون إلى الشكوى، وينصرهم أجلاء الصحابة عند الخليفة، ويسألونه أن يولى عليهم غير واليهم المسيء إليهم فإذا توجه الوالى الجديد إلى مكانه، إذا فى الطريق رسول يحمل خطاباً للوالى المعزول يأمره فيه بقتل من يفد إليه من حاملى الشكوى وحاملى كتاب الولاية، ويقره فى مكانه!

حدث هذا مع وفد مصر، واختلفت الأقاويل فى تأويله من متهم للخليفة، ومتهم لمنافسيه على الخلافة، ومتهم لوفد الشكوى الذى عثر بالخطاب، ومتهم لمروان بن الحكم – عنصر السوء فى هذه المأساة كلها – وهو أولى الأقاويل بالترجيح والتصديق، إذ كان أيسر شيء على مروان لو كان بريئاً من هذه المكيدة أن يكشف حقيقتها بسؤال الغلام حامل الخطاب، وفى كشف هذه الحقيقة إبراء له، وتعزيز لسلطان الخليفة، وفضيحة لأعدائه، وإدحاض لحجة الفتنة، ودعوة الإثارة والتحريض.. ولكنه أهمل السؤال، وقنع من تبرئة نفسه بقذف التهمة على متهميه.

* * *

وظل الخليفة والثوار يشتبكون ويتحاجزون.. لا هم فى حرب، ولا هم فى سلام.

وكلما تحاجزوا بعد اشتباك منذر بالشر، زاد الخليفة ضعفاً، وزاد الثوار ضراوة، وزاد التوجس بينهم استفحالاً واتسع مع التوجس مجال السعاية والإرجاف بين الفريقين حتى بلغ الكتاب أجله.

وتوسط عليّ بين الخليفة والثوار، فاستمهلهم الخليفة ثلاثة أيام يرد فيها المظالم ويعزل العمال المكروهين.

فانتظر الثوار هذه الأيام الثلاثة تلبية لنصيحة عليّ.. ومنهم من يسيء الظن، ويرى أن الخليفة إنما يستمهلهم فى انتظار المدد الذى طلبه من الأمصار..

وانقضت الأيام الثلاثة على غير جدوى..

وتفاقمت الفتنة، وأحاط الثائرون ببيت عثمان.. لا يقنعون فى هذه الكرة إلا أن يعتزل، أو يسلمهم مروان بن الحكم، أو يعزلوه عنوة.

وجاء فى رواية «شداد بن أوس» أن عليًّا رضى الله عنه، خرج من منزله يومئذ معمماً بعمامة رسول الله متقلداً سيفه، أمامه الحسن وعبد الله بن عمر فى نفر من المهاجرين والأنصار حتى حملوا على الناس وفرقوهم، ثم دخلوا على الخليفة فسلم عليه عليّ.. وقال بعد تمهيد وجيز: «.. لا أرى القوم إلا قاتليك، فمرنا فلنقاتل». فقال الخليفة: «أنشد الله رجلًا رأى الله حقًّا، وأقر لى عليه حقًّا، أن يهريق فى سببى ملء محجمة من دم أو يهريق دمه فى» فأعاد عليّ القول فأعاد عليه هذا الجواب. ثم خرج من عنده إلى المسجد، وحضرت الصلاة فنادوه: «يا أبا الحسن.. تقدم فصل بالناس» فقال: «لا أصلى بكم والإمام محصور، ولكنى أصلى وحدى» ثم صلى وحده وانصرف إلى منزله، وترك أبنيه مع أبناء زمرة من الصحابة فى حراسة دار الخليفة، ليعلم الثوار أنهم معتدون على كل ذى خطر فى الإسلام إن وصلوا إلى الخليفة باعتداء.. عساهم إن علموا ذلك أن يتهيبوا المركب، فلا ينزعوا بالشر غاية منزعه.

إلا أن الثوار علموا أنهم مأخوذون بالانتظار مغلوبون بالمطاولة فتسوروا الدار وولغوا فى دم طهور لو هان على صاحبه أن تسفك الدماء فى سبيله لعز عليهم أن يسفكوه.

* * *

وللإفاضة فى مقتل عثمان وعبرة هذا المقتل، مكان غير هذا المكان، وكتاب غير هذا الكتاب.

فإنما نحن فى صدد الموقف الذى وقفه علىّ من هذه الجريمة، وما ينم عليه هذا الموقف من خلقه ورأيه وسريرته وجهره.. وإنما يعنينا هنا أن نسأل: أكان عليه وزر فى هذه الجريمة؟.. أكان فى مقدوره عمل صالح يعمله لإنقاذ عثمان من هذا المصير؟

ونحن لا نسأل هذا السؤال لنرجع فى جوابه إلى جدل المجادلين وأقاصيص المادحين والقادحين.. فقد سال فى الخلاف على هذا السؤال دم غزير ومداد كثير، وليس علينا نحن أن نزيد قطرة أو قطرات على هذا البحر المسجور الذى لا رىّ فيه.

ليس علينا هذا، لأننا نستطيع أن نعبره إلى حقيقة ماثلة لمن يشاء أن يراها، وفيها الغنى - ولو بعض الغنى - عن الإسهاب فى السؤال والجواب..

فالحقيقة التى لا يطول فيها الريب، أن عليًّا رضى الله عنه لم يكن أقدر على اجتناب هذا المصير من معاوية أو من عثمان نفسه، لو شاء عثمان أن يستمع إلى بعض الناصحين إليه.

فقد كان معاوية والياً عزيزاً، له جند يرسله إلى الخليفة فيحميه فى الشدة اللازمة وإن أباه، وكان لمعاوية قبول عند عثمان لم يكن لعلىّ ولا لأحد من خلصائه، وكان هو أقمن أن يميل بعثمان إلى الرضا بالحراسة أو الرضا بالرحلة إلى مكة أو الشام، لو أراد.

وكان فى وسع عثمان أن يرحل إلى مكة، وهى آمن له من المدينة، أو يرحل إلى الشام وقد كانت مفتوحة له قبل أن تغلقها الفتنة ويمرد الثوار فى العصيان..

أما علىّ فقد كان موقفه أصعب موقف يتخيله العقل فى تلك الأزمة المحفوفة بالمصاعب من كل جانب..

كان عليه أن يكبح الفرس عن الجماح، وكان عليه أن يرفع العقبات والحواجز من طريق الفرس.. كلما حيل بينها وبين الانطلاق.

كان ناقداً لسياسة عثمان وبطانته التى حجبته عن قلوب رعاياه.. ناصحاً للخليفة بإقصاء تلك البطانة، وتبديل السياسة التى تزينها له وتغريه باتباعها وصم الآذان عن الناصحين له بالإقلاع عنها.

وكان مع هذا أول من يطالب بالغوث، كلما هجم الثوار على تلك البطانة، وهموا

بإقصائها عنوة من جوار الخليفة.

كان الثوار يحسبونه أول مسئول عن السعى فى الإصلاح، وكان الخليفة يحسبه أول مسئول عن تهدئة الحال وكف أيدى الثوار.

ولم يكن فى العالم الإسلامى كله رجل آخر يعانى مثل هذه المعضلة التى تلقاه من جانبيه كلما حاول الخلاص منها، ولا خلاص!

وضاعف هذا الحرج الشديد الذى كان يلقاه فى كل خطوة من خطواته، أنه لم يكن بموضع الحظوة والقبول عند الخليفة حيثما وجب الإصغاء إلى الرأى والعمل بالمشورة. وإنما كان مروان بن الحكم موضع الحظوة الأولى بين المقربين إليه.. لا ينجو من إحدى جناياته التى كان يجنيها على الحكومة والرعية حتى يعود إلى الخليفة فيوقع فى روعه أن عليًّا وإخوانه من جلة الصحابة هم الساعون بين الناس بالكيد له وتأليب الثائرين عليه، وأنه لا أمان له إلا أن يوقع بهم ويعرض عنهم.. ويلتمس الأمان عند عشيرته وأقربائه، ومن هم أحق الناس بسلطانه وأصدقهم رغبة فى دوامه.

ففى المؤتمر الذى جمعه الخليفة للتشاور فى إصلاح الأمر وقمع الفتنة، لم يكن علىّ مدعواً ولا منظوراً إليه بعين الثقة والمودة.. بل كان المدعوون إلى المؤتمر من أعدائه والكارهين لنصحه.. وهم معاوية وعمرو بن العاص وعبد الله بن أبى سرح وعبد الله بن عامر وسعيد بن العاص، وهم فى جملتهم أولئك الولاة الذين شكاهم علىّ وجمهرة الصحابة، وبرمت بهم صدور المهاجرين والأنصار.

قال لهم عثمان: «إن لكل امرئ وزراء ونصحاء، وأنكم وزرائى ونصحائى وأهل ثقتى. وقد صنع الناس ما قد رأيتم، وطلبو إلىّ أن أعزل عمالى، وأن أرجع عن جميع ما يكرهون إلى ما يحبون.. فاجتهدوا رأيكم وأشيروا علىّ».

قال معاوية: «أرى لك يا أمير المؤمنين أن ترد عمالك على الكفاية لما قبلهم، وأنا ضامن لك ما قبلى».

رأى رجل يريد أن يحتفظ بولايته، ولا يريد أن يغضب أحدا من أصحاب الولايات فى غير مصره.

وقال عبد الله بن عامر: «رأيى لك يا أمير المؤمنين أن تأمرهم بجهاد يشغلهم عنك، وأن تجمهرهم فى المغازى حتى يدلوا لك.. فلا تكون همة أحدهم إلا نفسه..»

رَأْى رجل يريد أن يشغل الناس عن الشكوى ولا يريد أن يـزيلها، ثم هـو لا يبالى أن يخلق جهادًا تسفك فيه الدماء فى غير جهاد مطلوب.

وقال عبد الله بن سعد: «أرى يا أمير المؤمنين أن الناس أهل طمع، فأعطهم من هذا المال تعطف عليك قلوبهم».

رأى رجل يشترى الرضا بالرشوة، ما فى يديه منها.

وقال عمرو بن العاص، وهو بين السخط على ولاية فاتها والطمع فى ولاية يرجوها: «أرى أنك قد ركبت الناس بما يكرهون، فاعتزم أن تعدل.. فإن أبيت، فاعتزم أن تعتزل.. فإن أبيت، فاعتزم عزماً، وامض قدماً».

رأى رجل عينه على الخليفة وعينه على الثوار، ولهذا بقى حتى تفـرق المجتمعون.. ثم قال للخليفة حيث لا يسمعه أحد غيره: «والله يا أمير المؤمنين لأنت أعز علىّ من ذلك. ولكنى قد علمت أن سيبلغ الناس قول كل رجل منا، فأردت أن يبلغهم قولى فيثقوا بى.. فأقود إليك خيراً وأدفع عنك شرا..»

* * *

وكـان هؤلاء هم الوزراء والنصحـاء وأهل الثقـة عند عثـمان، ومن ورائهم مروان بن الحكم يلازمه ويكفل لهم أن يحجب النصحاء عنه، وفى مقدمتهم علىّ وإخوانه.. ثم تفرق المؤتمرون وقد رد عثمان كل عامل إلى عمله، وأمره بالتضييق على من قبله..

فكانت حيلة على فى تلك المعضلة العصيبة جد قليلة، وكان الحول الذى فى يديه أقل من الحيلة.

إلا أنه مع هذا قد صنع غاية ما يصنعه رجل معلق بالنقيضين معصوب بالتبعتين، مسئول عن الخليفة أمام الثوار ومسئول عن الثوار أمام الخليفة..

جاءه الثوار مرة من مصر خاصة، يتخطون الخليفة إليه ويعرضون الخلافة عليه.

فلقيهم أسوأ لقاء، وأنذرهم لئن عادوا إليها ليكونن جزاؤهم عنده وعند الخليفة القائم، جزاء العصاة المفسدين فى الأرض.

وجاءوه مرة أخرى وحجتهم ناهضة، ودليل التهمة التى يتهمون بها بطانة عثمان فى أيديهم.. جاءوه بالخطاب الذى وجدوه فى طريق مصر مع غلام عثمان يأمر عامله بقتلهم بعد أن وعدهم خيراً وأجابهم إلى تولية العامل الذى يرضيهم. فلم تخدعه حجتهم الناهضة. ولم يشأ أن يملى لهم فى ثورتهم واحتجاجهم من جراء ذلك الخطاب المشكوك فيه. وجعلهم متهمين مسئولين بعد أن كانوا متهمين سائلين. فقال لهم: «وما الذى جمعكم فى طريق واحد، وقد خرجتم من المدينة متفرقين كل منكم إلى وجهة؟».

* * *

وكانت حيرة علىّ بين التقريب والإبعاد، أشد من حيرته بين الخليفة والثوار.. فكان يؤمر تارة بمبارحة المدينة ليكف الناس عن الهتاف باسمه ويستدعى إليها تارة ليردع الناس عن مهاجمة الخليفة. فلما تكرر ذلك، قال لابن عباس الذى حمل إليه رسالة عثمان بالخروج إلى ماله فى ينبع: «يا بن عباس.. ما يريد عثمان إلا أن يجعلنى جملا ناضحا بالغرب - أى الدلو - أقبل وأدبر.. بعث إلىّ أن أخرج، ثم بعث إلىّ أن أقدم، ثم هو الآن يبعث إلىّ أن أخرج.. والله لقد دفعت عنه حتى خشيت أن أكون آثما»..

ثم بلغ السيل الزبى، كما قال عثمان رضى الله عنه، فكتب إلى علىّ يذكر له ذلك ويقول: «إن أمر الناس ارتفع فى شأنى فوق قدره.. وزعموا أنهم لا يرجعون دون دمى، وطمع فى من لا يدفع عن نفسه:

فإن كنت مأكولا فكن خير آكل وإلا فأدركنى ولما أمزق

فعاد علىّ، وجهد فى إنقاذ الخليفة جهده، ولكنه كان يعالج داءً استعصى دواؤه وابتلى به أطباؤه.. فكلهم يريد تغييرًا يأتى من قبل الغيب أو يأتى من قبل الآخرين، ولا يغير شيئا من عمله أو مستطاعه. ولعل الخليفة لو شرع فى التغيير المرجو يومئذ لما أجدى عليه عظيم جدوى، لفوات أوانه وانطلاق الفتنة من أعنتها، وامتناع التوفيق والصفاء بعد ما وقر فى النفوس ولغطت به الأفواه.

وعد الخليفة وعده الأخير.. ليصلحن الأحوال ويبدلن العمال.

وأحاطت به بطانته كدأبها فى إثر كل وعد من هذه الوعود، تنهاه أن ينجزه وتخيفه من طمع الناس فيه، إن هو أنجز ما وعدهم حين توعدوه وكانت المرأة أصدق نظرًا من الرجال فى هذه الغاشية التى تضل فيها العقول فأشارت عليه امرأته السيدة نائلة باسترضاء علىّ والإعراض عن هذه البطانة، ولم يكن أيسر على بطانته من إقناعه بضعف هذا الرأى بعد سماعه من امرأة ضعيفة. فكان مروان يقول له: «والله لإقامة على خطيئة تستغفر الله منها أجمل من توبة تخوف عليها».

وكان هو يأذن له أن يخرج ليكلم الناس، فلا يكلمهم إلا بالزجر والإصرار.. كما قال لهم يومًا: «ما شأنكم قد اجتمعتم كأنكم جئتم لنهب شاهت الوجوه.. جئتم تريدون أن تنزعوا ملكنا.. ارجعوا إلى منازلكم، فإنا والله ما نحن مغلوبين على مافى أيدينا».

إذن بطلت الروية، ولم يبق إلا لحظة طيش لا يدرى كيف تبدأ، ولا يؤتى لأحد إذا هى بدأت أن يقف دون منتهاها.

* * *

هجم الثوار على باب الخليفة، فمنعهم الحسن بن على وابن الزبير ومحمد بن طلحة ومروان بن الحكم وسعيد بن العاص وطائفه من أبناء الصحابة..

واجتلدوا فمنعهم، عثمان وقال لهم: «أنتم فى حل من نصرتى» وفتح الباب ليمنع الجلاد حوله.. ثم قام رجل من أسلم يناشد عثمان أن يعتزل، فرماه كثير بن الصلت الكندى بسهم فقتله، فجن جنون الثوار يطلبون القاتل من عثمان، وعثمان يأبى أن يسلمه ويقول لهم: «لم أكن لأقتل رجلا نصرنى وأنتم تريدون قتلى..» وعز على الثوار أن يدخلوا من الباب الذى كان قد أغلق بعد فتحه، فاقتحموا الدار من الدور التى حولها.. وأقدموا على فعلتهم النكراء بعد إحجام كثير.

لو لم تقع الواقعة فى هذه اللحظة الطائشة، لوقعت فى لحظة غيرها لا يدرى كيف تبدأ هى الأخرى.. فإنما هى بادرة واحدة من رجل واحد تسوق وراءها كل مجتمع حول الدار من المهاجرين أو المدافعين، ولا أكثر من البوادر بين ثوار لا يجمعهم رأى، ومدافعين لا يضبطهم عنان..

ونقل الخبر إلى المسجد، وفيه علىّ جالس فى نحو عشرة من المصلين، فراعه منظر

القادم وسأله: «ويحك ما وراءك؟» قال: «والله قد فرغ من الرجل فصاح به: «تبًّا لكم آخر الدهر..» وأسرع إلى دار الخليفة المقتول.. فلطم الحسن، وضرب الحسين، وشتم محمد بن طلحة وعبد الله بن الزبير وجعل يسأل ولديه: «كيف قتل أمير المؤمنين، وأنتما على الباب؟» فأجاب طلحة: «لا تضرب يا أبا الحسن ولا تشتم ولا تلعن، لو دفع مروان ما قتل».

* * *

قال سيف بن عمر عن جماعة من شيوخه: «بقيت المدينة خمسة أيام بعد مقتل عثمان، وأميرها الغافقي بن حرب، يلتمسون من يجيبهم إلى القيام بالأمر، والمصريون يلحون على عليّ وهو يهرب إلى الحيطان[1]، ويطلب الكوفيون الزبير فلا يجدونه، والبصريون يطلبون طلحة فلا يجيبهم، فقالوا فيما بينهم: لا نولى أحداً من هؤلاء الثلاثة. فمضوا إلى سعد بن أبي وقاص فقالوا: إنك من أهل الشورى. فلم يقبل منهم، ثم راحوا إلى ابن عمر فأبى عليهم، فحاروا فى أمرهم. ثم قالوا: إن نحن رجعنا إلى أمصارنا بقتل عثمان من غير إمرة اختلف الناس فى أمرهم ولم نسلم، فرجعوا إلى عليّ فألحوا عليه، وأخذ الأشتر بيده فبايعه وبايعه الناس.. وكلهم يقول: لا يصلح لها إلا عليّ فلما كان يوم الجمعة وصعد على المنبر، بايعه من لم يبايعه بالأمس وكان أول من بايعه طلحة بيده الشلاء، فقال قائل: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، ثم الزبير، ثم قال الزبير «إنما بايعت عليًّا واللج على عنقى والسلام..»

وهذا الخبر على وجازته، قد حصر لنا أسماء جميع المرشحين للخلافة بالمدينة عند مقتل عثمان.. وربما كان أشدهم طلباً لها طلحة والزبير، اللذان أعلنا الحرب على عليّ بعد ذلك.. فقد كانا يمهدان لها فى حياة عثمان، ويحسبان أن قريشاً قد أجمعت أمرها ألا يتولاها هاشمى، وأن عليًّا وشيك أن يذاد عنها بعد عثمان كما ذيد عنها من قبله، وكانت السيدة عائشة تؤثر أن تئول الخلافة إلى واحد من هذين.. أو إلى عبد الله بن الزبير، لأن طلحة من قبيلة تيم والزبير زوج أختها أسماء، وفى تأييد السيدة عائشة لواحد منهم مدعاة أمل كبير فى النجاح.

---

(١) البساتين.

على أن الرأى هنا لم يكن رأى قريش، ولا رأى بنى هاشم.. فلو أن عثمان مات حتف أنفه، ولم يذهب ضحية هذه الثورة لجاز أن تجتمع قريش فتعقد البيعة لخليفة غير على بن أبى طالب، وجاز أن يختلف بنو هاشم.. فلا يجتمع لهم رأى على رجل من رجالهم الثلاثة المرشحين للخلافة، وهم: عقيل، وعلى، وابن عباس.

* * *

ولكنها الثورة الاجتماعية التى تنشد رجلها دون غيره ولا محيد لها عنه.. فإن ترددت أياماً، فذاك هو التردد العارض الذى يرد على الخاطر لا محالة، قبل التوافق على رأى جازم.. ثم لا معدل للثورة عن الرجل الذى تتجه إليه وحده على الرغم منها.

فطلحة والزبير، كانا يشبهان عثمان فى كثير مما أخذه عليه المتحرجون فى الدين، وتمرد له الفقراء المحرومون.. كانا يخوضان فى المال، ولا يفهمان الزهد والعلم على سنة الناقمين المتزمتين، فإذا طلب الثائرون خليفة على شرطهم ووفاق رجائهم.. فما هم بواجديه فى غير على بن أبى طالب، وقد قال بحق: «إن العامة لم تبايعنى لسلطان غالب ولا لعرض حاضر» ولو شاء لقال عن الخاصة الذين لا يطمعون فى الخلافة مقالته عن العامة فى انقيادهم إليه بغير رهبة ولا رغبة.. فقد كان أولئك الخاصة جميعاً على رأى العامةفى حكومة عثمان وبطانته، وإن أخفى بعضهم لومه.. ولم يذهب بعضهم فى اللوم مذهب الثوار فى النزق وسفك الدماء..

ونعتقد كما أسلفنا أن هذه الحقيقة هى أولى الحقائق بالتوكيد والاستحضار؛ كلما عرض أمر من الخلاف والتردد فى خلافة علىّ رضى الله عنه.. فإذا هى فهمت على وجهها، فكل ماعداها مفهوم البواطن والظواهر منسوق الموارد والمصادر.. وإذا هى لم تفهم على الوجه الأمثل أو تركت جانبًا، وبحث الباحثون عن العلل والعواقب فى غيرها فالعهد كله غامض مجهول، والموازين كلها مختلة منقوصة سواء فى تقدير الرجال أو تقدير الأعمال، وجاز حينئذ أن يرمى علىّ بالخطأ.. ولا خطأ عنده يصححه غيره فى موضعه، وإنما هى حكم الموقف الذى لا محيد عنه. وجاز كذلك أن ينحل خصومه فضل الصواب ولا صواب عندهم، لأنهم مضطرون إلى ورود هذا المورد.. فكروا فيه أو طرقوه اعتسافًا بغير تفكير..

فلم تكن المسألة خلافًا بين عليّ ومعاوية على شيء واحد، ينحسم فيه النزاع بانتصار هذا أو ذاك.

ولكنها كانت خلافًا بين نظامين متقابلين وعالمين متنافسين، أحدهما يتمرد ولا يستقر، والآخر يقبل الحكومة كما استجدت ويميل فيها إلى البقاء والاستقرار.

أو هى كانت صراعاً بين الخلافة الدينية كما تمثلت فى عليّ بن أبى طالب، والدولة الدنيوية كما تمثلت فى معاوية بن أبى سفيان.

* * *

وليس موضع الحسم فيها أن ينتصر عليّ.. فيحكم فى مكان معاوية، أو ينتصر معاوية فيحكم فى مكان عليّ، بل موضع الحسم فيها مبادئ الحكم كيف تكون إذا تغلب واحد منها على خصمه؟ أتكون مبادئ الخلافة الدينية أو مبادئ الدولة الدنيوية؟.. أتكون مبادئ الورع والزهادة أو مبادئ الحياة على أساس الثروة الجديدة. كما توزعت بين الأمصار وتفرقت بيت السراة والأجناد والأعوان؟.

فلو أن عليًّا ملك الشام ومصر والعراق والحجاز، وجرى فى سياستها على سنة أصحابه من الحفاظ والقراء ومنكرى البذخ والإسراف لبقيت المشكلة حيث كانت، ولم تغن هزيمة معاوية إلا ريثما يتجرد للدولة منازع آخر يحاول الغلبة من حيث فشل..

ولو أن معاوية ملك المدينة إلى جانب ملكه، وجرى فى سياستها على سنة الحفاظ والقراء لما أرضاهم، ولا انقاد له أحد من أشياعه..

فالجسم حق الحسم هنا، إنما تغليب مبادئ الملك أو مبادئ الخلافة.. ولا حيلة لعلى ولا لمعاوية فى علاج الأمر على غير هذا الوجه، لو جهد له جهد الطاقة..

وقد كان الموقف بين الخلافة والملك ملتبساً متشابكاً فى عهد عثمان: كان نصف ملك ونصف خلافة، أو كان نصف زعامة دينية ونصف إمارة دنيوية.

فوجب أولا أن يتضح الموقف بينهما، وأن يزول الالتباس عن فلق صريح.. ووجب وقد زال الالتباس، وتقابل الضدان اللذان لا يتفقان، أن يبلغ الخلاف مداه.. ولن يزال

قائماً حتى تكتب الغلبة لمبدأ من المبدأين وحكم من الحكمين، وليس لعلى أو معاوية على التخصيص.

هذه هى العلة الكبرى التى تنطوى فيها جميع العلل الظاهرة..

وخليق بكل علة أخرى أن تكون تعلة موضوعة يستر صاحبها غير ما يبطن، أو ينخدع فى زعمه وهو غافل عن معناه..

* * *

خذ لذلك مثلا علة طلحة وأصحابه الذين ثاروا على علىّ ليطلبوه بدم عثمان، وهم لم يدفعوا عنه فى حياته بعض ما دفع علىّ عنه، وقد كان عثمان كثيراً ما يقول: «ويلى من طلحة.. أعطيته كذا وكذا ذهبًا وهو يروم دمى.. اللهم لا تمتعه به ولقه عواقب بغيه»..

وساء ظن الناس بنقمة طلحة على عثمان حتى حدث بعضهم أنه رآه يوم مقتله يرمى الدار، ويقود بعض الثائرين إلى الدور المجاورة ليهبطوا منها إلى دار عثمان، وهو حديث يفتقر إلى السند الوثيق، ولكنه يتم على ظن الناس بصداقة طلحة للخليفة المقتول.

وخذ لذلك مثلا حجة معاوية حين علل ثورته باتهام علىّ فى دم عثمان وعلل اتهامه لعلىّ بتقصيره فى القود من الثائرين.. وهم ألوف يحملون السلاح، وهو لم يسكن بعد إلى سلطان يعينه على القود من هؤلاء الألوف المسلحين. فماذا صنع معاوية بقاتلى عثمان حين صار الملك إليه، ووجب عليه أن ينفذ العقاب الذى من أجله ثار واستباح القتال؟ إنه اتبع عليًّا فيما صنع، وأبى أن يذكر الثأر المقيم المقعد، وقد ذكروه به وألحفوا فى تذكيره. ولقد كان أول ما سمعه يوم زار المدينة ودخل بيت عثمان صيحة عائشة بنته وهى تبكى: «واأبتاه» فلم تزده هذه الصيحة المثيرة إلا إصرارًا على الإغضاء والإعفاء. وقال لها يعزيها: «يا بنة أخى.. إن الناس أعطونا طاعة وأعطيناهم أمانًا، وأظهرنا لهم حلمًا تحته غضب، وأظهروا لنا طاعة تحتها حقد، ومع كل إنسان سيفه وهو يرى مكان أنصاره.. فإن نكثنا بهم نكثوا بنا، ولا ندرى أعلينا تكون أم لنا ولأن تكونى بنت عم أمير المؤمنين خيرًا من أن تكونى امرأة من عرض المسلمين..»

* * *

ولو كانت الثورة كلها من أجل عثمان لما انتهت بهذا التسليم الهين.. ولكن عذر على في بداية المحنة أعظم حجة، وأحق بالقبول..

أو خذ لذلك مثلا علة عمرو بن العاص، وقد كان أول الناصحين لعثمان بالاعتزال، بل كان يخطب عثمان ليسترضى الناس، وعمرو يصيح به من صفوف المسجد: «اتق الله يا عثمان، فإنك قد ركبت أمورًا وركبناها معك.. فتب إلى الله تتب..» ثم ترك عثمان في المدينة بين المؤتمرين به ومضى إلى فلسطين، وسمع وهو يقول: «والله إني كنت لألقى الراعى فأحرضه على عثمان».

فكل علة للثورة على خلافة على، فهي تعلل موضوع ينخدع به قائله أو يخدع به غيره.. إلا تلك العلة التي طوت فيها جميع العلل ظاهرها وخافيها وصريحها ومكذوبها. وهي الخلاف بين مبادئ الخلافة الدينية ومبادئ الدولة الدنيوية، وضرورة الفصل بين هاتين الخطتين.. وإن كان في ظاهره فصلا بين رجلين.

فلما بويع بالخلافة، كانت هذه البيعة إيذاناً بانقسام الحلقة بين الندين للصراع الأخير، أو كانت إيذاناً باصطفاف المتسابقين إلى غاية لا بد من بلوغها.. ولن يخطر على البال غاية لهذا السباق المحتوم غير انتهاء الخلافة أو انتهاء الملك على النحو الذي تهيأت له عناصر النظام الاجتماعي الجديد.

فأما انتهاء الملك في بدايته، فقد كان بعيدًا – بل كان عسيرًا جدًّا في تلك الآونة – كما يعسر انطفاء النار وهي تهب بالاشتعال.

فأما انتهاء الخلافة فهو الذي كان، وهو الذي كان منظورًا أن يكون، ولن يكون غيره بمنظور.. فمن الفضول لوم عليّ على شيء من الأشياء التي أفضت إلى هذه الخاتمة وهي محتومة ليس عنها محيد.

إذ لم يكن طبيعيًّا أن يصمد الناس على سنة النبوة أكثر من جيل واحد، تثوب بعده الطبائع إلى فطرتها من نشأة جلال الخلافة النبوية، وهي في إبان النضال والحمية الدينية، فتنسى المطامع وتسهو عن الحزازات وتستعذب الألم والفداء إلى مدى الطاقة الإنسانية، ولكنها تبلغ مدى الطاقة الإنسانية بعد حين، وتفتر عن النهوض من قمة إلى قمة.. فتركن آخر الأمر إلى السواء حيث لا حافز ولا مستنهض، إلا مجاراة الطبيعة في مجاريها التي

لا يشق عليها، وإن المصلحين ليرضون غاية الرضا إذا هى حفظت من إصلاحهم عند ذلك وازعاً يهديها بعد ضلالة عمياء، ويردعها بعد جماح مريد، ويكفكف من غلوائها ما كان من قبل منطلقًا بغير عنان.

وقد نظر النبى عليه السلام بعين الغيب إلى هذا المصير فقال: «الخلافة ثلاثون عامًا ثم يكون بعد ذلك الملك».. وأنبأ بانقسام الفرق وتشعب الأهواء، وكأنما كان ينظر إلى ذلك بعينيه صلوات الله عليه.

واتبع على من اليوم الأول فى خلافته أحسن السياسات التى كان له أن يتبعها فلا نعرف سياسة أخرى أشار بها ناقدوها أو مؤرخوه ثم أقاموا الدليل على أنها خير من سياسته فى صدق الرأى وأمان العاقبة، أو أنها كانت كفيلة باجتناب المآزق التى ساقته الحوادث إليها.

فمن اللحظة الأولى، أخذ فى تجنيد قوة الخلافة الدينية التى لا قوة له بغيرها.

فعزل الولاة الذين استباحوا الغنائم المحظورة، وتمرغوا بالدنيا، وطمعوا وأطمعوا رعاياهم فى بيت مال المسلمين، وأثاروا على عثمان سخط السواد وسخط الفقهاء المحترجين والحفاظ الغيورين على فضائل الدين.

ورد القطائع التى وزعتها بطانة عثمان بين المقربين وذوى الرحم، فصرفتها عن وجوهها التى جعلت لها من إصلاح المرافق وإغاثة المفتقرين إليها على شرعة الإنصاف والمساواة.

ورجع إلى خطة ابى بكر وعمر فى تجنيب الصحابة الطامحين إلى الإمارة فتنة الولايات، مخافة عليهم من غوايتها وإبعاداً لهم من دسائس الشيع والصبيات.. فلما طالبه طلحة والزبير بولاية العراق واليمن، قال لهما: «بل تبقيان معى لآنس بكما» وسأل ابن عباس: «ما ترى؟» فأشار بتولية الزبير البصرة وتولية طلحة الكوفة. قال علىّ: «ويحك.. إن العراقين بهما الرجال والأموال.. ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع، ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوى بالسلطان، ولو كنت مستعملًا أحداً لضره أو نفعه لاستعملت معاوية على الشام، ولولا ما ظهر من حرصهما على الولاية لكان لى فيهما رأى».

* * *

نعم، إن هذه السياسة أغضبت منافسيه وطالبي المنفعة الدنيوية على يديه.. ولكن السياسة..الأخرى كانت تغضب أنصاره ولا تضمن رضا المنافسين ودوامهم على الرضا والوفاق بينهم فى تأييده. وكانت تخالف عقيدته التى يدين بها نفسه وأقرب الناس إليه، وتخالف وعده وعقيدة الناس فيه.. ولن يكون مالكاً غالباً بسياسة الملك على كل حال، فإن لم يكن خليفة فما هو بشىء، وإن كان خليفة وملكاً فهى خطة عثمان التى لم تستقم قط على وجه من وجهيها ومصيرها معروف، وإن كان خليفة ولا اختيار له فى ذلك فكل ما صنع فهو الحكمة كأحسن ما تراض له الحكمة، وهو السداد كأقرب ما يتاح له السداد.

وعلم أن قريشاً لا ينصرونه، فنقل العاصمة من المدينة إلى الكوفة.. لأن قريشاً كانوا هاشميين وهم لا يتفقون على بيعته، وقد تركه أقربهم إليه ورحل إلى معاوية طمعاً فى رفده، أو كانوا أمويين وهم حزب معاوية وأهل عشيرته وبيته، أو من تيم وهم حزب طلحة، أو من عدى وهم يؤثرون عبد الله بن عمر بن الخطاب، أو من قبائل أخرى، وهم كما قال: «قد هربوا إلى الأثرة».. فإذا أقام بينهم فهو مقيم بين أناس لا ينقطع لهم طلب ولا يضمن لهم ولاء.

ولم تمض أيام معدودة على مبايعة الخليفة الجديد حتى انتظمت صفوف الحجاز كله له أو عليه.. فكان معه جميع الشاكين لأسباب دينية أو دنيوية، وكان عليه جميع الولاة الذين انتفعوا فى عهد عثمان، وجميع الطامعين فى الانتفاع بالولاية والأموال العامة.. وحالت الخلافة الجديدة بينهم وبين ما طمعوا فيه.

وعلى رأس هؤلاء طلحة والزبير.

* * *

فحشدوا جموعهم إلى البصرة، وصحبتهم السيدة عائشة لأنها كانت ترغب فى خلافة طلحة.. لقيها ابن عباس على مقربة من المدينة وهو أمير على الحج من قبل عثمان، ولم يزل قائماً بالخلافة، فقالت له: «يا بن عباس.. أنشدك الله فإنك قد أعطيت لساناً ازعيلا - أى ماضيا - أن تخذل عن هذا الرجل - تعنى عثمان - وأن تشكك فيه الناس فقد بانت لهم بصائرهم وأنهجت ورفعت لهم المنار، وتحلبوا من البلدان لأمر قد جم. وقد رأيت طلحة بن عبيد الله قد اتخذ على بيوت الأموال والخزائن مفاتيح.. فإن يل يسر بسيرة

ابن عمه أبي بكر رضي الله عنه» فأجابها ابن عباس: «يا أمه! لو حدث ما فزع الناس إلا إلى صاحبنا» أي علي فقالت: «أيها عنك.. أني لست أريد مكابرتك ولا مجادلتك».

فلما بويع عليّ في المدينة، لم تكن من أنصاره ولا مع الباقين على الحيدة بينه وبين خصومه. ولعلها لم تنس بعد نصيحته للنبي عليه السلام في مسألة الإفك التي قيل إنه أشار فيها بتطليقها، فخرجت إلى البصرة مع المطالبين بثأر عثمان، وكانت هنالك وقعة الجمل التي سميت بهذا الاسم لاحتدام القتال فيها حول جملها وهودجها... فانتصر عليّ، وقتل الزبير، ومات طلحة بجرح أصابه في المعركة، وحسم القتال بالصلح بين الفريقين في الحجاز والعراق.

على أن هذا النصر العاجل، لم يخل من آفة تكدره وتنذر بالمخاوف التي يوشك أن يلقاها عليّ في حربه لخصومه الباقين بعد موت طلحة والزبير.. وأقواهم معاوية بن أبي سفيان صاحب الشام..

فقد كشفت وقعة الجمل عن مصاعب القيادة في جيش من المتمردين والمتذمرين.. فإنهم يستحمسون في عقيدتهم، وهي فضيلة من فضائل الجيوش المقاتلة، ولكنهم من جراء هذه الحماسة نفسها عرضة للعناد والتمادي في اللدد وإعجال قائدهم عن إنعام الروية وانتظار الفرص المؤاتية..

فقد كان عليّ يميل - كدأبه - إلى مفاتحة الخارجين عليه في المهادنة أو المصالحة، وكان معه جماعة السبئية - أتباع عبد الله بن سبأ - وهم أخلص الناس له وأغيرهم عليه، ولكنهم لفرط غيرتهم ولدهم في عدواتهم لم يقنعوا بما دون القضاء على خصومه، ولم يقبلوا التوسط في الصلح دون الغلبة التي لا هوادة فيها.. فدهموا القوم وأوقدوا جذوة الحرب، قبل أن يفرغ عليّ من حديث المهادنة والتقريب بينه وبين أصدقائه الذين خرجوا عليه..

وكانت هذه أولى العثرات الكبار التي أعثرته بها حماسة المتمردين والمتذمرين في جيشه، ولم تزل تتعاقب وتتفاقم عليه حتى مني بالعثرة التي لا تقال..

وكان ذلك في وقعة صفين..

فإنه نظر بعد غلبته في العراق، فلم يجد أمامه خصماً يقف في طريق الخلافة إلا جيش معاوية بالشام، فعمد معه إلى خطته التي جرى عليها مع خصومه كافة حيث كانوا وكانت

منزلتهم من الجاه والقوة، ونعنى بها خطة المسالمة والبدء بالإقناع.. فطالت المراسلة منه إلى معاوية، ومن معاوية إليه، وفى مثل واحد منها، ما يغنى عن كثير.

كتب إلى معاوية بعد وقعة الجمل، وقد سبقته كتب كثيرة من المدينة.

«سلام عليك.. أما بعد، فإن بيعتى بالمدينة لزمتك وأنت بالشام، لأنه بايعنى الذين بايعوا أبا بكر وعمر وعثمان على ما بويعوا عليه. فلم يكن للشاهد أن يختار، ولا للغائب أن يرد، وإنما الشورى للمهاجرين والأنصار، فإذا اجتمعوا على رجل وسموه إماماً كان ذلك الله رضا وإن خرج عن أمرهم ردوه إلى ما خرج عنه، فإن أبى قاتلوه على اتباعه غير سبيل المؤمنين، وولاه الله ما تولى، وأصلاه جهنم وساءت مصيراً. وإن طلحة والزبير بايعانى ثم نقضا بيعتهما، وكان نقضهما كردهما، فجاهدتهما بعد ما أعذرت إليهما، حتى جاء الحق وظهر أمر الله، وهم كارهون. فادخل فيما دخل فيه المسلمون، فإن أحب الأمور إلى قبولك العافية، وقد أكثرت فى قتله عثمان، فإن رجعت عن رأيك وخلافك ودخلت فيما دخل فيه المسلمون.. ثم حاكمت القوم إلى حملتك وإياهم على كتاب الله. وأما تلك التى تريدها - يعنى الخلافة - فهى خدعة الصبى عن اللبن. ولعمرى لئن نظرت بعقلك دون هواك لتجدنى أبرأ قريش من دم عثمان، واعلم أنك من الطلقاء[1] الذين لا تحل لهم الخلافة ولا يدخلون فى الشورى، وقد بعثت إليك ولى من قبلك جرير بن عبد الله، وهو من أهل الإيمان والهجرة.. فبايعه، ولا قوة إلا بالله».

فرد عليه معاوية بما يلى:

«سلام عليك.. أما بعد، فلعمرى لو بايعك الذين ذكرت وأنت برىء من دم عثمان، لكنت كأبى بكر وعمر وعثمان، ولكنك أغريت بدم عثمان وخذلت الأنصار، فأطاعك الجاهل وقوى بك الضعيف، وقد أبى أهل الشام إلا قتالك حتى تدفع إليهم قتلة عثمان.. فإن فعلت كانت شورى بين المسلمين. وإنما كان الحجازيون هم الحكام على الناس والحق فيهم، فلما فارقوه كان الحكام على الناس أهل الشام، ولعمرى ما حجتك على أهل الشام كحجتك على طلحة والزبير، وإن كانا بايعاك فلم أبايعك أنا. فأما فضلك فى الإسلام وقرابتك من رسول الله صلى الله عليه وسلم فلست أدفعه»..

---

(١) أطلق معاوية وأبوه من الأسر يوم فتح مكة.

ومن رد معاوية هذا، تبدو النية الواضحة فى فتح أبواب الخلاف واحداً بعد واحد.. كلما أغلق باب منها بقى من ورائه باب مفتوح، لا ينتهى الخلاف بإغلاقه.

فتسليم قتلة عثمان لا يكفى، لأن عليًّا نفسه متهم بالإغراء والتخذيل، وبراءة علىّ من هذه التهمة لا تكفى لأن المرجع بعد ذلك إلى الشورى والنظر فى البيعة من جديد.

وشورى الحجازيين والعراقيين لا تكفى لأن الحق قد خرج منهم إلى أهل الشام، وهم الحكام على الناس.. لأنهم يحكمون لمعاوية ولا يحكمون لغيره.

ومن ثم، بطلت الحجج والرسائل كما تبطل كل حجة وكل رسالة عند ما يقال باللسان غير ما يجول فى الصدور.

وزحف علىّ من الكوفة إلى صفين، ووجد جيش معاوية على الماء.. فنحاه عنه بعد أن أبى عليه معاوية أن ينحيه بغير قتال.

وبدأت العثرات من ثم فى كل خطوة يخطوها للسلام أو للقتال، فلا يتحفز فريق من أنصاره للحرب حتى يثنيه فريق آخر يحرمها ولا يقول بوجوبها، وتحاجز القوم نيفاً وثمانين فزعة.. وتصاولوا فى وقعات شتى غامرت بها طائفة من هنا وطائفة من هنا، وقلما اشتبك فيها الجيشان فى وقعة جامعة حتى كانت وقعة الهرير، وحاقت الهزيمة بجيش معاوية وقيل إنه هم بالفرار.. وإذا بالمصاحف ترفع على الحراب من قبل جيش الشام، وإذا بالعثرة الكبرى التى لا خطوة بعدها فى طريق فلاح.. فإن عليًّا نظر حوله، فإذا بجيشه يوشك أن يقتتل فيما بينه نزاعاً على القتال أو إلقاء السلاح، وإن معاوية لفى غنى عن كفاح قوم لا يتفقون على كفاحه.. فله منهم سيوف مشرعة لنصرته، شاءوا أو لم يشاءوا، وسيكفونه مئونة الحرب حتى يتفقوا بينهم على حربه، وهيهات!

ولو كانت آفة الطاعة فى جيش علىّ، مقصورة على اجتهاد القراء والحفاظ، وتعجل الغلاة والمتمردين.. لكان فى ذلك وحده ما يكفى لإفساد التدبير واضطراب القيادة وتعذر القتال على أصوله.. إذ لا يستغنى القائد فى ميدان الحرب، ولا فى ميدان السياسة، عن الكتمان والمفاجأة وتحويل الخطط على حسب الطوارئ والمناسبات.. فإذا كان فى كل عمل من أعماله عرضة لاجتهاد أصحاب الفتاوى، وكان أصحاب الفتاوى يفترقون عشرين وجهة فى كل حركة من حركات الجيش، فليست له خطة تكتم ولا خطة تنفذ.

وليس عجيباً بعد ذلك، أن ينهزم فى ميدان القتال شر هزيمة يبتلى بها مقاتل.. بل العجيب أن يتماسك فترة من الزمن – وإن قصرت – أمام جيش يفوقه فى العدد ويرجع فى أمره إلى قيادة موحدة ونية مجتمعة ومشيئة مطاعة.

* * *

ولكن الآفة مع هذا، لم تكن كلها فى اجتهاد الحفاظ وتعجل الغلاة.. بل كان فى الجيش أناس يخونون عهده ويشغبون عليه، ويبدو من أعمالهم أنهم مسخرون لعدوه كارهون لانتصاره. فإن لم يكونوا كذلك، فالأمر الذى لا شك فيه أنهم كانوا يعملون وهم عامدون – وغير عامدين – شر ما يعمله الخائن الخبيث الذى يتحين الفرص للعناد والشقاق، وإفشاء الخلل والخذلان فى أحرج الأوقات.

وأدهى من ذلك، أنه لم يكن قادراً على زجرهم والتنكيل بهم.. لأن الجيش الذى يوجد فيه من يحرم حرب العدو، لن يعدم أناساً يحرمون حرب النصير المقيم على ظاهر الطاعة، وليس لك بينة قاطعة عليه.

ومثل من ذلك أيضاً يغنى عن أمثال كثيرة، وهو مثل الأشعث بن قيس أكبر سادات كندة وأخلقهم أن ينصر حزباً على حزب، لو خلصت نيته وبرئت شيمته من التقلب والغدر بأصحابه.

طمح هذا الرجل إلى الملك بعد موت النبى عليه السلام، فدعا قومه أن يتوجوه.. وحارب المسلمين مع المرتدين حتى حوصر فى حصنه أياماً، ويئس من الغلبة فاستسلم.. على أن يصان دمه وبقية دم عشرة من أخصائه، ثم فتح الحصن فقتل كل من فيه ونجا بالعشرة الذين اختارهم إلى أبى بكر رضى الله عنه، فقبل توبته وزوجه أخته أم فروة. فلما نشبت الفتنة بين على ومعاوية، كان هو من حزب على يتطلع للفرصة السانحة.

ثم زحف علىّ رضى الله عنه إلى صفين، فكان الأشعث أول المندفعين إلى القتال حين سد أهل الشام طريق الماء، وجاء عليًّا يقول: «يا أمير المؤمنين! أيمنعنا القوم الماء وأنت فينا ومعنا سيوفنا؟.. ولّنى الزحف إليه.. فوالله لا أرجع أو أموت».

ولكنه عاد إلى المسالمة، بعد أن وضح النصر فى ليلة الهرير، فخطب فى قومه من كندة قائلاً:

«.. قد رأيتم يا معشر المسلمين ما قد كان فى يومكم هذا الماضى، وما قد فنى فيه من العرب.. فوالله لقد بلغت من السن ما شاء الله أن أبلغ، فما رأيت مثل هذا اليوم قط.. ألا فليبلغ الشاهد الغائب أنا إن توافقنا غدًا لفنيت العرب وضيعت الحرمات.. أما والله ما أقول هذه المقالة خوفاً من الحرب، ولكنى رجل مسن أخاف على النساء والذرارى غداً إذا فنينا»..

ثم ذهب إلى على رضى الله عنه بعد رفع المصاحف فقال له: «ما أرى الناس إلا قد رضوا وسرهم أن يجيبوا القوم إلى ما دعوهم إليه من حكم القرآن.. فإن شئت أتيت معاوية فسألته ما يريد فنظرت ما يسأل»..

ولقى معاوية فسأله: «يا معاوية.. لأى شىء رفعتم هذه المصاحف؟»

قال: «لنرجع نحن وأنتم إلى أمر الله عز وجل فى كتابه.. تبعثون منكم رجلاً ترضون به، ونبعث منا رجلاً، ثم نأخذ عليهما أن يعملا بما فى كتاب الله لا يعدوانه.. ثم نتبع ما اتفقا عليه».

فقال الأشعث: «هذا الحق!».

وعاد إلى علىّ ينادى بالتحكيم، ويختار له هو وأنصاره رجلاً ينوب عن علىّ، وعلىّ لا يرضاه..

* * *

وكان أنصار التحكيم قد تكاثروا واجترءوا على أمير المؤمنين، فلم يبالوا أن يجيبوه بالقول السيئ منذرين متوعدين:

«يا على! أجب إلى كتاب الله عز وجل إذا دعيت إليه، وإلا ندفعك برمتك إلى القوم أو نفعل كما فعلنا بابن عفان. إنه عرض علينا أن نعمل بما فى كتاب الله عز وجل فقبلناه.. والله لتفعلنها و أو لنفعلنها بك».

وألحوا عليه أن يرد قائده الأشتر النخعى من ساحة الحرب، وإلا اعتزلوه أو قتلوه..

فقبل التحكيم وهو كاره..

واختار أهل الشام عمرو بن العاص، فقال الأشعث: «فإنا رضينا بأبى موسى الأشعرى».

قال على: «إنه ليس لى بثقة.. قد فارقنى وخذل الناس عنى، ثم هرب منى حتى آمنته بعد أشهر، ولكن هذا ابن عباس نوليه ذلك».

قالوا: «لا نريد إلا رجلًا هو منك ومن معاوية سواء، ليس إلى واحد منكما بأدنى من الآخرين..».

قال: «فإنى أجعل الأشتر».

قال الأشعث - وهو ينفس على الأشتر مكانته وبلاءه من قبل -: «وهل سعر الأرض غير الأشتر؟.. أو قال: وهل نحن إلا فى حكم الأشتر»

فلما رأى إصرارهم وقلة أنصاره على رأيه بينهم قال: «فقد أبيتم إلا أبا موسى؟».

قالوا: «نعم!».

قال: «فاصنعوا ما بدا لكم!»

* * *

فهذا رجل من الزعماء المطاعين فى جيش علىّ، لم يدع من وسعه شيئًا لتغليب حزب معاوية على حزبه، واستكثر عليه أن يكون الحكم الذى يختاره نصيرًا له مؤمناً بحقه وصحة رأيه. ولا طائل فى البحث عن هذا الخذلان الصريح، أكان هو الطمع فى الملك بعد فشل علىّ أم النقمة على الأشتر النخعى فى مكانته وبلائه، أم التواطؤ بينه وبين معاوية على منفعة مؤجلة ومكافأة موعودة.. فإنما النية الخبيثة ظاهرة وإن استترت العلة، وأيا كانت العلة الخفية فقد صنع الرجل غاية ما استطاع لتغليب حزب معاوية وخزلان الحزب الذى هو فيه.

قال علىّ يصف قسمته من الأنصار، وقسمته من النوازل والعثرات: «لو أحبنى جبل لتهافت».

وقال يصف أنصاره: «أيها الناس المجتمعة أبدانهم، المختلفة أهواؤهم كلامكم يوهى

الصم الصلاب وفعلكم يطمع فيكم الأعداء.. ما عزت دعوة من دعاكم، ولا استراح قلب من قاساكم. أعاليل بأضاليل دفاع ذى الدين المطول.. أى دار بعد داركم تمنعون؟.. ومع أى إمام بعدى تقاتلون؟.. المغرور والله من غررتموه، ومن فاز بكم فقد فاز والله بالسهم الأخيب، ومن رمى بكم فقد رمى بأفوق ناصل[1]. أصبحت والله لا أصدق قولكم ولا أطمع فى نصركم، ولا أعد العدو بكم، ما بالكم؟.. ما دواؤكم؟.. ما طبكم؟.. القوم رجال أمثالكم، أقول بغير علم؟.. وغفلة من غير ورع؟.. وطمعًا فى غير حق؟..».

* * *

وهى صيحة لا تصف إلا بعض ما يعانيه من حيرة، ولا مخرج له منها فى سياسة أصحابه. فإنه لم يفرغ من التحكيم الذى أذعن له وهو كاره، حتى فوجئ بطائفة أخرى من أنصاره يرمونه بالكفر لأنه قبل ذلك التحكيم، وزعموه قبولا للتحكيم فى كلام الله وفى دماء المسلمين، وهو عندهم كفر بواح أولئك هم الخوارج الذين حاربوه بالسلاح، وكانوا يحرمون عليه حرب معاوية قبل ذاك!.

ثم اجتمع الحكمان بدومة الجندل التى وقع عليها الاختيار لتكون وسطًا بين العراق والشام. ولم يكن قرار الحكمين خافيًا على من عرفوا أبا موسى الأشعرى وعمرو بن العاص، فإن أبا موسى لم يكتم قط أن السلامة فى اجتناب الفريقين والقعود عن القتال، فليس أيسر من إقناعه بخلع صاحبه وخلع معاوية على السواء. ثم يرجع الرأى إلى عمرو ابن العاص فى إقرار هذا الخلع أو الاحتيال فيه بالحيلة التى ترضيه.

إلا أن الدهاة من العرب، كانوا يتوقعون من عمرو بن العاص أن يحتال لنفسه حتى يفرغ وسعه قبل أن يحتال لصاحبه الذى أنابه عنه.

ومن هؤلاء الدهاة المغيرة بن شعبه الذى اعتزل الفريقين من مطلع الفتنة إلى يوم التحكيم، فلما اجتمع الحكمان علم أنها الجولة الأخيرة فى الصراع.. فخرج من عزلته ودنا ليستطلع الأمور، على سنة الدهاة من أمثاله، إذ يتنسمون الريح قبل هبوبها، ولا يقلقون أنفسهم بمهبها قبل أوانها.. فلقى أبا موسى وعمرو بن العاص، ثم ذهب إلى معاوية وهو مشغول البال بطول الاجتماع بين الحكمين واضطراب الظنون فيما وراء هذا

(١) الأفوق هو السهم المكسور فى موضع الوتر، والفاصل العارى من النصل.

الإبطاء المريب.. فقال له وهو يرى اشتغال باله: «قد أتيتك بخبر الرجلين..».

قال معاوية: وما خبرهما؟...

قال المغيرة: «إنى خلوت بأبى موسى لأبلو ما عنده فقلت: ما تقول فيمن اعتزل عن هذا وجلس فى بيته كراهية للدماء؟.. فقال: أولئك خيار الناس، خفت ظهورهم من دماء إخوانهم وبطونهم من أموالهم. فخرجت من عنده وأتيت عمرو بن العاص، فقلت: يا أبا عبد الله ما تقول فيمن اعتزل هذه الحروب؟.. فقال: أولئك شرار الناس لم يعرفوا حقًّا ولم ينكروا باطلا»..

ثم عقب المغيرة قائلا: «أنا أحسب أبا موسى خالعًا صاحبه وجاعلها لرجل لم يشهد، وأحسب هواه فى عبد الله بن عمر بن الخطاب، وأما عمرو بن العاص فهو صاحبك الذى عرفته، وأحسبه سيطلبها لنفسه أو لابنه عبد الله، ولا أراه يظن أنك أحق بهذا الأمر منه..»

وقد أحس المغيرة حزره نقط الحرف بالحرف فى تقدير نية الرجلين، فإنهما ما اجتمعا هنيهة حتى أقبل أبو موسى على عمرو يقول له: «يا عمرو!.. هل لك فيما فيه صلاح الأمة ورضا الله؟»

قال: «وما هو؟..»

قال: «نولى عبد الله بن عمر، فإنه لم يدخل فى نفسه شىء من هذه الحروب..»

فراغ عمرو قليلا يحاول أن يلقى فى روع صاحبه أنه يريد معاوية، ثم عاد يسأله: «فما يمنعك من ابنى عبد الله مع فضله وصلاحه وقديم هجرته وصحبته؟»

فأوشك أبو موسى أن يجيبه لولا أنه قال: «إن ابنك رجل صديق، ولكنك غمسته فى هذه الحروب غمسًا»

وتكرر بينهما هذا القول وأشباهه فى كل لقاء، وطفقا يبدئان منه ويعيدان إليه بعد كل جدال، حتى وقر فى خلد الأشعرى أن خلع الزعيمين أمر لا مناص منه ولا اتفاق بينهما على غيره، فتواعدا إلى يوم يعلنان فيه هذا القرار..

وتقدم أبو موسى فقال بعد تمهيد: «أيها الناس، إنا قد نظرنا فى أمر هذه الأمة، فلم نر أصلح لأمرها ولا ألم لشعثها من أمر قد أجمع رأيي ورأى عمرو عليه، وهو أن نخلع عليًّا ومعاوية، ونستقبل الأمة بهذا الأمر فيولوا منهم من أحبوا عليهم، وإنى قد خلعت عليًّا ومعاوية فاستقبلوا أمركم وولوا عليكم من رأيتموه لهذا الأمر أهلا»

وتلاه عمرو فقال بعد تمهيد: «.. إن هذا قال ما سمعتم وخلع صاحبه، وأنا أخلع صاحبه كما خلعه، وأثبت صاحبى معاوية، فإنه ولى عثمان بن عفان رضى الله عنه، والطالب بدمه وأحق الناس بمقامه».

فغضب أبو موسى، وصاح به: «مالك لا وفقك الله غدرت وفجرت، إنما مثلك مثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث..»

فابتسم عمرو، وهو يقول: «إنما مثلك كمثل الحمار يحمل أسفارًا..» كلب وحمار فيما حكما به على نفسيهما غاضبين، وهما يقضيان على العالم بأسره ليرضى بما قضياه.

وانتهت المأساة بهذه المهزلة، أو انتهت المهزلة بهذه المأساة.

وبان أن اجتماع الحكمين لم يفض إلى اتفاق بين الحكمين، فعاد الخلاف إلى ما كان عليه.

إلا أنه استشرى واحتدم بعد قصة الحكمين بما زاد عليه من فتنة الخوارج المنكرين للتحكيم.

فقد أجمعوا وأبرموا فيما بينهم «.. إن هذين الحكمين قد حكما بغير ما أنزل الله، وقد كفر إخواننا حين رضوا بهما، وحكموا الرجال فى دينهم ونحن على الشخوص من بين أظهرهم، وقد أصبحنا والحمد الله ونحن على الحق من بين هذا الخلق».

وخرجوا وعلىّ يأبى قتالهم حتى ييأس من توبتهم، ولقيهم بالجيش، فآثر أن يلقاهم مناقشًا قبل أن يلقاهم مقاتلا، واقترح عليهم أن يخرجوا إليه رجلا منهم يرضونه، يسأله ويجيبه ويتوب إن لزمته الحجة ويتوبوا إن لزمتهم. فأخرجوا إليه إمامهم عبد الله بن الكواء.

قال علىّ: «ما الذى نقمتم علَىّ بعد رضاكم بولايتى وجهادكم معى وطاعتكم لى، فهلا

برئتم منى يوم الجمل؟»..

قال ابن الكواء: «لم يكن هناك تحكيم».

قال عليّ: «يابن الكواء ويحك.. أنا أهدى أم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟»

قال ابن الكواء: «بل رسول الله صلى الله عليه وسلم»

قال عليّ: فما سمعت قول الله عز وجل: «قل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم» أكان الله يشك أنهم هم الكاذبون.

قال: «إن ذلك احتجاج عليهم، وأنت شككت فى نفسك حين رضيت بالحكمين، فنحن أحرى أن نشك فيك»

قال: وإن الله تعالى يقول: «فأتوا بكتاب من عند الله هو أهدى منهما أتبعه»..

قال ابن الكواء: «ذلك أيضًا احتجاج منه عليهم». ثم قال بعد كلام طويل من قبيل كلامه هذا: «إنك صادق فى جميع قولك غير أنك كفرت حين حكمت الحكمين»

قال عليّ: «ويحك يا بن الكواء.. إنى إنما حكمت أبا موسى وحكم معاوية عمرًا»..

قال ابن الكواء: «فإن أبا موسى كان كافراً»

قال عليّ «متى كفر؟.. أحين بعثته أم حين حكم؟»

قال ابن الكواء: «بل حين حكم»

قال عليّ: «أفلا ترى أنى بعثته مسلماً فكفر فى قولك بعد أن بعثته.. أرأيت لو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم بعث رجلا من المسلمين إلى ناس من الكافرين ليدعوهم إلى الله[1] فدعاهم إلى غيره، هل كان على رسول الله صلى الله عليه وسلم من ذلك شيء؟»

قال: «لا»

قال: «ويحك.. فما كان عليّ إن ضل أبو موسى؟ أفيحل لكم بضلالة أبى موسى أن

(١) وقد حدث هذا فى عهد النبى عليه السلام إذ أوفد نهارا الرجال ليهدى قوم مسلمة فانقلب هناك مبشرًا بدينه.

تضعوا سيوفكم على عواتقكم فتعترضوا بها الناس؟»

فعلم الخوارج أن صاحبهم ليس بند لعلى فى مجال نقاش، فكفوه عن الكلام كأنهم آمنوا بصدق علىّ فى حجته وقصده، لولا أنهم قوم قهرتهم لجاجة العناد كما تقهر أمثالهم من المتهوسين الذين يجدون فى المضى مع العناد لذة يستمرئونها من الحق والمعرفة.. فمردوا على الشقاق، وأصروا على تكفير علىّ وأصحابه، وأن يعاملوهم فى الحرب والسلم معاملة الكفار..

* * *

واستبقى علىّ بعد هذا كله بقية للسلم والمراجعة.. فرفع فى الساحة راية ضم إليها ألفى رجل ونادى: «من التجأ إلى هذه الراية فهو آمن»

ثم قال لأصحابه: «لا تبدءوهم بالقتال حتى يبدءوكم» فصاح الخوارج صيحتهم: «لا حكم إلا لله وإن كره المشركون» وهجموا هجمة رجل واحد.. وتلقاهم على وأصحابه لقاء من نفد صبره ووغر صدره. فما هى إلا ساعة حتى قتل معظم الخوارج، وبقى منهم نحو أربعمائة أصيبوا بجراح وعجزوا عن القتال، فأمر بهم علىّ فحملوا إلى عشائرهم لينظروا من فيه رمق فيدركوه بعلاج.

وأراد المسير إلى الشام ليلقى بها جيش معاوية..

فتصدى له الأشعث بن قيس مرة أخرى، كما تصدى له فى كل فرصة سانحة للغلبة، وقال له على مسمع من الناس: «يا أمير المؤمنين.. نفدت نبالنا، وكلت سيوفنا، ونصلت أسنة رماحنا، فارجع بنا إلى مقرنا لنستعد بأحسن عدتنا، ولعل أمير المؤمنين يزيد فى عدتنا عدة من هلك منا، فإنه أوفى لنا على عدونا»

* * *

وتسلل الجند من معسكرهم، ولاذ من لاذ بالمدن القريبة منهم، وأيقن على أن القوم مارقون من يده، ولا طاعة له عليهم إذا دعاهم بعدها لقتال..

أما معاوية فقد علا نجمه بين قومه، وأعانه طلاب المنافع عامدين، وأعانه الخوارج غير عامدين، فحاربوا عليًّا ولم يحاربوه، وطلبوا التوبة من علىّ ولم يطلبوها منه، واستمر

هو فى إنفاذ البعوث والسرايا إلى كل موضع آنس منه غرة وظن بزعمائه موجدة أو سآمة. فلم تنقض سنتان حتى كانت معه مصر والمدينة ومكة، وبقى على فى أرباض الكوفة يائسًا منعزلا عن الناس، يتمنى الموت كما قال فى بعض خطبه، ويوجس شرًا من أقرب المقربين إليه، وانتهى بقبول المهادنة بينه وبين معاوية على أن تكون له العراق ولمعاوية الشام، ويكفا السيف عن هذه الأمة، فلا نزاع ولاقتال..

* * *

وبقيت فى كنانة الأقدار مصادفة من هذه المصادفات التى يخيل إليك وأنت تتعقبها، أنها تجمعت منذ الأبد ليبوء علىّ بنقائض الموقف كله، ويظفر خصومه بتوفيقات الموقف كله.. فشاءت هذه المصادفة الأخيرة أن يتفق ثلاثة على قتل ثلاثة، فيذهب هو وحده ضحية هذه المكيدة العاجلة، ويفلت زميلاه فيها: معاوية، وعمرو بن العاص.

اجتمع عبد الرحمن بن ملجم والبرك بن عبد الله وعمرو بن بكر التميمى، وهم من غلاة الخوارج الموتورين، فتذاكروا القتلى من رفاقهم وتذاكروا القتلى من المسلمين عامة، وألقوا وزر هذه الدماء كلها على ثلاثة من الكفار – أو أئمة الضلالة فى رأيهم – وهم: على بن أبى طالب، ومعاوية بن أبى سفيان، وعمرو بن العاص.

فقال ابن ملجم: «أنا أكفيكم على بن أبى طالب»

وقال البرك: «أنا أكفيكم معاوية بن أبى سفيان»

وقال عمرو بن بكر: «أنا أكفيكم عمرو بن العاص»

وإن ضغينة الثأر لحافز أى حافز..

وإن تهوس العقيدة لمثير أى مثير..

وكان للمتآمرين الثلاثة قسط واف من هذين الحافزين، يغنى عن مزيد من التحريض على القتل والانتقام..

ولكن المصادفة العجيبة هى التى شاءت أن تشحذ عزيمة ابن ملجم بحافز ثالث لعله يمضى حين ينبو هذان الحافزان الماضيان، وهو حافز من الغرام الظامئ لا يرويه إلا دم ذلك الشهيد الكريم.

فإن المرء قد ينيم ثائرة الحقد، وقد يمارى نفسه فيما تفرضه العقيدة.. ولكنه إذا كان عاشقاً مخبولا يستنجزه الوعد معشوق مسلط عليه؛ فهو مأسور زمامه فى يدى غيره، وليس فى يديه.

* * *

وكان ابن ملجم يحب فتاة من تيم الرباب قتل أبوها وأخوها وبعض أقربائها فى معركة الخوارج. وكانت توصف بالجمال الفائق والشكيمة القوية، وتدين بمذهب قومها فوق ما فى جوانحها من لوعة الحزن على ذويها، فلما خطبها ابن ملجم لم ترض به زوجاً إلا أن يشفى لوعتها.

قال: «وما يشفيك؟» قالت: «ثلاثة آلاف درهم وعبد وقينة، وقتل على بن أبى طالب»

قال: «أما قتل على فلا أراك ذكرته لى وأنت تريديننى..»

قالت: «بل ألتمس غرته.. فإذا أصبت شفيت نفسك ونفسى ويهنأك العيش معى، وإن قتلت فما عند الله خير من الدنيا وزينتها وزينة أهلها»

وخرج الثلاثة متواعدين إلى ليلة واحدة، يقتل كل منهم صاحبه فى ذلك الموعد..

فأما عمرو بن العاص، فقد اشتكى بطنه تلك الليلة فلم يخرج من بيته، وأمر خارجة ابن حذافة صاحب شرطته أن يصلى بالناس. فضربه عمرو بن بكر وهو يحسبه عمراً فقتله. فقال عمرو: أردتنى وأراد الله خارجة، وأمر بقتله..

وأما معاوية فضربه البرك بن عبد الله، وقد خرج الغداة للصلاة فوقعت الضربة على إليته.. وقيل إن الطعنة مسمومة لا يشفيها إلا الكى بالنار أو شراب يمنع النسل. فجزع معاوية من النار، ورضى انقطاع النسل، وهو يقول: «فى يزيد وعبد الله ما تقربه عينى، وأمر بالرجل فقتل لحينه»..

وأما على فضربه ابن ملجم فى جبينه بسيف مسموم، وهو خارج للصلاة، فمات بعد أيام وهو يحذر أولياء دمه من المثلة ويقول لهم: «يا بنى عبد المطلب.. لا ألفينكم تخوضون

دماء المسلمين تقولون قتلى أمير المؤمنين، قتل أمير المؤمنين.. ألا لا يقتلن أحد إلا قاتلى..»

«انظر يا حسن! إن أنا مت من ضربته هذه فاضربه ضربة بضربة.. ولا تمثل بالرجل فإنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: إياكم والمثلة ولو أنها بالكلب العقور»

وهذه خاتمة فاجعة، ننظر فى كل فرض من فروضها فلا نخليها من المصادفة السيئة التى لا تلقى تبعتها على أحد بعينه.

فمهما يقل القائلون إن عليًّا إنما أصيب لأنه كان لا يتقى أحدًا، ولا يخرج إلى المسجد بحرس، فالواقع أن المصادفة السيئة قائمة هناك تفرق فى عثرات الحظ بينه وبين زميليه اللذين سيقا معه إلى مكيدة واحدة.. فخرجا منها بحظين غير حظه، فإن ابن العاص لم ينج من القتل لأنه خرج إلى المسجد محروسًا، ولكنه نجا لأنه لزم بيته فى تلك الليلة، ومات صاحب شرطته الذى خرج فى مكانه. ولم ينج معاوية لأنه خرج محروسًا، ولكنه نجا لأنه أصيب وكانت إصابته غير قاتلة.

فهى المصادفة السيئة مهما تلتمس لها علة من علل التاريخ، ترجع بنا فى آخر الأمر إلى علل المصادفات التى لا تقبل التعليل.

وشىء آخر تصوره لنا هذه الخاتمة الفاجعة، كما تصوره لنا البيعة كلها من قبل ابتدائها إلى ما بعد انتهائها..

وذلك هو النسيج الإنسانى النابض الذى يتخلل حياة علِىّ فى لحمتها وسداها، وفى تفصيل أجزائها وجملة فحواها، فما من حادثة من حوادث هذه الحياة النبيلة إلا وهى معرض حافل للعواطف الإنسانية برمتها، تلتقى فيه عوامل النخوة والشجاعة والوفاء والإيمان والسماحة، وتشتبك فيه مطامع الناس وأشواقهم وظواهرهم وخفاياهم.. ذلك الاشتباك الذى يخلقه الشعراء خلقًا فى القصص والملاحم، فلا يحكمونه بعض أحكام الواقع الملموس فى سيرة الإمام. وقد أسلفنا فى صدر هذا الكتاب أنها سيرة تلامس النفس الإنسانية فى شتى نواحيها: تلامسها من ناحية العقيدة كما تلامسها من ناحية العاطفة، ومن ناحية الفكر كناحية الخيال، ومن ناحية التمرد كناحية الولاء. فإذا اتبعت السيرة بالخاتمة، فأى خيط من خيوط تلك الشبكة الإنسانية التى تنسجها القرائح

لاقتناص الشعور وتقريب الخيال تفقده فى هذه الخاتمة الفاجعة؟ أى باعث من بواعث القصص الدامية بأحاسيسها ولواعجها لا يرتعد هنا ارتعادًا فى كل فصل من فصولها ومشهد من مشاهدها؟ يأس الكريم المغلوب وجرأة المحتال الغالب، وغرام المتهوس المجنون، وأريحية القتيل الموصى بمن اعتدى عليه، وحقد المرأة وخداع الجمال، وزيغ العقيدة، واستواء الإيمان، وفنون لا تحصى تجتمع من الشعور الموار واللهفة الدائمة فى خاتمة حياة تسع ألف حياة.

* * *

وهذه مزية علِيّ بين خلفاء الإسلام قاطبة.. ينفرد بها لأنه انفرد بمثال من النفوس ومثال من العوارض الفردية والاجتماعية تؤلفه المصادفات فى الأجيال الطوال، ولا تحسن أن تؤلفه بمشيئتها فى كل جيل..

تلك حياة حى.. وذلك مصرع شهيد.

سياسته

تسرى فى صفحات التاريخ أحكام مرتجلة يتلقفها فم من فمٍ، ويتوارثها جيل عن جيل، ويتخذها السامعون قضية مسلمة، مفروغًا من بحثها والاستدلال عليها، وهى فى الواقع لم تعرض قط على البحث والاستدلال، ولم تجاوز أن تكون شبهة وافقت ظواهر الأحوال، ثم صقلتها الألسنة فعز عليها بعد صقلها أن تردها إلى الهجر والإهمال.

كل أولئك من لغو الشعوب.. وللشعوب بداهة تقصر دونها بداهة الغواصين من الأفراد، ولكنها إذا لغت فشوطها فى اللغو أوسع من شوط الفرد بأمد بعيد..

من تلك الأحكام المرتجلة قولهم علىّ بن أبى طالب رجل شجاع، ولكن لا علم له بخدع الحرب والسياسة!

وقد شاع هذا الرأى فى عصر على بين أصحابه، كما شاع بين أعدائه، وعزز القول به أنه خالف الدهاة من العرب فيما أشاروا به عليه، وأنه لم ينجح بعد هذه المخالفة فى معظم مساعيه، فكان من الطبيعى أن يقال إنه منى بالفشل لأنه عمل بغير ما أشار به أصحابه الدهاة، وأنه هو لم يكن من أصحاب الخدع الناجحة فى الحرب أو السياسة..

وقد يكون كذلك أو لا يكون، فسنرى بعد البحث فى آرائه وآراء المشيرين عليه أى هذين القولين أدنى إلى الصواب..

ولكن هل خطر لأحد من ناقديه، فى عصره أو بعد عصره، أن يسأل نفسه: أكان فى وسع علىّ أن يصنع غير ما صنع؟

وهل خطر لأحد منهم أن يسأل بعد ذلك: هبه استطاع أن يصنع غير ما صنع فما هى العاقبة؟.. وهل من المحقق أنه كان يفضى بصنيعه إلى عاقبة أسلم من العاقبة التى صار إليها؟..

لم نعرف أحدًا من ناقديه، خطر له أن يسأل عن هذا أو ذاك.. مع أن السؤال عن هذا وذاك هو السبيل الوحيد إلى تحقيق الصواب والخطأ فى رأيه ورأى مخالفيه، سواء كانوا من الدهاة أو من غير الدهاة..

والذى يبدو لنا نحن من تقدير العواقب على وجوهها المختلفة أن العمل بغير الرأى الذى سيق إليه لم يكن مضمون النجاح ولا كان مأمون الخطر، بل ربما كان الأمل فى نجاحه أضعف والخطر من اتباعه أعظم، لو أنه وضع فى موضع العمل والإنجاز وخرج من حيز النصح والمشورة.

وهذه هى المسائل التى خالفه فيها الدهاة، أو خالفه فيها نقدة التاريخ الذين نظروا إليها من الشاطئ، ولم ينظروا إليها نظرة الربان فى غمرة العواصف والأمواج..

* * *

فالمآخذ التى من هذا القبيل، يمكن أن تنحصر فى المسائل التالية، وهى:

١ - عزل معاوية.
٢ - معاملة طلحة والزبير.
٣ - عزل قيس بن سعد من ولاية مصر.
٤ - تسليم قتلة عثمان.
٥ - قبول التحكيم.
٦ - قبول الخلافة.

وهى كلها على الأقل قابلة للخلاف والاحتجاج من كلا الطرفين.. فإن لم يكن خلاف وكان جزم قاطع.. فهو على مانعتقد أقرب إلى رأى علىّ وأبعد من آراء مخالفيه وناقديه..

قيل فى مسألة معاوية إن عليًّا رضى الله عنه خالف فيها رأى المغيرة وابن عباس وزياد بن حنظلة التميمى، وهم جميعًا من المشهورين بالحنكة وحسن التدبير..

جاء المغيرة بن شعبة بعد مبايعته فقال له: «إن لك حق الطاعة والنصيحة، وإن الرأى اليوم تحرز به مافى غد، وإن الضياع اليوم تضيع به ما فى غد. أقرر معاوية على عمله، وأقرر العمال على أعمالهم، حتى إذا أتتك طاعتهم وبيعة الجنود استبدلت أو تركت»

فأبى وقال: «لا أداهن فى دينى، ولا أعطى الدنية فى أمرى» قال المغيرة: «فإن كنت أبيت على فانزع من شئت واترك معاوية، فإن فى معاوية جرأة، وهو فى أهل الشام يستمع له ولك حجة فى إثباته. إذ كان عمر قد ولاه الشام»..

فقال علىّ: «لا والله.. لا أستعمل معاوية يومين»

* * *

ثم خرج المغيرة ودخل عليه ابن عباس فقال له، لما علم برأى المغيرة: «إنه نصحك».

قال علىّ: «ولم نصحنى؟»

قال: «لأنك تعلم أن معاوية وأصحابه أهل دنيا، فمتى تثبتهم لا يبالوا بمن ولى هذا الأمر، ومتى تعزلهم يقولوا أخذ هذا الأمر بغير شورى، وهو قتل صاحبنا، ويؤلبون عليك فينقض عليك أهل الشام وأهل العراق».

ثم مضت الأيام، وشاع بين أهل المدينة أن معاوية منتقض على الإمام.. فبعثوا بزياد ابن حنظلة التميمى يعلم ما عنده من أمر هذا الانتقاض، وكان زياد من جلسائه.

فقال له الإمام: «تيسر»

قال زياد: «لأى شىء؟»

قال: «تغزو الشام»

فقال زياد: «الأناة والرفق أمثل. واستشهد بقول الشاعر:

ومن لم يصانع فى أمور كثيرة   يضرس بأنياب ويوطأ بمنسم

فتمثل علىّ:

متى تجمع القلب الذكى وصارما   وأنفا حميا تجتنبك المظالم»

فخرج زياد إلى الناس وهم يسألونه: «ماوراءك؟» فأجابهم: «هو السيف ياقوم!»..

* * *

تلك آراء المشيرين من ذوى الحنكة، وذلك ما عمل به الإمام وارتضاه فأيهما على خطأ وأيهما على صواب؟.

سبيل العلم بذلك أن نعلم أولا: هل كان الإمام مستطيعًا أن يقر معاوية فى عمله بالشام؟..

وأن تعلم بعد هذا: هل كان إقراره أدنى إلى السلامة والوفاق لو أنه استطيع؟..

وعندنا أن الإمام لم يكن مستطيعًا أن يقر معاوية فى عمله لسببين: أولهما أنه أشار على عثمان بعزله أكثر من مرة، وكان إقراره وإقرار أمثاله من الولاة المستغلين أهم المآخذ على حكومة عثمان فى رأى على وذوى الصلاح والاستقامة بين الصحابة، وكثيرًا ما اعتذر عثمان من إقرار معاوية بأنه من ولاة عمر بن الخطاب.. فكان علىّ لا يقبل هذا العذر ولا يزال يقول له: «إنه كان أخوف لعمر بن الخطاب من غلامه «يرفأ».. ولكنه بعد موت عمر لا يخاف»

فإذا أقره وقد ولى الخلافة، فكيف يقع هذا الإقرار عند أشياعه؟ ألا يقولون إنه طالب حكم لا يعنيه إذا وصل إلى بغيته ما كان يقول وما سيقوله الناس؟

وإذا هو أعرض عن رأيه الأول، فهل فى وسعه أنه يعرض عن آراء الثائرين الذين بايعوه بالخلافة لتغيير الحال والخروج من حكم عثمان إلى حكم جديد؟..

إن هؤلاء الثائرين أشفقوا من نية الصلح مع طلحة والزبير فى وقعة الجمل فبدءوا بالهجوم قبل أن يؤمروا به.. بل هجموا على أهل البصرة وهم مأمورون بالهدنة والأناة فكيف تراهم يهدءون ويطيعون إذا علموا أن الولايات باقية على حالها، وأن الاستغلال الذى شكوا منه وسخطوا عليه لا تبديل فيه؟..

وندع هذا ونزعم أن إقرار معاوية بحيلة من الحيل مستطاع.. فهل هو على هذا الزعم أسلم وأدنى إلى الوفاق؟

كلا.. على الأرجح، بل على الرجحان الذى هو فى حكم التحقيق لأن معاوية لم يعمل فى الشام عمل والٍ يظل واليا طوال حياته، ويقنع بهذا النصيب ثم لا يتطاول إلى ما وراءه، ولكنه عمل فيها عمل صاحب الدولة التى يؤسسها ويدعمها له ولأبنائه من

بعده.. فجمع الأقطاب من حوله، واشترى الأنصار بكل ثمن فى يديه، وأحاط نفسه بالقوة والثروة، واستعد للبقاء الطويل، واغتنام الفرصة فى حينها.. فأى فرصة هو واجدها خير من مقتل عثمان والمطالبة بثأره؟

وإنما كان مقتل عثمان فرصة لا يضيعها، وإلا ضاع منه الملك وتعرض يوما من الأيام لضياع الولاية. وما كان مثل معاوية بالذى يفوته الخطر من عزله بعد استقرار الأمور، ولو على احتمال بعيد.. فماذا تراه صانعًا إذا هو عزل بعد عام من مبايعته لعلى وتبرئته إياه من دم عثمان؟

إنما كان مقتل عثمان فرصة لغرض لا يقبل إلا رجاء..

وإذا كان هذا موقف على ومعاوية عند مقتل عثمان، فماذا كان على مستفيدًا من إقراره فى عمله وتعريض نفسه لغضب أنصاره..

لقد كان معاوية أحرى أن يستفيد بهذا من علىّ، لأنه كان يغنم به حسن الشهادة له وتزكية عمله فى الولاية، وكان يغنم به أن يفسد الأمر على علىٍّ بين أنصاره، فتعلو حجته من حيث تسقط حجة الإمام..

وأصدق ما يقال بعد عرض الموقف على هذا الوجه من ناحيتيه إن صواب الإمام فى مسألة معاوية كان أرجح من صواب مخالفيه.. فإن لم تؤمن بهذا على التقدير والترجيح، فأقل ما يقال إن الصواب عنده وعندهم سواء.

والتقدير فى مسالة طلحة والزبير أيسر من التقدير فى مسألة معاوية وولاية عثمان على الأمصار:

لأن الرأى الذى عمل به الإمام معروف، والآراء التى تخالفه لا تعدو واحدًا من ثلاثة كلها أغمض عاقبة، وأقل سلامة، وأضعف ضماناً من رأيه الذى ارتضاه.

فالرأى الأول أن يوليهما العراق واليمن أو البصرة والكوفة، وكان عبد الله بن عباس على هذا الرأى فأنكره الإمام لأن «العراقين بهما الرجال والأموال، ومتى تملكا رقاب الناس يستميلان السفيه بالطمع ويضربان الضعيف بالبلاء، ويقويان على القوى

بالسلطان..» ثم ينقلبان عليه أقوى مما كان بغير ولاية، وقد استفادا من إقامة الإمام لهما في الولاية تزكية يلزمان بها الحجة، ويثيران بها أنصاره عليه.

* * *

والرأى الثانى أن يوقع بينهما ليفترقا ولا يتفقا على عمل، وهو لا ينجح فى الوقيعة بينهما إلا بإعطاء أحدهما وحرمان الآخر.. فمن أعطاه لا يضمن انقلابه مع الغرة السانحة، ومن حرمه لا يأمن أن يهرب إلى الأثرة كما هرب غيره، فيذهب إلى الشام ليساوم معاوية، أو يبقى فى المدينة على ضغينة مستورة.

على أنهما لم يكونا قط متفقين حتى فى مسيرهما من مكة إلى البصرة، فوقع الخلاف فى عسكرهما على من يصلى بالناس، ولولا سعى السيدة عائشة بالتوفيق بين المختلفين لافترقا من الطريق خصمين متنافسين

ولم تطل المحنة بهما متفقين أو مختلفين، فانهزما بعد أيام قليلة، وخرج الإمام من حربهما أقوى وأمنع مما كان قبل هذه الفتنة، ولو بقيا على السلم المدخول لما انتفع بهما بعض انتفاعه بهذه الهزيمة العاجلة

والرأى الثالث أن يعتقلهما أسيرين، ولا يبيح لهما الخروج من المدينة إلى مكة حين سألاه الإذن بالمسير إليها، ثم خرجا منها إلى البصرة ليشنا الغارة عليه.

والواقع أن الإمام قد استراب بما نوياه حين سألاه الإذن بالسفر إلى مكة.. فقال لهما: «ما العمرة تريدان، وإنما تريدان الغدرة!»،

ولكنه لم يحبسهما، لأن حبسهما لن يغنيه عن حبس غيرهما من المشكوك فيهم. وقد تركه عبد الله بن عمر ولم يستأذنه فى السفر، وتسلل إلى الشام أناس من مكة ومن المدينة ولا عائق لهم أن يتسللوا حيث شاءوا، ولو أنه حبسهم جميعًا لما تسنى له ذلك بغير سلطان قاهر، وهو فى ابتداء حكمه لما يظفر بشيء من ذلك السلطان، وأغلب الظن أن سواد الناس كانوا يعطفون عليهم وينقمون حبسهم قبل أن تثبت له البينة بوزرهم. وما أكثر المتحرجين فى عسكر الإمام من حبس الأبرياء بغير برهان؟.. لقد كان هؤلاء خلقاء أن ينصروهم عليه وقد كانوا ينصرونه عليهم، وخير له مع طلحة والزبير وأمثالهما

أن يعلنوا عصيانهم فيغلبهم من أن يكتموه فيغلبوه ويشككوا بعض أنصاره فى عدله وحسن مجاملته لهم.

* * *

وعلى هذا كله، حاسنوه ولم يصارحوه بعداء.. لم يكن الجيش الذى خرج من مكة إلى البصرة بيائس من الخروج إليها إذا لم يصحبه طلحة والزبير فقد كانت «العثمانية» فى مكة حزبًا موفور العدد والمال.. فهى مسألة تلتبس فيها الطرائق، ولا يسعنا أن نجزم بطريقة منها أسلم ولا أضمن عاقبة من الطريقة التى سلكها الإمام وخرج منها غالبًا على الحجاز والعراق، وما كان وشيكًا أن يغلب عليهما لو بقى معه طلحة والزبير على فرض من جميع الفروض التى قدمناها..

أما عزل قيس بن سعد من ولاية مصر، فهى غلطة من غلطات الإمام يقل الخلاف فيها..

لأن قيس بن سعد كان أقدر أصحابه على ولاية مصر وحمايتها، وكان كفؤا لمعاوية وعمرو بن العاص فى الدهاء والمداورة، فعزله الإمام لأنه شك فيه.. وشك فيه لأن معاوية أشاع مدحه بين أهل الشام، وزعم أنه من حزبه والمؤتمرين فى السر بأمره.

وكان أصحاب على يحرضونه على عزله، وهو يستمهلهم ويراجع رأيه فيه حتى اجتمعت الشبهات لديه.. فعزله وهو غير واثق من التهمة، ولكنه كذلك غير واثق من البراءة.

وشبهاته مع ذلك لم تكن بالقليلة ولا بالضعيفة، فإن قيس بن سعد لم يدخل مصر إلا بعد أن مر بجماعة من حزب معاوية، فأجازوه ولم يحاربوه وهو فى سبعة نفر لا يحمونه من بطشهم، فحسبوه حين أجازوه من العثمانية الهاربين إلى مصر من دولة على فى الحجاز..

ولما بايع المصريون عليًّا على يديه، بقى العثمانيون لا يبايعون ولا يثورون، وقالوا له: «أمهلنا حتى يتبين لنا الأمر» فأمهلهم وتركهم وادعين حيث طاب لهم المقام بجوار الإسكندرية.

* * *

ثم أغراه معاوية بمناصرته والخروج على الإمام، فكتب إليه كلامًا لا إلى الرفض ولا إلى القبول، ويصح لمن سمع بهذا الكلام أن يحسبه مراوغًا لمعاوية أو يحسبه مترقبًا لساعة الفصل بين الخصمين.. إذ كان ختام كتابه إليه: «.. أما متابعتك فأنظر فيها، وليس هذا مما يسرع إليه وأنا كاف عنك فلا يأتيك شيء من قبلى تكرهه، حتى نرى وترى»

ثم اشتد فى وعيده حين أنذره معاوية فقال: «أما قولك إنى مالئ عليك مصر خيلا ورجلا، فو الله إن لم أشغلك بنفسك حتى تكون نفسك أهم إليك إنك لذو جد والسلام..».

وأراد الإمام أن يستيقن من الخصومة بين قيس ومعاوية، فأمر قيسًا أن يحارب المتخلفين عن البيعة.. فلم يفعل وكتب إليه: «..متى قاتلنا ساعدوا عليك عدوك، وهم الآن معتزلون والرأى تركهم»

فتعاظم شك الإمام وأصحابه، وكثر المشيرون عليه بعزل قيس واستقدامه إلى المدينة.. فعزله واستقدمه، وتبين بعد ذلك أنه أشار بالرأى الصواب، وإن ترك المتخلفين عن البيعة فى عزلتهم خير من التعجيل بحربهم، لأنهم هزموا محمد بن أبى بكر والى مصر الجديد، وجرءوا عليه من كان يصانعه ويواليه.

غلطة لا ريب فيها.

وإن كان جائزًا مع هذا ألا يهزموا قيسًا، لو كان حاربهم، كما هزموا خلفه الذى لا يعدله فى الحزم والخبرة.

ولكننا نبالغ على كل حال، إذا علقنا بها الجرائر التى أصابت الإمام من بعدها، وزعمنا أنه تقاعد عن إصلاحها فى حينها، كما تصلح الغلطات التى يساق إليها الساسة.. فإنما هى غلطة من تلكم الغلطات التى تضير والحوادث موالية.. وقلما تضير أو تعز على الإصلاح والحوادث مواتية وقد عرف الإمام خطأه فقال لصحبه: (إن مصر لا يصلح لها إلا أحد رجلين هذا الذى عزلناه والأشتر)، وأنفذ الأشتر إلى مصر ليعيدها إلى طاعته فمات فى الطريق.

* * *

والأقوال فى موت الأشتر هذه الميتة الباغتة كثيرة، منها أنه مات غيلة وأن معاوية

أغرى به من دس له السم فى عسل.. شربه وهو على حدود مصر فقضى نحبه، وروى أن معاوية قال حين بلغه موته: (إن لله جنودًا من العسل)..

فإن صحت الرواية، واعتقد من اعتقد أنها من دلائل السياسة القوية عند معاوية.. فمما لا شك فيه أن موت الأشتر، لم يكن من دلائل السياسة الضعيفة عند الإمام، وأنه لا لوم على سياسته فى اغتياله، إن كان فيه سبب ثناء على سياسة الغيلة عند من يحمدونها.

ومن عجائب هذه القصة أن معاوية ندم على تقريب قيس من جوار علىّ، وقال، «لو أمددته بمائة ألف لكانوا أهون على من قيس» لأنه قد ينفعه وهو قريب منه بالمشورة عليه فى عامة أموره، ولا ينحصر نفعه له فى سياسة مصر وحدها.

ولكن الذى حذره معاوية لم يكن، والذى عذره على كان..

وإذا ولت الحوادث فقد ينفع الخطأ وقد يضير الصواب.

ثم تأتى مسألة القصاص من قتلة عثمان التى كانت أطول المسائل جدلا بين الإمام وخصومه، فإذا هى أقصرها جدلا مع براءة المقصد من الهوى وخلوص الرغبة فى الحقيقة.

فقد طالبوه بالقود ولم يبايعوه، مع أن القود لا يكون إلا من ولى الأمر المعترف له بإقامة الحدود.

وطالبوه به ولم يعرفوا من القتلة، ومن هو الذى يؤخذ بدم عثمان من القبائل أو الأفراد.

وأعنتوه بهذا الطلب لأنهم علموا أنه لا يستطاع قبل أن تثوب السكينة إلى عاصمة الدولة، وأعفوا أنفسهم منه – وهم ولاة الدم كما يقولون – يوم قبضوا على عنان الحكم وثابت السكينة إلى جميع الأمصار.

* * *

وقد تحدث الإمام مرة فى أمر القود من قتلة عثمان، فإذا بجيش يبلغ عشرة آلاف يشرعون الرماح ويجهرون بأنهم «كلهم قتلة عثمان». فمن شاء القود فليأخذه منهم أجمعين.

وكان الإمام يقول لمن طلبوا منه إقامة الحدود: «إنى لست أجهل ما تعلمون، ولكنى كيف أصنع بقوم يملكوننا ولا نملكهم، ها هم هؤلاء قد ثارت معهم عبدانكم وثابت إليهم أعرابكم، وهم بينكم يسومونكم ما شاءوا، فهل ترون موضعًا لقدرة على شىء مما تريدون؟..»

ومن قوله لهم: «.. إن هذا الأمر أمر جاهلية، وإن لهؤلاء القوم مادة، وإن الناس من هذا الأمر الذى تطلبون على أمور: فرقة ترى ما ترون، وفرقة ترى ما لا ترون، وفرقة لا ترى هذا ولا هذا حتى تهدأ الناس وتقع القلوب مواقعها؛ وتؤخذ الحقوق فاهدءوا عنى، وانظروا ماذا يأتيكم ثم عودوا»

ولو أن المطالبين بدم عثمان التمسوا أقرب الطرق إلى الثأر له، والقصاص من العادين عليه، لقد كان هذا أقرب الطرق إلى ما أرادوا. يؤيدون ولى الأمر حتى يقوى على إقامة الحدود، ثم يحاسبونه بحكم الشريعة حساب إنصاف..

إلا أنهم طلبوا ما لا يجاب، وما لم يكن من حقهم أن يطلبوه، وليس بينهم أعف ولا أتقى من السيدة عائشة رضى الله عنها. وقد روى عنها أنها قالت لما أخبرت ببيعة على وهى خارجة من مكة: «ليت هذه انطبقت على هذه إن تم الأمر لعلى» تشير إلى السماء والأرض.. ثم عادت إلى مكة وهى تقول: «قتل والله عثمان مظلومًا، والله لأطلبن بدمه»..

فقيل لها: «ولم؟.. والله إن أول من أثار الناس عليه لأنت.. ولقد كنت تقولين: اقتلوا «نعثلا» فقد كفر».

فقالت: «إنهم استتابوه ثم قتلوه، وقد قلت وقالوا، وقولى اليوم خير من قولى الأول».

وناهيك بالسيدة عائشة فى فضلها ومكانتها وتقواها، فقل ما شئت فى المطالبين غيرها بهذا المطلب الذى لا يجاب.

والرضا، أو الإرضاء، مستحيل حين يكون الطلب من هذا القبيل.

* * *

أما الذين لاموه لقبوله التحكيم، فيخيل إلينا من عجلتهم إلى اللوم أنهم كانوا أول من يلومه ويفرط فى لومه لو أنه رفض التحكيم وأصر على رفضه، لأنه لم يقبل التحكيم وله مندوحة عنه..

ولكنه قبله بعد إحجام جنوده عن الحرب، ووشك القتال فى عسكرهم خلافًا بين من يقبلونه ويرتضونه.

وقبله بعد أن حجز الحفاظ والقراء نيفًا وثمانين فزعة للقتال لشكهم فى وجوبه وذهاب بعضهم إلى تحريمه.

وبعد أن توعدوه بقتله كقتلة عثمان، وأحاطوا به يلحون عليه فى استدعاء الأشتر النخعى الذى كان يلاحق أعداءه مستحصدًا فى ساحة الحرب على أمل فى النصر القريب..

والمؤرخون الذين صوبوا رأيه فى التحكيم وخطئوه فى قبول أبى موسى الأشعرى، على علمه بضعفه وتردده، ينسون أن أبا موسى كان مفروضًا عليه؛ كما فرض عليه التحكيم فى لحظة واحدة.. وينسون ما هو أهم من ذلك، وهو أن العاقبة متشابهة سواء ناب عنه أبو موسى الأشعرى أو ناب عنه الأشتر أو عبد الله بن عباس.. فإن عمرو بن العاص لم يكن ليخلع معاوية ويقر عليًّا فى الخلافة، وقصارى ما هنالك أن الحكمين سيفترقان على تأييد كل منهما لصاحبه ورجعة الأمور إلى مثل ما رجعت إليه. وأن توهم بعضهم أن الأشتر أو ابن عباس كان قديرًا على تحويل ابن العاص عن رأيه، والجنوح به إلى حزب الإمام؛ بعد مساومته التى ساومها حزب معاوية.. فليس ذلك على التحقيق بمقنع معاوية أن يستكين ويستسلم، وحوله المؤيدون والمترقبون للمطامع واللبانات يعز عليهم إخفاقهم كما يعز عليه إخفاقه.

* * *

وما أسهل المخرج الشرعى الذى يلوذ به معاوية فيقبله منه أصحابه ويتابعونه على نقض حكم الحكمين المتفقين؟.. لقد كان النبى عليه السلام يقول عن عمار بن ياسر إنه «تقتله الفئة الباغية» فلما قتله جند معاوية، وخيفت الفتنة بينهم أن تلزمهم سبة البغى بشهادة الحديث الشريف – قال قائل منهم: إنما قتله من جاء به إلى الحرب.. فشاع بينهم

هذا التفسير العجيب وقبلوه جميعًا غير مستثنى منهم رجل واحد.. أفلا يقبلون تفسيرًا مثله إذا تحول ابن العاص، وأفتى الحكمان بخلع معاوية ومبايعة الإمام؟

فليس فى أيدى المؤرخين الناقدين إذن حل أصوب من الحل الذى أذعن له الإمام على كره منه، سواء أذعن له وهو عالم بخطئه أو أذعن له وهو يسوى بينه وبين غيره فى عقباه.

ويبقى اعتزال الخلافة من البداية، وهو خطة ترد على الخاطر حيال هذه المعضلات التى واجهها الإمام، ولم يكن عسيرًا عليه أن يتوقعها بعد مقتل عثمان وشيوع الفتنة والشقاق بين الأمصار كلها.. وشيوعها قبل ذلك بين جنده الذى يعول عليه.

ولكنها خطة سلبية لا يمتحن بها رأى ولا عمل، ولا ترتبط بها تجربة ولا فشل.. كل ما هنالك من أسباب ترجيحها أنها أسلم للإمام وآمن لسربه وأهدأ لباله، وهو أمر مشكوك فيه.. على ما فى طلب السلامة بين هذه الزعازع من أثرة، قلما يرتضيها الشجاع الباسل أو الحكيم العامل..

فمن السخف أن يخطر على البال أن رجلا كعلى بن أبى طالب، يترك وادعًا فى سربه بين هذه الزعازع التى تحيط بالدولة الإسلامية فى عصره..

إن تركه الثوار وأعفوه من الحكم، لم يتركه أصحاب السلطان ولم يعفوه من الدسيسة والإيذاء، لاعتقادهم أنه باب من أبواب الخطر الدائم، وأنه ما عاش فهو علم منصوب يفىء إليه كل ساخط وكل مصلح وكل مخالف على الدين أو على الدنيا. وقد قيل إن ابنه الحسن مات مسمومًا فى عهد معاوية خوفًا من لياذ الناس به ورجعتهم إليه. وقيل مثل ذلك عن عبد الله بن خالد بن الوليد.. وما أعظم البون فى المكانة والحساب بينهما وبين الإمام عند أصحاب المخاوف وأصحاب الآمال.

* * *

ولعلنا نقارب هذه الحقيقة من ناحية أخرى، إذا رجعنا إلى أقوال أبطال الميدان نفسه فى علل النصر والهزيمة، وفيها يقال عن مزية كل منهم على خصمه أو مزية خصمه عليه.

فعلى يسمع ما يقال عن شجاعته ورجحان معاوية عليه فى الدهاء، فيقول: «.. والله

ما معاوية بأدهى مني، ولكنه يغدر ويفجر، ولولا كراهية الغدر لكنت من أدهى الناس..».

أو يقول: «ولكنه لا رأى لمن لا يطاع»

ويعلل ما أصابه فى بيعته بما أجمله لأتباعه حين قال لهم: «..لم تكن بيعتكم إياى فلتة، وليس أمرى وأمركم واحدًا.. إنى أريدكم لله، وأنتم تريدوننى لأنفسكم»

ومعاوية يذكر الخصال التى أعين بها على علي، فيقول: «إنه كان رجلا لا يكتم سرا وكنت كتوما لسرى، وكان يسعى حتى يفاجئه الأمر مفاجأة وكنت أبادر إلى ذلك، وكان فى أخبث جند وأشدهم خلافًا. وكنت أحب إلى قريش منه، فنلت ما شئت..»

وعمرو بن العاص يقول عن عدة النجاح فى طلب الخلافة: «إنه لا يصلح لهذا الأمر إلا رجل له ضرسان، يأكل بأحدهما ويطعم بالآخر»

وهذه هى أسباب النصر والهزيمة على حقيقتها، إلا أنها تظل ناقصة ما لم نقرنها بحقيقة أخرى، وهى أن هزيمة معاوية كانت مرجحة – بل مؤكدة – لو أنه وضع فى موضع علي، وابتلى بالأسباب التى ابتلى بها.

فالبلاء كله إنما كان فى خبث الأجناد وشدة خلافهم، ولهذا كان سر علي يعرف وسر معاوية يكتم.. لأن معاوية يطاع ونيته فى صدره، وعلياً لا يطاع إلا إذا سئل عن نيته وما يحل منها أو يحرم فى رأى أتباعه. وكذلك كانت تفاجئه الحوادث لأنه كان يروى فيها ما يروى، ولا ينفذ من رويته إلا الذى ينساق إليه هو وأتباعه آخر المطاف بحكم الضرورة الحازبة، وقد بطل الجدل وبطل من قبله التدبير.

* * *

ولو أن معاوية كتب عليه أن يحارب جنداً مطيعاً بجند عصاة، لما طمع فى حظ أوفق من حظ علي فى ذلك الصراع المتفاوت بين الخصمين.. ولو استعان بكل ما أعين به من رشوة الأنصار وكيد الخصوم، بل لعله كان يخفق حيث أفلح قرنه على قدر ما بينهما من فارق فى الشجاعة والسابقة الدينية، وكذلك قال الإمام: «إن لبنى أمية مرودًا يجرون فيه ولو قد اختلفوا فيما بينهم ثم كادتهم الضباع لغلبتهم»

على أننا نود أن نقف عند الحد المأمون فى تعليل النصر والهزيمة، ولا نعدوه إلى

ما وراءه.. فليس من قصدنا أن نصف عليًّا بقوة الدهاء وسعة الحيلة، ولكننا قصدنا أن نبرئه من عجز الرأى وضعف التدبير، لأن أسباب الهزيمة موفورة بغير هذا السبب الذى لا دليل عليه..

فقوام الفصل بين الطرفين، أنه لا دليل لدينا من الحوادث على عجز رأى ولا قوة دهاء.. ولو كانت قوة الدهاء صفة غالبة فيه لظهرت على صورة من الصور، وإن قامت الحوادث عائقة بينها وبين النجاح.. فإن الدهاء لا يخفيه أن تكون المعضلة التى يعالجها محتومة الفشل مقرونة بالخذلان.

ومما لاشك فيه، أن عليًّا أشار بالرأى فى مواقف كثيرة فأصاب المشورة، وأنه وصف أناساً فدل على خبرة بالرجال وما يغلب عليهم من الطباع والخصال، وأنه أخذ بالحزم فى توقع الحوادث واستطلاع الأمور ولكنه لزم الكفاية فى ذلك، ولم يتجاوزها إلى الأمد الذى يسلكه بين الدهاة الموسومين بفرط الدهاء

فمن مشوراته الصائبة، أنه نهى عمر رضى الله عنه أن يخرج لحرب الروم والفرس بنفسه، فقال له: «إنك متى تسر إلى هذا العدو بنفسك فتلقهم فتنكب، لا تكن للمسلمين كائنة دون أقصى بلادهم.. ليس بعدك مرجع يرجعون إليه، فابعث إليهم رجلاً مجرباً.. فإن أظهره الله فذلك ما تحب، وإن تكن الأخرى كنت ردءاً للناس ومثابة للمسلمين».

* * *

ومن وصفه للرجال وأساليب تناولهم، قوله لابن عباس وقد أرسله إلى طلحة والزبير: «لا تلقين طلحة، فإنك إن تلقه تلقه كالثور عاقصًا – أى لاويًا – قرنه يركب الصعب ويقول هو الذلول، ولكن الق الزبير فإنه ألين عريكة فقل له: «يقول لك ابن خالك عرفتنى بالحجاز وأنكرتنى بالعراق.. فما عدا مما بدا؟»».

ومن حزمه أنه كان يبث عيونه وجواسيسه فى الشرق والغرب ليطلعوه على أخبار أعوانه وأعدائه، وأنه كان إذا وجبت الحرب بادر بالخروج ولم يأته التردد والإبطاء بعد ذلك إلا من خلاف جنده.

ومن معرفته للجماهير أنه وصفهم أوجز وصف حين قال إنهم أتباع كل ناعق، وإنهم

«هم الذين إذا اجتمعوا ضروا وإذا تفرقوا نفعوا».. لأنهم إذا تفرقوا رجع أصحاب المهن إلى مهنهم فانتفع بهم الناس..

فهذا قسط من الرأى الصائب كاف لمهمة الحكم لو تصدى به الإمام للخلافة.. والعصر عصر خلافة وليس بعصر دولة دنيوية مضطربة فى دور تأسيسها وتلفيق أجزائها.

بل هو قسط كاف لمهمة الحكم فى الدولة الدنيوية، لو تولاها بعد استقرارها والفراغ من مكائد تأسيسها.. كما جاء عمر بن عبد العزيز فى صلاحه وتقواه بعد الملوك الأولين من بنى أمية.

ولكنه قسط من الرأى لا يسلك صاحبه بين أساطين الدهاة الذين يكيدون بالرأى وبالعمل النافذ على السواء.

ونعود بعد هذا، فتقول إنه لم يخسر كثيراً بما فاته من الدهاء.. ولم يكن ليربح كثيراً لو استوفى منه أوفى نصيب، لأنه لابد من ملك أو خلافة..

ولن يكون ملكاً بأدوات خليفة، ولا خليفة بأدوات ملك ولن تبلغ به الحيلة أن يحارب رجلاً يريد العصر والعصر يريده، لأنه عصر ملك تهيأت له الدواعى الاجتماعية، وتهيأ له الرجل بخلائقه ونياته ومعاونة أمثاله.

* * *

ولم يكن معاوية زاهداً فى الخلافة على عهد أبى بكر أو عمر أو عثمان، ولكن الخلافة كانت زاهدة فيه.

فلما جاء عصر الملك، طلب الملك والملك يطلبه.

وقديماً قال أبوه للعباس عم النبى، وقد رأى جيش المسلمين فى فتح مكة: «لقد أصبح ملك ابن أخيك عظيماً».

فهو الملك، أو هو جاه الدنيا، الذى تطلع إليه من نشأته الأولى فى بيته.. وانتظر ثم انتظر حتى لاقاه على قدر، فوضع فى موضعه وقام به الموضع كما قام به، ونجحا معاً على التوافق والرفاء.

وحين وجب أن يقع الفصل بين الملك والخلافة، وجب أن يكون على رأس فريق الخلافة.

وحين وجب أن يقع الفصل بين أصحاب المنافع الراغبين فى دوام المنفعة، وبين أصحاب المبادئ والظلامات الراغبين فى التبديل والإصلاح، وجب أن يكون على رأس هذا الفريق دون ذلك الفريق.

وحين وجب هذا وذاك وجوباً لا حيلة فيه للمتحول، ولا اختيار فيه للمختار، وجب أن تصير خلافه علىّ إلى ما صارت إليه، كائناً ما كان خطره من الدهاء والخدعة، وكائناً ما كان طريقه الذى ارتضاه هو أو أشار به المشيرون عليه.

* * *

وقد يحسن بالمؤرخ بعد الموازنة بين عدة الخلافة وعدة الملك فى صراع على ومعاوية، أن يذكر عدة أخرى لم تظهر فى هذا الصراع، وقد ظهرت فى مآزق شتى من أحرج مآزق التاريخ، واعتمد عليها أبطاله الكبار كثيراً فى تأسيس الدول وقمع الثورات، فاختصروا الطريق وأراحوا أنفسهم من عناء طويل، ونريد بها عدة البطش العاجل والمباغتة الحاسمة كلما تأشبت العقد وتعسرت الحيلة ووجب الخلاص السريع.

فقد علمنا مثلاً أن الأشعث بن قيس كان يعترض الإمام فى كل خطوة من خطوات النصر، ويثقل عليه باللجاجة والعنت فى مواقف مكربة تضيق بها الصدور.

ولم يكن الأشعث بن قيس بالوحيد فى هذا الباب، بل كان له شركاء من الخوارج وغير الخوارج، يظهرون بالعنت فى غير موضعه ويذهبون به وراء حده وربما بلغوا من الضرر فى معسكر الإمام فوق مبلغ الأشعث بن قيس، على عظم الفارق بين سلطانهم وسلطانه.

ألا يخطر على البال هنا، أن ضربة من الضربات القاضية كانت تنجع فى هذا العنت المكرب حيث لا تنجع العقوبة الشرعية أو الأحاييل السياسية؟..

ماذا لو أن الإمام جرد سيفه بين أولئك المشاغبين، وأطاح برأس الأشعث بن قيس قبل أن يفيق أحد إلى نفسه، ثم ولى على الفور من يقوم مقاومة فى رئاسة قوم ويكفل لهم

الطاعة بينهم لأمره؟.. أكان بعيداً أن تفعل الرهبة فعلها، فيسكن المشاغب، ويهاب المتطاول، ويجتمع المتفرق، ويقل الخلاف بعد ذلك على الإمام وعلى الرؤساء عامة؟.

لم يكن ذلك ببعيد.

لكنه كذلك لم يكن بالمحقق، ولا بالمأمون.

فهى مجازفة ذات حدين، تصيب بأحدهما وقد تصيب بهما معاً.. وقد يكون الحد الذى تصيب به هو الحد الذى من قبل الضارب دون الحد الذى من قبل المضروب.

وكل ما تفيدنا إياه هذه الملاحظة العابرة على التحقيق، أن الإمام رضى الله عنه لم يكن من أصحاب هذه الملكة التى اتصف بها بعض أبطال القلاقل فى أيام الفصل بين عهدين متدابرين.. فكانت له ضربة الشجاع، ولم تكن له ضربة المغامر أو المقامر.

ولم يضرب بالسيف قط، كأنه يقذف بالقداح إما إلى الكسب وإما إلى الخسارة.. وإنما كان يضرب به ضرب الجندى الذى يلتمس الغلب بقوته وقوة إيمانه، ولا يلتمسه من جولات السهام وفلتات الغيب.

على أننا – وقد سجلنا هذه الملاحظة – نفرض أنه رضى الله عنه كـان من أصحاب تلك الملكة التى عرف بها بعض المغامرين فى أوقات الفصل بين العهود

ونفرض أنه عمد إليها، فنفعته فى عسكره وطوعت له الجند وأراحته من شغب الخارجين عليه والمتشعبين بالآراء والفتاوى من يمينه وشماله.

فماذا عسى أن يغير هذا كله من طبيعة الموقف الذى أجملناه؟.. يكون المخرج بين سياسة الملك، كما يطلبها العصر، وسياسة الخلافة كما تطلبها البقية الباقية من آداب الفترة النبوية؟.

أيسوس الإمام دولته ملكاً دنيويًّا أم يسوسها خليفة نبوة؟

أيفرق الأموال على رءوس القوم وقادة الجند وطلاب الترف أم يلزمهم عيشة النسك والشظف والجهاد؟

وإذا حرمهم وتألبوا عليه مع خصمه، أفهو الغالب إذن بمطالب العصر ومقتضياته ودواعيه أم هم الغالبون؟

وإذا أعطاهم ليبذخوا بذخ الملك الدنيوى وهو وحده بينهم الناسك المجتهد على سنة النبوة، أفيستقيم له هذا الدور العجيب وهو فى جوهره متناقض لا يستقيم؟

فالسياسة التى اتبعها الإمام هى السياسة التى كانت مقيضة له مفتوحة بين يديه، وهى السياسة التى لم يكن له محيد عنها، ولم يكن له أمل فى النجاح إن حاد عنها إلى غيرها.. سواء عليه اتفق جنده بضربة من الضربات القاضية أم لم يتفقوا على دأبهم الذى رأيناه، وسواء لان لطلاب الدولة الدنيوية أم صمد على سنة النبوة والخلافة النبوية.

* * *

ومهما يكن من حكم الناقدين فى سياسة الإمام، فمن الجور الشديد أن يطالب بدفع شىء لا سبيل إلى دفعه، وأن يحاسب على مصير الخلافة وهى منتهية لا محالة إلى ما انتهت إليه..

ومن الجور الشديد، أن يلقى عليه اللوم لأنه باء بشهادة الخلافة، ولابد لها من شهيد.

وقد تجمعت له أعباء النقائض والمفارقات التى نشأت من قبله، ولم يكد يسلم منها خليفة من الخلفاء بعد النبى صلوات الله عليه.

أحس بها الصديق، فمات وهو ينحى على الصحابة ويحذرهم بوادر الترف الذى استناموا إليه.

وأحس بها الفاروق وأثقلت كاهله، وهو الكاهل الضليع بأفدح الأعباء.. فضاق ذرعاً بالحياة، وطفق يقول فى سنة وفاته: «اللهم كبرت سنى وضعفت قوتى، وانتشرت رعيتى، فاقبضنى إليك غير مضيع ولا مفرط.. اللهم ارزقنى الشهادة فى سبيلك».

وأحس بها عثمان، فما فارق الدنيا حتى ترك الخلافة والملك عسكرين متناجزين، لا يرجع أحدهما إلا بالغلبة على نده وضده.

وكتب لعلى بعد ذلك أن يتلقى الدولة الإسلامية بين هذين العسكرين، فلا فى مقدوره أن يجمعهما إلى عسكر واحد، ولا فى مقدوره أن يختار منهما عسكر الملك، ولا أن يختار عسكر الخلافة الدينية فتظل على يديه خلافة دينية بعد أوانها

وما لم يكن فى مقدوره لم يكن فى مقدور غيره، وإنه لإنصاف قليل أن نعرف له هذه المعاذير الصادقة، وهو الذى باء وحده بتلك النقائض والأعباء.

وقد نقدت سياسة على لفوات الخلافة منه قبل البيعة. كما نقدت سياسته لفوات الخلافة منه بعد البيعة وأحصى عليه بعض المؤرخين أنه تأخر نيفاً وعشرين سنة.. فلم يخلف النبى، ولم يخلف أبا بكر، ولم يخلف عمر.. كأنه كان مستطيعاً أن يخلف أحداً منهم بعمل من جهده وسعى من تدبيره، فأعياه السعى والتدبير.

ومقطع الفصل فى هذا أن نرجع إلى العوائق التى حالت بينه وبين الخلافة قبل وصولها إليه، لنعلم منها العائق الذى كان فى أيدى الحوادث والعائق الذى كان فى يديه، أو كانت له قدرة معقولة عليه.

* * *

فمما لا شك فيه أن الإمام أنكر إجحافًا أصابه فى تخطيه بالبيعة إلى غيره بعد وفاة ابن عمه صلوات الله عليه، وأنه كان يرى أن قرابته من النبى مزية ترشحه للخلافة بعده لأنها فرع من النبوة على اعتقاده، وهم شجرة النبوة ومحط الرسالة، كما قال..

ومما لا شك فيه، أن شعوره هذا طبيعى فى النفس الإنسانية كيفما كان حظها من الزهد والقناعة، لأن تخطيه – مع هذه المزية التى ترشحه للبيعة – يشبه أن يكون قدحاً فى مزاياه الأخرى، من علم وشجاعة وسابقة جهاد وعفة عن المطامع، أو يشبه أن يكون كراهة له وممالأة على الغض من قدره، ولم يزل من غرائز النفوس أن يسوءها القدح فيها والحط من مزاياها ومواجهتها بالنفرة والكزاهة.

إلا أن الخلافة الإسلامية، مسألة عالمية لا توزن بميزان واحد، ولا يؤتم فيها برأى واحد ولا بحق واحد. وقد يضحى فى سبيلها بالعظيم والعظماء، إذا تعارضت الحقوق وتشعبت الآراء.

ويشاء القدر أن تكون المزية الأولى فى ميزان على هى العائق الأول فى سائر الموازين، ومنها ميزان النبى صلوات الله عليه.

فقد كان عليه السلام يأبى أن يثير العصبيات فى قريش، وفى القبائل العربية عامة

لعلمه بخطر هذه العصبية على الدعوة الجديدة، وكراهته أن يصور الإسلام للعرب كأنه سيادة هاشمية تتوارثها عصبة هاشم دون العصب من سائر العرب والمسلمين. وقد رضى فى سبيل هذا المقصد الحكيم، أن يجعل بيت أبى سفيان صنواً للكعبة فى أمان اللاجئين إليه؛ وأصهر إلى أبى سفيان وندب ابنه معاوية للكتابة له بين النخبة المختارة من كاتبيه، وربما حسن لديه أن تئول الخلافة إلى علىّ بعده إذا شاء المسلمون ذلك، ولكن على أن تكون خلافته اختياراً مرضيًّا كاختيار غيره من أنصاره وأصحابه، ويستوى منهم القريب والبعيد.

* * *

ولم تكن الحكمة النبوية هى وحدها التى تأبى إثارة العصبيات وتصوير الإسلام للعرب وللناس عامة فى صورة السيادة الهاشمية، بل كانت الدعوة كلها فى صميم أصولها تأبى هذا الذى أبته الحكمة النبوية وتجتنبه غاية ما فى وسعها اجتنابه.. لأن الدعوة الإسلامية دعوة عالمية، تشمل الأمم كافة من عرب إلى عجم ومن مشرق إلى مغرب، وتقوم فى أساسها على المساواة بين الناس ورد المفاضلة بينهم إلى الأعمال والأخلاق دون الأحساب والأعراق. فليس من المعقول أن تسود العالم كله أسرة هاشمية، ولا من المعقول أن يبنى الأساس على المساواة، وأن يقام الحكم على هذا التفضيل.

وإن أحق الناس أن يفطن إلى هذه الحكمة لهم أولئك الغلاة الذين زعموا أن وراثة الخلافة فى بنى هاشم حكم من أحكام الله وضرورة من ضرورات الدين.

فلو أنها كانت حكمًا من أحكام الله، لكان أعجب شىء أن يموت النبى عليه السلام وليس له عقب من الذكور، وأن يختم القرآن وليس فيه نص صريح على خلافة أحد من آل البيت.

ولو أنها كانت ضرورة من ضرورات الدين، أو ضرورات القضاء، لنفذت فى الدنيا كما ينفذ القضاء المبرم، وحبطت كل خلافة تنازعها كما تحبط كل بدعة تناقض السنن الكونية.

فلا النصوص الصريحة، ولا دلالة الحوادث على الإرادة الإلهية، مما يؤيد أقوال الغلاة عن ترجيح بالقرابة، أو حصر الخلافة فى الأسرة الهاشمية.

وهذا هو العائق الأول الذى حال بين علىّ وبين الخلافة ولا قدرة له عليه، وقد لحظه العرب ولحظته قريش خاصة، وذكره الفاروق حين قال: «إن قريشاً اختارت لنفسها فأبت أن تجمع لبنى هاشم بين النبوة والخلافة»..

* * *

ويرى بعض المؤرخين، أن قريشاً كانت تحقد على الإمام وتنحيه عن الخلافة لعلة أخرى تقترن بهذه العصبية التى أوقعت التنافس بين بيوتها وبين بنى هاشم، فقد بطش الإمام بنفر من جلة البيوت القرشية فى حروب المسلمين والمشركين، وقتل من أعلام بنى أمية وحدهم عتبة بن ربيعة جد معاوية، والوليد بن عتبة خاله وحنظلة أخاه وجميعهم من قتلاه فى يوم بدر.. عدا من قتلهم فى الوقائع والغزوات الأخرى، فحفظ أقاربهم له هذه التراث بعد دخولهم فى الإسلام، وزادهم حقداً أنهم لا يملكون الثأر منه لقتلاهم من الكفار. وكانت حاله بعد تلك المدة كما قال ابن أبى الحديد: «... كأنها حاله لو أفضت الخلافة إليه يوم وفاة ابن عمه، من إظهار ما فى النفوس وهيجان ما فى القلوب، حتى الأخلاف من قريش والأحداث والفتيان الذين لم يشهدوا وقائعه وفتكاته فى أسلافهم وآبائهم، فعلوا به ما لو كانت الأسلاف أحياء لقصرت عن فعله».

وقد علم الإمام هذا من قريش، عندما يئس من مودتها وابتلى بالصريح والدخيل من كيدها، فقال: «.. ما لى ولقريش؟.. أما والله لقد قتلتهم كافرين، ولأقتلنهم مفتونين.. والله لأبقرن الباطل حتى يظهر الحق من خاصرته.. فقل لقريش، فلتضج ضجيجها».

ولو أن قريشاً وادعته فى سرها وجهرها، ووقفت بينه وبين منافسيه على الخلافة لا تصده عنها ولا تدفعهم إليها، لقد كانت تلك عقبة أى عقبة..

فأما وهى تحاربه بعصبيتها وتحاربه بذحولها، فتلك هى العقبة التى لا يذللها إلا بحزب أقوى من حزب قريش بعد وفاة النبى صلوات الله عليه، ولم يكن حزب قط أقوى يومئذ من قريش فى أرجاء الدولة الإسلامية بأسرها .

ولقد سبق الإمام إلى الخلافة ثلاثة من شيوخ الصحابة هم: أبو بكر وعمر وعثمان.

فإذا نظرنا إلى عائق العصبية الذى قدمناه، فلا نرى شيئاً أقرب إلى طبائع الأمور من سبق هؤلاء الثلاثة بأعيانهم إلى ولاية الخلافة بعد النبى عليه السلام، لأنهم أقرب

الناس أن يختارهم المسلمون بعد خروج العصبية الهاشمية من مجال الترجيح والترشيح.

فليس أقرب إلى طبائع الأمور فى بلاد عربية إسلامية من اتجاه الأنظار إلى مشيخة الإسلام فى السن والوجاهة والسابقة الدينية، لاختيار الخليفة من بينها على السنة التى لم تتغير قط فى تواريخ العرب الأقدمين، ولم يغيرها الإسلام بحكم العادة ولا بحكم الدين.

* * *

ولم يكن الإمام عند وفاة النبى من مشيخة الصحابة التى تئول إليها الرئاسة بداهة بين ذوى الأسنان، ممن مارسوا الشورى والزعامة فى حياته عليه السلام.. لأنه كان يومئذ فتى يجاوز الثلاثين بقليل. وكان أبو بكر وعمر وعثمان قد لبثوا فى جوار النبى بضع عشرة سنة قبل ظهور علىّ فى الحياة العامة، وهم يشيرون على النبى ويخدمون الدين ويجمعون الأنصار ويدان لهم بالتوقير والولاء.

والعائق الذى قام بين على وبين الخلافة هو فى طريق هؤلاء الثلاثة السابقين تمهيد وتقريب.

ونعنى به عائق العصبية الهاشمية.

لأن قريشاً لا تنفس على بنى تيم، ولا بنى عدى، ولا بنى أمية، فى رئاسة عثمان خاصة.. كما تنفس على بنى هاشم، إذ تجتمع لهم النبوة والخلافة.

والإمام نفسه لم يفته أن يدرك هذا بثاقب نظره، حين قال وقد تجاوزته الخلافة للمرة الثالثة بعد موت الفاروق: «إن الناس ينظرون إلى قريش، وقريش تنظر إلى بيتها فتقول: «إن ولى عليكم بنو هاشم لم تخرج منهم أبداً.. وما كانت فى غيرها من قريش تداولتموها بينكم».

* * *

وإذا اجتمع هذا العائق إلى عائق السن والتوقير للمشيخة المقدمة، فهما مبعدان للإمام عن الخلافة بمقدار ما يقربان سواه.

نعم إن فارق السن قد تقارب بعد موت الفاروق، وبلغ الإمام الخامسة والأربعين، وسبقت له فى المشورة سوابق مأثورات.. فأصبح الفارق بينه وبين من يكبرونه مزية تعين

على العمل والجهد وتنفى مظنة الضعف والتواكل. ولكن الذى كسبه بهذه المزية خسره بازدياد المطامع الدنيوية وبأس الرؤساء من الوفر والنعمة على يديه، واعتقاد الطامعين أنهم أقرب إلى بعض الأمل فى لين عثمان وتقدم سنه منهم إلى تأمل من الآمال فى شدة الإمام وعسر حسابه.

وبقيت الجفوة بينه وبين قريش على حالها، لم يكفكف منها تقادم العهد كما قال ابن أبى الحديد..

وعلى هذه الجفوة فى القبيلة كلها، دخلت فى الأمر دخلة البواعث الشخصية التى لا يسلم منها عمل من أعمال بنى الإنسان فى زمن من الأزمان.. فقد اجتمع رهط الشورى الذين ندبهم الفاروق لاختيار الخليفة من بعده.. فتقدم بينهم عبد الرحمن بن عوف فخلع نفسه من الأمر كله ليتاح له أن يستشير الناس باسمهم ويعلن البيعة على عهدتهم. وقيل إنه أنس مع الزبير وسعد بن أبى وقاص ميلاً موقوتاً إلى علىّ وانحرافاً موقوتاً عن عثمان، فسارع إلى المنبر وبايع عثمان وجاراه الحاضرون مخافة الفتنة والشقاق.

وكان عبد الرحمن بن عوف صهراً لعثمان، لأنه زوج أخته لأمه أم كلثوم بنت عقبة ابن أبى معيط.

* * *

ويقضى الحق أن يقال فى هذا المقام أن بيعة عثمان قد تمت باتفاق بين المسلمين لم ينقضه خلاف معدود، فليست كلمة عبد الرحمن بن عوف هى التى خذلت عليًّا وقدمت عثمان عليه، إذ لو كانت هناك مغالبة شديدة بين حزبين متكافئين لما استقامت البيعة لعثمان بكلمة من عبد الرحمن بن عوف.. وهو واحد من خمسة أو ستة إذا أشركنا معهم عبد الله بن عمر بن الخطاب..

ثم بويع الإمام بعد مقتل عثمان، فهل تحولت قريش عن جفوتها، أو نظرت إلى السياسة الهاشمية نظرة غير نظرتها؟

كلا..

بل جاءت البيعة فى المدينة، يوم خفت فيها صوت قريش، وهبطت سمعة حكامها..

يوم أصبحت البيعة ثورة على قريش، تنكر عليها الأثرة بالملك والأثرة بالغنائم والأمصار.. ويوم انقسم المجتمع الإسلامى إلى قسميه اللذين التبسا وتداخلا حيناً حتى فصلتهما الحوادث فصلها الحاسم فى خلافة عثمان: قسم يريد الرجعة إلى الخلافة والآداب النبوية، وقسم يريد المضى فى الملك والدولة الدنيوية.

فأى القسمين، كان قسم على كائناً ما كان سعيه واجتهاده ؟.. وأية سياسة كانت تعينه على مشكلة الخلافة منذ بدايتها بعد وفاة النبى إلى ختامها الفاجع بعد مقتل عثمان ؟.

كل سياسة له لم تكن لتحيد به عن الخاتمة المحتومة أقل محيد.

وكل ما كان من تدبير الحوادث أو من تدبيره، فهو على هذا الملتقى الذى يتلاحق عنده الإسراع والإبطاء.

وعلى هذا ينبغى أن نرجع إلى علة غير سياسة علىّ لتعليل العوائق التى قامت دون مبايعته بالخلافة قبل الصديق والفاروق وعثمان.

فهو غير مسئول عن نظرة العصبية التى نظرت بها قريش إلى السيادة الهاشمية.

وهو غير مسئول عن سنه التى تأخرت به عن مشيخة الصحابة من ذوى السابقة فى الجهاد والزعامة والأصالة بين ذوى الأسنان والأخطار..

وهو غير مسئول عن الصفة العالمية التى جعلت تأسيس الإسلام على أسرة واحدة فى العالم كله أمراً ملحوظاً بالتوجس والإحجام منذ اللحظة الأولى..

نعم قد يسأل الإمام عن علاقته بالناس وقدرته على تألفهم بالآمال والمجاملات، ليأنسوا إليه ويرفعوا حجاب الجفوة بينهم وبينه، ويؤثروه على غيره بالخلافة، أملًا فى بره واطمئناناً إلى حفاوته ووده.

وقد يرد على بعض الخواطر، أن سياسة الدولة الدنيوية أو سياسة الإرضاء بالمنافع والوعود، كانت أجدى عليه من آداب الخلافة الدينية وأخلق بتمكينه أولًا وآخراً بين قريش وقبائل العرب عامة.

فهذا فى رأيهم مأخذ يرجع إلى شخصه وأعماله، ويسأل عنه كما يسأل الإنسان عن عمله وتصريف إرادته وفكره. ولا يجوز أن نرجع به إلى حكم الحوادث القاهرة، وسلطان

المصادفات التى لا قبل له بتبديلها.

ولكن الواقع أن هذه السياسة - سياسة المنافع الدنيوية - لم تكن لتجديه شيئاً بعد وفاة النبى، ولا بعد مقتل عثمان.

فبعد النبى عليه السلام، لم تكن ذخائر الفتوح قد استفاضت فى الأيدى وأنشأت فى المجتمع الإسلامى طبقة مسموعة الصوت تحرص عليها وتستزيدها.

فالذى يناضل فى سبيل الحكم بسلاح هذه المنافع، إنما كان يناضل بسلاح غير موجود.. بل كان يناضل سلاحاً ماضياً ينهزم أمامه لا محالة وهو سلاح الحماسة الدينية التى غلبت فى ضرباتها الأولى كل سلاح.

أما بعد مقتل عثمان، فأبعد الأمور عن التخيل أن يغلب على معاوية فى سوق المنافع الدنيوية، لأن معاوية قد أهب لها أهبته قبل عشرين سنة، وجمع لها أنصاره وكنز لها كنوزه فى بلاد وادعة بين جند مطيع.

ولو توافرت لعلىّ مادة هذه السياسة، لما توافر له أعوانها والمساعدون عليها.. فليس أقل نفعاً فى هذا المضمار من أعوانه الذين ثاروا على سياسة المنافع وباءوا من أجلها بدم خليفة، واجتمعوا على التمرد قاصدين أو غير قاصدين.. فلا يديرون أنفسهم إلى نهج كنهج معاوية ولو أرادوه.

وأغلب الظن أن عليًّا كان يخسر بهذه السياسة أولئك الذين أحبوه، ولا يربح بها أولئك الذين أبغضوه.

فقد حببته آداب الخلافة إلى كل طبقة تكره استغلال الحكم، ولا مطمع لها فيه.. فكل بلاد دخلت من عصبة المرشحين للحكم، فقد كانت من حزبه وشيعته بغير استثناء، فكان من حزبه شعب اليمن ومصر وفارس العراق، ونشأت فى اليمن - وقد عهدت حكمه قديماً - تلك الطائفة السبئية التى غلت فى حبه حتى ارتفعت به إلى مرتبة التقديس، وانتشرت فى مصر وفارس بذور تلك الشيعة الفاطمية والإمامية التى ظلت كامنة فى تربتها حتى أخرجت شطأها بعد أجيال، وشذت الشام لأنها كانت فى يد معاوية، وشذت أطراف من العراق أول الأمر لأنها كانت فى يد طلحة والزبير، ولم يشذ عن هذه القاعدة بلد من

البلدان الإسلامية من أقصاها إلى أقصاها.. فلولا أن سواد الناس لا يعملون بغير عصبة من القادة، وأن العصب من القادة كانوا كلما وجدوا فى بقعة من البقاع وجد معهم النفع والاستغلال. لقد كانت محبة أولئك السواد أنفع له من عصب معاوية أجمعين.

فأغلب الظن - كما أسلفنا - أن عليًّا كان يخسر هؤلاء باتباعه سياسة الدولة الدنيوية، ولا يكسب العصب التى ناصبته العداء، وأيقنت أنه حائل بينها وبين ما طمحت إليه من الصولة والثراء..

وهذا على تقدير المقدرين أن عليًّا يؤاخذ لاجتنابه هذه السياسة وأنه لو اتبعها لكانت أجدى عليه.

وليست هى أجدى عليه لو اتبعها، ولا هو على اجتنابها بملوم.

وتفضى بنا هذه التقديرات جميعاً إلى نتيجة واضحة نلخصها فى كلمات وجيزة، ونعتقد أنها أعدل الأقوال فى وصف تلك السياسة التى كثرت فيها مطارح النقد والدفاع.

فسياسة علىّ لم تورطه فى غلطات كان يسهل عليه اجتنابها باتباع سياسة أخرى.

وهى كذلك لم تبلغه مآرب مستعصية، كان يعز عليه بلوغها فى موضعه الذى وضع فيه وعلى مجراه الذى جرى عليه.

فليست هى علة فشل منتزع، ولا علة نجاح منتزع، أو هى لا تستدعى الفشل من حيث لم يخلق، ولا تستدعى النجاح من حيث لم يسلس له قياد.

ورأينا فى سياسته فهماً وعلماً، ولكننا لم نر فيها الحيلة العملية التى هى إلى الغريزة أقرب منها إلى الذكاء.

فكان نعم الخليفة، لو صادف أوان الخلافة.

وكان نعم الملك لو جاء بعد توطيد الملك واستغنائه عن المساومة والإسفاف.

ولكنه لم يأت فى أوان خلافة ولا فى أوان ملك موطد، فحمل أعباء النقيضين، وأخفق حيث ينبغى أن يخفق أو حيث يعيبه أن ينجح.. وتلك آية الشهيد..

حكومته

كانت الدولة الإسلامية الناشئة على شفا الخطر فى إبان الفتنة الداخلية بين على ومعاوية.. ولكنها وقيت منه لأن عوامل الأمان الذى يحيط بها كانت أقوى من عوامل الخطر الذى يهددها.. وتتلخص عوامل الأمان فى وقاءين اثنين:

أحدهما، أن الإسلام كان دعوة طبيعية تلقاها العالم وهو مستعد لها مستريح إليها، فرسخت دعائمه وامتنعت حدوده بعد أعوام قليلة من ظهوره، وسكن إليه الناس مؤمنين بدوام ظله وشمول عدله، سواء منهم من دخل فيه ومن أوى إلى حكمه وهو باق على اعتقاده..

وثانيهما، أن أعداء الإسلام كانوا فى شاغل عنه بما أصابهم من الوهن وأحدق بهم من المخاوف، وربما صح فى الفتنة الإسلامية يومئذ ما يصح فى كثير من الطوارق التاريخية الكبرى، وهى أنها لن تكون شرًّا محضًا فى جميع عواقبها، ولا تخلو من الخير على غير قصد من ذويها.. فإن هذه الفتنة قد أغرت أعداء الإسلام بالانتظار؛ وأوقعت فى روعهم أنهم غنيون عن التحفز والوثوب الذى يشق عليهم جهده، وهم فى تلك الحالة من الجهد والإعياء.. فقنعت دولة الروم بهجمات ضعيفة تلقاها معاوية بالجلد والأناة، وألهى عنه ببعض الأتاوات والنوافل.. فتراجعوا متربصين إلى أن يقضى الخلاف بين المسلمين قضاءه، وهم وادعون مكفيون شر القتال.. فكان هذا الانتظار الخادع جانبًا من جوانب الخير فى الفتنة الإسلامية التى فاضت يومئذ بالشرور. وعلى هذا انقضت أيام علىّ، وليس للحكومة الإسلامية سياسة خارجية تحسب من سياسة الفتوح أو سياسة الدفاع، أو سياسة المفاوضة والاستطلاع..

وكل ما يدور الكلام عليه عن حكومة علىّ، فهو من قبيل سياسة الحكم بينه وبين رعاياه، أو هو السياسة الداخلية كما نسميها فى العصر الحديث..

ومن اليسير أن نعرف سياسة الإمام بينه وبين رعاياه، بغير حاجة إلى الإطالة فى التعريف وسرد الأمثال..

لأنها سياسة الرجل الذى شاء القدر أن يجعله فدية للخلافة الدينية فى نضالها الأخير مع الدولة الدنيوية.

فنحن نتخذ ما شئنا من طريقين متقابلين، فإذا طريق على هى طريق الخلافة المنزهة، حين تقابل الدولة الدنيوية مقابلة الخصم للخصم أو النقيض للنقيض، أو هى أقرب الطريقين إلى المساواة وأدناهما إلى رعاية الضعفاء..

فالناس فى الحقوق سواء..

لا محاباة لقوى ولا إجحاف بضعيف، وقد عمد إلى القطائع التى وزعت قبله على المقربين والرؤساء فانتزعها من القابضين عليها وردها إلى مال المسلمين لتوزيعها بين من يستحقونها على سنة المساواة، وقال: «والله لو وجدته قد تزوج به النساء وملك به الإماء لرددته، فإن فى العدل سعة.. ومن ضاق عليه العدل فالجور عليه أضيق».

وفرض الرفق بالرعية على كل وال، فلا إرهاق ولا استغلال ولو كانت الحكومة هى صاحبة الحق فى المال.

فمن وصاياه المكررة لولاته: «أنصفوا الناس من أنفسكم واصبروا لحوائجهم فإنهم خزان الرعية.. ولا تحسموا أحدًا عن حاجته ولا تحبسوه عن طلبته، ولا تبيعن للناس فى الخراج كسوة شتاء ولا صيف ولا دابة يعتملون عليها، ولا عبدًا، ولا تضربن أحدًا سوطًا لمكان درهم..»

ومن وصاياه فى تحصيل الخراج والصدقات: «.. امض إليهم بالسكينة والوقار حتى تقوم بينهم فتسلم عليهم، ولا تخدج بالتحية لهم، ثم تقول: عباد الله. أرسلنى إليكم ولى الله وخليفته لآخذ منكم حق الله فى أموالكم، فهل لله فى أموالكم حق فتؤدوه إلى وليه؟.. فإن قال قائل: لا ،فلا تراجعه.. وإن أنعم لك منعم، فانطلق معه من غير أن تخيفه وتتوعده أو تعسفه أو ترهقه، فخذ ما أعطاك من ذهب أو فضة، فإن كان له ماشية أو إبل فلا تدخلها إلا بإذنه، فإن أكثرها له.. فإذا أتيتها فلا تدخل عليها دخول متسلط عليه

ولا عنيف به.. ولا تنفرن بهيمة ولا تفزعها، ولاتسوءن صاحبها فيها، واصدع المال صدعين، ثم خيره، فإذا اختار فلا تعرضن لما اختاره، فلا تزال كذلك حتى يبقى ما فيه وفاء حق الله فى ماله.. فاقبض حق الله منه، فإن استقالك فأقله..»

وكان دستوره فى تحصيل الضرائب المفروضة على الناس، أن النظر فى عمارة الأرض أبلغ من النظر فى استجلاب الضريبة، فكان يكتب إلى واليه: «تفقد أمر الخراج بما يصلح أهله.. فإن فى صلاحه وصلاحهم صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم.. لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله وليكن نظرك فى عمارة الأرض أبلغ من نظرك فى استجلاب الخراج، لأن ذلك لا يدرك إلّا بالعمارة، ومن جلب الخراج بغير عمارة أخرب البلاد وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا، وإنما يؤتى خراب الأرض من إعواز أهلها، وانما يعوز أهلها إسراف الولاة الجمع، وسوء ظنهم بالبقاء وقلة انتفاعهم بالعبر»

أما دستوره فى الولاة والعمال، فخلاصته ما كتب به إلى الأشتر النخعى يقول له: «انظر فى أمور عمالك، فاستعملهم اختباراً ولا تولهم محاباة وإثرة.. فإنهم جماع من شعب الجور والخيانة، وتوخ منهم أهل التجربة والحياء من أهل البيوتات الصالحة والقدم فى الإسلام، فإنهم أكثر أخلاقاً وأصح أعراضًا وأقل فى المطامع إسرافاً، وأبلغ فى عواقب الأمور نظرًا.. ثم أسبغ عليهم الأرزاق، فإن ذلك قوة لهم على استصلاح أنفسهم، وغنى لهم عن تناول ما تحت أيديهم، وحجة عليهم إن خالفوا أمرك أو ثلموا أمانتك، ثم تفقد أعمالهم وابعث العيون من أهل الصدق والعيون عليهم.. فإن تعاهدك فى السر لأمورهم حدوة لهم على استعمال الأمانة والرفق بالرعية».

وعلى هذه العناية باستطلاع أحوال الولاة والعمال، كان ينهى أشد النهى عن كشف معائب الناس، أو كما كان يقول فى وصية ولاته: «وليكن أبعد رعيتك منك وأشنأهم عندك أطلبهم لمعائب الناس.. فإن فى الناس عيوبًا: الوالى أحق من سترها.. فلا تكشفن عما غاب عنك منها، فإنما عليك تطهير ما ظهر لك»

وكان ينهى عن بطانة السوء مع حثه على اتخاذ العيون والجواسيس، فقال فى وصيته لمحمد بن أبى بكر: «لا تدخلن فى مشورتك بخيلا يعدل بك عن الفضل ويعدك الفقر، ولا جبانا يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور.. فإن البخل والجبن

والحرص غرائز شتى يجمعها سوء الظن بالله.. إن شر وزرائك من كان للأشرار قبلك وزيرًا، ومن شركهم فى الآثام فلا يكونن لك بطانة، فإنهم أعوان الأثمة وإخوان الظلمة، وأنت واجد منهم خير الخلف، ممن له مثل آرائهم ونفاذهم.. وليس عليه مثل آصارهم وأوزارهم»..

ولم ينكر قط شيئاً من سياسة التولية، ثم صنع مثله فى عهده على كثرة الإغراء حوله باصطناع التقية والمداراة والهوادة قليلا مع الأقرباء وذوى الأخطار.

ومن زعم غير ذلك، من ناقديه فى عصره أو بعد عصره، فإنما هو آخذ فى المقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات..

إذ كان مما قيل مثلا إن عليا أقام عبد الله بن عباس على البصرة، وعبيد الله بن العباس على اليمن، ومحمد بن أبى بكر ابن زوجته على مصر.. وهم أقرباؤه وخاصة أهله، فهو إذن يصنع ما أنكره على حكومة عثمان من إيثار الأقرباء بالولايات وإقصاء الآخرين عنها..

ولكنها كما قلنا مقارنة بالأشكال والحروف دون البواطن والغايات، لأن المقارنة الصحيحة بين العملين تسفر عن فارق بعيد كالفارق بين النقيض والنقيض..

فبنو هاشم لم يكن لهم متسع لعمل أو ولاية فى غير حكومة الإمام، ولم يكن للإمام معتمد على غيرهم بعد أن حاربته قريش، وشاعت الفرقة والشغب بين أعوانه من أبناء الأمصار..

وهم مع هذا لم يؤثروا بالولايات كلها، ولم يؤثروا بالذى خصهم منها ليستغلوه ويجمعوا الثراء من غنائمه وأرزاقه.. بل كانوا يحاسبون على ما فى أيديهم أعسر حساب، وكانوا لتضييقه عليهم فى المراقبة يتركون ولاياتهم ويستقيلون منها؛ كما فعل ابن عباس حين هجر البصرة إلى مكة..

وقد بلغ من حسابه للولاة أنه كان يحاسبهم على حضور الولائم التى لا يجمل بهم حضورها.. فكتب إلى عثمان بن حنيف الأنصارى عامله على البصرة: «أما بعد يا بن حنيف، فقد بلغنى أن رجلا من فتية أهل البصرة دعاك إلى مأدبة.. فأسرعت إليها تستطاب لك الألوان وتنقل إليلك الجفان. وما ظننت أنك تجيب إلى طعام قوم عائلهم

مجفو وغنيهم مدعو، فانظر إلى ما تقضمه من هذا المقضم.. فما اشتبه عليك علمه فالفظه وما أيقنت بطيب وجوهه فنل منه»

واستكثر على شريح قاضيه أن يبنى داراً بثمانين ديناراً، وهو يرزق خمسمائة درهم.. وحاسب على أقل من هذا من هو أقل من شريح أمانة فى القضاء وحرجًا فى الدين..

فلو أن الإمام اختص أقرباءه بالولايات التى يحاسبون عليها هذا الحساب، لما كان فى اختصاصه إياهم مستبيح حق ولا مستبيح مال.. فكيف وهو لا يختصهم إلا بالقليل منها، ولا يختصهم وله مندوحة عنهم، أو يختصهم وهم دون غيرهم فى القدرة والأمانة؟

فالمقارنة هنا مقارنة أشكال وحروف وكل ما توحى إلى الناقد بها أنه يذكر الأقرباء هنا والأقرباء هناك...

وقد انقسمت طريق الخلافة، وطريق الدولة الدنيوية فى كل أمر من الأمور على عهد الإمام، ولم تنقسم فى مسألة الولاة أو مسألة الاستغلال.

وأكبر ما يذكر من انقسام الطريقين فى عهده قيام الفكرة العالمية إلى جانب العصبية بالقبيلة أو بالوحدة الوطنية..

فالدولة الدنيوية تشد أزرها بالعصبية الجنسية، والخلافة الدينية تشد أزرها بالإخاء بين الشعوب وبطلان الفوراق بين الأجناس.

وقد كانت القبيلة من أنصار الإمام تقاتل القبيلة من أنصار معاوية فى سبيل الرأى والعقيدة..

وكان أنصار الإمام أبدًا من الفرس والمغاربة والمصريين أكثر من أنصاره من قريش خاصة، وبين بنى هاشم على الأخص، وبين قبائل العرب على التعميم..

وهذا الامتزاج بين الفكرة العالمية وبين إمامة على أو خلافته، هو أقطع الأدلة على الوحدة بين أوانه وأوان الخلافة.. فإذا ذهب هذا وجب أن يذهب ذاك، أيا كانت السياسة المتوخاة، وبالغاً ما بلغ نصيبها من السواد والصواب..

ولنا أن نعمم هذا الحكم الإنسانى فى كل شأن من شئون الحكومة، قضى به على فى عهده أو عهود الخلفاء من قبله..

فالروح الإنسانى هو قوام الحكومة الإمامية، كما ينبغى أن يكون، وهو قوامها كما كانت على يديه جهد الطاقة الآدمية.. وهى طاقة لها ما لها من حدود.

جيء إلى عمر بن الخطاب بامرأة زانية يشتبه فى حملها، فاستفتى الإمام. فأفتى بوجوب الإبقاء عليها حتى تضع جنينها، وقال له: «إن كان لك سلطان عليها، فلا سلطان لك على ما فى بطنها»

وانتزع امرأة من أيدى الموكلين بإقامة الحد عليها.. وسأله عمر فقال: «أما سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: رفع القلم عن ثلاثة: عن النائم حتى يستيقظ، وعن الصغير حتى يكبر، وعن المبتلى حتى يعقل؟» قال: «بلى» قال: «فهذه مبتلاة بنى فلان.. فلعله أتاها وهو بها» قال عمر: «لا أدرى» قال: «وأنا لا أدرى» فترك رجمها للشك فى عقلها..

وأتى عمر بامرأة أجهدها العطش، فمرت على راع فاستسقته.. فأبى أن يسقيها إلا أن تمكنه من نفسها.. ففعلت، فشاور الناس فى رجمها، فقال علىٌ: «هذه مضطرة إلى ذلك.. فخلِّ سبيلها»

وهذه أمثلة قليلة من أمثلة كثيرة فى القصاص وتفسير الشريعة.. الا أنه قد حاد عن هذه السنة فى أمر واحد خالفه فيه بعض فقهاء عصر، ومنهم ابن عمه عبد الله بن عباس.

وذلك هو إحراقه الروافض الذين عبدوه ووصفوه بصفات الإلهية، وأبوا أن يتوبوا عن ضلالتهم مرة بعد مرة، وقيل إنهم أصروا على عنادهم وهم يحرقون.. فاتخذوا من تعذيبه لهم بالنار دليلا على أنه هو الإله المعبود.. اذ لا يعذب بالنار إلا الله.

فهؤلاء المفسدون المفتونون، قد استحقوا عقوبة الموت بقضاء الشريعة وقضاء الدولة التى لا يقوم لها نظام على هذه الضلالة.. ولكن الإحراق بالنار صرامة لا توجبها ضرورة العقاب، وليس فى اجتنابها خطر على الشريعة، ولا على النظام..

إنما شفيع الإمام فى هذه الصرامة أنه كان هو المستهدف لتلك الضلالة، وهو مظنّة الريبة فى الهوادة فيها.. فهو ينزه عدله عن كل ظن حيث تظن بالهوادة جميع الظنون، وقد أحرق الذين ألّهوه.. ونهى عن قتال الخوارج الذين حكموا بكفره، إلا أن يفسدوا فى

الأرض أو يبدءوا بالعدوان على بريء. وفى هذا الإنصاف بين مؤلِّهيه ومكفريه شفاعة من تلك الصرامة فى العقاب.

وكان الإمام يذكر أبدًا فى حكومته أن الحقوق العامة لها شأن لا ينسى مع حقوق الأفراد..

ومن ذلك ما نقله الطبرى عن بعض الأسانيد، حيث قال: «رأيت عليًّا عليه السلام خارجًا من همدان، فرأى فتيين يقتتلان ففرق بينهما.. ثم مضى فسمع صوتًا: يا غوثا بالله فخرج يحضر نحوه حتى سمعت خفق نعله، وهو يقول: «أتاك الغوث..» فإذا رجل يلازم رجلا، فقال: «أيا أمير المؤمنين.. بعت هذا ثوباً بتسعة دراهم وشرطت عليه ألا يعطيني مغموزا ولا مقطوعًا، فأتيته بهذه الدراهم ليبدلها لى فأبى فلزمته فلطمنى» فقال: «أبدله» ثم قال: «بينتك على اللطمة» فأتاه بالبينة.. قال: «دونك فاقتص» قال: «إنى قد عفوت يا أمير المؤمنين» قال: «إنما أردت أن أحتاط فى حقك.. ثم ضرب الرجل تسع درات، وقال: «هذا حق السلطان»

وكان يكرر هذا الحكم فى كل ما شابهه من أمثال هذا العدوان، وهو أشبه المذاهب بمذهب الحكومات العصرية فى القصاص.

ويقال الكثير عن مناهج الإمام فى الحكومة وسياسة الرعية مما يغنى فيه هذا الإجمال عن التوسع فى التفصيل..

ولكن الذى لا ينسى فى سياق الكلام عن الإمامة والدعوة العالمية، أنه رضى الله عنه كان أول من خرج بالعاصمة من المدينة إلى أرض غير أرض الحجاز، وهو الحجازى سليل الحجازيين..

وقد اختار الكوفة، فكانت أوفق عاصمة للإمامة العالمية فى تلك المرحلة من مراحل الدولة الإسلامية..

لأنها كانت ملتقى الشعوب من جميع الأجناس، وكانت مثابة التجارة بين الهند وفارس واليمن والعراق والشام، وكانت العاصمة الثقافية التى ترعرعت فيها مدارس الكتابة واللغة والقراءات والأنساب والأفانين الشعرية والروايات.. فهى أليق العواصم فى ذلك العصر بحكومة إمام، وما زالت الإمامة لاحقة بعلى ومحيطة به حيث تحول وحيث أقام..

النبى والإمام والصحابة

أحاديث النبى عليه السلام فى فضل على ومحبته متواترة فى كتب الحديث المشهورة.. منها ما انفرد به، وهو حديث الخيمة الذى رواه الصديق رضى الله عنه حيث قال: «رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم خيم خيمة، وهو متكئ على قوس عربية، وفى الخيمة، على وفاطمة والحسن والحسين، فقال: معشر المسلمين.. أنا سلم لمن سالم أهل الخيمة، حرب لمن حاربهم، ولى لمن والاهم، لا يحبهم إلا سعيد الجد طيب المولد، ولا يبغضهم إلا شقى الجد ردىء الولادة»

ومنها ما اشترك فيه وغيره، وهو الذى روته السيدة عائشة حيث سئلت: «أى الناس أحب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟.. قالت: فاطمة!.. فقيل: من الرجال؟.. قالت زوجها.. إن كان ما علمت صوامًا قواماً»

وقد روى حديث فى هذا المعنى حيث سئل رسول الله عن أحب الناس إليه، فقال «من النساء عائشة، ومن الرجال أبوها»

ولا تناقض بين الحديثين، إذ كانت السيدة عائشة هى التى تروى الحديث الأول، وتخرج من كلامها كما يخرج المتكلم من عموم كلامه، أو كانت تروى عن أقرباء النبى من لحمه ودمه، فتقول ما تعلم عن غيرها.

وهذان نموذجان من الأحاديث النبوية فى فضل على ومحبته ومنزلته عند الله ونبيه، وهى تعد بالعشرات.

وأصحاب المذاهب يختلفون فى تأويل هذه الأحاديث، وفى أسانيدها، ويوجهونها حيث اتجهوا من التشيع للإمام أو التشيع عليه.. وهو شرح طويل لا يهمنا منه هنا أن ننصر فيه

فريقًا على فريق، أو نرجح مذهباً على مذهب.. إذ ليس فهم الإمام موقوفاً على تغليب أى الفريقين وتعزيز أى المذهبين، وفهم الإمام على حقيقته النفسية والتاريخية هو كل ما نعنيه..

فمهما يختلف الرواة فى تأويل الأحاديث، فالذى يسعك أن تجزم به من وراء اختلافهم، أن عليًّا كان من أحب الناس إلى النبى، إن لم يكن أحبهم إليه على الإطلاق..

لقد كان النبى عليه السلام يغمر بالحب كل من أحاط به من الغرباء والأقربين.. فأى عجب أن يخص بالحب من بينهم إنسانًا، كان ابن عمه الذى كفله وحماه، وكان ربيبه الذى أوشك أن يتبناه، وكان زوج ابنته العزيزة عنده، وكان بديله فى الفراش ليلة الهجرة التى هم المشركون فيها بقتل من يبيت فى فراشه، وكان نصيره الذى أبلى أحسن البلاء فى جميع غزواته، وتلميذه الذى علم من فقة الدين مالم يعلمه ناشئ فى سنه؟..

حب النبى لهذا الإنسان حقيقة لا حاجة بها إلى تأويل الرواة ولا إلى تفسير النصوص، لأنها حقيقة طبيعية، أو حقيقة بديهية قائمة من وراء كل خلاف..

ومما لا خلاف فيه كذلك، أنه عليه السلام كان لا يكتفى بحبه إياه.. بل كان يسره ويرضيه أن يحببه إلى الناس، وكان يسوءه ويغضبه أن يسمع من يكرهه ويجفوه..

بعث رسول الله عليًّا فى سرية ليقبض الخمس، فاصطفى منه سبية، واتفق أربعة من شهود السرية أن يبلغوا ذلك إلى رسول الله. وكان المسلمون إذا قدموا من سفر بدءوا بالرسول، فسلموا عليه وأبلغوه ماعندهم، ثم انصرفوا إلى رحالهم.. فقام أحد الأربعة وحدث الرسول بما رأى فأعرض عنه، وظن الصحابة أنه لم يسمعه.. فتناوبوا الحديث واحدًا بعد واحد فى معنى كلامه. فلما فرغ الرابع من حديثه أقبل عليه رسول الله وقد تغير وجهه فقال: «ما تريدون من على؟.. ماتريدون من على..؟ ماتريدون من على؟.. على منى وأنا منه وهو ولى كل مؤمن بعدى» وقال لأحدهم فى روايات أخرى: «أتبغض عليًّا؟» قال: «نعم!» قال: «لا تبغضه، فإن له فى الخمس أكثر من ذلك، أى أكثر من السبية التى اصطفاها.. لا تبغضه، وإن كنت تحبه فازدد له حبًّا».

* * *

وبعث رسول الله عليًّا إلى اليمن، فسأله جماعة من أتباعه أن يركبهم إبل الصدقة

ليريحوا إبلهم، فأبى.. فشكوه إلى رسول الله بعد رجعتهم. وتولى شكايته سعد بن مالك ابن الشهيد، فقال: «يا رسول الله.. لقينا من علىّ من الغلظة وسوء الصحبة والتضييق..» ومضى يعدد مالقيه، حتى إذا كان فى وسط كلامه ضرب رسول الله على فخذه، وهتف به: «ياسعد بن مالك بن الشهيد، بعض قولك لأخيك علىّ؟ فو الله لقد علمت أنه جيش فى سبيل الله».

وشكا بعض الناس مثل هذه هذه الشكوى، فقام رسول الله فيهم خطيبًا يقول لهم: «أيها الناس.. لا تشكوا عليًّا، فوالله إنه لجيش فى ذات الله»..

ويلوح لنا أن النبى عليه السلام كان يحب عليًّا ويحببه إلى الناس، ليمهد له سبيل الخلافة فى وقت من الأوقات، ولكن على أن يختاره الناس طواعية وحبًّا.. لا أن يكون اختياره من حقوق العصبية الهاشمية، فإنه عليه السلام قد اتقى هذه العصبية جهد اتقائه، ولم يحذر خطرًا على الدين أشد من حذره أن يحسبها الناس سبيلا إلى الملك والدولة فى بنى هاشم، وقد حرم نفسه الشريفة حظوظ الدنيا وأقصى معظم بنى هاشم عن الولاية والعمالة لينفى هذه الظنة.. ويدع الحكم للناس يختارون من يرضونه له بالرأى والمشيئة..

فالتزم فى التمهيد لعلىّ وسائل ملموحة لا تتعدى التدريب والكفالة إلى التقديم والوكالة، أرسله فى سرية إلى فدك لغزو قبيلة بنى سعد اليهودية، وأرسله إلى اليمن للدعوة إلى الإسلام، وأرسله إلى منى ليقرأ على الناس سورة براءة، ويبين لهم حكم الدين فى حج المشركين وزيارة بيت الله، وأقامه على المدينة حين خرج المسلمون إلى غزوة تبوك.. ولم يفته مع هذا كله أن يلمح الجفوة بينه وبين الناس، وأن يكله إلى السن تعمل عملها مع الأيام، ويكلهم فى شأنه إلى ما ارتضوه، عسى أن تسنح له الفرصة لمزيد من الألفة بينهم وبينه..

هذه فيما نعتقد أصح علاقة يتخيلها العقل، وتنبئ عنها الحوادث بين النبى وابن عمه العظيم..

* * *

وربما كانت أصح العلاقات المعقولة لأنها هى وحدها العلاقة الممكنة المأمونة، وكل ماعداها فهو بعيد من الإمكان بعده من الأمان.

فهو يحبه ويمهد له وينظر إلى غده، ويسره أن يحبه الناس كما أحبه، وأن يحين الحين الذى يكلون فيه أمورهم إليه.

وكل ماعدا ذلك، فليس بالممكن وليس بالمعقول..

ليس بالممكن أن يكره له التقديم والكرامة..

وليس بالممكن أن يحبها له، وينسى فى سبيل هذا الحب حكمته الصالحة للدين والخلافة..

وإذا كان قد رأى الحكمة فى استخلافه، فليس بالممكن أن يرى ذلك ثم لا يجهر به فى مرض الوفاة أو بعد حجة الوداع..

وإذا كان قد جهر به، فليس بالممكن أن يتألب أصحابه على كتمان وصيته وعصيان أمره. إنهم لا يريدون ذلك مخلصين، وإنهم إن أرادوه لا يستطيعونه بين جماعة المسلمين، وإنهم إن استطاعوه لا يخفى شأنه ببرهان مبين، ولو بعد حين.

فكل أولئك ليس بالممكن، وليس بالمعقول.

وإنما الممكن والمعقول هو الذى كان، وهو الحب والإيثار، والتمهيد لأوانه، حتى يقبله المسلمون ويتهيأ له الزمان.

أما العلاقة بين علىّ وسائر الصحابة من الخلفاء وغير الخلفاء، فهى علاقة الزمالة المرعية والتنافس الذى يثوب إلى الصبر والتجمل والتقية..

فليس فيما لدينا من الأخبار والملامح ما يدل على ألفة حميمة بينه وبين أحد من الصحابة المشهورين، وليس فيها كذلك ما يدل على عداوة وبغضاء.. بل ليس فى أخباره جميعاً ما يدل على طبيعة تحقد على الناس، وإن دلت أحياناً على طبيعة يحقد الناس عليها ويفرطون.

فمن المعلوم أن عليًّا كان يرى أنه أحق بالخلافة من سابقيه، وأنه لم يزل مدفوعاً عن حقه هذا منذ انتقل النبى عليه السلام إلى الرفيق الأعلى.
واحتج المهاجرون على الأنصار فى أمر الخلافة بالقرابة منه صلوات الله عليه. قال: «ولما

احتج المهاجرون على الأنصار يوم السقيفة برسول الله صلى الله عليه وسلم فلجوا[1] عليهم.. فإن يكن الفلج به فالحق لنا دونكم وإن بغيره فالأنصار على دعواهم».

كذلك كان رأيه فى الخلافة يوم بويع بها الصديق، ثم بويع بها الفاروق، ثم بويع بها عثمان..

وجاءت قضية الإرث بعد قضية الخلافة فى أوائل عهد الصديق، فباعدت الفرجة بين القلوب، وأطالت العزلة بين الأصحاب.. وخلاصة هذه القضية، أن فاطمة والعباس رضى الله عنهما طلبا ميراثهما فى أرض فدك وسهم خيبر، فذكر لهما الصديق حديث النبى عن إرث الأنبياء، ونصه فى روايته: «نحن معاشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه فهو صدقة.. إنما يأكل آل محمد من هذا المال».

فغضبت فاطمة، ولم تكلمه حتى ماتت ودفنها علىّ ليلا، ولم يؤذن بها أبا بكر،وقيل إن عليًّا تخلف عن البيعة ستة أشهر إلى مابعد وفاتها. ثم أرسل إلى أبى بكر أن ائتنا ولا يأتنا معك أحد.. وتلقاه وعنده بنو هاشم؛ فقال: «إنه لم يمنعنا من أن نبايعك يا أبا بكر إنكار لفضيلتك، ولا نفاسة عليك بخير ساقة الله إليك، ولكنا كنا نرى أن لنا فى هذا الأمر حقًّا فاستبددتم به علينا».

ومع هذا اليقين الراسخ عنده فى حقه وحق غيره، نرجع إلى سيرته وأحاديثه.. فنرى ولا ريب أنها أقل ما تشعر به النفس الإنسانية فى هذه الحالة من النفرة والنقمة، ولا نجد فى خطبه ومساجلاته التى ذكر فيها الخلفاء السابقين كلمة تستغرب من مثله، أو يتجاوز بها حد الحجة التى تنهض بحقه.. بل الغريب أنه لزم هذا الحد ولم يجاوزه إلى جمحة غضب تفلت معها بوادر اللسان، ولو جاوزه لكان عاذروه أصدق من لائميه..!

* * *

وقد أعان أسلافه الثلاثة برأيه وعمله، وجاملهم مجاملة الكريم بمسلكه ومقاله. ولم يبدر منه قط ما ينم على كراهية وضغن مكتوم.. ولكنه كان يأنف أن ينكر هذه الكراهية إذا رمى بها كما يأنف العزيز الكريم. وفى ذلك يقول فى خطاب إلى معاوية: «ذكرت إبطائى

(١) فلجوا: أى انتصروا عليهم.

عن الخلفاء وحسدى إياهم والبغى عليهم، فأما البغى فمعاذ الله أن يكون، وأما الكراهية لهم فو الله ما أعتذر للناس من ذلك».

وأولى أن يقال إن دلائل وفائه فى حياتهم، وبعد ذهابهم، كانت أظهر من دلائل جفائه، فإنه احتضن ابن أبى بكر محمدًا وكفله بالرعاية ورشحه للولاية، حتى حسب عليه وانطلقت الألسنة بانتقاده من أجله، وقد سمى ثلاثة من أبنائه بأسماء الخلفاء الذين سبقوه، وهم: أبو بكر، وعمر، وعثمان..

ويخطىء جدًّا من يتخذ فتواه فى مقتل الهرمزان دليلا على كراهيته لعمر أو نقمة منه فى أبنائه.. فقد أسرع عبيد الله بن عمر إلى الهرمزان، فقتله انتقاماً لأبيه، ولم ينتظر حكم ولى الأمر فيه ولا أن تقوم البينة القاطعة عليه. فلما استفتى فى هذه القضية أفتى بالقصاص منه، ولم يغير رأيه حين تغير رأى عثمان، فأعفاه من جريرة عمله.. لأنه هو الرأى الذى استمده من حكم الشريعة كما اعتقده وتحراه، وبهذا الرأى دان قاتله عبد الرحمن بن ملجم، فأوصى وكرر الوصاية ألا يقتلوا أحدًا غيره لمظنة المشاركة بينه وبين رفقائه فى التآمر عليه.

وإنك لن تجد إنساناً أعرف بالعهد، ولا أصون له ممن يتذاكره فى حومه الحرب، ويرى أن التذكير به ينزع السلاح من الأيدى، ويعود بالخصمين المتناجزين إلى الصفاء والإخاء..

فما حارب علىٌّ عدواً له سابقة مودة به إلا أن يذكره بتلك السابقة، ويستنجد بالصداقة الأولى فيه على العداوة الحاضرة..

ومن ذلك موقفه مع الزبير وطلحة فى وقعة الجمل، وهما ملحان فى حربه وإنكار بيعته..

فخرج حاسراً لا يحتمى بدرع ولا سلاح ونادى:

يازبير، اخرج إلىّ.. فخرج إليه شاكًّا فى السلاح، وسمعت السيدة عائشة فصاحت: واحرباه!.. إذ كان خصم علىٍّ مقضيًّا عليه بالموت كائنًا ما كان حظه من الشجاعة والخبرة والنضال.

فلما تقابل علىّ والزبير اعتنقا، وعاد علىٌّ يسأل: «ويحك يا زبير ما الذى أخرجك؟..»

قال: «دم عثمان»

قال: «قتل الله أولانا بدم عثمان»

وجعل يذكر عهوده وعهود رسول الله، ومنها مقالة النبى: «و الله ستقاتله وأنت له ظالم»

فاستغفر الزبير وقال: «لو ذكرتها ما خرجت»

* * *

ولما وقف علىّ على جثة طلحة بكى أحر بكاء، وجعل يمسح التراب عن وجهه وهو يقول: «عزيز علىّ أن أراك أبا محمد مجندلا تحت نجوم السماء» وتمنى لو قبضه الله قبل هذا اليوم بعشرين سنة..

والمودة عند فارس كعلى، عهد محفوظ وموثق مذكور، إن فاتها أن تكون حنان قلب أو ألفة شعور.

ويخيل إلينا أنه لم يرزق قط صداقة الألفاء الذين يرعاهم ويرعونه لأنه يحبهم ويحبونه، ولكنه عامل الناس وعاملوه على سنة العهود وديدن الفروسية، فلم تزل بينه وبينهم إيماءة إلى سلاح مغمد أو سلاح مشهور.

ومثل علىّ لا يرزق صداقة الألفاء، لأنه من أصحاب المزايا التى تغرى بالمنافسة أو بالحسد ولا تحميها المنافع ولا المسايرة والمداراة.

فهو شجاع، عالم، بليغ، ذكى، موصول النسب بأعرق الأرومات.. فإن لم يحسد هذا، فمن يحسد؟..

وإن حسد، فما الذى يفل من غرب حاسديه؟.. وما الذى يفىء بهم إلى القصد فى عدائه والتأليب عليه؟..

إنهم يستبعدون يومه فى الإمارة والسلطان، وإذا استقربوا يومه فى الإمارة والسلطان فلا مطمع لهم فى النفع على يديه وهو قوام بالقسط على الأموال والحقوق، فتصيبه إذن منهم نصيب المحسود الذى لا رجاء له فى هوادة من حاسديه، وليس أحقد من الناس على

صاحب عظمة لم يطمعوا فى نفعه ولم يزالوا على طمع فى النفع من خصومه، وبليته بهم أكبر وأدهى حين لا يصطنع الدهان ولا يعمد معهم إلى الختل والروغان.. وعلى أنه لو داهنهم وراوغهم لما اغتفروا له ذنب العظمة التى لا تحميها حماية من طمع أو نكاية، أو كما قال الحكيم الغربى: «إن نسى أنه أسد لم ينسوا أنهم كلاب»

* * *

وهكذا فرضت على الرجل العظيم ضريبة العظمة الغريبة فى ديارها وبين آلها وأنصارها..

فالعلاقة بينه وبين كرام الصحابة، كانت علاقة الزمالة التى ينوب فيها الواجب مناب الألفة..

والعلاقة بينه وبين الخصوم، كانت علاقة حسد غير مكفوف، وبغض غير مكتوم..

والعلاقة بينه وبين سواد العامة، كانت علاقة غرباء يجهلونه ولا ينفذون إلى لبابه، وإن قاربه أناس معجبون، وباعده أناس نافرون..

وتلك أيضاً آية الشهيد..

ثقافته

ألسنة الخلق أقلام الحق..

كلمة سائغة ليس أصدق منها إن صدقت، وهى صدق فى كثير من الأحيان..

ونحن نعلم صدقها الأصيل حين نسمع الكلمة من هذه الكلمات التى ينقلها لسان عن لسان ويتلقاها جيل عن جيل، فيخيل إلينا أنها خاطر عابر يسمع ويستلمح ويشفع له القدم.. فنقبله كرامة له كما نقبل السمين والغث أحياناً من وقار المشيب، ولكنه بعد كل هذا لا يثبت على النقد ولا يصبر على مراجعة العلم والقياس، ثم نعرضه اتفاقاً على العلم والقياس.. فإذا به قد احتمل من النقد العسير ما ليست تحتمله آراء العلماء وقضايا الحكماء، وإذا بالخطأ فى هذه القولة الشائعة أو فى هـذا اللقب المرتجـل أقل من كـل خطأ يحصى على كلام مخلوق..

من هذه الألقاب الشائعة، لقب الإمام الذى اختص به علىّ بين جميع الخلفاء الراشدين، والذى يطلق إذ أطلق فلا ينصرف إلى أحد غيره، وبين جميع الأئمة الذين وسموا بهذه السمة من سابقيه ولاحقيه..

ولم وليس هو بفرد فى الإمامة بجملة معانيها؟..

ألم يكن الصديق إمامًا كعلى؟.. ألم يكن الفاروق إمامًا كعلى؟.. ألم يكن عثمان إمامًا كعلى؟.. ألم يكونوا خلفاء راشدين إذا قُصدت الخلافة الراشدة بعد النبوة؟..

بلى كانوا أئمة مثله، وسبقوه فى الإمامة.. ولكن الإمامة يومئذ كانت وحدها فى ميدان الحكم بغير منازع ولا شريك، ولم يكتب لأحد منهم أن يحمل علم الإمامة ليناضل به علم الدولة الدنيوية، ولا أن يتحيز بعسكر يقابله عسكر، وصفة تناوئها صفة، ولا أن يصبح

رمزاً للخلافة يقترن بها ولا يقترن بشيء غيرها.. فكلهم إمام حيث لا اشتباه ولا التباس، ولكن الإمام بغير تعقيب ولا تذييل هو الإمام كلما وقع الاشتباه والالتباس..

وذاك عليّ بن أبي طالب، كما لقبه الناس وجرى لقبه على الألسنة.. فعرفه به الطفل وهو يسمع أماديحه المنغومة في الطرقات، بغير حاجة إلى تسمية أو تعريف..

* * *

وخاصة أخرى من خواص الإمامة، ينفرد بها عليّ ولا يجاريه فيها إمام غيره، وهي اتصاله بكل مذهب من مذاهب الفرق الإسلامية منذ وجدت في صدر الإسلام، فهو منشئ هذه الفرق أو قطبها الذي تدور عليه. وندرت فرقة في الإسلام لم يكن عليّ معلماً لها منذ نشأتها، أو لم يكن موضوعًا لها ومحوراً لمباحثها، تقول فيه وترد على قائلين.

وقد اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الكلام والتوحيد، كما اتصلت الحلقات بينه وبين علماء الفقه والشريعة، وعلماء الأدب والبلاغة.. فهو أستاذ هؤلاء جميعًا بالسند الموصول..

أما الفرق التي جعلته موضوعًا لها ومحوراً لمباحثها، فحسبك أن تذكر الخوارج والروافض والشيعة والناصبين وأهل السنة، فتكون قد ذكرت جميع الفرق الإسلامية بلا استثناء أو باستثناء جد يسير.

وهنا تشتبك الفروع وتتأشب الأفانين، فترى الفرقة الواحدة مزيجًا من التصوف والسياسة، كالباطنية على اختلافها.. وقد تترامى بها الفروع حتى تصل إلى القائلين بمذهب الباب أو مذهب البهاء، وهم طرف مقطوع أو موصول من تلك الأصول..

فالإمام أحق لقب به، وهو أحق الأئمة بلقب الإمام!..

ولقد كانت له آية من آيات الشهداء في كثير من صفاته، وكثير من معارض حياته، وطوارئ أوقاته..

وكانت له في الإمامة آية أخرى من هذه الآيات..

فآية الشهداء أنهم يبخسون حقهم في الحياة، ثم يعطون فوق حقوقهم بعد الممات..

أو هم يعرضون لنا عجائب الدنيا في إقبالها وإدبارها، كما قال الإمام رضي الله عنه:

«إنها إذا أدبرت عن إنسان سلبته محاسن نفسه، وإذا أقبلت عليه أعارته محاسن غيره»

وكذلك اتفق للإمام فى صفة الإمامة، كما اتفق له فى معظم الصفات..

فقل أن سمعنا بعلم من العلوم الإسلامية أو العلوم القديمة لم ينسب إليه، وقلَّ أن تحدث الناس بفضل لم ينحلوه إياه، وقل أن توجه الثناء بالعلم إلى أحد من الأوائل إلا كانت له مساهمة فيه..

نحلوه ديوانًا من الشعر فيه عشرات من القصائد، وليس بينها إلا عشرات من الأبيات تصح نسبتها إليه..

ونحلوه علمًا سموه علم «الجفر» وزعموا أنه علم النجوم والأزياج الذى يكشف عن حوادث الغيب إلى آخر الزمان.

ونحلوه مقامات تخلو من أشيع الحروف فى الكلمات وهو حرف الألف، ولا يعقل أن تظهر أشباه هذه المقامات قبل عصر الصناعة فى أيام العباسيين وما تلاها..

ونحلوه من مصطلحات علم الكلام أقوالا لم تعرف، ولا يعقل أن تعرف قبل ترجمة المفردات الإغريقية بما لها من غرائب النحت والاشتقاق وبعض ما نحلوه يزيده قدراً ويرفعه شأنًا، ألا تصح نسبته إليه..!!

وبعض ما بقى له غير مشكوك فيه ولا مختلف عليه.. كاف لتعظيم قدره وإثبات إمامته فى عصره، وبعد عصره.

وعندنا أنه رضى الله عنه كان ينظم الشعر ويحسن النظر فيه، وكان نقده للشعراء نقد عليم بصير، يعرف اختلاف مذاهب القول واختلاف وجوه المقابلة والتفضيل على حسب المذاهب، ومن بصره بوجوه المقابلة بينهم أنه سئل: «من أشعر الناس؟» قال: «إن القوم لم يجروا فى حلقة تعرف المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب..»

وهذا فيما نعتقد أول تقسيم لمقاييس الشعر على حسب «المدارس» والأغراض الشعرية بين العرب. فلا تكون المقابلة إلا بين أشباه وأمثال ولا يكون التعميم بالتفضيل إلا على التغليب.

لكنه رضى الله عنه لم يرزق ملكة الإجادةفى شعره، والنبى عليه السلام يرى ذلك حيث سألوه أن يأذن لعلّى فى هجاء المشركين فقال: «ليس بذاك».. وأحالهم إلى حسان ابن ثابت، وندب له من يبصره بمثالب القوم..

وكل شعره الذى رجحت نسبته إليه من قبيل هذه الأبيات التى وصف بها قبيلة همدان فى وقعة صفين:

ولما رأيت الخيل ترجم بالقنا ... فوارسها حمر النحور دوام
وأعرض نقع فى السماء كأنه ... عجاجة دجن ملبس بقتام
ونادى ابن هند فى الكلاع وحمير ... وكندة فى لخم وحى جذام
تيممت همدان الذين هم هم ... إذا ناب دهر جنتى وسهامى
فجاوبنى من خيل همدان عصبة ... فوارس من همدان غير لئام
فخاضوا لظاها واستطاروا شرارها ... وكانوا لدى الهيجا كشرب مدام
فلو كنت رضوانا على باب جنة ... لقلت لهمدان: ادخلوا بسلام

أو من قبيل هذه الأبيات:

محمد النبى أخى وصهرى ... وحمزة سيد الشهداء عمى
وجعفر الذى يمسى ويضحى ... يطير مع الملائكة ابن أمى
وبنت محمد سكنى وعرسى ... منوط لحمها بدمى ولحمى
وسبطا أحمد ولداى منها ... فأيكم له سهم كسهمى
سبقتكم إلى الإسلام طرًّا ... صغيراً ما بلغت أوان حلمى
وصليت الصلاة وكنت فردا ... فمن ذا يدعى يومًا كيومى

وقد نظم شعرًا ولا ريب، كما يدل سؤالهم النبى عليه السلام أن يأذن له فى هجاء من هجاهم، ولم ينسب إليه شعرًا.. صح أو لم يصح، أجود مما قدمناه. وليس فيه ما يسلكه بين المجودين من الشعراء، أو يلحق بطبقته بين الكتاب والخطباء..

أما كتاب الجفر أو علم الجفر، فالقول الفصل فيه أقرب من القول الفصل فى جميع مانحلوه وأضافوا إليه.. فمثل علىّ فى تقواه وفضله، لا يشتغل بعلم مزعوم هو السحر القديم بعينه، وليس هو مما يليق بورعه ولا ذكائه. وقد نهى وشدد النهى عن تعلم النجوم

واستطلاع الغيب بأمثال هذه العلوم، ومن المحقق الذى لا خلجة فيه من الشك عندنا أن النبوءات التى جاءت فى نهج البلاغة عن الحجاج بن يوسف وفتنة الزنج وغارات التتار وما إليها، هى من مدخول الكلام عليه.. ومما أضافه النساخ إلى الكتاب بعد وقوع تلك الحوادث بزمن قصير أو طويل.

ولا نجزم مثل هذا الجزم فى أمر المقامات التى خلت من بعض الحروف، لأن العقل لا يمنعها قطعًا كما يمنع استطلاع الغيب المفصل من أزياج النجوم، ولكننا نستبعد جدًّا أن تكون هذه المقامات من كلام الإمام لاختلاف الأسلوب واختلاف الزمن، وحاجة النسبة هنا إلى سند أقوى من السند الميسر لنا بكثير..

* * *

وكذلك نستبعد أنه قال لكاتبه ليظهر علمه بغريب اللغة: «ألصق روانفك بالجبوب وخذ المزبر بشناترك واجعل حندورتيك إلى قيهلى حتى لا أنفى نفية إلا أودعتها بحماطة جلجلانك».

أى «ألصق مقعدك بالأرض وخذ القلم بما بين أصابعك واجعل عينيك إلى وجهى حتى لا ألفظ بلفظة إلا وعيتها فى سواد قلبك»

فإن الولع بإظهار العلم بالغريب بدعة لم تعرف فى صدر الإسلام، ولم يلتفت الناس إلى ادعائها إلا بعد استعجام العرب وندرة العارفين بفصيح العربية وغريبها على السواء.

ومثل هذا ما نسبوه إليه حيث زعموا أنه قال: «ما تربعلبنت قط» أى ما شربت اللبن يوم الأربعاء، «وما تسبتسمكت قط» أى ما أكلت السمك يوم السبت، «وما تسر ولقمت قط» أى ما لبست السراويل قائمًا. إلى أشباه هذه المخترعات التى تستغرب لفظا ومعنى واعتقادا من رجل كالإمام فى صدر الإسلام.

إلا أننا إذ نسقطها جميعًا، فلا نسقط بها فضلا ترجح به موازين الإمام فى حساب الثقافة..

بل نحسبها فضلا - إن شئنا - ونسقطها فيبقى له بعدها السهم الراجح فى تلك الموازين..

تبقى له الهداية الأولى فى التوحيد الإسلامى، والقضاء الإسلامى، والفقه الإسلامى، وعلم النحو العربى، وفن الكتابة العربية.. مما يجوز لنا أن نسميه أساسًا صالحًا لموسوعة المعارف الإسلامية فى جميع العصور، أو يجوز لنا أن نسميه موسوعة المعارف الإسلامية كلها فى الصدر الأول من الإسلام..

وتبقى له مع هذا فرائد الحكمة التى تسجل له فى ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور..

ففى كتاب نهج البلاغة، فيض من آيات التوحيد والحكمة الإلهية تتسع به دراسة كل مشتغل بالعقائد وأصول التأليه وحكمة التوحيد.

وربما تشكك الباحث فى نسبة بعضها إلى الإمام لغلبة الصيغة الفلسفية عليها وامتزاجها بالآراء والمصطلحات التى اقتبست بعد ذلك من ترجمة الكتب الإغريقية والأعجمية، ولا سيما الكلام على الأضداد والطبائع والعدم والحدود والصفات والموصوفات، ولكن الذى يقرؤه الباحث ولا يشك فى نسبته إلى الإمام أو فى جواز نسبته إليه، قسط واف لتحقيق رأى القائلين بسبق الإمام فى مضمار علم الكلام، واعتراف المعترفين له بالأستاذية الرشيدة لكل من لحق به من أصحاب الآراء والمقولات. وهو على جملته خير ما يعرف به المؤمن ربه وينزه به الخالق فى كماله، ومن أمثلته قوله: «الحمد لله الذى لم يسبق له حال حالا، فيكون أولا قبل أن يكون آخرًا، ويكون ظاهرًا قبل أن يكون باطنًا، كل مسمى بالوحدة غيره قليل، وكل عزيز غيره ذليل، وكل قوى غيره ضعيف، وكل مالك غيره مملوك وكل عالم غيره متعلم، وكل قادر غيره يقدر ويعجز، وكل سميع غيره يصم عن لطيف الأصوات، ويصمه كبيرها، ويذهب عنه ما بعد عنها، وكل بصير غيره يعمى عن خفى الألوان ولطيف الأجسام، وكل ظاهر غيره باطن، وكل باطن غيره ظاهر، لم يخلق ما خلقه لتشديد سلطان ولا تخوف من عواقب زمان، ولا استعانة على من شاور، ولا شريك مكاثر، ولا ضد منافر، ولكن خلائق مربوبون وعباد داخرون – أى ضارعون – لم يحلل فى الأشياء فيقال هو فيها كائن، ولم ينأ عنها فيقال هو منها بائن، لم يؤده خلق ما ابتدأ ولا تدبير ماذرأ، ولا وقف به عجز عما خلق، ولا ولجت عليه شبهة فيما مضى وقدر، بل قضاء متقن، وعلم محكوم وأمر مبرم..»

أما القضاء والفقه، فالمشهور عنه أنه كان أقضى أهل زمانه وأعلمهم بالفقه

والشـريعة.. أو لم يكن بينهم من هـو أقضى منه وأفقـه وأقدر عـلى إخراج الأحكـام من القرآن والحديث والعرف المأثور. وكان عمر بن الخطاب يقول كلما استعظم مسألة من مسائل القضاء العويصة، قضية ولا أبا حسن لها. لأنه كان فى هذه المسائل يتجاوز التفسير إلى التشريع، كلما وجب الاجتهاد بالرأى الصائب والقياس الصحيح.

وفى أخباره، ما يدل على علمه بأدوات الفقه كعلمه بنصوصه وأحكامه.. ومن هذه الأدوات علم الحساب الذى كانت معرفته به أكثر من معرفة فقيه يتصرف فى معضلات المواريث، لأنه كان سريع الفطنة إلى حيله التى كانت تعـد فى ذلك الـزمن ألغازًا تكـد فى حلها العقول، فيقال إن امرأة جاءت إليه وشكت إليه أن أخاها مات عن ستمائة دينار، ولم يقسم لها من ميراثه غير دينار واحد.. فقال لها: لعله ترك زوجة وابنتين وأما واثنى عشر أخا وأنت؟ فكان كما قال.

وسئل يوماً فى أثناء الخطبة عن ميت ترك زوجة وأبوين وابنتين. فأجاب من فوره: صار ثمنها تسعا. وسميت هذه الفريضة بالفريضة المنبرية، لأنه أفتى بها وهو على منبر الكوفة..

وفى هذه الإجابات، دليل على الذكاء وسرعة البديهة.. فضلا عن الدلالة الظاهرة على العلم بالمواريث والحساب.

وإذا قيل فى قضائه إنه لم يكن أقضى منه بين أهل زمانه، صح أن يقال فى علم النحو إنه لم يكن أحد أوفر سهما فى إنشاء هذا العلم من سهمه. وقد تواتر أن أبا الأسود الدؤلى شكا إليه شيوع اللحن على ألسنة العرب، فقال له: اكتب ما أملى عليك، ثم أملاه أصولا منها: أن كلام العرب يتركب من اسم وفعل وحرف، الاسم ما أنبأ عن المسمى، والفعل ما أنبأ عن حركة المسمى، والحرف ما أنبأ عن معنى ليس باسم ولا فعل. وأن الأشياء ثلاثة: ظاهر؛ ومضمر، وشىء ليس بظاهر ولا مضمر.. إنما تتفاوت العلماء فى معرفة ما ليس بظاهر ولا مضمر.. يعنى اسم الإشارة على قول بعض النحاة ثم قال لأبى الأسود: انح هذا النحو يا أبا الاسود.. فعرف العلم باسم النحو من يومها.

وهذه رواية تخالفها روايات شتى تستند إلى المقاربة بين اللغات الأخرى فى اشتقاق أصولها النحوية، ولا سيما السريانية واليونانية.. ولكن الروايات العربية لا تنتهى بنا إلى

مصدر أرجح من هذا المصدر، وغيرها من الروايات الأجنبية والفروض العلمية لا يمنع عقلا أن يكون الإمام أول من استنبط الأصول الأولى لعلم النحو العربى من مذاكرة العلماء بهذه الأصول بين أبناء الأمم التى تغشى الكوفة وحواضر العراق والشام، وهم هنالك غير قليل، ولا سيما السريان الذين سبقوا إلى تدوين نحوهم، وفيه مشابهة كبيرة لنحو اللغة العربية.

وليس الإمام على أول من كتب الرسائل، وألقى العظات، وأطال الخطب على المنابر فى الأمة الإسلامية.

ولكنه ولا ريب أول من عالج هذه الفنون معالجة أديب، وأول من أضفى عليها صبغة الإنشاء الذى يقتدى به فى الأساليب.. لأن الذين سبقوه كانوا يصوغون كلامهم صياغة مبلغين لا صياغة منشئين، ويقصدون إلى أداء ما أرادوه ولا يقصدون إلى فن الأداء وصناعة التعبير، ولكن الإمام عليًّا تعلَّم الكتابة صغيرًا ودرس الكلام البليغ من روايات الألسن وتدوين الأوراق، وانتظر بالبلاغة حتى خرجت من طور البداهة الأولى إلى طور التفنن والتجويد.. فاستقام له أسلوب مطبوع مصنوع، هو فيما نرى أول أساليب الإنشاء الفنى فى اللغة العربية، وأول أسلوب ظهرت فيه آثار دراسة القرآن والاستفادة من قدوته وسياقه، وتأتى له بسليقته الأدبية أن يأخذ من فحولة البداوة ومن تهذيب الحضارة، ومن أنماط التفكير الجديد الذى أبدعته المعرفة الدينية والثقافة الإسلامية.. فديوانه الذى سمى «نهج البلاغة» أحق ديوان بهذه التسمية بين كتب العربية، واشتماله على جزء مشكوك فيه لا يمنع اشتماله على جزء، صحيح الدلالة على أسلوبه، وربما كانت دلالة الأخلاق والمزاج فيه أقوى وأقرب إلى الإقناع من دلالة الأسانيد التاريخية، لأن طابع «الشخصية العلوية» فيه ظاهر من وراء السطور ومن ثنايا الحروف، يوحى إليك حيثما وعيته أنك تسمع الإمام ولا تسمع أحداً غير الإمام، ويعز عليك أن تلمح فيه غرابة بين صاحب التاريخ وصاحب الكلام.

على أننا نبالغ ما نبالغ فى تمحيص المنحول وغير المنحول من أقوال الإمام ومن فنون ثقافته العامة، ثم تبقى لنا بقية تسمح لنا – بل توجب علينا – أن نسأل: كيف يتسنى العلم بهذا لأى كان من الناس فى مثل ذلك الزمان؟..

والسؤال لابد منه، ولا نظن قارئاً من قراء تاريخ الإمام لم يخطر هذا السؤال بباله ولم يرد على لسانه.

ولكن لابد معه من تصحيح الباعث عليه لتصحيح الجواب عنه بعد ذلك..

فالباعث عليه أننا نبالغ فى تجريد البداوة العربية من الصلات المعقولة بالثقافة العالمية، سواء كانت من ثقافة العلم والدرس أو ثقافة التواتر والتلقين.

لكن البداوة العربية لم تكن فى الواقع معزولة عن ثقافة الأمم المحيطة بها تلك العزلة التى تخطر لنا للوهلة الأولى، فقد كانت على اتصال بعقائد الهند وفارس والروم، وكانت للمعارف الإنسانية أشعتها التى تتخلل الجزيرة العربية من قديم العصور.

وحسبنا من أمثلة ذلك مثال واحد فى معسكر الإمام نفسه يغنى عن الأمثلة من سبيله.

وذلك هو مثال عبد الله بن سبأ المشهور بابن السوداء، وهو يهودى ابن زنجية مولود فى بلاد اليمن، ومذهبه الذى اشتهر به هو مذهب الرجعة الذى يجمع فيه بين قول اليهود بظهور المنقذ من أبناء داود، وقول أهل الهند بظهور الإله الذى يتقمص جسم الإنسان، وقول النصارى بظهور المسيح، وقول أهل فارس بتقديس الأوصياء من أقرباء الملوك والأمراء.

فهذه عقيدة لا تظهر من رجل يمنى من أهل الجزيرة، إذا تخيلنا أن الجزيرة فى حضارتها أو بداوتها بمعزل عن ثقافات الهند والفرس والروم وبنى إسرائيل، وأن الأمة العربية تخلو من أناس سمعوا بالعقائد والفلسفات من طريق القدوة الدينية، أو طريق المحاكاة الاجتماعية أو طريق الدراسة والسماع.

وقد كانت عاصمة الإمام فى الكوفة.. وكانت مثابة الغادين والرائحين من أبناء الحضارات المعروفة فى العالم بأسره، ومن المسلمين الذين عاشوا بها أو بجوارها أناس كانوا ينظرون فى كتب الفرس ويعجبون بحكمتها كما جاء فى سيرة عمر بن الخطاب، ومنهم من كان ينظر فى النجوم على طريقة الفرس والروم وحذر بعض هؤلاء الإمام أن يسير إلى حرب الخوارج فى طالع كوكب من الكواكب المنحوسة، فقال له: «أتزعم أنك تهدى إلى الساعة التى من سار فيها صرف عنه السوء؟.. فمن صدق بهذا فقد كذب

القرآن، واستغنى عن الاستعانة بالله فى نيل المحبوب ودفع المكروه».

* * *

ثم أقبل على الناس بالنصح والموعظة، قائلاً: «إياكم وتعلم النجوم، إلا ما يهتدى به فى بر أو بحر.. فإنها تدعو إلى الكهانة، والمنجم كالكاهن، والكاهن كالساحر، والساحر كالكافر، والكافر فى النار!».

وقد لبث على بن أبى طالب زهاء ثلاثين سنة منقطعاً أو يكاد ينقطع عن جهاد الحكم والسياسة، متفرغاً أو يكاد يتفرغ لفنون البحث والدراسة.. يتأمل كل ما سمع، ويراجع كل ما قرأ، ويعرف كل ما يعرف، ممن يلقاه، ويستطلع أنباءه وآراءه وقضاياه.. فمهما يكن قسط الثقافة العالمية قليلاً فى بلاد الإسلام على تلك الأيام.. ففيه ولا ريب الكفاية للعقل اليقظان والبصيرة الواعية أن تفهم ما قد فهمه الإمام، وأن يثبت ما أثبته نهج البلاغة من الخواطر والأحكام.

على أن هذه الفنون من الثقافة – أو جلّها – إنما تعظم بالقياس إلى عصرها والجهود التى بذلت فى بدايتها.

فحصة الإمام من علم النحو – مثلاً – عظيمة لأن الابتداء بها أصعب من تحصيل المجلدات الضخام التى دوَّنها النحاة بعد تقدم العلم وتكاثر الناظرين فيه.

وهكذا يقال فى الحساب والمسائل العلمية التى من قبيله، فلا يجوز لنا أن نقيسها بمقياس العصر الحاضر.. وهى فى ابتدائها أصعب جدًّا منها فى أطوارها التى لحقت بها بعد نمائها واستفاضة البحث فيها.

* * *

أما فن الثقافة الذى يقاس بمقياس كل زمن، فإذا هو عظيم فى جميع هذه المقاييس، قليل الفوارق بين البدايات منه والنهايات، فذلك هو فن الكلمة الجامعة أو فرائد الحكمة التى قلنا آنفا إنها تسجل له فى ثقافة الأمم عامة كما تسجل له فى ثقافة الأمة الإسلامية، على تباين العصور.

فالكلم الجوامع التى رويت للإمام طراز لا يفوقه طراز فى حكمة السلوك على أسلوب الأمثال السائرة.

وقد قال النبى عليه السلام: «علماء أمتى كأنبياء بنى إسرائيل».

فهذا الحديث الشريف أصدق ما يكون على الإمام على فى حكمته التى تقارن بحكم أولئك الأنبياء.

فهى من طراز الحكم المأثورة عن أشهر أولئك الأنبياء بالمثل السائر وهو سليمان بن داود.

ويزيد عليها أنها أبدع فى التعبير، وأوفر نصيباً من ذوق الجمال، كقوله مثلاً: «نفس المرء خطاه إلى أجله».. أو قوله: «من يعط باليد القصيرة يعط باليد الطويلة».. أو قوله: «المرء مخبوء تحت لسانه» أو قوله: «الحلم عشيرة».. أو قوله: «من لان عوده كثفت أغصانه» أو قوله: «كل وعاء يضيق بما جعل فيه إلا وعاء العلم فإنه يتسع »إلى أشباه هذه التعبيرات الحسان التى تحار فيها أى مزاياها أفضل وأقوم: صدق المعنى، أو بلاغة الأداء، أو جودة الصناعة.

وبعض أقواله ينضح بدلائل «الشخصية» التى تلازم صاحب الفن الأصيل، فتلبس معانيه لباساً من خوالج نفسه وأحداث زمانه، كما قال «صواب الرأى بالدول. يقبل بإقبالها ويذهب بذهابها» أو كما قال: «ما أكثر العبر وأقل الاعتبار».. أو كما قال: «شاركوا الذى أقبل عليه الرزق فإنه أخلق للغنى وأجدر بإقبال الحظ عليه».. أو كما قال: «إذا هِبت أمراً فقع فيه، فإن شدة توقيه أعظم مما تخاف منه».. أو كما قال: «لا يقيم أمر الله سبحانه إلا من لا يصانع ولا يضارع ولا يتبع المطامع».

وله عدا هذه الحكم التى تلونت بألوان نفسه أو ألوان زمانه، حكم كثيرة تصدر، من كل قائل يقدر عليها، وتنفذ إلى كل سامع يفطن لها كقوله: «كل معدود منقض وكل متوقع آت» أو قوله: «إذا كثرت القدرة قلت الشهوة» أو قوله: «أفضل الأعمال ما أكرهت نفسك عليه». أو قوله: «من نصب نفسه للناس إماماً، فليبدأ بتعليم نفسه قبل تعليم غيره.. وليكن تأديبه بسيرته قبل تأديبه بلسانه، ومعلم نفسه ومؤدبها أحق بالإجلال من معلم الناس ومؤدبهم» أو قوله: «الفقيه كل الفقيه من لم يقنط الناس من رحمة الله ولم يوئسهم من روح الله، ولم يؤمنهم من مكر الله».. أو قوله: «قيمة كل امرئ ما يحسنه» أو قوله: «العاقل هو الذى يضع الشىء مواضعه» أو قوله: «الصبر صبران: صبر على

ما تكره، وصبر على ما تحب» أو قوله: «من ملك استأثر» أو قوله: «الناس أعداء ما جهلوا». أو قوله: «القرابة إلى المودة أحوج من المودة إلى القرابة»..

وله فى المواقف المرتجلة كلمات هى أشبه الكلمات بأسلوب الحكمة السائرة. فلما خرج وحده لبعض المهام التى تردد فيها أنصاره، قالوا له يشيرون إلى أعدائه: «يا أمير المؤمنين نحن نكفيكهم» فقال: «ما تكفوننى أنفسكم فكيف تكفوننى غيركم؟ إن كانت الرعايا قبلى لتشكو حيف رعاتها، وإننى اليوم لأشكو حيف رعيتى، كأننى المقود وهم القادة، أو الموزوع وهم الوزعة».

ورثى محمد بن أبى بكر حين بلغه مقتله على أيدى أصحاب معاوية فقال: «إن حزننا عليه قدر سرورهم به، إلا أنهم نقصوا بغيضاً ونقصنا حبيباً».

فكل نمط من أنماط كلامه، شاهد له بالملكة الموهوبة فى قدرة الوعى وقدرة التعبير فهو ولا شك من أبناء آدم الذين علموا الأسماء وأوتوا الحكمة، وفصل الخطاب.

وقد أخطأ «موير» Moyer المؤرخ الإنجليزى حين قال إن عليًّا حكيم كسليمان، وهو مثله حكمته لغيره.. يعنى أنه ينصح الناس ولا ينتفع بالنصيحة، فإن «موير» أحجى أن يفرق بين عمل الإنسان بنصحه وبين انتفاعه بنصحه. ولا شك أن عليًّا كان من العاملين بما يقولون ومن المنتصحين بما ينصح به الناس. أما أنه ينتفع بحكمته، فالطبيب لا يقدح فى علمه أنه قد أعياه علاج نفسه بطبه.. فقد يكون الإخفاق من استعصاء الداء لا من صحة الدواء.

* * *

ولا يفوتنا أن بعض هذه النصائح، قد نسب إلى قالة من الأوائل غير الإمام رضى الله عنه، وهذا يستطرد بنا مرة أخرى إلى الصحيح والمنحول من كلام الإمام الذى جمعه الشريف الرضى فى «نهج البلاغة» وفرغ من جمعه بعد مقتله بزهاء أربعة قرون، وهو بحث يخرج بنا من موضوع هذا الكتاب إلى دراسة أدبية ليست من أغراضنا الخاصة فى التعريف بعبقرية الإمام فحسبنا أن أسلوب الإمام معروف فى بعض ما ثبت له من رسائله وخطبه، وأن طابع هذا الأسلوب شائع فى الكتاب لا تقدح فيه كلمة ظاهرة للتلفيق هنا أو كلمة ظاهرة الإقحام هناك، أو كلمات يقع فيها الالتباس لاختلاف الصناعة أو اختلاف

التفكير فنحن لا نخطئ أن نرى فى هذه الخطب والرسائل والأمثال وحدة تتصل حيناً، وتنقطع حيناً، كالوحدة التى نراها بغير انقطاع فى كتب الجاحظ وابن المقفع وعبد الحميد.. وهذه الوحدة وحدها مغنية لنا فى تبيان ثقافة الإمام، أو تذوق أسلوبه الذى لا تخطئ فيه مرة جزالة البادية وصقل الحاضرة وحسن البداهة وامتزاج الصناعة بالطبع الذى لا تكلف فيه..

ولا يتم القول فى ثقافة الإمام على رضى الله عنه، ما لم نتممه بالقول فى نصيبه من الثقافة العسكرية أو فن الحرب، الذى هو مضماره الأول ومناط شهرته التى تبرز فيها صفة الشجاعة قبل كل صفة، وكفاءة المناضل قبل كل كفاءة..

فجملة ما يقال فى هذا الصدد، أن فن الإمام العسكرى هو فن البطل المغوار الذى يناضل الأفراد وينفع الجيش الذى هو فيه بقدوة الشجاعة وإذكاء الحماسة وتعزيز الثقة بين صفوفه، وأنه يعرف كيف يكون الهجوم حيث يجب الهجوم، وكيف يحتال على عدوه بما يخلع قلبه ويفت فى عضده.. ومن حيله المشهورة فى توهين عزم عدوه، أنه أمر بعقر الجمل فى الوقعة المعروفة باسمه، لأنه كان علم القوم الذين كانوا يلتفون به ويثبتون بثبوته..

وهذا كله فن البطل المغوار الذى يفرق العسكريون بينه وبين خطط القيادة وفنون التعبئة وتحريك الجيوش.

ولم يرد لنا من أنباء الإمام فى هذا الباب ما نحكم به على قيادته العسكرية بهذا الاعتبار.

نعم.. إنه كان يقسم جيشه إلى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة ومؤخرة، وأشباه ذلك من التقسيمات التى جرى عليها فى وقعة صفين على التخصيص..

وكانت له وصاياه المحفوظة فى تسيير الجيوش وتأديب الجند ومعاملتهم لسكان البلاد، ومنها قوله: «إذا نزلتم بعدو أو نزل بكم، فليكن معسكركم من قبل الإشراف وسفاح الجبال، أو أثناء الأنهار، كيما يكون لكم ردءًا ودونكم ردًّا، ولتكن مقاتلتكم من وجه واحد أو اثنين، واجعلوا لكم رقباء فى صياصى الجبال ومناكب الهضاب، لئلا يأتيكم العدو من مكان مخافة أو أمن، واعلموا أن مقدمة القوم عيونهم وعيون المقدمة طلائعهم، وإياكم

والتفرق فإذا نزلتم فانزلوا جميعاً وإذا ارتحلتم فارتحلوا جميعاً، وإذا غشيكم الليل فاجعلوا الرماح كفة - أي محيطة بكم - ولا تذوقوا النوم إلا غراراً أو مضمضة»..

ومنها قوله: «ولا تسر أول الليل، فإن الله جعله سكناً وقدره مقاماً لا ظعنا» ومنها قوله للولاة: «إنى سيرت جنوداً هى مارة بكم إن شاء الله وقد أوصيتهم بما يجب لله عليهم من كف الأذى وصرف الشذى، وأنا أبرأ إليكم وإلى ذمتكم من معرة الجيش إلا من جوعة المضطر لا يجد عنها مذهباً إلى شعبه، فنكلوا من تناول منهم شيئاً ظلماً عن ظلمهم، وكفوا أيدى سفهائكم عن مضارتهم والتعرض لهم..»

وهذه وما هو من قبيلها، مناهز موروثة أو أدب هو أقرب إلى نظام الإدارة منه إلى خطط التعبئة وقيادة الميدان..

وعلى كونه قد اتبع هذه التقسيمات والمناهج فى وقعة صفين، لم تكن الوقعة كلها إلا مناوشات هجوم ودفاع بين طوائف متفرقة فى أوقات متباعدة.. كأنها ضرب آخر من ضروب فن الحرب على طريقة الفارس المناضل والبطل المفرد فى موقف المبارزة أو فى غمار الصفوف.

* * *

وخلاصة ذلك كله، أن ثقافة الإمام هى ثقافة العلم المفرد والقمة العالية بين الجماهير فى كل مقام..

وإنها هى ثقافة الفارس المجاهد فى سبيل الله، يداول بين القلم والسيف، ويتشابه فى الجهاد بأسه وتقواه.. لأنه بالبأس زاهد فى الدنيا مقبل على الله، وبالتقوى زاهد فى الدنيا مقبل على الله.

فهو فارس يتلاقى فى الشجاعة دينه ودنياه، وهو عالم يتلاقى فى الدين والدنيا بحثه ونجواه..

فى بيته

خلاصة رأى الإمام فى المرأة أنها «شر كلها.. وشر ما فيها أنه لابد منها»..

كان يرى لها فضائل خاصة تليق بها غير الفضائل التى تليق بالرجل وتحمد منه.. «فخيار خصال النساء شرار خصال الرجال.. الزهو، والجبن، والبخل.. فإذا كانت المرأة مزهوة لم تمكن من نفسها، وإذا كانت بخيلة حفظت مالها ومال بعلها، وإذا كانت جبانة فرقت من كل شيء يعرض لها»..

والإمام صائر إلى رأيه هذا فى المرأة من كلتا طريقيه، وهما طريق الحكيم الذى ينظر إليها على سنة الحكمة القديمة، وطريق العابد الذى ينظر إليها على سنة العبادة فى جميع العصور.. ولكنه لا رأى الحكيم ولا حس العابد قد حجبه قط عن فطرته الغالبة عليه، وهى فطرة الفارس المطبوع فى آداب الفروسية، ومنها التلطف بالمرأة والصفح عن عدوانها.. فما انتقم قط من امرأة لأنها أساءت إليه، ولا غفل قط عن الوصية بها فى موطن يستدعى هذه الوصية. ومن أمثلة وصاياه فى هذا المعنى خطبته بين جنوده قبل لقاء العدو بصفين، حيث يقول:

«لا تهيجوا النساء بأذى وإن شتمن أعراضكم وسببن أمراءكم، فإنهن ضعيفات القوى والأنفس والعقول، إن كنا لنؤمر بالكف عنهن وأنهن لمشركات، وإن كان الرجل ليتناول المرأة فى الجاهلية بالقهر - أى الحجر - أو الهراوة فيعير بها وعقبه من بعده.»

وقد كانت ميوله نحو المرأة قوية، كما يظهر من غير حادث واحد.. ومن ذاك صبية السبى التى استولى عليها وبنى بها لساعتها، وجعلها قسمة من الخمس قبل تقسيمه.. فرأى بعض أصحابه ذلك ما شكوه إلى النبى عليه السلام من أجله، وربما كان هذا سبب تحذيره منها فى الغزوات خيفة على الجيش من شواغلها، فكان يقول لسراياه وجيوشه إذا

شيعها: «اعزبوا عن النساء ما استطعتم» ويوصى فى أمثال هذه المواطن باجتنابها..

إلا أنه كان يرى على ما يظهر أن امرأة تغنى عن سائر النساء، فلم يعرف له هوى لامرأة خاصة من نسائه غير الهوى الذى اختص به السيدة فاطمة رضى الله عنها كرامة لمنزلتها عنده ومنزلتها عند أبيها، وهو غير الهوى الذى تبعثه المرأة بمغريات جنسها.

كان جالساً فى أصحابه، فمرت بهم امرأة جميلة، فرماها القوم بأبصارهم.. فقال رضى الله عنه: «إن أبصار هذه الفحول طوامح، وإن ذلك سبب هياجها.. فإذا نظر أحدكم إلى امرأة تعجبه قليلا مس أهله، فإنما هى امرأة كامرأة»

وعلى الجملة، يمكن أن يقال إن آراء الإمام فى المرأة هى خلاصة الحكمة القديمة كلها فى شأن النساء..

فهن شر لابد منه باتفاق آزاء الأقدمين، سواء منهم حكماء الهند واليونان أو الحكماء الذين نظروا إلى المرأة بعين الدين من أبناء بنى إسرائيل وآباء الكنيسة المسيحية وأئمة الإسلام.

لأنهم كانوا جميعاً يمزجونها بالشهوات التى تثيرها عامدة أو غير عامدة، ويلقون عليها تبعة الشرور التى تنجم عنها بمكيدتها أو على الرغم منها، ولم تتغير هذه النظرة بعض التغير إلا فى الأزمنة الحديثة التى نظرت فى استقلال التبعات على أساس «الحرية الشخصية».. فحاسبت المرأة بما تجنيه، وأوشكت أن تبالغ فى تبرئتها من جناياتها.

فمن السهو عن الحقيقة، أن تتخذ آراء الأقدمين فى المرأة دليلا على نصيبهم من الغبطة أو السكينة فى حياتهم البيتية.. لأننا خلقاء أن نحسبهم جميعًا من الأشقياء المعذبين فى بيوتهم، وهو ما تأباه البداهة وتأباه أنباء التاريخ عن كثير من الأزواج والزوجات النابهات.

وليس من اللازم فى حياة الإمام خاصة، أن يستمد آراءه فى المرأة من حياته البيتية.. فقد كانت تجاربه فى الحياة العامة مددا لا ينفد لهذه الآراء التى شاعت بين الأقدمين حتى أوشكت ألا تحتاج إلى تجربة مكررة، وشاءت المقادير أن تنقضى حياة الإمام على وللمرأة يد فى القضاء عليها؛ فكانت حياته الغالية مهرًا لقطام التى قال فيها ابن أبى مياس المرادى:

ولم أر مهرًا ساقه ذو سماحة كمهر قطام من فصيح وأعجم
ثلاثة آلاف وعبد وقينة وضرب عليّ بالحسام المسمم
فلا مهر أغلى من عليّ وإن غلا ولا فتك إلا دون فتك ابن ملجم

والذى يجزم به مؤرخ الإمام أن حياته البيتية خلت من شكاة لم يألفها الأزواج فى زمانه، وأنها كانت على أحسن ما وصفت به الحياة الزوجية بين أمثاله..

عاش مع فاطمة رضى الله عنها، لا يقرن بها زوجة أخرى.. حتى ماتت بعد موت النبى عليه السلام بستة أشهر.. وهى رعاية لها ورعاية لمقام أبيها لا شك فيها، فقد كان النبى عليه السلام كما جاء فى الأثر يغار لبناته غيرة شديدة، وروى عنه أنه قال وهو على المنبر مرة: «إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم على بن أبى طالب فلا آذن، ثم لا آذن، ثم لا آذن، إلا أن يريد على بن أبى طالب أن يطلق ابنتى وينكح ابنتهم.. فإنها بضعة منى يريبنى ما رابها ويؤذينى ما آذاها».

وربما كان من وفائه لها غضبه لغضبها، فأحجم عن مبايعة أبى بكر إلى ما بعد وفاتها على بعض الروايات، وهجره كما هجرته مدة حياتها. وقد ولدت له أشهر أبنائه وبناته: الحسن، والحسين، ومحسن، وأم كلثوم، وزينب، وماتت ولم تبلغ الثلاثين.

وتزوج بعدها تسع نساء رزق منهن أبناء وبنات يختلف فى عددهم المؤرخون، ويؤخذ من إحصائهم فى «الرياض النضرة» للمحب الطبرى أنه رضى الله عنه وافر الحظ من الذرية، بقى منهم بعده كثيرون.

وكان على ما يفهم من خلائقه، ومن سيرته وأخباره، أبًا سمحًا يستريح الأبناء إلى عطفه، ويجترئون على مساجلته الرأى فى أخطر ما ينوبه من الأحداث الجسام.

لما توجه طلحة والزبير نحو العراق، ومعهما السيدة عائشة رضى الله عنها، جاءه ابنه الحسن بعد صلاة الصبح فقال له: «قد أمرتك فعصيتنى، فتقتل غدًا بمعصية لا ناصر لك فيها» فسأله: «وما الذى أمرتنى فعصيتك؟» قال: «أمرتك يوم أحيط بعثمان رضى الله عنه أن تخرج من المدينة فيقتل ولست بها، ثم أمرتك يوم قتل ألا تبايع حتى تأتيك وفود العرب وبيعة أهل كل مصر.. فإنهم لن يقطعوا أمرًا دونك فأبيت.. ثم أمرتك حين فعل

هذا الرجلان ما فعلا أن تجلس فى بيتك حتى يصطلحا.. فإن كان الفساد كان على يدى غيرك، فعصيتنى فى ذلك كله!».

فلم يأنف أن يساجله الرأى ليقنعه، وجعل يقول له: «أى بنى!.. أما قولك لو خرجت من المدينة حين أحيط بعثمان فوالله لقد أحيط بنا كما أحيط به، وأما قولك لا تبايع حتى تأتى بيعة الأمصار فإن الأمر أمر أهل المدينة وكرهنا أن يضيع هذا الأمر، وأما قولك حين خرج طلحة والزبير فإن ذلك كان وهنًا على أهل الإسلام.. وأما قولك: اجلس فى بيتك فكيف لى بما قد لزمنى؟.. ومن تريدنى؟.. أتريد أن أكون مثل الضبع التى يحاط بها ويقال دباب دباب.. لست هنا حتى يحل عرقوباها ثم تخرج.. وإذا لم أنظر فيما لزمنى من الأمر ويعنينى، فمن ينظر فيه؟ فكف عنك أى بنى».

وهذه معاملة «أخوة» تستغرب فى الأجيال الماضية التى كان للأبوة فيها على البنين سيادة تقرب من سيادة المولى على الرقيق، ولا ينقضها أنه لطم الحسن يومًا لأنه ظن به تقصيرًا فى الدفاع عن عثمان.. فتلك سورة الغضب فى موقف من أندر المواقف التى لا يقاس عليها فى سائر الأحوال..

وكان رضى الله عنه، يزهيه أن يحيط به أبناؤه فى محافل الروع ومشاهد الزخرف.. فيخرج إليها وهم حافون به عن يمينه وشماله، ومنهم من يحمل اللواء بين يديه، وذلك زهو الشجاع الفخور بأشباله الشجعان..

واشتهر بالعطف على صغارهم، كما اشتهر بمودة كبارهم.. فكان أحب شىء إليه أن يداعبهم أو يرى من يداعبونهم، وكانت له طفلة ذكية ولدتها له زوجة من بنى كلب يخرج بها إلى المسجد ويسره أن يسألها أصحابه: من أخوالك؟.. فتجيب: «وه.. وه» محاكاة لعواء الكلاب..

وكان يقول: «إن للوالد على الولد حقًا، وإن للولد على الوالد حقًا. فحق الوالد على الولد أن يطيعه فى كل شىء إلا فى معصية الله سبحانه، وحق الولد على الوالد أن يحسن اسمه ويحسن أدبه ويعلمه القرآن»..

ومن إحسان التسمية، أنه هم بتسمية ابنه حربًا لأنه يرشحه للجهاد وهو أشرف صناعاته، لولا أن رسول الله سماه الحسن، وهو أحسن.. فجرى على هذا الاختيار فى

تسمية أخويه الحسين والمحسن. وأتم حق أبنائه فى إحسان أسمائهم، فاختار لهم أسماء النبى وأسلافه من الخلفاء: أبى بكر، وعمر، وعثمان.

أما معيشته فى بيته بين زوجاته وأبنائه، فمعيشة الزهد والكفاف.. وأوجز ما يقال فيها أنه كان يتفق له أن يطحن لنفسه؛ وأن يأكل الخبز اليابس الذى يكسره على ركبته، وأن يلبس الرداء الذى يرعد فيه، وأن أحدًا من رعاياه لم يمت عن نصيب أقل من النصيب الذى مات عنه وهو خليفة المسلمين.. وكان الخليفة يوم كانت الخلافة تناقض ملك الدنيا.. فكان بيته نقيض القصر الذى تعرض الدنيا المملوكة بين أركانه وزواياه..

صورة مجملة

من كلمات الإمام التى لم يقلها أحد غيره كلمته فى خطاب الدنيا حيث يقول: «يا دنيا غرى غيرى.. غرى غيرى!».

وإنها لأكثر من كلمة، وأكثر من دعاء..

إنها لسان قدر، وعنوان حياة..

فقد خلق الإمام، وفى كل خليقة من خلائقه الكبار اجتراء على الدنيا، على ضرب من ضروب الاجتراء.

خلق شجاعًا بالغًا فى الشجاعة، وزاهدًا عظيم الزهد، ودارسًا محبًا للحقيقة الدينية يتحراها حيث اهتدى إليها..

والشجاع جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى الحياة..

والزاهد جرىء على الدنيا لأنه لا يبالى النعيم..

وطالب الحقيقة جرىء على الدنيا لأنها طريق عنده إلى غاية من ورائها..

فأى مصير لهذا الرجل غير الشهادة فى زمن لم يعرف بطارئ من الطوارئ، كما عرف بالإقبال على الدنيا؟..

صام الناس قبله عن الدنيا، ثم أقبلوا على الدنيا العريضة بحذافيرها..

هدأت حماسة الدعوة النبوية، وثابت الطبائع إلى مألوفها الذى أشربت عليه، وتدفقت الأموال من الأمصار المفتوحة على نحو لم تعهده الجزيرة العربية قط فى تاريخها القديم..

وأقبل الناس على الدنيا، بل هرولوا إلى الدنيا..

وإذا بخليفة جرىء عليها زاهد فيها، يقف لهم فى طريقها ويصدهم عنها..

يصد ماذا؟..

يصد الطوفان، وهو مندفع من وراء السدود..

يصد الطبيعة الإنسانية، وهى منطلقة من عقال التقوى..

يصد ما لا سبيل إلى صده بحال..

فهو مستشهد لا محالة ولو مات على سريره.. فإن الإنسان قد يعيش عيشة الشهداء، ولا يلزم بعد ذلك أن يموت ميتة الشهداء..

وقد لزمته آية الشهادة فى كل قسمة كتبت له، وكل حركة سعى إليها أو سعت إليه..

فمن آيات الشهادة أن يساق إلى الخلافة، ولا حيلة له فى اجتنابها..

ومن آيات الشهادة أن يساق إليها فى ساعة الفصل بينها وبين الملك، وتقوم الحوائل كلها بينه وبينها قبل الأوان..

ومن آيات الشهادة أنه يساق إليها، ولا حيلة له فى تحقيق أغراضها ولا فى الخروج من مآزقها..

ومن آيات الشهادة أن يبتلى بأنصاره أشد من بليته بأعدائه، ولا حيلة فى تبديل أولئك الأنصار..

ومن آيات الشهادة ألا تغره الدنيا، وقد غرت حوله كل إنسان.. فهو شهيد، شهيد، شهيد..

خرج إلى الدنيا والشهادة مكتوبة على جبينه، وخرج منها والشهادة مكتوبة على ذلك الجبين بضربة حسام..

وصورته المجملة لا تشق على مصور ولا على متفرس، لأنها صورة للمجاهد فى سبيل الله بيده وقلبه وعقله، أو صورة الشهيد..

وكل امتحان لقدرته أو لعمل من أعماله، ينبغى أن ينعزل عن محنة القدر التى لا يغلبها غالب..

وقد كان لـه رأى عالم، وفـطنة حكيم، ومشـورة مدبـر.. ولكننا إذا قلنـا إنه أخفق فى العمل لأنه لم يغلب القدر، فذلك تكليف بما لا يطاق.

وإنما نقول إنه أخفق فى العمل ونمسك، ولعله لو تولى الخلافة قبلها أو تولى الملك بعدها لما ظهر منه ذلك الإخفاق..

* * *

وحق لا شك فيه أنه أخفق حيث يشرفه إخفاقه، وحيث يخفق الآخرون لو نصبتهم الأقدار فى مثل مكانه..

ومات وقد حل مشكلة الخلافة بلسانه، وهو إلى اليوم موضع الخلاف عليها وعليه بين أصحاب المذاهب وأصحاب الأقوال فى التاريخ..

فقد كان يود لو أن رسول الله استخلفه من بعده، ولكنه لم يطلب إليه ذلك.. ولا رأى من الحكمة أن يطلبه إليه. قال ابن عباس ورسول الله فى مرض الوفاة: «اذهب إلى رسول الله، فسله فيمن يكون هذا الأمر.. فإن كان فينا علمنا ذلـك، وإن كان فى غـيرنا أمر به فأوصى بنا».. قال: «والله لئن سألناها رسول الله فمنعناها لا يعطيناها الناس أبدًا.. والله لا أسألها رسول الله أبدًا»..

وآمن الإمام بحكمة الرسول إيمان محبة وتصديق، ولكنه لم يفارق الدنيا حتى كان قد آمن بها إيمان تعليم وتطبيق. فلما سألوه: «أنبايع الحسن؟» قال: «لا آمركم ولا أنهاكم» فأنصف الذين سبقوه ولم يفرضوا على الناس استخلافه، لأنهم رأوا فى موقفه منها مثل ما رأوه فى موقف الحسن ابنه، على حكم سواء..

* * *

أى ختام أشبه بهذا الشهيد المنصف من هذا الختام..

لقد ولد كما علمنا فى الكعبة، وضرب كما علمنا فى المسجد.. فأية بداية ونهاية أشبه بالحياة التى بينهما من تلك البداية وتلك النهاية!!..

فهرس

صفحة

عَبْقَرِيَّةُ خَالِد

البادية والحرب

كان قتيبة بن مسلم قائدا من نوابغ القادة المعدودين الذين أنجبتهم الأمة العربية فى صدر الإسلام.

وكان يلى خراسان لملوك الدولة الأموية، فخرجت بها خارجة أهمته، فقيل له: «ما يهمك منهم؟.. وجه إليهم وكيع بن أبى مسعود فإنه يكفيكهم». فأبى، وقال: «لا.. إن وكيعًا رجل به كبر يحتقر أعداءه، ومن كان هكذا قلت مبالاته بعدوه فلم يحترس منه فيجد عدوه منه غرة..»

وهذه كلمة من كلمات القائد العربى تنبئ عن كثير:

تنبئ عن ملكة القيادة فيه، وتنبئ عن ملكة السيادة فى الأمة التى نشأ منها واستطاعت بها أن تسوس الأمم فى الحرب والسلم، سياسة للنجاح وللبقاء.

فالحق أن شروط القيادة على وفرتها وعظم التبعة فيها جميعاً، ليس يوجد بينها ما هو ألزم للقائد من القدرة على سبر قوته وسبر قوة خصمه. وكل ما عدا ذلك فإنما هو ترتيب لما يصنعه بقوته وما يتوقع من القوة التى ينازلها أن تصنعه، أو هو تنظيم للأهبة والحيطة بين الفريقين فى المكان الذى يتلاقيان فيه.

وقد كانت لهزيمة الدول أمام العرب أسباب كثيرة: منها ضعف العقيدة، واختلال النظام، ونقص القيادة، وانحلال الترف، وتفرق الآراء. ولكن البلاء الأكبر إنما حاق بتلك الدول من آفة الغرور الباطل والاستخفاف بالخصم المقاتل. فانتصر العرب لأنهم ظنوهم لا ينتصرون ولا يعتزمون الانتصار، وكان الاستخفاف والإهمال شرًّا على تلك الدول المتصلفة من الاستهوال والفزع. بل كان الاستخفاف والإهمال سبباً لانقلابهم آخر الأمر إلى استهوال يخذل المفاصل وفزع يفت فى الأعضاء، فاجتمعت عليهم البليتان من سوء التقدير، ولم تنفعهم قلة المبالاة بالعدو ولا فرط المبالاة به بعد الأوان.

* * *

كانت دولة الفرس لا تنظر إلى البادية العربية إلا نظرة السيد المبجل إلى الغوغاء المهازيل الذين يحتاجون إما إلى العطاء وإما إلى التأديب، وبلغ من طغيان كسرى حين جاءته الدعوة المحمدية أن بعث إلى النبى العربى بشرذمة من الجند تأتيه به فى الأصفاد!.. وبلغ من طغيان جنده عامة وخاصة أنهم كانوا يأنفون أن يقرنهم أحد بالعرب فى معرض من المعارض أو غرض من الأغراض ولو للحيلة والمكيدة. فاتفق فى بعض وقعات العراق أن زعيماً عربيًّا من جيرة الفرس أقبل على القائد الفارسى مهران ابن بهرام، ليمده بأبناء قبيلته ويعينه على خالد بن الوليد وجنده. فقال له: «إن العرب أعلم بقتال العرب، فدعنا وخالداً!»، فجاراه القائد الفارسى مجاملة وخدعة ليستخلص منه أقصى العون والنجدة، وقال له: «صدقت لعمرى! لأنتم أعلم بقتال العرب وأنتم مثلنا فى قتال العجم.. فغضب أتباعه لمجاملته هؤلاء القوم الذين يعينونهم ويقاتلون فى صفوفهم؛ وسألوه: كيف تقول ما قلت لهذا الكلب؟.. فلم يهدءوا عنه حتى اعتذر لهم بأنه يخدع القوم ويغرر بهم، وقال لهم: «دعونى فإنى لم أرد إلا ما هو خير لكم وشر لهم.. فإن كانت لهم على خالد فهى لكم. وإن كانت الأخرى لم يبلغوكم – أى المسلمون – حتى ينهوا فنقاتلهم ونحن أقوياء وهم مضعفون..»

وسخفوا فى طلائع وقعة «أليس» فلم يحفلوا بجيش خالد الزاحف إليهم وتنادوا إلى طعامهم الذى هيئوه، ولم يكلفوا أنفسهم قبل ذلك مشقة استطلاع الطريق!.. ليأمنوا البغتة قبل تهيئة الطعام

أما الروم فكان لهم غرور كهذا الغرور فى مواجهة البادية العربية، وكان قصارى ما حذروه فى أول الأمر أن يغير العرب على تخومهم لينهبوا ويسلبوا ثم يفروا بسلبهم إلى الصحراء.. فإن أوغلوا فى بلاد الدولة الرومانية فهم مأخوذون بالهبات والوعود أو مأخوذون بالكثرة المستعدة لا يقوم لها جند قليل يوشك أن يتجرد من السلاح بالقياس إليهم. فلما جد الجد وعرفت الدولة الرومانية من تقاتل من أولئك الجند العزل على زعمها، إذا هى تنقلب من الغفلة الشديدة إلى الفزع الشديد.

* * *

ويبدو لنا أن المؤرخين المحدثين لم يبرءوا كل البرء من هذا الخطأ القديم.. فما يزال الأكثرون منهم يستعظمون على العرب أن يغلبوا الفرس والروم، ويحسبون هذه الغلبة

شيئاً قد حصل وكان ينبغى ألّا يحصل، لولا أنها فلتة لا يقاس عليها ومصادفة لا تقبل التكرار!

وبعضهم يلتمس العلة فيقول: إنما هى وهن الدولتين ومصابها بالخور والانحلال، أو يلتمس العلة فيقول: «إنها عقيدة المسلمين القوية وافتقار الفرس والروم إلى مثل هذه العقيدة».

وكل أولئك تعليل ناقص، من كل نواحيه.

فالمصادفة لا محل لها فى حوادث الوجود، ولا تطرد فى قتال بعد قتال، من جوف الصحراء إلى عمران العراق والشام ومصر ومشارق الأرض ومغاربها بين إفريقية والصين.

وانحلال دولة من الدول قد يفنيها ويعجزها عن النصر ولكنه لا يقيم دولة أخرى لم تتجمع لها أسباب النهوض والتمكين.

والعقيدة قوة لا غناء عنها بقوة أخرى لمن يفقدها، ولكنها هى وحدها لا تغنى عن الخبرة والاستعداد، ولا تفسر لنا اختلاف النجاح باختلاف الخطط والقواد. وقد كان المسلمون على عقيدتهم الراسخة يوم لقائهم هوازن وشيعتها بوادى حنين، فأوشكوا أن ينهزموا لاعتدادهم بكثرتهم وقلة مبالاتهم بعدوهم، وأوشكت عاقبة الاستخفاف هنا أن تصيب المسلمين كما أصابت الفرس والروم، وفى ذلك يقول القرآن الكريم: «... ويوم حنين إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئًا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين»..

فمهما يهرب هؤلاء المؤرخون من الحقيقة فلا محيص لهم من الرجوع إليها لفهم الغلبة الإسلامية أو فهم الهزيمة الفارسية والرومانية، وهذه الحقيقة هى أن المسلمين كانوا أيضاً أخبر بالفنون العسكرية من أهل فارس والروم وكانوا أقدر على تنفيذ الخطط العسكرية التى تنفعهم من قواد تينك الدولتين، وأن البادية العربية سواء فى عصور الجاهلية أو صدر الإسلام لم تكن من الجهل بفن الحرب بتلك الحالة التى توهمها المؤرخون الأوربيون، بل معظم المؤرخين عامة ولا نحاشى منهم العرب والمسلمين..

* * *

فالصورة الشائعة فى خيال أكثر القارئين عن البادية أن حروب الصحراء لم تكن

إلا مشاجرات بالسيوف والرماح أو بالقسى والمقاليع، لا ترجع إلى نظام ولا تنهج على خطة ولا يخلص منها فن يتعلمه المتعلم ويتلقاه اللاحق عن السابق، وقوام أمرها شراذم من السطاة والمغيرين سرعان ما تقبل حتى تدبر، وقصارى ما تعرفه من أساليب القتال أن تفر بعد الكر أو تكر بعد الفرار.

وهذه صورة مضللة لمن يسترشد بها فى اختبار قدرة البادية على الحروب الكبيرة والمناوشات الصغيرة.

فمن الخطأ «أولاً» أن تستخف بالرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب الأجيال على أمثال هذه المناوشات، و على ما نسميه اليوم حرب العصابات، حتى لو صح أنها كانت هى كل ما يعرفه أهل الصحراء من فنون القتال.

فالذى لا ريب فيه أن الصحراء قد تعاقبت فيها الأجيال على حروب العصابات التى تشترك فيها القبائل أبداً بين عادية ومعدو عليها، وأن البدوى قد عاش زمنًا كما جاء فى التوراة «يده على كل إنسان ويد كل إنسان عليه». فحصل من ذلك على ملكة مطبوعة يصح أن تسمى «حاسة الحرب» أو أهبة الميدان الخالد التى لا تفارقه فى ليل ولا نهار. فلا يزال حياته فى حيطة المدافع واستعداد المهاجم ويقظة القلب للنضال الذى يتعرض له بين مضطر مغتصب أو طائع مختار.

وهذه ملكة لا يحصل لأبناء المدن الذين يندبون للقتال بين آونة وأخرى ويتدربون عليه كأنه عمل يؤدى فى مكان العمل ثم يطرح عن العاتق فى سائر الأوقات.

* * *

ومن الرياضة التى يراض عليها الجيل بعد الجيل حيث تتعاقب حروب العصابات أنهم يتعودون الصبر على الفرار ويملكون الجأش عند الإدبار، لأن الفرار عندهم حركة من الحركات المألوفة فى كل وقعة يخوضون غمارها، وليست هزيمة تطيش باللب وتخلع الفؤاد وتوقع فى روع صاحبها أنه ضيع الأمل ولم يبق له من أطوار القتال غير التسليم. فهو فى حالة صالحة لا ستئناف القتال إن أقبل وإن أدبر، وسواء طمع فى النصر أو لاذ بالنجاة، وكأنه يتأخر ليتقدم فى حينها أو بعد حين، ويتحول إلى الوراء كما يتحول إلى الشمال أو اليمين، طوعًا لأمر مقصود وجريًا فى عنان ممدود، ومن هنا تيسر لقواد العرب

فى الغزوات الكبيرة أن يلموا شمل الجيش المنهزم فى سويعات معدودات وأن يتداركوا الخذلان من حيث يعسر على الجيوش المنظمة أن تتداركه قبل زمن طويل..

ولن تخلو العصابات المغيرة – مع طول المرانة – من علم بأصول الاستطلاع والمباغتة والتبييت والمخاتلة وحسبان الحساب للرجعة والإفلات، وهى على بساطتها أصول لا ندحة عنها فى أكبر الميادين وأصغرها على السواء.

هذا إن صح أن حروب العصابات هى كل ما حذقه عرب البادية من فنون القتال فى تاريخهم القديم. وذلك غير صحيح..

فالعرب قد عرفوا فى حروبهم التى وقعت بينهم تسيير الجيوش بعشرات الألوف على اختلاف الأسلحة والأقسام، وقيل إن جيش الغساسنة الذى حارب المنذر بن ماء السماء لم يكن يقل عن أربعين ألفًا بين راجل وفارس، وكان فى الجيش معًا راكبو الخيل وراكبو الإبل وحاملو السيوف وحاملو الرماح والضاربون بالسهام والنبال والضاربون بالحراب والحجارة.

* * *

ولقد كان الغساسنة والمناذرة أصحاب ملك قائم لا يعسر عليهم تسيير هذه الألوف المؤلفة إلى الميادين القريبة، ولكن القبائل التى لم تكن على شىء من هذا الملك كانت تسوق الألوف للقاء أمثالها وتستعد لها بالجيوش التى تساوى فى عددها بعض جيوش القتال فى عصرنا الحديث، فاستعدت مذحج لقتال تميم يوم الكلاب الثانى بثمانية آلاف، وجرى بين الفريقين من حيل الاستطلاع والمراوغة والهجوم والمطاردة ما هو محتو لكل عناصر الكفاح الأولى فى كل زمان.

على أن البادية لم يفتها قط علم الحرب كما علمته دول الحضارة فى عصور الجاهلية العربية، فكانت غسان على مقربة من الروم تدخل معهم فى الفرق المتطوعة على حالى الدفاع والهجوم، وكان ملوك الحيرة على مقربة من الفرس يخدمهم أحيانًا كتيبتان من الجيش الفارسى هما الشهباء والدوسر أو «الدوشير» بمعنى الأسدين شعار الدولة الفارسية، وكان جند الشهباء من أبناء فارس وجند الدوسر من أبناء القبائل العربية، وليس يحتاج العربى إلى أكثر من هذه المقاربة وهذه القدوة لا لتقاط الفنون التى يحتاج

إليها فى تعبئة الجيوش وللفطنة إلى المخاوف التى يتقيها فى مواجهة التعبئة النظامية من جانب دول الحضارة.

وقد تبن هذا فعلا فى وقعة ذى قار التى تغلب فيها العرب على الدولة الفارسية. فإن العرب كانوا فى تلك الوقعة أبرع قيادة وأخبر بفنون الزحف والتعبئة من قادة الجيوش النظامية. فلم يغفلوا قط عن حيطة واجبة أو حيلة نافعة قبل اشتباكهم بالجيوش الفارسية: بعثوا الطلائع وبثوا العيون وقسموا جموعهم إلى ميمنة تولاها بنو عجل، وميسرة تولاها بنو شيبان وقلب تولته بطون من بكر عليهم رئيسهم القدير هانئ بن مسعود، وأنفذوا إلى قبائل العرب الذين فى جيش الفرس رسلا يثيرون نخوتهم ويغرونهم بالتخلى عن أصحابهم حين يجد الجد ويلتحم الجيشان. فوافقتهم إياد وبرّت بوعدها فولت من الميدان فى أحرج الأوقات..

* * *

ولما أصبح يوم الوقعة الحاسمة أقبل الفرس ومعهم الأفيال والفرق المدرعة فلم يرع قادة العرب ما شاهدوا من ذلك الجيش الزاخر وتلك العدة الوافية، بل تشاوروا فى أمرهم وعقدوا بينهم ما يشبه «مجلس الحرب» فى اصطلاح هذه الأيام. فقال ربيعة بن غزالة السكونى، «لا تستهدفوا لهذه الأعاجم فتهلككم بنشابها، ولكن تكردسوا كراديس، فإذا أقبلوا على كردوس شد الآخر». وقال حنظلة بن ثعلبة، «إن النشاب الذى مع الأعاجم يفرقكم، فإذا أرسلوه لم يخطئكم، فعاجلوهم اللقاء، وابدءوهم بالشدة وقال يزيد بن حمار، «أكمنوا لهم كميناً» ففعلوا وأكمنوه فى موضع يقال له الخبئ وأوصوه أن يظهر حين يشتد القتال بين العسكرين وتفر قبيلة إياد من صفوف الأعاجم، فيكون فرار أنصارهم وإقبال المدد إلى خصومهم. مع احتدام القتال، ضربتين متداركتين لا يقوون بعدهما على الثبات.

ولم يغفلوا عن حمية الجند والفرسان يلهبونها للمجازفة بالحياة والأنفة من طلب النجاة، وهو ما نسميه اليوم بالروح المعنوية، فعمد حنظلة بن ثعلبة إلى وضين راحلة امرأته - أى حزامها - فقطعه، وتتبع رواحل النساء فقطع وضنها جميعًا فسقطت على الأرض، وصاح بقومه، ليقاتل كل رجل منكم عن حليلته!.. وراح السيافون يقطعون أقبيتهم من مناكبها لتخف أيديهم لضرب السيوف، وتسابق الخطباء والشعراء فى التذمير

والتحريض فذهبوا جميعًا يرددون قول قائلهم: «المنية ولا الدنية، واستقبال الموت خير من استدباره».

وتبارز بعض الفرسان من العسكرين ثم التحم الفريقان وحمى الوطيس وظهر الكمين فى أوانه وولت إياد فتبعها فريق ممن كسرت قلوبهم هذه الصدمة التى فوجئوا بها على غير رقبة، وأطبق الكمين على قلب الجيش ومعه كوكب الجيش العربى كله فحقت الهزيمة العاجلة على أقوى الجيشين، وكتب النصر لأولى الفريقين به فى ميزان الفن العسكرى الذى يشمل جميع المرجحات، ما عدا المرجح المادى دون غيره، وهو العدد والسلاح.

إذ الحقيقة أن غلبة العرب فى يوم ذى قار إنما كانت غلبة لليقظة على الغفلة، وللكفاية على العجز، وللخفة على الفخامة، وللفن الحربى الصحيح على النظم التقليدية التى لا تصرف فيها، وللعزة المشكورة على الكبرياء المذمومة، وكان العرب خلقاء أن ينتصروا بكل وسيلة من وسائل النصر فى الحروب القديمة والحروب الحديثة، إلا تفوق الفرس فى بعض العدد التى لم ينفعهم تفوقهم فيها عند التحام الصفوف.

* * *

وليس فى وسع عالم من علماء الحرب فى زماننا هذا أن يأخذ عليهم خللا فى خطتهم لم يلتفتوا إليه أو يحصى عليهم وجهاً من وجوه التدبير قصروا فيه، لأن وجوه التدبير كلها فضول بعد أن تستقيم للمقاتل:

(١) أهبة الاستطلاع. و(٢) رسم الخطة. و (٣) تنظيم الجيش فى مواقفه. و (٤) تنظيم الجيش فى حركاته. و (٥) إذكاء العزيمة فى نفوسه. و (٦) إضعاف العزيمة فى نفوس خصومه، وهذه كلها هى صفوة لباب الحرب فى العصر الحاضر وفى العصور الغابرة، وفى جميع العصور إلى آخر الزمان.

ويبدو لنا أن مزية الفرس والروم فى أنواع الأسلحة والعدد كانت مزية مبالغًا فيها على الأقل فى ميادين الاشتباك والالتحام، إذا صح أن لها الرجحان فى مواقف الحصار ومواقف الحرب من بعيد. لأننا عرفنا من أخبار الحروب الماضية أن بعض الفرسان البواسل كانوا يترجلون ليحكموا الضرب والحركة. وكانوا يخلعون عنهم شكتهم تبرما

بها وتخففا من ثقلها ولا سيما فى أيام القيظ أو فى المواضع الوعرة التى تصعب فيها حركة المدرعين فى الشكة السابغة وكان بعض الضباط من النبلاء يستصحبون خدمًا لهم ليحملوا لهم شكتهم إلى حين الحاجة إليها، وجاء فى كتاب فيجتيوس Vegetius إنجيل الحرب عند الرومان الأقدمين أن الجنود كانوا يضيقون ذرعًا بالدروع المعدنية ويستثقلونها ويودون لو يطرحونها ويتاح لهم العمل بغيرها، ولم تكن لهم حاجة بها إلا حين يرادون على الاقتراب من مواقع السهام والنبال والحراب الطويلة، لأداء عمل من الأعمال.

* * *

وعندنا أن العرب قد كسبوا الطريقتين معًا بنشأتهم فى البادية واقترابهم من دول الحضارة. ونعنى بهما طريقة العصابات وطريقة الجيوش فى إدارة الحروب.

فهم قد برعوا فى حرب العصابات بالمرانة الطويلة، ثم اقتبسوا ما لزمهم أن يقتبسوه من فنون الحرب عند الدول الكبرى على أيامهم، فلم يخسروا بذلك إحدى الطريقتين بل جمعوا بينهما واستفادوا بما تفيده كل منهما فى موضعها،فأضافوا سرعة العمل فى طريقة العصابات إلى إحكام التنظيم فى طريقة الجيوش.. وكانوا يقاتلون بفنين متساندين يأخذون منهما ما يأخذون ويدعون منهما ما يدعون، حيث كان الفرس أو الروم يتقيدون بفن واحد على التراث المحفوظ الذى لا يحسنون التجديد فيه..

ومن المحقق أن قبائل العرب التى أقامت فى الحواضر كانت على الزمن تتلقى النصيب الأوفى من كلتا الطريقتين، إما بالقدوة والتلقين أو بالتعليم المقصود، ولا سيما قبائل قريش التى كانت تقيم فى عاصمة العواصم العربية من الوجهة الأدبية والثقافية، وكانت تجمع كل ما تفرق بين أبناء الجزيرة من المزايا والمعارف والصفات، لأنها أخذت نفسها بآداب الرئاسة المدنيةوالبدوية التى يدين بها جميع هؤلاء.

فالتاريخ الصادق يتقاضانا أن نعرف هذه الحقيقة لنعرف موقع العدل والإنصاف من حكم الزمن بين الأمم الكبيرة التى تنازعت السيادة بعد ظهور النهضة العربية.

* * *

فالنهضة العربية لم يكتب لها النصر لأن الفرس والروم كانوا يستحقون الهزيمة وكفى،

بل هى قد انتصرت لأنها كانت تستحق النصر بأسبابه التى لا مصادفة فيها ولا محاباة، ولا محل لها لفلتة نادرة لا تقبل التكرار..

وإنما كانت أسباب النصر عند العرب ناقصة فتمت فى أوانها فغلبوا بوسائل الغلبة جميعها.

كانوا متفرقين بغير باعث إلى الوحدة والنهوض، فجاءتهم الدعوة الإسلامية تجمع شتاتهم وتبعث كرامتهم وتنطلق بهم فى سبيلهم فتم لهم ما نقص وتهيأت لهم ذرائع النصر فى شرعة الأرض والسماء وعلم النبى عليه السلام بيوم «ذى قار» وهو يدعو العرب إلى دين التوحيد، فرأى فيه بوادر نصر العرب على العجم، وأيقن أنه يوم تتلوه أيام، وأنه مسمع بدعوته الأمم جميعاً عما قريب.

قريش ومخزوم

كانت قريش موئل الثقافة العربية من أنحاء الجزيرة كلها بين حاضرة وبادية، ومن قديم عصورها إلى حديثها.

لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة، وكانت تقيم فى عاصمة الحجاز وإلى جوار الكعبة التى يحج إليها العرب، تبركًا بحرمتها ولياذًا بأصنامها، ويحملون إلى أسواقها أزواد الأدب والشعر والحكمة، كما يحملون إليها أزواد القوت وسلع التجارة.

وكانت قريش تنتقل إلى بلاد العرب كما ينقل العرب إليها من بلادهم، فكان لها رحلتان فى الشتاء والصيف: إحداهما إلى اليمن والأخرى إلى الشام، وكانت تضيف إلى ما تعلمه بالسماع والرواية علم المشاهدة والمراس، حيثما نزلت فى طريقهما من ديار العرب أو من ديار الروم والحبشة، وسائر الأمم الأعجمية كما كانت تسميها.

والعرب من دأبهم حفظ السير ورواية الأحاديث والتنقيب عن الأخبار والطوايا، لأن الاستطلاع من طبيعة سكان الصحارى، وتتوقف سلامتهم أحيانًا على خبر يعلمونه فى أوانه كما تستهدف أرواحهم أحيانًا للخطر العظيم من جراء طارئ داهم تفوتهم الحيطة له فى حينه، ولم يزل أبناء القبائل على ولعهم المأثور بالسير والأخبار لغير هذه الضرورة التى يدعوهم إليها حب الأمن والسلامة. فهم غيورون على تراث الآباء والأجداد تفاخرًا بالنسب العريق وتصحيحاً للعلاقات وتمييزًا للأقربين والبعداء..

ومع هذا الولع الأصيل فى الطبيعة العربية باستقصاء الخبر، يصعب على الذهن أن يتخيل أن قريشًا تجهل شأنًا من شئون الثقافة العربية، وهى تقيم فى مثابة الجزيرة كلها وتسهر على عاصمة العرب، وتجوب أنحاء هذا الوطن الكبير من شماله إلى جنوبه ومن جنوبه إلى شماله، وتتابع العصور حقبة بعد حقبة وهى فى مرقبها الذى تطل منه على كل ما يعنيها..

فقلما غاب عنها علم عربى وصل إليه أبناء الحواضر والبوادى باجتهادهم واختبارهم، أو وصلوا إليه بالقدوة والسماع عن الأمم الأجنبية..

وقلما خفى عنها فن من فنون ثقافة العرب فى مصالح السلم والحرب، أو معارض السياسة والشئون الاجتماعية.

ونظن أن خطأ المؤرخين فى تقدير معارف العرب السياسية لا يقل عن خطئهم فى تقدير معارفهم الحربية، وقد كانت كما رأينا كفؤًا لحضارة الدولة الفارسية وتجارب قوادها وأساورتها.

وكذلك كانت لهم فى السياسة والنظم الحكومية خبرة لا يستخف بها من ينفذ إلى بواطنها، فهى لا تبلغ أن تكون فلسفة مشروحة ومذاهب مفصلة على مثال النظم العصرية، ولكنها كذلك لا تنزل إلى الفوضى ولا إلى الغريزة الهمجية التى لا مساك لها ولا تدبير فيها.

وأوجز ما يقال عن خبرتهم بالنظم الحكومية أن العالم القديم لم يعرف قط نظامًا من أنظمة الحكم إلا كان للعرب نموذج منه يوافق مصالحهم وعقائدهم ويجرى على عاداتهم وخلائفهم.

عرفوا نظام الإمارة التى ينفرد فيها الأمير برأيه ويستأثر فيها بشريعته وقضائه..

وعرفوا نظام الإمارة التى يتولى فيها الحكم نائب عن الأمير يفصل فى قضايا الرعية بمعونة ذوى الرأى منها «إلا أن يكون غزو أو قتال» فهو باسم الملك دون غيره، وهو النظام الذى جرى عليه أهل الحيرة زمنًا مع ملكهم المنذر ونائبه زيد بن حماد من بنى أيوب.

وعرفوا نظام الإمارة التى يختار أميرها من أمة أخرى كما تنتقل الأسر الأوربية اليوم من مواطنها إلى الموطن الذى تحكمه بالمصاهرة أو بالاتفاق بين الدولتين. وعلى هذه السنة اجتمع البكريون حين غلبهم سفهاؤهم وأكل قويهم ضعيفهم فقال شيوخهم: «لا نستطيع دفع ذلك إلا أن نملك علينا ملكًا نعطيه الشاة والبعير، فيأخذ للضعيف من القوى ويرد على المظلوم من الظالم، ولا يمكن أن يكون من بعض قبائلنا فيأباه

الآخرون، ولكنا نأتى تبّعا فيختار لنا» فقصدوه فملك عليهم حجرًا أمير كندة، وهو أبو امرئ القيس الشاعر المشهور.

وعرفوا الحمايات على أنواعها: حماية الإمارة التى تستعين بجيش أجنبى، وحماية الإمارة التى تعتمد على جيشها، وحماية الإمارة التى تدين لدولة واحدة أو تدين لدولتين. كما حدث ذلك فى ملك اليمن بين الحبشة وفارس وسادات البلاد.

وعرفوا رئاسة القبائل المنفردة ورئاسة القبائل المجتمعة إلى نسب واحد، ورئاسة الرحّل الذين يرعون الإبل والشاة، ورئاسة أهل المدَر الذين يغرسون المروج والبساتين ويزاولون التجارة من موسم إلى موسم..

* * *

وكانت قريش تسمع بهذه النظم وتشاهدها فى مواضعها وتقتبس منها ما هى فى حاجة إليه، ولكنها لم تأخذ بنظام الإمارة لأن التنافس بين بطونها يمنعها أن تتفق على ملك من إحداها، ولم تتعرض لنظام الحماية لأنها كانت بنجوة من سلطان الدول الأجنبية، ولم يوافقها نظام أهل الوبر ولا نظام أهل المدر لأنها كانت وسطا بين الحضارة والبداوة كما قدمنا، وكانت ترعى مصالحها ومصالح الوفود التى تقبل إليها حاجة أو متجرة وليست هى من عشائرها التى تقبل منها حكم الشيخ فى قبيلته على أى صفة من صفاتها.

فاختارت لها نظامًا فريداً يوفق بين هذه الأطوار الاجتماعية المختلفة فيها، ولعله أشبه النظم بنظام المشيخة بين الرومان الأقدمين، وإنما يئول الرأى الأخير فيه إلى مجلس يجتمع من رؤساء كل بطن فى القبيلة، ويوشك أن يكون أمره شورى أو على صورة الشورى التى ترضى بالمجاملة وإن لم يكن فيها رضا بالحقيقة. إذ الحقيقة أن المرجع الأخير إلى أقوى الأقوياء من أولئك الزعماء، كلما حزب الأمر وتشعبت الآراء..

ومن زكانة الحكم عندهم أنهم فهموا مناط الرئاسة القرشية التى يدين بها حجاج البيت الحرام وقصاد مكة من الحضر والبادية، وهى الدين واللغة والتجارة المشتركة.

فحفظوا مناسك الكعبة، وجعلوا أسواقهم معرضًا للبلاغة الشعرية والخطب المروية، وتعاهدوا على ضمان الثقة بالتجارة كلما غدر غادر بذمتها، أو اعتدى معتد على حقوقها.

* * *

واحتالوا على التوفيق بينهم بتقسيم المفاخر والمراسم على بطونهم وزعمائهم حسب أقدارهم ومزاياهم، فانتهى الشرف إلى عشرة بطون هم: هاشم وأمية ونوفل وعبد الدار وأسد وتيم ومخزوم وعدى وجمح وسهم. فكانت لهاشم سقاية الحاج، وكانت لأمية راية الحرب يخرجها عند القتال ليسلموها إلى قائدهم المختار، وكانت لنوفل الرفادة وهى إعانة الحجاج المنقطعين بالمال، وكانت لعبد الدار السدانة والحجابة واللواء، وكانت لبنى أسد المشورة أو رئاسة مجلس الشورى فى مهمات الأمور، وكانت لبنى تيم الديات والمغارم، وكانت لبنى مخزوم القبة وهى مجتمع الجيش والأعنة وهى قيادة الفرسان، وكانت لبنى عدى السفارة، ولبنى جمح الأيسار أو الأزلام، ولبنى سهم الحكومة والأموال المحجرة. وظلوا يتولونها جيلا بعد جيل إلى ظهور الإسلام.

ولم يكن لهذه «الوظائف» الموزعة شأن واحد فى جميع الأوقات والأحوال، بل كانت تعلو وتهبط على حسب الزعيم الذى يتولاها، وعلى حسب القوة التى يكون عليها بيته عند ولايته إياها. ولكننا إذا نظرنا إليها نظرة مجملة وجدنا منها ما كان يقصد به «جبر الخاطر» والإرضاء وما كان يشبه الوظائف الشورية أو الإدارية الثانوية فى حكوماتنا الحاضرة، ولم نجد بينها «سلطات» فعالة خليقة أن تتعاقب مع الزمن غير ثلاث متفرقات، وهى السلطة والروحية لهاشم وعبد الدار، والسلطة السياسية لأمية، والسلطة العسكرية لمخزوم.

من بنى مخزوم هؤلاء نشأ خالد بن الوليد - بطل هذا الكتاب - وكانت نشأته فى أعرق بيوتها وأعلاها وأشرفها وأغناها، فلم يكن من أبوته أو عمومته إلا رئيس ابن رئيس لا تعلو مكانته مكانة أحد من رؤساء الجاهلية..

كان جده المغيرة بن عبد الله الذى كان الرجل من بنى مخزوم يؤثر أن ينسبَ إليه فيسمى المغيرى تشرفًا بالانتساب إلى الفرع الذى أناف على الأصول..

وكان أبوه الوليد بن المغيرة الملقب بالعدل وبالوحيد، لأنه كان يكسو الكعبة وحده سنة وتكسوها قريش كلها كسوة مثلها سنة أخرى.

وكان عمه هشام قائد بنى مخزوم فى حرب الفجار، وبوفاته أرخت قريش كما تؤرخ بالأحداث العظام، ولم تقم سوقًا بمكة ثلاثا لحزنها عليه..

* * *

وكان عمه الفاكه بن المغيرة من أكرم العرب فى زمانه، له بيت للضيافة يأوى إليه من شاء بغير استئذان.

وكان عمه أبو حذيفة أحد الأربعة الذين أخذوا بأطرف الرداء وحملوا فيه الحجر الأسود إلى موضعه من الكعبة، كما أشار النبى عليه السلام قبل الدعوة الإسلامية..

أما الذى فض النزاع بين القبائل على هذا الشرف حين آذن التنافس بينها بالشر المستطير فهو عم آخر من أعمامه، وهو أبو أمية بن المغيرة الملقب بزاد الراكب كما جاء فى بعض الروايات. فقد أشار عليهم أن يكلوا الحكم إلى أول داخل من باب المسجد ليختار من بينهم من يرفع الحجر إلى مكانه، فارتضوا مشورته، وتم صواب المشورة بتوفيق البشارة النبوية قبل إهلالها على العالم بسنين. ولقب أبو أمية زاد الراكب لأنه كان يكفى أصحابه فى السفر مئونتهم فلا يتزودون بزاد.

ويظهر أن بنى مخزوم هؤلاء كانوا فى ثروتهم وعدتهم وبأسهم أقوى البطون القرشية حين ينفرد كل بطن منها عن سائر بطونها. ولكنهم لم يستأثروا بالزعامة القرشية لأنهم كانوا ينافسون بنى هاشم وبنى أمية وبنى عبد الدار، وهم ثلاثة بطون قوية يلتقون فى جد واحد أقرب من الجد الذى يجمعهم ببنى مخزوم، وهو مرَّة بن كعب بن لؤى بن غالب ابن فهر، جد قريش أجمعين.

* * *

وقد تبينت رجاحتهم هذه فى مواقف كثيرة قبل الإسلام وبعده. فاضطلعوا وحدهم ببناء ربع الكعبة بين الركنين الأسود واليمانى، واشتركت قريش كلها فى بناء بقية الأركان..

وكان لبنى مخزوم وحدهم فى وقعة بدر ثلاثون فرساً من مائة فرس لقريش كلها، ومائتا بعير، وأربعة أو خمسة آلاف مثقال من الذهب، غير الأزواد والأمداد..

فلا جرم يعظم على نفوسهم أن يغلبهم منافس على الشرف والعزة، وأن يحوزوا كل ما حازوه من الرجال والأموال ثم تشيل كفتهم مرجوحة فى ميزان الفخار..

ولا جرم يأخذون الأمر مأخذ الأنفة والخنزوانة بينهم وبين بنى عبد مناف حين تظهر النبوة فى هؤلاء ولا تظهر فيهم.

وقد أخذوها هذا المأخذ حين قال أبو جهل: «تنازعنا نحن وبنو عبد مناف: أطعموا فأطعمنا، وحملوا فحملنا، وأعطوا فأعطينا، حتى إذا تحازينا على الركب وكنا كفرسى رهان، قالوا: منا نبى يأتيه الوحى من السماء.. فمتى ندرك هذه؟»

وإنما قال أبو جهل «بنو عبد مناف» ذهابًا إلى الجد الذى يجمع هاشماً وأمية وعبد الدار، كأنه يستعلى فى كبريائه أن ينافس هاشمًا وحدها دون أن يصعد إلى أبيها الذى يجمع بينها وبين غيرها.

وكان الوليد بن المغيرة يزعم أنه هو أحق الناس بالنبوة والقرآن، ويقول: «أينزل على محمد وأترك وأنا كبير قريش وسيدها؟». ففى ذلك يقول القرآن الكريم: «وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم».

ونحن نعلم الآن أى عقبة كانت هذه الخنزوانة المخزومية فى طريق الإسلام إذ نرجع إلى الآيات التى نزلت فى رؤسائهم ووصفت ما كان من عنادهم وعتادهم، وما كانوا يقابلون دعوة الدين الجديد بدعواهم فى آبائهم وأجدادهم، فلم ينزل فى رؤساء قبيلة مثل ما نزل فى رؤساء هذه القبيلة، ولم تتمثل منعة قوم كما تمثلت منعتهم فى ردود القرآن على أقوالهم، وهى أقوى ردود عرفت فى السور المكية الأولى، على ما جاء فى الآيات الكثيرة من سورة «ن» وسورة المدثر وسورة الكافرون عدا إشارات أخرى فى سورة الحجر وعبس وتولى.

* * *

وكل أولئك فحواه شىء واحد، وهو أن بنى مخزوم باءوا بأسباب المحافظة على القديم جميعًا حين تصدى الإسلام لتبديل ذلك القديم، فهم أول من يصاب بهذه الدعوة الجديدة وآخر من يلبيها وله مندوحة عنها، ومن ثم كانت المصاولة بين الإسلام والجاهلية فى وجه من وجوهها مصاولة بين محمد عليه السلام وبين خالد بن الوليد الذى انتهى إليه شرف الرئاسة المخزومية فى ذلك الأوان.

والناس يختلفون فى تمثيل بيئاتهم وطبقاتهم غاية الاختلاف ويصدقون فى تمثيلها غاية الصدق وهم يتفاوتون بينهم تفاوت النقيض والنقيض. لأن البيئة مستودع شامل يوجد

فيه الحسن والرديء ويأكل كل منه على حسب مأتاه ومورده، وحسب ما هو مستعد له وقادر عليه.

فإذا قيل سيد من سادات قريش أو نموذج من نماذج القرشية الجاهلية جاز لنا أن نتمثله على ألوان كثيرة لا على لون واحد، وجاز أن يكون هذا السيد خير السادات من طبقته أو شرهم وشر أهل زمانه من جميع الطبقات..

ولكننا مع هذا قد نحصر الخصال المشتركة والنعوت الوسطى التى تشيع فى هؤلاء السادات غير من تجاوزوا الحد وبلغوا الندرة فى الشذوذ والاستثناء..

فالغالب على هؤلاء السادة أنهم يتوارثون الثقافة العربية ويتدارسونها بالتعليم والتلقين والمعاشرة، ويستوعبون أخبار الحكماء وذوى الأحلام فى علاج المشكلات وتدبير الحيل ومصانعة الناس والأيام.

ويكثر فيهم أن يجمعوا الثقافة السياسية والعسكرية كما وصلت إليهم من تراث الأقدمين من عرب وعجم، وبخاصة من كان منهم منوطًا بعدة الحرب وقيادة القبيلة فى غزواتها أو مواقف دفاعها، كما كان خالد بن الوليد..

* * *

ومن صفاتهم الشائعة فيهم حب السيطرة والصرامة وقلة الرحمة والاستزادة من المال ومتع الحياة والتفاخر بالوفر والثراء وجمع الحطام من حيثما اجتمع بأساليبهم التى كانوا يستجيزونها ولا يتحرجون منها، وأشيعها الربا والمغالاة بالأسعار..

وقد وجد فى أسرة خالد من يكثر من الإقراض بالربا ومن يرى فى أموال الربا شيئاً من الدنس يقاربه فى أحوال ويستبعده فى أحوال أخرى..

فمات أبوه وله على قبائل مكة وأرباضها ديون تحسب بالألوف لم يزل خالد يتقاضاها حتى أسلم وأسلم المدينون، فترك الربا من بعدها واكتفى برأس المال عملا بالقرآن الكريم: (يأيها الذين آمنوا اتقوا الله وذَرُوا ما بَقِىَ من الرِّبا إن كُنتم مُؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذَنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رُءُوس أموالكم لا تظلمون ولَا تظلمون).

وكذلك وجد فى أسرته من نزه الكعبة عن أموال الربا وما شابهها فقال لقومه: «يا معشر قريش.. لا تدخلوا فى بنائها من كسبكم إلا طيبًا لا يدخل فيه مهر بغى ولا بيع ربا ولا مظلمة أحد».

وكلهم قرشى جاهلى من طبقة السادة وأصحاب المال.

فحين نقول إن خالداً كان مثال طبقته وعنوان المحافظة على مزايا هذه الطبقة يحسن بنا أن نتجه إلى تلك الخلائق الوسطى ونترقب منه نماذجها المشتركة التى لا غلو فيها من هنا أو هناك، حتى نرى دلائل الزيادة فى خليقة من تلك الخلائق، فذاك إذن خاصته التى يتميز بها بين قرنائه ولا تخرجه من معهود الطبقة كلها على الإجمال.

* * *

ولا يتم الكلام على تراث بنى مخزوم حتى نضيف إلى مزاياهم المختلفة مزية ملحوظة لها شأنها فى كل مجتمع إنسانى، وليس شأنها بالقليل فى حياة خالد على التخصيص.

فقد كانت هذه القبيلة على كثرة الأقطاب بين رجالها مشهورة بجمال النساء بين الحواضر العربية، وبقيت لها هذه الشهرة إلى ما بعد قيام الدولة العباسية، إذ كان يقال لأبى العباس السفاح: إن المخزوميات رياحين العرب وعندك منهن يا أمير المؤمنين ريحانة الرياحين.

ولا بدع يكون هذا شأن القبيلة التى نبغ منها خالد بن الوليد وعمر بن أبى ربيعة. فقديمًا كانت الفروسية والغزل والمرأة بيئة واحدة تتعاون فيها البطولة والشاعرية والجمال.

وصفوة هذا جميعه أن خالد بن الوليد قد دخل الإسلام بأوفى نصيب من حمية السيادة العربية فى عهد الجاهلية، فصنع للإسلام وصنع الإسلام له الأعاجيب، وكان مقياس العبقرية العربية فى عهدين متقابلين.

نشأة خالد

خالد بن الوليد بن المغيرة أحد سبعة إخوة من الذكور وقيل عشرة، بل ثلاثة عشر بين ذكور وإناث، ومنهم أختان..

وقد تقدم إجمال القول فى شرف قومه ونصيب أعمامه خاصة من الرئاسة والزعامة. أما أبوه الوليد فقد كان الرأس بين الرءوس والزعيم بين الزعماء، وكانت له فى بعض نواحى خلقه وعقله لمحات تلك المواهب التى تجلت بعد ذلك فى عبقرية ولده العظيم.

كان أغنى أبناء زمانه فى صفوف الثراء المعروفة بينهم كافة: الذهب والفضة والبساتين والكروم والتجارة والعروض، والخدم والجوارى والعبيد، وسمى من أجل ذلك بالوحيد، ولقب من أجل ذلك بريحانة قريش..

وهو الذى قال فيه القرآن الكريم من سورة المدثر: (ذَرْنى ومَن خلقت وحيدا. وجعلتُ له مالاً ممدودا.وبَنين شُهُودا. ومهدت له تمهيدا).

ويروى سفيان الثورى أنه كان يملك ألف ألف دينار، ويروى ابن عباس أنه كان يملك من الفضة تسعة آلاف مثقال.

ولكبريائه فى جوده أو جوده فى كبريائه كان ينهى أن توقد نار غير ناره فى منى لإطعام الحجيج.

وكان يأنف لنفسه فى الجاهلية أن يُرى سكران على إباحة الخمر وشيوعها فى تلك الأيام، فانتهى عنها بغير ناه، وقيل إنه قطع يد السارق على سبيل القصاص..

وقد كان من أصحاب الحيلة والحول والإقدام: ضربة من ضرباته فى موقف اللبس والتردد ترينا فيه أبا خالد قبل أن يعرف العالم ضربات خالد، وذاك يوم تداعت الكعبة وأوجس المشركون أن يهدموها ليعيدوا بناءها، توقيرًا لتلك الحرمة التى كانوا يقاربونها بالضراعة والخشوع ويدخلها بعضهم حفاة الأقدام ولم يقربوها قط بهدم أو عدوان. فلما

رأى وسواسهم وفزعهم تناول المعول وضرب الضربة الأولى بيديه وهو يقول: «اللهم لم تُرع، اللهم لا نريد إلا الخير». ومضى فى أثره الهادمون غير متهيبين..

ويؤخذ من بعض أحاديثه مع أبى جهل أنه كان من أفقه الناس لمعانى الكلام ومن أحفظهم للشعر والخطب فى أيامه.

«قام النبى صلى الله عليه وسلم فى المسجد يصلى والوليد بن المغيرة قريب منه يسمع قراءته، فلما فطن النبى صلى الله عليه وسلم لا ستماع أعاد قراءة الآية، فانطلق الوليد حتى أتى مجلس قومه من بنى مخزوم، فقال: والله لقد سمعت من محمد آنفًا كلامًا ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن. والله إن له لحلاوة وإن عليه لطلاوة، وإن أعلاه لمثمر وإن أسفله لمغدق، وإنه يعلو وما يعلى.. ثم انصرف إلى منزله».

فقالت قريش: صبأ والله الوليد ولتصبأن قريش كلها. فأوفدوا إليه أبا جهل يحتال لصرفه عن الإسلام إن كان قد نوى الدخول فيه، ومازال به حتى قام معه إلى مجلس قومه فقال لهم: تزعمون أن محمدًا مجنون، فهل رأيتموه يخنق قط؟ تزعمون أنه كاهن فهل رأيتموه قط تكهن؟ تزعمون أنه شاعر، وما فيكم أحد أعلم بالشعر منى، فهل رأيتموه ينطق بشعر قط؟ تزعمون أنه كذاب فهل جربتم عليه شيئًا من الكذب؟

يسألهم ويجيبونه، كلا، فى كل سؤال.

حتى أعياهم أن يردوا كلامه فسألوه رأيه فى تفسير بلاغة القرآن ففكر ثم قال: «ما هو إلا سحر يؤثر أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وولده ومواليه؟ فهو ساحر وهذا هو السحر المبين... فذاك إذ يقول القرآن الكريم، (إنه فكَّر وقدّر فقُتل كيف قدّر ثم قُتل كيف قدّر ثم نظر ثم عبَسَ وبسَرَ ثم أدْبَر واستكْبرَ فقال إن هذا إلا سحْرٌ يؤثر.).

واختلف المفسرون فى تفسير المعنى المقصود بالعتل الزنيم الذى قيل إنه نزل فيه..

فرأى بعضهم أن الزنيم هو الدعى، وأن الوليد بن المغيرة يوصف به لأن أباه ادعاه بعد ثمانى عشرة من مولده.

ورأى بعضهم أن الزنيم وصف له من زنمة كان يعرف بها فى عنقه، وهى اللحمة المدلاة. ويخالفهم آخرون فيقولون: إن الرجل الذى كان يعرف بهذه الزنمة هو الأخنس بن شريق، وكان أصله من ثقيف وعداده فى زهرة..

وفي رواية أنه عليه السلام سئل عن العتل الزنيم فقال إنه هو الفاحش اللئيم، وغير ذلك من الروايات والتأويلات كثير.

إلا أن الذى يعنينا فيما نحن بصدده أن الوليد لم ينسب قط إلى أحـد غير أبيـه المغيرة، وأن المغيرة لم يكن بحاجة إلى استلحاق ولد غريب عنه، لكثرة أولاده ونجابتهم بين فتيان مخزوم وقريش عامة، وأن شبه الوليد بن المغيرة ظاهر حتى فى بعض الفروع البعيدة. فإن عمر بن الخطاب كانت أمه قريبة خالد بن الوليد، وكان يشبهه أقرب السبه كما يتفق فى أيامنا هذه كثيرًا بين أبناء العمات والأخوال، وإن غير الوليد لأولى بذلك الوصف لما تقدم من اعتزاز قريش بنسبته فيهم، حتى لقب بريحانة قريش وسمى بينهم بالوحيد.

وعلى أية حال قد نشأ خالد فى بيت الوليد بن المغيرة وهو سيد بنى مخزوم، وأحد السادات المعدودين فى قريش، وصاحب الكلمة التى يتعلق بها مصير قومه فيما يجنح إليه من شرعة أو دين.

أما أمه فهى لبابة بنت الحارث الهلالية، وهى أخت ميمونة أم المؤمنين زوج النبى عليه السلام، وأخت لبابة بنت الحارث الكبرى زوج العباس عمه، وأخت أسماء بنت عميس التى تزوجها جعفر بن أبى طالب تم أبو بكر الصديق، ثم على بن أبى طالب، ولها أخوات أخريات بنى بهن رجال من ذوى الأخطار ومقاديم العشائر النابهين.

وندر فى بيوت العرب النبيلة بيت لم يكن له صلة بخالد وذويه بالنسب والمصاهرة، من جانب أمه أو جانب أبيه.

والأقوال فى سن خالد وتاريخ مولده لا تنتهى إلى قول يمتنع فيه الخلاف. فمن المؤرخين من يقول إنه مات وله من العمر ستون سنة. فإذا كان قد مات فى السنة الحادية والعشرين أو الثانية والعشرين للهجرة فقد ولد إذن فى السنة الثامنة والثلاثين أو السنة التاسعة والثلاثين قبل الهجرة..

ولكنه قول يحول دون تصديقه والأخذ به أن خالدًا كان صغير السن فى عام الفتح – فتح مكة – كما يفهم من تلقيب أبى سفيان له بالغلام، وشيوع هذا اللقب بين عارفيه.

فقد كان أبو سفيان والعباس يرقبان عبور الكتائب والقبائل فى يوم الفتح فكان خالد

ابن الوليد. أول من مر فى بنى سليم، فسأل أبو سفيان: من هذا؟ قال العباس: هذا خالد ابن الوليد. فعاد أبو سفيان يسأل وهو يخفى حنقه: الغلام؟ قال العباس: نعم! كأنه لقب كان معروفاً بين شيوخ قريش.

والرجل لا يقال له «غلام» وهو فى نحو السادسة والأربعين. وقد يقال له ذلك وهو حول الأربعين إذا كان القائلون من رؤساء الشيوخ وكان اللقب قد عرف قبل ذلك بسنوات وبقى بحكم العادة والتردد على الأفواه. فإذا كان خالد بن الوليد يومئذ فى نحو السادسة والثلاثين أو السابعة والثلاثين فمولده على التقريب بين سنتى ثمان وعشرين وثلاثين قبل الهجرة..

وعندئذ تخطر لنا قصة أخرى لها صلة بهذا التقدير. وهى قصة المصارعة بينه وبين عمر ابن الخطاب وهما غلامان، وغلبتُه عمر وكسره ساقه فى هذه المصارعة، وإنما يتصارع الندان أو المتقاربان. وعمر على تقدير مشهور قد ولد قبل الهجرة بأربعين سنة أو قرابة هذا التاريخ..

فالتوفيق بين هذه الأقوال جميعاً إنما يستقيم لنا بتأخير مولد عمر قليلاً عن سنة أربعين وتقديم خالد قليلاً عن سنة ثلاثين، فيرجح إذن أن يكون مولده فى نحو سنة أربع وثلاثين قبل الهجرة، ولا مانع إذن أن يصارع عمر ويغلبه كما يغلب الفتى فى الرابعة عشرة مثلاً زميلاً له فى السادسة أو السابعة عشرة، إذا كان مولوداً للدربة على الرياضة وألعاب الفروسية، وكان خالد ولاشك كذلك، لأنه ورث قيادة الأعنة من باكر صباه.

نعم يظهر أنه كانت عليه مخايل الفروسية منذ صباه الباكر، إذا رشحه أبوه لقيادة الخيل ولم يكن أكبر أبنائه، ورأيناه على قيادة الفرسان – فرسان قريش – فى وقعة أحد التى أحاط فيها برماة المسلمين من ورائهم: فحلت الهزيمة بجيش المسلمين بعد انتصاره.

وقد أسلفنا أن بنى مخزوم كان لهم فى الجاهلية أمر القبة والأعنة، فالقبة هى خيمة عظيمة يضربونها ليجمعوا فيها عدة القتال، والأعنة هى الخيل وفرسانها، وولاية خالد هذه «الوظيفة» الموكولة إلى قبيلته بين بطون قريش جميعاً هى آية استعداده للرئاسة والقيادة منذ صباه.

وفى أخبار خالد قصة واحدة تنفعنا فى تصور ملامحه وسماته، لقلة أوصافه المحفوظة،

على خلاف ما تعودناه من أحاديث العرب عن أبطالهم، وهى فى الغالب مفيضة فى وصف أولئك الأبطال.

تلك القصة هى ما أشرنا إليه من المشابهة بينه وبين عمر بن الخطاب، حتى كان أناس من ضعاف النظر يخلطون بينهما من قريب، ولا يميزونهما بالرؤية ولا بسماع الصوت الخفيض.

وخلاصتها أن علقمة بن علاثة لقى عمر بن الخطاب سرًّا فقال له:

مرحباً بك يا أبا سليمان!.. ثم دنا منه فلم يميزه مع دنوه وسماع صوته برد السلام عليه، فقال: عزلك ابن الخطاب؟ فأجابه عمر، نعم. فمضى علقمة يقول، ما يشبع، لا أشبع الله بطنه!

وأصبح عمر فدعا بخالد وعلقمة وسأل خالداً، ماذا قال لك علقمة! فنفى أن يكون قد لقيه أو جرى بينهما كلام. وكرر عمر السؤال. فأقسم خالد بالله ما رآه ولا سمع منه شيئًا.. فقال علقمة كالموسع من حرج، حلا أبا سليمان! ولم يفطن لغلطه حتى تبسم عمر وأخبرهما بالحديث.

ومن هنا نفهم أن خالداً كان طويلاً بائن الطول، وأنه كان عظيم الجسم والهامة ومهيب الطلعة يميل إلى البياض.

وغنى عن تواريخ المؤرخين ولا جدال أن خالداً قد تعلم فى صباه كل ما يتعلمه الفتى المرشح للحرب والفروسية وشمائل الرئاسة، ومن الصغائر العارضة التى زعم أناس أنها أصل الجفاء بينه وبين قريبه عمر بن الخطاب أنه صارعه كما تقدم فغلبه وكسر ساقه، وهى صغيرة تنبئ عن دراية باكرة بفنون الصراع والكفاح، ولكنها لو لم تذكر فى مصادرها لأغنانا عنها علم القائد الكبير بفنون الفروسية على أنواعها وسرعته فى مآزق النزال إلى مصارعة أقرانه ومبارزيه واحتضانهم بعنف شديد حتى يعجزهم عن الحراك..

وغير بعيد أنه تعود عيشة الشظف وراض نفسه على الخشونة عمداً فى البادية ليصبر على مضانك الحرب وشدائد الجوع والظمأ حيثما تفرد عن موارد الزاد. فقد جاء فى بعض الأحاديث أن خالداً كان يأكل الضب ويشتهيه كما يأكله الأعراب ويشتهونه، وهو أغنى

إنسان فى مكة أن يسيغ هذه الأكلة الأعرابية، مع يساره وافتنان أهله فى الأطعمة الحضرية.

قال ابن عباس رواية عن خالد: إنه دخل مع رسول ا الله على خالته ميمونة بنت الحارث فقدمت إلى رسول الله لحم ضب جاءها مع قريبة لها من نجد، وكان رسول الله لا يأكل شيئاً حتى يعلم ما هو، فاتفق النسوة ألا يخبرنه حتى يرين كيف يتذوقه ويعرفه إن ذاقه. فلما سأل عنه وعلم به تركه وعافه. فسأله خالد: أحرام هو: قال: لا. ولكنه طعام ليس فى قومى فأجدنى أعافه.. قال خالد: «فاجتررته إلىَّ فأكلته ورسول الله ينظر!

ومثل هذه التربية لقائد من قواد الحرب نموذج يحتذى به فى كل مدرسة من مدارس الفنون العسكرية الحديثة، وعلى سنتها كتب نابليون تقريره وهو طالب فى المدرسة الحربية يعيب على النظام يومئذ أنه يسمح لأبناء الأعيان بمعيشة الترف واستصحاب الخدم بين جدران المدرسة، وهم أحرى بخدمة أنفسهم فى مدرسة يتعلمون فيها الصبر على شدائد الحروب.

وكان لخالد ولا ريب علم بالبادية العربية من غير هذا الطريق؛ طريق الرياضة المقصودة إن صح ما رجحناه. فلعله سافر كثيراً فى الجزيرة قبل الإسلام، ولعله عرف فى تلك الأسفار دروبها العصية التى كان يطرقها من العراق إلى الحجاز ومن الحجاز إلى اليمن، ومن نجد إلى الشام وبعضها كان يعتسفه على عجل بغير أدلاء.

ولم تكن بخالد ولا بإخوته حاجة إلى التجارة لكسب العيش وتحصيل المال، إذ كان أبوه على تلك الثروة التى لا مزيد عليها فى البلاد العربية، وكانت ثروته أشبه شىء فى عصرنا هذا بثروة المصارف التى تعمل فى صفقات القروض والربا ومضاربات الأسعار. أما الثمرات والخضر فى مزارعه فلم تكن مما يحمل إلى البلاد القصية للبيع والشراء، وإنما قصاراها أن تباع فى الحواضر الحجازية، وما قاربها من البوادى القادرة على شىء من الترف والمتعة، ولا سيما فى أيام الأسواق والحجيج. ولهذا فسر بعضهم وصف بنيه «بالشهود» فيما تقدم من الآيات بأنهم كانوا أبداً فى صحبته وجواره مفاخرة بهم، وتنزيهاً لهم عن الكدح والتصرف فى شئون المعاش، فإن قضيت لأحدهم رحلة أو سياحة ففى غير هذه الأغراض أو فى غير حاجة ملحة إلى الاتجار، وإنما هى الدربة والتمرس

بالمصاعب والانتفاع بخبرة السياحة وآدابها، وقد ينفقون فى ذلك خير ما يكسبون، كما كان يصنع عمه «زاد الراكب» وأعمامه الآخرون الذين اشتهروا بالأنفة من مجاراة أحد لهم فى الضيافة وبذل العطايا والهبات.

وموضع الترجيح والاستنتاج هنا إنما هو فى إرسال خالد إلى البادية قصداً لرياضة النفس والجسد على خشونة الأعراب وشدائد الميادين. فهذا، وإن جرت به عادة بعض الأشراف فى حواضر الحجاز، لم يقطع به قول من الأقوال فى سيرة الوليد بن المغيرة وبنيه «الشهود» على احتمال الشهادة للمعنى الذى قدمناه.

ولكن الأمر الموثوق به كل الثقة - والذى لا موضع فيه لترجيح ولا استنتاج - أن خالداً قد نشأ حيث نشأ فى الحاضرة أو البادية مستعدًّا للخشونة مستطيعاً لمعيشة الأعراب، مستجيب السليقة والبيئة لما يتكلفه المجاهد فى أوعر القفار وأعنف الحروب، وكانت له ضلاعة العصبيين الأقوياء المعهودين بين رجال السيف، وهى ضلاعة يوشك أن تستمد من حماسة النفس وشهامة القلب أضعاف ما تستمده من العضلات والأوصال.

فلم تعفه العبقرية من ضريبتها التى لا مناص من أدائها، وآية ذلك أنه مات على فراشه فى نحو الخامسة والخمسين، وليست هى بالسن الغالبة فيمن يموتون بداء الشيخوخة من غير علة أخرى.

وإذا تجاوزنا هذه المظنة - وهى كافية - ألفينا فى تراجم الأسرة كلها ما ينبئ عن عوارض الأسر التى تهيئها الأقدار لإنجاب العباقرة فى شتى المواهب والمزايا.

فهذه الأسرة الغريبة تكثر فيها عوارض الاختلاف عن جملة الناس فى تركيب الأعصاب خاصة، ويشاهد فيها فرد أو أفراد تتجمع فيهم عللها وتمعن بهم مخالفاتها وعناصر شذوذها حتى تسلمهم إلى الاختلال والاضطراب كأنهم ضحايا الأسرة كلها فى سبيل إنجاب العبقرية منها.

وكانت هذه العوارض مشاهدة فى أسرة خالد وفى إخوته على التخصيص. فذكر كتاب الاستيعاب فى أسماء الأصحاب «أن الوليد بن الوليد» كان يروع فى منامه مثل حديث مالك سواء فى قصة خالد». وعن مسند بن أبى شيبة أن خالد بن الوليد كان يفزع فى نومه فشكا إلى النبى عليه السلام. فقال له: «إن عفريتاً من الجن يكيدك».

وبذلت هذه الأسرة الممتازة ضحيتها الكبرى فى شخص سليلها عمارة بن الوليد أحد الإخوة المذكورين بأسمائهم من ذرية الوليد بن المغيرة.

وعمارة هذا هو صاحب عمرو بن العاص فى رحلة الحبشة رسولين إلى النجاشى لتسليم المسلمين بها إلى قريش.

وكان مولعاً بالخمر والغزل، وسيماً محبباً إلى النساء. فلما كان بالسفينة مع عمرو وامرأته شرب ونظر إلى امرأة عمرو نظرة مريبة.

وقد نلمح عوارض الأسرة هذه فى أعظم أفراد الأسرة كما نلمحها فى هذا المسكين الذى بتلى بالثمن الفادح والضحية الكبرى، فخالد بن الوليد – شرف بنى المغيرة – لم يفتنه الميل إلى المرأة كما فتن أخاه، ولم يصرفه قط عن عبء من أعباء البطولة ولا عن فريضة من فرائض العظمة والعبقرية، ولكنه على هذا قد تعرض للمؤاخذة من عمر بن الخطاب ومن أبى بكر الصديق فى صدد الزواج المعجل فى غير حينه، فسبى امرأة مالك ابن نويرة، وتزوج فى حرب اليمامة وهو بميدان القتال، وسبى ابنة الجودى فى دومة الجندل، وقيل إنه فقد أربعين ولداً فى طاعون الشام وهو بقيد الحياة لما يجاوز الخمسين بكثير.

وتلك فى جملتها شواهد العوارض التى يقرر النفسانيون المحدثون أنها سمات العبقرية فى منابتها، ومنابتها هى الأسر التى تنجبها، وتبذل أثمانها قبل أن تنعم بمجدها وفخارها.

وكما ظهرت هذه العوارض فى لون من ألوانها على أخيه عمارة ظهرت فى بعض ألوانها الأخرى على أخيه الوليد الذى كان مثله يُراع فى رقاده.

فهذا الأخ الكريم كان مع جيش المشركين فى وقعة بدر، فأسره المسلمون، وطال الكلام فى فدائه لغناه وعداوة أهله للإسلام، فطلب آسره أربعة آلاف درهم وأوصى النبى ألا يقبلوا فدية له غير شكة أبيه الوليد، وهى درع فضفاضة وسيف وبيضة. وكل هذه المطاولة والمساومة والوليد باق على دين الشرك فى أسر المسلمين. فلما تم فداؤه وذهب إلى أهله أعلن إسلامه بينهم وهم كارهون، وعجب المشركون لأمره فسألوه: هلا أسلمت قبل أن تفتدى؟.. فقال: كرهت أن يظن بى أننى جزعت من الإسار... وصبر على

التعذيب والنكاية والحبس بين أهله حتى أفلت بعد جهد وحيلة ولحق بالنبى مشياً على قدميه !..

هذه أيضاً نفحة خالدية من نفحات تلك الأسرة القوية التى تأبى لخلائقها إلا أن تحير الناس، وأن ترد عليهم من مورد التفاوت والإغراب والمخالفة للمألوف.

وهى فى أطوارها المتباينة منجم العبقرية الذى لا مراء فيه، ومعدن البطولة التى تكتب لصاحبها وهو فى الأصلاب.

فها هنا نشأة بطل عبقرى مدخر للقيادة والرئاسة بميراث حسبه وطبعه، وملكات نفسه وجسده، جاءته البطولة وهو ينتظرها ولا يشك فيها، وتهيأ لها بالقدرة على الشدة والرخاء والنعمة والبأساء، ويكاد الصدق والإشاعة معاً يتوافيان إلى دلالة واحدة فى تربية هذا البطل المنذور للبطولة والعبقرية من قبل ميلاده، فأكلة الضب التى سبق ذكرها واحدة !.. وغيرها أكلات مسمومات يبدو لنا أنها مخترعة أو محرفة ولكن اختراعها وتحريفها يدلان لا محالة على شىء. وهو اشتهار خالد بترويض بنيته على تجرع الغصص التى يتقزز منها الناس ويخافون منها الهلاك. ففى اليواقيت للقطب الشعرانى أنه حاصر قوماً من الكفار فى حصن لهم فقالوا: تزعم أن دين الإسلام حق؟.. فأرنا آية لنسلم. فقال احملوا إلىّ السم القاتل، فأتوه به فأخذه وقال: بسم الله، وشربه فلم يضره، وتردد مثل ذلك فى كتاب الإصابة فروى عن مصادر شتى أنه لما قدم الحيرة أتى بسم فوضعه فى راحته ثم سمى وشربه، ولم يؤثر فيه.

وقد سمعنا نيتشه – بشير السوبرمان فى العصر الحديث – يقول: إن السم الذى لا يميتنى يزيدنى قوة !..

فهذه بنية بطل نشأت للمجد على هذا الغرار.

إسلامه

كان إسلام خالد ضربًا من التسليم.

كان ضربًا من التسليم بمعناه «العسكرى» المصطلح عليه فى عرف القادة ورجال الكفاح.

لأنه أسلم أو سلم تسليم القائد البصير بحركة القتال بين المد والجزر والنصر والهزيمة، الخبير بموضع الإقدام وموضع الإحجام، المقاتل والقتال شجاعة، المسالم والسلم ضرورة لا محيص عنها.

ولم يكن تسليمه تسليم العاجز الوكل، ولا الجازع المنخذل. بل لعله بلغ من نفسه غاية الثقة بالقدرة وحمادى اليقين بالخبرة، يوم أسلم وسلم إلى معسكر الدين الجديد. كأنه آمن بالله لأنه علم من ذات نفسه أنه لن يغلبه إلا الله، وكأنه كان يقول فى قرارة ضميره: أيهزمنى أحد وليس له مدد من النبوة؟ أيعلو سيف على سيفى وليس له سر من السماء؟..

فبلغ نهاية الإيمان بنفسه يوم بلغ بداية الإيمان بالله.

وقد كان على ذويه فى بنى مخزوم أن يحاربوا حربهم إلى نهايتها، لأن الصراع بين الجاهلية والإسلام لم يكن إلا صراعًا لهم قبل كل جاهلى وكل قرشى وكل عربى على التعميم.

وكان معسكرهم أُولى المعسكرات أن يصمد إلى موقف الحسم من النضال بين الفريقين، لأن بلاءه بإدبار الجاهلية أكبر من كل بلاء، وموقفه أمام الإسلام موقف من ينافح عن عزته وعزة بيته وعزة آبائه وأجداده، وعزة «النظام» الاجتماعى كله كما قررته الجاهلية أحقابًا بعد أحقاب، لأنه النظام الذى به يقومون وبهم يقوم.

وقد أبلى أبوه فى هذا الصراع قصارى ما فى وسعه من بلاء، وهو شرح يطول،

وتفصيل تضيق به الفصول، ولكن إشارة واحدة فيه تغنى عن بيان طويل، وصفحة موجزة من صفحاته تغنى عن الإطناب فى القيل والقال..

وحسبنا من تفصيل مكائده وجهوده كلها فى حرب الإسلام أن نقول إنه قد هان عليه فى هذا السبيل أن يبذل العزيزين: الولد والمال.

ففى بداية الدعوة المحمدية سعى وقومه إلى عم النبى أبى طالب ليسلمهم محمدا أو يتخلى عنه، وله بديلا منه عمارة بن الوليد... وقد وصفوه بأنه أنهد الفتيان وأشعرهم وأجملهم فى قريش.

وبعد استفاضة الدعوة المحمدية يسعى إلى النبى فيمن سعى إليه من سراة قريش ليشاطروه أموالهم ويسكت عن أربابهم وعباداتهم، وفى ذلك يقول القرآن الكريم فى سورة الأحزاب: (ولا تطع الكافرين والمنافقين)..

وبمقياس هذا البذل السخى فى سبيل الدين تقاس كراهة الرجل للدين الجديد، وهى كراهة الهرم التى تبقى إلى الموت، لأنه فوجئ بالإسلام وهو يقارب الثمانين وظل على الكيد له حتى مات بعيد الهجرة وقد نيف على الخامسة والتسعين.

* * *

وكان خالد فتى ناشئًا يوم ظهر النبى بالدعوة الجديدة، فنفر منها كما نفر قومه أجمعون، وزاد على النفرة لهبًا من حمية صباه، وتحفزًا فتيًّا يسبق به أباه.

فما هو إلا أن بلغ مبلغ الزعامة فى القتال حتى تجرد لها بعزيمة الفتوة وشجاعة البطولة، ولم تنقض سنتان على موت أبيه حتى كان قائد الميمنة فى وقعة أحد المشهورة، وتولى الهجمة التى مالت بكفة النصر من جانب المسلمين إلى جانب المشركين.

وذلك أن النبى عليه السلام أقام الرماة من وراء جيشه وقال لهم: «قوموا على مصافكم هذه فاحموا ظهورنا، فإن رأيتمونا قد انتصرنا فلا تشركونا، وإن رأيتمونا نقتل فلا تنصرونا». فلما ولى المشركون منهزمين وتبعهم المسلمون مغتنمين، خالفت كثرة الرماة وصاية النبى وتصايحوا بينهم: «ما مقامنا هاهنا وقد انهزم المشركون» فكانت هى الغرة التى اهتبلها خالد، ولم تذهله عنها الهزيمة المطبقة بقومه، فكر بالخيل وتبعه عكرمة بن أبى

جهل صاحب الميسرة وداروا من وراء جيش المسلمين، فحملوا على من بقى من الرماة فقتلوهم وقتلوا أميرهم عبد الله بن جبير وانتقضت صفوف المسلمين واستدارت رحاهم واختلطوا فصاروا يقتتلون على غير شعار ويضرب بعضهم بعضًا من العجلة والدهش، وشاع أن النبى عليه السلام قتل فى المعركة، وقتل فيها حمزة وسبعون من الأنصار، وأرجف المرجفون بكبار الصحابة حتى ظن أبو سفيان أن أبا بكر وعمر من القتلى، وصاح بين الصفوف: «يوم بيوم بدر والحرب سجال».

* * *

واشترك خالد فى وقعة أخرى هى وقعة الأحزاب، أو الخندق، فكانت هى أيضا من أهول الغزوات على المسلمين وأوشكت أن تحيق بهم دوائرها لولا يقظة على بن أبى طالب ووقيعة بعض الدهاة بين أحزاب قريش وهبوب الريح التى عصفت ببيوتهم وقدورهم وزادتهم يأسًا من اقتحام الخندق الذى حفره المسلمون حول المدينة، وفى هذه الغزوة يقول القرآن الكريم: (يٰأيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحًا وجنودًا لم تروها وكان الله بما تعملون بصيرًا، إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا، هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديدًا..).

وقد كان خالد فى هذه الغزوة يطوف بخيله حول الخندق يلتمس مضيقًا يقحم منه الخيل فأعياه، وفشل عمرو بن ود، حين حاول العبور من إحدى نواحيه. فلما حبطت حملة عمرو وقتله على بن أبى طالب. بات المشركون ليلتهم يقسمون كتائبهم لكل فريق من المسلمين كتيبة تدهمه مع الصباح، فكان خالد هو الموكل بالنبى عليه السلام فى كتيبة غليظة من خيل قريش والأحزاب، فاندفع يقاتل سحابة النهار وهويًّا من الليل، إلى أن تحاجز الفريقان ورجع المشركون وانصرف المسلمون إلى قبة النبى، فارتد خالد بعد هنيهة يطلب الغرة، وكاد أن يظفر بها لولا حرس من المسلمين بقيادة أسيد بن حضير تنبه له وفوت عليه غرضه. ثم انقطع القتال وهو لا يزال على الطلب والطواف، وكان آخر من ترك الحومة بعد يأس الأحزاب من عبور الخندق ودخول المدينة، فلبث هو وعمرو بن العاص على ساقة الجيش فى مائتى فارس ردءًا للجيش كله، مخافة أن يتعقبه المسلمون.

* * *

وتصدى خالد مرة أخرى للنبى عليه السلام فى سنة الحديبية وهو فى طريقه إلى مكة. وكان النبى قد خرج إليها معتمرًا فى نحو ألف وخمسمائة من المسلمين لا يحملون سلاحًا غير السيوف فى القرب، فأوجس المشركون خيفة أن يكون قدومه إلى البيت الحرام للقتال لا للعمرة، وندبوا خالدًا فى مائتى فارس للقائه قبل بلوغ مكة. فدنا خالد حتى نظر إلى أصحاب رسول الله، وأمر رسول الله عباد بن بشر فتقدم فى خيله وأقام بإزائه وصف من ورائهم رجاله، ثم حانت صلاة الظهر فصلى رسول الله بأصحابه صلاة الخوف، وهم خالد أن يغير عليه لولا نخوة من الفروسية أبت له العدوان على المسالم وقمعت فيه طمع الرئيس المغيظ على مكانته وعروض دنياه فعلت هنا كفة الفارس النبيل على كفة الرئيس الموتور، وقال خالد يصف ذلك بعد إسلامه: «هممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا، وكان فيه خيرة، فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعًا، وقلت الرجل ممنوع».

إلا أنه مع هذه بقى على لدده فى خصومة الإسلام ومعاندة نفسه دون الإصغاء له والنظر إليه. فلما صالح النبى قريشًا ودخل مكة فى عمرة القضاء كره خالد أن يشهد دخوله، وتغيب من جوار البيت ريثما يعتمر المسلمون ويرجعون من حيث أتوا، وهو معنى النظر من رؤية شىء لا يستحبه ولا يخلى بينه وبين حربه.

كذلك كانت كراهة خالد للإسلام بعد كراهة أبيه.

ومن وثباته هذه، ولجاجه ذاك، يغلب على الظن أن كراهته كانت من نوع تلك الكراهة التى هى أقرب إلى المبارزة والمناجزة منها إلى المقت والضغينة. لأنها لا تعنى صاحبها بالبعد من موضوعها كما تعنيه باشتغال به والعكوف عليه، كأنه زميل المبارزة اللازم لإتمام الصراع وإذكاء حرارته وامتحان قدرة النفس عليه.

وهذه الحرارة حركة جياشة فى النفس وليست كذلك الموات الذى تنقبض عليه النفس فى الشيخوخة الفانية، ولا كذلك الضغن الذى يتغذى بقيحه المخزون فى طبيعة منغولة معدومة الخير والنجدة..

مثل هذه الحركة الجياشة فى النفس الحية الفتية كالسيل المتدافع الآتى فى واديه المحيط بجانبيه، يظل متدفعًا آتيا ما بقى فى الوادى وما انهمر عليه الغيث من ضفتيه. ولكنه إلى

أمد لا محالة، لأنه سينتهى إلى مفترق الوادى فلا يجيش ولا يتدفع، وسيقصر عنه الغيث فلا يربو ولا يترع. وسيكون طريقة مع الوادى المفترق غير طريقة مع الوادى المحصور.

والوادى هنا قد افترق فى مجراه شعبة بعد شعبة منذ عهد قريب وإن لم ينته بعد إلى غاية المفترق فى الأرض البراح.

افترق الوادى قليلا حين انقسم بيت المغيرة بين معسكر الجاهلية ومعسكر الإسلام، وأصبح فى معسكر الإسلام أخوان حبيبان إلى خالد، وهما الوليد وهشام.

وافترق قليلا يوم أصغى أبوه إلى القرآن فحدث آل بيته عنه ذلك الحديث الذى أرابهم وأشجاهم، فحسبوه قد صبأ عن دينه وسألوه عن نبأ محمد فأوشك أن يقع فى قلبه أنه وحى السماء لو لم ينطق لسانه بأنه السحر الذى يفرق بين الرجل وزوجه والوالد وبنيه والسيد ومولاه!..

وافترق قليلا يوم شهد خالد سكينة المسلمين فى طريق الحديبية وهم قائمون للصلاة، وهجس فى خاطره أن يغير عليهم فصدته عنهم رهبة الصلاة ونخوة الفارس المحجم عن الغدر والغيلة، وسرى فى روعه أن لمحمد لسرًّا وأن الرجل لممنوع.

وكانت لتلك الحركة الجياشة مدد من تحريك الكتائب وتجريد الطلائع وإقامة الأرصاد والتقاء الجموع واتفاق الكلمة بين المشركين على الحرب والعداء، فإذا هم يتبلبلون مختلفين بعد صلح الحديبية، وإذا بصلح الحديبية يلقى السلاح من الأيدى سنين طوالا لا لقاء فيها ولا نزال، ولا سورة من غضب ولا جذوة من غيظ مثار.

ومات الشيوخ الذين كانوا يخيمون بوقارهم وجمودهم على العقول وتهيأ الجو للسؤال: فيم هذا العداء والنضال؟ أمن أجل الكعبة ومحمد يرعاها ويحترم جوارها ويحج إليها؟ أم من أجل العصبية القومية وشرف محمد شرف العرب أجمعين؟.. أم من أجل الكرامة ومحمد يصون للعزيز كرامته ويعرف للحسيب قدره؟..

ومن أين لمحمد ذلك النصر المبين بعد النصر المبين؟

ومن أين له تلك المهابة التى ترد عنه الأعين والأيدى من قريب؟

ومن أين له ذلك العون الذى يدركه وقد أحاطت به الهزيمة من كل فج فإذا هو ناصل منها وإذا هو الطارد الظافر وقد خيل إليهم أنه الطريد المخذول؟..

ومن أين للمسلمين ذلك الأدب وذلك الخشوع؟ ومن أين للنبى بينهم ذلك السلطان الصادع والصوت المسموع؟

لقد رآهم ورآه سيد أهل الطائف عروة بن مسعود فعاد إلى قومه يقول: «والله يا معشر قريش! جئت كسرى فى ملكة، وقيصر فى عظمته فما رأيت ملكا فى قومه مثل محمد بين أصحابه، ولقد رأيت قومًا لا يسلمونه بشىء أبدًا فانظروا رأيكم فإنه عرض عليكم رشدًا، فاقبلوا ما عرض عليكم فإنى لكم ناصح، مع أنى أخاف ألا تنصروا عليه».

ولقد رأوه بعد ذلك فى عمرة القضاء لا يتوضأ وضوءًا إلا كاد المسلمون يقتتلون عليه، وإذا تكلموا خفضوا أصواتهم عنده، ولا يحدون النظر إليه، ورأوهم فى نظامهم ومودتهم وصدق إيمانهم وخالص نياتهم، فأكبروهم وعز عليهم أن يصغروهم أو يتمادوا فى الزراية بهم والإعراض عنهم، وانقلبوا إلى أنفسهم فإذا هم مرتابون فى الغد متدابرون فى المقصد، منهزمون وهم الأكثرون محجمون وهم المتربصون. فحانت الساعة لوزن الأمور ومراجعة الحاضر والمصير، وفرضت هذه المراجعة فرضًا على كل ذى بصر بالقيادة فى معارك النضال أين تفشل وأين يتسع لها المجال، فإذا بالرجلين المفطورين على توجيه الوجوه قد انتهيا إلى رأى فى مصير المعركة بين الجاهلية والإسلام فى ساعة واحدة، وعلما أين يقف الدينان المتناجزان من حق النصر وعوارض الهزيمة، وهما عبقريا قريش فى أصول القيادة على تباين السن والمذهب والمزاج: خالد بن الوليد وعمرو بن العاص..

وفى تلك الآونة التى يشتد فيها الجذب والدفع بين الإنسان وقرارة ضميره وتجب فيها الموازنة وجوبًا على كل ضليع بها قادر عليها، لم يترك خالد لنفسه ولم يلبث أن جاءته الدعوة التى تنصره على عناده وتخرجه من تردده، وتستدعى منه البت العاجل بجوابه، وتمسح الغضاضة التى لعلها كانت تثنيه عن تلبية ضميره.

وتلك رسالة من أخيه يحملها له من كلام محمد ولا غنى فيها عن جواب..

قال أخوه الوليد: «...أما بعد.. فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام، وعقلك عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد؟!».

ثم مضى يقول: «سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال: أين خالد؟ فقلت: يأتى الله به. فقال: ما مثل خالد يجهل الإسلام، ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيراً له، ولقدمناه على غيره..

فاستدرك يا أخى ما فاتك منه، فقد فاتتك مواطن صالحة».

* * *

تلك كانت هى الدعوة التى جاءت فى أوانها.

وكان إسلام خالد هو الجواب.

* * *

فهى مراحله الطبيعية التى لابد له من عبورها بين الجاهلية والإسلام: لم يكن طبيعيًّا أن يلبى أول دعوة وهو هو فى قريش صاحب معقلها المنيع..

ولم يكن طبيعيًّا أن يلبى الدعوة فى وطيس الحرب ومحتدم العداء.

ولم يكن طبيعيًّا أن يسكن هنيهة إلى الموازنة وقد انقسم بيته ثم انقسمت نفسه ثم جاءته الدعوة الكريمة فى حينها فلا يكون الإسلام جوابه المنظور..

فهو قد انتقل من الإصرار، إلى القتال، إلى الموادعة، إلى الموازنة، إلى الترجيح، إلى الإجابة، ولو عجل بواحدة من هذه الخطوات لكانت هذه العجلة هى مكان العجب وهى الأمر المخالف لطبائع الأمور.

وقد أسلفنا أن الإسلام كان فى أمر خالد ضربًا من التسليم، فنعيد هنا أنه تسليم القائد فى معركة نفسية وليس بتسليم القائد فى معركة حسية وكفى، ولهذا عناه أن يستغفر له النبى ربه عن ماضيه، ولم يكن قصاراه أن يرحب به النبى ويسلكه بين صحابته ومريديه. فقال: يا رسول الله.. قد رأيت ما كنت أشهد من تلك المواطن عليك معاندًا عن الحق، فادع الله يغفرها لى.

فأجابه النبى عليه السلام: إن الإسلام يجب ما كان قبله.

فعاد خالد يؤكد رجاءه ويقول: يا رسول الله، وعلى ذلك!

فدعا النبى ربه: اللهم اغفر لخالد بن الوليد كل ما أوضع فيه من صد عن سبيلك!

فرضى خالد واستراح..

ولا يكون هذا إلا تسليم القلب نفض عنه الكفر، وليس تسليم اليد رمت منها السلاح..

* * *

وأحرى بنا أن نرجع إلى كلام خالد لبيان تاريخ إسلامه وسبب اهتدائه وتلخيص الأحاديث التى كاشف بها خلصاءه قبل لحاقه بالنبى فى المدينة ليسلم على يديه، فإنه أجمل ذلك كله إجمالا يفصح عن تلك الأطوار النفسية التى ساورته، وإن لم يقصد إلى الإفصاح عنها. ولعل صدورها منه على البديهة أبين لها وأقرب إلى توكيدها من الشرح المقصود.

قال: «لما أراد الله بى من الخير ما أراد، قذف فى قلبى حب الإسلام وحضرنى رشدى وقلت: قد شهدت هذه المواطن كلها على محمد، فليس موطن أشهده إلا وأنصرف، وإنى أرى فى نفسى أنى موضع فى غير شىء، وأن محمدًا سيظهر، فلما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الحديبية خرجت فى خيل المشركين فلقيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فى أصحابه بعسفان، فقمت بإزائه وتعرضت له، فصلى بأصحابه الظهر إماماً، فهممنا أن نغير عليه ثم لم يعزم لنا. وكان وكان فيه خيرة. فاطلع على ما فى أنفسنا من الهجوم به فصلى بأصحابه العصر صلاة الخوف، فوقع ذلك منى موقعًا، وقلت: الرجل ممنوع! وافترقنا وعدل على سنن خيلنا، فأخذ ذات اليمين، فلما صالح قريشًا بالحديبية ودافعته قريش بالراح قلت فى نفسى: أى شىء بقى؟ أين المذهب، ألى النجاشى؟ فقد اتبع محمدًا وأصحابه آمنون عنده. أفأخرج إلى هرقل؟ فأخرج من دينى إلى نصرانية أو يهودية. أفأقيم فى عجم أو أقيم فى دارى فيمن بقى؟..

«وبينما أنا كذلك إذ دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم فى عمرة القضاء، وتغيبت فلم أشهد دخوله، وكان أخى الوليد قد دخل مع النبى صلى الله عليه وسلم فى تلك العمرة، فطلبنى فلم يجدنى. فكتب إلى كتابًا فإذا فيه: «بسم الله الرحمن الرحيم. أما بعد فإنى لم أر أعجب من ذهاب رأيك عن الإسلام. وعقلك عقلك، ومثل الإسلام يجهله أحد؟ وقد سألنى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال؛ أين خالد؟ فقلت: يأتى الله به. فقال:

ما مثل خالد يجهل الإسلام! ولو كان جعل نكايته وحده مع المسلمين على المشركين لكان خيرًا له، ولقدمناه على غيره، فاستدرك يا أخى ما فاتك منه، فقد فاتتك مواطن صالحة».

فلما جاءنى كتابه نشطت للخروج وزادنى رغبة فى الإسلام، وسرتنى مقالة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ورأيت فى النوم كأنى فى بلاد ضيقة جدبة فخرجت إلى بلد أخضر واسع. فقلت: إن هذه الرؤيا حق! فلما قدمت المدينة قلت لأذكرنها لأبى بكر، فذكرتها فقال: فهو مخرجك الذى هداك للإسلام، والضيق الذى كنت فيه الشرك. فلما أجمعت الخروج إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم قلت: من أصاحب إلى محمد؟ فلقيت صفوان بن أمية فقلت: أما ترى يا أبا وهب؟ أما ترى ما نحن فيه؟ إنما نحن أكلة رأس، وقد ظهر محمد على العرب والعجم. فلو قدمنا عليه فاتبعناه؟ فإن شرف محمد شرف لنا، فأبى علىّ أشد الإباء، وقال: لو لم يبق غيرى من قريش ما تبعته أبدًا، فافترقنا، وقلت: هذا رجل موتور يطلب وترًا، قتل أبوه وأخوه ببدر. ولقيت عكرمة بن أبى جهل فقلت له مثل ما قلت لصفوان، فقال لى مثل ما قال صفوان.. فقلت له: فاطو ما ذكرت لك... وخرجت إلى منزلى فأمرت براحلتى تخرج إلىّ إلى أن ألقى عثمان بن أبى طلحة، وهو صديق لى أذكر له ما أريد. ثم تذكرت من قتل من آبائه فكرهت أن أذكره، ثم قلت: وما علىّ وأنا راحل من ساعتى؟ فذكرت له ما صار الأمر إليه، وقلت: إنما نحن بمنزلة ثعلب فى جحر لو صب عليه ذنوب من ماء خرج، وقلت له نحوًا مما قلته لصاحبيه، فأسرع الإجابة.. وأدلجنا بسحرة فلم يطلع الفجر حتى التقينا بيأجج – على ثمانية أميال من مكة – فغدونا حتى انتهينا إلى الهدة، فوجدنا عمرو بن العاص بها فقال: مرحبًا بالقوم. قلنا: وبك. فقال: أين سيركم؟ قلنا: ما أخرجك؟ قال: فما الذى أخرجكم؟ قلنا الدخول فى الإسلام واتباع محمد، قال: وذاك الذى أقدمنى. فاصطحبنا جميعًا حتى قدمنا المدينة، فأنخنا بظاهر الحرة ركائبنا، وأخبر بنا رسول الله صلى الله عليه وسلم، فسر بنا. فلبست من صالح ثيابى ثم عمدت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلقينى أخى فقال: أسرع فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم أخبر بقدومك فسر بقدومك وهو ينتظركم، فأسرعت المشى، فطلعت فما زال يبتسم إلى حتى وقفت عليه، فسلمت عليه بالنبوة، فرد علىّ السلام بوجه طلق. فقلت: إنى أشهد أن لا إله إلا الله

وأنك رسول الله. فقال: «الحمد لله الذى هداك. قد كنت أرى لك عقلا ورجوت ألا يسلمك إلا إلى الخير»..

إلى أن قال: «وتقدم عمرو وعثمان فبايعا رسول الله صلى عليه وسلم، وكان قدومنا فى شهر صفر من سنة ثمان، فوالله ما كان رسول الله يوم أسلمت يعدل بى أحدًا من أصحابه فيما حزبه».

فهذا السرد البسيط قد يحوم بنا حول الخالجة الأولى التى حركت قلب خالد إلى الإيمان بالدين الجديد، ونحسب أنها قد خالجته يوم التقائه بالمسلمين فى طريقهم إلى مكة قبيل صلح الحديبية.. يوم ردته سكينة الصلاة عن جموع المسلمين وهم مسالمون قانتون إلى جوار البيت الحرام، ويوم بدا له أن هذا البيت العتيق غير خاسر شيئًا بدعوة محمد وغلبة أصحابه على البلد الأمين، ويوم تراءى العنت من قريش أن يذودوا ابن عبد المطلب عن كعبة آبائه وأجداده، ويفسحوا طريقها للوافدين من حمير، كما قال الحليس بن علقمة الكنانى سيد الأحابيش..

فمنذ تلك الساعة تباعد ما بين خالد وبين الشرك، وتقارب ما بينه وبين الإسلام، وطفق يتباعد من هناك ويتقارب من هنا، حتى كانت مبايعته النبى على ما تقدم قبل فتح مكة بشهور.

وفى تحقيق هذا التاريخ - تاريخ إسلامه - خلاف غير قليل، ولكن التاريخ الذى جاء فى سرده المنسوب إليه أرجح التواريخ جميعًا لأسباب كثيرة، ليس بأهونها ولا أوهنها السبب النفسانى الذى يقترن بغيره. فإن الوقت المشار إليه آنفًا هو أشبه الأوقات أن يتفق فيه قائد الحرب وقائد السياسة على انتهاء الجولة بين قريش والإسلام. ولن نجد وقتًا هو أولى باتفاق القائدين، على اختياره للتسليم، من ذلك الوقت الذى تواردت فيه الخواطر بين خالد بن الوليد وعمرو بن العاص.. وبعده قضى الأمر ولم يبق لمكة إلا أن تفتح أبوابها طائعة لمن هجرته وهجرنا تلك السنوات الثمان..

وقد علم النبى عليه السلام جلية الأمر منذ قدم إليه الرفاق الثلاثة، فقال لصحبه: رمتكم مكة بأفلاذ أكبادها، وحق للمسلمين أن يحسبوا منذ تلك الساعة أن أولئك الرفاق الأفذاذ قد جاءوهم بمقاليد الكعبة ومسالك البلد الأمين..

فالواقع أن مكة قد آذنت بالفتح منذ فارقها خالد وعمرو وعثمان بن طلحة، فأصبحت «المدينة المفتوحة» التى نعرفها فى اصطلاح هذه الأيام، وأصبحت قضية مغلقيها فى وجه الدين الجديد قضية عبث وحبوط.

ويخطئ الكاتبون الذين يزعمون أنها فتحت بعد شهور، لأنها أخذت على غرة، وزحف عليها جيش المسلمين فى عشرة آلاف وأهلها معجلون عن الأهبة والدفاع..

فإن النبى عليه السلام إنما زحف عليها لأن قريشًا غدرت بعهدها وسطت على حلفائه من خزاعة. ثم أشفقت من القصاص فأوفدت أبا سفيان إلى النبى يستأمنه ويسأله مد العهد الذى أبرم بينهم فى صلح الحديبية، فأبى النبى ولم يجبه، وأحس المشركون منذ اللحظة الأولى أن المسلمين زاحفون عليهم لا محالة... فلو أن قضية الشرك بقيت لها بقية من عزم لاستعدوا قبل السطو بخزاعة أو بعده على الأثر، وأراحوا أنفسهم من الوساطة فى التأجيل والمراوغة، ولكنه التسليم الذى بدأ بإسلام خالد وصاحبيه قد تراخى به الوقت إلى أجله المعلوم.

* * *

فلما جاءها المسلمون دخلوها آمنين على كثرة من بها من المشركين، وتقدم النبى صلوات الله عليه فى كتيبته الخضراء، وتقدم سعد بن عبادة والزبير بن العوام وخالد بن الوليد إلى أبوابها فدخلوها كل من الباب الذى وكل إليه. ونهى النبى أصحابه عن القتال فيها فلم يحدث قط قتال إلا من صوب خالد بن الوليد، لأن صفوان بن أمية وسهيل بن عمر وعكرمة بن أبى جهل، رصدوا للباب الذى وصل منه، وجمعوا له جمعهم فمنعوه ورموه بالنبل وشهروا عليه السلاح، فبطش بهم وقتل منهم قرابة ثلاثين أكثرهم من قريش وأقلهم من هذيل، وولى السادة والأتباع بعد ذلك فى هزيمة نكراء.

أهو تدبير أم مصادفة أحكم من التدبير؟

خالد دون غيره تصادفه جنود رفقائه بالأمس فى جيوش المشركين فيرمونه ويرميهم وقد كانوا معًا يرمون المسلمين عن قوس واحدة!

إنه حارب فى صفوف الإسلام عرب الجزيرة وعرب العراق والشام، وحارب فى صفوف الإسلام جيوش الفرس والروم، وحارب فى صفوف الإسلام كل من برز لتلك

الصفوف، فما بال الجاهلية القرشية وحدها ينصرها على المسلمين ولا ينصر المسلمين عليها؟ وأين يلتقى بها إن فاته لقاؤها فى ذلك اليوم؟ لقد لقيها إذن فى ساعتها التى لا ساعة بعدها. وقال النبى حين سمع بضربته: ألم أنه عن القتال؟ قالوا: إنه خالد قوتل فقاتل! فقال: «قضاء الله خير..» ثم قال: «لا تغزى قريش بعد هذا اليوم إلى يوم القيامة...».

وغرائب الاتفاق هكذا تكون حيث تكون.

مع النبى

أحاط بالنبى عليه السلام نخبة من كبار الرجال مختلفون فى الأعمار والأقدار، مختلفون فى البيئات والأحساب، مختلفون فى الأمزجة والأخلاق، مختلفون فى ملكات العقول وضروب الكفايات، مختلفون فى فهم الدين وبواعث الإسلام، فكان اختلافهم هذا آية من أصدق الآيات على رحابة الأفق وتعدد الجوانب فى نفس ذلك الإنسان العظيم، وكان علمنا بكل رجل من أولئك الرجال مزيدًا من العلم بعظمة هاديهم وسيدهم وموجه كل منهم فى وجهته التى هو أصلح لها وأقدر عليها، وهم يلتقون أول الأمر وآخره فى ذلك الينبوع الفياض من تلك الفطرة العلوية التى فطرها الله لهداية الأمم وقيادة الرجال، بل لقيادة القواد الذين يروضون الأمم والرجال..

وما من عظيم من هؤلاء العظماء إلا كان تقدير النبى إياه بقدره الصحيح آية على عرفانه الشامل بخصائص النفوس، وسبره العميق لأغوار الطبائع والأفكار، ولكن تقديره لخالد بن الوليد على التخصيص كان آية الآيات فى هذا الباب، لأنه عليه السلام لم يكبره إكبار السياسى الذى يستجمع القوة حواليه وينزل كل زعيم منزلة قومه من الوفرة والعزة والجاه والعتاد، وإنما أكبره لأنه عرف أقصى مستطاعه قبل أن يظهر من مستطاعه كثير، وسماه «سيف الله» وبينه وبين الوقائع التى استحق بها ذلك اللقب الجليل بضع سنوات. بل سماه سيف الله وهو قافل من معركة يتلقى المسلمون من عادوا منها بالنكير والتشهير، ويحثون فى وجوههم التراب، ويصيحون بهم أينما وجدوهم: يافرار! يافرّار!.. فررتم من سبيل الله!

لم يكبر النبى خالدًا كما أكبر أبا سفيان تألفاً له ورعياً لمكانه فى قومه.

ولكنه أكبره للصفة التى سيوصف بها فى تاريخ الإسلام بعد اهتدائه إليه ببضع سنوات..

أكبره لأنه «سيف من سيوف الله» والناس لا يرون إلا الهزيمة والارتداد، ولم يكن

النبى موليه القيادة فى المعركة التى ارتد منها بجيش المسلمين، فيقول قائل إنه ينصر قائدًا هو المسئول عن اختياره، وهو من ثم المسئول عن ارتداده أو فراره. ولكنه ولى آخرين وترك اختياره بعدهم لمشيئة إخوانه فى الجيش، فاختاروه بعد ذلك مجمعين.

كثير من رؤساء الأمم يعرفون موضع الإكليل من رءوس القادة وهم منتصرون ظافرون، ولكنه موضع يخفى جد الخفاء على أنظار هؤلاء الكثيرين إذا لم يدلهم عليه ضياء النصر والظفر، ويبقى للعين الملهمة وحدها أن تراه فى ظلام المحنة والبلاء.

وقد صحب خالد النبى ثلاث سنوات، وعهد إليه النبى فى كثير من الأعمال الصغيرة، وأشركه فى بعض الأعمال الكبيرة، ومنها غزوة مؤتة وغزوة حنين وسرية بنى جذيمة، فما من هذه الأعمال الكبيرة عمل واحد لم يتسع فى المقال للشانىء والحاسد، ولم ينظر إليه الناظر من وجهين متعادلين تارة إلى جانب العذر وتارة إلى جانب الملام، ولو أنه رضى الله عنه قضى نحبة فى السنة العاشرة للهجرة أو بعد ذلك بقليل لعجب المؤرخون كيف سمى «سيف الله» وفيم استحق هذا اللقب الذى لا يعلوه لقب فى الإسلام، ولكن النبى وحده قد عرف قبل الحادية عشرة للهجرة أنه حقيق بذلك اللقب على أو فى مداه، وسماه به قبل أن يهزم المرتدين وقبل أن يهزم الفرس والروم وقبل أن يصون للإسلام جزيرة العرب ويضم إليها العراق والشام.. وهى الأعمال الجسام التى من أجلها يدعى اليوم «سيف الإسلام»..

وإنما هو البصر العلوى الذى يلمح هذه القدرة فى معدنها حيث ينظر الناس فيرون خالداً مرتداً من غزوة مؤتة أو مأخوذاً مع الخيل وهى تولى فى أول المعركة من ميدان حنين، أو صانعًا فى سرية بنى جذيمة مايبرأ منه النبى عليه السلام.

ولهذا ينبغى أن توزن هذه الأعمال بميزانها الصحيح لإقامة خالد نفسه فى مقامه الصحيح، فهى ولا ريب من المعدن الذى نجمت منه حروب الردة وفتوح العراق والشام.

١ – سرية مؤتة

وأول هذه الأعمال قد اشترك فيه متطوعاً بعد إسلامه بشهرين أو ثلاثة أشهر، وهو سرية مؤته التى سيرت إلى البلقاء.

وكان سبب هذه الغزوة أن النبى عليه السلام أرسل وفداً إلى ذات الطلح بمقربة من الشام ليدعوهم إلى الإسلام، فقتلوا جميعاً وعدتهم خمسة عشر، إلا رئيسهم نجا من القتل وحده، ولعلهم أبقوا عليه عمداً ليخبر بما رآه، على ديدن المنكلين فى إبلاغ مثلاتهم إلى من يهددونه بالتمثيل والتنكيل..

وأرسل عليه السلام الحارث بن عمير الأزدى رسولا إلى هرقل فقتله شرحبيل بن عمرو الغسانى وهو فى الطريق.

فأشفق عليه السلام من عقبى السكوت على كلتا الفَعْلتين وهو غير مأمون.. وعلم أن قبائل الجزيرة العربية نفسها قد أذعنت للدعوة الجديدة، ومنها المتربص للغدر – متى قدر عليه، والموهون الإيمان، الذى لا يصبر على الإغراء والاستثارة، فإذا استضعف الغسانيون وجيران الغسانيين شأن النبى وأفلتوا من جرائر فَعْلة كتلك الفَعْلَة اللئيمة جرأهم ذلك عاجلا على اقتحام الصحراء للنقمة من المسلمين، فتهب القبائل لنصرتهم فى طريقهم وتمدهم الدولة الرومانية بالمال والسلاح تقريرًا لهيبتها فى عيون أولئك البدو الذين جهلوا بأسها ووهموا أنهم قادرون عليها! لا مطمع للدولة الرومانية فى مقاتلة المسلمين وإخضاع الجزيرة بغير هذه الوسيلة، ولا سبيل إلى تسيير الجنود الرومانيين بنظامهم المعروف ومعداتهم الكثيرة لمنازلة المسلمين فى عقر دارهم من وراء المفاوز والنجود، وتسييرهم بحراً إلى شواطئ الحجاز لا يغنيهم عن الاستعانة بأناس من العرب وأهل البادية، وهم أولى أن يستعينوا على هذا المطلب بأتباعهم الأقدمين فى تخوم الشام.

فلم يجد عليه السلام مناصاً من الثأر لأصحابه المقتولين، وجرد لتأديب المعتدين جيشاً صغيراً لا تتجاوز عدته ثلاثة آلاف، وكان فى ذلك الجيش خالد بن الوليد ونخبة من أقدم

الصحابة عهداً بالإسلام، فلم يتول خالد قيادته لأنه كان على الأرجح أحدثهم عهداً بالدخول فيه، وتولاها زيد بن حارثة «فإن أصيب فالرئيس جعفر بن أبي طالب، فإن أصيب فعبد الله بن رواحة، فإن أصيب فليرتض المسلمون بينهم رجلا فليجعلوه عليهم»..

وأمرهم عليه السلام أن يذهبوا إلى حيث قُتِلَ الرَّسُول فيدعوا القوم إلى الإسلام، فإن أجابوا وإلا فالقتال، وأوصاهم: «ألا تغدروا ولا تغلوا ولا تقتلوا وليداً ولا امرأة ولا كبيراً ولا فانياً ولا معتزلا بصومعة، ولا تقربوا نخلا ولا تقطعوا شجراً ولا تهدموا بناءً».

ولا شك أن هذا الجيش إنما كان بالوصف العصرى «حملة تأديبية وبعثة استطلاع» يقاد على هذا الاعتبار ومن أجل هذه الغاية، ولا يراد به بداهة أن يحطم قوة الدولة الرومانية أو يفتح البلاد التى كانت يومئذ فى يديها..

فمضى لهذه الوجهة حتى نزل معان وأقام به ليلتين، وسمع المسلمون هناك أن هرقل قد عسكر بمآب فى مائة ألف من الروم ومائة ألف من قبائل لخم وجذام والقين وبهراء وبلى على أهبة اللقاء.

وقد يقع فى الخاطر أن الروم علموا بمسير جيش المسلمين فأعدوا هذه الجحافل الجرارة ثم سيروها إلى تخوم الدولة فى مدى الأيام التى مضت من خروج جيش المسلمين إلى بلوغهم أرض معان، وهو خاطر بعيد جد البعد لما هو معلوم من صعوبة جمع الجيوش وتسييرها فى مثل هذه السرعة، ولما يبدو من ضخامة هذه الجحافل بالقياس إلى القوة الإسلامية التى مهدوا للقائها، ولم يكن ليفوتهم أن يعلموا بحقيقتها لو أنهم تلقوا الخبر بخروجها ممن رآها..

والأرجح أن هرقل إنما كان فى جموعه هنالك فى زيارة الشكر التى نذر لله أن يؤديها إذا هو ظفر بالفرس ورد منهم صليب الكنيسة الكبرى الذى حملوه معهم يوم فتحوا بيت المقدس، وربما كان هرقل قد بارح بيت المقدس فى ذلك الحين وتخلفت جيوش ركابه لأداء هذه الفريضة معه أوللقيام بمراسم الحفاوة فى تلك الزيارة التاريخية.

ورأى المسلمون أن مدد الروم حاضر على مقربة منهم، وأن الحرب بين عسكرين على هذا التفاوت البعيد عمل غير مُجد، ولم يكن منظورًا ولا مقصوداً عند مسير الجيش من

المدينة، فرجع بعضهم وتمهل الأكثرون منهم ليستأذنوا النبى فيما يصنعون، وغلبت حماسة الشاعر وحمية الشهيد على عبد الله بن رواحة فانتهر المترددين والمثبطين وقال لهم: «يا قوم! و الله إن التى تكرهون للتى خرجتم تطلبون: الشهادة. وما نقاتل الناس بعدد ولا قوة ولا كثرة، ما نقاتلهم إلا بهذا الدين الذى أكرمنا الله به، فانطلقوا فإنما هى إحدى الحسنيين: إما ظهور وإما شهادة»..

فاستمعوا إليه ولم يشاءوا بأية حال أن يرجعوا قبل الانتهاء إلى مقصدهم الذى خرجوا من أجله وهو إبلاغ الدعوة إلى قاتلى الرسول النبى وإبراء الذمة إليهم قبل القصاص، إن وجب قصاص.

فتقدموا من معان إلى مؤتة على مسيرة نحو ليلتين، وفيها حصن للغسانيين يقيم به أمير منهم فى خدمة الرومان.

واحتمى الأمير الغسانى منهم بحصنه ثلاثة أيام لعله كان ينتظر فيها مدداً أو أمراً من رؤسائه، ثم التقى الفريقان على مزرعة فى جوار البلدة، فاستمات من بقى من جيش المسلمين، وحاربوا على ما يظهر وهم مفاجأون لأننا لم نسمع فى أخبار الوقعة بتوجيه الدعوة أو الإجابة عليها، ولأن قائداً منهم أعجل عن غير طعامه ولم يذق القوت ساعات فلما فوجئوا بالقتال لم تدع لهم المفاجأة من خطة الصمود للخطر والثبات فى وجهه مخافة المصاب الأكبر فى هذه الحالة وهو مصاب الذعر والدهشة والملاحقة بلا هوادة.

وكأنما استحى القادة الثلاثة أن يرشحوا للموت ويرجعوا دونه ابتغاء النجاة، فقاتل زيد بن حارثة حتى قتل، وأحاط القوم بجعفر بن أبى طالب وهو يحمل اللواء ويثير من حوله نخوة المسلمين، فأنحوا عليه بالضرب الدراك حتى قطعت يمينه ثم قطعت شماله ثم ضم اللواء إلى عضديه ولبث يناضل عنه إلى أن مات.

ودعى ابن رواحة إلى الرئاسة فجاءه ابن عم له بعرق بن من لحم وقال له: شد بهذا صلبك فإنك قد لقيت فى أيامك هذه ما لقيت، فأخذه من يده فانتهش منه نهشة، ثم سمع الحطمة فى ناحية المعترك فألقاه من يده وجرد سيفه وهو ينشد:

يا نفس إلا تقتلى تموتى   هذا حمام الموت قد صليت
وما تمنيت فقد أعطيت   إن تفعلى فعلهما هديت

فطفق يصول بين الصفوف ويهدر بالشعر حتى قتل والمعركة فى أشدها..

فما هى إلا لحظة حتى دبر المسلمون أمر الرئاسة بوحى البديهة ونور العقيدة وهداية الفداء التى تهدى إلى المصلحة الكبرى وتغفل كل مصلحة دونها. وإذا باللواء يأخذه فى تلك اللحظة ثابت من أقرم من بنى العجلان وينادى فى أصحابه: «يا معشر المسلمين اصطلحوا على رجل منكم». قالوا: «أنت» قال: «لا، ما أنا بفاعل». فاتفقت الكلمة على خالد بن الوليد فإذا هو يتولى القيادة فى حينها ويصنع لساعته خير ما يصنع فى ذلك الحين.

وخير ما يصنع فى ذلك الحين هو الارتداد المأمون..

وهو أصعب من النصر فى بعض المآزق. لأن النصر ميسور مع اجتماع العدة له واحتمال الشدة فيه. ولكن الارتداد المأمون غير ميسور لكل من يريده وهو أضعف الموقفين.. إلا أن تكون له خبرة بالقيادة تكافىء الرجحان فى قوة العدو الذى يرتد بين يديه.

وأول شىء ينبغى أن يحتاط به لارتداده هو أن يوقع فى روع عدوه أنه لا ينوى الارتداد بل ينوى الهجوم أو يقصد إلى الحيلة.

فصمد فى الميدان حتى المساء.

ثم بدل مواقف الجيش تحت الليل فنقل الميمنة إلى الميسرة ونقل الميسرة إلى الميمنة وجعل الساقة فى موضع المقدمة والمقدمة فى موضع الساقة، ورصد من خلف الجيش طائفة يثيرون الغبار ويكثرون الجلبة عند طلوع الصباح. فلما طلع الصباح على الفريقين إذا بكل طائفة من طوائف الغسانيين والروم ترى قبالتها وجوهاً غير الوجوه وأعلاماً غير الأعلام، وإذا بالجلبة مع هذا الاختلاف فى الوجوه والأعلام توهم القوم أن مدداً جديداً أقبل على جيش المسلمين، وكانوا قد ذاقوا منهم أمر المذاق بغير مدد وهم مفاجأون، فلما ذهب خالد يدافع القوم ويخاشى بجيشه لم يتبعوه حذار من الكمين وتوقعاً للإحاطة بهم من ورائهم، وأبلى خالد فى هذه المدافعة والمخاشاة بلاء لم يبله قط فى غزواته الكبرى على كثرتها. فاندقت فى يده تسعة سيوف ولم تصبر معه إلا صفيحة يمانية، وكان هذا التراجع المحمى بشجاعة المستميت عطاء صالحاً للجيش الصغير فى مواجهة الجيش الكبير. فقفل

إلى المدينة بسلام، وعرف خالد منذ ذلك اليوم بلقبه الذى أضفاه عليه النبى وهو (سيف الله)، وعاد الناس يقولون مع النبى إنهم الكُرَّار بإذن الله وليسوا بالفُرَّار.

وقد سمعنا فى عصورنا هذه بالألقاب الكبار تضفى على القادة لأنهم نجحوا فى خطة ارتداد لا محيص منها. فتلك هى السنة النبوية تسبق النظم العصرية إلى تقدير القائد البارع بقيمة النجاح فى ارتداده كما تقدره بقيمة النجاح فى تقدمه وانتصاره. ولو أن خالداً ملكته فطرة المجازفة ولم تملكه فطرة القيادة البصيرة لساءت العقبى أيما سوء وتعرضت الدعوة الإسلامية لمحنة لا نعرف مداها الآن. ولربما تعرضت لهذه المحنة من جانب الجزيرة العربية قبل أن تتعرض لها من جانب الروم والغسانيين. لأن الجيش قد خرج من المدينة تأديباً لأناس متصلفين قتلوا رسولاً واحداً أو قتلوا وفداً لا تجاوز عدته خمسة عشر. فإذا تورط هذا الجيش فى الزحف حتى اصطلم كله ولم يعد منه أحد، فكيف يكون وقع هذا التأديب المعكوس فى نفوس البادية المتحفزة أو فى نفوس أهل مكة ولما تسلم مفاتيحها للمسلمين؟ إنه ليبعث السخرية والاستهانة من حيث أريدت له الهيبة والمنعة، وإنه ليثير من الفتن ومساوئ الظنون ما يصعب استدراكه فى سنين.

ولكن الجيش قد عاد وأبلى فى أعدائه وتسامعت الجزيرة بعدد الجحافل الهرقلية التى حسبتها مرصدة له ولم تقدر على تمزيقه ولا أصابت منه غير اثنى عشر قتيلاً منهم القادة الثلاثة الذين ندبوا للشهادة قبل خروجه، فالسرية إذن قد نهضت بأمانتها ووقع فى نفوس المسلمين من فرط الثقة ببأسهم أنها كانت قادرة على جهاد أعظم من جهادها وثبات أطول من ثباتها. وهى مغالاة فى القوة والبأس خير من المغالاة فى الضعف والخور، ولا ضرر منها ما شفعتها تلك البصيرة العلوية التى تضع الأمور فى نصابها، وتصف النجاح بصفاته ولو بدا للناس فى ثياب الإخفاق..

٢ – بنو جذيمة

وقد أثنى النبى على خالد فى مهمة لم يندبه لها ولم يرشحه لها مرشح غير كفاءته واتفاق رأى المسلمين فيها.

ولكنه لامه وبرئ من عمله حين أخطأ فى مهمة ندبه لها بعد فتح مكة وهى السرية

التى قادها إلى بنى جذيمة ليكشف عن طويتهم ويدعوهم إلى الإسلام.

فبعد فتح مكة توجهت عنايته عليه السلام إلى تطهير البوادى المحيطة بها من عبادة الأصنام، فأرسل السرايا إلى قبائلها لدعوتها والاستيثاق من نياتها، ومنها سرية خالد إلى بنى جذيمة فى نحو ثلثمائة وخمسين من المهاجرين والأنصار وبنى سليم.. أرسلهم دعاة ولم يأمرهم بقتال.

وكان بنو جذيمة «شر حى فى الجاهلية يسمون لعقة الدم، ومن قتلاهم الفاكه بن المغيرة وأخوه عمّا خالد بن الوليد، ووالد عبد الرحمن بن عوف ومالك بن الشريد وإخوته الثلاثة من بنى سليم فى موطن واحد» وغير هؤلاء من قبائل شتى.

فلما أقبل عليهم خالد وعلموا أن بنى سليم معه لبسوا السلاح وركبوا للحرب وأبوا النزول. فسألهم: أمسلمون أنتم؟ فقيل إن بعضهم أجابه نعم! وبعضهم أجابه: صبأنا! صبأنا! أى تركنا عبادة الأصنام، ثم سألهم: فما بال السلاح عليكم؟ قالوا: إن بيننا وبين قوم من العرب عداوة فخفنا أن تكونوهم فأخذنا السلاح! فناداهم: ضعوا السلاح فإن الناس قد أسلموا: فصاح بهم رجل منهم يقال له جحدم: ويلكم يا بنى جذيمة! إنه خالد، والله ما بعد وضع السلاح إلا الإسار وما بعد الإسار إلا ضرب الأعناق، والله لا أضع سلاحى أبداً. فما زالوا به حتى نزع سلاحه فيمن نزع وتفرق الآخرون. فأمر خالد بهم فكتفوا وعرضهم على السيف، فأطاعه فى قتلهم بنو سليم ومن معه من الأعراب، وأنكر عليه الأنصار والمهاجرون أن يقتل أحداً غير مأمور من النبى عليه السلام بالقتال. ثم انتهى الخبر إلى النبى فرفع يديه إلى السماء وقال ثلاثاً: «اللهم إنى أبرأ إليك مما صنع خالد بن الوليد»، وبعث بعلى بن أبى طالب إلى بنى جذيمة فودى دماءهم وما أصيب من أموالهم.. قيل إنه «كان يدى حتى ميلغة الكلب» ويسألهم: أبقى دم أو مال لم يود لكم؟ فلما اكتفوا ورضوا فرق بينهم بقية المال «احتياطاً لرسول الله».

وقد سأل رسول الله فتى من جذيمة انفلت إليه لينبئه نبأ خالد مع آله وذويه: هل أنكر عليه أحد! قال: نعم. قد أنكر عليه رجل أصفر ربعة ورجل طويل أحمر، فاشتدت مراجعتهما. وكان عمر بن الخطاب بمجلس رسول الله فقال: أما الأول يا رسول الله فابنى عبد الله. وأما الآخر فسالم.. مولى بنى حذيفة.

ويعزى إلى خالد أنه استند فى قتالهم إلى قول عبد الله بن حذافة: «إن رسول الله قد أمرك أن تقاتلهم لامتناعهم عن الإسلام».

وقد عم النكير على الحادث بين أجلاء الصحابة، من حضر منهم السرية ومن لم يحضرها، واشتد عبد الرحمن بن عوف حتى رمى خالداً بقتل القوم عمداً ليدرك ثأر عميه اللذين قتلهما بنو جذيمة مع عوف أبى عبد الرحمن ورجل من بنى أمية. وقصة مقتلهم أنهم كانوا قد خرجوا تجاراً إلى اليمن ثم عادوا ومعهم مال رجل من بنى جذيمة قضى نحبه هناك يحملونه إلى ورثته وأهله. فاعترضهم جذمى فى رهط من قبيلته يدعى خالد بن هشام، وزعم أنه وارث المال وأحق به من غيره. فمنعوه ينظرونه أن يصلوا بالمال إلى أهل الميت. فغضب وقاتلهم بالرهط الذى معه فقتل عوفاً والفاكه بن المغيرة ثم عمد عبد الرحمن إلى خالد بن هشام هذا فقتله بثأر أبيه. وهمت قريش بغزو بنى جذيمة لولا أن مشى بعض العقلاء بينهم بالصلح فتصالحوا على الدية والمال.

ومن الإسراف أن يظن بخالد بن الوليد أنه تعمد قتل أناس وهو يعلم أن دمهم حرام ويتخذ من مهمة النبى ذريعة إلى شفاء ترة قديمة. فأدنى من ذلك إلى القصد فى فهم الحقيقة أن نبحث عن دواعى اللبس ودوافع الطبع التى تدفع خالداً خاصة إلى مثل هذا التصرف، فإن كانت هذه الدواعى وهذه الدوافع قائمة مفهومة فهى تفسير لما حدث وفيها الكفاية. وإن لم تكن قائمة ولا مفهومة فهنالك ينفسح مجال الظنون والفروض لمن يشاء.

وقد كانت دواعى اللبس ودوافع الطبع قائمة مفهومة فى مقتلة بنى جذيمة. فإن البوادى كلها حول مكة كانت تزخر بالشر وتتحفز للوقيعة فى تلك الآونة بعد تسليم مكة. فلم تمض أيام على سرية خالد حتى كانت بطون هوازن وثقيف وجشم وغيرها متجمعة فى العدة الكاملة والعديد الوافر لمباغتة النبى وجمعه، فإذا ارتاب خالد فى نيات طائفة من أهل البادية مشهورين بالشراسة والغدر، وهم يلقونه بالسلاح، فله فى ارتيابه وجه لا يخفى، وإذا أضيف إلى ذلك تلجج القوم فى إعلان إسلامهم والإفضاء بنياتهم فليس اللبس هنا بعازب عن بال المتوجس فى أشباه ذلك المقام.

وقد يغنى الشعر والقصص فى الكشف عن شعور القوم هنا ما ليس يغنيه التاريخ

وتسلسل الرواية فمن كلام أحد الوهبيين فى خطاب بن جذيمة بن عامر يسوغ لنا أن نفهم أنه لم يكونوا متفقين على الإسلام والمسالمة، وذلك إذ يقول:

دعونا إلى الإسلام والحق عامرا   فما ذنبنا فى عامر إذ تولت
وما ذنبنا فى عامر لا أبا لهم   لئن سفهت أحلامهم ثم ضلت

وقال أحد الجذميين:

فلا قومنا ينهون عنا غواتهم   ولا الداء من يوم الغميصاء ذاهب

وفى قصة رواها محمد من إسحاق بن يسار - وهو من الثقات - شواهد على إصرار بنى جذيمة وعنادهم إلى ما بعد الأسار والإنذار، وفحوى هذه القصة كما أثبتها صاحب كتاب الأغانى حيث نقلت ببعض التصرف: «أن خالد بن الوليد كان جالساً عند النبى صلى الله عليه وسلم فسئل عن غزوته بنى جذيمة فقال: إن أذن رسول الله صلى الله عليه وسلم تحدثت. فقال: تحدث. فقال لقيناهم بالغميصاء عند وجه الصبح فقاتلناهم: حتى كاد وجه الشمس يغيب، فمنحنا الله أكتافهم فتبعناهم نطلبهم، بغلام له ذوائب على فرس ذنوب فى أخريات القوم، فبوأت له الرمح فوضعته بين كتفيه، فقال: لا إله. فقبضت عنه الرمح، فقال: إلا اللات أحسنت أو أساءت فهمسته همسة أذريته وقيذا - أى مشرفاً على الموت - ثم أخذته أسيراً فشددته وثاقاً، ثم كلمته فلم يكلمنى واستخبرته فلم يخبرنى، فلما كان ببعض الطريق رأى نسوة من بنى جذيمة يسوق بهن المسلمون. فقال: أيا خالد، قلت: ما تشاء؟ قال، هل أنت واقفى على هؤلاء النسوة؟ فأتيت على أصحابى ففعلت وفيهن جارية تدعى حبيشة، فقالت لها: فقال لها: ناولينى يدك، فناولته يدها فى ثوبها. فقال: أسلمى حبيش قبل نفاد العيش، فقال: وأنت حييت عشراً أو تسعاً وتراً وثمانياً تترى».

قال: «وتناشدا الأشعار حتى قتل وأقبلت الجارية ووضعت رأسه فى حجرها وجعلت ترشفه وتبكى...» إلى آخر القصة فى الجزء السابع من الأغانى، وهى على ظهور الاختراع فى بعضها لا تخلو من دلالة على موقف بنى جذيمة من سرية خالد.

فإذا صح مع هذا أن خالداً تلقى من عبد الله بن حذافة السهمى أمراً بقتال بنى جذيمة نقلاً عن النبى عليه السلام فهو خليق أن يعتمد على الفتوى من أمثاله لحداثة

إسلامه وقلة علمه بفقه الدين وأحكامه، وهى على أية حال رواية لا تغفل كل الإغفال فى صدد البحث عن أخبار هذه السرية.

والجو كله بعد هذا وذاك - سواء فى البادية أو فى مكة - هو جو الحرب والريبة وجو التربص والنفور، فلا عجب أن تختلف فيه النوازع والآراء وأن تستطار فيه دواعى الشر والنقمة، وأن يتطرق إليه اللبس وتتعذر فيه استبانة الوجه الصراح.

وعند خالد دوافع الطبع إلى جانب دواعى اللبس واختلاط الآراء، وهى الدوافع التى قد نعد منها حداثة السن فى ذلك الحين، ومنها أنه تناول الموقف كما يتناوله القائد المطبوع على القتال فى الصحراء، ويحدث للقائد فى هذا الموقف كثيراً أن يفرق بين ضربين من التسليم؛ هما تسليم المراوغة والختل، وتسليم الإذعان والنصيحة، ولا سيما تسليم العدو المتهم المتردد الذى يحيد عن الصراحة ويفند أناس منه مقال أناس آخرين.

ومن دوافع الطبع عند خالد تلك الصرامة التى ينشأ عليها كل من نشأ فى مثل بيئته من الجاهلية، وتلك الشدة التى تثيره إليها أعصابه ويومئ إليها تفزعه فى نومه ومشاركة إخوته فى عوارضها الموروثة على نحو من الأنحاء، وهى ولا ريب تلك الشدة التى عناها عمر بن الخطاب حين قال: «إن فى سيف خالد لرهقاً» وهو من أعرف الناس به وأقربهم إليه، وهى التى توقعها جحدم أخو بنى جذيمة حين صاح بقومه محذرًا من إلقاء السلاح: ويلكم يا بنى جذيمة. إنه خالد!.. كأنها خليقة معهودة منه لا تحتاج إلى تأويل بعيد.

وندرت فى تاريخ الحروب القديمة والحديثة حرب تدور على العقيدة الدينية أو الحمية الوطنية لا تحصى عليها فلتة من أشباه هذه الفلتات، ولا يقع فيها نذير السيف حيث ينبغى أن يقع بشير السلام.

ولا يبعد أن يكون خالد قد ورث من عمومته جفوة لبنى جذيمة فجنح به شعوره إلى سوء الظن بهم وقلة الطمأنينة إليهم من حيث لا يقصد الترة ولا يتعمد الانتقام.

فكل هذا أقرب إلى تعليل بطشته بالقوم من اتهامه بحمل أمانة النبى على دخَل وسوء نية، وهو الرجل الذى حارب أصدقاءه وأقرب الناس إليه على أبواب مكة، وله ندحة عن حربهم لو تعمد اجتنابها أو كان قصاراه أن يتعلل باللسان ولا يرجع إلى صدق النية فى إطاعة النبى عليه السلام.

ومهما يلم اللائمون أو يعذر العاذرون فى هذه الزلة فمقطع القول فيها بين المنصفين أنها خطأ وأن الإبقاء على خالد بعدها صواب. لأن صواب الإبقاء على خدمته بعد غزوة بنى جذيمة قد ظهر أيما ظهر فى حروب الردة وحروب الفرس والروم.

وذلك مثل من تربية النبى عليه السلام لأفذاذ الرجال.

ويتجلى تمام هذا المثل بإعطاء الرجال فرص المراجعة والإصلاح فى أمر يشبه الأمر الذى أخطئوا فيه، وموقف قريب من الموقف الذى عرضهم للملامة، وهذا الذى توخاه، عليه السلام، حين أرسل خالداً دون غيره إلى بنى المصطلق – وهم من بنى جذيمة – ليستخبر له خبرهم ويتبين الحق فيما بلغه عن ارتدادهم، وكان الوليد بن عقبة قد أخبره أنهم ارتدوا عن الإسلام. فندب عليه السلام خالداً «وأمره أن يتثبت ولا يعجل. فانطلق حتى أتاهم ليلاً فبعث عيونه فلما جاءوه وأخبروه بأنهم متمسكون بالإسلام وسمعوا أذانهم وصلاتهم، فلما أصبحوا أتاهم خالد فرأى ما يعجبه فرجع إلى النبى صلى الله عليه وسلم فأخبره».

وهو مثل ينبئ عن كثير، وقد ينبئ فيما ينبئ عنه أن خالداً لم يتعسف كل التعسف فى شكه الأول ببنى جذيمة على اختلاف بيوتهم، لأن الشك فيهم ما زال يتكرر بعد ذلك بشهور، وما زال يدعو إلى تلقى الإشاعة عنهم وإيفاد الوفود إليهم مرتين للتمحيص والاستخبار.

٣ – غزوة حنين

ولم تمض أيام معدودات على مقتله بنى جذيمة حتى لمس خالد موضع الثقة من نفس النبى فى حادث من أكبر حوادث الإسلام وهو غزوة حنين.

لمس هذه الثقة فى غزوة حنين مرتين: مرة فى إسناد قيادة الخيل إليه على طليعة الجيش، ومرة فى سؤاله عنه وعنايته به بعد هزيمة الخيل مولية عند اشتباك الجمعين.

وحق خالد فى تلك الثقة إنما يستبين من عرض الغزوة كلها، لجلاء الأسباب التى أوقعت الهزيمة الأولى بجيش المسلمين، ولا يد فيها لخالد من قريب أو بعيد.. بل لعلها

توحى إلينا أن هزيمة خيله يومئذ إنما كانت كصد الأجسام للأجسام ضرورة مادية لا دخل فيها للعوامل النفسية، أمام جارفة من الجوارف القوية، تأخذ ما أمامها من إنسان أو حيوان ومن شجاع أو جبان.

فقد فتحت مكة والأعراب من حولها ثائرون محنقون، وعلموا يومئذ أنها الوقعة الفاصلة، وأنه لا مطمع بعدها فى مكافحة النبى إذا تطاولت الأيام على قيام دينه فى البلد الحرام وموطن الكعبة والأصنام. فاجتمعت قبائل همدان من هوازن وثقيف وجشم ومشى بعضهم لبعض يقولون: «إن محمدًا قد فرغ من قتال قومه ولا ناهية له عنا. فلنغزه قبل أن يغزونا»، واستنفروا القبائل فلباهم من أقربائهم عدد كبير منهم بنو سعد بن بكر الذين تربى بينهم النبى وهو رضيع.

وتولى قيادتهم مالك بن عوف النصرى، وهو فتى جرىء فى نحو الثلاثين يجمع إلى غطرسة الإمارة وحمية الفروسية حدة الشباب ولدد الخصومة والعناد.. فساق أموالهم ونساءهم وأبناءهم، وأمرهم إذا رأوا المسلمين «أن يكسروا جفون سيوفهم ثم يشدوا شدة رجل واحد». فإما فوز وإما فناء. وصفت الخيل ثم الرجالة المقاتلة ثم الإبل عليها النساء، ثم صفت الغنم: ثم صفت النعم فى حراسة لئلا تفر والجيش مشتغل عنها.

وسأله دريد بن الصمة حكيم القوم: مالى أسمع رغاء البعير ونهاق الحمير وبكاء الصغير؟ قال؛ أردت أن أجعل خلف كل رجل أهله وماله ليقاتل عنهم، فسخر دريد برأيه وقال له: رويعى ضأن والله! وهل يرد المنهزم شىء؟ إنها – أى الحرب – إن كانت لك لم ينفعك إلا رجل بسيفه ورمحه، وأن كانت عليك فضحت فى أهلك ومالك، فرماه مالك بالخرف ولَجَّ فى عناده، ولمح فى بنى هوازن ميلاً إلى كلام دريد فجمجم به غضبه العارم وأقسم: «لتطيعنى يا معشر هوازن أو لأتكئن على هذا السيف حتى يخرج من ظهرى!».

فهى عزمة رجل مستميت لا يبالى ما يصنع بنفسه أو بقومه فى سبيل قهر المسلمين.

ونما الخبر إلى النبى فخرج فى ألفين من أهل مكة، حديثى العهد بالإسلام، وعشرة آلاف من أصحابه الذين قدموا معه من المدينة. وقيل إنهم كانوا جميعاً ثمانية آلاف.

وأعوزه السلاح فاستعار من بعض المشركين دروعاً فأعطوه ثلاثين أو أربعين درعاً – وقيل مائة درع – بما يكفيها من السلاح، واستعار من ابن عمه نوفل بن الحادث بن

عبد المطلب ثلاث آلاف رمح، فأعاره إياها وهو يقول: كأنى أنظر إلى رماحك هذه تقصف ظهر المشركين.

وأخرج خالداً على طليعة الجيش فى مائة فارس من بنى سليم.

قال الحارث بن مالك: خرجنا مع رسول الله ونحن حديثو عهد بالجاهلية فسرنا معه إلى حنين، وكانت لكفار قريش ومن سواهم من العرب شجرة عظيمة خضراء يقال لها ذات أنواط، يأتونها كل سنة فيعلقون أسلحتهم عليها ويذبحون عندها ويعكفون عليها يوماً. فرأينا ونحن نسير مع رسول الله سدرة خضراء عظيمة، فتنادينا من جنبات الطريق: يا رسول الله! اجعل لنا ذات أنواط كما لهم ذات أنواط. فقال رسول الله: الله أكبر. قلتم - والذى نفسى بيده - كما قال قوم موسى لموسى اجعل لنا إلهاً كما لهم آلهة!..

وكان فى الجيش كثير من أمثال هؤلاء المسلمين المحدثين، ومعهم فى ساقة الجيش جمع من المشركين بين رجال ونساء ينظرون ما يكون وكان فيهم أبو سفيان الذى قال حين رأى بوادر الهزيمة: لا تنتهى هزيمتهم دون البحر!.. وفيهم كلدة بن الحنبل الذى صرخ شامتاً متعجلاً: ألا قد بطل السحر اليوم، وصرخ معه آخرون يقولون: اليوم ترجع العرب إلى دين آبائها.

وكان الغالب على جيش المسلمين فى خروجهم قلة الاكتراث بعدوهم، فقال أبو بكر الصديق: لن نغلب اليوم من قلة!.. ونسبت هذه الكلمة إلى غيره، ولكنها قيلت على التحقيق لما جاء فى القرآن الكريم: « إذ أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئاً ».

وتقدم الجيش حتى حضرت صلاة الظهر فجاء رجل فارس فقال: يا رسول الله!.. إنى انطلقت بين أيديكم حتى طلعت جبلاً، فإذا أنا بهوازن عن بكرة أبيهم بظعنهم ونعمهم وشائهم اجتمعوا إلى حنين، فتبسم رسول الله وقال: تلك غنيمة المسلمين غداً إن شاء الله. ثم سأل: من يحرسنا الليلة؟.. قال أنس بن أبى مرثد: أنا يا رسول الله. فأمره عليه السلام أن يستقبل الشعب حتى يكون فى أعلاه، وقال له: لا نغرن من قبلك الليلة.

فلما أصبحوا سأل النبى: هل أحسستم فارسكم؟.. يعنى ذلك الحارس المستطلع. قالوا: يا رسول الله ما أحسسنا. فجعل عليه السلام يصلى ويلتفت إلى الشعب، حتى إذا

قضى صلاته قال: أبشروا فقد جاءكم فارسكم!.. فجعل ينظر إلى خلال الشجر فى الشعب، وإذا هو قد جاء حتى وقف وقال: إنى انطلقت حتى إذا كنت فى أعلى هذا الشعب حيث أمرى رسول الله فلما أصبحت طلعت الشعبين كليهما فنظرت فلم أر أحداً، فسأله هل نزلت الليلة؟ قال: لا، إلا مصلياً أو قاضى حاجة.

وروى مسلم من حديث عكرمة بن عمار عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: «غزونا مع رسول الله حنيناً فلما واجهنا العدو تقدمت فأعلو ثنية فاستقبلنى رجل من المشركين فأرميه بسهم وتوارى عنى فما دريت ما صنع، ثم نظرت إلى القوم فإذا هم قد طلعوا من ثنية أخرى، فالتقوا هم وصحابة رسول الله فولى أصحاب رسول الله، وأرجع منهزماً».

وحدث أبو عبد الرحمن الفهرى قال: «كنا مع رسول الله فى حنين فسرنا فى يوم قائظ شديد الحر».

وروى محمد بن إسحاق بسنده: «خرج مالك بن عوف بمن معه إلى حنين فسبق رسول الله إليها فأعدوا وتهيئوا فى مضايق الوادى وأحنائه، وأقبل رسول الله وأصحابه حتى انحط بهم الوادى فى عماية الصبح، فلما انحط الناس ثارت فى وجوههم الخيل فشدت عليهم وانكفأ الناس منهزمين لا يقبل أحد على أحد».

وفى روايات شتى أن كميناً من المشركين فاجأ المسلمين من شعبة فى الوادى وقابلهم بنبل كأنه الجراد المنتشر، «وكانوا رماة... لا يكاد يسقط لهم سهم» فأدبرت الخيل وأدبر المقاتلة وراءها لا يلوون على شىء.

وتلك جملة الأخبار عن بدء المعركة جمعناها من مصادر متعددة وأثبتنا بعضها بحروفها، ويتبين من المعارضة بينها أن الهزيمة انكشفت من الهجمة الأولى، لأن الخيل فوجئت فى الطليعة بالنبل المنتشر من الكمين المستتر، فولت منهزمة فى جفلة حيوانية معروفة فى أشباه هذه المواقف، وقديماً ذكر الرواة عن حرب الإسكندر وأمراء الهند أن جفلة الفيلة من الحديد المحمى كانت هى سبب الهزيمة التى أصيبت بها الهند فانقلبت الفيلة وبالاً عليهم وقضت وهى مولية على الكثيرين من فرسانهم ومشاتهم، تطأ بعضهم وتوقع الآخرين وتدفع من حاول الثبات إلى الفرار، ولم تمض على حنين بضع سنوات حتى لقى

الفرس من فيلتهم فى حرب المسلمين مثل هذا المصرع ومثل هذه الجفلة الحيوانية، يوم تعمدها المسلمون بالضرب فى الأعين والخياشيم.

وقد حدث مثل هذا مرة أخرى فى وقعة حنين هذه حين حاول المسلمون أن يكروا بعد الفرار «فصار الرجل يلوى بعيره فلا يقدر على ذلك لكثرة الأعراب المنهزمين، فيأخذ ردعه فيقذفها فى عنقه ويأخذ سيف وترسه ويقتحم عن بعيره ويخلى سبيله ويؤم الصوت».

وهكذا بدأت الهزيمة بفرار الخيل ولحاق المشاة بهم، واختلاط الحابل بالنابل بعد ذلك من الفريقين وتواتر القول أن الطلقاء الحديثين فى الإسلام أدبروا منهزمين عمداً بعد الهجمة الأولى. فأشاعوا الهزيمة فيمن معهم من المهاجرين والأنصار.

ولقد أوشك أهل مكة أن يستقبلوا الأعراب المتقدمين على رضا من بعضهم لحنينهم إلى الدين القديم، وعلى كره من بعضهم لأنفتهم من غلبة الأعراب على قريش، لولا أن تغير مجرى القتال ودارت الدائرة على المشركين بعد لحظات، وكان الفضل فى ذلك لحركة جاءت من قبل المسلمين وحركة جاءت من معسكر الأعراب، وكان مجيئهما فى الموعد المقدور.

فأما الحركة التى جاءت من قبل المسلمين فهى بروز النبى عليه السلام بشخصه الكريم إلى مقدمة الصفوف. فقد ثبت فى ذلك الهول الجارف ثبوتاً يجل عن الوصف، وأخذ زمام المعركة كلها فى يديه ليمضى وحده فى القتال كيفما تصير الأمور.

وكان قد شهد المعركة على بغلته دلدل أو الشهباء، فانحاز إلى اليمين سريعًا ليستطيع التقدم بين تلك الصفوف المتدافعة من مدبرين ومقبلين، والتفت إلى اليمين ونادى: يا معشر الأنصار!.. ثم التفت إلى اليسار ونادى كذلك يا معشر الأنصار!.. فتسامعوا وتجاوبوا وعطفوا – كما وصفهم شاهدو الموقف – عطفة الإبل على أولادها، واجتمع معهم حول رسول الله مئات فى لمحة عين.

وتختلف الروايات فى وصف هذه الحركة المجيدة من بدايتها، فيقول بعضها: إن الناس أدبروا يومئذ عن رسول الله حتى بقى وحده، ويقول بعضها: بل بقى معه نفر قليل منهم أبو بكر وعمر وعلى والعباس وابنه الفضل وأبو سفيان بن الحارث وربيعة بن الحارث ومعتب بن أبى لهب وعبد الله بن مسعود وقليلون لا يتجاوزون الاثنى عشر. وجعل

رسول الله يقول:

أنــا الــنــبــى لا كــذب   أنــا ابــن عــبــد المــطلب

ثم أمر عمه العباس أن يصرخ فى الجيش: يا معشر الأنصار!.. يا أهل السمرة! يا أصحاب سورة البقرة! يا بنى الخزرج!.. وكان العباس رضى الله عنه جهير الصوت يسمع صوته على مسافات بعيدة... وقيل إنه كان يقف على سلع وينادى غلمانه بالغابة فيسمعونه وبينه وبينهم ثمانية أميال..

فلما جلجل صوته بهذا النداء إذا بالأنصار والمهاجرين يتجاوبون: يا لبيك يا لبيك! ويسرعون إلى ناحية الصوت زرافات زرافات حتى تجمع منهم ثلاثمائة أو يزيد فى لحظات، ثم شاعت بين الألوف المؤلفة قدوة الكر والإقبال بعد الفر والإدبار، فإذا بالجيش بقضه وقضيضه يعدو إلى ساحة القتال ويرسل الخيل والمطايا ليملك كل منهم زمام يديه وقدميه. وهانت النفوس حتى استهدفت النساء للموت غير مباليات، ومنهن من لم تكن على صحة فى النظر كالعميصاء أم أنس بن مالك، وكانت وهى حامل تحزم وسطها ببردها، وفى حزامها الخنجر لدفاع من يجترئ عليها..

وكان خالد بن الوليد قد ثنى عنان فرسه بعد التوائه فى الهجمة الأولى، فلم يزل يقاتل حتى سقط مثقلا بالجراح لا يقوى على السير من مؤخرة رحله، وهناك وجده النبى عليه السلام حين خرج يتفقد الجرحى بعد المعركة، فبارك له وواساه.

أما الحركة التى جاءت من قبل المشركين فأعانت على هزيمتهم فذاك أنهم قد غرتهم طلائع النصر، فأقبلوا على الغنائم والأسلاب وشغل الكثيرون منهم بالتقاطها واستلابها عن مطاردة المدبرين. فاتفقت الحركتان فى وقت واحد لتحويل وجهة القتال.

* * *

ويتبين من مقدمات المعركة كلها ومن بوادرها التى أجملناها أن الهزيمة فيها بعد الهجمة الأولى كانت ضرورة مادية لا محيد عنها، وأنها ضرورة لم يكن لخالد يد فيها ولا طاقة باتقائها، لأن أسبابها كلها كانت من وراء تدبيره ومشيئته، وهى كثيرة نجملها ما وسعنا الإجمال:

فمنها أن الروح التى غلبت على جيش المسلمين فى بداية المعركة كانت روح استهانة وقلة اكتراث، وأن الروح التى غلبت على روح المشركين يومئذ كانت روح استماتة وعناد مع تقارب العدد بين الجيشين.

وربما رجحت كفة المشركين فى الدروع والسلاح لما تقدم من حاجة النبى عليه السلام إلى استعارة بعض الدروع والرماح.

و «منها» أن جيش المسلمين كان فيه كثير من الطلقاء، قد يبلغون الألفين وقد يزيدون، وكانوا على دَخَل أو على ضعف يبيتون النية على خذلان النبى. فخذلوه وتبعهم الناس.

و«منها» أن جيش المشركين سبق المسلمين إلى مواقفه فاختار وأحسن الاختيار، وهجم فى الوقت الذى ارتضاه.

و«منها» أن المسلمين كانوا يواجهون الشمس عند الصباح واليوم قائظ لا تقوى فيه العيون على مواجهة شعاعها، فحيل بينهم وبين التثبت والإحكام فى مطلع الصباح إلى أن استوت الشمس فى كبد السماء.

«منها أن استطلاع المسلمين لم يكن على عادته من البراعة والتيقن والإسراع. فقد أبطأ الفارس المستطلع حتى التمسه النبى عليه السلام مرات. ثم جاء ولم يخبر بشىء، ثم ظهر الكمين المرهوب من حيث لا يرونه، فأوقع بالخيل وهى لا تحسب له أى حساب. وهذا مع مهارة المشركين فى الرماية حتى قيل إنهم لا يسقط لهم سهم..

«ومنها» أن بنى سليم أصحاب الخيل التى تولاها خالد كانوا على قرابة من هوازن، وعز عليهم أن يلاحقهم المسلمون بعد استدارة المعركة فكانوا يقولون: ارفعوا القتل عن بنى أمكم! وكانوا مع هذا ضعاف الإسلام، فسبقوا إلى الردة بعد موت النبى عليه السلام، وما زالوا فى موضع الظنة بعد ذلك على عهد الخلفاء.

* * *

فتقدير النبى عليه السلام لخالد بن الوليد إنما هو التقدير الصحيح لأعمال السرايا والجيوش فى مؤتة وبنى جذيمة وحنين، وكأنما هو تقويم الجوهرى الخبير للجوهر النفيس فى

معدنه الخفى غير مصنوع ولا مصقول، وللتاريخ من بعده تقويم الجوهر بما يضفى عليه من جمال الصوغ والضياء.

ونعود هنا فنقول: إن تقدير النبى عليه السلام لخالد بن الوليد لم يكن تقدير المجاملة لمكانه، أو لما يرجى من قومه الأقوياء بنى مخزوم، فإنه عليه السلام لم يجامله فى وصفه الذى طابقته حوادث الأيام، ولم يجامله حين قدم عليه فى القيادة ثلاثة من السابقين فى الإسلام وترك اختياره بعدهم لاتفاق كلمة المسلمين، بل لم يجامله حين خاصم عبد الرحمن بن عوف فغضب النبى عليه السلام وقال له معرّضا: «يا خالد! ذر أصحابى. لو كان لك أُحُدٌ ذهبًا فأنفقته قيراطًا قيراطًا فى سبيل الله لم تدرك غدوة أو روحة من غدوات أو روحات عبد الرحمن».

إنما هو سيد السادة ومربى الرجال والأبطال، يقوم الأعمال بقيمتها، وينزل العظماء فى منازلهم، ولا يمنعه أداء المجاملة أن يجامل بمقدار على حسب السوابق والأقدار.

وقد تولى خالد للنبى أعمالا أخرى فى سنوات صحبته الثلاث، ولكن الأعمال التى اخترناها هى أكبر أعماله فى حياته عليه السلام، وهى أقرب الأعمال إلى وزن كفايته وتقويم معدنه وتمييز خلقه، ولكنه أريد لكل عمل صغير كما أريد لكل عمل كبير، وكانت للنبى - عليه السلام نظرة فى كل مهمة مقدورة ندبه إليها..

* * *

فمن مهامه الصغيرة تسييره فى ثلاثين فارسًا لهدم «العزى» بعد فتح مكة ببضعة أيام، وهى الصنم الذى كان أبوه يتمسح به وينحر له الإبل والغنم، وكان سدنته من بطون بنى سليم الذين قاتلوا مع خالد فى مقاوم شتى، وقد كان معبود القبائل التى لقيها المسلمون فى يوم حنين، وأصله ثلاث شجرات بأرض نخلة يزعمون أن ربهم كان يشتو بها لحرّتهامة ويصيف باللات عند الطائف لبردها.. وظلت مخوفة إلى ما بعد الإسلام فيقول الكلبى: «إن اللات والعزى ومناة لكل منها شيطانة تكلمهم وتراءى للسدنة من صنيع إبليس وأمره» وهى التى أرجف من أرجف من المشركين أن القرآن الكريم يرتضيها ويساومهم على عبادتها، ويجعلون منه قولهم: «اللات والعزى ومناة الثالثة الأخرى. تلك الغرانيق العلا. وإن شفاعتهن لترضى».

فهى مهمة مخوفة من وجهتها النفسية وإن سهلت من الوجهة الحربية، فخرج خالد حتى انتهى إليها فهدمها، وجاء فى بعض الأقاويل أنه: «لما انتهى إليها جرد سيفه فخرجت إليه امرأة سوداء عريانة ناشرة شعرها، فجعل ، فجعل السادن يصيح بها.

«أعزى» إذا لم تقتلى المرء خالدا فبوئى بإثم عاجل أو تنصرى

فأخذ خالدا «اقشعرار فى ظهره» وضربها بالسيف فشقها. ثم لقى النبى فقال له: الحمد الله الذى أكرمنا بك أنقذنا بك من الهلكة. لقد كنت أرى أبى يأتى العزى بخير ماله من الإبل والغنم فيذبحها للعزى ويقيم عندها ثلاثا، ثم ينصرف إلينا مسروراً، ونظرت إلى ما مات عليه أبى وإلى ذلك الرأى الذى كان يعاش فى فضله، وكيف خدع حتى صار يذبح لما لا يسمع ولا يبصر ولا يضر ولا ينفع» فقال عليه السلام: «إن هذا الأمر إلى الله فمن يسره للهدى تيسر له، ومن يسره للضلالة كان فيها»..

وكذلك بلغت العبرة إلى خالد قبل أن تبلغ منه إلى الناس.

* * *

ومن المهام التى ندب لها فى حياة النبى مهمة يمتزج فيها الشك بالأمل والرفق بالشدة والترغيب بالترهيب، لأنها بعثة إلى أناس غلابين مجتمعى الرأى، أولى عصى وبأس وحنكة، ولهم سمة يخالفون بها سمة العرب فى معظم أنحاء الجزيرة، وهم بنو الحارث بن كعب بنجران.

أرسله إليهم وأمره أن يدعوهم إلى الإسلام ثلاثة أيام، فإن استجابوا قبل منهم وإن لم يفعلوا فله أن يقاتلهم. فخرج إليهم وبعث الركبان فيهم يبشرون بالدين الجديد، ويبصرونهم بفضائله وأحكامه، فاستجابوا له ودخلوا فيما دعوا إليه.

وأقبل وفد من عظمائهم على النبى – بأمره عليه السلام – فقال حين رآهم: من هؤلاء القوم الذين كأنهم رجال الهند؟.. قيل يا رسول الله: هؤلاء رجال بنى الحارث بن كعب. ثم سلموا ونطقوا بالشهادتين فقال لهم عليه السلام: أنتم الذين إذا زجروا استقدموا؟ وأعادها ثلاثًا وهم لا يجيبون. فلما أعادها الرابعة قال زعيمهم يزيد بن عبد المدان وفيه شوش وخيلاء: نعم يا رسول الله!.. نحن الذين إذا زجروا استقدموا،

وكررها أربعًا فقال النبى: لو أن خالداً لم يكتب لى أنكم أسلمتهم ولم تقاتلوا لألقيت رءوسكم تحت أقدامكم. فانطلق ابن عبد المدان يقول: أما والله ما حمدناك ولا حمدنا خالداً. قال: فمن حمدتم؟.. قالوا: حمدنا الله عز وجل الذى هدانا بك يا رسول الله!

قال: صدقتم. ثم سألهم: بم كنتم تغلبون من قاتلكم فى الجاهلية؟ قال متغضبين: لم نكن نغلب أحداً. قال: بلى! كنتم تغلبون من قاتلكم. فعادوا يقولون: كنا نغلب من قاتلنا يا رسول الله، أنا كنا نجتمع ولا نتفرق، ولا نبدأ حداً بظلم»

قال: صدقتم، وقفلوا إلى ديارهم، فأرسل إليهم عمرو بن حزم يفقههم فى الدين ويعلمهم السنة ومعالم الإسلام ويأخذ منهم الصدقات.

* * *

وقد شهد خالد مع النبى عليه السلام غزوتين لم يجر فيهما لقاء واشتباك، وهما غزوة الطائف وغزوة تبوك.

وكانت غزوة الطائف تتمة لوقعة حنين، لاذت بها القبائل بعد فرارها وامتنعت وراء أسوارها، وجمعت من الميرة ما يكفيها إلى السنة القابلة، فأحاط المسلمون بالأسوار فرماهم المشركون بالنبل كأنه أسراب الطير، وقتلوا وجرحوا وهم متمكنون فى أسوارهم فبرز خالد لهم يدعوهم إلى النزال ولا يجيبه أحد. ثم صاح به عبد ياليل عظيم ثقيف: «لا ينزل منا أحد ولكن نقيم فى حصننا فإن فيه من الطعام ما يكفينا سنين، فإن أقمت حتى يفنى هذا الطعام خرجنا إليك بأسيافنا جميعًا حتى نموت عن آخرنا»..

فضربهم المسلمون بالمنجنيق وتقدم نفر من الصحابة تحت دبابتين من جلود البقر يفتحون ثغرة فى الحصن. فأرسل عليهم المشركون سكك الحديد المحماة فأحرقت الدبابتين وصدتهم عن السور.

وأمر عليه السلام بكرومهم ونخيلهم فقطعت وهم يصيحون: دعها لله والرحم! فقال عليه السلام: أدعها لله والرحم، واستشار نوفل بن معاوية الديلى فى أمرهم فأجابه: «يا رسول الله! ثعلب فى جحر إن أقمت أخذته وإن تركته لم يضرك»

وفى الطريق قسم النبى غنائم حنين قسمة لم ترض أناساً، فغضب رجل من المنافقين

وصاح فى حضرته: هذه قسمة ما أريدَ بها وجهُ الله! فاحمر وجهه عليه السلام غضباً وقال له: ويحك من يعدل إذا لم أعدل؟ ووثب خالد وعمر يستأذنانه فى ضرب عنقه فأبى وقال: لا.. لعله أن يكون يصلى. فقال خالد: وكم من مصل يقول بلسانه ما ليس فى قلبه؟ فعاد النبى يقول: إنى لم أومر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أن أشق عن بطونهم..

أما غزوة تبوك فقد خرج لها النبى عليه السلام إلى حدود الروم سنة تسع للهجرة فى أعظم جيش شهده المسلمون فى حياته. ومن ثم أمر خالداً أن يذهب إلى دومة الجندل ليأتيه بالأكيدر أميرها، لأنه كان فى وسط الطريق بين الحجاز والعراق والشام عيناً للروم، وحربًا للقوافل، يدين للقسطنطينية بالعقيدة وبالطاعة. ومن خبرة النبى عليه السلام بالقبائل وأحوالها، والأمراء وعاداتهم، أنه قال لخالد: ستجده يصيد البقر.. فكان كما قال..

* * *

وقد ذهب خالد إلى الدومة فى أربعمائة وعشرين فارسًا، فاقتحم الحصن واضطر من فيه إلى التسليم ومنهم الأمير. وجاء به إلى المدينة فصالحه النبى على الجزية وعاهده على الأمان.

وثَمّ بعثة من غير هذا الباب ندب لها خالد ولم يندب لمثلها قط فى عهد النبى ولا عهود خلفائه، وتلك بعثته إلى بنى مراد وزبيد ومذحج باليمن، يدعوهم إلى الكتاب ويعلمهم شريعته وأحكامه.

قيل إنه مكث فيهم أشهراً يدعوهم فلا يجيبونه، وإنه عليه السلام بعث بعده علىّ بن أبى طالب وأمره أن يقفل خالداً ومن معه، فإن أراد أحد أن يعقب معه تركه.

ولا غرابة عندنا فى هذا الذى حدث - إن كان قد حدث على الوجه الذى ذكره الرواة - فإن خالدًا لم يسمع من القرآن ولا من فقه الدين كما سمع الصحابة ممن عاشروا النبى سنين بعد سنين، وإنما هى سنوات قلائل لم يفرغ فيها إلا بضعة أشهر من الغزوات والبعوث. وقد أمّ الناس بالحيرة - فى خلافة الصديق - فقرأ من سور شتى، ثم سلم والتفت إلى الناس معتذراً يقول: شغلنى الجهاد عن كثير من قراءة القرآن!..

* * *

ويجوز أن النبى عليه السلام أرسله فى البعثة ليدر به على الدعوة وليفرغ بعض وقته للمدارسة والمذاكرة بهداية من معه من فقهاء الصحابة، ويجوز أنه عليه السلام تعمد أن يرصده للبطل المشهور عمرو بن معد يكرب - فارس زبيد - ندًّا له يكف من غربه ويلزمه التدبر فى عاقبة نكثه وانتقاضه.

وفى تواريخ البعثة اضطراب قد يشكك القارئ فى بعض وقائعها وأغراضها، فيجوز أيضًا أن البعثة وفقت بعض التوفيق أو كل التوفيق، وأن الرواة قد فاتهم فى هذا الصدد شيء كثير أو قليل من التحقيق.

لكنها كائنًا ما كان مصيرها ومصير عشر من أمثالها - لو ندب إلى عشر من أمثالها - لتسقطن من سيرة خالد ويبقين له ما هو حسبه من البطولة وصدق البلاء. وليكونن بها أو بغيرها خطيباً يبين من منبر التاريخ، وإن لم يحمله قط منبر التعليم.

حروب الردة

لتفصيل الكلام فى حروب الردة مكان غير هذا المكان.

لأننا نتناول منها فى هذا الكتاب ما يتصل بأعمال خالد وتقديم خصائصه ومزاياه. وندع ما عدا ذلك لمكانه من الشروح والمطاولات.

وقد رجعت حروب الردة – كجميع الثورات والأحداث الاجتماعية – إلى أسباب مختلفة ولم تنحصر فى سبب واحد، وربما كان من أسبابها ماخفى على المؤرخين، ولا يزال خافيًا علينا حتى الآن، ولكننا نعتقد أن الأسباب الآتية كافية لتفسيرها وتفسير نصيب خالد منها، على القدر اللازم لفهمها وتصحيح دلالتها.

فمن أسباب حروب الردة تمرد القبائل القوية على قريش، وأقواها القبائل التى تنتمى إلى ربيعة دون مضر. فإنها كانت تتعصب لنسبها، وتأنف أن تعلوها قريش بفضل النبوة والرئاسة، وصرح بذلك طليحة النمرى حين لقى مسيلمة زعيم بنى حنيفة ومدعى النبوة فى اليمامة فقال: أشهد أنك كذاب.. لكن كذاب ربيعة أحب إلينا من كذاب مضر. وكان مسيلمة هذا يقول: إنه أراد أن يأخذ نصف الأرض ويترك نصفها لقريش «ولكن قريشًا قوم لا يعدلون!»

ولم تكن المنافسة بين قبائل مضر أخف ولا أضعف من المنافسة بين مضر وربيعة، فإن المنافسة فى الأقربين أشد وأيقظ من المنافسة بين الأبعدين، كما هو المعهود فى كل قبيل. فكانت ذبيان وعبس وبنو أسد تكره من سيادة القرشيين ما تكرهه القبائل البعيدة. وروى عن عيينة بن حصن مثلما روى عن طليحة النمرى، إذ قال يؤيد المتنبئ طليحة ابن خويلد: «نبى من الحليفين أحب إلينا من نبى من قريش» ويعنى بالحليفين بنى أسد وبنى غطفان.

وكانت قريش تقابل مثل هذه النفرة بمثلها فى أيام خصومتها للنبى وثورتها عليه.

فكان صفوان بن أمية مشركًا فى وقعة حنين، ولكنه أنكر من أخيه أن يفرح بنصر هوازن وحلفائها، وصاح به وهزيمة المسلمين على أشدها: «اسكت فض الله فاك! أتبشرنى بظهور الأعراب؟ والله لأن يربنى رجل من قريش، أحب إلى من أن يربنى رجل من هوازن».

ومن أسباب الردة ثورة البادية على الحاضرة. فما زال من دأب البادية فى كل زمان أن تنقم على الحضارة سلطانها ونعمتها، ولم يشذ عن هذه السنة إلا بضع قبائل فيما بين مكة والمدينة كانت تخشى من سطوة القبائل الكبرى ما ليست تخشاه من سطوة المدينتين، وكانت تحتكم فى خصوماتها إلى وساطة أهل مكة تارة وأهل المدينة تارة أخرى، فتؤثر مودة الجوار بعد طول الخبرة وطول العشرة على بلاء الفتنة فيما بينها إذا زال سلطان مكة والمدينة، ولزم بعض هذه القبائل الحيدة يترقب ما يكون، وأسرع بعضها إلى تلبية الدعوة فحارب فى صفوف المسلمين.

ومن أسباب الردة نجاح الدعوة المحمدية بعد فتح مكة، فإن هذا النجاح أطمع بعض القادة من رؤساء العشائر فى بلوغ مثل هذا المطلب الجليل..

فما هو إلا أن استقر الأمر لمحمد فى الحجاز وما حوله حتى اشرأبت الأعناق للاقتداء به، وظن من ظن أنهم قادرون على ما قدر عليه، وأن المسألة كلها مسألة كهانة وأسجاع وقيادة وأتباع، وقصرت عقولهم عن إدراك سر القوة الأصيلة التى هيأت لمحمد كل ذلك التوفيق العظيم، وهى أن دعوته مطلوبة لإصلاح الأخلاق والمعاملات ونظم الحكم والمعيشة فى العالم كله وليست مجرد نهزة تنتهز لظهور رئيس مطاع وتحقيق مجد مرموق. فنجم الدعاة فى حياة النبى باليمن، ونجد، والبحرين، لمجاراة الدعوة بالحجاز، وجاءت وفاته عليه السلام إثر ذلك فجرأتهم على المجاهرة بالعصيان.

ومن الأسباب التى أثارت القبائل فريضة الزكاة التى فرضها الإسلام على كل مستطيع، فإنها أثارتهم لضنهم بالمال وأنفتهم من الأتاوة وخالفت ما ألفوه حتى من أكاسرة الفرس وقياصرة الروم، لأنهم كانوا يأخذون من هؤلاء أكثر مما يعطون، وكانت الأتاوات التى يرضخون عنها أقل من المنح التى توزع عليهم بين حين وحين باسم الخلع أو الهبات.

بل كان منهم من ضاق ذرعًا بالفرائض فأسقطها الدعاة عنهم جميعًا وأعفوهم من كل فريضة، ومنهم من أنف من السجود فقال لهم طليحة الأسدى: «إن الله لا يصنع بتعفير وجوهكم، فاذكروا الله قيامًا، فإن الرغوة فوق الصريح!»

ويلحق بهذا وأشباهه أن الدين الجديد لم ترسخ جذوره بعد فى نفوس الأقصين من أعراب البادية، ولم تهجر طباعهم بعد عادات الجاهلية فى العبادة والمعيشة، وقد كان المسلمون أعلم بهم من أن يدهمهم بالمفاجأة من قبلهم، لأنهم عرفوا طويتهم قبل ذلك من القرآن الكريم: «قالت الأعراب آمنا قل لم تؤمنوا ولكن قولوا أسلمنا ولما يدخل الإيمان فى قلوبكم».

وليس أقرب إلى المألوف من نكوص هؤلاء على أعقابهم بعد موت النبى وشيوع الفتنة والاضطراب عن أيمانهم وشمائلهم، مع إغراء الدعاة وفرط الحنين إلى القديم، وهو منهم جد قريب.

* * *

وثمة سبب لا يغفل ولو لم تذكره التواريخ بالسند القاطع والنص الصريح، وهو الدسيسة المبثوثة من الدول الأجنبية: كل منها بما يوائمها، وبما هى قادرة عليه..

وهذا يفسر لنا أن النبوة ظهرت من العرب أولياء فارس، ولم تظهر من العرب أولياء الروم، وهم الغساسنة ومن جاورهم من قبائل التخوم السورية، فهؤلاء يدينون بالمسيحية، فلم يظهر بينهم مدع أو مدعية للنبوة، ولكنهم ناوشوا المسلمين على التخوم مناوشة الحرب والوقيعة، أما التغلبيون على مقربة من فارس فلم يكن عليهم حرج من دولتهم التى تحميهم أن يحاربوا دين العرب الجديد بدين آخر، ولم يجدوا حرجًا من عقيدتهم أن يسمعوا إلى المتنبئين والمتنبئات، لأن عقيدتهم هذه كانت مزيجًا من المجوسية والوثنية ومسحة من المسيحية لا يرضاها أتباع كتاب. فلهذا ظهرت بينهم سجاح وسلكت فى التبشير بدينها العجيب مسلكًا لا يستريح العقل إلى تفسيره بغير تفسير واحد، وهو أنها كانت تعمل لغرض سياسى وبإغراء دولة أجنبية، ولا تعمل لغرض دينى ولا بدافع من عندها وعند ذويها.

فسجاح هذه كانت من بنى يربوع أقرب بطون بنى تميم إلى نفوذ فارس، ثم تزوجت

فى أخوالها التغلبيين بالعراق، ثم أنحدرت من ثَم إلى أرض بنى تميم مبشرة بدين جديد بعد موت النبى عليه السلام، وانحدر معها جيش كثيف لا يستهان بأمره، فلما دعت قومها الأولين بنى يربوع إلى هذا الدين طلبوا إليها - على ما يظهر - أن تؤلف بطون بنى تميم جميعًا إلى دينها قبل الزحف على الحجاز لمحاربة المسلمين، فلم يتفق بنو تميم على رأى. وتركتهم إلى اليمامة حيث كان مسيلمة الكذاب يتحفز كذلك للخروج على الإسلام، ولم يكن أوفق لهما بهذه المثابة من التعاهد على غرض واحد وهو: الزحف على الحجاز، ولكنها رجعت إلى قومها وهى تقول: «إنها وجدته على الحق فتزوجته» وإنه سيؤدى لها نصف غلات اليمامة، وقد استنجزته شطر هذا النصف قبل مرجعها إلى بلادها.

فلماذا خالفها بنو تميم؟ ولماذا خالفها مسيلمة؟ ولماذا انحدرت ثم عادت إن كان همها التبشير بدين جديد؟ ولماذا هابها مسيلمة وأعطاها الجزية وهو يأنف أن يعطيها خليفة المسلمين، ويجرد لحربه جيشًا قيل إن عدته أربعون ألفًا وقيل بل ستون ولم يقل عن عشرين ألفًا فى تقدير أحد من المؤرخين؟..

كل أولئك لغز سخيف لا يقبله العقل إلا على وجه واحد، وهو أنها كانت داعية الفرس لتحريض العرب على الثورة، ومن ثم أصابت ما أصابت من الإخفاق أو النجاح.

ويعزز ذلك أنها لقيت فى رحلتها عملاء فارس جميعًا من أبناء البوادى العراقية والنجدية، وأنها عملت حيث كان الأكاسرة حريصين على تجديد نفوذهم القديم..

قال ابن الكلبى، «كانت عير كسرى تُبَذرق - أى تحرس - من المدائن حتى تدفع إلى النعمان بن المنذر بالحيرة، والنعمان يبذرقها بخفراء من بنى ربيعة حتى تدفع إلى هوذة بن على الحنفى باليمامة، فيبذرقها حتى يخرجها من أرض بنى حنيفة، وتجعل لهم جعالة، فتسير بها إلى أن تبلغ اليمن».

وعلى هذا تكون مهمة سجاح قد وضحت على هذه الصورة التى لا لغز فيها ولا تناقض بين أجزائها.

ويكون بنو تميم وبنو حنيفة وغيرهم قد عاملوها المعاملة الواجبة لمن يعتز بصولة الأكاسرة ويخلف المناذرة فى وقت واحد.

فقد هدمت وقعة ذى قار - التى مر ذكرها بأول هذا الكتاب - هيبة الأكاسرة فى الجزيرة العربية.

وساء ظن الأكاسرة بالمناذرة - ملوك الحيرة - الذين كانوا صنائع فارس وكانت فارس تعول عليهم فى إخضاع البادية القريبة والبعيدة، فنكلوا بهم وعصفوا بدولتهم قبيل ذلك بقليل. فأرسل الأكاسرة أميرة لتخلف المناذرة فى هذه المهمة القديمة.

وكان اختيارها من بنى تغلب أدنى شىء إلى المعقول والمنظور، لأنهم أعداء بنى بكر الذين تصدوا لحرب الفرس وهزموهم فى وقعة ذى قار.

ثم كان تردد بنى تميم وبنى حنيفة فى معاملتها أدنى شىء كذلك إلى المعقول والمنظور، لأنهم أصدقاء المناذرة من زمن قديم؛ فلا هم راضون بهوانهم ولا هم قادرون على إغضاب فارس وغاية ما فى وسعهم أن يصرفوا سجاح راضية ويقنعوها بأن الثورة على الإسلام حاصلة، ويكون عملهم جميعًا معقولا على هذا التفسير حيث يعوزه الفهم والوضوح على كل تفسير سواه.

بل نحن نخطر هذا فى أخلادنا فنفهم كيف اشتد التغلبيون فى حرب المسلمين وكيف اشتد المسلمون فى حرب التغلبيين يوم اشتبكت جيوش الإسلام وجيوش الأكاسرة على أثر حروب الردة، فهى شدة لها أوائلها ونهاية جاءت بعد بداية. وكانت رحلة سجاح إلى الجزيرة العربية هى أولى الطلائع فى حرب الأكاسرة والإسلام..

* * *

من جملة هذه الأسباب يجوز لنا أن نقول: إن المدينة ومكة وجيرتها كانت تقف وحدها فى وجه البادية العربية بأسرها، ومن وراء البادية دول كبيرة تنصرها ولا تنصر المدينتين فى هذه المعركة.

وقد كانت حروب الردة طائفًا من الشر لا شك فيه.

ولكنها ولا ريب لم تكن شرًا محضًا خلوًا من جانب المصلحة والفائدة، لأن هذه الحروب وحدت عناصر المدينتين وهما وشيكتان أن تفترقا كل مفترق، فاجتمعت منهما قوة تكافئ كل قوة فى البادية على انفراد، وتيسر لهما من ثم أن تأخذا من البادية قوة تفل قوى الدولة الواقفة لهما بمرصد قريب.

ولولا حروب الردة لكان الخلاف بين المهاجرين والأنصار خليقًا أن يتشعب ويستفحل، وكان الأنصار فيما بينهم مختلفين شيعتين، كبيرتين ثم شيعًا صغارًا فى كل من الشيعتين، وكذلك كان المهاجرون من هاشميين وأمويين ومن سائر بطون قريش، فإن بنى هاشم على انفرادهم لم يجتمعوا بينهم إلى كلمة، ولم يكن لهم مطمع فى الوفاق بينهم وبين بطون قريش الأخرى، ودع عنك الوفاق بين طوائف المسلمين أجمعين.

فلما تحفزت البادية للوثوب على المدينة أحس المسلمون جميعًا أنهم فريق واحد، مهدد بخطر واحد، فاتفقوا بوحى البداهة التى لا موضع فيها لتعمل التفكير وحيلة الحض والتحريض،ولبثوا متفقين ما كانوا بحاجة إلى الوفاق، وما كان الشقاق بينهم مرهوب العواقب محذور الأخطار..

وغنى عن القول أن خالد بن الوليد كان فى وسط هذه الحومة بكل داع من دواعيه النفسية والعقلية: بداعى العقيدة الإسلامية، وداعى العصبية القرشية، وداعى النشأة الحضرية، وداعى القيادة العسكرية، التى قدمته إلى طليعة المجاهدين فى هذا الميدان.

فشهد حروب الردة من أوائلها إلى نهاياتها، وقسمت له الحصة الكبرى فى أهم وقائعها وأعصب أوقاتها، ومنها وقعة واحدة ترجح بها جميعًا وتعد من حروب الإسلام الحاسمة فى صدر تاريخه، وهى وقعة اليمامة التى انتصر فيها بعد هزيمة قائدين.

وتنقسم أعمال خالد فى حروب الردة إلى قسمين: أحدهما الذى اشترك فيه مع كبار الصحابة بقيادة الخليفة فى المدينة وما جاورها، والآخر الذى استقل به أو استقل على الأصح بناحيته العسكرية، وهو أعظم عملية فى هذه الحروب

* * *

توفى النبى عليه السلام وجيش أسامة بن زيد فى الجرف من أرباض المدينة، والفتنة على مقربة منها تتطلع برءوسها. فعاد فريق منه إلى المدينة وأشار بعض الصحابة على الخليفة أن يرجئ مسيرته ويستبقيه عنده فترة من الزمن ريثما يطمئن فى عقر داره خلال تلك الغاشية، فأبى أشد الإباء أن يخلف وصية للنبى أوصى بها فى مرض وفاته، وقال قولته المأثورة: «والله لا أحل عقدة عقدها رسول الله، ولو أن الطير تخطفتنا والسباع من حول المدينة، ولو أن الكلاب جرت بأرجل أمهات المؤمنين لأجهزن جيش أسامة» ونادى

فى المسلمين: ليتم بعث أسامة! ألا لا يبقيّنّ بالمدينة أحد من جند أسامة إلا خرج إلى عسكره بالجرف.

وسار الجيش إلى وجهته كما أراد.

فخلت المدينة من الجند إلا بضع مئات من رجال المهاجرين والأنصار، ودرى أقرب المرتدين إليها بحالها من العزلة وقلة الحامية، فزحفوا عليها وظنوا أنهم إذا هددوها وهى عزلاء، وتوسلوا بالمفاوضة والوساطة فى الوقت نفسه، رجع الخليفة عن عناده، وقبل منهم ما ساوموه عليه، وهو إقامة الفرائض كلها والإعفاء من الزكاة.. أو من الجزية كما سموها!

زحفت مئات من عبس وذبيان وفزارة على المدينة، وتركوا شطراً من جموعهم فى الربدة حيث تلتقى طرق كثيرة على مسافة سبعين أو ثمانين ميلاً من المدينة، وساروا بالشطر الآخر إلى ذى حسا وذى القصة، وهى أقرب محلة إليها، ثم أوفدوا سفراءهم ينزلون بالناس فى بيوتهم ويتوسلون بهم إلى الخليفة أن يقبل منهم ما عرضوا عليه. فأبى إباءه الذى لا ينثنى. وقال: لو منعونى عناقاً لجاهدتهم عليه.

فقفلت الوفود إلى جماعاتها، وعلم الخليفة بقفولها، وأخذ فى التأهب للأمر بحزم العمل وحزم التدبير والحيلة بعد حزم الإيمان. فلم يدع شيئاً قط يستعد به للخطر المنتظر إلا أعده فى أوانه، وعلى الوجه الأمثل فى تلك الأحوال..

فأقام كبار الصحابة على الأبواب، وجمع فى المسجد من استطاع جمعه من المجاهدين، وأرسل العيون على الطرقات من كل سبيل، فما هو إلا أن جاءوه بنبأ القوم ومواضع جماعاتهم المختلفة حتى خرج مع الليل ليضربهم من حيث لا يتوقعون قدومه، ودهم من كان منهم بذى القصة فذعروا لهذه البغتة التى لم تكن لهم على بال، ولاذوا بالفرار حتى لحقوا بأصحابهم فى ذى حسا فصمدوا هناك للمقاومة، وقيل إنهم تحيلوا على إبل المسلمين التى لم تروض للقتال فضربوها بالأنحاء المنفوخة فى وجوهها فنفرت مجفلة من حيث أتت. فأطمعهم ذلك فى الهجوم على المدينة، وظنوا أن أهلها لن يفارقوها يومهم على الأقل بعد هذه الهزيمة..

إلا أن الخليفة لم ينتظرهم معتصماً بالمدينة كما انتظروا. بل خرج بمن معه فى هزيع من

الليل على تعبئة كاملة، وهبط عليهم عند طلوع الصبح وهم على غير أهبة، فلم يلبثوا قليلاً حتى تفرقوا وارتدوا، ولم تقم لهم بعدها قائمة فى هذه المحاولة الفاشلة. لأن جيش أسامة عاد من وجهته قبل أن يسعفهم مدد نافع، فيئسوا أن يأخذوا المدينة عنوة أو غرة بعد ما أعياهم أخذها وهى قليلة الحامية مفتوحة الطريق.

تلك كانت هجمة المرتدين الأولى على معقل الإسلام. ظفر فيها المسلمون لأنهم اعتصموا بحزم الإيمان وحزم التدبير وحزم الوفاق، وانخذل فيها المرتدون لأنهم كانوا على نصيب ضئيل من هذه العدد الثلاث فخانتهم عزيمة الدين وعزيمة الرأى وعزيمة الكلمة الواحدة، ولعلهم لو شاءوا أن يتحدوا كلمة وفعلاً لفاتهم طلاب ذلك، لقلة الكلأ والماء الذى يكفيهم مجتمعين. فكان تفرقهم مما أعان المسلمين عليهم، وعوضهم من قلة الجند رجحاناً يقابلون به الكثرة وهى منحلة الوثاق.

ومن عجائب الخليفة الصديق أنه كان يعتصم بالإيمان حتى يقال لم يدع مزيدًا للحيلة والتدبير، ويعتصم بالحيلة والتدبير حتى يقال لم يدع مزيدًا للإيمان.

ففى هذه الفترة التى شَغَل فيها أولئك المرتدين بالهجوم والدفاع كانت رسله إلى كل مكان تستنفر القبائل الموالية للنجدة، وتمشى بالوقيعة والتفرقة بين القبائل المعادية أو المتربصة للعداء، وتأتيه بالأخبار من كل صوب فيعمل وهو بصير، ويعملون وهم متخبطون مضللون.

فلم تنقض هجمة فزارة وعبس وذبيان حتى استتم له جيش كبير من أبناء القبائل الموالية فى جوار المدينة ومكة، ومعم أسامة وعدته بضعة آلاف من المدربين على القتال.

ومضى رسوله «عدى بن حاتم الطائى» إلى قومه بنى طيئ وهم يترددون: فريق يعصى الخليفة ويلحق بالمتنبئ الأسدى طليحة بن خويلد ومعهم فلول المرتدين عن المدينة، وفريق يحجم عن العصيان ويؤثر البقاء والانتظار. فأرهبهم من مغبة العصيان وساعده على إرهابهم مصير عبس وذبيان وأنذرهم ليهبطن عليهم جيش لا قِبَل لهم بدفعه من تلك الأمداد التى تتدفق على المدينة أو يثوبوا إلى الإسلام وإيتاء الزكاة. فأصغوا إليه، وسألوه المهلة حتى يستخرجوا من لحق بطليحة من إخوانهم لئلا يقتلهم وهم بين يديه، ووعده أن يدخلوا بهم جميعاً فى زمرة جيش المسلمين.

* * *

إلى هنا انتهت المرحلة الأولى التى اشترك فيها المسلمون جميعًا بقيادة الخليفة لمدافعة المرتدين عن المدينة. وكان شأن خالد فيها شأن غيره من أبطال المجاهدين.

وآن أن تبدأ المرحلة الثانية وهى المرحلة التى توزع فيها الأعمال بين القادة فى شتى الميادين، بعد أن تمت العدة وتوافدت الأمداد من مختلف القبائل، واستراح جيش أسامة، وهدأت سورة القيظ وبدأ الخريف، وأصبح من الميسور للخليفة أن يوجه البعوث إلى المتنبئين فى مواطنهم، ليعجل كل منهم عن مراده قبل استفحال خطبه.

ففى أول هذه المرحلة نرى خالدًا «بذى القصة» حيث عقد له الخليفة لواء القيادة على جيش لا تتجاوز عدته أربعة آلاف مقاتل، أكثرهم من أبناء القبائل الموالية، وأقلهم من المهاجرين والأنصار. ووَجهته إلى «بزاخة» من أرض بنى أسد حيث اجتمع بنو أسد وقيس وخلفاؤهم إلى المتنبئ القائم بأمر الردة هناك طليحة بن خويلد.

وربما كان الصحيح أن خالداً إنما استقل فى أول هذه المرحلة بعمل القائد العسكرى فى تنفيذ خطة مرسومة بتفصيلاتها. إذ كانت هـذه الخطة متفقًـا عليها بينـه وبين الخليفـة، وكان الخليفة اليقظان يأمره بما يصطنع خطوة بغد خطوة، وينبهه إلى مواقف القبائل ومواطن الخطر منها على درجاته، ويصحبه إلى بداية طريقه.

قال الخليفة وهو يودع الجيش: «أيها الناس، سيروا على اسم الله وبركته، فأميركم خالد بن الوليد إلى أن ألقاكم. فإنى خارج فيمن معى إلى ناحية خيبر حتى ألاقيكم».

ثم خلا بخالد وأسرَّ إليه أمراً ثم قال: «... عليك بتقوى الله وإيثاره على سواه، والجهاد فى سبيله، والرفق بمن معك من رعيتك، فإن معك أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم، وأهل السابقة من المهاجرين والأنصار، فشاورهم فيما نزل بك ثم لا تخالفهم، فإذا دخلت أرض العدو فكن بعيداً من الحملة فإنى لا آمن عليك الجولة، واستظهر بالزاد وسر بالأدِلاء، وقدم أمامك الطلائع ترتد بك المنازل، وسر فى أصحابك على تعبئة جيدة، واحرص على الموت توهب لك الحياة، ولا تقاتل بمجروح فإن بعضه ليس منه، واحترس من البيات، فإن فى العرب غرة، وأقلل من الكلام، واقبل من الناس علانيتهم وكِلْهم إلى الله فى سريرتهم، وإذا أتيت دارًا فأقحم. فإن سمعت أذاناً أو رأيت مصليًّا فأمسك حتى تسألهم عن الذين نقموا ومنعوا الصدقة، فإن لم تسمع أذاناً ولم تر

مصليًّا شن الغارة، فاقتل، وأحرق كل من ترك واحدة من الخمس.. وإذا لقيت أسداً وغطفان فبعضهم لك وبعضهم عليك، وبعضهم لا عليك ولا لك متربص السوء، ينظر لمن تكون الدبرة فيميل مع من تكون له الغلبة، ولكن الخوف عندى من أهل اليمامة، فاستعن بالله على قتالهم فإنه بلغنى أنهم رجعوا بأسرهم، فإن كفاك الله الضاحية فامض إلى أهل اليمامة.. سر على بركة الله».

ولم يكن الخليفة على نية المسير إلى خيبر، كما أعلن أمام الناس، ولكنه لم يشأ أن يعلن سير الجيش إلى بزاخة نصًّا لمقاصد متعددة: منها أن يخيف بطون طيئ حين يقصد إليهم جيش خالد بقضه وقضيضه فيجهز على بقية التردد التى تهجس فى صدورهم، ومنها أن يقنع طليحة بإرسال من عنده من طيئ لنجدة إخوانهم والدفاع عن بلادهم، ومنها أن يَدْهَم طليحة على غرة وهو يظن أن الجيش متجه إلى غير بزاخة ومنصرف عنها إلى حين، ومنها أن يلزم أهل خيبر أماكنهم فلا يشتركوا فى قتال..

وقد عمل خالد بهذه الخطة فمضى فى طريق بزاخة، ثم عرج إلى اليسار قبل منتصف الطريق كأنه يريد الحملة على ديار طيئ، وهناك وافاه فوق الألف من مقاتلة البطون الطائية، ممن تخلى عن طليحة أو كان على نية اللحاق به بعد قليل.

وقبل أن يستوى خالد فى طريقه إلى بزاخة جاءه أناس من الطائيين فعرضوا عليه أن يكفوه حرب قيس ويعفيهم من حرب بنى أسد، لأنهم حلفاؤهم منذ الجاهلية. ولم يكن عدى بن حاتم على رأى قومه فقال لخالد: « لو ترك هذا الدين أسرتى الأدنى فالأدنى من قومى لجاهدتهم عليه. أفأنا أمتنع عن جهاد بنى أسد لحلفهم؟.. فلم يشأ خالد أن يكره أناساً على حرب من يسالمونهم ولا يتحمسون فى قتالهم، وقال لعدى: لا تخالف قومك، وامض بهم إلى القوم الذين هم لقتالهم أنشط، والله ما قيس بأوهن الشوكتين. امضوا إلى أى القبيلتين أحببتم».

وأتم تعبئته للقتال، وهو على الطريق، فجعل القبائل على ميمنته، والأنصار والمهاجرين على ميسرته، وصمد هو فى القلب مع فئة من هؤلاء وهؤلاء.

أما طليحة فالظاهر أنه كان أحذر من أن يؤخذ على غرة، فإنه قد رصد العيون على فجاج الصحراء فعلم بمقدم المسلمين قبل وصولهم إلى بزاخة، وأعد العدة لكلتا الحالتين

من غلبة وفرار، فعزل أكثر النساء فى مكان أمين، لئلا يقعن فى السبى إذا دارت الدائرة عليه، وأقام حوله أربعين فارساً من أشد فتيان بنى أسد ليدرءوا الهجمة عنه، كأنه كان يعلم أسلوب خالد فى قتاله... إذ كان وكده، قبل كل وكد، أن يتنحى بالضربة المصمية على رئيس القوم فيفت فى أعضاد القوم جميعاً بقتله أو إكراهه على الفرار. ولم يكن طليحة جبانًا يتنحى عن الطعن والضرب وراء غيره، بل كان مشهورًا بالشجاعة، معروفًا عنه أنه أقسم لا يدعوه أحد إلى مبارزة إلا أجابه، ولكنه كان على شجاعته أميل إلى الحذر والحيطة منه إلى المجازفة والحماسة، وكان فى هذه الخصلة نقيض نده الذى يصاوله وينازله بالسلاح والأخلاق، فكان خالد أقرب إلى المجازفة والحماسة منه إلى الحذر والحيطة.

ولقد كانت لجيش طليحة مزيتان هما الكثرة والراحة.. فقد كان جيشه يربو على جيش المسلمين بألف مقاتل أو زيادة، مع وفرة السلاح والركائب، وكان مستريحاً فى دياره على خلاف جيش المسلمين الذى كان عليه أن يلقاه بعد مسير مئات من الأميال فى الأودية والجبال.

ولهذا أوشك أن يفوز بيومه لولا عزمة من عزمات القيادة التى تأتى فى إبانها وتدور برحى الحرب من طرف إلى طرف فى ساعات معدودات.

فلما التحم الجيشان ثبت طليحة وأصحابه ثبات المستميت، وكروا على المسلمين كرة عنيفة، فكشفوا الميمنة ولحقت بها الميسرة. وانقضت هنيهة خُيّل فيها إلى المسلمين أنهم منكسرون لا محالة، وجاء بعض بنى طيئ إلى خالد ينصح له أن يتراجع يومه ليعتصم بجبال طيئ ويستدرج المرتدين إليها. فأنكر عليه نصيحته وزجره قائلاً: لا أعتصم بغير الله!

ثم عول على الكرة فى كبة الجمع ليبلغ النصر أو يموت دونه. فأرسل فرسه وترجل مقاتلاً على قدميه ليملك الحركة حيث يشاء، ويبعث القدوة فى قلوب صحبه، ونادى بالأنصار كأنه ذكر موقف النبى يوم حنين: يا أنصار الله.. فلبوه مندفعين إليه، وثاب أبناء القبائل إلى مواضعهم فاستحر القتل فى الفريقين حتى قتل حرس طليحة جميعاً واستقر هو فى «دثار الكهانة» يوهمهم أنه يتلقى الوحى أو ينتظر المدد من السماء.

وقد كان أتباعه يحبون أن يؤمنوا به مجاملة له، ومرضاة لكبرياء القبيلة فى أنفسهم، فلما

جد الجد أحبوا أن يروا لهذا الإيمان علامة، وسأله زعيم فزارة عيينة بن حصن، وهو من أعز أنصاره وألد أعداء المسلمين: هل جاءك جبريل؟.. قال: لا.. ثم رجع له مستعجلا وحي السماء صائحًا به، وقد نسى فى غضبه أنه يخاطب على زعمه نبيًّا من الأنبياء: لا أبالك، أجاءك صاحبك؟ قال: لا.. فصاح به: حتى متى؟ قد والله بلغ منا. فلما عاوده الثالثة خجل أن يجيبه جوابه الأول، وقال له: نعم.. جاءنى وأوحى إلىّ «أن لك رحى كرحاه، وحديثا لا تنساه..» فسخر من عيينة وقال: «نعم.. هو حديث لا ننساه..» ونادى فى قومه وهو مؤمن بهزيمة طليحة وإدبار أمره، انصرفوا يابنى فزارة.. إنه لكذاب. وجعل طليحة يسألهم من حيرته ما يهزمكم؟ فأجابه أحدهم: أنا أحدثك ما يهزمنا، إنه ليس رجل منا إلا وهو يحب أن يموت صاحبه قبله، وإنا لنلقى قومًا كلهم يحب أن يموت قبل صاحبه».

وأدرك طليحة حذره. وكان قد أعد لهذا الحذر عدته، فركب فرسه وأردف امرأته النوار على راحلة وراءه، ونجا بها وهو ينادى أتباعه: «من استطاع أن يفعل هكذا فليفعل». ومازال فى فراره حتى لحق بالشام..

* * *

وتعقب خالد فلول المرتدين ومن مالأهم من قبائل هوازن وسليم حتى لحق بهم فى «ظفر» حيث أحاطوا بسلمى أم زمل، وهى كأمها من قبلها مضرب المثل فى العزة والمنعة. كان يقال عن أمها، «أعز من أم قرفة» لأنها تعلق فى بيتها خمسين سيفًا كل سيف منها لرجل من ذويها، وقد سبيت فى عهد النبى عليه السلام فأعتقتها السيدة عائشة رضى الله عنها. فذهبت إلى قومها مغضبة لتلك العزة التى انتهى بها عناد قومها إلى الأسر والخدمة، واستثارت حمية الرجل بهذه الغضبة التى تثير الطبيعة البدوية، ولو لم تجتمع إليها بواعث أخرى للغضب والثورة. فدار بين خالد وبين جيشها أحر قتال، ووقفت هى على جمل مشهور تضرم النخوة فى قلوب جندها وترد الشجاعة إلى من أدبر للفرار، ومضى اليوم وهى تكافح ومن حولها زعماء جيشها يكافحون. فجعل خالد مائة من الإبل لمن يصيب الجمل.. وأرسل نخبة من فرسانه عليه فعقروه، وقيل إنهم لم يصلوا إليه حتى قتل من دونه مائة رجل من حماتها المستيئسين.

وقد تفرقت سرايا خالد فى أثر المنهزمين تضربهم وتجمع الأسلاب والغنائم وتدعو إلى الإسلام.

فلم تمض أيام حتى كان قد فرغ من مهمتيه الأولين، وهما الإنذار والتغلب على الفتنة، وبقيت مهمته الأخيرة وهى القصاص والتأديب، ولعلها كانت ألزم وأحزم من قمع الفتنة وتمزيق الجيوش. لأن المرتدين كانوا قد أسرفوا فى التنكيل بالمسلمين الذين أصابوهم بينهم، ولم يتورعوا عن مثله من المثلات التى يتورع عنها المقاتل الكريم، وأصابوا أولئك العزل المنفردين فى غير ساحة حرب وبغير نذير من قتال. فكانت أوامر الخليفة إلى خالد صريحة ألا يني فى عقاب المعتدين «ولا يظفرن بأحد قتل المسلمين إلا قتله ونكل به غيره».

ولم يكن خالد فى مواقف الصرامة والبطش بحاجة إلى توكيد وتشديد فلم يقبل من المرتدين إلا أن يأتوه «بالذين حرقوا ومثلوا، وعدوا على المسلمين». ومثل بهم فأحرقهم بالنيران ورضخهم بالحجارة ورمى بهم من الجبال كفعلهم بأولئك الأبرياء الغافلين عن عدوانهم الذميم. وقاد رؤساءهم فى جوامع الحديد إلى الخليفة ليصنع بهم ما يشاء.

وذلك درس لا شك أنه عنيف مخيف، ولكن لا شك أنه عادل فى شرعة الحرب والسلم، وأنه لازم كل اللزوم فى أحوال كتلك الأحوال.

وأية كانت المثلات بالمرتدين فهى على التحقيق لا تتجاوز المثلات التى تؤمر بها «حملات التأديب» فى عصرنا هذا لمعاقبة أناس لم يقترفوا مثل ما اقترفه المرتدون، ولم يقرنوا فعالهم بجريرة الخروج على عقيدة أو شريعة ولا بتهديد «الدولة» فى كيانها، وهى أحوج ما تكون إلى الأمان والضمان..

ومع هذا وجد من كبار المسلمين من لام خالدًا على الإمعان فى تأديبه على النحو الذى نحاه. فقال عمر بن الخطاب للخليفة منكرًا إحراق الناس: بعثت رجلا يعذب بعذاب الله؟ انزعه!

فلم يستمع إليه الخليفة، لأنه كان فى حنقه على المرتدين لا يستعظم عليهم ضربًا من ضروب العقاب.

ومهما يكن من مجاراة هذا العقاب لطبع خالد. فهذه البعثة، بين بعثاته جميعًا، هى بعثة التنفيذ المحض الذى لا يشوبه نصيب من الاستقلال،اللهم إلا استقلال القائد الكفؤ بحسن القيام على ما وكل إليه..

ومما لا غنى عنه قبل الانتقال إلى أعمال خالد المستقلة فى بقية حياته أن نتحرى نصيبها من إطاعة الأمر ونصيبها من الإقدام على عمل غير مأمور به ولا محمود عليه.

فيجوز لقائل فى هذا الصدد أن يقول إن الخليفة لم يرسم لخالد خطة القتال والمداورة فى بعثة بزاخة وإنما أفضى خالد بهذه الخطة إلى الخليفة فأقرها ووافقه عليها.

ذاك جائز غير ضعيف الجواز، ولكننا على هذا نرجح أن الخليفة هو صاحب الخطة من ألفها إلى يائها، وأن نصيب خالد فيها هو نصيب الإقرار والموافقة، ويميل بنا إلى هذا الترجيح أن نصائح الخليفة فى بدء البعثة قد شملت الصغائر والكبائر، وتناولت تفصيل الحركة كما تناولت تفصيل البيان الصحيح عن مواقف المرتدين فى كل قبيلة وكل ميدان، وأن الخطة قامت على التورية والسبق بالهجوم، وكلاهما مما تعلمه الخليفة الأول بعد طول الصحبة من النبى عليه السلام، إذ كان مأثورًا عنه أنه كان إذا قصد وجهة ورى بغيرها، وأنه كان لا ينتظر الهجوم بل يسبق الهاجمين إليه، وقد جرى الخليفة على ذلك فى دفاعه عن المدينة قبل مسير البعوث وعقد الألوية للقواد.

كذلك تواترت بعض الأقوال بمسير خالد إلى بنى تميم – بعد معركة البزاخة – قبل أن يأتيه أمر الخليفة بالهجوم. قيل إن الأنصار أنكروا عليه المسير إلى بنى تميم وقالوا له: «ما هذا بعهد الخليفة إلينا، إنما عهده إن نحن فرغنا من البزاخة واستبرأنا بلاد القوم أن نقيم حتى يكتب إلينا» فقال لهم خالد: «إن يكن عهد إليكم هذا فقد عهد إلىّ أن أمضى. وأنا الأمير، وإلىَّ تنتهى الأخبار، ولو أنه لم يأتنى كتاب ولا أمر، ثم رأيت فرصة إن أعْلَمْتُهُ بها فاتتنى لم أُعْلِمْهُ حتى أنتهزَها».

بل قيل أكثر من ذلك إنه أغار على اليمامة قبل أن يأتيه الأمر من الخليفة بالإغارة عليها. وهى أهول حروب الردة. بل لعلها أهول من معظم حروب الفرس والروم.

فزعم قوم أنه قال لصحبه بالبطاح: و الله لا أنتهى حتى أناطح مسيلمة. فأبى الأنصار وقالوا: هذا رأى لم يأمرك به أبو بكر، فارجع إلى المدينة. فأصر على رأيه وقال: لا و الله،

حتى أناطح مسيلمة. فرجعت الأنصار فسارت ليلة ثم قالوا: و الله لئن نصر أصحابنا لقد ندمنا، ولئن هزموا لقد خذلناهم. فرجعوا إليه ومضى بهم إلى اليمامة.

والذى لا نزاع فيه أن الخليفة لم يبعث أحدًا غير خالد إلى بنى تميم، ولو بعث غيره لصح أن يقال إنه سار إليهم غير مأمور، ولكنه قال عند مسير جيشه من ذى القصة: «إذا فرغ سار إلى مالك بن نويرة بالبطاح إن أقام له»..

أما اليمامة فقد بعث إليها الخليفة عكرمة بن أبى جهل، ثم رأى حاجته إلى المدد فوجه فى أثره شرحبيل بن حسنة، وأمرهما أن يتلاقيا ولا ينفرد بالهجمة على اليمامة، ثم بدا لعكرمة أن يستأثر بالنصر وحده فهجم على مسيلمة قبل أن يوافيه المدد فنكب نكبة شديدة. وتلقى الخليفة نبأ هذه النكبة فكتب إلى شر حبيل يأمره بالتوقف حتى يأتيه أمره، ولم يقل أحد إن الخليفة وجه قائدًا غير خالد لنجدة شرحبيل، ولا كان معقولا أن يكتفى بشرحبيل بعد هزيمة عكرمة، وقد كان كلاهما عنده فى حاجة إلى التعزيز والإمداد..

وقد تقدم أن الخليفة قد بصر خالدًا بشأن اليمامة قبل خروجه إلى البزاخة.. وليس ثمة من داع إلى الشك فى نسبة ذلك المقال إليه، ولا إلى الشك بعد هذا جميعه فى تولية خالد قيادة الجيش الذى سار إلى اليمامة..

ومن المتواتر جدًّا أن خالدًا لقى الخليفة بعد مسيره إلى بنى تميم، وقبل مسيره إلى بنى حنيفه. لأنه استدعى لسؤاله عن مقتل مالك بن نويرة وزواجه من امرأته ليلى. فهو قد توجه إلى اليمامة مأذونا مأمورًا بعد وقعة البزاخة وبعد وقعة بنى تميم. وعدا هذا كله يكاد يستحيل على العقل أن يقبل أن خالدًا قد تولى حربًا كحرب اليمامة اشترك فيها أعظم الصحابة واستهدف المقاتلون فيها لأكبر الأهوال دون أن يندب لذلك بأمر صريح..

* * *

وغاية ما نفهمه الآن من ورود ذكر اليمامة عند عقد الألوية فى ذى القصة أن الخليفة عرف خطرها فأراد أن يجمع لها أكبر قوة من جيوشه المختلفة.. وأراد فى الوقت نفسه أن يشغل بنى حنيفة بأنفسهم فوجه إليهم عكرمة أولا ثم وجه شر حبيل بعده ليتلاقيا معًا، ويكون خالد قد فرغ فى خلال ذلك من أمر بنى أسد فيدرك سابقيه معززًا لهم إن تعذر عليهم أن يقهروا بنى حنيفة قبل قدومه، وهى خطة تلائم ما عرف عن خطط الصديق

من جرأة وحيطة وسرعة، ولا يمنع هذا أن الخليفة أمر خالدًا أن يرجع إليه بعد كل مرحلة من مراحل هذه البعثة لعله قد استجد شيء فى غيابه.

وفحوى الأقوال الكثيرة التى تتفق بالبداهة على هذا النسق أن خالدًا قد تولى التنفيذ فى ترتيب أعماله وتولاه أيضًا فى أوائل خططه، ولكنه قد وكل إلى نفسه فى الأمور التى يعلمها الشاهد ولا يعلمها الغائب. ومنها موعد المسير وطريقة الهجوم واللقاء. فقام بما وكل إليه جميعًا على أكمل الوجوه وأقمنها بموافقة الخليفة، إلا فى موضعين لكل منهما ارتباط بمسألة زواج: أحدهما فى البطاح والآخر فى اليمامة، فقد تعرض فيهما لمؤاخذة الخليفة ومؤاخذة كبار الصحابة، ولم يرض فيهما عرف الجاهلية أو عرف الإسلام.

وظاهر من مقال الخليفة فى ذى القصة أنه لم يكن على يقين من عداء بنى تميم، أو من ضرورة القتال فى أرضهم، وإنما كان يعلق الأمر على موقفهم عند وصول جيش المسلمين إليهم. وبخاصة بعد وفود زعماء منهم بإعلان الطاعة وإيتاء الزكاة.

وليس أدل من هذا على أن الصديق رضى الله عنه قد كان يعمل عمله فى حروب الردة جميعًا، وهو على استطلاع وثيق وعلم واف بأحوال كل طائفة من المرتدين، وإن من دواعى انتصاره وفاء أخباره بحاجات القتال ونقص أخبار المسلمين عند القبائل المرتدة بعيدها وقريبها على السواء.

فتقديره لموقف بنى أسد منذ البداية كان أصح تقدير.

وكذلك كان تقديره لموقف بنى حنيفة فى اليمامة.

ومثل هذين فى صحة الإلمام بالأحوال المختلفة شكه فى ضرورة القتال بالبطاح، وتعليقه القتال مع مالك بن نويرة على شرط، وتخصيصه مالكًا بالذكر دون الآخرين من زعماء بيوت بنى تميم.

فالواقع فى أمر بنى تميم، كما نعلمه اليوم، أنهم لم ينطووا على أخطار جسام وإن اختلفت فى نياتهم الظنون.

وتاريخهم قبل الإسلام بعشرات السنين يؤكد هذه الحقيقة، ويوحى إلى الخليفة رأيه الذى ارتآه.

كانوا فى أجهل أيام الجاهلية فى طليعة العرب كثرة ومنعة وسعة بلاء ووفرة ماء ومرعى.

وكانوا يجترئون على المغامرات التى تفرق منها القبائل الأخرى، فبطشوا مرة بقافلة عظيمة من قوافل الفرس التى تسير فى رعاية الدولة الفارسية، وحراسة أناس من بنى حنيفة، وفارس دولة ضخمة يهابها العرب، وبنو حنيفة قوم من المنعة والعزة بمكان. فلما استشار كسرى بعض زعماء بنى حنيفة فى عقوبتهم قال له: «إن أرضهم لا تطيقها أساورتك وهم يمتنعون بها، ولكن احبس عنهم الميرة، فإذا فعلت بهم ذلك سنة أرسلت معى جندًا من أساورتك، فأقيم لهم السوق، فإنهم يأتونها. فتصيبهم عند ذلك خيلك».

وكذلك لم يتمكن منهم كسرى حتى منع حاجياتهم من أرض الحضارة فى سنة مجدبة... واستعان عليهم بمن يستدرجهم إلى مكان ينالون فيه..

ولكن بنى تميم على هذا كانوا مثلا من الأمثلة النادرة على عجائب الحظوظ فى هذه الدنيا، فقلما ظهر للمعتبرين أن الكثرة والسعة والمنعة والوفرة تنقلب أحيانًا إلى نقمة تشبه القلة والضنك والخوف، كما ظهر ذلك فى شأن بنى تميم.

فقد كانت كثرتهم وسعة بلادهم واكتفاء كل بلد منها بمراعيه وأمواهه سببًا لتفرقهم وتصدع وحدتهم وتعذر الإجماع بينهم على رئيس واحد. فتشعبوا بطوناً يدين كل بطن منها لرئيس، بل بيوتاً فى البطن الواحد يبلغ من تنافسهم أن يتحاربوا ويتوارثوا التراث، ويصبح التوفيق بينهم أعسر من التوفيق بين أحدهم والغريب الطارئ عليهم من الأعداء والأصدقاء..

وكان هذا شأنهم يوم ظهرت الدعوة المحمدية، فلما بلغتهم خاف كل منهم أن يرفضها فيكون منافسوه الواقفون له بالمرصاد حرباً عليه. فأجاب رؤساؤهم الدعوة، وأقرهم النبى على رئاستهم، ومنهم الزبرقان بن بدر على الرباب، وقيس بن عاصم على مقاعس والبطون، ووكيع بن مالك على بنى حنظلة، ومالك بن نويرة على بنى يربوع، وهم بيت من بيوت حنظلة الكبار.

وكل أولئك رجال من ذوى الرأى الراجح والقول النافذ والمناقب «الشخصية»... ويمتاز من بينهم مالك بن نويرة بمزايا أخرى لم تتفق لواحد منهم، وهى اللباقة والظرف

والفصاحة وحسن المحاضرة، مع الوسامة والصباحة وأناقة الزى والشارة، وهى فى جملتها تلك الصفات التى ترشح صاحبها لمآسى البطولة فى قصص الحياة، من واقع أو خيال.

كانت فيه خيلاء وجفلة، وكان متلافاً لا يبقى على مال، وكان فارساً شاعراً محدثاً ظريف المدخل على من يعرف ومن لا يعرف، ومن ذاك أنه كان يقصد الحى من أحياء الأعداء وله فيه أسرى يريد فكاكهم بالفدية المصطلح عليها، فلا يحدث أهل الحى هنيهة حتى يخلبهم بحديثه، ويأسرهم بظرفه وحسن سمته، فيردوا إليه أسيره بغير فدية، ويفترقوا وهم أصفياء..

وكان مالك هذا أول من قصدت إليه سجاح المتنبئة عند منحدرها من الجزيرة. فصرفها عنه بلباقته إلى ملاقاة البطون الأخرى من بنى تميم. ولعله زين لها أن تجمعهم إليها عصبة واحدة، لعلمه باستعصاء ذلك عليها وعلى غيرها... وإنها وشيكة أن تنتقم له منهم إن هى دعتهم إلى الالتفاف بها فلم يجيبوها.

ولم تزل الأنباء - قبل مقدم سجاح وبعد منصرفها - يتابع بعضها بعضًا بانكسار المرتدين وغلبة المسلمين عليهم. إلا ما كان من هزيمة عكرمة فى اليمامة وانتصار بنى حنيفة عليه، وهو انتصار لا يسر بنى تميم، لشدة المنافسة بينهم وبين بنى حنيفة.

فلما أخذ الخليفة فى عقد الألوية وتسيير البعوث كان بنو تميم على حالهم المعهود من التفرق والمراقبة بعضهم لبعض على توجس وحذر، فسبق بعضهم إلى المدينة بحصته من الزكاة، وتأخر بعضهم حتى نزل خالد بأرضهم فدفعوها إليه، وتحير مالك بن نويرة فلم يعزم على الحرب ولم يؤد الزكاة.

وأغلب الظن أنه بدد ما جمع من الصدقات فى هباته وملاهيه، ثم ليم فى ذلك فأجاب لائمه بأبيات قال فيها:

وقلت خذوا أموالكم غير خائف ولا ناظر فيما يجىء من الغد
فإن قام بالأمر المخوِّف قائمُ منعنا وقلنا الدِّينُ دَيْنُ محمد

يعنى أن محمدًا هو صاحب الدين وصاحب الزكاة، وقد مضى محمد، فليس لأحد بعده أن يتقاضاه.

وهو على الجملة موقف رجل مسرف «لا يبالى ما يجىء من الغد» كما قال: وليس بموقف عناد وتحفز لقتال.

فلما نزل خالد بالبطاح لم يجد أمامه أحدًا يلقاه بزكاة أو يلقاه بقتال. فعسكر حيث نزل وأرسل السرايا فى أثر هذه البطاح. فجاءته بمالك بن نويرة فى نفر من بنى يربوع. فحبسهم ثم أمر بقتلهم، وحدث بعد ذلك أنه تزوج بامرأة مالك ليلى أم تميم، وكانت من أشهر نساء العرب بالجمال، ولا سيما جمال العينين والساقين. يقال إنه لم ير أجمل من عينيها ولا ساقيها.

وتضطرب الروايات هنا أبعد اضطراب... وأصعبه أن تهتدى منه إلى مخرج متفق عليه.

فمن قائل إن السرايا وجدت بنى يربوع يصلون وسمعت الأذان، ومن قائل: لم نر صلاة ولم نسمع بأذان.

ومن قائل إن الأسرى قتلوا لأن الليلة كانت باردة ونادى مناد من قبل خالد «أن دافئوا أسراكم» ففهم الحراس أنه يريد القتل لأنهم من بنى كنانة والمدفأة بلهجتهم كناية عنه.

ومن قائل إن مالكًا قتل بعد محادثة حامية جرت بينه وبين خالد. ثم تضطرب الروايات فى نقل حديثهما فلا يدرى له نص صحيح فقيل إن مالكًا صرح بأنه لا يعطى الزكاة وإنما يقيم الصلاة. فقال خالد: أما علمت أن الصلاة والزكاة معًا لا تقبل واحدة دون الأخرى؟ فقال مالك: قد كان صاحبك يقول ذلك. فاتخذ خالد قوله دليلا على تبرئه من النبى وقال له: أو ماتراه لك صاحبًا... ثم حمى الجدل بينهما حتى أمر بقتله.. ونسجت الخرافة بعد ذلك نسيجها الذى لا يتماسك لوهيه. فزعموا أن خالدًا أمر برأسه فجعل مع حجرين وطبخ على الثلاثة قدرًا بأكل منه. وأن شعر مالك جعلت النار تعمل فيه إلى أن نضج اللحم ولم يفرغ الشعر! وهى خرافة تُرْوَى لتدلنا على شىء واحد: وهو وجود المحنقين الراغبين فى التشهير بخالد وتبشيع أعماله وإيغار الصدور عليه.

وقيل إن مالكًا لمح فى عينى خالد الإعجاب بامرأته فصاح به: هذه التى قتلتنى. فقال له خالد: بل الله قتلك برجوعك عن الإسلام.

ويذهب بعضهم إلى أكثر من هذا فيزعمون أن هوى خالد لها سابق لحرب الردة، وفى ذلك يقول أبو نمير السعدى:

قضى خالد بغيًا عليه بعرسه وكان له فيها هوى قبل ذلك

وقيل إن خالدًا توعد مالكًا بالقتل، فقال له مالك: أو بذلك أمرك صاحبك؟ قال خالد: وهذه بعد تلك؟ ثم تكلم أبو قتادة الأنصارى وعبد الله ابن عمر فى أمره فكره خالد كلامهما. وعاد مالك يقول له: ياخالد: ابعثنا إلى أبى بكر فيكون هو الذى يحكم فينا. فقال خالد: لا أقالنى الله إن أقلتك. وتقدم إلى ضرار بن الأوزر أن يضرب عنقه. ويزيدون على ذلك أن خالدًا دعا أبا قتادة الأنصارى وعبد الله بن عمر إلى حضور عقد الزواج بليلى بعد مقتل زوجها فأبيا، وأشارا عليه أن يكتب إلى أبى بكر، فلم يستمع إليهما.

وغضب أبو قتادة فأقسم لا يجمعه بعد اليوم وخالدًا لواء واحد، وقفل إلى المدينة غير مستأذن من قائده، فلقى الخليفة ولقى عمر بن الخطاب، فكانت غضبة عمر أشد وأعنف. وطلب إلى الخليفة أن يعزله وأن يقيده قائلا: إن سيفه فيه رهق. فلم يجبه الخليفة وقال له: يا عمر، تأول فأخطأ. ارفع لسانك عن خالد. فإنى لا أشيم سيفًا سله الله على الكافرين..

ولكنه وَدَى مالكا واستدعى خالدًا إليه. فلما قدم إلى المدينة رأى عمر منه ما زاده غضبًا وشدة فى طلب القَوَد منه. رآه قد دخل المسجد وعليه قباء وقد غرز فى عمامته أسهمًا. فنهض إليه فنزعها وحطمها وصاح به: قتلت امرءًا مسلمًا تم نزوت على امرأته، والله لأرجمنك بأحجارك»..

فتركه خالد ولقى الخليفة فاعتذر إليه. فعنفه الخليفة وأمره أن يفارق ليلى، ثم عفا عنه واستبقى خدمته. فعاد خالد إلى المسجد وفيه عمر... فبادره حين رآه مناجزًا: هلم إلىّ يا بن شملة... فعرف عمر أن الخليفة قد عفا عنه فلم يكلمه ودخل بيته.

وحسبنا من هذه الأقوال جميعًا أن نقف منها على الثابت الذى لا نزاع فيه. والتابت الذى لا نزاع فيه أن وجوب القتل لم يكن صريحًا قاطعًا فى أمر مالك بن نويرة، وأن مالكًا كان أحق بإرساله إلى الخليفة من زعماء فزارة وغيرهم الذين أرسلهم خالد بعد

وقعة البزاخة، وأن خالدًا تزوج امرأة مالك وتعلق بها وأخذها معه إلى اليمامة بعد لقاء الخليفة..

وأوجب ما يوجبه الحق علينا بعد ثبوت هذا كله أن نقول: إن وقعة البطاح صفحة فى تاريخ خالد كان خيرًا له وأجمل لو أنها حذفت ولم تكتب على قول من جميع تلك الأقوال، لأنها لم تضف إلى فخاره العسكرى كثيرًا ولا قليلا، وأهدفته لملام أحمد ما يحمد منه أن له عذرًا فيه، يقبله أناس ولا يقبله آخرون.

* * *

يجب تقرير هذا عند تقدير خالد لأنه الحق الذى لا يعلو على ميزانه ميزان فى ترجيح الرجال والأعمال.

ولأن الرجل الذى يخشى على قدره من تقرير أخطائه رجل لا يستحق أن يكتب له تاريخ. إذ معنى الخشية عليه من أخطائه أنه فقير فى الحسنات والعظائم، وأنه من الفقر فى هذا الجانب بحيث تعصف الأخطاء بعظائمه وحسناته. ولم يكن خالد بن الوليد كذلك، بل كانت له فى ميزان العظمة والعبقرية كفة راجحة، ولم يكد يرحل عن البطاح حتى اتصلت له حلقات من كبار الأعمال توزع على عشرة رجال، ويجد كل منهم فى نصيبه كفايته من الفضل والرجحان.

خرج من البطاح إلى اليمامة.

خرج من وقعة لا خطر لها إلى وقعة لها الخطر الأكبر فى حرب الردة وفى حرب الإسلام كافة خلال أيام الخلفاء الراشدين.

ويرجع هذا الخطر إلى قوة بنى حنيفة أصحاب اليمامة، ودهاء رئيسهم مسيلمة بن ثمامة، ومنعة بلادهم بالجبال والأودية ووفرة الماء والثمرات.

هابها أصحاب سجاح وقالوا لها حين حدثتهم بغزوها: إن مسيلمة قد استفحل أمره وعظم.. فلم تهون عليهم خطبها حتى استنزلت لهم سجعات من وحيها المزعوم تقول فيها: «عليكم باليمامة. دفوا دفيف الحمامة، فإنها غزوة صرامة، ولا تلحقكم بعدها ملامة».

وكان مسيلمة هذا رجلا قصيرًا أخنس الأنف أفطسه، شديد الصفرة زرى الهيئة، ولكنه على ما يؤخذ من أخباره كان على ذكاء مفرط وحيلة نافذة، وكان من أولئك الدهاة الذين يعوضون بالحيلة ما فاتهم من الهيبة والرواء، فاشتهر بالخلابة والقدرة على استهواء النفوس من الرجال والنساء، فمن خلابته أن النبى عليه السلام أرسل إليه رجلا من قراء القرآن ليعلم أهل اليمامة أحكام الإسلام ويبصرهم بالفرائض والعبادات وهو نهارُ الرجال. فما لبث الخبيث أن استغواه حتى شهد له أنه يوحى إليه وأنه سمع النبى عليه السلام يقول إنه قد أشركه معه وشهد له بالنبوة.. وقد استغوى سجاح – وهى تدعى النبوة – حتى شهدت بنبوته وتزوجته وانصرفت من بلاده بنصيب من الهدايا يقنعها بالذهاب ولا يضمن لها التكرار. وكأنه كان على حظوة عند النساء وخبرة بأهوائهن وأساليب مرضاتهن. فقد كان نساؤه يحببنه ويجزعن عليه، وصاحت إحداهن ساعة أن قتله وحشى بن حرب مولى جبير بن مطعم: «وا أمير الوضاءة. قتله العبد الأسود...»

وخليق بهذا أن يظن به السحر، وتنتظر منه الخوارق بين الجهلاء. لأنهم يرون سلطانه ولا يعلمون مأتاه. فيخيل إليهم أنه سر من الغيب أو معونة من الجنة والشياطين، وهو على هذا كان يعين حيلته بما استطاع من صناعة الشعوذة والألاعيب التى كان يحذقها بعض الكهان فى بلاد العرب والعجم، فكان قبل ادعائه النبوة يطوف بالأسواق، ويتعلم «النيرنجيات» حيث سمع بأساتذتها المبرزين فيها. ولم يكن فى طبيعته بمعزل عن طبائع السحرة وأدعياء الغيب. فقد قيل فى وصفه وهو يتكهن: «إنه إذا اعتراه شيطانه أزبد حتى يخرج الزبد من شدقيه»... والأغلب الأرجح أن به صرعًا كأولئك الذين يشبهونه فى الخلائق والدعاوى، ومنهم الذين يعالجون «الاستهواء» من المستهوين أو الوسطاء.

ولسلطانه على أبناء قبيلته أحبوه ووثقوا به وأطاعوه. فتأتى له أن يجمع منهم أربعين ألفًا أو ستين. وهو عدد ربما ارتفعت به المبالغة أو الجهل بالتقدير، ولكنه لا يهبط إلى ما دون العشرين قياساً على ما وصفت به معركة اليمامة من الهول وكثرة القتلى والجرحى بين الفريقين.

وقد كان مسيلمة يحسب الحساب لأمور كثيرة يوم تصدى لدعوى النبوة ومقاومة الإسلام. فكان يقاتل ثمامة بن أثال، ويناوش بنى تميم لما بينهم من الذحول والمنافسات، ويتوقى شر سجاح وقومها التغلبيين ودولة الأكاسرة من وراء التغلبيين، ويعلم أن أشياعه

– من بيوت بنى تميم – قد يخذلونه ، وأن الذين دانوا بالإسلام بين قومه عيون عليه، وأن الخليفة لا يمهله ولا يجهل أخباره. فتحيل على مهادنة خصومه، وفرغ جهده لحرب المسلمين وحدهم، وحشد كل ما وسعه من جند وسلاح، ثم تقدم بهم فى عجلة إلى موقع يقال له عقرباء فى طرف بلاده على مقربة من بلاد بنى تميم.

ولم يكن خالد يجهل الرجل الذى سيلقاه، ولم يكن يخفى عليه أن الحرب فى العراء غير الحرب فى بلاد تكتنفها الجبال وتقام فيها الأبنية والأسوار، فتوجه إلى اليمامة فى أهبة كافية بالقياس إلى أهبة المسلمين لأعدائهم فى صدر الإسلام.

ولا يعلم على التحقيق عدد الجيش الذى كان معه فى عقرباء، ولكنه على التقريب يجاوز الثمانية الآلاف ولا يقل عنها. لأن جيشه بالبزاخة نحو خمسة آلاف، يضاف إليهم جيش شرحبيل بن حسنة الذى سبقه ولبث فى انتظاره، ولا يقل عن ألفين، ويضاف إليهم الردء الذى أرسله الصديق وراءهم بقيادة سليط بن عمرو ليحمى ساقتهم، وغير هؤلاء من تطوع للحرب مع المسلمين من بنى تميم وبنى حنيفة، فهم فى جملتهم يجاوزون الثمانية الآلاف ولا ينقصون عنها، إن نقصوا، إلا بقليل.

لكن مكان القوة من هذا الجيش الصغير إنما هو كثرة الصناديد من أبطال الصحابة المشهورين فيه. فقد كان جيش المسلمين لا يجاوز فى عدته نصف جيش اليمامة، ولكن كان فى عدة وافية من أفذاذ الرجال الذين يقومون بالألوف.. فهم وأعداؤهم بهذه المثابة كفؤان متناظران.

وكانا كفؤين متناظرين فى صدق النية، واتقاء العار من الهزيمة: هذا تأخذه غيرة الحرم وهذا تأخذه غيرة الدين... وقد قال ابن مسيلمة لقومه وهم يتقدمون إلى المسلمين: «هذا يوم الغيرة. اليوم إن هزمتم تستنكح النساء سبيات وينكحن غير حظيات. فقاتلوا عن أحسابكم وامنعوا نساءكم»

فليست تعوز الخصمين حرارة الخصومة ولا شواحذ الغيرة ولا صلابة العزم ولا توسم الأمل فى النجاح.

ولم يزل خالد يتقدم إلى وجهته على تعبئة كاملة كعادته فى معظم غزواته.. وكان يتلقى الأخبار عن مسيلمة وحركاته فى كل مرحلة من مراحل الطريق. ولعله استعظم القوة

التى حشدها مسيلمة فى عقر داره فجنح إلى الأخذ بالأحوط وكتب إلى الخليفة فى طلب المدد عسى أن يحتاج إليه بعد الجولة الأولى من جولات القتال، فأمده الخليفة بجرير بن عبد الله البجلى. ولكنه التحم بجيوش مسيلمة قبل أن يصل إليه، فلقيه منصرفًا من اليمامة.

ولما دنا من أرض مسيلمة مرت مقدمة جيشه فى الليل بكوكبة من الفرسان بين الأربعين والستين.. عليهم مجّاعة بن مرارة من زعماء بنى حنيفة وأصحاب الرأى والمنزلة فيهم، وكأنه كان خارجًا لا ستطلاع أمر المسلمين، ولكنه أنكر ذلك وزعم أنه ذهب «لأخذ ثأر له فى بنى تميم وبنى عامر». فلما سئلوا عن دينهم قالوا: منا نبى ومنكم نبى. فأمر خالد بضرب أعناقهم جميعًا واستبقى مجاعة عسى أن ينتفع بمنزلته فى قومه أو بعلمه بالحرب والمكيدة، كما قال لبعض الرواة.

ونـزل خالـد على كثيب فى مـواجهة مسيلمـة. ثم التحم الفريقـان «وقـاتلت بنـو حنيفـة قتالا لم يعهد مثله» واندفعت فى هجمتها حتى دخلت خيمة خالد من وراء العسكر، وفيها امرأته أم تميم ومجّاعة بن مرارة مقيد بالأغلال.. فهم بعض الحنفيين بقتلها لولا أن حماها منهم مجّاعة، وأوصاهم بها خيرًا، وهو يقول: نعمت الحرة هذه، وعليكم بالرجال.

شوهد فى كثير من المعارك بين المسلمين وأعدائهم فى الصدر الأول أن الكرة الأولى غالبًا ما تكون للمشركين، ولا سيما حين تجتمع لهم مزية العدد والراحة حيث يختارون مكان القتال، وهى مشاهدة لا تستغرب ولا تخالف العهود. لأن «الدفعة الحيوانية» أبدًا لها الوثبة الأولى مع العدد الكثير وراحة الجسد. وإنما الثبات للعقيدة التى يلوذ بها الإنسان بعد المراجعة، وللضمير الذى يثوب إليه المرء بعد الامتحان. وليس من شأن العقيدة أن تكون – كالدفعـة الحيوانيـة – وثبة عـاجلة، وهجمة سـوارة فاشلة. وإنمـا شأنها أن تحاسب النفس، وتستعيد قواها، وتستخرج ذخيرتها من أعماقها. فهى لهذا تنفع صاحبها فى المحنة وبعد تبين الشدة. وبخاصة حين يحتاج إليها بعد الجولة الأولى.

وهذا الذى حدث فى عقرباء كما حدث فى وقائع شتى.

فبعد الجولة الأولى التى فازت بها «الدفعة الحيوانية» برزت العقيدة إلى الطليعة

وجاءت بمعجزاتها، وهى معجزات لا يتخيل العقل أن نفسًا إنسانية تقدم عليها بغير اعتقاد.

انكشف الأعراب أولا فى أول صدمة، وتزلزلت أقدام أناس من الأنصار والمهاجرين من طغيان الجموع الهازمة على السواء.

فبادر خالد إلى تنظيم جيشه على وضع جديد. فميز المهاجرين وميز الأنصار وميز الأعراب وكل بنى أب على راية... وصاح بهم: أيها الناس تمايزوا حتى نعرف من أين نؤتى.

ثم عول على الموت كما وصاه أبو بكر فوهبت له الحياة ووهب النصر.

حمل على القوم حتى تجاوز الصفوف وجعل يخاطب مسيلمة ويعرض عليه النصف والرجوع إلى الحق ومسيلمة يروغ منه. ثم نادى بشعار المسلمين. يا محمداه.. ودعا إلى المبارزة وهو يصول ذات اليمين وذات الشمال ولا من يثبت له فى مجال، ولم يبال أن ينظر إلى ما وراءه لأنه ترك كل شىء فى تلك الساعة إلا أن يتقدم أمامه. ولم يزد على أن قال لجيرته أو من نسميهم اليوم أركان حربه: «لا أوتين من خلفى». ومضى إلى تقدم بغير رجوع، إلا رجوع ظافر مختار.

وظهرت فى مقام الهول فضيلة الصناديد من كبار الصحابة. فحفر ثابت بن قيس لقدميه فى الأرض إلى أنصاف ساقيه وهو يحمل لواء الأنصار بعد ما تحنط وتكفن. فلم يزل ثابتًا حتى قتل فى مكانه.

وصاح زيد بن الخطاب. أيها الناس عضوا على أضراسكم واضربوا فى عدوكم وامضوا قدمًا. ثم أقسم: والله لا أتكلم حتى يهزمهم الله أو ألقى الله فأكلمه بحجتى، فكانت آخر ما فاه به فى ذلك اليوم.

وحمى البراء بن معرور وأخذته العرواء التى كانت تأخذه حين تتعالى الوغى ويحتدم القتال. فكان كأنما يبحث عن الموت ويهرب من الحياة.

وتجاوبت الساحة بأصوات الأبطال يوصى بعضهم بعضا وينظر بعضهم إلى بعض وهم ينقضون على أعدائهم ويتنادون بينهم: يا أصحاب سورة البقرة.. يا أنصار الله..

كما ناداهم النبى عليه السلام فى يوم حنين. فاستحى كل منادًى منظور المكان منهم فى ذلك المشهد العظيم أن ينكص على عقبيه، ولم ير منهم إلا قتيل فى موضعه، أو زاحف إلى الأمام.

وما هى إلا سويعات حتى انكشف أصحاب مسيلمة منكسرين، وهرول مسيلمة نفسه إلى حديقة مسورة من ورائه. وقد سميت فى ذلك اليوم بحديقة الموت لكثرة من قتل فى طريقها وكثرة من قتل فيها.

ولاحت من البراء نظرة إلى جانب الباب فإذا هم قد أوشكوا أن يغلقوه عليهم. فصاح بإخوانه: يا معشر المسلمين، ألقونى عليهم من فوق سورها. فاحتملوه فوق الحجف[1] ورفعوها بالرماح حتى بلغت أعلى السور فسقط منه على القوم بعد تردد، ولم يزل يعالج باب الحديقة حتى فتحه، وقد تواثب أفراد من المسلمين إلى جانبه فأعانوه.

وقتل فى هذه الهجمة مسيلمة كما قتل محكم بن الطفيل أكبر أعوانه ومشيريه، فاضطرب بنو حنيفة ووقعوا فى الحيرة وهم فى هزيمة لا يشار فيها برأى ولا يصغى فيها إلى مشير. فشغلوا عن باب الحديقة وأعيِنَ المسلمون على اقتحامه من داخلها وخارجها. فحق لتلك الحديقة فى ذلك اليوم أن تسمى حديقة الموت، لأنها اشتملت فى يومها على ألوف من القتلى، وبلغ عدد القتلى جميعًا فى ذلك اليوم بين ساحة القتال وحديقة الموت عشرات الألوف، أقلهم فى تقدير المقدرين عشرة آلاف من بنى حنيفة وستمائة من المسلمين، وأكثرهم فى تقدير المقدرين يرتفعون إلى سبعين ألفاً أو ثمانين ألفًا حنفيين، وألفين مسلمين، وهو رقم لا يدل على نبأ صحيح، ولكنه يدل على هول صحيح سرى فى الآفاق من أنباء تلك المعركة التى ذهبت فيها نخبة من أجل الصحابة وأفقه الفقهاء، ومن جراء مقتلهم فى هذه المعركة أمر الخلفاء بجمع القرآن فى المصحف بعد أن فنى الكثيرون من حافظيه، وخيف أن يفنى آخرون.

ثم بعث خالد الخيول حول اليمامة يلتقطون ما حول حصونها من مال وسبى، وعزم على غزو حصونها جميعًا ولم يكن بقى فيها إلا النساء والصبيان والشيوخ والكبار، فاقترح عليه مجاعة أن يذهب إليهم لينزلهم صلحاً عن معاقلهم. ثم خدعه وأخلص لقومه،

---

(١) الحجف: التروس من جلد بلا خشب.

لأنه أمر النساء والكبار أن يلبسوا الحديد ويبرزوا من رءوس الحصون، فنظر خالد فإذا الشرفات ممتلئة من رءوس الناس. فآثر المصالحة لما رأى بالمسلمين من الجهد «وقد كلوا من كثرة الحروب» واشترط أن يسلموا وأن يكون له نصف السبى والغنائم، ثم نزل من النصف إلى الربع حين أوهمه مجّاعة أن القوم قد رفضوا ما قبل منه.

فلما اطمأن المعتصمون إلى الحصون من بنى حنيفة فتحوا أبوابها، فلم يرَ فيها إلا امرأة أو صبى أو شيخ فان، أو رجل هزيل لا يرجى لقتال.

وقد يتوقع من خالد أن يغضب علىً مجّاعة ويبطش به بطشة خالدية. بعد هذه الخدعة التى اجترأ عليه بها علانية وهو فى قبضة يده.

لكننا فى الحق لا نعجب إذا هو لم يغضب. لأن عمل مجّاعة لا مراء عمل نبيل يكبره فى النفوس النبيلة، ويبعث لها فيها الإعجاب الذى يكفكف من شرة كل غضب سريع. فهو عمل ينضح بالمروءة والغيرة على العشيرة، وكلتاهما فضيلة يعرفها خالد، ويعرف للمتصف بها قدره، فلا يذله ولا يجزيه شر الجزاء.

وقصارى ما بلغ من غضبه أنه نظر إليه نظرة شزراء وصرخ به: ويحك.. خدعتنى. فلم يجبن مجاعة ولم يعتذر، وإنما قال: هم قومى!

وما نحسب إلا أن الإعجاب بمجاعة قد حبب إلى خالد أن يصهر إليه ويوثق الصلة بينه وبينه: زعيم شجاع جميل الرأى حسن التدبير غيور على قومه، عليم كما وصفوه بمكيدة الحرب والسلم. فهو خير صهر فى تلك القبيلة التى يفخر «سيف الله» بدخولها على يديه فى الإسلام، ويطيب له أن يعزز صلة الدين بصلة البيت والنسب. وقد طاب له المقام بتلك البقاع المخصبة التى يزينها له النصر كما يزينها له طيب الهوا. فاختار له واديًا من أوديتها الجميلة يسمى الوبر، ليقيم فيه حتى يؤمر بوجهة أخرى، وخطب مجاعة فتاة له موصوفة بجمالها، وهى خطبة لا ترفض، ولكنها قد تقبل وتؤجل. لأن مجّاعة علم من «ليلى» مذ كان سجيناً فى خيمتها كيف تلقى الخليفة وأصحابه خبر زواجها بخالد فى ساحة القتال، فأشفق هذا الرجل المحنك البصير بالعواقب من عاقبة تسوؤه وتسوء ابنته وتسوء خالدًا فى جريرته. فاستمهله ولم يعجل بتلبية طلبه، وقال له: «مهلا.. إنك قاطع ظهرى وظهرك معى عند صاحبك»... ولكنه لم يلبث أن علم إصرار خالد حتى أجابه ورأى أن عاقبة القبول أسلم من عاقبة الإباء.

وكان خالد قد تلقى من الخليفة أمرًا باستئصال كل من يحمل السلاح من بنى حنيفة، فعادت الرسل إلى الخليفة بخبر الصلح وخبر الزواج، فحسب أن الأمرين مقترنان، واشتد به السخط على عمل خالد بما وقع فى نفسه من حسبان، فكتب إليه أعنف خطاب وجهه إلى قائد من قواده أو وال من ولاته، وسماه «ابن أم خالد...» وقال له فى خطابه: إنك لفارغ. ونعي عليه أنه «ينكح النساء وبفناء بيته دم ألف ومائتى رجل من المسلمين لم يجف بعد».

وقد كتب خالد إلى الخليفة يعتذر فى أنفة وعزة: «أما بعد: فلعمرى ما تزوجت النساء حتى تم لى السرور وقرت بى الدار، وما تزوجت إلا إلى امرئ لو عمدت إليه من المدينة خاطبًا لم أبل. دع أنى استثرت خطبتى إليه من تحت قدمى، فإن كنت قد كرهت لى ذلك لدين أو دنيا أعتبتك. وأما حسن عزائى على قتلى المسلمين فوالله لو كان الحزن يُبْقى حيًّا أو يرد ميتًا لأبقى حزنى الحى ورد الميت، ولقد اقتحمت فى طلب الشهادة حتى يئست من الحياة وأيقنت بالموت. وأما خدعة مجّاعة إياى عن رأيى فإنى لم أخطئ رأى يومى، ولم يكن لى علم بالغيب، وقد صنع الله للمسلمين خيرًا، وأوْرثهم الأرض وجعل لهم عاقبة المتقين»

وقال فى رسالة أخرى: «إنى لم أصالحهم حتى قتل من كنت أقوى به وحتى عجف الكراع ونهك الخف ونهك المسلمون بالقتل والجراح».

وقد ظن خالد أن الخليفة لم يكن ساخطاً عليه ذلك السخط لولا إصغاؤه «للأعيسر» كما كان يسمى عمر بن الخطاب. ويخيل إلينا أن سخط الخليفة لم يكن ليبلغ به هذا المبلغ لولا أن زواجه ببنت مجّاعة سبقه ذلك الزواج الذى خبطت فيه الظنون بعد مقتل مالك ابن نويرة.

وعلى هذا انقضى واجب خالد بن الوليد فى حروب الردة كأحسن ما ينقضى هذا الواجب، وقام وحده بأوفر سهم فى هذه الحروب، لأنه قمع أخطر الفتن فى الجزيرة العربية من أقصاها إلى أقصاها... فقمع فتنة بنى أسد وحلفائهم، وخطرها أنها كانت أقرب الفتن إلى المدينة ومكة. وقمع فتنة بنى حنيفة، وخطرها أنها كانت فتنة القبيلة الأقوى والعديد الأكثر بين العرب قاطبة. وحقق كل ما ندبه له الخليفة وكل ما اتفقا عليه، سواء من الخطط التى نظرا معًا فى تفصيلاتها أو من الخطط التى عرف خالد غاياتها

وابتدع لها ما ارتآه من أساليبها فى أماكنها وأوقاتها. ولم يخالف رغبة الخليفة إلا فى موضعين لها، كما أسلفنا، علاقة بمسألة زواج:

أما الأولى - وهى زواج ليلى امرأة مالك - فقد تقدم تلخيصها، وجملة الرأى فيه - كما أسلفنا - أنه عمل يحوج خالدًا إلى الاعتذار والتفسير، وأنه صفحة كان خيرًا له لو طويت من تاريخه، فما فيها مزيد افتخار، وفيها على أهون القولين مقام اعتذار.

وأما الأخرى فلا يسع أحد أن يسهو فيها عن عجلة خالد إلى الزواج على غير عادة القوم فى ميادين القتال.

ولكن لا يسع أحد كذلك أن يتعدى هذا إلى مظنة تمس نية الرجل، أو تجعل صلحه لبنى حنيفة متصلا برغبته فى الزواج ببنت مجّاعة زعيم الحنفيين فى صلح اليمامة.. ذلك بعيد، جد بعيد..

لأن بنت مجاعة كانت بين يديه، وكان فى وسعه أن يقتل أباها نقمة من خداعه إياه، ومرضاة للخليفة الذى أمره باستئصال من يحمل السلاح فى القبيلة، فهو يقتله ولا معتبة عليه.

ولم يصالح خالد بنى حنيفة وهم مجمعون على قبول صلحه. بل كان منهم زعيم له أنصار وأتباع - هو مسيلمة بن عمير - أبى أن يذعن لشروط مجّاعة ومضى يهتف فى قومه: «يا بنى حنيفة، قاتلوا عن أحسابكم ولا تصالحوا على شىء، فإن الحصن حصين والطعام كثير، وقد حضر الشتاء».

فلما عارضه مجاعة وذهب برأى الأكثرين من قومه تمادى مسيلمة بن عمير فى لجاج الخصومة وانسل إلى فسطاط خالد يريد أن يفتك به ويشيع بموته الفتنة التى لاتؤمن عقابيلها فى معسكره ومعسكر بنى حنيفة، فتنبه خالد إليه وسأل: من هذا المقبل فعرفوه به فقال: أخرجوه عنى. فلما أخرجوه وجدوه يخفى السيف فى ثيابه، فلعنوه وأوثقوه فى الحصن وأخذوا عليه عهدًا لا يقربن بعدها من فسطاط خالد حتى تنتهى بيعة قومه على الإسلام. ولكنه غدر بعهده وأفلت بالليل إلى عسكر خالد مصرًّا على قتله، فلما أدركوه دون بغيته أجال السيف على حلقه فقطع أوداجه وآثر الموت على التسليم.

ومع هذا بقيت بلدة «القرية» ووادى العرض فى اليمامة لم يشملها الصلح الذى شمل العسكر فى عقرباء. فلم تكن مطاولة القوم خيرًا من المصالحة فى حالة كتلك الحال، ولم يكن فى طاقة المسلمين أن ينهضوا للمطاولة بعد أن قتل منهم من قتل وجرح من جرح، ومضى على أكثرهم عدة شهور بين مشقة الهول والبلاء، ولم يكن إرجاء التسليم مأمون المغبة إذا استثيرت نخوة الحنفيين وفيهم من يعاند فى الخصومة ذلك العناد، ولقد يكون المستسلمون منهم أسرع إلى النكسة يوم يشهدون بأعينهم سبى النساء «غير حظيات» وقَتْل القادرين على الحرب من فتية وكهول.

فدواعى خالد إلى الصلح أظهر وأرجح من أن يعتسف معها داع آخر غير معقول ولا مستساغ، وإن الداعى الذى لا يعقل ولا يستساغ هنا هو التعليل بزواجه من فتاة اليمامة. وأيسر شىء لديه أن يسبيها بعد قتل ذويها، ثم يكون ذلك أدنى رضا الخليفة وتحقيق ما أمر به، قبل أن يطلع على الموقف فى اليمامة من جملة نواحيه.

وبعد فليحسب زواج خالد كله فى أى سجل يشاء أن يحسبه الحاسبون. ففى سجل المفاخر الإسلامية شىء يحسب له بعد حرب اليمامة لن يطول فيه خلاف.. فتلك أول حرب ظهر فيها للمسلمين مصداق قول النبى عليه السلام: «إنه سيف من سيوف الله». وكان الخطر على الدين الجديد من العرب أنفسهم ومن أمم «الأعاجم» التى تحيط بالبلاد العربية.

وقد رأينا نصيب خالد من وقاية الإسلام فى أرضه، وهو أوفى نصيب. وسنرى نصيبه من مراس الخطر الآخر وما هو بأكبر الخطرين، ولكن نصيب خالد فى مراسه كان أوفى النصيبين.

الفتوح

فى سبع سنين قصار فتح العرب كل ما اقتحموه من بلاد الفرس والروم.

فتقوضت فى الشرق دولة الأكاسرة، وتداعت فى الشمال والغرب دولة القياصرة، وزال سلطانها من الشام وفلسطين ومصر وإفريقية الشمالية، وشغلت بنفسها زماناً عن الفاتحين وما فتحوه.

عجيبة من أعظم عجائب التاريخ.

لا يبرح المؤرخون حتى أيامنا هذه يأتون فى تعليلها كل يوم بعلل جديدة، ويفيضون فى شرح السوابق واللواحق على النحو الذى يفسر العجب بالمألوف ويرد الدهشة الجامحة إلى قرار البحث والتدليل.

وهو جهد لا نعرض له فى هذا الكتاب، ولا يلزمنا هنا أن نستقصيه ونحاول البت فيه.

إنما يعنينا منه شىء واحد هو تقدير عمل خالد، وتقدير الكفاية التى تضطلع بذلك العمل، وليس تقدير ذلك بعسير ولو بقى التاريخ منشعب اللسان فى استقصاء علل الهزائم التى نزلت بالفرس والروم.

فالأسباب التى قضت على الفرس والروم بالهزيمة – كائنة ما كانت – ليست هى الأسباب التى قضت للعرب بقيام دولة وانتشار عقيدة، لأن استحقاق أناس للزوال لا ينشئ لغيرهم حق الظهور والبقاء.

كذلك لم يكن انتصار العرب على الفرس والروم لأنهم عرب وكفى، ولم تكن المسألة فى لبابها كفاحاً بين الأجناس والعناصر بما لها من المزايا وما فيها من العيوب.

فقد كان فى أرض الدولتين عرب كثيرون يدينون لها بالطاعة، وينظرون إليهما نظرة الإكبار والمهابة، وكان القادرون منهم على القتال أوفر من مقاتلة المسلمين عدداً وأمضى

سلاحاً، وأقرب إلى ساحات العراق والشام من أولئك النازحين إليها من جنوب الجزيرة العربية.

وقد كان هناك عرب كثيرون انهزموا أمام المسلمين، وهم كذلك أوفر في العدد والسلاح، وأغنى بالخيل والإبل والأموال.

فهي نصرة عقيدة لا مراء.

وينبغي أن يذكر المؤرخون هذه المسألة من جانبيها ولا يقصروا النظر فيها إلى جانب واحد.

فاستحقاق النظم القائمة للضياع هو في وقت واحد سبب ضياعها، وهو حجة العقيدة التي تخلفها وتنتصر عليها في ساحة النزاع.

إذ كان أدعى الدواعي لظهور عقيدة جديدة أن النظم القائمة قبلها لا تتماسك ولا تصلح لحماية ذمارها.

فإذا قيل إن العقيدة الجديدة قد انتصرت لتداعي النظم التي اصطدمت بها فليس هذا تعليلاً وكفى، ولكنه كذلك شفاعة وحجة للظهور، ودليل على أنها حق صالح كأصلح الحقوق الكونية، وأنها علاج عالمي مطلوب جاء في الأوان.

لكن القول بانتصار العقيدة هنا لا يغني عن كل قول.

أفكل مناضل متذرع بالعقيدة صالح في تلك الآونه للانتصار؟

ينبغي أن يكون الأمر كذلك لو كان تعليل النصر بالعقيدة مغنياً عن كل تعليل.

ولكن الواقع أن الذين انتصروا بالعقيدة كانوا رجالاً أولي خبرة وقدرة يؤمنون بها ويعرفون كيف يتغلبون بها على أعدائها.

وقد أفل أناس وأخفق آخرون.

فانهزم عكرمة بن أبي جهل وشرحبيل بن حسنة حيث انتصر خالد في اليمامة.

وخرج خالد وعياض بن غنم لفتح العراق من طرفيه في وقت واحد، فسار خالد من

نصر إلى نصر، ومن توفيق إلى توفيق، ولبث عياض يتردد ويقدم خطوة ثم يحجم أخرى. حتى أدركه خالد بالمعونة فى دومة الجندل.

وسبق خالد بن سعيد خالد بن الوليد إلى الشام فغرر به الروم، حتى استدرجوه إلى مرج الصفر فأوغل وراءهم، ولم ينتظر حتى تدركه أمداد الخليفة التى أرسلها إليه تباعاً بقيادة عكرمة بن أبى جهل والوليد بن عقبة وذى الكلاع الحميرى، فأحدقت به جحافل الروم وأوشكت أن تلتف به من ورائه، ولولا يقظة الخليفة وتلاحق أمداده فى أوقاتها لقضوا عليه.

فلا انحلال الدولتين الفارسية والرومانية بمغن عن الاعتراف للعقيدة المنشئة بحقها فى الغلب وحاجة العالم إليها فى تلك الآونة.

ولا العقيدة المنشئة بمغنية عن فضل رجالها وحماتها، وكفاية سواسها وقادتها.

فهى عقيدة منشئة يذود عنها حماة قادرون، وكان خالد بن الوليد فى طليعة هؤلاء الحماة.

* * *

سبقه اسمه إلى أطراف الدولتين فحارب أعداءه بهيبته قبل أن يحاربهم بسيفه، وكانت هذه أول مزية لاختياره، وأول فضل يحسب له فى ميزانه ويضاف إلى قيادته، ويعمل عمله فى نفوس أعدائه، كما يعمل عمله فى نفوس أتباعه.

قال صاحب دومة الجندل لقومه حين سمع بمسيره إليه: «أنا أعلم الناس بخالد. لا أحد أيمن طائراً منه، ولا أصمد فى حرب، ولا يرى وجه خالد قوم أبداً قلوا أو كثروا إلا انهزموا عنه. فأطيعونى وصالحوا القوم..»

وكان الرجل من العرب يعيش فى الشام ويهجر موطنه الأول، ولكنه يسمع باسم خالد ويتلقى أنباءه من وراء المهامة والدروب، فما هو إلا أن ينضوى إليه حتى يوقن بيمن طائره ويسرع إلى طاعة أمره علياً بأنه لا يأمر الأمر إلا وهو قادر على إنجازه. كما قال الشاعر الفارس عمرو بن العمرد:

إذا قال سيف الله كروا عليهم ... كررت بقلب رابط الجأش صارم

ويتناقل الرواة قصة لقائد من قادة الروم لا تقل فيها دلالة الخيال عن دلالة الحقيقة، إن كانت القصة من توليد الخيال..

قيل إن قائداً من قادة الروم اسمه جورج برز له فى أكبر وقائع الشام وسأله: أحق أن الله أنزل على نبيكم سيفاً من السماء فأعطاكه فلا تسلّه على قوم إلا هزمتهم؟

قال خالد: لا..

قال: فبم سميت سيف الله؟

قال: تابعناه فقال أنت سيف من سيوف الله سلّه على المشركين، ودعا لى بالنصر فسميت سيف الله. فأنا من أشد المسلمين على المشركين.

وكل هذا شبيه بأن يكون.

فإن لم يكن نبأ خالد قد وصل إلى كل عدو من أعدائه فالذى لا ريب فيه أن أتباعه كانوا على علم بنبئه، فكانوا على ثقة بسداد رأيه ومضاء عزمه، وكانوا يطمئنون إليه فيعملون معه عمل المطمئن إلى نجاح سعيه، وهذا هو فضل القيادة الصالحة فى نفوس الأتباع.

* * *

خرج خالد وزملاؤه للقاء الفرس والروم بعد وفاة النبى عليه السلام بسنة واحدة، وبعد حروب طالت فى الجزيرة العربية عدة سنين.

فلو كانت الفتن وموت الزعماء قاضية على كل أمة كيفما كان السبب، وكانت البيئة، لكان مصاب العرب كمصاب الفرس والروم فى تلك الأعوام: فتن وفتن، ونبى مات، وملك قتل، أو قيصر شاخ. فهؤلاء وهؤلاء فى العلة سواء.

لكن حركة العرب حركة إنشاء ونماء.

وحركة الروم والفرس حركة اختلال وتقويض.

وجسمُ الفتى اليافع مضطرب لا يستقر على حال.

وكذلك جسم الهرم الذاهب، ولكن شتان اضطراب واضطراب

* * *

كانت علل الفناء قد اصطلحت على بنية الدولة الفارسية يوم قصد خالد إلى تخومها من ناحية السواد.

وكانت علل مثلها - وإن كانت أخف منها - قد اصطلحت على بنية الدولة الرومانية الشرقية، يوم قصدها زملاؤه القواد من شتى نواحيها قبل الشام والبلقاء. وهذه خلاصة وجيزة عن الحالة يومئذ فى الدولتين.

يقول شراح الحضارات: إن الحضارة تبتدئ بمعنى روحى قليل المظهر ثم تنتهى إلى مظهر ضخم يتراخى به الزمن حتى لا تبقى فيه بقية من المعانى الروحية.

وهذه هى الحالة التى كانت عليها دولتا الفرس والروم عند اصطدامها بالدعوة الإسلامية فى نهضتها الأولى.

ففى بلاد الفرس خفت صوت الدين ومضى على ظهور «زرادشت» مصلحهم الدينى الكبير زهاء أربعة عشر قرناً، فرث الصالح من مذهبه وازداد الطالح سوءاً على سوء.

وخلف فى بيت الملك أمراء ضعفاء بعد آبائهم الأقوياء، فشغلوا بالنزاع بينهم وأسقطوا هيبتهم فى بلادهم وغير بلادهم، ونهكوا قوة الدولة فى فتن وبيلة وخيم، وترف أوبل وأوخم. وما برحوا فى طغيانهم وتهافتهم حتى ولى الملك أردشير، فرأب صدعه وأوشك أن يعيده إلى سابق مجده وتركه فى القرن الثالث للميلاد وهو موحد بعض التوحيد، بالقياس إلى ما كان عليه قبل ذلك من التفرق بين العشائر والرؤساء.

ثم نكس النكسة الأخيرة وشاع فيه الفساد علوًّا وسفلاً قبيل ظهور الدعوة الإسلامية. وكان الملك المعاصر للنبى عليه السلام كسرى أبرويز، فثار به ابنه شيرويه فقتله ونكل بذوى قرباه، وأعقب طفلاً صغيراً فلم يلبث أن قتل وتولى بعده قائد الجيش شهريزار، فنفس عليه القواد والعظماء منزلته المغصوبة فقتلوه وولوا عليهم بوران بنت كسرى أبرويز، فلم تتم فى الملك سنة وبضعة أشهر حتى ماتت وخلفها فتى من بنى عمومتها الأبعدين، ثم قتل وخلفته بنت أخرى لكسرى أبرويز فقتلت، وقتل من بعدها، إلى أن تولى الأمر يزدجرد ابن شهريار والدولة تترنح من فرط الإعياء.

ومنيت فى أيامها الأخيرة بضربة قوية فى حروبها الخارجية: وهى غلبة الروم عليها

وانتزاع مصر والشام منها ورد حدودها إلى دجلة والفرات بعد أن طغت على حدود آسيا الصغرى، وقبل هذا منيت بضربة دون هذه الضربة فى القوة والضخامة، ولكنها أشد منها أثراً فيما نحن بصدده من أحوال الدعوة الإسلامية: تلك هى ضربة الهزيمة «بذى قار» التى تقدم وصفها فى أول هذا الكتاب. فإن هذه الهزيمة أطمعت فيها العرب بعد مخافة وهيبة، ولا سيما العرب المقيمين بجوار ذى قار وأرباض السواد، ومنهم جند خالد وزملاؤه الذين تقدموا لمنازلة الفرس فى العراق.

وساءت من جراء ذلك كله شئون الأمة فى الديار الفارسية، فتهالك العلية على المظاهر، وانغمسوا فى الترف، واستكثروا من النفائس والأموال وشغلوا عن سواد الأمة. فشاع بينهم الفقر والضنك والتذمر وبغض الحكام، ولم يعلموا فيم هم مسوقون، وعلى أى شىء يتقاتلون ويتفانون. وهى حال تؤذن بالتصدع والانهيار لأول صدمة تهز الأركان والجدران.

ومن أعجب العجب أن يفطن رجل كالمغيرة بن شعبة لدلالة هذه الحال وهى معدودة فى عصرنا من دروس علوم الاجتماع والتاريخ التى لا يصل إليها الباحث إلا بعد مقارنة واطلاع واسع مستفيض، ولكنه العجب الذى يفسر لنا ما هو أعجب منه، وهو وفرة نصيب العرب يومئذ من أقطاب الرجال ذوى الحنكة والنظر البعيد، وإنهم قد ظفروا لأنهم كانوا على أهبة فى هذا الباب حرمتها كلتا الدولتين، على كثرة من بهما من الزعماء أصحاب المظاهر والشارات.

دخل المغيرة بن شعبة على رستم بطل الفرس المشهور فى التواريخ والأساطير فجلس معه على سريره، فاستكبر أعوانه هذه الجرأة من ذلك البدوى «المغرور» واجتذبوه من مكانه على السرير فى عنف شديد. فما اهتز المغيرة ولا استكان ولا زاد على أن قال: لقد كانت تبلغنا عنكم الأحلام ولا أرى أسفه منكم. إنا معشر العرب لا يستعبد بعضنا بعضًا، فظننت أنكم تواسون قومكم كما نتواسى – أى نتساوى – فكان أحسن من الذى صنعتموه معى أن تخبرونى أن بعضكم أرباب بعض، إن هذا الأمر لا يستقيم فيكم ولا يصنعه أحد. وإنى لم آتكم ولكن دعوتمونى... اليوم علمت أنكم مغلوبون، وأن ملكاً لا يقوم على هذه السيرة ولا على هذه العقول»

كلمات من ذهب..

لو كان فيمن سمعها من الفرس من يضارع المغيرة لقال فى جوابه: «واليوم علمنا أنكم غالبون، وأن أحق الملك أن تقوم له قائمة، لهو الملك الذى قوامه من هذه السيرة وهذه العقول».

على أن الأمم لا تقفر من الأحلام كل الإقفار فى أظلم ظلمات الجهالة والإدبار، فقد وزن «يزدجرد» شأن العرب والفرس بالميزان الصحيح حين قال لرستم: «إنما مثلهم ومثل أهل فارس كمثل عقاب أوفى على جبل يأوى إليه الطير بالليل، فتبيت فى سفحه فى أوكارها. فلما أصبحت تجلت الطير فأبصرته يرقبها، فإن شد منها شيء اختطفه. فلو نهضت نهضة واحدة ردته، وأشد شيء يكون فى ذلك أن تنجو كلها إلا واحدة. وإن اختلفت لم تنهض فرقة إلا هلكت، فهذا مثلهم ومثل الأعاجم».

وصف صادق من جملة أطرافه.

وعلامة من علامات الانحلال ألا ينفع الوصف الصادق، ولا يهدى العارفين به إلى رأى متفق عليه، كما يعرف المرض ولا ينتفع بعرفانه فى العلاج إذا شارف الجسم الفناء. ولهذا اتفق يزدجرد ورستم على الصفة ولم يتفقا على العمل النافع مع العرب، فافترقا مختلفين.

وكما بقيت فى أهل فارس يومذاك مسكة من حلوم، بقيت لهم كذلك مسكة من مروءة الفرسان، أو على الأصح مسكة من المراسم والمأثورات الحربية، وهم أولع أمة بالمراسم والمأثورات كافة.

وهذه المسكة شرف للقادر ولكنها بلاء على العاجز المتخاذل، كأنها الوثبة التى تعجل بالهلاك إن وثبها المريض الهزيل وإنها فى الأقوياء لمعوان على المجد والطموح.

فربما أقدموا على القتال وهم يحسبون أنهم مقدمون على مباراة فى حلقة صراع، ينظرون عدوهم حتى يصل إليهم كما ينظر المصارع نده حتى يأخذ بعضديه فى أمان.

ففى وقعة الجسر أقبل بهمن جاذويه ومعه راية الفرس الكبرى من جلود النمور طولها عشر أذرع وعرضها ثمان، وبين يديه جيش يربو على جيش المسلمين مرات. فأرسل إلى

أبى عبيد قائد المسلمين يقول له: إما أن تعبروا إلينا وندعكم والعبور، وإما أن تخلوا بيننا وبينه. فتعجل أبو عبيد وعبر النهر على جسر نصبوه، والفرس ينتظرون.

مثل هذا المراسم جهل بحقيقة الحال، وحقيقته أنه صراع حياة وموت بين أمتين، وليس بحلبة سباق أو حلقة رهان بين لاعبين فى ملهاة.

* * *

أما دولة الرومان الشرقية فقد كانت فى حال لا تفضل حال جارتها وعدوتها فى محنة العقيدة ومحنة النزاع على الملك والولاية.

ضرب المثل بالجدل البيزنطى فى التاريخ القديم والحديث من جراء الخلاف على المذاهب الدينية فى الدولة الرومانية الشرقية، وكان معظم أبناء الولايات من النساطرة واليعاقبة يخالفون مذهب الدولة الرسمى ويمقتون رجاله ويرمونهم بالهرطقة والوثنية، وكان القائلون منهم بالطبيعة الواحدة للسيد المسيح أقرب إلى الإسلام منهم إلى المسيحية.

وابتذل عرش الملك بالقتل والاغتصاب فضعف الولاء له فى نفوس العلية وقواد الجيوش. وقد استقر الأمر زمنا للقيصر هرقل الذى حضر عهد النبى عليه السلام ولكنه شقى بالفتن فى أخريات عهده وركبته الوساوس فى شيخوخته ولا سيما بعد بنائه ببنت أخته، فاعتقد أنه مغضوب عليه مستحق لعقاب السماء.

ومن كان من الرعية ذا دين غير المسيحية فهو ساخط ناقم كاليهود والوثنيين. لأن رؤساء الكنيسة والدولة اتهموهم غير مرة بالتواطؤ على فتح البلاد مع المغيرين عليها من الفرس والبرابرة. فأثخنوا فيهم قتلاً وتشريداً حتى قيل إنهم كانوا يفتكون فى المذبحة الواحدة بعشرات الألوف من الرجال والنساء والأطفال.

وعاشت فى ظل الدولة الرومانية قبائل غسان وجذام وكلب وتنوخ وغيرها من قبائل العرب فكانت تعينها وتستعين بها على منافساتها من قبائل المناذرة فى الحيرة. ولكن غلبة الفرس تارة وغلبة الروم تارة أخرى على تلك البقاع ضيع الثقة بالدولتين، وهيأ نفوس العرب لقبول دعوة جديدة ولا سيما الدعوة التى تأتيهم من أبناء جنسهم فى الجزيرة العربية وبها اعتزازهم على العجم كافة من فرس وروم. واتفق فى تلك الفترة انقطاع

الهبات التى كان رؤساء العشائر يتلقونها من قياصرة الدولة وولاتها فبرموا بها وودوا لو انقلبوا عليها ساعة يأمنون كيدها ويوثقون الصلة بينهم وبين خصومها.

ويؤخذ من رسالة فجيتيوس Végétius فى علم الحرب أن نظام الجيش الرومانى فى الغرب والشرق كان قد تعاوره الخلل قبل ظهور الدعوة المحمدية بأكثر من قرنين. ففى هذه الرسالة يقول فجيتيوس – الذى يعدونه إمام أساتذة الحرب بين الغربيين – إن «اللجيون» قد وهن واضمحل ويذكر من أسباب وهنه واضمحلاله أن مناصبه الكبرى أصبحت تمنح للمحاباة والصنيعة بعد أن كانت وقفاً على الكفاية والخدمة الطويلة وأن عامة جنوده يهربون منه ويؤثرون الخدمة فى الفرق المتطوعة لأنهم يستثقلون تمريناته وأسلحته، ويستقلون جزاءه ويضيقون ذرعاً بوطأة نظامه.

وقد أتيحت للرعية فى الشام والبلقان فرصة حسنة للمقارنة بين حكم العرب وحكم الرومان قبل الوقائع الفاصلة التى دارت فيها الدائرة على الجيوش الرومانية. فقد كان رجال الجيش الرومانى يهبطون المدينة فينهبون بيوتها وغلاتها، ويستبيحون أعراضها وبهتكون حرماتها، ويسكرون ويعربدون، فلا يأمنهم أحد مطموع فى ماله أو غير مطموع منه فى شىء على الإطلاق، وإنما على العربدة والضراوة والاستخفاف. ثم جاءهم قوم لا يعتدون على عرض، ولا يقربون الخمر، ولا يعفون عمن يقربها منهم ولو كان من عليتهم، ويقيمون فى المدينة ثم يرحلون عنه فيردون الجزية إلى أهلها لأنهم إنما أخذوها لحمايتهم وحمايتها. فكانت المقابلة بين الحكمين مدعاة إلى التراخى فى الدفاع عن الحكم القديم وتمنى الغلبة للحكم الجديد. وقد تتجاوز ذلك إلى المساعدة الظاهرة كما حدث من بعض العرب المسيحيين والوثنيين على السواء.

* * *

بل وربما تجاوزت كل هذا إلى إزعاج ثقة القادة بأنفسهم عند المقابلة بينهم وبين قادة خصومهم.. فمما يروى فى هذا المعنى وهو كثير، أن أخا للقيصر وقائده، سأل رجلاً من قضاعة عن شأن المسلمين بعد ما أقام بينهم أيامًا فقال له: «هم رهبان بالليل فرسان بالنهار، لو سرق ابن ملكهم قطعوا يده، ولو زنى رجموه إقامة للحد. فقال القائد: لئن كنت صادقاً لبطن الأرض خير من لقاء هؤلاء على ظهرها».

ولما بدأت المعارك بين العرب والدولتين كان العرب ربما أخطئوا فلم يضربوا ضربتهم فى موضعها فيتسع لهم الوقت لإصلاح الخطأ والرجوع إلى الخليفة لطلب النجدة والمشورة، لأن أعداءهم مشغولون أبداً بنزاع أو فتنة أو ريبة. أما الروم والفرس فلم يكن لهم متسع لإصلاح خطأ يخطئونه، وكثيراً ما كانوا يخطئون. فبدأت المعارك بين الفريقين وعند أحدهما كل مظاهر الأسباب التى تدعو إلى النصر، وعند الآخر كل حقائق الأسباب التى تدعو إليه.

وقد اتفقت كلمة الصحابة على حرب فارس والروم وسيف الله بوادى الوبر فى اليمامة لم يطل استقراره فى غمده بعد وقعة عقرباء.

وهناك حلقات من الحوادث تسوغ لنا أن نعتبر حرب فارس الثانية امتداداً للوقعة الأولى بذى قار، أو استئنافاً لتلك الوقعة بعد فترة لا تحسب طويلة فى تواريخ النزاع بين الأمم، وهى نيف وعشرون سنة.

فالقبائل التى ارتدت بالبحرين وقبائل تغلب التى انحدرت مع سجاح من الجزيرة كانت كلها من أتباع الدولة الفارسية على صورة من صور التبعية فى ذلك الزمان، وكانت تعيش كلها فى ظل تلك الدولة من أيام المناذرة إلى زوال ملكهم بعد وقعة ذى قار.

والبطلان اللذان تعودا ضرب الفرس والإغارة على دهاقينهم فى تلك الأصقاع كانا من بنى بكر نهضوا بالعب الأكبر فى وقعة ذى قار، وما برح العداء بينهم وبين الفرس والقبائل التى تواليهم على أشد ما يكون: وهما المثنى بن حارثة الشيبانى، وسويد بن قطبة العجلى، وكلاهما على ذكر من هزيمة الفرس وعلى خبرة بقتالهم فى أطراف العراق. وقد صحب المثنى النهر فى غاراته حتى بلغ القطيف وهجر ولم يقف له أحد فى طريقه. فهذا مع عجز الفرس عن تأديب رعاياهم فى اليمن لدخولهم فى الإسلام، قضيا على تردد الخليفة فى أمر البعثة الفارسية، فصحت عزيمته وعزيمة أصحابه على تجريدها بعد الفراغ من حروب الردة بأسابيع معدودات.

* * *

وقد علمنا من دأب الخليفة الصديق أنه كان لا يبرم أمراً إلا أحكم تدبيره فى مرحلة مرحلة من طريقه إلى منتهاه.

وهكذا كان شأنه فى البعثة الفارسية: فإنه ندب لها قائدين هما خالد بن الوليد، وعياض بن غنم، وأمر خالداً أن يتجه إلى الأيلة ثغر الهند كما سماها وأمر عياضاً أن يتجه إلى المصيخ بشمال العراق. فأيهما بلغ الحيرة قبل الآخر كان هو قائد الجيشين معاً ووجبت طاعته على زميله، وقال لهما: «إذا اجتمعتما بالحيرة وقد فضضتما مسالح فارس أمنتما أن يؤتى المسلمون من خلفهم فليكن أحدكما ردءاً للمسلمين ولصاحبه وليقتحم الآخر على عدو الله وعدوكم من أهل فارس دارهم».

خطة محكمة يبلغ بها الخليفة مقاصد شتى فى وقت واحد. ففيها إذكاء المنافسة بين القائدين، وفيها تشتيت جهود الفرس فى الدفاع عن بلادهم، وفيها تدبير النجاة سلفاً لمن يحتاج إليها من الجيشين، وفيها تيسير أمر الماء والكلأ فى الطريق للجيشين معاً، لأن أمواه الطريق ومراعيه تضيق بالجيشين المجتمعين إذا سارا فى طريق واحد.

وكان الصديق وإخوانه يعلمون أن المسألة فى هذه الحرب مسألة يقين وعزيمة وليست مسألة كثرة وهيئة.

فحرص لهذا على أن يجنب الجيوش الإسلامية مخاوف المرتدين ونكساتهم، وأوصى القائدين ألا يقبلا أحداً منهم، وألا يكرها أحداً من غير المرتدين على المسير فى جيشهما ما لم يقبل على الحرب برضاً منه ورغبة. ولما نظر خالد إلى من حوله يرفض كثيرهم ويبقى قليلهم، كتب إلى الخليفة يستمده فأمده بفارس واحد هو القعقاع بن عمرو التميمى.. فعجب أصحابه وقالوا له: أتمده برجل واحد؟.. قال: نعم!.. لا يهزم جيش فيه مثل هذا!

ولم تمض أيام حتى ظهر للمسلمين أنه مدد كاف وأى كفاية فإن ثقة الناس بجيش يكون القعقاع فيه ويتولى قيادته خالد بن الوليد قد جاءت بالمتطوعين للقتال من كل صوب وحدب. فبلغ جيش خالد يوم شارف ميدان القتال قرابة عشرة آلاف عدا جيش المثنى بن حارثة وهو يبلغ ثمانية آلاف. ولم يتقدم المسلمون خطوة فى ميدان القتال حتى كانت للقعقاع وقفة لعلها أنقذت الجيش كله وأنقذت البعثة كلها من بدايتها، ولم يكن أحد ليعلم ماذا تكون العاقبة لولا تلك الوقفة التى تعلق بها الكثير من مصير جيش الفرس ومصير جيش المسلمين.

ففى الوقعة الأولى دعا القائد الفارسى - هرمز - خالدًا للمبارزة قبل التحام الجيشين، وأضمر نية الغدر به حين يخرج منفردًا بين الصفين، فوكل به شرذمة من فرسانه ينقضون عليه وهو مشغول بمبارزته فيراع الجيش العربى بمقتل قائده كما سبق إلى وهمه، ويطبق الجيش الفارسى بعدده الكبير على الجيش العربى بعدده القليل فتكون الغلبة لأكبر الجيشين وأكمل العدتين.

وأوشكت هذه المكيدة أن تتم على النحو الذى دبره هرمز لولا أنه أخطأ الحساب فى اغتراره بقوته وجهله بصولة خالد فى مبارزته، فظن أن الجولة بينهما تطول قبل أن يخرج فرسانه للغدر بخالد، ولكنه صرع فى جولة واحدة وفوجئ أصحابه بهذه السرعة فاقتربوا من خالد على عجل وهو مشغول بالإجهاز على قائدهم، وإذا بالقعقاع أسرع إليهم من لمح البصر ومن ورائه جيش المسلمين بجملته يضرب فى قطيع مذعور مأخوذ بالمفاجأة ومهابة هذه الصولة العاجلة. فكانت وقعة اليوم وقعة رجلين فى جولة واحدة، تلتها الجولات اللاحقات التى ترسمت خطاها وسارت على هداها..

سار خالد إلى العراق فى أوائل السنة الثانية عشرة للهجرة النبوية. وأتم فى سنة واحدة ما أعيا الرومان أن يتموه فى أجيال.

وقد تكتب فى شرح وقعاته بالعراق مجلدات طوال يستغرق بحثها ومعارضة رواياتها مئات الصفحات ولكننا لا نتوسع فى ذلك الشرح هنا لأن أعمال خالد تعنينا فى هذا الكتاب لمقصد واحد، وهو الرجوع بها إلى مصدرها من نفسه وعقله ومقومات شخصه.

وفى هذا حسبنا أن نقول على الإجمال قبل الإشارة إلى وقعاته: إنه لقى الفرس وأولياءهم فى خمس عشرة وقعة لم يهزم ولم يخطئ ولم يفشل قط فى واحدة منها، وإن قوادًا من المسلمين أخطئوا فى حروب الردة وحروب الفرس والروم كما حدث عن عكرمة وشرحبيل وأبى عبيدة وخالد بن سعيد، ولكن خالدًا لم يخطئ قط عن خدعة أو عجلة أو قلة أهبة، وكان يسير بجيشه أبدًا على تعبئة كاملة ليقاتل عدوه حيث لقيه مفاجئًا أو غير مفاجئ، وكان أبدًا كما وصفه عمرو بن العاص: «فى أناة القطاة ووثبة الأسد» فلا يهمل الحيطة، ولا يجعل التعويل كله على الشجاعة دون الحزم والحيلة، ولا يعز عليه أن يتحامى لقاء عدوه فى بعض الساعات لينتقل به إلى المكان الذى هو أصلح لحركاته وأعون له

عليه. ومن علمه بفنون القتال أنه كان يحارب بثمانية عشر ألفا وكأنه كان يحارب بخمسة أضعاف هؤلاء. فإذا أرسل أربعة آلاف أو ثلاثة آلاف إلى مكان يغنون فيه، فذاك أجدى من تسيير الجيش كله أو تسيير عدد منه يربو على الحاجة الضرورية.. فإن طرأ فى خلال مسيره ماليس فى الحسبان فمعوله فى الحالة على سرعة خاطفة كسرعة الباشق وهو ينقض على فريسته، فلا تشعر الفرقة التى أشخصها إلى مكانها بالحاجة إليه حتى يكون معها كأنها لم تفارقه ولم يفارقها.

فهى شجاعة ويقظة وخبرة وسرعة ومعرفة بما هو لا زم فى وقت لزومه، ولم تخذله خصلة من هذه الخصال قط فى ساحات فارس ولا فى ساحات الشام مع اختلاف الأحوال واختلاف الأعداء.

وقد كانت تعبئة خالد فى المسير تشبه التعبئة التى جرى عليها العرف فى أيامه، وهى قسمة الجيش إلى ميمنة وميسرة وقلب وطليعة تسبقه، وردء يلحق به ليحمى ظهره، أو يلبث فى موضع من المواضع كمينًا ينزل إلى الساحة على غير انتظار، لتقوى به سواعد أصحابه وتنخذل به عزائم أعدائه.. ولكنه كان عند القتال يفتن باتخاذ طريقة الهجوم أو الدفاع كما توحى بها ضرورة الساعة. فيقاتل بالصفوف كما يقاتل بالكراديس، ويواجه خصمه أو يدور عليه ويتراجع أمامه أو يمعن فى الهجوم على كُبة جمعه، ويحصره أو يخلى له سبيل الهرب حسبما تدور به المعركة فى أثنائها أو توحى به طوالعها قبل ابتدائها.

فلما عقدت له القيادة على البعثة الفارسية أرسل جيشه على فرق ثلاث من طرائق مختلفة، فقدم المثنى على رأس فرقة ثم ألحق به عدى بن حاتم صاحبه فى حرب بنى أسد، ثم لحق بهم على رأس جيشه وواعدهم موضعًا إلى الجنوب الغربى من البصرة الآن، ولعله توخى تسهيل السقى والمرعى بهذا التفسيم؛ ثم اختبار الطريق بقيادة الرجل الذى كانت له سابقة الدراية بهذه الدروب.

وكتب إلى هرمز قائد الفرس يخيره بين الإسلام والجزية أو الحرب، ويقول له فى ختام كتابه الوجيز: «جئتك بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة»..

ثم عدل إلى كاظمة بعد أن كان موعده الأول «الحفير» لأنها كانت على مايظهر أوفق لتعبئة جيشه.

وهناك التقى بجيوش الفرس - وعلى رأسهم هرمز - فوقعت بينهم الوقعة التى سبقت الإشارة إليها وتعرف باسم ذات السلاسل؛ لأن الفرس كانوا يوثقون أنفسهم فيها بالسلاسل جماعات ليثبتوا فى القتال ولا يتأتى لهم الفرار إن أرادوه ولئن صح هذا لقد كانت مخاوف الشك فيه أظهر من صدق العزيمة والطمأنينة إلى النية القوية.

ولما تبدد جيش هرمز تعقبه المثنى بن حارثة وعبر الفرات ليأخذه متفرقًا قبل أن تتجمع فلوله حيث تأمن احتثاث الملاحقة وراءها، ولكن الفرس علموا بعد مقتل هرمز وتفرق جيشه أنهم مهددون فى «المدائن» عاصمة ملكهم بعد مقتل فحشدوا لملاقاة المسلمين جيشًا عظيمًا بقيادة قارن بن قريانس يعاونه أميران من بيت أردشير. فأدرك فلول هرمز فى «المذار» وضمهم إليه، وكان المثنى قد علم بخروج هذا الجيش العظيم واجتماع الفلول المتفرقة إليه فكتب إلى خالد يستأمره ويستمده. فكان خالد هو الجواب..

ووصل خالد إلى المذار وهو كامل التعبئة فتصدى قارن لمبارزته على عادتهم قبل بداية القتال، فنهض إليه خالد ومعقل بن الأعشى يستبقان، وأراد معقل أن يحمى خالدًا من مثل مكيدة هرمز فيتلقى الضربة دونه أو يسبقه إلى قتل قارن. وبرز عدى بن حاتم وعاصم بن عمر لمنازلة الأميرين، فظفروا بهم جميعًا، ثم اشتبك الفريقان فى ملحمة حاربوا فيها كما قال المؤرخون حرب حنق وضغينة، وبلغ بعضهم بعدد القتلى من الفرس ثلاثين ألفا، ولولا النهر ولياذ الفرس بالسفن لكانت المقتلة أعظم من ذاك ولم يكد يفلت من الموت أحد.

* * *

ورانت الحيرة بعد وقعة المذار على عقول القادة من الفرس، فخيل إليهم أن فى هؤلاء العرب سرًّا لا يدركونه وأحبوا أن يحاربوا آفتهم بآفة من جنسها، فاستعانوا بأوليائهم من أبناء القبائل العربية فيما بين النهرين، واشترك هؤلاء فى كثير من الوقائع التى دارت بين الفرس والمسلمين، بعد وقعة المذار، وضايقوا المسلمين غير قليل فى الوقعتين التاليتين بالولجة وأليس.

وكان خالد كعادته فى الحيطة والمبادرة فاستبقى طائفة من جيشه فى البلاد التى فتحها

حماية لظهره واستعدادًا لمن يجترئ عليها بعد مسيره. وتقدم إلى الولجة على تعبئة كاملة بمن معه جميعًا، ثم فصل طائفتين من الجيش أثناء الطريق ليكمنا على مقربة من الولجة، ويلتفا فى ساعة الحرج بالجيش الفارسى من ورائه. فطالت المدافعة والمراوغة بين الفريقين قبل أن يظهر الكمينان. وتردد النصر بين الفرس والمسلمين تارة هنا وتارة هناك حتى ظن الفرس أنهم من النصر قاب قوسين أو أدنى. ثم ظهر أحد الكمينين وظهر الكمين الآخر قبل أن يفيق الفرس من دهشة الكمين الأول. فتولاهم إعياء اليأس بعد إعياء المصابرة والمجاهدة، وولوا مدبرين وهم يتخففون من السلاح والعتاد فى مهربهم.. فكثر منهم القتلى والأسرى كما كثر نصيب المسلمين من الغنائم والأسلاب.

وجاءت بعد وقعة الولجة وقعة «أليس» وهى أعجب الوقائع فى حرب العراق بما اتفق فيها من صنوف الحيلة وصروف المقادير ومعارض النقمة وعواقب الرجاء مع الغالب، وعواقب اليأس والقنوط مع المغلوب، ولعلها هى الوقعة الحاسمة فى النزاع بين المجوسية والإسلام.

راع الشاهنشاه تلاحق الهزائم على جيوشه، وغاظ العرب الموالين له أن يؤخذوا فى حماهم، وأنفوا أن يهانوا ولا يراهم الناس كفاء لتلك القبائل الواغلة عليهم، فتلاقوا فى الرقعة الوسطى بين ديارهم جميعًا وهى أليس، وانتظروا هناك جحافل من الفرس وعدوهم أن تُربِى فى العدد والعدة على كل جيش نزلوا به إلى الميدان فى المعارك الماضية.

وهنا تتراءى فى الموقف أصبع المقادير..

فإن «بهمن جاذويه» قائد الفرس الذى أمره الشاهنشاه بالمسير إلى أليس أناب عنه قائدًا آخر يدعى جابان وشخَصَ هو إلى المدائن ليلقى مولاه ويقلب معه الأمر على وجوهه فى مسائل شتى، لا تغنى فيها المراسلة غناء الحديث والمشاهدة، وليأتى من المدائن بمدد آخر يضاف إلى جيشه الأول وإلى جموع القبائل العربية عند الفرات. وقال لجابان وهو يودعه: «كفكف نفسك وجندك عن قتال القوم حتى ألحق بك، إلا أن يعجلوك».

وبلغ المدائن فإذا مولاه مريض يجود بنفسه، وليس نظام الوراثة على عرش فارس فى ذلك الحين من الوضوح والاستقرار بحيث يُطمأن إليه إذا مات الملك والجيش بعيد والمتربصون كثير والشيع فى البلاد أكثر من المتربصين.

فبقى « بهمن » فى المدائن، ووصل جابان إلى « أليس » قبل أن يصل إليها خالد فألقى أثقاله وأمر بتهيئة الطعام. ووصل خالـد وهم مقبلون على طعـامهم لا ينتظرون وصـوله فلبثـوا على طعامهم لأنهم أمروا من جهة ألا يعجلوا إلى القتال حتى يـوافيهم قائـدهم الكبير، ولأنهم من جهة أخرى لم يحسبوا أن خالدًا يلقى أثقاله وهو على تعبئة كـاملة مستعد للنـزال فى كل لحـظة، ولأنهم على ما يظهر كانوا يواجهون القتال أبدًا كأنهم يواجهون ساحات الصوالج والأكر أو ساحات المباراة فى « الألعاب الرياضية ». إنما تبدأ فيها المباراة باتفاق الطرفين.

ولكن خالدًا ضرب ضربته الأولى فى الجموع العربية فقتل قائدها وأثخن القتل فى صفوفها، وثار الفرس إلى السلاح مكرهين لئلا يمهلوا خالدًا حتى يفرغ من الجموع العربية ويتحول إليهم بين لحظة وأخرى.

فثبتت الجموع العربية حين أسعفتها النجدة، وثبت الفرس وطال بهم الثبات لعلمهم أنه صبر ساعات ثم يدركهم قائدهم الكبير. وابتلى المسلمون من هؤلاء وهؤلاء ببلاء لم يعهدوه من القوم قبل ذلك اليوم. فاشتد الأمر بخالد وثاب إلى الله يستلهم العزم للمسلمين وينذر له الضحايا إن منحه أكتاف أعدائه! « فلا يستبقى منهم أحدًا يقدر عليه حتى يجرى نهرهم بدمائهم».

وفى هذا النذر بقية من البدوية المخزومية لا تخفى على اللبيب..

وطال صبر الفرس فنفد..

وتساقطت رءوس العرب الموالين لهم فجزعوا..

ولا حت لخالد لوائح النصر الذى سأله الله، فلم ينس نذره ونادى فى المسلمين: الأسر. الأسر.. لا تقتلوا إلا من امتنع».. لأنه نذر ليجرين النهر بالدماء.. فليجر إذن بالدماء

وأمر بضرب أعناق القوم فى النهر وقد حبس ماءه. فلم يجر بالدماء!.. لأن الدماء تترقرق ولا تسيل ولو قتل أهل الأرض، كما قال له أصحابه. فأطلق الماء فسال بالدم أحمر قانيا ثلاثة أيام.

* * *

وحمادى ما يقال فى الاعتذار لخالد من هذه النقمة المفردة فى تاريخ صد ر الإسلام أنها كانت شرعة الحرب فى تلك الأيام، وأنه كان يدين بها أناسا صنعوا بالملل الأخرى مثل ما صنع بهم فى هذه المعركة، وعاملوا أسرى الحرب ومن لم يحاربوهم قط مثل هذه المعاملة فى حروبهم مع العرب والدولة الرومانية، وأن خالدًا حسب أن هذه الذبائح قربان إلى الله.. ودماء المشركين أشبه القرابين بميادين الحروب، وهو حسبان يوائم صرامة طبعه ويحيك فى صدر رجل الحرب وسليل رجال الحرب منذ أمد بعيد، وأكبر الظن عندنا أنه لو كان قائد الجيش رجلا ممن طالت صحبتهم للنبى عليه السلام كأبى عبيدة أو سعد بن أبى وقاص أو عمر بن الخطاب لتوسل إلى الله بغير هذه الوسيلة حين أزم الموقف وجد الجد فى معركة أليس. فقد صفح عمر بن الخطاب عن أسرى السواد وظفر المسلمون بألوف الأسرى فى معارك العراق والشام ومصر، فسرحوهم وعاملوهم بحكم الأسرى فى القرآن الكريم، وقد اختلف فقهاء المسلمين فى جواز قتل الأسرى من غير مشركى العرب، فلم يجزه من إجازة منهم إلا لحسم مادة الفساد، إن خيف ألا تحسم بغير هذه الذريعة. وقد كانت مادة الفساد فى أعقاب الدولة الساسانية خليقة – ولا نكران – بضربة من أمثال هذه الضربات، فقد أعيت فيها الحيلة من دعوة وإقناع ومصابرة، وكانت النكبة بدوام هذه الدولة أشد على الفرس أنفسهم من نكبة القتلى فى تلك المعركة الشعواء، وهى فى غرابة صروفها أدنى أن تحسب من معارك الأقدار، وتلك هى المعارك التى يراد فيها الغالب والمغلوب على الأمر، ولا يريدان فيه.

وقديما علمنا من طوارق الحرب والسلم أن الشر المحض والخير المحض فى هذه الدنيا عزيزان أو مستحيلان. فهذه النقمة الخالدية جاءت على غير المألوف فى حروب صدر الإسلام، ولكنها عجلت بختام عهد موبوء كان لابد له من ختام، فخلعت القلوب وصكت الركب وزلزلت سلطان الطغاة فى بلاد الفرس بل فى بلاد الروم، وكان من جرائها أن الأمصار التى كانت تفزع من حصار خالد لها كانت تلقى بأنفسها فى أحضان غيره من قادة المسلمين، كما أسرع أهل دمشق إلى ابن الجراح يلتمسون مصالحته مخافة الفتح عنوة على يد ابن الوليد.

* * *

كانت هذه الوقائع تتوالى يومًا بعد يوم وتتوالى معها البُرُدُ إلى المدينة بأخبار النصر

وغنائم القتال، فلا يفرغ الناس من حديث بريد حتى يتبعه ما وراءه بنصر جديد. وسبقت ضربات خالد كل آمال الآملين فى سرعة الظفر بدولة الأكاسرة. فقال أبو بكر وهو يبلغ الناس أنباء الظفر ليزفوا بشراها إلى الجزيرة العربية: «يا معشر قريش.. عدا أسدكم على الأسد فغلبه على خراذيله.. أعقمت النساء أن يلدن مثل خالد؟».

ثم سلمت الحيرة - بلد النعمان وموئل نابغة بنى ذبيان - فكان لتسليمها صدى بين أبناء العروبة لا يعدله صدى الفتح فى بلد من البلدان، لأنها كانت فى عالم الشعر والبلاغة حديثًا على كل لسان.

إلا أن الخليفة الذى عرفناه رجلا حصيف الجرأة، جرىء الحصافة، لم ينس اليقين مع الحيطة ولم ينس الحيطة مع اليقين. وأدركه الحذر فى هذه المرحلة من مراحل الحرب الفارسية فجنح إلى الأناة والتريث وأخذ بعنان خالد، فلم يأذن له أن ينطلق وراء الحيرة حتى يوافيه زميله عياض بن غنم ويأمن كلاهما من ورائهما غدرات الطريق. وحجة الخليفة فى ذلك أظهر من أتخفى. فمن تجاوز الحيرة أحاط به الفرس من اليمين والروم فى الشام من اليسار. ثم إن السواد نفسه إقليم حديث العهد بالإسلام لم ترسخ فيه قدمه ولا يؤمن تركه والتطوح بعده إلى حمى الدولة الفارسية فى عواصمها من وراء النهرين، وقد نما إليه ولا شك أن فلول العرب المهزومين هجروا حوض العراق وأوغلوا فى الصحراء إلى دومة الجندل يتجمعون ويتربصون، وفى الشام أراجيف عن تعبئة القيصر لجيوشه لا تغمض عنها العيون قبل أن تستقر الطرق، وتتمهد مواطئ الفتوح. فإن لم يخرج عياض بن غنم من معاقل دومة الجندل بين العراق والشام مالكًا زمامها وزمام ما حولها فكل خطر هنالك محتمل، وكل عجلة قد تجر إلى وبال.

ولكن الفرس الكريم الذى يحبس فى الحلبة يعانى من أمان الحبس ثقلة لا يعانيها من تعجل العواقب ومكافحة الأخطار. فحز فى طبع خالد جذب العنان وأقام فى انتظار زميله قرابة عام، وهو يسميه سنة نساء. ولو كتب لرجل غيره أن يظفر فى هذه السنة المستريحة بمثل ما ظفر به لارتضاه لنفسه سجل عمر كامل، لأنه خاض ثمانى وقائع فيما يليه من البلاد لم يحسبها وقائع تحصى. وله فى كل وقعة منها نصر يعتز به قائد فخور...

وقد عرضت لخالد فى هذه السنة وما قبلها عوارض شتى تدخل فى الحساب أو تأتى

من هنا وثَم على غير حسبان. فتصرف فيها جميعًا تصرف الرجل الذى خلق للتقلب فى أجواء الحرب كما خلق السمك للتقلب فى الماء، فلا تفجؤه حالة من حالاتها بما يربكه أو يعييه.

البدوى لا عهد له بسفينة غير سفينة الصحراء - وهى الجمل - ولكن خالداً غنم السفن الفارسية بعد وقعة أليس فأركب جيشه فيها ليكفيه ويكفى مطاياه مشقة السير. فلم تنقله السفن إلا قليلا حتى جف الماء ولصقت بالقاع، لأن الفرس تسامعوا بمسيره فى النهر فأوصدوا قناطر الحيرة وحبسوا الماء عن مجراه، ولو بدوى غير هذا البدوى فوجئ بهذه الحيلة الحضرية وهذه اللعبة الهندسية لوقع فى حيص بيص وترك السفن فى قاعها ورجع إلى مطاياه... ولكنه أبى إلا أن يبلغ بالسفن إلى حيث شاء. فانبعث فى نفر من أصحابه كالبزاة إلى القناطر وأطلقوا ماءها ولبثوا هناك فى حراستها وفى انتظار السفن التى ارتفعت براكبيها، كأنهم يشهدون غريبة من غرائب السحرة تعبث بالسفينة بين برٍّ يابس ونهر غزير..

وحفروا له فى الأنبار خندقًا ثم احتموا وراء الخندق بحصن ينظرون إليه من أعلاه، كأنهم يهزءون به ويستعجزونه أن يعبر الخندق، وأن يفلح فى علاج الحصن إذا وصل إليه. فلم يلبث أمام الخندق كثيراً ولا قليلا بل أمر لتوه بنحر الإبل العجاف وألقى بها فى الخندق فسدته، ودعا جيشة إلى العبور عليها. فأصبح من فى الحصن سجناء فى يديه، وتوسلوا إليه أن يرسلهم فى سبيلهم مجردين من السلاح والمتاع، وهم يحمدون الله على النجاة من يوم كيوم أليس. فأجابهم إلى ما طلبوه.

وعلم أن عقة بن عقة يحشد له فى عين التمر حشوداً من تغلب وإياد وأصحاب المتنبئة سجاح، ويوهم الفرس أنه ند للعرب لأنه أخبرَ بهم من غيرهم، فوثب على معقله بالصحراء وهو كدأبه على تعبئة كاملة. وبصر بعقة حين دنا من الموقع فقال لصحبه: اكفونا ما معه فإنى حامل عليه بنفسى.. ثم احتضنه وحمله أسيرًا وهو لا يتوقع أن يؤخذ من أساليب القتال العربى بهذا الأسلوب العجيب فى كل قتال. وقد كان خالد يعمد إليه كلما بدا له أن يوجز فى الحركة ويضرب قلب أعدائه بضرب عميدهم المطاع فيهم، فيصيب ما أراد..

وأعطى الدعوة حقها، كما أعطى القتال حقه فى كل معركة بما تقتضيه وتوحيه إليه..

فكان إذا لقى العرب سألهم مذكياً فيهم نخوة العروبة: «ويحكم أأنتم عرب ؟ فما تنقمون من العرب؟ أو عجم فما تنقمون من الإنصاف والعدل؟»..

وكان يعين الحمية الدينية فى جيوشه بما يغرى النفوس من نعيم الدنيا ومتاع الحياة، فأباح الأسلاب من سلبها بالغًا ما بلغ قدرها، وربما قسم للمقاتل الواحد فى بعض الوقائع ألف دينار فلا يستكثرها عليه ولا ينتزع منه غنيمة وقعت فى يديه. وقال لهم يومًا بعد وقعة المذار: «ألا ترون إلى الطعام كرفغ التراب؟ والله لو لم يلزمنا الجهاد فى الله والدعاء إلى الله عز وجل ولم يكن إلا المعاش لكان الرأى أن نقارع على هذا الريف حتى نكون أولى به، ونولى الجوع والإقلال من تولاه ممن اثّاقَل عما أنتم عليه».

وأحكم الصلح كما أحكم الحرب، فكان عهده مع أهل الحيرة نموذجا للعهود من قبيله، وكان يصالح المستسلمين صلح من يعنى كل حرف يخطه بيمينه فلا يزيد ولا ينقص. قال فى عهد أهل الحيرة: «هذا ما عاهد عليه خالد بن الوليد.. نقباء أهل الحيرة ورضى بذلك أهل الحيرة وأمروهم به. عاهدهم على مائة وتسعين ألف درهم تقبل فى كل سنة جزاء على أيديهم فى الدنيا: رهبانهم وقسسهم إلا من كان منهم على غير ذى يد حبيسًا عن الدنيا تاركًا لها. وعلى المنعة، وإن لم يمنعهم فلا شىء عليهم حتى يمنعهم. وإن غدروا بفعل أو قول فالذمة منهم بريئة.. وكانت كتابة هذا العهد فى شهر ربيع الأول سنة اثنتى عشرة هجرية» وعلى قدر سطوته الجائحة بمحاربيه ومعانديه كانت رعايته ورفقه بأولئك المظاليم الخالدين من زراع تلك البلاد. فللمرة الأولى فى التاريخ من قبل بابل ونينوى رأى فلاحو السواد حاكمًا يحفظ لهم غلاتهم، وينصفهم من دهاقينهم - أو مستغليهم - ويستمع شكاية ضعيفهم من قويهم، ويشرع بينهم شرعة المساواة والأمان. وبلغ من رفق الحكم الجديد برعاياه - مسلمين وغير مسلمين - أنه تكفل بالعبد إذا تحرر، وبالغنى إذا افتقر، وبالعائل إذا انقطع عائلوه. وهذا مثل مما تكفل به الحكم الجديد فى كتاب خالد. قال: «إنى دعوتهم إلى الله وإلى رسوله فأبوا أن يجيبوا، فعرضت عليهم الجزية أو الحرب، فقالوا لا حاجة لنا بحربك، ولكن صالحنا على ما صالحت عليه غيرنا من أهل الكتاب فى إعطاء الجزية. وإنى نظرت فى عدتهم فوجدت عدتهم سبعة آلاف رجل، ثم ميزتهم فوجدت من كانت به زمانة ألف رجل، فأخرجتهم من العدة، فصار من وقعت عليه

الجزية ستة آلاف، فصالحونى على ستين ألفا، وشرطت عليهم أن عليهم عهد الله وميثاقه الذى أخذ على أهل التوراة والإنجيل: ألا يخالفوا، ولا يعينوا كافرًا على مسلم من العرب ولا من العجم، ولا يدلوهم على عورات المسلمين، عليهم بذلك عهد الله وميثاقه، إن أخذه أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق أو ذمة، وإن خالفوا فلا ذمة لهم ولا أمان، وإن هم حفظوا ذلك ووعوه وأدوه إلى المسلمين فلهم ما للمعاهد وعلينا المنع لهم، فإن فتح الله علينا فهم على ذمتهم، لهم بذلك عهد الله وميثاقه أشد ما أخذ على نبى من عهد أو ميثاق، وعليهم مثل ذلك ألا يخالفوا، وجعلت لهم أيما شيخ ضعف عن العمل، أو أصابته آفة من الآفات، أو كان غنيًّا فافتقر وصار أهل دينه يتصدقون عليه، طرحت جزيته وعيل من بيت مال المسلمين هو وعياله، ما أقام بدار الهجرة ودار الإسلام فإن خرجوا إلى غير دار الهجرة ودار الإسلام فليس على المسلمين النفقة على عيالهم. وأيما عبد من عبيدهم أسلم أقيم فى أسواق المسلمين فبيع بأغلى ما يقدر عليهم، فى غير وكس ولا تعجيل، ودفع ثمنه إلى صاحبه. ولهم كل ما لبسوا من الزى إلا زى الحرب، من غير أن يتشبهوا بالمسلمين فى لباسهم، وأيما رجل منهم وجد عليه شىء من زى الحرب سئل عن لبسه ذلك فإن جاء منه بمخرج وإلا عوقب بقدر ما عليه من زى الحرب. وشرطت عليهم جباية ما صالحتهم عليه حتى يؤدوه إلى بيت مال المسلمين، عما لهم منهم، فإن طلبوا عونًا من المسلمين أعينوا به ومئونة القواد من بين مال المسلمين»

وقد عزلت هذه الرعاية من جانب وتلك السطوة من جانب أخر عزلا فاصلا بين الرعاة والرعية فى السواد وفى الديار الفارسية فنظرت الدهماء إلى الحرب كأنها حرب على الرعاة وحدهم لا ناقة لهم فيها ولا جمل ،فلا هى تعنيهم ولا هم يخشون من عواقبها العاجلة أو الآجلة، بل هم بهذه العواقب ينعمون وإليها يتشوفون.

* * *

وكانت وقعة الفراض آخر أعمال خالد الكبار فى العراق وأوفاها دلالة على عجز الدولتين معًا: دولة الفرس ودولة الرومان الشرقية، عدا ما فيها من الحوادث التى هى أصلح ما تكون للتفرقة بين مغبة العمل الواحد تأتيه الأمة فى عهد إقبالها وتأتيه الأمة فى عهد إدبارها. فهو ضربة موت من ناحية، وهو من الناحية الأخرى كالضربة التى تشحذ عزيمة المضروب وترد التوازن إليه

الفراض فى أعلى العراق بين مسالح الفرس والروم يوشك هؤلاء وهؤلاء فيها أن يتناظروا متقابلين، وقد هبط عليها خالد فى وثبة من وثباته فتألب عليه هنالك عرب البادية وجيش الروم، وكان وشيكًا أن يتألب معهم جيش من الفرس أولا ما شغلوا به من أمر العرش ووراثه والمتنازعين عليه. وقال الروم لخالد كما قال الفرس بعد ذلك لأبى عبيد: إما أن تعبروا إلينا وإما أن نعبر إليكم فلم يصنع خالد صنيع أبى عبيد بل قال لهم: اعبروا أنتم إن شئتم. وتركهم حتى يعبروا ليحصرهم بينه وبين النهر فلا يهرب منهم هارب، وأرسل الفرسان والرامحين ليعزلوهم قطيعًا قطيعًا، ويضيقوا عليهم مسالكهم. ثم يحصدوهم حصدًا وهم أشبه بالمحكوم عليهم فى ساعة التنفيذ منهم بالمقاتلين:

على أنه لم يثب على الفراض وثبته تلك حتى كان قد «طهر» جوف الصحراء من جموع الأعراب التى تكوفت إلى دومة الجندل وعوقت عندها زميله «عياضاً» قرابة عام. فلما ترامت أنباء فتوحه إلى عياض كتب إليه يستشيره ويستنجده. فكان هو على عادته أول جواب بعد رجع الخطاب، وكتب إليه يقول:

لبث قـليـلا تـأتـك الجـلائب يحملن آسادا عليها القاشب[1]
كـتـائـب تـتبـعـهـا كـتـائـب

وكانت تفصله من دومة الجندل مسيرة أسبوعين فقطعها هو فى أقل من عشرة أيام، ووجد حصن الدومة مكتظًا بمن فيه وحوله زرافات ضاق بها الحصن فعسكرت بالعراء، فجعل القوم جميعًا بينه وبين عياض. وتولى عياض حرب من قبله فهزمهم، لما جاش فى نفسه من نخوة المنافسة وما جاش فى نفوسهم من الوجل والحيرة. وتدافع المنهزمون إلى الحصن يريدون بابه فسبقهم خالد إليه وانتزعه وحال بين النازلين فى الحصن ومن حوله. ثم استبى كل من أصابه من رجال ونساء. ومن هؤلاء السبايا ابنة الجودى بن ربيعة، استباها خالد لنفسه وقيل إنه اشتراها. ثم بنى بها وأقام معها فى دومة الجندل أيام مقامه فيها.

وكان أهل الدومة قد عاهدوا المسلمين غير مرة ونكثوا بعهودهم فأمعن القتل فيهم وجعلهم نكالا لغيرهم. ثم قفل إلى العراق وهو مطمئن إلى غزوة الفراض بأعلى الفرات،

---

(١) القاشب: السيف اللامع القاطع.

فغزاها وفرغ منها كما تقدم. وبقيت له فى العراز عزمة خالدية أخرى ولكنها من غير هذا النوع، فلم يلبث أن قضاها..

بقى على موسم الحج أسبوعان وهو أول حج حان بعد تلك الغزوات المتلاحقات اللاتى أمده الله فيها بنصره وعونه.

أيفوته قضاء الشكر فى هذا الموسم وأداء الفريضة فى موعدها؟ ولم؟ ألخوف من الأعداء؟ ألعائق من بعد الشقة ووعورة الطريق؟ ألعذر من الأعذار التى يعتصم بها القاعدون برخصة من الفقهاء؟ كل أولئك عوائق لا يستهان بها ولكنها خلقت ليذللها لا لينكص عنها.. ففى خطفة الريح العاصفة خرج من أعلى العراق إلى أقصى الحجاز، وأدى الفريضة وعاد إلى معسكره دون أن يعلم أحد من الأعداء ولا من المسلمين إلا أقرب خاصته المقربين، بل دون أن يعلم الخليفة نفسه، وقد كان على الحج فى ذلك العام.

ويروق بعض المؤرخين أن يحسب هذه العزمة الخالدية من مغامراته التى تنم على فرط الثقة بنفسه ولاتنم على شىء غير ذلك، ولكنها فى الواقع دلت على ثقته بغيره كما دلت على ثقته بنفسه. فقد علم أن معه بالجيش من فيه غنى وكفاية إذا جد فى غيبته طارق داهم أو خطب حازب. وكفى بالمثنى رائده المقدام، وبالقعقاع صاحبه القديم وموضع ثقته الحميم..

* * *

علم الخليفة بمغامرته هذه فجاءه منه ملام، وإعجاب، وتكليف، ووصاة: أمره بحرب الدولة الرومانية بعد هذا الفوز الذى أصابه فى حروب الدولة الفارسية، وأن يسارع إلى مرضاة الله وقتال أعداء الله، ويكون كمن يجاهد فى الله حق جهاده.

وقال له: «سر حتى تأتى جموع المسلمين باليرموك فإنهم قد شجوا وأشجوا. وإياك أن تعود إلى مثل ما فعلت، فإنه لم يشج الجموع من الناس بعون الله شجيك، ولن ينزع الشجى من الناس نزعك. فليهنك أبا سليمان النية والحظوة. فأتمم يتمم الله لك. ولا يدخلنك عجب فتخسر وتخذل، وإياك أن تدل بعمل فإن الله له المن، ولى الجزاء».

وكتب إلى أبى عبيدة فى الشام يخبره بمقدم خالد إليه، ويقول له فى كلام صريح: «سلام الله عليك. أما بعد.. فقد وليت خالدًا قتال العدو فى الشام، فلا تخالفه واسمع له

وأطع. فإني لم أبعثه عليك ألا تكون عندى خيرًا منه ولكننى ظننت أن له فطنة فى الحرب ليست لك. أراد الله بنا وبك خيرًا والسلام».

فأرسل خالد إلى أبى عبيدة رسولا يبلغه قبل مقدمه بكتاب يقول فيه: «أتانى كتاب خليفة رسول الله يأمرنى بالسير إلى الشام، وبالقيام على جندها والتولى لأمرها. والله ما طلبت ذلك قط ولا أردته إذ وليته. فأنت على حالك الذى كنت عليه لا نعصيك ولا نخالفك، ولا نقطع دونك أمرًا.. فأنت سيد المسلمين لا ننكر فضلك ولا نستغنى عن رأيك».

* * *

وأول خاطر سبق إلى ظن خالد حين حوله الخليفة من حرب فارس إلى حرب الروم أنه عمل من أعمال «الأعيسر» كما يسميه ويعنى به عمر بن الخطاب، وأنه نفس عليه أن ينفرد بفتح فارس فأرسله إلى ميدان له فيه شركاء من أعلام الصحابة ذوى الخطر والسابقة الملحوظة بين المسلمين..

وهو ظن بعيد يخطر على بال خالد لأنه يتوقع شيئًا من صوب عمر، ولكنه لا يخطر على بال غيره. إذ لا ينفس عمر على خالد أن ينفرد بغلبة الفرس، ثم يرسله ليغلب الروم بعد أن تأخر الفتح على أيدى كبار القواد من أجلاء الصحابة. فهذا مزيد من الفخر يتطاول إليه المتطاول وليس بنقص منه يعتمده لخالد من يأباه عليه. وإنما اختار الخليفة خالدًا لأن العراق كانت فى هدأة من جانب الفرس بعد هزائمهم الكثيرة، وكان فى جيش المسلمين وقواده بالعراق كفاية للمثابرة على الفتح بعد أن تم التدويخ والتمهيد، لأن خالدًا كان أقرب مدد إلى الشام ولم يكن بالحجاز بقية من قوة فاضلة تضاف إلى قواتهم فى حرب الرومان.. فاختاره الخليفة وهو يقول: «لأنسين الروم وساوس الشيطان بخالد بن الوليد».

وليس من عادة خالد أن يضيع وقتًا قلّ أو كثر إذا نيط به أمر من الأمور. فلما ندب للجهاد بالشام نظر فإذا بينه وبين الشام يومئذ من خمسمائة إلى ستمائة ميل على حسب الطرق التى يسلكها، وهى أربع يختار منها أصلحها لإنجاز العمل الذى وُكل إليه.

من هذه الطرق الأربع ما هو سهل موفور الماء والكلأ ولكنه من أجل هذا موفور

الحراس والسكان، فهم يعوقونه بالمقاومة عن الإسراع المطلوب دون أن تكون للغلبة عليهم فائدة تذكر فى القتال الحاسم بين المسلمين والرومان..

ومنها ما هو قليل الحراس والسكان، وفيه الماء والكلأ، ولكنه بعيد يطول السير فيه..

ومنها ما هو وعر قليل الماء والكلأ مخيف غير مطروق، أو كما قال الدليل الذى سأله خالد: «إنك لن تطيق ذلك بالخيل والأثقال. والله إن الراكب المفرد ليخافها على نفسه، وما يسلكها إلا مغرور. إنها لخمس ليال جياد لا تصاب فيها ماء مع مضلتها..»

وأيسر شىء على القارئ الذى عرف خالدًا أن يعلم أى هذه الطرق يسلكه خالد.. فما هو بسالك حيث سلك إلا الطريق الذى هو أحوج إلى قدرة القائد وأدل على العزمة والمضاء وأبعدها جميعًا أن يتوقع العدو هجومًا منه فأجمع عزمه على طريق من الطرق الأربع هو أصعبها وأقصرها، وهو الذى خوفه الأدلاء منه، وقال لدليله الأكبر رافع بن عميرة الطائى – ولا أحد يغنى غناءه فى السير بتلك المفازة المهلكة وإن كان يومئذ من حسر النظر كالمكفوف الضرير:

«ويحك إنه والله إنْ لى بدٌ من ذلك».. إن القوة تأتى على قدر النية، وإن المسلم لا ينبغى له أن يكترث بشىء يقع فيه مع معونة الله».

ويروى الرواة أن الدليل قال لهم بعد ذلك: أكثروا من الماء. من استطاع منكم أن يصر أذن ناقته على الماء فليفعل، فإنها المهالك إلا ما دفع الله..

ثم قال لخالد: أبغنى عشرين جزورًا عظامًا سمانًا مسان، فأتاه بهن فظمأهن حتى إذا أجهدن عطشًا أوردهن فشربن، حتى إذا تملأن عمد إليهن فقطع مشافرهن ثم كعمهن لئلا يجتررن..

وأشار على خالد أن يقتط أربعًا من هذه الجزور، كلما نزل منزلا ليسقى الخيل، وأن يشرب الجند مما حملوا من الماء. ففعلوا ما أشار به حتى كان آخر يوم فى المفازة.. فقال له خالد: ويحك يا رافع ما عندك؟ فأرسل رافع جماعة ينظرون شجيرة من عوسج فى موضع كان يعهدها فيه ويعهد فيه الماء على مقربة منها. فلم يجدوها. فصاح الرجل بالويل واسترجع قائلا: «هلكتم والله إذن وهلكت لا أبالكم. انظروا انظروا» فلما نظروا وأمعنوا النظر رأوا جذرًا قد بقى منها وقطع سائرها. فكبروا فرحًا وشكرًا وحفروا فى أصلها فنبع

لهم الماء فشربوا ونجوا من هذا الخطر الأليم الذى دونه كل خطر من لقاء الأعداء.

وفى ذلك يقول أبو أحيحة القرشى:

لله عينا رافع أنى اهتدى ... فى مهمة مشتبه إلى سوى
والعين منه قد تفشاها الردى ... معصوبة كأنها ملأى ثرى
فهو يرى بقلبه ما لا يرى ... من الصوى تترى له بعد الصوى
فوّز من قراقر إلى سوى ... والسير زعزاع فما فيه ونى
خمس إذا ما سارها الجيش بكى ... فى اليوم يومين رواحا وسرى
ما سارها من قبله إنس بكى ... هذا لعمرى رافع هو الهدى

وسواء صحت رواية الجزور المظمأة أو كان فيها شىء من توسع الخيال فالطريق الذى سلكه خالد معروف، والقدرة عليه هى موضع العبرة والتأمل فى هذا المقام. أما نحن فالذى نراه أن خالدًا لم يكن لينتظر حتى تظمأ الإبل وهى لا تجهد من الظمأ الا فى أيام، وأن الإبل لا تخزن الماء فى جوفها وإن لم تجتره دون أن ينصرف منها، وأن عشرين جزورًا تمتلىء كروشها بالماء لا تسقى الخيل فى الجيش كله وعدته عشرة آلاف . فلا بد من تدبير آخر مع هذا التدبير، تجتمع فيه السرعة إلى التخفيف إلى الإقدام..

والأمر الذى لا شك فيه بعد هذا كله أن خالدًا سار بجيشه – وعدته عشرة آلاف – من عين التمر إلى قراقر، ثم من قراقر إلى سوى، وبينهما تلك المفازة المهلكة، ثم إلى تدمر فالغوطة فبصرى، فقطع هذه المسافة فى ثمانية عشر يومًا، لأنه كما قال الشاعر كان يطوى مسافة اليومين فى يوم واحد..

«فى اليوم يومين رواحًا وسرى..»

خرج من الحيرة فى أوائل صفر من سنة ثلاث وعشر للهجرة، وطوى تلك المسافة فى تلك الأيام بعد أن قمع كل مقاومة لقيها من المسالح والحصون وراء المفازة الخاوية من كل ديار.

* * *

واتفق خروجه من الحيرة وجيوش المسلمين فى الشام تشرع فى خطة جديدة للتراجع

إلى الجنوب وملاقاة الجيوش الرومانية الجرارة فى جمع واحد ينهض لها ويحول دون الإحداق بكل جيش منها على انفراد.

وكان الخليفة قد سيرها - بعيد منتصف السنة الثانية عشرة للهجرة - مع أربعة من كبار القواد فى طرق مختلفة إلى وجهات متعددة .

فسير يزيد بن أبى سفيان على رأس ستة آلاف أو سبعة آلاف إلى دمشق، وسير شرحبيل بن حسنة على مثل هذا العدد إلى الأردن، وسير عمرو بن العاص على رأس جيش يزيد على ذلك قليلا إلى فلسطين، وسير أبا عبيدة بن الجراح على رأس خمسة آلاف أو ستة آلاف إلى الجابية. وأمدهم بعكرمة بن أبى جهل فى جيش صغير ليحمى ظهور من يحتاج منهم إلى الحامية ويسرع بالنجدة إلى من يطلب منهم المعونة.

ولا نعلم على التحقيق حكمة التفرقة بين هذه الجيوش فى طرائقها ووجهاتها ولكنها على ما يظهر مسألة الماء والكلأ من جهة، ثم رغبة الخليفة فى تشتيت جموع الروم وتوزيع أغراضها، ولا يخلو الأمر من الحيطة لمنع الالتفاف بالجيش الواحد إذا أوغل فى البلاد كما حدث قبيل ذلك لجيش خالد بن سعيد، فإن الجيوش الأربعة يكون كل منها مددًا لصاحبة ومانعًا للالتفاف به أو منقذًا له من الالتفاف إذا وقع فجأة. وهذا مع علم الخليفة يومئذ بتفوق الحاميات الرومانية فى مواقع البلاد الداخلية، إذ كان الرومان على ما يظهر قد اطمأنوا من جانب الفرس بعد انتصارهم عليهم، واطمأنوا إلى جانب العرب بعد رجوع حملاتهم الثلاث على النحو المعروف، وهى حملات مؤته وتبوك وجيش أسامه، وزادهم اطمئنانًا أنهم غلبوا الحملة الرابعة وهى حملة خالد بن سعيد، وأنهم عرفوا اشتغال العرب بحرب الفرس فوقع فى روعهم أن العرب أضعف من أن يشغلوا أنفسهم بحرب دولتين عظيمتين فى وقت واحد. فمن هنا خلت ربوع الشام من جيش كبير للرومان، وعلم الخليفة ذلك فاعتقد أن تفرقة الجيوش فى زحفها إلى الشام أقرب إلى توزيع العمل والإسراع فيه، فإن تغير الموقف وعمد الرومان إلى حشد الحشود الكبيرة فقد أوصى القادة بالتشاور والتعاون فى مقابلة هذه الطوارئ، كما أوصاهم بالرجوع إليه.

وقد نجحت هذه الجيوش فى وجهاتها وتقدم بعضها إلى دمشق وبعضها إلى حمص وأوغل بعضها إلى فلسطين.

ثم نما إليهم بأن القيصر يستعد لهم بجيش كبير فى أنطاكية وجيش آخر فى جوار بيت المقدس، وبلغت عدة الجيش الأول على تقدير بعض المؤرخين مائتين وأربعين ألفًا، وعدة الجيش الثانى سبعين ألفًا أو نحو ذلك، ولو نزلنا بعدة الجيشين إلى النصف حسبانًا للمبالغة وجهل الحقيقة، لما كان نصف هذا العدد بالشىء القليل، لأنه يربى على ثلاثة أضعاف الجيش العربى كله بعد قدوم جيش خالد إليه، ولم يرتفع به أحد إلى ما فوق الخمسين ألفًا على أعظم تقدير..

فتشاور القواد فيما يصنعون ، فاستقر رأيهم على التراجع إلى الجنوب ليتجمعوا قبل أن يتلاقى الجيشان الرومانيان ويشتبكا بهم وهم متباعدون متفرقون كل منهم فى بضعة آلاف.

ولعلهم يصبحون فى تراجعهم أقرب إلى الأمن إذا حاربوا وظهورهم إلى الصحراء، وقد علموا بالأمثلة الكثيرة أن الجيوش الرومانية تحجم عند حدودها ولا تجسر على خوضها فى أعقاب جيش كبير أو صغير.

والمؤرخون مختلفون فيمن هو صاحب المشورة الأولى بالتراجع إلى الجنوب، فمنهم من يقول إنه أبو سفيان بن حرب، ومنهم من يقول إنه عمرو ابن العاص. وهذا القول الأخير أدنى إلى الواقع، لأن عمرًا كان يتراجع فى الجنوب قبل أن تصل الجيوش الأخرى إليه، وكان من الموافق لخططه أن توافيه الأمداد فى ميدانه بفلسطين.

وأيًّا كان صاحب الرأى الأول فى هذا فقد تم التراجع بإقرار الخليفة، وكان شعوره بحرج المسلمين فى أماكنهم هو الباعث له أن يستدعى خالدًا من العراق إلى الشام. فكتب لقواده بالشام يقول: «اجتمعوا فتكونوا عسكرًا واحدًا والقوا زحوف المشركين بزحف المسلمين، فإنكم أعوان الله والله ناصر من نصره وخاذل من كفره، ولن يؤتى مثلكم من قلة، وإنما يؤتى العشرة الآلاف والزيادة على عشرة آلاف إذا أتوا من تلقاء الذنوب. فاحترسوا من الذنوب واجتمعوا باليرموك متساندين وليصل كل رجل منكم بأصحابه».

ومن المتعذر جدًّا تمحيص التواريخ فى ترتيب الوقائع بعد وصول خالد إلى الشام. ولكن الأرجح فيما نرى أن المعركة الأولى بدأت مع الجيش الأصغر فى «أجنادين»

بالجنوب. لأن البدء بأصغر القوتين وإخلاء الجنوب قبل الانتقال إلى الشمال أولى وأوفق من ترك هذا الجيش الأصغر وراء ظهور المسلمين ومواجهتهم الجيش الأكبر بين عدوين، ولأن معركة أجنادين لم يشترك فيها معظم القواد المسلمين، مما يرجح أنها وقعت قبل اجتماع هؤلاء القواد فى صعيد واحد. ولو أنها وقعت بعد المعركة الكبرى فى اليرموك لما كان مفهومًا أن يترك أولئك القواد جيشًا كجيش الرومان فى فلسطين دون أن يتعقبوه جميعًا، مع فراغهم من أسر الجيش الكبير فى اليرموك.

وعلى أية حال هزم الروم فى أجنادين وكانت الوقعة الحاسمة بينهم وبين المسلمين فى اليرموك، على اختلاف كثير فى التواريخ، واتفاق فى تصوير خطة القتال.

* * *

ويحسن بنا قبل أن نستطرد إلى الكلام على المعركة أن نجمل حالة الجيشين المتقاتلين عند اللقاء.

فالجيش الرومانى كان أوفر عددًا وأكمل عدة بغير خلاف، ولكنه خليط من عناصر عدة منها الروم والأرمن والعرب وأجناس أخرى، وقد يظن لأول وهلة أنه امتاز بالنظام والخطط الفنية على أعدائه، ولكنه فى الحقيقة كان أبعد الجيشين عن النظام الصحيح إذا أردنا بالنظام وحدة الحركة والتوجيه. لأن المتطوعين فيه من أبناء القبائل كانوا يحاربون على ديدنهم والجنود النظاميين يحاربون على ديدن آخر، وتعوقهم العدد الكثيرة والشكك السابغة التى حسبت من مزاياهم، فهى إلى النقص هنا أقرب منها إلى المزية.

وقد أثيرت فيهم حمية الدين ولكنهم ثاروا لها متشككين متفرقين، وجعلتهم حماستهم الدينية يترقبون من الله عقابًا ينزله بهم على خطاياهم وخطايا قيصرهم ورؤسائهم المتهمين عندهم بالزيغ ومطاوعة الشيطان. فحمية الدين تثيرهم من ناحية وتضيرهم من ناحية، وليست هى من قوة اليقين المكين..

أما جيش العرب فقد كان من أمة واحدة تدين بعقيدة واحدة وترجع إلى قيادة واحدة، وفى صدورهم من حمية القتال كل ما يحفز القلب الإنسانى إلى الثبات والاستبسال: غيره على الدين وغيرة على العرض وناهيك بالغيرتين، ويقين من نعيم الآخرة ونعيم الدنيا إذا كتب له الفلاح، وكفى بإغراء النعيمين.

كان فى جيش المسلمين أصون كرائم البيوتات القرشية: بنت أبى بكر وأم معاوية وزوج عكرمة بن أبى جهل وعقائل أناس من الجند والقادة. وقد أمرهن أبو عبيدة قبل المعركة «أن يأخذن بأيديهن أعمدة البيوت والخيام ويجعلن الحجارة بين أيديهن. فإن كان الأمر للمسلمين أقمن على ما هن عليه، وإن رأين أحدًا من المسلمين منهزمًا ضربن وجهه بأعمدتهن وأرجعنه بحجارتهن، ورفعن إليه أولادهن وقلن له: قاتل عن أهلك وعن الإسلام». ولم يقنع خالد بهذا بل قال لهن: يا نساء المسلمين، أيما رجل أقبل عليكن منهزمًا فاقتلنه.

ومن أجل هذا لا نعجب أن يكون هرقل قد وزن القوى وفكر حقًّا فى عرض الصلح على المسلمين وقال لبطانته وذوى شوراه: «لأن تعطوهم نصف ما أخرجته الشام وتأخذوا نصفه وتقربوا من جبال الروم خير لكم من أن يغلبوكم على الشام كلها ويشاركوكم فى جبال الروم» ولكنهم استضعفوه وكبر عليهم أن يجيبوه.

أما المسلمين فالصلح الذى فكروا فيه قبل القتال هو الصلح على شرطهم المعلوم: الإسلام أو الجزية، فإن لم يقبل شرط من الشرطين فالحكم للسيف..

وقد أفادهم عرض هذه الشروط قوة على قوة وزادهم فى نفوس أعدائهم مهابة على مهابة. فلما ذهب وفدهم يعرض هذه الشروط قبل القتال على القائد تيودور - أخى القيصر - حسب هذا أنه يهولهم بالبذخ والثراء ويكسر نفوسهم بما يريهم من حلل الأبهة والنعيم. فأقام لهم سرادقًا من فاخر الحرير يستقبلهم فيه.. فوقفوا عند بابه ولم يدخلوه قائلين: «إن ديننا يمنعنا أن نفترش الحرير والديباج».

فهالوه بزهدهم أكثر مما هالهم بترفه.. وأعسر شىء على جنوده بعد ذلك أن يؤمنوا حق الإيمان أنهم - وهم الغارقون فى المناعم والملذات - يقاتلون فى سبيل الله قومًا هذا مبلغ زهدهم فى المناعم واللذات، وهذا مبلغ استعلائهم على الدنيا وما تبسطه لهم من غواية.

ولم يخف على أحد من قادة الرومان والعرب خطر المعركة الكبيرة التى هم مقبلون عليها: هى معركة فاصلة فى مصير الشام ما فى ذلك ريب. وقد تكون المعركة الفاصلة أيضًا فى مصير الدولة الرومانية ومصير الأمة العربية. فإن هزيمة الدولة الرومانية فيها

تنزع من يدها الأماكن المقدسة ويعقبها ضياع مصر وثورة المتربصين بالقيصر وأهل بيته فى بلاده الأسيوية والأوربية، وإن هزيمة الجيش العربى معناها هزيمة الجيش الأكبر الذى لا يتسع الوقت ولا تتسع الطاقة لتجريد جيش غيره على أثر الهزيمة، وقد تغرى القيصر الرومانى بإرسال قبائل الشام فى أعقاب المسلمين إلى الحجاز والجزيرة العربية ولا يبعد أن تثير أبناء الجزيرة العربية أنفسهم على خليفة الإسلام ممن لا تزال لهم ترات تغلى فى حنايا الصدور..

فاستعد الفريقان غاية ما فى الوسع من استعداد.

وارتضى كلاهما موقع اليرموك للوقعة الفاصلة بينهما لأنه يوافق طلبة القيصر من مكان «واسع العطن واسع المطرد ضيق المهرب» ولا يكرهه المسلمون لأنهم رأوا منزل الروم فيه منزلا محصورًا بين النهر والبحيرة والوادى وجيش المسلمين. أو كما قال عمرو ابن العاص حين رآهم: «أيها الناس: ابشروا.. حصرت والله الروم، وقلما جاء محصور بخير».. تحاجز الجيشان أشهرًا لا يشتبكان إلى جمادى الآخرة أو رجب، على قول بعض الرواة.

وكلاهما ينظر كيف يبدأ الآخر هجومه ليرتب له لقاءه، وكلاهما قد عبأ طاقته من سلاح الأيدى، ولم يزل يعبئ طاقته من سلاح النفوس: سلاح العقيدة والفداء.

واستعان الرومان بالقسيسين يلهبون الحمية ويضرمون الحفيظة، ويهونون على أتباعهم بذل الأرواح فى سبيل الملة والدولة والمجد القديم.

وأقبل المسلمون على القرآن يرتلونه وعلى العظات يذمرون بها القلوب، وجعلوا وراءهم حرسًا من الأعراض هو أقوى الحرس بعد الإيمان.. ثم كثرت الحركة أيامًا فى جيش الروم فعلم القادة المسلمون أنهم مقتربون من الهجوم، ولم يشأ خالد أن تبتدئ المعركة بقيادة متفرقة لا تتحد فى نظام واحد. فصرف همه الأول إلى تنظيم الفرق جميعًا فى تعبئة واحدة يقودها رجل واحد، ووجد من زملائه قلوبًا مصغية فأجابوه إلى ما دعاهم إليه.

قال لهم قبل ابتداء القتال: «هذا يوم من أيام الله لا ينبغى فيه الفخر ولا البغى: أخلصوا جهادكم وارضوا الله بعملكم، فإن هذا اليوم له ما بعده، ولا تقاتلوا قومًا على

نظام وتعبئة وأنتم متساندون، فإن ذلك لا يجمل ولا ينبغى.. وإن مَنْ وراءكم لو يعلم علمكم حال بينكم وبين هذا. فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذى ترون أنه الرأى».

ثم قال وقد سألوه رأيه: «إن الذى أنتم فيه أشد على المسلمين مما قد غشيهم، وأنفع للمشركين من أمدادهم، ولقد علمت أن الدنيا فرقت بينكم. فالله الله.. إن تأمير بعضكم لا ينقصكم عند الله ولا عند خليفة رسول الله.. هلموا.. فإن هؤلاء قد تهيئوا وهذا يوم له ما بعده. إن رددناهم إلى خندقهم اليوم لم نزل نردهم وإن هزمونا لم نفلح بعدها. فهلموا فلنتعاون الإمارة، فليكن عليها بعضنا اليوم، والآخر غدًا، والآخر بعد غد، حتى يتأمر كلكم. ودعونى إليكم اليوم».

فأسندوا إليه قيادتهم يومها، وكان توحيده القيادة أول خطوة فى طريق النصر الحاسم بمعركة اليرموك.. ثم أسرع إلى تعبئة قواده وجنوده على الوضع الذى رآه ملائمًا للتعبئة الرومانية، وهو الوضع الملائم للحرب «فى العمق» كما يقول العسكريون فى هذه الأيام.

فأقام عمرو بن العاص على الجناح الأيمن، ويزيد بن أبى سفيان على الجناح الأيسر، وأبا عبيدة بن الجراح على القلب. واتخذ مكانه فى كبة الجمع ولجأ إلى طريقته التى اختارها لحرب بنى حنيفة، وهى طريقة الكراديس، لأنها أصلح الطرق للنفاذ فى الصفوف، وأدعاها إلى التنافس بين المقاتلين، وتمييزهم بالتبعة أو بالثناء.

وكانت كل فرقة من الميمنة أو القلب أو الميسرة تتألف من كراديس عدة، على كل منها قائد معروف، ومنهم صاحبه القديم القعقاع، وزميله فى حرب اليمامة عكرمة بن أبى جهل، وزميله فى دومة الجندل عياض بن غنم، وابنه عبد الرحمن وهو يومئذ دون العشرين. وجملة الكراديس جميعًا ثمانية وثلاثون معظمها فى القلب، وعدته ثمانية عشر كردوسًا، رئيسهم أبو عبيدة وفيهم عكرمة والقعقاع..

وكان موضع الميمنة بحيث يستطيع الالتفاف بالجيش الرومانى إذا أمعن فى الهجوم والإطباق عليه مع القلب إذا ارتد إلى الوراء.

وفرغ من التعبئة فعمد إلى «القوة الأدبية» يوليها حقها من عنايته الكبرى. وأخرج المقداد يقرأ على الجيش سورة الأنفال، ودعا كل رئيس أن يعظ جنده ويبصرهم بمرماه فى

حركاته، وجماع فى العظات خطبة عمرو بن العاص حيث قال: «غضوا الأبصار، واجثوا على الركب، واشرعوا الرماح، فإذا حملوا عليكم فأمهلوهم، حتى إذا ركبوا أطراف الأسنة فثبوا فى وجوههم وثبة الأسد، فو الذى يرضى الصدق ويثبت عليه ويمقت الكذب ويجزى بالإحسان إحسانًا، لقد سمعت أن المسلمين سيفتحونها كفْراً كفْراً وقصرًا قصرًا، فلا تهولنكم جموعهم ولا عددهم، فإنكم لو صدقتموهم الحملة تطايروا تطاير الحجول».

وخطب مثله معاذ بن جبل وأبو سفيان، وبرز القعقاع وعكرمة قائدا المجنبة فى القلب يرتجزان، واختير يوم القتال فى يوم ريح سموم سافياء فى حمارّة القيظ، فكانت طاقة المسلمين به أكبر من طاقة الروم.

ثم اشتبك الجيشان على نحو لا يعلم تفصيله على التحقيق، ولكنه بدأ كما تعودنا فى حروب المسلمين بهجمة شعواء من جانب العدو يتزعزع لها العدد الصغير أمام العدد الكبير، ثم تكون الكرة الثانية لحمية العقيدة ومراجعة الإيمان والاعتصام بنية الفداء.

فلما انكشف المسلمون بعد الهجمة الأولى ثابوا إلى عزماتهم بنخوة الإيمان ونخوة العرض والأنفة. فضرب النساء فى وجوه الخيل قائلات: «إلى أين يا حماة الإسلام وطلاب الشهادة!» وضاح عكرمة كأنه يؤنب نفسه: «قاتلت رسول الله فى كل موطن وأفر اليوم؟ من يبايع على الموت؟» فبايعه أربعمائة من الفرسان المغاوير لا يقوم فى وجههم قائم، وصدموا الروم حتى صدوهم غير حافلين بما أصابهم، وقد قتل فى طليعتهم عكرمة وابنه ومعظم أولئك الفرسان، ولم ينج منهم قط إلا جريح مثخن بالجراح. وأفلحت الكرة الثانية، وتقهقر الروم..

وقد اهتم خالد بالعزل بين خيل العدو ومشاته، فتضايقت الخيل وعجزت عن الجولان وولت هاربة فأخلوا لها الطريق، ورجع المشاة إلى الخنادق فلحقهم بها المسلمون، ثم أحاطوا بهم من ورائهم فشاع فيهم الذعر وسقطوا وهم مولون مهرولون فى هوة الواقوصة أو وادى الرقاد. وقيل إن موتاهم بالواقوصة كانوا أكثر من قتلاهم فى حومة الوغى. لأنهم قدروا بثمانين ألفًا سقطوا فى الوادى فرادى وجماعات. إذ كان بعضهم يقرنون أنفسهم فى السلاسل كل عشرة فى سلسلة واحدة تثبيتًا لأقدامهم وتيئيسًا من

الفرار. فإذا بالوجل يفلّ حديد السلاسل كما فلّ عزائم القلوب، وبلغ اليأس مبلغه من أشراف القوم فقعدوا فى أماكنهم ينتظرون الموت. فكأنهم قد فروا قاعدين!

وحق لهرقل وقد حبطت محاولاته جميعًا بعد اليرموك أن يودع الشام إلى عاصمة ملكه المتصدع وداعًا - كما قال - ليس بعده لقاء.

العزل

يستحق الرجل أن يسمى بطلاً من أبطال التاريخ إذا كان له «دور تاريخي» يقض
ويتسم بملامحه ودواعيه.

وآية انقضاء ذلك الدور أن يبلغ البطل من الأعمال المقدورة له قمتها العليا ال
لا قمة وراءها، وأنه يعدو هذا الدور فإذا هو مفتئت على الآخرين ممن لهم حق مثل ح
فى أدوار التاريخ، أو يعدوه إلى أعمال يغنى فيها الآخرون مثل غنائه، وتدخل فى باب م
السعى والدراية غير بابه..

وقد بلغ خالد فى معركة اليرموك قمته العليا التى لا مرتقى بعدها لراق: قمع فت
الردة، وضرب دولة الأكاسرة ضربته الدامغة، ووحد قيادة المسلمين فى حرب الروما
فصدهم إلى ما وراء حدودهم، ودخلت ميادين الشام وبعدها من أعمال يصح أن تسم
بالأعمال الخالدية. فهى بين حصار أو مراوغة أو تسليم. وإنما يراد خالد لتحطيم قو
الأعداء التى تعز على التحطيم.

وإن يكن من عمل «خالدى» فى ميادين الشام بعد معركة اليرموك فهو عمله فى مر
الروم ثم عمله فى قنسرين[1].

ففى مرج الروم كان هو وأبو عبيدة ينازلها قائدان رومانيان هما جونس وتو
كما سماه خالد، فتسلل توذر تحت الليل ليفاجئ الجيش العربى عند دمشق بقيادة يز
ابن أبى سفيان ويأخذ جيوش المسلمين على غرة متفرقين. فاتفق خالد وأبو عبيدة ع
تعقبه ومفاجآته من خلفه قبل أن يفاجئ يزيد بن أبى سفيان. فأوقعاه فى الفخ الذى نص
ولم يرجع خالد إلى أبى عبيدة إلا وتوذر مقتول وجيشه مبدد كما قال:

نحن قتلنا توذرا وشوذرا   وقبله ما قد قتلنا حيدرا
نحن أزرنا الغيضة الأكيدرا

(١) قنسرين وقنسرون - كورة بالشام - إعجام الأعلام. ص ٢٣٢.

وفى قنسرين حصر خالد الرومان المحتمين بحصونها فطاولوه وأبرموه. فقال محنقاً: «لو كنتم فى السحاب لحملنا الله إليكم أو لأنزلكم إلينا» وأبى أن يصالحهم بعد ذلك إلا على تخريب المدينة ودك حصونها. فختمت بذلك ضرباته الخالديات.

ولكنه كان قبل مرج الروم وقنسرين قد وفى «دوره التاريخى» أكمل وفاء، فلو فاته هذان العملان لما نقص من مجده شىء، ولا تغير مجرى الحوادث فى أعقاب هزيمة الرومان.

* * *

أما سائر الميادين فقد تولاها قواد آخرون ففتحت بقية فارس، وفتحت مصر وشطر من أفريقية الشمالية، وكتبت بذلك «أدوار تاريخية» أخرى للمثنى بن حارثة وسعد بن أبى وقاص والنعمان بن مقرن وعمرو بن العاص، ورجال غيرهم يساوونهم أو يقلون عنهم فى المقدرة ولا يقلون عنهم فى المقصد والنية، وكل زيادة فى عمل خالد لا تضيف إليه مجداً فوق مجده، وتنقص ولا ريب من عمل هؤلاء، وتحرم الإسلام أيدياً كثيرة تعمل له وتدفع عنه. وليس هو بمستغن عن تلك الأيدى الكثيرة بيد واحدة، بالغاً ما بلغ بها الرجحان والاستعلاء.

قلنا فى أول هذا الفصل إن انقضاء «الدور التاريخى» لبطل من الأبطال له آيات تدل عليه، ومنها أن يعدو دوره إلى أعمال يغنى فيها الآخرون مثل غنائه، وتدخل فى باب السعى والدراية غير بابه، ونزيد على هذا أن غناء الآخرين فى هذا خير من غنائه لهو أولى أن يدل على انقضاء دوره وانتقاله إلى من هو أحق وأخلق.

وفى ميدان الشام - بعد معركة اليرموك - كان أبو عبيدة بن الجراح أحق بالموقف الجديد من خالد بن الوليد. لأنه موقف التسليم والمسالمة، واستلال الحقود وضمد الجراح وتقريب القلوب، وفى جميع أولئك يتسع المجال لهوادة أبى عبيدة ويضيق بضربات خالد. فأبو عبيدة يسرع إلى المسالمة إذا فتحت له أبوابها ولا يبطئ عن الحرب إذا وجبت عليه أسبابها، فإن كانت بالمسالمة جدوى فذاك، وإن كان يوم الضربات الخالديات فهى لديه يرمى بها فى مراميها. وإنما يكون العمل الأول هنا لمن يسالم ويتقبل التسليم، ويكون العمل التابع له لمن يرفع سوط النقمة على الذين يلجون فى العداء كأهل قنسرين فلا يسلمون إلا بتخريب الديار ودك الحصون.

ولا جرم كان أبناء الأمصار يتسامعون بحلم أبي عبيدة فيقبلون على التسليم إليه ويؤثرون خطابهم له على خطابهم لغيره، وكان خالد يرضى بهذا حيناً ويسخط منه حيناً، كما سخط عند تسليم دمشق ووساطة أبي عبيدة فى العفو عن أهلها. فإنه كان يحسبهم مغلوبين عنوة فيعاقبون بالسبى والقصاص ولا يبسط لهم مهاد العذر والموادعة، ولولا أنه لا يغدر بعهد عاهدهم به أبو عبيدة لما كان لهم من شرط عنده غير شرطه على أهل قنسرين.

فصواب التاريخ وصواب ابن الخطاب قد تلاقيا ها هنا بإسناد الأمر إلى أبي عبيدة ابن الجراح فى أوانه المقدور، وإن كان تلاقيًا لم يجر على قصد مرسوم.

* * *

تولى الفاروق الخلافة بعد الصديق عليهما الرضوان.

ورأى الفاروق فى أبي عبيدة بن الجراح رأى معروف. فقد كان لا يعدل به أحدًا من الصحابة الأولين، وقد هم بترشيحه للخلافة بعد وفاة النبى عليه السلام، وقال وهو يجود بنفسه: إنه لو كان حيًّا لعهد إليه ولم يلجأ إلى مجلس الشورى الذى وكل إليه أمر انتخاب الخليفة بعده.

وتحدث عمرو بن العاص مرة إلى الفاروق فى رئاسة الجيوش الموجهة إلى الشام فأجابه فى مقال صريح: «.. إنه ليس على أبي عبيدة أمير، ولأبو عبيدة عندنا أفضل منزلة منك وأقدم سابقة، والنبى عليه السلام قال فيه: أبو عبيدة أمين هذه الأمة».

وكما عرف رأى الفاروق فى أبي عبيدة عرف كذلك رأيه فى سابقة الإسلام والغزو على الإجمال. فإنه خالف الصديق فى التسوية بين أنصباء المسلمين كافة يوم أخذ الصديق فى توزيع الأرزاق والأنفال، وجعل للرجل نصيباً يختلف باختلاف سابقته فى الإسلام والجهاد، لأنه «لا يجعل مَن قاتل رسول الله كَمَن قاتل معه، ولا يسوى بين من هاجر الهجرتين وصلى إلى القبلتين وبين من أسلم عام الفتح خوف السيف».

فإقامة أبي عبيدة على ولاية الشام وقيادة جيوشها حادث لا غرابة فيه من الفاروق، ولا ينتظر منه غيره، وبخاصة حين تكون إمارة خالد بن الوليد بغير تأمير من الخليفة الأول، إنما هى اتفاق على تقسيم القيادة بين الأمراء يوماً بعد يوم.

وبهذه المثابة تكون ولاية أبي عبيدة سنّة عمرية معروفة ولا يبلغ منها أن تكون «قضية» بين الفاروق وخالد على الصورة التى هول بها بعض المؤرخين واتخذوا منها محوراً للجدال، والتنقيب عن الأسباب والأقوال..

وإذا نحن تجاوزنا النظر إلى الموضوع من جانب هذه السنّة العمرية، فولاية أبي عبيدة كانت فى اعتقادنا أصلح الولايات للشام فى تلك المرحلة التى انتهت إليها الحرب بين المسلمين والروم.

فما نظن أحداً تفوته حاجة الشام فى مثل تلك المرحلة التى انتهت فيها بطشة الحرب الكبرى، وبدأت فيها ممهدات السلم والحكم والمصالحة. وهذه مهمة وال يحسن الحرب ويحسن التوجيه إليه فى مناسباتها، وليست مهمة قائد عسكرى يجرى الأمر على سنة السطوة العسكرية، ويكون عمله الأكبر تحطيم قوى الأعداء فى ضربة طاحنة، ثم يلاحقهم متى شاء بالمطاردة والتضييق والإحراج، كما كان دأب خالد فى بطشاته التى لا تبقى بعدها بقية لغير الإجهاز

وإذ تكون هذه هى المهمة المطلوبة بعد معركة اليرموك، فلا خلاف فى أى الرجلين أولى بالولاية عند ذاك: أبو عبيدة بن الجراح أو خالد بن الوليد، سواء أكان الخليفة على رأى الفاروق أم كان على غير هذا الرأى فى أمين الأمة وفى سوابق الإسلام والجهاد.

* * *

ونما إلى الفاروق بعد ذلك أن خالداً وعياضاً أغارا على بلاد الروم ورجعا منها بغنائم وأسلاب، وأن الأشعث بن قيس قصد خالداً ومدحه فأجازه بعشرة آلاف درهم، وأجاز آخرين من «ذوى البأس وذوى الشرف وذوى اللسان».

فعظم هذا البذل على الفاروق وكتب إلى أبي عبيدة: «أن يقيم خالدًا ويعقله بعمامته وينزع عنه قلنسوته حتى يعلمهم من أين أجاز الأشعث، هل من مال الله أم من ماله أم من إصابة أصابها؟ فإن زعم أنه من أصابة أصابها فقد أقر بالخيانة، وإن زعم أنها من ماله فقد أسرف» وأمر أبا عبيدة أن يعزله على كل حال وأن يضم إليه عمله - وكان يومئذ يولى أمور قنسرين - وأن يقاسمه ماله نصفين.

فصدع أبو عبيدة بالأمر، وجمع الناس وجلس على المنبر، ودعا بخالد فسأله:

يا خالد.. أمن مالك أجزت عشرة آلاف أم من إصابة؟ فلم يجب وأبو عبيدة يعيد السؤال مرة بعد مرة. فوثب إليه بلال مؤذن النبى عليه لسلام وقال له: إن أمير المؤمنين أمر فيك بكذا وكذا، ثم تناول عمامته ونقضها وعقله بها وخالد لا يمنعه، وسأله: ما تقول؟ أمن مالك أم من إصابة؟ فقال: لا، بل من مالى. فأطلقه وعممه بيده وهو يقول: نسمع ونطيع لولاتنا ونفخم ونخدم موالينا».

ثم قوسم ماله حتى بقيت نعلاه، فقال أبو عبيدة: إن هذا لا يصلح إلا بهذا. فقال خالد: أجل: ما أنا بالذى أعصى أمير المؤمنين، فاصنع ما بدا لك.

ولما علم خالد بعزله ذهب إلى قنسرين فخطب أهل عمله وودعهم ثم ذهب إلى حمص فخطب أهلها وودعهم، وقال فى بعض خطبه: «إن أمير المؤمنين استعملنى على الشام حتى إذا كانت بثنية وعسلا عزلنى وآثر بها غيرى». فنهض له رجل من السامعين فقال: صبرا أيها الأمير، فإنها الفتنة. فما تردد خالد أن قال: أما وابن الخطاب حى فلا».

ثم قصد إلى المدينة فلقى الفاروق فقال له: «لقد شكوتك إلى المسلمين. وبالله إنك فى أمرى غير مجمل يا عمر..» فسأله الفاروق: من أين هذا الثراء؟ قال: من الأنفال والسهمان. ما زاد على الستين ألفاً فلك» فزادت عشرون ألفاً فضمها إلى بيت المال. ثم قال: يا خالد، والله إنك علىّ لكريم، وإنك إلىّ لحبيب، ولن تعاتبنى بعد على شىء»، وأرسل إلى الأمصار يأمر الولاة أن يعلنوا فيها باسمه: «إنى لم أعزل خالداً عن سخطة ولا عن خيانة، ولكن الناس فتنوا به فخشيت أن يوكلوا إليه ويبتلوا. وألا يكونوا بعرض فتنة».

* * *

تلك قصة خالد والفاروق.

وهى قصة تؤلم وتؤسف، إلا أن الألم والأسف فيها من فعل الضرورة التى لا محيد عنها، وليسا من فعل خالد ولا فعل الفاروق.

ومن الحق للرجلين العظيمين أن نفهم هذه القصة على حقيقتها المبرأة من الخلط والجهالة. لأن فهمها على حقيقتها موصول بتقدير الحالة كلها وموصول بتقدير الخليفة العادل وتقدير القائد الكبير.

وأبعد شيء عن هذه الحقيقة أن يكون عزل خالد لضغينة فى نفس عمر أو لتلك المنافسة التى تستحكم بين الأشباه والنظراء، أو لغير سبب من تلك الأسباب التى كان عمر يحاسب بها جميع القادة والولاة.

وأسخف من هذه الظنون أن يسبق إلى الوهم، كما سبق إلى وهم بعض المؤرخين أن عمر قد عزل خالداً لبغضاء قديمة مرجعها إلى الصراع بينهما فى أيام الصبا، وأن خالداً صرع عمر وكسر ساقه فلم يزل بقية حياته واجداً عليه.

وأجهل الناس بخلائق عمر من يجمح به الوهم إلى ظن من هذه الظنون. فليس بين رجال التاريخ جميعاً من هو أصعب تخطئة من عمر بن الخطاب، لأنه ليس بينهم جميعاً من هو أشد حساباً لنفسه ومراجعة لنياته منه، وأغلب الظن عندنا أنه لو أحس فى نفسه نية دخَلٍ أو ثأر قديم لكان أثر هذا الإحساس أن يؤجل عزل خالد ولا يعجل به مخافة من خدعة نفسه وتضليل هواه.

فالحق أن حساب عمر لخالد لم يخالف قط حسابه لجميع ولاته. فكذلك صنع بعمرو بن العاص وسعد بن أبى وقاص، وكذلك صنع بكل وال أحصى ماله فظهرت فيه الزيادة. وقد عزل زياد بن أبيه ثم قال إنه عزله «لأنه كره أن يحمل على الناس فضل عقله» وكان يحسب أنه قادر على أن يسوق العرب بعصاه لو أنه من قريش. ولقد تبين بعد أنه من قريش.

* * *

وكانت سياسة عمر مع الولاة جميعاً أن يراجعوه فى الأموال، وبذلك أشار على أبى بكر فوافاه الحساب من كل وال إلا خالداً أبى وأغلظ له فى الجواب حيث قال: «إما أن تدعنى وعملى وإلا فشأنك وعملك».

فلما بويع عمر كتب إلى خالد أن يراجعه فى حساب المال وألا يعطى شاة ولا بعيراً إلا بأمره، فأحاله إلى ما جرى به العمل قبله. فلم يطقها عمر وقال: ما صدقت الله إن كنت أشرت على أبى بكر بأمر فلم أنفذه».

هذا إلى الخلاف بين سنن عمر فى سياسة الناس وتصريف الشئون وسنن خالد التى طبع عليها. فعمر كان يحب الأناة قبل القتل والقتال ومن ثم كان إنكاره لمقتل بنى جذيمة

ومقتل مالك بن نويرة، وعفوه عن أسرى السواد خلافاً لما صنع بهم خالد فى معركة أليس أو نهر الدم، كما سميت بعد ذاك. وقد حرم عمر «قيس بن سليط» أن يقود جيشاً هو كفؤ لقيادته قائلًا له: «لولا أنك رجل عجل فى الحرب لوليتك هذا الجيش. والحرب لا يصلح لها إلا الرجل المكيث».

وإذا كان عمر قد أوجس من «عقل زياد بن أبيه» وهو مجهول النسب، فالفتنة باسم خالد أعظم وأخطر. إنه لعظيم النزعة إلى الاستقلال، وإنه لمن بنى مخزوم وهم أقوى قبائل قريش منفردين، وله صهر فى سائر القبائل والبطون، ولأبنائه أخوال فى بنى تميم وبنى حنيفة، ولشهرته سحر فى نفوس الناس بفعل الأعاجيب، وللزهو مكان من طباع خالد يحسب حسابه ولا ينساه الخليفة المسئول عن عواقب الأمور فى دولة الإسلام. فقبل أن يقهر خالد دولة الأكاسرة ودولة القياصرة رجع إلى المدينة يومًا فإذا هو يغرز فى عمامته السهام ويدخل المسجد بدرع القتال.. فبعد غلبته على الأكاسرة والقياصرة وشيوع ذكره فى الأمصار ماذا يجرى لو وهن الحكم يومًا بعد «ابن الخطاب ؟.

أما و«ابن الخطاب» حى فلا، كما قال خالد. ولكن ابن الخطاب لا يدوم، والعواقب لا تنكشف، وعزل خالد نقص يعوضه قادة آخرون من حقهم أن يعملوا كما عمل، ومن أثرهم أن يثوب الناس إلى العقيدة وحدها فلا يحسبوا أن النصر رهين برجل واحد لا يرتهن بغيره.

* * *

أما الاحتمال الآخر – إن حدث – فالخطر فيه عظيم، والموازنة بينه وبين كل عاقبة يعقبها عزل خالد لا مجال فيها لتردد طويل.

وهذا كله فضلًا عن مرد العزل إلى القسطاس الذى يرد إليه حساب جميع القواد والولاة. ولم يفت ذلك خالداً بعد هدوء الغضب والمثوبة إلى الرأى، فقال فى مرض وفاته لأبى الدرداء: «قد كنت وجدت عليه فى نفسى فى أمور لما تدبرتها فى مرضى هذا وحضرنى من الله حاضر عرفت أن عمر كان يريد الله بكل ما فعل. كنت وجدت عليه فى نفسى حين بعث إلى من يقاسمنى مالى حتى أخذ فرد نعل وأخذت فرد نعل، فرأيته فعل ذلك بغيرى من أهل السابقة ومن شهد بدراً. وكان يغلظ علىّ وكانت غلظته على غيرى نحواً

من غلظته على، وكنت أدل عليه بقرابة فرأيته لا يبالى قريبًا ولا لوم لائم فى غير الله، فذلك الذى أذهب ما كنت أجد عليه، وكان يكثر على عنده وما كان ذلك إلا على النظر، كنت فى حرب ومكابدة وكنت شاهداً وكان غائباً، فكنت أعطى على ذلك، فخالفه ذلك من أمرى».

ولقد توفى رحمه الله وهو يجعل وصيته وتركته وإنفاذ عهده إلى عمر بن الخطاب.

* * *

ونحن اليوم ننظر إلى القصة بعين التاريخ فنرى - كما أسلفنا - أن الفاروق إنما ختم دوراً ختمه القدر وانقضت به الحوادث. فلم يكن بعد القمة التى ارتفع إليها خالد فى ضربته لدولة الرومان مرتقى لراق. ولعل مجده الباذخ قد كانت تعوزه قمة من نوع غير تلك القمم التى تسنم فيها صعداً من غلبته على طليحة ومسليمة إلى غلبته على القياصرة والأكاسرة: تلك هى قمة التجمل والإخلاد إلى الواجب الأليم يوم عزله، فهى والله لما يحسب له إلى جانب قممه البواذخ، قمم العظيم الظافر الجسور.. وأين لولا عزله كنا نبصر بينها قمة العظيم الصابر المطيع.

عبقريته الحربية

كسبت المعارك الحاسمة لأسباب لا تحصى، وكسبت معارك شتى للسبب ونقيضه، وربما تعرض النقاد العسكريون للمعركة الواحدة فإذا بهم يردون النصر فيها إلى أسباب تتناقض وتتباعد كأنهم يتكلمون عن النصر والهزيمة.

كسب بعض المعارك لأن الأقواس كانت أكثر من السيوف، وكسب بعضها لأن السيوف كانت أكثر من الأقواس.

وكسبت معارك حاسمة لأن رماح المنتصرين كانت أطول من رماح المهزومين بشبرين أو بضعة أشبار، وكسبت معارك غيرها لأن الرماح كانت تتلاحق فى طولها على حسب الصفوف.

وفى بعض المعارك كان الفرسان فى الوسط فقيل إن هذا كان من دواعى النصر العاجل، وفى معارك أخرى قيل إن دواعى النصر إنما ترجع إلى قيام الفرسان على الجانبين.

وكثيرًا ما يقال إن اشتراك الفرسان والمشاة فى العمل كفيل بالغلبة فى بعض الميادين، ثم يدور الكلام على ميدان آخر فيقال إن تربص الفرسان بمعزل عن القتال إلى ساعة الفصل هو الكفيل بالغلبة المؤزرة حتى نهاية القتال، وربما قيل إن ظهور الفرسان فى ميدان يضيق عن حركات المناورة، جنى على الفرسان وعلى المشاة فدب الفشل فى صفوف هؤلاء وهؤلاء..

ولقد يحاول بعض الخبراء أن يجمعوا أسباب النصر إلى قاعدة موجزة فيقولون كلامًا يحسن الاطلاع عليه، ولكنه كلام يقرؤه القائدان معًا فيبوء أحدهما بالنصر ويبوء الآخر بالهزيمة.

مثل هذه القواعد الموجزة كمثل القاعدة التى توجز لك البلاغة الشعرية فى كلمات

ثلاث وهى: الوزن، واللفظ، والمعنى. ولا خطأ فى هذا الإيجاز، ولكنه مع هذا لا يعلم الشاعر الصواب.

وقصارى ما يقال بعد تقرير الأسباب وتدوين القواعد أنها لا تمنع الفروق بين معركة ومعركة وميدان وميدان، وأن القائد الموفق هو الذى يلمح هذه الفروق فيعمد إلى العمل اللازم فى الوقت اللازم بالقدر اللازم، فلا ينقص أو يزيد، ولا يتقدم أو يتأخر، ولا يوحد العمل مع وفرة الفروق..

وإذا كان كل شىء فى المعركة يتوقف أحيانًا على كذا أو كذا من الخطوات فى السبق إلى حومة القتال، وكذا أو كذا من الأشبار فى طول الرماح، وكذا أو كذا من التفاوت فى سرعة القذيفة هنا أو هناك، أو كذا وكذا من الحركات إلى اليمين أو إلى الشمال أو إلى الأمام أو إلى الوراء، فتفصيل أسباب النصر فى المعارك القديمة على التخصيص ضرب من المستحيل، لأن إثبات الفوارق بين المعسكرين فى الأسلحة والمواعيد والعدد والحركة غير ميسور. وأقصى ما نطمع فيه أن نقنع بالإجمال دون التفصيل..

وإجمال القول فى توفيق خالد بن الوليد أنه لم تُعوِزه قط صفة من صفات القائد الكبير المفطور على النضال: وهى الشجاعة والنشاط والجلد واليقظة وحضور البديهة وسرعة الملاحظة وقوة التأثير.

كان يضع الخطة فى موضعها ساعة الحاجة إليها. فكان يحارب بالصفوف كما كان يحارب بالكراديس، وكان يحارب الكمين والكمينين كما يحارب أحيانًا بغير كمين. وكان يستخدم التورية والمباغتة والسرعة على أنماط تختلف باختلاف الدواعى والأحوال.

وقد علم أن تمزيق الجيوش أجدى فى الحرب من الحصار والاحتلال.

وعلم أن الخبر قوة وسلاح. فكان يستطلع أخبار العدو ولا يتيح له أن يستطلع خبرًا من أخباره يفيده أو يحميه من بأسه.

وأجدى من هذا جميعه أنه كان لا يغفل عن القوة الأدبية يعززها ما استطاع فى جيشه ويضعضها ما استطاع فى جيش عدوه.

فكان هو نفسه مادة لهذه القوة الأدبية تجيش بها نفوس أنصاره فيثقون بالفوز

ويأمنون خطر الهزيمة، وتشيع فى نفوس أعدائه فيسرى إليهم الذعر وتفارقهم الثقة والطمأنينة.

* * *

وإلى هذا كان يعتمد على قوة الإيمان وهمة الأمل، فيتعهد جيشه بالعظات قبل القتال وفى أثناء القتال، ولا يفوته وهو مشغول بالضرب والطعن والتوجيه والمراقبة أن يطوف بين الصفوف للتذمير والتشجيع، فيعمل ويقول القول الذى هو ضرب من العمل، فإذا قال: «إن الصبر عز وإن الفشل عجز وإن الصبر مع النصر» فليست هى أصداء تمر بالهواء ولكنها هى العز والصبر ماثلان للعيان يسريان بالقدوة منه إلى كل مسمع وجنان..

وإلى هذا وذاك كان يثير المنافسة الكريمة فى صدور جنده وأعوانه، فيدعوهم إلى التمايز والتناظر لينفث فيهم مع عزيمة الإيمان عزيمة أخرى من حب الفخار وخوف المسبة والعار.

ويتخذ من الغيرة على العرض مددًا لهذه العزائم التى تواجه الموت على حد قوله كما تواجه الحياة. فإذا بالرجل الفرد يبلى فى قتاله ما ليس يبليه عشرات..

* * *

ولم يخف عليه قط مقتل العدو من قوته الأدبية حيثما عمد إلى هذا المقتل فى منازلاته للمستبدين والطغاة. فإنهم فى جيوش الأمم التى طال عهدها بالظلم يرتفعون إلى مقام الأرباب من حيث يتحدر رعاياهم إلى مقام القطيع السائم. فإذا أصيب القائد فى الجولة الأولى فكثرة الجند بعد ذلك معوان على الهزيمة وليست بالوقاية منها، لأنها كثرة من الخوف والذعر وليست كثرة من الثقة والثبات.

ولقد كان هو يخلق فنون الحرب التى يجمعها «الخبراء» فى عصورنا هذه بمراجعة الحروب، وتحصيل الدروس، واستخراج القواعد من الخطط والمعلومات..

قرأنا فى كتاب «فن الحرب اليوم»[1] لمؤلفيه من قواد البحر والبر والهواء: «عند بحث هذه المسألة ينبغى أن نحضر فى أذهاننا أنه مع استثناء قليل لم يكن ثمة إلا نوعان من

(١) Warfare Today الأميرال باكون والجنرال فلو ومارشال الطيران باتريك ·لايفير.

السلاح سيطرا على حومة القتال، وهما السلاح المقذوف والسلاح الضارب أو القارع، أى النبـل أو السهم أو الرصـاصة من جـانب. والهـراوة والسيف والـرمـح من الجـانب الآخـر. ومجمل ما يقال بعد هذا إن الصف هو أنسب الأوضاع لتطور قوة السلاح المقذوف، وإن الكردوس أنسب الأوضاع لنطور قوة السلاح الضارب. لأن الرماة بالقذائف يحتاجون إلى مدى مكشوف، وإنما يتأتى الضرب فى العمق كرات متلاحقات من المقاتلين جماعات جماعات».

إن خالد بن الوليد لم يقرأ هذا ولم يفته شيء بفواته عنه، لأنه قد علم كنهه ولبابه من بديهته الحربية فقاتل بالصفوف حيث تغنى الصفوف، والكراديس حيث لا تغنى إلا الكراديس.

وفى هذا الكتاب أيضًا يقول المؤلفون: «يتضح مما تقدم أنه فى حملات السلاح الضارب هناك أمران ضروريان: وهما الاستطلاع وكتمان الحركات. والغرض من الاستطلاع وزن قوة العدو، ومن كتمان الحركات أن تحول بينه وبين وزن قوتك وتوقع الهجمة من أى موضع تكون»..

ثم يتكلمون عن الاستطلاع كما يجرى فى عصرنا الحديث فيقولون: «وعلى هذا يجرى الاستطلاع من الهواء قبل الحركات الأولى وفى خلالها، وتتقدم الكراديس فى أثناء ذلك على نظام المعركة، أى على النظام الذى تتألف به حين تدعى إلى الهجوم».

وهذه هى ربيئة خالد للاستطلاع، ومسيره «على التعبئة الكاملة» التى يهجم بها ساعة اللقاء بالنظام الذى كان يسير عليه، ثم يدخل فى التحام قريب ولا يطيل فى موقف التقاذف بالنبال والسهام.

وتقرأ فى كتاب «الأسلحة وفنون التعبئة»(١) لمؤلفه ونترنجهام الذى كان محررًا لمجلة الجيش والبحرية بالولايات المتحدة: «أن سرعة الحركات وقوة الإصابة وتدبير الوقاية هى الآن – كما كانت فى كل زمان – بعض مفاتيح النصر التى لا شك فيها، فإذا كسبت المعارك أحيانًا بالمفاجأة أو التركيز فى الموضع الحاسم وفى الوقت اللازم أو المناورة

---

(١) Wintringham: Weapons and tactics

البارعة، فهذه المزايا إنما تستمد مباشرة من التفوق فى سرعة الحركة أو فى الإصابة أو فى تدبير الوقاية».

وخالد بن الوليد لم يقسم فن التعبئة هذا التقسيم حين علم أنه يضمن سرعة الحركة باقتحام الصحراء المخيفة، ويضمن المفاجأة بهذا الاقتحام، ولا يزال واثقًا بالوقاية حيثما حارب وظهره إلى الصحراء، أو حيثما تقدم وراء جيش مهزوم لا يتماسك له قوام.

* * *

ووضع الخبير الحربى المشهور ليدل هارت(١) كتاباً مستقلا عن فن سوق الجيوش على طريق التورية لخصه فى قوله: «إن التحرك فى الوجهة المتوقعة يحفظ توازن العدو ويزيد بتثبيت هذا التوازن قدرته على المقاومة، وفى الحرب - كما فى المصارعة - إنما يتأتى أن تغلب الخصم دون أن تزحزح قدمه وتخل توازنه باستنفاد قوتك أنت استنفاداً لا يناسب الجهد الذى يلقاه خصمك. ولن يتاح النصر بهذه الوسيلة إلا بفضل الرجحان الكبير فى قوتك على نحو من الأنحاء. وقد يضعف الحسم فى النتيجة مع ذاك. وعلى نقيض هذا ينبئنا التاريخ العسكرى فى جميع العصور لا فى عصر واحد، وفى جميع الحروب الحاسمة على التقريب، أن الإخلال بتوازن العدو نفسيا وماديًّا هو المقدمة التى لا محيص عنها للقضاء عليه»..

وهذا الإخلال بالتوازن هو الغاية التى كان يتوخاها ابن الوليد، إما بالهجوم من جهتين أو ثلاث جهات، وإما بالمفاجأة التى لا تتوقع بحال من الأحوال، وإما بالكمين الذى يدخل اليأس على العدو فى ساعة حرجة، وإما بالتطويق من حيث لا ينتظر التطويق.

وكل أولئك مفهوم جد الفهم أن يزلزل الأقدام ويخل التوازن، وكل ما يزلزل أقدام الإنسان فى الحرب أو السلم فهو كذلك مفهوم جد الفهم من أقدم الزمان. ولكن القدرة حق القدرة هى معرفة الوقت، ومعرفة الوسيلة، ومعرفة التنفيذ متى عرف الوقت وعرفت الوسيلة، وبهذا دون غيره تتجلى «معرفة» القواد الملهمين..

---

(١) The Stratcgy of Indierct appreach: by Liddelly Hart

وقال خبير حربي آخر هو أرثر برني[1] في كتابه «فن الحرب» معقبًا على حروب الفرس واليونان: «كانت قوة الفرس، جنوداً، قائمة على الخيالة والرماة. وكانت طريقتهم في القتال أن يمطروا العدو سهامًا ثم يجترفوه بجملة من الفرسان في الوقت اللازم، وأفلحت هذه الطريقة مع أصحاب الأقواس من الميديين، وأصحاب الرماح الراكبة من الليديين، وأصحاب المشاة الثقيلة من البابليين والمصريين . لكنها خابت مع اليونان، وكانت التبعة في خيبتها على ضعف فرق المشاة الفارسية،فإذا ما استطاع الجند الإغريق أن يقتربوا - وكل شيء يتوقف على هذا - تناولوا المشاة الفرس على عجل بسيوفهم القصيرة ودروعهم الصغيرة..»

ولو عمم هذا الخبير القول، لوجب أن يقول إن الذى خيب طريقة الفرس مع اليونان، هو الذى خيبها مع العرب من أيام ذى قار إلى أيام خالد بن الوليد، فالهجوم من قريب بالسيوف القصيرة والدروع الصغيرة هو الجنة التى احتمى بها العرب من الرماة ومن الفرسان، بل من الفيلة فى بعض الأحيان، وقد قيل فى الأمثال الشعبية التى هى أصدق من قواعد الخبراء «الذى تغلب به العب به» وقد كان خالد يعلم أن الالتحام هو أنفع ضروب القتال للجندى الذى ينافح عن عقيدة ويضرب بالسلاح الخفيف. فلم يلق الفرس ولا الروم إلا فى التحام.

وقد صح هنا رأى ونترنجهام مؤلف كتاب «الأسلحة وفنون التعبئة» الذى سبقت الإشارة إليه حين قال: «إن بعض الجماعات الإنسانية بطيئة التغير، ومن هذه الجماعات الممالك الآسيوية التى يحكمها ملك أو عاهل مرفوع النسب إلى السماء، فإنها تنتظم على سنن فحواها أن التغيير لا ينبغى، وأن العادات المأثورة كلها حسنة قويمة وأن كل ما يعمل الآن خليق أن يعمل كما قد عمل منذ أزمان، وربما لاذت بعض الأمم التى هى أقرب إلى التقدم بفترة من فترات الراحة تستبقى فيها التقاليد والمأثورات على سنة المحافظة على القديم. فإذا برزت جماعات من هذا القبيل للقتال برزت وفى رءوس قوادها وجنودها فكرة عتيقة عن الحرب وحقيقتها، ولم يغيروا خططهم وآراءهم للانتفاع بسلاح جديد أو معرفة جديدة، ورسخت عندهم أصول رجعية للحرب أو لم تكن لهم فيها

---

(١) The Art of war: by Arthur Birine

أصول على الإطلاق، ولكنهم يمضون بحكم العادة وفاقًا للترتيب الذى وضع منذ عهد بعيد وإن هذه الجماعات لتخرج جيوشًا ليس أسهل من تحطيمها بجيوش الأمم التى يسهل عليها اتخاذ الأساليب الجديدة ومواجهة الغير والطوارئ».

ولو شاء صاحب هذا الرأى لشمل الدولة الرومانية فيما حكم به على الدول الآسيوية، لأنها كانت تقاتل بخطط وضعها الأقدمون لها منذ قرون، وهى على هذا عاجزة عن تنفيذ القديم عجزها عن ابتكار الجديد.

وجملة القول أن خالدًا كان يحارب بالقريحة الملهمة أناساً رثت عقائدهم كما رثت ملكاتهم العسكرية، فكانوا يرتبون كتائبهم وأسلحتهم فى الميدان على نحو مرسوم كأنهم قائمون فى مراتبهم بديوان التشريفات. وكان خالد يلبى الضرورة عفو الساعة فى ترتيب كل كتيبة وكل سلاح، فإذا بدا له أن الخيالة لا تجدى فى الحركة جدوى المشاة ترتبت حركات الجيش معه كما تترتب الحركات فى أعضاء الجسم الشاعر بتلبية الأعصاب والجوارح لمراكز التنبيه فى الدماغ، فيترجل وقد ترجل معه كل من تنفعه الحركة على قدميه فى كرّه وفرّه وهجومه ودفاعه.

وإذا بدا له أن الحرب بالجماعات أنفع من الحرب بالصفوف المختلطة، فما هى إلا كلمة قالها حتى تتلاقى تلك الجماعات كل منها إلى قائدها المختار: «تمايزوا أيها الناس» فإذا هم بعد لحظات متمايزون..

وكانت مادة القتال التى يعمل بها من جند أو سلاح تغنيه وتلبيه. فكان جنده يصبرون على الشدة ولا يروعهم فقد مفقود، لأنهم مؤمنون عالمون أن الموجود هو رب القائد والمقود، وكانوا يصبرون على الهزيمة لأنهم عرب معودون فى غزواتهم أن يكروا بعد فر، وأن يجتمعوا بعد تفرق، فهم يحسبون النكوص ضربًا من التحفز للوثوب. أما خصومه فكانوا يتساقطون تباعًا كما تتساقط حجارة اللعب المرصوصة إذا سقط منها الحجر الأول.. فلا تماسك لها بعد ابتداء السقوط..

ومن ثَم كان نمطًا فريدًا بين قواد التاريخ، لأنه يمزج الفن بالبديهة، كما يمزج فن البداوة بفن الحضارة، وكان يقتبس ويجدد بالرأى والفطنة كما يقتبس ويجدد بغريزة موروثة من قبيلة «القبة والأعنة» يصح أن تسمى غريزة الميدان. وقد تصعب المقارنة بينه

وبين قواد العصور الحديثة لاختلاف الأسلحة والمسافات، وإن كنا نعتقد أن القائد العبقرى تسعفه عبقريته على اختلاف العصر والسلاح.

ولكن المقارنة بينه وبين قواد الطراز الأول من الزمن القديم تقدمه إلى المرتبة الأولى بين أكبر القواد، ومنهم الإسكندر وبلزاريوس اللذان حاربا عدوًّا كعدوه فى ميدان كميدانه. فالإسكندر فى وقعة «أربل» هزم جيشًا فارسيًّا تقدر عدته بمائة ألف من الفرسان والمشاة، وبلزاريوس فى وقائع أرمينية هزم جيشًا فارسيًّا تقدر عدته بأربعين ألفًا أو قرابة الأربعين.. والمقارنة بين خالد بن الوليد وهذين القائدين ترجح كفته على كفتيهما معًا فى هذا الميدان، لأن الإسكندر كان يقود خمسة وأربعين ألفاً وبلزاريوس كان يقود نيفًا وعشرين ألفًا، وكلا الجيشين مسلح بأمضى الأسلحة فى ذلك الزمان..

وقد كان خالد يحارب بثمانية عشر ألفا جيوشاً أعظم من الجيوش التى تصدى لها القائدان الكبيران، ولم يكن له مثل سلاح المقدونيين أو سلاح الرومانيين، ولم يكن نصرهما كنصره ولا العاقبة بعدهما كالعاقبة بعده. وزاد على ذلك أن انتصر مثل هذا النصر على كل عدو من العرب أو العجم، ومنهم الرومان فى أكبر الميادين، ميدان اليرموك.

فمكان خالد فى التاريخ العسكرى هو مكان الطليعة بين أكبر القواد الذين اشتهروا بالفن أو اشتهروا بالعبقرية أو اشتهروا بالمناقب الشخصية. وفيه من ملامح القيادة فى العظائم والصغائر ما يدل على طبيعة القيادة الملهمة، وإنه كان كما يقال قائدًا من فرع رأسه إلى قدميه.

فقد خالد قلنسوته يوم اليرموك فقال: اطلبوها. فبحثوا ونظروا فلم يجدوها، فما زال بهم يأمرهم أن يطلبوها ويلحوا فى طلبها حتى وجدوها، فإذا هى خلقة لا تساوى شيئاً. فسئل عن ذلك فقال: «اعتمر النبى صلى الله عليه وسلم فحلق رأسه فابتدر الناس شعره فسبقتهم إلى ناصيته فجعلتها فى هذه القلنسوة، فلم أشهد قتالا وهى معى إلا تبين لى النصر».

رحمه الله! لم تفته من سمات القيادة حتى التعويذة المشهورة بين رجال الحروب.. فما زال معلومًا عن كبار الجند أنهم يأنسون إلى تعويذة يعتزون بها ويستبشرون بصحبتها وهم يخوضون غمرات الموت . وما فى ذلك من عجب، فليس أحوج إلى صلة بعالم الغيب من رجل يلقى الموت صباح مساء.

وقال خالد فى أخريات عمره: «ما ليلة يهدى إلىّ فيها عروس أنا لها محب، أو أبشر فيها بغلام، أحب إلىّ من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين، أصبح بهم العدو، فعليكم بالجهاد».

هذا حبيب الحرب الذى يهواها وتهواه. فله منها الصفوة التى لا تصطفى بها أحدًا من الطلاب والقرناء على بغضاء.

مفتاح شخصيته

تقدمت الإشارة إلى قصة الشبه القريب بين خالد بن الوليد وعمر بن الخطاب فى ملامح الوجه وطول القامة، وأنهما كانا من التقارب بحيث يشتبه الأمر على قصير النظر وهو يتكلم إليهما، فيخاطب عمر بن الخطاب وهو يظن أنه يخاطب خالد بن الوليد.

ويلوح لمن يقرأ سيرة الرجلين أن الشبه بينهما يتعدى الملامح والقامة إلى معالم الشخصية وطبائع القوة النفسية، فكلاهما يجوز أن يقال فيه إنه «جندى» بالفطرة وإن «مفتاح شخصيته» هو السليقة الجندية، فإذا أحضرنا فى أخلادنا كلمة «الجندى» أو الجندى المطبوع لم نجد فى ابن الخطاب ولا فى ابن الوليد صفة لا تحتويها الكلمة فى معنى من معانيها.

وبين الرجلين فارق لا خفاء به فى الخُلق والتفكير.

لكنه فارق لا يخرج بهما من نطاق هذه الطبيعة، فكلاهما جندى مطبوع على الخلائق الجندية، ولكن ابن الخطاب تغلب عليه، من مزاج الجندى، ناحيته الروحية أو ناحية الضمير، وابن الوليد تغلب عليه من هذا المزاج نفسه، ناحية الحيوية أو ناحية البنيان والتركيب.

وأصح من هذا أن نقول إن عمر كان جنديًّا فى أخلاقه الوازعة الحاكمة، وإن خالدًا كان جنديًّا فى أخلاقه الدافعة الهاجمة. وفى الجنود - كما لا يخفى - هذه الأخلاق وهذه الأخلاق.

ولا ريب أن هذا الفارق بين الفاروق وسيف الله إنما هو قبل كل شىء فارق بين نفسين، أو بين رجلين، أو بين «شخصيتين».

لكن هذا لا يمنع أن يكون فى الوقت نفسه فارقاً بين «قبيلتين» وبين أسرتين وبين نشأتين. فإن الفوارق بين بنى عدى قبيلة عمر، وبين بنى مخزوم قبيلة خالد، لخليقة أن تتجه بالمزاج المتقارب وجهتين متباينتين.

فبنو عدى – آل عمر – كانوا فى الجاهلية أهل تحكيم ومعرفة بالفصل فى الخصومات، وقد ذاقوا، كما قلنا فى «عبقرية عمر»: «طعم الظلم من أقربائهم بنى عبد شمس، وكانوا أشداء فى الحرب يسمونهم «لعقة الدم»، ولكنهم غلبوا على أمرهم لقلة عددهم بالقياس إلى عدد أقربائهم. فاستقر فيهم بغض القوى المظلوم للظلم وحبه للعدل الذى مارسوه ودربوا عليه..»

أما بنو مخزوم – آل خالد – فكانوا على خلاف ذلك أهل حرب وسطوة وأصحاب ثراء ورخاء، وكانوا فى الجاهلية موكلين بالخيل والسلاح معتزين بالعتاد التليد، والعدة والعديد.

وكان ثراؤهم يملى لهم فى أسباب الترف والنعيم كما تملى لهم فيه مزية أخرى من المزايا التى تكفلها للقبيلة عزة السلطان وطول العهد بالحضارة والرئاسة، وتلك المزية هى جمال النساء.

فقد كان يقال إن «المخزوميات» رياحين العرب.

وكان فى رجالهم ذلك الغزل الذى أخرج منهم شاعره الأول عمر بن أبى ربيعة، بل أخرج منهم غزليين ظرفاء حتى فى النساك والأتقياء.

جاء فى كتاب الأغانى عن أبى السائب المخزومى: «أنه كان رجلاً صالحاً زاهداً متقللاً يصوم الدهر، وكان أرق خلق الله وأشدهم غزلاً. فوجه ابنه يوماً يأتيه بما يفطر عليه، فأبطأ الغلام إلى العتمة. فلما جاء قال له: يا عدو نفسه، ما أخرك إلى هذا الوقت؟ قال: جزت بباب بنى فلان فسمعت منه غناء فوقفت حتى أخذته، فقال: هات يا بنى، فوالله لئن كنت أحسنت لأحبونك، ولئن كنت أسأت لأضربنك. فاندفع يغنى بشعر كثير:

ولما علوا شغبا[1] تبينت أنه ... تقطع من أهل الحجاز علائقى
فلا زلن حسرى ظلعًا. لم حملنها ... إلى بلد ناء قليل الأصادق

«فلم يزل يغنيه إلى نصف الليل. فقالت له زوجته: يا هذا، قد انتصف الليل وما أفطرنا. قال لها: أنت طالق إن كان فطورنا غيره. فلم يزل يغنيه إلى السحر. فلما

(١) سهل بين طريقى مصر والشام.

كان السحر قالت زوجته: هذا السحر وما أفطرنا، فقال أنت طالق إن كان سحورنا غيره. فلما أصبح قال لابنه: خذ جبتى هذه وأعطنى خلقك ليكون الحباء فضل ما بينهما. فقال له: يا أبت.. أنت شيخ وأنا شاب، وأنا أقوى على البرد منك. قال: يا بنى.. ما ترك صوتك هذا للبرد علىّ سبيلاً ما حييتُ».

واطرح كل ما فى هذه القصة من المبالغة والإغراق تبق منها بقية كافية لبيان مكان الغزل من نساك بنى مخزوم، فضلاً عن الشعراء والظرفاء.

وندع القبيلة إلى الأسرة فيتراءى لنا فى النظرة الأولى ذلك الاختلاف الذى لابد منه بين معيشة الخطاب ومعيشة الوليد، أو بين معيشة الرجل الكادح لنفسه الخشن فى ملمسه، وبين معيشة الرجل المترف الفخور بالمال والبنين والجاه المكين.

لكنه مع هذا فرق فى المعيشة لا يتغلغل إلى بـواطن الطبـاع. إنما الفـرق المتغلغل إلى بواطن الطباع، بل إلى أعمق أعماقها، هو فرق البنية العصبية بين أبناء الخطاب وأبناء الوليد.

فمن أوصاف أبناء الوليد عامة ينكشف لنا «قلق عصبى» فى هذه الأسرة قد تطرف جد التطرف فى أفراد منها، واعتدل بعض الاعتدال فى آخرين..

فعمارة بن الوليد هو الذى بلغ منه الاضطراب أن يراود امرأة فى محضر زوجها، وأن يجترئ على حرم النجاشى بالمغازلة، ثم يجترئ بالتحدث عن هذه المغازلة حديث الفخر والمباهاة، ثم ينطلق مع الأوابد فى الآجام بفعل السواحر كما قيل، وهو قول لا يخفى مدلوله فى لغة العصر الحديث.

وذكر عن خالد كما ذكر عن أخيه الوليد أنه كان يتفزع فى نومه. فذاك أثر من آثار «أعصاب» الأسرة كلها على ما هو واضح من جملة المشاهدات فى أبنائها. وإن كان يجمح بهم فى حين ويكبح فى حين.

وقد كان خالد يغضب فينتقع لونه كما جاء فى كتب الفتوح من حـديث المغاضبـة بينه وبين أبى عبيدة بعد تسليم دمشق ومصالحة أهلها. وقد كانت علة المغـاضبة أن أبـا عبيدة يحسب التسليم صلحًا، خالدًا يحسبه غلبًـا يحق فيه عـلى المغلوب جزاء السبى والاغتنـام والقصاص.

وكانت فى خالد حدة يملكها أو تملكه آونة بعد آونة. وفى القليل الذى بلغنا إشارة إلى الكثير الذى لم يبلغنا. فقد غاضب أبا عبيدة وغاضب عبد الرحمن ابن عوف وغاضب عمار بن ياسر. وقال له عمار وقد سمع منه ما ساءه: «لقد هممت ألا أكلمك أبداً» فأصلح بينهما النبى عليه السلام وهو يقول لخالد: «يا خالد.. مالك ولعمار.. رجل من أهل الجنة قد شهد بدراً» ثم يقول لعمار: «إن خالداً يا عمار سيف من سيوف الله على الكفار».

فهذا الفارق بين الأسرتين، وذلك الفارق بين القبيلتين، مفسران صالحان لاختلاف لونى «الجندية» فى شخصية الرجلين العظيمين: عمر إلى الجندية الموزوعة، وخالد إلى الجندية المدفوعة، وعمر إلى الشظف المختار وخالد إلى المتاع المباح.

ولا يرد إلينا العجب بعد هذا أن يكون شعور خالد بالمرأة هو شعوره ذاك الذى أهدفه للملاحظة والمؤاخذة مرات، وجعل من مؤاخذيه أرغب الناس فى عذره والثناء عليه، ونعنى به الخليفة الصديق.

وقد كان هذا الشعور يلازمه ما يلازم أبناء الثراء من حب الرفاهية وبهجة الحياة. فلم يفرغ من الحرب قط إلا انقلب منها إلى واد ظليل فى صحبة زوجة محببة إليه. فقضى فى وادى الوبر باليمامة أيام الدعة بين زوجيه بنت مجاعة وبنت المنهال. وقضى فى دومة الجندل أيام الهدأة بين الوقائع فى صحبة ابنة الجودى الحسناء. واستطاب المقام بحمص بعد العزل وآثره على المقام بالحجاز. وأغضب الفاروق لأنه «كان يدخل الحمام فيتدلك بعد النورة بثخين معجون بخمر» فلما لامه الفاروق فى ذلك قال: إنا قتلناها فعادت غسولاً غير خمر، ثم قال يخاطب عمر:

سهّل أبا حفص فإن لديننا ... شرائع لا يشقى بهن المسهّل
وهل يشبهن طعم الغسول وذوقه ... حميا الخمور، والخمور تسلسل

وفى كل أولئك هو سليل حق لبنى مخزوم ولبيت الوليد، وترجمان صدق لتلك البنية العصبية المتفززة التى تجنح به إلى المتعة فى أيام الدعة، كما تجنح به إلى البطش فى مقام الجلاد والعناد، وتفسر لنا الجندى الذى تميل به القوة الحيوية تارة إلى لقاء الحسان وتارة إلى لقاء الأقران.

وهو نفسه قد أبان عن طويته كلها غير عامد حين قال: «ما ليلة يهدى إلى فيها عروس أنا لها محب أو أبشر فيها بغلام، أحب إلىّ من ليلة شديدة الجليد فى سرية من المهاجرين أصبح بهم العدو، فعليكم بالجهاد»..

فالحرب عنده اشتهاء، والعروس عنده غاية المتاع.

والحرب فى رأيه حسناء تشتهى أبداً ولا تشيب كصاحبة الزبيدى التى تكون فى مبدئها «فتية تسعى بزينتها لكل جهول» ثم تصبح:

شمطاء جزت شعرها وتنكرت مكروهة للشم والتقبيل

وأيًّا كانت متعته بالمرأة الحسناء أو بالمقام الوثير، فهى متعة القوى اليقظان وليست بمتعة الضعيف المستنيم.

هى متعة المسافر الذى يستريح إلى الواحة لينفض عنه الجهد ويتزود منها لجهد جديد، وليست متعة المتهافت الذى يتوق إلى مهاد الراحة لينغمس فيها ويستكين إليها ولا يفيق من سكرتها.

بل هو يحب المتعة لأنه يحب الجهاد، فإذا طالت عافها وبرم بها واجتواها، وأنف أن يقنع بها ويستمرئها.. فلم يطق سنة واحدة بالحيرة بين حروب فارس وحروب الروم، وسماها «سنة نساء» لأنها كانت سنة راحة من العناء.. مع أنها كان راحة المتربص المتوفز، وكان راحة تتخللها وثبات وضربات من هنا وهناك.

وهكذا كان يأخذ من المتعة بأيسر المقادير، ليأخذ من الشدة والبأس بأوفر المقادير.

لأن طبيعته القوية هيأته للشدة والبأس قبل كل شىء، وما بقى من الطبيعة للرياضة فقد أتمته الرياضة بعزيمة الجبابرة التى لا تلين. باستمراء ما لا مراءة فيه من طعام وشراب، وبأكل الضب وشرب السم ومطاولة الركوب أياماً بعد أيام.

لا جرم يكون أكبر الأسى لتلك النفس فى ساعة الموت أنها تموت على الفراش أو على حد قوله كما يموت البعير: «لقد طلبت القتل فى مظانه، فلم يقدر لى إلا أن أموت على فراشى.. ولقيت الزحوف وما فى جسدى شبر إلا وفيه ضربة بسيف أو رمية بسهم

أو طعنة برمح، وها أنا أموت على فراشي حتف أنفي كما يموت البعير، فلا نامت أعين الجبناء».

وأقرب شيء أن يلاحظ فى سيرة خالد - من نشأته إلى وفاته - أن هذا الولع كله بالحرب لم يكن ولعًا بالشر والسوء، ولا ولعًا بالضغينة والفضاء، فكانت عداواته كلها عداوات جندى مقاتل ولم تكن عداوات مضطغن آثم.. ولم يعرف قط عنه أنه حمل الضغينة لأحد من الناس. ولو أنه اضطغن على أحد لكان أحق الناس أن يضطغن عليه عمر بن الخطاب، لأنه عزله وشطره ماله وأبقاه فى العزلة سنوات، ولكنه لم يعمل عملاً واحداً، ولم يقل كلمة واحدة تدل على ضغن عليه وقد سامحه والتمس له المعذرة وعلم أنه قد أراد وجه الله بما حاسبه عليه، وكان أشد ما قاله فيه: «الحمد لله الذى قضى على أبى بكر بالموت وكان أحب إلىّ من عمر، والحمد لله الدى ولى عمر وكان أبغض إلىّ من أبى بكر ثم ألزمنى حبه» وربما ذكره وهو غاضب فسماه «الأعيسر بن أم شملة»، فكانت هذه الكلمة أدل على التحبب منها إلى الكراهية، ولاحت كأنها كلمة المغلوب فى لعبة لا فى غرض عظيم يقعد ويقيم.

وقد يمكن كثيراً أن تتسع هوة البعد بين الولع بالحرب والولع بالشر والضغينة، وإنها لأولى أن تتسع بينهما حيث تكون الحرب ميدان التضحية والفداء فى سبيل الغيرة القومية أو فى سبيل الإيمان والضمير، وحيث يكون الرجل قد تربى على مراسها، وطبع فى نفسه على مزاج يألف القتال ولا ينفر منه، وليس فى المجتمعات الإنسانية التى تصبح الحرب فيها ضرورة من ضرورات الحياة والشرف باعث إلى النفرة من القتال، ولن تزال القدرة على الحرب شرفاً وشجاعة إلى آخر الزمان، ما دام فى بنى الإنسان من يحمل السلاح للعدوان، والبغى والتلصص والمراء، فيتقيه بنو الإنسان بمن يحمل السلاح للحق والعقيدة والإنصاف.

وعلى كثرة من قتل خالد فى حروبه لم يكن يقتل أحداً قط وهو يشك فى صواب قتله وإن أخطأ وجه الصواب. فالقتلى الذين طاحت بهم سيوف الجلادين بأمره فى «نهر الدم» كانوا يستحقون عنده القتل قرباناً إلى الله وجزاء لهم على عناد الشرك والإصرار.

أما إذا شك فى صوابه فهو يستكثر المساءة إلى رجل واحد فضلاً عن الجحافل

والقبائل، ويسبق إلى الرفق رجلاً كأبي عبيدة عرف طوال حياته بالرفق والرحمة والأناة. فيقول له وقد تناول رجلاً بشيء: «إنى لم أرد أن أغضبك، ولكنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن أشد الناس عذاباً يوم القيامة أشد الناس عذاباً للناس فى الدنيا».

فهو مطبوع على عداء الجندى المقاتل وليس بالمطبوع على عداء الدسيسة والشر فى صغائر العيش وسفاسف الأمور.

كذلك لا يفهم من ولعه بالحرب على هذه الصفة أنه كان مبتلى بذلك الولع الأهوج الذى يبتلى به من لا يعقلون هجوماً إلا كهجوم الريح أو فراراً إلا كفرار الحيوان.

فقد كان يقدم عن علم بمواضع الأقدام، ولذلك لم ينهزم قط وهو مسئول عن الهزيمة.. وإنما هزم فى حنين مرة واحدة وهو مسئول عن اليوم كله كما قدمناه.

أما إذا وجب التراجع فالشجاعة كل الشجاعة عنده أن يؤمن بهذه الحقيقة وأن يدبر أمر التراجع بعد ذلك على النحو الذى يصون الكرامة ويصون الدماء، ويكون المخدوع المغلوب فيه هو الذى أمكن التراجع من بين يديه، وقد كان فى وسعه أن يبطش بالمتراجعين جميعاً قبل أن يفلتوا من أوهاقه المطبقة عليهم.

هذه هى الجندية البصيرة بمزاياها فى الكفة الراجحة والكفة المرجوحة أو هذه هى الجندية الغالبة أبداً وهى فى إقدام أوفى إحجام.

ولقد كادت هذه الطبيعة الجندية أن تحيط بكل ما رزق من طبيعة حية. فمن أقواله: «إن الجهاد شغلنى عن تعلم القرآن، أو قراءة كثيرة من القرآن.»

وعذره فى ذلك حين قال ذلك المقال أنه لم يقض فى ملازمة النبى غير أوقات جد قصار، لأنه شغل السنوات الثلاث التى قضاها مع النبى بعد إسلامه وهو بين السرايا والغزوات.

وقد كان يخطب ويكتب ويقول الأبيات من الشعر والرجز على مثال ما قدمناه. ولكنها الخطب والكتب التى يستطيعها العربى الفصيح الناشئ فى كنف الفصحاء، ثم هى كلها ملحقة بوظيفة الجندية فيه، فإذا قال كلمة أو كتب سطراً فكأنما يكتب بحسام لا بيراع.

كتب إلى مرازبة فارس فقال: «الحمد لله الذى فض ملككم وأزل عزكم، فإذا أتاكم كتابى هذا فابعثوا إلىّ الرهن واعتقدوا منا الذمة وأجيبوا إلى الجزية، وإلا والله الذى لا إله إلا هو لأسيرن إليكم بقوم يحبون الموت كما تحبون الحياة، ويرغبون فى الآخرة كما ترغبون فى الدنيا».

وخطب المسلمين وقد تهيبوا طروق المفازة من العراق إلى الشام فقال: «لا يختلفن هديكم ولا يضعفن يقينكم، واعلموا أن المعونة تأتى على قدر النية، والأجر على قدر الحسنة، وأن المسلم لا ينبغى له أن يكترث لشىء يقع فيه مع معونة الله له».

ويسمع الكلمة فيردها بالجواب المسكت كأنه يتلقى ضربة سيف بضربة سيف كما قال حين سمع صائحاً فى المعسكر يصيح: ما أكثر الروم وأقل المسلمين..

فلم يكن أسرع منه إلى أن يقول: «بل ما أقل الروم وأكثر المسلمين. إن الجيوش إنما تكثر بالنصر وتقل بالخذلان».

فكل كلمة منه فإنما هى ضربة سيف فى صورة حروف ونبرات.

ومن الملاحظات الجديرة باستقراء علم النفس أنه على التشابه بينه وبين عمر كان فى عمر جانب فكاهة وإن كانت خشنة غليظة، ولم يكن فيه هو مثل هذا الجانب فى عمله أو كلامه.

وقد كان الأدنى إلى الظن – عند النظرة الأولى – أن تنمو الفكاهة مع الرجل الذى نشأ فى مهد اليسار ولا تنمو مع الرجل الذى نشأ على العسر أو اليسر القليل.

لكنها النظرة الأولى ولا تتعداها.

لأن الإعسار فى الواقع أعون على الفكاهة من اليسار، ومن هنا كان ولع الناس بالفكاهة فى أيام الحروب وأزمات الشدة ومظالم الاستبداد، كأنها ضرب من التعويض والمقابلة، ولا غرابة فى ذلك حيث ننظر إلى منشأ الفكاهة فى جملتها، فهى على أكثرها وليدة المفارقة بين الحالات وليست وليدة الموافقة الموائمة. وما أكثر المفارقات فى حياة المعسرين.

ولعلنا نبلغ مقطع القول فى هذه الملاحظة حين نقول: إن الموسر أقدر على التسلية، والمعسر أقدر على الفكاهة وبين التسلية والفكاهة فرق غير مجهول..

رحم الله خالداً.. إنه كان جنديًّا وكفى!

لكنه قد عوض فى جانبه الواحد عن جوانب عدة فى الآخرين، لأنه قد رزق الجندية فى طرازها الأول، ورزق منها وحده ما يكفى عشرة من جنود التاريخ المبرزين.

نهاية من صنع القدر

قضى خالد بقية أيامه بعد عزله فى مدينة حمص - زهاء سنوات أربع - لم يفارقها قليلا إلا ليعود إليها.

وعاش هناك بين أهله وولده وهم كثيرون.

وكأنما كانت للموت ضريبة مقضية على هذا القائد الكبير يطالبه بها فى حربه وسلمه حيث كان. فمات من أولاده نحو أربعين فى سنة الطاعون..

ولم ترو لنا كلمة قالها خالد فى موت هؤلاء الأبناء الكثيرين، وهو الرجل الذى كان التبشير بغلام عنده فرحًا من أكبر أفراح الحياة. فكأنما ألف وجه الموت لطول ما واجهه من قريب، فهو لا يلقاه أبدا لقاء غريب مريب..

* * *

وتعقبت الموت أبناءه الذين بقوا بعد الطاعون وأشهرهم المهاجر من حزب على وعبد الرحمن من حزب معاوية.. فمات المهاجر فى صفين ومات عبد الرحمن مسمومًا على ماقيل، لأنه رشح للخلافة قبل أن يرشح يزيد بن معاوية لولاية العهد . فسقاه معاوية السم على يد الطبيب ابن أثال..

وما هى إلا فترة حتى انقرضت ذرية هذا القائد الكبير - صاحب الموت والقدر - فورث دورهم بالمدينة أحد أبناء أخيه.

وانتهت حياة خالد رضى الله عنه نهايتها العجيبة، بين سنة أحدى وعشرين واثنتين وعشرين.

والنهاية العجيبة لحياة مثله أن يموت على فراشه - كما قال - بعد أن شهد نيفًا وخمسين زحفًا فى نجد والحجاز والعراق والشام، ولم يبق فى جسمه مصح من كثرة الجراح.

وليس هذا كل ما فى موته من «غير المألوف» أو غير المنظور، فإنه مات ولما يجاوز

الخامسة والخمسين على أرجح تقدير، وليست هى بالسن التى تنتهى بها الحياة بغير مرض شديد. فإن كان قد ألم به مرض عارض غير مميت فى جملة أطواره فلعله قد أتم ما بدأه الحزن على الأبناء، والفتور من الراحة، وذلك الاضطراب الذى كان يفزعه فى نومه وينتفع منه لونه إذا غضب أو ثأر.

ولم يوجد فى بيته عند موته غير فرسه وغلامه وسلاح وقفه للجهاد فى سبيل الله. فلما بلغ ذلك عمر قال: رحم الله أبا سليمان كان على غير ما ظنناه به.. ونكس مرارًا وهو يسترجع كلما رفع رأسه. ثم قال: كان والله سدّادا لنحور العدو ميمون النقيبة.

* * *

وقد كان حزن عمر عليه حزن قريب وحزن مسلم وحزن خليفة. قال لأمه: عزمت عليك ألا تبيتى تسودى يديك من الخضاب.

واجتمع بنات عمه يبكين فقيل لعمر: أرسل إليهن فقال: دعهن يبكين على أبى سليمان ما لم يكن نقع أو لقلقة. على مثل أبى سليمان تبكى البواكى».

ولما سئل عمر أن يعهد بعد موته قال: لو أدركت أبا عبيدة بن الجراح ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى: لم استخلفته على أمة محمد؟.. لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول: لكل أمة أمين وإن أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح، ولو أدركت خالدًا ثم وليته ثم قدمت على ربى فقال لى: من استخلفت على أمة محمد؟ لقلت: سمعت عبدك وخليلك يقول لخالد: سيف من سيوف الله سله الله على المشركين؟

ولعمرى إن «سيف الله» قد استحق هذه التزكية وهو فى الغمد كما استحقها وهو مشهور.

فليست سنوات العزلة بأخف السنوات وزنًا فى سيرة خالد بن الوليد.

إن الحوادث قد وعظته بها فاتعظ فى صبر وأناة. فلم يغلبه لسانه ولم يغلبه هواه، ولم يتحرك لكيد ولا لشغب ولا لمذمة ولا لوقيعة. ولو شاء بعض ذلك لكان له مطمع فيه، وهو الرجل الذى طبقت شهرته آفاق المسلمين وغير المسلمين.

نعم إنه لافتنة وابن الخطاب حى كما قال، وإن الفتنة إنما تخشى «إذا كان الناس بذى

بلّى»، أو فى معرض الفرقة والنزاع وعصيان الأئمة أو انقطاع الإمام.

ولكن إدراك هذا وحده مفخرة من المفاخر، وليس كل إدراك كهذا الإدراك بالذى يغلب الهوى ويقمع النزوات.

فلا جرم يرشح الفاروق خالدًا للخلافة كما رشح لها أبا عبيدة، ولا جرم يعرف سيف الله فى الغمد كما عرفه وهو فى يمين البطل الجسور. فإن يكن خالد مخشى المزاحمة على الخلافة فى ظن من الظنون فليس هو بمخشى عليها وقد وصلت إليه معهودًا إليه خالصة من الزحام، وقد استحقها بعد أكبر مستحقيها وريض لها سنوات تجرد فيها من سورة الشباب وبعد ما بينه وبين نشأة الجاهلية، وقرب ما بينه وبين الله.

* * *

لقد مات – نصير الموت – مطمئنًا إلى نهاية حياته، لا يكره منها إلا أنها انتهت به على فراشه.

ولكننا – أبناء آدم – نكره كثيرًا ما يكون من حقنا أن نتمناه. وما كان لخالد أمنية قد بقيت له فى ميدان الكفاح يتمناها. لقد عرفه الناس حق عرفانه وهو الكريم الشجاع، ولم يبق له إلا أن يعرفوه فى ميدان العزلة وهو الشجاع الصبور. وقد عرفوه على هذه الصفة فى ميدان حمص – ميدان السلم والتسليم – خير عرفان وأجدره بماضيه العظيم وتاريخه الخالد المقيم.

فهرس

الحُسَيْن أبُو الشُّهَدَاء

مقدمة

يسرني أن أقدم إلى حضرات القراء هذه الطبعة من كتاب «أبي الشهداء»، ويعظم رجائي أن يصل إلى أيد كثيرة غير التي وصل إليها في طبعاته السابقة، وأن يتحقق له من عموم الرسالة بهذه المثابة ما يتمناه كل مؤلف لكل كتاب يريد به رسالة من الرسالات.

ليس من عادتي أن أطلع في كتبي بعد الفراغ من طبعها، ويتفق أن تمضي السنوات دون أن ألقي عليها نظرة لغير مراجعة عاجلة، فإذا حدث بعد ذلك أن أنظر فيها لتقديمها إلى طبعة جديدة، أمكنني أن أشعر بها شعور القارئ الذي يطلع عليها لأول مرة، بعد أن شعرت بها شعور المؤلف الذي امتلأ بها وأدارها في نفسه عدة مرات. وقد أستغرب منها أمورًا كالتي يستغربها القراء الذين يحكمون على موضوعاتها حكم «الأجانب الغرباء»..

عجبًا !.. إن مشكلة الحياة الكبرى لم تتغير منذ ألف وثلثمائة سنة، ولم تزل الحرب على أشدها بين خدام أنفسهم وخدام العقائد والأمثلة العليا، ولم يزل الشهداء يصلونها نارًا حامية من عبيد البطون والأكباد، ولم يزل «داؤنا العياء» كما قال أبو العلاء !..

كان هذا شعوري بكتاب «أبي الشهداء» حين قرأته من جديد لتقديمه إلى هذه الطبعة: مسكينة هذه الإنسانية !.. لا تزال في عطش شديد إلى دماء الشهداء، بل لعل العطش الشديد يزداد كلما ازدادت فيها آفات الأثرة والأنانية ونسيان المصلحة الخالدة في سبيل المصلحة الزائلة، أو لعل العطش الشديد إلى دماء الشهداء يزداد في هذا الزمن خاصة دون سائر الأزمنة الغابرة، لأنه الزمن الذي وجدت فيه الوحدة الإنسانية وجودًا ماديًّا فعليًّا وأصبح لزامًا لها أن توجد في الضمير وفي الروح كما وجدت في الخريطة الجغرافية وفي برامج السفن والطائرات.

الوحدة الإنسانية اليوم حقيقة واقعية عملية، ولكنها حقيقة واقعية عملية في كل شيء إلا في ضمير الإنسان وروح الإنسان.

حقيقة واقعية فى اشتباك المصالح التجارية، وفى اتصال الأخبار بين كل ناحية من الكرة الأرضية وناحية أخرى..

حقيقة واقعية فى أعصاب الكرة الأرضية إذا صح هذا التعبير، فلا يضطرب عصب من أعصابها فى أقصى المشرق حتى تتداعى له سائر الأعصاب فى أقصى المغرب وفى أقصى الشمال والجنوب.

حقيقة واقعية فى كل شيء إلا فى ضمير الإنسان وفى روح الإنسان، وهذا هو المهم والأهم إذا أريدت للإنسانية وحدة صحيحة صالحة جديرة بالدوام..

ولن توجد هذه الوحدة إلا إذا وجد الشهداء فى سبيلها. فأنعم بمقدم «أبى الشهداء» من جديد إلى ضمائر فريق كبير من بنى الإنسان، لعلهم يقدمون رسالته خطوة واحدة أو خطوات فى سبيل اليقين والعمل الخالص لوجه الحق والكمال.

نتفاءل أو لا نتفاءل.. نتشاءم أو لا نتشاءم..

ليست هذه هى المسألة، وإنما المسألة هى أن طريق التفاؤل معروف وطريق التشاؤم معروف، فلا تتحقق مصلحة الإنسانية إلا إذا عمل لها كل فرد من أفرادها، وهانت الشهادة من أجلها على خدامها، وتقدم الصفوف من يقدم على الاستشهاد ومن ورائه من يؤمن بالشهادة والشهداء.

لا عظة ولا نصيحة، ولكنها حقيقة تقرر كما تقرر الحقائق الرياضية. فلا بقاء للإنسانية بغير العمل لها، ولا عمل لها إن لم ينس الفرد مصلحته، بل حياته فى سبيلها..

لا بقاء للإنسانية بغير الاستشهاد..

وفى هذه الآونة التى تتردد فيها هذه الحقيقة فى كل زاوية من زوايا الأرض نلتفت نحن أبناء العربية إلى ذكرى شهيدها الأكبر فنحنى الرءوس إجلالاً «لأبى الشهداء»..

عباس محمود العقاد

طبائع الناس

يتناوب طبائع الناس مزاجان متقابلان: مزاج يعمل أعماله للأريحية والنخوة، ومزاج يعمل أعماله للمنفعة والغنيمة.

والمزاجان لا ينفصلان كل الانفصال..

فقد تقترن الأريحية بالمنفعة، وتقترن المنفعة بالأريحية، ولكنهما إذا اصطدما – ولاسيما فى الأعمال الكبيرة – لم يعسر عليك أن تفصل المزاجين وتعزل المعسكرين. فهذا للأريحية حتى يجبّ المنفعة ويخفيها، وهذا للمنفعة حتى يجبّ الأريحية ويخفيها.. أو كذلك يتراءيان.

وأصحاب المطالب الكبرى فى التاريخ يعتمدون على هذا المزاج كما يعتمدون على ذاك.. فمنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من الجشع والخسة وقرب المأخذ وسهولة المسعى، ومنهم من يتوسل إلى الناس بما فيهم من طموح إلى النبل والنجدة وركوب المخاطر ونسيان الصغائر فى سبيل العظائم..

ولكل منهما سبيله إلى النفوس وأمله فى النجاح على حسب الأوقات والبيئات..

إلا أن الأريحية أخلد من المنفعة بسنّة من سنن الخلق التى لا تتبدل مع الأوقات والبيئات..

لأن منفعة الإنسان وجدت لفرد من الأفراد..

أما الأريحية التى يتجاوز بها الإنسان منفعته فقد وجدت للأمة كلها أو للنوع الإنسانى كله. ومن ثم يكتب لها الدوام إذا اصطدمت بمنافع هذا الفرد أو ذاك..

ولقد يبدو من ظواهر الأمور أن الأمر على خلاف ما نقول، لأن الحريص على منفعته يبلغها ويمضى قدمًا إليها، فينال المنفعة التى لا ينالها صاحب الأريحية لأنه يتركها إذا اصطدمت بما هو أجل منها.

وهذا صحيح مشهود لا مراء فيه..

ولكن النجاح في الحركات التاريخية لن يسمى نجاحًا إذا هو لم يتجاوز حياة فرد أو طائفة من الأفراد. فإذا قيل إن حركة من الحركات التاريخية قد نجحت، فمغزى ذلك بداهة أن الأفراد القائمين بها يذهبون وهي الباقية بعد ذهابهم.. ومن هنا يصح أن يقال إن الأريحية أبقى وأنجح إذا هي اصطدمت بالمنفعة الفردية، لأن ذهاب الفرد هنا أمر مفروغ منه بعد كل حساب، سواء أكان حساب الأريحيين أم حساب النفعيين.

وأصحاب الأريحية إذن أبعد نظرًا من دهاة الطامعين والنهازين للفرص والمغانم العاجلة. لأنهم خلقوا بفطرتهم على حساب أعمار تتجاوز حساب عمرهم القصير. فهم - شعروا أو لم يشعروا - بعيدو النظر إلى عواقب الأمور، وإن خيل إلى أناس أنهم طائشون متهجمون.

* * *

أما موقف المؤرخين في العطف على حركات التاريخ فهو على ما نرى موقف مزاج من هذين المزاجين، وليس بموقف سبيل من سبل البحث أو مذهب من مذاهب التفكير..

فالذين يجنحون بمزاجهم إلى المنفعة يفهمون أعذار المنتفعين وينكرون ملامتهم على ناقديهم..

والذين يجنحون بمزاجهم إلى الأريحية يفهمون دوافع النخوة ويحسبونها عذرًا لأصحابها أقوى من غواية المنافع والأرزاق.

إلا أن الصواب هنا ظاهر جد الظهور لمن يريد أن يراه:

الصواب أن العطف على جانب المنفعة عبث لا معنى له ولا حكمة فيه..

وأن العطف على جانب الأريحية واجب يخشى على الناس من تركه وإهماله، إذ كان تركه مناقضًا لصميم الفطرة التي من أجلها فطر الناس على الإعجاب بكل ما يستحق الإعجاب.

فليس يخشى على الناس يومًا أن ينسوا منافعهم ويقصروا في خدمة أنفسهم، سواء عطف عليها المؤرخون أو أعرضوا عنها ساخرين منكرين.

ولكنهم يخسرون الأريحية إذا فقدوها وفقدوا الإعجاب بها والتطلع إليها، وهى التى خلقت ليعجب بها الناس. لأن حرص الإنسان على منفعته لا يغنيهم فى حياتهم العامة أو فى حياتهم الباقية. أما الأريحية التى يتجاوز بها الإنسان نفسه فى سبيل معنى من المعانى أو مثل عال من الأمثلة العليا، فهى الخليقة النافعة للنوع الإنسانى بأسره، وإن جاز اختلافهم فى كل معنى وفى كل مثل عال..

صراع بين الأريحية والمنفعة

فى ماضى الشرق وحاضره كثير من الحركات التاريخية التى وقع الصدام فيها بين الأريحية والمنفعة على أكثر من غرض واحد..

ولكننا لا نحسبنا مهتدين إلى نموذج لهذا الصدام أوضح فى المبادئ وأهدى إلى النتائج وأبين عن خصائص المزاجين معًا من النموذج الذى عرضه لنا التاريخ فى النزاع بين الطالبيين والأمويين، ولا سيما النزاع بينهما على عهد الحسين بن على، ويزيد بن معاوية.

قلنا فى كتابنا «عبقرية الإمام» ما فحواه أن الكفاح بين على ومعاوية، لم يكن كفاحًا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين.. ولكنه كان على الحقيقة كفاحًا بين الإمامة الدينية والدولة الدنيوية، وأن الأيام كانت أيام دولة دنيوية فغلب الداعون إلى هذه الدولة من حزب معاوية، ولم يغلب الداعون إلى الإمامة من حزب الإمام.

ولو حاول معاوية ما حاوله على لأخفق وما أفلح، ولو أراد على أن يسلك غير مسلكه لما أفاده ذلك شيئًا عند محبيه ولا عند مبغضيه.

فإذا جاز لأحد أن يشك فى هذا الرأى، وأن يرجع بنجاح معاوية إلى شىء من مزاياه الشخصية فذلك غير جائز فى الخلاف بين الحسين ويزيد. وكل ما يجوز هنا أن يقال إن أنصار الدولة الدنيوية غلبوا أنصار الإمامة على سنة الخلفاء الراشدين، لأن مطالب الإمامة غير مطالب الزمان.

ما من أحد قط يزعم أن الصراع هنا كان صراعًا بين رجلين أو بين عقلين وحيلتين. وإنما هو الصراع بين الإمامة والملك الدنيوى، أو بين الأريحية والمنفعة فى جولتها الأولى،

ولم يكن ليزيد قط فضل كبير أو صغير بما قد بلغه من الفوز والغلبة..

* * *

بل لا يمكن أن يتعلل أحد هنا بما يتعلل به أنصار المنافع عامة من «تقريره للنظام وحفظه للأمن العام».. فإن يزيد لم يكن له فضل قط فى قيام الدولة، كما قامت على عهده وبعد عهده. وإنما كانت الدولة تتماسك برغبة الراغبين فى بقائها لا بقدرة الأمير المشرف عليها. وقد حدث بعد موت يزيد أن بويع ابنه معاوية الثانى بالشام – وكان من الزاهدين فى الحكم – فنادى الناس إلى صلاة جامعة، وقال لهم: «أما بعد فإنى قد ضعفت عن أمركم فابتغيت لكم مثل عمر بن الخطاب حين استخلفه أبو بكر فلم أجده، فابتغيت ستة مثل ستة الشورى فلم أجدهم، فأنتم أولى بأمركم فاختاروا له من أحببتم» ثم آوى إلى بيته ومضت شئون الدولة على حالها حتى مات بعد ثلاثة أشهر، وله مع هذا منافس قوى كعبد الله بن الزبير بالحجاز.

فلا وجه للمفاضلة بين الحسين بن على ويزيد بن معاوية.. ورأى معاوية وأعوانه فى هذا أسبق من رأى الطالبيين وخصوم الأمويين، فقد ترددوا كثيرًا قبل الجهر باختيار يزيد لولاية العهد وبيعة الخلافة بعد أبيه. ولم يستحسنوا ذلك قبل إزجائهم النصح إلى يزيد غير مرة بالإقلاع عن عيوبه وملاهيه. ولما أنكر بعض أولياء معاوية جرأة الحسين عليه فى الخطاب، وأشاروا عليه أن يكتب له كتابًا «يصغر إليه نفسه».. قال: «وما عسيت أن أعيب حسينا؟.. والله ما أرى للعيب فيه موضعًا».

وثم تعلة أخرى يتعلل بها المفاضلون بين على ومعاوية ولا موضع لها فى المفاضلة بين ولديهما الحسين ويزيد. وتلك ما يزعمونه من غلبة معاوية على «على» بحجته فى الإقناع ونشاطه أو نشاط أصحابه فى الدعوة السياسية..

فهذه التعلة إن صلحت لتعليل نجاح معاوية، فما هى بصالحة لتعليل نجاح يزيد.

لأن الذين انخدعوا أو تخادعوا للصيحة التى صاح بها معاوية فى المطالبة بدم عثمان، كانوا يرددون هذه الصيحة ويساعدهم على ترديدها حقد الثأر المزعوم وسورة العصبية المهتاجة، ثم يساعدهم على ترديدها فى مبدأ الأمر أن معاوية لم يكن مجاهرًا بطلب الخلافة ولا متعرضًا لمزاحمة أحد على البيعة، وإنما كان يتشبث بمقتل عثمان والمطالبة بدمه، ولا

يزيد فى دعواه على ادعاء ولاية الدم وصلة القرابة.

* * *

ولكن الصائحين بهذه الصيحة مع معاوية قد عاشوا حتى رأوا بأعينهم مبلغ الغيرة على تراث عثمان، وعلموا أن الملك هو الغرض المقصود من وراء تلك الفتن والأرزاء، وأن معاوية لا يقنع بأن يملك لنفسه حتى يورث الملك ولده من بعده، وليس هو من أهل الرأى ولا هو من أهل الصلاح ولا ممن تتفق عليه آراء هؤلاء، ولكنه فتى عربيد يقضى ليله ونهاره بين الخمور والطنابير، ولا يفرغ من مجالس النساء والندمان إلا ليهرع إلى الصيد فيقضى فيه الأسبوع بعد الأسبوع بين الأديرة والبوادى والآجام، لا يبالى خلال ذلك تمهيدًا للملك ولا تدريبًا على حكم ولا استطلاعًا لأحوال الرعية الذين سيتولاهم بعد أبيه، ثقة بما صار إليه مَن التمهيد والتوطيد وما سوف يصير.

فكل خلاف جاز فى المفاضلة بين على ومعاوية غير جائز فى المفاضلة بين الحسين ويزيد.. وإنما الموقف الحاسم بينهما، موقف الأريحية الصراح فى مواجهة المنفعة الصراح. وقد بلغ كلاهما من موقفه أقصى طرفيه وأبعد غايتيه، فانتصر الحسين بأشرف مافى النفس الإنسانية من غيرة على الحق وكراهة للنفاق والمداراة، وانتصر يزيد بأرذل ما فى النفس الإنسانية من جشع ومراء وخنوع لصغار المتع والأهواء.

أقام الحسين ليلته الأخيرة بكربلاء وهو لا ينتظر من عاقبته غير الموت العاجل بعد سويعات، فأذن لأصحابه أن يتفرقوا عنه تحت ظلام الليل إن كانوا يستحيون أن يفارقوه فى ضوء النهار فأبوا إلا أن يموتوا دونه، وقال له مسلم بن عوسجة الأسدى: «أنحن نتخلى عنك ولم نعذر إلى الله فى أداء حقك؟.. أما والله لا أفارقك حتى أكسر فى صدورهم رمحى وأضربهم بسيفى ما بقى قائمه بيدى، ولو لم يكن معى سلاحى لقذفتهم بالحجارة دونك حتى أموت معك». وقد بر بقسمه وبقى ومات.. ودنا منه حبيب بن مظاهر وهو يجود بنفسه فقال له: «لولا أنى أعلم أنى فى أثرك لا حق بك لأحببت أن توصينى حتى أحفظك بما أنت له أهل»، فقال وكان آخر ما قال: «أوصيك بهذا – رحمك الله – أن تموت دونه» وأومأ بيده نحو الحسين.

وقتل الحسين.. وذهب الأمل فى دولته ودولة الطالبيين من بعده إلى أجل بعيد، ولكنه

كان يشتم بالكلمة العوراء فيهون على الرجل من أصحاب الأريحية أن يموت ولا يصبر على سماع تلك الكلمة أو يترك الجواب عليها..

فلما نعى الحسين فى الكوفة نادى واليها ابن زياد إلى الصلاة الجامعة. وصعد إلى المنبر، وخطب القوم فقال: «الحمد لله الذى أظهر الحق وأهله، ونصر أمير المؤمنين يزيد بن معاوية وحزبه، وقتل الكذاب بن الكذاب الحسين بن على وشيعته».

فما أتمها حتى وثب له من جانب المسجد شيخ ضرير هو عبد الله بن عفيف الأزدى الذى ذهبت إحدى عينيه يوم الجمل وذهبت عينه الأخرى يوم صفين فصاح بالوالى غداة يوم انتصاره وزهوه: «يا بن مرجانه!.. أتقتل أبناء النبيين وتقوم على المنبر مقام الصديقين؟.. إنما الكذاب أنت وأبوك والذى ولاك وأبوه».

فما طلع الصباح إلا وهو مصلوب..

إلى هذا الأفق الأعلى من الأريحية والنخوة ارتفعت بالنفس الإنسانية نصرة الحسين..

وإلى الأغوار المرذولة من الخسة والأثرة هبطت بالنفس الإنسانية نصرة يزيد.. وحسبك من خسة ناصريه، أنهم كانوا يجزون بالحطام وهتك الأعراض على غزو «المدينة» النبوية واستباحة ذمارها فيسرعون إلى الجزاء.. يسرعون إليه وليسوا هم بكافرين بالنبى الدفين فى تلك المدينة، فيكون لهم عذر الإقدام على أمر لا يعتقدون فيه التحريم!..

بل حسبك من خسة ناصريه أنهم كانوا يرعدون من مواجهة الحسين بالضرب فى كربلاء لاعتقادهم بكرامته وحقه، ثم ينتزعون لباسه ولباس نسائه فيما انتزعوه من أسلاب!.. ولو أنهم كانوا يكفرون بدينه وبرسالة جده، لكانوا فى شرعة المروءة أقل خسة من ذاك.

* * *

وتتقابل وسائل النجاح فى المزاجين كما تتقابل المقاصد والغايات..

فكان شعار معاوية وأشياعه: «إن لله جنودًا من العسل» و هو يعنى العسل الذى يداف بالسم ليخلى طريق النجاح من كل معترض فيها ولو كان من الأصدقاء. فكثرت

روايات المؤرخين عن مقتل الحسن بن على والأشتر النخعى بهؤلاء الجنود!.. وأعجب منها ماقيل عن مقتل عبد الرحمن بن خالد، وقد كان نصيرًا لمعاوية فى حروب الشام.. فإنه مات مسمومًا على ما اشتهر من الروايات، لأنه رشح للخلافة بعد معاوية دون يزيد.. وعلم ذلك أقرباء عبد الرحمن بن خالد، فقتلوا طبيب معاوية «ابن أثال» الذى اتهموه بسمه فى الدواء.

ولو استباح الحسين وشيعته هذه الوسائل مرة واحدة، لكانوا وشيكين أن يبلغوا مقصدهم عن قريب. فقد كان هانئ بن عروة شيخ كندة من أنصار الحسين وأبيه، وكانت كندة كلها تطيعه وتلبيه حتى قيل إنه إذا «صرخ لباه منهم ألف سيف» فزاره عبيد الله بن زياد - والى يزيد على الكوفة - ليعوده فى بعض مرضه ويتألفه ويستميله إليه. وقيل إن هانئا عرض على مسلم بن عقيل بن أبى طالب أن يقتل عبيد الله بن زياد وهو عنده، وقيل إن الذى عرض ذلك رجل من صحبة هانئ المقربين. فأبى مسلم ما عرضه هذا وذاك، وهو يومئذ طلبة ذلك الوالى، وجنوده قد تعقبوه وأهدروا دمه وأجزلوا الوعود لمن يسلمه أو يدل عليه، وقال: «إنا أهل بيت نكره الغدر». ولو أنه بطش بابن زياد، لكان قد بطش يومئذ بأكبر أنصار يزيد..

وليقل من شاء إن قتل ابن زياد كان صوابًا راجحًا..

وإن التحرج من قتله كان خطأ فادحًا من وجهة السياسة أو من وجهة الأخلاق، فالذى لايُشك فيه أنه كان صوابًا فهو صواب سهل يستطيعه كثيرون، وإن كان خطأ فهو الخطأ الصعب الذى لا يستطيعه إلا القليلون..

* * *

كذلك يقول من يقول إن الأريحية التى سمت إليها طبائع أنصار الحسين، إنما هى أريحية الإيمان الذى يعتقد صاحبه أنه يموت فى نصرة الحسين فيذهب لساعته إلى جنات النعيم.. فهؤلاء الذين يقولون هذا القول يجعلون المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله، حتى ما صدر منها عن عقيدة وإيمان. وينسون أن المنفعة وحدها باعث الإنسان إلى جميع أعماله، حتى ماصدر منها عن عقيدة وإيمان. وينسون أن المنفعة وحدها لن تفسر لنا حتى الغرائز الحيوانية التى يصاب من جرائها الفرد طوعًا أو كرهًا فى خدمة نوعه، بل ينسون أن أنصار يزيد لا يكرهون جنات النعيم ولا يكفرون بها، فلماذا لم يطلبوها كما

طلبها أنصار الحسين؟.. إنهم لم يطلبوها لأنهم منقادون لغواية أخرى ولأنهم لا يملكون عزيمة الإيمان ونخوة العقيدة، ولا تلك القوة الخلقية التى يتغلبون بها على رهبة الموت ويقدعون بها وساوس التعلق بالعيش والخنوع للمتعة القريبة. فلولا اختلاف الطبائع لظهر شغف الناس جميعًا بجنات النعيم على نحو واحد، ومضى الناس على سنّة واحدة فى الأريحية والفداء، ومرجع الأمر إذن فى آخر المطاف إلى فرق واضح بين طبائع الأريحيين وطبائع النفعيين.

وكذلك يقول من يقول إنّ الأريحية فى نفوس أنصار الحسين كانت أريحية أفراد معدودين ثبتوا معه ولم يخذلوه إلى يومه الأخير.. وينسى هؤلاء أن الارتفاع ليقاس بالقمة الواحدة كما يقاس بالقمم الكثيرة، وأن الغور ليسبر فى مكان واحد كما يسبر فى كل مكان، وإنما تكون الندرة هنا أدل على جلالة المرتقى الذى تطيقه النفس الواحدة أو الأنفس المعدودات، ولا تطيقه نفوس الأكثرين..

* * *

فمدار الخلاف إذن فى هذه الجولة التاريخية إنما هو الفارق الخالد بين مزاجين بارزين كائنًا ما كان تفسير المفسرين للعقائد الروحية والمطامع السياسية، ولم يتلاق هذان المزاجان على تناحر وتناجز كما تلاقيا عامة فى النزاع بنى الطالبيين والأمويين. وخاصة فى النزاع بين الحسين ويزيد.

فحياة الحسين رضى الله عنه صفحة، لا صفحة تماثلها فى توضيح الفارق بين خصائص هذين المزاجين وبيان ما لكل منهما من عدة للنجاح فى كفاح الحياة، سواء نظرنا إلى الأمد البعيد أو قصرنا النظر على الأمد القريب.

أسباب التنافس والخصومة

قبل أن يقف الحسين ويزيد متناجزين، كانت الحوادث قد جمعت لهما أسباب التنافس والخصومة منذ أجيال، وكان هذا التنافس بينهما يرجع إلى كل سبب يوجب النفرة بين رجلين: من العصبية، إلى الترات الموروثة، إلى السياسة، إلى العاطفة الشخصية، إلى اختلاف الخليقة والنشأة والتفكير..

تنافس هاشم وأمية على الزعامة قبل أن يولد معاوية.. فخرج أمية ناقمًا إلى الشام وبقى هاشم منفردًا بزعامة بنى عبد مناف فى مكة. فكان هذا أول انقسام وتقسيم بين الأمويين والهاشميين: هؤلاء يعتصمون بالشام، وهؤلاء يعتصمون بالحجاز.

ثم علا نجم «أبى سفيان بن حرب بن أمية» فى الحجاز فأصبحت له زعامة مرموقة إلى جانب الزعامة الهاشمية، فلما ظهرت الدعوة المحمدية أخذته الغيرة على زعامته، فكان فى طليعة المحاربين للدعوة الجديدة. وندرت غزوة من الغزوات لم تكن فيها لأبى سفيان أصبع ظاهرة فى تأليب القبائل وجمع الأموال. وشاءت المصادفات زمنًا من الأزمان أن يظل وحده على زعامة قريش فى حربها للنبى عليه الصلاة والسلام. فمات الوليد بن المغيرة زعيم مخزوم، ودان زعماء تيم وبنى عدى وغيرهم من البطون القرشية الصغيرة بالإسلام، وبقى أبو سفيان وحده على رأس الزعامة الجاهلية والزعامة الأموية فى منازلة النبى ومن معه من المهاجرين والأنصار وبلغ من تغلغل العداء فى هذه الأسرة للنبى عليه الصلاة والسلام، أن أبا لهب عمه كان أوحد أعمامه فى الكيد له والتأليب عليه، وإنما جاءه هذا من بنائه بأم جميل بنت حرب، أخت أبى سفيان التى وصفها القرآن بأنها «حمالة الحطب».. كناية عن السعى فى الشر وتأريث نار البغضاء.. ثم فتحت مكة، فوقف أبوسفيان ينظر إلى جيش المسلمين ويقول للعباس بن عبد المطلب: «و الله يا أبا الفضل لقد أصبح ملك ابن أخيك اليوم عظيمًا».. فلما قال العباس: «إنها النبوة!». قال: «نعم إذن!..».

وقد أسلم أبو سفيان وابنه معاوية عند فتح مكة، وكان إسلام بيته أعسر إسلام عرف بعد فتحها. فكانت زوجه هند بنت عتبة تصيح فى القوم بعد إسلامه: «اقتلوا الخبيث الدنس الذى لا خير فيه.. قبح منْ طليعة قوم.. هلا قاتلتم ودفعتهم عن أنفسكم وبلادكم!..».

* * *

وظل أبوسفيان إلى ما بعد إسلامه زمنًا يحسب غلبة الإسلام غلبة عليه، فنظر إلى النبى مرة وهو بالمسجد نظرة الحائر المتعجب وهو يقول لنفسه: «ليت شعرى بأى شىء غلبنى!» فلم يخف عن النبى عليه السلام معنى هذه النظرة، وأقبل عليه حتى ضرب يده بين كتفيه وقال له: «بالله، غلبتك يا أبا سفيان!»..

وكان فى غزوة حنين يشهد هزيمة المسلمين الأولى فيقول: «ما أراهم يقفون دون البحر!» وقيل إنه كان فى حروب الشام يهتف كلما تقدم الروم: «إيه بنى الأصفر»، فإذا تراجعوا عاد فقال: «ويل لبنى الأصفر!».

* * *

وقد تألفه النبى عليه السلام ما استطاع قبل فتح مكة وبعد فتحها، فتزوج بنته أم حبيبة قبل الفتح وجعل بيته بعد الفتح حرمًا «من دخله فهو آمن ومن أغلق عليه داره فهو آمن» وأقامه على رأس المؤلفة قلوبهم الذين يزاد لهم فى العطاء عسى أن يذهب مافى نفوسهم من الكراهة لغلبة الإسلام..

ومع هذا كان المسلمون يوجسون منه فلا ينظرون إليه ولا يقاعدونه، حتى برم بذلك وأحب أن يمسح ما بصدورهم من قبله.. فتوسل إلى النبى أن يجعل معاوية كاتبًا بين يديه وأن يأمره فيقاتل الكفار كما كان يقاتل المسلمين..

ثم قبض النبى عليه السلام، ونجم الخلاف على مبايعة الخليفة بعده بين المهاجرين والأنصار وبين بعض الصحابة من جهة أخرى. فاشرأب أبوسفيان إلى هذه الفتنة، وخيل إليه أنه مصيب بين فتوقها ثغرة ينفذ منها إلى السيادة على قريش، ثم السيادة من هذا الطريق على الأمة الإسلامية بأسرها.. فدخل على «على» والعباس، يثيرهما ويعرض عليهما المعونة بما فى وسعه من خيل ورجل. فنادى بهما: «يا على! وأنت يا عباس!..

ما بال هذا الأمر فى أذل قبيلة من قريش وأقلها؟ و الله لو شئت لأملأنها عليه – على أبى بكر – خيلاً ورجلاً وأخذتها عليه من أقطارها»..

* * *

وهو ولا ريب لم يغضب لأن الخلافة قد فاتت بنى هاشم ولا كان يسره أن تصير الخلافة إليهم فتستقر فيهم قرارًا لا طاقة له بتحويله.. ولكنه أراد خلافًا يفتح الباب لزعامة أموية يملك بها زمام قريش والدولة العربية جمعاء..

فلم يخف مقصده هذا على «على» رضى الله عنه، وقال: «لا و الله لا أريد أن تملأها عليه خيلاً ورجلاً، ولولا أننا رأينا أبا بكر لذلك أهلاً ما خليناه وإياها». ثم أنبه قائلاً: «يا أبا سفيان..! إن المؤمنين قوم نصحة بعضهم لبعض، وإن المنافقين قومن غششة بعضهم لبعض.. متخاونون وإن قربت ديارهم وأبدانهم».

وانقضت خلافة أبى بكر وخلافة عمر والأمور تجرى فى مجراها الذى يأخذ على المطامع سبيلها، ويخيف أصحاب الفتن أن يبروزا بها من جحورها..

حتى قامت خلافة عثمان بن عفان فانتصر بها الأمويون أيما انتصار، لأنه رأس من رءوسهم وابن عم قريب لزعماء بيوتهم، وأصبحت الدولة الإسلامية أموية لا يطمع فى خيراتها ولا ولاياتها إلا من كان من أمية أو من حزبها. فمروان بن الحكم وزير الخليفة الأكبر يغدق العطاء على الأقرباء ويحبسها عن سائر الناس، ومعاوية بن أبى سفيان والى الشام يجتذب إليه الأقرباء والأولياء ومن يرجى منهم العون ويخشى منهم الخلاف.

فلما قتل عثمان رضى الله عنه كان المنتفعون بمناصب الدولة وأموالها جميعًا من الأمويين أو من صنائعهم المقربين، ومال السلطان إلى جانب أمية على كل جانب آخر من القرشيين وغير القرشيين.

* * *

لا جرم كان الصراع بعد ذلك صراعًا معروف النهاية من مطلع البداية، فقتل على ابن أبى طالب غيلة وخلصت الخلافة لمعاوية بن أبى سفيان

ثم بايع أناس كثيرون من أهل العراق وفارس الحسن بن على، فلم يستقم له أمرهم

وضاق صدره بجدالهم ومحالهم، وكان رجلاً سكيتًا يكره المنازعة ويجنح إلى العزلة، فصالح معاوية على شروط.. وفَّى له معاوية بالمعجل منها والتوى عليها بمؤجلها. وزاد على ذلك كما تواتر فى شتى الروايات أنه أغرى امرأته جعدة بنت الأشعث بسمه، ووعدها أن يزوجها يزيد ويعطيها مائة ألف درهم، فوفى بوعد المال ولم يف بوعد الزواج.

وقد أوصى الحسن رضى الله عنه أن يدفن عند قبر جده إلا أن تخاف فتنة فلما توفى أرادوا دفنه حيث أوصى، فقام مروان بن الحكم وجمع بنى أمية وزمرتهم ومنعوا مشيعيه.. فأنكر الحسين عليهم منع سبط النبى أن يدفن إلى جوار جده، فقيل له: «إن أخاك قال: إذا خفتم الفتنة ففى مقابر المسلمين سعة.. وهذه فتنة».. فسكت على مضض.

أهداف معاوية

وقد كان معاوية ولا ريب ينوى أن يجعلها دولة أموية متعاقبة فى ذريته من بعده، منذ تصدى للخلافة وخلا له المجال من أقوى منافسيه، إلا أنه كان يتردد ويتكتم ولا يفضى بنيته إلى أقرب المقربين إليه، ثم كبرت سنه وخاف أن يعجل عن قصده، فمهد لبيعة ابنه يزيد بعض التمهيد وتوصل إلى ذلك بما طاب له من وسيلة.. فلباه أهل الشام وكتب بيعته إلى الآفاق، ثم همه أمر الحجاز فكتب إلى مروان بن الحكم عامله أن يجمع من قبله لأخذ البيعة منهم ليزيد، فأبى مروان وأغرى رءوس قريش بالإباء، لأنه كان يتطلع إلى الخلافة بعد معاوية ويحسبه أقدر عليها من يزيد، لما اشتهر به من نقص وعبث.. فعزله معاوية وولى سعيد بن العاص مكانه فلم يجبه أحد إلى ما أراد. فكتب معاوية إلى عبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير وعبد الله بن جعفر، والحسين بن على، وأمر عامله سعيدًا أن يوصل كتبه إليهم ويبعث إليه بجواباتها، وقال لسعيد: «فهمت ما ذكرت من إبطاء الناس، وقد كتبت إلى رؤسائهم كتبًا فسلمها إليهم.. ولتشد عزيمتك وتحسن نيتك، وعليك بالرفق. وانظر حسينًا خاصة فلا يناله منك مكروه، فإن له قرابة وحقا عظيمًا لا ينكره مسلم ولا مسلمة.. وهو ليث عرين، ولست آمنك إن ساورته ألا تقوى عليه».

* * *

فأعيت سعيد بن العاص كل حيلة فى إقناع وجهاء الناس وعامتهم بهذه البيعة البغيضة، وخف معاوية إلى مكة ومعه الجند وحقائب الأموال، ودعا بأولئك النفر فقال لهم:

«قد علمتم سيرتى فيكم وصلتى لأرحامكم. يزيد أخوكم وابن عمكم، وأردت أن تقدموا يزيد باسم الخلافة وتكونوا أنتم تعزلون وتؤمِّرون وتجبون المال وتقسمونه».

فأجاب عبد الله بن الزبير، وخيَّره بين أن يصنع كما صنع رسول الله إذ لم يستخلف أحدا، أو كما صنع أبو بكر، إذ عهد إلى رجل ليس من بنى أبيه، أو كما صنع عمر إذ جعل الأمر شورى فى ستة نفر ليس فيهم أحد من ولده ولا من بنى أبيه.

فقال معاوية مغضبًا: «هل عندك غير هذا؟».

قال: «لا».

والتفت إلى الآخرين يسألهم قائلًا: «فأنتم؟» فوافقوا ابن الزبير.

فقال متوعدًا: «أعذر من أنذر!.. إنى كنت أخطب فيكم فيقوم إلىّ القائم منكم فيكذبنى على رءوس الأشهاد فأحمل ذلك وأصفح، وإنى قائم بمقالة.. فأقسم بالله لئن رد علىّ أحدكم كلمة فى مقامى هذا، لا ترجع إليه كلمة غيرها حتى يسبقها السيف إلى رأسه، فلا يبقين رجل إلا على نفسه».

ثم أمر صاحب حرسه أن يقيم على رأس كل منهم رجلين مع كل واحد منهما سيف، وقال له: «إن ذهب رجل منهم يرد على كلمة بتصديق أو تكذيب، فليضرباه بسيفيهما».

ثم خرج بهم إلى المسجد ورقى المنبر، فحمد الله وأثنى عليه وقال:

– هؤلاء الرهط سادة المسلمين وخيارهم لا يبرم أمر دونهم، ولا يقضى إلا على مشورتهم، وإنهم قد رضوا وبايعوا ليزيد فبايعوه على اسم الله.

فبايع الناس..

وهكذا كانت البيعة ليزيد فى الحجاز.

* * *

ومات معاوية وهو يعلم أن بيعة كهذه لا تجوز ولا تؤمن عقباها.. فأوصى ابنه «أنه لا يخاف إلا هؤلاء من قريش: الحسين بن على، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير». قال: «فأما عبد الله بن عمر فرجل قد وقذته العبادة وإذا لم يبق أحد غيره

بايعك. وأما الحسين بن علي فلا أظن أهل العراق تاركيه حتى يخرجوه.. فإن خرج عليك فظفرت به فاصفح عنه، فإن له رحما ماسة وحقا عظيما.

«أما ابن الزبير فإنه خب ضب، فإذا أمكنته فرصة وثب.. فإن هو فعلها فقدرت عليه، فقطعه إربا إربا إلا أن يلتمس منك صلحا، فإن فعل فاقبل واحقن دماء قومك ما استطعت»..

خلافة يزيد

وآل الأمر على هذا النحو إلى يزيد فى سنة ستين للهجرة، وهو بين الرابعة والثلاثين والخامسة والثلاثين، ولكنه دون أنداده فى تجارب الأيام، وليس حوله من المشيرين والنصحاء أمثال المغيرة، وزياد، وعمرو بن العاص، وغيرهم من القروم الذين كانوا حول أبيه.. فتهيب ما هو مقدم عليه، وكتب إلى عامله بالمدينة الوليد بن عتبة بن أبي سفيان: «أن خذ حسينا، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن الزبير، بالبيعة أخذًا شديدًا ليست فيه رخصة حتى يبايعوا والسلام».

فبعث الوليد إلى مروان بن الحكم يستشيره.. وكان مروان يريد الخلافة لنفسه، ولكنه علم بعد موت معاوية وقيام يزيد أن الأمر اليوم أمر بني أمية، فإن خرج منهم فقد خرج منهم أجمعين. فنصح للوليد نصيحة ذات وجهين: ظاهرها الشدة فى الدعوة ليزيد وباطنها السعي إلى الخلاص من يزيد ومنافسيه. فقال: «أرى أن تبعث الساعة إلى هؤلاء النفر فتدعوهم إلى البيعة. أما ابن عمر فلا أراه يرى القتال، ولكن عليك بالحسين وعبد الله ابن الزبير، فإن بايعا وإلا فاضرب عنقيهما..».

وضرب عنق الحسين وابن الزبير معناه الخلاص من أعظم المنافسين ليزيد.. ثم الخلاص من يزيد نفسه بإثارة النفوس وإيغار الصدور عليه!

* * *

وقد ذهب رسول الوليد إلى الحسين وابن الزبير، فوجدهما فى المسجد.. فعلم الحسين ما يراد منه، وجمع طائفة من مواليه يحملون السلاح، وقال لهم وهو يدخل بيت الوليد:

«إن دعوتكم أو سمعتم صوتى قد علا فاقتحموا علىّ بأجمعكم، وإلا فلا تبرحوا حتى أخرج إليكم»..

فلما عرضوا عليه البيعة ليزيد قال: «أما البيعة فإن مثلى لا يعطى بيعته سرا، ولا أراك تقنع بها منى سرا».

قال الوليد: «أجل!».

قال الحسين: «فإذا خرجت إلى الناس فدعوتهم إلى البيعة دعوتنا معهم فكان الأمر واحدًا».

ثم انصرف ومروان غاضب صامت لا يتكلم.. وما هو إلا أن توارى الحسين حتى صاح بالوليد: «عصيتنى والله! لا قدرت منه على مثلها أبدًا حتى تكثر القتلى بينكم وبينه».

فأنكر الوليد لجاجته وقال له: «أتشير على بقتل الحسين! والله إن الذى يحاسب بدم الحسين يوم القيامة لخفيف الميزان عند الله».

* * *

وهكذا انتهت المنافسة بين بنى أمية وبنى هاشم إلى مفترق طريق لا سبيل فيه إلى توفيق، ولم تنقطع قط سلسلة هذه المنافسة منذ أجيال وإن غلبها الإسلام فى عهد النبوة، وفى عهد الصديق والفاروق.

وكفى بالإسلام فضلًا فى هذا المجال أنه غلب العصبية بالعقيدة، فجعلها تابعة لها غير قادرة على الجهر بمخالفتها! ولكن العصبية المكبوحة عصبية موجودة غير معدومة..

* * *

وكثيرًا ما يفلت المكبوح من عنانه، وإن طالت به الرياضة والانقياد.

فاتفق كثيرًا فى مساجلات شتى بين كبار الصحابة، أن بدرت إلى اللسان بوادر العصبية والنبى عليه السلام حاضر، فلما أشار عمر بقتل أبى سفيان - على خلاف رأى العباس فى استبقائه وتألفه - قال العباس: «مهلًا يا عمر! فوالله لو كان من رجال بنى عدى بن كعب ما قلت مثل هذا.. ولكنك قد عرفت أنه من رجال عبد مناف».

ولما توثب أسيد بن حضير لضرب أعناق المفترين على السيدة عائشة، ثار به سعد ابن عبادة وصاح به: «كذبت لعمر الله! ماتضرب أعناقهم. أما والله ما قلت هذه المقالة إلا أنك قد عرفت أنهم من الخزرج، ولو كانوا من قومك - الأوس - ما قلت هذا..».

وقد مات الفاروق وهو يوصى عليًّا فيقول: «اتق الله يا على إن وليت شيئًا، فلا تحملن بنى هاشم على رقاب المسلمين».. ثم يلتفت إلى عثمان فيقول له: «اتق الله إن وليت شيئًا فلا تحملن بنى أمية على رقاب المسلمين»..

* * *

ومن عجائب الحيل التى تحاول بها الغرائز الإنسانية أن تبقى وجودها وتمضى لطيتها، أن بنى أمية انتفعوا من حرب الإسلام للعصبية فى تعزيز عصبيتهم، فجعلوها حجة على بنى هاشم أن النبوة لا تحصر الأمر فيهم وأن الأنبياء لا يورثون.. وإذا نهضت هذه الحجة على بنى هاشم، فبنو أمية أقوى المنتفعين بها من بطون عبد مناف!

وقد أوجبت الضرورة قبول المجاملة فى هذه المنافسات فترة من الزمن على عهد معاوية بن أبى سفيان، فكان يلطف القول إلى أبناء علىّ ويواليهم بالهدايا والمجاملات، ولكنه كان مضطرًّا إلى مجاملة آل علىّ، ومضطرًّا إلى تنقص علىّ، والغض من دعواه. فكان بذلك مضطرًّا إلى النقيضين فى آن.

إنه ملك وبايع بالملك ليزيد وهو يعلم أنه غالب بالسلاح والمال، مغلوب بالسمعة والشعور. فكان الناس يفضلون عليًّا عليه وهو لا يملك أن يفاضله بقرابة النبى، ولا بالسابقة إلى الإسلام، ولا بالعراقة فى قريش. فتجنب النسب والسابقة، وعمد إلى شخص علىّ فى منازعات الخلافة، فاتهمه بتفرقة الكلمة بين المسلمين، وأمر بلعنه على المنابر عسى أن يضعف من تلك المكانة التى هو مغلوب بها ويستبقى الدولة التى هو بها غالب.. ولج فى ذلك حتى قتل أناسًا لم يطيعوه فى لعن علىّ واتهامه، وأبى أن يجيب الحسن ابن على إلى شرطه الذى أراد به أن يرفع اللعن عن أبيه.. وكان معاوية على حصافته يجهل أنه قد أضاع سمعة وشعورا من حيث حارب عليًّا فى مقام السمعة والشعور..

وإن مجاملة كهذه التى تحيى الرجل وتغض من قدر أبيه لهى أضعف مجاملة بين متلاقيين، فضلاً عن خصمين متنافسين قد آل بهما التنافس بعد أجيال إلى مفترق الطريق.

زواج الحسين

وكأنما كانت هذه المنافسة المؤصلة الجذور لا تكفى قصاص التاريخ، فأضاف إليها أناس من ثقاتهم قصة منافسة أخرى، هى وحدها كافية للنفرة بين قلبين متآلفين. وهى قصة زواج الحسين رضى الله عنه بزينب بنت إسحق التى كان يهواها يزيد هوى أدنفه وأعياه.

وكانت زينب هذه على ما قيل أشهر فتيات زمانها بالجمال، وكانت زوجة لعبد الله ابن سلام القرشى والى العراق من قبل معاوية.

فمرض يزيد بحبها وأخفى سره عن أهله، حتى استخرجه منه بعض خصيان القصر الذين يعينونه على شهواته.. فلما علم أبوه سر مرضه أرسل فى طلب عبد الله بن سلام واستدعى إليه أبا هريرة وأبا الدرداء، فقال لهما: إن له ابنة يريد زواجها ولم يرض لها خليلاً غير ابن سلام، لدينه وفضله وشرفه ورغبة معاوية فى تكريمه وتقريبه. فخدع ابن سلام بما بلغه وفاتح معاوية فى خطبة ابنته، فوكل معاوية الأمر إلى أبى هريرة ليبلغها ويستمع جوابها. فكان جوابها المتفق عليه بينها وبين أبيها أنها لا تكره ما اختاروه، ولكنها تخشى الضر، وتشفق أن يسوقها إلى ما يغضب الله. فطلق ابن سلام زوجته واستنجز معاوية وعده.. فإذا هو يلويه به ويقول بلسان ابنته إنها توجس من رجل يطلق زوجته وهى ابنة عمه وأجمل نساء عصره..

* * *

وقيل إن الحسين سمع بهذه المكيدة، فسأل أبا هريرة أن يذكره عند زينب خاطبًا.. فصدع أبو هريرة بأمره وقال لزينب: «إنك لا تعدمين طلابًا خيرًا من عبد الله ابن سلام».

قالت: «من؟» قال: «يزيد بن معاوية والحسين بن على، وهما معروفان لديك بأحسن ما تبتغينه فى الرجال».

واستشارته فى اختيار أيهما، فقال: «لا أختار فم أحد على فم قبّله رسول الله، تضعين شفتيك فى موضوع شفتيه».

فقالت: «لا أختار على الحسين بن علىّ أحدا وهو ريحانة النبى وسيد شباب أهل الجنة».

فقال معاوية متغيظا:

أنعمى أمّ خالد رب ساع لقاعد

ولم يلبث الحسين أن ردها إلى زوجها قائلًا: «ما أدخلتها فى بيتى وتحت نكاحى رغبة فى مالها ولا جمالها؛ ولكن أردت إحلالها لبعلها».

* * *

فإن صحت هذه القصة وهى متواترة فى تواريخ الثقات، فقد تم بها ما نقص من النفرة والخصومة بين الرجلين، وكان قيام يزيد على الخلافة يوم فصل فى هذه الخصومة، لا يقبل إلا رجاء، وكان بينهما كما أسلفنا مفترق طريق..

موازنة

لخص المقريزى المنافسة التى بين الهاشميين والأمويين فى بيتين فقال:

عبد شمس قد أضرمت لبنى ها شم حرًبا يشيب منها الوليد
فابن حرب للمصطفى، وابن هند لعلى، وللحسين يزيد

وسنعرض فى ختام هذا الفصل عرضًا موجزًا لهذه المقابلة المتسلسلة بين أفراد الأسرتين لتحقيق الرأى فيها، ولكننا نجتزئ هنا بالمقابلة بين الخصمين المتصاولين من هاشم وعبد شمس فى شخصى الحسين ويزيد.. فأيًّا كان الميزان الذى يوزن به كل من الرجلين فلا مراء البتة فى خير الرجلين.

وما من رجل فاز حيث ينبغى أن يخيب، كما قد فاز يزيد بن معاوية فى حربه للحسين، وما اختصم رجلان كان أحدهما أوضح حقًّا وأظهر فضلاً من الحسين فى خصومته ليزيد ابن معاوية.

والموازنة بين هذين الخصمين هى فى بعض وجوهها موازنة بين الهاشميين والأمويين من بداءة الخلاف بين الأسرتين، وهى موازنة حفظت كفتيها على وضعهما زهاء سبعة قرون، فلم يظهر فى هذه القرون أموى قح، إلا ظهرت فيه الخصال الأموية المعهودة فى القبيلة بأسرها، ولم يظهر فى خلالها هاشمى قح، إلا رأيت فيه ملامح من تلك الخصال التى بلغت مثلها الأعلى فى محمد بن عبد الله عليه السلام.

والهاشميون والأمويون من أرومة واحدة ترتفع إلى عبد مناف، ثم إلى قريش فى أصلها الأصيل..

ولكن الأسرتين تختلفان فى الأخلاق والأمزجة وإن اتحدتا فى الأرومة. فبنو هاشم فى الأغلب الأعم مثاليون أريحيون، ولا سيما أبناء فاطمة الزهراء، وبنو أمية فى الأغلب

الأعم عمليون نفعيون، ولا سيما الأصلاء منهم فى عبد شمس من الآباء والأمهات.

وتفسير هذا الاختلاف مع اتحاد الأرومة غير عسير.. فإن الأخوين فى البيت الواحد قد يختلفان فى الأخلاق والأعمال، كما يختلف الغريبان من أمتين بعيدتين، تبعًا لاختلاف سلسلة الميرات فى الأصول والفروع، على ذلك النحو الذى يأذن أحيانًا باختلاف الألوان والملامح فى نسل واحد، تأخذ كل شعبة منه بناحية من نواحى الوراثة.

* * *

ومن الثابت الذى لا نزاع فيه أن عبد المطلب وأمية كانا يختلفان حتى فى الصورة والقامة والملامح..

وفى نسل أمية شبهة نشير إليها ولا نزيد، فهى محل الإشارة والمراجعة فى هذا المقام..

دخل دغفل النسّابة على معاوية فقال له: «من رأيت من علية قريش؟». فقال: «رأيت عبد المطلب بن هاشم وأمية بن عبد شمس». فقال: «صفهما لى». فقال: «كان عبد المطلب أبيض، مديد القامة، حسن الوجه، فى جبينه نور النبوة وعز الملك، يطيف به عشرة من بنيه كأنهم أسد غاب». قال: «فصف أمية». قال: «رأيته شيخًا قصيرًا، نحيف الجسم ضريرًا، يقوده عبده ذكوان». فقال معاوية: «مه!.. ذاك ابنه أبو عمرو». فقال دغفل: ذلك شىء قلتموه بعد وأحدثتموه، وأما الذى عرفت فهو الذى أخبرتك به».

وذكر الهيثم بن عدى فى كتاب المثالب أن أبا عمرو بن أمية كان عبدًا لأمية اسمه ذكوان فاستلحقه، ونقل أبو الفرج الأصبهانى - وهو من الأمويين - ما تقدم فلم يعرض له بتفنيد..

ووضح الفرق بين بنى هاشم وبنى أمية فى الخلائق والمناقب فى الجاهلية قبل الإسلام. فكان الهاشميون سراعًا إلى النجدة ونصرة الحق والتعاون عليه.. ولم يكن بنو أمية كذلك.. فتخلفوا عن حلف الفضول الذى نهض به بنو هاشم وحلفاؤهم، وهو الحلف الذى اتفق فيه نخبة من رؤساء قريش «ليكونن مع المظلوم حتى يؤدوا إليه حقه، وليأخذن أنفسهم بالتآسى فى المعاش والتساهم فى المال، وليمنعن القوى من ظلم الضعيف والقاطن من عنف الغريب» واتفقوا على هذا الحلف لأن العاص بن وائل اشترى بضاعة من رجل زبيدى ولواه بثمنها فنصروا الرجل الغريب على القرشى وأعطوه حقه..

ولما تنافر عبد المطلب وحرب بن أمية إلى نفيل بن عدى، قضى لعبد المطلب وقال لحرب:

أبــوك معــاهــر وأبــوه عف وذاد الفيــل عن بلد حــرام

يشير إلى فيل أبرهة الذى أغار به على مكة. وقال عن أمية إنه «معاهر» لأنه كان يتعرض للنساء، وقد ضرب بالسيف مرة لأنه تعرض لامرأة من بنى زهرة، وكان له تصرف عجيب فى علاقات الزواج والبنوة. فاستلحق عبده ذكوان وزوجه امرأته فى حياته، ولم يعرف سيد من سادات الجاهلية قط صنع هذا الصنيع.

اختلاف النشأة

وندع اختلاف الطبائع ومغامز النسب ثم ننظر فى اختلاف النشأة والعادة – مع اختلاف الخلقة الجسدية – فنرى أنهما صالحتان لتفسير الفارق بين أبناء هاشم وأبناء عبد شمس بعد جيلين أو ثلاثة أجيال..

فقد كان بنو هاشم يعملون فى الرئاسة الدينية، وبنو عبد الشمس يعملون فى التجارة أو الرئاسة السياسية.. وهما ما هما فى الجاهلية من الربا والمماكسة والغبن والتطفيف والتزييف، فلا عجب أن يختلفا هذا الاختلاف بين أخلاق الصراحة وأخلاق المساومة، وبين وسائل الإيمان ووسائل الحيلة على النجاح.

ويتفق كثيرا فى الكهانات الوثنية أن يتصف رؤساء الأديان بصفات الرياء والدهاء والعبث بأحلام الأغرار والجهلاء، ولكنهم يتصفون بهذه الصفة حين يعلمون الكذب فيما يمارسون من شعائر الكهانة، ومظاهر العبادة، ويتخذونها صناعة يروجونها لمنفعتهم أو لما يقدرون فيها من منفعة أولئك الأغرار والجهلاء.

أما أبناء هاشم فلم يكونوا من طراز أولئك الكهان المشعوذين، ولا كانوا من من المحتالين بالكهانة على خداع أنفسهم وخداع المؤمنين والمصدقين بل كانوا يؤمنون بالبيت ورب البيت، وبلغ من إيمانهم بدينهم أن عبد المطلب – جد النبى عليه السلام – أوشك أن يذبح ابنه فدية لرب البيت لأنه نذر «لئن عاش له عشرة بنين لينحرن أحدهم عند

الكعبة»، ولم يتحلل من نذره حتى استوثق من كلام العرافة بعد رمى القداح ثلاث مرات.

* * *

والأخلاق المثالية توائم الرئاسة الدينية التى يدين أصحابها بما يدعون إليه.. فإن لم تكن فى بنى هاشم موروثة من معدن أصيل فى الأسرة، فهى أشبه بسمت الرئاسة الدينية والعقيدة المتمكنة، والشعائر المتبعة جيلًا بعد جيل، وهى أخلق أن تزداد فى الأسرة تمكنًا بعد ظهور النبوة فيها، وأن يتلقاها بالوراثة والقدوة أسباط النبى وأقرب الناس إليه..

وإنك لتنحدر مع أعقاب الذرية فى الطالبين - أبناء على والزهراء - مائة سنة وأربعمائة سنة، ثم يبرز لك رجل من رجلها فيخيل إليك أن هذا الزمن الطويل لم يبعد قط بين الفرع وأصله فى الخصال والعادات.. كأنما هو بعد أيام معدودات لا بعد المئات وراء المئات من السنين، ولا تلبث أن تهتف عجبًا: أن هذه الصفات علوية لا شك فيها، لأنك تسمع الرجل منهم يتكلم ويجيب من يكلمه، وتراه يعمل ويجزى من عمله له، فلا تخطئ فى كلامه ولا فى عمله تلك الشجاعة والصراحة، ولا ذلك الذكاء والبلاغ المسكت، ولا تلك اللوازم التى اشتهر بها علىّ وآله وتجمعها فى كلمتين اثنتين تدلان عليها أوفى دلالة وهما: «الفروسية والرياضة»..

طبع صريح، ولسان فصيح، ومتانة فى الأسر يستوى فيها الخَلْق والخُلق، ونخوة لا تبالى ما يفوتها من النفع إذا هى استقامت على سنة المروءة والإباء..

فمن يحيى بن عمر، إلى على بن أبى طالب، خمسة أو ستة أجيال.. ولكن يحيى بن عمر يوصف لك، فإذا هو صورة مصغرة من صور على بن أبى طالب على نحو من الأنحاء، فمن أوصافه التى وصفه بها الكاتب الأموى أبو الفرج الأصبهانى أنه كان «رجًلا فارسًا، شجاعًا، شديد البدن، مجتمع القلب، بعيدًا عن رهق الشباب وما يعاب به مثله».

ومما روى عنه «أنه كان مقيمًا ببغداد، وكان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منـزله، وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمه.. فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله يحيى رضى الله عنه».

ولما ضايقه الأمراء وضنوا عليه بجرايته فى بيت المـال. كان يجـوع ويعرض عليـه الطعـام

فيأباه ويقول: «إن عشنا أكلنا».

ثم ثار وبلغت أنباء ثورته بغداد، فأقبلت عليهم الجموع المحشودة لقتاله، وأسرع إليه بعض الأعراب فصاح به: «أيها الرجل، أنت مخدوع.. هذه الخيل قد أقبلت».. فوثب إلى متن فرسه فجال به، وحمل على قائد القوم فضربه ضربة بسيفه على وجهه.. فولى منهزمًا وتبعه أصحابه، فجلس معهم ساعة وهو لا يبالى ما يكون.

* * *

ولما تكاثرت عليه الجموع وقتل بعد ذلك، اتهم الناس صاحبه الهيضم العجلى أنه كان مدسوسًا عليه، وأنه غرر به لينكص عنه عند احتدام القتال. فأقسم الرجل بالطلاق أنه لم يكن له فى الهزيمة صنع مدبر.. قال: «وإنما كان يحيى يحمل وحده ويرجع، فنهيته عن ذلك فلم يقبل.. وحمل مرة كما كان يفعل، فبصرت عينى به وقد صرع فى وسط عسكرهم، فلما رأيته قتل انصرفت بأصحابى».

ويحيى الشهيد هذا هو الذى قال ابن الرومى جيميته المشهورة فى وصف قتاله ومقتله، وهى طويلة منها قوله يخاطب أمراء زمانه:

فلو شهد الهيجا بقلب أبيكم ... غداة التقى الجمعان والخيل تمعج[1]
لأعطى يد العانى أو ارتد هاربًا ... كما ارتد بالقاع الظليم[2] المهيج
ولكنه مازال يغشى بنحره ... شبا الحرب حتى قال ذو الجهل أهوج
وحاشى له من تلكم غير أنه ... أبى خطة الأمر الذى هو أسمج
وأين به عن ذاك؟.. لا أين - إنه ... إليه بعرقيه الزكيين محرج
كأنى به كالليث يحمى عرينه ... وأشباله لا يزدهيه المهجهج
كدأب على فى المواطن قبله ... أبى حسن والغصن من حيث يخرج
كأنى أراه إذ هوى عن جواده ... وعفر بالترب الجبين المشجج
فحب به جسمًا إلى الأرض إذ هوى ... وحب به روحا إلى الله تعرج

* * *

---

(١) معج الفرس: أسرع سيره فى سهولة.

(٢) ذكر النعام.

وقد أصاب ابن الرومى الوصف والتعليل، فما كان كل من يحيى ولا أسلافه من قبله إلا عليًّا صغيراً يتأسى بعلى الكبير، أو غصناً زاكيًّا يخرج من دوحته الكبرى، «والغصن من حيث يخرج» كما قال، ولولا قوة هذه الطبائع فى أساس الأسرة الطالبية لما انحدرت على هذه الصورة الواضحة بعد ستة أجيال. فنحن نرى يحيى بن عمر بعد هذه الأجيال – وهو بعموده الحديدى وجرأته التى لا تتزعزع ويقينه الذى لا يلوى به الإغراء والوعيد – كأنما هو نسخة من جده الكبير الذى يحمل باب خيبر وقد أعيا حمله الرجال، وينهد لعمر بن ود وقد تهيبه مئات الأبطال، ويتوسط الصفوف حاسراً وقد برزوا له بشكة القتال ودروع النزال..

ولم يكن لبنى أمية – على نقيض هذا – نصيب ملحوظ من الخلائق المثالية والشمائل الدينية، ولا كان ظهور النبوة فى أسرة منافسة لأسرتهم من شأنه أن يعزز مناقبها فيهم كما يعتز بها أبناء بيتها وفروع أرومتها.

بل لعله كان من شأنه أن يجنح بهم من طرف خفى إلى صفات تقابل تلك الصفات، ومزايا تعوض لهم ما فاتهم من تلك المزايا.. فتمكنت فيهم قبل ظهور النبوة وبعدها خلائقهم العملية التى دربتهم عليها المساومات التجارية وراضهم عليها مراس المطامع السياسية. فاشتهر أناس من رءوسهم بمحاسن هذه الخلائق ومعائبها على السواء، وشاعت عنهم صفات الحلم والصبر والحنكة والدهاء كما شاعت عنهم صفات المراوغة والجشع والإقبال على الترف ومناعم الحياة.

ولقد تقابل الحسين بن على ويزيد بن معاوية فى تمثيل الأسرتين، كما تقابلا فى كثير من الخلائق والحظوظ.. ولكنهما تفاوتا فى تمثيل أسرتيهما كما تفاوتا فى غير ذلك من وجوه الخلاف بينهما.. فكان الحسين بن على نموذجاً لأفضل المزايا الهاشمية ولم يكن يزيد بن معاوية نموذجاً لأفضل المزايا الأموية، بل كان فيه الكثير من عيوب أسرته ولم يكن له من مناقبها المحمودة إلا القليل.

وليس بنا هنا أن نفصل القول فى أحوال كل من الرجلين وخصائص كل من النموذجين، ولكننا نجتزئ منهما بما يملأ الكفتين فى هذا الميزان، وهو ميزان الأريحية والنفعية فى حادث كبير من حوادث التاريخ العربى يندر نظيره فى جميع التواريخ.

مكانة الحسين

وإذا كانت المعركة كلها هى معركة الأريحية والنفعية، فالمزية الأولى التى ينبغى توكيدها هنا للحسين بن على رضى الله عنه هى مزية نسبه الشريف ومكانه من محبة النبى عليه السلام.

إن المؤرخ الذى يكتب هذا الحادث قد يكون عربيًّا مسلمًا أو يكون من غير العرب والمسلمين، وقد يؤمن بمحمد أو ينكر محمدًا وغيره من الأنبياء.. ولكنه يخطئ دلالة الحوادث التاريخية إذا استخف بهذه المزية التى قلنا إنها أحق مزايا الحسين بالتوكيد فى الصراع بينه وبين يزيد.

فليس المهم أن يؤمن المؤرخون بقيمة ذلك النسب الشريف فى نفوسهم أو قيمته فى علوم العلماء وأفكار المفكرين، ولكنما المهم أن أتباع يزيد كانوا يؤمنون بحق ذلك النسب الشريف فى الرعاية والمحبة، وأنهم مع هذا غلبتهم منافعهم على شعورهم فكانوا من حزب يزيد ولم يكونوا من حزب الحسين..

فلولا هذه المزية فى الحسين لما وضح الصراع بين الأريحية والنفعية عند الفريقين، ولا كان المصطرعون هنا وهناك من مزاجين مختلفين، ولا كان للمعركة كلها تلك الدلالة التى كشفت النفس الإنسانية فى جانبين منها قويين، يتنازعان حوادث الأمم والأفراد من زمان بعيد، وسيظلان على نزاعهما هذا إلى زمان بعيد.

* * *

ولقد كان الحسين بن على بهذه المزية أحب إنسان إلى قلوب المسلمين، وأجدر إنسان أن تنعطف إليه القلوب.

كان النبى عليه السلام هو الذى سماه، وسمى من قبله أخاه.. قال على رضى الله عنه: «لما ولد الحسن سميته حرباً فجاء رسول الله فقال: (أرونى ابنى.. ما سميتموه؟). قلت: (حرب!). فقال: (بل هو حسن».. فلما ولد الحسين سميته حرباً. فجاء رسول الله فقال: (أرونى ابنى.. ما سميتموه؟). قلت: (حرب!). فقال: (بل هو حسين)..».

وذهب إلى الحسين وإخوته كل ما فى فؤاد النبى عليه السلام من محبة البنين، وهو مشوق الفؤاد إلى الذرية من نسله. فكان عليه السلام لا يطيق أذاهما، ولا يحب أن يستمع إلى بكاء منهما فى طفولتهما، على كثرة ما يبكى الأطفال الصغار. وخرج من بيت عائشة يوماً، فمر على بيت فاطمة فسمع حسيناً يبكى، فقال: «ألم تعلمى أن بكاءه يؤذينى ؟».

وكان يقول لها: «ادعى إلىّ ابنىّ».. فيشمهما ويضمهما إليه، ولا يبرح حتى يضحكهما ويتركهما ضاحكين.. وروى أبو هريرة أنه كان عليه السلام يدلع لسانه للحسين، فيرى الصبى حمرة لسانه فيهش إليه، وكان عيينة بن بدر، شهده فى بعض هذه المجالس فقال متعجباً: «يصنع هذا بهذا؟ فوالله إن لى الولد وما قبلته قط!» قال عليه السلام: «من لا يرحم لا يُرحم؟».

* * *

وخرج ليلة فى إحدى صلاتى العشاء وهو حامل حسناً أو حسيناً، فوضعه ثم كبر للصلاة فأطال سجدة الصلاة، قال راوى الحديث: «فرفعت رأسى فإذا الصبى على ظهر رسول الله وهو ساجد فرجعت إلى سجودى، فلما قضى الصلاة قيل يا رسول الله: إنك سجدت بين ظهرى صلاتك سجدة أطلتها حتى ظننا أنه قد حدث أمر أو أنه يوحى إليك..» قال: «كل ذلك لم يكن.. ولكن ابنى ارتحلنى فكرهت أن أعجله..»

وقام عليه السلام يخطب المسلمين، فجاء الحسن والحسين وعليهما قميصان أحمران يمشيان ويعثران.. فنزل عليه السلام من المنبر، فحملهما ووضعهما بين يديه ثم قال: «صدق الله!.. «إنما أموالكم وأولادكم فتنة».. نظرت إلى هذين الصبيين يمشيان ويعثران، فلم أصبر حتى قطعت حديثى ورفعتهما».

* * *

ولا يوجد مسلم فى العصر القديم أو العصر الحديث يحب نبيه كما يحب المؤمنون أنبياءهم، ثم يصغر عنده حساب هذا الحنان الذى غمر به قلبه الكريم سبطيه وأحب الناس إليه.. فبهذا الحنان النبوى قد أصبح الحسين فى عداد تلك الشخوص الرمزية التى تتخذ منها الأمم والملل عنواناً للحب، أو عنواناً للفخر، أو عنواناً للألم والفداء.. فإذا بها

محبوب كل فرد ومفخرته، وموضع عطفه وإشفاقه، كأنما تمت إليه وحده بصلة القرابة أو بصلة المودة.

وقد بلغ الحسين بهذا الحنان – مع الزمن – مبلغه من تلك المكانة الرمزية فأوشك بعض واصفيه أن يلحقه فى حمله وولادته ورضاعه بمواليد المعجزات فقال بعضهم: «لم يولد مولود لستة أشهر وعاش إلا الحسين وعيسى بن مريم». وقال آخرون إنه رضى الله عنه لم ترضعه أمه ولم ترضعه أنثى «واعتلت فاطمة لما ولدت الحسين وجف لبنها فطلب رسول الله مرضعة فلم يجد، فكان يأتيه فيلقمه إبهامه فيمصه ويجعل الله فى إبهام رسوله رزقاً يغذيه، ففعل ذلك أربعين يوماً وليلة، فأنبت الله سبحانه وتعالى لحمه من لحم رسول الله..»

وروى عنه غير ذلك كثير من الأساطير التى تحيط بها الأمم تلك الشخوص الرمزية التى تعزها وتغليها فتلتمس لها مولداً غير المولد المألوف، والنشأة المعهودة، وتلحقها أو توشك أن تلحقها بالخوارق والمعجزات..

* * *

ولقد كانت حقيقة الحسين الشخصية كفؤاً لتلك الصورة الرمزية التى نسجتها حوله الأجيال المتعاقبة قبل أن يرى منه أبناء جيله غير تلك الحقيقة.

فكان ملء العين والقلب فى خَلق وخُلق، وفى أدب وسيرة، وكانت فيه مشابه من جده وأبيه.. إلا أنه كان فى شدته أقرب إلى أبيه. قال رضى الله عنه مشيراً إلى الحسن: «إن ابنى هذا سيخرج من هذا الأمر، أشبه أهلى بى الحسين». واتفق بعض الثقات على أن «الغالب على الحسن الحلم والأناة كالنبى، وعلى الحسين الشدة كعلى».

وقد تعلم فى صباه خير ما يتعلمه أبناء زمانه من فنون العلم والأدب والفروسية، وإليه يرفع كثير من المتصوفة وحكماء الدين نصوصهم التى يعولون عليها ويردونها إلى على بن أبى طالب رضى الله عنه.

وقد أوتى ملكة الخطابة من طلاقة لسان وحسن بيان وغنة صوت وجمال إيماء. ومن كلامه المرتجل قوله فى توديع أبى ذر، وقد أخرجه عثمان من المدينة بعد أن أخرجه معاوية من الشام: «يا عماه! إن الله قادر أن يغير ما قد ترى. والله كل يوم فى شأن: وقد منعك القوم دنياهم ومنعتهم دينك، وما أغناك عما منعوك وأحوجهم إلى ما منعتهم، فاسأل الله

الصبر والنصر، واستعذ به من الجشع والجزع، فإن الصبر من الدين والكرم، وإن الجشع لا يقدم، رزقاً والجزع لا يؤخر أجلاً».

وكان يومئذ فى نحو الثلاثين من عمره فكأنما أودع هذه الكلمات شعار حياته كاملة منذ أدرك الدنيا إلى أن فارقها فى مصرع كربلاء.

* * *

وتواترت الروايات بقوله الشعر فى أغراض الحكمة وبعض المناسبات البيئية، ومن ذلك هذه الأبيات:

اغن عن المخلوق بالخالق ... تغن عن الكاذب والصادق
واسترزق الرحمن من فضله ... فليس غير الله من رازق
من ظن أن الناس يغنونه ... فليس بالرحمن بالواثق

ومنه هذان البيتان فى زوجته وابنته:

لعمرك إننى لأحب دارًا ... تكون بها سكينة والرباب
أحبهما وأبذل كل مالى ... وليس لعاتب عندى عتاب

وهما - سواء صحت نسبتهما إليه أو لم تصح - معبران عن خلقه فى بيته وبين أهله، فقد كان من أشد الآباء حدبًا على الأبناء وأشد الأزواج عطفًا على النساء، ومن وفاء زوجاته بعد مماته أن الرباب هذه التى ذكرت فى البيتين السابقين خطبها أشراف قريش بعد مقتله فقالت: «ما كنت لأتخذ حمًا بعد رسول الله.. وبقيت سنة لا يظلها سقف حتى فنيت وماتت، وهى لا تفتر عن بكائه والحزن عليه».

خلق كريم

وقد سن الحسين لمن بعده سنة فى آداب الأسرة تليق بالبيت الذى نشأ فيه ووكل إليه أن يرعى له حقه ويوجب على الناس مهابته وتوقيره، فهو على فضله وذكائه وشجاعته ورجحانه على أخيه الحسن فى مناقب كثيرة ومآثر عدة كان يستمع إلى رأى الحسن ولا يسوءه بالمراجعة أو المخالفة. فلما هم الحسن بالتسليم لمعاوية كان ذلك على غير رضًا من الحسين. فلم يوافقه وأشار عليه بالقتال، فغضب الحسن وقال له: «والله لقد هممت أن

أسجنك فى بيت وأطين عليك بابه، حتى أقضى بشأنى هذا وأفرغ منه ثم أخرجك..»

فلم يراجعه الحسين بعدها وآثر الطاعة والسكوت..

* * *

ومن رعايته لسنن الأسرة ووصايا الأبوة أنه ركبه دين فساومه معاوية بمائتى ألف دينار أو بمبلغ جسيم من المال على عين «أبى بيزر» أن يبيعها مع حاجته إلى بعض ما عرض عليه – لأن أباه تصدق بمائها لفقراء المدينة ولو أنه باعها لوقفها معاوية على أولئك الفقراء.

وقد أخذ بسمت الوقار فى رعاية أسرته ورعاية الناس عامة.. فهابه الناس وعرف معاوية عنه المهابة فوصفه لرجل من قريش ذاهب إلى المدينة فقال: «إذا دخلت مسجد رسول الله فرأيت حلقة فيها قوم كأن على رءوسهم الطير، فتلك حلقة أبى عبد الله مؤتزرًا إلى أنصاف ساقيه..»

ولم يذكر عنه قط أنه كان يواجه الناس بتخطئة وهو يعلمهم ويبصرهم بشئون دينهم، إلا أن تكون مكابرة أو لجاجة فله فى جواب ذلك أشباه تلك القوارص التى تؤثر عن أبيه.

وما لم تكن مكابرة أو لجاجة فهو يحتال على تصحيح الخطأ حيلة لا غضاضة فيها على المخطئين.

فمن آدابه وآداب أخيه فى ذلك أنهما رأيا أعرابيًّا يخفف الوضوء والصلاة فلم يشاءا أن يجبهاه بغلطه وقالا له: «نحن شابان وأنت شيخ ربما تكون أعلم بأمر الوضوء والصلاة منا، فنتوضأ ونصلى عندك، فإن كان عندنا قصور تعلمنا». فتنبه الشيخ إلى غلطه دون أن يأنف من تنبيههما إليه. ومر يوماً بمساكين يأكلون فدعوه إلى الطعام على عادة العرب، فنزل وأكل معهم ثم قال لهم: «قد أجبتكم فأجيبونى» ودعاهم إلى الغداء فى بيته.

* * *

ورويت الغرائب فى اختبار حذقه بالفقه واللغة كما رويت أمثال هذه الغرائب فى امتحان قدرة أبيه عليهما السلام.. فقيل إن أعرابيًّا دخل المسجد الحرام فوقف على

الحسن رضى الله عنه وحوله حلقة من مريديه فسأل عنه، فقال لما عرفوه به: «إياه أردت.. جئت لأطارحه الكلام وأسأله عن عويص العربية». فقال له بعض جلسائه: «إن كنت جئت لهذا فابدأ بذلك الشاب». وأومأ إلى الحسين عليه السلام، فلما سلم على الحسين وسأله عن حاجته قال: إنى جئتك من الهرقل والجعلل والأيتم والهمهم» فتبسم الحسين وقال:

- يا أعرابى!.. لقد تكلمت بكلام ما يعقله إلا العالمون.

فأجابه الأعرابى قائلًا يريد الإغراب: وأقول أكثر من هذا، فهل أنت مجيبى على قدر كلامى؟.. ثم أذن له الحسين فأنشد أبياتاً تسعة، منها:

هفا قلبى إلى اللهو وقد ودع شرخيه

فأجابه الحسين مرتجلًا بتسعة أبيات فى معناها ومن وزنها وقوافيها منها:

فما رسم شجانى قد محت آيات رسميه
سفور درجت ذيلين فى بوغاء قاعيه
هتوف مرجف تترى على تلبيد ثوبيه

إلى آخر الأبيات.. ثم فسر له ما أراد من الهرقل وهو ملك الروم، والجعلل وهو قصار النخل، والأيتم وهو بعض النبات، والهمهم وهو القليب الغزير الماء، وفى هذه الكلمات أوصاف البلاد التى جاء منها وإشارة إليها.

فقال الأعرابى: «ما رأيت كاليوم أحسن من هذا الغلام كلاماً، وأذرب لساناً، ولا أفصح منه منطقاً».

وتلك رواية من روايات على منوالها، إن لم تنبئ بما وقع فهى منبئة بما تداوله الناس من شهرة الحسين فى صباه الباكر بالعلم والفصاحة.

ولخبرته بالكلام وشهرته بالفصاحة، كان الشعراء يرتادونه وبهم من الطمع فى إصغائه أكبر من طمعهم فى عطائه.. ولكنه على هذا كان يجرى معهم على شرعة ذوى الأقدار والأخطار من أنداده، فيبذل لهم الجوائز ما وسعه البذل ويؤثرهم على نفسه فى خصاصة الحال. وقد لامه أخوه الحسن فى ذلك فكتب إليه «إن خير المال ما وقى به العرض»

إلا أنه فى الواقع لم يكن يعطى لوقاية العرض وكفى، ولكنه كان يعطى من قصده من ذوى الحاجات ولا يخيب رجاء لمن استعان به على مروءة.

وفاء وشجاعة

وقد اشتهر مع الجود بصفتين من أكرم الصفات الإنسانية وأليقهما ببيته وشرفه، وهما الوفاء والشجاعة.

فمن وفائه أنه أبى الخروج على معاوية بعد وفاة أخيه الحسن لأنه عاهد معاوية على المسالمة، وقال لأنصاره الذين حرضوه على خلع معاوية إن بينه وبين الرجل عهداً وعقداً لا يجوز له نقضه حتى تمضى المدة، وكان معاوية يعلم وفاءه وجوده معاً، فقال لصحبه يوماً وقد أرسل الهدايا إلى وجوه المدينة من كسى وطيب وصلات: «إن شئتم أنبأناكم بما يكون من القوم.. أما الحسن فلعله ينيل نساءه شيئاً من الطيب وينهب ما بقى من حضره ولا ينتظر غائباً، وأما الحسين فيبدأ بأيتام من قتل مع أبيه بصفين فإن بقى شىء نحر به الجزر وسقى به اللبن..»

وشجاعة الحسين صفة لا تستغرب منه لأنها «الشىء من معدنه» كما قيل. وهى فضيلة ورثها عن الآباء وأورثها الأبناء بعده، وقد شهد الحروب فى إفريقية الشمالية وطبرستان والقسطنطينية، وحضر مع أبيه وقائعه جميعاً من الجمل إلى صفين.. وليس فى بنى الإنسان من هو أشجع قلباً ممن أقدم على ما أقدم عليه الحسين فى يوم كربلاء.

وقد تربى للشجاعة كما تلقاها فى الدم بالوراثة، فتعلم فنون الفروسية كركوب الخيل والمصارعة «العدو من صباه ولم تفته ألعاب الرياضة التى تتم بها مرانة الجسم على الحركة والنشاط.. ومنها لعبة تشبه «الجولف» عند الأوروبيين كانوا يسمونها المداحى: جمع مدحاة، وهى أحجار مثل القرصة يحفرون فى الأرض حفرة ويرسلون تلك الأحجار، فمن وقع حجره فى الحفرة فهو الغالب.

* * *

أما عاداته فى معيشته فكان ملاكها لطف الحس وجمال الذوق والقصد فى تناول كل مباح. كان يحب الطيب والبخور، ويأنق للزهر والريحان.

وروى أنس بن مالك أنه كان عنده فدخلت عليه جارية بيدها طاقة من ريحان فحيته بها. فقال لها: «أنت حرة لوجه الله تعالى» فسأله أنس متعجباً: «جارية تجيئك بطاقة ريحان فتعتقها؟». قال: «كذا أدبنا الله. قال تبارك وتعالى: (وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها).. وكان أحسن منها عتقها».

وكان يميل للفكاهة ويأنس فى أوقات راحته لأحاديث أشعب وأضاحيكه، ولكنه على شيوع الترف فى عصره لم يكن يقارب منه إلا ما كان يجمل بمثله.. حتى تحدث المتحدثون أنه لا يعرف رائحة الشراب..

وكانت له صلوات يؤديها غير الصلوات الخمس، وأيام من الشهر يصومها غير رمضان.

وقد عاش سبعاً وخمسين سنة بالحساب الهجرى، وله من الأعداء من يصدقون ويكذبون.. فلم يعبه أحد منهم بمعابة ولم يملك أحد منهم أن ينكر ما ذاع من فضله، حتى حار معاوية بعينه حين استعظم جلساؤه خطاب الحسين له. واقترحوا عليه أن يكتب إليه بما يصغره فى نفسه. فقال إنه كان يجد ما يقوله فى على، ولكن لا يجد ما يقوله فى حسين.

تلك جملة القول فى سيرة أحد الخصمين.

خلق يزيد

ويقف خصمه أمامه موقف المقابلة والمناقضة لا موقف المقارنة والمعادلة فى معظم خلائقه وعاداته وملكاته وأعماله.

فيزيد بن معاوية عريق النسب فى بنى عبد مناف ثم فى قريش، ولكن الأصدقاء والخصوم والمادحين والقادحين متفقون على وصف الخلائق التى اشتهر بها أبناء هذا الفرع من عبد مناف، وأشهرها الأثرة، وأحمد ما يحمد منها أنها تنفع الناس من طريق النفع لأصحابها. وندر من وجوه الأمويين فى الجاهلية أو الإسلام من اشتهر بخصلة تجلب إلى صاحبها ضرراً أو مشقة فى سبيل نفع الناس..

وبيت أبى سفيان بيت سيادة مرعية لا مراء فيها..

ولكن الحقيقة التى ينبغى أن نذكرها فى هذا المقام أن معاوية بن أبى سفيان لم يكن ليرث شيئاً من هذه السيادة التى كان قوامها كله وفرة المال، لأن أبا سفيان على ما يظهر قد أضاع ماله فى حروب الإسلام ولم يكن له من الوفر ما يبقى على كثرة الوارث. وروى أن امرأة استشارت النبى عليه السلام فى التزوج بمعاوية فقال لها: «إنه صعلوك !..»

* * *

كذلك ينبغى أن نذكر حقيقة أخرى فى هذا المقام، وهى أن معاوية لم يكن من كتاب الوحى كما أشاع خدام دولته بعد صدور الإسلام، ولكنه كان يكتب للنبى عليه السلام فى عامة الحوائج فى إثبات ما يجبى من الصدقات وما يقسم فى أربابها، ولم يسمع عن ثقة قط أنه كتب للنبى شيئاً من آيات القرآن الكريم.

وعرفت لمعاوية خصال محمودة من خصال الجد والسيادة كالوقار والحلم والصبر والدهاء، ولكنه على هذا كان لا يملك حلمه في فلتات تميد بالملك الراسخ، ومنها قتله حجر ابن عدى وستة من أصحابه لأنهم كانوا ينكرون سب علىّ وشيعته، فما زال بقية حياته يندم على هذه الفعلة ويقول: «ما قتلت أحداً إلا وأنا أعرف فيم قتلته ما خلا حجراً فإنى لا أعرف بأى ذنب قتلته..»

وأم يزيد هى ميسون بنت مجدل الكلبية من كرائم بنى كلب المعرقات فى النسب، وهى التى كرهت العيش مع معاوية فى دمشق وقالت تتشوق إلى عيش البادية:

لـلبس عبـاءة وتـقـر عيـنى ... أحب إلى من لبس الشفـوف
وبـيت تخـفـق الأرواح فـيـه ... أحب إلى من قصـر منيف..

ومن هذه الأبيات قولها:

وخـرق من بنى عمى فقـير ... أحب إلى من عـلج عنـيف!.

فأرسلها وابنها يزيد إلى باديتها، فنشأ يزيد مع أمه بعيداً عن أبيه.

* * *

وقد أفاد من هذه النشأة البدوية بعض أشياء تنفع الأقوياء، ولكنها على ما هو مألوف

فى أعقاب السلالات القوية تضيرهم وتجهز على ما بقى من العزيمة فيهم..

فكان ما استفاده من بادية بنى كليب بلاغة الفصحى، وحب الصيد وركوب الخيل، ورياضة الحيوانات ولا سيما الكلاب.

وهذه صفات فى الرجل القوى تزينه وتشحذ قواه، ولكنها فى أعقاب السلالات - أو عكارة البيت كما يقال بين العامة - مدعاة إلى الإغراق فى اللهو والولع بالفراغ لأنها هى عنده كل شيء وليست مدداً لغيرها من كبار الهمم وعظائم الهموم.

وهكذا انقلبت تلك الصفات فى يزيد من المزية إلى النقيصة.. فكان كلفه بالشعر الفصيح مغرياً له بمعاشرة الشعراء والندماء فى مجالس الشراب، وكان ولعه بالصيد شاغلاً يحجبه عن شواغل الملك والسياسة، وكانت رياضته للحيوانات مهزلة تلحقه بأصحاب البطالة من القرادين والفهادين، فكان له قرد يدعوه «أبا قيس» يلبسه الحرير ويطرز لباسه بالذهب والفضة ويحضره مجالس الشراب، ويركبه أتاناً فى السباق ويحرص على أن يراه سابقاً مجلِّياً على الجياد، وفى ذلك يقول يزيد كما جاء فى بعض الروايات:

تمسك أبا قيس بفضل عنانها ... فليس عليها إن سقطت ضمان
ألا من رأى القرد الذى سبقت به ... جياد أمير المؤمنين أتان

وقد يكون عبد الله بن حنظلة مبالغاً فى المذمة حين قال فيما نسب إليه: «والله ما خرجنا على يزيد حتى خفنا أن نرمى بالحجارة من السماء. إن رجلاً ينكح الأمهات والبنات والأخوات ويشرب الخمر ويدع الصلاة، والله لو لم يكن معى أحد من الناس لأبليت الله فيه بلاءً حسناً».

* * *

ولكن الروايات لم تجمع على شيء كإجماعها على إدمانه الخمر، وشغفه باللذات، وتوانيه عن العظائم. وقد مات بذات الجنب وهو لما يتجاوز السابعة والثلاثين، ولعلها إصابة الكبد من إدمان الشراب والإفراط فى اللذات. ولا يعقل أن يكون هذا كله اختلافاً واختراعاً من الأعداء لأن الناس لم يختلفوا مثل ذلك على أبيه أو على عمرو بن العاص، وهما بغيضان أشد البغض إلى أعداء الأمويين.. ولأن الذين حاولوا ستره من

خدام دولته لم يحاولوا الثناء على مناقب فيه تحل عندهم محل مساوئه وعيوبه، كأن الاجتراء على مثل هذا الثناء من وراء الحسبان.

ولم يكن هذا التخلف فى يزيد من هزال فى البنية أو سقم اعتراه كذلك السقم الذى يعترى أحياناً بقايا السلالات التى تهم بالانقراض والدثور، ولكنه كان هزالاً فى الأخلاق وسقماً فى الطوية.. قعد به عن العظائم مع وثوق بنيانه وضخامة جثمانه واتصافه ببعض الصفات الجسدية التى تزيد فى وجاهة الأمراء كالوسامة وارتفاع القامة.. وقد أصيب فى صباه بمرض خطير - وهو الجدرى - بقيت آثاره فى وجهه إلى آخر عمره، ولكنه مرض كان يشيع فى البادية ولم يكن من دأبه أن يقعد بكل من أصيب به عن الطموح والكفاح.

* * *

وعلى فرط ولعه بالطراد حين يكون الطراد لهواً وفراغاً، كانت همته الوانية تفتر به عن الطراد حين تتسابق إليه عزائم الفرسان فى ميادين القتال، ولو كان دفاعاً عن دينه ودنياه.

فلما سير أبوه جيش سفيان بن عوف إلى القسطنطينية لغزو الروم ودفعهم عن بلاد الإسلام - أو بلاد الدولة الأموية - تثاقل وتمارض حتى رحل الجيش وشاع بعد ذلك أنه امتحن فى طريقه ببلاء المرض والجوع، فقال يزيد:

ما إن أبالى بما لاقت جموعهم ... بالفرقدونة من حمى ومن موم
إذا اتكأت على الأنماط مرتفقاً ... بدير مران عندى أم كلثوم

فأقسم أبوه حين بلغه هذان البيتان ليلحقن بالجيش ليدرأ عنه عار النكول والشماتة بجيش المسلمين بعد شيوع مقاله فى خلواته.

* * *

ومن أعجب عجائب المناقضة التى تمت فى كل شىء بين الحسين ويزيد أن يزيد لم يختص بمزية محمودة تقابل نظائرها من مزايا الحسين، حتى فى تلك الخصال التى تأتى بها المصادفة ولا فضل فيها لأصحابها ومنها مزيد السن وسابقة الميلاد.

فلما تنازعا البيعة كان الحسين فى السابعة والخمسين مكتمل القوة ناضج العقل وفى

المعرفة بالعلم والتجربة، وكان يزيد فى نحو الرابعة والثلاثين لم يمارس من شئون الرعاة ولا الرعية ما ينفعه بين هؤلاء أو هؤلاء.

ومزية السن هذه قد يطول فيها الأخذ والرد بين أبناء العصور الحديثة ولكنها كانت تقطع القول فى أمة العرب حيث نشأ الأسلاف والأخلاف على طاعة الشيوخ ورعاية الأعمار.. وهذا على أن السابعة والخمسين ليست بالسن التى تعلو بصاحبها فى الكبر حتى تسلبه مزية الفتوة ومضاء العزيمة

كذلك لا يقال إن «الوراثة المشروعة» فى الممالك كان لها شأن يرجح بيزيد على الحسين فى ميزان العروبة والإسلام. فقد كان توريث معاوية ابنه على غير وصية معروفة من السلف بدعة هرقلية كما سماها المسلمون فى ذلك الزمان، ولم يكن معقولاً أن العرب فى صدر الإسلام يوجبون طاعة يزيد لأنه ابن معاوية، وهم لم يوجبوا طاعة آل النبى فى أمر الخلافة لأنهم قرابة محمد عليه السلام.

فقد شاءت عجائب التاريخ إذن أن تقيم بين ذينك الخصمين قضية تتضح فيها النزعة النفعية على نحو لم تتضحه قط فى أمثالها من القضايا، وقد وجب أن ينخذل يزيد كل الخذلان لولا النزعة النفعية التى أعانته وهو غير صالح لأن يستعين بها بغير أعوان من بطانته وأهله.. ولئن كان فى تلك النزعة النفعية مسحة تشوبها من غير معدنها الوضيع لتكونن هى عصبية القبيلة من بنى أمية، وهى هنا نزعة مواربة تعارض الإيمان الصريح ولا تسلم من الختل والتلبيس.

* * *

لهذا شك بعض الناس فى إسلام ذلك الجيل من الأمويين، وهو شك لا نرتضيه من وجهه الدلائل التاريخية المتفق عليها. فقد يخطر لنا الشك فى صدق دين أبى سفيان لأن أخباره فى الإسلام تحتمل التأويلين، ولكن معاوية كان يؤدى الفرائض ويتبرك بتراث النبى ويوصى أن تدفن معه أظافره التى حفظها إلى يوم وفاته. وليس بيسير علينا أن نفهم كيف ينشأ معاوية الثانى على تلك التقوى وذلك الصلاح وهو ناشئ فى بيت مدخول الإسلام، يتصارح أهله أحياناً بما ينم على الكفر به أو التردد فيه.

إنما هى الأثرة، ثم الخرق فى السياسة، ثم التمادى فى الخرق مع استثارة العناد

والعداء.. وفى تلك الأثرة ولواحقها ما ينشئ المقابلة من أحد طرفيها فى الخصومة.. ويتم المناظرة فى شتى بواعثها بين ذينك الخصمين الخالدين، ونعنى بهما هنا المثالية والواقعية، وما الحسين واليزيد إلا المثالان الشاخصان منها للعيان.

رجال المعسكرين

كان الحسين فى طريقه إلى الكوفة - يوم دعاه شيعته إليها - يسأل من يلقاهم عن أحوال الناس فينبئونه عن موقفهم بينه وبين بنى أمية، وقلما اختلفوا فى الجواب..

سأل الفرزدق وهو خارج من مكة - والفرزدق مشهور بالتشيع لآل البيت - فقال له: «قلوب الناس معك وسيوفهم مع بنى أمية، والقضاء ينزل من السماء، والله يفعل ما يشاء».

وقال له مجمع بن عبيد العامرى: «أما أشراف الناس فقد أعظمت رشوتهم وملئت غرائرهم فهم ألب واحد عليك، وأما سائر الناس بعدهم فإن قلوبهم تهوى إليك وسيوفهم غدًا مشهورة عليك».

وقد أصاب الفرزدق وأصاب مجمع بن عبيد، فإن الناس جميعًا كانوا بأهوائهم وأفئدتهم مع الحسين بن على ما لم تكن لهم منفعة موصولة بملك بنى أمية، فهم إذن عليه بالسيوف التى تشهرها الأيدى دون القلوب.

وقد «أعظمت الرشوة» للرؤساء وأعظمت لهم من بعدها الوعود والآمال، فعلموا أن دوام نعمتهم من دوام ملك بنى أمية..

فأما الرؤساء الذين كانت لهم مكانتهم بمعزل عن الملك القائم، فقد كانوا ينصرون حسينًا ولا ينصرون الأمويين.. أو كانوا يصانعون الأمويين ولا يبلغون بالمصانعة أن يشهروا الحرب على الحسين.

ومن هؤلاء هانئ بن عروة من كبار الزعماء فى قبائل كندة، وشريك بن الأعور، وسليمان بن صرد الخزاعى، وكلاهما من ذوى الشرف والدين.

بل كان من العاملين لبنى أمية من يخزه ضميره إذا بلغ العداء للحسين أشده، فيترك

معسكر بنى أمية ليلوذ بالمعسكر الذى كتب عليه الموت والبلاء. كما فعل الحر بن يزيد الرياحى فى كربلاء وقد رأى القوم يهمون بقتل الحسين ولا يقنعون بحصاره. فسأل عمر ابن سعد قائد الجيش: «أمقاتل أنت هذا الرجل؟». فلما قال: «نعم» ترك الجيش الأموى وذهب يقترب من الحسين حتى داناه فقال له: «جعلت فداك يا بن رسول الله. أنا صاحبك حبستك عن الرجوع وجعجعت بك فى هذا المكان، وما ظننت أن القوم يردون عليك ما عرضته عليهم، ووالله لو علمت أنهم ينتهون بك إلى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت، وإنى تائب إلى الله مما صنعت، فهل ترى لى من توبة؟» .

فقبل الحسين توبته وجعل الرجل يقاتل من ساعتها حتى قتل، وآخر كلمة على لسانه فاه بها: «السلام عليك يا أبا عبد الله!».

* * *

فمجمل ما يقال على التحقيق أنه لم يكن فى معسكر يزيد رجل يعينه على الحسين إلا وهو طامع فى مال، مستميت فى طمعه استماتة من يهدر الحرمات ولا يبالى بشىء منها فى سبيل الحطام.

ولقد كان لمعاوية مشيرون من ذوى الرأى كعمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، وأضرابهم من أولئك الدهاة الذين يسميهم التاريخ أنصار دول وبناة عروش..

وكان لهم من سمعة معاوية وذرائعه شعار يدارون به المطامع ويتحللون من التأثيم...

لكن هؤلاء بادوا جميعًا فى حياة معاوية، ولم يبق ليزيد مشير واحد ممن نسميهم بأنصار الدول وبناة العروش، وإنما بقيت له شرذمة على غراره أصدق ما توصف به أنها شرذمة جلادين، يقتلون من أمروا بقتله، ويقبضون الأجر فرحين..

فكان أعوان معاوية ساسة وذوى مشورة..

وكان أعوان يزيد جلادين وكلاب طراد فى صيد كبير..

وكانوا فى خلائقهم البدنية على المنال الذى يعهد فى هذه الطغمة من الناس، ونعنى به مثال المسخاء المشوهين.. أولئك الذين تمتلئ صدورهم بالحقد على أبناء آدم، ولا سيما من

كان منهم على سواء الخلق وحسن الأحدوثة، فإذا بهم يفرغون حقدهم فى عدائه وإن لم ينتفعوا بأجر أو غنيمة، فإذا انتفعوا بالأجر والغنيمة فذلك هو حقد الضراوة الذى لا تعرف له حدود..

وشر هؤلاء جميعًا هم شمر بن ذى الجوشن، ومسلم بن عقبة، وعبيد الله بن زياد. ويلحق بزمرتهم، على مثال قريب من مثالهم، عمر بن سعد بن أبى وقاص..

فشمر بن ذى الجوشن كان أبرص كريه المنظر قبيح الصورة، وكان يصطنع المذهب الخارجى ليجعله حجة يحارب بها عليًّا وأبناءه، ولكنه لا يتخذه حجة ليحارب بها معاوية وأبناءه.. كأنه يتخذ الدين حجة للحقد، ثم ينسى الدين والحقد فى حضرة المال.

* * *

ومسلم بن عقبة مخلوق مسمم الطبيعة فى مسلاخ إنسان.

«وكان أعور أمغر ثائر الرأس، كأنما يقلع رجليه من وحل إذا مشى» وقد بلغ من ضراوته بالشر وهو شيخ فان مريض، أنه أباح المدينة فى حرم النبى عليه السلام ثلاثة أيام، واستعرض أهلها بالسيف جزرًا كما يجزر القصاب الغنم، حتى ساخت الأقدام فى الدم، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار وذرية أهل بدر، وأخذ البيعة ليزيد بن معاوية على كل من استبقاه من الصحابة والتابعين على أنه عبد قن لأمير المؤمنين..!

وانطلق جنده فى المدينة إلى جوار قبر النبى يأخذون الأموال ويفسقون بالنساء، حتى بلغ القتلى – فى تقدير الزهرى – سبعمائة من وجوه الناس وعشرة آلاف من الموالى. ثم كتب إلى يزيد يصف له ما فعل وصف الظافر المتهلل، فقال بعد كلام طويل: «فأدخلنا الخيل عليهم... فما صليت الظهر أصلح الله أمير المؤمنين إلا فى مسجدهم! بعد القتل الذريع والانتهاب العظيم... وأوقعنا بهم السيوف وقتلنا، من أشرف لنا منهم، واتبعنا مدبرهم وأجهزنا على جريحهم وانتهبناها ثلاثًا كما قال أمير المؤمنين أعز الله نصره، وجعلت دور بنى الشهيد عثمان بن عفان فى حرز وأمان، والحمد لله الذى شفا صدرى من قتل أهل الخلاف القديم والنفاق العظيم، فطالما عتوا وقديمًا ما طغوا. أكتب هذا إلى أمير المؤمنين وأنا فى منزل سعيد بن العاص مدنفًا مريضًا ما أرانى إلا لما بى.. فما كنت أبالى متى مت بعد يومى هذا..»

* * *

وكل هذا الحقد المتأجج فى هذه الطوية العفنة إنما هو الحقد فى طبائع المسخاء الشائهين... يوهم نفسه أنه الحقد من ثأر عثمان، أو من خروج قوم على ملك يزيد..

وكان عبيد الله بن زياد متهم النسب فى قريش، لأن أباه زيادا كان مجهول الأب فكانوا يسمونه زياد بن أبيه. ثم ألحقه معاوية بأبى سفيان لأن أبا سفيان ذكر بعد نبوغ زياد، أنه كان قد سكر بالطائف ليلة فالتمس بغيًّا فجاءوه بجارية تدعى سمية، فقالت له بعد مولد زياد إنها حملت به فى تلك الليلة..

وكانت أم عبيد الله جارية مجوسية تدعى مرجانة فكانوا يعيرونه بها وينسبونه إليها، ومن عوارض المسخ فيه - وهى عوارض لها فى نفوس العرب دخلة تورث الضغن والمهانة - إنه كان ألكن اللسان لا يقيم نطق الحروف العربية..

فكان إذا عاب الحرورى من الخوارج، قال: «هرورى» فيضحك سامعوه، وأراد مرة أن يقول اشهروا سيوفكم، فقال افتحوا سيوفكم.. فهجاه يزيد بن مفرغ قائلاً:

ويوم فتحت سيفك من بعيد ... أضعت وكل أمرك للضياع

ولم يكن أهون لديه من قطع الأيدى والأرجل، والأمر بالقتل فى ساعة الغضب لشبهة ولغير شبهة. ففى ذلك يقول مسلم بن عقيل وهو صادق مؤيد بالأمثال والمثلات: «ويقتل النفس التى حرم الله قتلها على الغضب والعداوة وسوء الظن، وهو يلهو ويلعب كأنه لم يصنع شيئًا».

وقد كانت هذه الضراوة على أعنفها وأسوئها يوم تصدى عبيد الله بن زياد لمنازلة الحسين، لأنه كان يومئذ فى شرة الشباب لم يتجاوز الثامنة والعشرين وكان يزيد يبغضه ويبغض أباه لأنه كان قد نصح لمعاوية بالتمهل فى الدعوة إلى بيعة يزيد، فكان عبيد الله من ثَم حريصًا على دفع الشبهة والغلو فى إثبات الولاء للعهد الجديد..

والذين لم يمسخوا فى جبلتهم وتكوينهم هذا المسخ من أعوان يزيد بن معاوية، كان الطمع فى المناصب والأموال واللذات قد بلغ ما يبلغه المسخ من تحويل الطبائع وطمس البصائر ومغالطة النفوس فى الحقائق..

* * *

ومن هذا القبيل، عمر بن سعد بن أبي وقاص الذى أطاع عبيد الله بن زياد فى وقعة كربلاء ولم يعدل بتلك الوقعة عن نهايتها المشئومة، وقد كان العدول بها عن تلك النهاية فى يديه.

فقد أغرى عمر بن سعد بولاية الرى، وهى درة التاج فى ملك الأكاسرة الأقدمين. وكان يتطلع إليها منذ فتحها أبوه القائد النبيل العزوف، وينسب إليه أنه قال وهو يراود نفسه على مقاتلة الحسين:

فوالله ما أدرى وإنى لحائر أفكر فى أمرى على خطرين
أأترك ملك الرى والرى منيتى أم أرجع مأثومًا بقتل حسين
وفى قتله النار التى ليس دونها حجاب، وملك الرى قرة عينى

فإن لم تكن هذه الأبيات من لسانه فهى ولا شك من لسان حاله، لأنها تسجل الواقع الذى لا شبهة فيه..

ومن الواقع الذى لا شبهة فيه أيضًا، أن عمر بن سعد هذا لم يخل من غلظة فى الطبع على غير ضرورة ولا استفزاز، فهو الذى ساق نساء الحسين بعد مقتله على طريق جثث القتلى التى لم تزل مطروحة بالعراء.. فصحن وقد لمحنها على جانب الطريق صيحة أسالت الدمع من عيون رجاله، وهم ممن قاتل الحسين وذويه.

هؤلاء وأمثالهم لا يسمون ساسة ملك ولا تسمى مهنتهم تدعيم سلطان، ولكنهم يسمون جلادين متنمرين يطيعون ما فى قلوبهم من غلظة وحقد ، ويطيعون ما فى أيديهم من أموال ووعود.. وتسمى مهمتهم مذبحة طائشة لا يبالى من يسفك فيها الدماء أى غرض يصيب..

* * *

ومنذ قضى على يزيد بن معاوية أن يكون هؤلاء وأمثالهم أعوانًا له فى ملكه، قضى عليه من ساعتها أن يكون علاجه لمسألة الحسين علاج الجلادين الذين لا يعرفون غير سفك الدماء، والذين يسفكون كل دم أجروا عليه..

وهكذا كان ليزيد أعوان إذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو جلاد مبذول السيف والسوط فى سبيل المال.

وكان للحسين أعوان إذا بلغ أحدهم حده فى معونته فهو شهيد يبذل الدنيا كلها فى سبيل الروح..

وهى إذن حرب جلادين وشهداء..

الحسين فى مكة

عمل يزيد بوصية أبيه، فلم يكن له همّ منذ قيامه على الملك إلا أن يظفر ببيعة الحسين وعبد الله بن الزبير فى مقدمة النفر الذين أنكروا العهد له فى حياة معاوية..

وكان الوليد بن عقبة بن أبى سفيان والى معاوية يومئذ على المدينة.. فلما جاءه كتاب يزيد بنعى أبيه، وأن يأخذ أولئك النفر بالبيعة «أخذًا شديدًا ليس فيه رخصة» دعا إليه بمروان بن الحكم، فأشار عليه بمشورته التى جمعت بين الإخلاص وسوء النية.. وفحواها أن يبعث إلى الحسين وابن الزبير، فإن بايعا وإلا ضرب عنقيهما!

وحدث بين الحسين والوليد ما تقدمت الإشارة إليه فى محضر مروان، إذ عاد الحسين إلى بيته.. وقد عول على ترك المدينة إلى مكة كما تركها ابن الزبير من قبله.. فخرج منها ليلتين بقيتا من شهر رجب سنة ستين للهجرة ومعه جل أهل بيته وإخوته وبنو أخيه، ولزم فى مسيره إلى مكة الطريق الأعظم فلم يتنكبه كما فعل ابن الزبير مخافة الطلب من ورائه. فصحت فى الرجلين فراسة معاوية فى هذا الأمر الصغير، كما صحت فى غيره من كبار الأمور ..

وانصرف الناس فى مكة إلى الحسين عن كل مطالب بالخلافة غيره، ومنهم ابن الزبير. فكان ابن الزبير يطوف بالكعبة كل يوم ويتردد عليه فى صباحه ومسائه، يتعرف رأيه وما نمى إليه من آراء الناس فى الحجاز، والعراق، وسائر الأقطار الإسلامية.

فلبث الحسين فى مكة أربعة أشهر على هذه الحال، يتلقى بين آونة وآونة دعوات المسلمين إلى الظهور وطلب البيعة، ولا سيما أهل الكوفة وما جاورها.. فقد كتبوا إليه يقولون إن هنالك مائة ألف ينصرونك، وألحوا فى الكتابة يستعجلونه الظهور.

وتردد الحسين طوال هذه الأشهر فيما يفعل بهذه الدعوات المتتابعات، فبدا له أن يتمهل حتى يتبين جلية القوم ويستطلع طلعهم من قريب..

وآثر أن يرسل إليهم ابن عمه مسلم بن عقيل بن أبى طالب يمهد له طريق البيعة إن رأى محلاً لتمهيد، وكتب إلى رؤساء أهل الكوفة قبل ذلك كتاباً يقول فيه: «أما بعد، فقد أتتنى كتبكم وفهمت ما ذكرتم من محبتكم لقدومى عليكم، وقد بعثت إليكم أخى وابن عمى وثقتى من أهل بيتى مسلم بن عقيل، وأمرته أن يكتب إلىّ بحالكم وأمركم ورأيكم.. فإن كتب إلى أنه قد أجمع رأى ملئكم وذوى الفضل والحجى منكم على مثل ما قدمت علىّ به رسلكم وقرأت فى كتبكم، أقدم عليكم وشيكاً إن شاء الله. فلعمرى ما الإمام إلا العامل بالكتاب، والآخذ بالقسط، والدائن بالحق، والحابس نفسه على ذات الله، والسلام».

* * *

ثم بلغ الحسين أن مسلماً قد نزل الكوفة، فاجتمع على بيعته للحسين اثنا عشر ألفا وقيل ثمانية عشر ألفا، فرأى أن يبادر إليه قبل أن يتفرق هذا الشمل ويطول عليهم عهد الانتظار والمراجعة، فظهر عزمه هذا لمشيريه من خاصته وأهل بيته فاختلفوا فى مشورتهم عليه بين موافق ومثبط وناصح بالمسير إلى جهة غير جهة العراق.

كان أخوه محمد بن الحنفية يرى - وهو بعد فى المدينة - أن يبعث رسله إلى الأمصار ويدعوهم إلى مبايعته قبل قتال يزيد فإن أجمعوا على بيعته فذاك، وإن اجتمع رأيهم على غيره «لم ينقص الله بذلك دينه ولا عقله»..

وكان عبد الله بن الزبير يقول له: «إن شئت أن تقيم بالحجاز آزرناك ونصحنا لك وبايعناك، وإن لم تشأ البيعة بالحجار تولينى أنا البيعة فتطاع ولا تعصى»..

ويزعم كثير من المؤرخين أن ابن الزبير كان متهم النصيحة للحسين.. ومن هؤلاء المؤرخين أبو الفرج الأصبهانى. قال: «: «إن عبد الله بن الزبير لم يكن شىء أثقل عليه من مكان الحسين بالحجاز، ولا أحب إليه من خروجه إلى العراق طمعاً فى الوثوب بالحجاز.. لأن ذلك لا يتم له إلا بعد خروج الحسين، فلقيه وقال له: «على أى شىء عزمت يا أبا عبد الله؟»

فأخبره برأيه فى إتيان الكوفة وأعلمه بما كتب به مسلم بن عقيل، فقال الزبير: «فما يحبسك؟.. فوالله لو كان لى مثل شيعتك بالعراق ما تلومت فى شىء».

* * *

ولعل أنصح الناس له فى هذه المسألة كان عبد الله بن عباس لما بينهما من القرابة وما عرف به ابن عباس من الدهاء.. سأله:

- إن الناس أرجفوا أنك سائر إلى العراق، فما أنت صانع؟..

قال:

- قد أجمعت السير فى أحد يومى هذين.

فأعاذه ابن عباس بالله من ذلك، وقال له:

- إنى أتخوف عليك فى هذا الوجه الهلاك. إن أهل العراق قوم غدر. أقم بهذا البلد فإنك سيد أهل الحجاز، فإن كان أهل العراق يريدونك كما زعموا فلينفوا عدوهم ثم أقدم عليهم، فإن أبيت إلا أن تخرج فسر إلى اليمن، فإن بها حصونًا وشعابًا ولأبيك بها شيعة.

فقال له الحسين:

- يا بن عم!.. إنى أعلم أنك ناصح مشفق، ولكنى قد أزمعت وأجمعت على المسير.

قال ابن عباس:

- إن كنت لابد فاعلًا، فلا تخرج أحدًا من ولدك ولا حرمك ولا نسائك، فخليق أن تقتل وهم ينظرون إليك كما قتل ابن عفان.

السفر إلى العراق

وخرج فى الثامن من ذى الحجة لا ينتظر العيد بمكة، لأن أخبار البيعة بالكوفة حفزته إلى التعجيل بالسفر قبل فوات الأوان..

وكان مسلم بن عقيل قد نزل بالكوفة فأقبل عليه الناس ألوفاً ألوفاً يبايعون الحسين على يديه.. وبلغوا ثمانية عشر ألفاً فى تقدير ابن كثير وثلاثين ألفًا فى تقدير ابن قتيبة.

وهال الأمر النعمان بن بشير - والى الكوفة - فحار فيما يصنع بمسلم وأتباعه وهم

يزدادون يومًا بعد يوم، فصعد المنبر وخطب النـاس معلنًا أنـه لا يقاتـل إلا مَن قاتله ولا يثب إلا على من وثب عليه..

* * *

وتسابق أنصار بنى أمية إلى يزيد ينقلون إليه ما يجرى بالكوفة. فأشار عليه سرجون الرومى مولى أبيه أن يعزل النعمان ويولى الكوفة عبيد الله بن زياد، مضمومة إلى البصرة التى كان يتولاها فى ذلك الحين.

وقدم عبيد الله إلى الكوفة فكان أول ما عمل بها أن جمع إليه عرفاء المدينة - أى مشائخ أحيائها - فأمرهم أن يكتبوا له أسماء الغرباء ومن فى أحيائهم من «طلبة أمير المؤمنين والحرورية وأهل الريب»، وأنذرهم «أيما عريف وجد فى عرافته من بغية أمير المؤمنين أحد لم يرفعه إليه، صلب على باب داره، وألغيت تلك العرافة من العطاء».

والتمس وجوه المدينة من شيعة الحسين يترضاهم ويستخرج خفاياهم فسأل عمن تخلف منهم عن لقائه، وعلى رأسهم هانئ بن عروة، فقيل له إنه مريض لا يبرح داره.. وكان يتعلل بالمرض تجنبًا للقائه والسلام عليه.

فذهب عبيد الله إليه يعوده ويتلطف إليه، وجاء فى بعض الروايات أنه قد أشير على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى بيت هانئ ، فأبى أن يغتاله وهو آمن فى بيت مريض يعوده..

وقال ابن كثير ما فحواه إنهم أشاروا على مسلم بن عقيل بقتله وهو فى دار شريك بن الأعور، وقد علم شريك أن عبيد الله سيعوده.. فبعث إلى هانئ بن عروة يقول له: «ابعث مسلم بن عقيل يكون فى دارى ليقتل عبيد الله إذا جاء يعودنى».. فتحين مسلم عن قتله، وسأله شريك: «ما منعك أن تقتله؟» قال: «بلغنى حديث عن رسول الله صلى الله عليه وسلم «أن الإيمان قيد الفتك، لا يفتك مؤمن»، وكرهت أن أقتله فى بيتك».. قال شريك: «أما لو قتلته لجلست فى الثغر لا يستعدى به أحد، ولكفيتك أمر البصرة، ولكنت تقتله ظالمًا فاجرًا».

ثم مات شريك بعد ثلاثة أيام..

* * *

وتضطرب الأقاويل فى وقائع هذه الأيام لتلاحقها وكثرتها وكثرة رواتها والعاملين فيها.. ولكن الشائع من تلك الأقاويل ينبئنا عن عنت شديد لقيه عبيد الله بن زياد فى مغالبة مسلم وشيعته، وأنه هرب مرة من المسجد لأن الناس بصروا بمسلم مقبلا فتصحايحوا بعبيد الله، فاعتصم بقصره وأغلق عليه أبوابه..

واجتمع إلى مسلم أربعة آلاف من حزبه، فأمر من ينادى فى الناس بشعار الشيعة: «يا منصورا.. أمت». ثم تقدم إلى قصر الإمارة فى تعبئة كتعبئة الجيش..

ولم يكن فى القصر إلا ثلاثون رجلا من الشرط وعشرون من أهل الكوفة. فخامر اليأس عبيد الله وظن أنه هالك قبل أن يدركه الغوث من مولاه. ولكنه تحيل بما فى وسع المستميت من حيلة هى على أية حال أجدى وأسلم له من التسليم، فأنفذ أنصاره إلى كل صوب فى المدينة يعدون ويتوعدون.. وانطلق هؤلاء الأنصار يرجفون بقرب وصول المدد الزاخر من يزيد، وينذرون الناس بقطع العطاء وأخذ البرىء بالمذنب والغائب بالشاهد. ويبذلون المال لمن يرشى بالمال، والوعد لمن يقنع بالوعد إلى حين..

مقتل مسلم بن عقيل

وتوسلوا بكل وسيلة تبلغ بهم ما أرادوا من تخذيل الناس عن مسلم بن عقيل حتى كانوا يرسلون الزوجة وراء زوجها والأم وراء ولدها والأخ وراء أخيه، فيتعلقون بهم حتى يقفلوا إلى دورهم أو يدخلوا بهم فى زمرة عبيد الله..

فلما غربت شمس ذلك اليوم، نظر مسلم حوله فإذا هو فى خمسمائة من أولئك الآلاف الأربعة.. ثم صلى المغرب فلم يكن وراءه فى الصلاة غير ثلاثين تسللوا من حوله تحت الظلام، وبقى وحيداً فى المسجد لا يجد معه من يدله على منزل يأوى إليه.

وتسمع عبيد الله من القصر حين سكنت الجلبة، وسأل أصحابه أن يشرفوا ليروا من بقى من تلك الجموع.. فلم يروا أحدًا ولم يسمعوا صوتًا. فخيل إليهم أنها مكيدة حرب وأن القوم رابضون تحت الظلال، فأدلى بالقناديل والمشاعل حتى اطمأن إلى خلو المسجد وتفرق مسلم وأتباعه، فدعا إلى الصلاة الجامعة وأمر المنادين فى أرجاء الكوفة:

«ألا برئت الذمة من رجل من الشرطة والعرفاء والمناكب - رءوس العرفاء - والمقاتلة، صلى العشاء إلا فى المسجد».

* * *

وأقام الحراس خلفه وهو يصلى بمن أجابوه وقد امتلأ بهم المسجد، فخطبهم بعد الفراغ من صلاته قائلا: «برئت ذمة الله من رجل وجدنا ابن عقيل فى داره».

* * *

وصاح فى رئيس شرطته: «يا حصين بن نمير!.. ثكلتك أمك إن ضاع باب سكة من سكك الكوفة وخرج هذا الرجل ولم تأتنى به، وقد سلطتك على دور أهل الكوفة فابعث مراصد على أفواه السكك.. واصبح غدًا فاستبرئ الدور وجس خلالها حتى تأتينى بهذا الرجل..»

وما هى إلا سويعات حتى جيء با بن عقيل وقد دافع الشرط عن نفسه ما استطاع. ووصل إلى القصر جريحًا مجهداً ظمآن فأهوى إلى قلة عند الباب فيها ماء بارد، فقال له أحد أصحاب عبيد الله: «أتراها ما أبردها! والله لا تذوق منها قطرة حتى تذوق الجحيم فى نار جهنم!».

وأنكر عمر بن حريث هذه الفظاعة من الرجل، فجاءه بقلة عليها منديل ومعها قدح فصب منها فى القدح وأدناه منه، فإذا هو ينفث الدم فى القدح كلما رفعه للشرب منه حتى امتلأ وسقطت فيه ثنيتاه، فحمد الله وقال: «لو كان لى من الرزق المقسوم لشربته».

وأدخلوه على عبيد الله فنظر إلى جلسائه وفيهم عمر بن سعد بن أبى وقاص، فناشده القرابة ليسمعن منه وصية ينفذها بعد موته. فأبى أن يصغى إليه!.. ثم أذن له عبيد الله فقام معه فقال مسلم: «إن على بالكوفة دينًا استدنته سبعمائة درهم، فبع سيفى ودرعى فاقضها عنى، وابعث إلى الحسين من يرده، فإنى قد كتبت إليه أعلمه أن الناس معه ولا أراه إلا مقبلا..»

فعاد عمر إلى عبيد الله فأفشى له السر الذى ناجاه به وأوصاه أن يكتمه. ثم دعا عبيدالله بالحرسى الذى قاومه مسلم وضربه على رأسه - واسمه بكير بن حمران -

فأسلم مسلماً إليه وقال له:

- لتكن أنت الذى تضرب عنقه.

وصعدوا به إلى أعلى القصر فأشرفوا به على الجموع المحيطة به وضربوا عنقه، فسقط رأسه إلى الرحبة وألقيت جثته إلى الناس. ثم أرسل برأسه إلى يزيد مع رءوس سراة فى المدينة كان مسلم يأوى إليهم أول مقدمه إليها، ومنهم هانىء بن عروة الذى تقدمت الإشارة إليه..

طلائع الفشل

كان مقتل مسلم بن عقيل فى التاسع من ذى الحجة ليلة العيد.. وكان خروج الحسين من مكة قبل ذلك بيوم واحد، فلم يسمع بمقتله إلا وهو فى آخر الطريق..

ولما شارف العراق أحب أن يستوثق مرة أخرى قبل دخوله، فكتب إلى أهل الكوفة كتابًا مع قيس بن سهر الصيداوى يخبرهم بمقدمه ويحضهم على الجد والتساند، فوافى قيس القادسية وقد رصد فيها شرط عبيد الله فاعتقلوه وأشخصوه إليه.. فأمره عبيد الله أن يصعد القصر فيسب «الكذاب بن الكذاب الحسين بن على» وينهى الناس أن يطيعوه.

فصعد قيس وقال: «أيها الناس.. إن هذا الحسين بن على خير خلق الله، ابن فاطمة بنت رسول الله، وأنا رسوله إليكم! وقد فارقته بالحاجز فأجيبوه، والعنوا عبيد الله بن زياد وأباه..»

فما كان منهم إلا أن قذفوا به من حالق، فمات..

وحدث مثل هذا مع عبيد الله بن يقطر.. فأبى أن يلعن الحسين، ولعن عبيد الله بن زياد، فألقوا به من شرفات القصر إلى الأرض فاندكت عظامه ولم يمت، فذبحوه..

وجعل الحسين كلما سأل قادمًا من العراق أنبأه بمقتل رسول من رسله، أو داعية من دعاته، فأشار عليه بعض صحبه بالرجوع، وقال له غيرهم: «ما أنت مثل مسلم بن عقيل، ولو قدمت الكوفة لكان الناس إليك أسرع..»

ووثب بنو عقيل فأقسموا لا يبرحون حتى يدركوا ثأرهم أو يذوقوا ما ذاق مسلم..

ولم ير الحسين بعد ذلك أن يصحب معه أحدًا إلا على بصيرة من أمره وما هو لاقيه إن تقدم ولم ينصرف لشأنه.. فخطب الرهط الذين صحبوه وقال لهم:

«وقد خذلنا شيعتنا.. فمن أحب منكم أن ينصرف فلينصرف، ليس عليهم منا ذمام..»

فتفرقوا إلا أهل بيته وقليلاً ممن تبعوه فى الطريق..

الحسين والحر بن يزيد

والتقى الركب عند جبل ذى حسم بطلائع جيش عبيد الله يقودها الحر بن يزيد التميمى اليربوعى فى ألف فارس، أمروا بألا يدعوا الحسين حتى يقدموا به على عبيد الله فى الكوفة.

فأمر الحسين مؤذنه بالأذان لصلاة الظهر، وخطب أصحابه وأصحاب الحر بن يزيد فقال:

– أيها الناس إنى لم آتكم حتى أتتنى كتبكم ورسلكم أن أقدم علينا فليس لنا إمام، لعل الله يجمعنا بك على الهدى والحق. فقد جئتكم.. فإن تعطونى ما أطمئن إليه من عهودكم، ومواثيقكم أقدم مصركم، وإن لم تفعلوا أو كنتم لقدومى كارهين انصرفت عنكم إلى المكان الذى أقبلت منه..

فلم يجبه أحد..

فقال للمؤذن:

– أقم الصلاة!

وسأل الحر:

– أتريد أن تصلى أنت بأصحابك وأصلى بأصحابى؟

فقال الحر:

- بل نصلى جميعًا بصلاتك.

* * *

ثم تياسر الحسين إلى طريق العـذيب فبلغها وفـرسان عبيـد الله يلازمـونه ويصـرون على أخذه إلى أميرهم وصده عن وجهته حيثما اتجه غير وجهتهم، فأقبل عليهم يعظهم وهم يصغون إليه فقال:

«أيها الناس!.. إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: من رأى سلطانًا جائرًا مستحلاً لحرم الله، مخالفًا لسنة رسول الله، يعمل فى عباد الله بالإثم والعدوان، فلم يغير ما عليه بفعل ولا قول، كان حقًّا على الله أن يدخله مدخله، ألا وإن هؤلاء قد لزموا طاعة الشيطان، وتركوا طاعة الرحمن، وأظهروا الفساد، وعطلوا الحدود، واستأثروا بالغىّ، وأحلوا حرام الله وحرموا حلاله، وأنا أحق من غيرى..

«وقد أتتنى كتبكم ورسلكم ببيعتكم وأنكم لا تسلموننى ولا تخذلوننى، فإن بقيتم على بيعتكم تصيبوا رشدكم، وأنا الحسين بن على وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسى مع أنفسكم وأهلى من أهلكم، فلكم فىّ أسوة. وإن لم تفعلوا ونقضتم عهدى، وخلعتم بيعتى، فلعمرى ما هى لكم بنكير، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم، ونصيبكم ضيعتم.. ومن نكث فإنما ينكث على نفسه وسيغنى الله عنكم، والسلام».

فأنصت الحر بن يزيد وأصحابه ثم توجه إليه يحذره العاقبة وينبئه: «لئن قاتلت لتقتلن!»

فصاح به الحسين:

- أبالموت تخوفنى!.. ما أدرى ما أقول لك.. ولكنى أقول كما قال أخو الأوس لابن عمر وهو يريد نصرة رسول الله، فخوفه ابن عمر وأنذره أنه لمقتول فأنشد:

سأمضى وما بالموت عار على الفتى ... إذا مانوى خيرًا وجاهد مسلمًا
وآسى الرجال الصالحين بنفسه ... وخالف مثبورًا وفارق مجرمًا
فإن عشت لم أندم، وإن مت لم ألم ... كفى بك ذلًّا أن تعيش وترغما

* * *

ثم سار الركبان ينظر بعضهما إلى بعض كلما مال الحسين نحو البادية أسرع الحر بن يزيد فرده نحو الكوفة. حتى نزلا بنينوى، فإذا راكب مقبل عليه بالسلاح، يحيى الحر ولا يحيى الحسين، ثم أسلم الحر كتابًا من عبيد الله يقول فيه: «أما بعد فجعجع بالحسين حتى يبلغك كتابي ويقدم عليك رسولى، فلا تنزله إلا بالعراء فى غير حصن وعلى غير ماء.. وقد أمرت رسولى أن يلزمك فلا يفارقك حتى يأتينى بإنفاذك أمرى والسلام».

فلما بدا من الحر بن يزيد أنه يريد أن ينفذ أمر عبيد الله بن زياد ويخشى رقيبه الذى أمر ألا يفارقه حتى ينفذ أمره، قال أحد أصحاب الحسين: زهير بن القين:

– إنه لا يكون والله بعد ماترون إلا ماهو أشد منه. يا بن بنت رسول الله!.. إن قتال هؤلاء أهون علينا من قتال من يأتينا بعدهم. فلعمرى ليأتينا من بعدهم ما لا قبل لنا به. فهلم نناجز هؤلاء.

فأعرض الحسين عن مشورته وقال:

– إنى أكره أن أبدأهم بقتال.

عمر بن سعد

وكان الديلم قد ثاروا على يزيد بن معاوية واستولوا على دستبى بأرض همذان، فجمع لهم عبيد الله بن زياد جيشًا عدته أربعة آلاف فارس بقيادة عمر بن سعد بن أبى وقاص الذى يذكر الديلم اسم أبيه – سعد فاتح بلادهم، وقد وعد بولاية الرى بعد قمع الثورة الديلمية، فلما قدم الحسين إلى العراق قال عبيد الله لعمر:

– تفرغ من الحسين ثم تسير إلى عملك.

فاستعفاه، وعلم عبيد الله موطن هواه فقال له:

– نعم نعفيك على أن ترد إلينا عهدنا..

فاستمهله حتى يراجع نصحاءه.. فنصح له ابن اخته المغيرة بن شعبة – وهو من أكبر أعوان معاوية – ألا يقبل مقاتلة الحسين، وقال له:

– والله لأن تخرج من دنياك ومالك وسلطان الأرض لو كان لك، خير من أن تلقى الله بدم الحسين.

* * *

وبات ليلته يقلب وجوه رأيه، حتى إذا أصبح ذهب إلى ابن زياد، فاقترح عليه أن يبعث إلى الحسين من أشراف الكوفة من ليس يغنى فى الحرب عنهم.. فأبى ابن زياد إلا إن يسير إلى الحسين أو ينزل عن ولاية الرى.. فسار على مضض وجنوده متثاقلون متحرجون، إلا زعانف المرتزقة الذين ليس لهم من خلاق.

وكان جنود الجيش يتسللون منه ويتخلفون بالكوفة.. فندب عبيد الله رجلاً من أعوانه – هو سعد بن عبد الرحمن المنقرى – ليطوف بها ويأتيه بمن تخلف عن المسير لقتال الحسين، وضرب عنق رجل جيء به، وقيل إنه من المتخلفين، فأسرع بقيتهم إلى المسير.

وقد أدرك الجيش الحسين وهو بكر بلاء على نحو من خمسة وعشرين ميلا إلى الشمال الغربى من الكوفة. نزل بها فى الثانى من المحرم سنة إحدى وستين.

وخلا الجو فى الكوفة لرجلين اثنين يسابق كلاهما صاحبه فى اللؤم وسوء الطوية، وينفردان بتصريف الأمر فى قضية الحسين دون مراجعة من ذى سلطان.. وهما عبيد الله ابن زياد، وشمر بن ذى الجوشن.

عبيد الله المغموز النسب الذى لا يشغله شيء، كما يشغله التشفى لنسبه المغموز من رجل بلا مراء أعرق العرب نسبًا فى الجاهلية والإسلام.. فليس أشهى إليه من فرصة ينزل فيها ذلك الرجل على حكمه، ويشعره فيها بذله ورغمه..

شمر بن ذى الجوشن

وشمر بن ذى الجوشن الأبرص الكريه الذى يمضه من الحسين ما يمض كل لئيم مشنوء من كل كريم محبوب وسيم.

وكان كلاهما يفهم لؤم صاحبه ويعطيه فيه حقه وعذره، فهما فى هذه الخلة متناصحان متفاهمان.. !

ولم يكن أيسر من حل قضية الحسين على وجه يرضى يزيد ويمهد له الولاء فى قلوب المسلمين ولو إلى حين.. لولا ذلك الضغن الممتزج بالخليفة الذى هو كسكر المخمور لا موضع معه لرأى مصيب، ولا لتفكير فى عاقبة بعيدة أو قريبة..

فالحسين فى أيديهم ليس أيسر عليهم من اعتقاله وإبقائه بأعينهم فى مكان ينال فيه الكرامة ولا يتحفز لثورة.

لكنهما لم يفكرا فى أيسر شيء ولا أنفع شيء للدولة التى يخدمانها. وإنما فكرا فى النسب المغموز والصورة الممسوخة، فلم يكن لهما من هم غير إرغام الحسين وإشهاد الدنيا كلها على إرغامه.

تلقى ابن زياد من عمر بن سعد كتابا يقول فيه إن الحسين «أعطانى أن يرجع إلى المكان الذى أقبل منه أو أن نسيره إلى أى ثغر من الثغور شئنا، أو أن يأتى يزيد فيضع يده فى يده»

والذى نراه نحن من مراجعة الحوادث والأسانيد أن الحسين ربما اقترح الذهاب إلى يزيد ليرى رأيه، ولكنه لم يعدهم أن يبايعه أو يضع يده فى يده لأنه لو قبل ذلك لبايع فى مكانه، واستطاع عمر بن سعد أن يذهب به إلى وجهته، ولأن أصحاب الحسين فى خروجه إلى العراق قد نفوا ما جاء فى ذلك الكتاب ومنهم عقبة بن سمعان حيث كان يقول: «صحبت الحسين من المدينة إلى مكة ومن مكة إلى العراق، ولم أفارقه حتى قتل وسمعت جميع مخاطباته إلى الناس إلى يوم قتله.. فو الله ما أعطاهم ما يزعمون من أن يضع يده فى يد يزيد ولا أن يسيروه إلى ثغر من الثغور، ولكنه قال: «دعونى أرجع إلى المكان الذى أقبلت منه أو دعونى أذهب فى هذه الأرض العريضة حتى ننظر إلى مايصير إليه أمر الناس».

* * *

ولعل عمر بن سعد قد تجوز فى نقل كلام الحسين عمدًا ليأذنوا له فى حمله إلى يزيد فيلقى عن كاهله مقاتلته وما تجر إليه من سوء القالة ووخز الضمير أو لعل الأعوان الأمويين قد أشاعوا عن الحسين اعتزامه للمبايعة ليلزموا بالبيعة أصحابه من بعده، ويسقطوا حجتهم فى مناهضة الدولة الأموية..

وأيا كانت الحقيقة فى هذه الدعوى فهى تكبر مأثمة عبيد الله وشمر ولا تنقص منها: ولقد كفانا على العهد بمثليهما.. كلاهما كفيل أن يحول بين صحبه وبين خالجة من الكرم تخامره أو تغالب اللؤم الذى فطر عليه، فلا يصدر منهما إلا مايوائم لئيمين لا يتفقان على خير..

وكأنما جنح عبيد الله إلى شيء من الهوادة حين جاءه كتاب عمر ابن سعد، فابتدره شمر ينهاه ويجنح إلى الشدة والاعتساف فقال له:

- أتقبل هذا منه وقد نزل بأرضك وإلى جنبك! والله لئن رحل من بلادك ولم يضع يده فى يدك ليكونن أولى بالقوة والعزة ولتكونن أولى بالضعف والعجز.. فلا تعطه هذه المنزلة، ولكن لينزل على حكمك هو وأصحابه. فإن عاقبت كنت ولى العقوبة، وإن عفوت كان ذلك لك.

ثم أراد أن يوقع بعمر ويتهمه عند عبيد الله ليخلفه فى القيادة ثم يخلفه فى الولاية، فذكر لعبيد الله أن الحسين وعمر يتحدثان عامة الليل بين المعسكرين..

فعدل عبيد الله إلى رأى شمر وأنفذه بأمر من أن يضرب عنق عمر إن هو تردد فى إكراه الحسين على المسير إلى الكوفة أو مقاتلته حتى يقتل. وكتب إلى عمر يقول له:

«أما بعد.. فإنى لم أبعثك إلى الحسين لتكف عنه ولا لتمنيه السلامة والبقاء ولا لتطاوله ولا لتعتذر عنه ولا لتقعد له عندى شافعًا.. انظر فإن نزل الحسين وأصحابه على الحكم واستسلموا فابعث بهم إلى مسلمًا، وإن أبوا فازحف إليهم حتى تقتلهم وتمثل بهم، فإنهم لذلك مستحقون. فإن قتل الحسين فأوطئ الخيل صدره وظهره فإنه عاق مشاق قاطع ظلوم.. فإن أنت مضيت لأمرنا جزيناك جزاء السامع المطيع، وإن أنت أبيت فاعتزل جندنا وخل بين شمر بن ذى الجوشن وبين العسكر والسلام».

وختمت مأساة كربلاء كلها بعد أيام معدودات..

ولكنها أيام بقيت لها جريرة لم يحمدها طالب منفعة ولا مروءة، ومضت مئات السنين وهى لا تمحو آثار تلك الأيام فى تاريخ الشرق والإسلام.

خطأ الشهداء

خروج الحسين من مكة إلى العراق حركة لايسهل الحكم عليها بمقياس الحوادث اليومية، لأنها حركة من أندر حركات التاريخ فى باب الدعوة الدينية أو الدعوة السياسية.. لا تتكرر كل يوم ولا يقوم بها كل رجل ولا يأتى الصواب فيها - إن أصابت - من نحو واحد ينحصر القول فيه، ولا يأتى الخطأ فيها - إن أخطأت - من سبب واحد يمتنع الاختلاف عليه وقد يكون العرف فيها بين أصوب الصواب وأخطأ الخطأ فرقًا صغيرًا من فعل المصادفة والتوفيق، فهو خليق أن يذهب إلى النقيضين..

هى حركة لا يأتى بها إلا رجال خلقوا لأمثالهم فلا تخطر لغيرهم على بال، لأنها تعلو على حكم الواقع القريب الذى يتوخاه فى مقاصده سالك الطريق اللاحب والدرب المطروق..

هى حركة فذة يقدم عليها رجال أفذاذ، من اللغو أن ندينهم بما يعمله رجال من غير هذا المعدن وعلى غير هذه الوتيرة.. لأنهم يحسون ويفهمون ويطلبون غير الذى يحسه ويفهمه ويطلبه أولئك الرجال..

هى ليست ضربة مغامر من مغامرى السياسة، ولا صفقة مساوم من مساومى التجارة، ولا وسيلة متوسل ينزل على حكم الدنيا أو تنزل الدنيا على حكمه، ولكنها وسيلة من يدين نفسه ويدين الدنيا برأى من الآراء هو مؤمن به ومؤمن بوجوب إيمان الناس به دون غيره.. فإن قبلته الدنيا قبلها وإن لم تقبله فسيان عنده فواته بالموت أو فواته بالحياة، بل لعل فواته بالموت أشهى إليه..

هى حركة لا تقاس إذن بمقياس المغامرات ولا الصفقات، ولكنها تقاس بمقياسها الذى لا يتكرر ولا يستعاد على الطلب من كل رجل أو فى كل أوان..

ولا ننسى أن السنين الستين التى انقضت بعد حركة الحسين، قد انقضت فى ظل دولة

تقوم على تخطئته فى كل شيء وتصويب مقاتليه فى كل شيء..

* * *

إن القول بصواب الحسين معناه القول ببطلان تلك الدولة، والتماس العذر له معناه إلقاء الذنب عليها. وليس بخاف على أحد كيف ينسى الحياة وتبتذل القرائح أحياناً فى تنزيه السلطان القائم وتأثيم السلطان الذاهب. فليس الحكم على صواب الحسين أو على خطئه إذن بالأمر الذى يرجع فيه إلى أولئك الصنائع المتزلفين الذين يرهبون سيف الدولة القائمة ويغنمون من عطائها، ولا لصنائع مثلهم يرهبون بعد ذلك سيفًا غير ذلك السيف ويغنمون من عطاء غير ذلك العطاء.

إنما الحكم فى صواب الحسين وخطئه لأمرين لا يختلفان باختلاف الزمان وأصحاب السلطان، وهما البواعث النفسية التى تدور على طبيعة الإنسان الباقية، والنتائج المقررة التى مثلت للعيان باتفاق الأقوال.

وبكل من هذين المقياسين القويين نقيس حركة الحسين فى خروجه على يزيد بن معاوية، فنقول إنه قد أصاب.

أصاب إذا نظرنا إلى بواعثه النفسية التى تهيمن عليه ولا يتخيل العقل أن تهيمن عليه بواعث غيرها..

وأصاب إذا نظرنا إلى نتائج الحركة كلها نظرة واسعة؛ لا يستطيع أن يجادل فيها من يأخذ الأمور بسنة الواقع والمصلحة أو من يأخذ الأمور بسنة النجدة والمروءة..

فما هى البواعث النفسية التى قامت بنفس الحسين يوم دعى فى المدينة بعد موت معاوية لمبايعة ابنه يزيد؟

هى بواعث تدعوه كلها أن يفعل ما فعل ولا تدعو مثله إلى صنيع غير ذلك الصنيع. وخير لبنى الإنسان ألف مرة أن يكون فيهم خلق كخلق الحسين الذى أغضب يزيد بن معاوية، من أن يكون جميع بنى الإنسان على ذلك الخلق الذى يرضى به يزيد..

فأول ما ينبغى أن نذكره لفهم البواعث النفسية التى خامرت نفس الحسين فى تلك

المحنة الأليمة، أن بيعة يزيد لم تكن بالبيعة المستقرة ولا بالبيعة التى يضمن لها الدوام فى تقدير صحيح..

فهى بيعة نشأت فى مهد الدس والتمليق، ولم يجسر معاوية عليها حتى شجعه عليها من له مصلحة ملحة فى ذلك التشجيع.

* * *

كان المغيرة بن شعبة واليًا لمعاوية على الكوفة، ثم هم بعزله وإسناد ولايته إلى سعيد ابن العاص جريا على عادته فى إضعاف الولاة قبل تمكنهم، وضرب فريق منهم بفريق حتى يعينه بعضهم على بعض ولا يتفقوا عليه. فلما أحس المغيرة نية معاوية، قدم الشام ودخل على يزيد وقال له كالمستفهم المتعجب:

- لا أدرى ما يمنع أمير المؤمنين أن يعقد لك البيعة؟

ولم يكن يزيد نفسه يصدق أنه أهل لها أو أن بيعته مما يتم بين المسلمين على هينة. فقال للمغيرة:

- أو ترى ذلك يتم؟

فأراه المغيرة أنه ليس بالعسير، إذا أراده أبوه..

وأخبر يزيد أباه بما قال المغيرة، فعلم هذا أن فرصته سانحة وأنه سيبادل معاوية رشوة آجلة برشوة عاجلة.. يرشوه بإعانته على بيعة يزيد، ويأخذ منه الرشوة ببقائه على ولاية الكوفة إلى أن يقضى فى أمر هذه البيعة، وله فى التمهيد لها نصيب..

فلما لقى معاوية سأله هذا عما أخبره به يزيد، فأعاده عليه وهو يزخرفه له بما يرضيه. قال:

- قد رأيت ماكان من سفك الدماء والاختلاف بعد عثمان، وفى يزيد منك خلف فاعقد له، فإن حدث بك حادث كان كهفًا للناس وخلفًا منك، ولا تسفك دماء ولا تكون فتنة.

فسأله معاوية وهو يتهيب ويتأنى:

- ومن لى بذلك؟..

قال:

– أكفيك أهل الكوفة ، ويكفيك زياد أهل البصرة، وليس بعد هذين المصرين أحد يخالفك.

فرده معاوية إلى عمله كما كان يتمنى، وأوصاه ومن معه ألا يتعجلوا بإظهار هذه النية.. ثم استشار زياد بن أبي سفيان، فأطلع هذا بعض خاصته على الأمر وهو يقول:

– إن أمير المؤمنين، يتخوف نفرة الناس ويرجو طاعتهم.. ويزيد صاحب رسلة وتهاون مع ما قد أولع به من الصيد.. فالق أمير المؤمنين وأد إليه فعلات يزيد وقل له رويدك بالأمر، فأحرى أن يتم لك ولا تعجل فإن دركًا في تأخير خير من فوت في عجلة..

فأشار عليه صاحبه «ألا يفسد على معاوية رأيه ولا يبغضه فى ابنه». وعرض عليه أن يلقى يزيد فيخبره أن أمير المؤمنين كتب إليك يستشيرك فى البيعة له وأنك تتخوف خلاف الناس لهنات ينقمونها عليه، وأنك ترى له ترك ما ينقم عليه لتستحكم له الحجة على الناس..

* * *

وقالوا إن يزيد كف عن كثير مما كان يصنع بعد هذه النصيحة وأن معاوية أخذ برأى زياد فى التؤدة فلم يجهر بعقد البيعة حتى مات زياد..

وقد أحس معاوية الامتعاض من بيته قبل أن يحسه من الغرباء عنه. فكانت امرأته «فاختة» بنت قرطة بن حبيب بن عبد شمس تكره بيعة يزيد وتود لو آثر بالبيعة ابنها عبد الله ، فقالت له:

– ما أشار به عليك المغيرة؟.. أراد أن يجعل لك عدوا من نفسك يتمنى هلاكك كل يوم.

واشتدت نقمة مروان بن الحكم – وهو أقرب الأقرباء إلى معاوية – حين بلغته دعوة العهد ليزيد فأبى أن يأخذ العهد له من أهل المدينة، وكتب إلى معاوية: «إن قومك قد أبوا إجابتك إلى بيعتك». فعزله معاوية من ولاية المدينة وولاها سعيد بن العاص. فأوشك مروان أن يثور ويعلن الخروج وذهب إلى أخواله من بنى كنانة فنصروه وقالوا له:

– نحن نبلك فى يدك وسيفك فى قرابك . فمن رميته بنا أصبناه ومن ضربته قطعناه.. الرأى رأيك، ونحن طوع يمينك.

ثم أقبل مروان فى وفد منهم كثير إلى دمشق، فذهب إلى قصر معاوية وقد أذن للناس، فمنعه الحاجب لكثرة من رأى معه فضربوه واقتحموا الباب. ودخل مروان وهم معه حتى سلم على معاوية وأغلظ له القول. فخاف معاوية هذا الجمع من وجوه قومه وترضى مروان ما استطاع، وجعل له ألف دينار كل شهر ومائة لمن كان معه من أهل بيته.

* * *

ولم يكن مروان وحده بالغاضب بين بنى أمية من بيعة يزيد، بل كان سعيد بن عثمان ابن عفان يرى أنه أحق منه بالخلافة، لأنه ابن عثمان الذى تذرع معاوية إلى الخلافة باسمه. فقال لمعاوية:

– يا أمير المؤمنين.. علام تبايع ليزيد وتتركنى !.. فو الله لتعلم أن أبى خير من أبيه وأمى خير من أمه، وأنك إنما نلت ما نلت بأبى.

فسرى معاوية عنه.. وقال له ضاحكًا هاشًا:

– يا بن أخى !.. أما قولك إن أباك خير من أبيه، فيوم من عثمان خير من معاوية.. وأما قولك إن أمك خير من أمه، ففضل قرشية على كلبية فضل بين، وأما أن أكون نلت ما أنا فيه بأبيك فإنما الملك يؤتيه الله من يشاء.. قتل أبوك رحمه الله فتوا كلته بنو العاص وقامت فيه بنو حرب، فنحن أعظم بذلك منة عليك، وأما أن تكون خيرًا من يزيد فوالله ما أحب أن دارى مملوءة رجالاً مثلك بيزيد. ولكن دعنى من هذا القول وسلنى أعطك، وولاه خراسان.

فكان أكبر بنى أمية أعظمهم أملًا فى الخلافة بعد معاوية، وكان بغضهم لبيعة يزيد على قدر أملهم فيها، وهؤلاء – وإن جمعتهم مصلحة الأسرة فترة من الزمن – لم تكن منافستهم هذه ليزيد بالعلامة التى تؤذن بالبقاء وتبشره بالضمان والقرار..

وعلى هذا النحو ولدت بيعة يزيد بين التوجس والمساومة والإكراه.. وبهذه الجفوة قوبلت بين أخلص الأعوان وأقرب القرباء.

وظهر من اللحظات الأولى، أن المغيرة بن شعبة كان سمسارا يصافق على مالا يملك.. فقد ضمن الكوفة والبصرة ومنع الخلاف فى غيرهما، فإذا الكوفة أول من كره بيعة يزيد، وإذا البصرة تتلكأ فى الجواب وواليها يرجئ الأمر ويوصى بالتمهل فيه فلا يقدم عليه معاوية فى حياته، واذا أطراف الدولة من ناحية همذان تثور، وإذا بالحجاز يستعصى على بنى أمية سنوات، وإذا باليمن ليس فيها نصير للأمويين. ولو وجدت خارجًا يعلن الثورة عليهم لكانت ثورتها كثورة الحجاز..

بل يجوز أن يقال – مما ظهر فى حركة الحسين كل الظهور – إن الشام نفسها لم تنطو على رجل يؤمن بحق يزيد وبطلان دعوى الحسين. فقد كانوا يتحرجون من حرب الحسين ويتسلل من استطاع منهم التسلل قبل لقائه، إلا أن يهدد بقطع الأرزاق وقطع الرقاب.

والحوادث التى تلت حركة الحسين إلى ختام عهد يزيد أدت مما تقدم على اضطراب عهده وقلة ضمانه، لأن الأحداث والنذر لم تزل تتوالى بقية حياته وبعد موته بسنين.

ونحن اليوم نعلن من التاريخ كيف انتهت هذه الحوادث والنذر فى عهد يزيد أو بعد عهده فيخيل إلينا أن عواقبها لم تكن تحتمل الشك ولم يكن بها من خفاء. ولكن الذين استقبلوها كانوا خلقاء ألا يروا فيها طوالع ملك تعنوا له الرءوس ويرجى له طول البقاء.

بواعث الخروج

نعم كانت هناك ندحة عن الخروج لو كان يزيد فى الخلافة رضا المسلمين من العقل والخلق وسلامة التدبير وعزة الموئل والدولة، كان المسلمون قد توافوا على اختياره لحبهم إياه، وتعظيمهم لعقله وخلقه واطمئنانهم إلى سياسته واعتمادهم على صلاحه وإصلاحه..

ولكنه على نقيض ذلك، كان كما علمنا رجلاً هازلاً فى أحوج الدول إلى الجد، لا يرجى له صلاح. وكان اختياره لولاية العهد مساومة مكشوفة قبض كل مساهم فيها ثمن رضاه ومعونته جهرة وعلانية من المال أو الولاية أو المصانعة، ولو قبضوا مثل هذا الثمن

ليبايعوا وليًّا للعهد شرًّا من يزيد لما همهم أن يبايعوه وإن تعطلت حدود الدين وتقوضت معالم الأخلاق.

وأعجب شيء أن يطلب إلى الحسين بن على أن يبايع مثل هذا الرجل ويزكيه أمام المسلمين، ويشهد له عندهم أنه نعم الخليفة المأمول صاحب الحق فى الخلافة وصاحب القدرة عليها. ولا مناص للحسين من خصلتين: هذه، أو الخروج!.. لأنهم لن يتركوه بمعزل عن الأمر لا له ولا عليه.

* * *

إن بعض المؤرخين من المستشرقين وضعاف الفهم من الشرقيين ينسون هذه الحقيقة ولا يولونها نصيبها من الرجحان فى كف الميزان.

وكان خليقًا بهؤلاء أن يذكروا أن مسألة العقيدة الدينية فى نفس الحسين لم تكن مسألة مزاج أو مساومة، وأنه كان رجلًا يؤمن أقوى الإيمان بأحكام الإسلام ويعتقد أشد الاعتقاد أن تعطيل حدود الدين هو أكبر بلاء يحيق به وبأهله وبالأمة العربية قاطبة فى حاضرها ومصيرها لأنه مسلم ولأنه سبط محمد. فمن كان إسلامه هداية نفس فالإسلام عند الحسين هداية نفس وشرف بيت..

وقد لبث بنو أمية بعد مصرعه ستين سنة يسبونه ويسبون أباه على المنابر، ولم يجسر أحد منهم قط على المساس بورعه وتقواه ورعايته لأحكام الدين فى أصغر صغيرة يباشرها المرء سرًّا أو علانية، وحاولوا أن يعيبوه بشيء غير خروجه على دولتهم فقصرت ألسنتهم وألسنة الصنائع والأجراء دون ذلك. فكيف يواجه مثل هذا الرجل خطرًا على الدين فى رأس الدولة وعرش الخلافة مواجهة الهوادة والمشايعة والتأمين؟

وكيف يسام أن يرشح للإمامة من لا شفاعة له ولا كفاية فيه إلا أنه ابن أبيه؟.

لقد كان أبوه معاوية على كفاءة ووقار وحنكة ودراية بشئون الملك والرئاسة، وكان له مع هذا نصحاء ومشيرون أولو براعة وأحلام تكبح من السلطان ما جمح وتقيم ما انحرف وتملى له فيما عجز عنه.. وهذا ابنه القائم فى مقامه لا كفاءة ولا وقار ولا نصحاء ولا مشيرون، إلا من كان عونًا على شر أو موافقا على ضلالة. فما عسى أن تكون الشهادة له بالصلاح للإمامة إلا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير؟..

بالصلاح للإمامة إلا تغريرا بالناس وقناعة بالسلامة أو الأجر المبذول على هذا التغرير؟..

ثم هى خطوة لا رجعة بعدها إذا أقدم عليها الحسين بما أثر عنه من الوفاء وصدق السريرة. فإذا بايع يزيد فقد وفّى له بقية حياته كما وفّى لمعاوية بما عاهده عليه، ولاسيما حين يبايع يزيد على علم بكل نقيصة فيه قد يتعلل بها المتعلل لنقض البيعة وانتحال أسباب الخروج.

فملك يزيد لم يقم على شىء واحد يرضاه الحسين لدينه أو لشرفه أو للأمة الإسلامية.ومن طلب منه أن ينصر هذا الملك فإنما يطلب منه أن ينصر ملكا ينكر كل دعواه ولا تحمد له حالة من الأحوال، ولا تنس بعد هذا كله أن هذا الملك كان يقرر دعائمه فى أذهان الناس بالغض من الحسين فى سمعة أبيه وكرامة شيعته ومريديه. فكانوا يسبون عليا على المنابر وينعتونه بالكذب والمروق والعصيان، وكانوا يتحرون أنصاره حيث كانوا فيقهرونهم على سبه والنيل منه بمشهد الناس، وإلا أصابهم العنت والعذاب وشهروا فى الأسواق بالصلب والهوان. فمجاراة هذه الأمور كلها فى مفتتح ملك جديد معناه أنها سُنة قد وجبت واستقرت الجيل بعد الجيل بغير أمل فى التغيير والتبديل. فمن أقر هذه السنة فى مفتتح هذا الملك الجديد فقد ضعف أمله وضعف أمل أنصاره فيه يومًا بعد يوم، وازداد مع الزمن ضعفًا كما ازدادت حجة خصومة قوة عليه.

هذه هى البواعث النفسية التى كانت تجيش فى صدر الحسين يوم دعاه أولياء بنى أمية إلى مبايعة يزيد والنزول عن كل حق له ولأبنائه ولأسرته فى إمامة المسلمين، كائنا من كان القائم بالأمر، وبالغا ما بلغ من قلة الصلاح وبطلان الحجة. وهى بواعث لاتثنيه عن الخروج ولا تزال تلح عليه فى اتخاذ طريق واحد من طريقين لا معدل عنهما، وهما الخروج إن كان لابد خارجا فى وقت من الأوقات، أو التسليم بما ليست ترضاه له مروءة ولا يرضاه له إيمان..

مصرع وانتصار

أما نتائج الحركة كلها - إذا نظرنا إليها نظرة واسعة - فهى أنجح للقضية التى كان ينصرها من مبايعة يزيد.

فقد صرع الحسين عام خروجه، ولحق به يزيد بعد ذلك بأقل من أربع سنوات..

ولم تنقض ست سنوات على مصرع الحسين حتى حاق الجزاء بكل رجل أصابه فى كربلاء، فلم يكد يسلم منهم أحد من القتل والتنكيل مع سوء السمعة ووسواس الضمير.

ولم تعمر دولة بنى أمية بعدها عمر رجل واحد مديد الأجل، فلم يتم لها بعد مصرع الحسين نيف وستون سنة!.. وكان مصرع الحسين هو الداء القاتل الذى سكن فى جثمانها حتى قضى عليها، وأصبحت ثارات الحسين نداء كل دولة تفتح لها طريقًا إلى الأسماع والقلوب.

ولإصابة هذه الحركة فى نتائجها الواسعة دخل فى روع بعض المؤرخين أنها تدبير من الحسين رضى الله عنه، توخاه منذ اللحظة الأولى وعلم موعد النصر فيه.. فلم يخامره الشك فى مقتله ذلك العام ولا فى عاقبة هذه الفعلة التى ستحيق لا محالة بقاتليه بعد أعوام.

فقال مارين الألمانى فى كتابه (السياسة الإسلامية): «إن حركة الحسين فى خروجه على يزيد إنما كانت عزمة قلب كبير عز عليه الإذعان، وعز عليه النصر العاجل، فخرج بأهله وذويه ذلك الخروج الذى يبلغ به النصر الآجل بعد موته، ويحيى به قضية مخذولة ليس لها بغير ذلك حياة»

فإن لم يكن رأى الكاتب حقًّا كله، فبعضه على الأقل حق لا شك فيه. ويصدق ذلك - فى رأينا - على حركة الحسين بعد أن حيل بينه وبين الذهاب لوجهه الذى يرتضيه، فآثر الموت كيفما كان ولم يجهل ما يحيق ببنى أمية من جراء قتله.. فهو بالغ منهم بانتصارهم عليه مالم يكن ليبلغه بالنجاة من وقعة كربلاء.

* * *

وقد جرى ذكر الموت على لسان الحسين من خطوته الأولى وهو يتهيأ للرحيل ويودع أصحابه فى الحجاز. فقال لهم: «إن الموت حق على ولد آدم» ولم يخفف عليه أنه يركب الخطة التى لا يبالى راكبها ما يصيبه من ذلك القضاء..

لكنه لم يكن ييأس من إقناع الناس والتفافهم به منذ خطوته الأولى. ولم يعقد عزمه على ملاقاة الموت حتى ساموه الرغم، وأبوا عليه أن ينصرف إلى أى منصرف قبل التسليم المبين، مسوقًا على الكره منه إلى عبيد الله بن زياد..

وتتباين آراء المتأخرين خاصة فى خروج الحسين بنسائه وأبنائه، أكان هو الأحزم والأكرم أم كان الأحزم والأكرم أن يخرج بمفرده حتى يرى ما يكون من استجابة الناس له أو إعراضهم عنه وضعفهم فى تأييده.

وليس للمتأخرين أن يقضوا فى مسألة كهذه بعقولهم وعاداتهم، لأنها مسألة يقضى فيها بحكم العقل العربى وعاداته فى أشباه هذه المواقف. وقد كان اصطحاب النساء والأبناء عادة عربية فى البعوث التى يتصدى لها المرء متعمدًا القتال دون غيره فضلاً عن البعوث التى قد تشتبك فى القتال وقد تنتهى بسلام كبعثة الحسين.

فكان المقاتلون فى وقعة ذى قار يصطحبون حلائلهم وذراريهم ويقطعون وضن الرواحل - أى أحزمتها - قبل خوض المعركة، وكان المسلمون والمشركون معًا يصطحبون الحلائل والذرارى فى غزوات النبى عليه السلام، وكان مع المسلمين فى حرب الروم صفوة نساء قريش وعقائل بيوتها، وكان النبى عليه السلام يصطحب زوجة أو أكثر من زوجة فى غزواته وحروبه، وحكم الواحدة هنا حكم الكثيرات، وهى عادة عربية عريقة يقصدون بها الإشهاد على غاية العزم وصدق النية فيما هم مقبلون عليه، وفى معلقة ابن كلثوم إشارة مجملة إلى معنى هذه العادة العربية من قديم عصورها حيث يقول:

على آثارنا بيض حسان نحاذر أن تقسم أو تهونا
يقتن جيادنا ويقلن لستم بعولتنا إذا لم تمنعونا

وقد كان الحسين رضى الله عنه يندب الناس لجهاد يخوضونه إن قضى عليهم أن يخوضوه فلا يبالون ما يصيبهم فى أنفسهم وفى أبنائهم وأموالهم، لأنهم يطلبون به ماهو

أعز على المؤمن من النفس والولد والمال، فليس من المروءة أن يندبهم لأمر ولا يكون قدوة لهم فيه.

وكان على الحسين وقد أزمع الخروج أن يجمع له أقوى حجة فى يديه ويجمع على خصومه أقوى حجة تنقلب عليهم، إذا غلبوه وأخفق فى مسعاته.. فيكون أقوى ما يكون وهو منتصر، ويكونون أبغض ما يكون وهو مخذول..

والمسلم الذى ينصر الحسين لنسبه الشريف أولى أن ينصره غاية نصره وهو بين أهله وعشيرته، وإلا فما هو بناصره على الإطلاق، وتنقلب الآية فى حالة الخذلان، فينال المنتصر من البغضاء والنقمة على قدر انتصاره الذى يوشك أن ينقلب عليه.

صواب الشهداء

وجملة ما يقال إن خروج الحسين من الحجاز إلى العراق، كان حركة قوية لها بواعثها النفسية التى تنهض بمثله ولا يسهل عليه أن يكبتها أو يحيد بها عن مجراها..

وإنها قد وصلت إلى نتائجها الفعالة من حيث هى قضية عامة تتجاوز الأفراد إلى الأعقاب والأجيال، سواء أكانت هذه القضية نصرة لآل الحسين أم حربا لبنى أمية..

إنما يبدو الخطأ فى هذه الحركة حين تنظر إليها من زاوية واحدة ضيقة المجال قريبة المرمى، وهى زاوية العمل الفردى الذى يراض بأساليب المعيشة اليومية ويدور على النفع العاجل للقائمين به والداعين إليه.

فحركة الحسين لم تكن مسددة الأسباب لمنفعة الحسين بكل ثمن، وحيثما كانت الوسيلة..

وعلة ذلك ظاهرة قريبة..

وهى أن الحسين رضى الله عنه طلب الخلافة بشروطها التى يرضاها ولم يطلبها غنيمة يحرص عليها مهما تكلفه من ثمن، ومهما تتطلب من وسيلة.. وهنا غلطة الشهداء..

بل قل: هنا صواب الشهداء..

ومن هو الشهيد إن لم يكن هو الرجل الذى يصاب ويعلم أنه يصاب لأن الواقع يخذله ولا يجرى معه إلى مرماه؟

منذ القدم، أخطأ الشهداء هذا الخطأ، ولو أصابوا فيه لما كانوا شهداء ولا شرفت الدنيا بفضيلة الشهادة.

فالحسين رضى الله عنه قد طلب خلافة الراشدين حيث لا تتسنى خلافة الراشدين، أو حيث تتسنى الدولة الدنيوية التى يضن بها أصحابها ويتكالبون عليها ويتوسلون إليها بوسائلها.

فكانت عنايته بالدعوة والإقناع أعظم جدًّا من عنايته بالتنظيم والإلزام.

نزل رسوله الأول مسلم بن عقيل بالكوفة صفر اليدين من المال حتى احتاج فيها أن يقترض سبعمائة درهم هى التى أوصى بردها إلى أصحابها قبل قتله..

وتلك عقبة من العقبات التى تعوق الدعوات الكبار: ولكنها على هذا لم تكن بالعقبة العصية التذليل..

فلو أنه قد طلب المال من وسائله الدنيوية أو السياسية، لما استعصى عليه أن يأخذ منه ما يكفيه. فلعله كان ميسورًا له بعد أن تجمّع حوله الأنصار وبايع الحسينَ على يده ثلاثون ألفًا كما جاء فى بعض الروايات. ففى تلك اللحظة لعله كان يستطيع أن يحيط بقصر الوالى الأموى ويستولى عليه، وينشئ الحكومة الحسينية فيه. ثم لعله كان يستطيع بعد ذلك أن يوجه الدعاة إلى أطرف الدولة الشرقية ليتلقى البيعة ويقيم الولاة ويحشد الأجناد..

فإذا كان هذا فاته حتى خف الأمويون لدرء الخطر عنهم وبعثوا إلى الكوفة بعبيد الله ابن زياد، فقد سيق عبيد الله هذا فى يوم من الأيام إلى يديه وكان فى وسعه أن يبطش به ويستوى على كرسيه ويحرم يزيد بن معاوية نصيرًا من أعنف أنصاره..

وقد فاته هذا لأن شريعة الخلافة لا تبيحه فى رأيه، أو لأنه اعتقد أن الحق بين، وأن الباطل بين.. فلا حاجة به بعد التمييز بينهما إلى فتكة الغدر كما سماها، ولا محل عنده لإهدار الدماء وهو ينعى على الدولة القائمة أنها تهدر الدماء بالشبهات..

ولقد رأى مسلم أن حق صاحبه فى الخلافة قائم على شيء واحد، وهو إقبال الناس إليه طائعين ومبايعتهم إياه مختارين.. فأما وقد تفرقوا عنه رهبة من السلطان أو ضعفًا فى اليقين، فالرأى عنده أن يكتب إلى صاحبه يعلمه بانفضاض الناس عنه ويثنيه عن القدوم، ولا حق له عليهم بعد ذلك حتى يثوبوا إليه.

وقيام الخلافة على هذا الاختيار عقيدة لا نفهمها نحن الآن، ولكن قد يفهمها يومئذ من كان على مقربة من عهد النبوة وعهد الصديق والفاروق..

فقد كان الصراع بين الحسين ويزيد أول تجربة من قبيلها بعد عهد النبوة وعهد الخلفاء الأولين..

لم يكن الصراع بين علىّ ومعاوية على هذا الوضوح الذى لا شبهة فيه بين الحق والباطل وبين الفضيلة والنقيصة..

لكنه فى بيعة الحسين كان قد وضح وضوح الصبح لذى عينين.

وكان ذلك كما قلنا أول تجربة من قبيلها بعد عهد الفداء فى سبيل العقيدة والإيمان.. بعد العهد الذى كان الرجل فيه يخرج من ماله وينفصل من ذويه ويتجرد لحرب أبيه وأخيه وبنيه إن خالفوه فى أمر الإسلام.. بعد العهد الذى كان القليل فيه من المسلمين يصدون الكثير من المشركين وفى أيديهم السلاح والعتاد، ومن ورائهم المعاقل والأزواد.. بعد العهد الذى تغير فيه الناس، وخيل إلى من كان يعهدهم على غير تلك الحال أنهم متغيرون..

الناس عبيد الدنيا

فكيف ينخذل الحسين وينتصر يزيد فى عالم شهد النبوة وشهد الخلافة على سنة الراشدين؟ إن كلمة واحدة قالها الحسين فى ساعة يأسه تشف عن مبلغ يقينه بوجوب الحق وعجبه من أن يكون الأمر غير ما وجب، وذلك حيث قال: «الناس عبيد الدنيا، والدين لعق على ألسنتهم يحوطونه مادرت به معائشهم، فإذا محصوا بالبلاء قلّ الديانون»

إن الطبائع الأرضية لا تنخدع فى صلاح الناس ولا تعجب هذا العجب لأنها لاتخرج

من نطاقها المحدود ولا تصدق ماوراءه من الآمال والوعود.

إنها لا تضل عن طريق المنفعة لأنها لاتعرف غيرها من طريق، إنها تؤثر القنديل الخافت فى يدها على الكوكب اللامع فى السماء، لا لأنها لا ترى الكوكب اللامع فى السماء، بل لأنها ترى القنديل والكوكب فتعلم أن هذا قريب وأن ذاك جد بعيد.

إنها لا تنخدع بالسراب لأنها لا تخرج من عقر دارها ولا تشعر بظمأ الفؤاد، ولا تنظر إلى السراب..

ولكن طبيعة الشهداء غير طبيعة المساومة على البيع والشراء..

طبيعة المساومة موكلة بالحرص على الهنات..

وطبيعة الشهادة موكلة ببذل الحياة لما هو أدوم من الحياة.

وشتان طبيعة وطبيعة، وشتان خطأ الشهداء وخطأ المساومين.

وليست موازين المساومة بالموازين الفذة التى يصلح عليها أمر بنى الإنسان، فإن بنى الإنسان ما بهم غنى قط عن الذين يخطئون لأنهم أرفع من المصيبين، وأنهم هم الشهداء.

وإنهم لعلى صواب فى المدى البعيد، وإن كانوا على خطأ فى المدى القريب.. مدى الأجواف والمعدات والجلود لا مدى الأرواح والأخلاد..

من هؤلاء كان الحسين رضى الله عنه، بل هو أبو الشهداء وينبوع شهادة متعاقبة لا يقرن بها ينبوع فى تاريخ البشر أجمعين.

فلا جرم يصيب فى المدى البعيد ويخطئ فى المدى القريب.. مدى المنفعة التى تناله هو فى معيشة يومه، وهو المدى الذى لا يأسف عليه ولا ينص الركاب إليه..

الحرم المقدس

عرفت قديمًا باسم «كوربابـل» ثم صحفت إلى كربـلاء، فجعلها هـذا التصحيف عرضـة لتصحيف آخر يجمع بين الكرب والبلاء، كما رسمها بعض الشعراء.

ولم يكن لها ما تذكر به فى أقرب جيرة لها فضلًا عن أرجاء الدنيا البعيدة منها.. فليس لها من موقعها، ولا من تربتها، ولا من حوادثها، ما يغرى أحداً برؤيتها، ثم يثبت فى ذاكرة من يراها ساعة يرحل عنها.

فلعل الزمن كان خليقاً أن يعبر بها سنة بعد سنة وعصراً بعد عصر، دون أن يسمع لها اسم أو يحس لها بوجود.. إلى أن تذكـر «نينوى» وجـيرتها فتـدخل فى زمـرة تلك الجيرة بغـير حساب.

وشاءت مصادفة من المصادفات أن يساق إليها ركب الحسين بعد أن حيل بينه وبين كل وجهة أخرى، فاقترن تاريخها منذ ذلك اليوم بتاريخ الإسلام كله. ومن حقة أن يقترن بتاريخ بنى الإنسان حيثما عرفت لهذا الإنسان فضيلة يستحق بها التنويه والتخليد.

فهى اليوم حرم يزوره المسلمون للعبرة والذكرى، ويزوره غير المسلمين للنظر والمشاهدة، ولكنها أعطيت حقها من التنويه والتخليد، لحق لها أن تصبح مزاراً لكل آدمى يعرف لبنى نوعه نصيباً من القداسة وحظا من الفضيلة، لأننا لا نذكر بقعة من بقاع هذه الأرض يقترن اسمها بجملة من الفضائل والمناقب أسمى وألزم لنوع الإنسان من تلك التى اقترنت باسم كربلاء، بعد مصرع الحسين فيها.

فكل صفة من تلك الصفات العلوية التى بها الإنسان إنسان وبغيرها لا يحسب غير ضرب من الحيوان السائم.. فهى مقرونة فى الذاكرة بأيام الحسين رضى الله عنه فى تلك البقعة الجرداء.

وليس فى نوع الإنسان صفات علويات أنبل ولا ألزم له من الإيمان والفداء والإيثار ويقظة الضمير وتعظيم الحق ورعاية الواجب والجلد فى المحنة والأنفة من الضيم والشجاعة فى وجه الموت المحتوم.. وهى - ومثيلات لها من طرازها - هى التى تجلت فى حوادث كربلاء منذ نزل بها ركب الحسين، ولم تجتمع كلها ولا تجلت قط فى موطن من المواطن تجليها فى تلك الحوادث، وقد شاء القدر أن تكون فى جانب منها أشرف ما يشرف به أبناء آدم، لأنها فى الجانب الآخر منها أخزى ما يخزى به مخلوق من المخلوقات.

وحسبك من تقويم الأخلاق فى تلك النفوس، أنه ما من أحد قتل فى كربلاء إلا كان فى وسعه أن يتجنب القتل بكلمة أو بخطوة، ولكنهم جميعاً آثروا الموت عطاشاً جياعاً مناضلين على أن يقولوا تلك الكلمة أو يخطوا تلك الخطوة، لأنهم آثروا جمال الأخلاق على متاع الحياة..

أو حسبك من تقويم الأخلاق فى نفس قائدها وقدوتها أنهم رأوه بينهم فافتدوه بأنفسهم، ولن يبتعث المرء روح الاستشهاد فيمن يلازمه إلا أن يكون هو أهلاً للاستشهاد فى سبيله وسبيل دعوته، وأن يكون فى سليقة الشهيد الذى يأتم به الشهداء.

نموت معك

أقبل الفتى الصغير على بن الحسين على أبيه.. وقد علم أنهم مخيرون بين الموت والتسليم، فسأله:

- ألسنا على الحق؟.

قال الوالد المنجب النجيب:

- بلى والذى يرجع إليه العباد..

فقال الفتى:

- يا أبه!.. فإذن لا أبالى!..

وهكذا كانوا جميعاً لا يبالون ما يلقون، ماعلموا أنهم قائمون بالحق وعليه يموتون.

وأراد الحسين - وقد علم أن التسليم لا يكون - أن يبقى للموت وحده وألا يعرض له أحداً من صحبه، فجمعهم مرة بعد مرة وهو يقول لهم فى كل مرة: «لقد بررتم وعاونتم والقوم لا يريدون غيرى. ولو قتلونى لم يبتغوا غيرى أحداً.. فإذا جنّكم الليل فتفرقوا فى سواده وانجو بأنفسكم».

فكأنما كان قد أراد لهم الهلاك ولم يرد النجاة، وفزعوا من رجائهم إياه كما يفزع غيرهم من مطالبتهم بالثبات والبقاء، وقالوا له كأنهم يتكلمون بلسان واحد: «معاذ الله والشهر الحرام. ماذا نقول للناس إذا رجعنا إليهم؟ أنقول لهم إنا تركنا سيدنا وابن سيدنا وعمادنا، تركناه غرضاً للنبل ودريئة للرماح وجزراً للسباع، وفررنا عنه رغبة فى الحياة؟ معاذ الله.. بل نحيا بحياتك ونموت معك..»

قالوا له: نموت معك ولك رأيك. ولم يخطر لأحد منهم أن يزين له العدول عن رأيه إيثاراً لنجاتهم ونجاته. ولو خادعوا أنفسهم قليلاً لزينوا له التسليم وسموه نصيحة مخلصين يريدون له الحياة، ولكنهم لم يخادعوا أنفسهم ولم يخادعوه، ورأوا أصدق النصيحة له أن يجنبوه التسليم ولا يجنبوه الموت، وهم جميعاً على ذلك.

ولم يكونوا جميعاً من ذوى عمومته وقرباه، بل كان منهم غرباء نصحوا له ولأنفسهم هذه النصيحة التى ترهب العار ولا ترهب الموت. فقال له زهير بن القين: «والله لوددت أنى قتلت ثم نشرت ثم قتلت حتى أقتل هكذا ألف مرة، ويدفع الله بذلك الفشل عن نفسك وعن أنفس هؤلاء الفتيان من أهل بيتك».

وقال مسلم بن عوسجة كأنه يعتب لما اختار له من السلامة: «أنحن نخلى عنك؟ وبم نعتذر إلى الله فى أداء حقك؟ لا والله حتى أطعن فى صدورهم برمحى وأضربهم بسيفى ما ثبت قائمه فى يدى، ولو لم يكن معى سلاح أقاتلهم به لقذفتهم بالحجارة. والله لا نخليك حتى يعلم الله أنا قد حفظنا غيبة رسوله فيك. وأما والله لو علمت أننى أقتل ثم أحيا ثم أحرق ثم أحيا ثم أحرق ثم أذرى، ويفعل بى ذلك سبعين مرة ما فارقتك حتى ألقى حِمَامى دونك..»

وجىء إلى رجل من أصحابه الغرباء بنبأ عن ابنه فى فتنة الديلم، فعلم أن الديلم اسروه ولا يفكون إساره بغير فداء، فأذن له الحسين أن ينصرف وهو فى حل من بيعته

ويعطيه فداء ابنه. فأبى الرجل إباءً شديداً وقال: «عند الله أحتسبه ونفسى» ثم قال للحسين: «هيهات أن أفارقك ثم أسأل الركبان عن خبرك.. لا يكن والله هذا أبدًا».

* * *

وقد تناهت هذه المناقب إلى مداها الأعلى فى نفس قائدهم الكريم.. يخيل إلى الناظر فى أعماله بكربلاء أن خلائقه الشريفة كانت فى سباق بينها أيها يظفر بفخار اليوم، فلا يدرى أكان فى شجاعته أشجع، أم فى صبره أصبر، أم فى كرمه أكرم، أم فى إيمانه وأنفته وغيرته على الحق بالغاً من تلك المناقب المثلى أقصى مداه.. إلا أنه كان يوم الشجاعة لا مراء، وكانت الشجاعة فضيلة الفضائل التى تمدها سائرها بروافد من كل خلق نبيل يعينها على شأنها. فكان الحسين – شبل على – فى شجاعته الروحية والبدنية معاً غاية الغايات، وكان مضرب المثل بين الرعيل الأول من أشجع الشجعان فى أبناء آدم وحواء..

ملك جأشه.. وكل شيء من حوله يوهن الجأش، ويحل عقدة العزم، ويغرى بالدعة والمجاراة.

ملك جأشه ومن حوله نساؤه وأبناؤه فى نضارة العمر، يجوعون ويظمأون، ويتشبثون به ويبكون، وملك جأشه رويّة وأناة ولم يملكه وثبة واثب إلى الغضب أو هيجة مهتاج إلى الوغى، فكان قبل القتال وفى حومة القتال قويًّا بصيراً ينفض الضعف عن عزائمه، كما ينفض الأسد غبرات الحصباء عن لبده، ولم يخامره الأسف قط فى ذلك الموقف المرهوب إلا من أجل أحبائه وأعزائه الذين يراهم ويرونه ويسمع صيحتهم ويسمعونه. فقال وهو ينظر إلى الأخبية ومن فيها: لله در ابن عباس فيما أشار به علىّ!»..

وجلس ليلة القتال فى خيمته يعالج سهاماً له بين يديه ويرتجز وأمامه ابنه العليل:

يا دهر أف لك من خليل   كم لك بالإشراق والأصيل
من صاحب وماجد قتيل   والدهر لا يقنع بالبديل
والأمر فى ذاك إلى الجليل   وكل حى سالك سبيلى

فرد ابنه عبرته لكيلا يزيده ألماً على ألمه. وسمعته أخته زينب، فلم تقو على حنانها ووجلها، وخرجت إليه من خبائها حاسرة تنادى: «واثكلاه! اليوم مات جدى رسول الله

وأمى فاطمة الزهراء وأبى على وأخى الحسين، فليت الموت أعدمنى الحياة يا حسيناه! يا بقية الماضين وثمالة الباقين!».

فبكى لبكائها ولم ينثن ذرة عن عزمه الذى بات عليه، وقال لها:

– يا أخت! لو ترك القطا لنام.. ولم يزل يناشدها.. ويعزيها وهو فى قرارة نفسه مستقر كالطود على مواجهة الموت وإباء التسليم أو النزول على «حكم ابن مرجانة» كما قال.. ثم احتملها مغشيًّا عليها حتى أدخلها الخباء..

* * *

تزول الممالك وتدول الدول وتنجح المطامع أو تخيب، وتحضر المطالب أو تغيب. وهذه الخلائق العلوية فى صدر الإنسان أحق بالبقاء من الممالك وما حوته، ومن الدول وما حفظته أو ضيعته. بل أحق بالبقاء من رواسى الأرض وكواكب السماء..

حرب النور والظلام

وكانت فئة الحسين صغيرة كما علمنا قد رصدت لها هنالك تلك الفئة الكبيرة التى تناقضها أتم ما يكون التناقض بين طرفين، وتباعدها أبعد ما تكون المسافة بين قطبين، فكل ما فيها أرضى مظلم مسف بالغ فى الإسفاف، وليس فيها من النفحة العلوية نصيب.

أللمصادفات نظام وتدبير..؟!

نحن لا نعلم إلا أنها مصادفات يخفى علينا ما بينها من الوشائج والصلات.. ولكنها – لذلك – هى الأعاجيب التى تستوقف النظر لعجبها العاجب، وإن لم تستوقفه لما يفهمه فيها من نظام وتدبير.

فجيرة كربلاء كانت قديماً من معاهد الإيمان بحرب النور والظلام، وكان حولها أناس يؤمنون بالنضال الدائم بين أورمزد وأهرمان. ولكنه كان فى حقيقته ضربًا من المجاز وفنًّا من الخيال.

وتشاء مصادفات التاريخ إلا أن ترى هذه البقاع التى آمنت بأورمزد وأهرمان حرباً

هى أولى أن تسمى حرب النور والظلام من حرب الحسين ومقاتليه.

* * *

وهى عندنا أولى بهذه التسمية من حروب الإسلام والمجوسية فى تلك البقاع وما وراءها من الأرض الفارسية، لأن المجوسى كان يدافع شيئاً ينكره.. ففى دفاعه معنى من الإيمان بالواجب كما تخيله ورآه، ولكن الجيش الذى أرسله عبيد الله بن زياد لحرب الحسين كان جيشاً يحارب قلبه لأجل بطنه، أو يحارب ربه لأجل واليه. إذ لم يكن فيهم رجل واحد يؤمن ببطلان دعوى الحسين أو رجحان حق يزيد، ولم يكن فيهم كافر ينفح عن عقيدة غير عقيدة الإسلام، إلا من طوى قلبه على كفر كمين هو مخفيه، ولا نخالهم كثيرين.

ولو كانوا يحاربون عقيدة بعقيدة، لما لصقت بهم وصمة النفاق ومسبة الأخلاق.. فعداوتهم ما علموا أنه الحق وشعروا أنه الواجب أقبح بهم من عداوة المرء ما هو جاهله بعقله ومعرض عنه بشعوره، لأنهم يحاربون الحق وهم يعلمون.

ومن ثم كانوا فى موقفهم ذاك ظلاماً مطبقاً، ليس فيه من شعور الواجب بصيص واحد من عالم النور والفداء.. فكانوا حقًّا فى يوم كربلاء قوة من عالم الظلام تكافح قوة من عالم النور.

أقربهم إلى العذر يومئذ من اعتذر بالفَرَق والرهبة لأنهم أكرهوه بالسيف على غير ما يريد.. فكان الجبن أشرف ما فيهم من خصال السوء.

وكان منهم أناس كتبوا إلى الحسين يستدعونه إلى الكوفة ليبايعوه على حرب يزيد، فلما ندبهم عمر بن سعد للقائه وسؤاله أحجموا عما ندبهم له واستعفوه، لأن جوابهم إن سألوه فى شأن مجيئه إليهم: أننى جئتكم ملبياً ما دعوتم إليه!..

وركب أناساً منهم الفزع الدائم بقية حياتهم لأنهم عرفوا الإثم فيما اقترفوه عرفاناً لا تسعهم المغالطة فيه، ومن هؤلاء رجل من بنى إبان بن دارم كان يقول:

– قتلت شابًّا أمرد مع الحسين بين عينيه أثر السجود.. فما نمت ليلة منذ قتلته إلا أتانى فيأخذ بتلابيبى حتى يأتى جهنم فيدفعنى فيها، فأصبح فما يبقى أحد فى الحى إلا سمع صياحى.

ورأى هـذا الرجـل صاحبٌ لـه بعد حـين وقد تغـير وجهه واسـود لونـه، فقال لـه: «ما كدت أعرفك»، وكان يعرفه جميلاً شديد البياض..

ومنهم من كان يتزاور عن الحسين فى المعمعة، ويخشى أن يصيبه أو يصاب على يديه، ولو أنهم حاربوه لأنهم علموا أنه أهل للمحاربة فلم يتزاوروا عنه ولم يتحاشوه لكانت الحرب هنالك حربا بين رأيين ومذهبين وشجاعتين، ولكنهم كشفوا أنفسهم بتحاشيهم إياه. فإذا هم يحاربون رأيهم الذى يدينون به، ووليهم الذى يضمرون له الحرمة والكرامة، وفى ذلك خزيهم الأثيم.

على أن الجبن والجشع لا يفسران كل ما اقترفه جيش عبيد الله من شر ولؤم فى أيام كربلاء..

فلا حاجة بالجبان ولا بالجشع إلى التمثيل والتنكيل أو التبرع بالإيذاء حيث لا تلجئه الضرورة إليه، وليس قتل الطفل الصغير الذى يموت من العطش وهو على مورد الماء بـالأمر الـذى يلجئ إليه الجبن أويلجئ إليـه طلب المـال، وقـد حـدث فى أيـام كـربـلاء من أمثال هذا البغى اللئيم شىء كثير رواه الأمويون، ولم تقتصر روايته على الهاشميين والطالبيين أو أعداء بنى أمية!

* * *

وينبغى أن نفهم ذلك على وجه واحد لا سبيل إلى فهمه بغيره، وهو نكسة الشر فى النفس البشرية، حين تلج بها مغالطة الشعور، وحين تغالب عنانها حتى تعييها المغالبة فينطلق بها العنان.

فالرجل الخبيث المغرق فى الخيـانة قـد يتصرف فى خلوتـه تصرف الأنـذال ثم لا يبالى أن يعرف نذالته وهو بنجوة من أعين الرقباء. ولكن أربعة الآلاف لا يتصارحـون بالنـذالة بينهم ولا يقـول بعضهم لبعض إنهم يعملون ما يستحقـون به التحقـير والمهانـة ولا تقبل لهم فيـه معذرة ولا علالة. وإنما شأنهم فى هذه الحالة أن يصطنعوا الحماسة ويجاهدوا التردد ما استطاعوا ليـظهروا فى ثـوب الغلاة المصـدقين الـذين لا يشكون لحـظة فى صدق مـا يعملون، فيغمض الرجل منهم عينيه ويستتر بغشاء من النفاق حتى ليوشك أن يخدع نفسه عن طوية فؤاده.

وتلك لجاجة المغالطة فى الشعور..

أما مجاذبة النفس عنانها وانطلاقها بعد هذه المجاذبة المخفقة، فالشواهد عليها كثيرة فيما نراه كل يوم.. يحاول الرجل أن يتجنب الخمر فلا يستطيع، فإذا هو قد خلع العذار وغرق فيها ليله ونهاره غير مبال بما يقال، كأنما هو القائل: «دع عنك لومى فإن اللوم إغراء».

وتحب المرأة أن تستحيى وتتوارى من المسبة فى هواها، ثم يغلبها هواها فإذا هى قد ألقت حياءها للريح، وصنعت ما تحجم عنه التى لم تنازع نفسها قط فى هوى، ولم تشعر قط بوطأة الخجل والاستتار.

واندفاع المتهجمين على الشر فى حرب كربلاء بغير داع من الحفيظة ولا ضرورة ملزمة تقضى بها شريعة القتال، هو الاندفاع الذى يسبر لنا عمق الشعور بالإثم فى نفوس أصحاب يزيد. وقد رأينا من قبل عمق الشعور بالحق فى أصحاب الحسين، وما بنا من حاجة إلى البحث عن علة مثل هذه العلة لمن خلقوا مجرمين وخلقت معهم ضراوة الحقد والإيذاء لهذا الميدان وغير هذا الميدان، كشمر بن ذى الجوشن، ومن جرى مجراه.. فهؤلاء لا يصنعون غير صنيعهم الأثيم كلما وجدوا السبيل إليه.

على أنها – بعد كل هذا – حرب بين الكرم واللؤم، وبين الضمير والمعدة، وبين النور والظلام.. فشأنها على أية حال أن تصبح مجالاً من الطرفين لقصارى ما يبلغه الكرم وقصارى ما يبلغه اللؤم، وقد بلغت فى ذلك أقصى مدى الطرفين.

* * *

ومن المتعذر بعد وقوف هاتين القوتين موقف المراقبة والمناجزة، أن نتقصى أوائل القتال ونتتبع ترتيب الحوادث واحدة بعد واحدة على حسب وقوعها.. فإن الأقوال فى سرد حوادث كربلاء لا تتفق على ترتيب واحد، سواء كان هذا الترتيب فى رواية أنصار الحسين أو رواية أنصار يزيد..

إلا أن الترتيب الطبيعى يستبين للعقل من سبب الوقوف فى ذلك المكان، وهو منع الحسين أن ينصرف إلى سبيله وأن يرد الماء حتى يكرهه العطش إلى التسليم، وكان الموقف كما وصفه أبو العلاء بعد ذلك بأربعة قرون:

منع الفتى هينًا فجـر عظائـمًا وحمى نمير الماء فـانبعث الدم

ولم يمتنع طريق الماء فى بادئ الأمر دفعة واحدة لأن حراس المورد من جماعة عمر بن سعد، ولم يكونوا على جزم بما يصنعون فى مواجهة الحسين وصحبه.. فلما اندفع بعض أصحاب الحسين إلى الماء بالقِرب والأداوى، مانعهم القوم هنيهة ثم أخلو لهم سبيل النهر خـوفًـا وحـيرة، فشـربـوا وملئـوا قـربَهم وأداواهم بمـا يغنيهم عن الاستقـاء إلى حـين

والظاهر أن الشر كله كان فى حضور شمر بن ذى الجوشن على تلك الساحة، متربصًا كل التربص بمن يتوانى فى حصار الحسين ومضايقته فيعزله ويعرضه لسوء الجزاء، ثم يطمع من وراء ذلك أن يتولى قيادة الجيش وإمارة الرى بعد عزل عمر بن سعد بن أبى وقاص.. فبطل التردد شيئًا فشيئًا، وتعذر على الحسين وأصحابه بعد الهجمة الأولى أن يصلوا إلى الماء. ولبثوا أيامًا وليس فى معسكرهم ذو حياة من رجل أو امرأة أو طفل أو حيوان إلا وهو يتلظى على قطرة ماء فلا ينالها، ومنهم الطفل العليل والشيخ المكدود والحيوان الأعجم، وصياح هؤلاء الظماء من حرقة الظمأ يتوالى على مسمع الحسين ليل نهار وهو لا يملك لهم غير الوصاية بالصبر وحسن المؤاساة.

وفى ذلك المأزق الفاجع، نضحت طبائع اللؤم فى معسكر ابن زياد بشر ما تنضح به طبيعة لئيمة فى البنية الآدمية.. فاقترفوا من خسة الأذى ما تتنزه عنه الوحوش الضاريات، وجعلوا يتلهون ويتفكهون بما تقشعر منه الجلود وتندى له الوجوه، ونكاد نمسك عن تسطيره أسفًا وامتعاضًا، لولا أن القليل منه جزء لا ينفصل من هذه الفاجعة، وبيان لما يلى من وقعها فى النفوس وتسلسل تراثها إلى أمد بعيد..

مآثم مخزية

فمن هذه المآثم المخزية أن الحسين برّح به العطش فلم يباله.. ولكنه رأى ولده عبد الله يتلوى من ألمه وعطشه، وقد بح صوته من البكاء، فحمله على يديه يهم أن يسقيه ويقول للقوم: «اتقوا الله فى الطفل إن لم تتقوا الله فينا» فأوتر رجل من نبالة الكوفة قوسه، ورمى الطفل بسهم وهو يصيح ليسمعه العسكران: «خذ اسقه هذا».. فنفذ السهم إلى أحشائه!..

وكانوا يصيحون بالحسين متهاتفين: «ألا ترى إلى الفرات كأنه بطون الحيات؟!.. والله لاتذوقه حتى تموت ومن معك عطشًا».

ولما اشتد عطش الحسين دنا من الفرات ليشرب، فرماه حصين بن نمير بسهم وقع فى فمه.. فانتزعه الحسين وجعل يتلقى الدم بيديه فامتلأت راحتاه بالدم، فرمى به إلى السماء وقد شخص ببصره إليها وهو يقول: «إن تكن حبست عنا النصر من السماء، فاجعل ذلك لما هو خير منه، وانتقم لنا من القوم الظالمين!».

وقد كان منع الماء - قبل الترامى بالسهام - نذيرًا كافيًا بالحرب، يبيح للحسين أن يصيب منهم من يتعرض للإصابة.. ولكنه رأى شمر بن ذى الجوشن - أبغض مبغضيه المؤلبين عليه - يدنو من بيوته ويجول حولها ليعرف منفذ الهجوم عليها، فأبى على صاحبه مسلم بن عوسجة أن يرميه بسهم وقد أمكنه أن يصميه وهو من أسد الرماة.. لأنه كره أن يبدأهم بعداء..

* * *

وكأنه لمح منهم ضعف النية وسوء الدخلة فى الدفاع عن مولاهم، وعلم أنهم لا يخلصون فى حبه، ولا يؤمنون بحقه، وأنهم يخدمونه للرغبة أو الرهبة ولا يخدمونه للحق والذمة.. فطمع أن يقرع ضمائرهم وينبه غفلة قلوبهم، ورمى بآخر سهم من سهام الدعوة قبل أن يرمى بسهم واحد من سهام القتال. فخرج لهم يومًا بزى جده عليه السلام متقلدا سيفه لابسا عمامته ورداءه، وأراهم أنه سيخطبهم، فكان أول ما صنعوه دليلا على صدق فراسته فيهم، لأن رؤساءهم ومؤلبيهم أشفقوا أن يتركوا له آذان القوم فينفذ إلى قلوبهم، ويلمس مواقع الإقناع من ألبابهم. فضجوا بالصياح والجلبة وأكثروا من العجيج والحركة ليحجبوا كلامه عن أسماعهم، ويتقوا أثر موعظته فيهم، وهو بتلك الهيئة التى تغضى عنها الأبصار وتعنو لها الجباه..

ولكنه صابرهم حتى ملوا ومل إخوانهم ضجيجهم هذا الذى يكشفون به عن عجزهم وخوفهم، ولا يوجب الثقة بدعواهم عند إخوانهم.. فهدءوا بعد لحظات وسمعوه بعد الحمد والصلاة: «انسبونى من أنا.. هل يحل لكم قتلى وانتهاك حرمتى؟ ألست ابن بنت نبيكم؟.. أو لم يبلغكم ما قاله رسول الله لى ولأخى: هذان سيدا شباب أهل الجنة؟ ويحكم!.. أتطلبوننى بقتيل لكم قتلته أو مال لكم استهلكته؟».

ثم نادى بأسماء أنصاره الذين استدعوه إلى الكوفة ثم خرجوا لحربه فى جيش ابن زياد. فقال: «يا شيث بن الربعى! يا حجار بن أبحر! يا قيس بن الأشعث! يا يزيد بن الحارث! يا عمر بن الحجاج!.. ألم تكتبوا إلى أن قد أينعت الثمار واخضرت الجنبات، وإنما تقدم على جند لك مجند؟»..

فزلزلت الأرض تحت أقدامهم بهذه الكلمات، وبلغ بها المقنع ممن فيه مطمع لإقناع، وتحولت إلى صفه فئة تعلم أنها تتحول إلى صف لن تجد فيه غير الموت العاجل، واستطابت هذا الموت ولم تستطب البقاء مع ابن زياد لاغتنام الغنيمة وانتظار الجزاء من المناصب والأموال.

* * *

ولم تكن كلمة الحسين كل ما شهره عسكره من سلاح الدعوة قبل الاحتكام إلى السيف.. فقد كانت للبطل المجيد زهير بن القين كلمات فى أهل الكوفة أمضى من السيوف والرماح حيث تصيب، فركب فرسه وتعرض لهم قائلاً: «يا أهل الكوفة؛ نذار لكم من عذاب الله نذار، إن حقًّا على المسلم نصيحة المسلم، ونحن حتى الآن إخوة على دين واحد مالم يقع بيننا وبينكم السيف، فإذا وقع السيف انقطعت العصمة وكنا نحن أمة وأنتم أمة.. إن الله قد ابتلانا وإياكم بذرية نبيه محمد صلى الله عليه وسلم، لينظر ما نحن وأنتم عاملون، وإنا ندعوكم إلى نصر حسين وخذلان الطاغية ابن الطاغية عبيد الله بن زياد، فإنكم لا تدركون منهما إلا سوءا: يسملان أعينكم، ويقطعان أيديكم وأرجلكم، ويمثلان بكم، ويرفعانكم على جذوع النخل، ويقتلان أماثلكم وقراءكم، أمثال حجر بن عدى وأصحابه، وهانئ بن عروة وأشباهه».

فوجم منهم من وجم، وتوقح منهم من توقح، على ديدن المريب المكابر إذا خلع العذار ولم يأنف من العار، وتوعدوه وتوعدوا الحسين معه أن يقتلوهم أو يسلموهم صاغرين إلى عبيد الله بن زياد.

تخاذل وضعف

ولا يظهر من عدد الفريقين ساعة القتال أن المتحولين إلى معسكر الحسين كانوا كثيرين أو متلاحقين. ولكن بداءة التحول كانت مما يخيف ويزعج، لأنها اشتملت على قائد كبير من قواد ابن زياد هو الحر بن يزيد الذى أرسلوه فى أول الأمر ليثنى الحسين عن دخول الكوفة، وقد كان يحسب أن عمله ينتهى إلى هذه المراقبة ولا يعدوها إلى القتال وسفك الدم.. فلما تبين نية القتال، أقبل يدنو نحو عسكر الحسين قليلاً قليلاً، وتأخذه رعدة وينتابه ألم شديد.. حتى راب أمره صاحبه المهاجر بن أوس فقال له:

– والله إن أمرك لمريب.. ما رأيت منك قط مثل ما أراه الآن، ولو قيل من أشجع أهل الكوفة ما عدوتك..

فباح له الرجل بما فى نفسه وقال له:

– إنى أخيّر نفسى بين الجنة والنار، ولا أختار على الجنة شيئًا ولو قطّعت أو حرّقت..

ثم ضرب فرسه، ولحق بالحسين وهو يعتذر قائلاً:

– لو علمت أنهم ينتهون إلى ما أرى ما ركبت مثل الذى ركبت، وإنى قد جئتك تائبًا مما كان منى إلى ربى، مؤاسيًا لك بنفسى حتى أموت بين يديك!..

ولن يخلو معسكر ابن زياد من مئات كالحر بن يزيد يؤمنون إيمانه ويودون لو يلحقون به إلى معسكر الحسين، ويزعجهم أن يتحول أمامهم إلى المعسكر وهم ناظرون إليه، لأنه يبكتهم ويكشف مغالطتهم بينهم وبين أنفسهم ويحضهم على الاقتداء به والتدبر فى أسباب ندمه، لا لأنه ينتقص عددهم أو ينذر بالهزيمة فى ميدان القتال.. فكلهم ولا ريب يشعر بشعوره ويعتقد فى فضل الحسين على يزيد مثل اعتقاده، وبعيد على العقل أن يصدق فى هؤلاء الشراذم أنهم قد أطاعوا يزيد لأنه صاحب بيعة حاصلة، وأنهم قد «تأدبوا بأدب الدولة» أدبا يغلب شعور الجماعة وإيمان المرء بحق الشريعة وحرمة البيت النبوى، ويهون عليه قتل سبط النبى فى هذا السبيل، وكيف وإن منهم لمن بايع الحسين على البعد ودعاه إليه ليقود «الجند المجند» إلى قتال يزيد؟ فكلامهم فى البيعة الحاصلة لغط يلوكونه

بألسنتهم ولا يستر ما فى طويتهم، وليس أثقل على أمثال هؤلاء من عبء المغالطة كلما تلجلج فى مكانه وحركته القدوة التى يريدونها ولا يقوون عليها، كتلك القدوة الماثلة بصاحبهم الحر بن يزيد.

لا جرم كان أعظم الجيشين قلقًا، وأشدهما حيرة، وأعجلهما إلى طلب الخلاص من هذا المأزق الثقيل هو أكبر الفئتين وأقوى العسكرين.

شجاعة جند الحسين

كان هناك عسكران أحدهما صغير يلح عليه العطش والضيق، ولكنه كان مطمئنًا إلى حقه يلقى الموت فى سبيله، ويزيده العطش والضيق طمأنينة إلى هذا المصير..

والعسكر الآخر أكبر العسكرين، ولكنه كان «يخون» نفسه فى ضمير كل فرد من أفراده، وتملكه الحيرة بين ندم وخوف وتبكيت ومغالطة واضطراب، يحز فى الأعصاب، ويقذف بالمرء إلى الخلاص، كيفما كان الخلاص..

وطال القلق على دخيلة عمر بن سعد فأطلقه سهمًا فى الفضاء كأنه كان متشبثًا بصدره فاستراح منه بانطلاقه..

فزحف إلى مقربة من معسكر الحسين، وتناول سهمًا فرماه على قوسه إلى المعسكر وهو يصيح :

– اشهدوا لى عند الأمير أننى أول من رمى الحسين..

ثم تتابعت السهام فبطلت حجة السلم وذهب كل تأويل فى نية القوم، وقال الحسين وهو ينظر إلى السهام وينظر إلى أصحابه:

– قوموا يا كرام فهذه رسل القوم إليكم..

وبذلك بدأ القتال.

وقد تأهب الحسين لهذه المنازلة المنتظرة، وإن كان على انتظاره إياها قد تريث حتى يبدءوه بالعدوان من جانبهم، وحتى يجب عليه الدفاع وجوبًا لا خلاف فيه..

فاختار له رابية يحتمى بها من ورائه، ووسع وهدتها حتى أصبحت خندقاً لا يسهل عبوره.. فأوقد فيه النار ليمنع عليهم الالتفاف به من خلفه، وهم فى كثرتهم التى ترجح عدة صحبه ستين ضعفاً قادرون على مهاجمته من جميع نواحيه.

وكان معه اثنان وثلاثون فارساً وأربعون راجلاً.. وهم نيف وأربعة آلاف يكثر فيهم الفرسان وراكبو الإبل ويحملون صنوفاً من السلاح.

ومع هذا التفاوت البعيد فى عدد الفريقين، كان العسكر القليل كفؤاً للعسكر الكثير لو جرى القتال على سنة المبارزة التى كانت دعوة مجابة فى ذلك العصر، إذا اختارها أحد الفريقين.

فإن آل علىّ جميعاً كانوا من أشهر العرب - بل من أشهر العرب والعجم - بالقوة البدنية والصبر على الجراح والاضطلاع بعناء الحرب ساعات بعد ساعات، ومنهم من كان يلوى الحديد فلا يقيمه غيره، ومنهم محمد بن الحنفية الذى صرع جبابرة القوة البدنية بين العرب والعجم فى زمانه، ومن أشهر هؤلاء الجبابرة رجل كان فى أرض الروم يفخر به أهلها.. فأرسله ملكهم إلى معاوية يعجز به العرب عن مصارعته واتقاء بأسه. فجلس محمد ابن الحنفية وطلب من ذلك الجبار الرومى أن يقيمه، فكان كأنما يحرك جبلاً لصلابة أعضائه وشدة أسره. فلما أقر الرجل بعجزه رفعه محمد فوق رأسه ثم جلد به الأرض مرات.

والحسين رضى الله عنه قد كان هو ومن معه شباب آل على ممن ورث هذه القوة البدنية، كما ورثوا ثبات الجأش وحمية الفؤاد، وكانوا كفؤاً لمبارزة الأنداد واحداً بعد واحد حتى يفرغ جيش عبيد الله من فرسانه القادرين على المبارزة، ولا يبقى منهم غير الهمل يتبددون فى منازلة الشجعان، كما تتبدد السائمة المذعورة بالعراء.

وكان مع الحسين نخبة من فرسان العرب كلهم لهم شهرة بالشجاعة والبأس وسداد الرمى بالسهم ومضاء الضرب بالسيف، ولن تكون صحبة الحسين غير ذلك بداهة وتقديرًا لا يتوقفان على الشهرة الذائعة والوصف المتواتر، لأن مزاملة الحسين فى مثل تلك الرحلة هى وحدها آية على الشجاعة فى ملاقاة الموت وكرم النحيزة فى ملاقات الفتنة والإغراء.. فإذا جرى القتال كله مبارزة بين أمثال هؤلاء ومن يبرزون لهم من جيش عبيد الله، فهم كفء للمنازلة وليس أملهم فى الغلب بضعيف.

وقد بدأ القتال بهجوم الخيل من قبل جيش ابن زياد، فأشرع أصحاب الحسين لها رماحهم وجثوا على الركب ينتظرونها. فلم تقم الخيل للرماح وأوشكت أن تجفل مولية بفرسانها.

فعدل الفريقان إلى المبارزة، فلم يتعرض لهل أحد من جيش ابن زياد إلا فشل أو نكص على عقبيه، فخشي رءوس الجيش عقبى هذه المبارزة التي لا أمل لهم في الغلبة بها، وصاح عمر بن الحجاج برفاقه:

- أتدرون من تقاتلون؟.. تقاتلون فرسان المصر وقوماً مستميتين. لا يبرز إليهم منكم أحد فإنهم قليل.. لو لم ترموهم إلا بالحجارة لقتلتموهم.

فاستصوب عمر بن سعد مقاله، ونهى الناس عن المبارزة.

فلما برز عابس بن أبي شبيب الشاكري بعد ذلك وتحداهم للمبارزة، تحاموه لشجاعته ووقفوا بعيداً عنه فقال لهم عمر:

- ارموه بالحجارة.

فرموه من كل جانب.. فاستمات وألقى بدرعه ومغفره وحمل على من يليه، فهزمهم وثبت لجموعهم حتى مات.

وعجزت خيل القوم مع كثرتها عن مقاومة خيل الحسين، وهي تنكشف كل ساعة عن فارس قتيل.. فبعث عروة بن قيس مقدم الفرسان في جيش ابن زياد يقول لعمر بن سعد: «ألا ترى ما تلقى خيلي هذا اليوم من هذه العدة اليسيرة؟.. ابعث إليهم الرجال والرماة» فبعث إليه بخمسمائة من الرماة وعلى رأسهم الحصين بن نمير، فرشقوا أصحاب الحسين بالنبل حتى عقروا الخيل وجرحوا الفرسان والرجال.

وكان أبو الشعثاء يزيد بن زياد الكندي ممن عدل إلى جيش الحسين وهو من أشهر رماة زمانه. فلما تكاثر عليهم رمي النبال والسهام، جثا بين يدي الحسين، وأرسل مائة سهم، لم يكد يخيب منها خمسة أسهم.. وقاتل حتى مات.

وكان الذين عدلوا إلى عسكر الحسين أشد أنصاره عزمة في القتال وهجمة على الموت، ومنهم الحر بن يزيد الذي تقدم ذكره. فجاهد ما استطاع ليقنع أصحابه الأولين بالكف

عن محاربة الحسين أو بالعدول إلى صفه.. وقام على فرسه يخطب أهل الكوفة ويزجرهم، فسكتوا هنيهة ثم رشقوه بالنبل فعقروا فرسه وجرحوه.. فما زال يطلب الموت ويتحرى من صفوفهم أكثفها جمعاً، وأقتلها نبلاً حتى سقط مثخناً بالجراح وهو ينادى الحسين: «السلام عليكم يا أبا عبد الله».

ولم يكن من أصحاب الحسين إلا من يطلب الموت ويتحرى مواقعه وأهدافه.. فكان نافع بن هلال البجلى يكتب اسمه على أفواق نبله ويرسلها فيقتل بها ويجرح، وقلما يخطئ مرماه. فأحاطوا به وضربوه على ذراعيه حتى كسرتا، ثم أسروه والدم يسيل من وجهه ويديه، فحسبوه يلين للوعيد ويجزع من التمثيل به، فأسمعهم ما يكرهون وراح يستزيد غيظهم ويقول لهم: «لقد قتلت منكم اثنى عشر رجلاً سوى من جرحت، ولو بقيت لى عضد وساعد لزدت».

مصرع الحسين

واستهدف الحسين رضى الله عنه لأقواس القوم وسيوفهم، فجعل أنصاره يحمونه بأنفسهم ولا يقاتلون إلا بين يديه. وكلما سقط منهم صريع، أسرع إلى مكانه من يخلفه ليلقى حتفه على أثره.

فضاقت الفئة الكثيرة بالفئة القليلة، وسول لهم الضيق بما يعانون من ثباتها أن يقوضوا الأخبية التى آوى إليها النساء والأطفال ليحيطوا بالعسكر القليل من جميع جهاته. ثم أخذوا فى إحراقها، وأصحاب الحسين يصدونهم ويدافعونهم، فرأى رضى الله عنه أن اشتغال أصحابه بمنعهم يصرفهم عن الاشتغال بقتالهم، فقال لهم:

– دعوهم يحرقونها.. فإنهم إذا أحرقوها لا يستطيعون أن يجوزوا إليكم منها.

وظل على حضور ذهنه وثبات جأشه فى تلك المحنة المتراكبة التى تعصف بالصبر وتطيش بالألباب.. وهو جهد عظيم لا تحتويه طاقة اللحم والدم، ولا ينهض به إلا أولو العزم من أندر من يلد آدم وحواء فإنه رضى الله عنه كان يقاسى جهد العطش والجوع، والسهر ونزف الجراح، ومتابعة القتال، ويلقى باله إلى حركات القوم ومكائدهم، ويدير

لرهطه ما يحبطون به تلك الحركات ويتقون به تلك المكائد، ثم هو يحمل بلاءه وبلاءهم.. ويتكاثر عليه وفر الأسى لحظة بعد لحظة كلما فجع بشهيد من شهدائهم.. ولا يزال كلما أصيب عزيز من أولئك الأعزاء حمله إلى جانب إخوانه وفيهم رمق ينازعهم وينازعونه وينسون فى حشرجة الصدور ما هم فيه.. فيطلبون الماء ويحز طلبهم فى قلبه كلما أعياه الجواب، ويرجع إلى ذخيرة بأسه فيستمد من هذه الآلام الكاوية عزما يناهض به الموت ويعرض به عن الحياة.. ويقول فى إثر كل صريع: «لا خير فى العيش من بعدك» ويهدف صدره لكل ما يلقاه..

وإنه لفى هذا كله، وبعضه يهد الكواهل، ويقصم الأصلاب.. إذا بالرماح والسيوف تنوشه من كل جانب، وإذا بالقتل يتعدى الرجال المقاتلين إلى الأطفال والصبيان من عترته وآل بيته، وسقط كل من معه واحداً بعد واحد، فلم يبق حوله غير ثلاثة يناضلون دونه ويتلقون الضرب عنه، وهو يسبقهم ويأذن لمن شاء منهم أن ينجو بنفسه وقد دنت الخاتمة ووضح المصير..

وكان غلام من آل الحسين – هو عبد الله بن الحسن أخيه – ينظر من الأخبية، فرأى رجلاً يضرب عمه بالسيف ليصيبه حين أخطأ زميله فهرول الغلام إلى عمه وصاح فى براءة بالرجل:

– يا بن الخبيثة.. أتقتل عمى؟

فتعمده الرجل بالسيف يريد قتله، فتلقى الغلام ضربته بيده فانقطعت وتعلقت بجلدها.. فاعتنقه عمه وجعل يواسيه وهو مشغول بدفاع عمن يليه.

ثم سقط الثلاثة الذين بقوا معه، فانفرد وحده بقتال تلك الزحوف المطبقة عليه. وكان يحمل على الذين عن يمينه فيتفرقون، ويشد على الخيل راجلاً، ويشق الصفوف وحيداً.. ويهابه القريبون فيبتعدون، ويهم المتقدمون بالإجهاز عليه ثم ينكصون.. لأنهم تحرجوا من قتله، وأحب كل منهم أن يكفيه غيرهُ مغبة وزره، فغضب شمر بن ذى الجوشن وأمر الرماة ان يرشقوه بالنبل من بعيد وصاح بمن حوله:

– ويحكم!.. ماذا تنتظرون بالرجل؟.. اقتلوه ثكلتكم أمهاتكم..

فاندفعوا إليه تحت عينى شمر مخافة من وشايته وعقابه.. وضربه زرعة بن شريك

التميمى على يده اليسرى فقطعها، وضربه غيره على عاتقه فخر على وجهه، ثم جعل يقوم ويكبو وهم يطعنونه بالرماح ويضربونه بالسيف حتى سكن حراكه، ووجد فيه بعد موته رضوان الله عليه ثلاث وثلاثون طعنة وأربع وثلاثون ضربة غير إصابة النبل والسهام، وأحصاها بعضهم فى ثيابه فإذا هى مائة وعشرون.

ونزل خولى بن يزيد الأصبحى ليحتز رأسه، فملكتـه رعدة فى يـديه وجسـده، فنحاه شَمِرٌ وهو يقول له:

فت الله فى عضدك!..

واحتز الرأس وأبى إلا أن يسلمه إليه فى رعدته، سخرية به، وتمادياً فى الشر، وتحدياً به لمن عسى أن ينعاه عليه! وقضى الله على هذا الخبيث الوضر أن يصف نفسه بفعله وصفاً لا يطرقه الشك والاتهام، فكان ضغنه هذا كله ضغناً لا معنى له ولا باعث إليه إلا أنه من أولئك الذين يخزيهم اللؤم فيسليهم بعض السلوى أن يؤلموا به الكرام، ويجعلوه تحدياً مكشوفاً كأنه معرض للزهو والفخار، وهم يعلمون أنه لا يفخر به ولا يزهى! ولكنهم يبلغون به مأربهم إذا آلموا به من يحس فيهم الضعة والعار..

وبقيت ذروة من الحمية يرتفع إليها مرتفع.

وبقيت وهدة من الخسة ينحدر إليها منحدرون كثيرون.

فلم يكن فى عسكر الحسين كله إلا رمق واحد من الحياة باق فى رجل طعين مثخن بالجراح: تركوه ولم يجهزوا عليه لظنهم أنه قد مات..

ذلك الرجل الكريم هو سويد بن أبى المطاع أصدق الأنصار وأنبل الأبطال.

فأبى الله لهذا الرمق الضعيف أن يفارق الدنيا بغير مكرمة يتم بها مكرومات يومه، وتشتمل عليها النفوس الكثيرات فإذا هى حسبها من شرف مجد وثناء.

* * *

تنـادى القوم بمصـرع الحسين فبلغت صيحتهم مسمعـه الذى أثقله النـزع وأوشك أن يجهل ما يسمع. فلم يخطر له أن يسكن لينجو وقد ذهب الأمل وحم الختام، ولم يخطر له أنه ضعيف منزوف يعجل به القوم قبل أن ينال من القوم أهون منال، ولم يحسب حساب

شيء في تلك اللحظة العصيبة إلا أن يجاهد في القوم بما استطاع، بالغاً ما بلغ من ضعف هذا المستطاع.

فالتمس سيفه فإذا هم قد سلبوه، ونظر إلى شيء يجاهد به فلم تقع يده إلا على مدية صغيرة لا غناء بها مع السيوف والرماح.. ولكنه قنع بها وغالب الوهن والموت، ثم وثب على قدميه من بين الموتى وثبة المستيئس الذي لا يفر من شيء ولا يبالي من يصيب وما يصاب. فتولاهم الذعر وشلت أيديهم التي كانت خليقة أن تمتد إليه، وانطلق هو يثخن فيهم قتلاً وجرحاً، حتى أفاقوا له من ذعرهم، ومن شغلهم بضجتهم وغيمتهم. فلم يقووا عليه حتى تعاون على قتله رجلان.. فكان هذا حقاً هو الكرم والمجد من عسكر الحسين إلى الرمق الأخير.

خسة ووحشية

وكان حقًّا لا مجازاً ما توخيناه حين قلنا إنهما طرفان متناقضان، وإنها حرب بين أشرف ما في الإنسان وأوضع ما في الإنسان.

فبينما كان الرجل في عسكر الحسين ينهض من بين الموتى ولا يضن بالرمق الأخير في سبيل إيمانه، إذا بالآخرين يقترفون أسوأ المآثم في رأيهم - قبل رأي غيرهم - من أجل غنيمة هينة لا تسمن ولا تغني من جوع. فلو كان كل ما في عسكر الحسين ذهباً ودرًّا لما أغنى عنهم شيئاً وهم قرابة أربعة آلاف.. ولكنهم، ما استقينوا بالعاقبة - قبل أن يسلم الحسين نفَسه الأخير - حتى كان همهم إلى الأسلاب التي يطلبونها حيث وجدوها، فأهرعوا إلى النساء من بيت رسول الله ينازعونهن الحلي والثياب التي على أجسادهن، لا يزعهم عن حرمات رسول الله وازع من دين أو مروءة. وانقبلوا إلى جثة الحسين يتخطفون ما عليها من كساء تخللته الطعون حتى أوشكوا أن يتركوها على الأرض عارية، لولا سراويل لبسها رحمه الله ممزقة وتعمد تمزيقها ليتركوها على جسده ولا يسلبوها. ثم ندبوا عشرة من الفرسان يوطئون جثته الخيل كما أمرهم ابن زياد، فوطئوها مقبلين ومدبرين حتى رضوا صدره وظهره.

وقد يساق الغنم هنا معذرة للإثم بالغاً ما بلغ هذا من العظم، وبالغاً ما بلغ ذلك من

التفاهة. لكنهم فى الحقيقة قد ولعوا بالشر للشر من غير ما طمع فى مغنم كبير أو صغير. فحرموا الرى على الطفل الظامئ العليل وأرسلوا إلى أحشائه السهام بديلاً من الماء، وقتلوا من لا غرض فى قتله وروعوا من لا مكرمة فى ترويعه.. فربما خرج الطفل من الأخبية ناظراً وجلاً لا يفقه ما يجرى حوله فينقض عليه الفارس الرامح فوق فرسه ويطعنه الطعنة القاضية بمرأى الأم والأخت والعمة والقريبة، ولم تكن فى الذى حدث من هذا القبيل مبالغة يزعمونها كما زعم أجراء الذمم بعد ذلك عن حوادث كربلاء وجرائر كربلاء. فقد قتل فعلاً فى كربلاء كل كبير وصغير من سلالة على رضى الله عنه، ولم ينج من ذكورهم غير الصبى على زين العابدين.. وفى ذلك يقول سراقة الباهلى:

عين جودى بعبرة وعويل ... واندبى ما ندبت آل الرسول
سبعة منهم لصلب علىّ ... قد أبيدوا وسبعة لعقيل

وما نجا على زين العابدين إلا بأعجوبة من أعاجيب المقادير، لأنه كان مريضاً على حجور النساء يتوقعون له الموت هامة اليوم أو غد، فلما همّ شمر بن ذى الجوشن بقتله، نهاه عمر بن سعد عنه إما حياء من قرابة الرحم أمام النساء – وقد كان له نسب يجتمع به فى عبد مناف – وإما توقعاً لموته من السقم المضنى الذى كان يعانيه.. فنجا بهذه الأعجوبة فى لحظة عابرة، وحفظ به نسل الحسين من بعده، ولولا ذلك لباد.

ثم قطعوا الرءوس ورفعوها أمامهم على الحراب، وتركوا الجثث ملقاة على الأرض لا يدفنوها ولا يصلون عليها كما صلوا على جثث قتلاهم.. ومروا بالنساء حواسر من طريقها فولولن باكيات وصاحت زينب رضى الله عنها:

– يا محمداه!.. هذا الحسين بالعراء، وبناتك سبايا، وذريتك مقتلة تسفى عليها الصبا..

فوجم القوم مبهوتين وغلبت دموعهم قلوبهم.. فبكى العدو كما بكى الصديق!.

* * *

لم تنقض فى ذلك اليوم خمسون سنة على انتقال النبى محمد عليه السلام من هذه الدنيا إلى حظيرة الخلود: محمد الذى برّ بدينهم ودنياهم فلم ينقل من الدنيا حتى نقلهم من الظلمة إلى النور، ومن حياة التيه فى الصحراء إلى حياة عامرة يسودون بها أمم

العالمين. ثم هذه خمسون سنة لم تنقض بعد، وإذا هم فى موكب جهير يجوب الصحراء إلى مدينة بعد مدينة: سباياه بنات محمد حواسر على المطايا، وأعلامه رءوس أبنائه على الحراب، وهم داخلون به دخول الظافرين!

وبقيت الجثث نبذوها بالعراء «تسفى عليها الصبا».

فخرج لها مع الليل جماعة من بنى أسد كانوا ينزلون بتلك الأنحاء.. فلما أمنوا العيون بعد يوم أو يومين سروا مع القمراء إلى حيث طلعت بهم عل منظر لا يطلع القمر على مثله – شرفاً ولا وحشة – فى الآباد بعد الآباد..

وكان يوم المقتل فى العاشر من المحرم.. فكان القمر فى تلك الليلة على وشك التمام.. فحفروا القبور على ضوئه، وصلوا على الجثث ودفنوها، ثم غادروها هناك فى ذمة التاريخ. فهى اليوم مزار يطيف به المسلمون متفقين ومختلفين، ومن حقه أن يطيف به كل إنسان، لأنه عنوان قائم لأقدس ما يشرف به هذا الحى الآدمى بين سائر الأحياء

فما أظلت قبة السماء مكاناً لشهيد قط هو أشرف من تلك القباب بما حوته من معنى الشهادة وذكرى الشهداء.

موطن الرأس

اتفقت الأقوال فى مدفن جسد الحسين عليه السلام، وتعددت أيما تعدد فى موطن الرأس الشريف..

فمنها أن الرأس قد أعيد بعد فترة إلى كربلاء فدفن مع الجسد فيها..

ومنها أنه أرسل إلى عمرو بن سعيد بن العاص والى يزيد على المدينة، فدفنه بالبقيع عند قبر أمه فاطمة الزهراء..

ومنها أنه وجد بخزانة ليزيد بن معاوية بعد موته، فدفن بدمشق عند باب الفراديس..

ومنها أنه كان قد طيف به فى البلاد حتى وصل إلى عسقلان، فدفنه أميرها هناك، وبقى بها حتى استولى عليها الإفرنج فى الحروب الصليبية.. فبذل لهم الصالح طلائع وزير الفاطميين بمصر ثلاثين ألف درهم على أن ينقله إلى القاهرة حيث دفن بمشهده المشهور. قال الشعرانى فى طبقات الأولياء: «إن الوزير الصالح طلائع بن رزيك خرج هو وعسكره حفاة إلى الصالحية، فتلقى الرأس الشريف ووضعه فى كيس من الحرير الأخضر على كرسى من الأبنوس، وفرش تحته المسك والعنبر والطيب، ودفن فى المشهد الحسينى قريبًا من خان الخليلى فى القبر المعروف»

وقال السائح الهروى فى الإشارات إلى أماكن الزيارات: «وبها – أى عسقلان – مشهد الحسين رضى الله عنه: كان رأسه بها، فلما أخذتها الفرنج نقله المسلمون إلى مدينة القاهرة سنة تسع وأربعين وخمسمائة».

وفى رحلة ابن بطوطة أنه سافر إلى عسقلان «وبه المشهد الشهير حيث كان رأس الحسين بن على عليه السلام، قبل أن ينقل إلى القاهرة».

وذكر سبط بن الجوزى فيما ذكر من الأقوال المتعددة أن الرأس بمسجد الرقة على الفرات، وأنه لما جىء به بين يدى يزيد بن معاوية قال: «لأبعثنه إلى آل أبى معيط عن

رأس عثمان» وكانوا بالرقة، فدفنوه فى بعض دورهم ثم دخلت تلك الدار بالمسجد الجامع، وهى إلى جانب سوره هناك.

فالأماكن التى ذكرت بهذا الصدد فى ست مدن هى: المدينة، وكربلاء، والرقة، ودمشق، وعسقلان، والقاهرة، وهى تدخل فى بلاد الحجاز والعراق والشام وبيت المقدس والديار المصرية. وتكاد تشتمل على مداخل العالم الإسلامى كله من وراء تلك الأقطار، فإن لم تكن هى الأماكن التى دفن فيها رأس الحسين، فهى الأماكن التى تحيا بها ذكراه لامراء..

وللتاريخ اختلافات كثيرة، نسميها بالاختلافات اللفظية أو العرضية، لأن نتيجتها الجوهرية سواء بين جميع الأقوال، ومنها الاختلاف على مدفن رأس الحسين عليه السلام. فأيا كان الموضع الذى دفن به ذلك الرأس الشريف، فهو فى كل موضع أهل للتعظيم والتشريف. وإنما أصبح الحسين - بكرامة الشهادة وكرامة البطولة وكرامة الأسرة النبوية - معنى يحضره الرجل فى صدره وهو قريب أو بعيد من قبره. وإن هذا المعنى لفى القاهرة، وفى عسقلان، وفى دمشق، وفى الرقة، وفى كربلاء، وفى المدينة، وفى غير تلك الأماكن سواء.

وقاحة ابن زياد

ويقل الاختلاف أو يسهل التجاوز عنه كذلك فيما حدث بين فاجعة كربلاء ولقاء يزيد..

فالمتواتر الموافق لسير الأمور أنهم حملوا الرءوس والنساء إلى الكوفة، فأمر ابن زياد أن يطاف بها فى أحياء الكوفة ثم ترسل إلى يزيد.

وكانت فعلة يدارونها بالتوقح فيها على سنة المأخوذ الذى لا يملك مداراة ما فعل. فبات خولى بن يزيد ليلته بالرأس فى بيته، وهو يمنى نفسه بغنى الدهر، كما قال. فأقسمت امرأة له حضرمية: «لا يجمع رأسها ورأسه بيت وفيه رأس ابن رسول الله».

ثم غدا إلى قصر ابن زياد وكان عنده زيد بن أرقم من أصحاب رسول الله.. فرآه

ينكث ثنايا الرأس حين وضع أمامه فى إجانة، فصاح به مغضبًا:

- ارفع قضيبك عن هاتين الثنيتين.. فو الذى لا إله غيره لقد رأيت شفتى رسول الله على هاتين الشفتين يقبلهما..

وبكى..

فهزئ به ابن زياد وقال له:

- لولا أنك شيخ قد خرفت وذهب عقلك، لضربت عنقك!

فخرج زيد وهو ينادى فى الناس غير حافل بشىء:

- أنتم معشر العرب العبيد بعد اليوم.. قتلتم ابن فاطمة وآثرتم ابن مرجانة، فهو يقتل شراركم ويستعبد خياركم.

وأدخلت السيدة زينب بنت على رضى الله عنها، وعليها أرذل ثيابها ومعها عيال الحسين وإماؤها.. فجلست ناحية لا تتكلم ولا تنظر إلى ما أمامها. فسأل ابن زياد:

- من هذه التى انحازت ناحية ومعها نساؤها؟

فلم تجبه.. فأعاد سؤاله ثلاثًا وهى لا تجيبه، ثم أجابت عنها إحدى الإماء:

- هذه زينب بنت فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم.

فاجترأ ابن زياد قائلا:

- الحمد لله الذى فضحكم وقتلكم وأبطل أحدوثتكم..

وقد كانت زينب رضى الله عنها حقًّا جديرة بنسبها الشريف فى تلك الرحلة الفاجعة التى تهد عزائم الرجال.. كانت كأشجع وأرفع ما تكون حفيدة محمد وبنت على وأخت الحسين. وكتب لها أن تحفظ بشجاعتها وتضحيتها بقية العقب الحسينى من الذكور.. ولولاها لا نقرض من يوم كربلاء..

فلم تمهل ابن زياد أن ثارت به قائلة:

- الحمد لله الذى أكرمنا بنبيه، وطهرنا من الرجس تطهيرًا.. إنما يفضح الفاسق

ويكذب الفاجر، وهو غيرنا والحمد لله.

فقال ابن زياد:

- قد شفى الله نفسى من طاغيتك والعصاة.

فغلبها الحزن والغيظ من هذا التشفى الذى لا ناصر لها منه، وقالت:

- لقد قتلت كهلى، وأبدت أهلى، وقطعت فرعى، واجتثثت أصلى، فإن يشفك هذا فقد اشتفيت..

فتهاتف ابن زياد ساخرًا وقال:

- هذه سجاعة.. لعمرى لقد كان أبوها سجّاعًا شاعرًا.

فقالت زينب:

- إن لى عن السجاعة لشغلاً.. ما للمرأة والسجاعة؟

على زين العابدين

ثم نظر ابن زياد إلى غلام عليل هزيل مع السيدة زينب فسأله:

- من أنت؟

قال: على بن الحسين.

قال: أو لم يقتل الله على بن الحسين؟

قال: كان لى أخ يسمى عليًّا قتله الناس.

فأعاد ابن زياد قوله: الله قتله.

فقال على: الله يتوفى الأنفس حين موتها، وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله..

فأخذت زيادًا عزة الإثم وانتهره قائلاً:

- وبك جرأة لجوابى!

وصاح الخبيث الأثيم بجنده:
- اذهبوا به فاضربوا عنقه..

فجاشت بعمة الغلام قوة لا يردها سلطان، ولا يرهبها سلاح.. لأنها قوة من هان لديه الموت وهانت عليه الحياة، فاعتنقت الغلام اعتناق من اعتزم ألا يفارقه إلا وهو جثة هامدة، وأقسمت لئن قتلته لتقتلنى معه.

فارتد ابن زياد مشدوهًا وهو يقول متعجبًا:
- يا للرحم.. إنى لأظنها ودت أنى قتلتها معه.

ثم قال: «دعوه لما به».. كأنه حسب أن العلة قاضية عليه.

وعلى هذا هو زين العابدين جد كل منتسب إلى الحسين عليهما السلام، وكان كما قال ابن سعد فى الطبقات «ثقة كثير الحديث عاليًا رفيعًا ورعًا»، وكما قال يحيى بن سعيد: «أفضل هاشمى رأيته فى المدينة»..

ولولا استماتة عمته كما ترى، لقد كادت تذهب بهذه البقية الباقية كلمة على شفتى ابن زياد!

الرأس عند يزيد

ولما قضى الخبيث نهمة كيده من الطواف برأس الحسين فى الكوفة وأرباضها، أنفذه ورءوس أصحابه إلى دمشق مرفوعة على الرماح، ثم أرسل النساء والصبيان على الأقتاب، وفى الركب على زين العابدين مغلول إلى عنقه يقوده شمر بن ذى الجوشن ومحضر بن ثعلبة.. فتلاحق الركبان فى الطريق ودخلا الشام معًا إلى يزيد.

وتكرر منظر القصر بالكوفة فى قصر دمشق عند يزيد.. ولا نستغرب أن يتكرر بعضه حتى يظن أنه قد وقع فى التاريخ خلط بين المنظرين، لأن المناسبة فى هذا المقام تستوحى ضربًا واحدًا من التعقيب، وضربًا واحدًا من الحوار..

فارتاع من بمجلس يزيد من نبأ المقتلة فى كربلاء حين بلغتهم، وقال يحيى بن الحكم وهو من الأمويين:

لهام بجنب الطف أدنى قـرابة   من ابن زياد العبد ذى الحسب الوغل
سمية أمسى نسلها عدد الحصى   وبنت رسول الله ليست بذى نسل

فأسكته يزيد.. وقال وهو يشير إلى الرأس وينكث ثناياه بقضيب فى يده: «أتدرون من أين أتى هذا؟.. إنه قال: أبى على خير من أبيه، وأمى فاطمة خير من أمه، وجدى رسول الله خير من جده، وأنا خير منه وأحق بهذا الأمر».. فأما أبوه فقد تحاج أبى وأبوه إلى الله وعلم الناس أيهما حكم له، وأما أمه فلعمرى فاطمة بنت رسول الله خير من أمى، وأما جده فلعمرى ما أحد يؤمن بالله واليوم الآخر يرى لرسول الله فينا عدْلا ولا ندا، ولكنه أتى من قبل فقهه ولم يقرأ: ﴿قل اللهمّ مالك الملك تؤتى الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء﴾..

وهو كلام ينسب مثله إلى معاوية فى رده على حجج على فى الخلافة.. ولعل يزيد قد استعاره من كلام أبيه وزاد عليه.

ونظر بعض أهل الشام إلى السيدة فاطمة بنت الحسين – وكانت جارية وضيئة، فقال ليزيد: «هب لى هذه»، فأرعدت وأخذت بثياب عمتها.. فكان لعمتها فى الذود عنها موقف كموقفها بقصر الكوفة، ذيادا عن أخيها زين العابدين، وصاحت بالرجل:

– كذبت ولؤمت.. ما ذلك لك ولا له.

فتغيظ يزيد وقال: «كذبت، إن ذلك لى.. ولو شئت لفعلت»

قالت، «كلا والله.. ما جعل الله لك ذلك، إلا أن تخرج من ملتنا وتدين بغير ديننا» فاشتد غيظ يزيد وصاح بها: «إياى تستقبلين بهذا؟.. إنما خرج من الدين أبوك وأخوك»

قالت: «بدين الله ودين أبى وأخى وجدى اهتديت أنت وأبوك وجدك»..

فلم يجد جوابا غير أن يقول: «بل كذبت ياعدوة الله»

فقالت: «أنت أمير تشتم ظالما، وتقهر بسلطانك»

فأطرق وسكت..

وأدخل على بن الحسين مغلولاً، فأمر يزيد بفك غله وقال له:

– إيه يا بن الحسين.. أبوك قطع رحمى وجهل عقلى ونازعنى سلطانى، فصنع الله به ما رأيت..

قال على:

– ما أصاب من مصيبة فى الأرض ولا فى أنفسكم إلا فى كتاب من قبل أن نبرأها. إن ذلك على الله يسير، لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم والله لايحب كل مختال فخور. فتلا يزيد الآية: «وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم». ثم ذوى وجهه وترك خطابه..

وكان لقاء نساء يزيد خيرًا من لقائه.. فواسين السيدة زينب والسيدة فاطمة ومن معهما، وجعلن يسألنهن عما سلبنه بكربلاء فيرددن إليهم مثله وزيادة عليه..

وأحب يزيد أن يستدرك بعض مافاته، فلجأ إلى النعمان بن بشير واليه الذى عزله من الكوفة لرفقه بدعاة الحسين.. وأمره أن يسير آل الحسين إلى المدينة ويجهزهم بما يصلحهم. وقيل إنه ودع زين العابدين، وقال له: «لعن الله ابن مرجانة.. أما والله لو أنى صاحب أبيك ما سألنى خصلة أبدًا إلا أعطيته إياها، ولدفعت الحتف عنه بكل ما استطعت ولو بهلاك بعض ولدى. ولكن الله قضى ما رأيت يابنى!.. كاتبنى من المدينة، وأنه إلىَّ كل حاجة تكون لك».

تبعة يزيد

والناس فى تقدير التبعة التى تصيب يزيد من عمل ولاته مشارب وأهواء، يرجع كل منهم إلى مصدر من مصادر الرواية فيبنى عليه حكمه.

فمنهم من يرى أنه برىء من التبعة كل البراءة.. ومنهم من يرى أنه أقر فعلة ابن زياد ثم ندم عليها.. ومنهم من يقول إنه قد أمر بكل ما اقترفه ابن زياد وتوقع حدوثه، ولم يمنعه وهو مستطيع أن يمنعه لو شاء.

والثابت الذى لا جدال فيه، أن يزيد لم يعاقب أحدًا من ولاته كبر أو صغر على شىء مما اقترفوه فى فاجعة كربلاء، وإن سياسته فى دولته بعد ذلك كانت هى سياسة أولئك

الولاة على وتيرة واحدة مما حدث فى كربلاء، فاستباحة المدينة - دار النبى عليه السلام - وتحكيم مسلم بن عقبة فى رجالها ونسائها، ليست بعمل رجل ينكر سياسة كربلاء بفكره وقلبه، أو سياسة رجل تجرى هذه الحوادث على نقيض تدبيره وشعوره ومازال يزيد وأخلافه يأمرون الناس بلعن على والحسين وآلهما على المنابر فى أرجاء الدولة الإسلامية، ويستفتون من يفتيهم بإهدار دمهم وصواب عقابهم بما أصابهم. ومن تجب لعنته على المنابر بعد موته بسنين، فقتله جائز أو واجب فى رأى لاعنيه.

ومن أفرط فى سوء الظن، رجح عنده أن عبيد الله بن زياد كان على إذن مستور بكل ما صنع، ويملى لهم فى هذا الظن أن استئصال ذرية الحسين من الذكور خطة تهم يزيد لوراثة الملك فى بيته وعقبه، ويفيده أن يقدم عليها مستترًا من وراء ولاته ثم يتنصل منها ويلقى بتبعتها عليهم. ولو لم يكن ذلك لكان عجيبًا أن توكل حياة الحسين وأبنائه وآله إلى والى الكوفة بغير توجيه من سيده ومولاه.. فقد كان الزمن الذى انقضى منذ خروج الحسين من مكة إلى نزوله بالطف على الفرات كافيًا لبلوغ الخبر إلى يزيد ورجوع الرسول بالتوجيه الضرورى فى هذا الموقف لوالى الكوفة وغيره من الولاة، فإن لم يكن الأمر تدبيرًا متفقًا عليه فهو المساءة التى تلى ذلك التدبير فى السوء والشناعة، وهى مساءة التهاون الذى لا تستقيم على مثله شئون دولة. وقد روى ابن شريح اليشكرى أن عبيد الله صارحه بعد موت يزيد فقال: «أما قتلى الحسين فإنه أشار إلى يزيد بقتله أو قتلى فاخترت قتله» وهو كلام متهم لا تقوم به حجة على غائب قضى نحبه..

ويبدو لنا أن الظن بتهاون يزيد هنا أقرب إلى الظن بإيعازه وتدبيره.. لأنه جرى عليه طوال حكمه وألقى حبل ولاته على غاربهم وهو لاهٍ بصيده وعبثه، وأنه ربما ارتاح فى سريرته بادئ الأمر إلى فعلة ابن زياد وأعوانه.. ولكنه ما عتم أن رأى بوادر العواقب توشك أن تطبق عليه بالوبال من كل جانب، حتى تيقظ من غفلته بعد فوات الوقت فعمد إلى المحاسنة والاستدراك جهد ما استطاع، ولم يكن فى يقظته على هذا معتصمًا بالحكمة والسداد..

لقد رأى البوادر منه غير بعيدة، ولما تنقض ساعات على ذيوع الخبر فى بيته قبل عاصمة ملكه.. فنعى ابن الحكم فعلة ابن زياد، وناح نساؤه مشفقات من هول ما سمعن

ورأين، وبكى ابنه الورع الصالح معاوية فكان يقول إذا سئل: «نبكى على بنى أمية لا على الماضين من بنى هاشم»..

ومهما تكن غفلة يزيد، فما أحد قط يلمح تلك البوادر ثم يجهل أنها ضربة هوجاء لن تذهب بغير جريرة، ولن تهون جريرتها فى الحاضر القريب، ولا فى الآتى البعيد..

والواقع أنها قد استتبعت بعدها جرائر شتى لا جريرة واحدة، وما تنقضى جرائرها إلى اليوم..

فلم تنقض سنتان حتى كانت المدينة فى ثورة حنق جارف يقتلع السدود ويخترق الحدود.. لأنه حملوا إليها خير الحسين محمل التشهير والشماتة. وضحك واليهم عمرو ابن سعيد حين سمع أصوات البكاء والصراخ من بيوت آل النبى، فكان يتمثل قول عمرو بن معديكرب:

عجب نســاء بنى زيـاد عجبــة   كعجيـج نسـوتنـا غـداة الأرتب

وكانت بنت عقيل بن أبى طالب تخرج فى نسائها حاسرة وتنشد:

ماذا تقولون إن قال النبى لكم   مـاذا فعلتم.. وأنتم آخـر الأمم؟
بعتـرتى، وبأهـلى، بعـد مفتقـدى..   منهم أسارى، ومنهم ضرجـوا بدم
ما كان هذا جزائى إذ نصحت لكم   أن تخلفونى بسوء فى ذوى رحمى

فكان الأمويون يجيبون بمثل تلك الشماتة، فيقولون كما قال عمر بن سعيد: «ناعية كناعية عثمان».

ولا موضع للشماتة هنا بالحسين، لأنه قد أصيب على باب عثمان وهو يذود عنه ويجتهد فى سقيه وسقى آل بيته.. ولكنها شماتة هوجاء لا تعقل ما تصنع ولا ما تقول

ثورة المدينة

وللقدر المتاح لجت بالولاة الأمويين رغبتهم فى تلفيق «المظاهرات الحجازية»، فلم يرعوا ما بأهل المدينة من الحزن اللاعج والأسى الدفين وجعلوا همهم كله أن يكرهوا القوم على نسيان خطب الحسين واصطناع الولاء المغتصب ليزيد. فحملوا إلى دمشق وفدًا

من أشراف المدينة لم يلبثوا أن عادوا إليها منكرين لحكم يزيد مجمعين على خلع بيعته، وراحوا يقولون لأهل المدينة: «إنا قدمنا من عند رجل ليس له دين، يشرب الخمر، ويضرب بالطنابير، ويعزف عنده القيان، ويلعب بالكلاب، ويسمر عنده الخراب».

وقال رئيسهم عبد الله بن حنظلة الأنصارى وهو ثقة عند القوم لصلاحه وزهده: «لو لم أجد إلا بنىّ هؤلاء - وكان له ثمانية بنين - لجاهدت بهم. وقد أعطانى وما قبلت عطاءه إلا لأتقوى به».

والتهبت نار الثورة بالألم المكظوم، والدعوة الموصولة، فأخرج المدنيون والى يزيد وجميع من بالمدينة من الأمويين ومواليهم، وأعلنوا خلعهم للبيعة..

وصدق ابن حنظلة النية، فكان يقدم بنيه واحدًا بعد واحد حتى قتلوا جميعًا، وقتل بعدهم أنفة من حياة يسام فيها الطاعة ليزيد وولاته.

وبدا فى ثورة المدينة أن يزيد لم يستفد كثيرًا ولا قليلاً من عبرة كربلاء، لأنه سلط على أهلها رجلاً لا يقل فى لؤمه وغله وسوء دخله، وولعه بالشر والتعذيب، وعبثه بالتقتيل والتمثيل، عن عبيد الله بن زياد، وهو مسلم بن عقبة المرى. فأمره أن يسوم الثائرين البيعة بشرطه، وأن يستبيح مدينتهم ثلاثة أيام إن لم يبادروا إلى طاعته، وكان شرطه الذى سامهم إياه بعد اقتحام المدينة وانقضاء الأيام الثلاثة التى انتظر فيها طاعتهم «أنهم يبايعون أمير المؤمنين على أنهم خول له يحكم فى دمائهم وأموالهم ما شاء».

وإذا كان شىء أثقل على النفوس من هذا الشرط، وأقبح فى الظلم من استباحة الأرواح والأعراض فى جوار قبر النبى عليه السلام.. فذاك هو ولاية هذا النكال بيد مجرم مفطور على الغل والضغينة مثل مسلم بن عقبة، كأنه يلقى على الناس وزر مرض النفس ومرض الجسد ومرض الدم الذى أبلاه، ولم يبل ما فى طويته من رجس ومكيدة. «فاستعرض أهل المدينة بالسيف جزرًا كما يجزر القصاب الغنم، حتى ساخت الأقدام فى الدم، وقتل أبناء المهاجرين والأنصار».

وأوقع كما قال ابن كثير «من المفاسد العظيمة فى المدينة النبوية ما لا يحد ولا يوصف».. ولم يكفه أن يسفك الدماء ويهتك الأعراض حتى يلتذ بإثارة الآمال والمخاوف فى نفوس صرعاه قبل عرضهم على السيف، فلما جاءوه بمعقل بن سنان

صاحب رسول الله هش له وتلقاه بما يطمعه، ثم سأله «أعطشت يا معقل؟.. حوصوا له شربة من سويق اللوز الذى زودنا به أمير المؤمنين» فلما شربها قال له: «أما والله لا تبولها من مثانتك أبدا.. وأمر بضرب عنقه..».

ويروى ابن قتيبة أن عدد من قتل من الأنصار والمهاجرين والوجوه ألف وسبعمائة، وسائرهم من الناس عشرة آلاف سوى النساء والصبيان..

وحادث واحد من حوادث التمثيل والاستباحة يدل على سائر الحوادث من أمثاله.. دخل رجل من جند مسلم بن عقبة على امرأة نفساء من نساء الأمصار ومعها صبى لها. فقال: «هل من مال؟».

قالت: «لا.. والله ما تركوا لنا شيئا».

قال: «والله لتخرجن إلى شيئًا أو لأقتلنك وصبيك هذا».

فقالت له: «ويحك.. إنه ولد ابن أبى كبشة الأنصارى صاحب رسول الله». فأخذ برجل الصبى والثدى فى فمه؛ فجذبه من حجرها فضرب به الحائط فانتثر دماغه على الأرض.

وهو مثل من أمثال قد تكررت بعدد تلك البيوت التى قتل فيها أولئك الألوف من النسوة والأطفال والآباء والأمهات..

وقد مات هذا السفاح وهو فى طريقه إلى مكة يهم بأن يعيد بها ما بدأ بالمدينة.. فدفن فى الطريق وتعقبه بعض الموتورين من أهل المدينة فنبشوا قبره وأحرقوه..

جريرة العدل

ولم تنقض سنوات أربع على يوم كربلاء حتى كان يزيد قد قضى نحبه، ونجمت بالكوفة جريرة العدل التى حاقت بكل من مد يدًا إلى الحسين وذويه.

فسلط الله على قاتلى الحسين كفؤًا لهم فى النقمة والنكال يفل حديدهم بحديده، ويكيل لهم بالكيل الذى يعرفونه. وهو المختار بن أبى عبيد الثقفى داعية التوابين من طلاب ثأر الحسين. فأهاب بأهل الكوفة أن يكفروا عن تقصيرهم فى نصرته، وأن يتعاهدوا على

الأخذ بثأره فلا يبقين من قاتليه أحدا ينعم بالحياة، وهو دفين مذال القبر فى العراء..

فلم ينج عبيد الله بن زياد، ولا عمر بن سعد، ولا شمر بن ذى الجوشن، ولا الحصين ابن نمير، ولا خولى بن يزيد، ولا أحد ممن أحصيت عليهم ضربة أو كلمة، أو مدوا أيديهم بالسلب والمهانة إلى الموتى أو الأحياء..

وبالغ فى النقمة فقتل وأحرق ومزق وهدم الدور وتعقب الهاربين، وجوزى كل قاتل أو ضارب أو ناهب بكفاء عمله.. فقتل عبيد الله وأحرق، وقتل شمر بن ذى الجوشن وألقيت أشلاؤه للكلاب، ومات مئات من رؤسائهم بهذه المُثلات وألوف من جندهم وأتباعهم مغرقين فى النهر أو مطاردين إلى حيث لا وزر لهم ولا شفاعة.. فكان بلاؤهم بالمختار عدلاً لا رحمة فيه، وما نحسب قسوة بالآثمين سلمت من اللوم أو بلغت من العذر ما بلغته قسوة المختار.

ولحقت الجريرة الثالثة بأعقاب الجريرة الثانية فى مدى سنوات معدودات.

فصمد الحجاز فى ثورته أو فى تنكره لبنى أمية إلى أيام عبد الملك بن مروان، وكان أحرج الفريقين من سبق إلى أحرج العملين. وأحرج العملين ذاك الذى دفع إليه – أو اندفع إليه – الحجاج عامل عبد الملك.. فنصب المنجنيق على جبال مكة، ورمى الكعبة بالحجارة والنيران فهدمها وعفى على ما تركه منها جنود يزيد بن معاوية.. فقد كان قائده الذى خلف مسلم بن عقبة وذهب لحصار مكة أول من نصب لها المنجنيق، وتصدى لها بالهدم والإحراق..

ومازالت الجرائر تتلاحق حتى تقوض من وطأتها ملك بنى أمية، وخرج لهم السفاح الأكبر وأعوانه فى دولة بنى العباس.. فعموا بنقمتهم الأحياء والموتى، وهدموا الدور، ونبشوا القبور، وذكر المنكوبون بالرحمة فتكات المختار بن أبى عبيد، وتجاوز الثأر كل مدى خطر على بال هاشم وأمية يوم مصرع الحسين.

لقد كانت ضربة كربلاء، وضربة المدينة، وضربة البيت الحرام، أقوى ضربات أمية لتمكين سلطانهم وتثبيت بنيانهم، وتغليب ملكهم على المنكرين والمنازعين.. فلم ينتصر عليهم المنكرون والمنازعون بشىء كما انتصروا عليهم بضربات أيديهم، ولم يذهبوا بها ضاربين حقبة، حتى ذهبوا بها مضروبين إلى آخر الزمان.

وتلك جريرة يوم واحد هو يوم كربلاء.. فإذا بالدولة العريضة تذهب فى عمر رجل واحد مديد الأيام، وإذا بالغالب فى يوم كربلاء أخسر من المغلوب إذا وضعت الأعمار المنزوعة فى الكفتين.

من الظافر

غبن أن يفوت الإنسان جزاؤه الحق على عمله وخلقه..

وأثقل منه فى الغبن أن ينقلب الأمر فيجزى المحسن بالإساءة، ويجزى المسىء بالإحسان..

وقد تواضع الناس منذ كانوا على معنى للتاريخ والأخلاق، ووجهة للشريعة والدين..

والجزاء الحق هو الوجهة الواحدة التى تلتقى فيها كل هذه المقاصد الرفيعة..

فإذا بطل الجزاء الحق ففى بطلانه الإخلال كل الإخلال بمعنى التاريخ والأخلاق، ولباب الشرائع والأديان. وفيه حكم على الحياة بالعبث وعلى العقل الإنسانى بالتشويه والخسار.

والجزاء الحق غرض مقصود لذاته يحرص عليه العقل الإنسانى كرامة لنفسه ويقيناً من صحته وحسن أدائه. كالنظر الصحيح نحسبه هو غرضًا للبصر يرتاح إلى تحقيقه ويحزن لفواته، وإن لم يكن وراء ذلك ثواب أو عقاب، لأن النظر الصحيح سلامة محبوبة والإخلال به داء كريه.

ولا يستهدف هذا القسطاط المستقيم لمحنة من محنه التى تزرى بكرامة العقل الإنسانى، كاستهدافه لها وهو فى مصطدم التضحية والمنافع، أو فى الصراع بين الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة..

ففى هذا المصطدم يبدو للنظرة الأولى أن الرجل قد أضاع كل شىء وانهزم، وهو فى الحقيقة غانم ظافر.

ويبدو لنا أنه قد ربح كل شىء وانتصر وهو فى الحقيقة خاسر مهزوم..

ومن هنا يدخل التاريخ ألزم مداخله وأبينها عن قيمة البحث فيه، لأنه المدخل الذى يفضى إلى الجزاء الحق والنتيجة الحقة، وينتهى بكل عامل أفلح أو أخفق فى ظاهر الأمر إلى نهاية مطافه وغاية مسعاه فى الأمد الطويل.

وقد ظفر التاريخ فى الصراع بين الحسين بن على ويزيد بن معاوية بميزان من أصدق الموازين التى تتاح لتمحيض الجزاء الحق فى أعمال الشهداء وأصحاب الطمع والحيلة، فقلما تتاح فى أخبار الأمم شرقًا وغربًا عبرة كهذه العبرة بوضوح معالمها وأشواطها، وفى تقابل النصر والهزيمة فيها بين الطوالع والخواتم: على اختلاف معارض النصر والهزيمة..

فيزيد فى يوم كربلاء هو صاحب النصر المؤزر الذى لا يشوبه خذلان.

وحسين فى ذلك اليوم هو المخذول الذى لم يطمع خاذله من وراء الظفر به إلى مزيد.. ثم تنقلب الآية أيما انقلاب..

ويقوم الميزان، فلا يختلف عارفان بين كفة الرجحان وكفة الخسران..

وهذا الذى قصدنا إلى تبيينه وجلائه بتسطير هذه الفصول.

* * *

وما من عبرة أولى من هذه بالتبيين والجلاء لدارس التاريخ ودارس الحياة وطالب المعنى البعيد فى أطوار هذا الوجود.

ولسنا نقول إن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع بين الشهادة والمنفعة، أو بين الإيمان والمآرب الأرضية، فإن لهذا الصراع لألوانًا تتعدد ولا تتكرر على هذا المثال، وإن له لعناصر لم تجتمع كلها فى طرفى الخصومة بين الرجلين، وأشواطًا لم تتخذ الطريق الذى اتخذته هذه الخصومة فى البداية أو النهاية.

ولسنا نقول إن الصراع بين الحسين ويزيد مثل جامع لكل ألوان الصراع وتفردها بارزة ماثلة للتأمل والتعقيب، وهى أن مسألة الحسين ويزيد قد كانت صراعًا بين خلقين خالدين، وقد كانت جولة من جولات هذين الخلقين اللذين تجاولا أحقابًا غابرات ولا يزالان يتجاولان فيما يلى من الأحقاب، وقد أسفرا عن نتيجة فاصلة ينفرد لها مكان معروف بين سائر الجولات، وليست جولة أخرى منهن بأحق منها بالتعليق والتصديق..

ووجهتنا من هذه العبرة أن يعطى كل خلق من أخلاق العاملين حقه بمعيار لا غبن فيه..

فإذا سعى أحد بالحيلة فخدع الناس وبلغ مأربه فلكن ذلك مغنمه وكفى ولا ينفعه ذلك فى استلاب السمعة المحبوبة، والعطف الخالص، والثناء الرفيع

وإذا خسر أحد حياته فى سبيل إيمانه فلتكن تلك خسارته وكفى، ينكب فوق ذلك بخسارة فى السمعة والعطف والثناء.

فلو جاز هذا لكان العطف الإنسانى أزيف ما عرفناه فى هذه الدنيا من الزيوف، لأن خديعة واحدة تشتريه وتستبقيه، وما من زيف فى العروض الأخرى إلا وهو ينطلى يومًا وينكشف بقية الأيام..

* * *

وإذا كان احتيال الإنسان لنفسه معطيه كل ما تهبه الدنيا من غنم النفع والمحبة والثناء، فقد ربح المحتالون وخسر نوع الإنسان.

وإذا كانت خسارة المرء فى سبيل إيمانه تجمع عليه كل خسارة، فالأحمق الفاشل من يطلب الخير للناس ويغفل عن نفسه فى طلابه.

فكفى الواصل ماوصل إليه..

وكثير عليه أن يطمع عند الخلف والسلف فيما ادخرته الإنسانية من الثناء والعطف لمن يكرمونها بفضيلة الشهادة والتضحية، ويخسرون.

وهذا الفصيل العادل أعدل ما يكون فيما بين الحسين ويزيد..

فإذا قيل إن معاوية قد عمل وقد أفلح بالحيلة والدهاء، فيزيد لم يعمل ولم يفلح بحيلة ولا دهاء.. ولكنه ورث المنافع التى يشترى بها الأيدى والسيوف، فجال بها جولة رابحة فى كفاح الضمائر والقلوب.

فينبغى ألا يربح بهذه الوسيلة، فأما وقد ربح.. فينبغى أن يقف به الربح عند ذاك، وينبغى للعذر الكاذب والثناء المأجور ألا يحسبا على الناس بحساب العذر الصادق والثناء الجميل.

وقد تزلف إلى يزيد من يتزلفون إلى أصحاب المال والسلطان ثم أخذوا أجورهم، فينبغى أن يقوم ذلك الثناء بقيمة تلك الأجور وأن يكون ما قبضوه من أجر غاية ما استحقوه، إن كانوا مستحقيه.

أما أن يضاف ثناء الخلود إلى صفقة أولئك المأجورين. فقد أصبح ثناء الخلود إذن صفقة بغير ثمن، أو هو علاوة مضمونة على صفقة كل مأجور.

إن صاحب الثناء المبذول لا يسأل عن شيء غير العطاء المبذول، ولكن التاريخ خليق أن يسأل عن أعمال وأقوال قبل أن يبذل ما لديه من ثناء. وليس فى تاريخ يزيد عمل واحد صحيح أو مدعى ولا كلمة واحدة صحيحة أو مدعاة، تقيمه حيث أراده المأجورون من العذر الممهد والمدح المعقول، أو تخوله مكان الترجيح فى الموازنة بينه وبين الحسين..

كل أخطائه ثابتة عليه ومنها - بل كلها - خطؤه فى حق نفسه ودولته ورعاياه. وليس له فضل واحد ثابت ولا كلمة واحدة مأثورة تنقض ما وصفه به ناقدوه وعائبوه.

فقد كانت له ندحة عن قتل الحسين، وكان يخدم نفسه ودولته لو أنه استبقاه حيث يتقيه ويرعاه..

وكانت له ندحة عن ضرب الكعبة واستباحة المدينة وتسليط أمثال مسلم بن عقبة وعبيد الله بن زياد على خلائق الله..

وكانت له ندحة عن السمعة التى لصقت به ولم تلصق به افتراء ولا ادعاء كما يزعم صنائعه ومأجوروه، لأن واصفيه بتلك السمعة لم يلصقوا مثلها بأبيه..

ومن كان حقه فى النعمة التى نعم بها مغتصبًا ينتزعه عنوة، لا يكن حقه فى الفضل والكرامة جزافًا لا حسيب عليه.

* * *

وتسديد العطف الإنسانى هنا فرض من أقدس الفروض على الناظرين فى سير الغابرين، لأن العطف الإنسانى هو كل ما يملك التاريخ من جزاء، وهو الثروة الوحيدة التى يحتفظ بها الخلود.

وإننا لندع الخطأ فى سياسة النفعيين، وننظر إليهم كأنهم مصيبون فى السياسة، بصراء بمواقع التدبير.

فعلى هذه الصفة – لو تمت لهم – لا يحق لخادم زمانه أن ينازع الشهداء فى ذخيرة العطف الخالد، وهم خدام العقائد التى تتخطى حياة الأجيال كما يتخطى حياة الأفراد..

فإن حرمان الشهداء حقهم فى عطف الأسلاف والأخلاف خطأ فى الشعور، وخطأ كذلك فى التفكير..

والناس خاسرون إذا بطل عطفهم على الشهداء، وليس قصارى أمرهم أنهم قساة أو جاحدون.. لأن الشهادة فضيلة تروح وتأتى وتكثر حيناً وتندر فى غير ذلك من الأحيان. أما حب المنفعة فإن سميته فضيلة فهو من الفضائل التى لن تفارق الأحياء أجمعين، من ناطقة وعجماء.

* * *

على أن الطبائع الآدمية قد أشربت حب الشهداء والعطف عليهم وتقديس ذكرهم بغير تلقين ولا نصيحة، وإنما تنحرف عن سواء هذه السنة لعوارض طارئة أو باقية تمنعها أن تستقيم معها. وأكثر ما تأتى هذه العوارض من تضليل المنفعة والهوى القريب، أو من نكسة فى الطبع تغريه بالضغن على خلق سوىّ وسجية سمحة محببة إلى الناس عامة، أو من الإفراط فى حب الدعة حتى يجفل المرء من الشهادة استهوالاً لتكاليفها واستعظامًا للقدوة بها، فيتهم الشهداء بالهوج ويتعقب أعمالهم بالنقد لكيلا يتهم نفسه بالجبن والضعة ويستحق المذمة واللوم فى رأى ضميره. وإن لم يتهمهم بالهوج ولم يتعقبهم بالنقد، وقف من فضائلهم موقف ازورار وفتور.. وجنح إلى معذرة الآخرين والتفاهم بينه وبين من لا يستشهدون، ثم يعارضون الشهداء فيما يطمحون إليه.

ومعظم المؤرخين الذين يعارضون الشهداء ودعاتهم لغير منفعة أو نكسة هم من أصحاب الدعة المفرطة وأنصار السلامة الناجية، ويغلب على هذه الخلة أن تسلبهم ملكة التاريخ الصحيح لأنها تعرضهم للخطأ فى الحكم والتفكير، كما تعرضهم للخطأ فى العطف والشعور.

ومن المعقبين على تاريخ هذه الفترة عندنا – فى العربية – مؤرخ يتخذ منه المثل لكل

من العذر والعطف حين يصل الأمر إلى الاستشهاد كراهة للظلم ودرءًا للمنكرات، وهو الأستاذ محمد الخضرى صاحب تاريخ الأمم الإسلامية رحمه الله.

ففى تعقيبه على ثورة المدينة التى قدمنا الإشارة إليها يقول: «إن الإنسان ليعجب من هذا التهور الغريب والمظهر الذى ظهر به أهل المدينة فى قيامهم وحدهم بخلع خليفة فى إمكانه أن يجرد عليهم من الجيوش ما لا يمكنهم أن يقفوا فى وجهه. ولا ندرى ما الذى كانوا يريدونه بعد خلع يزيد؟.. أيكونون مستقلين عن بقية الأمصار الإسلامية، لهم خليفة منهم يلى أمرهم أم حمل بقية الأمة على الدخول فى أمرهم؟ وكيف يكون هذا وهم منقطعون عن بقية الأمصار ولم يكن معهم فى هذا الأمر أحد من الجنود الإسلامية؟.. إنهم فتقوا فتقًا وارتكبوا جرمًا تطلبهم جزء عظيم من تبعة انتهاك حرمة المدينة، وكان اللازم على يزيد وأمير الجيش ألا يسرف فى معاملتهم بهذه المعاملة.. فإنه كان من الممكن أن يأخذهم بالحصار..».

* * *

ويخيل إليك وأنت تقرأ كلام الأستاذ عن هذه الفترة كلها أن لديه أعذارًا ليزيد وليس لديه عذر لأهل المدينة. لأنه يفهم كيف يغضب المرء لما فى حوزته، ولا يفهم كيف تضيق به كراهة الظلم وغيرة العقيدة عن الاحتمال..

وشعوره هذا يحول بينه وبين الحكم الصحيح على حوادث التاريخ، لأنه يحول بينه وبين انتظار هذه الحوادث حيث تنتظر لا محالة، واستبعادها حيث هى بعيدة عن التقدير.

فلم يحدث قط فى مواجهة الظلم وانتزاع الدول المكروهة أن شعر الناس كما أرادهم الأستاذ أن يشعروا أو فكروا فى الأمر كما أرادهم أن يفكروا.

ومستحيل حدوث هذا أشد الاستحالة، وليس قصاراه أنه لم يحدث من قبل فى حركات التاريخ..

فهذه الحركات التى تواجه الدول المكروهة لا تنتظر - ولا يمكن أن تنتظر - حتى تربى قوتها وعدتها على ما فى أيدى الدولة التى تكرهها من قوة وعدة..

ولكنها حركة أو دعوة تبدأ بفرد واحد يجترئ على ما يهابه الآخرون، ثم يلحق به

ثان وثالث ورابع ما شاء له الإقناع وضيق الذرع بالأمور، ثم ماينالهم من نقمة فيشيع الغضب وينكشف الظلم عمن كان فى غفلة عنه، ثم يشتد الحرج بالظالم فيدفعه الحرج إلى التخبط على غير هدى، ويخرج من تخبط غليظ أحمق إلى تخبط أغلظ منه وأحمق.. فلا هم يقفون فى امتعاضهم وتذمرهم ولا هو يقف فى بطشه وجبروته، حتى يغلو به البطش والجبروت فيكون فيه وهنه والقضاء عليه.

وعلى هذا النحو يعرف المؤرخ الذى يعالج النفوس الآدمية ما هو من طبعها وما هو خليق أن ينتظر منها، فلا يعالجها حق العلاج على أنها مسألة جمع وطرح فى دفتر الحساب بين هذا الفريق وذاك الفريق.

وعلى هذا النحو تكون حركة الحسين قد سلكت طريقها الذى لابد لها أن تسلكه، وما كان لها قط من مسلك سواه.

* * *

وصل الأمر فى عهد يزيد إلى حد لا يعالج بغير الاستشهاد ومانحا منحاه..

وهذا هو الاستشهاد ومنحاه. وهو – بالبداهة التى لا تحتاج إلى مقابلة طويلة – منحى غير منحى الحساب والجمع والطرح فى دفاتر التجار.

ومع هذا يدع المؤرخ طريق الشهادة تمضى إلى نهاية مطافها ثم يتناول دفتر التجار كما يشاء.. فإنه لواجد فى نهاية المطاف أن دفتر التجار لن يكتب الربح آخرًا إلا فى صفحة الشهداء.

فالدعاة المستشهدون يخسرون حياتهم وحياة ذويهم، ولكنهم يرسلون دعوتهم من بعدهم ناجحة متفاقمة فتظفر فى نهاية مطافها بكل شىء حتى المظاهر العرضية والمنافع الأرضية..

وأصحاب المظاهر العرضية والمنافع الأرضية يكسبون فى أول الشوط ثم ينهزمون فى وجه الدعوة المستشهدة حتى يخسروا حياتهم أو حياة ذويهم، وتوزن حظوظهم بكل ميزان فإذا هم بكل ميزان خاسرون.. وهكذا أخفق الحسين ونجح يزيد..

ولكن يزيد ذهب إلى سبيله وعوقب أنصاره فى الحياة والحطام والسمعة بعده بشهور.

ثم تقوضت دولته ودولة خلفائه فى عمر رجل واحد لم يجاوز الستين..

وانهزم الحسين فى كربلاء وأصيب هو وذووه من بعده، ولكنه ترك الدعوة التى قام بها ملك العباسيين والفاطميين وتعلل بها أناس من الأيوبيين والعثمانيين، واستظل بها الملوك والأمراء بين العرب والفرس والهنود، ومثل للناس فى حلة النور تخشع لها الأبصار..

وباء بالفخر الذى لا فخر مثله فى تواريخ بنى الإنسان، غير مستثن منهم عربى ولا أعجمى وقديم ولا حديث.

أبو الشهداء

فليس فى العالم أسرة أنجبت من الشهداء من أنجبتهم أسرة الحسين عدة وقدرة وذكرة.. وحسبه أنه وحده فى تاريخ هذه الدنيا الشهيد ابن الشهيد أبو الشهداء فى مئات السنين..

وأيسر شىء على الضعفاء الهازلين أن يذكروا هنا طلب الملك ليغمزوا به شهادة الحسين وذويه..

فهؤلاء واهمون ضالون مغرقون فى الوهم والضلال..

لأن طلب الملك لا يمنع الشهادة، وقد يطلب الملك شهيدًا قديسًا ويطلبه وهو مجرم برىء من القداسة.

وإنما هو طلب وطلب، وإنما هى غاية وغاية، وإنما المعول فى هذا الأمر على الطلب لا على المطلوب.

فمن طلب الملك بكل ثمن، وتوسل له بكل وسيلة، وسوى فيه بين الغصب والحق وبين الخداع والصدق وبين مصلحة الرعية ومفسدتها، ففى سبيل الدنيا يعمل لا فى سبيل الشهادة.

ومن طلب الملك وأباه بالثمن المعيب، وطلب الملك حقًّا ولم يطلبه لأنه شهوة وكفى وطلب الملك وهو يعلم أنه سيموت دونه لا محالة، وطلب الملك وهو يعتز بنصر الإيمان ولا يعتز بنصر الجند والسلاح، وطلب الملك دفعًا للمظلمة وجلبًا للمصلحة كما وضحت له

بنور إيمانه وتقواه، فليس ذلك بالعامل الذى يخدم نفسه بعمله، ولكنه الشهيد الذى يلبى داعى المروءة والأريحية ويطيع وحى الإيمان والعقيدة، ويضرب للناس مثلاً يتجاوز حياة الفرد الواحد وحياة الأجيال الكثيرة..

ومن ثم يقيم الآية بعد الآية على حقيقة الحقائق فى أمثال هذا الصراع بين الخلقين أو بين المزاجين والتاريخين.

وهى أن الشهادة خصم ضعيف مغلوب فى اليوم والأسبوع والعام.

ولكنها أقوى الخصوم الغالبين فى الجيل والأجيال ومدى الأيام.

وهى حقيقة تؤيدها كل نتيجة نظرت إليها بعين الأرض أو بعين السماء على أن تنظر إليها فى نهاية المطاف.

ونهاية المطاف هى التى يدخلها «نوع الإنسان» فى حسابه ويوشح عليها وشائج عطفه وإعجابه. لأنه لا يعمل لوجبات ثلاث فى اليوم، ولا ينظر إلى عمر واحد بين مهد ولحد، ولكنه يعمل للدوام وينظر إلى الخلود.

عاشق الجمال

إذا لحقت السيرة بعالم المثال الذى يتطلع إليه خيال الشعراء وتتغنى به قرائح أهل الفن. فقد تنزهت عن ربقة الجسد وأصبحت صورة من الصور المثلى فى عالم الجمال.

ومن آيات الجمال أنه يتحدى المنفعة ويؤثر البطولة على السلامة.

فإذا تعلقت القريحة بالجمال، فلا جرم تزن الأمور بغير ميزان الحساب والصفقات. فتعرض عن النعمة وهى بين يديها وتقبل على الألم وهى ناظرة إليه، وتلزمها سجية العشق الآخذ بالأعنة، فتنقاد له ولا تنقاد لنصيحة ناصح أو عذل عاذل. لأن المشغوف بالجمال ينشده ولا يبالى ما يلقاه فى سبيله.

وقد تمثلت سجية عاشق الجمال فى كل شعر نظمه شعراء الحسين وذويه تعظيماً لهم وثناء عليهم. فلم يتجهوا إليهم ممدوحين وإنما اتجهوا إليهم صوراً مثلى يهيمون بها كما يهيم المحب بصورة حبيبه، ويستعذبون من أجلها ما يصيبهم من ملام وإيلام.

وفى معنى كهذا المعنى يقول الكميت شاعر أهل البيت:

طربت وما شوقاً إلى البيض أطرب ... ولا لعبًا منى، وذو الشيب يلعب
ولم يلهنى دار ولا رسم منزل ... ولم يتطربنى بنان مخضب
ولا أنا ممن يزجر الطير همه ... أصاح غراب أم تعرض ثعلب
ولا السانحات البارحات عشية ... أمر سليم القرن أم مر أعضب[1]
ولكن إلى أهل الفضائل والنهى ... وخير بنى حواء، والخير يطلب
إلى النفر البيض الذين بحبهم ... إلى الله فيما نالنى أتقرب

(١) السانح: الطير الذى يمر من اليسار إلى اليمن وعكسه البارح، والأعضب: المكسور.

بنى هاشم، رهط النبى، فإننى ... بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم منى جناحى مودة ... إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
يشيرون بالأيدى إلىّ وقولهم ... ألا خاب هذا، والمشيرون أخيب
فطائفة قد كفرتنى بحبكم ... وطائفة قالوا: مسىء ومذنب
فما ساءنى تكفير هاتيك منهم ... ولا عيب هاتيك التى هى أعيب
يعيبوننى من حبهم وضلالهم ... على حبكم، بل يسخرون وأعجب
وقالوا: ترابىٌّ[1] هواه ورأيه ... بذلك أدعى فيهم وألقب
على ذاك اجرياى فيكم ضريبتى ... ولو جمعوا طرًّا علىّ وأجلبوا
وأحمل أحقاد الأقارب فيكم ... وينصب لى فى الأبعدين فأنصب

وقد مر بنا حديث زين العابدين رضى الله عنه، وهو غلام عليل أوشك أن يتخطفه الموت بكلمة من عبيد الله بن زياد لأنه استكبر «أن تكون به جرأة على جوابه».

فهذا الغلام العليل قد عاش حتى انعقد له ملك القلوب حيث انعقد ملك الأجسام لهشام بن عبد الملك سيد ابن زياد وآله

وذهب هشام بين جنده وحشمه يحج البيت ويترضى الناس فلم يخلص إلى الحجر الأسود لتزاحم الحجيج عليه. وإنه لجالس على كرسيه ينتظر انفضاض الناس إذا بزين العابدين يقبل إلى الحجر الأسود فى وقاره وهيبته، فيتنحى له الحجيج ويحفوا به وهو يستلم الحجر مطمئناً غير معجل.. تم يعود من حيث أتى والناس مشيعوه بالتجلة والدعاء.

وتهول رجلًا من حاشية هشام هذه المهابة التى لم يرها لمولاه فيسأل: «من هذا الذى هابه الناس هذه الهيبة!».

ويخشى هشام أن يطلع جنده على مكانة رجل لم يتطاول إلى مثل مكانته بسلطانه وعتاده فيقول: «لا أعرفه». ويقتضب الجواب.

وهذا الذى تصدى له شاعر آخر قد غامر بحياته ونواله ليقول بالقصيد المحفوظ ما ثقل على لسان هشام أن يقوله فى كلمتين عابرتين.

---

(١) من كنى على بن أبى طالب «أبو تراب» وترابى نسبة إليه.

وذلك هو الفرزدق حيث قال:

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته ... والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابن خير عباد الله كلهم ... هذا التقى النقى الطاهر العلم
هذا ابن فاطمة إن كنت جاهله ... بجده أنبياء الله قد خُتموا
وليس قولك من هذا بضائره ... العرب تعرف من أنكرت، والعجم
إذا رأته قريش قال قائلها ... إلى مكَارم هذا ينتهى الكرم
من معشر حبهم دين، وبغضهم ... كفر، وقربهم منجى ومعتصم

* * *

وتصدى عبيد الله بن كثير لأمير مكة - خالد بن عبيد الله - فلعنه وهو قادر على قتله لأنه يلعن عليًّا وحسيناً فى خطبه، وأنشد:

لعن الله من يسب عليًّا ... وحسينًا من سوقة وإمام
أيُسَب المطهرون جدوداً ... والكرام الآباء والأعمام
يأمن الطير والحمام ولا يأ ... من آل الرسول عند المقام
طبت بيتاً وطاب أهلك أهلاً ... أهل البيت النبى والإسلام
رحمة الله والسلام عليه ... كلما قام قائم بسلام

* * *

وتنقضى السنون وتتسامع العربية بشاعر فحل لم يسلم من لسانه أحد، ولم ينزه أحداً من المجزلين له أو المقترين عليه عن استحقاق الهجاء. فكان ينشد الأبيات المقذعة، ويسأل عن صاحبها فيقول: «لم يستحقها أحد بعينه بعد، ولسوف يستحقها كثيرون».

هذا الشاعر العجيب هو دعبل الخزاعى الذى يهز أوتار النفوس بأمثال هذه الأبيات فى آل البيت:

مدارس آيات خلت من تلاوة ... ومنزل وحى مقفر العرصات!..
لآل رسول الله بالخيف من منى ... وبالركن والتعريف والجمرات
ديار على، والحسين، وجعفر ... وحمزة، والسجاد ذى الثفنات[1]

(١) كان على بن الحسين يلقب بذى الثفنات لأن جبهته أصبحت كثفنة البعير - أى ركبته - من كثرة السجود.

ديار عفاها كل جون مبادر ... ولم تعف للأيام والسنوات

إلى أن يقول:

ملامك فى أهل النبى فإنهم ... أحباى ما عاشوا وأهل ثقاتى
فيارب زدنى من يقينى بصيرة ... وزد حبهم يارب فى حسناتى
أحب قصى الرحم من أجل حبهم ... وأهجر فيهم أسرتى وبناتى
لقد حفت الأيام حولى بشرها ... وإنى لأرجو الأمن بعد وفاتى
ألم تر أنى من ثلاثين حجة ... أروح وأغدو دائم الحسرات
أرى فيئهم فى غيرهم متقسماً ... وأيديهم من فيئهم صفرات
فآل رسول الله نحف جسومهم ... وآل زياد حفّل القصرات[1]
بنات زياد فى القصور مصونة ... وآل رسول الله فى الفلوات!..
إذا وتروا مدوا إلى أهل وترهم ... أكفا عن الأوتار منقبضات!..

* * *

ووهب على بن موسى الرضا للشاعر جائزة من دراهمه المضروبة باسمه وخلع عليه من ثيابه، فبذل له أهل «قم» ثلاثين ألف درهم ليبيعهم الخلعة فضن بها. ثم ترصدوا له فى الطريق ليأخذوها منه عنوة تبركاً وذكرى. فسمح بالمال ولم يسمح بالخلعة.. واسترضوه فلم يرض إلا أن يعطوه كُماًّمن أكمامها ليدفن معه فى كفنه، وتقسموا الخلعة بينهم فخورين بها، غير مبالين ما بذلوه فى ثمنها.

وانقضت فترة لم تطل.. وتسامعت العربية بشاعر آخر أفحل من دعبل وأقدر منه على التصرف بالهجاء والمديح.

ذلك هو أبو العباس على بن الرومى الذى نسى ممدوحيه من آل طاهر وبنى العباس ليذكر حق حفيد الحسين يحيى بن عمر الشهيد.. ولو كلفه ذكره القتل والحرمان.

وفى بعض ما ساقه من النذر لأمراء زمانه مهلكة له قلما يفلت منها قائل بحياته، وذاك حيث يقول من قصيدته الجيمية:

غررتم لئن صدقتم أن حالة ... تدوم لكم، والدهر لونان، أخرج

(١) القصرة الرقبة، وحفل القصرات أى غلاظ الرقاب من السمن.

لعل لهم فى منطوى الغيب ثائراً سيسمو لكم والصبح فى الليل مولج
بمجر تضيق الأرض من زفراته له زجل ينفى الوحوش وهزمج[1]
يود الذى لاقوه أن سلاحه هنالك خلخال عليه ودملج
فيدرك ثأر الله أنصار دينه ولله أوس آخرون وخزرج
ويقضى إمام الحق فيكم قضاءه مبيناً، ما كل الحوامل تخدج

وكل أولئك شاعر ينسى التقوى فى مواطن شتى من عمله وقوله، ولا ينساها فى حق الشهداء من آل الحسين وصحبه.. لأنه يحس الجمال إحساس الشعراء، ويهتز «للصورة المثلى» اهتزاز الأريحية التى يحلم بها رواد الخيال. فهم هنا بمر بأة من قيود العيش ووساوس الحاجة وأعباء النوازع الأرضية، يستوحون سليقة القول فيما ينبغى أن يقال.. فيجرى على لسانهم كأنهم مسوقون إليه.

كل أولئك شاعر لا يسخو بالمدح وهو موصول بالعطاء الجزيل، ثم هو يسخو به للشهداء وآلهم على غير أمل فى نوال، وعلى خوف شديد من الحرمان والوبال..

* * *

وشاعر آخر لم يكن يهجو من الناس هذا أوذاك، ولكنه كان سيئ الظن بالناس أجمعين.. وكان يقول ما بدا له فى الدنيا والدين، ولكنه يجامل مع المجاملين فلا يقصر عن شأوهم فى السابقين أو اللاحقين.

ذلك هو أبو العلاء المعرى حيث قال فى الفجر والشفق:

وعلى الدهر من دماء الشهيد ين علىّ ونجله شاهدان
فهما فى أواخر الليل فجرا ن، وفى أولياته شفقان
ثبتا فى قميصه ليجىء الحشـ ـر مستعديًا إلى الرحمن

وإن وحى الشعر من سرائر النفوس لأصدق حكماً من لسان التاريخ إذا اختلف الحكمان..

ولكنهما قد توافيا معاً على مقال واحد.. فجلو لنا من سيرة الحسين رضى الله عنه صورة الجمال فى عالم المثال، وكذلك يعيش ما عاش فى أخلاد الناس

(١) الهزمجة اختلاط الصوت، والمجر الجيش الكبير.

فهرس

فَاطِمَةُ الزَّهْرَاءُ وَالْفَاطِمِيُّونَ

تمهيد

ترد الإشارة إلى الوراثة فى مواضع شتى من هذه الصفحات التالية، ونعول عليها فى مناسبات شتى لتفسير بعض الأطوار، ومنها أطوار الجماعات أو أطوار الحركات التاريخية.

وأرانى أهم بأن أضرب المثل فأبدأ بنفسى وبأثر الوراثة فى كتابة هذه الصفحات، وكتابة كثير من الصفحات فى الموضوعات الإسلامية، وما اتصل منها بالعترة النبوية على التخصيص.. ومن أمثالنا فى الصعيد الأعلى ما معناه أن البيت إذا احتاج إلى الخبز فهو أولى به من الجامع.

ولدت لأبوين من أهل السنة: أبى على مذهب الشافعى وأمى على مذهب أبى حنيفة. وفتحت عينى على الدنيا وأنا أراهما يصليان ويتيقظان قبل الفجر لأداء صلاة الصبح حاضرة، وربما زارنا أحد إخوانى فى تلك الساعات المبكرة ذاهبًا إلى المسجد القريب أو عائدًا منه إلى داره.

* * *

وفتحت أذنى كما فتحت عينى على عبارات الحب الشديد للنبى عليه السلام وآله، فمولد النبى حفلة سنوية فى البيت نترقبها نحن الصغار ونفرح بها لأننا نحن القائمون بالخدمة فيها. وأسماء النبى وآله تتردد بين جوانب البيت ليل نهار، لأنها أسماء إخوتى أجمعين: محمد وإبراهيم والمختار ومصطفى وأحمد والطاهر ويس، وشقيقتى الوحيدة اسمها فاطمة، واسمى أنا منسوب إلى عم النبى وليس إلى الأمير الأسبق: عباس حلمى الثانى كما كان يتوهم بعض معارفى، لأننى ولدت قبل ولايته، وأبيت فى المدرسة أن ألقب بلقب «حلمى» جريا على ماتعودته المدارس فى تلك الحقبة، وبقيت منسوبا إلى اسم «محمود» وهو كذلك من أسماء النبى، ولم يكن لأبى

إخوة، وإنما كانت أختاه الشقيقتان تسميان باسم نفيسة واسم زينب، وأولادهم ينادون بالأسماء التى تغلب عليها هذه النسبة الشريفة..

* * *

ورثت هذا الحب الشديد للنبى وآله عليهم سلام الله ورضوانه، وليس هذا الحب الشديد بالمستغرب عن أهل السنة لأنهم يدينون بدستور السنة النبوية، ولكنه كان فى بيتنا أشبه بالعاطفة النفسية منه بالآداب المذهبية، فاستفدت منه كثيرًا فى دراسة تاريخ الإسلام.

استفدت منه أننى كنت شديد التريث فى سماع كل دعوى من دعاوى السياسة القديمة التى كانت تقوم على إنكار حق، أو إنكار فضل، أو إنكار نسب، أو إنكار ما من ضروب الإنكار التى تمس تواريخ أهل البيت النبوى من بعيد أو قريب..

ولم أستفد منه بحمد الله كراهية أحد ذى حق أو ذى فضل، لأن قداسة العظمة الإنسانية تحجب عندى جميع هذه الصغائر التى تمس تواريخ العظماء أجمعين، وولعى بدراسة تواريخ العظماء من طفولتى الباكرة عصمنى بحمد الله من غوائل هذا الصغار..

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى أننى لم أصدق ما كان فى حكم الواقع المقرر عن سياسة الإمام، وأنه لم يكن له من السياسة نصيب، فبحثتها بحث الإشاعات ولم أعطها من بادئ الرأى شأنًا أكبر من الإشاعات التى تسرى على الأفواه بغير دليل، أو يجيئها الدليل المختلق من صنع أصحاب المنافع والمآرب فى سياسة الحاكم الغالب، فهم مدافعون عن أنفسهم باتهام الآخرين..

* * *

ومن أثر هذه الوراثة فى ذهنى أننى قاربت سير العظماء الإسلاميين و«النبويين» لأرضى ذهنى، ولم يقنعنى أن أرضى بها عاطفة لا أستمد من ذهنى شواهدها وآياتها، فعظماء الإسلام عندى أعلام إنسانية باذخة تخولها مكان العظمة مناقب يكبرها

المسلم وغير المسلم، وليست غاية الأمر فيهم أنهم أضرحة للتبرك وتلاوة الفاتحة والسلام.

وبهذه النزعة الموروثة أطرق باب الكلام فى حياة الزهراء، فإنها - سلام الله عليها- قد تكتب لها ترجمة لأنها بنت محمد، أو تكتب لها ترجمة لأنها زوج على، أو تكتب لها ترجمة لأنها أم الحسن والحسين وبنيهما الشهداء، ولكنها مع هذه الكرامة قد تكتب لها ترجمة لأنها هى فاطمة، ولأنها هى مصدر من مصادر القوة التاريخية التى تتابعت آثارها فى دعوات الخلافة من صدر الإسلام إلى الزمن الأخير.

* * *

وهذا الذى قصدت إليه بكتابة هذه السيرة، وبالبحث عن مكان الصلة بينها وبين المنتسبين إلى فاطمة، وعلى قلة الأخبار التى حفظت عن شخص فاطمة عليها السلام أرجو أن أكون على نهج التوفيق فيما أمكننى أن أستخلصه من ملامح هذه السيرة المباركة ومعالمها.

ونعود إلى الوراثة فنقول: إن أول ما نضيفه إلى بيان قوة اليقين، أو بيان القوة الإيمانية فى نفس الزهراء، أنها ورثتها من أم وأب، وقد غطى ميراثها من أبيها على كل ميراث، ولكنه إذا اقترن بالميراث من أمها فقد بلغت أصالته مدى متصل الآثار فيما ورثته هى، وفيما تورثه الأعقاب من بعدها، وما أخلده من ميراث.

القســـم الأولـــ

فاطمة الزهراء

* أم الزهراء
* نشأتها..
* زواجها..
* بلاغتها...
* فى الحياة العامة..
* شخصية الزهراء..
* الذرية الفاطمية..

أم الزهراء

حفظ التاريخ لنا قليلاً من أخبار السيدة خديجة - أم الزهراء - رضى الله عنها، ولكن هذا القليل كاف للتعريف بها، وبما يمكن أن تورثه بنيها من الخلائق والسجايا، لأنه يعطينا منها صورة كاملة لا تزيدها الإفاضة فى الأخبار إلا فى التفصيل.

ومن جملة الأخبار القليلة التى حفظت لنا نعلم أن الزهراء أنجبتها أم ذات فطنة ورجاحة، وأنها رضى الله عنها كانت غنية اليد، غنية النفس، بأكرم العواطف الأنثوية: عاطفة المحبة الزوجية، وعاطفة الأمومة، وعاطفة الإيمان..

كانت تسمى فى الجاهلية بالطاهرة وسيدة نساء قريش، لأنها جمعت إلى مكانة النسب العريق مكانة الثروة الوافرة ومكانة الخلائق الموقرة، وأهلها جميعًا لم يحفظ التاريخ سيرة أحد منهم إلا كان علمًا فى الحكمة والدراية أو فى الشجاعة والشمم، كورقة بن نوفل وأسرة الزبير بن العوام.

* * *

ولدت لأبوين كلاهما من أعرق الأسر فى الجزيرة العربية، وكلاهما ينتهى نسبه إلى لؤى بن غالب بن فهر، بل كانت أمها تنتسب من ناحية أمها كذلك إلى هذا النسب المعرق فى النبل والسيادة، فهى فاطمة بنت هالة التى ينتهى نسبها كذلك إلى لؤى ابن غالب، وهالة بنت قلابة التى ينتهى نسبها إلى ذلك الجد الأعلى، وقد اجتمع لها مع النبل مكانة الثروة الوافرة كما تقدم، فكانت قافلتها إلى الشام تعدل قوافل قريش أجمعين فى كثير من الأعوام.

وأهم من هذا جميعه بالنسبة إلى زوجة نبى، وإلى جدة الأئمة من بيت النبوة، أنها كانت مفطورة على التدين وراثة وتربية..

فأبوها خويلد هو الذى نازع تبّعاً الآخر حين أراد أن يحتمل الركن الأسود معه إلى

اليمن، فتصدى له ولم يرهب بأسه غيرة على هذا المنسك من مناسك دينه، وقال السهيلى فى الروض الأنف: «إن تبّعًا روع فى منامه ترويعًا شديدًا حتى ترك ذلك وانصرف عنه» فلا يبعد أن روعة خويلد ومرآه وهو ينذر العاهل بالغضب الإلٰهى إذا أقدم على فعلته قد شغل قلب التبع فتراءى له من المخوفات فى منامه ما أرهبه وثناه عن عزمه.

* * *

وابن عم السيدة خديجة هو ورقة بن نوفل الذى رجعت إليه حين بدا لها من اضطراب النبى عليه السلام عند مفاجأته بالوحى ما أزعجها، فركبت إلى ورقة تسأله لعلمه بالدين وعكوفه على دراسة كتب النصارى واليهود، ولم تكن الكهانة الدينية وظيفة ينتفع بها صاحبها. إذ لم يكن فى مكة مسيحيون يرجعون فى أمرهم إلى كاهن أو كنيسة، وإنما كان عكوف الرجل على دراسة الدين لطبيعة فيه توحى إليه الشك فى عبادة الأصنام وتجنح به إلى البحث والمراجعة عسى أن يهتدى إلى عقيدة أفضل من هذه العقيدة، وينسب إليه شعر كان يقوله فى الجاهلية يشبه شعر أمية بن أبى الصلت، ويروى كتّاب السيرة أنه استغرب علم السيدة خديجة باسم جبريل حين ذكرته له، وقال لها: «إنه السفير بين الله وبين أنبيائه، وإن الشيطان لا يجترئ أن يتمثل به ولا يتسمى باسمه..».

وقد جاء حديث ورقة مع السيدة خديجة على روايات مختلفة، لا يعنينا أن نستقصيها، لأن المهم فى الأمر هو وجود هذا الشغف بمدارسة الأديان بين بنى عم السيدة الأقربين، فهذا وانفراد أبيها بين زعماء مكة بالوقوف لعاهل اليمن والمخاطرة بنفسه غيرة منه على مناسك الكعبة كافيان للإبانة عن طبيعة التدين التى ورثتها الأسرة: من كان منهم على الجاهلية، ومن تحول عنها إلى النصرانيه.

ويؤخذ من أخبار السيدة خديجة الأخرى أنها كانت على علم بكل من يطالع كتب المسيحية والإسرائيلية، لأنها لم تكتف بسؤال ابن عمها، بل سألت غيره مما كانت لهم شهرة بالاطلاع على التوراة وكتب الأديان..

وقد روى عنها كلام قالته للنبى عليه السلام حين فاجأه الوحى فعاد إليها وقال لها: «لقد خشيت على نفسى!» فكان كلامها الذى أرادت أن تسرى به عنه وتثبت به جنانه آية على العلم بلباب الدين علمًا يستكثر على الناشئين فى أديان الجاهلية، فإن الدين

لا يعدو أن يكون عندهم كهانة وسحرًا، ولكنها أدركت من حقيقة الدين ما لا يدركه عامة قومها، فعلمت أنه فضيلة وأن النبى الجدير أن يندب له هو الرجل الذى اتسم بالفضيلة، وقالت للنبى وقد آمنت أنه وحى وليس بعارض من عوارض الجنة: «كلا! والله ما يخزيك الله أبدًا. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكل، وتكسب المعدوم، وتقرى الضيف، وتعين على نوائب الحق، وتصدق الحديث، وتؤدى الأمانة».

* * *

علامات للنبوة لا يدركها كل من يسمع بالدين، ولولا أنها عرفت من أبناء عمومتها من كان يفهم النبوة هذا الفهم لما كانت هذه علاماتها لتصديق الدعوة وصرف الوجل والخشية عن نفس زوجها الكريم.

وهى على هذا طبيعة مميزة، وليست طبيعة منساقة إلى السماع والتقليد، فمما نقل عنها أنها طلبت إلى النبى عليه السلام أن يخبرها إذا جاءه جبريل، فلما أخبرها قالت له: «قم فاجلس على فخذى اليسرى» ففعل، فقالت: «هل تراه؟» قال: «نعم». قالت: «فتحول إلى فخذى اليمنى» وسألته: «هل تراه؟» قال: «نعم». فألقت خمارها وسألته، فقال: «الآن لا أراه..» قالت يا بن العم اثبت وأبشر، فإنه ملك وماهو بشيطان».

وهذا الاختبار غاية ما كان ينتظر من سيدة فى عصرها أن تمتحن به حقيقة الوحى. ولا غرابة فيه عند المسلم وعند غير المسلم فى العصر الحاضر، فإن البديهة لا تشتغل بالوحى الدينى والنظر إلى جسد الأنثى فى وقت واحد، ولا سيما بعد الحوار وإعادة السؤال مرة بعد مرة، فلا موجب إذن لنسك المتشككين من المتحذلقين فى صحة هذه الأحاديث.

وقد رزقت هذه السيدة البارة صباحة الوجه مع ما رزقته من الخلق الجميل والحسب الأثيل والمال الجزيل، وصدق من قال إن السعادة لا تتم، فإن هذه السيدة التى تم لها غاية ما تتمناه المرأة لم تتم لها نعمة السعادة فى حياتها الزوجية، فإنها تزوجت فى صباها برجل من هامات مكة هو أبو هالة بن زرارة فمات ولها منه ولد صغير سمى باسم هند (لعله دفعًا لأذى الحسد) وهو الذى تربى مع السيدة فاطمة وقتل فى جيس الإمام فى وقعة الجمل على أرجح الأقوال، ويؤثر عنه أوفى وصف للنبى رواه سبطه الحسن عليهما صلوات الله.

ثم بنى بها عتيق بن عائذ بن عبد الله المخزومى، واختلفوا فى أى زوجيها كان الأول، ولكنه على كل حال زواج لم يكتب له الدوام، وقد أعرضت عن الزواج بعد هذين الزوجين حتى عرض لها فى حياتها الرجل الذى أصبحت بفضله علمًا من أعلام النساء فى التاريخ، ولا شىء أدل على رجاحة لبها من أناتها فى اختيار زوجها، مع تهافت الخطاب عليها ورجوع الأمر إليها فيما تختار.

أما كيف اتصل النبى عليه السلام بالعمل فى تجارتها فتكاد الأقوال تتفق على أنه كان بمشورة من عمه أبى طالب، وأن أبا طالب قال له فى سنة من السنين: «يا ابن أخى. أنا رجل لا مال لى وقد اشتد علينا الزمان، وهذه عير قومك قد حضر خروجها إلى الشام، وخديجة بنت خويلد تبعث رجالاً من قومك فى عيرها، فلو جئتها فعرضت نفسك عليها لأسرعت إليك». وقد تردد النبى فى مفاتحتها بهذا الطلب فذهب إليها أبو طالب، فأجابته على رضا وكرامة، وقالت له: «لو سألت ذلك لبعيد بغيض لأجبناك، فكيف وقد سألت لقريب حبيب؟».

وقد سافر النبى إلى الشام وباع واشترى، وربح لها أضعاف ما كانت تربح فى كل عام، وأعجبها منه أنه حين عاد من السفر وكل إلى غلامها ميسرة الذى كان بصحبته أن يسبقه ليبشرها بعودة القافلة ووفرة كسبها، فأكبرت منه مروءته وأمانته وحذقه، وأحبته وودت لو يخطبها مع الخطاب، وعرضت له بذلك فى حديث أقرب إلى التلميح منه إلى التصريح..

وأحجم النبى حياء وأحجمت هى عن التصريح، ثم أوعزت إلى صديقة لها – هى نفيسة بنت منية – أن تشجعه على الخطبة، فسألته نفيسة ذات يوم: «ما يمنعك أن تتزوج؟» قال: «قلة المال». قالت: «فإن كفيت ودعيت إلى المال والجمال والكفاءة؟» قال: «ومن تكون؟» قالت: «خديجة!» قال: «فاذهبى فاخطبيها».

وروى الزهرى صاحب أقدم السير أن «رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لشريكه الذى كان يتجر معه فى مال خديجة: هلم فلنتحدث عند خديجة، وكانت تكرمها وتتحفها. فلما قاما من عندها جاءت امرأة مستنشئة – هى الكاهنة – فقالت له: جئت خاطبًا يا محمد؟ فقال: كلا. فقالت: ولم؟ فوالله ما فى قريش امرأة – وإن كانت خديجة – إلا تراك كفؤًا لها..».

وأشبه الأشياء بأن يكون – بين الروايات المتعددة – أن النبى عليه السلام كاشف رئيس أسرته أن يتقدم لخطبتها ففعل وخطبها خطبة عزيز قوم لعزيزة قوم، وقال وهو يفاتح عمها فى الأمر: «... إن محمدًا ممن لا يوازن به فتى من قريش إلا رجح به شرفا ونبلاً وفضلاً وعقلاً، وإن كان فى المال قُلٌّ فإنما المال ظل زائل، وعارية مسترجعة، وله فى خديجة بنت خويلد رغبة ولها فيه مثل ذلك» فقال عمها عمرو، أو ابن عمها نوفل فى رواية أخرى: «هو الفحل الذى لا يقدع أنفه». وكانت أول امرأة تزوجها رسول الله، ولم يتزوج عليها فى حياتها إلى أن قارب الخمسين..

ومن خديجة ولد للنبى جميع أبنائه ماعدا ابراهيم ابنه من مارية القبطية، وهم: القاسم، والطاهر، والطيب، وزينب، ورقية، وأم كلثوم، وفاطمة، أصغرهم باتفاق معظم الأقوال.

وكان النبى عليه السلام عند زواجه بالسيدة خديجة فى نحو الخامسة والعشرين من عمره، أما السيدة خديجة فمن كتّاب السيرة من يقول إنها كانت فى الأربعين أو فى الخامسة والأربعين، ومنهم ابن عباس يقول: «إنها كانت فى الثامنة والعشرين ولم تجاوزها». وأحرى بهذه الرواية أن تكون أقرب الروايات إلى الصحة. لأن ابن عباس كان أولى الناس أن يعلم حقيقة عمرها، ولأن المرأة فى بلاد كجزيرة العرب يبكر فيها النمو ويبكر فيها الكبر لا تتصدى للزواج بعد الأربعين، ولا يعهد فى الأغلب الأعم أن تلد بعدها سبعة أولاد، عدا من جاء فى بعض الروايات أنهم ولدوا مع من ذكرنا أسماءهم..

وقد يرجع تقدير ابن عباس غير هذا أن مثل خديجة تتزوج فى الخامسة عشرة أو قبلها، لجمالها ومالها وعراقة بيتها وطمأنينة أهلها، فلا تتجاوز الخامسة والعشرين بعد زواجين لم يكتب لهما الأمد، وإن كنا لا نعرف على التحقيق كم من السنين دام زواجها من أبى هالة ومن عتيق بن عائذ، فمن الكلام عن ذريتها منهما يبدو أن أيامها معهما لم تزد على بضعة أعوام..

«وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم..».

وأمامنا ألف مصداق على هذه الآية فى سيرة الرسول العظيم الذى تنزلت عليه تلك الحكمة الإلٰهية.

لقد تأخرت به قلة المال فلم يتزوج قبل العشرين خلافًا لما جرى عليه العرف بين

علية القوم، وهو من تلك العلية فى الذؤابة العليا.

ولقد عزت الهناءة الزوجية على السيدة الغنية الوضيئة الذكية، فتأيمت فى نحو الثلاثين.

ولو كثر مال محمد لعله كان يبنى قبل العشرين بكريمة معشر تصغره ببضع سنين، وكان هذا هو الحظ السعيد فى عرف كل إنسان عاقل رشيد..

ولو تيسرت الهناءة الزوجية لخديجة لعلها كانت فى غنى عمن يتجر لها ويؤتمن على قوافلها بين الحجاز والشام، ولكان لها من مالها ومال زوجها عون فى الرحلة والمقام، وكان هو الحظ السعيد فى عرف كل إنسان عاقل رشيد..

أيهما كان خيرًا؟..

هذا الذى كان كما كان، أو ذاك الذى كان يحسبه كل عاقل رشيد صفوة الحظ الحسن الرشيد؟!

لم تمض سنوات على هذه الآصرة القدسية التى جمعت بين الزوجين الكريمين حتى طرأ طارئ لم يدخل لهما فى حساب واستجاش الغيب نفس رسوله فتحفزت لأداء الأمانة الجلى التى جاشت بها جوانح الدنيا مئات السنين..

فلم يجد محمد إلى جانبه فتاة غريرة تفزع ولا تدرى ما تصنع، بل وجد إلى جانبه قلبًا كريمًا وروحًا عظيمًا وسكنًا تهدأ عنده جائشة ضميره وتطمئن إليه خشية فؤاده، ولم يكن قصارى الأمان عند حليلته التى سكن إليها أنها حنكة السن وحنان الأمومة، ولكنه أمان الذى يعرف من نشأته ونشأة آله ما الرسالة وما أمانه الحق والفضيلة، وما عاقبة الصبر على العرواء التى تندك لها عزائم وتطيش لها أحلام، ولا يتلقاها كما يتلقى البشارة المفرحة إلا من هو كفؤ لها من بنى آدم وحواء.

وكل ما علمناه من سيرة خديجة عليها الرضوان خليق على قلته أن يجعلها بحق سيدة نساء قريش، ولكن هذا القليل الذى علمناه لو ذهب كله ولم يبق منه إلا أيام حضانتها لبشائر النبوة فى طلعتها - لضمن لها أن تتبوأ مقام السيادة بين نساء العالمين..

وقد بقى محمد يذكر لها تلك الأيام إلى مختتم أيامه، وظل يتفقدها ويتفقد مواطن

ذكراها أعوامًا بعد أعوام، لقد كان فيها الشغل الشاغل عن أطيب الأيام وأصعب الأيام، وإن وفاء كهذا لهو وحده كفاية المستقصى فى التعريف بحقها من زوجة بارة وأم رءوم، فما من شهادة لإنسانة هى أصدق من دوام الوفاء لها فى قلب إنسان عظيم.

نشأتها

إذا وصفت نشأة الزهراء بكلمة واحدة تغنى عن كلمات فالجِد هو تلك الكلمة الواحدة..

درجت فى دار أبويها، والدار يومئذ مقبلة على أمر جلل لم تتجمع بوادره فى غير تلك الدار، وغار حراء.

أمر جلل لا تقف جلالته عند جدران الدار، ولا عند أبواب المدينة التى اشتملت عليها، ولا عند حدود الجزيرة العربية بعمارها وقفارها، بل هو الأمر الجلل الذى يطبق العالم بأسره عصورًا وراء عصور، لأنه هو أمر الدعوة الإسلامية التى كانت يومئذ تختلج فى صدر واحد، هو صدر أبى الزهراء عليه السلام.

ما هذه الصلوات والتسبيحات؟ ما هذه الهينمة بين الأبوين؟ ما هذا الوجل وما هذا القنوت؟

أكبر الظن أن الطفلة الصغيرة لم تستغرب شيئًا من هذا لأن الطفل لا يستغرب الأمر إلا إذا رأى ما يخالفه، وهى لم تفتح عينيها على غير هذه البوادر والمقدمات.

أكبر الظن أن الزهراء الصغيرة لم تستغرب شيئًا مما كان يحيط بها وهى تدرج من مهدها، ولكن الطفل الذى يحسب هذه المشاهد من مألوفاته ينفرد بألوفات لا تتكرر من حوله، ويتخذ له قياسًا للألفة والغرابة منفردًا بين أقيسة النفوس.

وأكبر الظن أنه ينشأ منطويًا على نفسه، مستخفًّا بما يخف له الناس من حوله، متطلبًا من عادات النفوس وطبائعها غير ما يتطلبون..

ولقد أوشكت الزهراء أن تنشأ نشأة الطفل الوحيد فى دار أبويها، لأنها لم تجد معها غير أخت واحدة ليست من سنها، وغير أخيها هند، وهو أكبر منها ومن أختها، ولم يكن عادة الطفولة العربية أن يلعب البنات لعب الصبيان.

وأوشكت عزلة الطفل الوحيد أن تكبر معها، لأنها لم تكن تسمع عن ذكريات إخوتها الكبار إلا ما يحزن ويشغل: ماتوا صغارًا وخلفوا فى نفوس الأبوين لوعة كامنة وصبرًا مريرًا، أو تزوج من الأخوات الأحياء من تزوج وخطب من خطب، ثم لم تلبث الخطبة أن ردت إلى أختين، لأنهما خطبتا إلى ولدى أبى لهب، ثم أصبح أبو لهب عدوًّا للأبوين يمقتهما ويمقتانه، فانتهت خطبة الأختين الشقيقتين بهذا العداء.

جد من كل جانب تركن إليه، وانطواء على النفس لا تستغربه ولا تحب أن تتبدله، وملاذها فى كل هذا حنان أبوين لا كالآباء: حنان جاد رصين، ونكاد نقول: بل حنان صابر حزين، يشملها به الأب الذى مات أبناؤه ولا عزاء له من بعدهم غير عبء النبوة الذى تأهب له زمنًا ونهض به زمنًا ولا يزال يعانى من حمله ما تنوء به الجبال، وتشملها به الأم التى جاوزت الأربعين وبقيت لها فى خدرها هذه البنية الدارجة صغرى ذريتها، والحنان على الصغرى من الذرية بعد فراق الذرية كلها بالموت أو بالرحلة حنان لعمر الحق صابر حزين.

ولقد نعمت الزهراء بهذا الحنان من قلبين كبيرين: حنان أحرى به أن يعلم الوقار ولا يعلم الخفة والمرح والانطلاق.

وتعلمت الزهراء فى دار أبويها ما لم تتعلمه طفلة غيرها فى مكة: آيات من القرآن وعادات يأباها من حولهم العابدون وغير العابدين.

ولكنها قد تعلمت كذلك كل ما يتعلمه غيرها من البنات فى حاضرة الجزيرة العربية، فلا عجب أن نسمع عنها بعد ذلك أنها كانت تضمد جراح أبيها فى غزوة أحد، وأنها كانت تقوم وحدها بصنيع بيتها ولا يعينها عليه أحد من النساء فى أكثر أيامها.

ويبدو لنا انطواء الزهراء على نفسها من الأحاديث المروية عنها، فلم تعرض قط لشىء غير شأنها وشأن بيتها، ولم تتحدث قط فى غير ما تسأل عنه أو يلجئها إليه حادث لا ملجأ منه، فلا فضول هنالك فى عمل ولا فى مقال..

* * *

وسواء صح ما جاء فى الأنباء عن محاجتها للصديق بالقرآن الكريم أو كان فيه مجال للمراجعة، فالصحيح الذى لا مراجعة فيه أنها سمعت القرآن الكريم من النبى وسمعته

من على، وأنها صلت به ووعت أحكام فرائضه، وأنها وعت كل ما وعته لفتاة عربية أصيلة العرق والنسب، وزادت عليه ما لا يعيه غيرها من الأصيلات المعرقات.

لقد نشأت نشأة جد واعتكاف: نشأة وقار واكتفاء، وعلمت مع السنين أنها سليلة شرف لا منازع لها فيه من واحدة من بنات حواء فيمن تراه، فوثقت بكفاية هذا الشرف الذى لا يدانى، وشبت بين انطوائها على نفسها واكتفائها بشرفها كأنها فى عزلة بين أبناء آدم وحواء.

سكنت هذه النفس القوية جثمانًا يضيق بقوتها، وقلما رزق الراحة من اجتمع له النفس القوية والجثمان الضعيف، فإنهما مزيج متعب للنفس والجسم معًا، لا قوام له بغير راحة واحدة: هى راحة الإيمان، وهذا هو التوفيق الأكبر فى نشأة الزهراء، فإنها نشأت فى مهد الإيمان إذ هو ألزم ما يكون لها بين قوة نفسها ونحول جثمانها.

زواجها

قال الزرقانى فى شرح المواهب اللدنية: «إن عبد الله بن حسن دخل على هشام بن عبد الملك وعنده الكلبى، فقال هشام لعبد الله: يا أبا محمد! كم بلغت فاطمة من السن؟ قال: ثلاثين سنة، فقال الكلبى: خمسا وثلاثين. فقال هشام: اسمع ما يقول، وقد عنى بهذا الشأن. فقال: يا أمير المؤمنين: سلنى عن أمى وسل الكلبى عن أمه».

وتوافق هذه الرواية روايات متعددة، اتفقت على أن الزهراء ولدت فى سنة بناء الكعبة قبل البعثة المحمدية ببضع سنوات، فأصح الأقوال بين الأخبار المتضاربة أنها عليها السلام قد تزوجت وهى فى نحو الثامنة عشرة.

ومن جملة الأخبار يتضح أن النبى عليه السلام كان يبقيها لعلى رضى الله عنه. فقد خطبها أبو بكر وعمر فردهما وقال لكل منهما: انتظر بها القضاء، أو قال إنها صغيرة كما جاء فى سنن النسائى.

وفى أسد الغابة أنها لما خطبها أبو بكر وعمر وأبى رسول الله قال عمر: «أنت لها يا على!» فقال على: «مالى من شىء إلا درعى أرهنها» فزوجه رسول الله فاطمة، فلما بلغ ذلك فاطمة بكت، ثم دخل عليها رسول الله فقال: «مالك تبكين يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلمًا».

وفى رواية أن عليًّا لما سأله النبى: «هل عندك من شىء؟؟» قال: «كلا». فقال له: «وأين درعك الحطمية؟» أى التى تحطم السيوف، وكان النبى قد أهداه إياها، فباعها وباع أشياء غيرها كانت عنده، فاجتمع له منها أربعمائة درهم..

جاء فى أنساب الأشراف للبلاذرى: «فباع بعيرًا له ومتاعًا فبلغ من ذلك أربعمائة وثمانين درهمًا، ويقال أربعمائة درهم، فأمره أن يجعل ثلثها فى الطيب وثلثها فى المتاع ففعل..».

ثم استطرد صاحب الأنساب إلى رواية أخرى، يرتفع سندها إلى على نفسه قال: «سمعت عليًّا عليه السلام يقول: «أردت أن أخطب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ابنته فقلت: والله مالى شيء، ثم ذكرت صلته وعائدته فخطبتها إليه» فقال: «وهل عندك من شيء؟» قلت: «لا» قال: «فأين درعك التى أعطيتك يوم كذا؟ فقلت: هى عندى! قال: فاعطها إياها».

وفى طبقات ابن سعد أن رسول الله قال لما خطب أبو بكر وعمر فاطمة: «هى لك يا على! لستُ بدجال» يعنى لست بكذاب . وذلك أنه كان وعد عليًّا بها قبل أن يخطبها.

ويروى عن النبى أنه قال لفاطمة: «ما أليت أن أزوجك خير أهلى» وجهزت وما كان لها من جهاز غير سرير مشروط ووسادة من أدم حشوها ليف ونورة من أدم (إناء يغسل فيه) وسقاء ومنخل ومنشفة وقدح ورحاءان وجرتان..

وعن أنس بن مالك أن النبى قال له: انطلق وادع لى أبا بكر وعمر وعثمان وطلحة والزبير وبعدتهم من الأنصار، قال فانطلقت فدعوتهم، فلما أخذوا مجالسهم قال صلى الله عليه وسلم: «الحمد لله المحمود بنعمته المعبود بقدرته، المطاع لسلطانه، المهروب إليه من عذابه، النافذ أمره فى أرضه وسمائه، الذى خلق الخلق بقدرته، ونيرهم بأحكامه، وأعزهم بدينه، وأكرمهم بنبيه محمد صلى الله عليه وسلم. إن الله عز وجل جعل المصاهرة نسبًا لاحقًا وأمرًا مفترضًا وحكمًا عادلاً وخيرًا جامعًا، أوشج بها الأرحام وألزمها الأنام. فقال الله عز وجل: وهو الذى خلق من الماء بشرًا فجعله نسبًا وصهرًا وكان ربك قديرًا، وأمر الله يجرى إلى قضائه، وقضاؤه يجرى إلى قدره، ولكل أجل كتاب، يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب، ثم إن الله تعالى أمرنى أن أزوج فاطمة من على، وأشهدكم أنى زوجت فاطمة من على؟ على أربعمائة مثقال فضة إن رضى بذلك على السنة القائمة والفريضة الواجبة، فجمع الله شملهما وبارك لهما وأطاب نسلهما، وجعل نسلهما مفاتيح الرحمة ومعادن الحكمة وأمن الأمة، أقول قولى هذا وأستغفر الله لى ولكم».

قال أنس : «وكان على عليه السلام غائبًا فى حاجة لرسول الله صلى الله عليه وسلم قد بعثه فيها.. ثم أمر لنا بطبق فيه تمر فوضع بين أيدينا، فقال: انتبهوا. فبينما نحن كذلك إذ أقبل على فتبسم إليه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال: يا على! إن الله أمرنى أن

أزوجك فاطمة، وإنى زوجتكها على أربعمائة مثقال فضة، فقال على: رضيت يا رسول الله ! ثم إن عليًّا خر ساجدًا شكرًا لله، فلما رفع رأسه قال الرسول صلى الله عليه وسلم: بارك الله لكما وعليكما وأسعد جدكما وأخرج منكما الكثير الطيب».

قال أنس: «والله لقد أخرج منهما الكثير الطيب».

ومن المرجح جدًّا أن الزهراء قد استشيرت فى زواجها على عادة النبى عليه السلام فى تزويج كل بنت من بناته، كما جاء فى مسند ابن حنبل، فيقول لها: فلان يذكرك، فإن سكتت أمضى الزواج، وإن نقرت الستر علم أنها تأباه، وفى زواج الزهراء قال لها: يافاطمة ! إن عليًّا يذكرك. فسكتت، وفى روايات أخرى أنه وجدها باكية، فذاك حيث قال رسول الله: «مالك تبكين يا فاطمة ! فو الله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلمًا».

ولم يجمع كتاب السيرة على الوقت الذى تم فيه الزواج، ولكنهم قالوا إنه كان بعد الهجرة، وبعد غزوة بدر.. وأرجح الأقوال كما قدمنا أنها كانت فى نحو الثامنة عشرة، وزوجها أكبر منها ببضع سنوات.

* * *

توخينا فى اقتباس هذه الأخبار أن نرجح منها الأوسط الأمثل بين أقوال الرواة والمحدثين، فما من خبر من هذه الأخبار وصل إلينا فى كتب السيرة على رواية واحدة، وقد يبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالزمن خمس سنوات أو أكثر، ويبلغ الفرق فى بعض المسائل التى تتعلق بالأقوال والأعمال أن تتناقض مناقضة القبول والإباء والرضا والإنكار، فلا مناص من الأخذ بالأوسط الأمثل بين جميع هذه الأقوال.

ونحن نعنى بالأوسط الأمثل أن يكون الترجيح قائمًا على المقابلة والموازنة والرجوع إلى حوادث الزمن وعادات أهله، وإلى الأحرى أن يصدر ممن أسند إليهم القول أو نسب إليهم العمل.. فإن الأخبار إذا تساوت رجح بينها ما هو أشبه بالزمن وأهله وأصحاب السيرة فيه.

فمن المعقول مثلاً أن يؤثر النبى عليًّا بفاطمة وهما ربيبان فى بيئة واحدة، ومن المعقول أن يؤثر زواجها من علىّ على مشاركتها فى بيت أبى بكر وعمر لزوجات الشيخين، ومن

المعقول أن يتردد على فى خطبتها لفقره. ولا يخالف المعقول ولا المألوف أن يقدم بعد تردد، لشعوره بأنه مخصوص بها، وأنه ينبغى عليه أن يقطع الشك باليقين ويعمل من عنده ما لابد له من عمله، ولا يخالف المعقول ولا المألوف كذلك أن يتأخر الزواج إلى ما بعد الهجرة، لأن حياة المسلمين فى مكة - قبل الهجرة إلى المدينة - لم تكن حياة أمن ولا استقرار، ولم يكن من النادر أن يهاجر المسلمون بزوجاتهم إلى بلد بعيد كالحبشة كلما ملكوا وسائل الهجرة، فمن كان متزوجًا قبل اشتداد العنت على المسلمين فلا حيلة له فى الزواج، ومن لم يكن فليس أخلق به من إرجاء الزواج إلى حين.

ذلك كله هو المعقول المألوف، وهو الأوسط الأمثل إذا تساوت الأخبار ووجبت الموازنة والترجيح.

إلا أن التاريخ يكتب للاعتبار، ولا يقصد من الاعتبار به شىء أهم من تصحيح النظر إلى الحوادث والناس، واستخلاص الحقيقة عما يقع ولا يقع وعما يجوز ولا يجوز.

وهاهنا محل لعبرتين كأهم العبر فى كتابة التاريخ. كتابته فى الأزمنة الغابرة، وكتابته فى الزمن الحديث.

فأهم العبر التى تستخلص من تواريخ عصر البعثة المحمدية أن يقتصد ذوو الأحكام التاريخية فى المسائل الكبرى فلا يرتبوا حكمًا قاطعًا فى مسألة كبيرة على أرقام السنين وألفاظ الروايات، فما كان من الأخبار مجمعًا عليه أو مقاربًا للإجماع فهو جدير باتخاذ الأحكام الجازمة فيه، وما كان ميزان الحكم فيه كلمة تقابلها كلمات، أو فرض تقابله فروض، أو رقم ويوم تقابله أرقام وأيام بل أعوام، فليس من القصد أن يعطى فوق معياره من الجزم واليقين، وبخاصة حين ينبنى عليه اتهام أو قضاء لا يقوم فى مسائل كل يوم بغير بينة تنفى كل شبهة وتبطل كل محال.

أما العبرة فى تاريخنا العصرى فمرجعها إلى كتابة طائفة من العصريين يزعمون أنهم يطبقون علم العصر على تاريخنا القديم وأنهم يصححونه بهذا التطبيق، وليس أعجز منهم عن تحقيق هذه الدعوى، لأنهم أثبتوا فيما كتبوه أنهم يزنون بميزانين وينظرون بعينين، ويختلقون أسباب التشويه والتحريف..

وأولئك هم طائفة المستشرقين الذين يجمعون بين الاستشراق والتبشير.

فمن هؤلاء من يطالع فى الكتب الدينية التى يصدقها فيقرأ فيها من أخبار الدعاة والأدعياء أمورًا لا شك فى أنها من العيوب فلا يحسبها عيوبًا، ولا يتأفف منها، بل يعنت فكره ويعنتها تخريجًا وتعويجًا حتى يقبلها، ويفرض قبولها على الناس..

فإذا طالع كتبًا عن أصحاب دين غير دينه لم يأخذ نفسه بمثل هذا التحسين والتزيين، بل أخذها على النقيض من ذلك بالمسخ والتشويه، وتحويل المحاسن إلى عيوب، أو بالتنقيب فى كل مكان عما يعاب إن لم يجد ما يعيبه فى ظاهر السطور والحروف.

وما من شىء يمسخ الدين ويمسخ العلم معًا كما يمسخهما هذا الخلق الذميم. فإن الدين لا يعلم الإنسان شيئًا إن لم يعلمه حب الصدق واجتناب التمحل والافتراء، وإن العلم شر من الجهل إن كان يسوم الإنسان أن يغمض عينيه لكيلا يرى ويوصد أذنيه لكيلا يسمع، فليس هذا جهلًا يزول بكشف الحقيقة، ولكنه مرض يتعمد حجب الحقيقة عن صاحبه وهى مكشوفة لديه، فهو شر من الجهل بلا مراء.

وفى تاريخ الزهراء مثال للعبرة التى تستخلص من كتب هؤلاء «العلماء» الذين هم شر من الجهلاء، وأحدهم قد خصص كتابًا لتاريخ الزهراء يحاول فيه جهده أن «يطبق» ذلك العلم العصرى المقلوب، فإذا هو منقلب عليه..

يؤلف رجل من رجال الدين المستشرقين الذين عاشوا زمنًا فى الشرق - كتابًا عن الزهراء ليرضى فيه ذلك «العلم العصرى» المقلوب، ويبحث عن العيوب حيث لا عيوب، فإذا العيب هو فى الإسفاف، وكم فى الإسفاف من عيوب، بل من ذنوب.

ومن تفاهاته وسفاسفه أنه يحاول جهده أن يثبت أن السيدة فاطمة لم تتزوج قبل الثامنة عشرة لأنها كانت محرومة من الجمال، ولم تصدق أن أحدًا يخطبها بعد تلك السن، ثم يقول إنها لما عرض عليها النبى الزواج من علىّ سكتت هنيهة، ولكنها لم تسكت خجلًا، بل دهشة من أن يخطبها خاطب، ثم تكلمت فشكت، لأنها تُزوج من رجل فقير..!

لو كان السند الذى استند إليه هذا «العالم» واضحًا ملزمًا لقلنا إنها أمانة العلم، ولا حيلة للعالم فى الأمانة العلمية..!

لكن السند كله قائم على أن السيدة فاطمة تزوجت فى الثامنة عشرة من عمرها،

وتقابله أسناد أخرى تنقضه وتتراءى للمؤلف حيثما نظر حوله ولكنه لا يحب أن يراها، لأنه يحب أن يرى ما يعيب ولا يحب أن يرى مالا عيب فيه..

فالمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة ولدت لأبوين جميلين، وأن أخواتها تزوجن من ذوى غنى وجاه، كأبى العاص بن الربيع وعثمان بن عفان.

وليس من المألوف أن يكون الأبوان والأخوات موصوفين بالجمال، وأن تحرمه إحدى البنات..

والمشهور المتواتر أن السيدة فاطمة بلغت سن الزواج والدعوة المحمدية فى إبانها، والمسلمون بين مهاجر أو مقيم غير آمن، والحال قد تبدلت بعد الدعوة المحمدية فأصبحت خطبة المسلمات مقصورة على المسلمين، وهؤلاء المسلمون قلة منهم المتزوج ومنهم من لا طاقة له بالزواج، فلا حاجة بالمؤلف إلى البحث الطويل ليهتدى إلى السبب الذى يؤخر زواج بنت النبى إلى الثامنة عشرة، ولو كانت أجمل الجميلات..

وفى وسعه كذلك أن يتصور أن النبى يخص بها ابن عمه، وينتظر بها يوم البت حين تهدأ الحال ويستعد ابن عمه للزواج ويستقر على حال بينه وبين آله الذين لا يزالون على دين الجاهلية، فلاهم فى ذلك الوقت ذووه ولا هم بعداء عنه..

كل ذلك قريب كان فى وسع «العالم المحقق» أن يراه تحت عينيه، قبل أن يذهب إلى العلة التى اعتلها لتأخير الزواج، فلا يرى له من علة غير فقدان الجمال.. ولكن الأسباب الواضحة القريبة لايلتفت إليها لأنها لا تعيب، والسبب الخفى البعيد تشوبه غضاضة، فهو الجدير إذن بالالتفات .

وكأنما كان «العالم المحقق» فى حاجة إلى جهالة فوق جهالته فهو يفهم من بكاء السيدة فاطمة أنه شكاية من فقر على بن أبى طالب، ويسند هذا الفهم إلى رواية البلاذرى فى أنساب الأشراف، بعد زعمه أن فاطمة أبلغت زواجها بعلى فسكتت من الدهشة لا من الخجل، وإنما دهشت لأنها لم تكد تصدق أن أحدًا يخطبها بعد أن قاربت العشرين.

أفمن المألوف أو من التطبيق العلمى أن تكون الفتاة يائسة من الزواج، مدهوشة من

خطبة الخطيب، ثم تتعلل العلل وتفرض الشورط وتستعظم نفسها على بنى عمومتها الفقراء، وليست هى يومئذ من الأغنياء؟

كلا! ليس ذلك بالمألوف، ولا بالتطبيق العلمي، ولكنه تمحل للظن فضيلته الكبرى أنه يشتمل على مساس بفاطمة وعلى... فهو إذن أحق بالترجيح من كل تقدير مألوف.

والبلاذرى – بعد – لم يذكر شيئًا من هذا وليس فى كلامه عن مناقب على أو فاطمة شىء من قبيل الجواب الذى ينسب إلى الزهراء غير روايته الحديث بسنده وهو: «حدثنا عبد الله بن صالح عن شريك عن أبى اسحاق عن حبشى بن جنادة قال: لما زوج رسول الله صلى الله عليه وسلم فاطمة أرعدت فقال: اسكتى! فقد زوجتك سيدًا فى الدنيا وإنه فى الآخرة لمن الصالحين»..

وهذا ما وجدناه فى النسخة المنقولة من مخطوطة الآستانة، ومن الأجزاء المطبوعة فى أوربة، فتفسير «الرعدة» بذلك المعنى، إنما هو من إبداع المؤلف الحصيف!..

هذا مثال من تحقيق هؤلاء المحققين حين يكتبون عن تاريخ أعلام الشرق وحوادثه، نمر به لعبرته النافعة فى وزن التواريخ العصرية المزعومة، ولا ننبه إليه لقول قائل إن السيدة فاطمة كانت محرومة من الجمال.. فإنه لو صح لما كانت فيه مهانة على سيدة شرفتها أكرم الأبوات كما شرفها أكرم البنوات، ولكننا ننبه إليه لأنه عبرة المعتبرين فيما يصنعه العقل بنفسه حين يمسخه مرض الأهواء، فيفترى على العلم والدين ما تأباه أمانة العلم، ويعافه أدب الدين..

ونعود إلى قياس الأخبار بالموازنة أو بما هو مألوف ومعقول، فنقول إننا بحثنا عن خبر من أخبار زواج البنات فى آل محمد وآل على، فلم نجد فى عصر النبوة غير خبر واحد من قبيل الخبر الذى قيل فيه إن السيدة فاطمة أشارت إلى فقر على حين بلغت خطبته لها، وهو تزويج السيدة أم كلثوم..

وبين الخبرين، مع هذا، بون بعيد..

جاء فى أسد الغابة عن حسن بن حسن بن على بن أبى طالب أنه قال: «لما تأيمت أم كلثوم من عمر بن الخطاب دخل عليها حسن وحسين أخواها فقالا: «إنك ممن قد

عرفت سيدة نساء المسلمين وبنت سيدتهن، وإنك والله إن أمكنت عليًّا من رمتك لينكحنك بعض أيتامه، وإن أردت أن تصيبى بنفسك مالاً عظيمًا لتصيبنه»، فوالله ما قاما حتى طلع علىّ يتكئ على عصاه، فجلس فحمد الله وأثنى عليه وذكر منزلتهم من رسول الله وقال: قد عرفتم منزلتكم عندى يابنى فاطمة وآثرتكم على سائر ولدى لمكانكم من رسول الله عليه السلام، فقالوا: صدقت رحمك الله، فجزاك الله عنا خيرًا. فقال: أى بنية! إن الله عز وجل قد جعل أمرك بيدك، فأنا أحب أن تجعليه بيدى. فقالت: أى أبه! إنى امرأة أرغب فيما يرغب فيه النساء، وأحب أن أصيب مما تصيب النساء من الدنيا، وأنا أريد أن أنظر فى أمر نفسى. فقال: لا والله يابنية! ما هذا من رأيك. ما هو الا رأى هذين.! ثم قام فقال: والله لا أكلم رجلاً منهما أو تفعلين، فأخذا بثيابه فقالا.! اجلس يا أبه، فووالله ما على هجرتك من صبر. اجعلى أمرك بيده. فقالت: قد فعلت! فإنى قد زوجتك من عون بن جعفر، وإنه لغلام، وبعث لها بأربعة آلاف درهم».

هذه المؤامرة المحببة بين أخوين وأختهما ليسعداها بزواج أرغد من الزواج الذى يختاره أبوهم - تنتهى بطاعة الحب للأب الذى لا يصبر على غضبه، وتدل فى سرها وعلانيتها على أجمل ما يكون بين الأخوة والآباء من عطف وتوقير.. وليس فيها من الشبه برواية البلاذرى غير إشفاق الفتاة من عيشة الضنك دون أن يكون هناك خطيب معروف تقابل خطبته بالاعتراض والمراجعة وشتان مقال أم كلثوم وما رواه عن أمها البتول.

فإذا كان للخبر الذى جاء فى أنساب الأشراف أصل يعول عليه فأصله فيما هو مألوف ومعقول أن يكون النبى عليه السلام قد وجد الزهراء باكية وليس فى ذلك من غرابة، لأننا لا نتخيل فتاة فى مثل موقفها لا يبكيها ما تثيره فى نفسها ذكرى أمها ووداع بيت أبيها، وقد فارقتها أمها وهى صبية تدرك ما فقدته من عطفها وبرها وإلطافها لها فى رخائها وعسرها، ثم يكون يوم الفصال فى غربة من الأم ومن البيت لزمتها فيه ومن البلد الذى يحتويه فإن جهدنا أن نتخيل فتاة لا تبكى حين تحوم بنفسها تلك الذكريات وتقترب من اليوم الفاصل بين معيشتها فى كنف أبيها ومعيشتها فى غير كنفه، فموضع الغرابة أن نتخيلها بعد الجهد غير باكية وغير آسية، ولا سيما من كانت مثل الزهراء مجبولة على مزاج حزين وأسى دفين على أمها العزيزة، لم يفارقها مدى السنين..

ومثل النبى الذى كانت كبرى فضائله أنه إنسان عظيم، وأنه كان أبًا مكلوم الفؤاد، لن يفوته ذلك الخاطر فى ذلك اليوم، ولن يسكت عنه إلا عامدًا عالمًا بما يلعجه فى النفس من الحزن والشجن، فمن اللطف بالفتاة الحزينة أن يتحاشاه وأن يجعل عزاءه لها ما قاله عليه السلام: «ما لك تبكين يا فاطمة! فوالله لقد أنكحتك أكثرهم علمًا وأفضلهم حلمًا وأولهم سلمًا»..

ولم يمض غير قليل حتى تبين لنا سبب من الأسباب التى أطالت بقاء فاطمة فى بيت أبيها، فإنه عليه السلام كان يحنو عليها لضعفها وحزنها ولا يصبر على فراقها فلما تحولت عن داره بعد زواجها لم تمض أيام حتى ذهب إليها فقال لها: إنى أريد أن أحولك إلىَّ. فقالت: فكلم حارثة بن النعمان أن يتحول عنى. قال رسول الله: قد تحول حارثة بن النعمان عنا حتى استحيت منه، فبلغ ذلك حارثة فتحول وجاء النبى فقال: يارسول الله! إنه بلغنى أنك تحول فاطمة إليك، وهذه منازلى، وهى أسقب بيوت بنى النجار بك، وإنما أنا ومالى لله ولرسوله، والله يارسول الله، للمال الذى تأخذ منى أحب إلى من الذى تدع. فقال رسول الله: صدقت. بارك الله عليك! فحولها رسول الله إلى بيت حارثة.

جاء فى كتاب السمهودى عن أخبار دار المصطفى: «أن بيت فاطمة رضى الله عنها فى الزور الذى فى القبر بينه وبين بيت النبى صلى الله عليه وسلم خوخة.. وكانت فيه كوة إلى بيت عائشة رضى الله عنها، فكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا قام اطلع من الكوة إلى فاطمة فعلم خبرهم، وأن فاطمة رضى الله عنها قالت لعلى إن ابنى أمسيا عليلين، فلو نظرت لنا أدمًا نستصبح به! فخرج علىّ إلى السوق فاشترى لهم أدمًا وجاء به إلى فاطمة، فاستصبحت... فأبصرت عائشة المصباح عندهم فى جوف الليل – وذكر كلامًا وقع بينهما – فلما أصبحوا سألت فاطمة النبى صلى الله عليه وسلم أن يسد الكوة فسدها،».

إلى أن قال ما خلاصته من جملة أسانيده: «إنه صلى الله عليه وسلم كان يأتى باب على وفاطمة وحسن وحسين كل يوم عند صلاة الصبح حتى يأخذ بعضادتى الباب ويقول: السلام عليكم أهل البيت، ويقول: الصلاة! ثلاث مرات، إنما يريد الله ليذهب عنكم الرجس أهل البيت ويطهركم تطهيرًا.. وكان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فصلى فيه ركعتين، ثم يثنى بفاطمة، ثم يأتى بيوت نسائه».

وأسند يحيى عن محمد بن قيس قال: «كان النبى صلى الله عليه وسلم إذا قدم من سفر أتى فاطمة فدخل عليها وأطال عندها المكث، فخرج مرة فى سفر وصنعت فاطمة مسكتين من ورق (بكسر الراء) وقلادة وقرطين وسترت باب البيت لقدوم أبيها وزوجها، فلما قدم رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها ووقف أصحابه على الباب لا يدرون أيقيمون أم ينصرفون لطول مكثه عندها، فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد عرف الغضب فى وجهه حتى جلس على المنبر، ففطنت فاطمة أنه فعل ذلك لما رأى من المسكتين والقلادة والستر.. فنزعت قرطيها وقلادتها ومسكتيها ونزعت الستر وبعثت به إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقالت للرسول: قل له تقرأ عليك ابنتك السلام وتقول لك: اجعل هذا فى سبيل الله. فلما أتاه قال: قد فعلت، فداها أبوها، ثلاث مرات، ليست الدنيا من محمد ولا من آل محمد، ولو كانت الدنيا تعدل عند الله من الخير جناح بعوضة ما سقى كافرا منها شربة ماء».

* * *

وانتظمت الحياة فى السكن الجديد الذى أوى إلى ظل النبى على مثال من حياة النبى فى بيته: عيشة كفاف وخدمة يتعاون عليها رب البيت وربته، إذ كان رزق علىّ من وظيفة الجندى، ووظيفته من فىء الجهاد، وقد كان قليلًا فى حياة النبى وهو مقصور على الجزيرة العربية، فكان نصيب على منه أقل من أن يتسع لأجرة الخدم، وكلما رزق وليدًا جاءته حصته على قدر، شأنه كشأن كل أب من المسلمين.

وما لبث البيت الصغير أن سعد بالذرية، وقد رزق الأبوان الفقيران نصيبًا صالحًا من البنين والبنات: الحسن والحسين ومحسن، وزينب وأم كلثوم..

وكان أسعد ما يسعدان به عطف الأب الأكبر الذى كان يواليهم به جميعًا، ولا يصرفه عن شاغل من شواغله الجسام فى محتد الدعوة والجهاد، وقد أوشكت كل كلمة قالها فى تدليل كل وليد أو الترحيب به أن تصبح تاريخا محفوظًا فى الصدور والأوراق.

فلما ولد الحسن سماه والداه حربًا فجاء رسول الله فقال: أرونى ابنى ما سميتموه؟ قالوا حرب! قال: بل هو حسن، وهكذا عند مولد الحسين، وعند مولد المحسن، وقد مات وهو صغير.

وكان يدلل الطفل منهم ويستدرجه، فربما شوهد وهو يعلو بقدمه الصغيرة حتى يبلغ بها صدر النبى، والنبى يرقصه ويستأنسه ويداعب صغره وقصره بكلمات حفظها الأبوان ولم يلبث أن حفظها المشرقان..

حُزقَّه[1].. حُزقَّه.. ترقَّه.. ترق عين بقَّه

وربما شوهد النبى عليه السلام ساجدًا وطفل من هؤلاء الأطفال راكب على كتفيه، فيتأنى فى صلاته ويطيل السجدة لكيلا يزحزحه عن مركبة، وفى إحدى هذه السجدات يقول عمر بن الخطاب للطفل السعيد: نعم المطيّة مطيتك!..

بل ربما كان على المنبر فيقبل الحسن والحسين يمشيان ويتعثران، فيسبقه حنانه إليهما وينزل من المنبر ليحملهما وهو يقول: «صدق الله العظيم! إنما أموالكم وأولادكم فتنة!».

وكان إذا سمع أحدهما يبكى نادى فاطمة وقال لها: «ما بكاء هذا الطفل؟.. ألا تعلمين أن بكاءه يؤذينى؟»..

وقد جعل من عادته أن يبيت عندهم حينًا بعد حين، ويتولى خدمة الأطفال بنفسه وأبواهم قاعدان. ففى إحدى هذه الليالى سمع الحسن يستقى فقام صلوات الله وسلامه عليه إلى قربة فجعل يعصرها فى القدح، ثم جعل يعبعبه، فتناول الحسين فمنعه وبدأ بالحسن. قالت فاطمة: كأنه أحب إليك؟. قال: إنما استسقى أوَّلا!

وقد يلفهم جميعا فى برد واحد فيقول لهم: «أنا وأنتم يوم القيامة فى مكان واحد!»..

وكانت هذه الأبوة الكبيرة أعز عليهم جميعًا من أبوة الأب الصغير، فكانت فاطمة تقول إذا رقصت طفلها:

وابأبى شبه النبى ليس شبيهًا بعلى

وكانوا يتغايرون على هذا تغاير المحبين، الذين يتنافسون على حب لا يمنع بعضهم بعضًا أن يتنافسوا عليه.

* * *

---

(١) الحزق: القصير.

حياة سعيدة مع الشظف والفاقة: سعيدة بالعطف فى قلوب كبار، ما كان حطام الدنيا ليساوى عندها مثقال ذرة من هباء.

ولم تخل هذه الحياة، وما خلت حياة آدمى قط، من ساعات خلاف وساعات شكاية؛ فربما شكت فاطمة وربما شكا على. وربما أخذت فاطمة على قرينها بعض الشدة وما هى بشدة، فما كان رجل مثل على ليعنف على بنت رسول الله وهو يعلم مكانها من قلب رسول الله. إنما هو اعتزاز فاطمة بنفسها وإباؤها أن تهمل حيث كانت، وإنما هو الحنان الذى تعودته من أبيها فلا تستريح إلى مادونه، وكل حنان بعد حنان ذلك القلب الكبير فكأنه قسوة أو قريب من القسوة عند من يتفقده فلا يجد نظيره فى قلب إنسان..

وكان الأب الأكبر يتولى صلحهما فى كل خلاف، وربما ترك مجلسه بين الصحابة ليدخل إلى الأخوين المتخاصمين فيرفع ما بينهما من جفاء. والصحابة الذين يتتبعون فى وجه النبى كل خالجة من خوالج نفسه، ويبيحون أنفسهم أن يسألوه لأنه لا يملك من ضميره ما يضن به على المتعلم والمتبصر، يجرون معه على عادتهم كلما دخل البيت مهمومًا وخرج منه منطلق الأسارير، فيسألونه فيجيب: «ولم لا وقد أصلحت بين أحب الناس إلىّ!».

ومرة من هذه المرات، بلغ العتاب غاية ما يبلغه من خصومة بين زوجين، ونمى إلى فاطمة أن عليًّا يهم بالزواج من بنت هشام بن المغيرة، فذهبت إلى أبيها باكية تقول: «يزعمون أنك لا تغضب لبناتك؟ ».

كلمة تعلم وقعها فى نفس أبيها الذى ما زعمت هى قط أنه يرضى بما يغضبها، وقد عرف أبوها ما تعنى. لأن بنى هشام بن المغيرة استأذنوه فى تزويج بنتهم من زوج فاطمة، فصعد المنبر والغضب باد عليه، وقال على ملأ من الحاضرين: «ألا إن بنى هشام بن المغيرة استأذنونى فى أن ينكحوا ابنتهم عليًّا، ألا وإنى لا آذن. ثم لا آذن ثم لا آذن إنما فاطمة بضعة منى يريبنى ما رابها..».

ولا نعلم نحن من شرح هذه الخطبة غير ما جاء فى رواياتها المختلفة، ولكننا نعلم أن هذه الفتاة أسلمت وبايعت النبى وحفظت عنه، فلعلها قد خيف عليها الفتنة أن تتزوج بغير كفء من المسلمين، وأهلها هم من هم فى المكانة والحسب لا يرضيهم من هو دون ابن

أبى طالب من ذوى قرابتها، أو لعلها غضبة من غضبات علىّ على أنفة من أنفات فاطمة، أو لعلها نازعة من نوازع النفس البشرية لم يكن فى الدين ما يأباها، وإن أباها العرف فى حالة المودة والصفاء.

ولا نحسب أن حياة الزهراء والإمام تعرضت لخلاف غير الذى أشرنا إليه، فإن كتب السيرة تستقصى كل جليل ودقيق من الحديث عن ذرية النبى. وهى وأبناؤها كل ذرية النبى الذين عاشوا بعده، ولم يطل بها العمر فلحقت بالنبى صلوات الله عليه بعد وفاته ببضعة أشهر، وكان علىّ قد عاهد نفسه لا يغضبنها وقد غابت عنها عين أبيها، فلم يغضبها بعد ذلك حتى فى أمر الخلافة، وهو يومئذ أجل الأمور.

بلاغتها

قال الإمام أبو الفضل أحمد بن طاهر فى كتاب بلاغات النساء: «.. لما أجمع أبو بكر رضى الله عنه على منع فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم - فدك، وبلغ ذلك فاطمة لاثت خمارها على رأسها وأقبلت فى لمة من حفدتها تطأ ذيولها ما تخرم من مشية رسول الله صلى الله عليه وسلم شيئًا حتى دخلت على أبى بكر وهو فى حشد من المهاجرين والأنصار فنيطت دونها ملاءة ثم أنّت أنة أجهش القوم لها بالبكاء وارتج المجلس فأمهلت حتى سكن نشيج القوم وهدأت فورتهم فافتتحت الكلام بحمد الله والصلاة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فعاد القوم فى بكائهم فلما أمسكوا عادت فى كلامها فقالت:

«لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم.. فإن تعزوه تجدوه أبى دون نسائكم، وأخا ابن عمى دون رجالكم فبلغ النذارة صادعاً بالرسالة، مائلاً على مدرجة المشركين، ضارباً لثجنهم[1] آخذاً بكظمهم، يهشم الأصنام وينكث الهام حتى هزم الجمع وولوا الدبر وتفرى الليل عن صبحه وأسفر الحق عن محضه، ونطق زعيم الدين وخرست شقاشق الشياطين، وكنتم على شفا حفرة من النار مذقة الشارب ونهزة الطامع وقبسة العجلان وموطئ الأقدام تشربون الطرق[2] وتقتاتون القد أذلة خاشعين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم فأنقذكم الله برسوله صلى الله عليه وسلم بعد اللتيا والتى، وبعد ما منى بهم الرجال وذؤبان العرب ومردة أهل الكتاب كلما حشوا ناراً للحرب أطفأها ونجم قرن للضلال وفغرت فاغرة من المشركين قذف بأخيه فى لهواتها فلا ينكفئ حتى يطأ صماخها بإخمصه ويخمد لهيبها بسيفه مكدوداً فى ذات الله قريباً من رسول الله، سيداً فى أولياء الله، وأنتم فى بلهنية وادعون آمنون، حتى إذا

(١) الثجن (بسكون الجيم وتحريكها) الطريق الوعر (عانية).

(٢) الطريق: الماء المطروق.

اختار الله لنبيه فى دار أنبيائه ظهرت خلة النفاق وسمل جلباب الدين ونطق كاظم الغاوين ونبغ خامل الآفلين وهدر فنيق[1] المبطلين فخطر فى عرصاتكم وأطلع الشيطان رأسه من مغرزه، صارخاً بكم، فوجدكم لدعائه مستجيبين وللغرة فيه ملاحظين فاستنهضكم فوجدكم خفافاً وأحمشكم فألفاكم غضاباً، فوسمتم غير إبلكم، وأوردتموها غير شربكم، هذا والعهد قريب والكلم رحيب والجرح لما يندمل...»

* * *

إلى أن قالت: «وأنتم الآن تزعمون أن لا إرث لنا، أفحكم الجاهلية تبغون ومن أحسن من الله حكماً لقوم يوقنون، أيها المسلمة المهاجرة أأبتز إرث أبى؟ أفى الكتاب أن ترث أباك ولا أرث أبى؟ لقد جئت شيئاً فريًّا، فدونكها مخطومة مرحولة تلقاك يوم حشرك، فنعم الحكم الله والزعيم محمد والموعد القيامة وعند الساعة يخسر المبطلون، ولكل نبأ مستقر وسوف تعلمون».

ثم انحرفت إلى قبر النبى صلى الله عليه وسلم وهى تقول:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

هذه رواية لخطاب الزهراء، وفى الكتاب نفسه رواية أخرى مخالفة فى لفظها ومعناها للرواية السابقة، وقبل إيراد الروايتين قال أبو الفضل: «ذكرت لأبى الحسين زيد بن على ابن الحسين بن على بن أبى طالب صلوات الله عليهم كلام فاطمة عليها السلام وقلت له: إن هؤلاء – يشير إلى قوم فى زمانه يغضون من قدر آل البيت – يزعمون أنه مصنوع وأنه من كلام أبى العيناء فقال لى: رأيت مشايخ آل أبى طالب يروونه عن أبائهم ويعلمونه أبناءهم وقد حدثنيه أبى عن جدى يبلغ به فاطمة عليها السلام على هذه الحكاية ورواه مشايخ الشيعة وتدارسوه بينهم قبل أن يولد جد أبى العيناء، وقد حدث به الحسن بن علوان عن عطية العوفى أنه سمع عبد الله بن الحسن يذكره عن أبيه. ثم قال أبو الحسن: وكيف يذكر هذا من كلام فاطمة فينكرونه وهم يروون من كلام عائشة عند موت أبيها ما هو أعجب من كلام فاطمة يتحققونه لولا عداوتهم لنا أهل البيت».

* * *

---

(١) الجمل القوى.

ونسبت إلى السيدة فاطمة أبيات من الشعر قالتها بعد موت أبيها صلوات الله عليه، وأنها بعد دفنه أقبلت على أنس بن مالك فقالت: «يا أنس!.. كيف طابت أنفسكم أن تحثوا على رسول الله التراب؟» ثم بكت ورثته قائلة:

اغبر آفاق السماء وكورت ... شمس النهار وأظلم العصران
فالأرض من بعد النبى كئيبة ... أسفاً عليه كثيرة الرجفان
فليبكه شرق البلاد وغربها ... ولتبكه مضر وكل يمان
وليبكه الطود المعظم جوده ... والبيت ذو الأستار والأركان
يا خاتم الرسل المبارك ضوءه ... صلى عليك منزل القرآن

ووقفت على قبر النبى وأخذت قبضة من تراب القبر فوضعتها على عينها وبكت وأنشأت تقول:

ماذا على من شم تربة أحمد ... أن لا يشم مدى الزمان غواليا
صبت على مصائب لو أنها ... صبت على الأيام صرن لياليا

وقالت على قبره أيضاً:

إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... وغاب مذ غبت عنا الوحى والكتب
فليت قبلك كان الموت صادفنا ... لما نعيت وحالت دونك الكثب

ومضى آنفاً أنها تمثلت بعد خطابها عن فدك ببيتين من البحر والقافية مع تكرار شطر منها وهما:

قد كان بعدك أنباء وهنبثة ... لو كنت شاهدهم لم تكثر الخطب
إنا فقدناك فقد الأرض وابلها ... واختل قومك فاشهدهم ولا تغب

وفيها كما يرى القارئ إقواء، لأن الباء مضمومة فى روى البيت الأول مكسورة فى روى البيت الثانى، ولعل شطراً منها حل محل شطر فى نقل الرواية.

* * *

نقول: إن الخلاف فى أمر هذا الخطاب وهذا الشعر كثير، ولا نحب أن نخوض فيه لأنه خلاف على غير طائل، وقد يحسمه أن نذكر فى هذا الباب ما يقل فيه الخلاف بين

جميع النقاد: فإنه أجدى من اللغو فى جدال لا سند له، يسلّمه جميع المخالفين.

فيقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن ذلك الخطاب ليس مما يبدر من اللسان عفو الخاطر، وأن قائله يُعده فى نفسه قبل إلقائه كما كان يصنع الخطباء قبل استخدام الكتابة فى التحضير.

ويقل الخلاف ولا شك حين نذكر أن سامع هذا الخطاب لا يستظهره عند سماعه، فإن حفظه فإنما يحفظه منقولاً أو مكتوباً بعد حفظه.

فإذا قل الخلاف فى هذا فعلام إذن يكثر الخلاف؟

أتراه يكثر حين يقال إن السيدة فاطمة تحسن هذه البلاغة وتستطيعها حين تحتفل لها وتعدها فى خلدها؟

إن هذا النصيب من البلاغة إذا استكثر على السيدة فاطمة فما من أحد فى عصرها لا يستكثر عليه.

لقد نشأت وهى تسمع كلام أبيها أبلغ البلغاء، وانتقلت إلى بيت زوجها فعاشت سنين تسمع الكلام من إمام متفق على بلاغته بين محبيه وشانئيه، وسمعت القرآن يرتل فى الصلوات وفى سائر الأوقات، وتحدث الناس فى زمانها بمشابهتها لأبيها فى مشيتها وحديثها وكلامها، ومنهم من لا يحابيها ولا ينطق فى أمرها عن الهوى.

* * *

جاء فى الجزء الثالث من العقد الفريد عن الرياشى عن عتمان بن عمرو عن إسرائيل ابن ميسرة بن حبيب، عن المنهال بن عمرو، عن عائشة بنت طلحة، عن عائشة أم المؤمنين أنها قالت: «ما رأيت أحداً من خلق الله أشبه حديثاً وكلاماً برسول الله صلى الله عليه وسلم من فاطمة، وكانت إذا دخلت عليه أخذ بيدها فقبلها ورحب بها وأجلسها فى مجلسه، وكان إذا دخل عليها قامت إليه ورحبت به وأخذت بيده فقبلتها، فدخلت عليه فى مرضه الذى توفى فيه، فأسر إليها فبكت، ثم أسر إليها فضحكت، فقلت: كنت أحسب لهذه المرأة فضلاً على النساء فإذا هى واحدة منهن، بينما هى تبكى إذا هى تضحك. فلما توفى رسول الله صلى الله عليه وسلم سألتها فقالت: «أسر إلىّ فأخبرنى أنه ميت فبكيت، ثم أسر إلىَّ أنى أول أهل بيته لحوقاً به فضحكت».

وما قالته السيدة عائشة عن المشابهة بين الزهراء وأبيها قيل على ألسنة الثقات جميعاً، ويزداد عليه فى حديث السيدة عائشة أن امرأة فى فضلها واعتزازها بنفسها كانت ترى للزهراء فضلاً على سائر النساء فى حلمها ورصانتها. ففيم يكثر الخلاف على مثل ذلك النصيب من البلاغة إذا نسب إليها؟ ولماذا تستعظم البلاغة على من نشأت سامعة لحديث محمد مطبوعة على مشابهته فى حديثه؟ ولماذا تستعظم على زوجة الإمام الذى كان المتفقون على بلاغته أكثر من المتفقين على شجاعته، وهى مضرب الأمثال؟ ولماذا نستعظم على سامعة القرآن الكريم بالليل والنهار مع الذكاء واللب الراجح؟

* * *

أما نسبة الشعر إلى الزهراء فالخطب فيه أهون من ذلك فهو لا يسلكها فى الشاعرات إن ثبت، ولا يضيرها إن لم يثبت، ونحن إلى جانب الشك الكبير فيه أقرب منا إلى جانب القبول، وليس بعيداً على غير الشاعر أو الشاعرة أن يدير فى فمه أبياتاً يحكى بها حزنه وبثه، فإن النظم هنا أقرب إلى لغة العاطفة وعادة النحيب، ولكن السيدة فاطمة كان لها من الاعتبار بآيات من القرآن فى مقام الموت غنى عن نظم الأبيات أو التمثل بها فى مقام العبرة والرثاء.

فى الحياة العامة

مضت السنون والسيدة فاطمة على دأبها الذى عهدناه عاكفة على بيتها، تزيدها عكوفاً عليه تربية الأبناء وخدمة البيت التى تنفرد بها ولا تجد معيناً عليها فى كثير من الأيام غير زوجها.

ثم توفى النبى صلوات الله عليه فأقامتها الحوادث فجأة على غير مرادها فى معترك الحياة العامة أو الحياة السياسية كما نسميها فى أيامنا، ولم يكن لها منصرف عن ذلك المعترك فى تلك الآونة، لأن الخلاف فيها كان خلافاً على ميراث أبيها، ميراث التركة القليلة التى أعقبها.

ومسألة الخلافة فى يوم وفاة النبى إحدى المسائل التى طال فيها الجدل ولا يعسر على المنصفين أن يخرجوا من ذلك الجدل الطويل على رأى متفق عليه، وذاك أن الخطر الأكبر فى ذلك اليوم إنما كان من فتنة السقيفة: سقيفة بنى ساعدة حيث اجتمعت قبائل الخزرج بزعامة شيخها سعد بن عبادة، تطلب الإمارة، ثم نصح لهم عويم بن ساعدة باختيار أبى بكر للخلافة فأعرضوا عنه ونبذوه، ثم خطر لذى رأى منهم أن يقسمها شطرين: أمير من الأنصار وأمير من المهاجرين، وما برح سعد بن عبادة على جلالة شأنه فى قومه نافراً من البيعة لأبى بكر بعد انعقادها وهو يأبى إلا أن «يستبد الأنصار بهذا الأمر دون الناس فإنه لهم دون الناس».. ثم أصر على إبائه حين انفض جمع السقيفة وجاءه الرسل يدعونه للمبايعة فعاوده الغضب وقال لهم: «أما والله حتى أرميكم بما فى كنانتى من نبل وأخضب سنان رمحى». وناشدوه ألا يشق عصا الجماعة فعاد يقول: «إنى ضاربكم بسبفى ما ملكته يدى، مقاتلكم بولدى وأهل بيتى ومن أطاعنى من قومى.. وأيم الله لو أن الجن اجتمعت لكم مع الإنس مابايعتكم حتى أعرض على ربى».

ثم كان ثمة خطر لا يقل عن هذا الخطر فى حاضره ولا فى مغبته لو لم يعجل له العاملون بما يقطع دابره، وهو خطر الفتنة التى راح أبو سفيان يحضأ نارها بين على

والعباس وبين بنى هاشم وسائر بطون قريش، يعد قوماً بنصرة بنى أمية ونصرة قريش من ورائها، ويوسوس لقوم آخرين بمثل هذا الوعد أو بمثل هذا الوعيد، وما كان من همه أن ينصف بنى هاشم، ولا أن يؤيد الأنصار، وإنما أراد الوقيعة التى يخذلهم بها جميعاً، ويخرج منها بالسيادة الأولى التى كانت له على قريش فى الجاهلية.

وما من شك فى خطر هذه الفتنة من أبى سفيان ولا فى خطر تلك الفتنة من سقيفة بنى ساعدة، فانحسمت الفتنة بانعقاد البيعة لأبى بكر، ولم يطلبها، بل كان مشتغلاً بدفن الرسول، ودعى إلى السقيفة مرتين وهو لا يعلم فيم يدعى ويعتذر باشتغاله ويغضب لدعوته، حتى هم عمر بمبايعة أبى عبيدة بن الجراح قبل أن ينشعب الجمع فى السقيفة بين الخزرج والأوس والأنصار والمهاجرين، وقبل أن تنجح المسعاة من أبى سفيان فى خفائها، وقد كاد أن يعلنها.

* * *

وكان على فى تلك الساعة العصيبة إلى جوار الجثمان الطاهر المسجى فى حجرته، فدخل عليه أبو سفيان قائلاً: «يا أبا الحسن! هذا محمد قد مضى إلى ربه، وهذا تراثه لم يخرج عنكم، فابسط يدك أبايعك!».

ويقول عمه العباس: «يا بن أخى.. هذا شيخ قريش قد أقبل، فامدد يدك أبايعك ويبايعك معى. فإنا إن بايعناك لم يختلف عليك أحد من بنى عبد مناف، وإذا بايعك عبد مناف لم يختلف عليك قريشى، وإذا بايعتك قريش لم يختلف عليك بعدها أحد من العرب»..

فيجيبه على: «لا والله يا عم!.. إنى لأكره أن أبايع من وراء رتاج»..

ولقد كان أحكم فى جوابه هذا من شيخ الدهاة من بنى هاشم وشيخ الدهاة من بنى أمية، فما للخلافة معدى عنه إن كانت ولاية عهد يعلمها جميع المسلمين، وما للبيعة هناك جدوى إن تمت وراء رتاج وانشقت بعدها عصا المبايعين والمعارضين.

ولقد تمت البيعة على الوجه الذى عرفه التاريخ، فإن يكن هناك جدال فلا جدال بين المنصفين فى فضل الأئمة الذين أدركوا الفتنة قبل مسعاها من السقيفة ومسعاها من دار أبى سفيان، ولا جدال بين المنصفين فيما ابتغوه من خير وحكمة، فما ابتغى أبو بكر

ولا عمر ولا أبو عبيدة نفعاً لأنفسهم وما قصروا بعد يوم البيعة فى نصرة دينهم، وما كان فى وسع أحد أن يبلى أجمل من بلائهم فى دفع الغائلة عن الإسلام من فتنة الردة ومن غارة الفرس والروم، ولا أن يفتح للإسلام فى العراق والشام وفارس ومصر فتحاً أعظم وأقرب مما فتحوه.

* * *

وآمن علىّ بحقه فى الخلافة، ولكنه أراده حقًّا يطلبه الناس ولا يسبقهم إلى طلبه، ولم تمنعه البيعة لغيره أن يعينه بالرأى والسيف ويصدق العون لأبى بكر وعمر وكأنه يعمل فى عون رسول الله وهو بقيد الحياة.

وقد اختلف الصِّدِّيق والفاروق والإمام يوماً أو أياماً بعد وفاة النبى عليه السلام، فمن شاء فليأخذ بحجة هذا ومن شاء فليأخذ بحجة ذاك، ولكن الحجة الناهضة لهم جميعاً أنهم لم يكدحوا لأنفسهم ولا لذويهم، ولم يقفوا دون الغاية فى خدمة دينهم، ولم يحى أحد منهم حياة تريب فى صدقه وصدق طويته وحسن بلائه، وما مات أحد منهم له من الدنيا نصيب يأسى عليه.

وكانت السيدة فاطمة ترى حق على فى الخلافة، أو ترى أن قرابة النبى تجعله أحق المسلمين بخلافته، وأن بلاء على فى الجهاد وعلمه المشهود به يؤهلانه لمقام الخلافة، وكان هذا رأى طائفة من الصحابة الصالحين أدهشهم أن يجرى الأمر على غير هذا المجرى فاجتمعوا عندها واجتمعوا فى غير بيتها يتشاورون فيما بينهم، أيبايعون أم يتخلفون، ولم نطلع على رواية واحدة ذات سند يعول عليه ترمى أحدهم بشق عصا الجماعة أو بالسعى فى تأليب الناس على نقض البيعة، وبعد مساجلات بينهم وبين أبى بكر وعمر سفرت الفتنة عن مقصدها وتكشفت الدسيسة التى بيتها أبو سفيان، فقد عاد أبو سفيان يعرض مبايعته على علىٍّ ويتحفز للوقيعة فصده علىّ وعرض له بذكر الغششة والمخادعين، ثم قال له: «إنك تريد أمراً لسنا من أصحابه» فلما يئس من هذا الباب طرق باباً آخر لعله يلج منه إلى مأربه، وذهب إلى العباس يقول له: «امدد يدك يا أبا الفضل أبايعك فلا يختلف عليك القوم».. ثم يقول: «إنك لأحق بميراث ابن أخيك» فيرده العباس كما رده على، ويكاد الخلاف ينتهى عند هذا وينطوى بانطواء الكلام فى مسألة الخلافة، لولا مسألة

«فدك» أو مسألة الميراث التى اختلف فيها سند أبى بكر وسند فاطمة مرة أخرى، وأوشك أبو بكر أن يستقيل المسلمين من بيعتهم، مخافة السخط من بنت رسول الله.

* * *

وخلاصة الحديث فى أمر «فدك» أنها قرية كان النبى يقسم فيئها بين آل بيته وفقراء المسلمين، فلما قضى عليه السلام أرسلت فاطمة إلى أبى بكر تسأله ميراثها فيها وفيما بقى من خمس خيبر!.. فقال أبو بكر: «إن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقول: إننا معشر الأنبياء لا نورث.. ما تركناه صدقة.. وإنى والله لا أغير شيئًا من صدقة رسول الله عن حالها التى كان عليها» ويقال إن الزهراء احتجت عليه بقوله تعالى عن نبى من أنبيائه - زكريا - «يرثنى ويرث من آل يعقوب» وقوله تعالى: «وورث سليمان داود».. وأن أبا بكر قال لها: «يابنت رسول الله! أنت عين الحجة ومنطق الرسالة لا يد لى بجوابك ولا أوقعك عن صوابك، ولكن هذا أبو الحسن بينى وبينك هو الذى أخبرنى بما تفقدت، وأنبأنى بما أخذت وتركت».

وجاء فى شرح ابن أبى الحديد على نهج البلاغة «أن أبا بكر قال: «يا بنة رسول الله! والله ما ورث أبوك دينارًا ولا درهمًا، وإنه قال: إن الأنبياء لا يورثون. فقالت: «إن فدك وهبها لى رسول الله صلى الله عليه وسلم، قال: فمن يشهد بذلك؟فجاء على بن أبى طالب فشهد وجاءت أم أيمن فشهدت أيضًا، فجاء عمر بن الخطاب وعبد الرحمن ابن عوف فشهدا أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقسمها. فقال أبو بكر: صدقت يا بنة رسول الله، وصدق على، وصدقت أم أيمن، وصدق عمر، وصدق عبد الرحمن ابن عوف، وذلك أن مالك لأبيك، كان رسول الله يأخذ من فدك قوتكم ويقسم الباقى ويحمل منه فى سبيل الله، فما تصنعين بها؟ قالت: أصنع بها كما يصنع بها أبى! قال: فلك على الله أن أصنع كما يصنع فيها أبوك، قالت: الله لتفعلن؟ قال: الله لأفعلن. قالت: اللهم اشهد.. وكان أبو بكر يأخذ غلتها فيدفع إليهم منها ما يكفيهم ويقسم الباقى، وكان عمر كذلك، ثم كان عثمان كذلك، ثم كان على كذلك».

وفى خلال الخلاف على هذه القضية قال عمر لأبى بكر: «انطلق بنا إلى فاطمة فإنا قد أغضبناها». فانطلقا فاستأذنا عليها فلم تأذن لهما، فأتيا عليا فكلماه، فأدخلهما. فلما قعدا عندها حولت وجهها إلى الحائط فسلما عليها فلم ترد عليهما السلام، فتكلم أبو بكر

فقال: «يا حبيبة رسول الله، والله إن قرابة رسول الله أحب إلى من قرابتى، وإنك لأحب إلى من عائشة ابنتى، ولوددت يوم مات أبوك أنى مت ولا أبقى بعده، أفترانى أعرفك وأعرف فضلك وشرفك وأمنعك حقك وميراثك من رسول الله؟ إلا أنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: لا نورث. ما تركناه فهو صدقة» فقالت: «أرأيتكما إن حدثتكما حديثًا عن رسول الله تعرفانه وتفعلان به؟» قالا: «نعم». فقالت: «نشدتكما الله ألم تسمعا رسول الله يقول: رضاء فاطمة من رضائى وسخطها من سخطى؟» قالا: «نعم سمعناه من رسول الله». قالت: «فإنى أشهد الله وملائكته أنكما أسخطتمانى وما أرضيتمانى، ولئن لقيت النبى لأشكونكما إليه». فقال أبو بكر: «أنا عائذ بالله تعالى من سخطه وسخطك يا فاطمة». ثم انتحب يبكى حتى كادت نفسه تزهق.. ثم خرج فاجتمع إليه الناس فقال لهم: «يبيت كل رجل منكم معانقًا حليلته مسرورًا بأهله وتركتمونى وما أنا فيه؟ لا حاجة لى فى بيعتكم. أقيلونى بيعتى».

* * *

والحديث فى مسألة فدك هو كذلك من الأحاديث التى لا تنتهى إلى مقطع للقول متفق عليه. غير أن الصدق فيه لا مراء أن الزهراء أجل من أن تطلب ما ليس لها بحق، وأن الصديق أجل من أن يسلبها حقها الذى تقوم البينة عليه، ومن أسخف ما قيل إنه إنما منعها فدك مخافة أن ينفق علىّ من غلتها على الدعوة إليه، فقد ولى الخلافة أبو بكر وعمر وعثمان وعلىّ ولم يسمع أن أحدًا بايعهم لمال أخذه منهم، ولم يرد ذكر شىء من هذا فى إشاعة ولا فى خبر يقين، وما نعلم من تذكية لذمة الحاكم فى عهد الخليفة الأول أوضح بينة من حكمه فى مسألة فدك. فقد كان يكسب برضا فاطمة ويرضى الصحابة برضاها، وما أخذ من فدك شيئا لنفسه فيما ادعاه عليه مدع، وإنما هو الحرج فى ذمة الحكم بلغ أقصاه بهذه القضية بين هؤلاء الخصوم الصادقين المصدقين، رضوان الله عليهم أجمعين.

* * *

ولعلنا نجمل ما وقر فى أذهان المسلمين الثقات من أمر فدك بكلمة قالها عدل من أعظم العدول بعد ثمانين سنة أو نحوها، بعيدًا من الخصومة، بعيدًا من زمانها، بعيدًا من الشبهة فيها لأنه قال كلمته وفدك فى يديه ينزل عنها باختياره، لا يدعوه إلى ذلك داع غير وحى ضميره.

ذلك هو عمر بن عبد العزيز القائل فى مستهل عهده بالخلافة: «إن فدك كانت مما أفاء الله على رسوله ولم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب، فسألته فاطمة إياها فقال: ما كان لك أن تسأليني وما كان لى أن أعطيك، فكان يضع ما يأتيه منها فى أبناء السبيل، ثم ولى أبو بكر وعمر وعثمان وعليّ فوضعوا ذلك بحيث وضعه رسول الله، ثم ولى معاوية فأقطعها مروان بن الحكم، فوهبها مروان لأبى ولعبد الملك، فصارت لى وللوليد وسليمان، فلما ولى الوليد سألته حصته منها فوهبها لى، وسألت سليمان حصته منها فوهبها لى، فاستجمعتها، وما كان لى من مال أحب إلى منها، فاشهدوا أنني قد رددتها إلى ما كانت عليه».

* * *

فى هاتين المسألتين نرى السيدة فاطمة على غير مألوفها من العكوف على شئون بنيها والابتعاد من الحياة العامة، لأن كلتا المسألتين تدور حول حقها ووشيجة قرباها، وهما مسألة الخلافة بعد النبى ومسألة الميراث من فيئه، وإحداهما مما نسميه فى لغة عصرنا بالسياسة العليا، والأخرى مما نسميه بسياسة الحكومة المالية أو الاقتصادية، ولكل منهما جوانب متفرعة يعالجها مؤرخ الحوادث والسياسات من نحوها. أما فى الدراسات النفسية فالمهم فيهما وفى غيرهما هو ما تترجمان عنه من خلائق صاحبة السيرة، وما تترجمان عنه حين نوجزه هو قوة إيمان بحقها تثبت عليه و«شخصية» مستقلة لا يهمل لها حساب.

وفاتها

قلنا فى «عبقرية محمد»:

«حفظ النوع سر من أسرار الحياة الكبرى التى دقت عن الفهم وحارت فى تعليلها عقول الأساطين من أهل العلم والحكمة، وهو لا ريب يجرى على قانون مطرد فى جميع طبقات الأحياء، وإن كنا لا نعلم كنهه ولا نسبر عمقه ولا نزيد على استقصاء بعض الملاحظات التى تقارب الحقيقة، أو هى أقرب ما نستطيع الوصول إليه.

«وأهم هذه الملاحظات التقريبية أنه يجرى على سنة المكافأة والتعويض فى معظم حالاته، فيقابل النقص فى جانب بالزيادة فى جانب آخر، ويقابل القصور فى مزية من المزايا بالإتقان فى مزية أخرى..

* * *

«فالأحياء السفلى عرضة للعطب الكثير فى طور الولادة والحضانة، فيقابل هذا أن الأحياء السفلى ترسل ذرياتها بالألوف وألوف الألوف، فيبقى منها القليل الكافى لدوام النوع بعد فناء الكثير.

«والأحياء العليا يقل عدد المولود منها فى البطن الواحد، فيقابل هذا أن تطول حضانتها والعناية بها، وتجد من وسائل الصيانة ما يعوض الكثرة فى الأحياء السفلى.

«ويغلب أن يزيد النسل حين تكون زيادة النسل هى الوسيلة الوحيدة التى يستطيعها الفرد لخدمة نوعه وضمان دوامه، فإذا تيسرت للفرد وسائل مختلفة لخدمة نوعه فقد يجوز ذلك على نسله وينتقص من قسمة فى أبنائه، كأنما خدمة النوع ضريبة مفروضة على كل فرد فى صورة من الصور، فإذا أداها فى صورة أعفى منها فى الصور الأخرى، أو كأنما هى مواهب وأرزاق لا يستوفيها الفرد الواحد إلا بثمن غال يحسب عليه، ويؤدى حسابه للنوع على نحو من الأنحاء.

«والإنسان هو أقدر المخلوقات الحية على خدمة نوعه بوسائل كثيرة لا تنحصر فى تجديد النسل وزيادة عدده.

«فهل يجوز لنا أن نقول إن العظماء الذين حرموا النسل قد أدوا ضريبتهم بإصلاح شئون الناس فلم يبق من اللازم المفروض عليهم أن يؤدوا هذه الضريبة من طريق الذرية؟

* * *

«إن قلنا ذلك فإنما نقول على سبيل الملاحظة التقريبية التى أشرنا إليها، ولا نبلغ بتلك الملاحظة فوق مبلغها من اليقين الذى تستحقه، فغاية مبلغها عندنا أنها تستوقف النظر للتأمل والمراجعة وتفضى بنا إلى الجزم أو إلى التغليب..

«فبعض العظماء من أكبر خدام النوع لم يتزوجوا، وفيهم أنبياء معظمون لا شك فى سيرتهم من هذه الناحية، كعيسى عليه السلام.

«وبعض العظماء الذين تزوجوا لم يرزقوا الذرية، أو رزقوا ذرية كلها إناث، أو رزقوا ذرية من الإناث والذكور ولم يعيشوا، أو عاشوا ولم يعمروا ولا كانوا على حالة مستحبة من الصحة والنجابة..

«وتواريخ العظماء فى جميع نواحى العظمة، وفى جميع الأمم، وفى جميع العصور، حافلة بالشواهد التى تعزز تلك الملاحظة وتجعلها خليقة بالتأمل والمراجعة، يدخل فيهم القديسون كما يدخل فيهم الحكماء، ويدخل فيهم العلماء كما يدخل فيهم رجال الفنون والمخترعون ويدخل فيهم القادة العسكريون.. ولا يصعب على أحد أن يدير بصره إلى فترة من الزمن فى بلد قريب يعرفه حق المعرفة ليشاهد مصداق ذلك فى نفر من عظمائه ومشهوريه، وحسبنا فى مصر أسماء جمال الدين الأفغانى ومحمد عبده وسعد زغلول وعبد الله نديم ومصطفى كامل ومصطفى فهمى ومحمود سامى البارودى وحافظ إبراهيم.

«فإذا جاز لنا أن نقف عند الملاحظة وأن نتأمل مغزاها، وجاز لنا أن نفهم أن إصلاح شئون النوع الإنسانى ضريبة تغنى عن ضريبة الذرية فى بعض الأحوال، فأين ترانا نجد تلك الضريبة فى أرفع حالة وأغلى قيمة إن لم نجدها فى رسالة نبوية تتناول الأجيال وتتناول الملايين فى كل جيل؟ وأى أبوة روحانية تغنى عن أبوة اللحم والدم كما تغنى أبوة

النبى الذى يتكفل بتربية الأرواح فى أمته، وفى أمم لا يلقاها فى زمانه، وأمم لا تزال تستجد بعد زمانه إلى أقصى الزمان؟

«نذكر هذا حين نذكر حظ محمد من الأبوة الروحية ومن الأبوة النوعية، ونرى تكافؤاً فى الجانبين جديرًا بالملاحظة والاعتبار».

* * *

نعم ونذكر هذا حين نذكر وفاة الزهراء فى زهرة الشباب، فى الثلاثين أو ما دون الثلاثين.

مات الذكور من ذرية محمد صغارًا لم يجاوزوا سن الرضاع وعاش الإناث من ذريته ولم يرزقن طول العمر، ومنهن من لم ترزق قوة البنية فى عنفوان الشباب..

وكانت الزهراء نحيلة سمراء، يمازج لونها شحوب فى كثير من الأوقات، وقد رآها النبى عليه السلام فى مرض وفاته فقال لها إنها أسرع أهله لحوقًا به، فلم تمض ستة أشهر، وقيل أقل من ذلك، حتى لحقت به فى تلك السن التى تستقبل فيها الحياة.

وكانت تشكو حيناً بعد حين، ويعودها النبى يواسيها فى مرضها فإذا هو يواسيها كذلك فى حاجتها، زارها يومًا وهى مريضة فقال لها: «كيف تجدينك يابنية؟» فقالت: «إنى لوجعة». ثم قالت: «وإنه ليزيدنى أنى مالى طعام آكله..» فاستعبر عليه السلام وقال: «يابنية!.. أما ترضين أنك سيدة نساء العالمين!»..

وزارها يومًا وهى تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الإبل فبكى وقال: «تجرعى يا فاطمة مرارة الدنيا لنعيم الآخرة».

ولم يكن صلوات الله عليه يضن على فاطمة بما يملك من الأنفال، فكان يخصها بالقسم الأوفى من حصته كلما فرق رزقًا بين ذويه وزوجاته، ولكنها كانت فاقة تعمهم جميعا حين لا يجد النبى ما يفرقه بينهم، وقد شكت زوجاته تلك الفاقة فخيرهن بين التسريح لينعمن بالحياة الدنيا وزينتها، أو يردن الله ورسوله فيصبرن على ما هو صابر عليه!

الله أكبر!..

* * *

مثل محمد يعلو على إشفاق المشفقين، ومن كان فى قدرته أن ينعم من الدنيا بما يقطع قلوب الحاسدين حسدًا ثم يرضى لنفسه وآله منزلة الإشفاق، فذلك هو الإعظام غاية الإعظام، وذلك هو المرتقى الذى قيل فيه:

وبعيد بلوغ هاتيك جدا   تلك عليا مراتب الأنبياء

إن محمدًا يبكى لأنه يرى أحب الناس إليه وأقربهم منه جائعة مرهقة، ثم لا يملك لها ما يشبعها ويعفيها من عنائها، وهو يملك كل شىء فى الجزيرة العربية.. ويسأل السائلون من زعانفة المعطلين والمتعصبين أعداء كل دين: «ما برهان النبوة عند محمد!؟».

الله أكبر.. إن لم يكن هذا برهان النبوة فبرهان أى شىء يكون؟

* * *

ولم يكن بالزهراء من سقم كامن يعرف من وصفه، فإن العرب لوصافون وإن من كان حولها من آل بيتها لمن أقدر العرب على وصف الصحة والسقم، فما وقفنا من كلامهم وهم يصفونها فى أحوال شكواها على شىء يشبه أعراض الأمراض التى تذهب بالناس فى مقتبل الشباب، وكل ما يتبين من كلامهم أنه الجهد والضعف والحزن، وربما اجتمع إليها إعياء الولادة فى غير موعدها، إن صح أنها أسقطت «محسنا» بعد فاة النبى كما جاء فى بعض الأخبار.

ونعود فنقول إنها ضريبة النبوة، وكم للهداية من ضريبة تضاعف على الهداة مرات بعد مرات!

* * *

وحضرها الموت.. وخذلتها جوارحها، وعزيمتها فى مواجهة الموت حاضرة لا تخذلها، فتولت أمر غسلها وحملها على النعش بنفسها، وقالت لصاحبتها أسماء بنت عميس بعد أن اغتسلت كأحسن ما كانت تغتسل: «يا أمه، ائتينى بثيابى الجدد»، فلبستها ثم قالت: «قد اغتسلت، فلا يكشفن لى أحد كنفًا»، وشكت نحول جسمها فقالت لصاحبتها: «أتستطيعين أن توارينى بشىء؟» قالت: «إنى رأيت الحبشة يعملون السرير للمرأة ويشدون النعش بقوائم السرير» فعمل لها نعشها قبل وفاتها، ونظرت إليه فقالت:

«سترثمونى ستركم الله..» وتبسمت، ولم تر مبتسمة بعد وفاة أبيها إلا ساعتها..

* * *

وكانت وفاتها، على القول الأشهر، ليلة الثلاثاء لثلاث خلون من رمضان سنة إحدى عشرة للهجرة، ودفنت ليلاً حسب وصايتها كما دفن رسول الله..

فى كل دين صورة للأنوثة الكاملة المقدسة يتخشع بتقديسها المؤمنون كأنما هى آية الله فيما خلق من ذكر وأنثى..

فإذا تقدست فى المسيحية صورة مريم العذراء، ففى الإسلام لا جرم تتقدس صورة فاطمة البتول.

شخصية الزهراء

من الواضح البين أن الزهراء أخذت مكانها الرفيع بين أعلام النساء فى التاريخ لأنها بنت نبى، وزوجة إمام، وأم شهداء..

ولكن لا يتضح هذا الوضوح، ولا يبين هذا البيان، أنها تأخذ مكانها هذا «بحقها الشخصى» أو بصفاتها التى كان لها أثر فى حوادث التاريخ.

وهذا الذى نحب أن نقرره فى الكتابة عن الزهراء، فهى أصل قوى من أصول الدعوة التى ثبتت فى مجرى الزمن أجيالاً طوالاً ولم تزل لها آثارها فى عصرنا هذا، وفيما يلى من العصور.

ولم يعرف التاريخ نظيراً لثبات بنى على وفاطمة على حقهم فى الإمامة، أو فى الخلافة..

* * *

حوربوا فيها زمناً، وتولاها من لا شك عندهم ولا عند الناس فى فضلهم عليه، كيزيد ابن معاوية. فأنفوا أن يتركوها استخذاء وخضوعًا، وحاربوا فيها كما حوربوا، وصمدوا للطلب الحثيث طالبين ومطلوبين مائة سنة، ثم مائتين، ثم ثلثمائة سنة، حتى دانت لهم الخلافة باسمهم فى عهد الدولة الفاطمية.

لولا خصال فيهم تعين على هذا النضال لما ثبتوا عليه هذا الثبات، ولا استطاعوا أن يصمدوا للعسف والعنت من بنى أمية ثم من بنى العباس، ومعهم فى المشرق والمغرب أعوان وأتباع، وقد وجدوا غاية الجد فى نكالهم بأبناء على وفاطمة فى كل مكان، وصنعوا بهم ما كان خليقًا أن يستأصلهم استئصالاً أو يرغمهم على اليأس والتسليم.

ولكنهم نجوا من الاستئصال بقضاء لا حيلة فيه للحاكمين المسيطرين، وخطر لهم كل خاطر إلا أن يستكينوا للرغم ويسلموا للسيف، ويقعدوا مع الخالفين..

لولا خصال فيهم لما كان هذا منهم.

فإذا كان مرجع هذه الخصال إلى وراثة، ولابد لها من نصيب من الوراثة، فقد ورثوها عن فاطمة كما ورثوها عن علي، بل هي إلى ميراثهم من الزهراء أقرب منها إلى ميراثهم من الإمام.

بعض الأخبار يفيد إن صح، وإن لم يصح، ومن هذه الأخبار خبر الرواة الذين قالوا إن عليًّا جامل فاطمة فلم يبايع أبا بكر إلا بعد وفاتها.

إن صح هذا الخبر أو لم يصح فدلالته صحيحة، وهي اعتقاد الناس في ذلك العصر أن القضية قضية الزهراء وأن الإمام يجاملها فلا يغضبها، وأنه كان يرى أن الخلافة أحق بأن تطلبه معرفة بحقه، فإن لم تعرف له هذا الحق فما هو بالحريص على الشغل بها والتدبير لطلبها والسعي إليها..

* * *

وفي غير هذا الخبر ما يدل هذه الدلالة، وربما كان من تلك الأخبار ما يعبره المؤرخ ولا يلقي إليه بالاً، وهو في هذا الباب أدل من كثير، كالخبر الذي روي عن الحسن عليه السلام وهو بعد طفل صغير.

رووا أن الصديق رضي الله عنه قام على المنبر يخطب الناس، فما هو إلا أن حمد الله وأخذ في خطبته حتى سمع وسمع الحاضرون معه صوتاً. نحيًلا يهتف به: «ليس هذا منبر أبيك، انزل عن منبر أبي..».

والتفتوا فإذا بالصائح هو الحسن بن علي، ولما يبلغ الثامنة، فابتسم الصديق وقال والحنو يشيع نفسه: «ابن بنت رسول الله؟ صدقت والله.. ما كان لأبي منبر، وإنه لمنبر أبيك»..

وسمع علي بالخبر فأرسل إلى أبي بكر رسوًلا يقول له: «اغفر ما كان من الغلام، فإنه حدث، ولم نأمره».

قال أبو بكر: «إني أعلم. وما اتهمت أبا الحسن».

وليست الزهراء ولا ريب هي التي أمرت الغلام الصغير أن يقول هذا المقال.. ولكن الطفل يفهم عن أمه في هذه السن ما يغنيه عن الأمر والإيحاء، ولعل الحسن كان قد سمع

نقاشا يتكرر بين أبويه فى هذا الأمر، فوقر فى نفسه أن يثور تلك الثورة الصغيرة، ثم نهى عنها فلم يعاودها..

* * *

فى خلائق السيدة فاطمة مدد صالح للثبات على الحق الذى يعتقده صاحبه، أو يذاد عنه فلا ينكص عنه على رغم.

كانت شديدة الاعتزاز بانتسابها إلى أبيها، وكانت مفطورة على يقين التدين، وكانت ذات إرادة لا تهمل فى حساب شأن من شئونها، فظهر منها فى المواقف القليلة التى نقلت عنها أنها كانت ذات إرادة لا تنسى فى الحساب..

كان من اعتزازها بالانتساب إلى أبيها أنها كانت تسر بمشابهة أبنائها لأبيها، وكانت تذكر ذلك حين تدللهم وتلاعبهم، فلم يكن أحب إليها من أن يقال لها إن أسباط رسول الله يشبهون رسول الله..

وكانت فطرة التدين فيها وراثة من أبوين: كان حسبها ما ورثته من خاتم الأنبياء وما تعلمته منه بالتربية والمجاورة، ولكنها أضافت إليه ما ورثته من أمها، أمها بنت خويلد الذى تصدى لعاهل اليمن غيرة منه على الكعبة، وابنة عم ورقة بن نوفل الذى شغل بالدين فى الجاهلية حتى فرغ له حياته، غير مدعو ولا مأمور.

* * *

ومن فطرة التدين فى وريثة محمد وخديجة أنها كانت شديدة التحرج فيما اعتقدته من أوامر الدين، حتى وهمت أن أكل الطعام المطبوخ يوجب الوضوء، يظهر ذلك من حديث الحسن بن الحسن عن فاطمة حيث قالت: «دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأكل عرقًا فجاء بلال بالآذان، فقام ليصلى، فأخذت بثوبه فقلت: يا أبه! ألا تتوضأ فقال مِمَّ أتوضّأ يا بنية؟ فقلت: مما مست النار. فقال لى: أوليس أطيب طعامكم ما مست النار؟»..

فهى فيما تجهله تتحرج ولا تترخص وتؤثر الشدة مع نفسها على الهوادة معها.. وقد ذكر غير واحد من الصحابة، وذكرت السيدة عائشة، أنها كانت أشبه الناس بمحمد فى مشيتها وحديثها وكلامها، وزادت عائشة فقالت: ما رأيت أفضل من فاطمة غير أبيها،

واستغربت مرة أن تكون فاطمة كسائر النساء حين رأتها تبكى ثم تضحك إلى جوار رسول الله فى مرض وفاته، ثم علمت أنها ضحكت لأنها سمعت من أبيها أنها لاحقة به عما قريب.

أما أنها كانت رضى الله عنها ذات إرادة لا تهمل، فقد بدا فى ذلك فى أمر زواجها، وفى محاجتها لزوجها، ومحاجتها لأبى بكر وعمر، وفيما كان يتوخاه على من مرضاتها بصدد المبايعة قبل وفاتها.

* * *

وقد يكون من دلائل الإرادة فى المرأة خاصة أنها تلزم الصمت ولا تكثر الكلام، وقد كان من عادة الزهراء أنها لا تتكلم حتى تسأل، وأنها لا تعجل إلى الحديث فيما تعلم فضلاً عما لا تعلم، ولهذا انحصرت أحاديثها عن أبيها فيما كانت تسمعه منه بين البيت والمسجد، ولم تزد عليه.

ولا ننسى أن الزهراء قد غوضرت وهى فى الثلاثين أو قبل الثلاثين، فإذا ظهر منها هذا الجد وهذا اليقين وهذه العزة وهذه الإرادة وهى فى تلك السن الباكرة فذاك ولا شك دليل على قوة كامنة يرجع إليها حين يفسر المفسرون خلائق بنيها وما عساهم قد استمدوه من هذا الميراث المكين.

الذرية الفاطمية

كانت العرب أمة نسابة، يعنيها النسب لأنها تعتمد عليه فى مفاخرها كما تعتمد عليه فى مصائرها، فهو الذى يعين لها أصول قبائلها وأصول ذوى الرئاسة فيها، وهو كذلك يعين لها من يطالبونه بثأر ويحاسبونه على جريرة، ومن يلحق بهم عاره ويبرءون منه أو يخلعونه، فالخليع عندهم من لا خلاق له فلا هو يبالى بشيء ولا يبالى به أحد، ولا يوجد من يسأل عن دمه أو يحفل بحياته وموته.

إن الخليع عندهم هو القطيع عن نسبه.

ولهذا حفظوا أنسابهم فى الجاهلية ما استطاعوا وجاءهم الخطأ فيها من تقادم العهد وكثرة الرحلة وجهل الكتابة والقراءة.

وبعد الإسلام وجب حفظ الأنساب ولجئوا إليه فى تدوين الدواوين كما لجئوا إليه فى ميادين القتال، فكلما حمى وطيس القتال نودى فى القوم: انتسبوا. ليستحى المرتد من الهزيمة التى يلحق عارها به وبذريته ما بقيت لهم سيرة فى ذاكرة..

* * *

وعظمت العناية خاصة بذرية النبى عليه السلام، صونًا للنسب الشريف، ودفعًا للأدعياء من طلاب الخلافة، فلم يقع لبس قط فى نسب أبناء فاطمة مدى الصدر الأول من الإسلام.. ولم ينهض منهم قط إمام مشكوك فى نسبه على عهد الدولة الأموية، ولم يكن الشك فى النسب مطعنًا فى دعوى أحد منهم بعد قيام الدولة العباسية، ولم يزل أمرهم كذلك إلى أن قامت لهم دولة بالمغرب وسميت بالدولة الفاطمية. أما قبل ذلك فقد كان دعاة الدولة العباسية يناقشونهم الحجة فى حق الخلافة مع اعترافهم بانتسابهم إلى السيدة فاطمة، ولا ينكرون عليهم صحة الانتساب إليها رضى الله عنها.

ومن ذاك ما روى عن المأمون أنه قال يومًا لعلى بن موسى الرضا: «بم تدعون هذا

الأمر؟ قال: بقرابة على من رسول الله وبقرابة فاطمة رضى الله عنها، فقال له المامون: إن لم يكن ها هنا إلا القرابة فقد خلف رسول الله صلى الله عليه وسلم من كان أقرب إليه من على أو من فى مثل قدره، وإن كان بقرابة فاطمة من رسول الله صلى الله عليه وسلم فإن الحق بعد فاطمة للحسن والحسين، وليس لعلى فى هذا الأمر حق وهما حيان، فإن كان الأمر كذلك فإن عليًّا قد ابتزهما حقهما وهما صحيحان، واستولى على ما لا يجب له».

قال رواة هذا الحديث: «فما أجابه على بن موسى بشىء»

وظاهر أن على بن موسى قد لزم الصمت هنا على حد قول أبى العلاء:

تلوا باطلًا وجلوا صارمًا وقالوا: صدقنا؟ فقلنا: نعم!

* * *

وإلا فما كان لحجة من أبناء على وفاطمة – وقد رزقوا اللَّسَن والفصاحة – ان يعجز فى هذا المقام عن الكلام الذى يقال فى الرد على كلام المأمون، وأقربه على اللسان أن عليًّا إن كان قد استولى على حقه فهم ورثته، وإن كان قد استولى على غير حقه فهم أصحاب الحق، وقد سمع خلفاء بنى العباس كلامًا كهذا وأشد من هذا من الخارجين عليهم باسم العلويين والفاطميين، وأيسره أن أحدًا من جدود بنى العباس فى حياة الحسن والحسين لم يطلب الخلافة حين طلباها.

إلا أن دعاة الدولة العباسية إنما كانوا يدفعون دعوى العلويين بمثل حجة المأمون ولا يتعرضون لصحة النسبة، ولا يجسرون على محاربة الولاء للمنتسبين إلى الزهراء، إلا أن يدعوا عليه أنه حمل السيف وخرج للقتال أو أعلن العصيان.

قال العتبى: «كان بين شريك القاضى والربيع حاجب المهدى معارضة، فكان الربيع يحمل عليه المهدى فلا يلتفت إليه، حتى رأى المهدى فى منامه شريكًا القاضى مصروفا وجهه عنه، فلما استيقظ من نومه دعا الربيع وقص عليه رؤياه فقال: يا أمير المؤمنين! إن شريكًا مخالف لك، وإنه فاطمى محض. قال المهدى: على به! فلما دخل عليه قال له: يا شريك! بلغنى أنك فاطمى. قال شريك: أعيذك بالله يا أمير المؤمنين أن تكون غير فاطمى. إلا أن تعنى فاطمة بنت كسرى! أفتلعنها يا أمير المؤمنين؟ قال المهدى: معاذ

الله.. قال: فماذا تقول فيمن يلعنها؟ قال: عليه لعنة الله! قال: فالعن هذا – وأشار إلى الربيع – فإنه يلعنها، قال الربيع: لا والله يا أمير المؤمنين ما ألعنها. فقال شريك: يا ماجن! فما ذكرك لسيدة نساء العالمين وابنة سيد المرسلين في مجالس الرجال؟ قال المهدى: دعنى من هذا. فإنى رأيتك فى منامى كأنك مصروف عنى وقفاك إلى، وما ذلك إلا بخلافك على، ورأيت فى منامى كأنى أقتل زنديقًا. قال شريك: إن رؤياك يا أمير المؤمنين ليست برؤيا يوسف الصديق صلوات الله على محمد وعليه، وإن الدماء لا تستحل بالأحلام، وإن علامة الزندقة بينة. قال: وما هى؟ قال: شرب الخمر والرشا فى الحكم ومهر البغى. قال: صدقت، والله يا أبا عبد الله. انت والله خير من الذى حملنى عليك».

* * *

وحدث مثل هذا فى معارض كثيرة، فوشى بأناس أنهم يوالون أبناء فاطمة فلم يجسر الخلفاء على المساس بهم، واضطروا إلى التعلل لهم بغير تلك العلة..

ثم هجمت الدعوة الفاطمية على الدولة العباسية بما لا طاقة لها بدفعه مع الاعتراف بنسب أصحاب الدعوة، فانتقلوا من المناقشة بالحجة فى حق العم وابن العم، والموازنة بين حق العباس عم النبى، وحق على ابن عمه، إلى إنكار النسب بتة، وساعدهم على ذلك تفرق الأئمة الفاطميين فى الأرجاء واستتارهم بالدعوة ووقوع اللبس فى الكنى والألقاب، فطعنوا فى انتساب الفاطميين إلى السيدة فاطمة، وأذاعوا عنهم ذلك المنشور الذى سيأتى ذكره فى القسم الثانى من الكتاب، واشترك فى هذه المنابذات أناس من علماء النسابين شملتهم غواية السياسة كما شملت غيرهم، وكان من عبرتهم أن هوى السياسة لا يؤمن على عقل الحكيم ولا على علم العليم.

مثال هذا أن صاحب كتاب جمهرة الأنساب، وهو الفيلسوف الحكيم ابن حزم، لم يسلم من فتنة هذه الغواية فقال وهو يتكلم عن ذرية إسماعيل بن جعفر الذى ينتسب إليه الفاطميون ويسمون من أجل ذلك بالإسماعيلية: «وادعى عبيد الله القائم بالمغرب أنه أخو الحسن البغيض هذا، وشهد له بذلك رجل من بنى البغيض وشهد له بذلك جعفر ابن محمد بن الحسين بن أبى الحر على بن محمد الشاعر بن على بن إسماعيل ابن جعفر، ومرة ادعى أنه ولد الحسين بن محمد بن إسماعيل بن جعفر، وكل هذه دعوى مفتضحة، لأن محمد بن إسماعيل بن جعفر لم يكن له قط ولد اسمه الحسين،

وهذا كذب فاحش، ولأن هذا النسب لا يخفى على من له أقل علم بالنسب ولا يجهل أهله إلا جاهل».

* * *

ونحن نخص ابن حزم بالذكر فى هذا المعرض لأنه مثل للنقيضين المتقابلين فيما يوجب الثقة وما يوجب الشك غاية الشك، فى مؤلف واحد، ونسابة واحد..

فعلم ابن حزم بالأسانيد والأنساب معروف، ولكنه فى هذا المعرض خاصة عرضة للهوى كأشد ما يكون الهوى، حتى ليكون تكذيبه لرواية داعية من دواعى احتمالها وقبولها.

كان ابن حزم أمويا غاليا فى التشيع للأموية، وكانت دولتهم فى الأندلس على خطر من الدعوة الإسماعيلية، وبلغ من كراهته للإسماعيليين أنه تحول من المذهب الشافعى إلى المذهب الظاهرى، أى المذهب الذى يأخذ بظاهر النص ويرفض التأويل، لأن مذهب الإسماعيليين يقول بالتأويل وبأنه من حق الإمام..

بل قد بلغ من كراهته القوم أنه لا يطيق أن يذكر الرجل منهم بلقبه المتعارف عليه، فيلقبه بالبغيض بدلاً من الحبيب، ولعله لم يضع كتابه فى جمهرة أنساب العرب إلا ليثبت حق بنى أمية فى الخلافة لأنهم من قريش فصعد بحق الخلافة إلى جد الأمويين والهاشميين وقال فى مقدمة كتابه: «ومن الغرض فى علم النسب أن يعلم المرء أن الخلافة لا تجوز إلا فى ولد فهر بن مالك بن النضر بن كنانة، ولو وسع جهل هذا لأمكن ادعاء الخلافة لمن لا تحل له، وهذا لا يجوز أصلًا..». وقد ترقى ابن حزم من الحديث عن الفاطميين إلى المناقشة فى معنى الحديث القائل إن فاطمة سيدة النساء، وإنه لا يعنى أنها أفضل نساء العالمين!

* * *

ونحن ننزه ابن حزم عن تعمد الافتراء، ولكننا نقول إن هواه قد جنح به إلى ما ليس بحجة من إثبات نسب أو دفع نسب، ولولا ذلك لوقف على الأقل موقف التردد بين النفى والإثبات.

وفيما يلى كلام يتناول هذا الموضوع ببعض التفصيل، ونسلف القول فى تلخيصه فنقول: إننا لا نزعم أننا وقفنا على الدليل القاطع الذى يثبت نسب عبيد الله رأس الدولة الفاطمية، ولكننا لم نقف على دليل قاطع ينفى ذلك النسب، ووقفنا على شبهات كثيرة توجب الشك فى مطاعن الطاعنين، وهذه الشبهات فى روايات نسابة كابن حزم نموذج لما وقفنا عليه.

القسم الثانى

.. والفاطميون

* الفاطميون...
* النسب...
* الباطنية...
* الباطنية الفاطمية...
* حسن بن الصباح..
* بناة وهدامون.. ومهدومون..
* حضارة محتضرة...

الفاطميون

كل أبناء السيدة فاطمة الزهراء فاطميون، ولكن اسم الفاطميين يطلق فى تاريخ الدول على أبناء إسماعيل بن الإمام جعفر الصادق، ويسمون من أجل هذا بالإسماعيليين.

وقد كان أبناء الزهراء يعرفون أحياناً باسم آل البيت، فلما استأثر العباسيون بالخلافة غلب عليهم اسم العلويين.

وجاء الفاطميون ففضلوا الانتماء إلى الزهراء، لأنهم يقيمون حقهم فى الخلافة على أنهم أسباط النبى عليه السلام، وأنهم أبناء الوصى على بن أبى طالب، ولكن العباسيين ينازعونهم دعوى الوصاية وينكرونها، ويقولون إن الانتساب إلى النبى من جانب عمه العباس أقرب من جانب على ابن عمه أبى طالب ومن أجل هذا يتسمى الفاطميون بهذا الاسم لأن بنوة الزهراء نسب لا يدعيه العباسيون.

أما تغليب اسم الإسماعيليين عليهم فمرجعه انتماؤهم إلى إسماعيل بن جعفر الصادق، وقولهم إنه هو الإمام بعد أبيه، وبهذا الاسم يتميزن من أبناء السيدة فاطمة الآخرين، وهم ذرية موسى الكاظم، وهو الأحق بالإمامة فى مذهب الإماميين الاثنى عشريين.

وقد كان الإمام جعفر الصادق وصى بالإمامة بعده لابنه الأكبر إسماعيل، ثم نحاه عنها ووصى بها لابنه موسى الكاظم، وقيل فى أسباب ذلك إنه علم أن إسماعيل يشرب الخمر، وقيل إن إسماعيل مات فى حياة أبيه فانتقلت ولاية العهد إلى أخيه.

أما الإسماعيليون فمذهبهم أن تحويل الولاية لا يجوز، لأن الولاية أمر من الله يتلقاه الإمام المعصوم، والبداء لا يجوز على الله، ويعنون بالبداء أن يبدو لله أمر فيعدل عما أمر به قبل ذاك.

ومن الإسماعيليين من ينفى موت إسماعيل فى حياة أبيه، ويقولون إنه شوهد بعد تاريخ الإشهاد على وفاته، وإنما أشهد أبوه على وفاته خوفاً عليه من الغيلة ومن تربص الخلفاء العباسيين به كما كانوا يصنعون بالعلويين المرشحين للدعوة، واستدلوا على هذا بالإشهاد على وفاته وتوقيع الشهود عليه، إذ لم تجر العادة بمثل هذا الإشهاد لولا الحيطة والتقية.

والخلاف بين الإسماعيليين وبين سائر الفاطميين قائم على إمامة إسماعيل، والإماميون الذين لا يسلمون الإمامة لإسماعيل وذريته طوائف متعددة، أهمها وأكبرها طائفة الإماميين المعروفين بالاثنى عشريين، لأنهم ينتهون بالإمامة إلى محمد المنتظر بن الإمام حسن العسكرى، وعندهم أنه سيظهر فى زمانه الموعود، ولهذا يدعون بتعجيل فَرَجِه كلما ذكروه.

ويتفق الإماميون على اعتقادهم عصمة الإمام فى تبليغ شئون الإمامة لأنه موئل السؤال والفتوى فى أحكام الدين والدنيا فلا يجوز الخطأ عليه فى هذه الأحكام.

ويضيف الإسماعيليون إلى أسباب العصمة عقيدة التأويل، فإن أحكام الدين عندهم لها ظاهر وباطن، ولا يعلم تأويلها غير الله والراسخين فى العلم؛ والأئمة هم الراسخون فى العلم وهم أولى الناس أن يعلموا ما ليس يعلمه المؤمنون..

ولهذا يسمى الإسماعيليون بالباطنيين، ومنهم من لا يقصر أمور الباطن على أحكام الدين وآيات الكتاب، بل يقولون إن كل موجود على الأرض له نظير فى الفلك الأعلى، وإن مقادير هذه الموجودات تابعة للمقادير التى تجرى على نظرائها فى السماء.

ولما استتر الأئمة شاع بينهم علم النجوم والرياضة والفلسفة على العموم، وكان الإماميون من عهد علىّ رضى الله عنه يؤمنون بإلهامه واطلاعه على أسرار كتاب الجفر وما إليه من كتب النجوم، ولكن الأئمة الإسماعيليين أمعنوا فى دراسة هذه العلوم، لأنهم لاذوا بالخفاء فى عهد انتشارها وازدهارها، وأصبح علمهم بالأسرار خاصة مطلوباً منهم فوق علمهم الراسخ بشئون الإمامة فى الدنيا والدين، فإذا سأل السائلون عن أمر مستور فأولى الناس بعلمه الإمام المستور الذى يعلم مواطن السر والجهر، ويتحين أوقات الفلك لإظهار ما خفى من أمور الدعوة وأمور الإمامة، وكل أمر ترتبط به مصالح العباد.

ودخل عدد الأئمة نفسه فى خصائص الإعداد، فمن قديم الزمن يعتقد أصحاب النجوم سرًّا خاصًّا فى عدد السبعة، وعدد الاثنى عشر، ويستشهدون على ذلك بعدد الأفلاك السبعة وعدد أيام الأسبوع وعدد فتحات الوجه، كما يستشهدون عليه بعدد الشهور وعدد البروج السماوية وعدد أسباط بنى إسرائيل، وعلى هذا يدور الخلاف بين المهتمين بالتنجيم على عدد الأئمة أهو سبعة أم اثنا عشر.. ولكل منهم فيه كلام طويل.

* * *

وللإماميين فروق يبسطونها بين النبى والإمام والحجة والنقيب، فالنبى يبعث فى زمان بعد زمان، والإمام قائم فى كل زمان، وقد يكون الإمام إماماً مستقرًّا فهو صاحب الحق فى التوصية لخليفته من بعده، أو إماماً مستودعاً فهو يحمل أمانة الإمامة لضرورة موقوتة ثم يردها إلى صاحبها ولاحق له فى التوصية لغيره. أما الحجة فهو لازم فى الخفاء إذا كان الإمام ظاهراً فى العلانية، لأن الإمام الظاهر عرضة للضرورات فلابد معه من حجة يرجع إليها لاستبانة الحقائق بمعزل عن ضرورات السياسة، أما إذا استتر الإمام فلابد له من حجة ظاهرة، وقد يسمون الإمام بالناطق أو بالصامت تبعاً للظهور والخفاء والمجاهرة بالحكم والتأويل فيه.

أما النقباء فالغالب أنهم دعاة أو وكلاء، ولابد لهم من أئمة يرجعون إليهم فى كل زمان..

أعلنت وفاة إسماعيل فى حياة أبيه كما تقدم، فانعقدت الإمامة بعده لابنه محمد، وارتحل محمد من الحجاز إلى الرى، إما لأنه لم يطلق منافسة عمه موسى الكاظم على زعامة العلويين. وإما لأنه آثر الانزواء والتستر ودفع الأذى من جانب العباسيين، وقد لقب بالإمام المكتوم لأنه لم يعلن دعوته وأخذ فى بثها خفية وهو يتنقل من بلد إلى بلد ومن قطر إلى قطر كلما تنبهت إليه العيون ولاحقته الظنون، ثم ضاق المشرق كله بخلفائه فهجره عبيد الله إلى المغرب، وكان أول من نودى له بالخلافة الفاطمية.

ونسبه كما يقره المعترفون بهذا النسب هو عبيد الله بن أحمد بن إسماعيل الثانى بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق. أما القائلون بانتسابه إلى ميمون القداح – كما سيلى – فهو فى زعمهم محمد بن عبد الله بن ميمون بن محمد بن إسماعيل بن جعفر الصادق

ويوفق المؤرخ الهندى «مأمور»[1] بين الروايتين توفيقاً محتملاً جد الاحتمال فيقول إن محمداً المكتوم كان يخفى نفسه ويتعاطى طب العيون مداراة لحقيقته، وإن اسم «ميمون» كان من الأسماء التى انتحلها فى حال استتاره، والقداح هو لقب الطبيب الذى يعالج العيون.

ولا نهاية للروايات والتخريجات التى تعلل سفره من المشرق إلى المغرب فمن الرواة من يزعم أنه علم بتآمر القرامطة عليه فخرج من سلمية حيث كان مقيماً بجوار حمص ورحل إلى مصر وهو يورى بالرحلة إلى اليمن، ومن قائل إن بعض جلساء الخليفة العباسى ممن يدينون بالمذهب الإسماعيلى سرًّا، قد علم بعزم الخليفة على اعتقاله وقتله فبادر إلى تحذيره، ومن قائل إنه تلقى البشارة من كبير دعاته فى المغرب بانتشار البيعة له بين القبائل المغربية فرحل إلى المغرب ليتولى الأمر بنفسه فى هذه الفترة الحاسمة، وتتفق الروايات على أنه حينما سافر إلى مصر وانتقل منها إلى المغرب كان مطارداً وكان على رأسه جعل لمن يأتى به حيًّا أو ميتاً حيث كان.

والروايات تتفق كذلك على أن الدعوة كانت موكولة فى المغرب إلى أبى عبيد الله الصنعانى من صنعاء اليمن، واسمه الكامل هو الحسن بن أحمد بن محمد بن زكريا، وكان من ولاة الحسبة فى بغداد.

جاء فى وصفه من كتاب – البيان المغرب فى أخبار المغرب – لابن عذارى المراكشى وهو من أعداء الإسماعيليين – «فاختاروا منهم رجلاً ذا فهم وفصاحة وجدال ومعرفة يسمى أبا عبد الله الصنعانى.. فسار أبو عبد الله هذا إلى موسم الحج ليجتمع به مع من يحج تلك السنة من أهل المغرب ويذوق أخلاقهم ويطلع على مذاهبهم ويتحيل على نيل الملك بضعيف الحيل.. ورأى فى الموسم قوماً من أهل المغرب فلصق بهم وخالطهم وكانوا عشرة رجال من قبيلة كتامة ملتفين على شيخ منهم، فسألهم عن بلادهم فأخبروه بصفتها وسألهم عن مذهبهم فصدقوه عنه.. ولم يزل يستدرجهم ويخلبهم بما أوتى من فضل اللسان والعلم بالجدل، إلى أن سلبهم عقولهم بسحر بيانه، فلما حان رجوعهم إلى بلادهم سألوه

---

(١) كتاب الجدل والمناقشات فى الخلفاء الفاطميين.

Polemics on line origin of the Fatimi Caliphs

عن أمره وشأنه فقال لهم: أنا رجل من أهل العراق، وكنت أخدم السلطان ثم رأيت أن خدمته ليست من أفعال البر فتركتها وصرت أطلب المعيشة من المال الحلال، فلم أر لذلك وجهاً إلا تعليم القرآن للصبيان، فسألت أين يأتى ذلك تأتياً حسناً فذكر لى بلاد مصر، فقالوا له: ونحن سائرون إلى مصر وهى طريقنا، فكن فى صحبتنا إليها، ورغبوا منه فى ذلك، فصحبهم فى الطريق فكان يحدثهم ويميل بهم إلى مذهبه ويلقى إليهم الشىء بعد الشىء إلى أن أشربت قلوبهم محبته، فرغبوا منه منه أن يسير إلى بلادهم ليعلم صبيانهم، فاعتذر لهم ببعد الشقة وقال لهم إن وجدت بمصر حاجتى أقمت بها، وإلا فربما أصحبكم إلى القيروان، فلما وصلوا مصر غاب عنهم فيها كأنه يطلب بغيته ثم اجتمعوا به وسألوه فقال لهم: لم أجد فى هذه البلاد ما أريد، فرغبوه أن يصحبهم فأنعم لهم بذلك.»

ولا يتسع الكلام فى هذا المجال لسرد أعمال أبى عبيد الله فى المغرب، فالذى عنيناه هنا هو الإشارة إلى أساليب هؤلاء الدعاة فى دخول البلاد التى يقصدونها بالدعوة، وأول هذه الأساليب أن يكون الداعية مطلوباً لا طالباً وأن يكون له حماة وأتباع من أبناء البلد قبل دخوله إذا استطاع، وقد سار أبو عبيد الله الشيعى على هذا الأسلوب حتى تمكن من القبائل واستمال إليه قبيلة كتامة القوية بعددها وشجاعة رجالها فاتخذ الحول بعد الحيلة وجرد السيف وهزم دولة الأغالبة أعوان العباسيين وضمن لمولاه النجاح فاستقدمه فوصل إلى جبال الأطلس قبيل انتهاء القرن الثالث للهجرة (سنة ٢٩٦).

كذلك يطول الكلام لو تتبعنا أعمال المهدى وخططه التى رسمها لإقامة عرشه فى إفريقية وبسط كلمته من ورائها إلى الأقطار الإسلامية، فإن ملك المهدى فى المغرب قد دام أربعاً وعشرين سنة إلى أن توفى (سنة ٣٢٢ للهجرة) فخلفه ابنه القائم وخلف القائم ابنه المنصور وخلف المنصور ابنه المعز (سنة ٣٤١ للهجرة) وهو الذى فتحت مصر فى عهده وانتقلت من خلافة العباسيين إلى خلافته (سنة ٣٥٦ للهجرة) فجاءوها كعادتهم مطلوبين ممهداً لهم الطريق فى الداخل والخارج بالدعوة والسلاح.

* * *

إن تاريخ الدولة الفاطمية جدير أن تفرد له المجلدات الضخام، لأنه تاريخ يغنى عن التواريخ. إذ كانت هذه الدولة نموذجاً يقاس عليه ويعرض فيه ما لا يعرض فى قيام الدول الأخرى من العبر والأطوار وصنوف التدبير والمصادفة. فهى الدولة التى قامت بين

ست دول أو أكثر من ست دول إسلامية وأجنبية تحاربها وتخشى عاقبة قيامها، وأسست حقها على دعوة يتألب الخصوم من حولها على إنكارها، واعتمدت فى الدعوة على وسائل لم يسبقها إليها سابق ولم يلحقها نظير لها فى تلك الوسائل إلى هذا القرن العشرين.. فمن تلك الوسائل فن التخذيل أو «الطابور الخامس» كما يسمى فى العصر الحديث، ومنها تسخير العلم والفن والفلسفة والقصص فى نشر الدعوة الظاهرة والخفية، ومنها الاستعانة بالجماعات السرية وترتيب الأدوار المنظمة لإنفاذ سياسة بعد أخرى، ومنها المواكب والمواسم والمحافل والأعياد والعادات الاجتماعية، وكانت تثابر على الدعوة ولا تهمل معها أركان الملك من تشييد المدن وتنظيم الدواوين وترتيب الرتب وتدريب الجيوش وبناء الأساطيل وفتح المدارس والجامعات، وتزويدها بالمكتبات وتشويق الناس إليها بمجالس المحاضرة والمناظرة فى أيام محدودة يشهدها الرجال والنساء.

* * *

فقيام الدولة الفاطمية فى الواقع نموذج لقيام الدول بالحول والحيلة، ولو استغنى التاريخ بدولة واحدة عن دول كثيرة لكانت هذه حسبه من عبره وأطواره وتدبيراته ومصادفاته، ولسنا فى صد الإفاضة فى هذه الدراسة بتفصيلاتها وفروعها، ولكننا نطرق منها فى هذه العجالة ما له علاقة بالانتساب إلى الزهراء وما له علاقة بآثارها الباقية فى هذا البلد، لأنه البلد الذى شهد من الدولة الفاطمية أهم أدوارها وأفخم عهودها، وكانت مخلفاتها فيه أبقى المخلفات فى تاريخها الحديث.

النسب

الدعوى المنتظرة هى أقوى الدعاوى، وهى كذلك - ومن أجل ذلك - أضعفها وأولاها بالتشكك والمراجعة.

والمقصود بالدعوى المنتظرة كل دعوى تمليها البواعث النفسية أو البواعث السياسية والاجتماعية، وهى قوية لأنها لا تأتى عفوًا ولا يكتفى المدعون فيها بإبدائها وترك السامعين وشأنهم فى قبولها أو الإعراض عنها، بل هم يدعونها ويحتالون على إيرادها مورد الصدق وتمثيلها فى صورة الكلام السائغ المحقق، ثم يكررونها ويلحون فى تكريرها، ويتحينون الفرص لنشرها فى مظان الإصغاء إليها والرغبة فى إثباتها.

إذا كانت البواعث التى تمليها متعددة متجددة كان ذلك خليقا أن يزيدها قوة على قوة وإلحاحًا على إلحاح، فهى تتوارد من جهات كثيرة وترجع إلى الظهور كرة بعد أخرى، كلما خيف عليها أن تضعف، وكلما تعاظم الرجاء فى التحدث بها والالتفات إليها.

إن الدعوى المنتظرة قوية من أجل هذا.

وهى من أجل هذا بعينه ضعيفة متهمة.

لأن البواعث التى تمليها تريب السامع حين تنكشف له، وقد يكون الإلحاح فيها مشككًا لمن يسمعها وكاشفًا للغرض والهوى من ورائها.

وإذا تعددت البواعث كان ذلك أحرى أن يسوق التناقض والاختلاط إلى الروايات والأقاويل، فلا يتفق مروجوها على اختراعها ولا على نقلها، ومن لم يكن منهم مخترعًا لروايته لم يجهد ذهنه فى التوفيق بين النقائض والتقريب بين الأسانيد، فتصاب الدعوى بالضعف من جراء تعدد البواعث كما تأتيها القوة والمثابرة لهذا السبب، وتخسر من هنا كما تكسب من هناك..

* * *

وقد كان اتهام الفاطميين فى نسبهم دعوى منتظرة، وكانت البواعث إليها متعددة متجددة، فلا جرم تكون فى وقت واحد أقوى الدعوات ثم لا تلبث أن تعود أضعف الدعوات.

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على النسب.

وكانوا يهددون بمساعيهم فى طلب الخلافة خصومًا كثيرين يملكون الدول فى المشرق والمغرب ولا يريدون النزول عما ملكوه، أو لا يريدون بعبارة أخرى أن يسلموا للفاطميين صحة النسب الذى يعتمدون عليه.

فلم يكن أقرب إلى الذهن من مهاجمتهم فى نسبهم وتجريدهم من الحجة التى يؤيدون بها مسعاهم، فهذه هى الدعوى المنتظرة التى تعددت بواعثها فى المشرق والمغرب وتوافقت الأغراض على ترويجها وتثبيتها بين الخائفين على عروشهم من نسب الفاطميين، وكلهم ذوو سلطان، وذوو براعة وافتنان، ومن ورائهم من يرغبون فى بقائهم أو يتلقون دعواهم بالتصديق والإيمان..

كان الفاطميون يطلبون الخلافة ويعتمدون فى طلبها على انتسابهم إلى النبى عليه السلام، وكان هذا النسب حجة معتمدة لا يمارى فيها الأكثرون من أتباع الدول الإسلامية الذين تسرى بينهم دعوى آل البيت، غير مستثنى منهم أتباع الدولة العباسية فى ذلك العهد على الخصوص، وهو عهد النقص والإدبار الذى يكثر فيه طلاب الزوال أو طلاب العلل بالحق وبالباطل، وعلى الإنصاف الواضح أو على الجور الصراح.

كان مصير الخلافة إلى الفاطميين نذيرًا بزوال عروش كثيرة، منها عروش العباسيين فى بغداد، والأخشيديين فى مصر، والأغالبة فى إفريقية الشمالية، والأمويين فى الأندلس، والأمراء الصغار المنبثين فى هذه الرقعة هنا وهناك، ممن يطيب لهم القرار على ما هم فيه، ولا يطيب لهم التبديل والانتقال..

وكان هؤلاء المالكون غرباء عن أهل البيت ما عدا العباسيين، ولكن العباسيين فى ذلك العهد خاصة كانوا أخوف الخائفين من نسب الفاطميين، بعد أن كانت دعوة أهل البيت تشملهم أجمعين منذ ثلاثة قرون.

عندما ضعف دولة بنى أمية قويت دعوة آل البيت التى كان يقوم بها العلويون والعباسيون.

ولكن العباسيين أخذوا بزمام الدولة الجديدة على اعتقاد الأكثرين أنهم كانوا يدعون إلى خلافة العلويين أبناء فاطمة، وعلى أحق الناس باسم آل البيت فى رأى أتباع الدولة الجديدة، وبلغ من إيمان أتباع الدولة الجديدة بهذا الرأى أن خلفاء بنى العباس أظهروا العزم على الوصاية بعدهم لولاة عهد العلويين، كما فعل الرشيد والأمين. ثم استحكم العداء بين بنى العباس وبنى على حتى لجأ الأئمة العلويون إلى الاختفاء وشاعت يومئذ العقيدة فى الإمام المستور، ثم شاعت الدعوة إلى العلويين باسم الفاطميين لأنها أقرب الدعوات إلى بنوة محمد عليه السلام. فقد يقال إن العباسيين أبناء العباس عم النبى وإن العلويين أبناء على ابن عمه أبى طالب. أما الانتماء إلى فاطمة الزهراء، فهو انتماء إلى بيت النبى نفسه، وليس إلى الأعمام ولا أبناء الأعمام.

فى أوائل الدولة العباسية، كانت دعوة آل البيت تشمل العلويين والعباسيين، وكان الخلاف يسيرًا بين الفريقين على أمل التوفيق بينهما بعد حين، وكانت قوة الدولة فى نشأتها تصمد لهذا الخلاف الذى هان أمره ولم يبلغ أشده فى أول عهده، وكان يكفى أن يقال عند اشتداده إن وراثة الأعمام أقرب من وراثة أبناء الأعمام.

ولكن الدولة العباسية بقيت حتى تضعضعت وكثر الساخطون عليها والمتبرمون بها والراغبون فى زوالها، وكثر كذلك شهداؤها من آل البيت أبناء على وفاطمة، وزال عنها عطف العاطفين عليها لقرابتها من بيت النبوة، فتحول عطفهم إلى الشهداء المظلومين المشردين فى أرجاء البلاد، وأصبح تشردهم – الذى يظن به أنه يضعفهم – مددًا لهم من أمداد العطف والولاء، وأصبحت دعوة «الفاطميين» وقفا على هؤلاء المشردين المظلومين لا يشركهم فيها العباسيون لأن العباسيين هنا هم الخصوم المحاسبون على الظلم والنكال واختلال حبل الأمور.

ومن الفاطميين هؤلاء يأتى الخطر الأكبر على بنى العباس، ومن نسبتهم إلى فاطمة الزهراء يأتى امتيازهم بحق الخلافة. وبهذا الحق يطلبون النصفة للشهداء والمضطهدين، فأى شىء أقرب إلى مألوف السياسة من دفع هذا الخطر بإنكار هذا النسب، ومن حصر

الولاء لأهل البيت فى القائمين بالأمر من بنى العباس؟

وقد أنكر العباسيون نسب الفاطميين وزعموا أنهم ينتسبون إلى ميمون القداح ابن ديصان الثنوى القائل بالإلهين، وتلقف التهمة كل ناقم على الفاطميين وهم صنوف ينتمون إلى كل مذهب ونحلة، منهم كما أسلفنا الأخشيديون والأغالبة والأمويون والأندلسيون، وزاد عليهم من كان تابعًا للفاطميين ثم تمحل المعاذير للخروج عليهم كوالى مكة وبعض رؤساء العشائر فى الجزيرة العربية. بل قيل فيما قيل إن أناسا من العلويين شهدوا عليهم بادعائهم النسب فى علىّ وفاطمة عليهما السلام، ونسب إلى الشريف أبى الحسين محمد بن على المشهور بأخى محسن الدمشقى أنه كتب رسالة فى تفنيد دعواهم ينكرها المقريزى وينسبها إلى عبد الله بن رزام..

ويروى عن سبب نشاط القادر بالله إلى كتابة الإشهاد ببطلان نسب الفاطميين أنه سمع أبياتًا نظمها الشريف الرضى يقول فيها:

ما مقامى على الهوان وعندى	مقول صارم وأنف حمى
ألبس الذل فى بلاد الأعادى	وبمصر الخليفة العلوى
من أبوه أبى ومولاه مولا	ى إذا ضامنى البعيد القصى
لف عرقى بعرقه سيد النا	س جميعًا محمد وعلى
إن ذلى بذلك الجد عز	وأوامى بذلك الربع رى

فأرسل إلى أبيه الشريف أبى أحمد الموسوى يقول: إنك قد عرفت منزلتك منا وما تقدم لك فى الدولة من مواقف محمودة، ولا يجوز أن تكون أنت على خليفة ترضاه ويكون ولدك على ما يضاد ما لا نزال عليه من الاعتداد بك لصدق الموالاة منك، وقد بلغنا أنه قال شعرًا – هو هذه الأبيات – فيا ليت شعرى على أى مقام ذل أقام وهو ناظر فى النقابة – نقابة الأشراف – والحج، وهما من أشرف الأعمال، ولو كان بمصر لكان كبعض الرعايا.

فأحضر أبو أحمد ولده الرضى فأنكر الشعر، فأمره أن يكتب بخطه إلى القادر بالاعتذار وإنكار نسب الحاكم بأمر الله، فأبى، فقال له أبوه: «أتكذبنى فى قولى؟» فقال: «كلّا ما أكذبك، ولكنى أخاف من الديلم ومن الدعاة فى البلاد» فقال له أبوه: «أتخاف

من هو بعيد عنك وتُسخط من هو قريب منك.. وهو قادر عليك وعلى أهل بيتك؟...»
وغضب أبوه وحلف لا يقيم معه فى بلد، فلما بلغ الأمر بينهما هذا المبلغ حلف الرضى أنه لم يقل تلك الأبيات وكتب بخطه فى محضر الإنكار، وشاع الزعم بعد كتابة ذلك المحضر أن المهدى الفاطمى لم يكن يسمى عبيد الله، وأن اسمه الصحيح «سعيد بن أحمد ابن عبد الله القداح بن ميمون بن ديصان»..

وقد اختلفوا فى نسبته تارة إلى المجوس وتارة إلى اليهود.. واختلفو فى الجد الذى كان مجوسيًّا أو يهوديًّا فقيل إن عبيد الله كان ابن حداد يهودى مات عن زوجة فبنى بها الحسين بن أحمد بن عبد الله بن ميمون وتبنى عبيد الله، وقيل إن عبيد الله قتل فى سجن سجلماسة بالمغرب فأشفق داعيه (أبو عبد الله الشيعى) فسماه عبيد الله وبايعه بالخلافة، وقيل إن أمة للإمام جعفر الصادق علق بها يهودى فولدت منه عبيد الله، ونشأ فى بيت الإمام منتميًا إلى أهل البيت .

* * *

وقد كانت لهجة البيان العباسى غاية فى العنف تنم على الغيظ وتخلو من الدليل ومنه «إن هذا الناجم بمصر هو منصور بن نزار الملقب بالحاكم – حكم الله عليه بالبوار والدمار – ابن معد بن إسماعيل بن محمد بن سعيد – لا أسعده الله – وإن من تقدمه من سلفه الأرجاس الأنجاس عليهم لعنة الله ولعنة اللاعنين خوارج لا نسب لهم فى ولد على بن أبى طالب رضى الله عنه، وإن ما ادعوه من الانتساب إليه زور وباطل، وإن هذا الناجم فى مصر هو وسلفه كفار فساق زنادقة ملحدون معطلون، وللإسلام جاحدون، أباحوا الفروج، وأحلوا الخمور، وسبوا الأنبياء، وادعوا الربوبية...»

ولم يقصر المؤرخون المنكرون عن القوم فى العنف والسباب فقال صاحب كتاب الروضتين فى أخبار الدولتين عن الفاطميين إن المعروف عنهم أنهم «بنو عبيد، وكان والد عبيد هذا من نسل القداح الملحد المجوسى. وقيل: كان والد عبيد هذا يهوديا من أهل سلمية من بلاد الشام، وكان حدادا، وعبيد هذا كان اسمه سعيدا، فلما دخل المغرب تسمى بعبيد الله وزعم أنه علوى فاطمى، ثم ترقت به الحال إلى أن ملك وتسمى بالمهدى، وكان زنديقًا خبيثًا عدوًّا للإسلام متظاهرًا بالتشيع متسترًا به حريصًا على إزالة الملة الإسلامية، قتل من الفقهاء والصالحين جماعة كثيرة، وكان قصده إعدامهم من الوجود،

ليبقى العالم كالبهائم، فيتمكن من إفساد عقائدهم، ونشأت ذريته على ذلك منطوين يجهرون به إذا أمكنتهم الفرصة وإلا أسروه، والدعاة منبثون لهم فى البلاد، وبقى هذا البلاء على الإسلام من أول دولتهم إلى آخرها، وفى أيامهم كثرت الرافضة وأفسدت عقائد طوائف من أهل الجبال الساكنين بثغور الشام، وأخذت الإفرنج أكثر البلاد بالشام والجزيرة إلى أن من الله على المسلمين بظهور البيت الأتابكى وتقدمه مثل صلاح الدين فاستردوا البلاد وأزالوا هذه الدولة..»

ومن اعتدل من المؤرخين فى الإنكار والسباب، كابن خلكان، أيد التهمة بالقصص التى تؤكدها، لو أنها ثبتت كالقصة التى اشتهرت عن سيف المعز وذهبه، وأن ابن طباطبا سأل المعز عند وصوله إلى مصر عن نسبه فسل سيفه، فقال: «هذا نسبى» ثم نثر عليهم الذهب وقال: «وهذا حسبى» وقنع منه الحاضرون بما سمعوه وشهدوه.

وظاهر بغير عناء أن الوثيقة العباسية لا قيمة لها من الوجهة التاريخية، لأن الذين وقعوها - من الأشراف العارفين بالأنساب - قد أكرهوا على توقيعها، ومن وقعها غيرهم من فقهاء القصر والحاشية لم يكن أحد منهم حجة فى مسائل النسب والتاريخ، وقد أضعفوا دعواهم غاية الضعف بنسبة جد الفاطميين إلى ديصان الثنوى، وهو من أبناء القرن الثالث للميلاد ذهب إلى التوفيق بين المسيحية والزردشتية قبل البعثة الإسلامية بنحو أربعة قرون، ولم يظهر أحد بهذا الاسم على عهد العباسيين غير من يسميه المؤرخون حينًا بديدان وحينًا بزندان أو دندان، ولا شأن له بنشأة الثنوية ولا بالدعوة إليها فى قول أحد من أولئك المؤرخين، وإنما قيل عنه إنه كان على ثروة كبيرة وعاون إسحاق بن إبراهيم بن مصعب على الثورة فى عهد الخليفة المأمون.

وادعاء الموقعين للوثيقة أن خلفاء الفاطميين أباحوا المحرمات واستحلوا الموبقات لم يقم عليه دليل قط من وقائع التاريخ، بل ثبت من هذه الوقائع أن بعض هؤلاء الخلفاء اكتفى بزوجة واحدة ولم يبح لنفسه ما كان يباح فى قصور الخلفاء من التسرى واقتناء الإماء، وقد خولط الحاكم بأمر الله فى عقله فجنح إلى التنطس فى الطعام وحرم المباح منه بدلاً من إباحة الحرام!..

ولعله لا يخفى على أحد من النظرة الأولى قصة التبشيع والتشنيع فى نسبة الفاطميين

تارة إلى المجوس وتارة إلى اليهود، فكأنه لا يكفى أن تسقط دعواهم فى الخلافة حتى تسقط دعواهم فى الإسلام، وترجع نسبتهم إلى أبعد الملل عن الديانة الإسلامية فى عرف ذلك العصر على الخصوص، ثم يقال عنهم ما لا يقال فى جميع المجوس واليهود من استباحة المحرمات والتهافت على الشهوات.

والقصة التى رويت عن سيف المعز وذهبه غنية عن التكذيب، لأن ابن طباطبا الذى قيل إنه سأل المعز عن نسبه عند وصوله إلى مصر قد توفى قبل مقدم المعز إليها بأربع عشرة سنة، وابن خلكان صاحب القصة هو الذى ذكر تاريخ وفاته فلم يكذب القصة بل قال: لعله أمير آخر.. مع أن اسم «المعز» هو الذى دار عليه مثل السيف والذهب المشهور؛ وليس من المعقول بأية حال أن يقيم الفاطميون دعواهم على النسب ثم يعجزون عن ذكر هذا النسب حين يسألون عنه، فكل جواب أيسر وأنفع من الجواب الذى وضعوه على لسان المعز لدين الله، ولا معنى له إلا الاعتراف الصريح بأنه مدخول النسب دعى فى الخلافة..

وقد روى ابن خلكان أيضًا أن العزيز بالله صعد المنبر فوجد فيه ورقة كتبت عليها هذه الأبيات:

إنا سمعنا نسبًا منكرًا ... يتلى على المنبر فى الجامع
إن كنت فيما تدعى صادقًا ... فاذكر أبًا بعد الأب الرابع
وإن ترد تحقيق ما قلته ... فانسب لنا نفسك كالطائع
أو فدع الأنساب مستورة ... وادخل بنا فى النسب الواسع
فإن أنساب بنى هاشم ... يقصر عنها طمع الطامع

فإن صحت هذه الرواية فالتحدى فيها بإظهار النسب قبل الأب الرابع صادر من خبير بموضع الخلاف، لأن تاريخ النسب قبل الأب الرابع يوافق التاريخ الذى عمد فيه الأئمة العلويون إلى الاختفاء والتنكر بأسماء غير أسمائهم وائتمان الدعاة دون غيرهم على أسرار ذريتهم وأولياء عهودهم، وإنما العجيب فى الأمر أن يكون العزيز بالله هو الذى يتحداه المتحدى بإظهار نسب كنسب «الطائع العباسى» مع أن الطائع نفسه قد علم بكتابة وزيره عضد الدولة إلى العزيز وحمله الهديا إليه واعترافه بنسبه وأنه تلقى منه

الشكر «لإخلاصه فى ولاء أمير المؤمنين ومودته ومعرفته نحو إمامته ومحبته لآبائه الطاهرين».

وقد تواتر أن عضد الدولة همّ بالخطبة فى بغداد للخلفاء الفاطميين فرده أحد الدهاة من أصحابه عن هذا العزم وقال له: «إنك مع خليفة تعتقد أنت وأصحابك أنه ليس من أهل الخلافة ولو أمرتهم بقتله لقتلوه مستحلين دمه. ولكنك إذا أقمت علويًّا فى الخلافة كان معك من تعتقد أنت وأصحابك صحة خلافته، فلو أمرهم بقتلك لاستحلوا دمك وقتلوك..»

وقد أشار صاحب «الروضتين فى أخبار الدولتين» إلى قيام الدولة الأيوبية بعد الدولة الفاطمية ولكنه يعلم أن صلاح الدين الأيوبى أذن بالخطبة فى يوم الجمعة للخليفة الفاطمى، وأنه إنما حول الخطبة إلى الخليفة العباسى بعد وفاة العاضد آخر خلفاء الفاطميين، وأنه أطاع فى ذلك أمر رئيسه نور الدين بن زنكى، ولم يكن، لصحة النسب أو بطلانه شأن فى هذا التغيير، ومرجعه الأهم إلى الخلاف بين مذهب الشيعة ومذهب أهل السنة، إذ كان الأيوبيون سنيين يشتدون فى اتباع مذهب أهل السنة، وزادهم فيه شدة ما كان بين الكرد والديلم من النفور والنزاع، وكان الديلم شيعيين والكرد سنيين، وقد تفاقم النزاع بين رؤسائهم حتى سرى إلى الألقاب، فكان بنو بويه من الديلم يتلقبون بألقاب معز الدولة وركن الدولة وعضد الدولة، وكان الأيوبيون من الكرد يتلقبون بألقاب نجم الدين وعماد الدين وصلاح الدين.

ومما يلاحظ أن بعض المؤرخين يحيلون على البعد فى كتابتهم عن الدعوة الفاطمية ودعاتها كلما خلطوا بين هذه الدعوة والدعوة الباطنية. فأبو المعالى الفارسى يقول فى كتابه «بيان الأديان» إن ميمونًا القداح من مصر، وجملة المؤرخين يقولون عنه إنه من فارس، وكل منهم يحيل إلى المكان البعيد حيث يتعذر عليه تحقيق الرواية بالسند الصادق فى مكان قريب.

وصح من أجل هذا قول ابن خلدون إن شهادة الشاهدين بالطعن فى نسب القوم كانت على السماع، وأصاب المقريزى حين قال عن العلويين إنهم «على غاية من وفور العدد وجلال القدر عند الشيعة، فما الحامل لشيعتهم على الإعراض عنهم والدعاء

لابن مجوسى أو لابن يهودى؟ هذا ما لا يفعله مخلوق ولو بلغ الغاية فى الجهل والسخف».

والمقريزى وابن خلدون قد أرّخا للمهدى الفاطمى بعد عهده بزمن طويل - وهما سنيان غير متشيعين - ولكنهما نظرا فى مطاعن أعدائه نظرة المؤرخ المحقق فلم يجدا فيها حجة مقبولة وقامت عندهما حجة النسب الصحيح مقام التغليب والترجيح، وقد عاصر المهدى مؤرخ أندلسى - هو عريب بن سعد - وكان ممن يوالون الأمويين فلم يقدح فى نسب الرجل ولم يسمع من أمراء أمية فى الأندلس قدحًا فيه.

وغاية ما ننتهى إليه فى هذه المسألة - مسألة النسب الفاطمى - أن المطاعن لم تمسسه بدليل واحد يعول عليه، وأن مطاردة عبيد الله عند اتجاهه إلى المغرب دليل على أن العباسيين أنفسهم كانوا يخشون دعوته، وأن مبايعة الشيعة لأبنائه - سواء شيعة الديلم فى بغداد، أو شيعة الزيديين خاصة فى اليمن - ترجح صدق انتسابهم إلى السيدة فاطمة الزهراء إن لم تؤكده كل التوكيد، وقد كانت دعوى المنكرين عليهم كما قدمنا فى صدر هذا الفصل أضعف الدعوات لأنها الدعوى المنتظرة التى تمليها البواعث المتعددة ولا يتخيل أحد أن يتصدى الفاطميون لطلب الخلافة بحق ذلك النسب ثم لا يتعرضون لإنكاره عليهم ما وسع المنكرين أن ينكروه..

الباطنية

كان المنتفعون بالطعن فى نسب الفاطميين كثيرين متعددين، كلهم كما تقدم من ذوى السلطان أو أتباع ذوى السلطان، وقد استعانوا بالحول والحيلة فى ترويج مطاعنهم واختراع أقاويلهم، فاستمالوا إليهم فى البلاد الإسلامية من لا مصلحة له فى مطاعنهم، ولكننا نحسب – بعد مراجعة أخبار العصر وحوادثه – أن المطاعن فى النسب لم تكسب من المصدقين إلا القليل الذين ينظرون إلى الأمر كله بغير اكتراث، أو يكترثون له، ولكنهم عيال على الحوادث لا يقدمون ولا يؤخرون. أما الأثر البالغ فى تنفير الناس من الفاطميين فإنما جاء من ربط الحركة الفاطمية بالحركة الباطنية وادعاء الخصوم أن الباطنيين جميعًا إسماعيليون ممن ينتمون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق جد القائمين بالدعوة الفاطمية.

فمن زمن والناس فى المشرق يفهمون أن الإسماعيلية هى كلمة مرادفة للباطنية، ويلصقون بالإسماعيلية كل ما لصق بالباطنية من المساوئ والمنكرات، ومن الفضائح والقبائح، وهى فى الواقع كثيرة منفرة لا تحتاج إلى جهد كبير فى التنفير والتشهير.

وساعد على لصوق التهمة بالفاطميين أن بعض المجاهرين بالإباحة والاجتراء على مناسك الدين الإسلامى، كالقرامطة فى البحرين، كانوا يعلنون التشيع للإسماعيليين، أو بعبارة أخرى للفاطميين، فوقر فى الأذهان أن دعاة الإسماعيلية جميعًا إباحيون، وأن الباطنية هى إخفاء المنكرات وإعلان التشيع للتغرير والتضليل.

وقد قيل إن رجلاً من دعاة الباطنية يدعى «على بن فضل» ادعى النبوة وأباح جميع المحرمات وقال شاعره فى روايات مختلفة:

خذى الدف يا هذه والعبى وغنى هزازيك ثم اطربى
تولى نبى بنى هاشم وهذا نبى بنى يعرب
أحل البنات مع الأمها ت، ومن فضله زاد حل الصبى

وقد حط عنا فروض الصلا ... ة وحط الصيام فلم يتعب
إذا الناس صلوا فلا تنهضى ... وإن صوَّموا فكلى واشربى
ولا تطلبى السعى عند الصفا ... ولا زورة القبر فى يثرب
ولا تمنعى نفسك المعرسـ ... ـين من الأقربين أو الأجنبى
فكيف حللت لهذا الغر ... يب وصرت محرمة للأب
أليس الغراس لمن ربَّه ... وروّاه فى الزمن المجدب

وقيل على الجملة إن الباطنيين يظهرون الإسلام ليكيدوا له ويدسوا عقائد الشرك والضلال بين أهله، وإنهم فى الأصل مجوس منطوون على بغض شديد للعرب ودينهم لم يقدروا على هدم هذا الدين وتقويض دولة العرب بالقوة فاحتالوا على مأربهم بالدسيسة والمكيدة، وأنشئوا نحلتهم لاستدراج المسلمين وتحويلهم شيئًا فشيئًا من عقائدهم إلى التعطيل والإباحة والكفر بالبعث والمعاد وإنكار الفرائض والعقائد والأديان.

قالوا: وإن الإسماعيلية خاصة يبثون دعوتهم على درجات ويأخذون المواثيق والأيمان على مريديهم ألا يفشوا لهم سرًّا، ولا يظاهروا عليهم أحدًا. ثم يتدرجون بهم من التشكيك وطلب المزيد من العلم على أيدى الأئمة المعصومين. ثم تلقين بعض الرموز التى تروق المريد وتشوقه إلى المزيد من الأسرار ثم تعريفه بنظام الدعوة ومن يتولاها. ثم تأويل النصوص وتحريف الألفاظ على ظواهر معانيها. ثم الخوض فى المذاهب الفلسفية التى تنتهى فى الدرجة التاسعة من درجات الكشف والزلفى إلى تأليه الإمام على مذهب الحلول، وأنه هو روح الله قد حلت فى جسد إنسان. ولعمرى ماذا فى وسع عشرة أو عشرين من «الواصلين» إلى هذه الدرجة فى أرذل العمر أن يصنعوه حين يعملون سرًّا بإباحة الشهوات ورفض الأديان؟!

وآفة الباحثين فى هذه الألغاز والإشاعات أنهم جعلوها كلها مسألة أخبار وروايات، وراحوا يعنتون أنفسهم فى جمع هذه الأخبار والروايات فإذا هى تتناقض ولا تستقر على قرار.

* * *

هؤلاء المؤرخون الورقيون أو الحرفيون لا يصلحون لبحث هذه المسائل التى يبدأ

البحث الصحيح فيها وينتهى فى السريرة الإنسانية وما يجوز فيها وما لا يجوز، وما يعقل وما لا يعقل، وما يستحق أن يعارض على الأوراق والنصوص وما يجب أن يرفض بداهة، فلا يطول البحث فيه بعد ذلك إلا لتطبيق أصول النقد واتخاذ الأمثلة على حقائق التاريخ وأباطيله كما تعرضها عليها الأخبار والروايات.

فمن الطريف حقًّا أن يقيد المريدون بالأيمان والأقسام ليكتموا السر ثم يأتى السر المكتوم فإذا هو سر يحلهم من جميع تلك الأيمان والأقسام على سبيل اليقين ولا يضمن نقلهم إلى يقين جديد!

وأطرف منه أن يقال عن رجل إنه معطل منكر للمعاد منكر للأديان، منكر للوعود الإلهية. ثم يقال عنه إن كراهة دين فى الأديان تبعثه إلى الجهاد سرًّا وعلانية والإستماتة فى الجهاد حتى يتعرض للقتل والتشريد أملاً فى يوم من الأيام يزول فيه هذا الدين ويشهد هو زواله أو لا يشهده بعد سنوات أو بعد أحقاب وقرون.

إنما يعمل هذا العمل لهدم دين من الأديان من يؤمن بدين غيره ويعمل لقيام دولة من أبناء دينه، فأما المنكر المعطل لكل عقيدة فلن يبقى فى نفسه من الحماسة الروحية ما يهون عليه المشقة والخطر ويقيمه ويقعده كراهة لدين هو وغيره من الأديان عنده سواء.

كان تصديق هذا مفهومًا فى القرون الوسطى، لأنهم كانوا يومئذ يعتقدون أن الكافر يكفر فى سبيل الشيطان، وأنه يرى الشيطان بعينه ويسمع وسواسه بأذنه ويساومه ويشارطه ويبيعه روحه، ويأخذ منه السطوة والمتعة بديلاً من نعيم السماء، وكانوا يومئذ يقولون عن أناس بأعيانهم إنهم على صلة بالشيطان وإنهم تعلموا على يديه السحر الأسود واطلعوا منه على أسرار النجوم والرجوم واستهواهم مكره فعقدوا معه صفقة المغبون فى حساب المؤمنين.

أما فى عصرنا هذا فمن العسير أن يتخيل الإنسان ملحدًا ينكر كل شىء ويتجرد لأهوال الدعوة الباطنية لأجل شىء من الأشياء كائنًا ما كان، إلا أن يكون ذلك الشىء سطوة يطلبها لنفسه فى حياته أو فى بيته، ولا يعقل حينئذ أنه يتدرج بالأتباع المريدين من الجهل بحقيقته إلى العلم بتلك الحقيقة والاطلاع على دسائسه وغواياته التى يلبسها على

الناس بتلبيس من ألغاز العقائد وأسرار الديانات.

وقد شغلت طائفة من المؤرخين الأقدمين والمحدثين بدعوة القرامطة وأشباههم فى اليمن وفارس وادعائهم النسبة إلى الإسماعيلية فى المغرب مع مجاهرتهم بالمعاصى واجترائهم على مناسك الحج، وتمثيلهم بالحجاج من الرجال والنساء، فخطر لهذه الطائفة من المؤرخين أن علاقة النسب بين القرامطة والإسماعيليين جد يحتمل البحث، ويؤدى البحث فيه إلى ثبوت العلاقة بين هؤلاء وهؤلاء..

وأغرب الغرائب أن أحدًا من أولئك المؤرخين لم يخطر له أن يسأل: لماذا لم يظهر فى المغرب - حيث تقوم الدولة الفاطمية كلها - أناس من دعاة الإباحية والعصيان، كالذين ظهروا فى البحرين واليمن وفارس، وبعض بقاع الشام؟..

فمن نظرة سريعة يمكن أن يتبين الناظر فى التاريخ أن الانتماء إلى الإسماعيليين مفهوم من أناس يقيمون فى بلاد الدولة العباسية ويعلنون الخروج عليها، فهم فى حاجة إلى سلطان مشروع يقاومون به سلطانها المخلوع، وانتماؤهم إلى الفاطميين أو الإسماعيليين هو السند الذى يركنون إليه فى محاربة الدولة العباسية وإنكار حقها فى الطاعة والولاء، ولو كان نشر الدولة الفاطمية يتولاه دعاة العصيان والمعاصى لكان أولى البلاد أن تظهر فيه طوائف الإباحة هى بلاد المغرب حيث دان القوم لخلافة الفاطميين..

* * *

ولقد حدث فعلًا أن القرامطة خلعوا البيعة الفاطمية ورجعوا إلى الدعاء على المنابر باسم الخلافة العباسية، حين وقعت النبوة بينهم وبين الخليفة الفاطمى فى القاهرة، وسول لهم الطمع أنهم قادرون على فتح مصر بعد أن جربوا قوتهم وحيلتهم فى فتح أطراف بلاد الشام.

وقد يكون أغرب من هذا أن يقال من جهة إن الإباحة هى الدرجة السابعة أو الثامنة التى يصل إليها المريد المترقى فى كشف الحجب وعلم الأسرار، ثم يقال من جهة أخرى إن هذه الإباحة سر مباح فى الطريق يعكف عليه المؤمن جهرة ويردده الشعراء ويتغنى به القيان.

لم ينفصل علم النفس وعلم التاريخ فى بحث من البحوث كما انفصلا فى بحث قضية

الإسماعيلية والباطنية، ولهذا كثر فيه التخبط وقل فيه الثبوت والوضوح، ونحسب أن محنة التاريخ هنا أصعب من كل محنة، لأن المؤرخ هنا يعمل عملين ولا يستقل بعمل واحد: يعمل لمعرفة الحقيقة، ويعمل لاستخلاصها من الأباطيل التى تحجبها عن عمد وتدبير، وواحد من هذين العملين كثير على مؤرخى الورق والحروف.

إننا عرفنا ألوانًا من النظم السرية التى اصطلحت عليها الجماعات المتسترة فى العصور القديمة، وبعضها دينى يتخذ له أغراضًا سياسية كالجماعات الأورفية والجماعات الفيثاغورية، ولا ندرى الآن كيف تكشفت هذه النظم المزعومة، بل لا ندرى هل هى فى الحق كانت موجودة متبعة أو هى أوهام وتخمينات من وحى الاستطلاع والاستنباط.

ولكننا إذا سمعنا عن نظم سرية فى عصور التاريخ القريب فلا معنى فى هذه الحالة للإحالة على القدم أو للخبط فى الظنون، إذ يحق لنا فى هذه الحالة أن نسأل عن المريد الذى تدرج فى مراتب الباطنية حتى وصل إلى قيادة الدعوة ثم خانها وأفشى أسرارها، أو يحق لنا أن نسأل عن الحاكم الذى تعقب الجماعة بعيونه وجواسيسه حتى كشف عن بواطنها، أو يحق لنا أن نسأل عن الأوراق المطوية التى نشرت بعد العثور عليها فى إبانها أو بعد انقضاء زمانها، ولسنا نذكر فيما اطلعنا عليه من أخبار الباطنية أن أحدًا تحدث عن مريد واحد صعد على مراتبها من درجة التلميذ المبتدئ إلى درجة الحجة المطلع على جميع خفاياها، ولا أن أوراقًا لها فصلت فيها نظمها وأسرارها وأذيعت فى أوانها أو بعد آوانها، بل زعم الرواة أن الذى فضح الجماعة وأنكر على جعفر الصادق نفس دعواه قبل دعوى إسماعيل ابنه وخلفائه هو عبد الله بن ميمون القداح، ومن هو عبد الله بن ميمون القداح؟ هو واضع النظام كله ومرتب الدرجات كلها، ومصطنع التخفى والتنكر لبلوغ مقصده من الدعوة باسم إسماعيل بن جعفر الصادق جد الإماميين أجمعين..!

فعبد الله هذا هو الذى قال فيها زعم الرواة:

هات اسقنى الخمرة يا سنبر ... فليس عنـدى أننى أنشـر
أما ترى الشيعة فى فتنة ... يغرها عن دينها جعفر
قد كنت مغرورًا به برهة ... ثم بـدا لى خبر يستر

ولم تكفه قطعة واحدة ينظمها حتى نقل عنه الرواة قطعة أخرى يقول فيها:

مشيت إلى جعفـر حقبـة فـألفيتـه خـادعًـا يخلب
يجـر العـلاء إلى نفسـه وكـل إلى حبـله يجـذب
فلو كـان أمـركم صـادقًـا لمـا ظـل مقتـولكم يسحب
ولا غض منكـم عتـيق ولا سما «عمر» فـوقكم يخطب

وما كانت خلافة عمر، ولا أنباء القتلى من آل فاطمة وعلى، سرًّا مجهول الشك إن لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه. وخير من هذه الأسرار وغيرها أنه عدل عن الدعوة الإسماعيلية فيما تواترت به أخباره فى المشرق والمغرب، فما زالت دعوة القداح إلى ختام حياته قائمة على المبايعة بالخلافة لإسماعيل وأبناء إسماعيل.

* * *

وعلى هذا النحو يتتبع المؤرخ ما شاء من أخبار الباطنية فلا يمضى مع خبر منها خطوة أو خطوتين حتى يصطدم بالعقل أو بالواقع صدمة توجب الشك إن لم تجزم باليقين من بطلان الخبر وتلفيقه. وخير من هذه «الورقيات والنصيات» أن نطمئن إلى مقياس واحد لا شبهة عليه من أهواء السياسة ثم نعرض عليه الأخبار مما يوافقه أو لا يوافقه عسى أن نخلص منها إلى قول صحيح أو نقد صحيح.

ذلك المقياس هو الحالة النفسية الاجتماعية التى كانت شائعة فى العالم الإسلامى من القرن الثالث إلى القرن الخامس للهجرة، ونخصص منها بالنظر ما يرجع إلى مطالب الحكم من جهة ومساعى التكتم والمداراة من جهة أخرى.

فالدولة العباسية دخلت فى دور الضعف والتفكك منذ أواخر القرن الثالث للهجرة، فاختلت قواعد الحكم وضاعت الثقة فى الحكومة القائمة وكثر المنفصلون عن الدولة والمنتقضون عليها، وكان الدين هو حجة المطالبين بالحكم وحجة الخارجين عليه، فمن خرج على بنى العباس أنكر عليهم حق الخلافة باسم النبى مع وجود عترة النبى من أبناء علىّ وفاطمة، ومن اعترف لبنى العباس بالحق الشرعى فى الخلافة زعم أن الحكم فى دولتهم لغيرهم من وزراء الترك أو الديلم أو كتاب الدواوين الذين يتواطئون مع الولاة على انتهاب الأموال وبذلها للصنائع والأعوان، وأصبح دهماء الشعب على استعداد لإنكار الخلافة على القائمين بها والاستسلام للأدعياء الواثبين عليها، وتتابع المنتحلون

للمعاذير الدينية فى طلب الحكم أو عصيان الحاكمين من المغتصبين أو المستضعفين.

وفى تاريخ شاعر مشهور بالطموح مثال لادعاء الحكم باسم الدين مرة وباسم الكتابة والأدب مرة أخرى أو مرات، ذلك الشاعر هو أبو الطيب المتنبى الذى نسب فى بعض الروايات باسم أحمد بن الحسين بن الحسن، ونشأ بين العلويين فى الكوفة. فإنه ادعى النبوة أو المهدية فى بادية السماوة وبلغ من تفاقم دعوته أن خافه والى حمص من قبل الإخشيد فاعتقله ولم يطلقه إلا وقد عدل عن دعواه، ومن أحاديث المعجزات التى طولب بها كما جاء فى رسالة الغفران أنهم قالوا له فى بنى عدى: «هاهنا ناقة صعبة فإن قدرت على ركوبها أقررنا أنك مرسل. فمضى إلى تلك الناقة وهى رائحة فى الإبل وتحيل حتى وثب على ظهرها، فنفرت ساعة وتنكرت برهة، ثم سكن نفارها ومشت مشى المسمحة وورد بها الحلة وهو راكب عليها فعجبوا له كل العجب وصار ذلك من دلائله عندهم».

قال أبو العلاء بعد ذلك: «وحدث أيضاً أنه كان فى ديوان اللاذقية وأن بعض الكتاب انقلبت على يده سكين الأقلام فجرحته جرحاً مفرطًا. وأن أبا الطيب تفل عليها من ريقه وشد عليها غير منتظر لوقته، وقال للمجروح لا تحلها فى يومك، وعد له أيامًا وليالى... فبرئ الجرح فصاروا يعتقدون فى أبى الطيب أعظم اعتقاد، ويقولون إنه كمحيى الأموات. وحدث رجل كان أبو الطيب قد استخفى عنده فى اللاذقية، أو فى غيرها من السواحل، أنه أراد الانتقال من موضع إلى موضع، فخرج بالليل ومعه ذلك الرجل، ولقيهما كلب ألح عليهما فى النباح، ثم انصرف فقال أبو الطيب لذلك الرجل وهو عائد: إنك ستجد ذلك الكلب قد مات، فلما عاد الرجل ألفى الأمر كما ذكر..»

وقد كانت دعوى النبوة أو المهدية فى عنفوان شباب أبى الطيب، فلما أوفى على الشيخوخة كان قد عدل زمنًا عن دعواه ولم يعدل عن طلب الولاية. كان خصيًّا مملوكا فاستبد بالعرش وأصبح فيها زعم: «دون الله يعبد فى مصر..!»

قال داعى الدعاة يصف حال الناس فى تلك الأزمنة من كتاب أرسله إلى أبى العلاء المعرى: «..إننى شققت بطن الأرض من أقصى ديارى إلى مصر وشاهدت الناس بين رجلين: إما منتحلاً لشريعة صبأ إليها ولهج بها إلى الحد الذى إن قيل له من أخبار شرعه أن فيلاً طار أو جملاً باض لما قابله إلا بالقبول والتصديق، ولكان يكفّر من يرى غير

رأيه فيه ويسفهه ويلعنه، فالعقل عند مَن هذه سبيله فى مهواة ومضيعة.. أو منتحلاً للعقل يقول إنه حجة الله تعالى على عباده، مبطلًا لجميع ماللناس فيه، مستخفًا بأوضاع الشرائع، معترفًا مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها، لكونها مقنعة للجاهلين، ولجامًا على رءوس المجرمين المجازفين، لا على أنها ذخيرة للعقبى أو منجاة فى الدار الأخرى. فلما رمت بى المرامى إلى ديار الشام ومصر سمعت عن الشيخ، وفقه الله، بفضل فى الأدب والعلم قد اتفقت عليه الأقاويل ووضح به البرهان والدليل، ورأيت الناس فيما يتعلق بدينه مختلفين، وفى أمره متبلبلين، فكل يذهب فيه مذهبًا ويتبعه من تقاسيم الظنون سبباً، وحضرت مجلساً جليلًا أجرى فيه ذكره فقال الحاضرون فيه غثًا وسمينًا، فحفظته بالغيب، وقلت إن المعلوم من صلابته فى زهده يحميه من الظنة والريب، وقام فى نفسى أن عنده من حقائق دين الله سرًّا قد أسبل عليه من التقية سترًا، وأمرًا تميز به عن قوم يكفر بعضهم بعضًا ويلعن بعضهم بعضًا، ولما سمعت البيت:

غدوت مريض الدين والعقل فالقنى لتسمع أنباء الأمور الصحائح

وثقت من خلدى فيما حدست عقوده، وتأكدت عهوده، وقلت: «إن لسانًا يستطيع بمثل هذه الدعوى نطقًا، ويفتق من هذا العظيم رتقًا، للسان صامت عنده كل ناطق، وناطق من ذروة جبل من العلم شاهق، فقصدته قصد موسى عليه السلام للطور أقتبس منه نارًا، وأحاول أن أرفع بالفخر منارًا، بمعرفة ما تخلف عن معرفته المتخلفون، واختلف فى حقيقته المختلفون..»

وداعى الدعاة صاحب هذا الخطاب هو «أبو نصر هبة الله بن موسى بن أبى عمران» صاحب أكبر منصب من مناصب الدعوة فى الدولة الفاطمية كتب رسائله إلى حكيم المعرة يناقشه فى تحريمه اللحوم على نفسه ويسائله عن البعث والقيامة، مستعظمًا على المتقولين أن يتهموا بإنكارهما حكيماً كأبى العلاء، وقد استعار من اسمه «موسى بن أبى عمران» تفسيرًا لوقوفه من رهين المحبسين موقف المقتبس من نار الطور.

وعلى ذكر أبى العلاء واعتقاد الناس فى أسرار الحكمة وقوتها الخفية ننقل ما رواه ابن الوردى حيث ذكر فى تاريخه «إن حساده أغروا به وزير حلب فجهز لإحضاره خمسين فارسًا ليقتله، فأنزلهم أبو العلاء فى مجلس له بالمعرة واجتمع بنو عمه وتألموا لذلك فقال:

إن لى ربًّا يمنعنى، ثم قال كلامًا منه ما لا يفهم، وقال: الضيوف الضيوف. الوزير الوزير. فوقع المجلس على الخمسين فارسًا فماتوا ووقع الحمام على الوزير بحلب فمات، فمن الناس من زعم أنه قتلهم بدعائه وتهجده، ومنهم من زعم أنه قتلهم بسحره ورصده».

وروى صاحب الكوكب الثاقب هذه القصة بزيادة تفصيل فذكر عن الغزالى أنه قال: «حدثنى يوسف بن على بأرض الهركار قال: دخلت معرة النعمان وقد وشى وزير محمود بن صالح صاحب حلب إليه بأن المعرى زنديق لا يرى إفساد الصور ويزعم أن الرسالة تحصل بصفاء العقل، فأمر محمود بحمله إليه من المعرة وبعث خمسين فارسًا ليحملوه، فأنزلهم أبو العلاء دار الضيافة، فدخل عليه عمه مسلم بن سليمان وقال له: يا ابن أخى! قد نزلت بنا هذه الحادثة، والملك محمود يطلبك، فإن منعناك عجزنا وإن أسلمناك كان عارًا علينا عند ذوى الذمام ويركب تنوخ الذل والعار، فقال: هون عليك يا عم، ولا بأس عليك، فلى سلطان يذب عنى. ثم قام فاغتسل وصلى إلى نصف الليل، ثم قال لغلامه: انظر إلى المريخ أين هو؟ فقال: فى منزلة كذا وكذا، فقال: زنه واضرب تحته وتدًا، وشد فى رجلى خيطًا واربطه إلى الوتد، ففعل غلامه ذلك، فسمعناه وهو يقول: يا قديم الأزل! يا علة العلل! يا صانع المخلوقات! وموجد الموجودات! أنا فى عزك الذى لا يرام وكنفك الذى لا يضام، الضيوف الضيوف.. الوزير الوزير.. ثم ذكر كلمات لا تفهم، وإذا بهدة عظيمة فسأل عنها فقيل: وقعت الدار على الضيوف الذين كانوا بها فقتلت الخمسين، وعند طلوع الشمس وقعت بطاقة من حلب على جناح طائر ألا تزعجوا الشيخ فقد وقع الحمام على الوزير. قال يوسف بن على: فلما شاهدت ذلك دخلت على المعرى فقال: من أين أنت؟ فقلت: من أرض الهركار. فقال: زعموا أننى زنديق، ثم قال: اكتب. وأملى على أبياتا من قصيدة أولها:

أستغفر الله فى أمنى وأوجالى من غفلتى وتوالى سوء أعمالى[1]

هذه الحالة النفسية التى عمت أرجاء العالم الإسلامى فى القرن الرابع خاصة خليقة أن ينجم فيها عشرات ممن يستهوون الناس بالأسرار الباطنة، لأن عالم الباطن مستودع كل أمنية، وبغية كل طالب: طالب الدين وطالب الدنيا، طالب المعرفة وطالب السحر

(١) كتاب أبو العلاء المعرى للمرحوم «أحمد تيمور باشا».

والعيافة، أو طالب العلم الأبيض، وطالب العلم الأسود، وخليق أن يقف النظر طويلاً عند قول داعى الدعاة إنه يطلب سرًّا من أبى العلاء، وإنه قام فى نفسه أن عند أبى العلاء «من حقائق دين الله سرًّا قد أسبل عليه من التقية سترًا». فإنه قد يكون فى هذا القول مادحًا أو مازحًا ولكنه أبان عن سمة العصر كله من «الباطنية» التى يفرضها على نفسه العارف بأسرار الدين..

وأخلق من هذا أن يستوقف النظر أن هذا الكلام صادر من داعى الدعاة فى الدولة الفاطمية، وهو الرجل الذى ينتهى إليه كل سر، ويصل إليه التلميذ بعد درجات ليسمع منه - فيما زعم الزاعمون - أن الدين لغو وأن القيامة وهم، وأن المحرمات مستباحة للعارفين، فلو كانت هذه رسالته التى ينتهى إليها كل متقدم فى درجات الأسرار فما حاجته إلى محاسبة أبى العلاء على الظنون التى تذاع عنه فى أمر الحلال والحرام وأمر البعث والحساب؟ لقد كان الرضا عن مذاهب الزندقة جميعًا أولى به من التعرض لذويها ومحاسبتهم عليها، فإنهم يتبرعون بما يجتهد له ويرتب المراتب ويحتال الحيل للوصول إليه، بعد طول العناء.

إلا أن الخلاصة الثابتة فى ذلك العصر أن «الباطنية» الواقعية حالة من الحالات التى لا تستغرب من دعاته المخلصين وأدعيائه المغرضين، فهناك «باطنية» يفرضها الناس على أنفسهم قبل أن يفرضها عليهم نظام مقرر أو مذهب منظم، وادعاء الأسرار فى تلك البيئة أمر منتظر مترقب لا غرابة فيه، وأقرب ما يكون هذا الادعاء إلى من يطلب المنفعة لنفسه أو يطلب المكانة بما يعلمه ويتعلم منه غيره، وفاقًا لشرطه وتدبيره.

وقد صار المجتمع الإسلامى إلى تلك الحالة فى القرن الرابع وما تلاه بعد تمهيدات متلاحقة، بعضها من فعل السياسة، وبعضها من فعل الثقافة والعادة المستحدثة..

فأما التمهيدات التى هى من فعل السياسة فهى ما أسلفناه من تزعزع الثقة بحق السلطان القائم على اختلاف الحاكمين والحكومات، وأما التمهيدات التى هى من فعل الثقافة والعادة المستحدثة فهى انتشار الفلسفة ونشأة البحوث العقلية فى علوم الدين ومنها علم الكلام والتوحيد، ومنها اقتباس الحضارات الغربية وانقسام الأمر فيها بين المحافظة والتجديد والاسترسال مع العرف الطارئ فى غير بحث ولا مبالاة.

وقد كان أنصار السلطان القائم محافظين لأنهم يبغضون التغيير ويحافظون على كل قديم.

وقد كان أنصار البحث والاستطلاع أقرب إلى التجديد والتغيير، وكانوا مظنة للتهم من أنصار القديم، فكان من الطبيعى الذى لا غرابة فيه أن يصطنعوا التقية ويظهروا للناس غير ما يبطنون، سواء كانوا من المتصوفة الذين يلتمسون النجاة عند «الواصلين» المتمكنين من بواطن الأسرار، أو كانوا من الفلاسفة الذين يشفقون من رجمات الظنون ولا يأمنون العامة ولا ذوى السلطان المتوجسين من كل جديد، أو كانوا من غير المتصوفة والفلاسفة أقوامًا يعالجون من المعارف ما يشبه السحر والكهانة، وهى علوم التنجيم والتماس الأسرار عند النجوم.

ولم يكن الفارق بين علم النجوم الصحيح وعلم النجوم الزائف قد حسم فى ذلك العصر على وجه يمنع اللبس والاختلاط بين المطلبين، فإن الفلاسفة الذين كانوا يتحدثون عن العقول العشرة كانوا يربطون بين هذه العقول العشرة وبين الأفلاك ويقولون بغلبة الأرواح النورانية التى لا تقبل الفساد على كواكب السماء وأن الصلة بينها وبين الإنسان تتوقف على الرياضة والصفاء، وقد كان المتصوفة يؤمنون بالتجلى ولا يمنعون أن ينكشف الغطاء عن البصر والبصيرة فتلمح فى العالم العلوى ما أودعه الله فيه من الدلائل والإشارات.

وإذا كانت «الباطنية الواقعية» قد سولت لشاعر أن يطلب السلطان بدعوى النبوة أو المهدية، وقد أوقعت فى النفوس أن ناسكًا ضريرًا يسيطر على الوزراء والجنود بقوة الغيب أو بقوة النجوم، فمن الخلط أن يقال إن الباطنية كلها وليدة الدعوة الفاطمية، وإن هذه الدعوة مسئولة عن كل ما كان يستباح يومئذ فى الخفاء، وكل ما تذرع به الطامعون فى الحكم من ذرائع الدنيا والدين..

الباطنية الفاطمية

وكانت للفاطميين على هذا باطنية فاطمية أو إسماعيلية، إلى جانب هذه الباطنية الواقعية.

لم يقم الدليل على انتماء الباطنية الفاطمية أو الإسماعيلية إلى داعية من المجوس أو اليهود دبرها تدبيرًا ولفقها تلفيقًا لهدم الإسلام خاصة وهدم الديانات عامة، وتلقين «الواصلين» دروس الكفر والتعطيل وإنكار البعث والحساب واستباحة المحرمات والمنكرات؛ كراهة للعرب ودولتهم، وانتقامًا منهم بالدسيسة وقد عجزوا عن الانتقام منهم بالقهر والعدوان..

فالتهمة ضعيفة لأنها جاءت من مغرضين غرضهم معروف، وهى ضعيفة بعد هذا لأنها مضطربة متناقضة لا تثبت على زعم واحد ولا تستقيم على وجهة واحدة. فأصل الدعوة تارة من المجوس وتارة من اليهود، ومرة يرجع أصلها إلى ديصان الذى ظهر قبل الإسلام، ومرة أخرى يرجع إلى ابن القداح الذى يتبين من شعره أنه مسلم وأنه شك فى الإمام جعفر بعد أن لاذ به وتتلمذ عليه، لأن أئمة الشيعة يقتلون وينهزمون.

وفى التهمة من الضعف فوق هذا وذاك أنها لا تجرى مجرى المألوف من طبائع النفوس، فإن الرجل الذى يكفر بالدين عامة لا تملكه الحماسة لهدم دين ولا تبلغ منه هذه الحماسة أن يصبر للجهاد الطويل، ويستهين بالخطر على الروح والراحة وهو يحارب السلطان ويحارب إجماع الناس من حوله على اختلاف النحل والأديان.

ومن المشكوك فيه بعد هذا جميعه أن ينهدم الدين إذا كفر به فى كل عصر طائفة من «الواصلين» معدودين على الأصابع يستبيحون المحرمات فى الخفاء على انفراد أو بين زمرة من الأصحاب والنظراء. فما خلا عصر قط من أمثال هؤلاء بغير دعوة داع وبغير سعى أو سعاية من ساع، ولم يزل الشك يتسرب إلى آحاد آحاد من الحائرين والمترددين يحفظون شكهم لأنفسهم أو يطلعون عليه أمثالهم وذوى خاصتهم ثم يذهبون والدين باق

لم ينهدم بين العلية ولا بين السواد.

وربما تشيع للفاطميين أناس خبطوا فى العقائد خبط عشواء، وجهروا بمذهب من مذاهب الفلسفة أو التصوف ينكره الإسلام الصحيح، ولكن التشيع من هذا القبيل قديم لم ينقطع قط من عهد الإمام عليه السلام إلى عهدنا الذى نحن فيه، ولم يكن هذا التشيع الممقوت حجة على الإمام علىّ ولا على أحد من بنيه الأبرار الذين سمعوا به فأنكروه أو سكتوا عنه ولم يرتضوه.

ففى حياة الإمام على كان عبد الله بن سبأ وأصحابه يؤلهون عليا ويؤمنون بحياته بعد مقتله ويقولون برجعة النبى وينشرون مذهب الحلول وتناسخ الأرواح، وبعد مقتل الإمام نشط أصحاب النحلة الكيسانية وأعادوا مثل هذا القول فى حياة «محمد بن الحنفية» وقيل عن المختار الثقفى داعية القوم أنه ادعى النبوة ونظم له قرآنا يعارض به القرآن الكريم ويفرضه على صحبه فى الصلوات، ومكان الإمام وابنه محمد فى الإسلام أرفع من أن يتطاول إليه من أجل هذا عدو يلج فى عدوانه فضلا عن الولى والصديق، وقد بقى المرجئون والقائلون بالرجعة والحلول يتمادون فى ضلالتهم بعد أن برئ منهم الإمام على وعاقبهم بالحريق، وبعد أن كذبهم ابنه وأعرض عنهم وأقام فى الحجاز وتركهم بالعراق يلجون فى الادعاء له والادعاء عليه.

ولم يخل عصر الإمام جعفر الصادق – أبى إسماعيل رأس الإسماعيليين – من داعية يفترى على الأئمة العلويين، وهم أحياء، كما فعل أبو الخطاب الأسدى الذى كان يقول بتشخيص الجنة والنار، وزعم فى مبدأ أمره أن أولاد الحسن والحسين أنبياء الله، ثم زعم أنهم أرباب، وأن الإمام جعفرا إله يعبد، فلعنه جعفر الصادق وبرئ منه ونفاه. قال أبو منصور البغدادى صاحب كتاب الفرق بين الفرق «فادعى بعد ذلك فى نفسه أنه الإله، وقال أتباعه إن جعفرا الإله.. غير أن أبا الخطاب أفضل منه وأفضل من على، وجوزوا شهادة الزور على مخالفيهم».

وكان غيرهم كذلك يجوزون شهادة الزور على المخالفين، ومن شهادة الزور ما نحلوه لأصحاب المذاهب من الشيعيين والسنيين.

وقد دعا القرامطة للفاطميين كما دعا عبد الله بن سبأ للإمام على، وكما دعا المختار

لابنه محمد بن الحنفية، فأنكرهم الخليفة الفاطمى حين خرجوا على الدين وأغاروا على الحجاز واعتدوا على الحجاج، وكتب الخليفة القائم وهو بالمغرب إلى داعية القرامطة يقول له: «العجب من كتبك إلينا ممتنا علينا بما ارتكبته واجترمته باسمنا من حرم الله وجيرانه بالأماكن التى لم تزل الجاهلية تحرم إراقة الدماء فيها وإهانة أهلها، ثم تعديت ذلك وقلعت الحجر الذى هو يمين الله فى الأرض يصافح بها عباده، وحملته إلى أرضك ورجوت أن نشكرك، فلعنك الله ثم لعنك، والسلام على من سلم المسلمون من لسانه ويده!»..

وعلى خلاف ما قيل عن إباحة المحرمات فى المذهب الفاطمى، ثبت من نصائح أئمة فيهم أنهم كانوا يقصدون فى الحلال المباح ويأمرون أتباعهم ومريديهم بالقصد فيه، وقد أوصى المعز أتباعه من زعماء كتامة بالمغرب فقال عن الزوجات: «الزموا الواحدة التى تكون لكم ولا تشرهوا إلى التكثر منهن والرغبة فيهن فيتنغص عيشكم وتعود المضرة عليكم وتنهكوا أبدانكم وتذهب قوتكم وتضعف نحائزكم، فحسب الرجل الواحد الواحدة..».

وعلى خلاف دعوى الربوبية كان المعز هذا - وهو أعلمهم بالتنجيم - يقول كما روى عنه القاضى النعمان فى كتاب المجالس والمسايرات: «من نظر فى النجامة ليعلم عدد السنين والحساب ومواقيت الليل والنهار وليعتبر بذلك عظيم قدرة الله جل ذكره وما فى ذلك من الدلائل على توحيده لا شريك له فقد أحسن وأصاب، ومن تعاطى بذلك علم غيب الله والقضاء بما يكون فقد أساء وأخطأ».

وكان العزيز كالمعز فى هذا المعتقد كما قال أخوه تميم فى إحدى قصائده:

ولما اختلفنا فى النجوم وعلمها ... وفى أنها بالنفع والضر قد تجرى
فمن مؤمن منا بها ومكذب ... ومن مكثر فيها الجدال وما يدرى
ومن قائل تجرى بسعد وأنحس ... وتعلم ما يأتى من الخير والشر
فعلمتنا تأويل ذلك كله ... بما فيه من سر وما فيه من جهر
عن الطاهر المنصور جدك ناقلا ... وكان بها دون البرية ذا خبر
فأخبرتنا أن المنجم كاهن ... بما قال، والكهان من شيعة الكفر
وإن جميع الكافرين مصيرهم ... إلى النار فى يوم القيامة والحسر

فجمعتنا بعد اختلاف ومرية وألفتنا بعد التنافر والزجر
وأوضحت فيها قول حق مبرهن يجلى ظلام الشك عن كل ذى فكر
فعدنا إلى أن الكواكب زينة وفيها رجوم للشياطين إذ تسرى
مسخرة مضطرة فى بروجها تسير بتدبير الإله على قدر
وإن جميع الغيب لله وحده تبارك من رب ومن صمد وتر
وما علمت منه الأئمة إنما رووه عن المختار جدهم الطهر

وقد خولط خليفة من خلفاء الفاطميين فى عقله – وهو الحاكم بأمر الله – فلم يثبت من تصرفه أنه تلقن من آبائه وأسلافه مذهب الإباحة وادعاء الربوبية، وأنه وريث قوم من اليهود أو المجوس مندسين على الإسلام ليفسدوه وينقضوه، بل ظهر أنه يحرم المباح ويطارد اليهود تارة ويغضى عنهم تارة أخرى على كراهية ونفور، وأنه كان يمنع تقبيل الأرض بين يديه ولا يرضى أن تلثم يداه وركابه، وأمر ألا يزيد الناس فى السلام حين يدخلون إليه على قولهم: «السلام على أمير المؤمنين ورحمة الله وبركاته».

ويجوز أن يقال عن هذا الخليفة إنه كان فى تخليطه وتجديفه فريسة المضللين من وزرائه ولا يجوز أن يقال إنه تولى العرش وهو يعلم أنه يهودى أو مجوسى يستدرج المسلمين إلى الكفر والإباحة وأنه يهدم دولته ودولة الإسلام كله وفاقا لما تآمر عليه آباؤه وأضمروه.

ولم يثبت مع هذا كل ما قيل عن أوامر الحاكم وزواجره وكل ما شاع عن نقائضه وبدواته، فإن التشنيع بالمضحكات والمبالغات مألوف فى القاهرة لذلك العهد وما تلاه.

وقد وضع كتاب عن «قره قوش» صوره للناس فى صورة الطاغية الذى لا يبالى ما يأمر به من المستحيلات والغرائب، وغفل الكثيرون عن موضع الفكاهة من تلفيقات الرواة، فحسبوها كلها جدا لا مرية فيه، وتناقلوها وأضافوا إليها، ولم يزالوا يرددونها على هذا الفهم الخاطئ إلى زمن قريب، وقد كان «قره قوش» على خلاف ما صورته الروايات عنه مثلا فى الحزم وأصالة الرأى وحسن التدبير.

وعند ابن خلدون أن الاختلاق ظاهر فيما ادعوه على الحاكم من الدعاوى الدينية، وأنه كان مضطربا فى الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة «وأما ما يروى عنه من الكفر.. فغير صحيح ولا يقوله ذو عقل، ولو صدر من الحاكم بعض ذلك لقتل

لوقته، وأما مذهبه فى الرافضة فمعروف، ولقد كان مضطربا فيه، ومع ذلك فكان يأذن لأهل السنة من المصريين فى صلاة التراويح ثم ينهى عنها».

على أن الأقاويل عن الحاكم - صحت أو لم تصح - إنما تروى عنه ويعلم رواتها أنهم يتكلمون عن رجل مخالط فى عقله لا يعول له على سر أو علانية..

ونحب هنا أن نوضح ما نستبعد نسبته إلى الدعوة الفاطمية فى صميمها على حسب ما انتهينا إليه من الشواهد النفسية والتاريخية.

فنحن لا نستبعد أن يكون من الدعاة الفاطميين أناس قد استخرجوا لأنفسهم من دراساتهم فى التصوف أو الفلسفة أو التنجيم مذهبا ينكره علماء الدين من السنيين والشيعيين.

ولا نستبعد أن يكون منهم أناس خدموا القضية الفاطمية كلها خدمة لأنفسهم ولصقوا بها كما يلصق طلاب المنافع والنهازون للفرص بكل دعوة كبيرة تتسع لخدمة المنافع الخاصة مع المنافع العامة.

ولا نستبعد أن يعاب على الدولة الفاطمية ما يعاب على الدول فى دور التأسيس أو فى دور الانحلال.

ليس شيء من ذلك بعيدا ولا موجوب لاستبعاده نظرًا إلى أحكام العقل أو شواهد التاريخ..

ولكن الذى نستبعده ونرى أنه مناقض للواقع وللمألوف من الدواعى النفسية أن يكون هناك تواطؤ مبيت بين أناس من المطلعين على إنشاء دولة لهدم الدين الإسلامى والدولة الإسلامية معه، وأن يشمل هذا التواطؤ أقواما فى المغرب والمشرق ويدوم من قرن إلى قرن قبل نجاح الدعوة وبعد نجاحها بزمن طويل.

هذا هو البعيد عقلا والبعيد فى دعوى المدعين الذين لم يسندوه قط بدليل يقرب إلى العقل ذلك الزعم البعيد.

أما ما عدا ذلك من شئون الدعوة الفاطمية، أو شئون الدعوة العلوية فى جملتها فقد سار فى التاريخ مطردا على النهج الذى ينبغى أن يسير عليه.

إن الإيمان بالإمامة واطلاع الإمام على الأسرار التى تخفى على غيره أمر لازم من لوازم الدعوة العلوية فى نشأتها التاريخية.

فإن المؤمن بحق على وأبنائه فى الإمامة يسائل نفسه: لم لا ينصره الله على أدعياء الإمامة والخلافة؟

إنه يؤمن بالله وقدرته وقدره، فلا جواب لذلك السؤال عنده إلا أنها حكمة يعلمها الله، وأن الإمامة العلوية منذورة لزمان غير هذا الزمان، وأن الإمام الحق يعلم زمانه أو ينبغى أن يعلمه بإلهام من الله.

وقد آمن شيعة على بهذا وآمنوا معه بعرفانه لعلوم الجفر وتأويل الكتاب، وكلما تباعدت المسافة بين إمامة الواقع وإمامة الحق تباعدت معها المسافة بين إمامة الظاهر وإمامة الباطن، ثم جاء الزمن الذى أصبحت فيه إمامة الباطن مستورة حتما، فأصبح فيه علم الدين والدنيا مرهونا بما يتعلمه الطالب من الإمام المستور ومن دعاته الذين يخلصون إليه ويعلمون مكانه، ويفسرون أقواله وإشاراته، ولابد من هؤلاء الدعاة ولا مناص من هذا التعليم..

وإذا كان السلطان صاحب الجند والصولة يعتمد فى قيام دولته على الشريعة والقضاء وعلى السيف والشرطة فعلام يعتمد الإمام المستور الذى لا سلطان له من شرطة ولا جند ولا قضاء؟

إنه لن يعتمد على شىء غير الطاعة والثقة التى لا تتزعزع، فلا جرم يطيعه المطيع وهو يؤمن بعصمته على الأقل فى شئون إمامته، ويؤمن بهلاك روحه إن خرج على حكم الطاعة وخان أمانة الدنيا والآخرة، ونقض العهود وحنث باليمين.

كل هذا بديه ولا حاجة به إلى رصف أوراق أو رص أسانيد، لأنه لن يكون إلا هكذا حيثما كان، وقد كان.

ولا ننسى أن الأئمة أنفسهم يؤمنون بما يؤمن به أتباعهم ومريدوهم: يؤمنون بحقهم ويؤمنون بيومهم الموعود، ويؤمنون بالسر الذى يروضون أنفسهم بالعبادة والعلم على أن يستلهموه من هداية الله.

ومن التوفيقات التى نسميها بتوفيقات «الموقف» أن الباطنية الواقعية والباطنية الفاطمية أو الإمامية على الجملة تتلاقى هنا - بحكم الموقف الواحد - فى كثير من الأمور.

فالدراسات المستورة أو المكتومة تتلاقى فى جانب واحد، وإن كانت متعددة المطالب والموضوعات.

وقد كان المحافظون على الواقع الراهن ينكرون هذه الدراسات ويمنعونها على درجات من المنع تتفاوت فى العنف والصرامة.

فكان «الموقف» الواحد يجمع بين أصحاب الدراسات المستورة أو الممنوعة التى لا يرتاح إليها أنصار الواقع والمحافظة على القديم.

وليس من مجرد المصادفة أن فلاسفة المشرق كانوا من الشيعة بتفكيرهم كما كان منهم أناس متشيعون بنشأتهم وميراثهم من بيوتهم، فكان الكندى والفارابى وابن سينا من الشيعة، وكان إخوان الصفاء كذلك من الشيعة، ومن كان من الفلاسفة سُنيًّا كالفخر الرازى فمذهبه الفلسفى فى صفات الله يوافق مذهب الإسماعيليين وأئمة الفاطميين. إذ كان يرى أن الإيمان بتعدد الصفات واستقلال كل صفة منها عن الأخرى تعديد لا يوافق التوحيد..

والذى نستخلصه من المذهب الفاطمى أن فلاسفتهم أخذوا بمذهب الفيض الإلهى الذى تعلمه المشرقيون باسم الحكيم أفلاطون، وهو ينتمى فى حقيقته إلى الحكيم أفلوطين.

نستخلص هذا من قول ابن سينا أن أباه كان يذهب فى الكلام عن العقل والنفس مذهب الإسماعيلية.

ونستخلصه من رسائل إخوان الصفاء وهم من القائلين بمذهب الفيض الذى كان يقول به أفلوطين.

بل نستخلصه من خلط الخالطين فى هذا المذهب، لأنه هو المذهب الذى يتعرض لهذا الخلط فى كل مكان، وقد تعرض له فى الشرق كما تعرض له بين الأوربيين فى القرون الوسطى، ولا يزال يتعرض له فى العصر الحديث.

وعلى نقيض ما قيل عن الإباحة فى مذهب الإسماعيليين يمتاز مذهب الفيض الإلهى بالمبالغة فى التطهر والإعراض عن الشهوات والترفع عن غواية الدنيا التى يتهالك عليها الجهلاء، والجاهل عندهم هو من يتعلق بشىء من الأشياء غير معرفة الحقيقة الإلهية والبحث عنها فى كل ظاهرة من ظواهر هذا الوجود..

وقد نبه إخوان الصفاء فى غير موضع من رسائلهم إلى وجوب التطهر على الحكيم الخالص للحكمة فى حياته الخاصة والعامة، وقالوا غير مرة إن الاستسلام لشهوات البدن يقطع الإنسان عن آخرته ومعاده، ومن ذلك قولهم فى رسالة الجسمانيات والطبيعيات: «اعلم أن الاستغراق فى الشهوات فى هذه الدنيا ينسى الإنسان أمر الآخرة ويشككه وييئسه منها، كما قال قائلهم فى هذا المعنى:

هى الدنيا وقد وعدوا بأخرى وتسويف الظنون من السوام

وقيل أيضًا فى هذا المعنى شعرًا:

خذوا بنصيب من نعيم ولذة وكل وإن طال المدى يتصرم

وقال آخر وقد كان ساهيًا عن أمر الآخرة:

ما جاءنا أحد يخبر أنه فى جنة من مات أو فى نار

وأشعارهم كثيرة فى مثل هذه الظنون والشكوك والحيرة التى وقعوا فيها عقوبة لهم عندما تركوا وصية ربهم ونصيحة أنبيائهم واتباع علمائهم والحكماء فيما يدعونهم إليه ويرغبونهم فيه من نعيم الآخرة وبأمرونهم به من الزهد فى الدنيا وينهونهم عنه من الغرور بشواتها وعاجل حلاوتها».

ومنذ القدم عرف عن هذا المذهب الفلسفى أنه مذهب نسك وعفة وعزوف عن الماديات وترفع إلى عالم الروح، وكان أفلوطين صاحبه قدوة لأبناء عصره فى العفة والزهد والانقطاع عن شواغل الثروة والجاه، وكان من تلاميذه من يبيع قصوره ونفائسه ليلازمه فى معهده ويعيش على مثاله.

ولا غنى عن خلاصة لهذا المذهب ننقلها هنا كما أوردناها فى رسالتنا عن الشيخ الرئيس ابن سينا وهى كما يلى:

«... إنه يتجاوز - أرسطو - أشواطًا بعيدة فى التنزيه والتجريد، فيرى أن الله - أو الأحد - من وراء الوجود ومن وراء الصفات، لا يعرف ولا يوصف، ولا يوجد فى مكان ولا يخلو منه مكان، وكماله هو الكمال الذى نفهمه بعض الفهم بنفى النقص عنه، وهيهات أن نفهمه بإثبات صفة من الصفات، لأننا نستطيع أن نقول إنه لا يكون هكذا ولا نستطيع أن نقول إنه هكذا يكون..

«وقد يتصل به الإنسان فى حالة الكشف والتجلى حين تتجاوز الروح جسدها كما يقول، ولكنها حالة لا تقبل التأمل والتفكير، فإذا انقضت فقد يثوب الإنسان بعدها إلى عقله فيتأمل ويفكر وينحدر بذلك من مقام الأحد إلى مقام العقل الذى هو دونه، لأن الأحد فوق العقل وفوق المعقول. ويقول أفلوطين كما يقول أرسطو إن الله أو «الأحد» لا يشغل بغير ذاته، لأنه مستغن بذاته كل الاستغناء. أما العالم فقد نشأ من صدور العقل عن الأحد وصدور النفس عن العقل من هذا التأمل، وأن العقل يعقل الأحد فهو أحد مثله وإن كان دونه فى مرتبة الوحدانية، ثم يعقل ذاته فينشأ من عقله لذاته عقل دونه وهو النفس أو هو القوة الخالقة التى أبدعت هذه المحسوسات..

«ومن البديه أن صدور الجسم من الجسم ينقصه ويخرج شيئًا منه ينتقل من المعطى إلى الآخذ فينقص بانتقاله، أما صدور الفكر من العقل فلا تنقصه ولا تجرده من شىء فيه، وعلى هذا المثال نفهم صدور العقل عن الأحد الذى لا يعتريه نقص بحال من الأحوال.

«والنفس - وهى المرتبة الثالثة فى الوجود عند أفلوطين - تتجه إلى العقل فتنسجم معه فى مقام التجريد والتنزيه، وتتجه إلى الهيولى فتبتعد عن التجريد والتنزيه، ولهذا تخلق الأجسام وتضفى عليها الصور على سبيل التذكر لما كانت تتأمله وهى فى عالم القدرة الكاملة أو عالم الصور المجردة. فهذه المحسوسات هى كالظلال للمعقولات قبل أن تبرزها النفس فى عالم المحسوسات، أو هى كأطياف الحالم وهو يستعيد بالرؤيا ما كان يبصره بالعيان..

«فالمحسوسات كلها أوهام وأحلام، وكلها غشاء باطل يزداد بعدًا من الحقيقة كلما ابتعد من العقل وانحدر فى اتصاله بالهيولى طبقة دون طبقة، فإن العقل دون الأحد والنفس دون العقل والمحسوسات دون النفس، وهكذا تهبط الموجودات طبقة بعد طبقة

حتى تنحدر إلى الهيولى التى لا نفس معها، وهى معدن الشر فى العالم، لأنها سلب محض يحتاج أبدًا إلى الخلق، وهو الإيجاد أو الإيجاب.

«وقد صدرت النفس الفردية من النفس الكلية، ولها كالنفس الكلية التى صدرت منها اتجاهات. فهى باتجاهها إلى النفس الكلية إلهية صافية، وباتجاهها إلى المحسوسات والأجساد حيوانية شهوية، وليست النفس عند أفلوطين ملازمة للجسد كما يقول أرسطو، بل هى جوهر منفصل عنه سابق له كالمثل الأفلاطونية، فلا تقبل الفناء ولا يحصرها الزمان والمكان، وهى تصدر من النفس الكلية اضطرارًا كما صدرت النفس الكلية من العقل الأول، مستجيبة لطبيعة الإصدار فى ذلك العقل، وللشوق الهيولانى الذى يترفع بالهيولى إلى منزلة المحسوسات فالمعقولات..

«والشر فى العالم هو الهيولى لأنها سالبة تنزل بالمعقولات والروحيات التى لا تلابسها، ولا محيد عن الشر مع وجود الهيولى وقدمها وضرورة الملابسة بينها وبين العقل والنفس فى دور من أدوارها، وعلى النفس أن تجاهدها وتنتصر عليها وعلى شهواتها، فإن أفلحت عادت إلى النفس الكلية خالصة مخلصة، وإن لم تفلح عادت إلى الجسد مرة أخرى ولقيت فى كل مرة جزاءها على الذنوب التى اقترفتها فى حياتها الجسدية الماضية..

«ولا حرية للإنسان كما رأيت، لأن وجوده ضرورة يستلزمها الصدور وملابسة الهيولى، ولكنه يقاوم تلك الضرورة بجهاد الشهوات، فيترقى من مرتبة الحس إلى مرتبة التأمل إلى مرتبة الكشف، وينتقل من شتات الحس إلى استجماع العقل إلى وحدة الأحد ورضوان الكمال، فتجزيه ضرورة الارتقاء عن ضرورة الانحدار، ولا محل بينهما لشىء من الاختيار، وإن قال به أفلوطين فى بعض الأحيان...».

هذه خلاصة وجيزة جدًّا لأصول مذهب الفيض كما شرحه تلاميذ أفلوطين، نعتمد فيها على المراجع الأوربية الحديثة التى نقلت مباشرة من اليونانية، وقد نقل هذا المذهب مجملا فى بعض الأوقات مفصلا فى أوقات أخرى إلى اللغة العربية، ووقع فى نقله خطأ إسناد وخطأ تفسير.. فنسب الناقلون فصولاً منه إلى أفلاطون ونسبوا مبادئ منه إلى أرسطو، ولكن المتصوفة الإسلاميين وفلاسفة الإسلام فى المشرق قبلوا منه ما يوافق الدين الإسلامى وهو تنزيه الأحد، وعقيدة التخلى على الخلصاء من العباد والمتأملين،

ورفضوا منه على التخصيص قوله بتناسخ الأرواح وعقوبة الأنفس فى هذه الدنيا بردها إلى الأجساد التى تشقى فيها، أو مكافأتها بردها إلى الأجساد التى ترقى فيها إلى مرتبة فوق مرتبتها.

ووجد الفلاسفة والمتصوفة معًا ما يوافقهم فى أقوال أفلوطين، فقال بالكشف وقدرة النفس على الخوارق طائفة من المفكرين لا يحسبون بين أهل الطريق ولا يدعون لأنفسهم صفة الإمامة الدينية، وإنما قالوا بالكشف والقدرة على الخوارق أخذًا بالأقيسة الفكرية، واستدل ابن سينا على إمكان الكشف بأن النفس الصالحة تتلقى فى الرؤيا الأنباء بالمغيبات عنها وعن غيرها فلا مانع من تلقيها العلم يقظة من تهيأت له بالرياضة وصفاء السريرة، وأن نفس الإنسان تتصرف فى مادة الجسد فلا مانع أن تتصرف مادة الكون بقدرة تستمدها من علة العلل التى تتصرف فى جميع الأشياء.

وطائفة من أصحاب المآرب وجدوا فى تناسخ الأرواح ما يعينهم على دعواهم، ومنهم من كان يدعى أنه ابن الإمام علىّ بالتسلسل الروحانى مع اعترافه بأنه من غير نسله فى السلالة الجسدية، زاعمًا أن البنوة تحصل بالانتماء إلى الروح كما تحصل بالانتماء إلى الجسد، ولم يكن فى هؤلاء أحد من الفاطميين ولا كانت بهم حاجة إلى هذه الدعوى لأنهم يصححون نسبهم جميعًا إلى الإمام على بغير وسيلة هذا التناسخ المزعوم..

ولا شك أن العلامة الشهرستانى كان يلخص طرفًا من مذاهب أفلوطين كما وصل إلى المشرق حين قال فى تلخيصه لكلام الباطنية عن الصفات: إن الله «لما وهب العلم للعالمين قيل هو عالم، ولما وهب القدرة للقادرين قيل هو قادر، فهو عالم قادر بمعنى أنه وهب العلم والقدرة، لا بمعنى أنه قام به العلم والقدرة أو وصف بالعلم والقدرة.. وأنه أبدع بالأمر العقل الأول الذى هو تام بالفعل، ثم يتوسطه أبدع النفس الذى هو غير تام.. ولما اشتاقت النفس إلى كمال العقل احتاجت إلى حركة من النفس إلى الكمال واحتاجت الحركة إلى آلة الحركة إلخ إلخ».

فهذا المذهب فى الصفات الإلهٰية يوافق مذهب أفلوطين فى جملته، وفحواه بلا إغراب ولا إبهام أننا حين نصف الله بالعلم لا ندرك من كنه العلم إلا ما يعطينا إياه، وإننا حين نصف الله بالقدرة لا ندرك من كنه القدرة إلا ما نقدر عليه بأمر الله، وهكذا فى سائر

الصفات مما لا يجوز أن يفهم منه أنه إنكار لعلم الله وقدرته، إذ كان أصحاب الفيض الإلٰهى ينكرون نقائض الكمال ويرتفعون بالكمال الإلٰهى مرتفعًا تعجز عن إدراكه العقول..

لكن هذا المذهب كما أسلفنا عرضة للخلط في فهمه ممن يهرفون بما لا يعرفون، فإن هؤلاء يخلطون بينه وبين مذهب الحلول وهو يناقض مذهب الحلول أشد المناقضة وينكره غاية الإنكار، فإن الخلاص من أوهاق المادة الجسدية عند أفلوطين هو غاية التنزية والتطهير، ولا يتفق هذا مع القول بحلول الله سبحانه وتعالى فى الأجسام.

كذلك يخلطون بينه وبين وحدة الوجود وهما مذهبان متناقضان. فإن القائلين بوحدة الوجود يسبغون الصفة الإلٰهية على الموجودات جميعًا وهو قول ينفيه أفلوطين جد النفى تنزيهًا لله «الأحد» عن جميع المحسوسات والمتعددات..

ويسمع السامع أن حكمة الخلق تتجلى فى أناس بعد أناس فيخيل إليه أن اللاحق أفضل من السابق، أو أن قيام مشيئة الله فى كل عصر رسالة كرسالة الأنبياء..

هذا الخلط فى فهم المذهب قد جنى على الحقيقة فى غير طائل، وجر إلى الخبط فى الظنون لغير علة، لولا الحماقة وخفة العقل، وحب الحذلقة والادعاء..

وقد كان ابن هانئ الأندلسى من هؤلاء الذين يتعاطون الفلسفة ويهرفون فيها بما لا يعرفون، ولم تكن حذلقته مقصورة على مذهب الإسماعيلية بل هى طبيعة نشأت معه فى موطنه، ولغط بالفلسفة وهو يتصل بصاحب أشبيلية فأقصاه خوفًا من اتهامه معه بمشاركته فى أضاليله وخزعبلاته ولما مدح المعز الفاطمى بقصيدته الرائية التى قال فى مطلعها:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار   فاحكم فأنت الواحد القهار

لم يكن يريد أن يقول إن المعز أقدر من الله، وإلا لما قال بعد ذلك:

وكأنما أنت النبى محمد   وكأنما أنصارك الأنصار

وإنما أراد أن يتحذلق بما سمع عن صفات القدرة والعلم وأن الله يوصف بالقدرة لأنه يعطبها، وأن مشيئته سبحانه وتعالى تقوم بمن يندبه لإمضاء تلك المشيئة، فخلط وخبط

واتهمه الناس – ولهم العذر فيما اتهموه به – ولم تكن به ولا بممدوحه حاجة إليه..

إلا أننا إذا صرفنا النظر عن هذا وأشباهه من ضروب الحذلقة والمبالغة فى الشعر خاصة لم نجد فى كلام القوم ما لم يألفه المتصوفة وأبناء الطريق من عبارات المجاز والكناية، وليس فيما روى عن ثقات الفاطميين شيء لم يسمع مثله من إمام كبير كمحيى الدين بن عربى فى كتب التأويل أو كتب الترسل الصريح، وقد كتب محيى الدين إلى فخر الدين الرازى رسالة يقول فيها: «للربوبية سر لو ظهر لبطلت النبوة، وللنبوة سر لو كشف لبطل العلم، وللعلماء بالله سر لو ظهر لبطلت الأحكام، فقوام الإيمان واستقامة الشرع يكتم السرية..» إلى آخر ما قال عن التوحيد والاتحاد والوحدانية والأحدية.. وفوق كل ذى علم عليم..

وهذا كلام لولا ولع المتصوفة بالإغراب لقال قائله إن النبوة لازمة لأن الناس لا يكشفون سر الغيب بغيرها، وإن العلم لازم لأن النبوة لا تصل إلى الناس أجمعين، وإن الأحكام لازمة، لأن العالم يزجره العلم والجاهل تزجره الأحكام. ولكن الإغراب فى أساليب المتصوفة والحذلقة فى أساليب من يسمعون ولا يفقهون أو من يفقهون القليل ويحبون أن يظهروا الفقه الكثير – كل أولئك يقود إلى الظنون حيث لا موجب للظنون.

* * *

وجملة القول إن الباطنية الفاطمية لو لم تقترن بالدعوة إلى قيام دولة تحارب الدولة القائمة لما استغربها الناس ذلك الاستغراب، ولا اضطربت حولها التهم والأقاويل ذلك المضطرب، فقد كان كل مذهب فى ذلك العصر «باطنيًّا» على نحو من الأنحاء، وأوشك أن يتساوى فى هذا أهل السنة وأصحاب التصوف وطلاب الفلسفة وإخوان الصفاء ممن يتذاكرون العلم بينهم ويظهرن منه حينًا بعد حين ما طاب لهم أن يظهروه.

فالإمام الغزالى – وهو من أقطاب أهل السنة ومبغضى الفلسفة – كان يؤلف للعامة غير ما يؤلفه للخاصة. وكان من كتبه ما يضن به على غير أهله، والإمام ابن عربى المتصوف كان يدين بالسرية ويرى أنها تمام العلم والمعرفة، وأبو العلاء المعرى الشاعر الحكيم كان فى رأى داعى الدعاة يخفى ما يعلم عن أناس يلعن بعضهم بعضًا ويتهم بعضهم بعضًا بالكفر والمروق من الدين، وشعارهم جميعًا:

خـل جـنـبـيـك لـرام وامض عـنـه بـسـلام
مت بـداء الصمت خـيـر لـك مـن داء الـكـلام

إلا أن يكون مندوبًا لعمل لا حيلة له فيه، أو متجردًا لرسالة يهون فيها عنده أن يقول وأن يقال فيه.

ومن المحقق أن الباطنية الفاطمية أضيف إليها الكثير بعد دخول الحسن بن الصباح الذى سيأتى ذكره فى زمرتها، ومن هذا الكثير أنظمة لم تعهدها من قبل؛ وعقائد لم تكن لازمة لها ولا معقولة منها، وأهم هذه الأنظمة نظام الفدائيين الذين كانوا عدة الرؤساء فى حوادث الغيلة والهجوم على المخاطر، فهؤلاء لم يظهر لهم عمل فى خدمة الباطنية إلا بعد نشوء الدولة الفاطمية بأكثر من مائة سنة، ولو كان للخلفاء الفاطميين جند من هذا النظام لما استبد بهم الوزراء أحيانًا من غير مذهبهم ولا من المجاملين لطوائف الإسماعيلية المخلصة لأولئك الخلفاء.

* * *

فقد استبد الأمير بدر الجمالى بالأمر دون الخليفة - وهو أمير الجيوش الذى ينسب إليه حى مرجوش والجمالية - وجاء ابنه الأفضل من بعده وسار مع الخليفة الآمر على خطة أبيه، وكان بدر وابنه الأفضل على مذهب من مذاهب الشيعة غير مذهب الإسماعيلية، فصادروا الإسماعيليين ونفوا أناسًا من قاداتهم وغلاتهم من الديار المصرية، وضاق الخليفة الآمر بوزيره ذرعًا فتحدث إلى ابن عمه فى قتله عند دخوله إليه بقصر الخلافة، ووافقه ابن عمه على وجوب الخلاص من الوزير المستبد ولكنه أشفق على سمعة القصر من جرائر اغتيال الوزراء والكبراء فى رحابه، وأشار عليه بتحريض رجل من صنائع الوزير نفسه على قتله، وإغرائه بمنصب سيده مكافأة له على طاعته، واتفقا على اختيار المأمون بن البطائحى لهذه المهمة فقبل هذا ما أمروه به طمعًا فى الوزارة، ولم يجد البطائحى من يعينه على مهمته غير أعداء الوزير الذين نفاهم من مصر ثم تسللوا إليها خفية.. وشجعهم على الانتقام منه إغراء البطائحى لهم ووعدهم بالعفو عنهم وإسناد الوظائف إليهم متى آلت إليه وزارة الدولة، ولو كان نظام الفدائيين معروفًا يومئذ فى الدولة الفاطمية لما استطاع الوزير الأرمنى المخالف لمذهب الإسماعيلية أن يستبد بالإمام المطاع ولا احتاج الإمام المطاع إلى التفكير فى اغتيال الوزير بين يديه بقصر

الخلافة، ولا إلى تدبير تلك المؤامرة التى اعتمد فيها على الوعد والإغراء والاستعانة بذوى المطامع والترات..

ولاشك أن الحسن بن الصباح لم يعمد إلى نظام الفدائيين إلا بعد استيلائه – كما سيلى – على قلعة «آلموت» واضطراره إلى حماية نفسه من دول حوله تجرد الجيوش لقتاله، وهو فى قلعته بغير جيش يقاوم تلك الجيوش الزاحفة عليه بمثل عدتها وعددها فى ميادين القتال.

وقد تغيرت الدعوة كلها حين تغير موضوعها وتغيرت وسائلها، وأمعنت فى التخفى أو فى «الباطنية» الواقعية حين أمعنت فى الهجوم على خصومها وأمعن خصومها فى الهجوم عليها.

* * *

أما قبل دخول ابن الصباح فى زمرة الباطنية فقد كان استخفاء الدعاة وأتباع الدعاة ضرورة لا محيد عنها لانتشار أصحاب الدعوة فى بلاد واسعة تدين بالطاعة لحكومات متوجسة، تسرع إلى التنكيل بكل من يخالفها ويناصر أعداءها. ولم يكن هذا الاستخفاء لترويج الدسيسة التى تمالأ عليها «مجوس أو يهود» بيتوا النية على هدم الدين وتضليل المسلمين، بل كان لزامًا لأصحاب تلك الحكومات ولاشك أن يشركوا رعاياهم معهم فى الخوف من الإسماعيلية، فلو أنهم قالوا لأولئك الرعايا إن الإسماعيليين طلاب ملك ينتزعونه من ملوك ذلك الزمن لما تحركت لأولئك الرعايا ساكنة فى حربهم والدلالة على مكانهم، إذ كان أكثر الرعايا يعلمون أن الحكم فى أيدى أناس لا يستحقونه بعلمهم وعملهم وإن استحقوه بنسبتهم، وأن أصحاب السلطان الفعال من أجناد الديلم والترك دخلاء على العباسيين كما كانوا دخلاء على الفاطميين، فإن لم يكن خطر الإسماعيلية خطرًا على الدين وعلى المسلمين جميعًا فهو خطر لا يهم الناس فى كثير ولا قليل، ما دام مقصورًا على أصحاب العروش والدسوت.

ولهذا راجت خرافة النسب إلى المجوس واليهود، وهى خرافة تنكرها الحقائق النفسية ولا تؤيدها الشواهد التاريخية، وكل ما ثبتت نسبته إلى أصحاب الباطنية الفاطمية فهو من المسائل التى يختلف عليها طوائف المسلمين من سنيين وشيعيين، بل يختلف عليها

الشيعيون الإماميون أنفسهم بين القائلين بإمامة موسى والقائلين بإمامة إسماعيل من أبناء جعفر الصادق، وليس وراء ذلك كله دسيسة لهدم الإسلام كله، وتضليل المسلمين أجمعين..

* * *

ومحصل القول فى المذهب الإسماعيلى من الوجهة الفلسفية أنه هو مذهب الفيض الإلهى كما اعتقده المتصوفة المسلمون من أصحاب الدعوات السياسية وغير أصحاب الدعوات السياسية، يضاف إليه القول بعصمة الإمام وأنه هو وحده القادر على التأويل الصحيح والإحاطة ببواطن التنزيل، وينبغى أن نذكر هنا أن القول بالعصمة الواجبة لكل إمام كان مذهبًا من مذاهب الفلسفة فى حكومة المدينة الفاضلة، فإن الفيلسوف الفارابى الذى كان يلقب بالمعلم الثانى قد طلب لإمام المدينة الفاضلة كمال العقل والعلم والخيال والذوق والخلق والخلقة، ولعله لهذا كان قريبًا من الشيعة محبًّا للمتشيعين.

وقد كان القول بعصمة الأئمة لا يوجب على المؤمنين به سب كل خليفة غير الإمام علىّ وأبنائه الأكرمين، ولكن سب الخلفاء جرى على ألسنة طائفة من غلاة الفاطميين وغير الفاطميين، فاستنكره عقلاؤهم وحكماؤهم، واستنكره أدبًا من لا ينكره اعتقادًا ولا يرى الخلافة لأحد غير الإمام علىّ وبنيه، ولا عذر من المسبة الباطلة على كل حال، ولكن الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بلعن علىّ على المنابر ستين أو سبعين سنة هو الخلاف القبيح الذى أطلق الألسنة بعد ذلك بالجرأة على أقدار الأئمة الآخرين رضوان الله عليهم أجمعين.

حسن بن الصباح

أشرنا فى الفصل السابق إلى التغير الذى طرأ على نظام الدعوة الإسماعيلية بعد دخول الحسن بن الصباح فى زمرتها، وسنرى من جملة الأخبار والأعمال التى رويت عن ابن الصباح أن الرجل من أصحاب تلك الشخصيات التى لا تتصدى لدعوة من الدعوات إلا أضافت إليها شيئًا من عندها وطبعتها بطابعها، وأنه لم يكن من أولئك الذين يتعلقون بدولاب كبير يديرهم إلى وجهته، بل كان من الذين يديرون الدولاب إلى وجهتهم حين يتعلقون به، ولا يدفعهم إلى التعلق به إلا أنهم لا يستطيعون أن يخلقوا لأنفسهم دولابًا مستقلًّا يتعلق به الآخرون.

واتفقت الأخبار الصادقة والكاذبة التى رويت عن الرجل على صفة واحدة فيه يثبتها الخبر الصحيح والخبر الكاذب على السواء، وهى الجنون بالسيطرة والغلبة، ونتعمد أن نسميها الجنون بالسيطرة ولا نسميها حبًّا للسيطرة ولا رغبة فيها، لأنه كان مغلوبًا لدفعة نفسه، أو كان أول من غلبته تلك النزعة فمضى معها مسوقًا لها، غير قادر على الوقوف بها ولا الراحة معها.

والسيطرة محبوبة لكل إنسان، ولكن الفرق عظيم بين من يهيم بالسيطرة لأنه لا يطيق العيش بغيرها، وبين من يطلبها لأنه يفضلها على عيشة بغير سيطرة أو يفضلها على عيشة الطاعة والإذعان للمسيطرين.

ذلك مضطر إلى طلب السيطرة، وهذا مختار فى المفاضلة بين الحصول عليها والاستغناء عنها، وقد يفضل الاستغناء عنها إذا جشمه الطلب فوق مايطيق..

وكان الرجل داهيا ولكنه لم يكن من الدهاء بحيث يستر مطامعه ولا يثير المخاوف فيمن حوله.

أو لعله داهيًا عظيم الدهاء، ولكن هيامه بالسيطرة واندفاعه إليها كانا أعظم من

دهائه. فانكشفت غايته على كره منه وحيل بينه وبين بلوغ تلك الغاية من كل طريق ينافسه فيه المنافسون.

ومما لا ريب فيه أن الرجل لم يكن من الغفلة بحيث يصدق كل خرافة من الخرافات التى كان يذيعها ويتولى نشرها والدعوة إليها، ولكن التواريخ والشواهد لم تحفظ لنا خبرًا واحدًا يدل على أنه كان من السمو الفكرى بحيث يسلم من جميع الخرافات ويتبطن ماوراءها من الحقائق، ولا سيما إذا كان التصديق هو طريقه إلى السلطان والغلبة وقهر الخصوم والانتصار على النظراء. فمن مألوف النفوس – أو من مألوف هذه النفوس خاصة – أن تعتقد ما يواتيها على هواها ويعزز إيمانها بمطمعها، كما يفعل المحب الذى يؤذيه الشك ويؤذيه العلم بعيوب محبوبه فيروض طبعه على اليقين وتجميل العيوب لأنها أريح له وأعون له على هواه من عذاب الشكوك وانكشاف العيوب.

وهذه الطبيعة المعهودة فى أمثاله دون غيرها هى التى تفسر لنا أعمالاً شتى يبدو فيها خادعًا مخدوعًا فى وقت واحد، فهو حصيف لا شك فى حصافته. ولكن كيف يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف الذى لج به حتى يسول له البطش بأقرب الناس إليه ومنهم ولده أو ولداه ؟

يقع الحصيف فى مثل ذلك السخف، وفيما هو أسخف منه، إذا كان مغلوبًا على أمره مضطرًّا إلى تسويغ دفعته بعقيدة تجمّلها فى نظره، وتلبسها ثوب الواجب الذى لا محيد عنه ولا هوادة فيه.

* * *

أما أن حسن بن الصباح كان مغلوبًا على أمره فى طلب السلطان فحياته كلها سلسلة من الشواهد على طبيعة لا تطيق العيش بغير سلطان أو بغير السعى إلى السلطان، فإنه ما اتصل بأحد قط إلا خافه على مكانته وتوجس منه على الرغم من دهائه وفطنته، ولو لم يكن طمعه أقوى من دهائه وفطنته لما تكشفت منه دفعة الطمع فى كل علاقة وفى كل مكان.

سمع فى شبابه عن الشيخ موفق النيسابورى أن تلاميذه جميعًا يرتفعون ببركة تعليمه فى مراتب الدولة، وكان ابن الصباح شيعيًّا، ومدرسة الشيخ الموفق معهد السنة فى

نيسابور، فلم يمنعه ذلك أن يختارها للتعلم فيها على أمل فى الجاه والسلطان.

ومن الذين ذكروه من محبيه رشيد الدين بن فضل الله صاحب «جامع التواريخ».. وفى روايته عن صباه يقول إن سبب العداء بينه وبين الوزير نظام الملك أنه كان يتتلمذ معه فى مدرسة نيسابور فتعاهدا على المعونة إذا وصل أحدهما إلى منصب من مناصب الرئاسة، وأن ابن الصباح قد استنجز الوزير وعده فخيره بين ولاية الرى وولاية أصفهان، وكان ابن الصباح عالى الهمة، فلم يقنع بإحدى هاتين الولايتين، فاستبقاه نظام الملك فى الديوان عسى أن يترقى فيه إلى مكانة أكبر من مكانة الولاة..

والرواية على هذه الصورة عرضة للنقد والمناقشة، ولكنها على كل حال يصح منها شيء واحد: وهو علم المؤرخين للرجل - من محبيه فضلاً عن مبغضيه - أنه كان بعيد المطامع منذ صباه..

وحدث وهو فى الديوان، أنه تصدى لعمل من أعمال نظام الملك فوعد الملك بإنجازه قبل أن ينجزه الوزير، فاحتال هذا على إحباط سعيه وأوصد عليه الباب الذى أراد أن يندفع منه إلى منصبه فوق كتفيه.

وقيل فى تعليل سفره إلى مصر للقاء الخليفة الفاطمى إنه استوعب كل ما تعلمه من الدعاة فاستصغره إلى جانب علمه بأسرار الدعوة، فأراد المزيد من العلم بالشخوص إلى دار الحكمة فى القاهرة، لعله يستوفى هناك علوم الإسماعيليين التى غابت من دعاة العراق.

ومن الواضح أن الشخوص إلى عاصمة الخلافة الفاطمية هو المسعى الذى لا تنصرف عنه همة طامع فى مناصب الدولة، فليس له مطمع فى بغداد وليس له بين السلجوقيين مقام محمود، ولم يبق له إلا أمل واحد لا منصرف عنه، وهو بلوغ المنصب المرموق فى عاصمة الخلافة ومرجع الدعوة والدعاة..

ولكنه لسوء حظه بلغ القاهرة وقد تحكم فيها رجل قوى الشكيمة، كبير المطامع، يتولى القيادة والوزارة ولا يقنع بهما دون الإمارة والملك لو تمهد إليهما السبيل، ومن ثم زوج بنته للأمير المستعلى بن الخليفة، وأكره الخليفة أو زيّن له أن يختار المستعلى لولاية عهده، أملاً فى الملك إن استطاع لنفسه، أو فى توطيد الملك لذريته من بعده.

ذلك هو أمير الجيوش بدر الجمالى الذى سبقت الإشارة إليه؛ ذلك هو الند الذى تحفز ابن الصباح لمصاولته ومداورته بعد وصوله إلى القاهرة، فاختار نزارًا لولايته العهد واحتال جهده أن يحول بين المستعلى وعرش الخلافة، واستمد من أساس المذهب الإسماعيلى كل حجة يدعم بها ترشيح نزار للخلافة بعد أبيه، فزعم أنه مثل بين يدى الخليفة المستنصر فوكل إليه الخليفة أن يدعو إليه وإلى ولى عهده بين الأمم الإسلامية. قال: «فسألته ومن ولى العهد؟ فأشار إلى نزار..»

تلك قصة تشبه قصة الولاية التى صارت إلى إسماعيل بن جعفر الصادق وثبتت له بعد عدول أبيه عن ولايته وإسنادها لأخيه موسى، فإن الإسماعيليين يرفضون تبديل ولاية العهد لأن الولاية بأمر الله والله يتنزه عن البداء..

فلما أراد الحسن بن الصباح أن يثبت الولاية لنزار أقام لها أساساً كالأساس الذى قامت عليه الدعوة الإسماعيلية من مبدئها، وروى تلك القصة عن الخليفة المستنصر (والأرجح عند أناس من ثقات المؤرخين أن الخليفة لم يدعه إلى لقائه، بل أنزله منزل الكرامة فى دار الضيافة، ثم أبقاه على أمل يتردد بين التقريب والإقصاء) ولكن ابن الصباح قد طال عليه الانتظار وأحس الخطر من أمير الجيوش فنجا بحياته من مصر، ولما يصدق بالنجاة، وراح بعد الإفلات من الخطر ينشئ له دعوة جديدة فى المذهب الإسماعيلى، وهى الدعوة إلى إمامة نزار.

وراح الحسن يطوف فى بلاد الشام والعراق وفارس لينشر دعوته الجديدة حيث يأمن الرصد والمطاردة، ويبدو أن حوافز النفس الغلابة كانت فى تلك الفترة على أشد ما تكون غلبة عليه، حرجًا بما لقيه وضيقًا بالمطمع الذى ينازعه ولا يعلم المخرج إليه، فقال يومًا لأحد أصدقائه فى أصفهان: لو أن معى صديقين أركن إليهما لانتزعت من هؤلاء السلاجقة عرشهم.. فظن به صديقه الجنون، وأوصى طباخه أن يتخير لضيفه ما لطف من الطعام وطاب غذاؤه، وأدرك الحسن أن صديقه قد خامره النسك فى عقله فتركه ومضى لسبيله.

والظاهر من مساعيه وحركاته فى هذا التطواف أنه كان يبحث عن أستاذه القديم فى الدعوة الإسماعيلية عبد الملك بن عطاش، وكان ابن عطاش قد ولاه الوكالة عنه تم

زين له السفر إلى القاهرة، وأطلعه قبل سفره إليها على أسماء بعض الدعاة المستترين الذين يلقاهم فى طريقه، ولكنه لم يطلعه على أسمائهم جميعًا، وأهم من ذلك لدى التلميذ المتحفز أنه لم يعرف من أستاذه مكامن الأموال المدخرة لبث الدعوة، ولا عرف بطبيعة الحال كلمة السر التى تمكنه من أخذها وتكون علامة له عند المؤتمنين عليها، فما زال الحسن يتعقب ابن عطاش حتى ظفر بلقائه ووثق من اطمئنانه إليه، ولعله استطلعه أسرار الودائع المخبوءة فأطلعه عليها..

وواضح من أن تجارب الحسن فى رحلاته بين بلاد السلاجقة وخلفاء بنى العباس وخلفاء الدولة الفاطمية، قد أيأسته من الوثبة إلى السلطان من طريق الولاية، ولكنها لم تيئسه من الوثبة إلى السلطان حيث كان لاستقرار هواه فى طبعه، فطمحت به همته إلى معقل من المعاقل فى أطراف الدولة ينفرد بحكمه ولا تمتد إليه فيه يد ملكٍ أوخليفة، وتخير الأطراف فلم يجد منها ما هو أصلح لمطلبه من بلاد الديلم، فخرج إليها مع رهط من صحبه وأتباعه، وقيل إنه تلقى من مصر فى الأثناء ولدًا لنزار بايعه بالإمامة وعمل باسمه ودعا إليه، حتى انتهى به المطاف إلى قلعة يقيم فيها زعيم من العلويين، فاستضافه فأنزله على الرحب والسعة وتغاضى عنه وهو ينشر الدعوة لمذهبه ويجمع الأنصار حوله، ثم أحكم أمره كما يقول ابن الأثير، فطرد صاحب القلعة واستولى عليها وعلى القلاع التى تجاورها. وساعده على انتزاعها أنه خيل إلى أهل الإقليم أن مجموعة حروفها بحساب الجمّل توافق لك السنة الهجرية: سنة ثلاث وثمانين وأربعمائة (٤٨٣) وهى مجموعة حروف الألف واللام والهاء والألف والميم والواو والتاء التى تتألف منها كلمة الهاموت، وأتم الحيلة فى أذهان القوم أنه فسرها لهم بمعنى النسر المعلم، من (أله) بضم اللام بمعنى النسر، فى الفارسية، و (أموهت)[1] بمعنى المعلوم أو المعلم، إيماء من الغيب بتعليم الدين من قمة النسر الشاهقة، والدين فى مذهب الباطنية تعليم لا يستغنى عن الإمام فى كل زمان!

* * *

وقد تحدث المؤرخون والسياح عن أسرار تلك القلعة بالأعاجيب التى تزجى الأحاديث بين الناس فيصدقونها، لأنهم يحبون الاستماع إلى العجب والتحدث بالعجب

---

(١) ينطق اسم القلعة «الاموت» أو الموت بفتح اللام.

ويصعب عليهم بعد العثور على حديث عجيب أن يفرطوا فيه كما يصعب عليهم التفريط في كل قنية عجيبة أو كل تحفة نادرة..

من هذه الأعاجيب أن الحسن بن الصباح عرف سر الحشيش من أستاذه الطبيب بن عطاش فسخره فى نشر دعوته، وأنه توسل به لإقناع أتباعه برؤية الجنة عيانًا، لأنه كان يدير عليهم دواخين الحشيش، ثم يدخلهم إلى حديقة عمرت بمجالس الطرب التى يتغنى فيها القيان ويتلاعب فيها الراقصات، ثم يخرجهم منها وهم فى غيبوبة الخدر ويوقع فى وهمهم ساعة يستيقظون أنه قد نقلهم إلى جنة الفردوس وأنه قادر على مرجعهم إليها حيث يشاء، وأنهم إذا ماتوا فى طاعته ذاهبون بشهادة أعينهم إلى السماء.

قالوا: وإن هذا الإقناع أو هذا «الإيمان العيانى» يفسر طاعة أتباعه الذين كان يأمرهم بالهجوم على أعوانه من الوزراء والأمراء بين حاشيتهم وأجنادهم فيهجمون عليهم ويغتالون غير وجلين ولا نادمين، وأن كلمة «أساسين» Assasin التى أطلقت فى الغرب على قتلة الملوك والعظماء، ترجع إلى كلمة الحشاشين أو الحسنيين نسبة إلى الحسن ابن الصباح، وقالوا إن الفتى من أتباع شيخ الجبل كان يبلغ من طاعته لمولاه أن يشير إليه الشيخ بإلقاء نفسه من حالق فيلقى بنفسه ولا يتردد، وإن أحدهم كان يقيم بين جند الأمير المقصود بالنقمة ويتكلم لغتهم حتى لا يميزوه منهم، وإنه يفعل فعلته ويتعمد أن يفعلها جهرة ولا يجتهد فى الهرب من مكانها، وإن أمهات هؤلاء الفدائيين كن يزغردن إذا سمعن خبر الفداء ويبكين وينتحبن إذا عاد الأبناء إليهن، ولم يفلحوا فى اغتيال أولئك الأعداء..

* * *

وظل الحديث بهذا وأشباهه يتعاقب ويتناثر بين الأمم، ويروى عن الحسن كما يروى عن خلفائه إلى عهد الرحالة البرتغالى «مار كوبولو» الذى ساح فى المشرق فى أوائل القرن الثالث عشر للميلاد، ولا يزال هذا التفسير الخرافى مقبولاً فى القرن العشرين بين الأكثرين من المؤرخين والقراء..

ونحن نستبعد جدًّا أن يكون للجنة المزعومة أصل فى قلعة حسن بن الصباح، فإن التكذيب أرجح من التصديق فى كل خيط من الخيوط التى نسجت منها القصة ذلك النسيج الواهى المريب.

إن الحسن بن الصباح كان معروفًا بالصرامة والشدة على نفسه وعلى أتباعه، وكان يتنسك ويتقشف رياضة أو رياء أمام أتباعه وتلاميذه، ولم يكن من اليسير فى تلك القلاع المنفردة أن يخفى أمر القيان ومجالس الراقصات والغناء زمنًا طويلاً دون أن يطلع عليه المقربون، إن لم يطلع عليه جيرة القلعة أجمعين، وليس من المعروف عن مدخنى الحشيش أن يحفظوا وعيهم ويفقدوه فى وقت واحد، وأن يتلبس عليهم كلهم أمر العيان والسمع هذا الالتباس، وليس من المعروف عن الحشيش أنه يهيئ صاحبه لمواقف الإقدام على المخاطر والإصرار عليها شهورا أو سنوات.

ومن المحقق أن شيخ الجبل لم يطلع أحدًا على سره، وأن أحدًا من المؤرخين لم يشهد تلك الجنة بنفسه ولم يسمع روايتها من شاهد بعينه، فهل من العسير أن نتتبع مصدر هذا الخيال من روايات الزمن الذى نشأت فيه وسرت منه إلى ما بعده من أزمنة القرون الوسطى؟

* * *

إن روايات هذا الخيال قد نشأت بين الصليبيين ولم تنشأ بين المشارقة، وقد كان الصليبيون فى حاجة إلى تأويل شجاعة المسلمين وهم فى عرفهم قوم هالكون لايؤمنون بالدين الصحيح، فخطر لهم وقالوا وكرروا أنهم يستميتون فى الجهاد لأنهم موعودون بالجنة التى تجرى تحتها الأنهار وترقص فيها الحور الحسان، إذا استحبوا الشهادة فى سبيل الله.

واستغراب الشجاعة من الفدائيين هو الذى أحوجهم إلى سبب كذلك السبب أو أغرب من ذلك السبب، وقد كان ماركو بولو فى روايته يقول: إن الفدائيين صدقوا شيخ الجبل كما كان المجاهدون من العرب يصدقون النبى عليه السلام، وكأنه يقول إنهم لهذا يقبلون الموت وهم قوم هالكون، فهم فى شجاعتهم مخدوعون.

إن القوم قد عجبوا كيف يطيع الفدائيون شيخهم هذه الطاعة وكيف يقدمون بأمره على الموت المحتوم. فلم يتخيلوا لذلك سببًا غير الجنة الموعودة، وعرفوا الحشيش فالتمسوا فيه سر الجنة التى ترى فى هذه الدنيا رأى العيان، وقد جاء ذكر الحشيش فى كلام مؤرخى المشرق وذكر بعضهم أن أناسًا من شيوخ الطرق كانوا يستبيحونه ولايحسبونه من المسكرات المحرمة، وذكر البندرى مؤرخ آل سلجوق جماعة الحشاشين

وعنى بهم طائفة الإسماعيليين، أما جنة «آلموت» المزعومة فهى من مخترعات الغرب لا نعلم أنها وردت فى كلام مؤرخ إسلامى قديم، ولا أن أحدًا من مؤرخى الغرب أسندها إلى مصادر من المصادر الإسلامية.. ولو كان لها مصدر من المشرق الإسلامى لكانت كتب الشرق أولى بابتداعها من كتب الأوربيين..

وأول دلائل البطلان فى هذه الخرافة أن وجه الغرابة الذى دعاهم إلى اختراعها غير غريب، فإن النخوة الدينية كانت أقرب شىء إلى اتباع الأئمة فى ذلك الزمن، ولا تصلح رؤية الجنة عيانًا لتفسير تلك النخوة فى عجائز الفناء، فضلًا عن الفتيان المجردين للفداء. فإذا كان أولئك الفتيان يستهينون بالموت لأنهم شهدوا الجنة عيانًا، فالعجب لأمهاتهم اللائى كن يفرحن بفقدهم وينتحبن لنجاتهم كيف ملكن جأشهن بغير تلك الآية التى رآها أبناؤهن رأى العيان!

* * *

لقد كان الأمل فى ظهور المهدى المنتظر رجاء كل نفس وحديث كل لسان فى ذلك العصر من المؤمنين بالمهدية، وكانت فتن العصر أشبه شىء بفتن آخر الزمان أو بأشراط الزمن الذى يظهر فيه المهدى المنتظر ليملأ الأرض عدلًا، كما ملئت جورًا، وينجو بأتباعه ومصدقيه إلى حظيرة الخلد والسلام، وكان شيخ الجبل يتخير لتربية الفدائيين فتيانًا أشداء يتفرس فيهم العزيمة والمضاء ولما يبلغوا الحلم، ثم يأخذ فى تدريبهم على المشقة والطاعة وهم دون الثانية عشرة، وأكثرهم من أبناء الجبال فى تلك الأطراف التى نشأ أبناؤها على الفطرة، وعلى استعداد للتصديق والإيمان، وكان الإيمان بالدعوة العلوية قد شاع فى تلك الأطراف فخرج منها الأمراء والوزراء الديلميون الذين بايعوا خلفاء القاهرة وهم فى بغداد، وكانت لشيخ الجبل إرادة من حديد، تتسلط على أجناده تسلط «المنوم المغناطيسى» على المدربين عنده على التنويم، فلم يكن فى طاعة هؤلاء وإقدامهم على الاستشهاد من غرابة ولا من حاجة إلى رؤية الجنة بالعين، وتأتى الحروب الصليبية فتلهب ما فتر من النخوة التى أذكاها الصراع بين الدول والفرق والطوائف والخلفاء والسلاطين.. فلا يحتاج الفتى المدخر للاستشهاد إلى دافع أو حافز، بل لعله يحتاج إلى الوازع والرقيب..

والمؤرخون الأوربيون الذين كتبوا على خداع القادة لأتباعهم فى الجماعات السرية

كثيرون، منهم من يحسن التفسير ومنهم من يسيئه، ومنهم من يسرع إلى الاتهام ومنهم من يتريث فيه. فمن الذين أحسنوا التفسير إيفانوف الروسى صاحب كتاب «مؤسس الإسماعيلية المزعوم» The Alleged Founder of Ismailism وهو ممن يصححون نسب الفاطميين ويرجحون الاختلاف من قبل «الأساتذة المربين» الذين يختارون لتعليم الأمراء وتثقيفهم فى العلوم وفقه الدين، وقد عم الدعاة بالخداع فى عهد عبد الله بن ميمون وخص بالذكر أئمة «آلموت» من «المهدى حسن الصباح ورشيد الدين سنان» وسائر هؤلاء الدعاة..

فأما أن حسن بن الصباح كان يسوق أتباعه بالخداع فذلك مالاريب فيه عند الخصوم ولا عند الأنصار، فهل يصدق القول عليه أنه هو يخدع ولا ينخدع وأنه هو يسوق و لا يساق؟..

* * *

الراجح عندنا أن هذا «المهدى» لم يكن خلوًا من الإيمان بدعوته على وجه من الوجوه، وأن عمله فى الدعوة عمل جاد غير هازل وصامد غير متردد، ولا داعى للشك بإيمانه بعمله، وإن كان هناك شك فى إيمانه بكل ما يقول لسامعيه ومتبعيه.

وما بالنا نتخيله خلوا من الإيمان منصرفا كل الانصراف إلى التضليل والخداع؟ أليس من دواعى الإيمان أن يكون الإنسان مدفوعا إلى عمله غير قادر على تركه؟ أليس من دواعى الإيمان أن يكون اعتقاد الإنسان فى عمله خيرا من اعتقاده فى أعمال الآخرين؟ البس من دواعى الإيمان أن يقنع نفسه برسالة صالحة وأن يستمد من علمه حجة لتلك الرسالة؟

إن «التنويم الذاتى» معروف متواتر، وإنه لأقوى ما يكون حين تندفع إليه النفس ضرورة لا حيلة لها فيها، وذريعة لها عذر من أحوال الزمن ودواعيه..

وربما بدأت عقيدة ابن الصباح فى رسالته سلبية قبل أن ترسخ فى طويته بالإقناع الموجب واضحًا أو وسطًا بين الوضوح والغموض.

ونعنى بالرسالة السلبية أنه آمن إيمانًا لا مثنوية فيه بفساد العصر وضلال ذوى السلطان فيه، وأنه مهما يفعل فى حربهم واستئصال فسادهم فهو على صواب..

وتقترن بهذه الرسالة السلبية دفعة فطرية إلى السيادة والسلطان، فماذا يصنع بهذه الدفعة إن لم يعمل بها عملاً قويًّا متصل العزيمة والثبات؟

إما أن يستكين إلى سيادة غيره، والموت أحب إلى أصحاب هذه النفوس الغالبة المغلوبة من استكانة الخضوع، وإما أن يمضى قدمًا، ولا بد له من مسوغ وبرهان، وليس أسرع إلى السريرة من المسوغ، والبرهان حين ينجيان من الغرق فى لجج اليأس والانكسار وظلمات الفشل والهوان.

وقد قال داعى الدعاة فى ذلك العصر إن الناس كانوا بين رجلين: رجل لو قيل له إن فيلًا طار أو جملًا باض لما قابله إلا بالقبول والتصديق «أو منتحل للعقل يقول إنه حجة الله تعالى على عباده، مبطل لجميع ما الناس فيه، مستخف بأوضاع الشرائع معترف مع ذلك بوجوب المساعدة عليها وعظم المنفعة بمكانها، لكونها مقمعة للجاهلين ولجامًا على رءوس المجرمين المجازفين..»

* * *

وهذه عقيدة قوم لا دفعة فى طبائعهم إلى طلب السيادة والسلطان، وليس فى طويتهم ما يثيرهم إلى الحركة إذا آثروا السكون، فإذا كانت هذه العقيدة فى طوية رجل لا يهدأ ولا يستكين، ولا يرى فى نفسه إلا أنه أهل للقيادة والإمامة، وأن الذين حوله أهل للقمع والنكال، فمن اليسير عليه أن يسوغ لنفسه خداع العامة والخاصة لتحقيق غاية على يديه، هى أصلح مما هم فيه، وأصلح مما يحققونه على أيدى سواه.

وقد سوغ أفلاطون فى جمهوريته خداع الدهماء وخداع المتعلمين الناشئين، وسوغ فيثاغوراس من قبله حجب الحقيقة عن بعض العيون وتقريب الأمر إلى المريدين بالرموز والإشارات، وأباحا ذلك وليس واحد منهما مأخوذًا بدافع السيادة، وليس فى زمانهما دعوة سرية عامة كالدعوة التى لفت حسن بن الصباح من رأسه إلى قدميه، فلم لا يسوغ هذا المذهب فى قيادة الدهماء لحسن بن الصباح؟ وهل من البعيد أنه اطلع على أفلاطون وفيثاغوراس كما اطلع على أفلوطين؟ إن القول باقتباس الباطنية من هذين الحكيمين راجح متواتر، فليس مما يخل بحكمة الحكيم أن ينصب نفسه للهداية ويسلم نفسه ورسالته إلى الله يتوجه به حيث أراد.

* * *

إن المؤمنين الخالصين للإيمان بغير مواربة ولا مراجعة أندر من الندرة بين بنى آدم وحواء، وما من أحد آمن بعقيدة إلا عرف فى بعض حالاته كيف يوفق بين الشك والاعتقاد، وكيف يسلم الأمر لله ويستلهمه اليقين.

وتسعون فى كل مائة، إن لم نقل أكثر من ذلك، يؤمنون بالعقيدة إيمان الوقاية أو إيمان الرغبة فيما يعدون به أنفسهم أو يعدهم به الهداة، وإذا استطاعت قوة الاعتقاد أن تقنع الملايين بالتسليم لقائد منجد أو دليل مرشد، فأحرى بهذه القوة أن تقنع من ترفعه عقيدته فى نفسه، أو فى دعوته إلى مقام السيادة والقيادة، وتبسط يده على خصومه مستحقين لعقابه، وعلى أصحابه مستحقًّا منهم الطاعة والتسليم..

لم يكن حسن بن الصباح خلوًا من الإيمان بعمله فيما نرى، ولم يكن عسيرًا عليه أن يركن إلى دعوة تغريه بها ضرورة الفطرة، ويحضه عليها فساد الزمن وسهولة المسوغ للخروج على المفسدين فيه، ولا يعز عليه أن يعززها بعلامة من علمه الواضح أو من علمه الغامض وما يلتمع فيه من بريق يثبت عليه بالإلهام حينًا بعد حين، فما عاش الرجل بقية حياته غائبًا عن صوابه ولا مالكًا لكل وعيه، وبين هذا وذاك منزلة الغالب والمغلوب والخادع والمخدوع..

استولى الحسن على قلعة «آلموت» فى سنة ٤٨٣ هجرية ومات فى سنة ٥١٨ هجرية، فظل مالكًا لتلك القلعة باسطًا نفوذه على ما حولها خمسًا وثلاثين سنة، لعله كان خلالها أقوى رجل فى الديار الإسلامية من مراكش إلى تخوم الصين.

وولى عهده، وتسمى بالمهدى وانتحل البنوة الروحية للانتساب إلى الإمام، واستعان بتعدد المراجع فى المذهب فانفتحت أمام الحسن أبواب الدعوة لنفسه باسم «نزار».

* * *

وقد اعتمد فى توطيد سلطانه على ثلاث: الحيلة، والغيلة، والفتنة الدخيلة. فمن الحيلة أن السلطان السلجوقى ملكشاه سير إليه فرقة لمحاصرته بعد استيلائه على قلعة آلموت بسنتين، ولم يستكثر من الجند كما أوصاه وزيره نظام الملك استخفافًا بشأن القلعة وحاميتها، فلما أحاطت الفرقة بالقلعة بين الجبال الجرداء والقفار الموحشة، وطال على جنودها العهد بلهو العواصم والحواضر أمر الحسن بقافلة تحمل الخمور فيما تحمل من

المتاع فسيرت على مرأى من الجيش المحاصر، فما وقعت أيديهم على زقاق الخمر حتى أفرغوها فى أجوافهم وانطلقوا يقصفون ويهزجون، فانقضت عليه حامية القلعة وأمعنت فيهم قتلاً ونهبًا وتشريدًا من دون أن تصاب الحامية بخسارة ذات بال.

وأعاد ملكشاه الكرة وقد أصاخ إلى نصحة وزيره فى هذه المرة، فضيق المحاصرون مسالك القلعة وساكنيها وبطلت الحيلة فاعتمد الرجل على الغيلة، وأرسل إلى الوزير فتى من فتيانه الفدائيين فقتله فعاد الجيش الذى سيره الوزير إلى حيث استدعاه ملكشاه، لحاجته إليه فى اتقاء الفتنة واتقاء الغارة من المغول.

وتساعد الرجل مصادفات الحوادث.. فيموت ملكشاه ويزعم الأتباع والأشياع أنها كرامة المهدى تنجيه من أعدائه واحدًا بعد واحد، ويتنبه الرجل إلى مواقع الفرص فلا تفوته منها فائتة، فلما نشبت الفتنة بين ولدى ملكشاه جعل همه أن ينصر أحدهما على الآخر حتى يوشك أن يظفر بأخيه فيسلط على الجيش المنتصر سلاح الغيلة أو سلاح الفتنة الدخيلة، ومن أساليبه فى هذه الفتنة أن يترك المحاربين فى شك ممن هو معهم ومن هو عليهم، وقد يشيع عن أحد أعدائه فى دولة الأمير أنه من الإسماعيليين «الصباحيين» المستترين، وقد يوهم الأمير غير ذلك فيتقرب إليه ويظهر العداء لابن الصباح ومتبعيه.

فلما آل العرش إلى السلطان سنجر بن ملكشاه، وكان من أقوى الملوك وأغناهم فى عصره، لم يجد بدًّا من مصالحة ابن الصباح، وقيل فى أسباب المصالحة إنه كان من أهمها شك السلطان فى حاشيته وقواده وأجناده، وتخوفه من أن تكون الدعوة السرية قد قلبت عليه أقرب الناس إليه وهو لا يعلم، فتعاقد مع ابن الصباح على المسالمة وترك له جباية الضرائب والأتاوات فى إقليمه، ويروى أنه وجد فى طريقه إلى حصار «آلموث» خنجرًا مغروسًا فى فراشه مكتوبًا عليه أن الذى غرسه هنا قادر على أن يغمده فى صدرك، وأنه سمع عن أمراء الحصون أنهم يضمرون العقيدة الباطنية ويعلنون الطاعة للسلاجقة فى انتظار الأمر من شيخ الجبل، فآثر المسالمة على القتال.

* * *

ولم يبال شيخ الجبل بالانقطاع عن الدعوة الفاطمية، بل لم يبال بسقوط الخلافة الفاطمية، ولم يحجم عن تهديد خلفائها علانية وخفية، وهمه قبل كل شىء أن يكون أتباعه

خالصين لطاعته والثقة به فى غير مشاركة ولا هوادة، فانقسمت الدولة الإسماعيلية على نفسها، وأصبح لها فى البلاد الفارسية والعراقية معسكران متنازعان: أحدهما معسكر ابن الصباح يدعو إلى نزار ويدعى المهدية لشيخ الجبل ويحارب المعسكر الآخر من الإسماعيليين، والثانى يدعو إلى المستعلى وأبنائه، وبقيت منها اليوم طائفة الإسماعيليين المعروفين باسم البهرة، يقولون إن المهدى المنتظر سيظهر عما قريب من سلالة الخليفة «الآمر» الفاطمى وأنه يحضر موسم الحج فى كل عام، فمن رأى الحجاج جميعًا فى موسم من مواسم الحج فقد رآه..

وحيرة المؤرخين والباحثين النفسانيين هى حياة الرجل فى السنوات الأخيرة من مقامه بقلعة آلموت. إنه لم يكد يفارقها بعد دخولها، ولم تكن له أسرة فيها غير امرأته وولديه، وهذا الزعيم «الباطنى» الذى قيل عن مذهبه إنه ذريعة إلى استباحة المحرمات والتهالك على اللذات قد اتفق الكاتبون عنه على زهده واعتكافه وعزوفه عن المباح من الأطايب، فضلاً عن الحرام، وزعم بعض المؤرخين حين قتل ابنه أنه قتله لمخالفته إياه فى شرب الخمر على الخصوص، ولم يقتل ولدًا واحدًا بل قتل ولديه الاثنين وهو فى شيخوخة من لا مطمع له بعدها فى الذرية، وهذه هى حيرة أخرى من حيرات لا تحصى فى مسلك هذا الإنسان العجيب كله، وفى مسلكه قبيل وفاته على الخصوص.

* * *

هل هو مجنون مطبق الجنون؟ إن المجنون المطبق الجنون لا يستغرب منه قتل أبنائه فى شباب لا شيخوخة، وتزول بهذا غرابة القتل ولكنها تزول لتخْلُفَها غرابة أعضل وأدهى، وتلك هى قدرة المجنون المطبق الجنون على التدبير المحكم عامًا بعد عام، وقدرته على حفظ مكانه ومكانته بين وزرائه وأعوانه، ومنهم الأذكياء الدهاة، وفيهم الشجاعة والهمة والإقدام..

هل له عقيدة يصبر فى سبيلها على الشظف والضنك ويستبيح من أجلها إراقة الدماء، دماء الأبناء كدماء الأعداء؟

إنه خلق العقيدة، النزار به خلقًا، فمن البعيد أن يخلق العقيدة وينخدع بها، ويصبر فى سبيلها على ما صبر عليه، ويستبيح فى سبيلها ما استباح.

والذى يبطل الحيرة فى اعتقادنا هو التفسير المقبول لطبيعة هذا الإنسان العجيب..

ونبدأ فنقول إننا ينبغى أن نستغرب من حسن بن الصباح ما هو غريب منه لا ما هو غريب من غيره، ولو كانوا معظم الناس.

فالغريب فى طباع الناس تجردهم من الحنان الأبوى أو فتور هذا الحنان فيهم، ولكن هل خلا الجنس البشرى من آحاد يهون عندهم الحنان فى جانب النوازع القوية التى لها السلطان عليهم وليس لهم عليها سلطان؟ هل خلا الجنس البشرى من آحاد نراهم بيننا تستهويهم الشهوات الصغار فضلاً عن الشهوات الكبار، فلا يبالون ما يصيب أبناءهم من جراء تلك الشهوات؟...

وهل من البعيد أن يكون ابن الصباح هذا من أولئك الذين تملكهم نازعة تطغى على حنان الأبوة؟

كلا! ليس هذا بالبعيد على الإطلاق، بل هو دأب الطامحين من أمثاله إلى السيطرة، ودأب الذين يهون عليهم شظف العيش ولا يهون عليهم الخضوع والبقاء فى زوايا الإهمال، وقد يكون الولدان اللذان أمر بقتلهما قد تآمرا عليه مع بعض أعوانه المتطلعين إلى مكانه كما جاء فى بعض الروايات، وقد يكون أحدهما هو الذى تآمر عليه كما هو الأرجح ويكون ظنه بالآخر أنه لا يفلح ولا يؤمن على مصير الدولة بعده، وقد يكون بطشه بابنه فى سبيل رسالته هو المسوغ المقبول أمام ضميره، لإقدامه على البطش بالغرباء فى هذا السبيل.

* * *

فإذا كان الظن بجنونه المطبق حيرة، وكان الظن بغفلته حيرة مثلها، فأنفى الظنون للحيرة أنه أطاع طبعه فى طلب الغلبة على الرغم منه، وأنه اتخذ من فساد زمانه حجة على وجوب رسالته وقداستها، وأنه راض نفسه على شدائد تلك الرسالة لتكون الشدائد التى يضطلع بها حجة له على صدقه ومطاوعة طبعه، وأنه كان عرضة لسورة الغضب ونوبة الفتك فى أزمات طبعه ولكنها سورات ونوبات دون الجنون المطبق فى جميع الأحوال، وهذا كله جائز غير مستغرب. أما المستحيل فهو أنه مصاب بالجنون المطبق أو خادع لا عمل

له ولا غواية من وراء عمله غير الخداع والتضليل، أو أنه مغفل لا يدرى موضع الغفلة من سريرته، وهو يتسلل بالإقناع إلى سرائر المئات والألوف، ومنهم الأذكياء والألباء والحصفاء..

السرية الباطنية

ولعل سيرة شيخ الجبل، فى نقائضها المعلومة، هى ألزم السير للتعريف بمعنى السرية الباطنية أو السرية الإسماعيلية على التخصيص، فهذه السرية كانت تشتد وتتراخى تبعا للعمل الذى ينوطه الإمام بدعائه، لا تبعًا للفكرة أو للعقيدة التى يخالفون بها أصحاب الفكر والمعتقدات الأخرى.

كانت السرية تشتد كلما خشى دعاة الإمام فى بلاد أعدائهم على أنفسهم وعلى رؤسائهم وأئمتهم، وكانت تشتد كلما كان الكتمان أنجح لمهمتهم وأعون على تشتيت أعدائهم وتبلبل الأفكار فيما حولهم، وكانت تتراخى حتى لا سرية على الإطلاق حيث تكون الدولة دولتهم والأمور مؤاتية لهم ولسياستهم، وقد يعقدون المجالس ويحاضرون فى الأندية العامة لإعلان آرائهم وإقناع معارضيهم كلما اطمأن بهم المقام فى ديارهم.

* * *

ومن الجائز أن تكون تلك الأعمال مرتبطة بالعقيدة الخاصة فى الإمام، حين يكون تعظيم الإمام وتقديسه لازمين لإقناع الداعية أو الفدائى بالهجوم على الخطر ومواجهة المصاعب.والأهوال فى غير إشفاق على حياته أو حذر من عاقبة أمره، ففى هذه الحالة يتصف الإمام بالقداسة التى توجب على المريد طاعته وتضمن له النجاة فى هذه الدنيا أو فى الدار الآخرة وكثيرًا ما يستغنى الإمام عن المغالاة بقداسته فى الأزمنة العصيبة التى تلتهب فيها الحماسة الدينية ويشيع فيها الأمل باقتراب الأوان الموعود، وتوالى العلامات والأشراط التى تؤذن بظهور المهدى، وانتصار زمرته على أعدائهم وأعدائه، فإذا شاع فى النفوس هذا الأمل فلا حاجة بالإمام إلى عقائد المبالغة والمغالاة فى أمره، وحسبه أنه قائد مصدق مطاع يأتمر بدعوته جند مصدقون مطيعون.

وإذا أردنا التوسع الذى يشمل جميع المذاهب وينتظم مذاهب السنة والشيعة جميعًا ولا يخص الإسماعيلية أو النزارية وحدها فالخلاف على الإمامة هو محور كل خلاف بين

جميع المذاهب من جانب السنة أو من جانب الشيعة فكل ما عزز ضرورة الإمام الحى فهو من عقائد الشيعة، وكل اختلاف أردنا أن نعرف عقيدة الشيعة فيه فلنرجع بجانبى الرأى إلى محور الخلاف كله، فأيهما كان أقرب إلى ضرورة الإمام الحى فهو من مذهب الشيعة، بغير حاجة إلى البحث الطويل والاستقصاء البعيد.

* * *

ولقد لخص الغزالى هذا الفارق فى كتاب المنقذ من الضلال فقال: «الصواب أنه لابد من الاعتراف بالحاجة إلى معلم، وأنه لابد أن يكون المعلم معصومًا، ولكن معلمنا المعصوم هو محمد صلى الله عليه وسلم: فإذا قالوا هو ميت فنقول ومعلمكم غائب، فإذا قالوا: معلمنا قد علم الدعاة وبثهم فى البلاد وهو ينتظر مراجعتهم إن اختلفوا، أو أشكل عليهم مشكل، فنقول: ومعلمنا قد علم الدعاة وبثهم وأكمل التعليم، إذ قال الله تعالى: «اليوم أكملت لكم دينكم». وبعد كمال التعليم لا يضر موت المعلم كما لا تضر غيبته. يبقى قولهم: كيف يحكمون فيما لم يسمعوه؟ أفبالنص ولم يسمعوه، أم بالاجتهاد بالرأى وهو مظنة الخلاف؟ فنقول: نفعل ما فعله معاذ رضى الله عنه لما بعثه رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى اليمن، إذ كان يحكم بالنص عند وجوده وبالاجتهاد عند عدمه، بل كما يفعله دعاتهم إذا بعدوا عن الإمام إلى أقاصى الشرق، إذ لا يمكنهم أن يحكموا بالنص، فإن النصوص المتناهية لا تستوعب الوقائع غير المتناهية ولا يمكنهم الرجوع فى كل واقعة إلى بلدة الإمام، وإلى أن يقطع المسافة ويرجع يكون المستفتى قد مات أو فات الانتفاع بالرجوع، فمن أشكلت عليه القبلة ليس له طريق إلا أن يصلى باجتهاده، إذ لو سافر إلى بلدة الإمام ليعرفه القبلة لفات وقت الصلاة. فإذن أجيزت الصلاة إلى غير القبلة بناء على الظن – ويقال إن المخطئ فى الاجتهاد له أجر واحد وللمصيب أجران – فكذلك فى جميع المجتهدات..».

ومهما يكن من قول فى تفصيلات الشعائر أو الفرائض فما كان منه أقرب إلى تعليم الإمام المعصوم فهو قول الشيعة وما عداه فهو قول السنيين وجميع المقرين للإمامة على مذهبهم كالزيديين، وهذا هو الذى يؤيد أن مرجع السرية كله هو الرأى فى الإمامة لا عقائد مستورة أو خلائق مخالفة لأدب الدين أو العرف بين المسلمين وغير المسلمين.

* * *

خذ لذلك مثلاً إعلان بدء الصيام، فإن رؤية الهلال فيه كافية على مذهب السنيين، ولكن هذا الرأى يغنى عن إعلان الإمام للصيام فلا يأخذ به الإماميون، بل يقولون إن المسلمين كانوا فى حياة النبى عليه السلام يصومون حين يصوم، فلما أزمع السفر سألوه عن موعد الصيام فقال لهم: «صوموا لرؤيته وأفطروا لرؤيته».. ولم يكلهم إلى الرؤية قبل ذاك وهو مقيم معهم يصوم فيصومون.

ووجود علم مستور يتعلمه الناس من الإمام دون غيره هو العقيدة التى لا محيد عنها لمن يقولون بالإمامية، وإنما يختلف العلم المستور باختلاف الأئمة والأوقات والسائلين، فقد يكون العلم المستور هو تأويل القرآن، وإجابة كل سائل عنه بما يقدر عليه، وقد يكون العلم المستور سياسة محكمة لا تكشف لكل طالب ولا يجوز التردد فى طاعتها توقفًا على فهمها، فإنها لو كشفت فى بعض الأزمنة لحاق الضرر بمن تشملهم تلك السياسة أجمعين..

وقد فسر ابن الصباح اسم قلعته بمعنى النسر المعلم، فهى مرجع المؤمنين من أتباعه لا يستغنون عن تعليمها بالابتعاد عنها، وقد ترخص بعض الإماميين فى أمر العصمة الواجبة للإمام، فأباح بعضهم نقد الإمام كما فعل حسن بن الصباح فى نقد الخليفة المستنصر، بل كما فعل داعى دعاة الخليفة نفسه هبة الله الشيرازى الذى سبقت الإشارة إليه، ولكنهم يقولون إن الإمام يصيب وهو مختار، ويجرى مع الخطأ وهو مكره، ولا سيما فى اختياره لولى عهده وصاحب الإمامة من بعده، فإن من اختاره طائعًا فهو الصواب المطاع.

* * *

لقد صحبنا منشئ «الإسماعيلية الجديدة» من عهد بروزة فى ميدان الدعوة الفاطمية، ولم نبدأ بسيرته من نشأته الأولى. لأن حياته العامة لا تتوقف على أخباره فى أوائل نشأته. فما من خبر منها متفق عليه حتى اسمه وموطنه ونحلته، فهو ينتسب إلى اليمن ويذكر من نسبته أنه الحسن ابن على بن محمد بن جعفر بن حسن بن محمد الصباح الحميرى، ومنكرو دعواه يقولون إنه قروى من خراسان، ومنهم من يقول إن أباه كان يعمل فى الصباغة، صناعة الصابئة على شواطئ بحر العجم.

* * *

والثابت أنه مات ولم يظهر له فى حياته ولا بعد مماته أحد من ذوى قرابته، وأن دعوته لم تفلح فى بلاد اليمن بل أفلحت فيها دعوة الطيب بن الآمر الى كانت تناقض الدعوة إلى نزار إمام الحسن المختار، وقد أوصى الحسن بعده لرجل فارسى غريب عنه لا تربطه به نسبة، ولعله من أقربائه المستورين إن صح أنه من الفرس وليس من أهل اليمن.

ورويت عن صباه تلك القصة التى جمعت بينه وبين الخيام ونظام الملك بمدرسة نيسابور، ولكنها قصة يرتاب فيها طائفة من ثقات المؤرخين، لأن نظام الملك ولد سنة (٤٠٨ للهجرة) فإذا كان ابن الصباح والخيام من لداته فقد بلغا إذن أكثر من مائة سنة ولو قدرنا أنهما أصغر من نظام الملك ببضع سنوات، وفى ذلك موضع للشك غير ضعيف.

وأيا كان الخبر الذى يثبت من أخبار صباه فهو لا يغير شيئًا من ملامح «الشخصية» التى برز بها فى التاريخ، وهى شخصية المغامر صاحب الدعوة التى انقطعت عن جذورها واتصلت به وبغاياته ومراميه، وهذه بعد شخصية أثبت فى ملامحها من شخصية ميمون القداح وأحدث فى الدعوة الفاطمية، وعلى دعوتها تقاس الدعوات التى اقترنت بالفاطمية فى تاريخها المعلوم أو تاريخها المجهول.

بناة وهدامون. ومهدومون

ينسب قيام الدولة الفاطمية إلى جهود الدعاة الذين انبثوا فى المشرق والمغرب وافتنوا فى تبليغ الدعوة سرًّا وجهرًا إلى كل طائفة بالوسيلة التى تلائمها، ويغلو بعض المؤرخين فى شأن هذه الجهود حتى يُخَيِّلوا لمن يقرؤهم أن غير هذه الجهود لم يكن له فى إقامة الدولة الفاطمية شأن ذو بال..

ولا شك فى براعة الدعوة الفاطمية وقوة أثرها فى التمهيد لقيام الدولة، ولكننا لا ننسى أن بعض هذه الدعوة كان يسىء إلى القضية ولا يحسن، وأن فريقا من الدعاة كانوا يخدمون أنفسهم ويضرون قضيتهم، وأن الدعوة لو انصرفت كلها إلى الخدمة والتمهيد ولم ينصرف شىء منها للإساءة والتنفير لما بلغت غايتها، إن لم يكن جو العالم الإسلامى متهيئًا لقبول نظام جديد والإعراض عن نظام قديم.

والواقع أن جو العالم الإسلامى قد تهيأ فى القرن الثالث لقبول هذا التبديل فى نظامه، وكان هذا التهيؤ من شقين: شق ينكر النظام القائم، وشق يرحب بالنظام المنتظر ويعطف عليه.

وكانوا يسمون ذلك دلالات النجوم، فيربطون بين مشيئة الإنسان ومشيئة الكون كله، ويلوح لهم حين يريدون التغيير أن التغيير كائن ولو لم يريدوه، ولو لم يعملوا لتحقيق ما أرادوه.

وتوجد الكلمة التى تحفظ حين تلفظ، ويسمع الناس «أن الشمس ستشرق من مغربها» فيهمس بها بعضهم إلى بعض، ويعجب السامع مما سمع فلا ينساه.

وقد كان علم النجوم قد استفاض فى كل مكان، وليس أكثر من مقارنات الفلك التى يحسب المنجمون أنها علامة الغيب على الغير والأحداث، وطلاب التغيير هم المستبشرون دائمًا بتلك العلامات وهم الذين يركنون إليها ويترقبونها، ولا سيما حين يكون علم

النجوم علمًا يحبه المجددون ويمارسونه، ويبغضه المحافظون ويتشاءمون به ولا يترقبون الخير من ورائه.

وما كان أبو تمام ينظم قصيدة من قصائد المدح وحسب، حين قال عن النجم ذى الذنب فى زمانه.

أين الرواية بل أين النجوم وما ... صاغوه من زخرف فيها ومن كَذِب
قد صيروا الأبرج العليا مرتبة ... ما كان منقلبًا أو غير منقلب
وخوّفوا الأرض من دهياء داهية ... إذا بدا الكوكب الغربى ذو الذنب

ولكنه فى الواقع كان ينظر فى أوائل القرن الثالث إلى الوجهتين المتقابلتين: وجهة الراضين عن نبوءات النجوم ووجهة المتبرمين بها، وما زالت الوجهتان تنفرجان حتى شهدت نهاية القرن غاية التفاؤل وغاية التشاؤم بعلامات النجوم.

قال صاحب زهر المعانى: «وكان أهل النجوم والحساب يذكرون ظهور المهدى بالله ويبشرون بدولته، ثم إن الملوك والأضداد أيقنوا بذلك، وأن صاحب الزمان تقدم للهجرة إلى المغرب والمهدى فى كنفه.. حتى يكون أوان ظهوره وطلوع نوره.. وأن يكنوه بالشمس الطالعة».

وكان المهدى نفسه على علم بمراصد النجوم، فكان يتفاءل بمقارناتها ويبشر بها أتباعه، وهم بغير هذه البشارة مصدقوه، فإذا علموا ا أن الكون كله يتأهب «لطلوع الشمس من المغرب» فقد بلغ التصديق غاية اليقين.

وقد أثر عن حفيد موسى الكاظم - كما جاء فى المقريزى - أنه قال فى سنة اثنتين وخمسين ومائتين إن الإمام المنتظر سيظهر بعد اثنتين وأربعين سنة، ونظم الفهرى هذه النبوءة فقال:

ألا يا شيعة الحق ... ذوى الإيمان والبر
ومن هم نصرة الله ... على التخويف والزجر
فعند الست والتسـ ... ـعين قطع القول فى العذر

وظل المتربصون بالدولة العباسية يقرءون فى أرصاد النجوم علامات زوالها إلى ما بعد

نهاية القرن الثالث وبعد بداية القرن الرابع، فقال أبو طاهر القرمطى:

أغركم منى رجوعى إلى هجر	فعما قريب سوف يأتيكم الخبر
إذا طلع المريخ فى أرض بابل	وقارنه النجمان، فالحذر الحذر
فمن مبلغ أهل العراق رسالة	بأنى أنا المرهوب فى البدو والحضر
أنا الداع للمهدى لا شك أننى	أنا الضيغم الضرغام والحية الذكر

وقد تقدم أن الناس ظنوا بأبى العلاء المعرى أنه من رصدة النجوم، فإذا بلغ بزمان أن يترقب فيه الضرير أرصاد السماء فهو زمان تفعل فيه العلامات الفلكية فعلها، سواء أكان حب التغيير هو الذى علق الأبصار، والبصائر بمسالك الكواكب، أم كانت مسالك الكواكب هى التى شحذت فى نفوسهم حبهم للتغيير وتطلعهم إلى الغيب من بصير وضرير.

وفحوى ذلك كله أن السماء والأرض فى عرف أبناء القرن الثالث للهجرة كانتا تتطلعان إلى شىء، وأن الناس كانوا يتفاءلون بذلك ويتشاءمون وأحرى الناس أن يتفاءلوا بعلامات التغيير هم طلاب التغيير.

وجاءت الدعوة الفاطمية إلى قوم متبرمين أو قوم غير مكترثين للدفاع عن النظام القائم أو دفع النظام الجديد.

كان بين خدام الدولة العباسية نفسها من يبغضونها أو ينكرون حقها، ومن كان منهم لا ينكر حق الخلفاء العباسيين فهو منكر لسلطان الترك والديلم، معتقد أن أهل البيت المقبلين خير من أهل البيت المولين، أو أهل البيت الذين تولت عنهم الولاية عجزًا وسفهًا فليس لهم منها غير الأسماء.

* * *

وكان بطش العباسيين بأبناء على من أسباب الكراهة لأصحاب الحكم وأسباب العطف على طلابه، فكان مع العباسيين من خدامهم وأعوانهم من يقدسون صاحب الدعوة العلوية ويمقتون أصحاب العروش فى بغداد، ولولا عامل من عمال بنى العباس فى الرملة لا عتقل المهدى وقتل قبل أن يصل إلى المغرب حيث أقام الدولة. يقول جعفر الحاجب فى سيرته: «وصلنا إلى الرملة فنزلنا بها عند عاملها، وكان مأخوذاً عليه فلم يدر

من السرور برؤية مولانا المهدى... كيف يخدمه ورفع المهدى فوق رأسه وقبل يديه ورجليه».

ثم قال إن النجاب وصل من دمشق إلى الرملة يصف له المهدى ويأمره بالبحث عنه والمهدى فى داره فانكب الرجل على رجلى المهدى يقبلها ويبكى فطمأنه المهدى قائلا: «طب نفسًا وقر عينًا، فو الذى نفسى بيده لا وصلوا إلى أبدا، ولنملكن أنا وولدى نواصى بنى العباس..».

وتبين غير مرة أن النجابين الإسماعيليين كانوا أسرع إلى تبليغ المهدى وأعوانه من النجابين الذين تعقبوه وهم موعودون بالجزاء الجزيل على اعتقاله وتسليمه، واستخدام الحمام الزاجل فى تبليغ الرسائل إلى المهدى وهو فى طريقه كما جاء فى روايات مختلفة، فإن صح هذا فهو دليل على ولاء عجيب وإيمان برسالة المهدى على طول طريقه من الشام إلى المغرب، وإن لم يصح فقد صح ما هو أغرب منه وهو نجاة المهدى من عشرات الولاة والعمال فى الشام ومصر والمغرب، بل نجاته بعد دخوله الحبس حيث اعتقل قبل مصيره إلى المغرب الأقصى.

وربما كان ولاء عامل تابع للأمراء أقل فى باب العجب من ولاء أمير قائم على عرش دولة كالدولة المصرية، لا تعترف لخلفاء بغداد من بنى العباس بغير الدعاء على المنبر فى يوم الجمعة، فقد روى عن كافور الأخشيدى أن الشريف أبا جعفر مسلم بن عبيد الله ناوله سوطه – وقد سقط منه – فاستعظم كافور هذا التواضع منه ومال على يده يقبلها وهو يقول: «نعيت إلى نفسى، فما بعد أن ناولنى ولد رسول الله صلى الله عليه وسلم سوطى غاية يتشرف لها..»

هذه هى أشراط الساعة وعلامات الزمان التى وافتها دعوة الدعاة الفاطميين على قدر، ولو لم تقترن دعوة الدعاة بهذه الأشراط التى تجمعت من فعل الحوادث التاريخية والبواعث النفسية لما تمكن الدعاة وحدهم من إقامة الدولة ولا تمكنوا من الإقناع وهو أهم أعمال الدعاة.

* * *

ونتابع الأمر إلى غاياته فنقول إن الدعوة والحوادث التاريخية والبواعث النفسية كلها

كانت خليقة أن تذهب سدى بغير نتيجة لو لم يقيض للدولة بناة وموطدون من أصحاب السلطان فيها، يأخذون بزمام الأمور ويحسنون قيادتها على نهجها القويم إلى أن تثبت دعائم الملك وتصمد البنية الجديدة لغواشي الزمن، وهي بعد التأسيس عرضة لطوارئ الهدم والتوهين..

وقد جرت العادة فى كل دولة جديدة أن يكون لها مؤسس وموطد: مؤسس هو رأس الأسرة، وموطد هو خلف له يتناول منه الملك ولما يستقر قراره فيمنعه أن ينهار قبل أن يبلغ التمام، ثم يتمه ويتركه لمن يأتون بعده بناة أو مسترسلين أو هدامين ينقضون ما بناه الأولون.

ولم تكن دولة الفاطميين شذوذا من هذه القاعدة، فأسسها المهدى عبيد الله ووطدها المعز لدين الله، وكان كلاهما على نصيب وافر من الخلائق التى تنبغى لبناة الدول وموطدى العهود، فلو تتابعت أعمال الدعاة ودواعى الزمن دون أن يتاح للدولة هذان البانيان لما برز لها من الأرض ركن ولا أساس.

اتصف عبيد الله بقوة البنية وجمال السمت والهيبة، كما اتصف باليقظة مع سعة الحيلة ورباطة الجأش، وعرف بالحزم وأصالة الرأى وشدة المراس واستعصاء المقاد على المكابرة والعناد، واجتمع له حسن التصريف، فلم يفته قط أن يختار الوقت الملائم والرجل الملائم للعمل المطلوب كما ينبغى أن يكون، وأعان ذلك كله بحب العمارة والتنظيم، فوجدت الدولة الجديدة منه مؤسسًا قليل النظراء.

قيل فى قوة بنيته «إنه كان بقوة عشرة رجال».

* * *

وليست هذه القوة نادرة فى أبناء علىّ من السيدة الزهراء ومن غيرها، فقد روى عن محمد بن الحنفية أنه جلد الأرض بمصارع الروم الذى جاء إلى دمشق يتحدى الأقوياء فى بلاد المسلمين كما تحداهم فى بلاده، ولم تزل هذه القوة معهودة فيهم بعد الجيل الخامس، فقيل عن يحيى بن عمر الملقب بالشهيد أنه «كان له عمود حديد ثقيل يكون معه فى منزله وربما سخط على العبد أو الأمة من حشمة فيلوى العمود فى عنقه فلا يقدر أحد أن يحله عنه حتى يحله بيده».

وليست قوة البنية شرطًا فى أصحاب العروش، ولكن مؤسس الدولة يحتاج إليها إذا وجبت عليه الرحلة أحيانًا من مكان إلى مكان فجأة وعلى غير استعداد، ووجب عليه أن يصبر على متاعب الاستخفاء ومتاعب الحاجة، وأن يصرع المطارد ويسبق المتعقب ويبرز للقتال ولا يزال على أهبته لمقاومة أعدائه ومقاومة أنصاره المنشقين عنه، فإذا تصدى لهذا ولم يرزق ضلاعة الأركان أوشك أن ينقطع بالمسعى دون غاية الطريق.

أسعفته هذه البنية الوثيقة فى مآزقه وفى أيام سلطانه، وأسعفته معها مهابة يعنو لها المؤمن به ومن يحاربه ولا يضمر مودته، فلما كان أسيراً فى المغرب الأقصى كان صاحب «سجلماسة» ينكل بأعوانه ولا يجسر على مجابهته بما يسوءه وكان يعمل فى مغيبة ما لم يكن يجترئ على عمله وهو ناظر إليه.

وقد تمت له المسعفات فى مآزق الحرج باليقظة الجريئة والحيلة التى لا تفارقها رباطة الجأش وعزة الكرامة. فلما خرج من الشام إلى مصر هربًا من خلفاء بغداد سيروا الأدلاء إلى كل بلد فى الطريق ينادون على الناس بأوصافه ويبرئون الذمة ممن يراه ولا يدل عليه، ويجعلون لمن يسلمه عشرة آلاف دينار وزلفى تنفعه عند الخلفاء والأمراء. واتفق أنه صلى الصبح يوما فى جامع عمرو فعرفه بعض المصلين بوصفه وهو يهم بالخروج من المسجد «وضرب بيده على كم الإمام وقال له: قد حصَلَت لى عشرة آلاف دينار».

* * *

ولو رجل غيره فى مثل ذلك الموقف العصيب لساخت به الأرض من الفزع، ولكنه التفت إلى الرجل غير مكترث وسأله كأنه خلو الذهن من كل خبر: وكيف ذلك؟ قال: لأنك أنت الرجل المطلوب. فضحك المهدى وعاد مع الرجل إلى المسجد وهو يقول له: عليك عهد الله وغليظ ميثاقه أننى إذا جمعت بينك وبين الرجل الذى تطلبه كان لى عليك ولصديقى هذا خمسة آلاف دينار!..» ولعله تفرس فى الرجل الغفلة فأخذه إلى حلقة قد اجتمع الناس فيها، وأدخله من جانبها وراغ منه.. وأجمع النية فى تلك اللحظة على فراق مصر والمبادرة بالمسير إلى المغرب.

وفى مسيره إلى المغرب تعقبه والى مصر وأدركه وتردد فى وصفه فأطلقه ولاح عليه أنه يحدث نفسه بلحاقه إذا تثبت من حقيقته، فما عتم المهدى أن عاد بعد انطلاقه يبحث عن

كلب من كلاب الصيد يتعلق به ابنه - وكانت تربيته لابنه كما نقول فى مصطلح هذه الأيام تربية رياضية - فوقع فى نفس الوالى أن رجلاً يعود بعد النجاة فى طلب كلب لا يظن به أنه خائف على حياته وأنه خارج فى طلب الخلافة وقال لأصحابه: «قبحكم الله. أردتم أن تحملونى على قتل هذا حتى آخذه. فلو كان يطلب ما يقال، أو كان مريبًا، لكان يطوى المراحل ويخفى نفسه، ولا كان رجع فى طلب كلب...».

وقد يكون الوالى أطلقه لمال أخذه منه كما يقول غريب بن سعد فى تاريخه، وأنه خشى من أصحابه أن يرتابوا فيه ويرفعوا أمره إلى رؤسائه وأن يلحقوا من ورائه بالمهدى وركبه، فكانت حكاية الكلب هذه حيلة لتضليل أولئك الأصحاب، وصرفهم عن المطاردة وعن الوشاية بالوالى إلى بغداد..

ومن حزمه بعد مبايعته بالخلافة أنه بادر على الأثر إلى تجديد نظام الدعوة فى المغرب وفى مصر واليمن والعراق وخراسان، وحمله على هذا التجديد أن أمر الدعوة لم يكن مجتمعًا فى أيام استتاره، فتولى الدعاة ندب أعوانهم بغير مراجعة المهدى فى اختيارهم، وتعود هؤلاء الأعوان أن يتلقوا أوامرهم من الدعاة الذين ندبوهم واختاروهم، ولم تكن عاقبة هذا النظام مأمونة على الخليفة الجديد ولا على الخلافة الناشئة، فإنه خليق أن يجعله عالة على أتباعه وأن يطمع هؤلاء فى الاستبداد به وعصيان حكمه. فنقض نظام الدعوة وعزل رؤساء الدعاة ولم يستثن أكبرهم - داعى اليمن ابن حوشب - فعزله وهو الذى كان أستاذ دعاته فى الأقاليم، وكان منهم عبد الله الشيعى الذى سبق المهدى إلى المغرب واستقدمه إليها بعد التمهيد له وجمْع القبائل على عهده، وقد رابه من الشيعى هذا وأخيه العباس أنهما على اتصال خفى بزعماء القبائل وأنهما يستكثران على الخليفة أن يحصر السلطان فى يديه، ونمى إليه أنهما يأتمران به، ويبيتان النية مع زعماء القبائل على قتله، فأمر بقتلهما وأظهر الرضا عن غيرهما ممن ظن فيهم الظنون، فجعل يفرقهم فى المناصب النائية كأنه يكافئهم ويعتمد عليهم، وهو فى الواقع يقصيهم عن مواطن الخطر ويوقع بينهم الحذر والمنافسة.

* * *

وأطلق دعاته الجدد ومن أبقى عليه من الأقدمين يجوسون خلال الديار الإسلامية ليبشروا به، ويخذلوا الأنصار حول أعدائه. فانطلق رسله إلى بلاد الأمويين بالأندلس

وبلاد الأدارسة بالمغرب، ونشط رسله فى مصر واليمن والعراق وخراسان، وأخذ بيديه أزمة الثورات فى كل إقليم من تلك الأقاليم، فاستمهل أعوانه كلما تعجلوا الثورة وظنوا أنهم قادرون عليها، وأن الأوان قد آن للجهر بها، ورأى هو بتاقب نظره أن ثورة الأطراف قبل فتح مصر، أو قبل المسير إليها، تغرير بالثوار، وأن الثورة بعد فتح مصر تتمة منتظرة قد تأتى عفوًا وقد تنشب دفعة واحدة مع سقوط هيبة الدولة العباسية، فلا يعيى الثوار بالخروج عليها فى غير حذر ولا ندم. وقد صح تقديره بعد تسيير الحملة على مصر وتجربة الموقف مرتين.

والراجح من المقابلة بين برامج المهدى أنه كان مقسور اليد فى حملاته على مصر. كان يوصى بالأناة والتريث، حتى يفرغ العمل فى التخذيل وكسب الأنصار.. ثم يضرب القدر ضربة من ضرباته التى تأتى على غير انتظار فيموت خليفة فى بغداد ويستحكم الشقاق بين قواده ووزرائه ويغتنم الثائرون الفرصة قبل تمام الأهبة، وتتوارد الكتب إلى المهدى بالحض على الهجوم فلا يملك القعود والاكتفاء بالنظر إلى هذه الأحداث من بعيد، ولا يبلغ من ثقته بجدوى الهجوم أن يجمع له قوته ويترك المغرب خلوا من الجند مطمعة للمغيرين عليه والمنتقضين ممن بايعوه على دخَل فى أول عهده، فينفذ إلى المشرق حملة اضطرار لا حملة اختيار، كالحملة التى عقد لواءها للزعيم البربرى حباسة ثم حمله تبعة الإخفاق فيها والهرب منها بعد أن وصل إلى الإسكندرية.

* * *

أما الخطة التى يبدو أنه كان يؤثرها ويختارها فهى إرجاء الحملة على مصر إلى أن يفرغ من شأن المغرب ويقضى على فتنه ومشاغباته، ويبتنى فيه المدينة التى أزمع أن يتخذها حصنًا له يحتمى به من المغيرين والمنتقضين، وقد شغلته فتن المغرب زمنًا، وأحرجته أيما إحراج بعد مؤامرة عبد الله الشيعى وأخيه، فقمع الفتنة قمعًا عنيفًا لا رحمة فيه، ولم يسكن إلى مقره بالمغرب إلا بعد الفراغ من بناء المهدية حوالى سنة خمس بعد الثلثمائة، فقال يومئذ: «لقد آمنت الآن على الفاطميات»..

ولم تفارقه طبيعة الحيطة والدهاء فى بنائه للمهدية، فانتقى لها موقعًا يحيط به البحر من جهات ثلاث، وأقام عليها سورًا من الغرب له بابان من الحديد زنة الواحد منها ألف

قنطار، وبنى فيها الصهاريج وأجرى فيها القنوات وجعل للمؤن أقبية تسع ميزة الحامية عدة شهور، وانتحى جانبًا ثم بنى على مقربة من المهدية مدينة أخرى سماها باسم زويلة إحدى قبائل البربر التى تواليه، وخصص زويلة لدكاكين التجار ومخازنهم تخفيفًا عن المهدية، وعزلاً بين السكان ومرافقهم، وأفضى إلى خاصته بأنه إنما فعل ذلك ليأمن غائلتهم. قال: «إن أموالهم عندى وأهاليهم هناك. فإن أرادونى بكيد وهم بزويلة كانت أموالهم عندى فلا يمكنهم ذلك، وإن أرادونى بكيد وهم بالمهدية خافوا على حرمهم هناك، وبنيت بينى وبينهم سورًا وأبوابًا فأنا آمن منهم ليلاً ونهارًا، لأنى أفرق بينهم وبين أموالهم ليلاً وبين حرمهم نهارًا».

بعد هذا استعد للحملة الكبرى على مصر، وعقد لواءها لولى عهده القائم فدخل الإسكندرية سنة (٣٠٧ للهجرة) وتقدم إلى الجيزة واحتل الفيوم ثم دهم الوباء جيشه وفتك بالألوف من جنده وحيل بينه وبين المدد من المغرب بعد انهزام أسطوله، لأنه كان أضعف من أسطول العباسيين.

ثم كانت الحملة الثالثة (سنة ٣٢١) وهو فى وهن الشيخوخة، وقيل إنه مات قبل أن يحكم تدبيرها، وبلغ من هيبته بين أهل المغرب أن خليفته القائم كتم خبر وفاته سنة كاملة، مخافة الانتقاض ممن دانوا للحكم الجديد مهابة للمهدى ورهبة من نقمته.

* * *

مات المهدى فى سنة (٣٢٢ للهجرة) وولد فى تاريخ مختلف عليه بين (سنة ٢٥٥ وسنة ٢٦٠ للهجرة) وبويع له بالخلافة وهو فى نحو الأربعين، فكانت مدة حكمه أربعًا وعشرين سنة، ترك الدولة بعدها وقد استقر بنيانها ورسخت أركانها ودانت لها الدول التى كانت تنازعه فى المغرب وصقلية من الأغالبة والأدارسة، ومن يؤازرهم من الأمويين بالأندلس والعباسيين ببغداد، ولم يعرف عنه طوال أيامه بالمغرب حاكمًا أو غير حاكم أنه فرغ لمناعم نفسه، أو غفل يومًا عن سياسة ملكه، وكانت له زوجة واحدة، وانقضت حياته وفى سيرته رد بلسان الحال لا بلسان المقال على الذين رموه بالانتماء إلى أعداء الدين، بل أعداء الأديان، وأنه تواطأ سرًّا مع رسل الفساد والغواية لاستباحة المحرمات والإغراء بالفجور، ولو لم يكن كذلك لما أبقى بعده ملكا مؤسسا يغالب عوادى الدهر من أول القرن الرابع إلى نهاية القرن السادس، أو يغالبها بآثاره الباقية إلى اليوم.

المعز لدين الله

واحتاجت الدولة إلى التوطيد بعد التأسيس، فقام بالقسط الأوفى من هذه المهمة ابن حفيده الملقب بالمعز لدين الله، وهو الخليفة الذى فتحت مصر وبنيت القاهرة فى عهده، ونقل مقر الملك إليها بعد انقضاء أربعين سنة على وفاة جده الكبير، وقيل إنها كانت نبوءة ممن يحسبون الأوقات فى مراحل التاريخ بالأربعينات.

تولى الملك بعد المهدى ابنه «القائم بأمر الله» ثم المنصور بأمر الله، وكلاهما جدير بأمانة ميراثه، وإن لم يبلغ من العظمة مبلغ المؤسس من قبله أو مبلغ الموطد من بعده. فعزز القائم الأسطول، واحتل الشواطئ الإيطالية حتى ثغر جنوة حماية لبلده من غارة القراصنة، ومات قبل التمكن من صد الخوارج الذين أطمعهم فيه موت أبيه، ولولا اعتصامه بالمهدية لدالت الدولة كلها فى عشرة أعوام، وارتقى ابنه المنصور إلى العرش فاجتاح الخوارج أمامه وأسر زعيمهم القوى ابن كندا وشتت جموعه، ثم تردد بين صد الأمويين الذين أغاروا على مراكش فى هذه الأثناء وبين صد الإفرنج الذين خيف منهم على شواطئه، فوزع قواه بين هؤلاء وهؤلاء ليقف زحفهم ولا يخلى الطريق أمام أحدهم، ومات مجهدًا فى سنة (٣٤١ للهجرة) فارتقى العرش ابنه «معد أبو تميم» المعز لدين الله الذى كان بحق صاحب دور التوطيد بعد انتهاء دور التأسيس.

* * *

قلنا فى كتاب «عبقرية خالد» إن ولاية أبى عبيدة على الشام كانت لازمة بعد ولاية خالد. لأن الدول تحتاج بعد دور الفتح إلى غصن الزيتون مع السيف..

وقد كان هذا شأن المعز فى المغرب بعد جده.. فإنه كان يحسن المجاملة إلى جانب البأس والصرامة، وكانت نشأته نشأة علم وفروسية، أو نشأة غلبة بالبرهان وغلبة بالسيف والصولجان.

كان المعز يحضر دروسه على أساتذته والحرب قائمة والمهدية محصورة، فكان يتلقى دروس الفروسية علما وعملاً ولما يفرغ من مراجعة الطروس والأسفار، وتعلم لغات الأمم التى تتصل بالخلافة الفاطمية جميعًا، فكان يحسن البربرية والرومية والإيطالية والنوبية، ويتوسع فى علوم العربية، وكان له شعر ونثر يميل فيهما إلى المحسنات لانتشارها على الألسنة والأقلام فى تلك الأيام.

ويروى عن أنفته من الجهل أنه سمع من بعض خدمه كلمة صقلية لا يعرفها واعتقد أنها كلمة شتم ومهانة فحفظها وأنف أن يسأل عن معناها ولم يبرح حتى أتقن علم تلك اللهجة، فإذا بالكلمة من أرذل شتائمها، وقد أنف من جهلها فأصبح يأنف من أن يواجهه أحد بمثلها..

وبويع له بالخلافة وهو فى الرابعة والعشرين، فهمه أول الأمر أن يستوثق من أمنع المعاقل التى يعتصم بها الخارجون على الدولة، فصعد إلى جبل أوراس وفيه من القبائل من لم يكن قد دخل فى طاعة آبائه فبايعوه، وأسرع إليه المخالفون يتقربون إليه لما أنسوه من مودته وكرمه.

وأظهر ما ظهر من خصال المعز التى يتصف بها بناة الدول أنه كان حريصًا على الانتفاع بالتجارب والعبر، وأنه كان يحسن اصطناع الرجال، وأنه كان جيد الفراسة فى أحوال الأمم واغتنام الفرصة من بينها لما يترقبه ويعقد العزيمة عليه..

فلم ينس هزيمة الأسطول فى الحملة على مصر، ولم يزل حتى أمن على شواطئه واستطاع بقوته البحرية أن يرد أساطيل الروم عن بلاده وعن جزر البحر الخاضعة لحكمه.. ثم جدد حفر الآبار فى الطريق إلى مصر ليأمن قطع الزاد والماء عن جيشه.

ومن اصطناعه للرجال أنه كان يستخلص الخدام والأعوان ولا يغار من تعظيمهم بين يديه بل يأمر الشعراء أن ينظموا القصائد فى مدحهم ويأذن لهم أن يخاطبوهم بها فى حضرته، وكذلك أمر شعراءه أن يمدحوا قائده جوهر الصقلى وأمر العظماء والكبراء أن يترجلوا عند توديعه، ولما تم لجوهر فتح مصر وأرسل وكيله الكتامى جعفر بن فلاح لفتح الشام تخطى هذا الوكيل جوهرًا عند تبليغ بشارة الفتح إلى المعز فلم يبدأ بإبلاغها إلى رئيسه «المباشر» ليبلغها من جانبه إلى الخليفة، فغضب المعز على جعفر بن فلاح ورد إليه

كتبه ليعيدها من طريق جوهر إليه.

ومن اصطناعه للرجال أنه كان يعفو عن الشجعان من أعدائه ويوقع فى نفوسهم الأمن والطمأنينة بالتجربة بعد التجربة حتى يمحضوه الطاعة خالصة بغير ريبة، ومن المشهور عنه أنه كان إذا لقى أحدًا من مخالفيه تركه ينصرف وهو يحسبه من حزبه ورأيه، ولعل هذا كان سبب الإشاعة التى تواترت بين الرهبان والقسوس بتنصره وبقائه على النصرانية، فإن الخبر الذى جاء فى كتاب «الخريدة النفيسة فى تاريخ الكنيسة» لأحد الرهبان يقول إنه اعتزل الملك وترهب ومات فدفن فى مقبرة أبى سفيان، ويقال فى سر ذلك إنه تحدى البطرق إيرام أن يزحزح الجبل فجاءه بمن زحزحه على ملأ من الأمراء والكبراء وقادة الجند ورؤساء الدواوين.

والثابت من الأخبار يغنى عن هذه الإشاعات، فإن الخليفة المعز أمر قائده جوهر ألا يتعرض لمخالف فى الدين ولا فى المذهب بما يعطل شعائر دينه أو مذهبه، وأطاع جوهر مولاه، فبنى الدير الذى عرف بدير الخندق بديلاً من الدير الذى أصابه الهدم عند تمهيد الأرض لبناء القاهرة، وجاء المعز فجدد كل ما تهدم من الصوامع والبيع وجدد كنيسة «مركوريوس» التى تسمى بكنيسة أبى سيفين (لأن القديس كان يرسم على صهوة جواد وفى يديه سيفان).. وقيل إنه أمر بإقامة البناء على المجذوب الذى أثار الدهماء استنكارًا لبنائها وآلى ليبقين فى حفرة الأساس حتى يقام عليه، فلم ينقذه من مصيره إلا شفاعة البطرق له عند الخليفة..

فهذا وما جبل عليه المعز من المجاملة وما تعوده من الترحيب فى مجلسه بالمتناظرين فى الأديان والمذاهب هو على التحقيق أصل تلك الإشاعة عن مدفنه فى مقبرة الكنيسة، ولعلها إشاعة نبتت بعد عصر المعز بعدة سنين، يوم كانت هذه الإشاعة وما إليها موئل العزاء فى أيام الخليفة الحاكم المخبول، لمن كان يضطهدهم من المخالفين، وبينهم مسيحيون ومسلمون من الشيعة والسنيين.

* * *

ومن تفرسه فى استطلاع أحوال الأمم واغتنام الفرص أنه عول من اللحظة الأولى على فتح مصر ونشر فيها العيون والدعاة، وجاءه من مصر وزراء يستعجلونه ويستحثونه،

وتلاحقت الأنباء بسوء الحال واشتداد الغلاء وفتك الوباء، فلم يعجله ذلك كله كما أعجله ما سمعه عن تدهور الأخلاق بين ولاة الأمر، ومنه فى رواية المقريزى أن صبية عرضت فى مصر للبيع وطلب فيها البائع ألف دينار «فحضرت إليه فى بعض الأيام امرأة شابة على حمار لتطلب الصبية فساومته فيها وابتاعتها منه بستمائة دينار فإذا هى ابنة الأخشيد محمد بن طغج، وقد بلغها خبر هذه الصبية، فلما رأتها شغفتها حبًّا فاشترتها لتستمتع بها».

قال المقريزى: «فعاد الوكيل إلى المغرب وحدث المعز بذلك فأحضر الشيوخ وأمر الوكيل فقص عليهم خبر ابنة الإخشيد مع الصبية إلى آخره فقال المعز: يا إخواننا! انهضوا لمصر فلن يحول بينكم وبينها شىء، فإن القوم قد بلغ بهم الترف إلى أن صارت امرأة من بنات الملوك فيهم تخرج بنفسها، وتشترى جارية لتتمتع بها، وما هذا إلا من ضعف نفوس رجالهم وذهاب غيرتهم، فانهضوا لمسيرنا إليهم..».

وقد كان الفاطميون يحبون المواسم والمواكب ويبتدعونها ويشجعون الرعية عليها، ولكن المعز – على خلاف المعهود من سياسة أسرته – حظر الاحتفال بالنوروز بعد وصوله إلى مصر، منعًا للتبذل الذى شاع فيه على آخر أيام الأخشيديين، وتطهيرًا للأخلاق مما أصابها فى تلك الأيام، وأدرك منه المعز أنه نذير بزوال ملك بنى الأخشيد.

وقدم جوهر إلى مصر فى سنة (٣٥٨ للهجرة) فاشترط عليه وجوه الأمة ورؤساؤها قبل التسليم أن يؤمنهم على عقائدهم ومألوفاتهم، فكتب لهم عهد أمانه الذى قال فيه: «ذكرتم وجوها التمستم ذكرها فى كتاب أمانكم، فذكرتها إجابة لكم وتطمينًا لأنفسكم، فلم يكن فى ذكرها معنى ولا فى نشرها فائدة، إذ كان الإسلام سنة واحدة وشريعة متبعة، وهى إقامتكم على مذهبكم، وأن تتركوا على ما كنتم عليه من أداء المفروض فى العلم والاجتماع عليه فى جوامعكم ومساجدكم، وثباتكم على ما كان عليه سلف الأمة من الصحابة رضى الله عنهم والتابعين بعدهم.. ولكم علىّ أمان الله التام العام الدائم المتصل الشامل الكامل المتجدد المتأكد على مرّ الأيام وكرور الأعوام...»

ووضع جوهر أساس القاهرة، ولم يشأ المؤرخون أن ينسوا شهرة الفاطميين برصد النجوم – وهى شهرة صحيحة – فقالوا إنها سميت بالقاهرة لأن المهندسين أقاموا على أسسها حبالاً، وعلقوا فى الحبال أجراسًا ليسمعها العمال عند حلول الرصد المطلوب،

وإن غرابًا وقع على الحبال والمريخ فى الفلك فاهتزت الحبال وأخذ العمال فى وضع الحجارة فسميت المدينة باسم القاهرة الذى يطلقه المنجمون على المريخ، لأنه كان فى معتقد الأولين إله الحروب..

* * *

هذه القصة «أولاً» تروى عن بناء الإسكندرية.

وهى «ثانيا» لا تعقل، لأن النجوم ترصد ليلاً والغربان لا تطير بالليل، ولو طارت ليلاً أو نهارًا لما كانت وقعة غراب على حبل كافية لدق الأجراس تدق على جميع الأسوار، ولو كانت الأجراس تدق بهذه السهولة لدقت قبل وقوع الغراب على الحبل لأسباب كثيرة تحرك الحبال كما تحركها هزة الغراب، ولو كان تحقيق الرصد مبنيًّا على العلم لا على الرؤية لأمكن أن يبدأ التأسيس فى ساعة معلومة بغير حاجة إلى الأجراس.

ثم من قال إنه غراب وهو مجهول؟ وكيف عرفوه. والمظنون أن المهندسين هم الذين حركوا الحبال؟ ولم لا يكون طيرا آخر أو جملة من الطير؟..

وقد رويت القصة وتناقلها المؤرخون وتقبلها الكثيرون، وفى التنبيه إلى ما فيها من الإحالة عبرة لمن يصدق السمعة التى تخلقها الأقاويل من هذا القبيل..

واتبع جوهر سنة دولته فى تخطيط المدن وتشييد العمائر، فإنهم تعودوا أن يبدءوا بتجديد المعالم والشارات ليستشعر الناس ألفة العهد الجديد بالنظر والسمع شيئًا فشيئًا قبل مطالبتهم بتغيير ما توارثوه وثبتوا عليه، فشرع جوهر فى بناء مسجد العاصمة الجديدة (٣٥٩ للهجرة) وسماه الجامع الأزهر، على اسم الزهراء فى أرجح الأقوال، وكأنه أراد أن يستغنى بالعاصمة الجديدةومسجدها عن القطائع عاصمة الطولونيين ومسجدها المشهور بمسجد ابن طولون، وعن الفسطاط ومسجدها المشهور بالمسجد العتيق، وكلتاهما - أى القطائع والفسطاط - كانت عاصمة للقطر فى أوانها، واستحدث الأمراء بعد خراب القطائع عاصمة خارج الفسطاط سموها العسكر،ثم أنشأ الفاطميون القاهرة معقلاً ومقامًا كدأبهم فى تجديد المعالم والشارات على ما ألمحنا إليه.

وبعد فراغ جوهر من بناء القصور التى أعدت لإقامة الخلفاء أبلغ المعز فقدم إلى

الإسكندرية (شعبان ٣٦٢ للهجرة) وجلس لاستقبال رؤساء المدينة والوافدين إليها للتسليم عليه. ثم خطبهم قائلاً: «إنه لم يقصد إلى مصر طمعًا فى زيادة ملك أو مال، وإنما قصد إليها لتأمين الأنفس وحماية طريق الحج ودرء الغارة عن ديار الإسلام». وهو كلام يقول مثله كل فاتح ولكنه كان فى برنامج المعز خطة تمليها الضرورة عليه، لأن تأمين الطريق إلى الحجاز كان ضمانًا لاستقرار الدولة الفاطمية ودفع الشبهات عنها، إذ كان القرامطة يعملون باسمها، وكان أعداء الدعوة الفاطمية يشيعون عن القوم أنهم يقطعون طريق الحج عملاً بمذهب الإسماعيليين. ويزعمون أن الإسماعيليين يسقطون الحج من الفرائض، فكان تأمين طريق الحجاز من قبل مصر والشام خطة تقضى بها مصلحة الحاكم والمحكوم. ولم يلبث المعز فى القاهرة سنة واحدة حتى تفاقم خطب النزاع بينه وبين القرامطة، وأعلن البراءة منهم وأعلنوا الخروج عليه، وزحفت جموعهم إلى مصر ومعها قبائل البادية التى تطلب الغنيمة وتخشى من عواقب تأمين الطريق، فاستعد لهم المعز بعدة الحيلة، حقنًا للدماء. وأرسل إلى زعيم القبائل البدوية حسان بن الجراح الطائى من يطمعه المال إذا تراجع وتنحى عن أصحابه، ووعدوه بمائة ألف دينار. فقبل الصفقة، وخرج المعز للقتال على اتفاق بينه وبين ابن الجراح أن ينهزم هذا بجموعه عند التقاء الصفوف، وقد فعل وحمل معه أكياس الدنانير.. ولكنها لم تحو من الدنانير الصحاح غير مئات تبدو على وجه الأكياس ومن تحتها قطع النحاس المذهبة يخفيها الزعيم المخدوع جميعًا عن شركائه، ودارت الدائرة على القرامطة فى ذلك اليوم فقنعوا من الغنيمة بالإياب، ودبت المخاوف والشكوك بينهم وبين أصحابهم فلم يرجعوا بعدها إلى غارتهم على مصر.

ولم ينته عهد التوطيد بانتهاء عهد المعز (فى سنة ٣٦٥ للهجرة) فإن ابنه العزيز الذى تولى الملك بعده كان من كفاءة الملوك، وكانت طاعته غالبة على المغرب ومصر وجزيرة العرب لا تخرج عليه خارجة فيها إلا عجل بقمعها وأعاد الأمور فى أرجاء الدولة إلى نصابها، ولكنه مات(سنة٣٨٦هـ)وقد بدأت فى أيامه دسائس القصور وسياسة الحريم، وتناثرت هنا وهناك بذور الانحلال التى اختفت إلى حين فى إبان نضرة الدولة وزهوها ثم برزت وتفرعت مع إدبارك الأمور وتعاقب الضعفاء من الأمراء.

الحاكم بأمر الله

قام بعد العزيز على سرير مصر أسطورة فى شخص إنسان، لو لم يكن تاريخه خبراً يقيناً، لشك فيه المؤرخون، أو جزموا بإنكاره، إذ كان مجموعة من النقائض والغرائب يكذب بعضها بعضاً، ولا يتصور العقل لأول وهلة أنها تصدر من إنسان واحد.

ذلك هو الحاكم بأمر الله.

كان يعمر ويخرب، وكان يلين ويقسو، وكان ينهى عن المراسم ثم يفرض منها ما يشبه العبادة، وكان يجيز شعائر أهل السنة وأهل الذمة، ثم يمنعها ويبطش بمن يعلنها.. وكان يحرم المباح ويبيح الكفر البواح، وكان يبدل الليل بالنهار والنهار بالليل، فمن فتح دكاناً بالنهار جلده ومن أغلق دكاناً بالليل رماه بالعصيان، وكان يعتق العبيد والإماء ويفرق عليهم الهبات والأرزاق ثم يستعبد الأحرار ويدينهم بما يأنف منه الأرقاء، وكان يخرج إلى غيران الجبل فى الظلام ويختبئ فى حجرات قصره منذ مشرق الشمس إلى المغيب وكان يدعى علم الغيب ويعاقب من يحرس ماله ومتاعه كأنه يشك فيه، ثم يحاسب على الصغائر التى يغفرها المتنطسون..

قال ابن خلدون: «إن حاله كان مضطربًا فى الجور والعدل والإخافة والأمن والنسك والبدعة». وقال ابن خلكان: «إنه كان جوادًا سمحًا، خبيثًا ماكرًا، ردىء الاعتقاد، سفاكًا للدماء، قتل عددًا من كبراء دولته صبرًا، وكان عجيب السيرة يخترع كل وقت أمورًا وأحكامًا يحمل الرعية عليها..»

ولم يذكر عن ملك فى أحوال العقيدة ما ذكر عن هذا الحاكم بأمر الله، وبأمره، وبأمر المأمورين والأمراء.

فمن مؤرخى القبط من يقول إنه مات على النصرانية، ومنهم من يقول إنه كان يعبد المريخ ويتوهم أنه يراه ويتحدث إليه، ومن مؤرخى السنة من يقول إنه ادعى الربوبية، ومن أتباعه اليوم من ينفى الموت عنه ويزعم أنه صعد إلى السماء ليعود إلى الأرض فى

آخر الزمان، وأطبقت النقائض على تاريخ حياته بتاريخ وفاته، فلم يعلم أحد متى مات وكيف مات.

وفى رأينا بعد هذا أن سيرة الحاكم هى أعجب السير وأوضح السير فى وقت واحد..

هى أعجبها فى موازين النصوص والأوراق، وهى أقلها عجباً فى ميزان علم النفس الذى لم ينفصل عن التاريخ قط فى الكلام عن دولة كما انفصل عنه فى الكلام على ملوك هذه الدولة.

واضح من تطبيق علم النفس على أعراض هذا الرجل أنها حالة من حالات الهوس بالأسرار أو الحالات التى تعرف بهوس الغموض Mystic Hallucinesis.

أصحاب هذه الحالة مستغمضون مولعون بالأسرار، يفرطون فى التفاؤل والتشاؤم لإيمانهم بالرموز، واعتقادهم أن الغيب يتحدث إليهم عن مكنوناته بتلميحات من الحوادث والمعانى المزدوجة التى تحمل فى أطوائها ما ينم عليه ظاهرها للعارفين، وإذا غلا الظن بأصحاب هذه الحالة كانت من الحالات التى تختلط بمرض الاضطهاد، فيقع فى روع المريض أن الناس يضمرون له الشر، ويتعقبهم بالتحسس والاستطلاع وينتقم منهم للوهم العارض والشبهة الكاذبة، لأنه يصدق كل خبر عنهم غير الخبر الصراح.

ويسكن المتهوسون بالأسرار إلى مناظر الظلام، ويستهويهم الليل بخفاياه، وتروقهم الوحدة فى الخلوات.

وليس المصاب بهذه الحالة مجنوناً ذاهل الحس عما حوله فى جميع الأوقات، بل هى نوبات تعتريه ولا تمنعه أن يبدع إبداع العباقرة والموهوبين فى بعض الفنون.

أما علة هذا المريض فأنصار فرويد يرجعون بها كعادتهم إلى صدمات الطفولة وأزماتها التى ترتبط بالجنس على الخصوص، فتكمن فى الوعى الباطن وتتمكن منه على غير علم من ضحيتها، حتى تنفجر دفعة واحدة أو رويداً رويداً فى مقتبل الشباب.

وغير «الفروديين» يعللونها باضطراب الحواس ولا سيما حاسة السمع وحاسة البصر، فيتوهم المريض أنه يرى ويسمع ما ليس يراه الأصحاء ولا يسمعونه،ويحدث أحياناً أن ينظر إلى الشىء الماثل فلا يراه ويصغى إلى الصوت البين فلا يسمعه، وقد يتفقون مع

جماعة فرويد فى الرجوع بالعلة إلى صدمات الطفولة وأزماتها دون أن يربطوها بالمسائل الجنسية.

هذه الأعراض كلها ظاهرة فيما روى عن الحاكم من شتى المصادر، ولم يكن الحاكم بمعزل عن البيئة التى تندس فيها الآفات إلى نفس الطفل الناشئ، فقد نشأ الحاكم كما أسلفنا فى عهد دسائس القصور وسياسة الحريم، وتركه أبوه وهو فى الحادية عشرة من عمره، وأقام على وصايته ثلاثة متنافسين هم: المملوك برجوان والقاضى محمد بن النعمان والحسن بن عمار زعيم قبائل البربر من كتامة، وأول هؤلاء برجوان كان غارقاً فى دسائس القصور وسياسة الحريم.

وقد أحاطت هذه الدسائس بالحاكم وهو فى سن الخطر، لأنه لم يكن من الطفولة بحيث يجهل ما حوله، ولم يكن من الفتوة بحيث يدرك ما يحاط به ويملك الوسائل إلى استطلاعه كان فى الحادية عشرة وكانت كل خفية من خفايا الدسائس تغريه بالتطلع وتوسوس له بالريبة والتساؤل. فإذا كان مع هذا قد نشأ فى بيئة التنجيم،وكبر وهو يصغى إلى أحاديث الباطن والظاهر وأسرار الغيوب التى تنكشف للواصلين من الأئمة، فلا عجب فى ابتلاته بتلك الآفة، آفة الهوس بالأسرار، أو الولع بوساوس الغموض، ثم يجهز على البقية الباقية من عقله أولئك الوزراء والعشراء الذين يتلمسون مواطن الضعف فى نفوس الأمراء الناشئين فيمعنون فى استغلالها ويبالغون فى تحسينها وتزيينها، كما فعل الدرزى والأخرم من حاشية الحاكم المقربين، إذ قيل إنهم وسوسوا له بمذهب الحلول وخاطبوه مخاطبة الأرباب، وأطبقت آفة الاطلاع المضلل على آفة الاستطلاع المكبوت..

ولم يكن الحاكم من المسرفين فى الشهوات فتختل أعصابه من قبل الإسراف، ولم يكن يعاقر الخمر أو يستطيبها، بل كان يحرمها وينهى عنها ولم يشرب النبيذ إلا بإلحاح طبيبه الذى خطر له أن يعالجه بإدخال السرور إلى نفسه فى مجالس الغناء مع يسير من الشراب، وإنما «عرض له كما قال الطبيب يحيى الأنطاكى فى تاريخه تشنج من سوء مزاج يابس فى دماغه وهو مزاج المرض الذى يحدث المالنحوليات، واحتاج فى مداواته منه إلى جلوسه فى دهن البنفسج وترطيبه به، وإن كثرة سهره أيضًا وشغفه بمواصلة الركوب والهيمان الدائم مما يقتضيه هذا السوء المتقدم ذكره، وإن أبا يعقوب إسحاق بن إبراهيم بن أنسطاس لما

خدمه استماله إلى أن تسامح فى شرب النبيذ وسماع الأغانى بعد هجره لها ومنع الكافة منها، فانصلحت أخلاقه وترطب مزاج دماغه واستقام أمر جسمه، ولما مات أبو يعقوب وعاد إلى الامتناع عن شرب النبيذ ومن سماع الغناء رجع إلى ما كان عليه».

تلك هى خلائق الحاكم كما يصورها علم النفس، ولا يصور لنا فيها شيئاً من تلك الأعاجيب التى يستغربها مؤرخو النصوص والأوراق. فإن طفلاً يصاب بالتشنج وتحيط به فى سن المراهقة دسائس القصور التى تحيط بالملوك الصغار، وينشأ وهو يسمع الأحاديث عن التنجيم وأسرار البواطن والغيوب، ثم يبتلى من حوله بالمتزلفين والمنقبين عن مواطن الضعف فى نفسه الحائرة - غير بدع أن يصاب بهوس الأسرار وأن تصدر منه تلك النقائض التى ينساق فيها على الرغم منه، أو التى ينساق فيها مختاراً لأنه يتوهم أنه يروض نفسه بالتقشف والتهجد، وحمل الناس عليها والتقرب إلى الله بعقاب من ينحرف عنها، فتنكشف له الحجب التى لا تزال مسدلة دونه، ويتهم نفسه كلما خفيت عليه مساتيرها بنقص فى الرياضة، وقصور فى العبادة، فلا يزال دهره بين خشوع العابد ومحاولة اليائس وقلق الحائر وإيمان المستريح إلى الظنون، ودعوى المصدق لما يلقى عليه مما يستريح إليه

وسواء صح أن نكبة الحاكم كانت إحدى جرائر «الحريم» ودسائس القصور، أو كانت نكبته جريرة المرض وحده فقد صدقت فراسة المعز فى عاقبة التكثر من الزوجات والجوارى، وأخذت سياسة القصور تتشعب وتستشرى حتى تناولت كل شىء فى الدولة والمجتمع، وكانت جرائرها آخر الأمر شرًّا قائماً بذاته، وشرًّا محسوباً عليه سائر الشرور، لأنه كان حائلاً دون إتقائها ومنعها كما كان حائلاً دون معالجتها بعد وقوعها.

فمن جراء دسائس القصور تعددت قوى الجيش وشجرت بينها نوازع الشقاق تبعاً لاختلاف الأحزاب فى كل حريم، فكان للدولة قوة من الترك وقوة من السودان، إلى جانب القوة التى كانت لها من البربر والعرب، وأصبح حراس الأمن أول المزعجين للآمنين، ولأنفسهم وللقادة والحكام.

ولم يمض غير جيل واحد على قيام الدولة فى مصر حتى ابتليت بسياسة «البيروقراطية» أو تحكم الدواوين فوق ما ابتليت به من سياسة الحريم.

وسبب هذه الآفة ولاية بعض الخلفاء فى سن الطفولة، وولاية خلفاء آخرين كالأطفال وإن بلغوا مبلغ الرجال. فقد ركنوا إلى ترف القصور وقنعوا من الوزراء بجلب المال إليهم كلما طلبوه، فقبض الجباة ورؤساء الدواوين والوزراء على أزمة الثروة وعلى أزمة السياسة، وطمعوا لأنفسهم ولسادتهم فاستباحوا المصادرة وجمع الأتاوات من الرشوة والإرهاب، عدا ما يجمعون من الضرائب فى غير موعد.

والمصائب لا تأتى فرادى كما يقال. فإن المجاعة من الداخل وهجوم الصليبيين وغير الصليبيين من الخارج قد أصابا الدولة بعجز فوق عجز، حتى تعذر عليها التماسك والدفاع، فحق عليها القول.

وقد سمي عصر الخليفة «المستنصر» بالعصر الذهبى فى الدولة الفاطمية مع ما كان يتخلله من القحط والمجاعة والوباء، وماسمى عصره بهذا الاسم لأنه صنع فيه شيئاً خلال ستين سنة قضاها على العرش منذ جلس عليه وهو فى السابعة (سنة ٤٢٧ هجرية) إلى أن مات وهو يدلف إلى السبعين؛ ولكنه كان عصراً كموسم الحصاد الذى تبرز فيه الثمرات والأشواك، وتنضج فيه السنابل وما يحملها من الهشيم الذى ستذروه الرياح عما قريب أو تطعمه النار ذات الوقود.

فلما مات تعاقب بعده على الخلافة من لا يحسب من البناة، ولا من الهادمين، وإنما هو مهدوم تتداعى تحته قواعد الملك، وقد يفارقها وهو قتيل.

وكان بنو أيوب قد أخذوا بزمام السلطان فى مصر قبيل انتهاء الدولة الفاطمية، فلما استقر الرأى فى أيام صلاح الدين على الدعاء للخليفة العباسى بدلا من الخليفة الفاطمى الملقب بالعاضد، تجاوبت المنابر بالدعاء الجديد. ولم يعلم به الخليفة الذى تحول عنه الدعاء، لأنه كان يجود بنفسه فى مرض الوفاة، فكانت سنة سبع وستين وخمسمائة للهجرة هى خاتمة الأجلين: أجل الخليفة الذى عمر إحدى وعشرين سنة، وأجل الدولة التى عمرت بين المغرب ومصر مائتى سنة وسبعين.

وقد عزل أمراء الدولة بعد موت عميدها منفردين لينقرضوا بغير عقب، وقال المقريزى عن صلاح الدين والخليفة الأخير: «وأضعف العاضد باستنفاد ما عنده من الأموال فلم يزل أمره فى ازدياد وأمر العاضد فى نقصان.. ومنع العاضد من التصرف حتى

تبين للناس ما يريده من إزالة الدولة.. فلم يبق للعاضد سوى إقامة ذكره فى الخطبة.. هذا وصلاح الدين يوالى الطلب منه كل يوم ليضعفه، فأتى على المال والخيل والرقيق وغير ذلك حتى لم يبق عند العاضد غير فرس واحد، فطلبه منه وألجأه إلى إرساله، وأبطل ركوبه من ذلك الوقت وصار لا يخرج من القصر..»

هذه قسوة لم يحسبها التاريخ على صلاح الدين، لأنها من قسوة الزمن وجناية الأسلاف على الأخلاف، أو هو قد حسبها فى حساب الموازنة بين المناقب والمعائب، وبين حكم المروءة وحكم السياسة المنشوءة، وبين القضاء الذى يجريه صاحبه، والقضاء الذى يجرى على قاضيه فيجزيه وكأنه يعاقبه، فرجحت كفة الإقبال، وهو دائم الرجحان، ودالت دولة الزوال فشالت كفتها فى ميزان الزمان

حضارة متحضرة

إذا استثنينا الحضارات المصرية الأولى فى أيام الفراعنة جاز أن يقال إن حضارة مصر فى عهد الفاطميين لم يعرف لها نظير بعد الميلاد، ولا استثناء لعهد البطالسة، لأنه عهد غلبت فيه الصبغة الأجنبية على الصبغة الوطنية، خلافاً للحضارة فى أيام الفاطميين، فإن صبغتها المصرية كانت غالبة على كل صبغة، ومن ثم لم تتكرر فى وطن آخر على هذه الصورة، وبقيت مصر على مذهبها الدينى الذى كانت عليه قبل قيام الدولة بين ربوعها..

وتصدق كلمة الحضارة هنا على كل حضارة تقاس بمقياس الثقافة أو مقياس الصناعة أو مقياس الثروة أو مقياس الشئون الاجتماعية.

فلم توجد فى مكتبة بعد مكتبة الإسكندرية خزائن للكتب كالخزائن التى وجدت فى القصر الشرقى، وتفاوت تقديرها بين ستمائة ألف مجلد ومليونين، حسب اختلاف التقدير، على ما يظهر من بين عدد الكتب وعدد النسخ، وقد كان فيها لبعض الكتب عشرات من النسخ للإعارة أو الاطلاع..

وتنافست القصور فى اقتناء الكتب النادرة، فكان فى كل قصر مكتبة تحتوى عشرات الألوف من كتب الفقه والأدب والرياضة والطب وسائر العلوم..

وكان الخليفة يزور المكتبة العامة من حين إلى حين، فيترجل ويخلع نعليه، وتعرض عليه الكتب الواردة ليأذن بوضعها فى الرفوف.

وأنشئت دار الحكمة ودار العلم: هذه للمتعلمين وتلك للمعلمين، وفتحت فيهما مجالس المناظرة والمحاضرة، يخصص منها قسم للرجال وقسم للنساء، وتنقل المناظرة أحيانا إلى قصر الخليفة فيشترك فيها أو يشرف عليها، ويأذن لكل ذى رأى أن يدلى برأيه فيها، وإن خالف به إجماع الآراء..

وشاعت بين العامة ثقافتهم التى ترضيهم من ملاحم التاريخ المنثور أو المنظوم، فلم

يكن مجلس من مجالس السمر العامة يخلو من القصاصين أو الشعراء المنشدين، يسمعون جمهرة الناس طرفًا من التاريخ الشعبى والقصص الشعبية، عدا مجالس الوعظ والتفقيه التى تفتح للقصاد فى المعاهد أو المساجد من صلاة الفجر إلى صلاة العشاء.

وفى عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان.

وفى عهدهم أصلحت الدواوين ونظمت وسائل الرى وأعيدت مساحة الأرض وفكروا فى بناء الخزان عند أسوان.

وتقدمت الفنون والصناعات، وتنافس الفنانون والصناع فى هندسة البناء، وفى النقش على الجدران، والحفر على الحجارة الكريمة، وشوهدت رسوم على النسيج تحكى اللوحات الفنية فى دقة التصوير وجمال التلوين، وبلغ فن التصوير البارز والتصوير الغائر غاية ما يبلغه فى عصر من العصور، وصيغت التماثيل من المعادن والجواهر، فأوشكت قيمة المعدن المرتخص أن تناظر قيمة المعدن النفيس بفضل الصناعة والإتقان.

وقد ألِفَ الوصافون إذا بالغوا فى وصف العجائب أن يشبهوها بعجائب ألف ليلة وليلة، ولكن عجائب ألف ليلة وليلة كانت كالنسخة المنقولة من ذخائر القصور فى تلك الحضارة، لولا أن نسخة الحقيقة كانت هى الأعجب والأبدع من نسخة الخيال.

وكانت التجارة مددًا للصناعة لا ينقطع ولا يزال يعطيها كلما أخذ منها ويحثها على التوسع والمزيد: تأتى السفن من بحار المغرب وبحار الهند والصين بالخامات وتعود ببدائع المصنوعات، أو تأتى ببدائع المصنوعات، وتعود بما هو أبدع وأغلى، دواليك فى مواسم العام كله، لاتنى ذاهبة آيبة على مدى الصيف والشتاء.

وتعددت المواسم والمحافل الاجتماعية، وحافظت الدولة الجديدة على مواسم الأزمنة الغابرة وأضافت إليها، فبعد إلغاء النوروز عند مقدم الخليفة المعز إلى القاهرة عادوا إلى الاحتفال به وأضافوا إليه الاحتفال بالغطاس، وخميس العهد، وأعياد الربيع. وأحصى من مواسم العام غير ذلك: رأس السنة ويوم عاشوراء ومولد النبى ومولد الإمام وموالد آل البيت، وليالى الوقود، وهى ليال من رجب وشعبان يحتفل بها قبل نوافل الصيام..

وتناظرت محافل الليل ومحافل النهار، ولاسيما فى شهر رمضان وليالى الأعياد وعوّد الخلفاء الشعب أن يستضيفوه ويمدوا له الأسمطة ويخرجوا إليه يحيونه ويتلقون منه التحية، وأصبح الوافدون إلى مصر يحسبونها أمة فرغت للمواكب والمحافل والأسمار.

ولم يكن قصارى ما فى تلك المواكب أنها مظاهر لهو وفراغ تعطل فيها الأعمال وتنسى فيها تكاليف المعيشة. بل هى كانت فى حقيقتها معارض للفنون والصناعات يسير فيها أصحاب كل فن وصناعة على نظام معلوم. ويتقدم كل طائفة نقيبها وأساتذتها يترنمون بمفاخر فنونهم وصناعاتهم، ويعلنون عنها ويدلون عليها، ومن هذه المواكب ما بقى إلى اليوم فى زفة رمضان وزفة المحمل وزفة جبر البحر، ومن تلك المحافل ما بقى فى طلعة رجب ونصف شعبان وغيرها من ليالى الذكرى للأموات والزيارة للأحياء.

لاجرم كانت مصر إبان هذه الحضارة ملتقى الرواد والقصاد، ولا جرم تحفل قصور الخلفاء والكبراء بمن يقصدون رحاب ذوى السلطان فى كل زمان ومكان، و أولهم السياح والشعراء.

فما من رحالة أنجبه العالم الإسلامى لم يتخذ من مصر مقامًا أو مزارًا فى تلك الأيام، وما من قصور الملك فى المشرق والمغرب عَمَر فى ذلك العصر بمثل ما عمَرت به القصور الفاطمية من الشعراء والأدباء.

وأوصى الخلفاء والأمراء شعراءهم بالإيجاز لازدحام القالة وكثرة المقال، وزادوهم فى الجزاء لكيلا يقال إنه قصد فى العطاء لا قصد فى الثناء، فقال أحدهم ابن مفرج يخاطب الخليفة الحافظ:

أمرتنا أن نصوغ المدح مختصرا   لم لا أمرت ندى كفيك يختصر

ومن شعراء العصر من كان على خلاف مذهب الشيعة وكان يجهر بهذه المخالفة كعمارة اليمنى الذى قال:

مذاهبهم فى الجود مذهب سنة   وإن خالفونى فى إعتقاد التشيع

وهو الذى بخع نفسه على آثارهم وأوردها مورد الهلاك أملًا فى نصرتهم واستعادة مجدهم، فهو أحق الناس برثائهم، وقصيدته التى قيل فيها إنها أبلغ ما نظم فى رثاء دولة

هى أحق ما نودع به عمرانهم المهجور:

لهفى ولهف بنى الآمال قاطبة على فجيعتها فى أكرم الدول
قدمت مصر فأولتنى خلائفها من المكارم ماأربى على الأمل
مررت بالقصر والأركان خالية من الوفود وكانت قبلة القبل
فملت عنها بوجهى خوف منتقد من الأعادى ووجه الود لم يمل
أسلت من أسفى دمعى غداة خلت رحابكم وغدت مهجورة السبل
أبكى على ماتراءت من مكارمكم حال الزمان عليها وهى لم تحل
دار الضيافة كانت أنس وافدكم واليوم أوحش من رسم ومن طلل
وكسوة الناس فى الفصلين قد درست ورث منها جديد عندهم وبلى
وموسم كان فى يوم الخليج لكم يأتى تجملكم فيه على الجمل
وأول العام والعيدين كان لكم فيهن من وبل وجود ليس بالوشل
والأرض تهتز فى يوم الغدير كما يهتز مابين قصريكم من الأسل
والخيل تعرض فى وشى وفى شية مثل العرائس فى حلى وفى حلل
وماحملتم قرى الأضياف من سعة الأ طباق إلا على الأكتاف والعجل
وماخصصتم ببر أهل ملتكم حتى عممتم به الأقصى من الملل
كانت رواتبكم للذمتين وللضـ ـيف المقيم وللطارى من الرسل
ثم الطراز بتنيس الذى عظمت منه الصلات لأهل الأرض والدول
باب النجاة هم دنيا وآخرة وحبهم فهو أصل الدين والعمل
والله مازلت عن حبى لهم أبداً ماأخر الله لى فى مدة الأجل

ولم يؤخر له فى الأجل، فانقضى أجل الدولة فى سنة سبع وستين وخمسمائة، وانقضى أجل شاعرها فى سنة تسع وستين وخمسمائة.

﴿قل اللهم مالك الملك تؤتى من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء وتعز من تشاء وتذل من تشاء بيدك الخير إنك على كل شىء قدير﴾.

فهرس

رقم الإيداع	١٩٨٥ / ٤٢٧١
الترقيم الدولى	٩٧٧-٠٢-١٣٩٤-٢ ISBN

١ / ٨٣ / ١

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع.)